القاهرة

مدينة عالمية

عن السياسة والثقافة والمجال العمرانى
شرق أوسط جديد فى ظل العولمة

تحرير

دايان سينجرمان

بــول عمــار

ترجمة وتقديم

يعقوب عبد الرحمن

المركز القومى للترجمة

2056

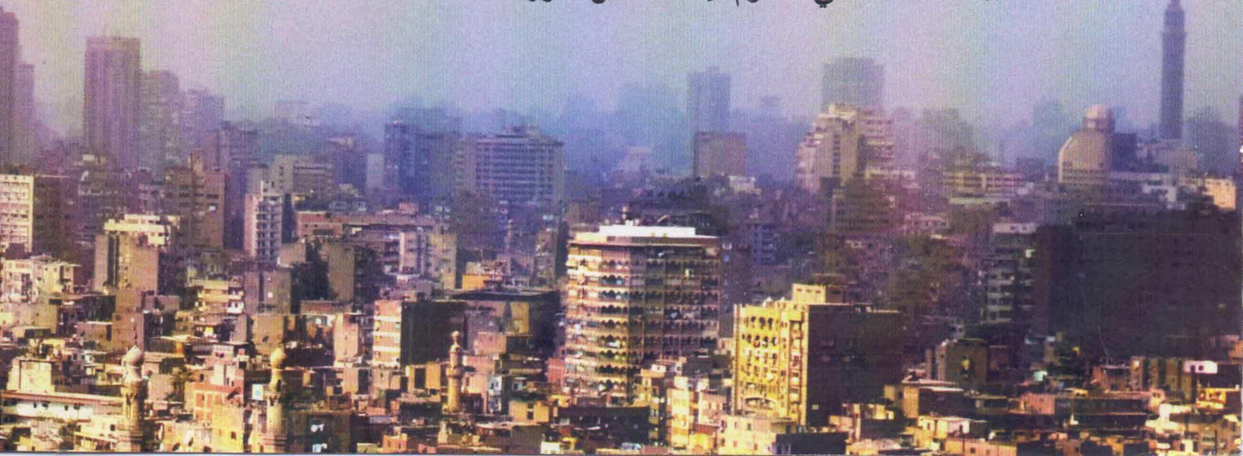


يقوم مجموعة من العلماء والباحثين المتميزين في علم الاجتماع بوضع العاصمة العجوز المسماة بالقاهرة تحت (الميكروسكوب الإليكتروني) وفحصها بدقة بالغة وتشخيص الأمراض التي تعاني منها، المزمنة منها والحديثة، ويضعون أيديهم على مواضع الداء بمهارة منقطعة النظير. كما يتطرقون إلى العديد من الموضوعات ذات الأهمية البالغة في العديد من المجالات.

ويمكنك أن تختلف مع الباحثين في بعض النقاط، ولكن المؤكد أن تتفق معهم وبلا نقاش في أغلب النقاط التي يثيرونها، وفي الحالتين لا يسعك الأمر إلا أن تنبهر بالجهد المبذول، والنقاط التي يتطرقون إليها، والتشريح الدقيق لكل ظاهرة يقومون بتحليلها.

ومن عجب أن هذا الكتاب الذي خرج إلى النور في عام 2005 قد تنبأ بالثورة التي اجتاحت أرجاء المعمورة في 25 يناير - بعد أن قام برصد الإرهاصات المؤدية إليها. وقد شرعت في ترجمة الكتاب وأنا أقلل من رؤية هؤلاء الباحثين لتأثير مظاهرات كفاية، وحركة 6 إبريل، وتظاهرات العمال من ضحايا إعادة هيكلة الاقتصاد والمطالبين بحقوقهم والحركات الأخرى المناهضة للنظام كإرهاصات لثورة عنيفة قادمة، التي لم تكن تجد إلا آذاناً صماء من المسئولين، ويتحدث عنها الكتاب وبالتفصيل وفي أكثر من جزءٍ من أجزائه، وقبل أن أنتهي من ترجمة الكتاب، كان الغليان المكتوم يتصاعد يوماً بعد يوم، ولم تدرك القيادة السياسية، كما لم يدرك أحد من أولئك المسئولين الغارقين في فسادهم وملذاتهم تلك الدلالات المنذرة، حتى انفجرت كل أحياء القاهرة الكبرى، ومختلف المدن في المحافظات وبصفة خاصة في الإسكندرية، والإسماعيلية، والسويس، والمنصورة في مصر بالثورة، حيث خرج ما يربو على خمسة عشر مليوناً من المتظاهرين طوال ثمانية عشر يوماً متصلة في مشهد ظل العالم بأسره يتابعه مشدوهاً حتى انتهت بالنهاية المحتومة. وكما تنبأ الكتاب أيضاً، كان الشباب هم الأغلبية الكاسحة التي ستقوم بإشعال فتيل الثورة.

تصميم الغلاف: عبدالله البسيوني



القاهرة.. مدينة عالمية

عن السياسة والثقافة والمجال العمرانى

شرق أوسط جديد فى ظل العولمة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2056
- القاهرة: مدينة عالمية - عن السياسة والثقافة والمجال العمراني: شرق أوسط جديد في ظل العولمة
- دايان سينجرمان، وبول عمار
- يعقوب عبد الرحمن
- اللغة : الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

CAIRO COSMOPOLITAN:
Politics, Culture & Urban Space in the New Globalized Middle East
Edited by: Diane Singerman & Paul Amar

113 Sharia Kasr El Aini, Cairo, 11511, Egypt
420 Fifth Avenue, New York, NY 10018, USA
www.aucpress.com

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

القاهرة: مدينة عالمية

عن السياسة والثقافة والمجال العمرانى
شرق أوسط جـديد فى ظل العولمة

تحـــريـــر: دايـــــان سينجرمـــان
بـــــول عمـــار
ترجمة وتقديم: يعقوب عبـد الــرحمــن

2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سينجرمان، دايان

عمار، بول

القاهرة .. مدينة عالمية: عن السياسة والثقافة والمجال العمرانى (شرق أوسط جديد فى ظل العولمة الجديدة)/ تحرير: دايان سينجرمان، وبول عمار، ترجمة وتقديم: يعقوب عبد الرحمن
ط ١ – القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥
٩٧٦ ص، ٢٤ سم
١ – القاهرة – الأحوال الاجتماعية
(أ) عمار، بول (محرر مشارك)
(ب) عبد الرحمن، يعقوب (ترجمة وتقديم)
(جـ) العنوان ٣٠٩,١٦٢١٦

رقم الإيداع ٢٢١٩٤ / ٢٠١١

الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978-977- 704 - 912- 2

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم

يقوم مجموعة من العلماء والباحثين المتميزين في علم الاجتماع وبالتضافر . مع باحثين في العديد من العلوم الأخرى المتخصصة بوضع العاصمة العجوز المسماة بالقاهرة تحت (الميكروسكوب الإلكتروني)، وفحصها بدقة بالغة وتشخيص الأمراض التي تعانيها، المزمنة منها والحديثة ويضعون أيديهم على مواضع الداء بمهارة منقطعة النظير، كما يتطرقون إلى العديد من الموضوعات ذات الأهمية البالغة وفي العديد من المجالات، وفي الحقيقة لا يسعك الأمر بعد قراءته إلا أن تنبهر بالجهد المبذول، والنقاط التي يتطرقون إليها، والتشريح الدقيق لكل ظاهرة يقومون بتحليلها.

ومن عجب أن هذا الكتاب الذي خرج إلى النور في عام ٢٠٠٥ قد تنبأ بالثورة التي اجتاحت أرجاء المعمورة في ٢٥ يناير، بعد أن قام برصد الإرهاصات المؤدية إليها بدقة ومهارة. وقد شرعت في ترجمة الكتاب وأنا أقلل من رؤية هؤلاء الباحثين لتأثير مظاهرات كفاية، وحركة ٦ أبريل، وتظاهرات العمال من ضحايا إعادة هيكلة الاقتصاد والمطالبين بحقوقهم والحركات الأخرى المناهضة للنظام كإرهاصات لثورة عنيفة قادمة، والتي لم تكن تجد إلا آذانا صماء من المسئولين، ويتحدث عنها الكتاب بالتفصيل وفي أكثر من جزء من أجزائه، وقبل أن أنتهي من ترجمة الكتاب، كان الغليان المكتوم يتصاعد يوما بعد يوم. ولم تُدرك القيادة السياسية، كما لم يدرك أحد من أولئك المسئولين الغارقين في فسادهم وملذاتهم تلك الدلالات المُنذرة، حتى انفجرت كل أحياء القاهرة الكبرى، والمدن المختلفة في المحافظات وبصفة خاصة في الإسكندرية، والإسماعيلية، والسويس، والمنصورة

في مصر بالثورة، حيث خرج ما يربو عن خمسة عشر مليونًا من المتظاهرين وطوال ثمانية عشر يومًا متصلة في مشهد ظل العالم بأسره يتابعه مشدوهًا حتى انتهت بالنهاية المحتومة.

وكما تنبأ الكتاب أيضًا، وعن حق وللمرة الثانية، بأن الشباب هم الأغلبية الكاسحة التي ستقوم بإشعال فتيل الثورة.

وسأستعرض في عجالة بعض النقاط التي جاءت في فصول هذه الموسوعة:

فلننظر أولاً إلى ما جاء في مقدمة الكتاب، والذي كتبه المحرران دايان سينجرمان وبول عمار وهما يصفان بدقة الغليان الذي كان يسود أجواء مدينة القاهرة في عام ٢٠٠٥ من جراء تظاهرات حركة كفاية، و٦ أبريل:

> **كانت شوارع العاصمة المصرية إبان الغليان الذي كان يسودها في ربيع وصيف عام ٢٠٠٥، مسرحًا لتحدي الشمولية، وارتفاع صرخات "كفاية" لمجموعة الرفاق الذين يُشكلون الليبرالية الجديدة، والتي وصلت إلى تشكيل المتناقضات التي تعج بها القاهرة المدينة العالمية الجديدة. وقد هبوا جميعًا من أجل تحديد ملامح مدينتهم الأثيرة، وإعادة تشكيل تاريخهم، وقام النساء والرجال الذين يقطنون المدينة ذات الكثافة السكانية العالية بتنظيم أنفسهم من خلال تجمعاتهم، واتحاداتهم، وجامعاتهم، ونقاباتهم المهنية، وتجمعاتهم الدينية، وجمعيات حقوق الإنسان، وأنصار حقوق المرأة، وجماعات المدافعين عن المعتقلين. ووضعت هذه الحشود أياديها على الميادين العامة وتمسكت بها وطالبت**

بوضع حد لسياسات البطش ومواكب النفاق التي ضيقت الخناق على السياسات الداخلية والإقليمية لأجيال عديدة. وعلى الرغم من أن عشرات الآلاف من المعارضين وقادة حركاتهم من القاهرة لم يكونوا يُشكلون بعد قاعدة شعبية عريضة أو ثورة اجتماعية، فإنهم جذبوا انتباه العالم بأسره لمجموعة من النشطاء والأبطال الذين يستجمعون شجاعتهم في الميادين وتقاطعات الطرق لشرق أوسط واعد يستشف ما يحدث خارج حدوده. ولا يمكن فهم أو احتواء هذه المدينة أو هذه المنطقة بسهولة من خلال التصنيفات الجامدة التي سادت في الماضي.

ثم يمضى الباحثان في فقرة أخرى إلى القول:

"وعاود رجال البوليس الاستمرار في مهاجمة المعارضين أواخر يوليو. كما تعرضت القيادات العليا لحركة كفاية للضرب المبرح بشراسة بالغة، واُحتجزوا وتم نقلهم إلى مراكز اعتقال عسكرية في الدراسة بالقاهرة. ويتساءل الصحفيون والمراقبون وعلماء الاجتماع الذين يشهدون هذا المستوى الجديد من الصراع وانفجار مقاومة المواطنين: من أين أتت هذه الإجراءات الجماعية؟ وهل تبدو هذه اللحظة التاريخية في القاهرة وكأنها تشي بالطريق الذي ستسلكه العولمة أو التحول الديمقراطي في الشرق الأوسط"؟

نعم لقد كانت هذه الممارسات الغبية من القيادة السياسية العاجزة عن استكشاف نبض الشارع هي وقود الثورة. ثم يمضيان في شرح الدور الذي قامت به منظمات حقوق الإنسان ومنظمات المجتمع المدني فيما كان يطلق عليه "ربيع الديمقراطية" آنذاك والتي مهدت الطريق لما يطلق عليه الآن "الربيع العربي".

ولننتقل إلى الفصل الأول ولنر ما يقوله إريك دينيس عن القرى السياحية وقاطنيها، ومقارنتها بالعشوائيات المنتشرة في العاصمة العجوز والتي تفتقر إلى أبسط الخدمات الأساسية والمرافق العامة للمواطنين وعبقرية تعبير المؤلف عن هذه الأوضاع وبنص كلماته "مخاطر البحث عن الأمان" والتنبؤ بجبال الفساد التي سوف تتمخض عنها في الفصل الأول من هذا الكتاب:

> **وربما كانت القاهرة هي المدينة التي تجسد نماذج الليبرالية الجديدة وبطريقة تعتبر مثالاً للتناقض والاضطراب من ناحية التقدير العالمي.**
>
> **ويمكن اعتبار التجمعات السكنية المصرية ذات البوابات الخاصة كمثال لذروة أشكال الخطر. وحتى الآن فإنها تخلق بوجودها الحقيقي العديد من أعمق الأخطار الاجتماعية، والهشاشة، والضعف العام والتي تفضل كل المتاريس المادية المتتابعة والفخامة لجغرافية الليبرالية الجديدة أن تتجاهلها. وتدرك التجمعات المغلقة في الحقيقة مستوى الهشاشة على المستوى القومي وتقوم بخلق الأخطار الاجتماعية العامة التي تدعي أنها تقوم بحمايتها.**
>
> **وإذا ما استعاد أصحاب التجمعات ذات البوابات الخاصة مشهد أحوال الليبرالية المصرية في الحقبة ما بين عامي**

١٩٩٠ إلى عام ٢٠٠٠، فليس من المستغرب أن يجدوا أنفسهم جوهر ذروة الأزمة النقدية التي لحقت بمصر في أعقاب عام ٢٠٠٠. فالاستثمارات الرأسمالية الهائلة التي استوجبتها عملية التنمية الاستثنائية المدعومة من الحكومة لهذه المساحات الصحراوية كانت بوضوح شديد واحدة من الأسباب الرئيسية لأزمة السيولة المالية وانفجار فقاعة أوهام البناء العقاري والتي تسببت في انهيار أسعار العقارات، وبالتالي انهيار الاقتصاد القومي بشكل عام.

كما يقدم لنا المؤلف تقييمًا علميًا دقيقًا في معرض تفسيره للانتشار المفاجئ وعلى نحو كثيف لظاهرة موائد الرحمن فيقول:

إنها تُجَسد الآن الاستعراض الشرعي للثروة ويتم إثباتها من خلال الاهتمام بأن تكون المائدة هي الأكبر، وأن يتم تقديمها في معظم الأنحاء. وتقوم هذه الموائد بصياغة شكل مسرحي لتقديم الفئات للعامة. وهنا تمنح الدولة والممارسات الدينية شأنهما شأن إعادة كتابة تاريخ الوطن للحقبة الملكية الاستعمارية، صك الشرعية لصواب التغيير إلى الليبرالية الجديدة، وتصوير الإصلاح الاجتماعي "للأزمنة الجميلة" ومنظماتها التي تتسم بالسخاء. ويمكن قراءة هذا المشهد من التفاوت الاجتماعي والتطوع بالصدقات أيضًا على ضوء عوامل الخطر، الخطر المؤكد للانتفاضة. فقد تم فرض أعمال

الخير كعلاقة وحيدة بين الفقراء وكوسيلتهم اليتيمة للحـراك الاجتماعي إلى أعلى، ويقف الأمن كالمتراس الأخير ضـدهم. وليس هناك من نمط آخـر يـسمح بإعـادة توزيـع ثمـار الليبرالية.

وتستهل أمنية الشاكري الفصل الثاني بالمقارنة بين أهداف الحقبة الناصرية، حيث كان الناس والأرض قيد الإصلاح كما جاء في الميثاق الوطني أو على حد قول عبد الناصر:

إن من السهل بناء المصانع، وشق الترع، وبنـاء الـسدود، ولكن بناء الرجال من أكبر الصعاب.

ويتزايد لدينا الشعور بمزيد من الحسرة على العصر الحالي عندما نرى كيف كان يتم خلق مجتمعات جديدة واعدة من الفلاحين الوافدين إلى الوادي الجديد والذين يعاد تأهيلهم لحياة جديدة:

وكان يتم تدريب المواطنين عند وصولهم أولاً في قرية عمر شاهين، وبعدها يتم نقلهم إلى قراهم الجديدة. وقام الخبـراء الاجتماعيون (بمن فيهم الأخصائيون الاجتماعيون والعاملين في مجال الصحة العامة) بتنظيم برامج دورات تدريبية مكثفة للمهجرين من أجل تسهيل تأقلمهم الذهني والعملي في بيئتهم الجديدة. وكان يتم عقد التدريبات الاجتماعية على المـستوى الفردي والعائلي والجماعي، وكان الاهتمـام ينـصب علـى تعريف وأقلمة المهجرين على مبادئ الثورة وعلى المجتمـع

الجديد وأسلوب حياتهم من خلال الوسائل العملية والفكرية، كالمحاضرات، وبرامج الإذاعة، والبرامج الثقافية، والعديد من المطبوعات.

وكانت التدريبات والتعليمات مكثفة تمامًا وواضحة وكانت تشمل مجالات التعليم الابتدائي والمهني، والعناية بالطفل، والعناية بالمنزل، وقواعد الصحة والنظافة، وطبقًا لكلمات ذكي: "فإن كل شيء كان منظمًا، ومرتبًا بعناية وفريدًا من نوعه. وكان هناك نظام يومي للمهجرين الجدد، يرتدون أزياء موحدة، ويترك كل الأطفال أمهاتهم عند عمر سنتين للالتحاق بالحضانة. وكانت المديرية تشتمل على مركز للخدمات الاجتماعية والتي تهدف إلى تقديم الخدمات التدريبية المناسبة والضرورية "لرفع مستوى قدراتهم الإنتاجية"، ويقوم الأخصائيون الاجتماعيون بالإشراف الفعلي على كل نواحي حياتهم الاجتماعية بما في ذلك الرياضة واستخدام أوقات الفراغ.

ولنتمعن في المزيد مما تقدمه أمنية الشاكري في الفصل الثاني أيضًا والذي تصف فيه ما كان يحدث في الحقبة الناصرية من إصلاح الأرض والبشر والاهتمام بالريف والطبقة العاملة والفلاحين وما جاء على لسان فلاحة ريفية تخطو خطواتها الأولى نحو الحياة في الوادي الجديد:

لقد قاموا باختيار رجل وزوجته لزيارة الأماكن الجديدة، وتم اختيارنا أنا وزوجي، وذهبنا مع عمدة قريتي أم صابر وعمر شاهين وشاهدنا الجاموس، والأبقار، والدجاج، والمنازل، لقد

انبهرنا تمامًا بالمشروع، كما رأينا البيوت الأسمنتية المشيدة بالطوب الأحمر والتي سوف نعيش فيها بـدلاً مـن البيـوت الطينية. وعدنا إلى القرية ونحن في ذهول تام ممـا رأينـاه وبدأنا نقص على الآخرين ما رأيناه في الأمـاكن الجديـدة، النظافة والبيوت المزودة بالمياه والكهرباء، والأثاث الذي لم نكن نمتلكه على الإطلاق، والأهم من ذلك كله الأفدنة الخمسة التي سوف نتملكها. صبية ١٩٨٧، ٣٤.

ويقدم كل من ليلا فيجنال وإريك دينيس في الفصل الثالث تحليلاً عميقًا للتحولات التي طرأت على المدينة العاصمة كنتيجة مباشرة للتحولات الليبرالية والتوسع الصناعي وما واكبهما من تطبيق نظام التعديلات الهيكلية وعمليات الخصخصة طبقًا لإملاءات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، فضلاً عن استعراض لنمو القدرات الإنتاجية للمدينة وتطورات هذا النمو ومقارنتها بمثيلاتها في عواصم الشرق الأوسط، والصناعات المندثرة والأخرى التي استحدثت، وتأثيرات العولمة على الأنشطة الإنتاجية.

كما يتعرض المؤلفان بالتفصيل للتحول الحاسم الذي حدث في الطوبوغرافيا الاقتصادية والاجتماعية لمدينة القاهرة وفقدان منطقة وسط المدينة لنفوذها من حيث أهميتها السكنية والصناعية لصالح التخوم الصحراوية، وتكوين أنماط سكنية ومواقع إنتاجية جديدة، فضلاً عن خلق أنماط استهلاكية جديدة.

وهذا التحليل موثق بالعديد من الجداول والإحصائيات الرسمية، والمقارنات بين الوزن الاقتصادي النسبي لمدينة القاهرة وإضافاتها للاقتصاد الوطني،

ونظيراتها من عواصم الشرق الأوسط، وتحليل لأنشطة بورصة الوراق المالية ودرجة تمركز هذه الأنشطة ما بين المدينة العاصمة وسائر مدن القطر. كما يستعرض المؤلفان مختلف الأنشطة الاقتصادية التي أصابها الاضمحلال وتلك التي بدأت في الرواج.

بينما يقدم سعيد صادق في الفصل الرابع تحليلاً دقيقًا عن التغيرات التي حدثت في مكانة القاهرة كعاصمة إقليمية بالنسبة للعالم العربي من كافة أشكال النواحي الثقافية كالنشر والصحافة والإذاعة والتليفزيون. ولكنه يقول في معرض تحليله:

ويتشكل مرتادي المسرح في العصر الحالي من السعوديين والكويتيين والسائحين من الجنسيات الخليجية الأخرى والذين يرغبون في مشاهدة أشكال المسرحيات الهزلية، والاستمتاع بالإيماءات الجنسية، ويضحكون للممثلات المثيرات للأحاسيس الرخيصة وبملابسهن شبه العارية التي يرتدونها أو لا يرتدونها على وجه أدق. *سعيد صادق*

ولكنني أعتقد أن هذا التعميم غير عادل – وإن كان يتحدث عن نماذج موجودة بالفعل – فليس كل السعوديين والكويتيين من عشاق هذه النوعية من اللهو – وكما أعرف الكثيرين منهم عن قرب – فأغلبهم يأتون إلى مصر ويبتعدون عن الدول الغربية لتشابه تقاليدنا مع تقاليدهم – ومعظمهم ينزلون في شقق مفروشة بأسرهم ويبحثون عن الترفيه المحترم وليس المبتذل، وإذا كانت هناك أمثلة للقليل من الشباب المراهق والذي يبحث عن مثل هذا النوع الرخيص من الترفيه– وهذا النموذج موجود في كل مجتمع في مشارق الأرض ومغاربها – فهناك في المقابل الآلاف من الأسر العربية التي تبحث عن المتعة البريئة في بيئة متحفظة ومماثلة لبيئتهم الدينية والاستمتاع بشهور الصيف في ليالي القاهرة.

وعن ظاهرة تمصير الحلم الأمريكي وعلى نحو خاطئ وانتشار مراكز التسوق التجارية – والتي يتم تدليلها باسم الموول – تقول منى أباظة في الفصل الخامس:

> وتتردد في دوائر الأعمال شائعات مفادها أن تـشييد مراكـز التسوق هو الوجه الآخر لعملة عمليات غسيل الأموال غيـر الشرعية. ولقد استخدمت المراكز التجاريـة والمـشروعات الضخمة للحصول على قروض مصرفية بالغـة الـضخامة، والتي بعدئذ يتم تهريبها إلى خارج البلاد، وينتج عنها سلسلة من الفضائح المالية وعمليات القبض على رجـال الأعمـال. وربما يفسر لنا هذا الأمر، كيف أنه وعلى الرغم مـن فتـرة العمر القصيرة للمراكز التجارية، فإنها آخذة فـي الانتـشار على وتيرة متسارعة. ولكن، كيف يتسنى لهذه المـشروعات البالغة الضخامة أن تستمر على قيد الحياة مع هذه المعدلات المُخيفة من الكساد؟ لا يمكن لأحد على وجه اليقين أن يجيب على هذا السؤال حتى الآن.
>
> "وقد شغلت مراكز التسوق التجارية أذهان علماء الاجتمـاع الأمريكيين منذ منتصف سـنوات الثمانينيـات مـن القـرن العشرين. ويمكن أن يزعم الكثيرون أن هذا الموضـوع قـد أصبح باليًا، حيث تعاني الكثير من مراكز التسوق الأمريكيـة تدهورًا ملحوظًا. وتوصف مراكز التسوق التجاريـة الفاقـدة للحياة اليوم بأنها تملأ مشهد الطبيعة الأمريكيـة بالنفايـات؛

وستتوقف واحدة من كل خمس مراكز تجارية للتسوق عن العمل من تلك المراكز القائمة في التسعينيات بنهاية العام القادم على وجه التقريب.

وتتساءل المؤلفة مندهشة: ولكن يظل السؤال الحائر يدق في الرؤوس بعنف: لماذا يرغب المصريون في تكرار تجربة مستوردة أثبتت فشلها الذريع في كل مكان؟

وتأتي الإجابة على لسانها أيضًا، وعلى شكل افتراض ربما يصيب كبد الحقيقة فتقول:

"وهناك تفسير واحد يتم ترديده كشائعة في أوساط الماليين ومجتمع العقارات، إن إنشاء مراكز التسوق وسيلة لغسيل الأموال، ولكن هذا الأمر مجرد ظنون فقط وليس لدي دليل ثابت يدعم هذه الظنون".

وتبدو عملية إعادة الاعتبار لروح المدينة الملكية ومستثمري العهد الاستعماري من فترة ما قبل النضال ضد الاستعمار وقبل الاستقلال والثورة المصرية، منقوشة بوضوح شديد في تجديد قلب المدينة القديمة للقاهرة. وتنعكس هذه الروح في تدعيم فكرة تتويج حسني مبارك لنجله كرنيس منتظر لمصر من بعده، وكأنه نوع من التتويج لخليفة الخديوي. ولذا فإنه يتم البحث عن واجهة تحررية وشرعية لتبرير الأمر، وللمفارقة المدهشة يتم البحث عنها في صورة التراث الملكي

للحقبة الخديوية الاستعمارية المهجورة وفي التصميمات الفخمة الجديدة / القديمة.

وقد أعلن الرئيس حسنى مبارك على القناة الأولى بينما كان على الهواء مباشرة في مايو ١٩٩٧ في حفل افتتاح مضمار للجولف أنه يراها رئة خضراء جديدة لأهل القاهرة، أي إنه أعطى شرعية لمشروع خاص جدًا يقتصر على فئة قليلة كمشروع قومي. لقد أجاز بهذا استباحة النخبة وحجبها وخصخصتها للأراضي الصحراوية التي كانت مملوكة للعامة (والاستيلاء على المياه التي تحتاجها للري) بينما يتخفى المشروع تحت قناع المشروعات العامة المفتوحة والتي تعتبر كمشروعات للصالح العام (المشروع الجماعي).

وعن عقدة النقص الشائعة لدى الكثيرين وظاهرة استخدام اللغة الإنجليزية في الحديث تمضي منى أباظة في الحديث قائلة:

ومن الشائق جدًا في هذه المقابلات، والتي قمنا بعقدها باللغة العربية، إقحام اللغة الإنجليزية بطريقة طاغية في وصف المراكز التجارية، ودائمًا ما تكون مصحوبة باللغة العربية العامية!. وأجاب الكثيرون، سواء كانوا من المديرين، أو الجمهور، أو أصحاب المتاجر باللغة العربية، ولكنهم أقحموا الكثير من الكلمات الإنجليزية في حديثهم. ويقحم الكثير من المصريين وبانتظام كلمات إنجليزية في حديثهم (وذلك واضح

في الأفلام، والمسلسلات والحـــوارات التليفزيونيـــة). فـــأولاً وقبل كل شيء، كلمة موول الإنجليزية عُربت إلى "المـــوول" ويطلقون على جمع الكلمة "المولات"!!!.

وعلامات التعجب من عندي، وليست من المؤلفة، فليس الأمر بالشائق، وإنما هو بالشائن – وهي عقدة النقص المستفحلة لدى الكثيرين من المتحذلقين وأنصاف المتعلمين مع الأسف الشديد، وهي العقدة التي يُطلق عليها المفكر العربي الكبير "مالك بن نبي" "بالقابلية للاستعمار

وفي معرض التحليل الذي يقدمه الكتاب عن الأماكن العامة المتاحة للطبقة الميسورة ومحاولاتهم المستميتة لإقصاء الطبقات الشعبية تشير أنوك دي كونينج في الفصل السادس إلى دور المقاهي الراقية في هذا الصدد من حيث الأسماء التي تطلقها على نفسها والأسعار التي تقدم بها خدماتها وتقديم قوائم الأسعار باللغة الإنجليزية لتمييز نفسها عن تلك المقاهي الشعبية. وتقدم هذه المقاهي الراقية نفسها كأماكن عامة آمنة للفتيات سواء بمفردهن أو بمصاحبة أفراد من الجنس الآخر. كما تعمل على إقصاء الطبقات الفقيرة إما بأسعارها المرتفعة أو باستخدام اللغة الإنجليزية في قوائم الطعام والمشروبات لديها.

وتحمل الكثير من تلك المقاهي الراقية أسماء إنجليزية، ومثبت أسماؤها بحروف لاتينية. وتسود اللغة الإنجليزية في معظم قوائم الطعام، وتتراوح بين قائمة بسيطة بالإنجليزية (بأخطاء لغوية فادحة) إلى قوائم أخرى باللغة الإنجليزية فقط والتي تقوم بوصف الأطعمة بمصطلحات منمقه. وتشير هذه الاختيارات إلى رغبة ملاك هذه المقاهي في الاقتصار على نوعية محددة من العملاء. ويمنحهم استخدام اللغة الانجليزية والادعاء بالارتباط بعلاقات مباشرة وغير مباشرة بنظرائهم في

أمريكا الشمالية مسحة من العالمية والحصرية بالنسبة للمكان، وبالنسبة لأطعمتها ومشروباتها، وعملائها.

وتكشف المؤلفة عن التناقض الصارخ بين المعتقد والسلوك لدى إحدى الفتيات المُحجبات في قولها:

> **وأخبرتني خطيبة أحمد، والتي تغطي رأسها بوشاح وهي مبتهجة بأن الحجاب هو ببساطة أمر إلزامي بالنسبة للمسلمة. ولكن ذلك لا يعني أن يختلف نمط حياتها عن نظيراتها اللاتي لا يرتدين الحجاب. ولفتت نظري، فيما بعد، إلى أغنية فيديو كليب تقوم بالتركيز على ثلاث سيقان عارية وطويلة لثلاث فتيات يرتدين ملابس مثيرة جنسيًا يرقصن بطريقة مغرية من أجل إسعاد مشاهديهن. وقالت "هذه أغنيتي المفضلة".**

كما تكشف المؤلفة عن وجود "قاهرة" أخرى للفقراء غير قاهرة الأثرياء، للباحثين عن السلع الرخيصة والمدعمة، أو الواردة من الصين، بينما يجد الأثرياء الذين يقطنون في مناطق الزمالك والمهندسين والمعادي ضالتهم في محلات أخرى متميزة مثل مترو، وألفا ماركت، ويرسلون أولادهم إلى المدارس والجامعات الخاصة عوضًا عن المدارس الحكومية التي تتميز بالافتقار إلى الإمكانيات وتدني مستوى الخدمات التي تقدمها.

وتشير المؤلفة إلى تفشي نوع من الطبقية البغيضة لفئة ترغب في تمييز نفسها وإقصائها عن العامة عن طريق استخدام لغة أجنبية والأسعار المرتفعة للمشروبات وشرط الحد الأدنى لاستهلاك المشروبات:

ويشير استخدام اللغة الإنجليزية في أسماء المحلات وقــوائم الطعام، وكذلك في التفاعل الاجتماعي إلى أن المقاهي الراقية لا تقوم بخلق قواسم مشتركة جديدة فحسب، بل إنهــا تقــوم بخلق نوع من التفرقة والشقاق. وفي نفس الوقت الذي تقوم فيه بخلق نوع من الشعور بالانتماء إلى العالمية، فإنها فــي تقوم بإقصاء نفسها عن البيئة المحيطة والأغلبية الساحقــة من سكان القاهرة الذين لا يعرفون لغة أخرى أي لا يتكلمون لغة أوروبية. وأصبحت "معرفة" لغة أجنبية في هذه الأيــام، وخاصة اللغة الإنجليزية لتصبح دلالة علــى وجــود شــرخ عميق في المجتمع. فهي تقــوم بتقــسيم الطبقــة الوســطى المتعلمــة إلــى هؤلاء "الذين يملكون ناصية اللغة"، و"الذين لا يملكونها". ويعتبر هؤلاء الذين تعلموا في مدارس اللغــات ويتكلمون اللغة الأجنبية بطلاقة على وجه العمــوم وكــأنهم ولدوا وتلقوا تربية في عائلات أفضل، ويمكنهم التطلع إلــى العمل في القطاعات العليــا المتميــزة مــن ســوق العمــل. واُستنسخت هذه الانقسامات مرة أخرى في المشهد الحضري من خلال الأماكن العامة مثل المقاهي الراقية.

ويستعرض ياسر الششتاوي في الفصل السابع المنافسة الشرسة بين المدن العربية وبصفة خاصة بين القاهرة التي احتكرت الريادة لفترة طويلة في كافة المجالات، والمدن العربية الأخرى البازغة، ويقوم بتحليل كيف أن اتجاه النفوذ

التقليدي الذي كانت القاهرة تستمتع به بشكل تقليدي قد أخذ يميل لصالح بعض المدن العربية في دولة الإمارات العربية ولبنان والعديد من المدن الأخرى، ويعقد المؤلف مقارنات تفصيلية بين العديد من المشروعات في كل من القاهرة وتلك المدن والتشابه الكبير بينها، ويوضح كيف أن القاهرة هي التي تلهث الآن وراء الآخرين وأصبحت هي التي تتأثر بعد أن كانت هي المؤثرة لقرون طويلة، ومثال ذلك مشروع دبي للإنترنت، وكيف أن القاهرة اقتبست منها مشروع القرية الذكية، والتشابه الكبير في بعض المراكز التجارية في القاهرة ومثيلتها في دبي والتي شيدتها نفس الشركة الإماراتية. كما يوضح الششتاوي كيف أن دبي أصبحت تجتذب الشركات متعددة الجنسيات وتسير في ركاب العولمة. كما يستعرض المؤلف التأثيرات الناجمة عن محاولات القاهرة للتحول إلى العولمة وخلق ما يمكن تسميته بظاهرة تقسيم الأماكن الحضرية والفصل الواضح بين الأغنياء والفقراء.

بينما تغوص فرحة غنام في الفصل الثامن بقلمها الرشيق في حياة أفراد أسرة بسيطة في منطقة شعبية من أشد مناطق القاهرة فقرًا وهي "الزاوية الحمراء" –ومن خلال مجدي بطل القصة الذي يعمل بالكويت– إذا ما عَنّ لنا اعتبار هذا الفصل قصة أدبية حقيقية ومن واقع الحياة. وترسم لنا المؤلفة دقائق حياة ومشاعر وأفراح أسرة كاملة بل وحي بأكمله – من خلال تلك الأسرة – عبر رحلة شاقة لطقوس الخطوبة واختيار أثاث وشقة الزوجية ومساهمات مجدي وتغطيته لنفقات الأسرة بتحويلات شهرية، وخاصة في المناسبات الاجتماعية المختلفة ومساهمته في تجديد شقة الأسرة على الرغم من العبء الواقع عليه، وحرصه على العودة محملاً بالهدايا للأقارب والأصدقاء. كما تصور لنا المؤلفة جذور تأثير العولمة على هذه الأسرة عندما تم إجبارها على النزوح من الحي الأصلي الذي نشأت فيه وهو حي بولاق الذي يطل على نيل القاهرة وسالت لعاب أقطاب العولمة في عهد السادات للاستيلاء على هذه المنطقة الحيوية وبالتالي أجبرت آلاف الأسر على

النزوح من الحي الأصلي الذي ترعرعوا فيه أبًا عن جد. كما تفسر لنا المؤلفة كيف أن شقة مجدي السكنية والنجاح الذي حققه هو وأمثاله ساهمت في تحفيز المزيد من الرغبات لدى سكان الحي مثل الرغبة في اقتناء مثيلتها من الشقق السكنية المثالية وحيازة السلع الاستهلاكية والترفية.

وبينما تستعرض كارولين ويليامز في الفصل التاسع عمليات الترميم والمعمارية التي تجري على قدم وساق في قلب القاهرة التاريخية وممارسات الصيانة المشكوك في جدواها والتي تقوم بها شركات المقاولات المصرية غير المتخصصة في مثل هذا النوع من أعمال ترميم الآثار التاريخية، فإنها تعدد الأخطاء الفادحة التي وقعت في ترميم الآثار التاريخية لهذه المناطق باستخدام خامات غير مناسبة ولا تنتمي لنفس الحقبة التاريخية مثل استخدام الرخام في بعض المواقع! فضلاً عن مخالفة التصميمات المعمارية الأصلية وتحفظات هيئة اليونسكو عليها، والأخطار التي تهدد هذه المواقع من مياه جوفية وسوء استعمال. وتمضي المؤلفة في استعراض مظاهر الإهمال التي امتدت إلى البشر، وكيف أن أي مشروع ناجح للحفاظ على الآثار يجب أن يشمل الاهتمام بالبشر الذين يقطنون تلك المناطق، واختلاف مفهوم المجتمع الدولي والذي يرمي إلى حماية المنطقة بأسرها عن المفهوم الغالب على أذهان المسئولين المصريين الذين قاموا بعمليات نقل قسرية للكثير من التجار والحرفيين والسكان من قاطني هذه الأماكن، حتى تتمكن أعداد أكبر من السائحين في التجول في أرجاء هذه المناطق على حد تفكير المسئولين في البلاد. وعلى الرغم من أن هذه الفئات هي التي تبعث الحيوية بوجودها في هذه الأماكن. وتختتم المؤلفة الفصل بنشر الرسالة اليائسة التي اشتركت في توجيهها مع باقة من الشخصيات ذات الحيثية والمهمومة بحماية هذه الآثار إلى السيدة سوزان مبارك – حرم رئيس الجمهورية السابق.

أما ياسر الششتاوي فيستعرض في الفصل العاشر ظاهرة خصخصة الأماكن العامة، ونظرة المسئولين إلى سكان المناطق الأثرية (أو الناس البلدي – على حد تعبير أحد المسئولين في لقائه معه)، كخطر محدق يجب الخلاص منهم لعدم مضايقة السائحين، ولذا فإنهم يفكرون في إحاطة المنطقة بسور وأن يكون الدخول إليها من خلال بوابتين وبتذاكر (وبذلك يمتنع هؤلاء الناس البلدي من دخول المكان).

كما يقدم الششتاوي تاريخ وعمليات التطوير التي خضع لها كل من ميدان الرفاعي والسلطان حسين ويقوم برصد دقائق الحياة اليومية وسلوكيات سكان الحي فيهما وهما يموجان بالبشر، ويشرح مفهوم "الفسحة" عند المصريين، أو الخروج من أجل الترويح والاستجمام والاحتفالات التي تقام في الهواء الطلق من حفلات زفاف وخطوبة، وكيف أن هذه الأماكن مناسبة للفقراء لأداء هذه الأغراض، بعكس الأثرياء الذين يصرون على الفنادق ذات النجوم الخمس. وكذلك احتفالات الأعياد، والمقارنة بين عادة الجلوس على المقاهي والجلوس في هذه الميادين وكيف أنها بعكس المقاهي يمكن أن تجمع الشباب من الجنسين.

أما بيترا كوبينجر في الفصل الحادي عشر – والذي يحمل عنوانًا طريفًا هو "أهرام وحواري" فتقوم بعقد مقارنة طريفة بين التناقض الصارخ بين الاهتمام المبالغ فيه بمنطقة الآثار التاريخية في الجيزة وهي هضبة الأهرام، والإهمال الصارخ لمنطقة ثانية وهي حارة من حواري الجيزة القديمة والتي تقع على مرمى حجر منها (أطلقت عليها مجازًا حارة الطيبين)، وتقوم برصد التحولات المكانية والممارسات اليومية الضاربة بجذورها في المنطقتين وعلى مدار قرن كامل، وتوضح التناقض الواضح بين اهتمام السلطات بهضبة الهرم لكونها منطقة سياحية تنتمي إلى العالمية وتحظى بالاستثمارات وتدليل السلطات، بينما تفتقر حارة الطيبين لأبسط مقومات الحياة، بل وأكثر من ذلك تثير أطماع الأثرياء وتكشف عن

رغبتهم الدفينة في الاستيلاء عليها لموقعها الاستراتيجي، ومحاولات السلطات المستمية لتهجيرهم، ومعاناة السكان من أجل الاستقرار وجمع شمل أسرهم وأقاربهم في مكان واحد.

أما جليلة القاضي ودليلة الكرداني في الفصل الثاني عشر فتقومان بفضح الإهمال الذي تبديه السلطات للإرث الفرعوني والقبطي والإسلامي في القاهرة مقابل الاحتفاء بمعمار حقبة الهيمنة الاستعمارية البريطانية والتركية – الشركسية، ودأب المسئولون على إعادة السرد التاريخي لحقبة ما قبل الثورة ووصفها بقاهرة "الزمن الجميل"، والمحاولات الدءوبة لتحويل مباني تلك الحقبة إلى تراث إنساني – وشرح التشريعات التي واكبت ذلك وتقضي بحظر هدم القصور والفيلات، كما تتطرقان إلى التخبط الواقع في إدارة التراث في مصر، والتوسع غير المبرر في تعريف التراث ليشمل مبان سكنية ومعمارية وتجارية بل وكل النسيج الحضري لمنطقة "قاهرة الزمن الجميل" كما يطلقون عليها، أو وسط المدينة. ثم تتحدثان عن المنهج الجديد لإدارة حماية التراث والذي ينتهجه كل من المجلس الأعلى للآثار ووزارة الثقافة المصرية – وذلك بمواءمة المباني الأثرية مع الأنشطة المتصلة بالثقافة والسياحة وتحويلها إلى مكتبات ومتاحف وفنادق وغيرها، كما تم استخدامها كمقار مؤقتة للحفلات الموسيقية والمسرحيات والمعارض.

وتحلل كاترين ميلر في الفصل الثالث عشر ظاهرة النزوح من الريف وبصفة خاصة من الوجه القبلي إلى القاهرة، والضجة التي أثيرت في سنوات سابقة حول هذه الظاهرة باعتبار الفقراء النازحين من الريف من أجل الأعمال المتدنية الأجور خطرًا داهمًا على السلام الاجتماعي، والتوتر الذي ساد بين وسائل الإعلام وبعض المسئولين آنذاك في هذا الصدد حين راجت شائعات حول تفكير محافظ القاهرة في إصدار قرار يمنع أهل الريف من الإقامة في القاهرة. كما تناقش المؤلفة النظرة الدونية للنازحين من الريف والتي كانت سائدة منذ القرن السادس

عشر، وتحولت الآن نحو القاطنين في عشوائيات القاهرة، بالإضافة إلى تحذيرات بعض المسئــولين مــن تحول المناطق المحيطة بالمدن إلى بؤر شبيهة بالريف (أو ظاهرة ريفنة التخوم). كما ترصد المؤلفة أماكن تجمعات النازحين من الصعيد والذين يميلون إلى التجمع في كتل سكنية واحدة والتطور التاريخي لهذا النزوح وأسبابه وخصائصه، وكيف أدى ذلك توطن التطرف الديني في هذه الأحياء. وتقدم المؤلفة أيضًا تحليلاً عن ارتباط بعض المهن ببعض فئات النازحين من قرية واحدة أو منطقــة واحـــدة أو محافظة واحدة، وتبرز تمسك أهل الصعيد بروابط العشيرة أو العائلة والأصل والدم كقيم أساسية وكدعامة لمجتمعهم عوضًا عن روابط الجيرة.

أما إليزابيث أ. سميث فتناقش في الفصل الرابع عشر أوضاع النوبيين في القاهرة، وكيف عانوا تاريخيًا من الازدراء والتهميش سواء في قراهم في الجنوب نتيجة الفيضانات المتتالية، ثم بعد قيام الحكومة المصرية بتهجيرهم وإعادة توطينهم في قراهم الجديدة في الشمال بعد تشييد السد العالي، أو عند نزوحهم إلى القاهرة بحثًا عن الرزق بينما تبقى نساؤهم في الجنوب لإدارة المنازل.

وتعتقد المؤلفة أن الخطاب الإعلامي السائد يضع النوبيين في طبقة حضرية أدنى، وتصفهم بحراس العقارات، وتربطهم إما بأصول عبيد في جنوب الصحراء الكبرى، أو بأصول إفريقية معاصرة. وتقوم المؤلفة بتشريح عملية تقديم النوبيين في وسائل الإعلام المختلفة، والمتاحف وذلك على الرغم من التنوع اللوني الشديد للنوبيين، والذين يتراوح لونهم، شأنهم شأن كل المصريين، من الأبيض الناصع البياض، إلى بضع درجات من درجات اللون الأسمر، ثم اللون الأسود الفاحم. ومع ذلك يتم وضعهم تحت قالب واحد هو اللون الأسود الداكن. وتتعرض في تحليلها لدور الجمعيات النوبية، أو روابط القرى بالقاهرة والتي تضطلع بكافة المجالات الاجتماعية والثقافية للنوبيين المقيمين بالقاهرة، ومحاولات إحياء اللغة النوبية عن

طريق تنظيم دروس لتعليمها للأجيال الجديدة، ثم المحاولات الدعوبة لإحياء التراث النوبي.

أما والتر أرمبريست فيقدم لنا في الفصل الخامس عشر تحليلاً لطقوس الذهاب للسينما والمسرح قديمًا وحديثًا وبصفة خاصة في منطقة وسط مدينة القاهرة، والتضارب القائم بين القيود الاجتماعية السائدة ورغبة الشباب في الانطلاق على سجيتهم دون قيود. وترسم لنا صورة قلميه عن الرونق والبهاء الذي كانت عليه منطقة وسط المدينة في العصور الذهبية لها، وصبغة الأجواء الاحتفالية التي كانت تصبغها، ورحلة تدهور هذه المنطقة. وكيف يمكن أن يسمع المرء وصف "بلدي" عن منطقة وسط المدينة في الوقت الحاضر. كما يوضح لنا أرمبريست كيف أن الأفلام السينمائية نفسها تعكس التغيرات التي حدثت في حظوظ منطقة وسط المدينة، وعلى وجه الخصوص الأفلام التي تم تصويرها في فترة سنوات الثلاثينيات وحتى سنوات الستينيات. كما يتطرق المؤلف إلى ظاهرة تواعد الفتيان والفتيات سواء للذهاب إلى السينما أو للتجول في منطقة وسط المدينة والقيود الاجتماعية التي تحيط بهذه الظاهرة.

ثم يدلف المؤلف إلى تصنيف وترتيب دور السينما حسب درجاتها والمستوى الاجتماعي لمرتاديها. ويبدأ من دور السينما المتواضعــة (الدرجة الثالثة) – والتي لا تؤمها الفتيات في الغالب – ويمكن أن تكون وكرًا لتعاطي المخدرات والأعمال المنافية للآداب، ثم دور السينما المتوسطة، ثم دور السينما الراقية والتي يمكن أن يتواعد فيها الفتى والفتاة. ويعرج المؤلف إلى وضع الأفلام الهندية في دور السينما المصرية ومدي شعبيتها.

ويقول أرمبريست في هذا الفصل أيضًا:

> **ويمثل ارتداء الحجاب تعبيرًا متناقضًا، فيوحي بكل من رغبة المرأة في اقتحام المجال العـام، بالإضـافة إلـى اعترافهـا بالمعايير الاجتماعية الأبوية والتي لا تسمح بالدخول في هذا المجال. ومن الجدير بالذكر وجـود تنـاقض صـارخ بـين الطريقة التي ترتدي بها الـسيدات المـشاهدات أزيـاءهن، والأزياء التي ترتديها الممـثلات فـي الأفـلام الـسينمائية. وترتدي معظم النساء في معظم أنحـاء القـاهرة ٨٠-٩٠% منهن الحجاب. أما في السينما فتنعكس النسبة بصورة حادة، وليس من المعتاد أن تتعدى القليلات اللاتي يمكن أن يشاركن أدوار الكومبارس غير الناطقة.**

الجملة الأولى صحيحة في جوهرها ولكنها في اعتقادي لا تحمل أي تناقض، أما الثانية، فهي تعبر بدقة بالغة مع الأسف الشديد عن أمراض صناعة السينما في مصر والتي لا تقدم قصص من واقع الحياة وإنما تبحث عن أنماط شاذة، وينصب تفكيرها على إيرادات شباك التذاكر فقط.

وتقدم لنا فاني كلونا في الفصل السادس عشر تحليلاً للنزعة الجديدة السائدة عند مفكري الأقاليم في العالم العربي، والذي يستهدف لديهم العودة إلى مسقط رؤوسهم لتحقيق أهدافهم المهنية ولعب أدوار اجتماعية ومهنية لم تكن ميسرة للمبدعين من قبل إلا في القاهرة.

وتشرح لنا كل ذلك –على خلفية رحلة مذيع تليفزيوني في قناة إقليمية– وهي القناة الرابعة، من القاهرة إلى الإسماعيلية والعكس، وصراعه المستميت من أجـل الحفـاظ على مـركز القناة الرابعة بين قنوات التليفزيون الحكومية الكبرى

ومساحة الحرية المتاحة له، ومعاركه مع الإدارة المركزية في القاهرة، ومع الروتين واللوائح، وقلة المخصصات المادية المتاحة، وذلك من أجل حرية الإبداع والتخلص من الاحتكار السياسي والاقتصادي للعاصمة. كما توضح لنا المؤلفة تمسك والتزام الإعلاميين المنتمين إلى الأقاليم تجاه محافظاتهم والأقاليم التي ينتمون إليها.

أما آنا مادوف فترسم لنا في الفصل السابع عشر صورة حية لاحتفالات القاهرة والجماعات الصوفية بالموالد المختلفة لآل البيت، والأماكن العامة التي تقام فيها هذه الاحتفالات، والصراع الدائم بين هذه الجماعات الصوفية والسلطات السياسية. وتبرز المؤلفة الاهتمام بالأماكن العامة في احتفالات الموالد لدى الطرق الصوفية- وتلقى الأضواء على جانب مهم من جوانب الطرق الصوفية (الجانب السياسي) – والذي بدأ يجذب اهتمام الجهات الأمنية إليهم وإلى تلك الأماكن العامة. كما تقوم بتقديم تحليل واف عما هو ديني ومقدس، وعما هو احتفالي فقط دون مضمون ديني في هذه الاحتفالات. وتصور المؤلفة احتفاء المصريين بآل البيت، وموالد كافة الأولياء الصالحين ليس للمسلمين فحسب، بل والمسيحيين، واليهود أيضًا إلى عهد قريب. كما تبرز الجدل الذي يدور حول انتقاد الدولة وبعض السلطات الدينية لهذه الاحتفالات، والاتهامات التي توجه لها بغموض الطقوس، واعتبارها نوعًا من الإسلام الشعبي التوافقي الذي لا يتماشى مع الإسلام القويم. كما توصف بأنها تتسم بالضجيج والشعبية. وتوضح لنا كيف بدأت الدولة تنظر إلى هذه الموالد كخطر سياسي داهم.

وتمضي المؤلفة في رسم الصورة الكاملة لاحتفالات المولد – بادئة من وصول الشاحنات الكبيرة محملة بأكداس من مواد نصب السرادقات ومكبرات الصوت الضخمة لكافة الجماعات الصوفية على حدة، وبالبيارق المميزة لكل فئة صوفية، وحتى الوصول إلى ذروة الاحتفالات في الليلة الختامية للمولد. كما تقدم

لنا تحليلاً لنوعيات البشر التي تؤم المولد – سواء من الجماعات الصوفية أو التجار أو الباعة أو مقدمي فقرات اللهو والترفيه وسلوكياتهم المختلفة، والفروق الجوهرية التي تميز الاحتفال بكل مولد من الموالد.

وتقول المؤلفة في خاتمة الفصل *إنه من المسلم به أن النبي موجود، وهناك إشارات للعديد من معجزاته*"، والحقيقة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد مات كما يموت غيره من البشر.

أما الفصل الثامن عشر فيقدم فيه فنسنت باتيستي تحليلاً للأماكن العامة – وبعد أن يقوم بتقديم مقدمة تاريخية لنشأة الحديقة، والغرض الذي أنشئت من أجله في البداية، وتطور ذلك حتى المرحلة الحالية. ثم يقوم بإلقاء الضوء على المظاهر الاحتفالية لزيارة حديقة الحيوان بالجيزة سواء في أيام الأسبوع العادية، وعطلات نهاية الأسبوع، ثم في الأعياد وبخاصة الدينية منها، وميول المترددين على الحديقة وتفضيلاتهم من حيث أيام الزيارة، وطقوس الزيارة للأسر التي تقوم بزيارة الحديقة بأفرادها كافة، ثم الشباب من الجنسين وممارساتهم في الحديقة، واتخاذهم لها كمكان للمواعدة. كما يوضح ممارسات حراس الحيوانات بالحديقة، وكذا المسئولين الذي يعملون فيها.

ثم يدلف المؤلف إلى الحدائق العامة والحدائق المتناثرة في وسط القاهرة وغيرها في أرجاء القاهرة الكبرى، ثم يقوم بعقد مقارنات بين هذه الحدائق وحديقة الحيوان بالجيزة. ويوجه أكثر اهتمامه إلى أكبر هذه الحدائق العامة وهي القناطر الخيرية، وأهمية وجود البشر فيها لتكتمل البهجة الاحتفالية للمواجودين فيها.

ويعالج نيكولاس بيوج في الفصل التاسع عشر المصاعب التي يواجهها موسيقيو ومطربو وراقصات شارع محمد علي، حيث يرتكزون ويتجمعون في المجال الذي يعشقونه للحصول على ما يقيم أودهم، في مدينة مجزأة مكانيًا ومنفصمة طبقيًا على حد قول المؤلف. وبعد أن يشرح المؤلف التطور التاريخي لشارع محمد علي، فإنه يبرز النظرة الدونية التي يواجهون بها حتى من أسرهم

نفسها، وكيف أنهم ينتمون إلى أدنى درجات سوق الغناء، ويقومون بإحياء حفلات الخطوبة والزفاف التي تقام في شوارع الأحياء الشعبية.

ويوضح المؤلف في معرض استعراضه لتاريخ هذا الشارع الشهير، كيف كان يتعين على الفنانين من الوجه القبلي أو الدلتا الذين يريدون أن يخطو خطواتهم الأولى في عالم الفن والشهرة أن يترددوا على هذه المقاهي لاكتساب الخبرة والحصول على اعتراف قدامي الفنانين بمواهبهم، حتى يمكن للواحد منهم أن يصبح "صاحب كرسي. وكما يوضح المؤلف كيف أصابت التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التي طرأت على مدينة القاهرة هذه المهن في مقتل بحيث تضاءل دورها ولم تعد هي بوابة النجاح لمن يرغب الدخول إلى عالم الأضواء والشهرة.

ويقول المؤلف عن شعبان عبد الرحيم:

> **ولا يكترث النقاد في وسائل الإعلام على الإطلاق لسكان الأحياء الفقيرة كما أنهم غير واعين للسخرية الاجتماعية الكامنة في كلمات أغانيه. وقد تساءلت سكينة فؤاد، وهي صحفية بجريدة الأهرام قائلة: "كيف يمكن أن نقوم ببناء ثقافة في مصر في ظل وجود أمثال شعبان عبد الرحيم"، وطالبت بالتدخل الرسمي للمسئولين "لوضع حد لهذا الهراء" (مرسي ٢٠٠١).**

ولا أعتقد أن الأستاذة سكينة فؤاد وهي كاتبة مرموقة، تعادي شعبان عبد الرحيم كإنسان، أو تنكر على الفقراء حقهم في الاستمتاع بالفن، وإنما تريد لهم الفن

الراقي، فقد كان الحرفيون والعمال يقومون بترديد قصائد أبو فراس الحمداني مع أم كلثوم، وهي قصائد بالغة الرقي، كما كانوا يقومون بترديد أغاني عبد الحليم حافظ ومحمد رشدي وغيرهم، فالأمر هو كيف ترتقي بذوق العامة وليس بأن تهبط بالذوق العام والإساءة لفن الأغنية لإرضائهم.

ويختتم نزار الصياد بالتساؤل: أي قاهرة يتحدث عنه الكتاب – وباسم من؟ ثم السؤال الأهم: هل القاهرة مدينة عالمية حقًا؟ والإجابات المتناقضة التي يقدمها كل فصل من فصول هذا الكتاب عن معنى العالمية في العالم الثالث الذي تنتمي إليه مصر.

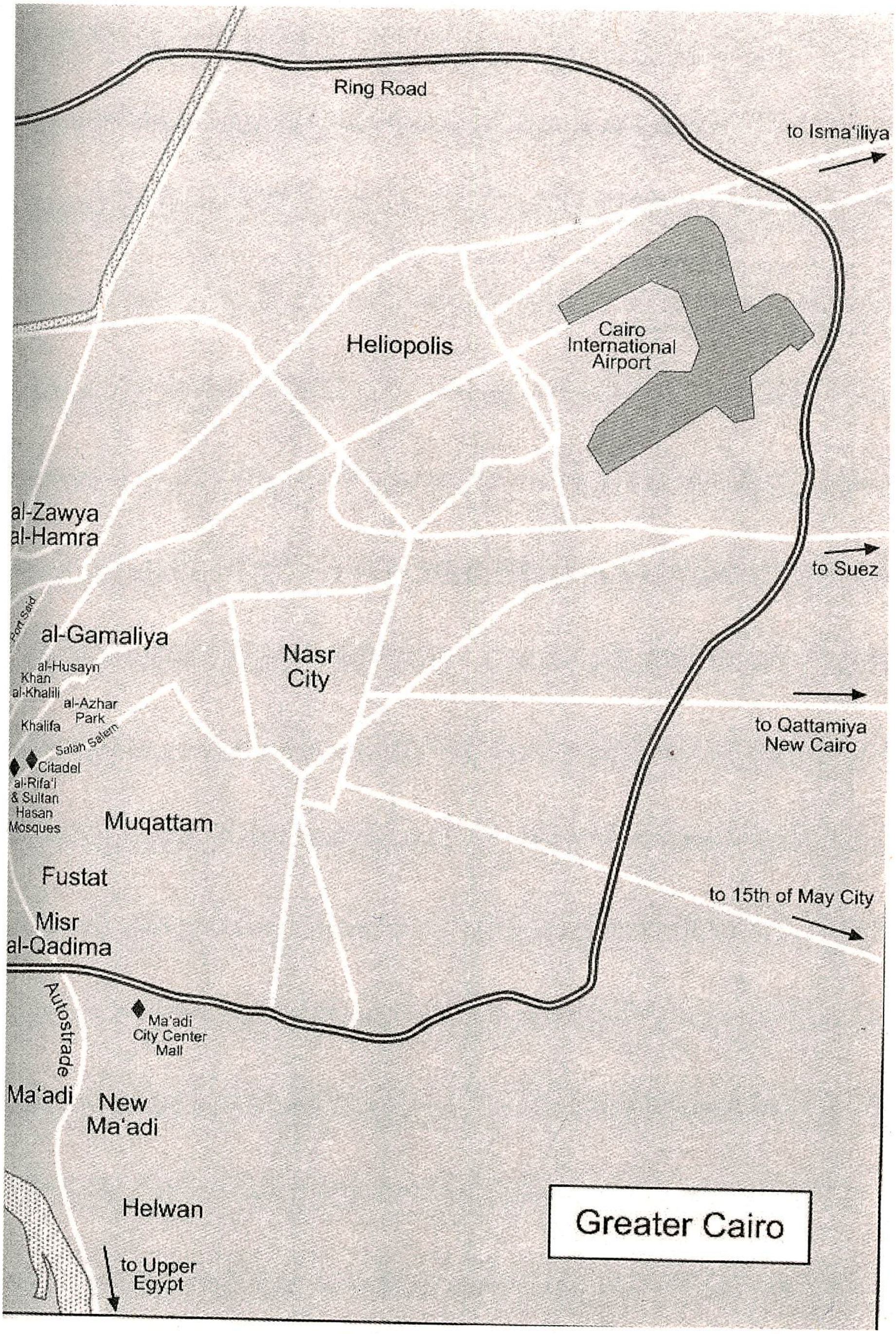
وفي نهاية هذه المقدمة أود أن أقدم عظيم شكري وامتناني لكل من دايان سينجرمان بول عمار واللذان كان لصبرهما غير المحدود وآرائهما السديدة سواء فى الجلسات المطولة التى عقدناها فى القاهرة عدة مرات أو عبر رسائل البريد الإلكترونى الفضل الكبير في خروج هذه النسخة العربية من الكتاب على هذه الصورة الرائعة.

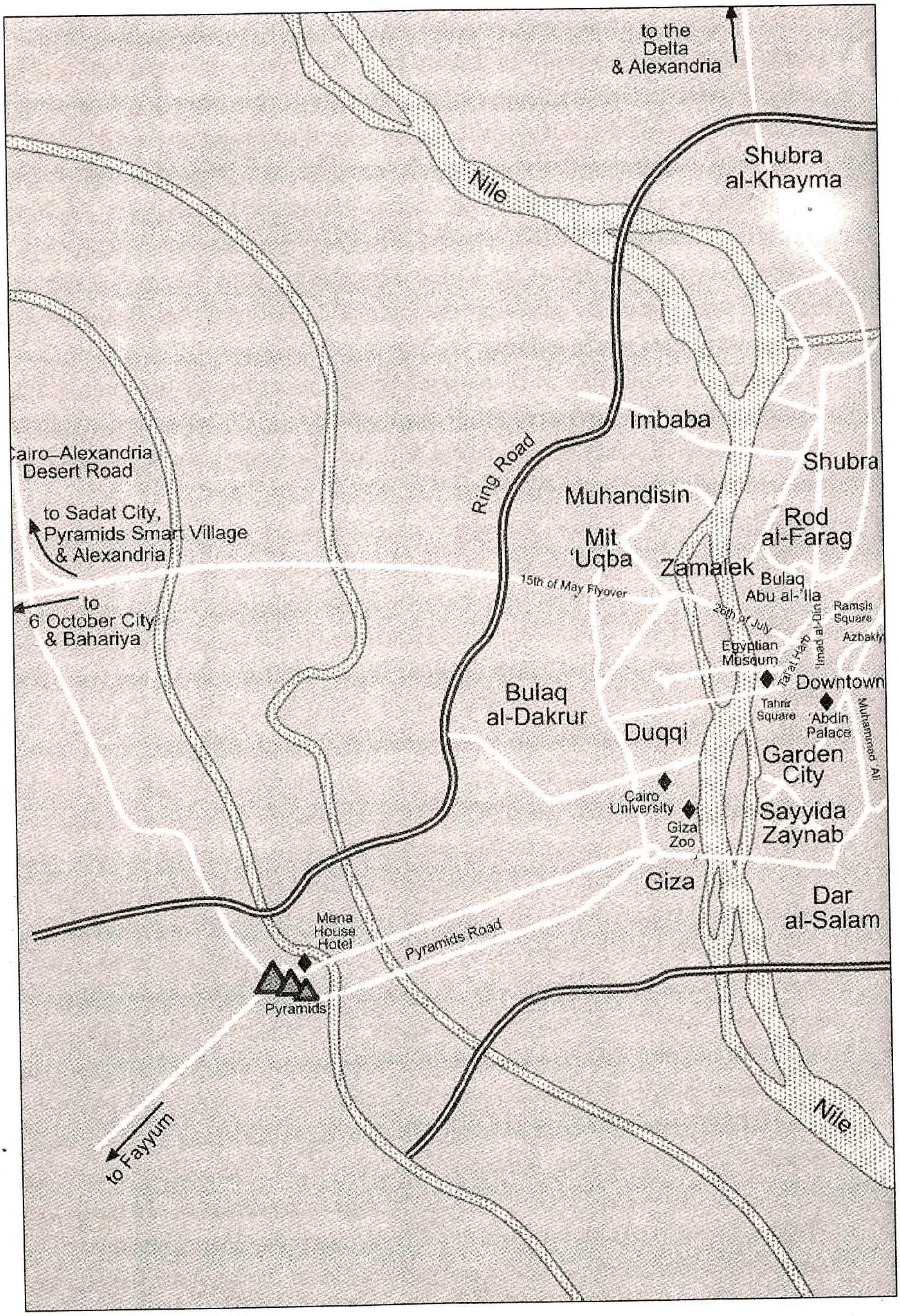
كما أود أن أهدي ترجمتي لهذا الكتاب لأرواح أعزاء رحلوا عن دنيانا أثناء مراجعتنا لمسودات ترجمة هذا الكتاب وقبل أن ترى النسخة العربية النور وهم والدة المؤلفة الدكتورة دايان سينجرمان، ثم زوجتي وابنتي وحفيدتي وشقيقة زوجتي والذين غادروا عالمي إثر حادث أليم تاركين جرحًا

غائرًا في قلبي لم يندمل، داعيًا الله أن يكونوا جميعًا في عالم أفضل، وأن يسبغ الله عليهم جميعًا من رحمته وعدله.

وأتركك مع الصفحات الثرية والشيقة لهذا السفر الضخم، والذي يتميز ببساطته وأسلوب السرد القصصي في أغلب أجزائه، مما يجعل من قراءته متعة خالصة.

يعقـــوب عبد الرحمـــن


Ring Road
to Isma'iliya
Heliopolis
Cairo International Airport
al-Zawya al-Hamra
to Suez
Port Said
al-Gamaliya
Nasr City
al-Husayn
Khan al-Khalili
al-Azhar Park
Khalifa
Salah Salem
Citadel
al-Rifa'i & Sultan Hasan Mosques
Muqattam
to Qattamiya New Cairo
Fustat
Misr al-Qadima
to 15th of May City
Autostrade
Ma'adi City Center Mall
Ma'adi
New Ma'adi
Helwan
to Upper Egypt
Greater Cairo


to the
Delta
& Alexandria
Nile
Shubra
al-Khayma
Imbaba
Shubra
Ring Road
Cairo–Alexandria
Desert Road
Muhandisin
to Sadat City,
Pyramids Smart Village
& Alexandria
Mit
'Uqba
Rod
al-Farag
Zamalek
Bulaq
Abu al-'Ila
15th of May Flyover
to
6 October City
& Bahariya
26th of July
Ramsis
Square
Egyptian
Museum
Talat Harb
Imad al-Din
Azbakiya
Bulaq
al-Dakrur
Downtown
Tahrir
Square
'Abdin
Palace
Duqqi
Muhammad 'Ali
Garden
City
Cairo
University
Giza
Zoo
Sayyida
Zaynab
Giza
Dar
al-Salam
Mena
House
Hotel
Pyramids Road
Pyramids
Nile
to Fayyum

شــكر

خرجت فكرة مشروع هذا الكتاب إلى النور شأنها شأن العديد من المشروعات الفكرية من جراء مناقشة. وينتسب بطريقة شكلية أو فضفاضة إلى مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية (مركز بحثي فرنسي)، وقد شرعنا في هذا المشروع في أوائل سنوات التسعينيات لمواجهة الأساطير الشائعة والمبسطة عن الإرهاب والتطرف من جانب، والفتور والجمود الذي ألحق تشويهًا بالغًا بتعقيدات الحياة والسياسة في القاهرة بوجه خاص، وفي الشرق الأوسط بوجه أكثر عمومية على الجانب الآخر. وقد أقمنا حوارًا عبر سنوات عديدة مع المجموعة الأصلية من المساهمين من كتيبة مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية، ثم قمنا بمسح العاصمة المصرية والعالم بأسره بحثًا عن المتخصصين الذين يمكن أن تتكامل اهتماماتهم ومناهجهم مع الرؤية التي أصبحت فيما بعد هي كلية القاهرة للدراسات الحضرية والتي يمكنها أن تتيح لنا تحقيق أهدافنا – من أجل الوصول إلى نقطة بداية حية، ثلاثية الأبعاد ومتجذرة من أجل استيعاب، وتدريس، وخلق معرفة عن الشرق الأوسط. وأصبح هذا الكتاب تجربة مثيرة وتحديًا قائمًا على تضافر عالمي بين محرري هذا الكتاب، والمشاركين فيه، والخبراء، والمراجعين، والناشرين، بالإضافة إلى النقاد.

وقد دعم طوال هذه المسيرة، كل من مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية، ومؤسسة هيئة فولبرايت بمصر، ومركز البحث الاجتماعي بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، المشروعات البحثية لمحرري هذا الكتاب فضلاً عن تدعيمهم لأبحاث العديد من المشاركين في هذا الكتاب. وبفضل الرحلات البحثية

الضرورية، والمؤتمرات، والترجمات والتي أمكن توفيرها عن طريق الدعم المالي الذي تقدمه ***(School of Public Affairs and the Department of Government)*** بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وجامعة كاليفورنيا، وسانتا باربارا، والمركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي بفرنسا، ومؤسسة فورد (القاهرة).

وتود دايان سينجرمان أن تقدم جزيل الشكر لمجموعة زملائها وزميلاتها، وأسرتها، وطلابها، وأصدقائها في كل من الولايات المتحدة الأمريكية ومصر على الإلهام الذي كانوا منبعه الغزير طوال رحلة العمل، والتي بدأت ذات عطلة نهاية أسبوع في القاهرة في مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية، ومركز البحث الاجتماعي بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. وبينما لم يستفد المشروع بطريقة مباشرة من تدخل بول وابنر، فإن ألمعيته، والرعاية المدعومة التي قدمها، قد جعلت الانتهاء من هذا العمل أمرًا ممكنًا. كما أنها تود أن تشكر أولادها ليزي، وزيكي، اللذين أيقظا فينا جميعًا في الكثير من المرات روح الإبداع، وحب الاستطلاع وأجواء المرح. كما تتقدم بالجزيل من الشكر إلى كل من كاتز ميللر، ونيكول سالمبين – بومان، وإيفا بيللين، ومورت وإلينور وابنر، وهوما هودفار، وليني سينجرمان، وفيليس سينجرمان، وفيكتورينا فينزور للدعم الخلاق الذي بادروا بتقديمه. كما نشعر بالامتنان للدعم السخي الذي قدمه العميد ويليام م. ليوجرناد، ورئيس القسم السابق بالجامعة الأمريكية سول نيومان، لهذا المشروع.

كما أن بول عمار يود أن يقدم الشكر لجانيت أبو لغد ***(Janet Abn Lughod)***، والتى كان للدورة الدراسية التي قدمتها عن "المدن العالمية" في الكلية الجديدة الفضل في خلق الولع الذي شعر به تجاه الدراسات الحضرية. كما أنه يود أن يتقدم بجزيل الشكر إلى كل من أندروروس، وميشيل جيلسنان، وشارلز تيللي، وماريام كوك، وشارون زوكين، وعصام رفعت، ونوال السعداوي، وليزا دوجان، الذين تبلور في الدورات الدراسية وورش العمل الخاصة بهم منظوره عن المدن

والتنافس الاجتماعي الحضري. كما أنه يود أن يوجه شكرًا خاصًا إلى تيموثي ميشيل للعون الفكري الخاص الذي قدمه، وأريحيته ورؤيته النموذجية. كما يود بول أن يشكر والديه المُحبين اللذين بثا فيه روح الحماسة، وقدما له العون الروحي الراسخ لرحلاته الطويلة المتقطعة عبر مناطق خطرة في الشرق الأوسط ومنطقة البحر المتوسط، والتي بدأت منذ السادسة عشرة من العمر وصاعدًا. كما يود أن يشكر شقيقه جيريمي، وزوجة شقيقه تراسي، وابنهما داكوتا، لتضامنهم وروح المرح الذي سادهم وهم يمضون العديد من أيام العطلات، في مراجعة، وإعادة ترجمة، وتنقيح العديد من أجزاء المسودات.

وقد تطلب وضع كتاب باللغة الإنجليزية من مصادر أصلية ومسودات تتكون أحيانًا من اللغات الفرنسية والعربية الاستعانة بجهود العديد من المترجمين ونود أن نقدم الشكر من ضمنهم لسوزان براسويل من جامعة كاليفورنيا سانت بربارا لخدماتها القيمة والسريعة. وبالمثل، فإن إدارة هذا الكتاب وتحريره قد تم تحسينهما بدرجة ملحوظة بالمساهمات الجليلة لماري بريدنج بالجامعة الأمريكية. كما نود أن نشكر أيضًا سيدا ديمرالب بالجامعة الأمريكية، ونادية نادر، وماريا ديل لوجرونو بجامعة كاليفورنيا سانت بربارا للعون الصادق الذي قاموا بتقديمه.

كما أن هناك العديد من الزملاء الموقرين الذين أبدوا كرمًا ملحوظًا في مراجعة أجزاء من المادة وكانت لآرائهم السديدة الفضل في استكمال رؤية كلية القاهرة وسلامتها في هذا الكتاب. وفي ضوء ذلك، يطيب لنا أن نشكر كلا من أنيي نورتون، وآن ليش، ومارشا بربستين بوسوسني، ونزار الصياد، وليزا حجار، وريتشارد فالك، وأمنية الشاكري، وأريك دينيس، وكاترين ميللر.

ولقد كان من دواعي السرور أن يكون اعتمادنا على محرر ملتزم، وهو نيل هيوسون بقسم النشر بالجامعة الأمريكية فى القاهرة، لهذا المشروع، ودائمًا ما كان صبورًا، وبناءً، وداعمًا لكل خطوات هذا المشروع، ومؤمنًا بأهمية هذا العمل "لكلية

القاهرة"، كما تحلى بالأناة ورحابة الصدر إزاء رغباتنا في أن نجعل هذا الكتاب الشامل جذابًا، وفي متناول أيدي قطاع عريض من العامة. كما أن الجهود الدءوبة، والنظرة المتفحصة لنادية نقيب بقطاع النشر بالجامعة الأمريكية هى بالتأكيد موضع تقدير عظيم، كما هو الحال أيضًا للمراجعة الدقيقة لروبين دوجيرتي. وأيضًا كان جان بيير ريبير سخيًا بدرجة لا تصدق عندما أتاح لنا الاستعانة بكثير من صوره الجميلة والمؤثرة في هذا الكتاب.

وأخيرًا فإننا نود أن نقدم الامتنان الصادق لهؤلاء المشاركين الأعزاء لرغبتهم الرائعة في تنقيح وإعادة صياغة الفصول الخاصة بهم في روح من التفتح على جميع الاختصاصات والتعاون الفكري، ولصبرهم الدءوب الذي كان له أبلغ الأثر في أن يخرج هذا المشروع إلى النور.

مقدمة

أساطير متضاربة: نظرة نقدية للمدن العالمية(*) وتأسيس الكلية الجديدة للدراسات الحضرية

دايان سينجرمان – بول عمار

كانت شوارع العاصمة المصرية إبان الغليان الذي كان يسودها في ربيع وصيف عام ٢٠٠٥، مسرحًا لتحدي الشمولية، وارتفاع صرخات "كفاية" لمجموعة الرفاق الذين يُشكلون الليبرالية الجديدة، والتي وصلت إلى تشكيل المتناقضات التي تعج بها القاهرة المدينة العالمية الجديدة. وقد هبوا جميعًا من أجل تحديد ملامح مدينتهم الأثيرة، وإعادة تشكيل تاريخهم، وقام النساء والرجال الذين يقطنون المدينة ذات الكثافة السكانية العالية بتنظيم أنفسهم من خلال تجمعاتهم، واتحاداتهم، وجامعاتهم، ونقاباتهم المهنية، وتجمعاتهم الدينية، وجمعيات حقوق الإنسان، وأنصار حقوق المرأة، وجماعات المدافعين عن المعتقلين. ووضعت هذه الحشود أياديها على الميادين العامة وتمسكت بها وطالبت بوضع حد لسياسات البطش

(*) يستخدم الكتاب الأصلى مصطلح *Cosmo Politan* فى عنوانه فضلاً عن استخدامه بكثرة داخل صفحات الكتاب وفصوله بمعنى التفاعل مع المتغيرات المحلية والإقليمية والعالمية والتأثر بها –أو التأثير فيها سلبًا أو إيجابًا والمصطلح بالطبع ليس مرادفًا للعالمية وليس له مرادف دقيق فى اللغة العربية– لذا كان تفضيلنا لاستخدام كلمة العولمة فى كثير من الأحيان (المترجم).

ومواكب النفاق التي ضيقت الخناق على السياسات الداخلية والإقليمية لأجيال عديدة. وعلى الرغم من أن عشرات الآلاف من المعارضين وقادة حركاتهم من القاهرة لم يكونوا يُشكلون بعد قاعدة شعبية عريضة أو ثورة اجتماعية، فإنهم جذبوا انتباه العالم بأسره لمجموعة من النشطاء والأبطال الذين يستجمعون شجاعتهم في الميـــادين وتقاطعات الطرق لشرق أوسط واعد يستشف ما يحدث خارج حدوده. ولا يمكن فهم أو احتواء هذه المدينة أو هذه المنطقة بسهولة من خلال التصنيفات الجامدة التي سادت في الماضي.

ولقد تم استكمال هذا الجزء من الكتاب في زمن الانتفاضة والانتخابات في القاهرة عام ٢٠٠٥، ولذا يقوم هذا الكتاب بتجميع أعمال القسم الجديد الذي تم تكوينه: "كلية القاهرة للدراسات الحضرية"، ويكرس كل جهوده من أجل تجميع اجتهادات مجموعة من الباحثين الذين يقيمون في القاهرة، والنقاد المفكرين الذين اعترضوا بشدة على النظرة الضيقة لكل من الاتجاه العام للسياسة (مثل القومية، والأصولية، والهوس بالأمن)، والأساليب الجافة لمناهج علم الاجتماع (العقلانية، والإيجابية، والاستشراق الجديد). وتهدف هذه المقدمة المطولة إلى تقديم بعض النتائج المجمعة لأبحاثنا عن المستحدث والمتشابك في القاهرة العالمية. وتتجسد آمالنا في أن نساعد على إثارة مجموعة من الأسئلة التي يمكن أن تقودنا إلى مناهج أكثر إنتاجيةً وأهميةً وأكثر ديمقراطية من أجل الوصول إلى معرفة أعمق للشرق الأوسط. وسنقوم بتحديد الشخصية المتفردة لبرنامج وأساليب "كلية القاهرة للدراسات الحضرية"، وبصفة خاصة انتقاداتنا، وتحديدنا الدقيق لمفهوم العالمية ***Cosmo Politan***. وإننا ندرك، وباختصار أن العالمية غالبًا ما كانت كامنة في الخطاب الذي يتحدث عن: الأممية، والمعيارية، والدولية، والاستعمارية. ومع ذلك ، فإن العولمة عندما

أعيدت صياغتها من خلال الدراسات النقدية والعمل العام يمكنها أن تشى بالتحرير – كما يمكن أن تشي بوجود ثقل أخلاقى مقابل خارج حدود القومية ومشاعر الخوف وسياسات الهوية الخانقة، ويمكن لهذه الصياغة المعدلة أم تتكامل مع تجارب وخبزات كلية القاهرة ومنهجيات بحث مرحلة ما بعد الوضعية.

ولكن دعونا أولاً نعود إلى تلك الأحداث التي أكدت بما لا يدع مجالاً للشك عودة بزوغ شمس القاهرة كبقعة هامة من أجل العمل والتساؤل، مما جعل نشر مجموعة هذه الدراسات في هذا التوقيت أمرًا ملائمًا تمامًا.

وأظهرت مظلة شملت تحت سقفها مجموعة من ٢٦ منظمة من مجموعات حقوق الإنسان والمجتمع المدني في عامي ٢٠٠٤، و٢٠٠٥ كان قد تم تأسيسها في الأساس من أجل معارضة احتلال الولايات المتحدة الأمريكية للعراق – أظهرت رسالتها الشجاعة في شوارع القاهرة والعالم: "كفاية" لحكم مبارك، ولا لتوريث الحكم (الدين ٢٠٠٤). وتم تأسيسها رسميًا تحت مسمى "الحركة المصرية من أجل التغيير– كفاية"، وأصبحت الكلمة العربية "كفاية" رمزًا وإطارًا لمجموعات كاملة من الحشود المعارضة والتعبئة، وعمليات التحالف التي جرت وقائعها بداية من أواخر عام ٢٠٠٤، وعام ٢٠٠٥، وفي خضم هذه القلاقل، وفي فبراير ٢٠٠٥، قام الرئيس مبارك بتعديل المادة ٧٦ من دستور عام ١٩٧١، مما سمح بالتنافس المباشر على منصب رئيس الجمهورية بالانتخابات؛ وتم التصديق بعدها على هذا التعديل في استفتاء شعبي عام. ووضعت الضغوط الشعبية الناشئة عن حركة "كفاية"، والنقابات المهنية المتمركزة في القاهرة (وبصفة خاصة القضاة، ونادي ونقابة الصحفيين)، وبالتزامن مع حملة "التحول الديمقراطي" الجديدة لمنظمة الأمم المتحدة في الشرق الأوسط، بعض القيود على ولع النظام بالقهر السافر، والتي أسفرت عن انتخابات تشريعية اتسمت ببعض القلاقل السياسية وبعض المناوشات البسيطة ولكنها كانت أكثر علنية ووضوحًا. ونالت حركة "كفاية والحركات الشعبية

الأخرى قوة دفع من الانتفاضة الجديدة والاحتجاجات التي اندلعت ضد غزو الولايات المتحدة الأمريكية للعراق، والتي كانت تقتحم الشوارع فيما بين عامي ٢٠٠٤، ٢٠٠٥، وأسفرت عنها سلسلة من التداعيات أثارت العديد من الجماعات بما فيها "الإخوان المسلمون" والشباب، والطلاب والحركات العمالية، وجماعات أنصار قضايا المرأة، والقوى الناصرية. واستطاعت جماعة "الإخوان المسلمون" وعلى الرغم من استمرار الحكومة في استخدام العنف والترويع في الانتخابات البرلمانية التي تم عقدها على ثلاث مراحل انتزاع خُمس مقاعد البرلمان في مجلس الشعب. كما استطاع المعارضون العلمانيون، وقوى اليسار، وبرامج المرأة من كسب مزيد من المساحات على الأثير وبرامج التليفزيون، كما قاموا بتأسيس جماعات قيادية جديدة أكثر وضوحًا في عيون العامة.

وتقدم هذه الأنماط المتعددة من المعارضة بتسليط الأضواء النقدية الكاشفة على هياكل السلطة الاقتصادية فى حيز الأماكن الحضرية العامة للقاهرة، وعلى مناطق العولمة فى الشرق الأوسط الجديد، فضلاً عن الأجهزة القانونية والسياسية للدول القمعية المندمجة علميًا. كما أنها قامت بتحديد المعوقات والسبل إلى قضايا الجنوسة الجديدة *gender*(*) والتعبئة الدينية، ونقاط التشابه، وحدود القوميات الصارمة. وبدأ انفجار القاهرة بأنشطة الحركات الاجتماعية في عام ٢٠٠٥ كنوع من التعبير عما نعتقد أنه "خلق مزاعم العالمية" والتي تقوم بخلق الحقائق اليومية

(*) مصطلح gender – أو المقابل لها باللغة العربية الجنوسة وهو علم الجنس السوسيولوجى الاجتماعى ويعنى المصطلح دراسة المتغيرات حول مكانة كل من المرأة والرجل فى المجتمع بغض النظر عن الفروقات البيولوجية وفقًا لدراسة الأدوار التى يقدمان بها – أى أن المرأة والرجل ينبغى النظر إليهما من منطلق كونهما إنسانا بغض النظر عن جنس كل منهما – واللغة الإنجليزية تستخدم لفظ sex بمعنى جنس للدلالة على الجنس الظاهرى البيولوجى للفرد. فى حين تستخدم لفظة Gender للدلالة على الفروق الاجتماعية والدور الذى يرتضيه الفرد لنفسه من كونه أنثى أو ذكرا سلوكيا (المترجم).

للمدينة الشرق أوسطية البالغة الضخامة والتي نحاول استكشاف مجاهلها في الصفحات الآتية.

من سلالة ليبرالية إلى جغرافية عولمة حاسمة

وقد أُرغم أهل القاهرة ولعقود عديدة على حشر تعبيراتهم العلنية عبر أضيق المرشحات كثقافة الحتميات – سواء قوميات نظرية المؤامرة أو الحملات الأخلاقية العنيفة المتزمتة. وظل النظام الليبرالي الجديد للحكومة الشمولية خلال السنوات الثلاثين الأخيرة يقوم وبمباركة من الولايات المتحدة الأمريكية، بكسر شوكة المطالب الاقتصادية لمواطنيه في سيره الحثيث في طريق الخصخصة بوحشية بالغة، وتشجيع مشروعات المضاربة التي تديرها القلة المحتكرة من أجل إعادة تشكيلها للبنيان الاقتصادي. وقامت الدولة بتجريم الأصوات السياسية لمواطنيها عن طريق سحق المنظمات غير الحكومية، والحركات الاجتماعية عن طريق استخدام القوانين المناهضة للإرهاب، ومواد قانون الطوارئ، والقوانين الحصرية المتشددة للنقابات من أجل تبرير عمليات إلقاء القبض حتى على أكثر المعتدلين من الصحفيين المعارضين والباحثين والنشطاء. وتم القبض في عام ٢٠٠٠، على سبيل المثال، على سعد الدين إبراهيم، وتم سجنه لمدة عام ونصف العام لأنشطته السياسية في منظمته غير الحكومية وحصوله على دعم مالي من مؤسسات إقليمية وعالمية وهو ليبرالي معروف، ومن دعاة الديمقراطية ومؤسس مركز ابن خلدون لدراسات التنمية. كما مزقت سلسلة من المحاكمات الصورية ضد الصحفيين، والمنظمات غير الحكومية، وقادة أحزاب المعارضة في السنوات العشر الأخيرة أوصال فكرة المواطنة، واستقر ذلك في يقين الهيئات العامة والخاصة للشعب المصري، شأنها في ذلك شأن النخبة السياسية فيها. واُستخدمت أساليب شبيهه منذ

وقت قريب ضد رئيس حزب الغد أيمن نور، والذي هو في نفس الوقت عضو في البرلمان. وتم تجريده من حصانته البرلمانية وسجنه في غضون عام واحد، تحت مزاعم تزوير توقيعات من أجل إنشاء حزب الغد. وكان قد تم إجراء الانتخابات الرئاسية والتي حصل فيها نور على ثاني أعلى الأصوات (٧-٨%) من أصوات الناخبين قبل أن يعود إلى محبسه في نهاية عام ٢٠٠٥. وتم الحكم عليه بالسجن خمس سنوات رغم أن إجراءات الاستئناف كانت لا تزال معلقة (الاحتجاجات تفسد فوز مبارك ٢٠٠٥).

وأصابت القاهرة الكثير من المراقبين العالميين والمحليين بالدهشة البالغة بانتفاضاتها، واحتجاجاتها، وحملاتها، والتحالف الشعبي الجديد لعام ٢٠٠٥، ليس فقط لحشدهم المظاهرات الشعبية، ولكن لشروعهم في تأكيد إعادة إحياء مشروع المواطنة النشط والذي سما فوق الاستقطاب الذي يقوم بتقسيم المواطنين إلى الذى يقوم بتقسيم المواطنين إلى وطنى / أممى أو إلى متدين / علمانى، وتجاهل حالة الانفصام والانكفاء على الذات التي ميزت الفترة السابقة من الذعر، والخوف من التغيير واعتباره تهديدًا للقيم الاجتماعية السائدة والحروب الثقافية. وكانت هذه القوى، وعلى أقل تقدير تقوم بإعادة تصوّر مستقبل البلاد بأساليب واستراتيجيات جديدة، وكما يقول لنا "إنجن إيسن"، إن ذلك بذاته عمل من أعمال المواطنة (٢٠٠٥).

وبدأ برنامج جديد في البزوغ في القاهرة في عام ٢٠٠٥ مرتكزًا على الحضرية، والعالمية، وبأجندة ديمقراطية راديكالية، وكنتاج لثلاث سنوات من الاتجاه إلى التقارب والوفاق داخل كل من وبين اليساريين، والليبراليين، والجماعات الإسلامية، وعدد لا يحصى من أنصار الدفاع عن تجاوز القومية نحو العولمة. وترجع تطوراتها إلى صيف عام ٢٠٠٢، حينما تدفق طوفان من ملايين

الأفراد في العواصم العربية والقاهرة إلى الشوارع في مسيرات تضامنية مع الانتفاضة الفلسطينية الجديدة. وحدث مثلها وعلى نفس الدرجة في عام ٢٠٠٣، عندما تضامن معهم آخرون عبر العالم، وقاموا بالاصطدام مع قوات الأمن في بلادهم، وعادوا إلى الشوارع من أجل معارضة الغزو الأمريكي للعراق (بيات ٢٠٠٣). وتتجسد الآن على أرض الواقع رؤية جماعية حساسة، وجديدة تتسم بالجسارة عبر العالم العربي بل وفي العالم أجمع، ولكنها لم تتجاوز بعد مرحلة التعبير عن الاعتراض إلى التحول في اتجاه الترابط المنسق لبرنامج سياسي قومي راسخ الأقدام.

وتحولت الاعتراضات المناهضة للنزعة العسكرية للقوات الأجنبية، إلى التشدد ضد الظلم وانتهاك حقوق الإنسان في الداخل وذلك في أكتوبر عام ٢٠٠٤. وكتب القاضي ورجل العدالة السابق طارق البشري بيانًا تم نشره على نطاق واسع ينادي المصريين بأن يقوموا "بسحب تفويضهم للحكومة والذي يساء استخدامه منذ فترة طويلة" وأن يقوموا باللجوء إلى عصيان مدني شامل (الغوباشي ٢٠٠٥). وتآكلت شرعية الدولة المصرية والدول الأخرى في المنطقة عندما قام مجموعة من المفكرين والمقيمين أغلبهم في القاهرة بتسريب مسودة من تقرير التنمية البشرية العربية، والذي تم إعداده من أجل برنامج تنمية الأمم المتحدة. وقامت الولايات المتحدة الأمريكية في تحرك لم يسبق له مثيل، بسد الطريق أمام نشر التقرير، لأن التقرير شمل الحكومة المصرية، والدول الشمولية الأخرى في المنطقة، والإمارات التي تقع على الخليج العربى، والسياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية المسئولة عن العجز في الخدمات الصحية للبشر، والتعليم،

والتنمية الثقافية في المنطقة، وكذلك تفشي الفقر والعزل الاجتماعي (خوري ٢٠٠٤). وكان التقرير لا مثيل له في إصراره في عصر ما بعد الليبرالية الجديدة على رفض الفصل بين تفشي الفقر والسياسة، وتحميل المسئولية للشخصيات الفاعلة قوميًا وعالميًا بدلاً من الركون إلى دواعي تكنوقراطية أو فنية.

ولقد بدا وكأن عصرًا جديدًا قد فتح أبوابه في تاريخ سياسات الشرق الأوسط في بواكير عام ٢٠٠٥، وذلك عندما قامت مجموعات من الجامعيين، ونقابات العمال، والصحفيين، وجماعة الإخوان المسلمين، لدرجة أنها ضمت زمرة من النخبة الرأسمالية وكونت جبهة واحدة لممارسة الضغوط على الرئيس محمد حسني مبارك، ليجبر حزبه الخاص بأن يسمح لمرشحين آخرين لمنصب الرئيس لخوض الانتخابات التي كانت ستجرى أمامه في انتخابات سبتمبر ٢٠٠٥. ولم تسفر الضغوط الداخلية والخارجية، وحتى "مبادرة الديمقراطية" تلك التي أطلقتها إدارة الرئيس "بوش" عن السماح بتعددية سياسية حقيقية، ولكنها في النهاية وبطريقة حاسمة أدت إلى عدم تجريم المسيرات السياسية للمعارضة، مما أعاد الشرعية إلى الكثير من الحركات الاجتماعية السياسية، وكذا بعض أشكال النزاعات العامة.

وطُلب من القاهريين بأن يذعنوا بالموافقة العمياء على مبادرة الرئيس مبارك للسماح لبعضهم بالمنافسة مع الرئيس مبارك في الانتخابات التي سيتم إجراؤها في ٢٥ مايو، وعلى الرغم من أن خطته أبقت على الكثير من عدم المساواة بين المرشحين، وآليات الترهيب التي تم ربطها بالعملية الانتخابية. وهاجم رجال البوليس السرّي بعنف تلك المظاهرات التي قامت بها سبعة من أحزاب المعارضة وحركة "كفاية" وكانوا يقومون بضرب المتظاهرين بينما كان رجال

البوليس بأزيائهم الرسمية يستمتعون بالمشاهدة ودون أن يحركوا ساكنًا. وقامت عصابات من رجال البوليس السرّي، وعلى غير عادة الهجمات العنيفة على المتظاهرين بواسطة المسلحين من رجال البوليس وبأزيائهم الرسمية في القاهرة، باستهداف السيدات المتظاهرات، وتمزيق ملابسهن وتجريدهن من الملابس بطريقة فاضحة أثناء الهجوم عليهن. وتجمعت بعدها بأيام، حشود من مئات السيدات بواسطة حركة النساء المسلمات التقدمية، لتنظيم مسيرة تجللن فيها بالسواد للاعتراض على التحرش الجنسي الفاضح الذي تعرضن له، وطالبن بالاستقالة الفورية لوزير الداخلية. ولم تتراجع النساء على الرغم من المزيد من المضايقات التي تعرضن لها، وبدلاً من ذلك قمن بتشكيل حركة "شايفينكم" احتجاجًا على ما حدث فيما أطلق عليه "يوم الأربعاء الأسود" يوم ٢٥ مايو، والعنف السياسي، وتزوير الانتخابات (برجاء الرجوع إلى موقع) www.shayfeen.com، وتقدمت جماعات المعارضة بمطالب تتمثل في إجراء إصلاحات حقيقية تماثل تلك الموجودة في الحواضر المتقدمة، وخضوع المسئولين للمحاسبة، واحترام القانون، ومراعاة حقوق الإنسان. وبدأت جموع من المناطق الشعبية وجماعات طلابية من المتميزين، وعلى نفس المنوال، بالتعاون معًا للمطالبة بانتخابات نزيهة، وتمكين المشاركة في المجال العام بما يتماشى مع المطالب الشعبية.

وقدمت الحكومة المصرية وعدًا للدكتورة رايس وزيرة الخارجية الأمريكية إبان زيارتها للقاهرة في ٢٠ يونيو ٢٠٠٥ بأن المسيرات التي سوف تقوم بها المعارضة ستتمتع بحرية التجمع والتعبير عن نفسها بدون الخوف من التعرض لأي نوع من أعمال البطش. ولكن التغيير الوحيد الذي تم تنفيذه هو أن ضباط البوليس السرّيين، والغوغاء المدفوعين بأجر (وهم نفس الأشخاص الذين كانوا

يجوبون الشوارع لترويع الناخبين في أيام الانتخابات)، هم الذين قاموا بتنفيذ هذه المهام القذرة كبديل لقيام رجال البوليس بذلك بأزيائهم الرسمية. وعاود رجال البوليس الاستمرار في مهاجمة المعارضين أواخر يوليو. كما تعرضت القيادات العليا لحركة كفاية للضرب المبرح بشراسة بالغة، واحتجزوا وتم نقلهم إلى مراكز اعتقال عسكرية في الدراسة بالقاهرة. ويتساءل الصحفيون والمراقبون وعلماء الاجتماع الذين يشهدون هذا المستوى الجديد من الصراع وانفجار مقاومة المواطنين: من أين أتت هذه الإجراءات الجماعية؟ وهل تبدو هذه اللحظة التاريخية في القاهرة وكأنها تشي بالطريق الذي ستسلكه العولمة أو التحول الديمقراطي في الشرق الأوسط؟

وأصابت عمليات تغيير التحالفات والزيادة الهائلة التي حدثت في أنشطة الحركات الاجتماعية، وسائل الإعلام الرئيسية والكثير من المراقبين الأكاديميين بالشلل التام، وأوقعتهم بين مطرقة مشاعر الزهو الذي ينتاب الغرب بضرورة انتصار ثقافاتهم، وسندان اليأس من مشاعر الخوف من الإسلام والمسلمين. وأدرك هؤلاء الذين كانوا يراقبون الأوضاع في الشرق الأوسط أنهم كانوا يجهلون الأسباب الكامنة وراء الأنماط السياسية والاجتماعية الجديدة التي توسم بها أكبر مدينة في الشرق الأوسط وزعيمة العالم العربي في عالم اليوم. واندفع المعلقون من الليبراليين الجدد والمحافظين الجدد في أنحاء العالم في وصف آليات المعارضة القاهرية التي وقعت في عام ٢٠٠٥ على سبيل المثال كجزء من "ربيع الديمقراطية" في الشرق الأوسط. وأخذ كل من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية جورج بوش وتوني بلير رئيس وزراء بريطانيا في البحث عن بديل للحجة الواهية الخاصة بالإجبار على نزع السلاح وذلك عندما انهالت عليهما مطارق الهجوم من جراء اصطناع المعلومات بشأن أسلحة الدمار الشامل في العراق بمبرر آخر يتمثل في تشجيع الديمقراطية. وأخرست ضخامة المفاجآت في نتائج الانتخابات، والأرقام

القوية التي حققها التيار الإسلامي في الانتخابات المصرية (وكما حدث أيضًا في فلسطين، والعراق، ولبنان) مشاعر الزهو الغربية ومقارناتها للانتخابات العربية بتلك الثورات الديمقراطية التي حدثت في أوروبا الغربية، وأمريكا اللاتينية في سنوات الثمانينيات، أو تلك الأحدث منها والتي أُطلق عليها اسم "الثورة البرتقالية" في أوكرانيا عام ٢٠٠٣ ("تغير المناخ في الشرق الأوسط": ٢٠٠٥؛ و"المخاض" أو ***Something Stirs***). وجعل العويل المبالغ فيه على هزيمة مرشحي قادة المعارضة، أو افتراض أن الحضور القوي للإخوان المسلمين ومرشحيهم يمكن أن يزيد من تيار الأصولية أو الإرهاب أولئك المراقبين من الليبراليين أو المحافظين الجدد يتجاهلون التغييرات النشطة التي خلقت جيلاً جديدًا من النشطاء الذين يؤمنون أكثر بالتعددية والديمقراطية، بمن فيهم الإسلاميون، وخلقت أرضية مشتركة للإجماع فى العديد من المجالات بين طوائف المعارضة والتي تُجسد جزئيًا بعض هموم اليساريين وأنصار المرأة.

وبدأت جماعة "الإخوان المسلمون" والجماعات الإسلامية الأخرى أثناء سنوات الثمانينيات والتسعينيات في الدفاع عن تعددية الأحزاب السياسية، بما في ذلك حق الأحزاب العلمانية في التواجد داخل الدولة الإسلامية المقترحة، والحقوق الكاملة للمواطنة للأقباط والمرأة. ويفترض الغرب أن المجادلات التي تجري ستكون حتمًا بخصوص تطبيق قوانين الشريعة الإسلامية، وأن الجنس هو الذي يستحوذ على سياسات "الإخوان المسلمون"، وأن الهاجس الذي يسيطر دومًا على قطاعات شعبية عريضة من هذه الجماعات، هو عن تصرفات وسلوكيات وأخلاقيات وجسد المرأة والفتاة - ولكن هذه المبادرات السياسية للجيل الجديد من القيادات تتصدر الجهود الوطنية من أجل مواجهة وحشية الشرطة، والتعذيب، والقمع الذي تمارسه الدولة، وأحوال السجون، وعدم شرعية قانون الطوارئ الذي تم فرضه منذ عام ١٩٨١ (الغباشي ٢٠٠٥؛ ٢٢٥، ٣٧٤-٧٩). ولا توجد أوضاع

ثقافية موحدة، ولا نظرة واحدة للعالم بين الشخصيات الفاعلة في المعارضة، ولكن هناك أحاسيس مشتركة بالإهانة والغضب من القمع وغياب الديمقراطية والحقوق السياسية مما وضع الإخوان في معسكر الديمقراطية في هذه الموضوعات البالغة الحساسية وفي هذا الوقت العصيب. وكشف تحالف "كفاية" للقاهرة وللعالم أجمع الآلية العتيقة والقاسية التي تتسم بها هيمنة الحزب الحاكم، وعن طريق إلغاء التفويض الشعبي لنظام الحكم، فإن انشقاقهم سيظل له تداعياته المستمرة. وكانت أكبر حركة احتجاج شعبي هي تلك أحجم فيها ٢٥ مليونًا من الناخبين المسجلين (بما يعادل ٧٧% من كافة الناخبين المسجلين) عن الذهاب للإدلاء بأصواتهم في الانتخابات الرئاسية والتي رفضت منح الفائز التفويض الوطني (الاحتجاجات تُفسد فوز مبارك ٢٠٠٥). وفاز مبارك في النهاية بنتيجة الانتخابات، ولكن من أجل ذلك الهدف، انكشفت عمليات السيطرة غير القانونية على التصويت، وهكذا تخلى عن ادعاءاته بالالتزام بالشرعية والقانون في عيون قطاعات عريضة من عامة الشعب. ونجحت شجـــاعة أنشطة الحركة الشعبية في المقام الأول في خطف جميع الأضواء على الـــرغم مـــن قسوة قوات الأمن، وبراعة الحكومة الفائقة في التلاعب بالانتخابات.

التحرك بعيدًا عن التصورات السابقة

وكشف صيف التحديات السياسية في القاهرة في عام ٢٠٠٥ الطبيعة العنيفة والقمعية وعلى نطاق واسع للعولمة والليبرالية في الشرق الأوسط - وهي هنا في حالة مصر على وجه خاص، دولة يتم إدارتها طبقًا لمصالح النخبة، ودولة تقوم بدعم مجموعة من الرأسماليين في القاهرة، الذين يطلقون على أنفسهم مسمى "ليبراليين"، أو "أنصار العالمية"، أو "أنصار الديمقراطية"، لأنهم يقومون بتسهيل

الطريق أمام الاستثمارات الأجنبية في المجال الاقتصادي، وذلك على الرغم من أنهم يصرون على ممارسة القمع، ومد العمل بقانون الطوارئ، وممارسات الدولة البوليسية في المجال السياسي. وكما تقول منى الغباشي "فإن أعضاء الحزب الحاكم في مجلس الشورى يمكن أن يكونوا على مستو عال من المعرفة التقنية، وحاصلين على درجاتهم العلمية من الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنتهم الإنجليزية أمريكية بالتأكيد، كما أنهم يميلون إلى هيمنة القطاع الخاص وسيطرة قوانين السوق، ولكن عندما يكون الأمر متعلقًا بالالتزام بالدستور في معرفة آراء المواطنين، أو حماية المواطنين من قوة الدولة التعسفية، فإن الصمت الذي يلفهم يكون ملموسًا للغاية" (الغباشي ٢٠٠٥).

وكانت القاهرة – ولفترات طويلة – مركزًا لجدل عنيف، حيث التدفقات المتزايدة من العمالة والاستثمارات والمعونات الأجنبية والهجرة ووسائل الإعلام والنشطاء السياسيين والقانونين من المنطقة والعالم بأسره يتفاعلون مع ثقافتها وتراثها الإنساني ومؤسساتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ولقد قمنا بجعل التساؤل "القاهرة: عاصمة للعولمة؟" كعنوان لهذا الكتاب لإدراك منا لمحدودية القدرة علي إجراء تحليل على نطاق الأمة بأسرها، والتي تقلل من أهمية التدفقات الاجتماعية والثقافية والسياسية العابرة للحدود. وها نحن هنا نقوم بتقديم براهين واضحة لادعاءات بالعالمية وبألفاظ دارجة، من أخمص قدميها إلى قمة رأسها، لحرية شعب جرى تزييف حقيقته وممارسات بادعاءات بين الكثير من أفراد وقوى جماعية في القاهرة. ونحن نشهد هذه الدعوات الحاسمة بتطبيق مبادئ العولمة وهي تطالب بوضوح وعلى رؤوس الأشهاد بالعدالة، وإخضاع كافة المسئولين للمحاسبة، والتمثيل الحقيقي للكافة، وبحقوق المواطنة، والحقوق السياسية

والاجتماعية. وتعمل أجزاء وفصول هذا الكتاب بالتناغم لتقوم بشرح حالة التوتر التي تحيط بالظروف السياسية، والثقافية، والتنمية العمرانية الجديدة، في الشرق الأوسط الجديد.

وتستكشف هذه الدراسات المُكرسة معياريًا من أجل تجاوز تفريعات الحداثة لما بين ما هو محلى وما هو عالمي، القوى المتناقضة والمؤثرة فى عالم القاهرة المعاصرة، وكل منها تتيح فرصًا كما تضع قيودًا لا يمكن تجاوزها. وتقدم الدراسات التي جمعناها في هذا الكتاب أدلة ساطعة على أن مدينة القاهرة وقاطنيها لا يكتفون فقط باستقبال نتاج العولمة، ووسائل الإعلام التي تبثها الأقمار الصناعية، وثقافة الاستهلاك، والقمع الذي تمارسه الحكومة، ولكن تتفاعل الحركات الاجتماعية والثقافية المشتركة، والتجمعات العمرانية، والحركات الشعبية، وحتى تلك المشروعات شبه الحكومية المستقلة، أو طوائف النخبة المنشقة كلها، بالعديد من الطرق المتناقضة. وتتحرك كلها داخل، أو من خلال، وضد الهيئات الحكومية المهيمنة والهياكل المكانية والاقتصادية، ومعبرة عن شكل من أشكال الذاتية والنفوذ *(agency)*، ولكن تحت ظروف ليست من اختيارهم الخاص، وبعلاقة مع سلطة متجردة من الإنسانية موجودة بوليسيا طوال الوقت.

بتأصيل هذا العمل الجامع في مسارح الأحداث الحقيقية، وصراعات مستوى الشارع العادي، فإننا نستهدف التدقيق في المدى الذي وصلت إليه سطوة تيار العولمة في المشهد الحضري، والصراع الاجتماعي والسياسي في الشرق الأوسط من الموقع المتميز الذي تحتله مدينة القاهرة. ونحن نقوم بتقديم وجهات نظر شاملة وجديدة من نقطة استشراف متميزة نستطيع منها أن نقوم بالاندماج وتقدير كل فئات البشر، والاقتصاديات، والمؤسسات الفاعلة، حتى ولو كانت نادرًا ما تقوم بإثارة انتباه الباحثين، ووسائل الإعلام التي تقوم برسم صورة تقليدية مألوفة عن

الأصولية، والديكتاتورية، والعنف في المنطقة بأسرها. وقد قمنا من خلال بحث وتبويب هذه الدراسة، بإعادة استكشاف كيف أن ممارسات دولة شمولية، وإدارة حكومية لمدينة، وهيئات للضبط الاجتماعي وهويات وطنية متأرجحة، تصطدم كلها فى أتون صراع داخلى، وهى متشرذمة فى أغلب الأحيان وحبلى بالعديد من المفاجآت. غير أننا لا نقوم بتقديم وصفة سحرية موحدة لأنماط المقاومة أو صورة وردية للمستقبل. وتتصف الهيمنة داخل القاهرة بأنها معقدة وديناميكية، ولا تزال شديدة القسوة بطريقة لا يمكن إنكارها وتتسم بالطبقية، وغالبًا بالعنف. وعلى الرغم من ذلك، فإن الهيمنة في أنماطها المتشرذمة، لا تسد الطريق تمامًا أمام الإبداع وحرية الإرادة. وسنقوم بتسليط الأضواء الكاشفة في هذا الكتاب على التغيرات المفاجئة في الأحداث، وهيكل الحراك الاجتماعي وذلك عن طريق عرض التجارب المختلفة في الاقتصاد السياسي، والجغرافيا الاجتماعية، والجغرافيا السلالية للحضر (الإثنوغرافيا الحضرية) ، وذلك عن طريق دمجها بمناهج البحث الأقل كفاءة مثل "العقلانية"، والعلوم الاجتماعية الإيجابية.

القاهرة مدينة للعولمة:

الليبرالية الجديدة والصراع حول الأماكن العامة والموارد

يجب أن يتم فهم الاضطرابات التي وقعت في صيف عام ٢٠٠٥ من خلال تغييرات أكبر حدثت في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين. وتشمل هذه التغييرات ظهور اقتصاد مكاني جديد، حيث أدت العولمة والتعديلات الهيكلية على الاقتصاد إلى ارتفاع نسبة البطالة، وبصفة خاصة لدى الخريجين الشباب، ومع التخلص من إرث القطاع العام من أجل دعم القطاع الخاص (برجاء الرجوع إلى الجزء الخاص بفينجال ودينيس في هذا الكتاب)، بغرض بناء مجتمعات رفاهية حضرية ذات أسوار مغلقة من أجل مجتمع غامض ذى توجه ترفي.

وتبرهن "أمنية الشاكري" في الجزء الذي تسهم به في هذا الكتاب أن وصم العامة من السكان بالغوغائية هو أمر مرتبط بتبني الدولة للنظام الليبرالي الجديد. ويزعم واضعو الخطط العمرانية والنخبة السياسية منذ عهد الرئيس السادات في عام ١٩٨١ أن الكثافة السكانية تقوم بابتلاع وعود ثمار التنمية، وقامت الحكومة بنشر قوانين، واستراتيجيات استثمار، وسياسات صناعية واستثمارات للبنية التحتية من أجـل دعم وتشييد مدن تابعة في الصحراء من أجل تسهيل إعادة التوزيع المثمر للسكان.

وتحتاج مسألة الهجرات السكانية للمصريين ليس فقط مكابدة البحث في مسألة هجرة مئات الآلاف من المواطنين إلى دول الخليج أو أوروبا أو إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن أيضًا الهجرات الداخلية إلى أعمال في المدن الجديدة التابعة أو المناطق السياحية حيث الحاجة إلى العمالة، وأينما وجدت هذه الأعمال، وإعادة الروابط الاجتماعية والثقافية للمجتمعات الحضرية وإعادة تشكيل هوية حضرية انتقالية، ومنظور للمساواة بين الجنسين، وهوية دينية جديدة في طور التشكيل. وبينما يمكن أن تكون النخبة المصرية مفعمة بمشاعر الأمان داخل تجمعاتهم السكنية ذات الأسوار المغلقة، وهم يقومون بإدارة امتيازاتهم في المدن الصناعية التابعة، فإن هجرة هؤلاء النخبة من قلب مدينة القاهرة يصاحبها ما يقوم "دينيس" بتسميته بالحديث عن "مخاطر الأمان"، والتي توصم المدينة والفقراء من مقيميها بالفقر، والتلوث، والفوضى، والإجرام، والعنف، والإرهاب. وتجعل سياسة "المخاطر" هذه في الإمكان، كما تقدم المادة الأساسية لكافة الأشكال المتطرفة من التعسف، بل وربما العنصرية مثلها مثل "الحرب على الإرهاب" و"الحملة ضد التلوث" وتلقي بتهم بأوضاع قانونية غير مؤكدة على الطبقة العاملة من أهل القاهرة، والمهاجرين من إفريقيا السوداء.

وكما يُذكرنا "الششتاوي" في الفصل السابع من هذا الكتاب فإن هناك اتجاهات عالمية في المدن تتميز بأنها ترتبط بجهود "لإحاطة البعض بأسوار، وبقاء الآخرين خارجها" (التقرير العالمي للأمم المتحدة عن المستوطنات البشرية ٢٠٠١، ٣٠). ومع قدوم بشائر العولمة حدثت درجة عالية من الفصل في كل من مجالي الإنتاج والاستهلاك، حيث يقع الاقتصاد في حبائل التدفقات العالمية، والامتيازات الأجنبية التي تهتم بإضفاء طابع الملذات الجنسية، والاهتمام بتمييز الطبقة الاستهلاكية وذلك من خلال سُبل مميزة (راجع كونينج في هذا الجزء). وكما يشرح كل من فيجنال وأريك دينيس في الفصل الخاص بهما فإن السلع والخدمات يتم تصميمها وإنتاجها خصيصًا إما لأسواق الرفاهية، أو لأسواق للفقراء، حيث يتم تخصيص المراكز التجارية الفخمة للأثرياء أصحاب السيارات، في ضواحي المدينة عبر الطريق الدائري، - بينما يقوم الاقتصاد غير الرسمى والمؤسسات الصغيرة للعمال المهرة والمؤسسات العائلية بتقديم إنتاجها وخدماتها التى تندرج تحت مسمى الدرجة الثانية. وتعتمد كل قطاعات الاقتصاد على العمالة منخفضة الأجور، وعلى كل حال، فإنها لكي تحتفظ بالقدرة على المنافسة على مستوى العالم، فيجب على الدولة أن تؤمّن بقدر ما تستطيع أن تظل هذه الأجور في أدنى مستوى لها.

ويجب أن نستوعب أن تلك الاضطرابات التي حدثت في صيف عام ٢٠٠٥ قد حدثت في سياق الترتيب الطبقي للاستهلاك والإنتاج وتوفير الخدمات. ولا تُعد من قبيل المفاجآت أن المطالبات الجديدة والمُعبرة وعلى نطاق واسع بالحقوق الاجتماعية والسياسية وتطبيق الشرعية، ومبادئ حقوق الإنسان والمواطنة، والحق في انتخاب القادة ورجال البرلمان يتم خلقها من خلال الاقتصاد السياسي المكاني الجديد للقاهرة، والعنف العابر للأوطان والمرتبط بالجغرافية الثقافية والاجتماعية.

ومن المدهش أيضًا وعلى نفس الدرجة أن يتم قمع هذه المطالبات، والإصرار عليها، والتنظيمات الجديدة، وبقسوة، ولكن عمليات القمع والإبعاد لم تتمكن من محو القوة الدافعة تجاه النضال.

وسما أفراد الشعب فوق أوضاعهم والتي يعتبرون بموجبها مجرد طبقات خطيرة تشعر بالحنق متواجدة فيما يمكن أن يمكن أن يُطلق عليه "شارع العرب"(*) خلال هذا الصيف الطويل المشحون بالأحداث. وبرز القاهريون مرة أخرى كمواطنين يتدثرون بغطاء السيادة الشعبية، وسيادة الشرعية والقانون. وطالبوا بأن تتم وبطريقة حاسمة إعادة تحديد مشاكل الديمقراطية والشرعية والعدالة الاجتماعية في شوارع أكبر المدن والتي تقع في قلب أكثر مناطق العالم الاستراتيجية حساسية من الناحية الاقتصادية والسياسية والدينية وهي الشرق الأوسط، وطالب القاهريون بوضع معين من الأوضاع العالمية كما طالبوا بنفوذ عابر للأوطان.

ونطلب من السادة القراء لهذا الجزء أن يأخذوا بعين الاعتبار الاقتصاد المكاني الجديد والمتغير للشرق الأوسط كما تم استشرافه من خلال الاستناد على دراسة الحالات التي تم إجراؤها في القاهرة. ونقوم بدراسة حالات سكان القاهرة الذين يقومون بقيادة سياراتهم للتسوق في المراكز التجارية الكبرى التي تتسم بالبذخ والفخامة والتي تم تشييدها بتمويل من شركات دبي، وعلى غرار النماذج الخليجية، بينما يظل الآخرون بعيدًا عن ارتيادها لأن رجال أمن هذه المراكز التجارية يرون أنهم يمثلون تهديدًا للمكان أو لأنهم يرتدون ملابس رثة. وتحولت بعض هذه المراكز التجارية المتطورة نفسها لتصبح جزءًا من القطاع السياحي الضخم، بينما

(*) مصطلح Arab street شارع العرب أو "عرب الشوارع" تعبير ازدرائى دُرج على استعماله لوصف الأطفال المشردين فى نيويورك فى القرن ١٩ وحقبة ما بعد الحرب الأهلية الأمريكية (المترجم)

يقوم قاطنو الوجه القبلي وأهل الطبقة المتوسطة من أقاليم الدلتا باستخدام الأتوبيسات السياحية من أجل تجربة هذا المشهد الاستهلاكي، ودور السينما، والملاهي، والملاعب، والمطاعم الكبرى، وعدد لا نهاية له من المحلات التجارية. وبينما تستمر عملية بناء المراكز التجارية الكبرى، فإن هناك العديد منها يمر بأزمات اقتصادية، وأخرى تظل نصف خالية مما يشل قطاع البنوك كما تقول "منى أباظة" في الجزء الخاص بها من هذا الكتاب. وتصف "فرحة غنّام" وعلى مستوى شخصي أكثر من ذلك، الوسائل التي يصبح بها العمال المهاجرون أكثر ارتباطًا بعائلاتهم حينما يعملون بالخارج، حيث يتواصلون معهم باستمرار، ويقومون بتعزيز وإنعاش آمالهم وآمال الأسرة المادية في المستقبل. وطبقًا لتوضيحات "ليلا فيجنال، وإريك دينيس في هذه الكتاب فإن ما يقرب من مليوني مصري يعملون في دول الخليج، ويتم ضخ تحويلاتهم في اقتصاد القاهرة بالتوازي مع إيرادات السياحة (٣ بلايين دولار أمريكي مقابل ٤ بلايين دولار). وقامت هذه التحويلات بتغذية التوسعات المتسارعة للمجمعات السكنية غير الرسمية وغير المخططة (أو العشوائيات كما يطلق عليها)، للتوسعات العمرانية للقاهرة الكبرى، والتي تأوي في الوقت الحالي أكثر من نصف سكان القاهرة، كما قامت بتلبية الاحتياجات السكنية لنسبة تقرب من ٨٠% في السنوات العشرين الأخيرة. كما ساهم القطاع غير الرسمي في توفير ٤٠% من الوظائف غير الزراعية *(Denis and Sejourne 2002)*.

ويناقش العديد من مؤلفي هذا الكتاب نتائج تلك الحقبة من الخصخصة الحصرية لنموذج الليبرالية الجديدة والمصحوبة بأجور ضئيلة، ويتخذون منه موضوعًا لوضعه تحت مجهر البحث. ويعتبر تعريف المكان "العام" الحقيقي غامضًا في قاهرة اليوم، فبينما يتم إخلاء الأماكن العامة السابقة فضلاً عن تفريغ أحياء بأكملها من سكانها، فإنه يتم إعادة ترميم المعالم التاريخية في أحيائهم السكنية

بطريقة طائشة، وتجديدها بطريقة سيئة للغاية من أجل جذب السائحين من مختلف دول العالم وخلق النموذج الخاص بهم من ألف ليلة وليلة للقاهرة الإسلامية، وكما تشرح "كارولين ويليامز" في الفصل الخاص بها. وكما يبحث "ياسر الششتاوي" على نفس المنوال مصير ميدان عام يقع بين مدرسة السلطان حسن (وهي مدرسة دينية من القرن الرابع عشر)، وجامع الرفاعي (وهو مسجد من القرن التاسع عشر)، والذي تم تحويله لاستخدام المشاة في بداية الأمر في عام ١٩٨٤، وأصبح يشتهر برواده من السكان المحليين، حيث كان هناك القليل من ساحات الأماكن العامة في أحياء القاهرة القديمة المتعددة الاستخدام. ولكن بحلول عام ٢٠٠٣ قامت الحكومة بإقامة سور وإغلاق البوابات المؤدية إلى المسجد، حيث رأت الحكومة أن السكان المحليين هم خطر يجب احتواؤه وإزالته، وحتى يتمكن السائحون العالميون من الاستمتاع بمكان صحي (وتعني بذلك المكان الخالي من المصريين). وتبرهن حالة هذا الميدان العام والذي يقع بين اثنتين من الآثار العظيمة في القاهرة الإسلامية كيف أن المواقع السياحية في العصر الحديث تتباه باستعراض هويتها المصرية وذلك فقط عن طريق سيناريو تم إعداده بحذق ليميل إلى تجارة السياحة العالمية. ويتم تشييد المزيد من الأسوار العازلة حول منطقة القاهرة الكبرى بالمعنى الحرفي أو المجازي، سواء كانت الحكومات هي التي تقرر تحويل المراكز التجارية المفتوحة بصفة رسمية أمام كل المشاة كمراكز تقتصر على السائحين، أو مستثمري التعمير متسلحين بالأراضي التي يحصلون عليها بالقروض المدعومة من الدولة، وبناء التجمعات ذات الأسوار المغلقة والمنعزلة عن المناطق الحضرية في المدينة.

ويقوم المسئولون في الكثير من المدن العالمية بتشجيع تقسيم فراغات الأماكن العامة (راجع في ذلك التحليل الذي كتبه الششتاوي في الفصل العاشر من

هذا الكتاب) ليفوزوا بغنائم السائحين والمستثمرين، ولكن ذلك يؤدي إلى إحداث تفرقــة حادة بين الأغنياء والفقراء والتي ليست تفرقة اقتصادية فقط في طبيعتها *Sassen, 2001*. وتظهر هذه النظرة السياسية والاقتصادية بطريقة صارخة في التخطيط المكاني الجديد للقاهرة، وتحاول هذه الدراسة من خلال العمل الميداني المتأصل، والتفصيلي، وبتركيز أكبر على المجال العِرقي، وذلك من أجل استعراض الوسائل التي تمكنت بها التعديلات الهيكلية، والخصخصة أو العولمة بأن تسيطر على الاقتصاد السياسي المكاني للقاهرة. ويصف الفصل الذي تكتبه "بيترا كوبينجر" على سبيل المثال، التفاوت المزعج بين قرية ليست لديها مياه شرب أو خدمات في محافظة الجيزة، وبين هضبة الهرم التي تجاورها والتي تتدفق إليها الاستثمارات الوطنية والعالمية من أجل تشييد البنية التحتية، والمتاحف، والفنادق الفاخرة فيها. وتعتبر الأهرام جوهرة مصر الخلابة التي تمثل تراثها الوطني، ويُنادى بها كأيقونة العجائب لحضارة العالم. ولكن يتم تحويل أهرام الجيزة والمواقع السياحية الشهيرة الأخرى شيئًا فشيئًا إلى نوع من السلع التي تتم المتاجرة بها كجزء من اقتصاد السياحة العالمية، ومعتمدين عليها بطريقة كلية. فهل تقوم الدولة المصرية بالاستثمار من أجل توفير المياه النقية لأحياء الطبقات الدنيا في الجيزة أم تلجأ إلى محاولة جمع ٣٥٠ مليون دولار من أجل بناء متحف - المتحف المصري الكبير- وذلك من أجل تجميع كل القطع الأثرية المصرية في مجمع على مساحة تبلغ مائتى فدان؟ وكما يقول الششتاوي في الفصل العاشر فإنه في الاقتصاد السياحي العالمي تصبح المدن نفسيا من المعالم السياحية. وتتحول إلى متاحف ضخمة، ومواقع للتراث الإنساني، أو تتحول إلى مساحات من الفراغات الخضراء حسب الاتجاهات الحديثة مثل حديقة الأزهر التي تم بناؤها حديثا، ولكنها لا تعدو إلا أن تكون محاولات من أجل الحفاظ على حصتها في السوق. ويتطلب اقتصاد السياحة من الحكومة المصرية أن تظل مهمومة من أجل احتياجات

ومتطلبات ورغبات عملائها من السائحين الدوليين، في نفس الوقت الذي يلف فيه الصمت الرسمي على المتـــاعب والهمـــوم الواضحـــة للمجتمـــع الذي يقطن على مرمى حجر من أولئك السائحين.

وبالتبادل بين الدراسة التي يقدمها "أرمبريست" لمشاهدة عرض سينمائي في وسط المدينة، ودراسة "باتيستي" عن حديقة الحيوان واللتين تستعرضان كيف تقوم الطبقات الشعبية بخلق جو شعبي عام وكيف يقومون بالاحتفاء بالزحام والكثافة السكانية. ويُذّكرنا "باتيستي" في دراسته بأن أساطير عصر الحداثة والتي تحتفي بالأحوال الصحية للعامة ليست جديدة على الإطلاق وإنما تعود إلى القرن التاسع عشر عندما كانت الأماكن الخضراء وأنماط الفراغ الحضرية المرتبة من أجل تنظيم الزحام وتكريس تلك الأماكن من أجل أفراد البرجوازية الحديثة. وتعود اليوم تلك الأحاديث التي تنتمي إلى القرن التاسع عشر في شكل حصري أكثر منه إلى شكل تنظيمي. ويتم الاحتفاء على سبيل المثال، بحديقة الأزهر التي تم افتتاحها حديثًا على أنها واحة خضراء ضخمة من الهندسة المعمارية الإسلامية الحديثة والتي تعبّر عن توجه القاهرة الحديث لتحويل الإرث العام إلى جزر إسلامية مغلقة. وتمتلئ هذه الحديقة مثلها مثل الكثير من المراكز التجارية بالسائحين الأثرياء من السعودية ودول الخليج الأخرى وعلى وجه الأخص في شهور الصيف، فقد تم تصميم هذه الأماكن بحيث تقوم بخدمة الاستعراضات الاستهلاكية لمواطني دول الخليج أصحاب الدخول العالية أكثر منه لتحويل هذه الأماكن لخدمة أهل الحضر المحليين إلى برجوازيين منتجين.

ويوضح "بيوج" في هذا الكتاب أن جزءًا لا يستهان به من العروض الغنائية قد تم تحويلها لتتناسب مع أذواق ورغبات القادمين من دول الخليج العربي. ويقوم كل من "بيوج" و"صادق" بشرح هذا التأثير المتنامي لعرب دول الخليج، وكذا المصريين المنتشرين في أرجاء أوروبا، والنازحين الجدد من الصحراء الإفريقية

الكبرى والمهاجرين الشرقيين إلى القاهرة بأنهم قاموا بتنويع المجال الفني للموسيقى المصرية الحديثة بينما تصبح القاهرة أكثر وعيًا بطبيعتها العالمية، والتي تضم الأنغام الموسيقية الإسبانية، والنوبية، والعربية، أو تلك التي تخص جنوب آسيا.

ويناقش كل من "فيجنال"، و "دينيس" بجدية الدرجة التي يمكن إليها اعتبار القاهرة "مدينة عالمية"، وذلك على الرغم من كثافة التدفقات الثقافية التي تعبر إلى مصر عبر القارات من أوروبا ودول الخليج والتي يناقشها كل من "أرمبريست"، و"صادق"، و"أباظة"، و"الغنام" في هذا الكتاب. ويبديان رأيهما بأن مصر بأي حال من الأحوال تظل على المحيط الخارجي للتدفقات المالية العالمية بجزء لا يكاد يظهر لفرط صغره في السوق العالمية للأسهم (وقد انتفخت سوق الأوراق المالية المصرية بطريقة مصطنعة ومبالغ فيها عن طريق الخصخصة وبيع شركات القطاع العام)، ومستويات مثيرة للإحباط من الاستثمارات الأجنبية المباشرة، ونمو ضعيف للصادرات، وخدمات مالية وقطاع بنوك هزيل نسبيًا. وتقدم حالة القاهرة في حقيقة الأمر الكثير من الانتقادات للأبحاث عن المدن العالمية، لأن الخصخصة والتعديلات الهيكلية، والتدفقات العالمية والشبكات التي تتبعها - كان لها تأثيرها الهائل على قطاع الصناعة والتصنيع المصري القوي أكثر من قطاع المعلومات والحواسب والقطاعات المالية وقطاع الخدمات والتي غالبًا ما يكون لها قصب السبق في الاقتصاديات الجديدة. وقد تغيّر القطاع الصناعي الذي كان يتسم بالضخامة في مصر، حيث طالت يد الخصخصة الغاشمة أغلبها، أو تم إدماجها في غيرها، ومع ذلك بقيت قوية ومتنوعة وتميل إلى السوق المحلية بدرجة كبيرة. وقد أشعل القطاع الصناعي في القاهرة شرارة تولّد قوى اجتماعية جديدة، تقوم بالتركيز على التفاوت الاجتماعي، وعلى أنماط استهلاكية للنخبة، وعلى الإقصاء الاجتماعي، والسكان الذين يجاهدون من أجل مجاراة مستويات المعيشة العالمية، بينما تظل مستويات المعيشة للكثيرين محلية بالكاد ومحدودة، وفي مستوى الفقر

فضلاً عن ألانعزال (راجع فيجنال ودينيس في هذا الكتاب). وتسبب الاقتصاد السياسي المكاني الجديد للقاهرة الكبرى في تغيير الملامح المنظورة للمشهد الحضري، حيث قام بتشكيل دوائر جديدة للتوزيع السكاني، ووسائل مواصلات مزودة بتكنولوجيا وخدمات جديدة. وتضخمت كل من البنية الصناعية والسكانية بطريقة متزايدة ومتشعبة بالتزامن مع هذه التحولات الجديدة، وخطط التطوير العمراني. وبقيت هناك آثار من قطاع صناعي يشتمل على مصانع استغلالية تضم عمالة تكد بدون الحصول على كامل حقوقها (وتمثل مثل هذه المصانع ما بين ٢٧%-٤٠% من الأعمال طبقًا لبعض المصادر)، والتي غالبًا ما تكون ذات إنتاجية عالية في بعض أنشطة سلاسل الصناعات المرتبطة ببعضها البعض وتعتمد فقط على العمالة ذات الأجور المتدنية والتي يمكن الحصول عليها بسهولة من تلك الأحياء المكتظة بالسكان. ونقلت دوائر التوزيع والاستهلاك الخاصة بالليبرالية الجديدة أسواق مهمة لتجارة الجملة للمواد الغذائية والمنسوجات إلى خارج قلب القاهرة *(Gertel 1997)*. وكما يوضح "ويليامز" في هذا الكتاب فقد قدم محافظ القاهرة اقتراحًا بنقل ١٢٠٠ بائع من تجار الأقمشة من منطقة الموسكي إلى مركز تجاري جديد في العباسية بالقرب من مركز الشرطة بحجة أن الضوضاء والزحام والتلوث الناتج عنهم يؤثر على السياحة في منطقة خان الخليلي القريبة منها. وقامت الحكومة منذ بضع سنوات مضت بنقلُ أسواق الجملة للخضر والفاكهة بمنطقة روض الفرج إلى مناطق الضواحي رغم الاحتجاجات المنظمة، وبالرغم من ذلك فشلت الحكومة حتى الآن في نقل تجار الملابس إلى موقع جديد.

وتعج قاهرة اليوم بأباطرة "الإقصاء" البازغين، وأنماط أعيد ترتيبها من العنف الاجتماعي، والتي تبرزها الأبحاث المُدرجة هنا. ويقول كل من "فيجنال"، و"دينيس" أن مصر تعتبر ذات قدرات تكنولوجية ضعيفة أو متواضعة، وأنها تدين لتكاملها مع مجموعة من الجزر الحضرية في العالم إلى وفرة ورخص الأيدي

العاملة لديها، حيث تعمل كل قطاعات الاقتصاد على أساس الحد الأدنى للأجور للعمل، وتقديم أقصى الدعم للنخبة من أجل المضاربات. وبينما يرتبط كل رجال الصناعة في الغالب بالشركات العالمية والمقربين إلى الحكومة، مستفيدين من التخفيضات الضريبية، والإيجارات الزهيدة في المدن الجديدة التابعة والمترامية المساحة مثل السادس من أكتوبر، والعاشر من رمضان (والتي بدأ تشييدها في عام ١٩٧٩)، حيث يقوم العاملون برحلات يومية مضنية ولمسافات طويلة عن طريق سيارات الميكروباص، مما يجعل من تلك الرحلات أكثر صعوبة على النساء في سبيل الحصول على هذه الأعمال والمتاحة للقطاع الخاص (أسعد ٢٠٠٤). ونحن نرى أن العلاقة بين أباطرة الإقصاء والعولمة لم يتم تأكيدها بدرجة كافية في الدراسات الخاصة بالعالمية.

ويتم إعادة خلق هؤلاء الأباطرة خلال طفرات التغييرات في هياكل المجتمع في النظام الليبرالي الجديد في قاهرة اليوم. وربما يظل الشباب المهاجر للخارج مغتربًا لسنوات طويلة من أجل توفير نفقات الزواج الباهظة والإعداد لالتزامات مسكن الزوجية (سينجرمان وإبراهيم ٢٠٠١). وكما تقول "غنام" في هذا الكتاب أن العمل في دول الخليج لأصحاب الأجور المتدنية هو الطريق الوحيد في الغالب من أجل الادخار وتحقيق أحلامهم في حياة رغدة. وحتى ولو نجح هؤلاء في العثور على وظيفة في تلك الدول المنتجة للبترول تظل رغباتهم في زيادة الدخل وفي اقتناء سلع استهلاكية جديدة بمجرد عودتهم إلى مصر رهنًا بالأفكار التي تبلورت في أذهانهم، والأموال والمنتجات التي عادوا بها معهم من هذه الدول. وهناك العديد من تأثيرات العولمة على مدينة القاهرة، وتزايد فى الفوارق الطبقية التى تحمل طابع القسوة والروح الانتقامية، وهي في الغالب الكيفية التي أمكن بها أقلمة وتجسيد هذه الفوارق الناتجة عن العولمة اجتماعيًا. وبينما يقوم بعض أفراد العائلة

بتحقيق الثراء عن طريق العمل في ليبيا أو الكويت، يكون الآخرون عاجزين عن تدبير التأشيرات أو إيجاد عقد عمل في الخارج، وهكذا وكما تبرز الغنام "فإن أشكالا جديدة من التفاوت تتولد عن طريق التأثير العالمي في داخل المدينة نفسها، وفي نفس الحي، وربما أيضًا داخل نفس العائلة (أضيفت حالات للتأكيد)". ويأتي وصول هؤلاء المهاجرين إلى الثروة والرخاء الموعود بدون حق المواطنة. ومن قبيل السخرية أن هراوة الإقصاء الخليجي للمهاجرين تقوم بتعميق مشاعر الشوق والرغبة في العودة للقاهرة لديهم، بالإضافة إلى ذلك فقد أصبح الأمر أكثر سهولة في العصر الحالي عن طريق التقدم الهائل في تكنولوجيا الاتصالات العالمية على حد قول الغنام.

ولا يعني الانتشار وإعادة التوطن في أماكن أقرب إلى الطبيعة الريفية بالضرورة نوعا من أنواع النفي أو الخروج من دوائر العالمية. وبينما تصف "أمنية الشاكري" في هذا الكتاب قاهرة الستينيات كمركز للتخطيط والقيادة لأمة كانت ريفية بالضرورة؛ وقد أصبحت فيها المدن الصغيرة في المناطق الريفية مراكزا للإبداع ونقاط اتصال بالعالم عبر الحدود وتضاهي بل وتكون في موضع المدينة العاصمة. ويبحث الفصل الذي تكتبه "فاني كولونا" في هذا الكتاب عن القاهرة من خلال عيون النخبة في الأقاليم، ومن خلال عيون مخرج تليفزيوني من الإسماعيلية والذي ينتقد الدور المهيمن لأجهزة الإعلام التابعة للدولة في مصر بينما هو يقود واحدة من أوائل القنوات التليفزيونية الإبداعية في الأقاليم. ويهدف هذا الجيل الجديد من المبدعين في وسائل الإعلام "والذين يرون في الالتصاق والارتباط بالمجال الإقليمي جانبًا لا غنى عنه من معنى أشمل للانتماء، والتمكين، وتفعيل المواطنة.. والتي تستهدف تبديل المجتمع المصري بأسره، ومنحه قدرة جديدة على التعبير، وتجسيدا جديدًا للوقائع لطبقاتها الشعبية والإقليمية".

ونأمل في هذا الكتاب، أن نقوم بتوضيح كيف أن السياحة العالمية، على سبيل المثال، أو الحكومة والمضاربات الخاصة والاستثمار في التجمعات السكنية ذات الأسوار المغلقة يمكن أن تثير ثائرة القاهريين، وتشعل نيران المعارضة أو المقاومة أو تجعل الأمور أكثر استفحالاً من حيث الإقصاء الاقتصادي والسياسي. وتتأثر شئون النظم المحلية والأهداف الاستراتيجية للتخطيط الحضري بالنظام السياسي والتي تتسم بالشمولية والمركزية بطريقة متأصلة، بطريقة جذرية.

هل لدى سكان أو تجار "الطيبين" بالجيزة، أو أولئك المنتمين للقاهرة الفاطمية، أو قاطني المساكن الشعبية بالزاوية الحمراء أو ميدان الرفاعي وسيلة ما للاحتجاج على سياسة الحكومة أو استراتيجياتها بخصوص الاستثمار؟ هل يمكن للصحفيين والمفكرين في الأقاليم إعداد برامج إعلامية مستقلة يمكنها أن تقوم بإبراز الموضوعات المهمة والتحديات الخاصة بهيمنة القاهرة على باقي أرجاء الأمة؟ وكيف يمكن لملاك المحلات الصغيرة في وسط المدينة والتي تم بناؤها في أواخر القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين المنافسة على قدم المساواة مع انتشار المراكز التجارية التي تتسم بالمساحات الشاسعة، والمراكز التجارية الضخمة التي يمتلكها الأجانب والواقعة في الضواحي الراقية خارج القاهرة؟ وهل نجحت - المراكز التجارية الجديدة والتي يقتصر الاقتراب منها على المشاة دون السيارات، أو التجديدات التي تمت على "بورصة الأوراق المالية" والتي تنتمي إلى عمارة "الزمن الجميل" والتي تخضع للنقاش المستفيض في الجزء الخاص بكل من "القاضي والكرداني" من هذا الكتاب - في الاحتفاظ بالعملاء المحليين واجتذاب آخرين بالإضافة إلى جذب السائحين إلى المنطقة؟ وستكون الآليات السياسية للتخطيط والإدارة المحلية الهاجس الأول الذي سيتم تناوله بطريقة أكثر مباشرة في الجزء التالي من هذا الكتاب: *هيمنة القاهرة: الدولة، والعدالة وإدارة المجتمعات الحضرية في شرق أوسط العولمة الجديد.*

وقد التف مجموعة الخبراء والباحثين في هذا الكتاب حول هدف البحث عن أجوبة لهذه الأسئلة: إعادة تقسيم الأراضي الفضاء للعامة وللنخبة، ونزاعات المستثمرين، وأباطرة العولمة، واستقطاب الطبقة الاستهلاكية، وادعاءات الأممية الجديدة، وسياسات الأمن للقوميين ونتج عن ذلك ترتيب أجندة بحث ضخمة تمخضت في نهاية الأمر عن إطلاق اسم "كلية القاهرة للدراسات الحضرية" عليها.

كلية القاهرة: تأسيس مشروعات وخطط على سطح فندق

عقد محررا هذا الجزء من الكتاب اجتماعًا نهائيًا مع كل المشاركين في هذا العمل إبان صيف ٢٠٠٥ الزاخر بالأحداث الجليلة في مقهى يقع أعلى سطح فندق في قلب القاهرة. وكان المراسلون الصحفيون من كل جنسيات العالم والمتمركزين في العراق، في نفس الفترة يقضون عطلة نهاية الأسبوع في القاهرة ويتبادلون الأحاديث حول مائدة العشاء، ويحكون عن قصص الرعب في الحرب والمقاومة من قلب الأحداث، ويكشفون عن قصص مدهشة لم يُكتب لها أن ترى النور. وكشف انتشار المحتجين وأفراد المعارضة من المصريين وسط المقاهي والمطاعم من أجل توزيع بعض المنشورات غير القانونية بطريقة تفتقر إلى الدهاء عن نقاط تجمع سرية للمعارضة. ويقوم هؤلاء النشطاء من الثوار بالكشف عن آثار التعذيب من إطفاء السجائر على أجسادهم، وندوب الصعق بالكهرباء التي نالوها أثناء استجوابهم بواسطة رجال الشرطة. وقد اندلع تمرد عالمي يشبه شكلا من أشكال الحرب في حياة القاهرة.

وبدأ يظهر على مسرح الأحداث فى القاهرة وفى مثل هذه الأوقات التى تبدو بالغة الصعوبة، القادة المُبعدون، ومنظمات الشباب التي تم حلها، والفرق المسرحية

وبدا لنا أن كلية القاهرة للدراسات الحضرية قد وجدت ضالتها في وسطهم. وتمثل هذه الكلية (كما بدأنا نطلق عليها)، تجميعًا لأبحاث عالمية تطرح أسئلة جديدة عن المدن وعن المواطنة، وعن هيمنة النخبة وعن السياسة العامة والسياسات الثانوية أو التابعة. ونحن نقوم بالتركيز على تطوير أدوات العمل الميداني التي تقوم بالتسجيل وتحليل التناقض في الإصرار على مستوى رجل الشارع والتي ظلت تنبض بالحياة واتخذت أشكالا مُدهشة في أعقاب القمع الذي كانت تمارسه الدولة وإعادة هيكلة الاقتصاد. وأفرزت استراتيجيات هيمنة جديدة للعولمة مظاهر عدم استقرار غير متوقعة واضحة على نحو صارخ في الحياة اليومية للمجتمعات الحضرية في دول العالم الثالث.

ويؤكد هذا الكتاب أن مدينة القاهرة التى تتفاعل مع العولمة، تقدم لنا مختبَرات لاستكشاف وتطوير أشكال جديدة من أشكال المواطنة والنضال من أجل مواجهة متناقضات السلطة في عالم بوليسي جائر، لا تقل عن نفس مستوى مدن العالم الأول العالمية الثرية. وقد أنجبت القاهرة جيلاً جديدًا من المفكرين والنشطاء (من المصريين، والمطاردين والمهاجرين)، والذين يقومون بتقييم هذه المتناقضات من خلال نظرة حضرية جديدة. وتأمل "كلية القاهرة" أن تقوم بنشر مناهج نقدية جديدة من أجل علم الاجتماع النوعي، إلى جانب منظور جديد للحركات الاجتماعية الحضرية، وأشكال دولة، وسياسة عامة، وهيمنة نخبة، وجماعات مُهمشة في شرق أوسط العولمة الجديد. وتضم نخبة الإعداد لهذا الجزء خبراء مصريين وعرب وأمريكيين وإيرانيين وأفارقة، وأوربيين، والذين اجتمعوا لأول مرة في الحقبة الماضية للانفتاح الديمقراطي في مصر في أواسط سنوات التسعينيات. ويستعرض هــذا الكتــاب واحــدة مــن أولى ثمار تجاربنا المنشورة باتباع مناهج متأصلة في الواقعية في العمل الميداني المعاصر العــابــر للحــدود، وعــلاقات القوة

على مستوى الشارع في الشرق الأوسط، بما في ذلك صراع الطبقات المتقد فى بينيان المجتمع، وقضايا الجنوسة وتجمعات الجنسين، والأماكن العامة، والهياكل السياسية – الاقتصادية.

واجتمع أعضاء كلية القاهرة من أجل البحث عن الوسائل اللازمة للإفلات من قبضة الادعاءات المتزمتة عن الإسلاميين المشددين، والإرهاب، وعدم المساواة، من خلال ورش عمل مكثفة في القاهرة وباريس، ومع مجموعات مؤتمرات جمعية دراسات الشرق الأوسط بالولايات المتحدة الأمريكية، والتجمعات المختلفة داخل كلية القاهرة. وبحثنا مليًا في أمر تطوير مناهجنا وبرنامج أعمالنا والتي يمكن أن تكون معاكسة لمنهجين شائعين في التفكير العملي: تصور الليبرالية الجديدة عن النظم الديكتاتورية التي تقتصر على معارضة ضد الطبقات المتوسطة التحررية للمجتمعات المدنية، ونظرة الإمبريالية الجديدة "صدام الحضارات" والتي تتخيل أن العالم ينقسم إلى قسمين: عالم نخبة غربية علمانية حداثية، وعالم إسلامي أصولي متخلف. وتقدم دراستنا الميدانية الحضرية العابرة للأوطان مسارات بديلة لما تقدم ذكره.

وقد عقدنا العزم على تأصيل دراساتنا عند نقطة تلاقي عدة عوامل حضرية خاصة حيث تتجمع الدولة، والعالمية والمحلية، والمجتمعية، والزعامة الاجتماعية من أجل تطوير تميزنا بتلك الوسائل التي لا تسمح بالتبسيط أو القياس المُخل. كيف يمكن إعادة خلق وفرض السلطة والذاتية والتعبير؟ وبينما نقوم بمضاهاة بعض الحالات العملية والجغرافيا العرقية، فقد قامت "كلية القاهرة" بإبراز أشكال من تحديد فاعلية الفرد، وتحديد الهوية، والحشد، والإبداع. وقمنا باستكشاف التناقض الوجداني لكل من العالمية والتأصيل في القاهرة – المدينة ذات الكثافة السكانية الضخمة غير المتكافئة والتي تقع في قلب المنطقة المستقطبة اقتصاديًا، والمعسكرة

في الشرق الأوسط – وقد قمنا بالتركيز على تحديد أبحاث ميدانية لمشروعات خلق عالم جديد سواء بين المُهمشين فى الأحياء الشعبية الفقيرة، أو لدى النخبة فى جزر الأحياء الفاخرة المنعزلة حول أرجاء القاهرة. ونحن نأمل أن يؤدي وضع هذه الدراسات موضع الحوار إلى البدء في إماطة اللثام عن التعقيدات، والتحدي الضمنى لمقولة حتمية القمع، والإقصاء، وطبقية العولمة والاستعمار الجديد والشمولية فى المجالات الحضرية والأمنية.

وأشرنا إلى القيود التي واجهتنا ونحن نعمل في مشروع هذا الكتاب. هذا المشروع الذي يحاول تقديم وعرض خصائص حاضرة تتفاعل مع العولمة وكُتب عليها أن تعيش حياة محفوفة بالمصاعب منذ البداية – وعلى وجه الأخص تلك التي تحاول أن تنقل التنوع، وفاعلية الأفراد، والديناميكية، والتناقض الوجداني الذي يسود مدينة تُعد متفردة سواء في منطقتها أو في العالم أجمع ويتم تقديم صورتها على غير الحقيقة. ولا تفترض الأنماط السائدة من علم الاجتماع، على نحو تقليدي، حتمية أن يبدأ التحليل بالخاص ثم يشرع بعد ذلك في تعميم الأنماط العالمية بالتحرك بعيدًا – والتحول تجاه المقارنات الوطنية، والجدلية العالميـــة، أو أشكال، أو عينات ضخمة من البيانات. ويقدم هذا الكتاب الذي يضم آراء الخبراء بدائل أخرى. فقد بدأنا من تحليلات نوعية واقعية للحياة اليومية لجانب خاص من جوانب حياة القاهرة المعاصرة ثم نقوم بالاقتراب منها أكثر فأكثر. وتحركنا داخل وحول الجانب الذي نقوم بمعالجته، ونحن نستكشف بعناية كيف أن هذه الأنماط المحلية ليست مصطنعة من الأنماط العالمية كما أنها ليست قابلة للتعميم من الناحية التحليلية بالضرورة، ولكنها بلا ريب، متصلة بعمق، وواقعة تحت تأثير إعادة تشكيل الهويات، والقوى، والعلاقات الإقليمية والعالمية.

مُؤَلَف مستفيض عن القاهرة

تحتل دراستنا موقعًا لائقًا داخل مجموعة الدراسات التي تزداد خصوبة عن عاصمة مصر بأهميتها الثقافية - الاجتماعية، والجغرافيا السياسية، والتاريخية. وتعتبر قاهرة اليوم هي الحاضرة الكبرى والأكثر تنوعًا لثلاث عوالم تتقاطع مع بعضها البعض: الشرق الأوسط، والبحر الأبيض المتوسط، وإفريقيا(١). وتُعد عاصمة مصر مستودعًا يستضيف تواصل العلاقات عبر الحدود، ومعملاً لخلق اهتمامات جديدة عابرة للقارات، وممارسات لدول، وتعبئة اجتماعية سياسية وحلول حضرية. كما تخدم هذه المدينة الاستراتيجية البالغة الضخامة كنقطة انطلاق، وتقاطع، وكبوتقة اختبار(٢).

ويشار إلى القاهرة الكبرى "بالقاهرة أو المدينة الظافرة"، وأم الدنيا – وتلعب دورها كعاصمة سياسية لجامعة الدول العربية ومؤسسات الدول الإفريقية وكحامية لحمى جانب ضخم من التراث المعماري للإنسانية كلها. وتم اختبار وتطوير المعالجات والممارسات الحديثة والتي صنعت جوهر المتناقضات في عالم العولمة في الوقت الحاضر - مثل السياحة الجماعية، ومقاومة الإرهاب، والمصطلح المفروض من الخارج - التعديلات الهيكلية المالية، وجميعها سبق تطبيقها وتطويرها في البداية، في وحول القاهرة التي كانت ترزح تحت عبء الاحتلال في أواخر العقد الأول من القرن التاسع عشر. كما قامت الأماكن الحضرية لعاصمة مصر في القرن العشرين بدورها في احتضان الثورات الحديثة، وأعمال التمرد، وحركات التضامن مثل: الناصرية، والاشتراكية العربية، والحركات الإسلامية، وثورات العالم الثالث، وكافة حركات البحر الأبيض المتوسط، وحركة عدم الانحياز، والاتحاد الإفريقي، وغيرها.

وكانت الجغرافية الحضرية للقاهرة المعاصرة ككل، كوريثة لكل هذه الآليات موضوعًا لبعض الأبحاث الشاملة والقليلة نسبيًا، وعلى الرغم من وجود فيض غزير من الدراسات الأكثر استهدافًا من جانب المتخصصين في الدراسات الحضرية، والدراسات المنتظمة في فرع من فروع المعرفة، والكثير منه قد كُتب بواسطة مؤلفين من المشاركين في هذا الكتاب(٣). وتظل القاهرة مهملة بين العامة من غير الأكاديميين، وحتى من أولئك السائحين الغربيين الزائرين. ويتجنب الكثير من السائحين الأوربيين زيارة العاصمة؛ وتيمم طائراتهم، وقطاراتهم، وسفنهم السياحية التي تجوب النيل مباشرة إلى تلك المناطق التي يطلق عليها مسمى "الخالدة" كالأقصر وأسوان، وسواحل البحر الأحمر. كما يتجنب الزوار الأكاديميون، وعلماء السياسة، والصحفيون أيضًا القاهرة ويلتفون حولها، بوعي تحليلي، يرتقي إلى مستوى الجغرافيا السياسية، حيث تُستهدف القاهرة، ويشار إليها كفاعل استراتيجي متفرد - وكقوة متسلطة تشق طريقها بالقوة عبر عملية السلام في الشرق الأوسط التي لا يمكن تجنبها أو تقوم بتنفيذ الأعمال القذرة في الحرب على الإرهاب لمصلحة الغرب. وامتدت يد الإهمال بدرجة كبيرة في هذا الصدد إلى سكان القاهرة الذين يتراوح عددهم من ١٣-١٨ مليون نسمة، وتم دفعهم إلى الكواليس الخلفية للسياحة، والآثار، أو التعديلات الهيكلية للاقتصاد، أو يتم حشدهم بتشريد أذهانهم إلى الشارع العربي أو المتشددين الإسلاميين(٤). ولم تنشر دراسة اجتماعية علمية شاملة عن القاهرة المعاصرة، في حقيقة الأمر، منــذ نشــر مُؤلَفْ جانيت أبو لغد القاهرة: ألف عام وعام للمدينة الظافرة. وقد كُتب هذا العمل الكلاسيكي في سنوات الستينيات من القرن العشرين في سنوات ذروة أيام الغليان والتفاؤل الذي ساد في أعقاب ثورة جمال عبد الناصر.

وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك الكثير من عناوين الدراسات العالمية التي نُشرت عن القاهرة تزامنًا مع الجيل الماضي. ومع ذلك، ففي سياق ازدهار هذه الكتابات المبتكرة عن القاهرة، فإن تحليلاً عميقًا وشاملاً لتنوع الطبقات، والثقافة، والقيادات الاجتماعية والسياسية في المدينة لا يزال قاصرًا بوضوح في هذه الدراسات. وبالطبع هناك أسباب كامنة وراء هذا الأمر. وعمدت بنية المستشرقين الجدد، أو الأساطير الاستعمارية الكبرى، في العقود التي تلت دراسة حقبة عبد الناصر، إلى إسدال ستائر النسيان على مدينة القاهرة، مقتصرين على دراسة المشهد الحضري لمدينة القاهرة. ويمكن تقسيم هذه الأساطير الغامضة، أو الأساطير الكبرى إلى نوعين على وجه التقريب: القاهرة كقنبلة، والقاهرة كمقبرة.

أساطير القاهرة الكبرى: القنبلة والمقبرة

ويعتبر وصف الأسطورة الأولى للمدينة كعبوة سريعة الانفجار مألوفًا لدى الكثيرين. ويعمد الكثير من الأكاديميين، والصحفيين، والدبلوماسيين العالميين إلى وضع مسيرة حياتهم المهنية على المحك بتبني صور المدينة الملتهبة: القاهرة كقنبلة سكانية، وكمركز للتلوث، وكمعمل تفريخ لخلايا الإرهاب التفجيرية، وكنقطة اشتعال لأعمال الشغب بين الأقباط والمسلمين، ومركزًا مستهدفًا للجماعات الثورية المتضامنة مثل الحركات المناوئة للولايات المتحدة، والاحتجاجات المناهضة لتسلط وهيمنة قرارات صندوق النقد الدولي، والحركات المساندة للقضية الفلسطينية أو الحركات الإسلامية. وتبرز هذه اللوحات التصويرية، والبشر، والأماكن العامة، والرأي العام، ومؤسسات الدولة في القاهرة كطيف من خيال عن مصطلح "عرب الشارع"، وهو تعبير عنصري مخفف وشائع لدى الصحفيين. وكان تعبير "عرب الشوارع" في القرن التاسع عشر يشير إلى العنصريين، وقطاع الطرق المشردين

من الأطفال، والمهربين من بين الفئات الدنيا من العمال في لندن، ونيويورك، وشيكاغو، والذين كانوا من المتصور أنهم يشكلون مصدر التهديد الأساسي لممارسات فوضوية، وأوكار الرذيلة، والطبقات الخطرة. وقد كرس جاكوب ريس فـــي كتـــابه "كيـــف يعيش النصف الآخر" فصلاً كاملاً لظاهرة أطفال الشوارع (أو عرب الشارع حسب التعبير الشائع آنذاك) والذين يعيشون عيوب ومزايا حياة التمرد على القانون التـــي يعيشه هـــو بنفسه. وبوصفه متشردا لا يعترف بسلطة ولا يدين بالولاء لشيء أو لكائن من كان، وبقبضة يده البارعة جاهزة لترتفع ضد سلطة المجتمع أينما حاولت أن تقوم بإخضاعه، وهو مبتهج ومراوغ شبيه بحيوان ابن عرس، والذي يشبهه هو أكثر دونًا عن كل الحيوانات المفترسة" (*Riis 1890*).

وقد أُسدلت الآن وفي القرن الحادي والعشرين ستائر النسيان على مصطلح عرب الشارع والذى كان يقال للدلالة على أطفال الشوارع، وانعكست الآية، وأعيد تسليط الأضواء على ذلك المصطلح وإبرازه بعد الحقبة الاستعمارية للشرق الأوسط. فعندما يعمد الصحفيون والأكاديميون إلى بث الحياة في فكرة عرب الشارع اليوم، فإنهم يعنون أسوأ أنواع رعاع الشوارع البرابرة، والذين يهددون النظم المحلية والعالمية كاتفاقيات كامب ديفيد أو التجارة الحرة أو التعديلات الهيكلية للاقتصاد والتي قام بتطبيقها صندوق النقد الدولي (*Bayat 2003*). وكما يقول دينيس في هذا الكتاب، فإن سماسرة التنمية العقارية والسياسيون يقومون باستغلال وصمة الشوارع أكثر فأكثر، والتي شاعت عن طريق وسائل الإعلام العالمية على نطاق واسع، والتي تدعي أن الحواضر العربية تعتبر معامل تفريخ لخطر الإرهاب. ويقوم هذا الخطر الإسلامي، شأنه شأن الخطر الشيوعي الأحمر إبان سنوات الحرب الباردة بإضفاء ثوب الشرعية على سلب الحريات (بما في ذلك أعمال القمع والتعذيب وتزوير الانتخابات)، وفي نفس الوقت الذي تقوم فيه بالترويج لشكل خاص من أشكال التحرر الاقتصادي (والتي يتمخض عنها بوابات

وأسوار، وأعمال قبض جماعية، وأنظمة مراقبة بدلاً مـــن أي مـــرادف اجتماعي أو عمالي لسوق حرة). وأين تكمن في تشبيهات القنبلة، والمعاني الكامنة داخل عبارة عرب الشوارع المعاني التي تعبر عن المواطنين المُفعمين بالحيوية، والاهتمامات، وأحداث التاريخ، والمؤسسات، وأعمال النضال التي تتشكل منها مدينة القاهرة؟ وأين العوامل الاجتماعية، والمكانية والعوامل المؤسسية الجديدة الفاعلة والتي تسمح بعمليات القمع الحالية في حياة المدينة اليومية؟

ومن المتناقضات الشهيرة، أن هناك أسطورة أخرى بالية عن القاهرة تقول إن المدينة الضخمة ما هي إلا كتلة سريعة الانفجار. ويتم تصوير المدينة في أسطورة المقبرة كأنها ميتة – أو منسحقة تجاه أعمال القمـــع، ولـــذا فهي هـــامدة لا حراك لها. وتنطلق هذه المقولة غالبًا من حقيقة أن بعض القاهريين يسكنون منطقة المقابر، وهي الحقيقة التي جعلت بعض التنظيمات الاجتماعية العالمية تقوم بوصف القاهرة بطريقة رومانتيكية "كمدينة للموتى". وكما يتم تصوير القاهرة كمشهد صحراوي من المومياوات، وسراديب الأهرام الخفية، ومتحف في الهواء الطلق للآثار، وكمكان لإخضاع النساء لارتداء النقاب، والحريم المغريات المهلكات، والمنغلقات أمام الأغراب، وكأرض للحواري المكتظة، وتقاليد الفلاحين الخالدة، أو أرض العبيد الهامدين الذين يحكمهم الطواغيت. ويبذل حكام وملوك الشرق الأوسط الطغاة والمملوؤن بهواجس الأمن القومي وكبت التعدد الداخلي والمعارضة لديهم ما في وسعهم لتصوير الدول العربية كنظم حكم متناغمة، ومتحدة الأمن القومي، ولا ينتقدون إلا نادرًا هذه الأحاديث الخرافية عن القنبلة والمقبرة. ويستمر رجال القانون المتشددون، ورجال الدين المتعصبون المفعمون بنُذر يوم القيامة على نفس المنوال في شغل عناوين الصحف، والسياسات القومية، وبرامج الأبحاث على طول الكرة الأرضية وعرضها. وكما يستمر الخبراء

السياسيون في الاعتماد على خرافة قنبلة الإرهاب لأطفال الشوارع في القاهرة، فإن أصحاب البلايين في صناعة السياحة والسينما يعتمدون على الخرافات الرومانسية للمقابر والحريم من أجل إغواء الزائرين.

ولا يسمح شيء مما وراء الاستعارات اللغوية، ولا ضروب الحكاوي الشعبية بأدنى قدر من التطور في إدراك لمسببات وملامح حدود أنشطة، وتنوعات، وقسوة، ونزاعات، وعلاقة حداثة لمدينة القاهرة. ونتج عن هذا القصور في الاهتمام بالأنماط الواسعة لأشكال فاعلية الأفراد في القاهرة كثرة التعبير عن سوء الفهم لمنطقة الشرق الأوسط الكبرى. وتظل الجماهير العالمية وأولئك الذين في الشرق الأوسط نتيجة لذلك، غير مدركين لحياة واهتمامات العديد من الطبقات وأشكال مقدرات الشعب الفاعلة في المنطقة، وغير قادرين على تخيل دقائق الحياة اليومية المعتادة وعدم الموضوعية. وبينما يزداد التجاهل للمدينة والمنطقة فإن الأحداث في السنوات القليلة الماضية قد تصدت لخرافات الأساطير الكبرى، واستهلت فرعًا من العلوم عن مدينة القاهرة، وأثارت الاهتمام العالمي، وأدت إلى تطوير بحوث أكثر ثراءً، وأكثر أصالة وأكثر ديمقراطية عن المدينة، على الأقل في المجال الأكاديمي.

إعادة ترتيب جذري وبناء مناهج نوعية

هز الزلازل الأرضي المدمر الذي حاق بالقاهرة في عام ١٩٩٢ مشاعر بعض المراقبين العالميين للشرق الأوسط. وأدى الزلازل إلى تحويل كاميرات التليفزيون بعيدًا عن الجغرافيا السياسية للحرب، والأصولية، ونزولها إلى الشوارع الجانبية لمجتمعات القاهرة الحضرية. ولقد شهدت الجماهير العالمية ابتداءً من تغطية هذا الزلزال، مشهد المنظمات غير الحكومية المحلية، والجماعات الدينية،

وشبكات المجتمع الأهلي وهي تتسابق مع بعضها البعض لإنقاذ منازل الأفراد وإعادة تشكيل مدينة العاصمة الجريحة التي يتقاسمونها. وأوجست الحكومة المصرية في نفسها خيفة من هذا الطوفان المفاجئ للجهود العفوية وتحركت من أجل تفكيك هذه الجماعات ذات الكفاءات العالية. ولكن تسارعت قوة الدفع للتغيير على مستوى الشارع مرة أخرى في عام ١٩٩٤. وخطفت المنظمات غير الحكومية، وأماكن القاهرة العامة، والمناقشات الدينية الثقافية المحلية في ذلك العام الأضواء وانتباه العالم بأسره، بينما كانت المدينة تحتضن مؤتمر الأمم المتحدة للسكان والتنمية (والذي أُطلق عليه مؤتمر القاهرة). وازدهرت في ربوع مصر جنبًا إلى جنب مع منظمات هذا المجتمع المدني البازغ والمرتبط بمثيلاته في العالم في فترة خاطفة، العديد من الحركات الحاسمة والمهمة داخل الدوائر الأكاديمية المصرية والعالمية في القاهرة باعتبارها واحدة من ركائز قواعدها الأساسية ومواقع أبحاثها.

وجذبت القاهرة كوكبة كبيرة من الباحثين المبتكرين من كافة أنحاء المنطقة بحلول منتصف سنوات التسعينيات. وبينما جعلت الحرب الأهلية، والحصار العسكري، وعمليات القمع المتعددة، من الصعوبة بمكان أن يعمل هؤلاء في الجزائر، وبيروت، والخرطوم، وبغداد، والقدس، فقد تجمع الباحثون والفنانون، وعلماء الحضر في القاهرة. وتدفق الباحثون المتمركزون في الولايات المتحدة الأمريكية حيث أصبح التمويل والتوظيف العالمي متاحًا بدرجة أكبر بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد في عام ١٩٧٨ وبعد أن أغلقت الثورة الإسلامية والحرب في بيروت الأبواب في وجوه الباحثين في كل من إيران ولبنان. وكما قدمت الحكومة الفرنسية تمويلاً ممتدًا للدراسات الحضرية ومشروعات البنية الأساسية بصفة خاصة، بالإضافة إلى كل من الأعمال التقليدية والأكثر أهمية للتراث الإنساني، والهندسة المعمارية، والثقافة. وكما عضد التمويل الألماني للأبحاث الدراسات التي

تستهدف إعادة صياغة التنمية الاقتصادية، مع التركيز بشكل أكبر على الفاعلية فى المجتمع، ومشاركة المرأة، والاهتمامات البيئية. وتجّمع أيضًا المفكرون العرب والإيرانيون معًا في القاهرة في ذلك الوقت ليبعثوا روحًا جديدة وأكثر حيوية إسلامية، وما بعد - الإسلاموية، جنبًا إلى جنب مع هياكل عالمية نقدية علمانية، وحركات نسائية.

وتجّمع هؤلاء الأكاديميون والنشطاء، والباحثون العرب، وخبراء الشرق الأوسط الذين أقاموا في القاهرة لسنوات عديدة ويمتلكون ناصية اللغة، والمعرفة المحلية، والخبرة بالمنطقة، مرة أخرى وذلك لمواجهة الأسطورة الكبرى المفرطة في التبسيط والمتعلقة "بالقنبلة والمقبرة"، بالإضافة إلى الآراء الشائعة عن التعصب الإسلامي، والإخضاع للحجاب، والقمـــع الحكـــومي الـــذي لا جدال فيه. وتأثر الكثير من الباحثين الذين تجمعوا في سنوات التسعينيات، وبعضهم شارك في تكوين "كلية القاهرة"، ببحوث حقبة ما بعد الاستعمار حيث كانت الفاعلية لهؤلاء الواقعين تحت نير الاستعمار، والذين هم خارج زمرة السلطة أمرًا مسلمًا بصحته في سياق نقد الأماكن العامة، والسلطة، والمؤسسات، وتشكيلات العرق والجنس الحاسمة. كما تأثر معظم المشاركين بالأعمال النقدية لحقبة ما بعد الحداثة، وما بعد البنيوية والتي تقوم بتحليل السلطة كحلقات من الممارسات والأحاديث، والضوابط التي تقوم بتنظيم وبعث الحيوية في المجتمعات، والدول، والنزعات الذاتية.

وقد أُستثير الكثير من الباحثين من تناقضات الحياة المصرية والأساطير الكبرى، والتي يستوجب عليهم بحثها فكريًا. وكما تُذكرنا سوزان رودلوف، "من المحتمل أن يقدم لنا المنهج التفسيري العديد من التصورات عن الحقيقة أو تقديم تصورات أقل ثقة عن درجة الثقة التي يمكن أن تعرف بها بعض الموضوعات"

(Rudolph 2005, 16). ولا تشعر "كلية القاهرة" بالقلق لوجود قدر من التناقض في تمثيلها وتحليلها لحياة القاهريين. فعلى سبيل المثال، فبينما يشير الكثيرون لانتشار الدولة المصرية في كل مكان، مع جهاز حكومي وبوليسي بالغ الضخامة من أجل تفعيل سياساتها، في نفس الوقت الذي تبدو فيه عاجزة ومنهكة بدرجة لا رجاء منها. وبالتزامن مع عدم تفعيل قدرات قاطنى مدينة القاهرة داخل المجالات المؤسسية المماثلة لما يقوم بدراسته خبراء العلوم السياسية، فإن سكان القاهرة لديهم تاريخ من التأثير على ما حولهم، وعلى هوية القاهرة، وعلى مصر نفسها بأساليب خاصة ومعقدة، وذلك على الرغم من الوجود الكاسح المفترض وقوة الحكومة المركزية *(Singerman 1995)*.

وهناك بالمثل حلقة وصل مهمة بين تعريفنا للتناقض الوجداني في "كلية القاهرة"، والعالمية. يقول زيجمونت باومان إن "النظام والفوضى توأمان معاصران" (١٩٩١، ٤). ويتطلب التشعب بين النظام والفوضى أن يتم تصنيف العالم من أجل تحقيق "خزانة إيداع ضخمة تحتوي على كل الملفات التي تضم كل البنود الموجودة في العالم – ولكنها تقوم بحصر كل ملف وكل بند في مكان منفصل خاص به" *(Bauman 1991, 2)*.

ويتطلب الحديث عن هذه القابلية لتضيف حتمية إدراج عمليات يكون حدوثها مشروطًا فقط باستبعاد العمليات الأخرى.

ويربك التناقض الوجداني، "أو احتمال أن يتم تضيق موضوع أو حدث إلى أكثر من فئة" ويدمر تمامًا ولع الحداثة بهذا التصنيف *(Bauman 1991, 2)*. ويشير بومان إلى أن "الوجه الآخر للدولة الحديثة هي الأرض المجهولة أو المتنازع عليها: قصور التعريف أو فرط التوسع فيه، أي شيطان الغموض. وحيث إن السلطة العليا للدولة الحديثة هي القدرة على التعريف وجعل هذه التعريفات تلتصق

بكل شيء يعّرف نفسه أو قدرتها على إلصاق صفة التخريب بكل ما يستعصى على التعريف بمساعدة السلطة" *(Bauman 1991, 2)*. وبالمثل يشير كتاب جيمس سكوت، *الرؤية كدولة*"، القوة التدميرية والمهلكة للتخطيط الحديث والخطط التصنيفية (١٩٩٩).

وتشتمل العالمية في واحدة من تجسيداتها المتنوعة إمكانيات تحدي التصنيفات الفئوية والتي تقوم بعزل الذات عن الطبقة/ الوطنية /الجنس/ العرق/ والعوامل الأخرى. وعلى الرغم من أننا ننتقد بقوة تجسد نخبتها وليبراليتها الجديدة، فإن بعض آمال للتحول إلى العالمية يظل محتفظاً بنواة من إمكانية - كسياسة وأخلاق- لتحقيق مفاهيم مثل الصداقة، والترحيب، والتفاعل مع العالم الخارجي، والمساواة مع الاختلافات، والتعاون السلمي، والتسامح، والإقليمية المبالغ فيها، في المشهد السياسي وهكذا، والتي عندما ترتبط بالنقد والتى يمكن أن يكون لها إمكانيات تعبئة وحشد عندما ترتبط بنقد اقتصاد -سياسى وتاريخ- اجتماعى دقيق *(Carter 2006)*.

ويعني اعتناق التناقض الوجداني تفضيل الالتباس والهياكل المتعددة وأحاديث الجمهور، وتحاشي منهج ذى محاور متعددة نحو علم الاجتماع حيث يشوه التقتير والعمومية الكثير من معارفنا وقدرتنا على تقدير العالم السياسي. وكما أنها تسبب فرط الحساسية لعالم الاجتماع تجاه القيام بالبحث، ثم الإقرار، ثم تقديم الادعاءات التي تقوم بخلقها المجتمعات المُهمشة. ولا يمكن أن يستدرجنا ذلك الإنفاق الحكومي البالغ الضخامة والاستثمارات الأجنبية التي تم ضخها في شرايين تطوير المدن الصحراوية الجديدة إلى تجاهل حقيقة أن الأغلبية الكاسحة من سكان القاهرة يعيشون في المناطق السكنية العشوائية. ولا يجب أن يحجب أنظارنا استمرار قانون حالة الطوارئ واستخدام المحاكم العسكرية لأغراض محاكمة المدنيين عن تعقيدات واستقلالية النظام القضائي المصري، والذي استخدمه بعض المحامين

والنشطاء الشجعان، من كل من الجماعات المدنية والدينية لتعزيز حقوقهم الدستورية ونشاطهم السياسي. ويتيح لنا تقدير منهج التناقض الوجداني الذي نستخدمه في كلية القاهرة أن نستوعب كلا من الطفرة الجديدة في أشكال التناغم في القومية المصرية بالإضافة إلى حركة الهوية النوبية الوليدة. وتقول إليزابيث سميث إن هذه الحركة تعالج العنصرية في مصر والهيمنة اللغوية للغة العربية، بينما يقوم المفكرون والكتاب النوبيون بافتتاح مدارس لتعليم اللغة النوبية ويقومون بنشر روايات بهذه اللهجات في إطار وعي ذاتي بمشروع قومي لتدعيم مصرية النوبة.

ولقد بذل الكثير من الباحثين ما في وسعهم في هذا الكتاب من خلال ميدان علم الاجتماع النوعي، والمدون في التاريخ في أغلبه، وذلك من أجل استكشاف وسائل جديدة لمعرفة، وتحليل، ونشر الاهتمام الأكاديمي والوعي العام بالحقائق الجديدة والتحديات في القاهرة المعاصرة. وبينما كانت مناهج البحث المرتكزة على المشاركة في العمل الميداني سائدة ومنذ زمن بعيد في علم حضارة الإنسان (الأنثروبولوجيا)، فإنها كانت أقل قبولاً وتشجيعًا في العمل السياسي، وعلم الاقتصاد، والاقتصاد السياسي، والعلاقات الدولية، وفي بعض فروع تخصصات العلوم الاجتماعية. وتعتبر واحدة من المنافع الجليلة للعمل الميداني إنها تتعمق لأبعد من النصوص الحرفية للسجلات الرسمية، وموضوعات الصحف، والأعمال الفكرية، وتتيح للباحثين أن يستمعوا ويتأملوا بآذان واعية، ونظرة نقدية متأملة وجهات نظر الطبقات المُهمشة والذين لا تصل أصواتهم وممارستهم للسجلات العامة، ويساء فهم ممارستهم، أو يُنظر إليها بعين الاحتقار، أو التجريم، أو يتم تجاهلهم كلية. ونحن نتفق مع منظري العلوم المهمة مثل فلايفبرج والذي يرى أن علم الاجتماع يعتمد كلية على سياقات التفسير، وتوليد معنى ذى مغزى أكثر من الركون إلى تنبؤات ناجحة. وهكذا فإن المناهج التي نتوخاها تتحرك بعيدًا عن

تجسيد المعرفة العلمية أو نظرية العلم تجاه الحكمة العملية (تحديث لمفهوم التعقل والتبصر عند أرسطو) وهي التي تستند على القرينة، وتتجذر في الخبرة، علاوة على ارتباطها برباط لا ينفصم مع العالم وعلاقاتها الملموسة مع السلطة *(Flybvjerg 2001; Thiele 2000)*.

وليس الأمر هو أن أصوات القاهريين يتم سماعها بطريقة غير واضحة، حيث إن تلك الأصوات متعددة، ومبهمة ومتناقضة كمحتويات أرشيف غير منظم، أو كمؤشرات الإحصاء، أو الخطب السياسية. وبدلاً من ذلك، فإن الأنثروبولوجيا الوصفية وحتى الأشكال الأقل كثافة من دراسات الحالات الميدانية شجعت الباحث بأن يقوم باستكشاف وإعادة تقييم سياقات الأنشطة، والسلوكيات، والدلالات، والحدود، والمواقع، والهياكل، والتي يعيش الناس خلالها / وتحتها. ويُعد التأكيد على السياق، والحوار النقدي أمرًا لا غنى عنه لهذا المنهج وبالتالي فإن كلية القاهرة، وهذا الكتاب يتخطيان التقسيم التقليدي للتخصصات. كما آثرنا في العملية التحريرية لهذا الكتاب أن تكون مناقشات كل مؤلف والمادة التجريبية له مفهومة وطوع بنان كل قارئ بعيدًا عن مجال تخصص المؤلف أو التراث النظري القومي.

الجغرافيا السياسية النظامية

وظهر هذا الحشد من تجمع نخبة منتقاة من الباحثين من جنسيات متعددة والذين كانوا قد تجمعوا في الأصل في مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية (*CEDEJ*) وهو مركز بحثى فرنسى فى القاهرة في أواخر سنوات التسعينيات. ويعكس هذا الكتاب الضخم الذى كان وليد تضافر العديد من التخصصات، والمواقع، والتداخلات، والمصادمات، ووجهات النظر المتباينة. كما يعكس هذا الكتاب، في أعماقه، بين الفينة والأخرى، هواجس الأمن القومي والتي

تُشكل جداول أعمال البحوث في البلدان الأصلية. فيمكن على سبيل المثال، أن يتخذ الباحثون الأمريكيون الموضوعات التي تنبثق عن نموذج دراسات التحول الديمقراطي، كنقطة بداية لهم، شاخصين أبصارهم تجاه المجتمع المدني – والذي يفترضونه كمجال، بين الأفراد والدولة، وخاصة مجموعات الطبقة الوسطى، والتي تميل بطبيعتها إلى دفع التحولات نحو الليبرالية. وربما يبدأ الباحثون الثقافيون الأمريكيون من الموضوعات التي تنبثق من مجالات الدفاع عن حقوق الإنسان، أو الحركات العالمية في العدالة بين الجنسين والحقوق الجنسية. كما يشكل الباحثون الفرنسيون، والفرنسيون من ذوي الأصول العربية قوة لا يستهان بها في مجموعتنا البحثية، ويقومون بالبناء على عوامل القوة التقليدية في التخطيط الحضري في مجتمعاتهم، والجغرافيا، و"المكان"، والطائفية. ونشأت هذه التخصصات الفرعية في فرنسا من داخل الإدارات الاستعمارية؛ ومع ذلك، أُعيد تشكيل هذه التخصصات بصفة جذرية منذ سنوات السبعينيات عن طريق الجغرافيا الماركسية والدراسات العِرقية (وصف السلالات البشرية) النقدية المناوئة للاستعمار. ولا يتقبل الباحثون الذين تلقوا تدريبهم طبقًا للقواعد الفرنسية مصطلح "المكان العام" كرمز مجرد للمجتمع المدني البرجوازي، ولكنهم يصرون على إجراء العمل الميداني التجريبي اللازم بالتفصيل من أجل اقتفاء آثار أنماط الاستثمار، وتدفقات الاستيطان، والأنشطة الاقتصادية، والخطاب السياسي الجزئي والذي يشكل التسلسلات الطبقية ومعاني الأماكن والعامة والمتجذرة في مختلف الأقاليم، والهيئات، وأنماط التداول. كما تدرب الباحثون من الدول العربية الأخرى، وإيران، ومسلمي إفريقيا الذين ساهموا في هذا الكتاب، وكانوا مدركين لاستخدامات وحدود أجندة الأبحاث الأوروبية والأمريكية، ولكنهم مهدوا الطريق من أجل تأسيس مسارات نقدية متميزة. ويتواجد بين هذه المجموعة العالمية من الباحثين

والذين يتخذون من القاهرة مقرًا لهم، جيل جديـد مـن المهندسـين والمخططـين المصريين الذين تأثروا بدراسات الفترة ما بعـد الاسـتعمارية، ودراسـات الفـن والمعمار الإسلامي، ومدارس الأبحاث العالمية، وذلك إلى جانب تأثرهم بالحركات النقدية لأشكال النخبة من العولمة وفلسفة الحتمية، وأنماط النفاق لسياسات الأخلاق والانتقامية القومية.

وقد استهدفت كلية القاهرة والتي تضم العديد من الجنسيات والتخصصات صياغة تحليلات أكثر دقة وذات مستويات متعددة للظواهر التي تجاهد من أجل ربط كل ما هو دنيوي، وما ينتمي للفطرة السليمة، والحياة اليومية، والمناهج المحلية إلى العالمية، والتدفقات بدون إهمال الجغرافيا السياسية للحرب، والإرهاب، واحتكار رأس المال البترولي والطفرة الجديدة لتضامن العالم الثالث والتي تجعل القاهرة مدينة عملاقة ذات سمعة سيئة، وعلى وجه أخص إذا ما أُسيء فهمها. وتواجه كلية القاهرة معضلة انقسام فروع المعرفة بين الأنثروبولوجيا والعلوم السياسية، وبين التخطيط العمراني، والجغرافيا، والاقتصاد السياسي. وهي شاملـة للعديـد مـن التخصصـات بطبيعتها، حيث إن الثنائيات المتمثلة في التمييز بين البحث النوعي والكمي، والمحلي والعالمي، والحديث والتقليدي يعوق عملية الإدراك.

مجالات العمل الميداني

وقد ظهرت للوجود حركة للإنترنت في دوائر العمل السياسي داخل الولايات المتحدة الأمريكية في السنوات القليلة الماضية والتي تشارك كلية القاهرة في العديد من الاهتمامات. واندلعت هذه الحركة ببيان عن طريق رسالة إلكترونية واحدة من مجهول في أكتوبر عام ٢٠٠٠ قام بتوقيع رسالته باسم بروستريكا، وكانت حركة بروستريكا مُكرسة من أجل تحرير علم السياسية الذي كان في طور

الاحتضار من هيمنة نظرية الاختيار العقلاني، والنظرية المنهجية، والأساليب الكمية والإحصائية *(Norton 2002; Monroe 2005)*. وانتقدت هذه الحركة غير المنظمة، وغير المؤسسية، تفضيل الاعتماد على عينات بحث ضخمة، والمبنية على نظريات إحصائية، ودراسات تتعدى الحدود الوطنية في العلوم السياسية، والاستهتار بالدراسات المبنية على عرقية محددة ثقافيًا والعمل الميداني النوعي، والأبحاث التاريخية، مع أو الأبحاث المعيارية على مشكلات معاصرة. وكما يقول جريجوري كاسزا: فإن "حتمية هيمنة التكنولوجيا – وهو الاتجاه الذي يرمي إلى اعتبار وسائل الأبحاث أكثر أهمية من الأهداف المرجوة منها – قد هيمنت على هذا المنهج" *(Kasza 2002, 4)*. كما أنها تنادي بأبحاث "تحركها المشكلة" على الأرجح بدلاً من تلك التي "يحركها المنهج" والتي تتبني على النهج التراكمي للمعرفة وتناول الحقائق السياسية بوسائل أكثر نفعًا، بدلاً من استكشاف النظرية وتوليد ألعاب مناهج (إشارة إلى نظرية الألعاب) والتي تقوم بعزل آثار والتزامات اجتماعية، وسياسة، وعدالة *(Shapiro 2005)*.

وشرع طلاب في أوروبا، وعلى مسار مواز، في تدشين حركة اقتصاديات ما بعد التوحد وشبكاتها *(www.paecon.net)* في معارضة منهم للكلاسيكية الحديثة، والهجوم على التزمت الذي يتوارى خلف موضوعية الأرقام الضخمة "لإجماع واشنطن" ومناهج اقتصاد الليبرالية الجديدة والتي تعتبر العمود الفقري لوصفات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. وعضدت اقتصاديات ما بعد التوحد عودة المنهج النوعي، والمناهج التحررية سياسيًا، متضمنة تحليلات التعديلات الهيكلية/ النظام العالمي، ونظريات التبعية وغيرها. وقالوا إن "الاستخدام غير المنضبط" لاقتصاديات الكلاسيكية الجديدة، ومعالجة الرياضيات كما لو كانت غاية في حد ذاتها قادت إلى أن أصبح الاقتصاد "كعلم متوحد" ضائع في خضم "عوالم من الخيالات". ونادت هذه الحركة بمنهجية تعددية، واقتصاد سياسي عِرقي،

وإصلاحات من أجل "إنقاذ الاقتصاد من توحدها ومن الدولة اللامسئولة اجتماعيًا" *(Fullbrook 2002)*. وتفاعلت المجتمعات الأكاديمية في نهاية القرن العشرين سواء في فرنسا، أو الولايات المتحدة الأمريكية، أو مصر مع ادعاءات بعالمية العلوم الاجتماعية لفرط العقلانية والكلاسيكية الجديدة والتي تجاهلت قضايا الخلافات الثقافية، والماضي الاستعماري والنزاعات، وتشكيلات النوع/ والعِرق/ والجنس، والخصوصيات التاريخية، والسياق الاجتماعي – الجغرافي. ونحن نأمل أن يقدم هذا الكتاب لكل القراء من الأكاديميين وغير المتخصصين أمثلة لقوة مجموعة من المشروعات المعيارية والتي أوحت بها مشاعر الحركة الأكاديمية الأمريكية بروستريكا، وحركة اقتصاد ما بعد التوحد الأوروبية، بالإضافة إلى المناهج الأكثر حيوية لبقعة محلية، والتفاوت الحضري والهوية الاجتماعية – الدينية الواضحة للعيان في الأوساط الأكاديمية من مصر، وجنوب آسيا، وإفريقيا.

العالمية: موروثات ومنهجيات متضاربة في القاهرة

لقد كانت أوروبا – وهي المنطقة التي تم تدميرها وإعادة بنائها مرارًا بالحروب الهائلة وتداعيات الإمبراطوريات المتفككة –هي مركز محن العالم العصيبة للقرن العشرين. ولكن مرتكز القرن الحادي والعشرين لسياسات العالم بأسره قد تحول جغرافيًا إلى الشرق الأوسط (وإلى جنوب آسيا في الموضع الثاني). وبرزت تحديات خاصة، نتيجة لذلك، لدى المفكرين التقدميين والذي كان يتمثل في تساؤلهم: كيف يمكننا، سواء كمواطنين من بلدان معينة، أو كأفراد كرسوا أنفسهم من أجل العدالة العالمية، أن نضع أنفسنا في الموضع الذي يمكن أن يكون أكثر فائدة

لمعضلات المنطقة، وأن نتعلم عن، وأن نشترك في كفاح المنطقة بالطرق التي تعضد الميول الديمقراطية والتقدير العالمي، وأن يكون من أهدافنا الأساسية أن نتجنب بقدر الإمكان المآسي التي وقعت في القرن الماضي إبان أفول نظام عالمي كان مركزه قارة أوروبا والتي جسدت أهوال الاستعمار، والحرب، والتعصب القومي، وإرهاب الدولة على نطاق واسع، والتطرف الأيديولوجي. *Richard Falk* (٢٠٠٥).

وتعتبر ظواهر هجرة العمال، واستثمارات دبي في المراكز التجارية والمدن الإعلامية، والسياحة العالمية في مصر، والتأثير الثقافي لوسائل الإعلام والترفيه الخليجية، هي فقط بعض الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر للطرق التي مالت بها مدينة القاهرة أكثر نحو التأثر بالعولمة. ولكن في وطن لا يزال مشحونًا بمشاعر الغضب والاشمئزاز ضد كل أشكال الاستعمار والإمبريالية والتي كانت تتباهى بنفسها كأداة لنشر الثقافة العالمية، ما هي الاستخدامات المستقبلية لهذا المصطلح لنا؟

وتعود إلى الحياة مرة أخرى وجهات النظر التي تمثل الاشتياق إلى العالمية في شرق أوسط اليوم. ويحتفل مهندسو تطوير الأحياء الحضرية الفخمة والمضاربون، والليبراليون من ذوي النوايا الحسنة، بالعصر الذهبي للزمن الجميل في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين للتراث العمراني المتعدد الثقافات. ولكنهم يتجاهلون أو يقللون من شأن السياق الاستعماري لتلك الحقبة التاريخية، حيث كان أجدادهم غرباء فيها ويتعرضون لموجة عالمية من العنصرية إبانها *(Mitchell 1991)*. كما يتجاهلون أيضًا آلية الإقصاء، والعنف، والطبقية،

والاستغلال التي كانت شائعة من خلال تأسيس هوية عِرقية وثقافية لمجموعة صغيرة متميزة، والتي نتج عنها عمليات تمييز صارمة عن طريق الهوية تبناها غلاة الأممية، والمذابح المنتظمة، والصراعات الداخلية، وعمليات النزوح الجماعية، وحتى عمليات الإبادة الجماعية وعمليات الإخلاء الجماعية لمجتمعات بأسرها مثل الأرمن، أو اليهود عبر الشرق الأوسط *(ÖncÜ 2005)*. ويمكن أن يُعرض الاحتفاء الذي يتم اليوم بالتعدد الثقافي بإسطنبول الدولة العثمانية، أو بيروت أو في إمبراطوريات الزمن الجميل البريطانية والفرنسية لخطر تكرار العنف إذا لم يشملها نقد شامل لمفهوم العالمية. ولكن، وعلى أي حال، لا يمكن أن ينتهي ذلك بتبرير العودة إلى أشكال مبتذلة من القومية التعددية أو العداء المتزمت للمهاجرين. وهناك آفاق مستقبلية جديدة للتعدد الثقافي والعالمية في الشرق الأوسط.

ونجد من بين العديد من أنماط العالمية التي تتبارى مع العديد من الموروثات الثقافية من أجل تحديد ثقافة العولمة في المنطقة، وأحاديث متشابكة عن عالمية بترول الخليج العربى. وتتجذر عالمية – البترول في لعبة متناقضة، ومتمركزة في إمارة دبي الخليجية والحكومات الملكية المجاورة، وتنطلق منها خلال الشبكات الإقليمية للمخططين، والمصممين، ووسائل أعلام الفضائيات، وعمليات ترويج الاستهلاك. ويدافع هذا الشكل من العالمية عن فن إسلامي للهندسة العمرانية للأماكن العامة وموضوعات تصميم أساسية، بينما تقوم بشن الحرب ضد عسكرة الإسلام وبرامجها الاجتماعية السياسية. وتدافع مدن البترول العالمية عن الاتجاهات المعمارية الإسلامية الجديدة للمستهلكين من النخبة للفيلات، ومناطق الأعمال الصناعية، ومراكز التسوق التجارية، بينما يتعاونون في نفس الوقت مع الولايات المتحدة الأمريكية في قمع بلا رحمة للاتجاهات الإسلامية المتشددة

(برجاء الرجوع للقسم الخاص بالشُشتاوي، الفصل ٧، والجزء الخاص بأباظة في هذا الكتاب). وتتعامل الدول البترولية بنوع من القوانين العنصرية للعمالة الوافدة في نفس الوقت الذي تقوم فيه باستغلال العمالة الوافدة من الرجال، والعمالة المحلية من النساء، ولكن مع حرمانهم من قوانين حقوق المواطنة، وهي القوانين التي تسعى الآن كل من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا في محاكاتها. وليس من الواضح بعد عما إذا كانت مصر ترغب في اعتناق هذا النمط، أو يمكنها أن تتحمل ذلك. وتهيمن عالمية التراث، والحنين إلى التعدد الثقافي، وعالمية دول البترول، على المناطق الجديدة التي تنبسط على ربوعها قاهرة اليوم. ولكن هذه الأنماط لا تعالج بشمول سياسات مرحلة ما بعد القومية، أو تقوم بإعاقة النضال من أجل تطوير عولمة تحررية مناوئة للهيمنة.

ويستخدم هذا الكتاب مصطلح العولمة في عنوانه من أجل شد الانتباه إلى الادعاءات الثقافية على مستوى العالم والحنين إلى مشروعات النخبة، بالإضافة إلى تحويل دفة المناقشات تجاه موضوعات مثل الفاعلية (سواء للنخبة أو لأولئك المُهمشين)، وإلى عمليات خلق عالم دارج بين القاهريين والتي ربما لا تشكل مقاومة على الإطلاق، ولكنها تقوم بإعادة تشكيل عوالم قد تكون معاكسة أو تتحدى الطبقة، والحاضرة، والحدود الوطنية. ويتجاوز القاهريون اليوم، حرفيًا وفعليًا الحدود الوطنية. فهم يتصفحون الإنترنت، ويغادرون بلادهم مهاجرين، كما أنهم يتفاعلون مع السائحين، ويتسوقون في المناطق الحرة العالمية والمعفاة من الضرائب أو في الأسواق غير الرسمية للسلع المُهربة، ويبحثون عن ملاذ بعيدًا عن الحروب أو يتطوعون للاشتراك فيها، ويتعلمون لغات أجنبية وتكنولوجيا الإنترنت، ويحتسون الكابتشينو في مراكز التسوق التجارية، ويتناولون طعامهم لدى

ماكدونالد، ويثورون ضد تحالف حكومتهم مع إسرائيل، كما يتم تعذيبهم بمساعدة ضمنية من الجيش الأمريكي وخدمات مخابرات مكافحة الإرهاب.

ونحن لا نستخدم مصطلح العالمية بمعناه التقليدي، والتي تشير إلى الصورة الخيالية التي يتبناها "كانط" بالانتماء إلى المجتمع الدولي، والتي تضمن مثاليته الإنسانية العالمية استتباب السلام في ربوع الأرض ***(Robbins 1998, 2)***. ولكن نفضل فهم "راينبو" للمصطلح حيث يؤكد على "روح الشعب وترابطه الكلي، ومشاعره القوية (وكثيرًا ما يُجبر الناس على ذلك) والتي لا مفر منها، وخصوصيات الأماكن العامة، والسمات، والمسارات التاريخية، والمصائر" ***Rabinow 1986, 258*** كما جاء عند ***(Robbins, 1998, 1)***. وأصبحت القاهرة، طبقًا لهذا المعنى، منفتحة ثقافيًا بطريقة متزايدة، ومرتبطة اقتصاديًا، ومُنجذبة سياسيًا لاقتصاد أكثر عالمية، ولنظم قانونية (مثل المعاهدات العالمية، والثنائية، والإقليمية للتجارة، والاستثمار، وحقوق الملكية الفكرية، أو قانون حقوق الإنسان)، إنها تصبح أكثر عالمية – وبالتالي تتيح فرص سياسية أكثر للبعض، أو الإقصاء أو المقاومة للبعض الآخر. ويقول العبداوي إن أنماط العالمية تفرض معايير التصنيف بصرف النظر عن الإرادة المحلية والمصالح. إنها مبادئ تتعدي الحدود الوطنية وتحتقر كل ما هو وطني، وثقافي، أو الاعتبارات الثقافية" ***(Labdaoui 2003, 148)***.

وتقع ظاهرة "بزوغ عالمية الحقبة ما بعد الاستعمارية" والتي ترى بينيتا باري أنها نتيجة "للتدفقات العالمية" للحركة الثقافية العابرة للحدود الوطنية" في صميم الفصل الذي يكتبه صادق في هذا الكتاب، حيث يقوم بوصف البروز المتصاعد للقنوات الفضائية الإخبارية والترفيهية الخليجية مثل الجزيرة، أو النجوم البازغين من المملكة العربية السعودية، ولبنان، والمغرب، والذين ما زالوا يتدفقون للقاهرة لصناعة مستقبلهم المهني، ولكنهم الآن يقومون بأداء أغنياتهم بلهجات

أوطانهم الخاصة، كما أن مصممو الرقصات والراقصين في أفلام الفيديو كليب التي يقومون بإنتاجها هم لبنانيون، ويتم بثها عبر الأقمار الصناعية في تليفزيونات المنطقة بأسرها وللعرب المغتربين في أوروبا، ولمريكا، أو إفريقيا *(Parry 1991, 41)* كما أثبتها *(Robbins 1998, 1)*. ويؤكد سعيد صادق في الفصل الخاص به على أن وحدة عربية قد تم تحقيقها ثقافيًا في الشوارع، ومواقع الإنترنت، ولافتات الإعلانات في شوارع القاهرة وحواضر الشرق الأوسط الأخرى في الشرق الأوسط.

عالمية الحمقى والخونة

لماذا توضع العولمة كجاذبية اجتماعية وسياسية، أو كمنهجية من أجل تحليل الهوية، في خندق واحد مع حكم النخبة الاستعمارية؟ وكيف يمكننا تجاوز هذا المأزق؟

إذا ما قاد الوطنيون من أنصار التعصب القومي في الولايات المتحدة الأمريكية أشكالا جديدة من الاستعمار في القرن الحادي والعشرين، فهل من الممكن أن تقوم العولمة في مصر الآن بقيادة التيار المناوئ للاستعمار؟ لا يمكننا أن ننسى أنه في حقبة الاستعمار البريطاني في مصر (١٨٨٠-١٩٣٠) والتي يعتبـــرها البعض العصـــر الذهبي للعولمة، كانت حاضرة الشرق الأوسط مدينة تعج بالعوائق القانونية والعرقيـــة والعنف الذي يهدد بنيان المجتمع *(Zubaida, 1999)*. ولكن التحرريين الوطنيين في سنوات العشرينيات والثلاثينيات كانوا يشجعون مشاعر الإيمان بقدرة المصريين من داخل إطار تشبثهم بالعولمة، ويعيدون اكتشاف أحداث مُشرفة ومتعددة، ومع عوالم تتفاعل مع بعضها البعض، مثـــل تقديرهم لهـــويتهم الشرق أوسطية، أو الفرعونية، أو حتى الهلينية *(Zubaida, 1999, 27)*. وقد اُنتهكت العولمة في سنوات الأربعينيات بالأعمال الوحشية التي تم ارتكابها في الحرب العالمية الثانية، وخانتها القوى الاستعمارية وحلفاؤها، بقيامها بتشكيل

تحالف لتبادل المنفعة مع إسرائيل. كما اُنتهك القانون الدولي، بعد أن فشل المجتمع الدولي في تنفيذ قرارات مجلس الأمن فيما يتعلق بالاحتلال الإسرائيلي العسكري لأراضي مصر، وسوريا، ولبنان، وفلسطين بعد أن تولى ناصر ورفاقه السلطة في حقبة ما بعد الاستعمار، مما جعل من الصعوبة البالغة بمكان أن يتم دمج الدفاع عن الكرامة الوطنية العربية بالإيمان بعدالة العولمة والأنماط القانونية العالمية. وفي هذا الصدد، فإن هؤلاء الذين كانوا يناضلون من أجل عولمة تقدمية متهمون بالحمق، والخيانة العظمى، والمتاجرة بكرامة بأوطانهم.

وليس الجدل الدائر بشأن الطبقة ومنزلة الوطني والخارجي أو المواطن والأجنبي، بالتأكيد جديدًا على الإطلاق. ويقول أنوك دي كونينج في الجزء الخاص به في هذا الكتاب "الاعتياد على عظمة الخارج أو "بّره"، وتبني أنماط عالمية بوضوح هي السمة الغالبة لأوضاع النخبة". وهناك، وبوضوح، مشاعر جديدة بالانتماء للعالمية، سواء كان ذلك يبدو في الاستخدام المتزايد للغة الإنجليزية في الخطاب اليومي أو الإعــلان عن منتج، كمـــا يشير كل من أباظة، ودي كونينج، أو الاختلاط بين الجنسين في أنشطة الترفيه، أو السكنى في التجمعات السكنية ذات الأسوار المُغلقة، أو مشاهدة الأفلام في المسارح الباهظة التكلفة، كما يصف أرمبريست. وأصبحت القاهرة عالمية بالنسبة لكل مواطنيها، ولكن ما يعنيه ذلك هو إضفاء طابع ديمقراطي أقل للعولمة أكثر منه تقوية إمكانية استمتاع هياكل طبقية جديدة بأنواع معينة من الأنشطة الترفيهية. ويشير أرمبريست في هذا الكتاب إلى حدوث تحول عنيف في مركز الجذب الاقتصادي والسياسي في القاهرة. ويكتشف في بحثه عن الثقافة الشعبية، والأفلام، ونوعية المرتادين لتلك الأفلام، أن شعائر الخروج لمشاهدة أفلام السينما والتي كانت تسود مدينة القاهرة منذ بضعة عقود لشباب الطبقة الوسطى قد تدهورت في الوقت الحالي، وتتنحى جانبًا لتفسح الطريق

لطبقة أكثر ثراءً يمكن تحديدها بوصولها إلى مستويات الثراء الاقتصادية لدول الخليج أو أوروبا. ولذا فإن مصير أولئك المرتادين السابقين لدور السينما والمسرح يمثل عالمًا مصغرًا لعمليات التهميش التي طالت أولئك الذين ظلوا مرتبطين بعجلة القطاع العام.

ويشير دي كونينج إلى أنه بينما يرتفع خط الفقر العام إلى أعلى في سنوات التسعينيات، فإن طبقة بورجوازية وثرية نسبيًا من المهنيين المنتمين للطبقة العليا – الوسطى "استطاعوا الحصول على وظائف في قطاعات عليا ومهمة وذات توجه عالمي في سوق العمل" وحيث يمكن أن تصل الأجور من ثلاثة إلى خمسة أمثال تلك الوظائف المماثلة في القطاعات "الأقل حداثة" من قطاعات العمل الرسمي بما في ذلك القطاع العام والقطاع الأهلي" (أسعد ورشدي ١٩٩٩؛ ناجي ٢٠٠١).

وتتشكل الخريطة السكانية في مصر في الوقت الحالي بأكبر زيادة في تاريخها في أعداد الشباب ووجود جماعات أكبر في أعمار المراهقة (١٠-١٩ سنة)؛ وتُرك الكثير من هؤلاء الشباب في أدنى درجات مستوى المعيشة في التسلسل الطبقي لحقبة ما بعد الانفتاح (سياسة الانفتاح الاقتصادي) حيث أجبرتهم السياسات الاقتصادية على أن يكونوا من أكثر فئات الأمة معاناة من البطالة. وبلغت معدلات البطالة بين الشباب في عام ١٩٩٨ ثلاث أمثال إجمالي البطالة في باقي الفئات في مصر بأسرها ولذا فإنه ليس من المستغرب أن يتدافع الشباب للانضمام للحركات الاحتجاجية التي طفت على سطح الحياة السياسية (يوسف ٢٠٠٣، ١٤). ويقول أرمبريست إنه بعد أن تولى الشباب من الرجال أمر دور السينما فقدت بريقها في أعين حراس الثقافة. "وقدمت هذه النخب عامدة صورة مشوهة لهؤلاء الشباب كغزو بربري للطبقات الدنيا من "الحرفيين" وبالتالي التعتيم على ظاهرة كانت في حقيقة الأمر مرتبطة بتخفيضات واسعة لثروات الطبقة الوسطى في حقبة ما بعد الناصرية".

وعلى الرغم من ذلك، فإنه من المثير للدهشة، أنه بعد عقود من الصراع، وستين عامًا من النهاية الدامية للحرب العالمية الثانية، وحينما خدعت القوى الأوروبية الكبرى حلفاءها من الدول العربية المحتلة، وخدعت الحمقى ممن يقفون وراء الدفاع عن التضامن العالمي الأوروبي، فلا تزال القضية في الشرق الأوسط على قيد الحياة لعولمة أكثر شيوعًا، وأقل نخبوية، وغير متخذة من أوروبا مركزًا لها. ولم يعد الجدال بشأن العالمية مقصورًا على دوائر النخبة الليبرالية التى تقوم بحبك الروايات الخيالية لإرث البحر الأحمر الأبيض المتوسط، أو على معاقل المليونيرات لتبرير عقود مشروعات المقاولات ذات النجوم الخمس، وخطط التسويق الاستهلاكية. وبطبيعة الحال فإن أشكال هذه العولمة الحصرية هي الأشد قسوة من أي وقت مضى. ولكن هذه الأشكال الجديدة من العالمية في الشرق الأوسط أيضًا تنسحب مبتعدة ببطء إلى هوامش الحياة العامة في صورة أشكال تخـــريبية، ومتجـــذرة، وتتسم بالقســـوة، وتـــرتبط بمشاعر القنوط من الحياة في هذا العالم.

العالمية للطبقات الدنيا والعامة: من سياسات الهوية إلى الاختلاط المُنتقد

ويشير فرانز فانون في كتابه "المعذبون في الأرض" عن الحاجة إلى البحث عن الزعامة الشعبية، وعملية التغيير الاجتماعي- السياسي في "سلسلة من المشاركات المحلية (...) والتى لا تعتبر أي منهما حاسمة (...) ويتجلّى الوعي بالحقائق جزئيًا وبطريقة محدودة وغير مستقرة (...) وسوف تستخدم كافة تقلبات موجات المد والجزر المحلية لبحث المسألة من وجهة نظر (...) كل الشبكات السياسية *(Fanon 1963, 140 as cited by Bhabha 2001, "39")*.

ويفسر هومي كي. بهابها في مقالته المعنونة *أشعر بالإحباط: ملاحظات على العالمية الدارجة*، عبارات فانون السابقة وكأنه يقدم لمحة من تطبيق عملي على العالمية التي لا تناضل من أجل تشييد المدينة الفاضلة (نخبة تتجاوز ارتباطها بالمحلية)، ولا من أجل الثورة (سحق كل المظالم من خلال الإبادة). ويصرّ فانون، مقدمًا البديل، على أن "المعَذْبين" هم عملاء متمركزون في حالة حيوية، يتسمون بالعنف هيكليًا، ولكنهم في نهاية المطاف بنية من القوة تتاح فيها سياسات ثقافية خادعة وذات فوارق دقيقة، ولا غنى عنها. وتحتاج هذه الجهود إلى أن تعترض على القيود الجامدة والمتزمتة لخداع النفس ونبذ عسكرة الهويات المحدودة، والجامدة. ويرى بهابها، ومن خلال عيون فانون، نوعا من العالمية النشطة من خلال المشاركة الحاسمة للذين يعيشون الحاضر، متسائلاً "كيف لنا أن نفكر في هذه العلاقة من المحلية والتي تتطلب كل عملية مد وجزر فيها إعادة تسجيل للعلاقات العالمية"؟ *(Bhabha 2001, 40)* .

وتقوم تحليلات عالمية نقدية معينة عن العولمة مُستمدة من دراسات عابرة للأوطان عن الهجرة والاحتلال في أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي، على سبيل المثال، بإلقاء الضوء على الخصائص الاستعمارية للعولمة. وتجاهد كلية القاهرة للدراسات العالمية من أجل تعديل وتحرير مفهوم الاختلاط والتواصل الاجتماعي، والمتأصلة فيما يُطلق عليه والتر مينولو "التفكير المرتبط بالحدود الجغرافية"، وهو الوعي بكيفية خلق، وإعادة خلق، وتجسيد الهويات والفروق، وتطبيعها ثقافيا، وترتيبها هيكليًا، بدلاً من التراجع إلى الرفض الوطني الساذج للأجنبي بغرض إنقاذ الهوية الوطنية، ذات الأهمية *(Mignolo 2000)*.

ولكن في رأي ريتشار سينيت، هذا "التفكير المرتبط بالحدود الجغرافية" ليس هاجسًا بلا حدود، ولكنه شرط مسبق للانفتاح الإنساني. وتتبع رؤيته القائمة

للعالمية، واهتماماته بالآخرين، واحتمال اختلاطه وتعايشه مع الآخرين من إدراكه لاحتياج النفس والتصدعات، وتدمير الذات، والصراعات المُعقدة لرغباتنا الدفينة والتي تعجل بعبورنا للحدود وانفتاحنا لحاجات الآخرين تأتي من التوقف عن اجترار أحلام تشي بأن العالم بأسره خُلق ككل من عنصر واحد" (١٩٩٤، ١٣).

ويرى بول جلوري في كتابه "اكتئاب حقبة ما بعد الاستعمار" بأن أشكال "التفكير المرتبط بالحدود الجغرافية" يمكن أن تسمح للمجتمعات الحضرية، وأيضًا للمنظرين في علم الاجتماع السياسي، أن يصلوا إلى ما وراء لعبة الشقاق التي ليس فيها سوى رابح أو خاسر، وسياسة هوية تعدد الثقافات الأساسية والتي يمكن أن تعزز الموروثات الصنمية الجامدة للحداثة الاستعمارية العنصرية، وبدون استنطاق علاقات القوة والتسلسلات الهيكلية والتي تقوم بإعادة استنساخ أقنعة من الحكم المطلق والتي تأخذ الشكل الديني، والعنصري، والعرقي، وتتوارى خلفها *(Gilroy 2005)*.

يختلف هذا المنعطف الجديد في الممارسة العملية وتحليل سياسات الهوية – والذي يرتبط بطريقة حاسمة مع استعمار الهوية وبشكل كامل – عن المناهج المحافظة، وغير المُسيّسة والتي تدعم عدم أخذ الجنس أو السلالة العرقية، أو الرفض بشكل جذري، والنهج العلماني، إلى الهوية الدينية. ويبدو تجاهل أو قمع القوة الحقيقية للهويات المتجسدة، أو تغليفها في عالم مُقسم بصرامة لقطاعات متعددة الثقافات لحقبة ما قبل السياسة، ويبدو أنه لها نفس التأثيرات كمحاولات موازية لإبقاء الدين أو الأصولية بعيدًا عن الملعب السياسي. ويضمن إبقاء الهوية في عالم النقاء السياسي بدلاً من مجال الإبداع العام أن تظل أداة للاستعمار الداخلي، وليس للتحرر منه.

التسلسلات الطبقية العالمية، الهويات المصرية والتراث

لم تقم التسلسلات الطبقية التي تشكلت عن طريق عمليات العولمة، والتبعية العالمية، وسياسات الدولة في أعقاب حقبة ما بعد الانفتاح بمنع آليات التنافس الثقافي والاجتماعي. ويستمر ظهور الهويات الثقافية الفرعية المتعددة ومنتقدي أشكال التجانس الوطني المصري والذي تروج له الدولة والمؤسسة الثقافية الرسمية في القاهرة، كما يشير إليه بيوج، وميللر، وسميث، وكولونا، ومادووف في هذا الكتاب. ولكن لا يتم تصوير هذه الاستراتيجيات من أجل إعادة تسجيل الهوية المصرية كاستجابات محلية لما هو عالمي أو وطني، ولكن هذه الاستراتيجيات نفسها واقعة في شراك عمليات تحولية، وحركات شعبية وطنية، وفصائل دولة، والجغرافية السياسية الحضرية. فعلى سبيل المثال، في الفصل الخاص بميللر، يتم إعادة تعريف معنى "العصبية"، أو التضامن المبني على القبلية المشتركة لدى قاطني صعيد مصر واحتفائهم بأصولهم في الجزء الجنوبي من البلاد، والتي ليست فقط الأكثر فقرًا والأقل نموًا، ولكن عادة ما يسخر منهم أهل القاهرة، بأن الصعيد يقطنها أناس متخلفون، وأغبياء، ويتصفون بالعناد الشديد. ومهما أصاب الرجل "الصعيدي" من ثراء، أو قوة سياسية، فإنهم على الرغم من ذلك يوصمون وبصفة جماعية بالوافدين الذين يفتقرون إلى أي نوع من أنواع المهارة وترتبط صورتهم بصورة العشوائيات (المناطق السكنية العشوائية) التي يقطنونها بأعداد كبيرة منذ عهد ما بعد الانفتاح والتي تعتبر معاقل للتطرف، والجريمة، والفقر. وقد تأثرت مع ذلك، الهوية الإقليمية التي يعتنقها أهالي الصعيد ويدعمونها في سعيهم لتحقيق القيادة السياسية والشعبية بتجربتهم في الاغتراب، حيث إن نمط قيم الخليج العربي في المملكة العربية السعودية أو الكويت ترفع من قدر القبيلة كواحدة من أكثر أنواع التنظيمات الاجتماعية من حيث الأصالة والشرعية، كما يقومون باستخدام

الخطاب القبلي الذي يمنح امتيازًا لرابطة الدم وعلم الأنساب كنوع من التحدي لخطاب الحداثة المصري، والتي تتجاهل الأصول العِرقية والاختلافات *(Shryock 1997)*.

ويشير كل من ميللر وسميث في هذا الكتاب إلى أن الهوية المركزية والقومية القوية لمصر، والتي كان يتم الترويج لها بواسطة الناصرية فضلاً عن الليبرالية الجديدة في أشكال مختلفة، قد حظرت التعبير العلني والتعبير السياسي من أي نوع كان من أنواع الطائفية، سواء كانت تستند إلى العقيدة (الأقباط على سبيل المثال)، والإقليم (أهل الصعيد)، أو الأصول العِرقية (النوبيون – وغير العرب). ومع ذلك يجاهد، رجال الفكر من أهل النوبة، والنشطاء، وأهل الصعيد، والطبقة العمالية من أهل القاهرة، وحتى أعضاء جماعات الحركات الصوفية من أجل إثبات هويتهم. فهم يناضلون من أجل تمثيل ذوي البشرة السوداء والنوبيين وأيضًا النساء المحجبات في الإعلام المرئي، وإعادة إحياء اللغات النوبية (كنزى – وفاديجا)، من أجل تعزيز قيم أهل الوجه القبلي لمصر (الأمانة، والتضامن، والورع، واحترام كبار السن، وتضافر الأقارب) وذلك كترياق شاف للتغريب الذي تمارسه النخبة من أهل القاهرة، أو من أجل استمرار الاحتفالات الدينية الشعبية (الموالد) للجماعات الصوفية وذلك على الرغم من المراقبة المشددة والمتزايدة للحشود التي تفرضها الشرطة. وتثري الاحتفالات التي تقام لآل البيت والتي تقوم بها الجماعات الصوفية في منطقة الحسين أو السيدة زينب الأحياء المهملة من المدينة، كما تقوم بتنمية مشاعر الانتماء؛ بمعنى أنه، وكما توضح مادوف، فإن المكان يتم حبكه في الذاكرة الجماعية من خلال هذه المهرجانات السنوية المهمة. ويتقاطر الكثيرون من الستة ملايين رجل الأعضاء في الحركات الصوفية في مصر إلى القاهرة من أجل المشاركة، وتعزيز التزاماتهم الدينية، وممارساتهم الثقافية، بالإضافة إلى إحياء شوارع تلك المناطق الشعبية وتحويلها إلى ما يشبه أجواء المهرجانات الاحتفالية

حيث تختفي القواعد الاجتماعية بصفة مؤقتة وحيث يقوم النساء والرجال بتحديد المجالات للتعبير الجماعي، ومشاعر البهجة، وتبديل الهوية.

وبعيدًا عن مواسم الموالد، فإن شوارع القاهرة تستضيف سلسلة من جهود الكفاح والابتكارات في مجال الغناء، والمجالات العامة. ويستمر المصريون من الطبقات الشعبية والذين يعيش أغلبهم في العشوائيات، في شراء شرائط الكاسيت لنجوم الغناء المفضلين لديهم، ويعبرون عن هويتهم ويشاطرونهم في همومهم عندما يقومون بالغناء في أفراحهم، ومهرجانات الشوارع، وحفلاتها، وذلك على الرغم من استهجان المؤسسة الثقافية المصرية لهذه الأغاني الشعبية باعتبارها مبتذلة أكثر من اللازم أو مريبة من الناحية السياسية. وكما يشير بيوج في هذا الكتاب، وعلى الرغم من ذلك، فإن شعبيتها "تعزز من الوجود الثقافي للجماهير الحضرية في المجال العام".

وتصف فصول هذا الكتاب بدقة بالغة الصراع على المجال العام، مكانيًا، وسياسيًا، وثقافيًا. ويصور الفصل الذي تكتبه كل من القاضي والكرداني الطريقة التي قام بها المهندسون، والمفكرون، وموظفو الدولة، ومسئولو التخطيط الحضري، والباحثون، ببعث روح الحياة في منطقة وسط المدينة والتي يرجع تاريخها إلى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، عن طريق تجديد وترميم المباني التي تعود إلى هذه الحقبة التاريخية، والبحث عن الحماية الحكومية لممارساتهم، بما يخدم توسيع وتنويع مفهوم التراث القومي لمصر ليخدم معنى تعدد الإرث التاريخي. وكما يلفتون الانتباه، فإن عملية اعتبار المباني أثرية، غالبًا ما كانت عملية تصطبغ بصبغة سياسية، حيث تقوم بالتمييز بين تجمعات النخبة، ومجتمعات الطبقات العمالية والتي تتطابق مع العديد من الحُقب التاريخية، والمعالم، والآثار، والاستخدام السكني، ويتفاعلون معها بالعديد من الأساليب. وقد نجم عن هذه الصراعات مع الدولة، والهويات المتضاربة غزوات مهمة، حيث

تبرز عالمية مضطربة بين صفوف العامة ومن العديد من مجموعات الأنشطة المتنوعة، والفنانين، والباحثين، والمفكرين، والقائمين بأعمال الترفيه، وقادة المجتمعات في القاهرة.

خاتمة

وقد أعادتنا التزامات الدراسات الخاصة بالأجناس البشرية ودراسة الحالة لكلية القاهرة والتي ناقشناها سابقًا مرة أخرى، للناس في القاهرة ومصر الذين علمونا كيف نفهم هذه المدينة العملاقة، ولو جزئيًا فقط. ولقد قضينا جميعًا ممن ساهموا في هذا الكتاب سنوات طويلة ونحن نسعى لفهم مدينة القاهرة، فعشنا فيها، وتعلمنا ممن يعيشون فيها تعقيداتها والفروق الضئيلة التي تحيط بموضوعات دراستنا. وتعتبر مقدرة القاهريين على مناقشة عالمهم السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي باعثة للدهشة. ولكن المعوقات التي لا تزال تواجههم هائلة. ويقيد التناقض الوجداني الذي تعرفنا عليه في هذه المجموعة مقدرتنا على تقديم نتائج حاسمة أو تنبؤات عن القاهرة. وكان يتعين علينا أن نتساءل – القاهرة، لمن؟، ولصالح من؟، وباسم من؟ ويثير تأصيل تساؤلاتنا عن الموقع الحضري الكثير من الجدال عن العولمة ورسم خرائط التوزيع، وباستخدام مصطلح أمنية الشاكري، إلى مستوى ملموس للغاية. ويمكننا أن نلحظ بوضوح الطريقة التي أصبحت بها المدن الجديدة التابعة محاور مهمة للصناعات التحويلية، بينما يرفض العاملون بهذه المصانع الانتقال للمعيشة بها، ويقومون باستخدام وسائل المواصلات لمسافات شاسعة من منازلهم في قلب المناطق الحضرية للقاهرة أو العشوائيات. ويمكننا أن نرى الطريقة التي تكاثرت بها العشوائيات في الحجم وأصبحت أكثر تركزًا في العقود القليلة الماضية، وعلى الرغم من أنها لا تحصل على أي خدمات حكومية

تتناسب مع حجم سكانها. ويمكننا أن نرى أيضًا كيف أن دبي قامت بتمويل وتصميم وخلق نماذج لمناطق صناعية وتجارية جديدة تحيط بالقاهرة، بالإضافة إلى المراكز التجارية الفخمة والتي يمكن الوصول إليها فقط بالسيارات الخاصة، لأولئك القادرين على تحمل ذلك. كما يمكننا أن نرى مناطق تاريخية في القاهرة يتم تجديدها من أجل جذب سوق صناعة السياحة المربحة، وهي مصدر مهم للحصول على العملة الأجنبية، بينما يتم نبذ العامة من أفراد الشعب خارج أسوار الأماكن التي كانت عامة في السابق. وكما يمكننا أن نرى أيضًا كيف أن المنطق الاقتصادي والنسيج الاجتماعي للأسواق القديمة والمناطق الصناعية في القاهرة يتم تحويلها بطريقة جذرية من أجل إفساح الطريق للحافلات السياحية، ومن أجل جذب أنظار السائحين، ومراعاة المعايير الجمالية لثقافاتهم، بدون تدعيم أو مشاركة من المجتمعات المحلية.

ويتم صناعة القرارات اليومية بشأن الموضوعات التي قمنا بوصفها آنفًا بواسطة الحكومة المصرية، ووكالات المعونة الأجنبية، وممثلي الجهات العسكرية والأمنية، والسفارات الأجنبية، والمؤسسات الدينية والمالية. وينجم عن قوة السياسة واتخاذ قرارات من أجل نشر موارد الميزانية، والاستثمار، والجيش، وقوات الشرطة، والمعرفة، وأشكال وسائل الإعلام، والخوف الجماعي، خسائر هائلة وبطبيعة الحال لأولئك الذين يكابدون من أجل التعبير عن بدائل جديدة. ويمكن أيضًا أن تخترق عمليات الانتشار هذه وتُعيد تشكيل هذه البدائل الثانوية. ولكن هذا الكتاب يكشف النقاب عن عملية إعادة التعمير المتسمة بالفوضى ولا تحدها حدود. وعلى الرغم من ذلك، فإن تغيير هذه القرارات والانتشار وإدخال تعديلات على السياسات، يتسم بالأولوية، ويأمل برنامج هذا البحث أن يتمكن من تسهيل عملية خلق هذه البدائل.

وبينما قمنا بتسجيل الفاعلية والإبداع لدى سكان القاهرة، وإمكانيات وجود بدائل، فإننا قمنا بوضع الخطوط العريضة للكثير من العوائق لمثاليات التحول إلى العالمية. وكما يقول شيلدون وولن نحن أقل اهتمامًا بالتوقعات، منه عن تسجيلنا للتحذيرات. وتختلف هذه التحذيرات في بعض جوانبها، على الرغم من تشابهها بالتنبؤات، في ناحيتين مهمتين. "ففي المقام الأول، تتضمن التحذيرات نتائج غير سارة أو غير مرغوب فيها، بينما يكون التنبؤ العلمي محايدًا. والأمر الثاني، أن التحذير يصدر عادة من شخص يشعر بشيء من الارتباط أو التورط مع الشخص أو الجانب الذي يوجه إليه التحذير؛ والتحذير باختصار، هو رمز للالتزام، والذي لا يتوافر في عمليات التنبؤ *(Wolin 2004, 12-14)*. ولدينا إدراك ينبع من داخلنا كجهات وطنية فاعلة في أوطاننا، وكباحثين، من أجل التواصل، والتحليل، والتحذير من مخاطر استمرار الإقصاء السياسي والاقتصادي في القاهرة، ويدعم هذا الإقصاء جهاز أمن الدولة المزود بوسائل عسكرية والمتحالفين معه(٥).

ولقد شرعنا في هذا الفصل بتقدير متفائل بعض الشيء عن حركة تقول "كفاية" للشمولية التي تعتنق بعض المثاليات الديمقراطية للعالمية. وأدت مظاهرات الشوارع الصاخبة التي وقعت في عام ٢٠٠٥، والتي بُنيت على تنظيم سياسي مسبق، بحض نظام مبارك على السماح بالتنافس الرئاسي وانتخابات تشريعية أكثر عدلاً في نوفمبر ٢٠٠٥. وبينما فاز الحزب الوطني الديمقراطي الحكومي في هذه الانتخابات بالأغلبية، فإن عامة المصريين قد شرعوا في التعبير عن مطالبهم من أجل الالتزام بالشرعية، والمشاركة، والتمثيل الأكثر إقناعًا، وتعزيز مقدرتهم على حشد المؤيدين لهم. ولكن استمرت جحافل الأمن، والقيادة السياسية الاستبدادية، والقوة المالية للدولة والداعمين الدوليين لها، في تفتيت وإضعاف هذه المجموعات البازغة. ولكن القاهريين أصبحوا أكثر حصافة في استغلال الازدواجية، والتناقض الوجداني، والفرص السياسية. وبينما تتصدع واجهة الدولة التي تشي بقدرة لانهائية

أكثر فأكثر، فإن بعض الفروع القومية، والسياسية، والثقافية، وبعض المدارك الدينية بدأت في امتلاك القدرة على التعبير عن مطالبها وأهدافها.

ونحن نأمل أن تنجح فصول هذا الكتاب القادمة في توضيح أنه لا معنى في التفكير في القاهرة سواء كمقبرة أو كقنبلة، أو الإشارة إلى الشارع كمجموعة من الغوغاء ذوي الخطورة البالغة. وتستنطق هذه الفصول التعددية التي تتميز بها القاهرة، ومدى الفاعلية التي يتمتع بها قاطنوها، وتفاعلات التدفقات العالمية مع العديد من القوى الأخرى. وبذل المؤلفون كل جهدهم من أجل فك طلاسم مدينة القاهرة وجعلها مفهومة وفي المتناول، وانطلاقًا من الاهتمام بأن الكثير من أنماط الحياة، ونضال البشر، وفرحتهم في الشرق الأوسط لا تزال تُفهم بطريقة سطحية تمامًا، أو تربك هؤلاء البعيدين عن المنطقة تمامًا. ولا ترمي محاولتنا المتواضعة هذه إلى تقديم سرد قصصي شامل لمدينة القاهرة، ولكن الإشارة إلى العامية الدارجة التي تزداد وتيرتها في مصر، وذلك على الرغم من المعوقات الضخمة التي يواجهها المصريون. ويقوم المصريون– وحشود المغتربين منهم، والمهاجرون، وحلفاؤهم العالميون – بإعادة تصحيح أوضاعهم من أجل النضال مع الظروف البيئية المتغيرة باستمرار وبناء استراتيجيات سياسية خلاقة من أجل مستقبلهم. وكما أن الهياكل الاقتصادية، والعسكرية، والمكانية، والحشود التي يتم دعمها من خارج الحدود الوطنية للمزيد من المضاربة، والاكتفاء الذاتي، ونشر ثقافة الخوف، والتنكيل كلها أيضًا في تزايد. ونحن نأمل أن نسهم في تشكيل وعي المدينة التي تحمل تاريخنا بأسره، والتزاماتها العالمية، قاهرتنا العالمية.

الأعمال المستشهد بها

<u>Works Cited</u>

AlSayyad, Nezar, Irene Bierman and Nasser Rabat. 2005. *Making Cairo Medieval*. New York: Lexington Books.

Anderson-Gold, Sharon. 2001. *Cosmopolitanism and Human Rights*. Cardiff: University of Wales.

Assaad, Ragui and Malak Rouchdy. 1999. "Poverty and Poverty Alleviation Strategies in Egypt." *Cairo Papers in Social Science* 22: 1.

Bauman, Zymunt. 1999. *Modernity and Ambivalence*. Ithaca, NY: Cornell University Press.

Bayat, Asef. 2003. "The 'Street' and the Politics of Dissent in the Arab World." *Middle East Report* (Spring). *<http://www.merip.org/mer/mer226/226_bayat.html>*. Visited 10 October, 2005.

Beattie, Andrew. 2005. *Cairo: A Cultural History*. New York: Oxford University Press.

Bhabha, Homi. 2001. "Unsatisfied: Notes on Vernacular Cosmopolitanism." In *Postcolonial Discourses: An Anthology*, ed. Gregory Castle

Bianca, Stefano and Philip Jodido, eds. 2004. *Cairo: Revitalizing a Historic Metropolis*. Turin, Italy: The Agha Khan Trust for Culture.

Carter, April. 2006. *The Political Theory of Global Citizenship*. London: Routledge.

Denis, Eric and Séjourné Marion. 2002. *ISIS Information System for Informal settlements*. Draft report for the Urban Research Participatory Urban Management Program, Ministry of Planning & German Technical Co-operation (GTZ) & Observatoire urbain du Caire Contemporain (OUCC), unpublished.

"Egyptian Opposition Continues Sit-in." 2005. Aljazeera.net 31 July. *http://english.aljazeera.net/NR/exeres/1D78B343-BAD3-45C6-BBD2-DE3CCFBE5F06.htm. Visited 30 October 2005.*

Falk, Richard. 2005. Comments delivered at an Editorial Board Meeting of *Middle East Report*, in Santa Barbara California, May. Transmitted by personal communication.

Fanon, Franz. 1963. *The Wretched of the Earth*. New York: Grove Widenfeld.

Flyvbjerg, Bent. 2001. *Making Social Science Matter: Why Social Inquiry Fails and How it Can Succeed Again*. Cambridge: Cambridge University Press.

Fulbrook, Edward. 2002. "The Post-Autistic Economics Movement: A Brief History." *Journal of Australian Political Economy* 50 (December). *<http://www.jape.org/jape200212.htm>*. Visited 11 November, 2005.

Gertel, Jorg. 1997. *Kairo. Nahrungssicherheit und Verwundbarkeit im Kontext der Globalisierung*. Unpublished Habilitation Thesis, University of Freiburg.

al-Ghobashy, Mona. 2005. "Egypt Looks Ahead to Portentous Year." *Middle East Report Online* 2 Feb 2005. *<http://www.merip.org/mero/mero020205.html>*. Visited 30 October, 2005.

Gilroy, Paul. 2005. *Post-colonial Melancholia*. New York: Columbia University Press.

Golia, Maria. 2004. *Cairo: City of Sand*. London: Reaktion.

Kasza, Gregory J. 2002. "Deserves Got Nothin' to Do with It: Perestroika and the Nature of Ideas in Today's Academy." Council on Comparative

Studies Working Paper #2, American University, 5 November. <*http://www.american.edu/academic.depts/ccs/workingpaperkasza.pdf*>. Visited 10 October, 2005.

Khouri, Rami G. 2004. "Set up an Independent Arab Human Development Center." *Beirut Daily Star,* 22 December. *http://www.dailystar.com.lb/article.asp?edition_id=10&categ_id=5&article_id=11197* Visited 15 January, 2006.

Isin, Engin. 2005. "Bombs, Bodies, Bits: Acts, Claims, Struggle." Paper presented at "Cities and Globalization: Challenges to Citizenship" Conference. Heinrich Böll Foundation, Institute Français du Proche-Orient. December 9–11, Beirut.

Ismail, Salwa. 2002. *Rethinking Islamist Politics: Culture, the State and Islamism* London: I.B. Tauris.

Labdaoui, Abdellah. 2003. "Universality, Modernity and Identity: The Case of Morocco." In *Cosmopolitanism, Identity and Authenticity in the Middle East*, Roel Meijer, ed., 145–58. London: Routledge Curzon.

Mahmood, Saba. 2005. *Politics of Piety: The Islamic Revival and the Feminist Subject*. Princeton, N.J.: Princeton University Press.

Malkki, Lisa. 1992. "National Geographic: the Rooting of Peoples and the Territorialization of National Identity among Scholars and Refugees." *Cultural Anthropology* 7 (February).

"Mideast Climate Change." 2005. *New York Times* 3 March. <*http://coranet.radicalparty.org/pressreview/print_right.php?func=detail&par=12513*> Visited 10 January, 2006.

Mignolo, Walter. 2000. "The Many Faces of Cosmo-Polis: Border Thinking and Critical Cosmopolitanism." *Public Culture* 12 (Fall 2000): 723–41.

Mitchell, Tim. 1991. *Colonising Egypt*. Berkeley: University of California Press.

______. 2002. *Rule of Experts: Egypt Techno-Politics and Modernity*. Berkeley: University of California Press.

Monroe, Kristin. 1991. "Theory of Rational Action: What Is It? How Useful Is It for Political Science?" In *Political Science: Looking to the Future, Vol. 1*, ed. William Crotty. Evanston, IL: Northwestern University Press.

Monroe, Kristen Renwick. 2005. *Perestroika: The Raucous Rebellion in Political Science*. New Haven, C.T.: Yale University Press.

Nagi, Saad Z. 2001. Poverty in Egypt: Human Needs and Institutional Capacities. Lanham, MD: Lexington Books.

Nussbaum, Martha. 1994. "Patriotism and Cosmopolitanism." *Boston Review* 19 (October/November).

Öncü, Ayshe. 2005. "Global Discourses of Multiculturalism and Political Claims to Istanbul's Present/Past." Paper presented at "Cities and

Globalization: Challenges to Citizenship" Conference. Heinrich Böll Foundation, Institute Français du Proche-Orient. December 9–11, Beirut.
Parry, Benita. 1991. "The Contradictions of Cultural Studies." *Transition* 53 (1991).
"Protests Mar Mubarak Win." 2005. Al-Jazeera.net 11 Sept <*http://english.aljazeera.net/NR/exeres/4BB84C5D-63A8-4B00-9CAC-09412FAF82E0.htm*>. Visited10 January, 2006.
Rabinow, Paul. 1986. "Representations are Social Facts." In *Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography*, James Clifford and George Marcus, eds., Berkeley: University of California Press.
Raymond, André. 2000. *Cairo*. trans. Willard Wood. Cambridge: Harvard University Press.
Riis, Jacob. 1890. *How the Other Half Lives: Studies Among the Tenements of New York*. New York: Scribners.
Robbins, Bruce. 1998. "Introduction Part 1: Actually Existing Cosmopolitanism." In *Cosmpolitics: Thinking and Feeling beyond the Nation*, Pheng Cheah and Bruce Robbins, eds., 1–19. Minneapolis: University of Minnesota Press.
Rodenbeck, Max. 2000. *Cairo: The City Victorious*. New York: Vintage.
Rudolph, Susanne Hoeber. 2005. "Perestroika and Its Other." In *Perestroika: The Raucous Rebellion in Political Science*, Kristen Renwich Monroe, ed., 12–20. New Haven, C.T.: Yale University Press.
Said, Mohamed Sayyid. 2003. "Cosmopolitanism and Cultural Autarky in Egypt." In *Cosmopolitanism, Identity and Authenticity in the Middle East*, Roel Meijer, ed., 183–96. London: Routledge Curzon.
Sassen, Saskia. 2001. *The Global City*. Princeton, N.J.: Princeton University Press.
Scott, James C. 1999. *Seeing Like a State : How Certain Schemes to Improve the Human Condition Have Failed*. New Haven, C.T.: Yale University Press.
Sennett, Richard. 1994. "Christian Cosmopolitanism." *Boston Review* 19/5 (October/November): 13.
Shapiro, Ian. 2005. *The Flight from Reality in the Human Sciences*. Princeton, N.J.: Princeton University Press.
Sims, David. 2003. "*Cairo, Egypt. Understanding Slums: Case Studies for the Global Report on Human Settlements*. United Nations Human Settlements Programme *(UN-Habitat)* and the Development Planning Unit *(DPU)*, University College London. <*http://www.ucl.ac.uk/dpu-projects/Global_Report/cities/cairo.htm*>. Visited 9 January, 2006.

Singerman, Diane. 1995. *Avenues of Participation: Family, Politics, and Networks in Urban Quarters of Cairo*. Princeton, N.J.: Princeton University Press.

Singerman, Diane and Barbara Ibrahim. 2001. "The Cost of Marriage in Egypt: A Hidden Variable in the New Arab Demography and Poverty Research." Special Edition on "The New Arab Family," Nick Hopkins, ed. *Cairo Papers in the Social Sciences*, 24 (Spring): 80–116.

Shryock, Andrew. 1997. *Nationalism and the Genealogical Imagination: Oral History and Textual Authority in Tribal Jordan*. Berkeley: University of California Press.

"Something Stirs." *The Economist* 3 March, 2005 *http://www.mafhoum.com/press7/230s21.htm*. Visited 13 January, 2006.

Thiele, Les. 2000. "Review of *Making Social Science Matter: Why Social Inquiry Fails and How it Can Succeed Again*." *Journal of Politics* 64: 274–76.

Wolin, Sheldon S. 2004. *Politics and Vision : Continuity and Innovation in Western Political Thought*. Princeton, N.J.: Princeton University Press.

Yousef, Tarik. 2003. "Youth in the Middle East and North Africa: Demography, Employment, and Conflict." In *Youth Explosion in Developing World Cities: Approaches to Reducing Poverty and Conflict in an Urban Age*, eds. Blair A. Ruble, Joseph S. Tulchin, Diana H. Varat with Lisa M. Hanley, 9–24. Washington D.C.: Woodrow Wilson International Center for Scholars.

UN-Habitat. 2001. *Cities in a Globalizing World: Global Report on Human Settlements*. London: Earthscan Publications Ltd.

Vitalis, Robert. Forthcoming, 2006. "Alexandria Without Illusions." In *Cosmopolitan Alexandria*, Deborah Starr, ed. Syracuse, NY: Syracuse University Press.

Zubaida, Sami. 1999."Cosmopolitanism in the Middle East." In *Cosmopolitan Identity and Authenticity in the Middle East*, ed. Roel Meijer, 15–34. London: Routledge Curzon.

الهوامش

١- ربما كانت إسطنبول تقترب أو تبز القاهرة الكبرى حجمًا؛ ولكن المدينة التركية في أوائل القرن الحادي والعشرين قد عززت من مكانتها في منطقة أوروبا، والتقليل من انتماءاتها الشرق أوسطية، والمتوسطية والأخرى.

٢- المدينة الضخمة والتي يطلق عليها "ميجا سيتي" هي عبارة عن تكتل حضري (مدينة وضواحيها والمنطقة الحضرية الأكبر) والتي يقطنها أكثر من ١٠ ملايين نسمة.

٣- راجع في ذلك: *Raymond 2000; Rodenbeck 2000, Beattie 2005, Ahmed 2000, Golia 2004, Bianca and jodidio 2004, Myntti 2000, AlSayyad, Bierman and Rabat 2005, Mitchell 1991 and 2002, Singerman 1995, Ghannam, Mahmoud 2005, Ismail 2002, Hoodfar 1997, and kienle 2001.*

٤- يتفاوت تحديد المنطقة الحضرية للقاهرة الكبرى بوضوح مما يؤدي إلى اختلافات كبيرة في تقديرات السكان. ويقدر عدد سكان القاهرة بما يقرب من ربع عدد السكان في مصر بأسرها. ويعتبر ٣٣% من سكان القاهرة تحت سن ١٥ عاما، بينما تشكل الإناث ٤٨،٨% من السكان. راجع في ذلك *Sims 2003, 3. "Cairo, Egypt" Understanding Slums: Case Studies for the Global Report on Human Settlements (UN-Habitat 2003). http://www.ucl.ac.uk/dpu-projects/Global_Report/cities/cairo.htm visited 9 january, 2006.*

٥- قُدمت هذه الرؤية بطريقة مقنعة تمامًا بواسطة الدكتورة منى حرب الأستاذة بالجامعة الأمريكية بيروت في الجلسة الختامية لمؤتمر: "المدن والعولمة: تحديات المواطنة"، *Heinrich Boll Foundation, Institute Francais du Proche-Orient, December 9-11, Beirut.*

الفصل الأول

القاهرة: عاصمة لليبرالية الجديدة؟
من مدينة ذات أسوار إلى مجتمعات عمرانية ذات أسوار مغلقة

إريك دينيس

غياب الأمن وأرض الأحلام

لن يضطر أحمد أشرف المنصوري إلى الحد من سرعة سيارته كثيرًا بفعل زحام المرور هذا المساء(١). فسائقه ليس له مثيل في المقدرة على إخراجه من الهرج والمرج الذي يسود قلب المدينة. حيث يطلق نفير سيارته وهو يغمز بطرف عينيه مداعبًا رجال البوليس وهو ينطلق صاعدًا في الطريق السريع الذي لا تُحده تقاطعات شاقًا طريقه إلى أعلى حيث الطريق الدائري. ثم ينطلق مسرعًا صوب الغرب إلى حيث بوابات المدينة الجديدة التي تم تشييدها في مدينة السادس من أكتوبر كإنجاز غير مسبوق في ذلك الوقت.

ويقوم المنصوري بإلقاء نظرة خاطفة على العالم المجهول الذي يكتظ فيه الفلاحون؛ في عالم لا سبيل إلى الخلاص منه، حيث يكتظون في بيوت صنعوها بأنفسهم من القرميد والمخلفات، ومساكن شعبية قديمة قامت الدولة ببنائها. وعندما يقوم بإمالة رأسه ليلقي نظرة عليها، فإنه يفعل ذلك ليؤكد لنفسه صواب القرار الذي اتخذه ليبتعد عما يعتقد أنه العالم المتخلف الذي تنوء بكاهله مصر، ذلك العالم الذي يشوه صورة القاهرة ويقلل من شأنها. ومؤكدًا لنفسه أنه قام بالانضمام إلى ما يمثل

مستقبل مصر، كما يعتقد في قرارة نفسه أن هذه الشرذمة المكتظة يمكنها أن تتحول في أي لحظة إلى تجمعات مخلة بالأمن بتأثير الخُطب الدينية الرنانة التي يقوم الشيوخ بإلقائها ببراعة.

وبينما لم ينفذ قيظ الجو ولا الضجيج المكتوم للشوارع المكتظة بالخارج إلى داخل سيارته الليموزين المكيفة الهواء قط. فقد جال بخاطر أحمد أشرف المنصوري فكرة ممارسة جولة من الجولف، تعقبها مناقشة في مقر النادي مع صديقه ياسين الذي يعمل في وزارة المالية، ثم تمشية قصيرة في طريقه إلى المنزل، وعندما طافت تلك الأفكار بمخيلته بدأت حينئذ متاعب اليوم في الزوال.

وكانت خيالات الهموم قد بدأت تلازم أحمد منذ الثامنة صباحًا بينما كان يتطلع من نوافذ الطابق الحادي عشر في مركز التجارة العالمي الذي يُطل على وزارة الخارجية ويتجلى بطول الكورنيش الموازي لنهر النيل. إنه يمر بانخفاض في معاملاته التجارية- فلم تُمنح له تجارة الآيس كريم المهمة والتي كان يقوم باحتكارها، كما أن صفقة شراء شقة سكنية قد ضاعت منه. وظل الشعار الذي يلازمه هو أن كل شيء "محفوف بالمخاطر". وكان يتساءل في نفسه هل كان ذلك فقط من جراء تخفيض قيمة العملة والذي لا يعرف أحد كيف السبيل إلى الخروج منه أم لاختفاء النقد الأجنبي. وكان قد حصل لحسن حظه على عقد مُرض من سلسلة فنادق عالمية لشراء عبوات الحليب التي يقوم بتعبئتها في المصنع الصغير الذي يمتلكه. ويتعين عليه أن يذهب غدًا إلى هنالك ليدفع عمليات الإنتاج قُدمًا قبل أن يتوجه إلى مكتبه. كما أنه بالكاد يجد الوقت ليهاتف ابنه الذي يدرس العلوم السياسية في السنة الثالثة بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية في لندن. ولكن كل مشاعر القلق تلك تلاشت وهو داخل سيارته حينما انطلق بها من وسط المدينة وعَبر منطقة الأهرامات ميممًا شطر الصحراء. ووصل أحمد إلى مقصده ودلف إلى بوابات تجمعه السكني الجديد "دريم لاند".

وهناك يمر على أبو محمد، وهو العامل الذي غالبًا ما يكون مصاحبًا له لجمع كرات الجولف، والذي أنهى عمله اليومي للتو، وفي انتظار السيارة الميكروباص التي تُقله لشقته الصغيرة ذات الأربعين مترًا، وكان يشاركه الانتظار عشرة من العمال الآخرين الذين يقطنون في أقدم الأحياء السكنية لمدينة ٦ أكتوبر والتي تقع في منطقة أبعد إلى الغرب من هضبة الصحراء. ولم تنزح أي من زوجة أو أولاد المنصوري إلى العاصمة على الإطلاق، وإنما ظلوا في قريتهم الواقعة في مدينة المنصورة في قلب دلتا مصر.

لا تمكث زوجة أحمد أشرف المنصوري عند حضورها إلى القاهرة أكثر من أسبوعين، وتأتي فقط لزيارة ابنة عمها في "يوتوبيا"، وهو مجمع سكني يقع بالجوار ومحاط أيضًا بالأسوار. وبعد جولة تهافت سريعة على الشراء تقوم بها للمركز التجاري، تذهب متأخرة - لتقوم باصطحاب أطفالها العائدين من جولة للنزهة بعد الظهر في الملاهي مع "ماريا" الخادمة الأثيوبية. ويلعب أطفالها الآن في حمام السباحة، بينما يقوم محمود حارس الأمن بمراقبتهم، أما ماريا الخادمة الأثيوبية فتعلم أنها ستعود إلى مأواها، وهي حجرة صغيرة بلا نوافذ تقع خلف المطبخ مباشرة، ولكن فقط في وقت متأخر من المساء. فهناك الضيوف، ولذا يتعين عليها أن تساعد في أعمال المطبخ بعد أن يخلد الأطفال إلى النوم وتقوم بوضعهم على أسرتهم.

مخاطر جديدة وخصخصة حصرية

نصل مع الحكاية الخيالية السابقة، إلى الهضبة الصحراوية التي تقع على تخوم المدينة وضواحي القاهرة. فقد أدى الترويج لبناء شقق سكنية خاصة إلى

الشرق وإلى الغرب ولفترة تقارب اثنتي عشر عامًا أو يزيد إلى الاستحواذ على مساحات شاسعة من أملاك الدولة ووضعها في أيدي مقاولي التعمير. وهنالك ما يربو على مائة كيلومتر مربع تحت الإنشاءات الفعلية، وهي تعادل أكثر من ثلث مسطح المدينة الحالية وضواحيها، والتي تم تشكيلها وإعادة تشكيلها في نفس المواقع التي تم إنشاؤها فيها منذ ألف عام. وتم تشييد العشرات من التجمعات العمرانية ذات البوابات الخاصة على طول الطريق الدائري، والتي تحوي ملاعب للجولف، والملاهي الترفيهية، والعيادات الطبية، والجامعات الخاصة مثل مثيلاتها المراكز التجارية (برجاء مراجعة الفصل ٧ أباظة والششتاوي – من هذا الكتاب لقراءة دراسة تحليلية لنمو المراكز التجارية الضخمة في القاهرة).

وفي مقابل مناطق حضرية متناسقة الأجزاء ومحكمة إلى درجة التطرف، ذلك النموذج المشابه للمدن الآسيوية الكثيفة غير الطولية والتي قام بتحليلها الجغرافيون المستشرقون، ويمكن وضعها جنبًا إلى جنب مقابل اتساع مدن جديدة تشبه إلى حد كبير مدينة لوس أنجلوس، ويمكن قياس اتساعها الآن طبقًا لسرعة السيارة.

وأصبحت هذه الأبعاد الجديدة للقاهرة والتي تتسم بهروب النخبة الحضرية أكثر وضوحًا بتفريغ الكثافة السكانية من المركز الحضري.[٢] ويبدو إعادة التشكيل الجذري لمشهد هذه المدينة العالمية والذي يدعونا مؤيدوها لرؤيتها كنهضة عمرانية، منسجمًا تمامًا مع مؤشرات التحرر الاقتصادي والتعديلات الهيكلية التي يدفع إليها صندوق النقد الدولي دفعًا.

وتقوم هذه التجمعات ذات البوابات الخاصة بالتلويح بأسطورة المدينة العظيمة وتقوم بترسيخها في الأذهان حتى يمكن تسويقها، حيث يمكن للمرء أن يطلق لخياله العنان وهو يرى نفسه في جنة عائلية خاصة به. ويقوم المروجون لهذه المشروعات باستغلال الوصمة الخاصة "بالشارع" أكثر فأكثر والتي تنتشر على نطاق عالمي بواسطة وسائل الإعلام، فضلاً عن المدن العربية كمعامل تفريخ لخطر الإرهاب والتي هي "إسلامية" بالضرورة. ويتم استغلال خطر الإسلاميين بواسطة السلطات المصرية بعيدا عن أي رفض لهذا الأمر؛ من أجل إضفاء الصفة الشرعية على غياب الليبرالية، في نفس الوقت الذي تقوم فيه بالترويج لصورة معينة من أشكال إعادة الهيكلة للاقتصاد. ويقوم نظام الحكم الحالي بإعادة توجيه ونبذ الحاجة الماسة إلى القانون ومراعاة المصالح المباشرة للنخبة المصرية من خلال التأكيد على أنظمة السوق والأمن، والتي تُعد التجمعات السكنية ذات البوابات الخاصة من أبرز ملامحها.

ويجب أن تبدو هذه التجمعات السكنية ذات البوابات الخاصة - من خلال هذه النظرة - كمنفذ متميز لحقيقة الليبرالية في مصر. وسيسمح القيام بتحليل نشأة هذه التجمعات السكنية للمرء أن يُدرك كيف تفرض آلية التحكم في الخطر نوعا من عملية الإقصاء الاجتماعي (الجانب الآخر من عولمة النخبة)، وكيف تقوم هذه النخبة بتعريف الأخطار بنفسها. ويتم توجيه مفاهيم البيئة الحضرية وأولويات الأمان إلى الاتجاه المعاكس لما فيه صالح هذه الضواحي السكنية الصحراوية: فبرزت معاقل دفاعية حصينة مقابل العاصمة المهملة. وفي قلب مظهر هذا الاتجاه المعاكس يستكمل المقاولون المحليون والعالميون وبالاشتراك مع أجهزة الدولة وحتى النهاية لعبة تحويل السلطة إلى رجال الأعمال، ويتزامن معها تشييد نمط حيـاة يضم خليطا من أنماط الحياة الأمريكية وتلك السائدة في حوض البحر الأبيض المتوسط.



صورة إعلان عن أحد التجمعات السكنية ذات البوابات الخاصة في القاهــرة، والتي تقوم باستغلال الأنماط الشــرقيــة والإسلامية الجديدة (من جريدة الأهرام عام ١٩٩٦ - غير مؤرخة)

وتقع مجموعات النُخب المصرية في قلب هذا النمط الجديد من أسلوب الحياة، كما يقومون بتجميع أنفسهم في جُزر منعزلة من التجمعات الصغيرة يديرونها كما لو أنها مهارات تجريبية لنوع خاص من أنواع الديمقراطية تلوح في الأفق. وتُجيز هذه التجمعات السكنية ذات البوابات الخاصة والتخطيط المكاني لهذه النُخب التي تعيش فيها أن تستمر في سيرها الحثيث من أجل التحرر الاقتصادي ولصالح هذه النخبة المنتقاة، وبدون إعادة توزيع الثروات، في نفس الوقت الذي يقومون فيه بحماية أنفسهم من التأثيرات الضارة للتلوث وغيرها من الأضرار. وتنضم هذه النُخب على نفس المنوال إلى نوادي الجزر المنعزلة ذات الأسوار عبر العواصم في كل أنحاء العالم *(Calderia 2000)*. ومن ثم ستتوارى حينئذ مشاعر القلق المحتملة من جراء الشعور بالإثم تجاه المعاناة التي يعيشها العامة من سكان المدن خلف قناع الرفض العالمي للمدينة، كما يتجلى في الأحاديث المناوئة للمناطق الحضرية والتي تربط بينها وبين التلوث المعتاد وتطابق هويتها مع الفقر والجريمة والاعتراضات العنيفة التي تنشب ضد نظام الحكم. فقد أصبحت القاهرة من منظور هذه النخبة تمثل مجموعة من المضايقات غير المحتملة والتي لا يمكنك أن تفعل شيئًا حيالها غير أن تلوذ منها بالفرار أو أن تقوم بحماية نفسك. ومن ثَمْ يعاد ترتيب المخاطر الحضرية، ومن نفس المنطلق البيئة الحضرية، بطريقة جذرية.

وسأقوم في الجزء المتبقي من هذا الفصل بتتبع التطور المادي لهذه المجتمعات ذات البوابات الخاصة، ونقاط الترويج لها وتخصيصها. ثم أقوم بتحديد الخطر الذي يمثل الأساس، ويمنح شرعية للإدارة المجددة لهذا النوع من الإقصاء الاجتماعي. ولكن في المقام الأول، من الأنسب أن نقوم الآن بتعريف ماذا نقصد بالخوف، والخطر، والأسطورة، والبيئة الحضرية.

تحديد أبعاد الخطر والمشروعية في عمارة البيئة

يتم فهم الخطر على أنه هيكل سياسي واجتماعي يقوم ببلورة وتصنيف وتطبيع المخاطر والمخاوف ومشاعر القلق التي تُحدد وتقيد مجتمع ما *(Hacking 2003)*. وتسمح صياغة الأخطار على هذا النحو للمرء أن يقوم بالتركيز على أنماط الفعل الفردي والجمعي، وتحديد استراتيجيات السُكنى، وذلك من أجل حماية سلامته والشعور بأنه يعيش في البيئة التي تناسبه، أو ببساطة للقيام بالتحكم في التنوع. وتُعد الحواضر المدنية في وجودها المادي والاجتماعي والسياسي نتاج الاستجابات وردود الأفعال تجاه المخاطر التي ترتبط بعلاقة سلبية مع الكثافة والتنوع مثلما هو الحال في الأماكن التي يكون فيها التنوع والتعايش في أقصى معدلاتهما. وتغذي مخاوف الانعزال التي تماثل تلك المرتبطة بالتلوث إجراءات تحديد الهوية وتحديد هوية من يقطن هذا المجتمع. إنهم يقومون بعملية تسهيل خلق "مجتمع" *(Douglas 1966; Douglas and Wildavsky 1982)*. وتقوم المخاوف برسم الحدود مثلها في ذلك مثل أعمال التهميش، لأنها تكمن في قلب التكوينات التفاعلية للهوية كعلاقة تسلطية[٢].

ويعمل شبح المخاطر التي يتم إبرازها من خلال وسائل الإعلام، والهياكل الممثلة لها على جعل هذه المخاوف الجماعية مخاطر معيارية أو معتادة *(Weldes et al, 1999)*. وهي تدعي أنها تؤيد مشروعية المخاوف المنطقية، وتضع جانبًا تلك المعتقدات الخرافية والتي تظهر كنوع من التخلف. ويعتبر هذا التعريف عملاً يسمح بنظام لحماية الفرد، أو التحكم الجمعي وتأسيس أنماط ومؤسسات مثل التأمين، والتشريع، والقوات المسلحة، والشرطة، والعلاج، والحدود، والعمارة، والتخطيط العمراني، إلخ. وتهدف الإجراءات التي يتم اتخاذها للاعتراف بالمخاطر إلى تغيير وقائع الصدفة التي لا يمكن التنبؤ بها إلى أخرى يمكن التنبؤ بها.

وتبقى دائمًا في الأذهان أسطورة حاضرة بابليون والتي تم تصويرها كموطن للبغاء، وكمأوى محتمل للفساد والضياع الذي لا يمكن تحديد أعماقه. وتسهم هذه الصورة، وكما هو الحال دائمًا، في تجسيد تفشي مظاهر القلق التي تهدد استقرار نظام الحكم الذي تحيط به أساطير خطر النظام الحضري والتي تصبح مسوغًا لاستباحة الحدود والسيطرة الإقليمية. ويدخل تعريف الخطر في جوهر الإجراءات التي توصم بها الجماعات التابعة أو المرؤوسين، ويقوم باختيار الجماعة التي ستكون كبش الفداء، كما يقوم بتخطيط المناطق التي يعتبرها غير شرعية *(Girad 1982)*. ويقع على كاهل تلك المؤسسات أن تقوم بتحديد أولئك الذين يقيمون خلسة وبطريقة مؤقتة- أي تحديد من هم أولئك الذين لا مكان لهم في المدينة ويجب أن يظلوا بعيدين عنها حتى لا يقوموا بإفساد التناغم الذي يسودها.

وليس من قبيل الصدفة فحسب أنه وبالتحديد في مصر أن تكون كلمة "عشوائيات" التي يتم اشتقاقها من الجذر العربي الذي يعني "الصدفة"، قد ظهرت في مصر في أوائل التسعينيات من أجل وصف أحياء الفقراء، ومناطق الأكواخ الفقيرة، والبيوت المصنوعة بجهود الفقراء الذاتية، والمربعات السكنية الهامشية التي يقطنها المعدمون؛ أي الأماكن التي يغلب عليها طابع غير قانوني أو غير شرعي. ولم يعد مفهوم هذه الكلمة (العشوائيات)، بنهاية أعوام التسعينيات، يقتصر فقط على الأماكن ولكن تعداها للدلالة على البشر، متضمنًا وصف ما يقرب من أغلبية السكان كأشخاص "خطرين" ومنحرفين. وهذا الشخص المنحرف هو أكثر من يخيف ذلك المجتمع الحضري.

وظل الفلاح المهاجر من المحافظات مخيفًا ولا يزال يخيف المجتمع الحضري، لأن صورته تُرى دائمًا كرمز للشخص الدخيل وبما لاشك فيه. وتثير هذه الدلالة أيضًا المقابلة الإسلامية التقليدية بين الفـلاح والحضـري (الحضري أو المتمدين)، وبين المجتمعات البدوية والمستقرة.

وقد تجد حاضرة مصر العالمية اليوم نفسها في نقطة عدم الاستقرار، تتأرجح فيها ما بين مجتمع تلعب فيه القدرية واللعنة دورًا رئيسًا في إدارة الأزمات والكوارث، وبين مجتمع الخطر الذي يتميز بعدم اليقين والذي يكون فيه من المستحيل أن يُعزى عدم اليقين إلى أسباب لا يمكن التحكم فيها أو أسباب خارجية. وتعتمد درجة الخطر في الحقيقة على القرارات السياسية والاختيارات. ولقد تم تخليق هذا الخطر صناعيًا واقتصاديًا، ولذا أصبح ذا انعكاسات سياسية. وتُذكرنا مصر بأن حلول التحديث القديمة يتعذر الدفاع عنها، وكما يقوم بتحليلها أولريش بيك من منظوره، وذلك لأن الأصولية الدينية والممارسات الشمولية ما زالت تتنامى، ولكنها تُعزى دائمًا إلى مؤامرات خارجية، متجاهلةً لتطور انعكاس الرأي الوطني العام للجماهير، واستمرار قمع الحوارات الداخلية (١٩٩٢). ويظل الخطر في هذا السياق مسألة لا تتسم بالاستقرار على مضمونه ويتمخض عنه فقط قاعدة الإقصاء الاجتماعي بينما يتم إعادة تسخير وتشكيل أساطير الأسلاف ومعتقداتهم من أجل السيطرة على الأوضاع الحالية من أشكال الاحتكار السياسي واستمرارها.

وتعتبر هذه المجتمعات ذات البوابات الخاصة واحدة من النتائج الصارخة والكاشفة لهذه البيئة الجديدة من الخطر والاحتكار السياسي. إنها تكشف عن عمليات خلق للفوضى، ثم إعادة ترتيب للنظام القائم ولأساليب المعايشة (واختيار الجوار) في المدينة، وهذا يعني وضع آلية للتجسيد المكاني كنظام أخلاقي جديد لليبرالية الجديدة، وتبرير ذلك من خلال أحاديث الخطر (*Park 1926*).

حقبة الليبرالية الجديدة والإطار المادي للحنين إلى الاستعمار

أشعل تقديم الدولة لاستعراض لشكل جديد من أشكال الحياة يقتصر على فئة معينـــة فتيـــل أزمـــة بدأت في الانفجار. وذلك عندما بدأت وزارة الإسكان منذ

عام ١٩٩٤ وعلى نطاق واسع بيع قطع كبيرة من الأراضي على الحواف الصحراوية لمدينة القاهرة، وسرعان ما فاقت المشروعات الإنشائية الفاخرة مقدرة السوق على استيعابها. وتشمل منطقة القاهرة الكبرى عددًا محدودًا من عائلات الطبقة المتوسطة، حيث لا تزيد عدد الأسر التي لا يتجاوز إنفاقها الشهري مبلغ ٢٠٠٠ جنيهًا (أي ٣٥٠ دولارًا) عن ٣١٥٫٠٠٠ أسرة. وتبلغ نسبة هؤلاء ٩,٥% ويتم اعتبارهم كالأكثر غنى(٤). ومع ذلك، وفي هذه السوق المحدودة، قامت ٣٢٠ شركة بحيازة أراضي وأعلنت عن مشروعات، يبلغ إجمالي الحجم المحتمل لسكانها ٦٠٠٫٠٠٠ نسمة(٥). كما أُقيم مالا يقل عن ثمانين مشروعًا من مشروعات المجمعات السكنية ذات البوابات الخاصة في السنوات الأولى منذ فترة الازدهار، وتم بيع العديد من قطاعاتها مقدمًا واستقرت فيها أولى العائلات. وقامت تلك الشركات بإدخال ما يقرب من ستين ألف وحدة سكنية من الفيلات والشقق إلى السوق وذلك في عام ٢٠٠٣ فقط.

تُرى من أين أتت كل هذه العائلات الثرية؟

يوتوبيا، مرتفعات القطامية، بيفرلي هيلز، بيل فيل، مينا جاردن سيتي، دريم لاند: هي بعض أسماء مثل هذه التجمعات ذات البوابات الخاصة التي يتم استكمال إنشاءاتها. وتتم هذه الإنشاءات وفقًا لأحدث ما في هذا العصر من تكنولوجيا لأساليب الحياة المدنية الحديثة، وقد تم تشكيلها بالمزج فيما بين أشكال المدن الأمريكية الشبيهة بالقلاع والتي تزحف في اتساعها خارج المدن، وما يشابه الفصل العنصري الجديد للخطر في جوهانسبرج ***(Blakely and Snyder 1997)***. وعلى أي حال، فإذا كانت مجموعة الفيلات هذه تتطابق تمامًا مع المفاهيم العالمية للمدن المحمية، والتي يحيط بها سور عال، ويتم إدارتها باستقلالية تامة، فإن ذلك لا يُعد فقط استيرادًا لنموذج عالمي. ولكن هنالك أيضًا تأثير لأنماط الأذواق الملكية

لدول النفط في الخليج العربي لحياة الترف. ويتمثل تأثير الملكيات الخليجية في الزخارف الباروكية المذهبة الباذخة (طراز معماري أوروبي من القرنين ١٦-١٧)، والشرفات المهيبة، والأعمدة ذات الطراز الكلاسيكي الحديث. ويتم تخصيص الأشكال المعمارية بواسطة السكان عن طريق المزج بين المؤثرات المحلية ومؤثرات المنطقة العربية وتتطابق لأقصى مدى ممكن مع جماليات المدن العالمية (الصياد ٢٠٠١). كما أن الأنماط التي تمثل الأشكال المعمارية لحوض البحر الأبيض المتوسط هي أيضًا مرجع هام لأشكال المعمار في مصر بوصفها دولة من دول البحر المتوسط، مما يستدعي للذهن الأفكار الرئيسية للقرى اليونانية المثالية، كالأسقف المكسوة بالقرميد، وحدائق الصنوبر التوسكانية، أو الألوان الوامضة لمنتجعات الريفييرا. ويظهر نموذج البحر المتوسط بوضوح تام في تجربة تنمية الريفييرا المصرية، والتي تقع على شاطئ غرب الإسكندرية. فقد تم تبني هذا النموذج الشاطئي بواسطة المشترين المحتملين للوحدات في داخل القاهرة كامتداد لمجتمع يعيش في إجازة ممتدة يستمتع فيها بأشعة الشمس. وتبدو للعيان هذه الصورة الإيجابية من البحر المتوسط، والاستخدام المفرط للأنماط الخليجية، على الأقل، مثلها مثل التأثيرات الأمريكية / الغربية بينما تعاود مصر بحثها الحثيث عن هويتها العالمية، وتعيد تشكيل هويتها العربية الشرق أوسطية الأصيلة من خلال تجارة السياحة والسكنى.

وتتيح علاقة القاهرة بالبحر المتوسط ميزة أن تتداول وتضعف من التأثيرات العربية والإسلامية عليها والموجودة في الفنون المعمارية، وأن تقوم بتحويلها إلى معالم استهلاكية فولكلورية. ويتمثل التأثير العربي والإسلامي فى أسلوب هو أقرب إلى تصميمات ديزني لعلاء الدين أو السندباد أكثر منه إلى ثقافة التقشف والبساطة والانضباط الذاتي التي تتميز بها المبادئ الشائعة والجهادية الإسلامية المعاصرة. ويوضح رجل الأعمال أحمد بهجت شارحًا ذلك بأنه بعد زيارة قام بها إلى مدينة

"سيلبريشن" (التجمع السكني المثالي الخاص الذي قامت بتشييده مؤسسة والت ديزني في أورلاندو بفلوريدا) طافت بذهنه فكرة بناء دريم لاند (دريم لاند ١٩٩٨). ويمثل هذا التجمع السكني ذو البوابات الخاصة أكثر من كونه وحدات سكنية فاخرة، فهو يمنح رؤية لهضبة أهرامات الجيزة، كما يشتمل على مضمار للجولف، بالإضافة إلى الملاهي الترفيهية الخاصة به. فعندما ابتدع الخديوي إسماعيل فكرة مركز جديد لمدينة القاهرة في أواخر القرن التاسع عشر، فإنه كان يحلم بمثال مشروع الطرق الواسعة في باريس والتي قام بها البارون جورج أوجين هوسمان في فرنسا، والتي تصل ما بين الميادين العامة والأحياء السكنية. أما ما يسود اليوم فهو طابع مصري يضم مزيجًا من الحلم الأمريكي، ولكنه يحمل آثارًا قوية من الماضي ومن الحقبة الخديوية والاستعمارية نفسها. وأصبح هذا التكوين الشامل الجديد من الحنين إلى الماضي برهانًا دامغًا لأولئك الراغبين في الشراء والمعيشة في الصحراء، حيث يجد السكان أنفسهم وجهًا لوجه أمام عدم اليقين في المستقبل، وعدم استقرار الحاضر.

الحصرية بوصفها نهضة عمرانية

> **قبل أن نتطلع بشوق إلى اليوم المماثل الذي تساءل فيه (توسان كانار) في عام ١٩٠٥ عن متى تصبح المقطم (وهي هضبة في شرق القاهرة) حديقة تتلألأ فيها الفيلات، ويتم ربطها بمدينة القاهرة عن طريق الترام، هل يمكننا أن نأمل على الأقل في موقف أقل أنانية من الطبقات الحاكمة؟ إنه حتى بالتأكيد سيكون من مصلحتهم الخاصة إذا لم يكونوا راغبين في إعداد مكان خاص من اختيارهم من أجل إجراء اختبارات اجتماعية من أجل الغد (*Clerget 1934, 21; Caneri 1905*).**

يُعد كليرجت واحدًا من أوائل الفرنسيين المتخصصين في الجغرافيا الحضرية والمنتقدين لخطط المشروعات العقارية ذات الطابع الشرقي وسياسات الخديوي في ذلك العهد، وكان مدركًا للتوترات والأخطار التي يمكن أن تثيرها التنمية العقارية الفخمة والتحررية. كما كان يخشى أن تقوم عملية البناء على أطراف القاهرة بتمزيق نسيج المنطقة الحضرية، وذلك على الرغم من أنه كان قد قام ببناء بعض المشروعات في تلك المناطق الجديدة. وأصبحت اليوم نظرة الحنين إلى حقبة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين التحررية سمة من سمات الحاضر. ويدعونا هذا المشهد إلى أن نتأمل في العلاقة بين الحقبتين التحرريتين في مصر الحديثة، بالإضافة إلى نتائج التطوير الحضري فيهما. فقد كانت حقبتا أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بالفعل من حُقب الطفرة في العقارات والتي ظلت علامة بارزة حتى اليوم في تشكيل العاصمة *(Arnaud 1998)*. ويعشق أولئك الداعمون للتجمعات ذات البوابات الخاصة التفكير مليًا في الماضي من منطلق استثمار أموالهم في مشروعاتهم الخاصة متأثرين بالنظرة الإيجابية التي خلفتها حقبة "الزمن الجميل" ***(ويطلق عليها belle-époque أو الزمن الجميل بالفرنسية)*** الليبرالية، وهي الحقبة التي عاشتها مصر تحت حكم الخديوي إسماعيل، وهي أيضًا عصر الاستعمار البريطاني، وعصر الديون الباهظة، والاستثمارات الأجنبية والقيود الخارجية، كما هو أيضًا عصر تفشي المضاربات، والإنشاءات العامة والخاصة التي تتسم بالبذخ الشديد. ويُطلق بعض المصريين على هذا العهـد الاستعمـاري (كما يُطلق عليه أحيانًا عصر الخديوي أو العهد الإسماعيلي) مسمى "حقبة مصر التحررية" لأنها شهدت نموًا محدودًا لنوع من المؤسسات السياسية الليبرالية والثقافية ذات التوجه النخبوي والتي كانت مقيدة بقيود استعمارية، كما أنها اقترنت بميلاد نوع من الديمقراطية الوطنية التي تميل للغرب بزعامة سعد زغلول.

ولا يتردد الكثير من أبرز رجال الأعمال من الذين يعملون في تنمية الأصول العقارية مثل "طلعت مصطفى" من تقديم أنفسهم كأسلاف للبارون إمبان (كمال ١٩٩٨)، وهو مستثمر بلجيكي استقر في مصر، وقام في عام ١٩٠٥ بتشييد واحة حضرية فخمة (مصر الجديدة)، وكانت آنذاك في منتصف الصحراء إلى الشرق من القاهرة، وقام بربط المدينة الجديدة بقلب القاهرة عن طريق الترام والذي كان يمتلكه كقطاع خاص ويتربح منه *(Ilbert 1981; Garret 2001)*. وقام طلعت مصطفى بحكم قربه من أسرة الرئيس السادات بتكوين ثروته ابتداءً من عام ١٩٧٠ من خلال تشييد البنية التحتية للقوات المسلحة. ويقوم مصطفى حاليًا بحشد الدعم من أجل تشييد منطقة سكنية بأكملها، وعلى غرار "المدن التابعة" أطلق علها اسم "الرحاب" وتقع إلى الشرق من القاهرة، وتم تصميمها لتستقبل ما يقرب من ١٥٠,٠٠٠ ساكن (زكي ١٩٩٩).

وعلى نفس المنوال هناك مشروع "بيل ڤيل" وهو مشروع لمجمع سكني ذى بوابات خاصة يتباهى بإطلالته على أهرامات الجيزة ويقع إلى الغرب من مدينة القاهرة، وكان يتم الإعلان عنه في الصحف اليومية والمجلات بنشر صور تقوم بلفت الأنظار إلى السمات المتشابهة بين وجاهة الهندسة المعمارية المتعذر استعادتها في قاهرة عهد إسماعيل والتي تم تقسيمها منذ عام ١٨٧٠، وتطلعات المستقبل طبقًا للتصور الجديد والحقبة الجديدة من النهضة العمرانية المتألقة للقطاع الخاص. كما ظهرت "مينا جاردن سيتي" في إعلان تليفزيوني جعل من فيلات حي جاردن سيتي السابقة وهو حي بوهيمي من أوائل القرن العشرين ومخصص لسكنى الأجانب، وهي تطير بعيدًا تحملها أوناش قوية وضخمة. وتم بناء حي جاردن سيتي القديم في أوائل القرن العشرين على ضفاف النيل وعلى حافة قلب القاهرة الإسماعيلية، بحيث يهب ساكنيه الصفاء المماثل لسكينة واحة صحراوية.

وبينما تزدهر جاردن سيتي المستقبل بالفعل في الصحراء البعيدة، فإنه يتم غزو جاردن سيتي القديمة التي تم تشييدها في عهد الخديوي إسماعيل بالأبراج السكنية الضخمة التي ترتفع إلى عنان السماء، ويتم عسكرتها بنقاط التفتيش الأمنية التي تقوم بحماية قلة من السكان الأجانب والسفارات الأجنبية التي ظلت هناك. وتحمل نماذج الفيلات المقامة في أماكن أخرى أسماء الحكام المصريين في القرنين التاسع عشر والعشرين- فاروق، وإسماعيل.. إلخ. وحتى حفيد البارون إمبان الأصلي قد قام بالمساهمة في الدعاية لخطط إقامة هليوبوليس الجديدة.

إذا ما كانت عملية إعادة تدوين وقائع تلك الحقبة الماضية ممكنة من الآن فصاعدًا، وحتى يتم الاستناد عليها كحجة دامغة، فإنه من المهم حينئذ، والتي تماثل إعادة الاعتبار للمَلَكية، أن يتم السماح بالتحقق من شرعية قيام هؤلاء المقاولين بتقسيم وحيازة الأراضي العامة في الصحراء. فقد أصبح لهؤلاء المقاولين أو المؤسسات التي يديرونها دور حيوي في خلق تراث وطني لهذه النخبة الجديدة، من تلك النوعية التي برزت في أوائل القرن العشرين. إنهم يقومون بالمساهمة في خلق قشرة سطحية من الجمال، وهي عبارة عن تصميمات تشكيلية توحي بالاشتياق إلى الماضي، قاموا فيها باستباحة أشكال التصميم المعماري القديم، وإضافة لمسات تراثية وتاريخية إلى التجمعات ذات البوابات الخاصة، وتدعم هذه القشرة الخارجية من الجمال اتجاهًا للأصالة وشعورًا جارفًا بالرغبة في استعادتها من أجل الحاضر *(Mckraken 1988; Appadurai 2001)*.

ولا تبدو الحياة المعاصرة كشيء أضيفت إليه لمسات تاريخية فحسب، ولكن أيضًا كشيء تم فقدانه بالفعل. فاللمسة الجمالية – شأنها في ذلك شأن الموضة- هي نتاج عوامل متشابكة، وحكايات يتم نقلها على وجه السرعة لتدور حول العالم بأسره، وهذه القشرة السطحية لا يتولد عنها إلا السراب فقط. فلا يُعد هذا الطمس للحاضر من أجل أهداف تجارية للدعاية والاستهلاك إلا أمرًا مماثلاً لوضوح

الخطر للعيان، ففي هذا الشأن ينشأ عدم الاستقرار عن كلا الأمرين. وكلاهما يستدعيان حماية النفس، مما يؤدي إلى المطالبة بالحماية في مواجهة الإحساس بعدم الأمان المتزايد، وإلى زعزعة استقرار النظم والعلاقات المعتادة.

وتبدو عملية إعادة الاعتبار لروح المدينة الملكية ومستثمري العهد الاستعماري من فترة ما قبل النضال ضد الاستعمار وقبل الاستقلال والثورة المصرية، منقوشة بوضوح شديد في تجديد قلب المدينة القديمة للقاهرة. وتنعكس هذه الروح في تدعيم فكرة تتويج حسني مبارك لنجله كرئيس منتظر لمصر من بعده، وكأنه نوع من التتويج لخليفة الخديوي. ولذا فإنه يتم البحث عن واجهة تحررية وشرعية لتبرير الأمر، وللمفارقة المدهشة يتم البحث عنها في صورة التراث الملكي للحقبة الخديوية الاستعمارية المهجورة وفي التصميمات الفخمة الجديدة / القديمة.

وقد أعلن حسنى مبارك على القناة الأولى بينما كان على الهواء مباشرة في مايو ١٩٩٧ في حفل افتتاح مضمار للجولف أنه يراه رئة خضراء جديدة لأهل القاهرة، أي أنه أعطى شرعية لمشروع خاص جدًا يقتصر على فئة قليلة كمشروع قومي. لقد أجاز بهذا استباحة النخبة وحجبها وخصخصتها للأراضي الصحراوية التي كانت مملوكة للعامة (والاستيلاء على المياه التي تحتاجها للري) بينما يتخفى المشروع تحت قناع المشروعات العامة المفتوحة والتي تعتبر كمشروعات للصالح العام (المشروع الجماعي).

وتقوم الحكومة في عملية موازية لذلك الأمر بالرقابة المحكمة على وسائل الإعلام، والتحكم في كل أشكال تمثيل المواطنين في الأحزاب السياسية، كما يتم كبح جماح المنظمات غير الحكومية بواسطة جبال من القوانين التي تشل قدرتها، بالإضافة إلى أعمال القبض العشوائية بواسطة الأمن والاختراق البيروقراطي، كل ذلك بينما يتم تبجيل رجال الأعمال والعناية بهم، وعلى وجه الأخص في دعمهم

من أجل تشكيل مجموعات العمل، وجماعات الضغط المتميزة، وتمنح لجماعات الضغط المتميزة أعلى درجات الحرية في الوصول إلى مجلس الشعب. وبينما يتم تشديد الخناق على الصحافة، ومنظمات المجتمع المدني والحركات الاجتماعية، تزدهر المؤسسات التجارية ومؤسسات الأعمال، مثل إعادة تجميع رجال الأعمال من المناطق الصناعية للمدن الجديدة.



صورة إعلان عن "بل فيل" وهي أحد التجمعات السكنية ذات البوابات الخاصة، بالقرب من أهرامات الجيزة، والتي تفخر بالاحتفاء بالتشابه في الأسلوب العمراني بينها وبين أسلوب العمارة السائد من عهد استعمار القاهرة في أواخر القرن ١٩ (جريدة الأهرام).

ومن أجل التكيف مع أخلاقيات الليبرالية الجديدة والتعديلات الهيكلية للاقتصاد والتي تحظر التدخل المباشر للدولة في مجال المقاولات، فإن التحالف بين رجال الأعمال وبين هؤلاء الذين لا يزالون في خدمة الدولة قد أعُيد تشكيله: فمقاولو الأعمال العامة الذين كانوا يقومون بكل أعمال المقاولات العامة سابقًا يعتبرون الآن مقاولين (شبه خاص)، يقومون بتطوير المساكن الفاخرة، بينما ينتفعون من القروض التي يحصلون عليها من بنوك القطاع العام والتي يتم تقديرها طبقًا لقيمة الأراضي التي تم الحصول عليها بالمضاربة، والمغالى في تقدير قيمتها على الرغم من شرائها بأثمان بخسة، بينما كانت الدولة قد قامت بتقديرها بأسعار زهيدة من أجل أن يقوموا بتنميتها.

وفي نفس الوقت أصبح القائمون بالأعمال الخيرية – من جديد – قيمة برجوازية حضرية ووسيلة مهمة وضرورية لتقديم أنفسهم في صورة مثلى للمواطن الصالح والمسلم الطيب. وبالتحديد أعيد تنشيط مطاعم الفقراء الخيرية (موائد الرحمن)، والتي كانت قد اختفت من الوجود بعد ثورة ٢٣ يوليو، بينما تم تقليص السلع المدعمة إلى أربعة أنواع وهي (الزيت والسكر والدقيق والخبز)، وهي السلع التي تتناقص كميات المخزون منها باستمرار (كُرّيم *2001*). ولقد بدأ عودة ظهور موائد الرحمن والمرتبطة بشهر رمضان كثمرة خالصة لإحياء تقليد إسلامي، كعمل من أعمال المباهاة في نهاية سنوات الثمانينيات وأصبح تكاثرها واضحًا للعيان. وتُشكل الآن قيمة رمزية للعلاقة بين البرجوازيين وسكان الحاضرة. إنها تُجّسد الآن الاستعراض الشرعي للثروة ويتم إثباتها من خلال الاهتمام بأن تكون المائدة هي الأكبر، وأن يتم تقديمها في معظم الأنحاء. وتقوم هذه الموائد بصياغة شكل مسرحي لتقديم الفئات للعامة. وهنا تمنح الدولة والممارسات الدينية شأنهما شأن إعادة كتابة تاريخ الوطن للحقبة الملكية الاستعمارية، صك الشرعية لصواب التغيير إلى الليبرالية الجديدة، وتصوير

الإصلاح الاجتماعي "للأزمنة الجميلة" ومنظماتها التي تتسم بالسخاء. ويمكن قراءة هذا المشهد من التفاوت الاجتماعي والتطوع بالصدقات أيضًا على ضوء عوامل الخطر، الخطر المؤكد للانتفاضة. فقد تم فرض أعمال الخير كعلاقة وحيدة بين الفقراء وكوسيلتهم اليتيمة للحراك الاجتماعي إلى أعلى، ويقف الأمن كالمتراس الأخير ضدهم. وليس هناك من نمط آخر يسمح بإعادة توزيع ثمار الليبرالية.

ويقوم هذا العمل الارتباطي للمجتمع الحضري الجديد، الذي يتبع الحقبة الليبرالية لفترة ما قبل عام ١٩٥٢، بطمس فترة البناء القومية، والاشتراكية العامة، والتحديثية، والتخطيط المتكامل. وأصبح يتم تقديم حقبة الخمسينيات التي تميزت بالروح الثورية، والوحدة العربية، وتضامن العالم الثالث - عندما نالت مصر استقلالها وحتى فترة السبعينيات، كحقبة مظلمة تميزت بنقص واضح في مناحي الرفاهية، وجمود الإنشاءات والبنية التحتية، أكثر من كونها حقبة للإنجازات الاشتراكية. وتوحي المقارنة مع فترة المضاربات العقارية خلال حقبة "الزمن الجميل"، بأن المؤسسات الخاصة فقط وليست الدولة الثورية هي القادرة على بناء المدن وجعلها تتميز بالقدرة على التحمل والبقاء. ولكن يجب أن يقال أيضًا إن هذا التوازي، يقوم ليس فقط بإضفاء ظلال من الرومانسية لروح المؤسسة الليبرالية المتحررة، أو للقيم الجمالية وأسلوب حياة نخبة معينة، ولكنه يقوم أيضًا بإعادة تشكيل أساليب الإنتاج. وكانت الدولة تضفي حمايتها المعلنة، في الحقيقة، على حقبتي النخبة السابقة (فترة ما قبل الثورة) والنخبة الحالية على حد سواء. وتقوم الدولة بمنح مساحات شاسعة من الأراضي العامة ليتم تقسيمها بين حفنة من رجال شركات التنمية العقارية الخاصة، في نفس الوقت الذي تقوم فيه بتحفيز تدفق رؤوس الأموال من خلال بيع الأراضي.

ويشير هذا التوازي الذي يسود اليوم، ليس فقط للطراز أو الواجهة أو مجموعة من تمثيل الرموز. وإنما إلى الإحساس بخيبة الأمل فيما يتعلق بالشعب، والدولة، والتنمية الوطنية، كما هو الحال أيضًا لمشروع التحديث السائد منذ عام ١٩٥٢.

وكما يسود أيضًا إحساس بحدوث تغيير في الأولويات، وهذا فيما يتعلق بتأثير روح "المجتمع الحضري الرشيد والإدارة المؤسسية" والتي يدعمها البنك الدولي. والسؤال المطروح الآن هو: هل الدولة التي تم تعديل هيكلتها في مصر تملك البديل حقًا؟ وهل يتعين عليها أن تقوم بإعادة بناء تحالفاتها مع النخب العالمية من أصحاب المشروعات العالمية لكي تحافظ على بقائها ومكانتها؟

روح الأعمال الحرة والدولة

وقامت مصر بتوقيع اتفاقية إدارة ثلاثية مع كل من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. وتدشن اتفاقية "برنامج الإصلاح الاقتصادي والتعديلات الهيكلية" هذه دخول مصر لمرحلة نشطة من الإصلاحات، وتغييرات الأجهزة الاقتصادية، وتغييرات في نهج الأداء الحكومي المستخدم. وكانت الخصخصة قد تم فرضها كأداة مميزة للإصلاح الحضري بالإضافة إلى تغيير شبكة المرافق العامة.

وبدأت عمليات الخصخصة بقطاع الكهرباء منذ عام ١٩٩١ في قطاع الإنتاج، ومنذ فترة وجيزة في قطاع توزيع الطاقة. كما حققت الخصخصة نجاحًا طيبًا في قطاع الاتصالات ومجال معالجة النفايات. وقامت الدولة بخصخصة مجالات بناء جراجات إيواء السيارات، ونظم شبكة مترو الأنفاق، والطرق، والأنفاق وذلك من خلال نظام "تسليم المفتاح" الذي يُطلق عليه (*B.O.T*) أو ما يعني "البناء- التشغيل- ثم تحويل الملكية للدولة)، حيث تقوم شركات خاصة عابرة للقارات، غالبًا ما تكون مراكزها الرئيسية في أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية ببناء البنية التحتية وتقوم بالاستفادة منها عن طريق تحصيل رسوم أو بتحصيل إيراداتها لفترة طويلة ثم تقوم بتحويل المشروع إلى الدولة المصرية وعامة الشعب.

ومن الآن فصاعدًا، فإن العشوائيات غير المتكاملة (التي تم بناؤها بدون ترخيص رسمي، أو الأحياء التي تم بناؤها بالجهود الذاتية والتي يقطنها الفقراء)، يمكن أن يتم إزالتها، وإعادة بنائها بواسطة شركات تستهدف الربح كحق امتياز تمنحه لها الدولة، شريطة أن تقوم الشركة بضمان إعادة توطينهم بطريقة جيدة، أو أن تقوم بمنح السكان بعض التعويضات، كما يشترط أن تقوم الشركة بتشييد البنية التحتية للموقع المزمع إزالته وإعادة تعميره.

قام الدكتور إبراهيم شحاتة محافظ القاهرة في عام ١٩٩٧ بتوضيح خططه بشأن خصخصة العشوائيات قائلاً: "لدينا هنا حي عشوائي يعيش فيه ما يقرب من خمسين ألف نسمة، وترغب محافظة القاهرة في توقيع عقد اتفاقية تنمية مع مستثمر يُعهد له بهذا الأمر، بشرط أن تقوم مؤسسته ببناء عشرة آلاف وحدة سكنية لهؤلاء الذين يعيشون هنا، وإنشاء حديقة عامة، ومركزين طبيين، وثلاث مدارس، ويمكنه أن يقوم باستغلال باقي الحي لمصلحته وبالطريقة التي تروق له. ويضيف الدكتور شحاتة قائلاً "إن حجم المساحة المستخدمة بطريقة غير عقلانية من المساحات العمرانية هو أمر غير معقول، ويمكنني القول، وبلا تردد، إن كل مناطق مدينة القاهرة ليست مناسبة لأي خطة اقتصادية منطقية أو رشيدة، مع استثناءات نادرة ربما مثل منطقة رمسيس هيلتون (وهي منطقة موقع لفندق عالمي للسياحة الفاخرة تضم دارًا للسينما، ومركزًا تجاريًا للتسوق للمصريين من الطبقة المتوسطة العليا والزائرين من دول منطقة الخليج العربي) "يمكنك الرجوع إلى الفصل الخاص بالغنام في هذا الكتاب ويضم تحليلاً لخطط الحكومة من أجل إعادة توطين السكان في المنطقة التي تحيط بفندق رمسيس هيلتون من أجل إعدادها للتطوير).

وتتجه خدمات المستشفيات قُدمًا تجاه الخصخصة، كما أن الدولة تتحرك في اتجاه خصخصة وعولمة معظم القواعد الصناعية لمصر. كما أُثيرت فكرة إنشاء قوة بوليس خاصة تعمل على الطرق السريعة في أعقاب حوادث عنف بين ممثلي الاتحادات العمالية. وأخيرًا فإن التجمعات ذات البوابات الخاصة تؤكد على استقلاليتها في الإمداد بنظام صرف صحي حر، ومياه شرب صالحة، وقوة أمن خاصة بها، وضمان مستوى الخدمات المقدمة لقاطنيها بعيدًا عن تدخل الدولة الذي يتسم بعدم الكفاءة والبطء. ورغم أن هذه التجمعات الناكرة للجميل قد انتفعت من تنمية البنية التحتية للمدن الجديدة التي قامت الدولة بتكفل كل نفقاتها. (يمكنك الرجوع إلى الجزء الخاص بفيجنال ودينيس في هذا الكتاب من أجل تحليل أعمق لقطاع الصناعة والتعديلات الهيكلية).

ويمكننا أن نؤيد تمامًا في هذا الصدد ما ذهب إليه (تيموثي ميتشيل) في التحليل الذي قام بتقديمه ويقول فيه إن هذه الليبرالية الجديدة لا تعبر في الحقيقة عن تراجع في دور الدولة (٢٠٠٢). ولتوضيح أكثر للمظهر الخارجي الرسمي للتحرر الاقتصادي هنا، فإنه من الضروري أن نتعرف جيدًا على التغيير الذي حدث في شكل التحالف بين أصحاب المشروعات والدولة. فبالإضافة إلى مشروعاتها العملاقة في الري – مثل قناة السلام التي سيتم حفرها بالقرب من شواطئ شمال سيناء ومن بورسعيد إلى العريش، أو الفرع الآخر لنهر النيل في توشكى والذي سيتم حفره من الصحراء الغربية (التي تعتبر منطقة عامة) بالقرب من بحيرة ناصر وبتمويل وعمالة حكومية ثم يتم بيعها للمستثمرين العالميين في المجال الزراعي– وتستمر الدولة في الحقيقة في تقديم دعمها وتشييدها للمساكن التي تُطلق عليها مسمى "شعبية" أو "منخفضة التكاليف"، ولكنها في الحقيقة تميل إلى جذب المضاربين، ومحاكاة تجمعات النخبة. ويقع التدافع الهائل نحو تشييد الفيلات الفاخرة في داخل التجمعات ذات البوابات الخاصة ضمن مشروع يستهدف

إعادة تشكيل المظهر الجديد المتناقض لشكل الليبرالية والملكية الجديدتين كتحالف بين أصحاب المشروعات ونخبة القطاع العام في تدعيم مسيرة اتجاهات الصناعة في الأسمنت، والصلب، والتشييد، والتي تقوم بتعريض القطاع الصناعي العملاق للشبهات في قلب نظام جيل الثروة والمضاربات الذي تسيطر عليه حفنة من العائلات التي تحتكر وسائل القوة في المجال العام والخاص معًا.

تقييد الحرية السياسية وخصخصة الديمقراطية

تمثل المجتمعات ذات البوابات الخاصة النتاج الاجتماعي- والسياسي لتطبيق التحرر الاقتصادي على أرض الواقع. فهنا تتجسد الديمقراطية الخاصة. وبينما يسود الاعتقاد لدي قاطني هذه التجمعات المُنغلقة من ذوي الأفكار والميول المتشابهة أن المؤسسات العامة لا يمكنها أن تقوم بتأمين رفاهية وحماية هذه المجتمعات، ولذا فإنها تتولى بنفسها مسئولية إدارة توفير الحماية لأسلوب الحياة الخاص بها. وتقوم جمعية المساهمين من قاطني التجمع المسمى "مينا جاردن سيتي" على سبيل المثال بإدارة المساحات المشتركة، والإنارة، والطرق التي تتخلل المباني من حصيلة الصندوق العام الذي تقوم باستثماره في سوق الأوراق المالية بالقاهرة.

وينتعش مثل هذا النوع من الديمقراطية في مصر، بينما تشتد في نفس الوقت عمليات الإقصاء والقمع السياسي على المستوى القومي. فقد تم إيقاف عملية انتخاب العُمَد في عام ١٩٩٤ تحت ستار محاربة التيار الإسلامي المتشدد، وتم إحلال نظام جديد للتعيين الإداري من أعلى ليحل محل الانتخابات.

وانتهت انتخابات ممثلي المحليات التي تم إجراؤها في شهر أبريل ٢٠٠٢ إلى تخصيص ٩٧% من مقاعد المحليات إلى الحزب القابض على زمام السلطة! ولكن الأدهى من ذلك، هو أن ممثلي المحليات الذين تم اختيارهم بالانتخاب، وبأشد

صور التقييد، يلعبون وبالكاد دورًا استشاريًا محدودًا. وتقوم السلطة التنفيذية باختيار مديري الإدارات العامة للمحليات والذين غالبًا ما يتم اختيارهم بصفة روتينية من صفوف ضباط القوات المسلحة. ويتولى إدارة منطقة القاهرة ثلاثة من المحافظين العسكريين الذين يتم تسميتهم بقرار جمهوري. وبالإضافة إلى هذا المناخ المناوئ للحريات السياسية، فهنالك أيضًا تنقيح قانون العمل الذي يمنع التشكيل الحر لاتحادات العمال وحق الإضراب. ويرجع تاريخ تدشين هذه المحظورات إلى تطبيق قانون الطوارئ والذي تم إعلانه بعد اغتيال الرئيس السادات مباشرة عام ١٩٨١ *(Kienle 2001)*. وعلى نفس المنوال يتم إحكام القبضة أكثر فأكثر على المنظمات غير الحكومية. ولا يمكن تسييس أنماط تمويل أنشطتها فضلاً عن أنشطتها على وجه العموم.

ويستهدف التزام النخبة بالنموذج السياسي للتجمعات ذات البوابات الخاصة، وهو شكل من أشكال الانفصام والتنظيم الداخلي الانعزالي التطوعي والذي يتم تسهيل مهمته بواسطة الدولة وسوق الأوراق المالية، وذلك بأن تقوم بتشكيل وحدات حكم ذاتي يمكنها أن تعيش في ديمقراطية مباشرة بدون انتظار لوصـــول، أو سد الطريق أمام وصول ديمقراطية حقيقية للوطن بأسره. وتبتدع نخبة التجمعات ذات البوابات الخاصة لنفسها إنشاء ديمقراطيات خاصة، بينما كل ما يدور حولها وخارج أسوارها، هي التحررية الاقتصادية المصحوبة بتقييد الحرية السياسية. ويمكن القول بأن عملية خصخصة الإصلاح الاقتصادي قد امتدت إلى خصخصة السياسة، مما أدى إلى تعجيل عملية إقصاء الطبقات الدنيا بسرعة صاروخية، بالإضافة إلى الحرمان من الحقوق السياسية والفقر والتجريد من حقوق العمل، واحتمالات الطرد من قوة العمل، والتي هي واحدة من الموارد الرئيسية التي تمتلكها مصر في السوق العالمية للسلع والخدمات.

تفادي الخطر أو تغيير اتجاه الخطر

ولا يمكن إدراك أن الانتقال للمعيشة في الصحراء على أنه مجرد محاولة لتفادي الخطر فحسب، وعلى الرغم من أنه مدفوع بوضوح بالتصاعد في المخاطر المتواجدة بالمناطق الحضرية. وحيث تُعد ظاهرة التجمعات ذات البوابات الخاصة شكلا من أشكال تثبيت الثروة، واستثمار المكاسب غير المُشتركة والتي تتدفق مباشرة من الليبرالية وعمليات الخصخصة، ثم حينئذ تثبيتها في التسلسل الطبقي المحلي والعالمي الجديد ومفهوم عمارة البيئة. وتم تسجيل هذه الإنشاءات في قوائم الأحجار والأصول العقارية من الثروات المحققة من ميراث القطاع العام ومن الأراضي المملوكة للدولة من جراء التضخم، والتي بالتأكيد انخفضت معدلاتها بالمقارنة بأعوام الثمانينيات، ولكنها تميزت بالتدهور الحاد في قيمة النقود.

ويتم منح معظم المهيمنين على المؤسسات العامة (ممثلون للمشروعات الخاصة) سبل الوصل إلى تملك الأراضي والعقارات بدون التعرض للمنافسة في السوق المفتوحة، وهذه المؤسسات تشمل: وزارة الدفاع، وهيئة السكك الحديدية المصرية، ووزارة الإسكان والمجتمعات العمرانية الجديدة، ووزارة الزراعة واستصلاح الأراضي، ووزارة الأوقاف، وشركات التأمين العامة، وغيرها.

ويجب أن نتحول إلى مجال جغرافية الإنشاءات، ونظرية الاستحواذ التي وضعها ريبور (٢٠٠٠) وذلك استنادًا على أعمال ديماري وريتشو (٢٠٠٠، ١٢١) من أجل فهم أفضل لهذه العملية:

> **كانت تثار دائمًا موضوعات الإزعاج المنبعث من المناطق الحضرية التي تتميز بتركز الصناعات فيها (ضارة بالصحة العامة، ومزعجة للمجتمع) كمبرر لهجر السكان البرجوازيين، المجاورين للسكنى في أماكن تضم حشودًا من البشر إلى الفيلات الواقعة في الضواحي، أو إلى المزرعة التي يقتنونها في الريف. ويرمز هذا التباعد الاجتماعي، والتطوير العمراني الفخم، إلى ما هو أكثر من الهروب، إنهم يخالفون التوسع الحضري المعتاد، ويقومون بتحطيم**

تجانسه، ويتمسكون بقيم جديدة تم وضعها في الحسبان عن طريــق آليات الاستحواذ (أو عروض الاستحواذ)، والتي تقوم بتغذية النظام الاقتصادي بدورها.

ويتم الاستحواذ على القيم الاجتماعية للحاضرة، ويعاد تشكيلها، ومن ثّم يكون قد تم عكسها إلى الضد.

وتمكنت عشيرة "الشاطر" الذي يتزعم إمبراطورية للمنتجات الزراعية بهذه الوسيلة من الاستمتاع بما يشبه الاحتكار الكامل لإنتاج شرائح البطاطس (الشيبسي) في مصر. وقامت العائلة ببناء مصانع في المنطقة الصناعية الواقعة في المدينة الجديدة "السادس من أكتوبر"، ثم بدأت في إنشاء مجموعة من الفيلات المتناسقة في تجمع سكني تمتلكه العائلة. ولم تقم العائلة، حتى الوقت الحاضر ببيع مقر الشركة الرئيسي الذي يقع في قلب المركز التجاري للقاهرة.

التفاوض من أجل المظاهر الخارجية

ولا تحتاج الحياة في الصحراء إلى تفسير، فهي تتحدث عن نفسها. كما أنها أيضًا ترمز إلى عالم الموتى. وستظل الصحراء مرتبطة بعمليات الإحلال المتتابعة للمقابر وزيارة الموتى. ولمنح الصحراء عوامل جذب افتراضية، من جانب، وزيادة النفور من العاصمة المتكدسة بشدة من جانب آخر، فلابد من أن يكون هناك تغيير أساسي مميز لمظهر تربة الصحراء قد تم تحقيقه. ولا يزال موضوع إعادة تشكيل البيئة المحيطة محل شد وجذب في التوتر السائد بين القبول والاعتراض، وبين الوصمة التي يراد إلحاقها بالغالبية من العامة والتقدير المغالى فيه من النخبة. ونظرًا لأنه كان يتم تشجيع استغلال الصحراء لأكثر من عشرين عامًا كموضع لإبعاد الصناعات الملوثة للبيئة، ومع المدن الجديدة التي كانت قد أصبحت مأوىً

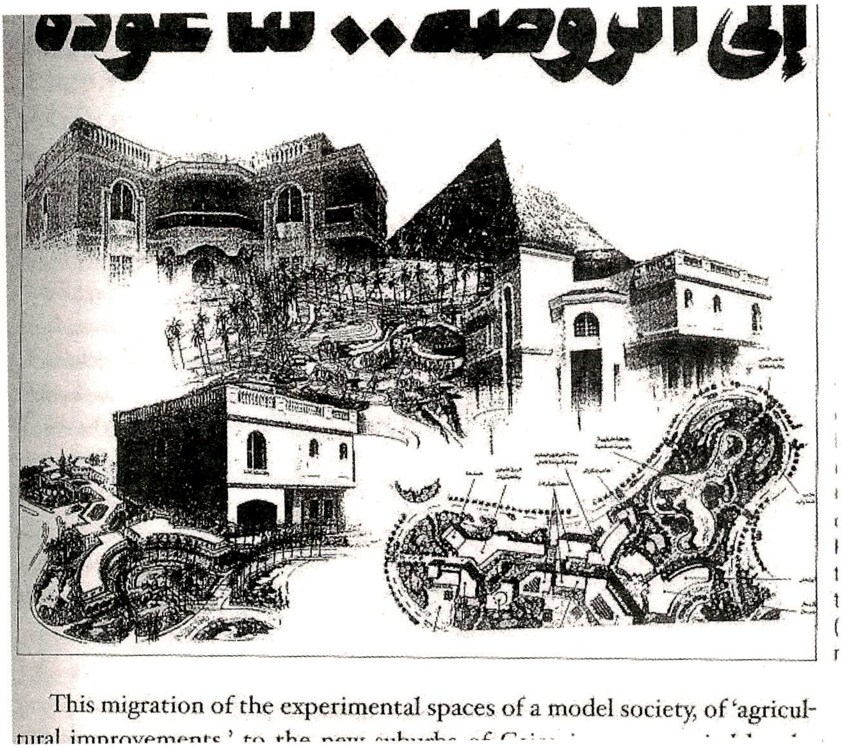
للطبقة العمالية الجديدة، فلم تعد الصحراء هي جنة عدن، كما أنها لم تصبح الموضع المثالي لإقامة المدينة الفاضلة (اليوتوبيا) على الرغم من أن أحد التجمعات ذات البوابات الخاصة يُطلق عليها اسم (يوتوبيا). وتم إحداث تغير في الإدراك الاجتماعي من خلال أحاديث النخبة الجديدة والتي تقوم بتعريف الصحراء بالأرض البكر المطلوبة لإعادة تأسيس المجتمع المصري.

وأصبحت الصحراء، بعد الاستقلال هي الفضاء الذي يجب غزوه، والذي يجب شغله بالسكان، ليس فقط من أجل تقليل الكثافة السكانية أو من أجل الحفاظ على الأراضي الزراعية، بل وأيضًا وفوق كل ذلك من أجل نوعية فلاح وقاطن جديد للمنطقة الحضرية، يكونان رائدين حقيقيين لمجتمع جديد (*Fanchette 1995*)، (يمكنك الرجوع أيضًا للجزء الخاص بأمنية الشاكري في هذا الكتاب). وقامت التجمعات السكنية ذات البوابات الخاصة، والذين يتم تقديمهم كورثة للمشروع القومي لغزو الصحراء بتحريف هذا المنظور الثوري. فبينما يقدم مستثمرو القطاع الخاص أنفسهم كطرف بديل للدولة، فإنهم يقومون بإعادة تشكيل الأمة طبقًا لأنماط الليبرالية الجديدة. ويمكن أن يرى المشترون لفيلات التجمعات ذات الأسوار أنفسهم، إلى جانب هؤلاء المؤسسين الذين تمجدهم وسائل الإعلام من أجل غزو الصحراء وتحويلها إلى أرض زراعية وكرواد يعملون من أجل توسيع الرقعة المأهولة بالسكان، وهكذا يقومون برفع قيمتها من أجل الصالح العام الذي يتجسد في الأرض المصرية. وهناك عدد لا بأس به من المزارعين الموسرين والمالكين أصلاً لأراض زراعية، من قاطني التجمعات ذات البوابات الخاصة، والذين خاضوا التجارب الأولى مع تنمية هذه الأراضي، مما مكّنهم من ترويض الصحراء. ويجعل تصوير شخصية رائد الصناعة، والبطل، ومقتحم مجاهل الحدود، والمبتكر، في مقدور أولئك المشترين والمروجين من صرف انتباه العامة عن تخصيص الأراضي العامة على نطاق ضيق ولأهل الحظوة، وما يستتبع ذلك

من اختفاء الأراضي الفضاء والموارد المتاحة حول العاصمة. وهكذا تحولت إرادة التعبير عن التفرد الشخصي، والكشف عن المقدرة المادية، والمضاربة بدون الخشية من تغيير اجتماعي أو قومي عام، إلى عالم من الشجاعة الرائدة، وإلى نوع من الابتكار التنموي وإلى نوع من التباهي من المشتغلين بالأعمال الحرة.

ومن هذا المنطلق، لم تعد صورة الحياة في الصحراء كرحيل إلى التخوم الخارجية، ولكن كإعادة تحديد لوسط المدينة، وتركيز جديد لمواضع الإبداع. وتُعد هذه الأفعال كاستعراض مكشوف لأماكن إعادة تمركز السلطة والتي تحمل في جزء من طياتها التوسع الملحوظ في التجمعات السكنية ذات الأسوار.

ويصاحب هذه الهجرة للأماكن التجريبية لأنماط مجتمع، والتحسينات الزراعية، للضواحي الجديدة للقاهرة، التحول الرمزي لسلطة التجديد من كبار موظفي الدولة إلى النخبة من أصحاب المشروعات، ومن القطاع العام إلى القطاع الخاص، والتي اتضحت بجلاء في الاستثنائية الواضحة لهذا النموذج.



خريطة توضح تجمعا جديدا ذا بوابات خاصة مغلقة، وهي "بيفرلي هيلز" وهي على أطراف المدينة التابعة للسادس من أكتوبر، والتي شيدها الرئيس السادات في المنطقة خلف الأهرام (جريدة الأهرام ١٩٩٦- غير مؤرخة)

وتجعل هذه الطريقة من رؤية التنمية نوعًا من الريادة قصص النجاح الشخصية واضحة للعيان، وهي القصص التي كانت متوارية في قلب المدينة الكبيرة، أو مختفية وراء مفاهيم الصالح العام والقومي والاجتماعي. وقد تتوارى مثل قصص النجاح هذه في المدينة مع واقع الكثافة السكانية، وشدة التقارب، ومقتضيات اللياقة، والتي تفرضها مبادئ التعايش الاجتماعي، والتنوع الاجتماعي، ومتطلبات التفاوت بين أفراد المجتمع. وتجعل قلة المساحات الخالية في المدينة الشعبية من المستحيل حدوث عروض التفاخر بالمستحدثات أو التميز الطبقي بدون التعرض لخطر نشوب احتكاكات. ولذا كان يجب أن تكون مشاهد التفاخر والمباهاة بالتفرد في المدينة القديمة مقصورة على الأماكن الخاصة أو شبه الخاصة مثل الفنادق السياحية الضخمة ذات النجوم الخمس وذلك من أجل مسايرة معايير الفطنة والتحفظ التي تقترن بالأماكن العامة الحديثة في قاهرة القرن العشرين.

وفي المقابل تمنح الصحراء تباعدًا ومنظورًا للمشهد. وبينما ينحاز الاتساع إلى سعة أفق المشهد فإن طقوس الاقتراب والمرور لهذه التجمعات ذات البوابات الخاصة تمنح جميعها البعد الدرامي لهيبة السكان الجدد عبر الاستهلال المتتابع الذي تم ترتيبه ما بين الخروج من الكتل العمرانية القديمة والوصول إلى صفوف الأشجار على الجانبين ثم سلالم الفيلات السكنية. فأولاً هناك الانفصال الذي يحدث للمشهد من جراء المرور بالصحراء ثم يليه الولوج من المدخل الضخم في أول المدينة، ثم أخيرًا المرور من بوابات التجمعات السكنية التي تقوم بتأمينها حراسة خاصة.

ويتيح الاستقرار في الصحراء الفرصة المواتية لاستعراض نجاح المرء بمسحة تحمل العظمة والمباهاة؛ حيث تؤدي الهندسة المعمارية للفيلات هذا الغرض بوضوح من خلال اللجوء إلى مجموعة كاملة من الظواهر متعددة الثقافات العالمية: كحمامات السباحة، والساحات، والأعمدة الكلاسيكية الجديدة، والمساحات

الخضراء، وأشجار الصنوبر المتراصة على الجانبين، ثم الجراج. ويشير الجراج بدوره إلى بديهية ملكية سيارة، والتي كانت غالبًا ما تُبرز الحاجة إلى مساحات خاصة في المواقع العمرانية المزدحمة، وكدلالة قوية تعبر عن الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها المرء، ومدى النجاح الذي قام بتحقيقه بين جموع العامة. ومن المفهوم جيدًا بين كافة فئات المجتمع، أن السيارة المرسيدس في القاهرة تحمل اسمًا شائعًا للشهرة وهو "الشبح". وتعكس هذه التسمية النظرة العامة إلى النخبة كأشخاص بعيدين عن المنال، وكمصدر تهديد، وسريعي الاختفاء عن العيون. كما تحمل السيارة المرسيدس أيضًا اسم "عيون الخنزيرة" أو "البودرة" ويتضمن التعبير الأخير الإيحاء بأن تجار الكوكايين فقط هم القادرون على دفع ثمنها.

ويتيح مشهد ظهور النخبة المتميزة في شوارع المدينة ثم في التجَمعات ذات البوابات المغلقة في مدن الصحراء الفرصة للتأمل بنفس الطريقة التي تبدو بها الهجرة إلى المنتجعات الصيفية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، أو قيادة السيارة المرسيدس ذات النوافذ المعتمة في خضم التكدس المروري في وسط المدينة. ويمكن للمرء أن يفهم سر التصاق هذه النخبة ببرامج التجمعات ذات البوابات الخاصة من خلال علاقة ثنائية: فهم يتمكنون من الوصول إلى هذه الأماكن لأنهم يملكون تلك السيارات، وعلى العكس من ذلك فإن تلك المسافات البعيدة تجعلهم يستمتعون بالقوة التي تملكها هذه السيارات. ولذا فقد أصبحت الحياة في الصحراء البعيدة نوعًا من الرفاهية، على العكس من النظرة السائدة إليها في الماضي كعبء ثقيل، حيث كان العمال الفقراء وعامة المواطنين يضطرون إلى ركوب الحافلات لمسافات طويلة للوصول إلي المصانع حيث مقر أعمالهم.

وتقودنا هذه المباهاة إلى التعرف على ازدواجية أنماط هذه التجمعات السكنية ذات البوابات الخاصة، والتي يبدو بطريقة واضحة أنه تم تسويقها استنادًا لنظرية الحماية والأمان. وعلى الرغم من ذلك فإنها تبدو بعيدة عن الطابع المعماري المحصن للفيلات في جنوب إفريقيا، أو التجمعات السكنية في أمريكا

اللاتينية، فالحماية هنا تميل إلى التعبير عن نفسها للخارج. ولا شك في أن هذه التجمعات تعتبر مغلقة، ولكن الأسوار تبدو هشة بوضوح، فهي بلا شك منخفضة، وهي مفتوحة على نحو خاص من خلال الشبكات المعدنية المتعارضة والتي تسمح للمرء بأن يرى بوضوح الفخامة التي تتميز بها هذه الفيلات من الخارج. ويقوم المشتري بشراء منزل ذى حماية، بخطة تقوم على خلق الإحساس بالتباعد الاجتماعي، ويوفر الاصطفاء لساكنيه، ولكنه يرغب في نفس الوقت أن يراه الآخرون. ومن ثم يصبح جليًا أن عنصر الأمان الذي يرتبط بعملية ترويج هذه التجمعات ذات البوابات المغلقة يعبر عن مدى هشاشتها لكونها مكشوفة بهذه الطريقة. ويؤكد إغلاق هذه التجمعات عن طبيعة التمزق الجذري الذي أصاب المجتمع، ويشير بوضوح إلى رغبة المروجين، شأنهم شأن المشترين، الذين يرغبون طواعية في إبعاد أنفسهم عن باقي أفراد المجتمع الذي هجروه في المناطق المكتظة من المدينة. ولكن هذا النمط يبدي ضعفه المتناهي. ويستجيب هذا النمط للرغبة في التميز، وللرغبة في أن يكون مرئيًا من الآخرين، ولكنه في نفس الوقت يؤكد التعرض للمخاطرة أكثر منها من الحماية. إنه يقوم بخلق الخطر في مدينة ربما تظللها مشاعر الثقة المتناهية.

البيئة الحضرية والتحررية والشمولية

برز مشهد الاهتمام بالبيئة في مصر إلى الوجود كترتيب مستورد بشكل جذري ومقترنًا بصفة أساسية بعملية التحرر الاقتصادي بنفس الطريقة التي تحاول بها برامج صندوق النقد الدولي والبنك الدولي الإمساك بناصية الفقر. فهما أداتان رئيستان للسيطرة على النتائج التي تترتب على الليبرالية والتعديلات الهيكلية. وتفرض البيئة الاستعانة بخبرة أجنبية كما تقوم بإعادة ترتيب الأجهزة الصناعية على أساس إجراءات وتكنولوجيا مستوردة، ثم تحويلها من خلال شركات أجنبية؛ ويقوم الكفاح ضد الفقر باحتلال المجال الذي كانت خدمات دولة الرفاهية

الاجتماعية تقوم بأعبائها، وتتحاشى المطالب التي كانت مفروضة في السابق عن إعادة التوزيع.

وظلت محاولات إضفاء الطابع المؤسسي على قضايا البيئة في مصر هي محور برامج المعونات الأمريكية والكندية. وأطلق قرار رئاسي صدر في عام ١٩٩٢ شرارة البدء في خطة العمل البيئية القومية، وتم تنفيذها بواسطة جهاز شئون البيئة المصري، والذي تم تأسيسه في عام ١٩٨٢ من أجل تحديد سياسة بيئية ومن أجل نشر الوعي البيئي في القطاعين العام والخاص وللسكان على وجه العموم وتعريفهم بالأخطار التي تنتج عن التلوث والوسائل المثلى لمحاربتها. وقام مجلس الشعب في عام ١٩٩٤ بالتصويت على القانون رقم ٤ الذي يخص حماية البيئة ويقوم بإرساء معايير لتلوث الماء والهواء. وأدى صدور القرار الجمهوري رقم ٢٧٥ في عام ١٩٩٧ إلى تسمية أول وزير لشئون البيئة، وإلى قيام الحكومة في عام ١٩٩٩ بتدشين أول خطة للعمل البيئي. وصلت "موضوعات البيئة" إلى مصر في نفس اللحظة وفي سياق التفكير في المجتمعات ذات البوابات الخاصة المغلقة (*Hopkins, Mehanna, and el- Haggar 2001*).

وبينما يقوم الجهاز الحكومي بتحديد وتشريع الخطاب الخاص بالبيئة، فإنه يؤكد على مشاعر السخط المشتركة على نطاق واسع عن التغير المناخي للكرة الأرضية. ويستأثر هذا الجهاز القيام باحتكار قياس وتعريف التلوث، متجاهلاً في نفس الوقت التلوث الناتج عن المصادر الصناعية والزراعية والعسكرية، بينما يقوم بتوجيه اهتمامه لأنواع أخرى من التلوث والتي تكون أكثر ملاءمة لمحاربتها. وتم اتخاذ هذه التدابير من أجل تقوية اللوائح والنظام الاجتماعي الجديد في قلب الحاضرة. فعلى سبيل المثال هناك تدعيم للسياسات المتعلقة بالمساحات الخضراء والحدائق وجمعيات التنظيف وتلك التي تستهدف تفريغ وسط المدينة والمناطق

المحيطة بها من الكثافة السكانية، ولكنها لا تسمح للمنظمات العامة أو غير الحكومية من ارتياد هذه الأماكن لغرض استخدامها.

كما تفصح البيئة عن نفسها كأداة مثالية لاستعراض تحول الكفاءة التي تتسم بها الليبرالية. حيث تستند البيئة الجيدة من وجهة نظر نظام الحكم على التحالف مع رجال الأعمال وأنهم الطائفة الأكثر إدراكًا- من وجهة نظرها- بالموضوعات الأكثر خطورة، بينما يتسم أفراد الشعب العاديين بعدم الكفاءة على الإطلاق ويمكنهم فقط تأدية دور ملوثي للبيئة. وتعتبر التجمعات ذات البوابات الخاصة المغلقة رمزًا لهذا التحول، ويمكنها تحويل قضية البيئة إلى سلعة ذات قيمة يمكن المتاجرة بها. وهنا تلعب قضية البيئة نفس الدور الذي لعبه "الإصلاح" في حقبة الليبرالية في مصر في فترة ما قبل الثورة. وأصبحت البيئة هي العامل المحرك الأول لوضـــع الجهـــاز الحكـــومي فـــي مـــوقع المسئولية عن الأراضي الفضاء وتنظيم السكان.

تطبيع النظام الحضري

يجب أن تكون دراسة البيئة مستحقة للمزيد من التطوير والبحث الجاد المستفيض. ويقوم التحالف بين أنصار البيئة مع الجناح اليميني من التوجه الإسلامي بدعم كفاءة السلطة الشمولية. ويجد هذا التحالف في موضوع البيئة قائمة جديدة لمحاولة إضفاء الصبغة الشرعية للتبرير بمسوغ حماية الصالح العام، وتبرير تصاعدهم المتزايد في المجتمع وفي المجال السياسي. ونحن نجد استباحة استبدادية للقيم البيئية طبقًا للمعايير المشابهة والتي قام بنشرها (لوك فيري) في أوروبا- مثل تعريف النخبة "للطبيعة" بأنها تأتي قبل احتياجات النظام الاجتماعي (١٩٩٢). ويفضل مثل هذا النوع من الأنظمة البيئية تجنيد جيوش التكنوقراط أو الفنيين والجهاز الحكومي الشمولي للدولة. ويقوم بتقديم دراسات علمية جديدة وأداة

للهيمنة العلمية. ويفضل أنصار البيئة في القاهرة خلق المخاطر والقيود التي تقوم بإضفاء الصبغة الشرعية لاستمرار النظام الشمولي والشكل الحصري لإعادة التوزيع.

ويختلف هذا الشكل من الاهتمام بالبيئة من ناحية معينة عن مفهوم "الإصلاح" القديم في أن الادعاء بتحسين ظروف الحياة والتعليم يتم تحاشيها، لأن المشكلة في "الطبيعة" وليست "بشرية". وكما يمكن أن يقول أحدهم: إنها متأصلة في طبيعتهم،... إنهم أقذار... إنهم يتسمون بالعنف، إنهم متعصبون.. وبتعبير آخر فإن "عامة الشعب" غير قابلين للتعلم أو الإصلاح. وكانت هذه المبادئ عن "الدونية المتأصلة" بطبيعتها لدى العامة موجودة بالفعل في الإدارات الاستعمارية القديمة، ووجدت ضالتها مرة أخرى في شباب سياسة جديدة. وهذه الاستمرارية لأنماط حكومية استعمارية – تحررية، وبناء على سبل الفهم للمجتمع برمته، وحدود هذا المجتمع، والجماعات المُهمشة منه، تقوم بإثارة موضوع الفكرة الحقيقية لتكوين المجتمع، وعن الدولة المستقلة التي تجاهد من أجل تطوير مجتمع من المواطنين. وتكشف التجمعات ذات البوابات الخاصة، وعلى نفس المنوال، عن أشكال من الانفصام واللامبالاة تجاه حياة المدينة لصالح حياة خاصة. وتسمح هذه الجغرافية التحررية الجديدة بأن تقوم هذه الصفوة من المجتمع أو الشبكات العائلية بإدارة وتسهيل عمليات الخصخصة، واستخراج واستغلال المصادر القومية، بينما يتم تقليص عملية إعادة التوزيع إلى حدها الأدنى. وفي نفس الوقت فإنه يتم تعزيز عضوية النخبة المرتبطة بالشركات متعددة الجنسيات. ويعاد إحياء القيم التي كانت تتناقل في عصرهم بواسطة العواصم الحضرية للقوى الاستعمارية، بينما يتم تفكيك العلاقة بين مدينة الشعب ومدينة النخبة.

الخاتمة:

التعارض بين أخطار الليبرالية الجديدة والتبريرات

تشكلت ظاهرة التجمعات ذات البوابات الخاصة بالتلاقي بين نوعين من التبريرات أو الحجج التي تحاول إضفاء المصداقية عليها. وتمثل صفوة القاهرة جغرافيا من الليبراليين الجدد عالما من الاستعراض لنوع جديد من الليبرالية من ناحية، والتي تثير الإطراء وتقيم الحجة عليها بمثال بعيد عن مصر، حيث باركت صحيفة "وول ستريت" في عددها الصادر ١٤ إبريل ١٩٩٧ المشروعات الجديدة وكالت لها المديح قائلة: "كيف أن مصر قطعت شوطًا كبيرًا". ومن ناحية أخرى، قامت هذه التجمعات المغلقة جغرافيًا بفرض تعريف جديد للمخاطر. وتبرر وتشهد ما تطلق عليه النهضة العمرانية بالطابع الإنجازي للسياسة الليبرالية ولرسل الكفاءة الجدد الذين سيقومون بإعادة تشكيل مصر ليتلاءم مع رجال الأعمال أصحاب الشركات العابرة للقارات. والأكثر من ذلك، أن هذه التطورات يجب تقديم مبرر لها عن طريق خلق المخاطر المتصلة بالمبادئ العامة التي ترتبط بأسلوب الحياة المنفصل عن العامة وفي وسط أقران المرء من نفس طبقته وعشيرته، في تلك التجمعات المتناهية في الصغر والمحمية والمدعمة والتي تدير نفسها بنفسها بطريقة ديمقراطية، ويقوم هذا النمط الوليد من خلق الحواجز ببلورة المنطق الحقيقي للإصلاحات الليبرالية الحديثة الجاري تنفيذها، ويقومون في نفس الوقت بتقوية وتدعيم المشهد الاجتماعي ضد مضاعفات الآثار المناوئة وخيارتها والمقاومة التي يمكن أن تبديها.

مراحل وأنماط والعالمية

من المقبول في هذا السياق، ومن منظور الدراسات العمرانية أن نقوم بتعريف مدينة (اليوم)، وعلى وجه التحديد، كل مدينة عالمية كبيرة جدا – كتجميع لعناصر مختلطة، من التنوع والكثافة وروح الابتكار التي تميز المدن العالمية.

ويجب أن نقوم بالتوفيق بين هذا التعريف والحقائق الجديدة التي لا تقل شمولاً عن أن موضوع السياسات الحضرية الجديدة يجب أن تصارع لمواجهة مجموعة من العناصر المتباينة من أجل التخلص من التنوع الاجتماعي، وتجريم الازدحام السكاني والاختلاط والجيرة. وتقوم هذه السياسات على التباعد وتأسيس منبع للتسلسل الهرمي وفوق كل ذلك كل ما يتطلب منظورا وظيفيا مبسطا. ويعتبر النموذج الأوروبي للمدينة العالمية بدون أدنى شك أسطوريًا ونخبويًا ويتميز بالتركز العرقي بطريقته الخاصة، ومع ذلك لا يصلح اليوم كمثال جيد، وليس مفيدًا حتى لأغراض المقارنة. وبينما يمكن أن تكون مدن المستعمرات الأوروبية والأمريكية ***(التي تم تغيير طبيعتها الجغرافية بعد احتلالها وإرسال المستوطنين إليها، وتطبيعها بطابع مدنها الأصلية سواء في طبيعتها الجغرافية أو طبيعة السكان، وبالتالي استغلال الأراضي الجديدة والموارد البشرية الجديدة لصالحها بعد تطبيعها بطابعها الخاص- المترجم)***، ومدن دستوبيا ما بعد الثورة الصناعية ***(وهي مدن الظلم والفقر والمرض، والمقابل العكسي لمدن اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة- المترجم)***، أكثر إثارة كنقاط مقارنة.

وربما كانت القاهرة هي المدينة التي تجسد نماذج الليبرالية الجديدة وبطريقة تعتبر مثالاً للتناقض والاضطراب من ناحية التقدير العالمي.

ويمكن اعتبار التجمعات السكنية المصرية ذات البوابات الخاصة كمثال لذروة أشكال الخطر. وحتى الآن فإنها تخلق بوجودها الحقيقي العديد من أعمق الأخطار الاجتماعية، والهشاشة، والضعف العام والتي تفضل كل المتاريس المادية المتتابعة والفخامة لجغرافية الليبرالية الجديدة أن تتجاهلها. وتدرك التجمعات المغلقة في الحقيقة مستوى الهشاشة على المستوى القومي وتقوم بخلق الأخطار الاجتماعية العامة التي تدعي أنها تقوم بحمايتها.

وإذا ما استعاد أصحاب التجمعات ذات البوابات الخاصة مشهد أحوال الليبرالية المصرية في الحقبة ما بين عامي ١٩٩٠ إلى عام ٢٠٠٠، فليس من المستغرب أن يجدوا أنفسهم جوهر ذروة الأزمة النقدية التي لحقت بمصر في أعقاب عام ٢٠٠٠. فالاستثمارات الرأسمالية الهائلة التي استوجبتها عملية التنمية الاستثنائية المدعومة من الحكومة لهذه المساحات الصحراوية كانت بوضوح شديد واحدة من الأسباب الرئيسية لأزمة السيولة المالية وانفجار فقاعة أوهام البناء العقاري والتي تسببت في انهيار أسعار العقارات، وبالتالي انهيار الاقتصاد القومي بشكل عام. وظهر نمط تنمية شريحة النخبة الاجتماعية في قلب الأزمة الاقتصادية للأمة كلها. وكانت النتيجة أنها ربما كانت تجسيدًا للخطر نفسه. ولقد أدي استهلاك المضاربات الاستثمارية في التجمعات ذات البوابات الخاصة – والتي تم تمويلها وعلى نطاق واسع من بنوك القطاع الخاص والعام- إلى انعكاسها على كل عناوين الأنباء الاقتصادية في سنوات ٢٠٠٣-٢٠٠٤ ومن أمثلة عناوين تلك الموضوعات: ما يشبه الفشل لمجموعات شركات بهجت (التي أُلقي القبض على مالكها)، والمصاعب التي لاقاها "أحمد عز" أحد أقطاب صناعة الصلب، والفضائح التي لاحقت صورة وزير الإسكان "محمد سليمان" وهو المسئول عن بيع الأراضي التي أقيمت عليها التجمعات ذات البوابات الخاصة. وتم إعادة تشكيل وتطهير عوامل الحماية والتحالفات بين رجال الأعمال والمسئولين الرسميين من خلال الأزمة. وكما يستعرض (تيموثي ميتشيل)، فإنه بالتأكيد من الأهمية بمكان أن نرى الرأسمالية في حالة حركة، ولكن أن تقوم بضخ المنافع والائتمان تجاه معظم النزوات غير العقلانية، والتي أخذت شكل الاستثمار في الأرض والأحجار خلال سنوات الازدهار، وذلك لتحويل الصحراء إلى مكان للسكنى (٢٠٠٢). وانفجرت الفقاعة العقارية. وتهاوي الاقتصاد المصري بعد عام ٢٠٠٠، ولكن كانت قد تشكلت بالفعل ليبرالية جديدة، ومدن استيطانية جديدة، والتي تقوم بتجسيد الخطر وحظوظ الصفوة، من أجل احتلال وتقييد وإعادة تشكيل العالم الاجتماعي. لقد تحولت القاهرة وبلا عودة بطريقة جذرية.

الأعمال المُستشهد بها

Works Cited

AlSayyad, Nizar, ed. 2001. *Hybrid Urbanism.* Westport, Conn.: Praeger.

Appadurai, Arjun. 2001. *Après le colonialisme: les conséquences culturelles de la globalisation.* Paris: Payot.

Arnaud, Jean-Luc. 1998. *Le Caire: mise en place d'une ville moderne, 1867-1907.* Paris: Sindbad/Actes Sud.

Barth, Fredrich. 1969. "Introduction." In *Ethnic Groups and Boundaries,* ed. Fredrich Barth, 9–38. Boston: Little, Brown and Co.

Beck, Ulrich. 1992. *Risk Society: Towards a New Modernity.* Newbury Park, Calif.: Sage.

Blakely, Edward, and Mary Snyder, eds. 1997. *Fortress America: Gated Communities in the United States.* Washington, D.C.: Brookings Institution Press.

Caldeira, Teresa. 2000. *City of Walls: Crime, Segregation and Citizenship in São Paulo.* Berkeley: University of California Press.

Caneri, Toussaint. 1905. *La ville du Caire son presént et son arenir.* Cairo: Institut Francais d'Archéologie Orientale.

Clerget, Marcel. 1934. *Le Caire: étude de géographie urbaine et économique.* Cairo: Shindler.

Desmarais, Gaëtan, and Gilles Ritchot. 2000. *La géographie structurale.* Paris: L'Harmattan.

Douglas, Mary. 1966. *Purity and Danger: An Analysis of Pollution and Taboo.* London: Routledge & Kegan Paul.

Douglas, Mary, and Aaron Wildavsky. 1982. *Risk and Culture: an Essay on the Selection of Technical and Environmental Dangers.* Berkeley: University of California Press.

"Dreamland, the Urban Renaissance *(nahda 'umraniya)* during the Mubârak Era." 1998. *Mitr Murabba'a* (October): 10–14.

Fanchette, Sylvie. 1995. "Un village idéal pour une société nouvelle: l'expérience de la province de Tahrir dans le désert occidental." In *Entre réforme sociale et mouvement national,* ed. Alain Roussillon, 479–500. Cairo: CEDEJ.

Ferry, Luc. 1992. *Le nouvel ordre écologique: l'arbre, l'animal et l'homme.* Paris: Grasset.

Garret, Pascal. 2001. "Le passage à l'échelle urbaine: Héliopolis et ses mythes." In *Le Caire-Alexandrie: architectures européennes 1850-1950,* ed. Mercedes Volait, 109–20. Cairo: IFAO-CEDEJ.

Girard, René. 1982. *Le bouc émissaire.* Paris: Grasset.

Hacking, Ian. 2003. "Risk and Dirt." In *Risk and Morality,* eds. Richard Ericson and Aaron Doyle, 22–47. Toronto: University of Toronto Press.

Hopkins, Nicholas, Sohair Mehanna, and S. El-Haggar, eds. 2001. *People and Pollution: Cultural Constructions and Social Action in Egypt.* Cairo: The American University in Cairo Press.

Ilbert, Robert. 1981. *Héliopolis, 1905-1922, genèse d'une ville.* Marseille: Éditions du CNRS.

Kamal, 'Abdallah. 1998. "al-Ruju' Baron Empain!" *Ruz al-Yusuf*, 12 October.

Kienle, Eberhard. 2001. *A Grand Delusion: Democracy and Economic Reform in Egypt*. London: I.B. Tauris.

Korayem, Karima. 2001. "The Impact of Food Subsidy Policy on Low Income People and the Poor in Egypt." *Cairo Papers in Social Science* 23 (Spring): 69–125.

McKraken, Grant. 1988. *Culture and Consumption: New Approaches to the Symbolic Character of Consumer Goods and Activities*. Bloomington: Indiana University Press.

Mitchell, Timothy. 2002. "Dreamland." In *Rule of Experts: Egypt, Techno-Politics, Modernity*, ed. Timothy Mitchell, 272–304. Berkeley: University of California Press.

Park, Robert. 1926. "The Urban Community as a Spatial Pattern and a Moral Order." In *The Urban Community*, eds. Ernest Burgess and Robert Park, 122–38. Chicago: University of Chicago Press.

Rebour, Thierry. 2000. *La théorie du rachat: géographie, économie, histoire*. Paris: Publications de la Sorbonne.

Weldes, Jutta, Mark Laffey, Hugh Gusterson, and Raymond Duvall, eds. 1999. *Cultures of Insecurity: States, Communities and the Production of Danger*. Minneapolis: University of Minnesota Press.

Zaki, Mohed. 1999. *Egyptian Business Elites*. Cairo: Konrad Adenauer Stiftung and Arab Center for Development and Future Research.

الهوامش

١- السيد المنصورى ليست شخصية حقيقية. ويمثل السيد المنصوري والرواية الخيالية الافتتاحية في هذا الفصل تجميعًا خياليًا للعديد من الشخصيات التى قابلها المؤلف طوال السنوات الأربع السابقة، وتقوم باستحضار الخطوط العريضة لخبراتهم ورؤيتهم للقاهرة الجديدة.

٢- يتميز التكتل السكاني بالانخفاض الواضح في سكانها من قلب المدينة وحتى، ولما يقرب من عشرين عامًا، من الأحياء الداخلية القديمة للمدينة؛ ولكن نقص الكثافة نسبية بدرجة مطلقة. فتظل القاهرة واحدة من أكثر الحواضر السكنية كثافة في العالم بأسره، وبمتوسط يبلغ أكثر من ٢٥٠ ساكن في الهكتار الواحد، وبأحياء تفوق ٨٠٠ قاطن في الهكتار الواحد. وببساطة، فإن الكثافة القصوى للسكان قد هجرت قلب المدينة لصالح الأطراف العشوائية، حيث تعيش الغالبية القصوى منها من الآن فصاعدًا. وحتى الوقت الحاضر، الزحف العمراني غير موجود – وتظل التجمعات السكانية محشورة للغاية. وهكذا فإن الهروب تجاه الصحراء يأخذ شكلا يمثل التمزق في نسيج أنماط السكنى.

٣- وهنا؛ نتمسك بمنهج فريدريك بارث للهوية، والذي يركز على الأداء ويطور من خلال التفاعل، وهذا يعني، في التقابل، وحتى في المواجهة مع الآخرين (١٩٦٩). وهكذا فإننا ننأى بأنفسنا عن كل التعريفات الجوهرية للثقافة والخلط الموجود بين الثقافة والهوية. وتستخدم الهوية العرقية الثقافية الثقافة، ولكن نادرًا ما تستخدم الثقافة ككل. وتعتبر الثقافة موردًا من الموارد التي تعاد كتابة العناصر المكونة لها في الوقت الحاضر بوصفها وظيفة للأوضاع. ولذا فإن الهوية تعتمد على العلاقات بالحدود وليس بالمركز. ولقيت قبولاً كبناء اجتماعي نشأت وخلقت آلية من خلال التفاعل، وتستدعي الهوية استقصاءً من خلال: كيف، ولماذا، وبواسطة من، وفي تلك اللحظة، وفي ذاك السياق، تتولد هوية، يتم الحفاظ عليها، أو تكون موضعًا للتساؤل.

٤- تم تجميع هذه البيانات من دراسة موازنة استهلاك الأسر في عام ١٩٩٥-١٩٩٦ ومن إحصائية بيانات تم تجميعها ما بين عامي ١٩٨٦، ١٩٩٦ عن عدد الأسر ومعدل نموهم. ولم تتح لنا الدراسة أن نحدد الدخول بدقة وحتى بدرجة أقل ملكية العقارات للأسر موضع

الدراسة. ومن جانب آخر، فإنها تمدنا بتوزيعات نسبية يمكن الركون إليها للموازنة الجارية للاستهلاك، بما في ذلك تكاليف السكن. وتمثل هذه ال ٣١٥،٠٠٠ أسرة نفسها أكثر من ٢٦% من الاستهلاك الحالي، أو بقدر يبلغ ٥٠% من الأكثر فقرًا. ويمكن أن يتم تقدير العقارات، على الرغم من ذلك، بالنسبة لعدد الأسر التي تمتلك أكثر من مسكن في عام ١٩٩٦، وأيضًا فإن ١٧٢,٠٠٠ أسرة أو ما يعادل ٦،٦% من الأسر التي تقطن في محيط القاهرة الكبرى (أكثر من ٨% من القاهرة الأصلية).

٥- وقد شيدت مساكن تصل إلى ما تم تشييده في ١٠ سنوات في منطقة القاهرة، شاملة كافة القطاعات، فيما بين عامي ١٩٨٦، ١٩٩٦.

الفصل الثانى

القاهرة: عاصمة للثورة الاشتراكية؟

أمنية الشاكري

ليس من الصعب أن نتخيل الصورة في مديرية التحرير، وهو مشروع الإصلاح الزراعي البارز الذي تم تدشينه في عهد الرئيس جمال عبد الناصر وذلك عند وصول شخصية بارزة، مثل تلك الزيارة التي قام بها السفير اليوغسلافي في يناير ١٩٥٧، أو تلك الزيارة التي قام بها أعضاء الاتحاد القومي الذي كان قد تم تشكيله حديثًا ("السفير اليوغسلافي يقول ..."١٩٥٧؛ "مع النواب....." ١٩٥٧). وظهر الفلاحون السابقون في صورة المواطنين: الرجال منهم يرتدون قمصانا من النسيج القطني وأفرولات، أما النساء فيرتدين بلوزات بيضاء، وجونلات سوداء، وأغطية رأس مطبوعة تبدو بوضوح وكأنها لزوم التصوير أمام الكاميرات. ولابد أن زوار الصباح الباكر سيشهدون طابور تحية الصباح، وهي التحية اليومية للعلم، والأغاني الوطنية التي يتم ترديدها في تناغم تام. كما سيلحظ الزائرون بكل تأكيد وكما حدث مع "دورين وارينر" في زيارتها التي قامت بها عام ١٩٥٦، أن هؤلاء المستوطنين قد خضعوا "لتجديدات إنسانية شاملة... فقد تم ضبط وتنظيم كل جانب من جوانب حياتهم وتوحيدها" (١٩٦١-٥٤). وربما أيضًا علقوا على صفوف المنازل الجديدة، والتي تتشابه مع بعضها بعضا، "وتتكون من حجرتين، وصالة، ومطبخ، وحمام، وشرفة أمامية، وفناء خلفي.. وتم بناؤها بعناية وطبقًا

للمــواصفــات الصحية" (الجمهورية العربية المتحدة، معهد التخطيط القومي ١٩٦٥، ٣٤). وستبدو القرية نفسها بطرقها الفسيحة والمستقيمة، والميدان الرئيسى الذي يقع في قلب القرية (وبها مبان لإدارة القرية، ومركز للجمعية التعاونية، ومدرسة، وحضانة، ونواد من أجل القادمين الجدد والموظفين)، وكأنها لا تتشابه على الإطلاق مع أي نموذج لقرية مصرية أخرى في الدلتا (الجمهورية العربية المتحدة، معهد التخطيط القومي ١٩٦٥، ٣٤). ويمكن للمراقب الحصيف أن يلحظ بصفة خاصة عدم وجود أي طفل من الأطفال يلعب في أرجاء القرية – فجميعهم يقبعون ساكنين في مراكز حضانات اليوم الواحد.

وإذا ما قُدر للمرء بعد ذلك بأربعين عاما بالضبط أن يخطو إلى إحدى المدن الصحراوية الجديدة، مثل مدينة السادس من أكتوبر أو الأبعد منها وهي مدينة السادات، فسيجدها تشبه كثيرًا بطل قصة فيلم يسري نصر الله عام ١٩٩٣ "مرسيدس" (الذي يظهر من مستشفى للأمراض العقلية في أعقاب سقوط حائط برلين) ويجد أن العالم كله قد أصبح كيانًا واحدًا وأن الاشتراكية أصبحت من الأشياء التي عفا عليها الزمان. ويجد المرء بدلاً من ذلك أن السكان قد ارتحلوا إلى ضواحي القاهرة ويعيشون لصق المناطق الصناعية التي تحتلها الشركات العالمية عابرة القارات والمألوفة مثل نستله، وجنرال موتورز. وسيلحظ المرء الانعزال النسبي للمناطق السكنية، والتقسيمات الطبقية الكثيفة إلى أجزاء صغيرة، والغياب الواضح للأماكن العامة التي يتم تخصيصها للاستخدام العام. وتظهر رتابة الشقق السكنية ذات الطوابق الخمس والمبنية على غرار شقق خروشوف، في تكرار متواتر ولانهائي لتصميمات المعماري السويسري من أصل فرنسي لوكوربوزييه والتي تتسم بكــونها عملية أكثر منها جمالية، وكمحاكاة متأخرة للعصرية على وجه التقريب.

وأستحضر هذين المشهدين المختلفين للعصرية كتصوير لنمطين متناقضين من الأنماط المكانية للتنظيم: نمط الرفاهية الاجتماعية في الحقبة الممتدة من ثلاثينيات إلى ستينيات القرن العشرين، والنمط الليبرالي الجديد للتنظيم والذي ساد في حقبة ما بعد التحرر الاقتصادي (الانفتاح)، وبدأت في أواخر سنوات السبعينيات من القرن العشرين تقريبًا. ويمكنني أن أؤكد، فيما تلا تلك الحقبة، أن خطط استصلاح الأراضي والتي بدأت في عهد عبد الناصر (مثل مديرية التحرير)، من جانب، والمستعمرات الصحراوية الجديدة وخطط القاهرة الكبرى التي تم الترويج لها بعد الانفتاح الاقتصادي، على الجانب الآخر، كانت ذات دلالة في الممارسات المكانية والتي وقعت في شرك استحداث نمط جديد من التنظيم.

ويمكنني أن أعجل بتقديم حجتي إلى أن الحقبة الممتدة من ثلاثينيات إلى ستينيات القرن العشرين كانت تتميز بالتأكيد على الرفاهية الاجتماعية، وأن مشروعات التوسع الأفقي في استصلاح الأراضي كانت مصبوغة بما أصفه "بأخلاقيات الريادة"، وموجهة تجاه غزو الحدود المكانية وتوسيع التخوم، من أجل تشكيل مجتمعات من المستوطنين. ويبحث مثل هذا الإطار من الرفاهية الاجتماعية عن زيادة الوعي الصحي، والثروة، والإنتاجية للسكان من خلال إعادة بناء المناطق الريفية واستصلاح الأراضي وخطط إعادة التوطين، والتي كانت تتميز بالكلية والشمول، وتحمل الطابع الشعبي، كما يصور مثال مديرية التحرير الذي ذكرناه آنفًا. وتخيل المخططون الاشتراكيون في الخطاب البلاغي الذي ساد في مصر في حقبة ما بعد الاستعمار (حصلت مصر على استقلالها من بريطانيا في عام ١٩٣٦ بتوقيع المعاهدة البريطانية- المصرية، ولكن الحقبة ما بعد الاستعمارية بدأت بعد ثورة ٢٣ يوليو، التي قادها جمال عبد الناصر والتي كانت تدور حول اشتراكية الدولة)، القاهرة كمركز للتخطيط الثوري، والذي يعطي الامتياز للأماكن الريفية في المقام الأول، ويستهدف تطويرها في عملية إعادة البناء المكانية. ويفترض الخطاب القومي، والمصلحون الاجتماعيون *المدينة* كموضع جوهري

للحداثة (كمركز للتخطيط الرشيد للدولة وتطوير للأشكال الحديثة من القوة)، والمناطق الريفية كموضع للهوية الوطنية (حيث يعتبر الفلاحون ممثلين لجموع الشعب). وبهذا المعنى أصبحت المدينة مقرًا للحكم، بينما أُعتبر الريف هدفًا للقرارات الحكومية طوال تلك الحقبة التاريخية.

وحدث تحول عالمي بعد صدور سياسات التحرر الاقتصادي للانفتاح والتي أصبحت بموجبها القوى المحلية والعالمية (مثل ممثلي برجوازية الدولة ومصالح ملاك الأراضي في جهاز الدولة، والتي يقودها أنور السادات؛ والمؤسسات العابرة للقارات والتي لها ممثلون محليون؛ وهيئة المعونة الأمريكية) والتي قامت بدمج مصر كلية في نظام حكم الليبرالية الجديدة والتي أصبح بموجبها التطور الاجتماعي الاقتصادي الهدف الأول للحكم. وأدى الانفتاح إلى خلق مجموعة مختلفة جدًا من الممارسات المكانية، والتي قامت بالتأكيد على عملية أقوم بتسميتها "برسم خريطة جديدة لإعادة التوزيع"، وبالتحديد القيام بعملية ضخ وتقسيم، تتجه إلى اللامركزية ونشر التكدس الحضري في القاهرة. وتم هجر مشروع تحويل المناطق الريفية بعد الانفتاح، وأصبحت الكثافة السكانية الحضرية والتي كان من المتصور أنها تستهلك النمو الاقتصادي، هدفًا يتعين البحث عنه، بينما الإصلاحات الحضرية والاجتماعية تبحث عن "إعادة التوزيع المنتج للسكان" (وزارة التخطيط ١٩٧٨). وبذلك تحولت المناطق الحضرية من نتاج لتجاهل معتدل إلى هدف أسمى للإدارة.

الناس والأرض تحت يد الإصلاح

> **إن التخطيط الاشتراكي الكفء هو الطريق الوحيد والذي يضمن استخدام جميع الموارد الوطنية والطبيعية والبشرية؛ بطريقة علمية وعملية وإنسانية؛ لكي تحقق الخير لجموع الشعب وتوفر لهم حياة الرفاهية.**

الميثاق الوطني لمصر، عام ١٩٦٢

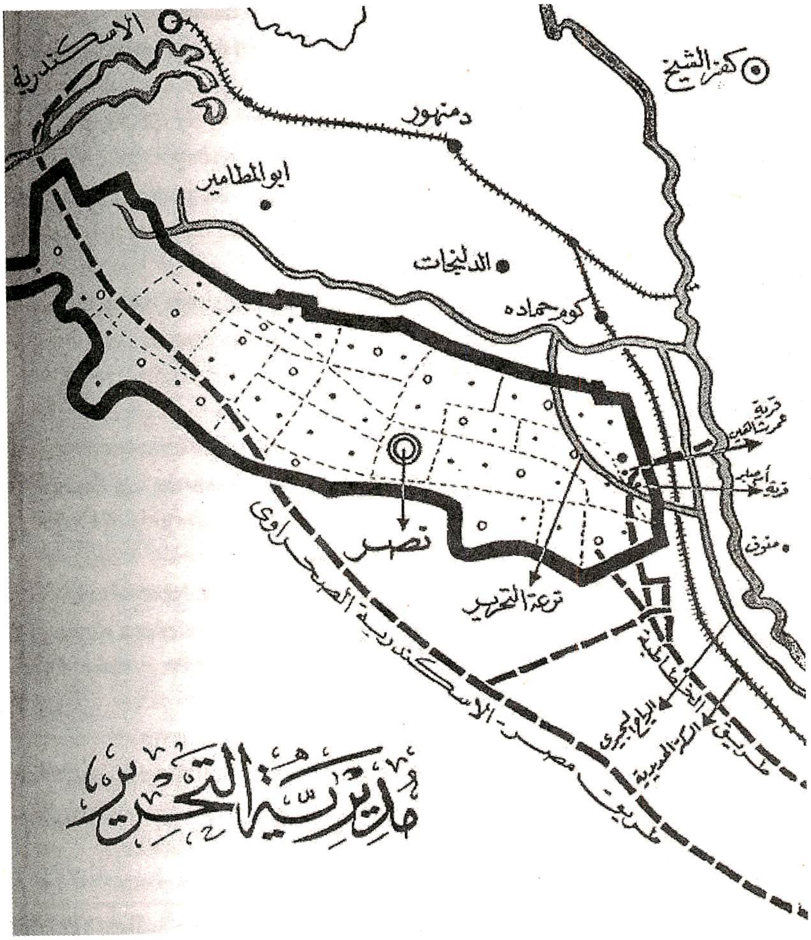
إن من السهل بناء المصانع، وشق الترع، وبناء السدود،
ولكن بناء الرجال من أكبر الصعاب.

جمال عبد الناصر

(وزارة استصلاح الأراضي، ١٩٦٩)

وتم تدشين مشروعات استصلاح الأراضي تحت حكم الرئيس عبد الناصر من أجل مواجهة التوسع البطيء في الأراضي القابلة للزراعة بالعلاقة إلى التزايد السكاني المتسارع. وتركزت جهود الحكومة على كل من السيطرة على الزيادة السكانية من خلال برامج تنظيم الأسرة والتوسع الأفقي في الأراضي المستصلحة. وكان استصلاح الأراضي وإعادة توطين الفلاحين من صلب اختصاصات الهيئات الحكومية، مثل الهيئة الدائمة لاستصلاح الأراضي، والتي تأسست في عام ١٩٥٤، وتم ضمها مع العديد من الهيئات الأخرى إلى الهيئة المصرية لاستغلال وتطوير الأراضي المستصلحة (الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦٠، ٤٣٧؛ العبد ١٩٧٩، ٩٥). وتنافست العديد من الجهات الفاعلة والتشكيلات المؤسسية والكتل السياسية في سبيل تصميم عملية تطوير مشروعات استصلاح الأراضي والمحافظة عليها على غرار مديرية التحرير. وكما ساهمت أقسام الدولة الإدارية التي تم تكوينها حديثًا (مثل هيئة استصلاح الأراضي)، مثلها مثل الوزارات التي أعيد تنشيطها (مثل وزارة الزراعة ووزارة الشئون الاجتماعية) بهمة ونشاط في تطوير سياسات الرعاية الاجتماعية بالتنسيق مع التوجه السياسي الجديد للنظام الناصري. وقامت هذه الأقسام الإدارية برعاية تطور النخبة التكنوقراطية (السمة المميزة للحقبة الناصرية) وجني ثمار الأشكال الجديدة من الخبرات في مجالات تتراوح ما بين الهندسة الزراعية إلى العمل الاجتماعي.

كما أُعتبر مشروع مديرية التحرير نفسه كالمؤسسة الجوهرة للنظام الثوري، "واحدة من برامج المشروعات الرائدة لغزو الصحراء" (الجمهورية العربية المتحدة، معهد التخطيط القومي ١٩٦٥، ٢٢). وكان المشروع يستهدف زيادة الناتج القومي من خلال زيادة الأرضي القابلة للزراعة، ولكن الأكثر أهمية من ذلك هو محاولة خلق "نموذج للمجتمع الريفي قائم على المبادئ الاشتراكية" وتعطي "الثقة بالنفس للأفراد والبرهنة على مقدرتهم على تنفيذ المشروعات الضخمة، وعلى وجه الخصوص لأن المشروع تم تنفيذه والإشراف عليه بواسطة الفنيين العرب وبدون أي مساعدة أجنبية (الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦٠، ٤٣٩). وبدأ هذا المشروع الذي يقع غرب الدلتا وجنوب الإسكندرية، بعد الثورة مباشرة، وتحت إشراف مجدي حسنين، وهو نفسه من الضباط الأحرار وهي المجموعة الصغيرة التي قامت بالثورة المصرية في عام ١٩٥٢ (حسنين ١٩٧٥). وأصبح حسنين هو رئيس هيئة مديرية التحرير، وقام بإدارة المشروع لسنوات عديدة، ومثيرًا للكثير من الجدل، على غرار نمط المدينة الاشتراكية الفاضلة. وطبقًا لعبارات حسنين نفسه كان هدف المشروع هو جعل الشعب يألف على الصحراء، وجعل صغار المثقفين في الواقع العملي نشطاء في عمليات الاستصلاح، والرغبة في العمل والعطاء (حسنين كما نُقل عن وارينر ١٩٥٧، ٤٩). كما كان حسنين يقصد البرهنة على أن العالم العربي يمكنه منافسة المستعمرات الإسرائيلية الصحراوية التي تتباهي بها" (حسنين ١٩٧٥، ١٠٣).



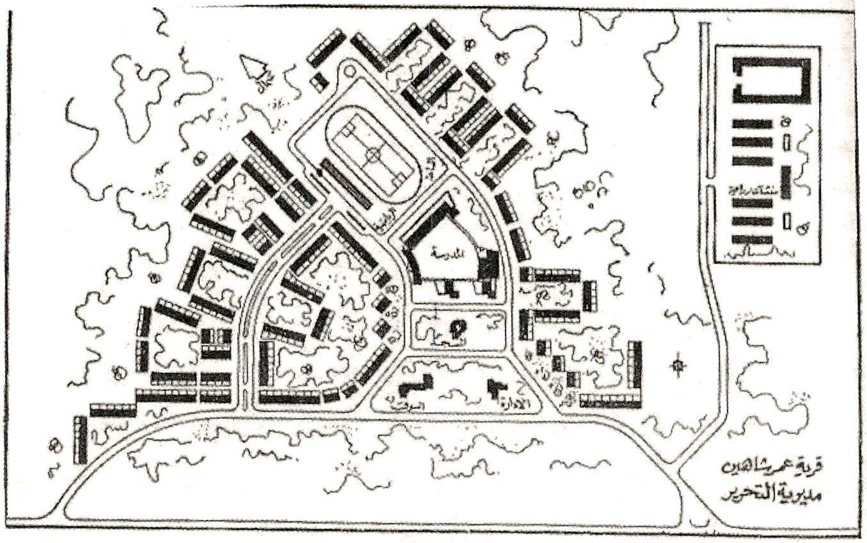
خريطة مديرية التحرير (من وزارة استصلاح الأراضي ١٩٦٩، ٧٧)

وكانت عمليات التوطين في مديرية التحرير بدون تمييز بأي شكل من الأشكال. وبدأت لجنة التهجير في تدشين سياسة التهجير بعد استكمال قرية عمر شاهين، وهي القرية الثانية في المديرية، وبعدها انتقلت اللجنة إلى محافظة المنوفية (وهي أكثر المحافظات كثافة سكانية في الجمهورية) من أجل اختيار المجموعة الأولى من المواطنين الذين سيشغلون المجتمع الجديد (بسيوني ١٩٧٢، ١٧٩-٨٧). وكان يتعين على المهاجرين تحقيق العديد من الشروط من أجل الصلاحية للهجرة، مثل محو الأمية، والحالة الصحية والبدنية الجيدة، وخلو صحيفة الحالة الجنائية من السوابق، والخبرة الزراعية أو اليدوية (أبوزيد غير مؤرخة، ٥٥-٥٧؛ العبد ١٩٧٩، ٩٤). وكان يتم اختيار الأسر بواسطة اللجنة لخوض الاختبارات الطبية والنفسية والمهنية المؤهلة للقبول. وتحدثت "دورين وارينر" مع مجموعة مختارة من المهاجرين الذين تم توطينهم في مديرية التحرير، فتقول على لسان الرائد جمال ذكي، مدير قسم الشئون الاجتماعية:

> **"يتم اختيار المهاجرين على أسس علمية وطبقًا لاختبارات اجتماعية وطبية ونفسية... فمن بين ١١٠٠ طلب تم تقديمه حتى الآن، وكلهم يتمتعون بالحقوق الاجتماعية، ولكن ٣٨٢ عائلة فقط تم قبولها من الناحية الطبية، لأنه بينما كان الرجال مقبولين من الناحية الصحية، فإن السيدات والأطفال لم يحققوا المستويات الصحية المطلوبة. واجتازت ١٨٠ أسرة فقط من بين هؤلاء كافة الاختبارات السيكولوجية.. ومن هؤلاء يخضع الآن ١٣٢ أسرة لفترة تدريب مدتها ٦ أشهر، والتي تتضمن ثلاثة أشهر تحت الاختبار. "إننا نعتبر أن كلا من البشر والأرض هم قيد الاستصلاح". (وارينر ١٩٥٧، ٥١)، أضيفت تأكيدات لهذا الأمر.**

ونُفذت أول عملية تهجير للأسر في يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٥٥، عندما نُقلت ١٣١ عائلة إلى مديرية التحرير، وتبعتهم ثلاثون أسرة في ١ فبراير ١٩٥٧ (بسيوني ١٩٧٢، ١٨٣). وقيل على لسان واحدة من السيدات المُهْجرات:

> لقد قاموا باختيار رجل وزوجته لزيارة الأماكن الجديدة، وتم اختيارنا أنا وزوجي، وذهبنا مع عمدة قريتي أم صابر وعمر شاهين وشاهدنا الجاموس، والأبقار، والدجاج، والمنازل، لقد انبهرنا تمامًا بالمشروع، كما رأينا البيوت الأسمنتية المشيدة بالطوب الأحمر والتي سوف نعيش فيها بدلاً من البيوت الطينية. وعدنا إلى القرية ونحن في ذهول تام مما رأيناه وبدأنا نقص على الآخرين ما رأيناه في الأماكن الجديدة، النظافة والبيوت المزودة بالمياه والكهرباء، والأثاث الذي لم نكن نمتلكه على الإطلاق، والأهم من ذلك كله الأفدنة الخمسة التي سوف نتملكها. صبية (١٩٨٧، ٣٤).



رسم تخطيطي لقرية عمر شاهين (من وزارة استصلاح الأراضي ١٩٦٩، ٧٩)

وكان يتم تدريب المواطنين عند وصولهم أولاً في قرية عمر شاهين، وبعدها يتم نقلهم إلى قراهم الجديدة. وقام الخبراء الاجتماعيون (بمن فيهم الأخصائيون الاجتماعيون والعاملون في مجال الصحة العامة) بتنظيم برامج دورات تدريبية مكثفة للمهجرين من أجل تسهيل تأقلمهم الذهني والعملي في بيئتهم الجديدة. وكان يتم عقد التدريبات الاجتماعية على المستوى الفردي والعائلي والجماعي، وكان الاهتمام ينصب على تعريف وأقلمة المهجرين على مبادئ الثورة وعلى المجتمع الجديد وأسلوب حياتهم من خلال الوسائل العملية والفكرية، كالمحاضرات، وبرامج الإذاعة، والبرامج الثقافية، والعديد من المطبوعات (أبوزيد غير مؤرخة، ٥٤-٦٧؛ الحمامي ١٩٩٩).

وكانت التدريبات والتعليمات مكثفة تمامًا وواضحة وكانت تشمل مجالات التعليم الابتدائي والمهني، والعناية بالطفل، والعناية بالمنزل، وقواعد الصحة والنظافة، وطبقًا لكلمات ذكي: "فإن كل شيء كان منظمًا، ومرتبًا بعناية وفريدًا من نوعه". وكان هناك نظام يومي للمهجرين الجدد، يرتدون أزياء موحدة، ويترك كل الأطفال أمهاتهم عند عمر سنتين للالتحاق بالحضانة. وكانت المديرية تشتمل على مركز للخدمات الاجتماعية التي تهدف إلى تقديم الخدمات التدريبية المناسبة والضرورية "لرفع مستوى قدراتهم الإنتاجية"، ويقوم الأخصائيون الاجتماعيون بالإشراف الفعلي على كل نواحي حياتهم الاجتماعية بما في ذلك الرياضة واستخدام أوقات الفراغ (وزارة استصلاح الأراضي ١٩٦٩، ٣٤-٧٠؛ أبوزيد غير مؤرخة، ٥٤-٦٧؛ الحمامي ١٩٩٩).

وكان المهاجرون يتلقون هذه العناية الشاملة لمساعدتهم على التأقلم على ظروف بيئتهم الجديدة والتشجيع على المجهود الذاتي والقدرة على إدارة شئونهم الخاصة. وكانت كل الجهود التي تبذل في الحياة اليومية العادية مثل تحية العلم وطابور الصباح، تهدف إلى بث روح الجماعة والإدراك الواعي بالمبادئ والأهداف المشتركة. وحتى الزي الموحد كان يستهدف خدمة غرض محدد- وهو تحاشي الفروق بين الأفراد وخلق إحساس بالمساواة (أبوزيد غير مؤرخة ٦١-٦٢). وكان على المجتمع الجديد، فوق كل شيء أن يقوم بتعزيز روح المساواة. وتقول مذكرات أحمد الحمامي، وهو مهندس عمل تحت قيادة مجدي حسنين إن فكرة أن المرأة شريك كامل في العمل كان من بين أكثر المؤشرات وضوحًا في الحياة في مديرية التحرير (الحمامي ١٩٩٩). وطبقًا لما تذكره حكمت أبوزيد، وهي من علماء الاجتماع البارزين والتي قامت بدور بارز في المشروع، كما قامت بعمل دراسة شاملة عن مدى التأقلم الاجتماعي، وكان الهدف المقصود

أن يرى المهجرون الدولة بعيون أخرى. ليس كجهاز قمعي مألوف بالنسبة لهم في الجيش، والشرطة، والمحاكم، وفي روح السيطرة؛ ولكن بدلاً من ذلك يتمثلون الدولة في أوجه التدريب المهني، والأخصائي الاجتماعي، والمهندس الزراعي وجميعهم يتقاسمون نفس الهدف من التعاون الجماعي (غير مؤرخة، ٦٢). ويتذكر واحد من المهاجرين الأوائل فيقول:

> ويوضح مصطفى الأمر برمته قائلاً لقد كان هناك الكثير من الاهتمام من الموظفين الحكوميين عندما انتقلوا في البداية. وكانوا يعرفون مشاكل المهجرين ويبذلون كل الجهد في حلها، وكانت هناك تجمعات منتظمة بعد الغروب حيث اعتاد الناس على الجلوس معًا للتعرف على بعضهم البعض. ويبدأ كل شخص بتقديم نفسه إلى مجموعة صغيرة من عشرة أفراد. ويذكر كل فرد للآخرين عن المكان الذي قدم منه، ولماذا، وعن أسرهم، وهكذا. وبعدئذ تبدأ هذه المجموعة المكونة من عشرة أشخاص في مقابلة وتبادل الأفكار مع مجموعة مثيلة، وفي النهاية يتعرف كل شخص على الآخرين بالاسم والمكان الذي أتى منه. ثم بعد ذلك يكون هناك تجمع شامل لكل المجموعات على مسرح القرية. ويتكلم كل شخص، وتُعطى الفرصة لكل من لديه مشكلة ليتحدث عنها ويشاركه الآخرون في إيجاد حلول لها بطريقة جماعية. ويشارك الجميع بعضهم البعض في الوجبات.. كما يمنح المشروع ملابس للمواطنين... تشبه "تمامًا ملابس أهل المدن". كما كانت هناك سيدات أخصائيات اجتماعيات تقمن

بزيارة السيدات في المنازل وتعليمهن كيف يقمن بطهي الطعام وكيف يحتفظن بنظافة المكان. (Hopkins et al. 1988, 68).

وعلى الرغم من ذلك، لم يعمر إشراف مجدي حسنين على المشروع طويلاً، فقد كان عمر المشروع قصيرًا، وأحاطت به المشاكل الإدارية وأحقاد المناوئين السياسيين من كل جانب. وبعد مناقشات عاصفة في الجلسة الافتتاحية للاتحاد القومي والتي جرت وقائعها في نوفمبر ١٩٥٧، تم طرد حسنين نصير باعتباره النموذج الاشتراكي الذي يرتبط بخيوط واهية بالنموذج السوفيتي والملكية الجماعية للأرض، وحل محله سيد مرعي، والذي كان يشغل آنذاك منصب رئيس اللجنة العليا للإصلاح الزراعي والمسئول عن إعادة توزيع الأراضي، وهو نصير أقل تطرفًا بكثير لنمط الملكية الصغيرة *(Springborg 1979, 55; El Hammami 1999)*. وكانت الأيام الأولى لمديرية التحرير، تمثل بوضوح محاولة تجريبية لخلق مجتمع ريفي جديد قائم على المبادئ الاشتراكية. وبالرغم من التشهير الذي لحق بمجدي حسنين عن طريق الصحافة (حيث اُتهم بأنه شيوعي بنكهة برجوازية، فإن الكثيرين من أولئك المتوطنين يتذكرون بطريقة مؤثرة أيام مجدي حسنين كأفضل أيام حياتهم في محاولة منهم لتصحيح ظلم السجلات التاريخية (الحمامي ١٩٩٩). وبنص كلمات أحد هؤلاء المواطنين:

لم يستقر مجدي حسنين طويلاً في مديرية التحرير. فقد غادرها في عام ١٩٥٧ في أعقاب المعركة التي ثارت بشأنه. وقامت الصحفية راوية عطية باستغلال ذلك وادعت أن مجدي حسنين يقوم بإنشاء جمهورية جديدة في المديرية. ولأن المواطنين المهاجرين أحبوه، وكانوا يقدرون ما يفعله من أجلهم، فإن البعض خارج المديرية قد خالجتهم أحاسيس بأنه يقوم بحشد الفلاحين ضد نظام الحكم، وأنه يمكن أن يقوم بتكوين قوة مسلحة في مديرية التحرير من أجل

> **الاستيلاء على السلطة. ولقد كنا نشعر بحزن بالغ حينما اضطر للمغادرة، لقد فعل الكثير من أجلنا، ونحن فقط القادرين على الحكم عليه ومنحه ما يستحقه من ثناء. (صبية ١٩٨٧، ٣٩).**

وبعد أن تولي سيد مرعي المسئولية، من ناحية ثانية، فإن زمرة من نظام الحكم من اليساريين (علي صبري وعبد المحسن أبو النور) وقفوا بالمرصاد لسيد مرعي ونجحوا في مسعاهم وقاموا باسترداد السيطرة على المديرية في عام ١٩٦١ تحت إدارة عبد المحسن أبو النور، والذي حذا حذو نمط مزارع الدولة السوفيتية، مما جعلها تنال تشجيع نيكيتا خروشوف في زيارته لها في مايو ١٩٦٤ ***(Springborg 1979, 55-60; El Hammami 1999)***. وقام السادات بتطهير زمرة أنصار اليسار بعد وفاة عبد الناصر (من أمثال علي صبري) وبدأ في تجربة أنماط مختلفة من استصلاح الأراضي (بما في ذلك منح قطع الأراضي إلى المهندسين خريجي المدارس الزراعية)، ولكن في النهاية تم حل الهيئة المصرية لتطوير واستغلال الأراضي المستصلحة في عام ١٩٧٦، وتأسست بدلاً منها شركات قطاع خاص مستقلة مثل شركة جنوب التحرير من أجل الإشراف على استصلاح الأراضي ***(Voll 1980, 139; Hopkins et al. 1988, 9)***. وكانت هناك مقترحات بأن تباع الأرض ببساطة لشركات استثمار مشترك زراعية، وكانت واحدة من شركات الاستثمار هي الصناعات الزراعية العربية الأولى، واتخذت لنفسها عشرة آلاف فدان في جنوب التحرير ***(Hopkins et al. 1988, 9-10)***. وبحلول عام ١٩٧٠ فإن الأرض التي تم استصلاحها بواسطة الدولة تم تجزئتها وبيعت كأجزاء من خمسة إلى عشرين فدانًا لكل حصة بأسعار مدعمة، وآلت في النهاية إلى شركات استثمار فردية أو مشتركة، مثل شركة كوكاكولا والتي قامت باستئجار مساحات شاسعة من

الأرض لمزارع على غرار المشاريع التجارية الزراعية *(Hinnebusch 1985, 143)*.
وهكذا تحولت الدفة في سنوات الانفتاح من اتجاه الملكية العامة إلى التأكيد على الملكية الخاصة للأرض؛ ولكن الأكثر أهمية من ذلك، بعيدًا عن النمط الكلي لبناء مجمعات للمستوطنين من أجل استصلاح الأراضي، والاتجاه ببساطة إلى التوسع الزراعي من خلال قطع أكبر من الأراضي من خلال مشروعات كثيفة في رأس المال. وكان مشروع مديرية التحرير بالرغم من ذلك نمطًا لمفهوم في استصلاح الأرض والرعاية الاجتماعية تحت رعاية نظام الحكم الثوري. وأبرز ما هو لافت للنظر في مشروع مديرية التحرير، وما هو أكثر تميزًا لهذه المرحلة الخاصة لحقبة ما بعد الاستعمار، هو التأكيد على وضع التخطيط الاجتماعي العلمي والبيئة الفائقة النظام التي تم خلقها من أجل قاطنيها – ومعظمها يتركز على الرعاية، والصحة، والسلوكيات الصحية، والحياة التعاونية والتكاتف بين المهجرين. وكانت مشروعات الاستصلاح تستهدف، أولاً وقبل كل شيء خلق نمط جديد من تجمعات المواطنين، ويتبعها "إضافة وحدات جديدة منتجة للمجتمع"؛ وتحويل الأراضي المُهدرة إلى مصادر منتجة؛ وخلق أسر سعيدة من الفلاحين والعمال؛ وغرس أخلاقيات التعاونيات والمجتمع في أذهان الأفراد (وزارة استصلاح الأراضي ١٩٦٩، ٧–٨). وكانوا يستهدفون باختصار شديد بناء الرجال بنفس القدر الذي يستهدفون به بناء مجتمعات جديدة. والأكثر من ذلك، فإن جوهر هذه المجتمعات الجديدة كان هو مراقبة تكوينها وإدارة تطويرها بواسطة الدولة– وكانت هذه هي طبيعتها المخطط لها. ومثل تلك الملامح من اختيار المهاجرين بمعرفة الدولة؛ وتنظيم العلاقات بين الأفراد في إطار المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية، من أجل تحقيق أهداف الدولة في خلق نموذج من المجتمع، والتي كانت حقًا ابتكارات واعدة في سلطة الدولة (وزارة استصلاح الأراضي ١٩٦٩، ٢٤).

وتنتمي مشروعات استصلاح الأراضي في الحقبة الناصرية إلى نمط متناغم من الرعاية الاجتماعية، تحمل فيها المشروعات المكانية مفاهيم قيمة من حيث نشر الثروة، والصحة، والعادات الصحية، والإنتاجية من خلال الجهاز السياسي. وكان التركيز على إعادة بناء الأبدان والعقول: وبناء وتنظيف القرى، والمنازل، والأطفال، وهكذا يتم بناء مصر جديدة من خلال خطط اجتماعية شاملة تبحث عن ضبط وتنظيم الحياة اليومية للفلاحين والسيدات من خلال تقديم إرشادات لهم عن كيفية الحفاظ على صحة أبدانهم، ومنازلهم، وأطفالهم. وكانت هناك العديد من المؤسسات والعوامل الفاعلة (تتراوح ما بين نخبة أهل الفكر إلى المبادرات التي ترعاها الدولة بنفسها عن طريق وزارة الشئون الاجتماعية) مندمجة في سياسات "تنظيم الرعاية الاجتماعية". ولم يكن معنى استيلاء هاجس الرعاية الاجتماعية على أجهزة الدولة يشير إلى عملية عديمة الضرر، وميالة للخير، والتي بموجبها تقوم الدولة برعاية مواطنيها من أجل رفاهيتهم الخاصة. ولكنها تشير بوضوح وبالتحديد إلى عملية اجتماعية وسياسية تقوم بإعادة بناء علاقات اجتماعية خاصة، كتلك التي بين المدينة وأهل الريف، وذلك بغرض ضمان إعادة تأسيس القوى العاملة والتقليل إلى أدنى حد ممكن من العداء بين الطبقات - وبناء أُسر سعيدة من العمال والفلاحين (وزارة استصلاح الأراضي ١٩٦٩، ٧). ومن داخل إطار الرعاية الاجتماعية يمكن للمصلحين الاجتماعيين والخبراء في الحضر قيادة رجال ونساء الريف (والذي يُنظر إليه كمصدر للثروة والهوية القومية) من أجل ممارسات إصلاحية (في الصحة، والعادات الصحية، والعمل) من أجل الوصول إلى بنية سكانية تتمتع بالصحة، والقدرة على الإنتاج، والكفاءة بما يتناسب مع التقدم في العصر الحديث. وكان رجال التخطيط والأكاديميين في الدولة طوال تلك الحقبة مقتنعين بطريقة حاسمة بأن "السكان" أنفسهم هم الثروة القومية التي يجب زرعها في المناطق الريفية (في رأي الأكاديميين من قلب القاهرة)، أكثر منهم كمصدر للخطر يجب السيطرة عليه (أبو زيد غير مؤرخة؛ حسنين ١٩٧٥؛ ذكي غير مؤرخة، ١٩٦٤).

الحياة الحضرية تحت ظلال الدولة الثورية

وقد كُتب الكثير عن الميراث الإمبريالي للقاهرة – والتحول الهادئ تحت حكم محمد علي وإعادة تدعيم البنية التحتية والفراغات المكانية للمدينة في حقبة حكم الخديوي إسماعيل في النصف الثاني في القرن التاسع عشر (أو ما يشير إليه البعض بمصطلح "هوسمنة" القاهرة – على غرار تحديث باريس بواسطة المهندس إيوجين هوسمان في عهد نابليون الرابع) ***Abu-Lughod 1971; Agha Khan 1985, 91-113; Mitchell 1988***. وبينما تشير الكتابات المبكرة في مطلع القرن بأن تحويل مدينة القاهرة إلى مدينة مزدوجة – فإن إنشاء جزء من قلب مدينة أوروبية بالمقارنة بالمربعات السكنية المحلية التقليدية – فإن هذه الثقافة أصبحت الآن محل تساؤل (فهمي ٢٠٠٢). وعلى الرغم من ذلك فيتفق الباحثون على أن مطلع القرن تميز بتخطيط وتطوير العديد من الأحياء السكنية في القاهرة، مع بلوغ الذروة في أنشطة البناء – سواء في المشروعات واسعة المدى والتي استهلتها شركات تطوير الأراضي الأجنبية، والمشروعات صغيرة المدى بواسطة المنشآت الفردية – بين عامي ١٨٩٠ – و ١٩٠٧ ***(Agha Khan 1985; Raymond 2000; Volait 2003)***. ويعتبر المشروع السكني المتميز لحي قصر الدوبارة (تسعينيات القرن التاسع عشر)، وحي جاردن سيتي وحي الزمالك (١٩٠٥ -١٩٠٧)، وحي مصر الجديدة (١٩٠٦)، وحي المعادي (١٩٠٦) من بين هذه المشروعات السكنية البارزة التي تم تطويرها في هذه الحقبة ***Agha Khan 1985; Ilbert 1985; Raymond 2000; Volait 2003***.

وتم تحقيق عمليات التطوير هذه من خلال تدفقات وتوسعات في بنية أساسية ممولة من رؤوس أموال أجنبية لنظم الترام، والكباري، والطرق، والصرف الصحي، وشبكات الكهرباء؛ ولكن في نفس الوقت على حساب ما كان يُطلق عليه "المدينة

القديمة" والسكان ذوي الدخل المنخفض (Agha Khan 1985, 95-97). وبحلول مطلع القرن العشرين ظهرت في مدينة القاهرة مناطق متفاوتة من حيث التطور. وشهدت الفترة ما بين نهاية الحرب العالمية الأولى وبداية الحرب العالمية الثانية تدهورًا متسارعًا في الظروف السكنية، مع زيادة الكثافة الملحوظة بصفة خاصة في المناطق المختلطة للطبقة المتوسطة والأحياء التقليدية (القاضي ١٩٩٠، ١٨٦-٨٧). وأدى هذا التدهور، بالإضافة إلى تزايد معدل الهجرة من الريف إلى الحضر والتحول البرجوازي المتزايد للمناطق التي كانت تمثل القطاعات الأجنبية في القاهرة، إلى وضع إسكاني متفاوت، أصبحت فيه الأحياء القديمة والمقابر المجاورة لها تتميز بعدم وجود المرافق الأساسية أو عدم كفاءتها والازدحام الشديد فيها، بالمقارنة بالأحياء الجديدة للمدينة بمبانيها الجديدة المنشأة حديثًا والمزودة بالخدمات الأساسية المختلفة (أغا خان ١٩٨٥، ٩٥-٩٨؛ القاضي ١٩٩٠، ١٨٦-٨٧).

وباختصار فقد تميزت الفترة ما بين نهاية الحرب العالمية الأولى وبداية الحرب العالمية الثانية بإهمال التركيز على المناطق الحضرية؛ وعلى الرغم من تأسيس المجلس الاستشاري الأعلى للتخطيط في عام ١٩٢٩، والقيام بإعداد خطة عامة لمدينة القاهرة تمت الموافقة عليها في عام ١٩٣٢، فقد كانت الخطط أقل اتساعًا في مجالها وتتسم بالبطء الشديد في تنفيذها (Volait 2003). ولم توضع عملية إنشاء مجلس محلي حضري مستقل لمدينة القاهرة موضع التنفيذ في حقيقة الأمر إلا بعد حلول عام ١٩٤٩ (Volait 2003, 38; El Kadi 1990, 187). ومن الجدير بالإشارة أن من بين المشروعات التي تم اختيارها بالفعل لوضعها موضع التنفيذ، تلك التي تم وضعها لمدينة المهندسين، وكانت الخطط كثيفة وواسعة المجال – ولم تكن تستهدف نمو المدينة على وجه التحديد، ولكنها كانت تمثل في الواقع المساحات المتزايدة للسكنى في الحضر (Volait 2003).

ويتم إدراك هذه الأزمة الحضرية، في أبحاث التخطيط الحضري كمشكلة إدارية في الجانب الأكبر منها، وهو الإرث الحضري الذي آل إلى نظام الحكم الناصري. وبدأت على هذا النحو الخطة الرئيسية الأولى لتخطيط مدينة القاهرة في عام ١٩٥٣ واستكملت عام ١٩٥٦ ووضعت موضع التنفيذ عن طريق مجموعة من المهندسين المصريين الذين تلقوا تدريبهم في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى وكانت تستهدف بوضوح علاج هذه المشاكل الحضرية المستعصية (القاضي ١٩٩٠، ١٨٧-٨٨). وكانت فكرة التخطيط، وعلى وجه التحديد الطبيعة العلمية للتخطيط الاشتراكي، واحدة من المجالات التي نالت انتشارًا عظيمًا في حقبة ما بعد الاستقلال تحت حكم عبد الناصر. وتم تدشين الخطة الرئيسية الأولى لتخطيط مدينة القاهرة بغرض تجميع المعلومات التي تخص "التوزيع السكاني، وأحوال العمالة، ومشاكل النقل والاتصالات، والشوارع، والطرق السريعة" *(Abu-Lughod 1971, 229)*. وكانت الاستفاضة في تفصيلات خطة رئيسية لمدينة القاهرة جزءًا لا يتجزأ من هدف أكبر لتحسين المعلومات وبالتالي إحكام السيطرة على حقيقة الواقع الحضري الذي ورثه النظام الناصري (القاضي ١٩٩٠، ١٨٨). ومن ناحية المضمون، وعلى نمط مشابه لتلك التي سادت في حقبة ما بين الحربين العالميتين، كانت الخطة ترمي إلى شمول نمو أقل للمدينة، وأكثر لزيادة المناطق الحضرية من خلال تطوير المناطق الصناعية- وهي السياسة التي سوف تواجه فيما بعد بانتقادات حادة من مخططي التطوير الحضري في حقبة الانفتاح الاقتصادي.

وكانت الخطة الرئيسية الأولى تستهدف خلق مناطق صناعية في التخوم المجاورة مباشرة للقاهرة: ست مدن صناعية صغيرة تابعة (كمدن للعمال) تم التخطيط لها في حلوان، وشبرا الخيمة، وإمبابة، والجيزة، والتي ستحصل على ٥٠% من مخصصات الاستثمارات الصناعية في الخطة الخمسية الأولى (١٩٦٠-٦٥)

(Agha Khan 1985, 97-98). "يجب أن يتم تطوير هذه المدن الست كمدن صناعية تابعة، متمتعة بالاكتفاء الذاتي من حيث الخدمات العامة التي تتمتع بها. ويخشى أن تعم الفوضى إذا ما تعذر ذلك" (مقتبسة من الخطة الرئيسية كما أثبتها القاضي ١٩٩٠، ١٨٩-٩٠). وكانت هذه المدن التابعة تستهدف اقتحام مشكلة ربط العمال ومواقع العمال بأماكن معيشتهم بدون المساهمة في تفاقم مشكلة النقل والمواصلات والتي تعاني من الإرهاق بالفعل. وتزامنت خطط تطوير المراكز الصناعية المتاخمة للقاهرة مع توصيات بخلق مراكز صناعية جديدة حول منطقة قناة السويس ومناطق خام الحديد في الوجه القبلي (القاضي ١٩٩٠، ١٩٠). واقتصر الأداء الحكومي، على الرغم من ذلك، على واحدة فقط من المدن الصناعية التابعة وهي: حلوان، والتي تحولت إلى مدينة عمالية بقاعدة صناعية ثقيلة وواحدة من أكبر مشروعات الإسكان في مصر في ذلك الوقت (أبو لحود ١٩٧١، ٢٣١-٣٢؛ القاضي ١٩٩٠، ١٩١). وبدأت تتشكل ملامح التدخل الحكومي عن طريق الاستثمار في البنية التحتية بالإضافة إلى المباني السكنية، وعلى وجه الأخص خطط إنشاء المساكن الشعبية، والتي بدأت ملامحها تظهر في تلك الحقبة. وكانت برامج الإسكان العامة يتم تنفيذها سواء على شكل وحدات سكنية للإيجار، أو ملكية بأسعار تعاونية (أبو لحود ١٩٧١، ٢٣٠-٣٢؛ الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦٠، ٦٦٧-٦٩: القاضي ١٩٩٠، ١٩٢). وكانت تتكون بصفة أساسية من وحدات سكنية منخفضة التكاليف ومدعومة بشكل كبير وتقع بالقرب من المراكز الصناعية (الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦٠، ٤٨٣-٨٤).

وأوضحت الدولة الثورية عندئذ، دورها بوضوح كمانحة للوحدات السكنية المنخفضة- والمتوسطة التكاليف، والتي كانت غير متاحة فيما سبق لجموع السكان. وكانت الخطة الخمسية ١٩٦٠-٦٥، شأنها شأن مطبوعات وزارة الإسكان والمرافق واضحة كل الوضوح في تخطيطها لمشروعات الإسكان الحضرية وفي

إدانتها الواضحة لإهمال الدولة في حقبة ما قبل الثورة في منح مساكن صحية في متناول دخول المواطنين والذين كانوا يعيشون آنذاك في ظروف "سكنية غير طبيعية" (وزارة الإسكان والتنمية ١٩٦٥، ٣٥ - ٥٣). وقام مخططو الإسكان الحضري بالربط بين التدهور في الأوضاع السكنية، مع عمليتي الزيادة السكنية، والهجرة الداخلية من الريف إلى الحضر، من جانب، والدوافع الاستغلالية للقطاع الخاص في إنشاء وحدات سكنية فاخرة، وأخرى لذوي الدخول المرتفعة من جانب آخر (وزارة الإسكان والتنمية ١٩٦٥، ٣٥ - ٣٦). وتميزت الأنماط الجديدة من مباني المساكن العامة في الغالب بالأنماط المشابهة لما يطلق عليها "بلوكات خروشوف": وهي تتكون من خمسة إلى ستة طوابق من الوحدات السابقة التجهيز وبدون مصاعد، والمشابهة إلى مشروعات المجمعات السكنية السوفيتية الضخمة (كاستيلو ١٩٩٢، ٢٨١؛ وزارة الإسكان والتنمية ١٩٦٥، ٦٠ - ٧١). (يمكنك الرجوع إلى مساهمة الغنام في هذا الكتاب من أجل مناقشة تفصيلية لمشروعات القطاع العام والخاص في الزاوية الحمراء).

وكان المشروع الرئيسى الآخر الذي تم تنفيذه أثناء الحقبة الناصرية هو تطوير مدينة نصر، وتم التخطيط له في عام ١٩٥٨ (أبو لحود ١٩٧١، ٢٣٣). وتم التخطيط لإقامته في هضبة صحراوية، وكان الهدف من إنشائه أن يكون مدينة للإدارات الحكومية، تضم كل الوزارات الرئيسية في الدولة، كما تضم تسهيلات سكنية وإدارية من أجل موظفي الجهاز الحكومة الآخذ في النمو (القاضي ١٩٩٠، ١٩١-٩٢). وبذلك تُجسد مكانيًا المفهوم الحكومي للقاهرة كمركز للتخطيط التكنوقراطي. وقد نُفذ المشروع بالتعاون المشترك بين وزاراتي الإسكان والدفاع (أبو لحود ١٩٧١، ٢٣٣-٣٤). وأنشأ المهندسون المعماريون (بمن فيهم محمد رياض، الرئيس السابق لبلدية القاهرة) خطة موقع المدينة شاملة العديد من المواقع الخدمية للاستخدام العام قريبًا من تجمعات: (١) إدارية - للمؤسسات (وزارات،

إستاد، أرض للمعارض الدولية)؛ (٢) صناعية، ترفيهية وتعليمية (مصانع، كليات جامعية، مناطق ترفيهية)؛ (٣) استخدامات سكنية (تجمعات سكنية للعمال والموظفين؛ إسكان عائلي متعدد للمجموعات ذات الدخول المتوسطة والمنخفضة) (وزارة الإسكان والتنمية ١٩٦٥، ٥٤-٧١؛ أبو لحود١٩٧١، ٢٣٢ - ٣٦).

وكانت خطط تطوير المدن والمناطق الصناعية إبان حكم عبد الناصر تساير وعلى نفس الوتيرة المتسارعة المحاولات الطموحة لنظام الحكم نحو التصنيع، كما هو الحال أيضًا بالنسبة للتوسع الزراعي. وكان التركيز ينصب على الإدارة العلمية الرشيدة التي تتميز بالكفاءة في الإنتاج والاستهلاك (بالنسبة للإدارة، والزراعة، والصناعة) وبما يتماشى مع إجراءات نمط الرعاية الاجتماعية. كما كانت كل الاستراتيجيات المكانية لتلك الحقبة تقوم بالتركيز على الإدارة الرشيدة للعلاقة بين النمو السكاني وتنظيم الأجهزة الحكومية والإنتاج في الحيز المكاني. وكانت كل العناصر الوظيفية للتحديث متوافرة: التنظيم الرشيد للفراغات المكانية مما يسمح بإدراجها ضمن حلقات أكثر كفاءة للإنتاج والمنازل ذات التصميم العالمي الشهير باسم لوكوربوزييه *(لوكوربوزييه – على اسم المعماري السويسري الشهير شارل إدوار جانيريه – صاحب عمارة الحداثة في تصميم المدن المزدحمة– المترجم)* كوسيلة للمعيشة.

ويكمن الفارق الجوهري بين قواعد نمط الرعاية الاجتماعية، ونمط الليبرالية الجديدة والذي بزغ بعد الانفتاح الاقتصادي، على وجه الخصوص، في تحول علاقة الدولة بالتطور الحضري، والكتلة السكانية (مفهوم السكان)، والمناطق الريفية النائية. وتم توجيه مشروعات استصلاح الأراضي الشاملة، ومشروعات الإسكان الحضرية طبقًا لقواعد نمط الرعاية الاجتماعية تجاه تطوير المجتمعات الكلية (باستهداف الكتل السكانية – وبالتحديد الفلاحين والعمال) وغرس مفاهيم الاشتراكية وأخلاقيات المساواة في أذهان الأفراد. وفضل الأكاديميون في الدولة

التوسع الريفي والتنمية (الذي يعتبر من وجهة نظرهم محور ثروة الدولة)، بينما أصبح الحضر ناتج التجاهل غير الخطر. وتبدلت سياسة توطين السكان في ظل الانفتاح الاقتصادي، حيث إن هناك عوامل أخرى محلية وعالمية جديدة قد ميزت إنتاجية اقتصاد الحضر والتطوير الاجتماعي الاقتصادي. وبدأ استهداف الكثافة السكانية في الحضر بعد الانفتاح في حقيقة الأمر، وبطريقة حاسمة، عندما اقترح الأكاديميون ومخططو المناطق الحضرية تطوير التخوم الصحراوية والمدن التابعة كحل للوصول إلى نوع من اللامركزية في القاهرة. وكان هذا التحول يستهدف بناء مدن جديدة "وإعادة توزيع المقدرة الإنتاجية للسكان" (وزارة التخطيط ١٩٧٨). وباختصار فإنه يمكن أن يُنظر للتحول للانفتاح الاقتصادي *كتحول من أخلاقيات التوسع الريفي إلى أخلاقيات إعادة التوسع الحضري*.

البحث عن خريطة لإعادة التوزيع

كانت نهاية الحقبة الناصرية نتاجًا مركبًا لكل من صراع الأيديولوجيات والطبقات من خلال السعي الدءوب للنظام عن الاشتراكية، وبين الصراعات السياسية الخارجية، وبالتحديد حرب عام ١٩٦٧ مع إسرائيل. وتم تدشين سياسات الانفتاح الاقتصادي عن طريق ورقة العمل الرئاسية لأنور السادات "ورقة أكتوبر ١٩٧٤"، في محاولة منه لخلق عملية تحول إلى اقتصاديات السوق الحرة ***(Hinnebusch 1985, 112-16)***. ومهد الانفتاح الطريق إلى مجموعة مختلفة من العلاقات الداخلية والعالمية تميزت بالتقارب العام مع رأس المال الأجنبي (أو ما تشير إليه ملك زعلوك "بتحركات رأس المال") وتدعيم القطاع الخاص من خلال مجموعة من الامتيازات الحكومية، ويعني ذلك عملية ثنائية من تحرير داخلي وخارجي ***(Zaalouk 1989, 75-94; cf. Boyer 1990; Harvey 1989; Lipietz 1986)***. ومن

بين الملامح المنظورة للانفتاح والتي تم تفعيلها من خلال سلسلة من الإجراءات التنظيمية بالإضافة إلى التحول العالمي في ظروف الرأسمالية: خلق ظروف مواتية لمشروعات الاستثمار الأجنبي (عادة على شكل مشروعات استثمار مشترك) وذلك من خلال قانون جديد للاستثمار شمل العديد من الامتيازات مثل الإعفاءات الضريبية للمشروعات الأجنبية؛ وتطبيق اللامركزية وحرية التجارة الخارجية إيذانًا بنهاية احتكار القطاع العام على التجارة الخارجية وفتح الاقتصاد أمام البضائع الأجنبية من خلال القطاع الخاص؛ وتدفق متزايد للمساعدات الأجنبية؛ والتحرير الحكومي للسياسات المالية؛ وإلغاء الشركات العامة القابضة والتي كانت مسئولة عن التخطيط، والتنسيق، والإشراف على القطاع العام وما تبع ذلك من اللامركزية في تخطيط الاقتصاد؛ وإضعاف قبضة الدولة على المنشآت العمومية من خلال تحرير الأجور وإجراءات التوظيف، فضلاً عن القيام بتسهيلات جزئية عن طريق إعادة تعريف القطاع العام، ومنح المزيد من الاستقلالية لإدارة القطاع الخاص (دسوقي ١٩٩١، ٢٥٩-٢٦٢؛ زعلوك ١٩٨٩، ٧٥-٩٤).

وكان الممثلون والمهندسون المهيمنون على الانفتاح يتشكلون من مجموعة من أعضاء قدامى الصناعة البرجوازيين الذين عمدوا إلى التسلل داخل أجهزة الدولة بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو؛ وأعضاء من الأكاديميين البرجوازيين الذين برزوا تحت حكم عبد الناصر (الطبقة العليا من نخبة البيروقراطيين والإدارة، والرتب العليا من الموظفين الحكوميين، وقادة وضباط الجيش، ومديرو شركات القطاع العام، وغيرهم)؛ والبرجوازية التجارية الجديدة التي استهلت أنشطتها التجارية مع الانفتاح الاقتصادي- وتجار الجملة، والمقاولون العموميون، والمصدرون، والمستوردون وغيرهم (زعلوك ١٩٨٩). ولم يكن من المقدر لسياسة الانفتاح

الاقتصادي أن تخرج إلى النور إلا بتوحد خطاب سياسي واجتماعي جديد، وبالذات الالتزام الأيديولوجي بإنتاجية الاقتصاد والتطوير الاجتماعي والاقتصادي. وفضلت نخبة الانفتاح الاقتصادي الجديد الحضر كمكان للتحول الرأسمالي - وهو الموضع المناسب بلا جدال للنخبة التجارية ومشروعات المضاربة (القاضي ١٩٩٠، ٢٠١).

ووضعت الخطة الرئيسية الثانية للقاهرة فيما بين عامي ١٩٦٦ و١٩٧٠ بواسطة لجنة القاهرة الكبرى (التي تم تأسيسها في عام ١٩٦٥)، وتم التصديق على تشكيلها بالقرار الوزاري الصادر عام ١٩٧٤، وقامت اللجنة باستحداث مفهوم منطقة القاهرة الكبرى وأوصت بالتخطيط لإنشاء مدن صحراوية (جورجي ١٩٨٥، ١٧٦-٨٢؛ الأمم المتحدة ١٩٩٠، ٩). وأوضحت هذه الخطة بجلاء التحول الجديد في نظام التكدس، والتي بلغت ذروتها بسياسات الانفتاح. ووضعت لنفسها الحدود بحسم من المرحلة الأولى للتخطيط لمدينة القاهرة، والتي ظهرت في أبحاث التخطيط الحضري وهي ترزح في عالم من الفوضى: مما يؤدي إلى توسع حضري عشوائي، جاذب للعمال النازحين والمقيمين بصفة غير شرعية في القاهرة، ويقوم باستنفاد الأراضي القابلة للزراعة، ويتجاهل شروط توافر البنية الأساسية والخدمات: وباختصار يؤدي إلى تفاقم المشكلة الحضرية (القاضي ١٩٩٠، ١٩٣-٢٠١؛ أغا خان ١٩٨٥، ٩٨-٩٩).

وأوصت الخطة بالسماح بهجرة دولية وتطوير المدن التابعة من أجل تخفيض الكثافة في "القطاعات المتخمة"؛ والحاجة إلى مزارع كبيرة كبديل لزراعة الكفاف في التخوم الريفية؛ وإعطاء حرية أكبر للقطاع الخاص في مجال التشييد والإسكان (القاضي ١٩٩٠، ١٩٣-٢٠١). وكانت النقطتان الأكثر بروزًا والملامح التي تتعلق بهما في الخطة هما: التوصية بتشييد مدن مكتفية ذاتيًا، والسيطرة على التكتلات السكنية المتواجدة آنذاك من أجل إنهاء التعديات على الأراضي المزروعة (جورجي ١٩٨٥، ١٧٨). ودُعمت فكرة المدن الصحراوية في ورقة العمل

الرئاسية التي قدمها الرئيس السادات كوسيلة للمحافظة على الأراضي القابلة للزراعة وإلغاء المركزية وتخفيف التكدس السكني في القاهرة (القاضي ١٩٩٠، ١٩٣-٢٠٠؛ حجاب ١٩٨٥، ١٧٢؛ الأمم المتحدة ١٩٩٠، ٩).

كما قامت بالتأكيد على الحاجة إلى استراتيجية للتطوير الحضري والتي ستقوم بإعادة رسم خريطة جديدة للسكان في مصر من خلال خلق مراكز حضرية جديدة مزودة "بأنشطة اقتصادية جديدة وخدمات أفضل حتى يمكنها أن تقوم بجذب الناس إلى حياة جديدة ومنتجة" بحيث يتم تشيدها بعيدًا عن الشريط الأخضر الضيق من الأرض" (حجاب ١٩٨٥، ١٧٢). وبدأ التخطيط للعديد من المدن الجديدة فيما بين عامي ١٩٧٥ و١٩٧٩، وقامت الحكومة في عام ١٩٧٩ بتشكيل هيئة المجتمعات العمرانية الجديدة (الأمم المتحدة ١٩٩٠، ٩). وينظم القانون رقم ٥٩ لسنة ١٩٧٩، سياسة المدن الجديدة. كما بدأت الحكومة في إنشاء ثمانية عشر مدينة في مصر، بما في ذلك المدن الجديدة المستقلة نسبيًا (مثل مدينة السادات، والعاشر من رمضان)، والمدن التابعة (مثل السادس من أكتوبر، و١٥ مايو)؛ كما قامت بخلق بيئة اقتصادية موائمة لاستثمارات القطاع الخاص واستخدام الخبرات الأجنبية. (القاضي ١٩٩٠، ٢٠٠).

وشملت جهود الحكومة لإغراء المواطنين على الإقامة في المدن الجديدة العديد من الحوافز، مثل مضاعفة الأجور لموظفي الحكومة، ودعم إيجارات المساكن للوحدات الصناعية والسكنية، ومنح إعفاءات ضريبية للصناعات الجديدة (الأمم المتحدة ١٩٩٠، ١٠). وبنص كلمات أحمد، وهو موظف حكومي في مكتب للعمليات والذي قَدم للحياة في العاشر من رمضان في عام ١٩٧٧ والذي يقول:

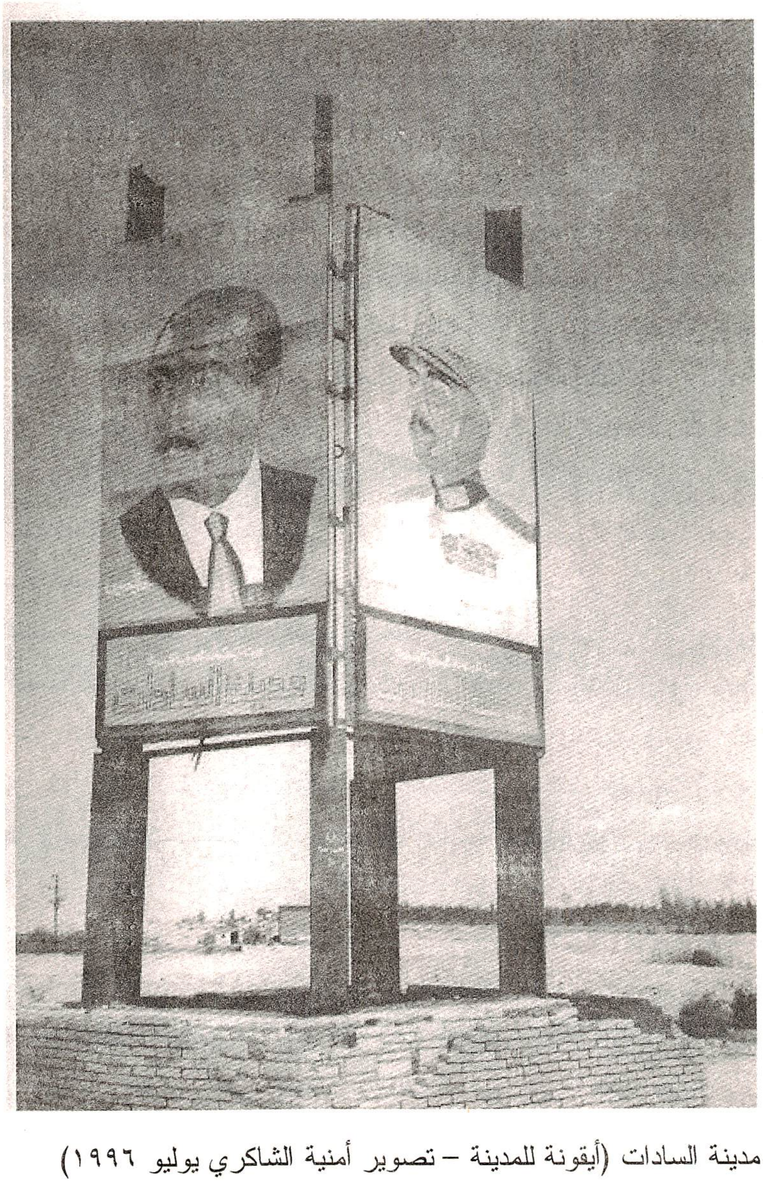
> **وتبذل الإدارة جهودا حثيثة... وتقوم بدفع موظفيها للانتقال إلى العاشر من رمضان، بتقديم إغراءات على شكل زيادة في مرتباتهم الأساسية تصل إلى ٦٠% كتعويض**

> للحياة في منطقة لم يتم تطويرها بالقدر الكافي. كما يتم إضافة نسبة ٤٠% من المرتب الأساسي أيضًا للموظف الذي يقبل بالانتقال للعمل في مناطق لم يتم تطويرها. ويقبل الموظفون الذين يكونون في حاجة إلى هذه الزيادة الشهرية بهذه الصفقة.(شفيق ١٩٩١، ٨٧).

وكان خلق هذه المدن يرتبط ارتباطًا مباشرًا بمشكلة الإسكان، والتكدس الحضري، والأمن الغذائي (صندوق الأمم المتحدة للسكان ١٩٨٠، ٢٥). وبدأت نخبة التكنوقراط لنظام حكم الرئيس السادات في أواخر سنوات السبعينيات من القرن العشرين في التعامل مع الكثافة السكانية لمدينة القاهرة، في حقيقة الأمر، كمشكلة يتعين التعامل معها (أو مقدرتها الاستيعابية)، تماشيًا مع السياسة السكانية القومية الرسمية لمؤسسة الإدارة وبرنامج التنمية السكانية والذي كان من المزمع بدايته في عام ١٩٧٣ *(Sayed 1989; SCFPP 1980)*، وطبقًا لما تورده للخطة الخمسية ١٩٧٨-٨٢:

> ويمكن الوصول إلى التحرر من عبء الزيادة السكانية على المدن المصرية، وتخفيض نسبة الزيادة السكانية في داخل مساحة الأرض المصرية الحالية: خارج المدن، وفي القرى الصحراوية وعلى سواحل البحر... تعاني مصر في الوقت الحاضر من عدد من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، ولكن المشكلة الأكثر تعقيدًا من بينها هي الكثافة العالية للسكان.. ومن الضروري مجابهة الأبعاد الحقيقية لمشكلة التوزيع السكاني داخل الحدود الوطنية. وهناك محافظات

مكدسة بالسكان لدرجة الاختناق، بينما هنالك مناطق أخـــرى شبه خاليه من السكان... ويمكن للتطوير أن يُحدث إقلالاً في إجمالي الكثافة السكانية في المساحات المشغولة في الوقــت الحاضر من خلال إعادة التوزيــع المنــتج للــسكان، (وزارة التخطيط ١٩٧٨، ٣٢، ٧٠-٧١).



مدينة السادات (أيقونة للمدينة – تصوير أمنية الشاكري يوليو ١٩٩٦)

وبدأ مخططو المناطق الحضرية في خلق تصور جديد لمدينة القاهرة في أواخر سنوات السبعينيات من القرن العشرين. وخضعت لتغيرات في تشكيلها من مجرد تصورها كمدينة مكتظة إلى تقييم جذري للمدينة وكأنها تبتلع وتستهلك ليس فقط الأراضي القابلة للزراعة، ولكن أيضًا النمو الاقتصادي (كفافي ١٩٨٠). وقامت الهيئة العامة للتخطيط العمراني (هيئة قومية تم إنشاؤها في عام ١٩٧٣ لأغراض التخطيط الإقليمي والحضري) من أجل مواجهة الإنذار بخطر تمدد القاهرة الخارج عن السيطرة إلى حد ما، فشرعت في صياغة مخطط رئيسى للقاهرة (القاضي ١٩٩٠، ٢٠١-٢). وشرع المخططون الحضريون للحكومة في معالجة الكثافة السكانية للحضر بطريقة أكثر منهجية من ناحية توفير وحدات سكنية في متناول الجميع، والحد من انتشار أحياء سكنية عشوائية، وذلك عن طريق تطوير المناطق الموجودة بالفعل (بدلاً من الشروع في بناء مساكن شعبية على نطاق واسع) ووضعت الأحياء العشوائية كهدف أساسي (أغا خان ١٩٨٥، ١٠٠). وتحددت الخطة الرئيسية لعام ١٩٨٣ بهدفين أساسيين: النمو الاقتصادي وتحسين بيئة المعيشة للسكان (الهيئة العامة للتخطيط العمراني ١٩٨٣، ٢,٢). وحافظت الخطة على المفهومين الرئيسين للخطة الأساسية لعام ١٩٧٠، وبالتحديد الشمول والمحافظة على الحجم المثالي لمدينة القاهرة (بإغلاقها)، وتطوير مجتمعات عمرانية سكانية جديدة قائمة بذاتها (مجتمعات جديدة ومدن تابعة)، وبباقي سكان القاهرة والمتوقع استيعابهم في التجمعات السكنية الجديدة (بنزوحهم خارج القاهرة). وطرحت الخطة أربعة مفاهيم مكانية جديدة فيما يختص بمنطقة القاهرة الكبرى: المنطقة الحضرية، والقطاعات المتجانسة، والتجمعات السكنية الجديدة في منطقة القاهرة الكبرى، وممرات التطوير (الهيئة العامة للتخطيط العمراني ١٩٨٣، ٢,١٠- ٢,١٦). وأعيدت صياغة مفهوم التجمعات السكنية الجديدة بالنسبة للخطة الرئيسية لسنة ١٩٨٣، حيث برهنت التجمعات السكنية الجديدة في بدايات إنشائها على تكلفتها الباهظة، وبتكلفة نقل عالية بالنسبة للسلع *Agha Khan 1985, 105; UN 1990, 12; Becard 1985, 183-87; Observatoire Urbaine 1993, 2*.



السـادس مـن أكتـوبر "أرض الثقافة والعلوم" (تصوير أمنية الشاكري يوليو ١٩٩٦).

وقد شملت:

(١) مدن جديدة (مدن مستقلة على مسافة مناسبة بحيث لا يضطر سكانها إلى تغيير وسيلة المواصلات للذهاب إلى العمل).

(٢) مدن تابعة (مشابهة للمدن الجديدة ولكنها تقع بالقرب من مركز المدينة من أجل الإقلال من الاستثمارات العامة والسماح لها بالاستفادة من مزايا موقعها).

(٣) تجمعات سكنية جديدة (ذات مناطق سكنية متطورة في أغلبها والتي تتمتع بميزة بقاعدة التوظيف المتواجدة وتقوم بتقديم بدائل للسكنى في التجمعات الرسمية) *Agha Khan 1985, 105-106; Observatoire Urbaine 1993, 2*.

ويعبر هنري ليفيبر عما تجاهد المجتمعات العمرانية لخلقه بقوله "الحد الأدنى للبداية الممكنة للحياة الاجتماعية – وهي النقطة التي قبلها تكون الحياة مستحيلة لأن كل ملامح الحياة الاجتماعية يمكن أن تختفي *(Lefebvre 1991, 216)*. وكانت معايير البناء في المدن التي تم بناؤها حديثًا منخفضة تمامًا، وبالذات للجماعات ذات الدخول المنخفضة، وبنص كلمات سائق يُطلق عليه عبده، وهو سائق في إدارة جهاز مدينة العاشر من رمضان:

> **أرغب فقط في أن يأتي المسئولون ويرون المكان الذي أقطنه وكيف أعيش مع زوجتي وأطفالي. ولكن عندما يأتي المسئولون للمدينة، ويتم بث الزيارة تليفزيونيًا، فإنهم يزورون مباني وشقق المديرين والرؤساء الكبار، ولكنهم لا يرون كيف يعيش الصغار من أمثالنا. (شفيق ١٩٩١، ١٤٣).**

ويمكن أن تبتلى المدن الجديدة بالأكثر من ذلك، بطبقية واضحة وتخطيط تنظيمي تقسيمي، يقوم بالفصل بوضوح بين الجماعات ذات الدخول العالية

والمتوسطة والمنخفضة، وغالبًا ما يتم فرض ذلك ويتكرر بواسطة جهـاز المدينة أو بواسطة السكان أنفسهم. وطبقًا لأقوال زوجة أحد المديرين في مكتب جهاز مدينة العاشر من رمضان:

ليس من المتصور أن يعيش الحارس في شقة بنفس المبنى معنا، فهؤلاء الناس لهم عادات ريفية، فهم يقومون بتربية الحيوانات والدواجن، وهم لا يعرفون النظافة، كما أن النساء والأطفال قد تعودوا على التسكع في الشوارع طوال اليوم. (شفيق ١٩٩١، ١٤٠).



العاشر من رمضان مربع سكني (تصوير أمنية الشاكري يوليو ١٩٩٦)



مدينة ١٥ مايو مربع سكني (تصوير أمنية الشاكري يوليو ١٩٩٦)

وتقوم هالة، وهي أخصائية اجتماعية في العاشر من رمضان بتحليل تقسيم المدينة إلى أحياء لكل طبقة اجتماعية على النحو التالي:

إنه من الواضح من خلال ملاحظة قواعد تخطيط المدينة –أن مجرد تقسيم المدينة إلى أحياء والتي يفترض أنها تمثل الطبقات الاجتماعية– وأن تنفيذ مفهوم التمييز بين الطبقات والتحيز الطبقي والتي تستهل الصراع بين الطبقات أصبحت أزلية بالفعل. وتتمايز هذه الأحياء بأنها مُقسمة بصفة رئيسية كأحياء للطبقة العليا وأخرى للطبقات الدنيا والعمال. ومنح هذا الفصل طبيعة خاصة لشخصية المدينة. (شفيق ١٩٩١، ١٤٢).

وطبقًا لأقوال السكان الذين يعيشون في مجاورة للطبقة العاملة، مثل نداء، فإن إمكانية الحراك الاجتماعي لأعلى غير مسموح به – وحتى لهؤلاء الذين يستطيعون تّحمل ثمنه:

ليس من العدل... أن يعيش بعض السكان هنا ويعيش الآخرون هنالك، فقط لأن العمال لا يحملون شهادة جامعية، هل تعلم أنه حتى إذا ما أراد أحد العاملين أن ينتقل للعيش بعيدًا عن هذه الشقق المتداعية ولديه إمكانية دفع إيجار أعلى لحي أفضل، فإن جهاز المدينة لن يسمح له بذلك. فإن من المتطلبات الأساسية أن يكون الساكن حاملاً لشهادة جامعية من أجل أن يتقدم لشقة في حي أفضل. (شفيق ١٩٩١، ١٥١).

وتعكس الخبرات الفردية لهؤلاء الذي استقروا في المجتمعات الجديدة التحول الواسع في نمط القواعد التنظيمية من نمط تقوم فيه الدولة جاهدة لبناء

مصر جديدة (مشروع "بناء الرجال") من خلال بناء مجتمعات جديدة، إلى أخرى تقوم فيها الدولة والجهود الخاصة بالتحول إلى تطوير الاقتصاد، من خلال عملية ثنائية من التحرر الاقتصادي وخفض وإعادة توزيع سكان مصر. وتقوم المجتمعات الجديدة لحقبة الانفتاح بالتركيز على تشييد مراكز تجارية جذابة، والتي ستقوم بإغراء مقيمين جدد للانتقال إليها نظرًا للفرص الاجتماعية والاقتصادية المتاحة – وهي عملية مختلفة تمامًا عن أخلاقيات الريادة للحقبة الناصرية، والموجهة نحو غزو الحدود المكانية والتوسع في التخوم، من أجل تشكيل مجتمع جديد من المواطنين تسود لديهم الأخلاقيات الاشتراكية أو الاجتماعية.

وقد لوحظ في مسار استراتيجية مصر المكانية التحول الذي حدث في أواخر سنوات السبعينيات من القرن العشرين والتي ميزت الدخول إلى نمط من القواعد التي تعمل ليس من خلال أنماط كلية لبناء مجتمعات من المواطنين لاستصلاح الأراضي (عن طريق تحديد قواعد الصحة والممارسات الصحية للأمهات والأطفال والفلاحين، أو عن طريق إعادة تشكيل القرى عن طريق إعادة إنشائها). ولكن من خلال أنماط من القواعد التي تعمل على بناء مدن جديدة، موجهة تجاه أساليب رأسمالية محددة من أجل إعادة توزيع سكان مصر، ومن أجل زيادة إنتاجية الاقتصاد واستيعاب الزيادة السكانية. وبالتركيز على إنتاجية الاقتصاد المعقولة، بعد الانفتاح الاقتصادي، فإنها جسدت الهدف الجديد للتطوير الاقتصادي، وتم تصنيف الطبيعة الكلية للتأكيد على الرعاية الاجتماعية في السابق إلى مقومات تأسيسية للتطوير الاقتصادي.

خاتمة

وتقوم الدراسات الخاصة بمدينة القاهرة بالتركيز على تحولات ضئيلة طرأت على النسيج الحضري للمدينة. وبالذات تلك الدراسات التي تعمقت في منظور تخطيط الحضر، وتعالج مشاكل من نوعية منشأ حداثة المدينة (هل تسبق أو تلي الحقبة الاستعمارية)؛ ومنشأ برامج التخطيط الحضـــري (هل هي أوروبية أو أصيلة)؛ ونتائج أنماط الحضر المختلفة (حدائقية أو مدينة جديدة)؛ أو وجود مدينة ثنائية (تضم نخبة، وطبقات شعبية) ***Abu-Lughod 1971, El Kadi 1990, Fahmy 2002, Raymond 2000, Volait 2003***.

ويقدم هذا البحث إطارًا تحليلاً بديلاً لفهم ما أُطلق عليه عبارة العلاقة غير المتوازنة للتحول الحضري في مصر في القرن العشرين، وهي تلك التي تفضل التحليل التاريخي. وقد حاولت أن أضع رسمًا تخطيطيًا – وعلى الأصح تبسيطية لمظهر هذا الإطار التاريخي "للتنمية الحضرية". وقد قمت بمناقشة أن الإطار التاريخي لدراسة القاهرة في القرن العشرين يجب أن يأخذ في الاعتبار على الأقل ثلاثة عوامل مترابطة – العلاقة المتغيرة تاريخيًا للدولة بالظهير الريفي، ولتخطيط الدولة العقلاني، والطبقات السكانية التابعة أو الثانوية ***Gramsci 1971; Guha 1982; cf. Hanna 2002***. فإذا ما كانت علاقة الدولة بالطبقات السكانية الثانوية (في حالة مصر، الفلاحون)، قد وضعت في المقدمة، فإن التركيز على الفراغات الحضرية للقاهرة في القرن العشرين تبدو وكأنها نالت الاهتمام على فترات متقطعة حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢- وهي النقطة التي بدأت عندها الاهتمامات الحضرية تصبح الشغل الشاغل للدولة، والقائمين بعملية التخطيط الحضري والأكاديميين، إلى إقصاء مشكلة التحول الريفي.

ولقد حاولت، في حقيقة الأمر، مناقشة أمر التركيز المنفصل على القاهرة، ونصل في الواقع إلى نتائج مضللة. إذ لا يمكن فهم التطور الحضري بمعزل عن ربط الأمر "بمشكلة الريف" وتفضيلها داخل نمط قوانين الرعاية الاجتماعية من سنوات الثلاثينيات حتى الستينيات من القرن العشرين، ثم طمسها تحت نمط قوانين الليبرالية الجديدة للانفتاح. ومن المفارقات، أنه يمكن النظر للمدينة البالغة الضخامة "القاهرة" كنتاج لنمطين من أنماط القواعد المناهضة للتطور الحضري المكاني. فقد كان يُنظر للريف المصري منذ سنوات الثلاثينيات حتى الستينيات من القرن العشرين كجوهر للثروة القومية وكان يتم تميزها في إعادة التشكيل المكاني، بينما كان يُنظر للقاهرة كمركز للتخطيط الثوري، وأُهمل التنظيم الحضري لها. ومُنحت الأفضلية وعلى وجه خاص للقطاعات الرأسمالية المستندة على المناطق الحضرية بعد سنوات الانفتاح والتطور الاقتصادي، بينما وصمت الكثافة الحضرية لمدينة القاهرة (وبخاصة للمناطق الشعبية) بأنها موئل للفساد. وتصور المخططون الحضريون الكثافة الحضرية كمستنزف للنمو الاقتصادي، وكان الحل المطروح هو خلق مدن صحراوية جديدة تتمتع بالاستقلال النسبي.

وعولج التطور الحضري في الحقبة الناصرية بطريقة منهجية، وكان ذلك من حيث التنسيق بين أنظمة إنتاج ذات كفاءة مرتبة بعقلانية، والاستهلاك، وأنظمة النقل، وأوقات الراحة. وكانت الفراغات المكانية التي أُعيد تأسيسها بعد إعادة تشييد القرى، والمدن الإدارية، والكفاءة العالية لمدن العاملين كلها تستهدف التنظيم العقلاني (وظيفيًا ومكانيًا) للفراغات المكانية. وكان مثل هذا النمط من التنظيم المكاني يعتمد على ساحات الشعب (الكتل الجماهيرية) من أجل توليد الديناميكية قبل التوسع والتلاحم في مشروع بناء الأمة. واتخذ تنظيم نمط الفراغات المكانية لحقبة الانفتاح التطوير الاجتماعي والاقتصادي، في المقابل كهدف للحكم، واحتل هدف النمو الحضري مكانة متميزة، وهُجرت عملية تحويل المناطق الريفية، وسار البحث عن التنمية الاقتصادية من خلال "إعادة التوزيع المنتج للسكان" (وزارة التخطيط ١٩٧٨).

الأعمال المُستشهد بها

Works Cited

al-Abd, Salah. 1979. "Land Reclamation and Resettlement in Egypt." In *Human Settlement on New Lands: Their Design and Development*, ed. Laila El-Hamamsy, 91–113. Cairo: Social Research Center/The American University in Cairo Press.

Abu-Lughod, Janet. 1971. *Cairo: 1001 Years of the City Victorious*. Princeton: Princeton University Press.

Abu Zayd, Hekmat. n.d. *al-Takayyuf al-ijtima'i fi al-rif al-misri al-jadid*. Cairo: Maktabat al-Anglo al-Misriya.

Agha Khan Program for Islamic Architecture. 1985. "Cairo, 1800–2000: Planning for the Capital City in the Context of Egypt's History and Development." In *The Agha Khan Award for Architecture. The Expanding Metropolis: Coping with the Urban Growth of Cairo*, 91–113. Cambridge, Mass.: Agha Khan Program for Islamic Architecture/MIT Press.

Aglietta, Michel. 1979. *A Theory of Capitalist Regulation: the U.S. Experience*. London: New Left Books.

Bassiouni, Muhammad Salah Abdel-Meguid. 1972. *Mudiriyat al-Tahrir ka-namuzaj lil-mujtama'at al-mukhattata*. M.A. thesis. Cairo: 'Ayn Shams University.

Bécard, Laurent. 1985. "New Settlements: A New Approach to Solving Housing and Urban Projects." In *The Agha Khan Award for Architecture. The Expanding Metropolis: Coping with the Urban Growth of Cairo*, 183–87.

Cambridge, Mass.: Agha Khan Program for Islamic Architecture/MIT Press.
Boyer, Robert. 1990. *The Regulation School: a Critical Introduction*. New York: Columbia University Press.
Brown, Nathan J. 1990. *Peasant Politics in Modern Egypt: The Struggle Against the State*. New Haven and London: Yale University Press.
Castillo, Greg. 1992. "Cities of the Stalinist Empire." In *Forms of Dominance: On the Architecture and Urbanism of the Colonial Enterprise*, ed. Nezzar Al-Sayyad, 261–88. Brookfield: Ashgate Publishing Company.
Dessouki, Ali. 1991. "The Public Sector in Egypt: Organization, Evolution, and Strategies of Reform." In *Employment and Structural Adjustment: Egypt in the 1990s*, eds. Heba Handoussa and Gillian Potter, 259–73. Cairo: The American University in Cairo Press.
Fahmy, Khaled. 2002. "An Olfactory Tale of Two Cities: Cairo in the Nineteenth Century." In *Historians in Cairo: Essays in Honor of George Scanlon*, ed. Jill Edwards, 155–87. Cairo: The American University in Cairo Press.
General Organization for Physical Planning (GOPP), Omnium Technique de l'Urbanisme et de l'Infrastructure (OTUI). Institut d'Aménagement et d'Urbanisme de la Région d'Ile de France (IAURIF). 1983. *Greater Cairo Region: Long Range Urban Development Scheme (Master Scheme)*. Cairo: Ministry of Development and State Ministry for Housing and Land Reclamation.
Gorgy, Michel Fouad. 1985. "The Greater Cairo Region: Land Use Today and Tomorrow." In *The Agha Khan Award for Architecture. The Expanding Metropolis: Coping with the Urban Growth of Cairo*, 176–82. Cambridge, Mass.: Agha Khan Program for Islamic Architecture/MIT Press.
Gramsci, Antonio. 1971. *Selections from the Prison Notebooks*. New York: International Publishers.
Guha, Ranajit. 1982. "On Some Aspects of the Historiography of Colonial India." In *Subaltern Studies I*, ed. Ranajit Guha, 37–44. Delhi: Oxford University Press.
El-Hammami, Ahmed. 1 May 1999. Personal interview.
Hanna, Nelly. 2002. "The Urban History of Cairo around 1900: A Reinterpretation." In *Historians in Cairo: Essays in Honor of George Scanlon*, ed. Jill Edwards, 189–201. Cairo: The American University in Cairo Press.
Harvey, David. 1989. *The Condition of Postmodernity: An Enquiry into the Origins of Cultural Change*. Oxford and Cambridge: Basil Blackwell.
Hassanein, Magdi. 1975. *al-Sahara': al-thawra wa-al-tharwa, qissat Mudiriyat al-Tahrir*. Cairo: al-Hay'a al-'Amma al-Misriya li-l-Kitab.

Hegab, Salah-Eddin Muhammad. 1985. "New Towns Policy." In *The Agha Khan Award for Architecture. The Expanding Metropolis: Coping with the Urban Growth of Cairo*, 171–75. Cambridge, Mass.: Agha Khan Program for Islamic Architecture/MIT Press.

Hinnebusch, Raymond. 1985. *Egyptian Politics under Sadat*. Cambridge: Cambridge University Press.

Hopkins, Nicholas, et al. 1988. *Participation and Community in the Egyptian New Lands: The Case of South Tahrir*. Cairo: Cairo Papers in Social Science.

Ilbert, Robert. 1985. "Heliopolis: Colonial Enterprise or Town Planning Success?" In *The Agha Khan Award for Architecture. The Expanding Metropolis: Coping with the Urban Growth of Cairo*, 35–42. Cambridge, Mass.: Agha Khan Program for Islamic Architecture/MIT Press.

El Kadi, Galila. 1990. "Trente ans de planification urbaine au Caire." *Revue Tiers Monde* 31 (121): 185–207.

Kafafi, Husayn. 1980. *Ru'ya 'asriya li-kharitat Misr: dirasa iqtisadiya wa-ijtima'iya*. Cairo: al-Hay'a al-'Amma al-Misriya li-l-Kitab.

Lefebvre, Henri. 1991. *The Production of Space*. Oxford: Blackwell.

Lipietz, Alain. 1986. "New Tendencies in the International Division of Labour: Regimes of Accumulation and Modes of Regulation." In *Production, Work, Territory: The Geographical Anatomy of Industrial Capitalism*, eds. M. Storper and A.J. Scott, 16–40. Boston: Allen and Unwin.

"Ma'a al-nuwwab fi Mudiriyat al-Tahrir." 1957. *al-Sahara'* 2 (20).

Ministry of Housing and Development. 1965. *Mashru'at al-iskan wa-al-marafiq fi zill al-thawra*. Cairo: Dar al-Tahrir.

Ministry of Land Reclamation. 1969. *Takwin wa tanmiyat al-mujtama'at al-jadida fi al-aradi al-mustasliha*. Cairo: Wizarat al-Istislah al-Aradi.

Ministry of Planning. 1978. *The Five Year Plan: 1978–1980*. Cairo: Ministry of Planning.

Mitchell, Timothy. 1988. *Colonising Egypt*. Cambridge: Cambridge University Press.

Observatoire urbaine du Caire contemporain. 1993. *Les "new settlements" du Caire*. Supplément à la *Lettre d'Information*, no. 33.

Raymond, André. 2000. *Cairo*. Cambridge and London: Harvard University Press.

Sabea, Hanan. 1987. *Paths of Rural Transformation: Stratification and Differentiation Processes in a New Lands Village*. M.A. thesis. Cairo: American University in Cairo.

"al-Safir al-Yugoslavi yaqul: Mudiriyat al-Tahrir min a'zam al-tajarib al-ijtima'iya fi al-'alam." 1957. *al-Sahara'* 1 (12): 17.

Sayed, H.A. 1989. "Population Policy in Egypt." *Cairo Demographic Center Annual Seminar*. Cairo: Cairo Demographic Center.

Selim, Samah. 2004. *The Novel and the Rural Imaginary in Egypt, 1880–1985*. New York and London: Routledge Curzon.

Shafik, Zeinab Youssef. 1991. *The Life-Structure of a New City: Egypt's Tenth of Ramadan*. Ph.D. diss. Ann Arbor: University of Michigan.

El Shakry, Omnia. 2005. "Barren Land and Fecund Bodies: The Emergence of Population Discourse in Interwar Egypt." *International Journal of Middle East Studies* 37 (3): 351–72.

Springborg, Robert. 1979. "Patrimonialism and Policy Making in Egypt: Nasser and Sadat and the Tenure Policy for Reclaimed Lands." *Middle Eastern Studies* 15 (1): 48–69.

Supreme Council for Family Planning and Population (SCFPP). 1980. *Itar al-istratijiya al-qawmiya li-l-sukkan w-al-mawadd al-bashariya wa birnamij tanzim al-usra*. Cairo: SCFPP.

United Arab Republic, Institute of National Planning. 1965. *Research Report on Employment Problems in Rural Areas of the United Arab Republic*. Report B: Migration in the U.A.R. Cairo: Institute of National Planning.

United Arab Republic. 1960. *The U.A.R. Yearbook 1960*. Cairo: Information Department.

United Nations Fund for Population Activities (UNFPA). 1980. *Arab Republic of Egypt: Background Paper for Population Assistance Needs Assessment Mission*. Cairo: UNFPA.

United Nations, Department of International Economic and Social Affairs (UN). 1990. *Population Growth and Policies in Megacities: Cairo: Population Policy Paper No. 34*. New York: United Nations.

Volait, Mercedes. 2003. "Making Cairo Modern (1870–1950): Multiple Models for a 'European-Style' Urbanism." In *Urbanism: Imported or Exported? Native Aspirations and Foreign Plans*, eds. Joe Nasr and Mercedes Volait, 17–50. West Sussex: Wiley-Academy.

Voll, Sara. 1980. "Egyptian Land Reclamation since the Revolution." *Middle East Journal* (34): 127–48.

Warriner, Doreen. 1957. *Land Reform and Development in the Middle East: A Study of Egypt, Syria and Iraq*. London and New York: Royal Institute of International Affairs.

. 1961. *Agrarian Reform and Community Development in the U.A.R.* Cairo: Dar al-Ta'awun.

Zaalouk, Malak. 1989. *Power, Class, and Foreign Capital in Egypt*. London: Zed Books.

Zaki, Gamal. 1964. "Some Sociological Aspects of Planned Communities." *al-Majalla al-ijtima'iyah al-qawmiya / National Review of Social Sciences* 1: 149–62.

———. n.d. *Tanzim wa-tanmiyat al-mujtama'at*. Cairo: Dar al-Thaqafa wa-al-'Ulum lil-Tiba'a wa-al-Nashr.

الهوامش

١- أنا أميل هنا لنظرية المدرسة الفرنسية في التنظيم والتي تحاول تفكيك مفهوم ماركس عن نمط الإنتاج والتي كان مستهلها كتاب ميشيل أجليتا *(A Theory of capitalist Regulation 1979)* ومألوفة إلى حد كبير للكثيرين من خلال الترويج للتالورية، والفوردية، وما بعد الفوردية. راجع في ذلك *Boyer 1990, Harvey 1989, Lipietz 1986* لمداخل مفيدة. وبطريقة أكثر بساطة، يشير نمط التنظيم إلى أسلوب أكثر كفاءة لجعل السكان مواطنين أكثر سهولة في الحكم. يتمتع المواطنون الذين هم أفراد ذاتيو التنظيم بالسلامة الجسدية والعقلية، والمقدرة الإنتاجية اقتصاديًا، ومتكيفون اجتماعيًا- إلى جانب مظهر خاص من الإنتاج الرأسمالي. وتتفاعل العديد من الهيئات والقوى (مثل العالمية، والدولة، والهيئات الخاصة، وأعضاء النخبـــة الفكرية، ورجال التربية، والمؤسسة الدينية، وغيرها)، بطريقة مُعقدة، وغالبًا بطريقة لا واعية – ومتناغمة مع إعادة الإنتاج في الاقتصاد القومي، ونظام الحكم، والمجتمع، من أجل الحفاظ على الوضع الراهن. ويتجسد نمط التنظيم في (شكل أنماط، وعادات، وقوانين، وشبكات للتنظيم... (ككتلة من القواعد الداخلية والعمليات الاجتماعية) والتي تحدد حقبة معينة، بالإضافة إلى هياكل وظروف الاحتمالات المتواجدة داخلها *(Lipietz 1986, 19)*. ومع ذلك، فإنني آمل أن أبرهن على العمليات المعقدة المشاركة في علاقات اجتماعية خاصة (مثـــال تلك التي بين المـــدينة والـــريف) غالبًا ما تؤدي إلى نتائج غير متوقعة وغير مقصودة فيها.

٢- أقوم بتطوير هذه الحجة- على توجه سيطرة الدولة في تحقيق الرفاهية الاجتماعية في سنوات الثلاثينيات وحتى سنوات الستينيات وبطريقة مطولة في كتابي الذي سيصدر قريبًا *" The Great Social Laboratory: Reformers and utopians in twentieth-Century, Egypt"* وبالتالي تفنيد عدم الترابط المفترض حدوثه في المعتاد مع ثورة ٢٣ يوليو.

٣- لا أعني بإشارتي بأن المكان في الريف كان مُفضلاً في الحقبة من سنوات الثلاثينيات إلى سنوات الستينيات، أن أقول إن الاهتمام بالحضر كان لا وجود له تمامًا، وإنما أريد أن أقول على الأصح، إن الاهتمام الحضري أصبح أمرًا مهيمنًا في دوائر الدولة، والخبراء

المخططون فقط بعد ثورة عام ١٩٥٢. وكان اهتمام أعضاء جهاز الدولة، وأهل الفكر من النخبة الحضرية، ينصب بصفة أساسية على موضوعات التنمية الريفية و"مشاكل الفلاحين" (راجع في ذلك *Brown 1990, El Shakry 2005, and Selim 2004*).

٤- ويمكن للمرء أن يقول إن استهداف المدينة كان يتعلق ببساطة بالزيادة التي طرأت على سكان القاهرة. وبينما بدأت القاهرة تعاني، وبداية من أواخر سنوات الثلاثينيات، من زيادة ملحوظة في عدد السكان، والتي على الرغم من ذلك، لم تمنع من تركيز الدولة على المناطق الريفية وبالتناغم مع بالتحولات الحضرية (الشاكري ٢٠٠٥). وبالإضافة إلى ذلك، فإن موضوع الهجرات الريفية إلى المدينة برمته يجب أن يتم فهمه بعلاقته بدور الدولة في تشجيع أو هجر مشروع التحولات الريفية.

الفصل الثالث

القاهرة: عاصمة اقتصادية وإقليمية وعالمية؟

ليلا فيجنال – إريك دينيس

لقد اعتدت على هذا الأمر منذ الطفولة، وإطلاق اسم "مصر على العاصمة بدلاً من القاهرة". "أنا ذاهب إلى مصر"، "أنا عائد من مصر"، لقد أرسلت خطابًا إلى مصر"، "الفتيات الصغار من مصر"... كل واحد يعني مدينة العاصمة عندما يقول "مصر" وليس "القاهرة"، ولا شيء يثبت تفوق، وتميز موقعها أكثر من هذه الدلالة... القاهرة صورة مصغرة لمصر. إنها قلب الأدب كما أنها قلب المكان والزمان.

جمال الغيطاني (٢٠٠١).

تضاعفت مساحة سطح مدينة القاهرة في أقل من عشر سنوات. ونشأت مدينة جديدة من نوعها موحدة وشاملة، تلتف وتتشعب حول نفسها لتشكل أكثر الكتل السكانية كثافة في العالم، مؤدية إلى تشعب أنماط التنمية الحضرية. ويرتبط هذا التشعب بالليبرالية الجديدة وعمليات إعادة التشكيل العالمية، بما في ذلك التقسيم العالمي الجديد للعمالة، وتقلب وكثافة تدفق المعلومات ورأس المال، وارتباط الأسواق بعضها ببعض، وبروز دور مميز، وإن كان محدودًا، دور عالمي للمدينة.

يناقش هذا الفصل التحول الحاسم في الطوبوغرافيا الاقتصادية والاجتماعية لمدينة القاهرة والذي أدى إلى انقلاب في عمليات استقطاب وقيم. والأكثر أهمية أن وسط المدينة قد فقد نفوذه بينما الاقتصاد المكاني، والسكني، والكتل السكانية تتمدد متجهة نحو التخوم الصحراوية وتضم إليها أعراقا مختلطة من المناطق المركزية للمدينة إلى داخل نطاقها. ومن المحال، ومن الخطأ استثناء أي سبب وحيد لما نطلق عليه هذا "التحول إلى مدينة عالمية جديدة". ولكن من المفارقات المدهشة أن هذه الصورة العامة الجديدة لعاصمة إقليمية ووطنية تمثل تحولاً ديموغرافيًا تجاه تشتيت السكان بعيدًا عن العاصمة في نفس الوقت الذي يتم فيه تركيز القدرات الإنتاجية الجديدة للعاصمة والوظائف الرئيسية بطريقة متزايدة.

وقد تولدت تحولات هامة نتيجة لهذه العملية المتناقضة من التوسع في العاصمة المجددة، متضمنة أنماطًا ومواقع إنتاجية جديدة، وأشكالا ومواقع جديدة للأحياء السكنية، وأماكن وأنماطا مستحدثة للاستهلاك وآفاقا أخرى للتنقل. كما شهدنا قطاعات كاملة للأعمال يتم استبعادها وفي بعض الأحيان يتم زعزعة استقرارها عن طريق الاقتصاد السياسي المكاني الجديد. وتعرضت القطاعات الجديدة وبصفة خاصة شأنها شأن القطاعات القديمة لأوضاع غير مستقرة للقوى التي لا تترك مجالاً لخلق مدينة قابلة للاستمرار. ولم يحتضن هذا النظام الاقتصادي السياسي المكاني الجديد زيادة أعداد قطاع العاملين بأجور حيث إنه ليست هناك قاعدة دعم تتسم بالاستقرار في محيط هذه الليبرالية الجديدة على المدى الطويل من أجل التمويل والحفاظ على هذه الأماكن الحضرية الجديدة.

وتحتل هذه العوامل الثلاث تشعب دائرة التطوير الحضري وأشكال التوطين الحضري، وتطوير طبوغرافية البنية التحتية الجديدة، وتعزيز هيمنة القاهرة على الأمة، على عمارة البيئة للحضرية الجديدة في مصر. وسيقوم هذا الفصل بتحليل هذه العملية من تحولات المدينة العاصمة المتناقضة، وتتبع جذور هذه العملية في

منطق إنتاج الحضر والتي قامت بدمج مصر في عمليات التحرر الاقتصادي العالمية والمحلية، وإعادة الهيكلة، والتسارع في اتجاه العولمة منذ بواكير سنوات التسعينيات في القرن العشرين. وترتبط هذه القوى المُحَدِدَة لمصر القـــرن الحادي والعشرين بعلاقات وثيقة للعديد من مدن العالم الثالث والبحر الأبيض المتوسط.

وتعتمد النتائج التي نتوصل إليها في هذا الفصل على تحليل المعلومات الاجتماعية والاقتصادية، من الناحيتين الإحصائية والببلوغرافية، بالإضافة إلى التحليل المكاني للمتغيرات في حضر القاهرة بما في ذلك الخرائط النوعية، والمقابلات الشخصية، واستعراض ما تنشره الصحافة المطبوعة، والمتابعة الميدانية. قمنا باستخدام إحصائيات عام ١٩٩٦، وقاعدة البيانات الصناعية والاجتماعية – الاقتصادية التي أعدها الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء. وأمكن الحصول على التعبيرات المكانية للبيانات من خلال تطبيقات نظم المعلومات الجغرافية التي تغطي مصر، وذلك بالتعاون مع مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية. كما قمنا باستخدام الطبعة المصرية لعام ٢٠٠٠ من نظام المعلومات العالمي للمنشآت والتي استقينا منها المعلومات التي نريدها من أجل متابعة التغييرات النوعية في المناطق الصناعية.

التحول الليبرالي، ونظام المدينة العالمية، والتوسع الصناعي

قامت الحكومة المصرية بتوقيع برنامج الإصلاح الاقتصادي والتعديلات الهيكلية مع البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. وحددت هذه الاتفاقية دخول مصر في مرحلة نشطة من الإصلاحات التي قامت بتحويل الأجهزة الاقتصادية، ونمط الحكم، والوظائف التي تقوم بها الدولة. وتميز عقد التسعينيات من القرن العشرين بالتنفيذ التدريجي لبرنامج التحرر الاقتصادي والخصخصة. كما تشكل عقد

اجتماعي جديد تدريجيًا بين القطاعين العام والخاص بينما تم ضبط الإنفاق العام بطريقة صارمة. كما أدى فرض التطابق مع الاتفاقيات التجارية الدولية إلى إزالة العوائق الجمركية بالتدريج. وتحولت الظروف المتعلقة بتطوير الأنشطة الصناعية والتوزيع بطريقة جذرية بينما تسبب ظهور شكل جديد من أشكال عمارة البيئة في أفول الأشكال القديمة في التركيز والتوزيع.

وارتبطت عملية إعادة بناء قطاع التصنيع بعملية التحول التي تم بها تنظيم المدينة العاصمة. فقد قام المحللون الآخرون للمدن العالمية الأخرى، بتقييم الاقتصاديات الحضرية في مراحل التحول بالتركيز على الترويج للمعلومات وصناعة الحاسبات الآلية، والقطاعات المالية "والاقتصاديات الجديدة"، وعن مقدرة المدينة العالمية على الهيمنة، والتنظيم، ونقل تدفقات من الابتكارات ورؤوس الأموال *(Sassen 1996; Veltz 1996)*. وبالرغم من أن هذه الأنماط يمكن أن تشجع بطريقة مواتية على تحليل شامل لمجموعة الاقتصاديات للمدن العالمية والوحدات الحضرية، فإنها يمكن أن تؤدي أيضًا إلى فهم سطحي لتعقيدات العولمة في مدن العالم الثالث. فهي لا تأخذ في الاعتبار قطاعات المدن الصناعية والتصنيع المستمرة بطريقة ملائمة، والتي هي في نفس الوقت متحولة عن طريق الإظهار المفرط لمظاهر أنشطة القطاعات المالية وقطاعات الخدمات. وبذا فإنهم يراقبون بأعينهم فقط الصناعة الناتجة، والمتحولة، والخصوصيات المكانية والتي أطلقت شرارة الزيادة العالمية الهائلة لقوى اجتماعية جديدة، منسحقة بالظلم، والأنماط الاستهلاكية الجديدة للنخبة، والإقصاء الاجتماعي، والسكان الذين يتصارعون من أجل مجاراة مستويات المدينة العالمية، بينما تظل مستويات معيشة حياة الكثيرين بالكاد محلية، ومحدودة، وفقيرة، ومنعزلة للغاية. ولا يمكن أن تخلق في حواضر العولمة في الجنوب، هذا النوع من تركيز وتنظيم الأنشطة في داخل أنظمة حواضر القومية والإقليمية اقتصاد التوسع وإعادة التوزيع في قطاع الصناعة. كما

يقول نيجيل هاريس عن تحويل بومباي إلى مدينة عالمية كوسيلة للتنمية المشوهة (١٩٩٥). وتبرهن، فوق ذلك، الأعمال التي كُتبت عن اقتصاديات الحواضر الجديدة في الولايات المتحدة الأمريكية أن بزوغ مدن العولمة غالبًا ما يفترض التوسع الصناعي في تخومها *(Castells 1989)*. وكان التوسع إلى المناطق المجاورة في مدن مثل نيويورك وطوكيو من أجل صناعات مبتكرة من البرمجيات والاتصالات (العسكرية والمدنية)، أمرًا حتميًا من أجل التحكم في تدفق رأس المال العالمي، والبضائع، والخدمات أو العمالة. وكانت بالمثل أعمال التوسع هذه حتمية في حالات مثل سول وسنغافورة. وتعتبر الأعمال المفترضة لتخفيض تصنيع المدن العالمية نوعا من إعادة الانتشار لقدراتهم الإنتاجية، وعلى مستوى آخر، إعادة صياغة لنظام العلاقات بين التسلسلات الهرمية بين المدن.

أما في حالة القاهرة، فإنه دليل على أن التحول الجديد إلى العولمة مرتبط بالتحول الصناعي بعيدًا عن هيكل المدينة التي صنعتها حقبة ثورة عبد الناصر الاشتراكية في سنوات الستينيات من القرن العشرين، والتي جعلت في الإمكان خلق قاعدة صناعية وطنية وعربية – إقليمية. كما أن تحولات سنوات الستينيات من القرن العشرين نفسها كانت فقط محصلة التوجهات الاستخراجية المميزة لصناعات المناطق المدارية، والاقتصاديات الاستعمارية التي كانت تعتمد على القطن. وقد أصبحت المناطق الصناعية التي تتجمع حول الصناعات الثقيلة وصناعات الغزل والنسيج اليوم عتيقة وعفا عليها الزمان. وتعتبر قطاعات الصناعة التي تميل إلى تجميع السلع الاستهلاكية، ومعالجة المنتجات الزراعية وإنتاج البضائع الوسيطة هي الأكثر نشاطًا (مثل صناعة الإسمنت، والسيراميك، والصلب) وهي التي تزداد الحاجة إليها في أعمال البناء والأعمال العامة والتي شهدت الجانب الأعظم من النمو في مصر (١٠,٥% من قيمة الإنتاج ما بين العام المالي ١٩٩٧-٩٨

و١٩٩٨-١٩٩٩ ومتصدرة لقطاع الصناعة التي شهدت نموًا عامًا بلغ ٧ر٩%) (البنك المركزي المصري ١٩٩٩/٢٠٠٠).

ومع بروز نوع جديد من قطاع الصناعة الحديث في القاهرة، تحولت الملامح المنظورة للمدينة: أولاً، لأن هناك حلقات جديدة للتوزيع تم استزراعها هنالك، وثانيًا، لأن ذلك جلب معه تطوير الخدمات للمنشآت والتكنولوجيا الجديدة، مثل هندسة البرمجيات، وإدارة المعلومات[1]. وجلبت هذه التطورات أيضًا وسائل جديدة للتوزيع (ثلاجات التوزيع، الشحن الجوي، وخلافه، إلخ). وأدى تمزق الأنماط القديمة والقطاع العام الذي تنتمي إليه وأصابته الشيخوخة، إلى أن أصبح القطاع الصناعي الجديد، وقطاع خاص مستحدث إلى الترحيب برأس المال والتكنولوجيا الجديدة المستوردة. ومـن الأهميـة بمكـان أن يؤخذ بعين الاعتبار ما ترتب على ذلك من توالد قطاعـات صناعية استغلالية غير قانونية وشبه قانونية ***(لا تلتزم بالحد الأدنى لأجور العمال أو ساعات العمل المحددة وظروف التشغيل وغيرها – المترجم)*** (ما يتراوح بين ٢٧% - ٤٠% من الأعمال، طبقًا لبعض المصادر وعما إذا كان يتم احتساب النشاط المزدوج أم لا). وكان هذا القطاع المهم يقوم بإنتاج سلع استهلاكية دون المستوى يحتمي خلف حماية التعريفة الجمركية. ويتعرض هذا القطاع الرسمي اليوم، وبطريقة متزايدة للمنافسة مع السلع المستوردة من الصين والهند مع تقليل هذه الحماية الجمركية الآن لتتماشى مع اتفاقيات الجات. ويسمح فقط التقليل في معدل الأجر اليومي، وزيادة عمالة الأطفال ببقاء هذا القطاع في حلبة المنافسة.

وشهد القطاع الخاص نموًا في الإنتاج الصناعي في ما بين العامين الماليين ١٩٩١-٩٢ و ١٩٩٨-٩٩ من ٣ر٥٨% ليبلغ ٨ر٨١% (تقرير البنك المركزي

المصري ١٩٩٩/٢٠٠٠). وانحرفت هذه العملية منذ البداية حيث إن القطاع الخاص قد أخذ بزمام السيطرة من خلال عمليات خصخصة منشآت القطاع العام الأحسن أداءً، بينما على الجانب الآخر، تدهورت إنتاجية القطاع العام بانتظام نتيجة لعدم ضخ استثمارات جديدة. وكان متوسط القيمة المضافة (لكل عامل ولكل عام) في المنشآت التي تضم أكثر من ١٠ من العاملين بأجر هو ٥٠٠ر٩ جنيه مصري مقابل ٣٠٠ر٢١ جنيه مصري للقطاع الخاص (الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء ١٩٩٩-١٩٩٧).

وبحلول عام ١٩٩٦ كان القطاع الصناعي العام لا يزال يستوعب ربع عدد العاملين في مصر، ومنهم رقم يقترب من ٤٠% يعملون في منطقة القاهرة الكبرى (الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء ١٩٩٦ أ). ويقدر، على الرغم من ذلك، فائض القوى العاملة في القطاع العام بحوالي ١٨% من القوة العاملة، طبقًا لبيانات الحكومة، وبأكثر من ٤٠% طبقًا لتقديرات المشترين المحتملين لهذه المشروعات (حوالي ١٩٩٧). وعلى الرغم من إلغاء ١٢٥٠٠٠ وظيفة منذ تدشين التعديلات الهيكلية في عام ١٩٩١، فإن الزيادة في ربحية مصانع القطاع العام تبقى عملية مستحيلة نتيجة لتهالك المعدات وعجز القدرة على المنافسة في مصر في القطاعات العالمية الرئيسية مثل صناعة النسيج. وتبقى قيمة مصانع القطاع العام، في أغلب الأحيان، فقط في قيمة الأرض والمعدات الموجودة عليها. والاحتمال الأرجح هو أن يتم تدمير هذه الممتلكات أكثر من الإبقاء عليها نظرًا للارتفاع الملحوظ في قيمة الأرض حيث زحفت المدينة إلى هذه المناطق التي كانت في السابق تقع في المناطق الخارجية للمدينة. وسنقدم بالتفصيل النتائج العملية لإعادة تركيب جهاز الإنتاج، ولكننا أولاً، سنقوم بوضع التحول إلى العولمة، أو جذور خصائص مدينة القاهرة داخل نظام مدن العولمة للمدن العالمية والهياكل العربية الحضرية، مع الإشارة إلى بعض مواضع الغموض التي تحيط بعولمة القاهرة.

الاندماج العالمي والتبعية

تقر المؤشرات العالمية بضعف اندماج مصر في شبكات الاقتصاد العالمية كما هو الحال أيضًا بالنسبة لأنظمة المدن العالمية. ويقابل هذا المعدل المتواضع للاندماج على المستوى العالمي بنفس معدل ضعف الاندماج على المستوى العربي والإقليمي. وتحتفظ اقتصاديات حواضر الشرق الأوسط، في حقيقة الأمر، بروابط واهية بينها وبين بعضها البعض من جوانب التكامل. على الرغم من كونها هامشية من ناحية الكم وكما تظهرها هذه المؤشرات الاقتصادية على نطاق صغير جدًا، فإن لها تأثيرا محسوسًا على المجال القومي والمجال العالمي مما يجعلها تُشكل التحولات العميقة التي تقع في مصر وعاصمتها.

الجدول رقم (١) الناتج الحضري الإجمالي في عام ١٩٩٥.

	الناتج الحضري الإجمالي بالآلاف	عدد السكان بالآلاف	مؤشر زيادة الإنتاجية*	الناتج الحضري الإجمالي/ نسبة إجمالي الناتج المحلي	نسبة الناتج الحضري الإجمالي / إلى عدد السكان بالمليون دولار أمريكي
باريس	٣٦١٤١٦	٩٥١٣	١,٥١٥	٢٤,٩	٣٧٩٩٢
برشلونة	٦٥٩٠٠	٣٨٩٢	١,٢٨٧	١٢,٤	١٦٩٣٢
إسطنبول	٤٩٨٨٩	٨٣٨٣	٢,١٣٤	٢٩,١	٥٩٥١
نابلس	٣٩٩٨٣	٢٩٦٤	٠,٧٠٥	٣,٦	١٣٤٩٠
تل أبيب - يافا	٣٢١٧٢	١٩٢٠	١,٠٨٠	٣٦,٧	١٦٧٥٦
مرسيليا	٣١٨٠٨	١٢٢٦	١,٠٣٥	٢,٢	٢٥٩٤٥
أثينا	٢٩٠٤٦	٣٠٧٤	١,١٥١	٣٣,٨	٩٤٥٠
الكويت	٢٨٣٠٢	١٣٥٠	١,٠٠٠	٨٥,٧	٢٠٩٦٤
الرياض	٢٣٩٦١	٣٤٤٦	١,٠٠٠	١٨,٤	٦٩٥٤
طهران	١٨٧١١	٧٧٦٩	١,٣٠٠	١٦,٥	٢٤٠٨
القاهرة	١٢٩٢٩	١٠٨٠١	١,٤٣٩	٢٢,٥	١٠٠٣
أزمير	١١٨٠٢	١٩٨٤	٢,١٣٣	٦,٩	٥٩٤٩
بغداد	٦٠٣٦	٣٩٨١	١,٢٠٠	٢٤,٥	١٥١٦
بيروت	٥٠٨٩	١٤٠٥	١,٣٠٠	٢٤,٧	٣٦٢٣
الدار البيضاء	٤٦٨٢	٢٩٧٠	١,٣٠٠	١٤,٥	١٥٧٦
الجزائر	٣٧٩٠	٢٤١٤	١,٠٠٠	٨,٥	١٥٧٠
تونس	٣٥٣٠	١٦٣٣	١,٢٠٠	٢١,٨	٢١٦٢
عمان	٣٣٣٩	٢٠٢٢	١,١٠٩	٥٢,٧	١٦٥١
دمشق	٢٢٩٨	٢٥١٢	١,٠٠٠	١٦	٩١٥

(*) مؤشر زيادة الإنتاجية (المتوسط القومي =١) المصدر *(Moriconi-Ebrard 2000, p. 227)*

ويمثل إجمالي الناتج الحضري لمدينة القاهرة ما نسبته ٢٢,٥% من إجمالي الناتج المحلي (جدول رقم ١)؛ ويعتبر الوزن الاقتصادي للقاهرة متوسطًا وليس متضخمًا بالنسبة لباقي مساحة القطر. ويعتبر هذا النوع من الهيمنة على الأراضي الوطنية بالضبط بنفس الدرجة من الهيمنة الاقتصادية التي تمارسها باريس على فرنسا، وتعكس التنوع الاقتصادي للحاضرة في القلب من الاقتصاد القومي. ويتنوع الاقتصاد المصري نفسه نسبيًا كما أن قاعدته الصناعية المهمة تشكل استثناءً ملحوظًا بين بلدان الشرق الأوسط. ويؤكد هذا المؤشر على أن القاهرة ليست فقط هي أكبر مدينة في العالم العربي، ولكنها فوق كل ذلك، عاصمة لبلد يتسم بالاتساع ويتكون من العديد من الأقطاب الحضرية الثانوية.

وتبلغ نسبة إجمالي الثروة التي يتم إنتاجها بواسطة القاهرة ٢٨ مرة أقل من تلك التي تنتجها مدينة باريس، وأقل بنسبة أكبر من ٣٧ مرة إذا ما قمنا بمقارنتها بعدد السكان. ويضع الناتج الحضري الإجمالي لسكان القاهرة في قلب أقطار العالم العربي بعد عواصم الدول الخليجية المنتجة للبترول مباشرة، ولكن بصورة عامة فإنها تسبق كل الحواضر القديمة من الدول التي لا تعتمد على إنتاج البترول بمفرده من الأقطار العربية. وبالرغم من ذلك فإن القاهرة تنحدر لتتبوأ المركز الأخير إذا ما قمنا بمقارنة الناتج الحضري الإجمالي كنسبة من عدد سكانها. إنها المدينة التي تقوم بخلق الثروة، بالتأكيد، ولكنها ثروة أقل بكثير نسبيًا من المطلوب لإشباع حاجات سكانها.

سوق القاهرة للأوراق المالية

وأعاد موقع بورصة الأوراق المالية بالقاهرة، إدراج نفسه ومعه مركزه الآخر بالإسكندرية في النظام العالمي، بعد احتجاب دام أربعين عامًا. وتزامنت

الرغبة في تنشيط الاستثمار في سوق الأوراق المالية والتي كانت في طور الاحتضار بالتحرك تجاه الحصول على العملة الصعبة، والمهمة بالنسبة لمهام الخط الأمامي لاقتصاد القاهرة، وعلى وجه الأخص قطاع الخدمات المالية. ويكاد هذا التركيز لأنشطة بورصة الأوراق المالية في القاهرة واضحًا بالكاد على النطاق العالمي، حيث إن لديها ما يكفي من المتاعب للحفاظ على مصداقيتها "كسوق واعدة". وتدعم سوق الأوراق المالية التفوق الحضري للقاهرة على النطاق القومي، عن طريق ضخ المزيد من المهام لاقتصاد العولمة للمدينة.

وتستحوذ سوق الأوراق المالية بالقاهرة على النطاق العالمي، في الوقت نفسه، على حصة تبلغ نسبتها فقط ٠،٠١٢% من رؤوس الأموال في البورصات العالمية من الناحية الفعلية (جدول رقم ٢). والأكثر من ذلك، فإن مجموعة أسواق الأوراق المالية في العالم العربي تقع في بقعة هامشية للغاية من منطقة التدفقات المالية العالمية. وتتكون التدفقات المالية في الأسواق العربية بصفة أساسية من نواتج خصخصة الأصول القومية في منشآت القطاع العام أو بيع امتيازات تحتكر الحكومة عمليات إدارتها (مثل امتيازات التليفون المحمول على سبيل المثال). وكان الاتجاه العام نحو النمو في أسواق المنطقة للأوراق المالية على مدار سنوات التسعينيات من القرن العشرين مثاليًا، وبصفة خاصة في مصر: فقد تم تسجيل ٥٧٣ منشأة في عام ١٩٩٠، مقابل ١٠٣٣ في عام ٢٠٠٠؛ وفي نفس الفترة ارتفعت رؤوس الأموال في البورصة من ١,٨ بليون دولار إلى ٣٢,٨ بليون دولار أمريكي. ويعكس هذا الارتفاع في رؤوس أموال البورصة، على كل حال، نمطًا عالميًا مشابهًا على مدار سنوات التسعينيات، حيث كانت مصر تابعة فقط.

ويجب أن نلاحظ أن القليل من عروض البيع والشراء هي التي تتميز بالنشاط الحقيقي في البورصة المصرية. فقد حدث في عام ٢٠٠٠، على سبيل المثال أن أكبر ثلاثين شركة في الرسملة (التحويل إلى رأس مال) والتي كانت في

البورصة كانت تمثل ٥٥% من رؤوس الأموال في البورصة، وكان يخصها أيضًا ٩٣% من معدل دوران رأس المال (من بين إجمالي أكثر من ١٠٠٠ مؤسسة مسجلة بالفعل). وكانت شركة التليفون المحمول، موبينيل، خلال نفس الشهر ينفسها هدفًا لنسبة ٣٦،٥% من إجمالي معاملات البورصة بأكملها. ولا تسمح هذه البورصة، والتى تتسم معاملاتها بالمضاربة الفجة فقط من ناحية أخرى باستمرار أي استثمارات طويلة الأجل. وتدرك إدارة السوق، على الرغم من ذلك، ديناميكية أنشطة قطاعات معينة، والتي تأسست بصفة أساسية على رأس المال الوطني، ويشارك في بسط دعائم اقتصاد جديد يرتكز على ويهيمن عليه سكان الحاضرة. ويتم دفع رأس المال الخاص تجاه دعم الأنشطة التي ترمي إلى إعادة تركيب أجهزة الإنتاج (جدول رقم ٣)، وعلى سبيل المثال قطاع التصنيع (البضائع الاستهلاكية، والأطعمة، ومنتجات الغذاء) والإنشاءات التي تتعلق بسكنى النخبة، والسياحة، والأنشطة الترفيهية.

جدول رقم (٢) سوق الأوراق المالية في العالم العربي في عام ١٩٩٦

(والمقارنة بالمدن غير العربية)

	الرسملة – أو التحويل الرأسمالي	معدل دوران رأس المال	حصة من رسملة أسواق المال العالمية		الحصة الإقليمية
	بالبليون دولار أمريكي ١٩٩٩	كنسبة من الناتج القومي الإجمالي ١٩٩٨	رسملة/ تحويلات	نسبة عام ١٩٩٩	نسبة عام ١٩٩٩
جوهانسبرج	٢٦٢,٤	١٢٧,٦	٣٤,١	٠,٩٦	غير عربية
بومباي	١٨٤,٦	٢٤,٥	٨٤,٤	٠,٦٧	غير عربية
مكسيكو	١٥٤,٠	٢٣,٣	٢٩	٠,٥٦	غير عربية
كوالالامبور	١٤٥,٤	١٣٦	٣٩,٨	٠,٥٣	غير عربية
إسطنبول	١١٢,٧	١٦,٩	١٠٢,٨	٠,٤١	٣٦,٠١
تل أبيب	٦٣,٨	٣٩,٤	٢٩,٩	٠,٢٣	٢٠,٣٨ (غير عربية)*
الرياض	٦٠,٤	٣٣	٢٨,٨	٠,٢٢	١٩,٣
القاهرة	٣٢,٨	٢٩,٥	٣١,٦	٠,١٢	١٠,٤٨
طهران	١٤,٩	١٣,١	٩,٣	٠,٠٥	٤,٧٦
الدار البيضاء	١٣,٧	٤٤,١	١٧,٦	٠,٠٥	٤,٣٨
عَمـــان	٥,٨	٧٩	٩,٤	٠,٠٢	١,٨٥
عُمـــان	٤,٣	٢٩,٤	٣٣,٨	٠,٠٢	١,٣٧
تونس	٢,٧	١١,٤	١٣,٣	٠,٠١	٠,٨٦
بيروت	١,٩	١٣,٨	٩,٣	٠,٠١	٠,٦١

المصدر: مؤسسات التمويل العالمية – قاعدة بيانات الأسواق الناشئة

لم يذكر المؤلف أن تل أبيب غير عربية – إلا إذا كان يقصد أنها في نفس المنطقة وتقع في الشرق الأوسط، أو يعتبرها عربية! (المترجم).

ومن الأهمية بمكان، وفي نفس الوقت التأكيد على التقلبات الشديدة لأسواق منطقة الشرق الأوسط والتي كانت هشة وعُرضة لاهتزازات عنيفة منذ عام ١٩٩٩ (والتي لم تظهر في جدول رقم ٢). وانعكس هذا التقلب في الانهيار الكامل الذي حدث في إسطنبول في عام ١٩٩٩، والأزمة المالية الخانقة التي حلت بمصر في نفس الوقت، وما تلا ذلك من ركود عام حل بالمنطقة. وهكذا فقد مؤشر هيرمس لبورصة الأوراق المالية في مصر ٥٨% من قيمته، بعد أن كان قد وصل إلى ذروته في عام ١٩٩٩، وذلك في فترة تقل عن ستة أشهر، وتلتها فترة من الركود (المجموعة المالية – هيرمس ٢٠٠٠). وكان المستثمرون الأجانب يشكلون ٢٠% من المشترين في عام ٢٠٠٠ ولكن هذه النسبة تهاوت إلى ١٢% خلال الستة شهور الأولى من عام ٢٠٠١، مرة أخرى مما يوحي بقلة ثقة المستثمر في مصر وحساسية الأسواق للتقلبات. وعلى ضوء ذلك، وعلى الرغم من أن مؤشرات أسواق المال في هذه الأسواق الناشئة تبدو منتجة في هذه "الاقتصاديات الانتقالية"، فإنه يجب النظر إلى الأمر بكثير من الحذر.

وقد استفادت مصر من ٠،٤١% من الاستثمارات العالمية المباشرة بالنسبة لعدد سكانها والذي يُشكل ١% من إجمالي السكان في العالم أجمع (جدول رقم ٤). ويُشكل ذلك، على وجه التقريب المستوى النسبي للتحويلات الرأسمالية في عام ١٩٨٠، بينما قيمة هذا التحويل الرأسمالي (بالمليون دولار أمريكي) قد تضاعف بعامل يزيد عن ٧ (وبرقم ٨ في الأسواق العالمية).

وظلت تدفقات الاستثمارات الأجنبية المباشرة إلى مصر (جدول رقم ٥) متواضعة بالنسبة للنسب العالمية (٠،١٩% من التقلبات العالمية في عام ١٩٩٨)، وبدون زيادة ملحوظة تُذكر منذ سنوات الثمانينيات (الأونكتاد ٢٠٠٠). وعَكست التدفقات النقدية إبان سنوات التسعينيات، بالإضافة إلى ذلك، نقص ثقة المستثمر، والتي غالبًا ما كانت تتضاعل بشدة مع الصدمات السياسية في المنطقة. وتأخذ هذه

المتغيرات في الاعتبار اتجاهات الاستثمارات العالمية والتي تتقلب في المدى المتوسط، وكان ذلك دائمًا في صالح الدول الصناعية. ويُعد ذلك هو الأمر بالنسبة لاتجاهات العولمة. ولم تقم مصر بتحسين قدراتها فيما يتعلق بجذب المستثمرين، وبعد فترة من الافتتان بمصر في بداية العقد، فإن تدفقات الاستثمارات الأجنبية المباشرة والمتجهة إلى مصر تجمدت عند مستويات متواضعة للغاية.

جدول رقم (٣) أنشطة الشركات المُسجلة في بورصة الأوراق المالية في بورصة القاهرة (فبراير ٢٠٠٠).

القطاع	الرسمي	غير الرسمي*	الإجمالي
الخدمات المالية	٤	١٣٣	١٣٧
المقاولات والأعمال العامة	١١	١١٢	١٢٣
الإسكان	١٢	٨٦	٩٨
التجارة	٥	٨٥	٩٠
الهندسة	١١	٦٩	٨٠
الأغذية والمشروبات	١٣	٦٤	٧٧
السفر والسياحة	٥	٦٧	٧٢
النسيج وتصنيع المنسوجات	١٤	٤٠	٥٤
خدمات التدريب	٦	٤٧	٥٣
خامات التشييد	٤	٤٨	٥٢
منتجات دوائية	١٠	٣٥	٤٥
النقل والاتصالات	١١	٢١	٣٢
الورق والتغليف	٣	٢٦	٢٩
الزراعة	٥	٢١	٢٦
المنتجات الكيميائية	٧	١٧	٢٤
غاز ومناجم	١	١٢	١٣
الإسمنت	٦	٦	١٢
الحاسبات وتكنولوجيا المعلومات	–	١٢	١٢
المطاحن	٧	٥	١٢
موزعون	٥	٤	٩
الإجمالي	١٤٠	٩١٠	١٠٥٠

المصدر: بورصة القاهرة للأوراق المالية، فبرايز ٢٠٠٠.

(*) وهذا يعني، أنها أقل من المعايير المالية والتشريعية المطلوبة للتسجيل الرسمي.

الجدول رقم (٤) أسهم الاستثمارات المباشرة بالمليون دولار

	١٩٨٠		١٩٩٠		١٩٩٨	
	بالمليون دولار أمريكي	النسبة المئوية	بالمليون دولار أمريكي	النسبة المئوية	بالمليون دولار أمريكي	النسبة المئوية
مصر	٢,٢٥٧	٠,٤٥	١١,٠٣٩	٠,٦٢	١٦,٧٠٠	٠,٤١
البلدان الصناعية	٣٧٣,٦٥٨	٧٣,٧٦	١١,٣٩٤,٨٥٣	٧٨,٨٧	٢,٧٨٥,٤٤٩	٦٨,١٤
البلدان النامية	١٣٢,٩٤٥	٢٦,٢٤	٣٧٠,٦٤٤	٢٠,٩٦	١,٢١٩,٢٧١	٢٩,٨٣
العالم	٥٠٦,٦٠٢	١٠٠	١,٧٦٨,٤٥٦	١٠٠	٤,٠٨٨,٠٦٨	١٠٠

المصدر: الأونكتاد ٢٠٠٠.

الجدول رقم (٥) تقلبات الاستثمارات الأجنبية المباشرة في الفترة ما بين ١٩٨٧ و ١٩٨٨ بالمليون دولار أمريكي

	١٩٨٧-٩٢ *	١٩٩٣	١٩٩٤	١٩٩٥	١٩٩٦	١٩٩٧	١٩٩٨
مصر	٨٠٦	٤٩٣	١٢٥٦	٥٩٨	٦٣٦	٨٩١	١٠٧٦
مصر/ العالم كنسبة مئوية	----	٤,٦٤	٠,٢٢	٠,٥٠	٠,١٨	٠,١٨	٠,١٩
البلدان الصناعية	١٣٦,٦٢٨	١٣,٣٨٥	١٤٦,٣٧٩	٢٠٨,٣٧٢	٢١,١١٢	٢٧٣,٢٧٦	٤٦٠,٤٣١
البلدان النامية	٣٥,٣٢٦	٧٨,٨١٣	١٠١,١٩٦	١٠٦,٢٢٤	١٣٥,٣٤٣	١٧٢,٥٣٣	١٦٥,٩٣٦
العالم	١٧,٣٥٣	٢١٩,٤٢١	٢٥٣,٥٠٦	٣٢٨,٨٦٢	٣٥٨,٨٦٩	٤٦٤,٣٤١	٦٤٣,٨٧٩

المصدر: الأونكتاد ٢٠٠٠.

(*) متوسط سنوي

ولم تكن المشاركات المالية منذ بدايات التسعينيات، تسمح حينئذ أن تكون فوائد الاستثمار على ضفاف النيل محتملة، كما أنها لم تقم بتقوية البنية الأساسية بحيث تكون أكثر إغراءً لأرباح مستقبلية منتظرة. وعلى الرغم من ذلك، فإن أكثر من بليون دولار أمريكي كان يتم استثمارها في مصر كل عام، مما وضع مصر على رأس قائمة البلاد التي استفادت من الاستثمارات العالمية في المنطقة، بما في ذلك تركيا، والجزائر (دولة منتجة للبترول)، وإيران (الأونكتاد ٢٠٠٠).

التجارة العالمية

وازدادت حصة المنتجات المُصنعة بالنسبة للصادرات المصرية زيادة ملموسة أثناء العقد الأخير من القرن العشرين، فقفزت من نسبة قدرها ٤١،٥% من قيمة الصادرات في عام ١٩٨٥ لتصل إلى ٦٣،٧%، باستثناء صادرات البترول (أو ٢٨،٥% من إجمالي الصادرات، والتي كانت تتضمن ١٢،٥% من المنسوجات) (وزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية ٢٠٠٠). وعلى الرغم من ذلك، فإن ذلك يمثل مركزًا متواضعًا للغاية بالمقاييس العالمية؛ ففي عام ١٩٩٥ كانت تلك الحصة من الإنتاج تمثل ٠،٠٠٦% من التجارة العالمية في المنتجات المُصنعة من السلع.

وتظل مصر من الناحية الاقتصادية دولة تابعة، ومصدرة للمواد الخام، أو خامات محولة بالكاد (منتجات البترول، والغازات، والفوسفات، والقطن)، ومستوردة لمنتجات ومعدات مُصنعة ذات قيمة مضافة عالية. وحدث توسع في صادرات المنتجات المُصنعة، ولكن مقابل استثمارات باهظة في التكنولوجيا المستوردة. ولا تملك مصر تحت تصرفها القدرة على الابتكار، وببساطة، ليست لديها إمكانيات استثمارية يمكن أن تدعم طاقاتها الإنتاجية الكامنة. ويرجع ضعف نمو الصادرات في جانب منه إلى حقيقة أن الاستثمارات المحلية- حتى تلك التي تضاهي رأس المال الأجنبي- يتم توجيهها نحو الإنتاج للسوق الداخلية، كبديل عن

التصدير بطريقة تكشف عن نقص الإبداع أو الجاذبية في تلك المنتجات، بما يؤهلها نحو اقتحام الأسواق الخارجية. ولا يشكل تطور هذه الصناعة قاعدة لتحول جوهري لاستقلال هيكل الاقتصاد الوطني، لتجعل المرء يفترض أن تؤدي إليها اكتشاف كميات من مخزون الغاز، أو التطبيقات القادمة لاتفاقيات الجات. وستؤثر هذه الاتفاقيات وبأسلوب يستعصى على العلاج على جزء من القاعدة الصناعية (المنسوجات بطبيعة الحال)، ولكنها أيضًا ستؤثر على بعض الصناعات التي تبدأ في البزوغ بالكاد، مثل صناعات تجميع السيارات والصناعات الدوائية.

ولا يجب أن يحجب الضعف النسبي لوزن مصر في مجال التجارة العالمية، على الرغم من ذلك، تأثير هذا الاندماج، مهما كان متواضعًا كما هو الآن، على اقتصاديات البلاد، وعلى حواضرها. وينتج تأثير ضخم من درجة صغيرة من التكامل على الساحات المحلية والوطنية. وتعاني مدينة القاهرة من تفاقم التبعية التجارية التي تتجسد في خلل الشراكة التجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية. وأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية الشريك التجاري الأول والمورد شبه الوحيد لقمح الدقيق (يُشكل ٩٥% من واردات مصر). ويؤمن الإنتاج الوطني من القمح ٤٠% فقط من احتياجات السكان *(Gertel 1998)*. وتعتبر مصر في الشرق الأوسط، على الرغم من ذلك، واحدة من الدول القليلة التي تقوم بإنتاج معظم السلع التي تقوم باستهلاكها. ولكن القطاع الخاص الجديد للصناعات الاستهلاكية، والمدعوم بقوة من هياكل السلطة ويقابله قطاع عام متدهور، هو الذي يقع على عاتقه الاستجابة للطلب المحلي المتزايد. ويفعل ذلك بالطبع طبقًا للمنطق التجاري وبالضرورة بهياكل تسعير متفاوتة ومختلفة عن تلك التي تستخدمها منشآت القطاع العام وخطوط الإنتاج المُدعمة. وابتداءً من هذه النقطة، وهي إمكانية الوصول إلى المستهلكين، هناك تمايز شديد بين الطبقات عن طريق أنماط الإنتاج لأنواع مختلفة من المنتجات وشبكات التوزيع المقسمة حسب الطبقات الاجتماعية.

وقد أدت الحاضرة التي تشكلت في هذا الصدد والتفكير الموجه نحو التصدير والتبعية المتزايدة لمصر للولايات المتحدة الأمريكية إلى التركيز المكاني للهوة السحيقة بين سكان الحاضرة الفقراء، وسكان أحياء المدن الإنتاجية الجديدة. ويعتبر الدعم الذي يقدم إلى فقراء المدن هو أقل بكثير مما يجب لتأمينهم، نظرًا للتراجع التدريجي للدعم الحكومي للمنتجات الأساسية من الطعام (الخبز، على وجه التحديد) بالإضافة إلى التضخم ويستمتع السكان الأكثر ثراءً من المدينة والتي أُعيد ترتيبها، في نفس الوقت، وعلى سبيل الحصر بأماكن شبه عامة، مثل المراكز التجارية للتسوق، أو المجتمعات المغلقة بالكامل ذات الأسوار. وتغير وجه الفقر بتغير المجتمع من مجتمع الشح إلى مجتمع المستهلكين، وبدون آلية لإعادة توزيع للدخول تسمح سواء بنمو الطبقة المتوسطة أو بقائها على قيد الحياة. وتتجه القاهرة نحو الانحدار بمقتضى الازدواجية السائدة: فمن ناحية تضع الأغلبية الساحقة من الشعب جل همها على البقاء على قيد الحياة ورغيف الخبز، بينما على الجانب الآخر، هناك شريحة ضئيلة من سكان المدينة المستهلكين تعيش على نفس المستوى العالمي الذي يعيشه أثرياء المستهلكين في أنحاء العالم، ويستطيعون أن ينعموا بطريقة متزايدة بأساليب الحياة المشابه لحياة أقرانهم في المدن العالمية الأخرى(٢).

قطب إقليمي للشرق الأوسط

ليست القاهرة مدينة ذات مكانة عالمية من جهة مقدراتها الإنتاجية- ومقدرتها على جذب رأس المال من أجل تمويل عملية التحديث وبوضوح. ويمكن للمرء أن يتخيلها كمرحلة أو محطة للاقتصاد العالمي، على أحسن الفروض، وتنتظم حولها مجموعة جزر من المدن العالمية *(Veltz 1996)*. ولكن يمكن أن يُنظر للقاهرة كعاصمة للعالم العربي. وقد عُرفت القاهرة منذ أكثر من مائتي عام

كأكبر مدن المنطقة بأسرها. وكان سكان القاهرة في عام ١٨٠٠، يبلغون ضعف سكان أكبر المدن التالية لها في تلك الحقبة، وهي تونس. وتأكد استمرار ريادتها منذ ذلك الحين، كما هو الحال أيضًا بالنسبة لوزنها الديموغرافي، وبالنسبة لميناء مصر على البحر الأبيض المتوسط، والتي تُعد ثانية أكبر مدنها. ولا يعني أنها تهيمن على مجموعة أكثر من ألفي مدينة أخرى في المنطقة، وأنها تعمل كمحور وعاصمة سياسية لجامعة الدول العربية، وعلى الرغم من كل ذلك، أن الحاضرة المصرية تعمل كمحور لمنظومة من المدن في تلك المنطقة. وحتى يكون ذلك الأمر صحيحًا يجب على المرء أن يتخيل أهمية التبادل بين ما يبدو كشبكة متكاملة من مدن الشرق الأوسط، من جانب، ومقدرة القاهرة على الهيمنة على التدفقات والتحكم في تبادلها على المستوى الإقليمي.

وإذا ما تدبر المرء فيما يخص القاهرة في المجال الإقليمي، فمن السهل تعداد الأرقام القياسية عن المركزية الثقافية، سواء كان ذلك في نشر المواد السمعية أو البصرية أو الإنتاج *(Moriconi and Rateb 1996)*، (برجاء الرجوع إلى الجزء الخاص بصادق في هذا الكتاب). ومن السهل أيضًا أن نشهد مقدرة القاهرة على تركيز المصالح السياسية العربية حول جامعة الدول العربية، والتي عادت إلى القاهرة في عام ١٩٩٠. وتم تفعيل مركزية القاهرة على مسرح دبلوماسية الشرق الأوسط بينما تعمل الحكومات على التهدئة والتنسيق في السياسات العربية، سواء فيما يخص المشكلة الفلسطينية أو ما يخص السودان. وقادت المناقشات الدائرة في الداخل حول السلام في الشرق الأوسط حاليًا المحللين إلى البحث الدقيق في مخاطر إمكانية فقدان القاهرة لمركزيتها فيما يتعلق بحل الصراع الفلسطيني. وتستثمر القاهرة عدم الاستقرار الإقليمي، نظرًا لمركزها المتميز بوصفها البلد الذي يستقبل أكبر كم من المساعدات الأمريكية التي تؤمن الدور الحيوي لمصر في ضمان إقرار السلام في المنطقة.

تكامل تجاري واهن

تحتفظ القاهرة بعلاقات سياسية وتجارية أوثق مع أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية عنها مع الدول العربية الأخرى، على الرغم من قيامها بدور مقر جامعة الدول العربية. وتتسم العلاقات التجارية بين مصر والعالم العربي، في واقع الأمر، بأنها متواضعة للغاية. وقد هبطت قيمة صادرات مصر، في الفترة ما بين عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٩ إلى شركائها العرب من ١٧،٦% إلى ١٢،٩% في السياق العام لركود الصادرات.[٣] ولا تعد مصر بالإضافة إلى ذلك، الشريك التجاري الأول لأي من دول العالم العربي. وتستهدف على الرغم من ذلك، الاستثمارات الصناعية المشتركة والتي تقوم بتثبيت جذورها حول مدينة القاهرة، الإنتاج من أجل التصدير للأسواق العربية (والأسواق الإفريقية إذا ما كانت قادرة على الوفاء بقيمتها)، بالاستفادة من التسهيلات المادية المتاحة فيها، وعلى وجه الأخص من العمالة المصرية الرخيصة. وتتمتع هذه الصناعات أيضًا بضمانها للسوق المحلية الزاخرة، بقدر ما تكون مصر ذات كثافة سكانية عالية في المنطقة. وتظل هناك مخاطر فيما يخص إفريقيا في أن الطريق لا يزال طويلاً، وذلك على الرغم من التأسيس التدريجي المتقدم للسوق المشتركة لشرق وجنوب إفريقيا (الكوميسا)، والتي تتكون من إحدى وعشرين دولة والمحتمل أن تضم ٣٨٥ مليون نسمة من السكان. وبلغت نسبة الصادرات المصرية المتجهة لهذه الدول الإفريقية ١% بالكاد، كما أن أسواقها المحلية لا يمكن مقارنتها بمثيلتها المصرية بأي حال من الأحوال. وقد اشترت كل مجموعة دول الكوميسا الأخرى مجتمعة في عام ١٩٩٨، سيارات أقل من عدد السيارات التي تم بيعها في السوق المصرية بمفردها – والتي بلغت ما يزيد عن سبعين ألف سيارة (بيانات عام ١٩٩٩).

ويظهر الجدول رقم ٦ الضعف في التبادل التجاري بين مصر وشريكاتها العربية. وتعتبر المملكة العربية السعودية هي الشريك الأول، والتي تتجه إليها الصادرات المصرية وبالذات خامات المقاولات، والأدوية، والمنتجات الزراعية، والتي تستورد منها مصر بصفة أساسية المنتجات البترولية أو مشتقاتها. وليس هناك وجه للمقارنة، عندئذ، بكثافة التدفقات التجارية التي تربط مصر بالدول الصناعية الكبرى، والتي يأتي على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية (١٢،٥% من الصادرات و ١٤،٣% من الواردات في عام ١٩٩٩)، وأوروبا، وإذا ما قمنا بتجميع بيانات التبادل التجاري مع الدول الأوربية المختلفة، فإن فرنسا تأتي على رأس قائمة تلك الدول.

وتم ربط الزيادات في الاستثمارات الأجنبية المباشرة على مدار سنوات التسعينيات من القرن العشرين بتنفيذ تعديلات تشريعية في ذلك الوقت وتوفير ضمانات لتلك الاستثمارات بأن تتم هذه الإجراءات. وتدفقت الاستثمارات الأجنبية المباشرة تحت إغراء تطورات سوق كبيرة وواعدة للمستهلكين في المنطقة على شكل مشروعات شراكة (استثمار مشترك) والتي غالبًا ما كانت تحت إدارة أجنبية. وتدفقت هذه الاستثمارات من دول كبيرة غالبًا ما تخرج منها بالضرورة تدفقات مالية عالمية، مما يعنى أنها كانت من الدول الغربية الصناعية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية (جدول رقم ٧). وتوجد الدول العربية بالكاد في الأراضي المصرية. ولم تكن للقدرات المالية لهذه الدول بوضوح لا الوفرة أو القوة التي تتمتع بها تدفقات الدول الأوروبية أو الولايات المتحدة الأمريكية. ويفضل المستثمرون العرب في الغالب مثل الأسر الحاكمة في الخليج العربي، الأسواق المتواجدة خارج العالم العربي وهي أسواق كبيرة تتميز بالتركيز الكبير للتدفقات المالية العالمية.

جدول (٦) التبادل التجاري بين مصر ودول جامعة الدول العربية في عام ١٩٩٩

الصادرات			الواردات		
البلد	النسبة المئوية	القيمة بالمليون دولار	البلد	النسبة المئوية	القيمة بالمليون دولار
السعودية	٢١,٦٣	٩٧,٩٩	السعودية	٦٩,٤٤	٦٩٩,٩٨
العراق	١٣,٢٦	٦٠,٠٧	العراق	٦,٠٦	٦١,١٢
ليبيا	٩,٣١	٤٢,١٥	ليبيا	٥,٧١	٥٧,٥٥
سوريا	٩,٢٢	٤١,٧٦	السودان	٣,٦٦	٣٦,٨٦
السودان	٧,٤٦	٣٣,٧٩	سوريا	٢,٤٥	٢٤,٧٠
الإمارات العربية	٧,٣٥	٣٣,٢٨	الأردن	٢,٣٤	٢٣,٥٥
لبنان	٥,١٢	٢٣,١٧	البحرين	٢,٠٨	٢٠,٩٨
الأردن	٤,٧٥	٢١,٥٢	لبنان	١,٧٨	١٧,٩٧
تونس	٤,٤٩	٢٠,٣٢	الكويت	١,٦٣	١٦,٤٥
اليمن الشمالية	٣,٨٨	١٧,٥٧	تونس	١,٦٠	١٦,١٤
الكويت	٣,٠٤	١٣,٧٨	الجزائر	١,٤٥	١٤,٦١
المغرب	٢,٩٣	١٣,٢٧	قطر	٠,٨٥	٨,٥٩
٨,٥٩	٢,٥٩	١١,٧٣	المغرب	٠,٦٦	٦,٧٠
فلسطين	١,٦٦	٧,٥٠	فلسطين	٠,١٠	٠,٩٧
قطر	١,٠٩	٤,٩٥	الصومال	٠,٠٨	٠,٧٩
عمان	٠,٩١	٤,١٤	عمان	٠,٠٤	٠,٤٣
جيبوتي	٠,٧٣	٣,٢٩	العراق	٠,٠٣	٠,٣٣
البحرين	٠,٥٢	٢,٣٧	اليمن الشمالية	٠,٠٢	٠,١٧
الصومال	٠,٠٥	٠,٢٥	موريتانيا	٠,٠٢	٠,١٥
موريتانيا	٠,٠٢	٠,١٠	جيبوتي	٠,٠٠	٠,٠٠
الإجمالي	١٠٠%	٤٥٣,٠٠	الإجمالي	١٠٠%	١٠٠٨,٠٤

المصدر: وزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية المصرية، ١٩٩٠-١٩٩٩- قاعدة بيانات التجارة الخارجية المصرية (تجميع ليلا فيجنال ٢٠٠٠).

الجدول رقم (٧) مصدر التدفقات الأجنبية المباشرة لمصر

المستثمرون	١٩٩٧ – ٩٨		١٩٩٨ – ٩٩	
	بالمليون دولار أمريكي	النسبة المئوية	بالمليون دولار أمريكي	النسبة المئوية
الدول العربية	٣٨,٨	٣,٤	٤٠,٢٠	٥,٦
الاتحاد الأوروبي	٨٣,١٠	٧,٢	٥٤,٢٠	٧,٦
الولايات المتحدة الأمريكية	٨٧٣,٦	٧٦,٠	٥٦٩,١	٧٩,٥
الدول الأخرى	١٥٤,١٠	١٣,٤	٥٢,١٠	٧,٣

وتأتي المؤسسات المستثمرة والممولة برؤوس الأموال العربية بالضرورة من الدول العربية في الخليج العربي في أغلب الأحيان. وغالبًا ما تقوم بخدمة امتيازات أو مجموعات عالمية. فتنتمي أمريكانا، على سبيل المثال لمجموعة الخرافي الكويتية، والتي تمتلك أو تسهم في أكثر من سبعين منشأة في مصر، وبالذات في قطاع المنتجات الغذائية. وتحوز أمريكانا حق الامتياز (في العديد من الدول العربية) للكثير من شركات الأغذية السريعة الأمريكية (مثل سب واي، بيتزا هت، كنتاكي، فرايد تشكن، باسكن روبنز، وغيرها)، والتي تضاعفت أعدادها في مصر عبر سنوات التسعينيات ***(Pages and Vignal 1998)***. وتمثل مصر، بالنسبة للشركات الخليجية سوقا هائلة وقابلة للاتساع للسلع الاستهلاكية الجارية، ويعني ذلك، إمكانية تنويع اقتصادياتهم بعيدًا عن مجال البترول وإعادة استثمار دخولهم.

وتأتي المؤسسات التي تقوم بتثبيت جذورها في مصر، في أغلب الأحيان، من خارج المنطقة العربية ومنطقة الشرق الأوسط (جدول رقم ٨). وغالبًا ما تكون من المؤسسات متعددة الجنسيات (مثل بيبسي كولا، وزيروكس، ونسله، وغيرها).

جدول رقم (٨) المؤسسات الأجنبية في مصر، كل الأنواع مختلطة مع بعضها بعضًا (نشر علامات تجارية، وامتيازات، ومؤسسات).

الدول الرئيسية	عدد الشركات	النسبة المئوية
الولايات المتحدة	١٥٤٨	١٨,٢
ألمانيا	١٠٢٠	١٢,٠
إيطاليا	٨٣٢	٩,٨
المملكة المتحدة	٨١٨	٩,٦
فرنسا	٦٤٦	٧,٦
اليابان	٤١٤	٤,٩
الإجمالي	٥٢٧٨	٦١,٩
أخرى	٣٢٤٤	٣٨,١

الشرق الأوسط	عدد الشركات	النسبة المئوية
المملكة العربية السعودية	١٥٤	١،٨
الكويت	٨٠	٠،٩
لبنان	٤٤	٠،٥
دولة الإمارات العربية	٣٢	٠،٤
الأردن	٣٠	٠،٤
البحرين	١٨	٠،٢
إسرائيل	١٦	٠،٢
سوريا	٦	٠،١
الإجمالي	٣٨٠	٤،٥

المصدر: كومباس ٢٠٠٠ (دليل الشركات)

وعلى العكس من ذلك، فإن بعض الشركات المصرية الكبيرة تخرج من البلاد بحثًا عن أسواق أخرى جديدة في المنطقة العربية أو في جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى. وتتمثل هذه الحالة في شركة المقاولون العرب، وهي منشأة باسم عثمان أحمد عثمان تقوم بعمل الإنشاءات والأعمال العامة في شبه الجزيرة العربية، أو شركة موبينيل، شركة التليفون المحمول وهي الشركة المملوكة لمجموعة أوراسكوم (والمملوكة لأسرة ساويرس)، والتي فازت في عام ٢٠٠١ بواحدة من اثنين من العطاءات لتطوير أنظمة التليفون المحمول في سوريا. كما يستحوذ قسم الأعمال العامة من هذه المجموعة على ٤٠% من أنشطته في أقطار شبه الجزيرة العربية حيث تقوم ببناء القواعد الأمريكية. وعلى كل حال، فإن هذه الأمثلة تظل نادرة. حيث إن الاستثمارات المصرية المنتجة تظل مُركزة بصفة أساسية داخل البلاد في ترابها الوطني.

ومن الأهمية بمكان ملاحظة دور المساعدات الثنائية من عائلات دول الخليج الكبيرة ومن بنوك التنمية والتي تستهدف إعادة بناء الاقتصاد المكاني لمصر. فإذا ما فضل أحد الشيوخ مجال العقارات في إحدى التجمعات المغلقة ذات الأسوار، فإن الآخر سيفضل إعادة تطوير إحدى الأحياء العشوائية بينما يقوم بنك التنمية العربي بتمويل تأسيس البنية الأساسية. ويستهدف هذا الدعم في خلفيته تكاملا إقليميا أكبر، أما بالنسبة لمعونات التنمية المُقدمة من الدول الغربية فتستهدف التمهيد لاختراق أعمق للعاصمة العربية[٤]. ويجب أن يوضع الاستثمار في التجمعات السكنية الواقعة حول القاهرة في إطاره كبديل لهجرة العمال المصريين إلى دول الخليج. وتعني، بوسيلة أو بأخرى، خلق مواقع إنتاجية، وتحريك وتوسيع رقعة مساحة القاهرة، ودمج المساكن الشعبية والمصانع بالعاصمة العربية. (برجاء الرجوع إلى ما كتبه ياسر الششتاوي في الفصل السابع من هذا الكتاب عن الاستثمار في التنمية التجارية والعقارية القادمة من الخليج، وخاصة من دبي). ولم تدعم تلك الاستثمارات الصناعية المتواضعة عن طريق مجموعة من شيوخ البترول، والمتمركزة في المناطق غير المأهولة بطريقة واضحة دور القاهرة كعاصمة لمنطقة الشرق الأوسط.

ويستمر في المقابل، انتشار ١,٩ مليون عامل مصري في دول الخليج يلعب دوره الحيوي في الانسياب الاجتماعي والاقتصادي في حاضرة أهل القاهرة. وتقوم تحويلات العاملين بضخ (٣ بلايين دولار) كدخل للاقتصاد القاهري، بالتناغم مع إيرادات السياحة (٤ بليون دولار أمريكي).

ولا يتم استثمار هذه الأموال كلها في القاهرة بالتأكيد، ولكن الجزء الأعظم منها يستخدم في تمويل تنمية التجمعات السكنية حول المدينة البالغة الضخامة. (يمكنك الرجوع إلى الجزء الخاص بفرحة الغنام في هذا الكتاب لمتابعة وصف

لتأثير الخليج على أنماط السكنى، وتصميماتها، والجماليات الخاصة بها للقاهريين العائدين من منطقة الخليج). واتجهت استثماراتهم أكثر إلى المشروعات الإنتاجية أو الأنشطة الخدمية لما يقرب من اثنتي عشر عامًا، مع هبوط معدل التضخم. ولم يعد مجال الإسكان هو مجال الارتكاز الوحيد لتحقيق الأرباح الرأسمالية وتشغيل رؤوس الأموال العائدة مع العمالة المهاجرة. ونوعت مشروعات المصانع الاستغلالية من نسيج هذه المربعات السكنية شبه القانونية. وأدت عمليات الاستثمار في سيارات الميكروباص والنقل، على سبيل المثال، إلى إعادة تنشيط التمدد العمراني بل ويسرت من تباعد الأنماط الحضرية القديمة، حيث جعلت سيارات الميكروباص من الميسور تنفيذ عمليات التنقل المتباعدة من العاصمة إلى تلك الأحياء البعيدة حيث مواقع المصانع الجديدة، كما جعلت الوظائف التي تقدمها هذه المصانع في متناول اليد. وبهذا المعنــــى، فــإن استثمارات التحويلات في الريف أو في الأحياء الريفية تعود لترتبط بدورة التطوير الحضري لمدينة العاصمة.

ويفضل رأس المال الخليجي، كما يبدو، تهدئة الأماكن الحضرية العامة للمدن، واستنساخ عمالة يدوية رخيصة، وتسهيل توسع الاقتصاد الصناعي والخدمات الحضرية. وتقوم شبكة المساكن الشعبية بتخفيف، وحتى تفضيل نمو المساكن الفاخرة والمرموقة بينما تقوم قنوات الإنتاج التجارية غير الرسمية وشبه القانونية بتأمين استمرار الأجور المتدنية في نفس الوقت الذي تنشط فيه بالإمداد بمنتجات الاستهلاك المتداولة بأسعار منخفضة، وتشجيع دوائر مقاولي الباطن.

عاصمة إقليمية بين عدة عواصم إقليمية

هناك مؤشر عام يدل على اندماج أي أمة في المجتمع الدولي وهو قطاع البنوك، وتكشف دراسة فندلي الضعف المالي النسبي للنظام المصرفي المصري

(١٩٩٣). فهي تأتي في المركز الثالث فقط من حيث المواقع بعد الكويت ولبنان، وفي المركز الثاني من حيث أعداد العاملين، مما يضع العاصمة المصرية في مستوى جدة، ودبي، أو بغداد قبل حرب الخليج. وبينما كانت الدولة المصرية تقوم بتخفيض الديون التي تقع على كاهلها طبقًا للاتفاقيات التي قامت بتوقيعها مع صندوق النقد الدولي، إبان سنوات التسعينيات من القرن الماضي، فإنها مضت قدمًا في زيادة عبء الدين المحلي من أجل تمويل عجز الموازنة لديها ومن أجل الترويج لخطط أعمال البنية الأساسية، مما أدي تدريجيًا إلى شلّ النظام المصرفي والتقليل من قدراته في تمويل القطاع الخاص(٥).

وتُظهر حركة أعداد المسافرين جوًا (الجدول رقم ٩) تنوع التجاذب في المنطقة: فمطار القاهرة يقع في المركز السادس في الشرق الأوسط من حيث حركة المسافرين. ويجب أن نقوم باستبعاد حركة السياحة لما يقرب من ٢ مليون سائح من بين أعداد المسافرين لتقدير حركة أعداد المسافرين من أجل الأعمال (في عام ١٩٩٧- ١٩٩٨). والأكثر من ذلك، يظل حجم الشحن الجوي، وهو مؤشر ممتاز للقيمة المضافة للتدفقات التجارية، متواضعًا بصفة نسبية عندما تتم مقارنته بذلك الذي يخص المملكة العربية السعودية أو دولة الإمارات العربية المتحدة.

وتؤكد كل المؤشرات، حينئذ، تعدد مراكز الالتقاء في نظام العالم العربي. ونادرًا ما تكون مصر وعاصمتها مركزية من وجهة نظر المنطقة، والتي بدلاً من ذلك انتظمت حول أقطاب حضرية متمايزة والتي تحتفظ بعلاقات تنافسية من ناحية التمسك بفرص الاستفادة من العولمة، والاستثمار، وشراء الأوراق المالية، والاستثمار المشترك.

جدول رقم (٩) حركة السفر الجوي والنقل الجوي في عام ١٩٩٨ في الشرق الأوسط، والنمو في ١٩٩٧ - ١٩٩٨.

البلد	المطار	المسافرون	النمو	الشحن الجوي	النمو
المملكة السعودية العربية	جدة	١١,٦٦١,٣٨٤	٠,٣	١٩٩,٣٦٨	٠,١-
دولة الإمارات العربية	دبي	٩,٧٣٢,٢٠٢	٦,٨+	٤٤٢,٤٩٢	٤,١+
المملكة السعودية العربية	الرياض	٨,٣٠٨,٥٩٨	٠,٧	١٦١,٩٠٢	٦,٢+
إسرائيل	تل أبيب	٧,٩٣٩,٩٢١	٢,٩+	٢٨٦,٧٣٤	٣,٥+
إيران	طهران	٧,٨٨٧,٤١٦	٤٣,٠+	٥٢,١٥٦	٢١,٠+
مصر	القاهرة	٧,٢٣٠,١٠٣	١١,٣-	١٩١,٠٠٠	١٣,٧+
الكويت	الصفاة	٣,٧٠٤,٣٨٥	١٤,٠-	١٣٤,١٩٣	٨,٨-
البحرين	البحرين	٣,٤٣٤,٨١٢	٠,٣-	١٢٥,٥١٤	٧,٧+
دولة الإمارات العربية	أبوظبي	٣,١٣١,٢٨٣	٨,٣+	٧١,٩٥٦	١١,٢
المملكة السعودية العربية	الظهران	٣,٠٩٧,٦٨٦	٣,٤-	٦٠,٠٧٦	١٢,٢-
قطر	الدوحة	٢,٩٤٤,٨٩٥	٥,٧+	٨٦,٨٥٤	٦٠,٩+
عمان	مسقط	٢,٧٥٦,٠٤٥	٧,٨+	٥٣,٩٤٨	١٦,٥+
الأردن	عمان	٢,١٣٨,٢٩٠	٨,٦+	٩٢,٠٩٤	٠,٨+
لبنان	بيروت	٢,٠٦٠,٠٢٠	٢,٦+	٥٧,١٤٦	١,٣-
سوريا	دمشق	١,٦٦٦,٥٨١	٥,١+	٢٤,٦٨٩	١١,٣+
دولة الإمارات العربية	الشارقة	٩٧١,٠٧٥	٣,٩-	٥٣٤,٨٩٩	٤,١+

المصدر: مجلة المطارات ١٩٩٩.

وتعتبر العاصمة المصرية، على الرغم من ذلك، واحدة من العواصم الإقليمية النادرة التي استفادت من التكامل العالمي الراسخ، وأيا كان تواضع هذا التماسك. وهكذا، وبينما تقوم باستثمار هذا الفراغ الإقليمي النسبي وباستخدام البيانات الجديدة عن السوق العالمية، تؤكد القاهرة نفسها كأكبر حاضرة في الشرق الأوسط. ولا يمكن حتى لحواضر الخليج العربي نفسها منافسة المركزية التي تتمتع بها القاهرة، والتي تعتبر أيضًا انعكاسًا للتنوع الحضري الداخلي وغير المعتاد. وتمتاز حواضر الخليج العربي، في الحقيقة، بقواعد اقتصادية مفتوحة، وبالقوة المالية التي تستند أساسًا على رأس المال المحلي. وتخدم هذه الحواضر كوسيط في نظام استغلال حقوق الامتيازات والتراخيص المرتبطة بمجموعات عالمية كبرى. وتتخصص اقتصاديات دول الخليج العربي بصفة أساسية في عمليات إعادة التصدير العالمية، بوصفها قواعد إنتاج في النظام العالمي للمناطق الحرة. وتعتبر فروعًا لاقتصاديات أخرى. ويمر الاقتصاد القومي في مصر، على أي حال، بعمليات تحول عميقة ناتجة عن انفتاحها على المجال الاقتصادي العالمي. ويحدث هذا التحول بالتزامن مع تحولات في مصادر رأس المال، وأشكال من الإنتاج، وشبكات التوزيع، وفي هياكل البيع بالتجزئة والتسويق. وقد قلب تطوير اقتصاد جديد، والذي جرى في سنوات التسعينيات من القرن العشرين عن طريق تغيير القطاع الخاص، أنماط الإنتاج المتواجدة رأسًا على عقب بينما يقوم بفرض منطق السوق والمنافسة. ويتم ترجمة هذا على المستوى القومي، كاستقطاب متراكم للوظائف والموارد لحاضرة مصر. وشهدنا في القاهرة، والتي تسعى نحو آلية للتوسع، وضع الملامح البيئية المنظورة من المشهد الحضري جنبًا إلى جنب (الصناعية، والسكنية، والوظيفية)، والتي تنتج في بعض الأحيان من أسباب تتعارض مع بعضها بعضا.

القاهرة بوصفها بوتقة صهر ووسيط للعالم العربي

إذا لم تسد القاهرة باعتبارها عاصمة اقتصادية أو سياسية لشرق أوسط موحدة، فإنها ستبدو مع ذلك بوضوح شديد كأكبر حاضرة لاقتصاديات المنطقة نظرا لتنوعها ونظرًا لتواجدها في كل المجالات. وتميز القاهرة المنطقة بأسرها، وحتى إذا ما كانت الأنشطة التي تتركز فيها لم تؤكد نفسها كقمة في مستواها. ربما كانت هذه الخاصية على وجه أدق هي التي تميز المركزية التي لا يمكن تجاهلها للقاهرة: ويسمح حجمها بالتنوع، وبشكل أدق، قوتها. وما هي الشركة العربية التي يمكنها أن تتجاهل السوق المصرية حقًا، وهل يمكنها أن تتحمل ألا تكون مع شركاء مصريين، أو ببساطة أن تقوم بحرمان نفسها من التواجد في القاهرة؟

وتعتبر القاهرة اليوم هي مسرح التجديد الثقافي، نظرًا للذيوع الواسع الذي تتمتع به العاصمة، ولكن أيضًا كعاصمة فكرية يتميز وزنها الفكري بالضخامة البالغة. ويحدث ذلك في كل مواد الثقافة المرئية والمسموعة والمجالات الموسيقية (برجاء الرجوع إلى الفصل الخاص بسيد صادق، ونيكولاس بيوج، ووالتر أرمبريست في هذا الكتاب للمزيد من المناقشات عن دور القاهرة الثقافي وعلاقتها بالتدفقات الاستثمارية والمالية الأجنبية). وعلى الرغم من التأثيرات المقيدة للمستثمرين الخليجيين وميلهم إلى التحفظ في الأمور الأخلاقية وعلى الرغم من أجواء النقد القوية وعلى نحو متزايد، فإن مجد القاهرة يتم إعادة صنعه، وربما يتم إعادة تأكيد هوية المدينة من جديد. ويتم خلق بيئة قاهرية خلاقة، نظرًا لاستثمار مصر في المحطات التليفزيونية للأقمار الصناعية، وفي الاستوديوهات الجديدة، ويمكن استغلالها في اقتحام الأسواق العربية، والتي تضم ما يزيد عن ٢٠٠ مليون ممن يتكلمون باللغة العربية.

وتلعب دول الخليج العربي دور الوسيط في تشييد الدور الثقافي المركزي لمدينة القاهرة. فهم يقومون بجلب رأس المال، ويقومون بنقل ليس فقط مظاهر الحياة عبر الأمم العربية مثل سلسلة مطاعم الوجبات السريعة، ولكن أيضًا أنماط السكنى، مثل المدن ذات الأسوار والبوابات المغلقة، والقصور الصحراوية الفاخرة (برجاء الرجوع إلى الفصل الخاص بالأستاذة منى أباظة، وإريك دينيس، وياسر الششتاوي، والفصل السابع من هذا الكتاب). كما يلعب المصريون العاملون في هذه الدول البترولية دورًا مهمًا في نقل وخلط هذه الأنماط الاستهلاكية بتلك المتواجدة في البلاد. وتبدو علاقة هذه الأنماط للوهلة الأولى أمريكية، ولكن مرورها عبر دول الخليج تطبعها بأخلاقيات وقيم رمزية خاصة.

وتؤكد القاهرة مركزيتها، بهذا المعنى، ليس بالقوة كما يمكن أن تفعل قوة إمبريالية، ولكن باستثمار الفروق، وكمكان للتوسط، حيث يتم خلق "مزيج من العادات العربية" والتي تتماشى مع البيئة العالمية. وتبدو المدينة كعاصمة للعالم العربي، وكمعبر لا يمكن إنكاره حيث تكون المتناقضات والفروق مرئية بوضوح. وتتطور العديد من أنشطة الإنتاج والخدمات التي تزدهر بالتغذية على الانفصال، والحدود الثقافية، وبالتحديات التي توجه إلى معايرة المنتجات على النسق الأمريكي. ويعتبر التوسع في هندسة برامج الحاسبات في القاهرة، على سبيل المثال، في أغلبه كنتيجة للحاجة إلى تعريب البرامج التي ابتكرتها شركات أمريكية كبرى في شمال أمريكا لسوق إقليمية واسعة، عنها نتيجة لابتكارات أو إبداعات لهذا الجانب من القطاع.

وتكشف البيانات التي قمنا بتقديمها هنا عن حاضرة جديدة أدركت كيف تقوم باستثمار واستغلال مركزها وميراثها التاريخي. ويميل هذا المنحى، وبوضوح، تجاه التركيز على الوسائل الحضرية للإنتاج والمقدرات الإنتاجية للسلع والتي تتعقد بصفة متزايدة، وترتبط بشبكة عالمية. ويُجبر هذا التدوير والتكثيف للتدفقات تقوية

مركزية الحاضرة المصرية. وينطوي ذلك بالطبع على تحولات عميقة للعلاقات مع العالم ومع منطقة الشرق الأوسط، كما تشير الملاحظات السابقة، كما هو الحال أيضًا بالنسبة للعلاقات التي تتعلق بالترابط المنتظم لرأس المال بالمحافظات المختلفة في مصر.

مجالات متغيرة

ليس جديدًا على لمصر مسألة التحرك نحو إعادة تشكيل الاقتصاد الوطني، والأنشطة، والقيادة، والكفاءة (مثل العمالة اليدوية)، ونحو تركيزها على نمط الحاضرة. فقد برزت بوضوح عبر سنوات القرن العشرين بإثبات من اقتصاد السوق العالمية، والتي تم تنشيطها تحت الوصاية الإنجليزية وكانت تميل تجاه ذلك النمط.

وظل دور القاهرة في الإدارة طوال القرن التاسع عشر بأكمله محدودًا بينما كانت مراكز وأقطاب الاقتصاد الأخرى ماضية في التوسع. وتمددت خريطة مصر منذ عهد حكم محمد علي، كما امتدت المساحات القابلة للزراعة، وتم حفر قناة السويس، وتخطيط مدن جديدة أصبحت آهلة بالسكان. وبالتحديد، كانت هناك بعض الاهتمامات الصناعية (مثل المنسوجات، وتكرير السكر) والتي أنشئت في مدن المحافظات بعد عملية تصنيع شبكة الأعمال الزراعية والتوسع الكبير في ملكية الأراضي الزراعية. وظلت الأهمية النسبية للقاهرة عبر قرن كامل من الزمان متواضعة للغاية. وبلغ عدد سكانها في عام ١٨٤٨ نسبة ٥،٩% فقط من إجمالي عدد السكان في البلاد، وحتى في عام ١٩٠٧ لم تبلغ أكثر من ٥،٥%. وتضاعف حجم عدد سكان المدينة عبر الأربعين عامًا التالية، ومرة أخرى أيضًا عبر الأربعين عامًا التالية، لتبلغ نسبتهم ١٩،٣% من إجمالي عدد السكان في عام

١٩٨٦، وعلى الرغم من تناقصهم إلى ١٧% في عام ١٩٩٦ (التعداد الأخير المتاح للسكان). ولكن منذ عام ١٩٠٧، فإن القاهرة والتي كان تعدادها يُشكل فقط ٦،٣% من تعداد كل المصريين، أصبحت تستحوذ على ٢٥% من الأعمال في مجال الكيماويات، و٣٠% من أعمال الدباغة، و٢٤% من أعمال تشكيل المعادن، و٣٤% من أنشط مجالات القطاع المالي، و٣١% من مجالات القضاء ووظائف الضيافة *(Alleaume and Denis 1998)*. وسيطرت القاهرة بأكملها على ٤٠% من الوظائف الصناعية، و٤٦% من وظائف القطاع المالي وخدمات الفنادق في عام ١٩٩٦. ويجب أن يكون واضحًا في نهاية القرن العشرين، أن هذه المدينة الجديدة تقوم بإعادة تركيب نمط من التركيز الذي كان قد تم تأسيسه بالفعل. ويجب أن يتم النظر إليها، على أي حال، في سياق ديموغرافي جديد بموجب التباطؤ الواضح في النمو السكاني في المدينة.

وربما على الأرجح ذلك ما يبرر إشارتنا إليها كنوع "جديد" من الهياكل الحضرية وهي تزيد الفجوة بين الوتيرة الأكثر تباطؤًا في معدل الزيادة الديموغرافية في القاهرة من جانب، وبسكان أقل تركزًا، وأكثر اعتدالاً في الانتشار عبر مساحة المدينة المترامية الأطراف، ومن جانب آخر الاستمرار، إن لم تكن الزيادة في التركيز الحضري لرأس المال والأنشطة (وسيرد تفصيل ذلك بعد قليل). وتم تعزيز هذا الاتجاه باختيارات توطين الاستثمارات (في الإنتاج كما هو الحال أيضًا في العقارات) وفي ترسيخ المبتكرات، والأنشطة عالية القيمة المضافة.

ويظهر مفهوم "الاقتصاد المقلوب" - وهو مفهوم خاطئ يُصور مدن العالم الثالث والتي تُظهر عدد سكان غير متكافئ مع التوسع الاقتصادي - أقل صلة من أي وقت مضى بحالة القاهرة[٦]. ويسمح هذا الربط المثمر لنوع محدد من الثروة لعدد من المدن في العالم الثالث في أن تتكامل كمرحلة متخصصة في قلب مجموعة

جزر المدن العالمية الضخمة والتي تقوم بربط التباين الإنتاجي وفقًا لخطط غير متوازنة بعمق. وتعتبر غير النظامية أو العشوائية خاصية وظيفية للحواضر على المستوى الأول، وهذا يعني أن تصطبغ بحياة المدينة وسلوكياتها أو برهان مدينة ضخمة تقوم بسحق التسلسل الهرمي وتقوم بالتركيز والاستفادة من التعدد. وفي سياق تخفيف القيود أو التحرر من القيود الحكومية هي حاضرة تتسم بالمرونة والتي لا يقتصر تضخمها على الدول التي تكابد مرحلة التطور. وتدين ديناميكية حاضرة مثل مدينة نيويورك كثيرا إلى استغلال الطبقات الدنيا من العمالة المجلوبة. ويقوم جميع السكان العاملين بخلق مثل هذا النظام من التحرر من القيود الحكومية، كما هو الحال أيضًا في القاهرة، حتى إنهم يشاركون في نقطة التقاء مما يجعل المقارنة بين الحاضرتين أمرًا ممكنًا *(Abu – Lughod 1990)*.

الإبطاء من الزيادة السكانية

أثبت التعداد السكاني الأخير اتجاهًا كان يتم تشجيعه خلال سنوات السبعينات من القرن العشرين، ذلك الاتجاه الذي يميل إلى التقليل من جاذبية القاهرة للسكنى داخل مصر. وتنمو القاهرة الكبرى بدرجة أقل عن المتوسط السائد في مصر، في الوقت الحالي: ١،٩% في العام مقابل ٢،١% لباقي مصر. وتنمو كتلة القاهرة وهكذا وإلى حد ثابت يبلغ فقط ١٨،٣% في الحقبة بين عام ١٩٨٦، و١٩٩٦ مقابل ٣٢،٧% في العقد السابق لتلك الحقبة مباشرة.

ولم تعد العاصمة تجذب المهاجرين من الأقاليم بوضوح: فلم يكن ٣٥% من سكان القاهرة من مواليدها في عام ١٩٦٠، وكان ١٢% من السكان فقط في عام ١٩٩٦ قد ولدوا في مكان آخر. وشهدت المحافظات المتاخمة لها الجيزة والقليوبية (الامتداد الغربي والشمالي للقاهرة الكبرى) أعدادًا متزايدة من غير مواليدها بطريقة ملحوظة؛ ولكن أكثر من نصف عدد هؤلاء الأفراد هم مهاجرون بالفعل

قدموا من محافظات أخرى إلى التكتل الواقع داخل القاهرة الكبرى (برجاء الرجوع إلى الجدول ١٠). وتظل العاصمة نفسها، وعلى الرغم من ذلك بحدائقها في وسط المدينة، ومنازلها المحيطة بقلب المدينة الأماكن الأكثر تميزًا وترحيبًا بالمهاجرين من الأقاليم. ثم يقوم هؤلاء القادمون بتقسيم أنفسهم في التكدس في الوقت الذي يساهمون فيه في نزعة الطرد المركزي، وهي ظاهرة تحدث في كافة أرجاء العالم. وتقع القليوبية إلى الشمال من محافظة القاهرة (وهي محافظة مستقلة ولكنها داخل كتلة القاهرة الكبرى) وبدأت تلعب دورًا حيويًا في تكامل المهاجرين من الأقاليم في مواجهة اقتصاد المدينة الضخمة. وكما هو الحال أيضًا بالنسبة لمحافظة الجيزة، ومن المهم فهم هذه الظاهرة كدليل على توسع القاهرة الكبرى. وتحدث عملية استبدال في الأحياء الأكثر قِدمًا (وهي مجموعات من الأحياء المتدهورة والمشابهة للقرى) ويحتل بعض المهاجرين القادمين بعض الأماكن التي كان يحتلها السكان المحليون في السابق والذين تملكوا عقارات وأصبحوا في حالة معيشية أفضل بكثير، في المناطق المتاخمة للمدينة.

وأضحى تمدد وتحول النمو واضحًا من خلال هجر السكان لمنطقة قلب الحاضرة والتي تمددت بطريقة متزايدة وقويت حتى الآن بانحسار الهجرة إليها من المحافظات المختلفة. وفقدت الأحياء المنهارة، خلال العقد الأخير (١٩٨٦-٩٦) ما يقرب من خمسمائة ألف ممن كانوا قاطنيها: وشمل ذلك ٢٤ حيًا من أحياء القاهرة البالغة ٣٨ حيًا والتي تتكون منها القاهرة، وتقع ثلاثة أحياء منها على ضفاف النيل في محافظة الجيزة والتي تقوم بإيواء امتدادات القاهرة منذ بدايات القرن. وفقدت وسط المدينة والتي تشمل المركز القديم والحي التجاري والأحياء المنهارة، أكثر من ١٤% من سكانها في ١٠ سنوات، أما الأجزاء البعيدة عن مركز القاهرة الكبرى فقد استقبلت صغار السكان وهكذا ازدادت في عدد السكان بأكثر من ٤٠% (ويميل المتزوجون حديثًا إلى عدم البقاء مع أسرهم بعد الزواج ولكنهم يلجأون إلى

السكنى في الأحياء الجديدة من القاهرة ويقومون بتأسيس منازلهم الخاصة). وحدثت نسبة ٣٠% من هذا النمو عبر السنوات العشر الأخيرة، وتزداد ظاهرة هذه الزيادة وضوحًا في المدن الجانبية والقرى المحيطة بمحافظات الجيزة والقليوبية.

الجدول رقم (١٠) توزيع سكان القاهرة من غير مواليدها في القاهرة الكبرى عام ١٩٩٦.

	داخلي	خارجي	إجمالي السكان	من غير مواليد المنطقة	القادمين من خارج المحافظة من غير مواليدها		
القاهرة	١١٨٧١٤	٦٩١٠٤٨	٦٦٧٥٧٥٤	١٢,١	١٠,٤	٥٠,٢	١٤,٧
الجيزة الحضرية	٣٩٩٣٨٥	٢٢٢١٢٠	٢٥٤٤٩٩٤	٢٤,٤	٨,٧	١٦,١	٦٤,٣
الجيزة الريفية	١٩٢٢٦١	٦٧٧٧٠	٢١٨٩١٧٢	١١,٩	٣,١	٤,٩	٧٣,٩
القليوبية الحضرية	١٥٥٤٧٩	٢٠٨٦٩٨	١٤٠٢٠٠٢	٢٦,٠	١٤,٩	١٥,١	٤٢,٧
القليوبية الريفية	١٤٢١١٨	١٨٨٢١٥	٢٠٩٥٠٢١	١٥,٨	٩,٠	١٣,٧	٤٣,٠
الإجمالي	٦٧٣٥٧٨	١١٢١٨٦٦	١٠٦٢٢٧٧٠	١٦,٩	١٠,٦	٨١,٤	٣٧,٥
نطاق القاهرة الكبرى	١٠٠٧٩٥٧	١٣٧٧٨٥١	١٤٩٠٦٦٩٣	١٦,٠	٩,٢	١٠٠,٠	٤٢,٢

الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء ١٩٩٦ ب.

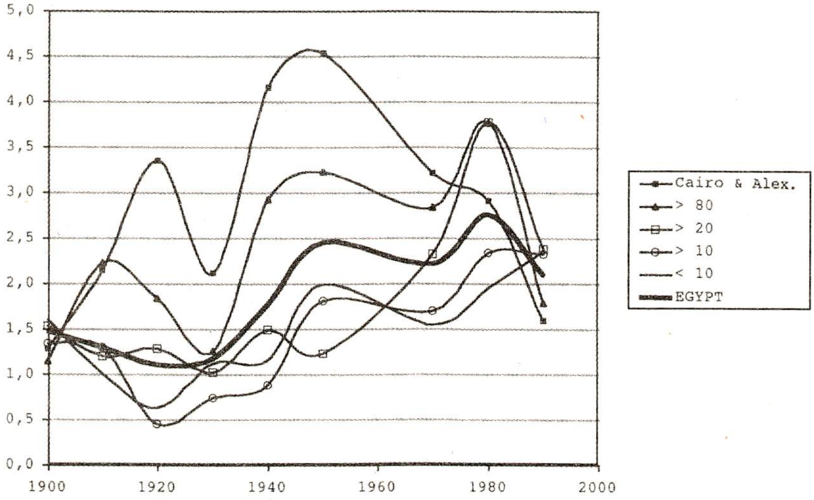
المواليد خارج المنطقة تشير إلى المواليد خارج القاهرة.

"داخلي" تشير إلى مواليد إحدى مناطق القاهرة الكبرى – وليس القاهرة نفسها والذين انتقلوا للمعيشة في وسط القاهرة. بينما "خارجي" تشير إلى سكان قادمين من خارج القاهرة الكبرى.

وانعكست الهجرة، أخيرًا، في العشرين عامًا الأخيرة، وأصبح الناس يتدفقون خارجين من القاهرة. وتقع أقل من ١٠% من عمليات الهجرة بين المحافظات، في الوقت الحالي، بينما كان ربع المهاجرين، في العشرين عامًا التي سبقتها يقومون بتغيير المحافظات التي يقيمون فيها. وتمثيلاً لنفس الظاهرة فإن الهجرة بين القرى، يمثل في الوقت الحالي ٢٠% من أجمالي أرقام النازحين في القطر بأكمله.

رسم بياني يوضح الموجة المتزايدة من التحول الحضري في الحقبة (١٨٧٩ -١٩٩٦)

Graph 1: The long wave of metropolitanization (1897–1996)



تطبيقات نظم المعلومات الجغرافية في تعداد السكان والإسكان والمنشآت –

الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء

ويعود التكتل غير المتكافئ للسكان إلى حدود عام ١٩٩٦ ولذا فإن الحدود الجغرافية ثابتة في الفترة ١٨٩٧ -١٩٩٦. ويعود تفسير هذه الظاهرة إلى الآلاف من السكان.

وليس من الضروري أن يتم تفسير هذه الاتجاه كنوع من إعادة التحول الحضري، ويؤثر بشكل منتظم ودائم على حدود الأراضي لتلك المحافظات. ولكنه، وعلى العكس من ذلك يرتبط بعلاقة وثيقة بالآليات الجديدة لكل الأقطاب الحضرية الرئيسية، وبصفة خاصة بالشخصية الجديدة بحاضرة القاهرة. ويمكن على الأرجح تفسير تزايد الوزن النسبي للتمدد تجاه المناطق الريفية بضيق المناطق التي تنحصر فيها المناطق الحضرية في مصر. وقد حددت المؤسسات الرسمية ١٨٠ مدينة فقط كمناطق حضرية، بينما توجد هنالك أكثر من ٨٠٠٠ كتلة سكنية فعلية في طول البلاد وعرضها ويقطنها أكثر من ١٠،٠٠٠ نسمة. وعلى خلاف ذلك، فإن ما ذكر كتغييرات للسكان في صالح المناطق الريفية يُعد تدفقًا لسكان المدن إلى القرى المحيطة بها بنسبة كبيرة. ويوضح ذلك، بالتالي كيف أن المعدل الرسمي للتحول الحضري قد هبط من ٤٤% إلى ٤٣% فيما بين عامي ١٩٨٦ و١٩٩٦. ولكن معدل التحول الحضري في حدود ٧٠% يمكن أن يكون أكثر واقعية إذا ما كانت القـــرى قد تم احتسابها كضواحٍ متداخلة في نسيج التكوين الحضـــري. كما أنهـــا لا تزال تمثل في نفس الوقت تمددًا حضريًا ونموًا وهي في موضعها الأصلي، وبدون هجرة، في المدن الريفية *(Bayat and Denis 2000)*.

ويُعد الاستقرار الديموغرافي للمحافظات المصرية وتطابق النمو نتاج التحول الذي حدث في أنشطة الهجرة الداخلية. وهبط الميل للهجرة الداخلية في مصر من نمو استقطابي يتسم بالقوة نتيجة للهجرات السكانية ولفترات طويلة إلى المناطق الحضرية الكبرى متجهًا نحو الاستقرار والهبوط في معدلات الهجرة

الداخلية. وتتجه القاهرة مؤخرًا إلى انفجار في معدل أنشطة نقل الركاب والتي تبحث عن تحقيق استراتيجيات الحياة الزوجية، والحصول على مسكن، وأخيرًا الحراك الاجتماعي وما يترتب عليه من تغير السكنى واستمر ذلك إلى وقت قريب جدًا. وتعززت هذه الظاهرة بكثافة بهذه الثورة الليبرالية في طرق النقل، وبخاصة خدمات سيارات الميكروباص، والتي أدخلت مرونة فائقة في الوصول إلى كافة الأقاليم، والمكتظة للغاية في نهاية الأمر. وكان النمو الديموغرافي قادرًا على إقصاء نفسه عن محاور الطرق الكبرى والسكك الحديدية. ومن جانب آخر، فإن مرور اقتصاد الندرة إلى مرحلة الاقتصاد الاستهلاكي قد أدى إلى تفشي جهود البحث عن السلع والخدمات، وقلل من الرغبة في الهجرة السكنية تجاه قلب المدينة. ولا يعطينا هذا الانتشار المكاني، مع ذلك، أي تفسير عن التوزيع الاجتماعي والاقتصادي. وداومت مستويات تكاليف المعيشة على الزيادة المطردة، ولكن مقدرة الاقتصاد المحلي على الاستدامة بالمقارنة بذلك يمكن تنشيطها بكل سهولة في مستوى الحد الأدنى بالنسبة للكثيرين، نظرًا للتأرجح البندولي للهجرة الداخلية والتي تجعل من الأقطاب الحضرية الكبرى سهلة الوصول إليها ومنخفضة التكاليف. ويعتبر الزواج والمعيشة في القرية أكثر سهولة بكثير وبدرجة ملحوظة. وتقوم هذه الأنماط بتحقيق الاستفادة القصوى من المجال الواسع للدوائر المتكاملة والتي تتشكل منها القاهرة الكبرى. وتمنح القاهرة، وبصفة مؤقتة المقدرة على الذهاب حيث تتركز فرص العمل، والمقدرة على البدء في الاندماج الاجتماعي، وشبكات للتواصل، والقدرة على تكديس رأس المال العائلي، وحتى البدء في تحسين قيمة المنتجات المحلية. وتميل البيئات المحلية أيضًا إلى التنوع والتعقيد، وتميل إلى تفضيل مسارات اجتماعية تصاعدية وبروز مدن حضرية، والتي طبقًا لهذا المنطق، تقوم بإغراء الكثيرين بالاستقرار في الوضع الطبيعي. ومن الأهمية بمكان أن نرى المناطق قيد الإنشاء مترابطة ككل وفي حالة من التواصل الدائم. وقد

انتهى التحول في مصر هنا، بميول تجاه العودة للتقليدية التي ترتبط بإعادة تفعيل هياكل الأسرة والريف والإقلال من التنقل السكني من جانب، وبالميول تجاه التنوع في بيئة نفس القرية، والتي تفضل إعادة تجديد النخب على الجانب الآخر. ويحفز الاندماج أو التزاوج العرقي الذي يتم الممارسات الحضرية، نظرًا للتعديلات التي لا غنى عنها والتي تُحدثها على هذه الممارسات والتنظيمات. بينما تعزز في نفس الوقت تجديد التقاليد والجمع بين تأصيل الجذور والحداثة. (برجاء الرجوع إلى الجزء الخاص بكاترين ميللر لدراسة الحالة التي تقدمها عن سبل سكان القاهرة الذين ينحدرون من الوجه القبلي والذين يعيدون تخطيط هويتهم العرقية والإقليمية من أجل مواجهة التحديات الثقافية والسياسية لحياة الحضر).

وتقوم هذا الحلقة الجديدة من التحول الحضري للتخوم المحيطة بتأسيس نموذج تقليدي من التسلسل الهرمي للمدن، والتي تخدمها مسارات لا تزال تحتفظ بتميزها بسهولة الوصول إليها *(Christaller 1933)*. ولكن الشكل الجديد فيما بعد التركز والهيكلة يتميز بزيادة إمكانية الوصول إلى العاصمة من الريف والإقلال من معدلات الوقت بالنسبة للمسافة. ويعيش ما يقرب من نصف سكان مصر في مساحة يبلغ نصف قطرها من ٨٠-٩٠ كم في القاهرة، ومعنى ذلك، أن الحد الأقصى للسفر يوميًا لمسافة قدرها ١٢٠ كم، يعادل الركوب يوميًا لرحلة زمنية قدرها ٣ ساعات. ويضم نصف قطر قدره ٢٠٠ كم ما يقرب من ٧٠% من السكان. ويتعلق هذا النطاق الواسع من "الملاذ الثالث" ***(إذا ما كان المنزل هو الملاذ الأول للمرء – ومكان العمل هو الملاذ الثاني – فإن أماكن التواصل الاجتماعي المهمة هي المقصودة بالملاذ الثالث في علم الاجتماع – المترجم)***، المقصود إذا ما قمنا باستعارة تعبير جيرو وفانيير (٢٠٠٠) أيضًا بالأحياء الريفية المكتظة بالسكان، وبالتالي بالكثافات السكانية العالية: فإن الأحياء التي يوجد فيها

أكثر من ثلاثة آلاف ساكن في الكيلومتر المربع ليست بالأمر الشاذ هنالك. وقد تحدد متوسط الكثافة السكانية لهذا التعريف للمجال الواسع للقاهرة الكبرى من ١٧٠٠ فرد لكل ٣٥,٠٠٠ كيلومتر مربع من الأراضي المصرية الصالحة، والذي يعتبر بالفعل أكثر كثافة سكانية من مدن أمريكا الشمالية العملاقة بوسطن- واشنطون. ويعتبر هذا الملاذ الثالث هو مجال التشابك والحركة في حقيقة الأمر. ولسنا في حاجة إلى تصويرها كضاحية تضج بالأنشطة اليومية في المنزل والعمل فحسب. حيث لا يعزز هذا المفهوم هيكل سوق العمل أو الوزن النسبي الضئيل للعاملين بأجر. ويعزز هذا المفهوم بدلاً من ذلك المناطق المتغيرة والتي تتميز بحركة البضائع، والأعمال، والبحث عن الأعمال المؤقتة، وفرص التوظيف الذاتي والمرتبطة بالظروف السائدة فيها. ويتميز هذا المكان بوجود عجز متوطن وازدياد ملحوظ في الحواضر وأسواق المدن، والأعياد الدينية، واحتفالات الزواج، وبدون الأخذ في الاعتبار أهمية الزيارات العائلية التي تقوم بإعادة ربط الأبعاد الاجتماعية وتقوم بمد وتقوية الأواصر وروابط الألفة.

ومثلما لم تتراخ عمليات التركيز والاندماج حول مدينة القاهرة، بل وتزاد قوة، فإن هذه الميول الديموغرافية والتي تبدو متناقضة تقوم بخدمة ترشيد الآلية التي تندفع بها الحاضرة نحو المدنية. وهي تقوم بخدمة مركزها والتي يمكن أن تصبح بكل يسر هدفاً لمواقع إعادة تعمير ووظيفة إعادة التخصيص، والتقليل من التكاليف الباهظة المتعلقة بالتكدس. وبعبارة أخرى، فإن كل الفراغات الصالحة للاستخدام قد أُعيد تنسيقها لاستغلالها إلى حد كبير لخدمة التحـــول الحضـــري. ولا يتعلق الأمر، على أي حال، بالتحرك تجاه التشتيت، ولكن بدرجة أكبر بالتوزيع الطبقي للفراغات والتي غالبًا ما كانت منطقة مـــركزية للغاية وكانت تنتظم حول التعاقب المرحلي أو نمط الدائرة. وانتظم هذا الانتشار بالنسبة لعلاقته بالمركز، ولكن أكبر تبادل للكثافة يتركز حول أقطاب متتابعة عبر تدفقات لا تبتعد كثيرًا عن

المركز (براون ووارندوويل ١٩٨٠). ويضم الملاذ الثالث وظائف تقليدية من إمداد العاصمة بالطعام، ويسمح بعمليات الرسملة للمعرفة الفنية المكتسبة والموارد البشرية. ويتم فيها إعادة تكوين طبقة عمالية كادحة. وتتصارع هنالك هذه الطبقة من أجل البقاء، من ناحية، بينما تقوم باستغلال الفئات المتبقية من آلة الحضر الهادرة من جانب آخر. وتخدم من جانب آخر، كمصدر متوقع للعمالة اليدوية، مما يضمن على المدى الطويل تكاليف متدنية للعمالة اليدوية وشبكة كثيفة من الخدمات، وتستخدم في الغالب في قلب المنشآت فضلاً عن القطاعات الخاصة في الخدمة بالمنازل. وهكذا تصبح هذه العمالة مجالاً للأنشطة ذات القيمة المضافة بالغة الضآلة والتي ترتبط كثيرًا بتوسع وتنوع الطلب في مركز المدينة وبمتطلبات الحاضرة والتي تتزايد تعقيدًا. وسيكون ترسيم الحدود الدقيقة بجلاء لهذا الملاذ الثالث بلا طائل. ويجب أن نفهمها كمنطقة، أو بالأحرى، كهالة تحيط بالأقطاب والمنافذ. ويجب أن نلحظ أيضًا أن الملاذ الثالث في الفراغات الضيقة الصالحة للاستخدام مثل وادي نهر النيل في مصر في هذه المدينة العملاقة يمكن أن تمتزج بالمجموع الكلي، والذي يعني القطر بأكمله على المستوى القومي. وستقوم دائمًا على هذا النحو، بخدمة آلة حضرية ستستمر في استغلال الدخول الخاصة والقيمة الفائضة، وتقوم بإعادة توزيع الحد الأدنى من أجل إعادة تأكيد مركزيتها.

نمط إنتاجي كبير ولكنه لا يزال تابعًا

ويبدو، ومع الوضع في الاعتبار ضغط المكان والزمن واندماج التسلسلات الطبقية الهرمية لجانب كبير من الأقاليم في النظام الحضري، أن امتداد الأنشطة الإنتاجية ترتبط بإعادة تشكيل العاصمة.

وهكذا تتركز ٨٥% من المنتجات الصناعية السنوية في ١١ مدينة (انظر الجدول رقم ١١) تقع في منطقة دلتا النيل (شمال القاهرة وجنوب البحر الأبيض المتوسط). وتسهم القاهرة الكبرى على الدوام بنصف الناتج الصناعي القومي، ولأن المسافة بين القاهرة وقناة السويس تقل عن ثلاث ساعات، فإن الأقطاب الرئيسية المتخصصة لمدن الدلتا أصبحت ملامح مهمة. واندمجت أنشطة الموانئ والمناطق الحرة بصفة خاصة إلى الشبكة التي تمثل نصف القطر والتي تقوم بخدمة اقتصاد الحاضرة للقاهرة الكبـرى، وهـي مُكرسة إلى حد كبير لإمدادها أو لتسهيل تدفق منتجاتها.

وتوجد معظم تلك المواقع في القاهرة، مما يؤدي إلى ارتفاع في نسبة الإيرادات التي يتم تحويلها إلى القاهرة ولا تنحاز إلى لا مركزية أنشطة البنوك.

جدول رقم (١١) التجمعات الصناعية في مصر

#	التجمع	الإنتاج الصناعي ٩٧/٩٦ (*)	الوزن النسبي	الوزن الصناعي	الوزن الديموغرافي	مؤشر التركز (**)
١	منطقة القاهرة الكبرى	١١٧٨٧٧٣٦	٥٢,٦	٥٢,٦	١٨,١	٢,٩
٢	الإسكندرية	٣٢٣٩١٨١	٦٧,١	١٤,٥	٥,٢	٢,٨
٣	المحلة الكبرى	٧٠٧٧٥١	٧٠,٢	٣,٢	٠,٨	٣,٩
٤	دمياط	٦١٨٥٧٦	٧٣,٠	٢,٨	٠,٤	٦,٩
٥	السويس	٤٨٣٩٦٦	٧٥,١	٢,٢	٠,٦	٣,٦
٦	المنصورة	٣٧٧٦٠٩	٧٦,٨	١,٧	٠,٨	٢,١
٧	بورسعيد	٣٧٤٠٧٣	٧٨,٥	١,٧	٠,٧	٢,٤
٨	كفر الدوار	٣٠٧٩٠٨	٧٩,٩	١,٤	٠,٤	٣,٤
٩	زفتى – ميت غمر	٢٨٨٩٣٢	٨١,٢	١,٣	٠,٣	٤,٣
١٠	طنطا	٢٨٤٢٠٦	٨٢,٤	١,٣	٠,٨	١,٦
١١	الزقازيق	٢٥٨٠٥٤	٨٣,٦	١,٢	٠,٧	١,٦
١٢	الإسماعيلية	١٩٠٥٢٨	٨٤,٤	٠,٩	٠,٥	١,٧
	الإجمالي	١٨٩١٨٥٢٠	٨٤,٤	٨٤,٤	٢٩,٣	٢,٩

المصدر: الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء ١٩٩٦ أ؛ ١٩٩٦-٩٧

(*) حاصل ضرب عدد الموظفين مضروبًا في متوسط الإنتاجية لكل موظف في كـل مـؤسسة صناعيـة، وطبقًا لحجمها أو كونها جزءا من القطاع العام أو غير ذلك.

(**) الوزن النسب الصناعي بالنسبة للوزن الديموغرافي.

وعلى نفس المنوال، تدخل المدن المتخصصة في الدلتا، سواء مراكز النسيج مثل المحلة الكبرى أو مراكز صناعة الأثاث في دمياط أيضًا في نفس السلسلة التجارية التي تتركز في القاهرة، أو شبكات الإنتاج التي ترتبط بأنشطة وضع اللمسات الأخيرة وتشطيباتها في الأحياء الصناعية للعاصمة: شبرا الخيمة أو أعمال الزركشة في شارع محمد علي بوسط المدينة. كما شهدت منطقة الدلتا تطوير مجموعة من صناعات تعليب المواد الغذائية والتي تستجيب في نفس الوقت لمحاولات إيجاد موضع قدم لها في الأسواق الأجنبية، وبالذات أسواق الاتحاد الأوروبي، بالإضافة إلى مواجهة الطلب المتزايد لمدينة القاهرة حيث تحتل المنتجات الجاهزة للاستهلاك مكانة متميزة. وتقتصر أسواق التصدير إلى حد كبير على المنتجات الزراعية التي تنتج في غير مواسمها والتي لا يتم تصنيعها فقط، ولكن يتم تعبئتها كمنتج نهائي في الدلتا أيضًا. ويوجد مجمع ثلاجات التبريد الوحيد المتخصص والذي يسمح بتصدير الفواكه مثل الفراولة في القاهرة فقط. ويتركز إنتاج الفراولة في شمال القاهرة لبعض الوقت، في القليوبية، حيث تكون قريبة من المستهلكين؛ ونفس الوضع ينطبق على المشمش. كما تستضيف القاهرة، وعلى نفس المنوال، سوق الجملة الوحيد في البلاد، والذي يلعب دوره في تثبيت الأسعار. وقد تركز هذا السوق منذ عام ١٩٩٦، في محور القاهرة – الإسماعيلية. وقد عزز تصنيع الشبكة أداء الأشكال القديمة فقط والتي ترتبط بخطة التوطين الكلاسيكية القديمة والتي تتبنى تسويق الخضر والفواكه في داخل حدود المنطقة الحضرية. وتؤدي هذه الخطة إلى توازن الدخل الخاص الأساسي والذي يقوم بكبح جماح التمدد الحضري. وتكون خطط إنتاج الخضروات والفواكه، مثل المشاتل الزراعية، مُربحة للغاية حينما تكون قيمة الأراضي الزراعية حول التخوم في انخفاض.

وتبدو المدن الصناعية في الدلتا في وضع التبعية للتسلسلات الطبقية للقاهرة للدرجة التي أصبحت مخصصة لصناعة وحيدة أو على الأقل في صناعة

متخصصة للغاية. وتكون، تبعًا لذلك هشة للغاية وأوضاعها مرهونة بالأحوال والظروف السائدة. ويقاسي السكان في المدن المُنتجة للغزل والنسيج من أوضاع مرعبة نتيجة لتدهور القطاع، والمنافسة المتزايدة من الدول الآسيوية لها، وتبدو في أوضاع غير تنافسية، وذلك على الرغم من تدني الأجور في مصر. وأدت الجهود المبذولة لخصخصة المؤسسات التي تقوم بتوظيف أكثر من ٣٠ ألف عامل إلى وجود عدم استقرار في نظم المصانع الخاصة مما يؤثر على الاقتصاد المحلي بأسره (الشركة القابضة للغزل والنسيج ٢٠٠٠).

وتمتلك القاهرة فقط تحت إمرتها صناعة نسيج متنوعة بكفاءة عالية وقادرة على التكيف مع الظروف المتغيرة. وتتركز المعلومات في القاهرة كما أن الإدارة لديها أكثر كفاءة بطريقة نسبية وقادرة على التكيف السريع مع تغيرات الطلب والتعديلات التي تطرأ على قوانين التجارة. كما أن قربها من إدارات البنوك، والإدارات الحكومية، والوزارات هي أمور أساسية ولا غنى عنها. ويوضح لنا تضافر هذه العوامل وتراكمها لماذا لا تعبأ مصر بالتوجهات اللامركزية، باستثناء المتعلقة بالوظيفية منها نظرًا للطفرة الحادثة في أسعار الأراضي. وانتقلت الصناعات الملوثة للبيئة مثل الصلب والأسمنت، على سبيل المثال، لتكون قريبة من الموانئ واحتياطيات الغاز. ولكن إذا ما أمعن المرء النظر إلى الصناعات الاستهلاكية، فإنه يراها وقد انتظمت حول تخوم المناطق المحيطة بالقاهرة. والأخيرة قادرة على إعادة تنظيم شبكة من المناطق الصناعية للمدن الجديدة التابعة، مثل المصانع الاستغلالية المتواضعة المرتبطة بالمنتجات الغذائية، وصناعة (إطارات النوافذ والبلاط)، والأدوات المنزلية والتي تزدهر في المصانع غير الشرعية والمختفية وسط المربعات السكنية.

المدن الثانوية في مصر

لا تملك حتى مدينة الإسكندرية، على الرغم من عدد سكانها البالغين ٣,٥ مليون نسمة، وموقعها المثالي كميناء على البحر الأبيض المتوسط، مسارًا تنمويًا واضحًا ومستقلاً لنفسها عن مدينة القاهرة. وتقع المدينة في أعقاب القاهرة وتخضع للكيفية التي تستجيب بها الأنماط المصرية في سعيها للتكامل مع الاقتصاد العالمي. وفقدت الإسكندرية جهازها المصرفي المستقل في حقبة إنشاء الدولة الحديثة لعهد ما بعد الاستعمار في مصر عام ١٩٥٢، والتي انطوت تحت لواء النظام المالي الوطني المتحد والذي أرسى قواعده في القاهرة. وشرعت مدينة الإسكندرية في جهود تحسين وتحديث البنية التحتية في سنوات التسعينيات؛ ولكن ذلك كان يستهدف تجديد شباب واجهتها فقط. فقد عاني اقتصاد الإسكندرية وراء الكواليس بفظاعة من تدهور مؤسساته الصناعية والتي تميزت بها المنطقة المحيطة بالمدينة منذ سنوات الستينيات. كما عانت مدينة الإسكندرية، بالأكثر من ذلك، من إعادة توزيع أنشطة الموانئ على شواطئ قناة السويس، مع ميناء السويس الجديد، وميناء دمياط الجديد على سواحل البحر الأبيض المتوسط. ولا يُشكل ميناء الإسكندرية أكثر من ٣٠% من إجمالي تجارة مصر بالطن، بالمقارنة بنسبة ٤٥% منذ عشر سنوات مضت قبلها. وكما ستنخفض هذه النسبة مرة أخرى بافتتاح الميناء الشرقي لبورسعيد، والذي يُعتقد أنه محور إعادة توزيع دور البحر الأبيض المتوسط لحاويات الشحن القادمة من قارة آسيا. وقد تضافرت عوامل عدم القدرة مرة أخرى عن إيجاد مبادرة تطوير مستقلة، وجذب الاستثمارات الإنتاجية، بالإضافة إلى التدهور في الأنشطة الصناعية، لتكشف بوضوح أن عملية تحديث الإسكندرية لم تكن سوى عملية تجميل ساذجة ولحساب القاهرة، وامتدادًا لدورها كمدينة عاصمة تجاه البحر الأبيض المتوسط. وهذه الآلية هي التي أوحت بمشروع مكتبة

الإسكندرية والتي فتحت أبوابها في عام ٢٠٠٢ على طول كورنيش سواحل البحر الأبيض المتوسط وبمقدرة ٨ ملايين كتاب. وفقدت الإسكندرية، وعلى الرغم من ذلك ولحساب القاهرة، مؤسسة لا مثيل لها في أهميتها الدولية حيث كانت تعتبر مقرًا إقليميًا لمنظمة الصحة العالمية لما يربو على خمسين عامًا، حيث لم يكن في وسعها أن تعمل من مثل تلك المسافة من منظمات الأمم المتحدة الأخرى، وخطوط الطيران العالمية، والوزارات والسفارات.

وليست الإسكندرية استثناءً من المدن الإقليمية الأخرى. ولا تملك النخبة والطبقة المتوسطة كما هو الحال في المدن الأخرى القوة الكافية للمبادرة بالمطالبة بآلية مستقلة، أو مبادرة سياسية، أو مجرد تطوير علامة تجارية لمؤسسة محلية بكل بساطة. وتورطت غرفة التجارة والصناعة مع محافظ الإسكندرية سياسيًا بلا جدال في عمليات تطوير مناطق عشوائية وتجمعات سكنية للفقراء من خلال خطط قروض متناهية في الصغر. ولكن الاندماج السياسي للمؤسسة السكندرية بجوانبها القانونية وغير القانونية ظل متواضعًا بالمقارنة باستمرارها في علاقتها بمركزها، مدينة القاهرة، وإداراتها، ووزرائها، ومؤسساتها، وبنوكها، وعيون وسائل الإعلام في القاهرة. ويعّبر التليفزيون الإقليمي للمحافظة، في حقيقة الأمر عن وجهة النظر الرسمية فقط، والمليئة بصور الإنجازات، ومشروعات التنمية القومية أو المحاولات المتواضعة لخلق فنون شعبية من شخصيات إقليمية من المحافظة. (برجاء الرجوع إلى الجزء الخاص بسميث في هذا الكتاب في تأكيد الهوية النوبية، والجـــزء الخـــاص بفاني كلونا عن التحديات التي تواجهها نُخب المحافظات ووسائل إعلامها).

ولا تملك المحافظة أمر نفسها سواء في مصيرها أو في شكلها. ولم يغير فتح الباب أمام الاستثمارات الأجنبية من هذه الآلية شيئًا. وتمتع الجهاز الاقتصادي للعاصمة بهذه الاستثمارات بمفرده على وجه التقريب (الجدول رقم ١٢).

الجدول رقم (١٢) الوزن النسبي للمدن في المساعدات الأجنبية، كل القطاعات مجتمعة مع بعضها البعض (كل العلامات التجارية، والامتيازات، والمؤسسات)

	المساهمة	النسبة
إجمالي مصر	٨٥٢٢	١٠٠
القاهرة	٤٩٦١	٥٨
الجيزة	٢٠٧١	٢٤
القليوبية	٥٢	١
العاشر من رمضان	٢٥٦	٣
إجمالي القاهرة الكبرى	٧٣٤٠	٨٦

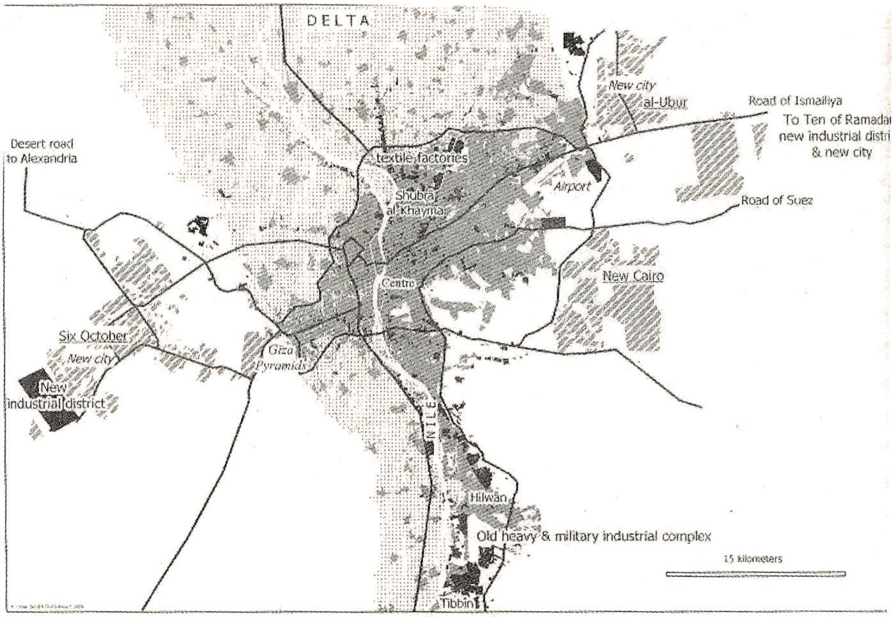
المصدر: دليل الشركات تصنيف المنتجات والخدمات

ولا يتم ترجمة عملية التحرر الاقتصادي وتوفير رأس المـــال مطلقًا إلـــى لا مركزية في الأنشطة. فقد انتقلت مؤسسات الإنتاج الجديدة للسلع الوسيطة، والإسمنت، والصلب فقط على وجه أخص إلى تجمعات خارجية جديدة. ولكن الأسواق المستثمر فيها تقع في محيط منطقة الدلتا على وجه التحديد، وبالقرب من مصادر البترول والغاز الطبيعي، وبجوار النقل البحري. وتستثنى في حقيقة الأمر، المناطق الواقعة في جنوب القاهرة من عملية إعادة نشر الصناعات الوسيطة. وأُعيد تأكيد التهميش المُزري للوجه القبلي بوضوح شديد. وكان فقر الوجه القبلي قد تم تخفيضه إلى حد ما عن طريق الجهود الصناعية التي بُذلت في سنوات الستينيات من القرن الماضي، وعن طريق التوسع في التنمية السياحية العالمية. ولكن تبخرت قوى الدفع هذه إلى حد كبير، أو أُعيد تركيزها في القاهرة. وشجعت المنافسة مع شبكة المدن الرئيسية في الدلتا، والحيوية والنشاط اللذان اتسمت بهما موانئ مدن قناة السويس الجديدة، واختفاء دعم الدولة واستهداف التنمية تحت مظلة التعديـــلات الهيكلية، على تهميش الوجـــه القبلي بينما هي تصطدم مع آليات عاصمة الحاضرة.

إعادة توزيع الصناعات

ويعتبر مفهوم إعادة نشر الصناعات، والتوسع مع التركيز الحضري، ضروريًا لفهم آلية التأثير في قاعدة اقتصاد المدينة بالإضافة إلى مشروعات المباني المركزية والمحيطة بالمركز. وتقوم المؤسسات الصناعية، وبصفة أعم، شبكات الإنتاج بإعادة تشكيل نفسها طبقًا لنمط الإدارة والتي تظل مرتكزة بشكل كامل تحت مهام قيادة القاهرة. كما يرتبط هذا النمط بمواقع المحافظات، وبالأقطاب الحضرية الجديدة الكبرى والتي تقع في قلب المدن الجديدة.

ويصور إعادة البناء الكامل والمتسارع، وفي أقل من ١٠ سنوات، والزيادة الكبيرة في القدرات الإنتاجية في قطاع الصلب الأهداف العامة تجاه اللامركزية في الصناعات الوسيطة. وتتيح لنا هذه العناصر مجتمعة مع بعضها البعض، فهم نتائج هذه الآلية الحضرية الجديدة. وبفعل ازدياد النشاط والذي نجم عن التوسع في عمليات البناء بالقاهرة، والمواقع الضخمة من أجل مشروعات الري والتحسينات في شمال سيناء وتوشكى (الصحراء التي تقع إلى الغرب من خزان أسوان وهو مشروع بالغ الضخامة من أجل استصلاح الأراضي الصحراوية)، وشبكات صناعة الصلب تم إعادة تنظيمها حول مجموعة قطاع خاص قوية (مجموعة عز لصناعة الحديد والصلب)، والتي تسيطر الآن على ٧٠% من حجم أعمال السوق.



المناطق الصناعية القديمة والجديدة لضواحى مدينة القاهرة (إريك دينيس)

وحدث ذلك بفضل تأسيس قدرات إنتاجية جديدة أولاً في المدن التابعة مدينة السادات والعاشر من رمضان من جانب. كما سيتم إنشاء قاعدة أمامية أخرى لصناعة الصلب على الناحية الأخرى من قناة السويس، وعلى ضفاف سيناء، وبالقرب من مركز الكهرباء الذي تم إنشاؤه طبقًا لنظام (تسليم المفتاح- أو البناء والتشغيل ثم تحويل المشروع للدولة) والتي بموجبها تقوم شركة قطاع خاص وغالبًا أجنبية القيام ببناء البنية الأساسية، والتشغيل لفترة معينة من السنوات، ثم تقوم بتحويل المشروع للممثلين المحلين. واستحوذت شركة مجموعة عز في عام ٢٠٠٠ على ٣٠% من أسهم شركة الإسكندرية للحديد والصلب، وهي من أهم الشركات المنتجة لشرائح الفولاذ والخرسانة المسلحة. وكان التحالف الجديد في صناعة الصلب ممكنًا فقط بعد أن قام المستثمرون من القطاع الخاص بالاستحواذ على أغلبية رؤوس الأموال في أكثر مؤسسات القطاع العام كفاءة. وأصبح القطاع العام والذي كان لا يزال محتفظًا بأغلبية أسهم صناعة الصلب في نهاية سنوات الثمانينيات، يمتلك الآن موقعًا واحدًا، وهي شركة حلوان للحديد والصلب، والتي تقع في التبين إلى جنوب القاهرة، والتي كانت تمثل القلب من مجمع صناعة الحديد والصلب الجديدة لسنوات الستينيات، وتستحوذ الآن على ٥% فقط من الإنتاج الحالي للصلب في مصر. وعلى الرغم من ذلك، فإنه يعمل بها ٢٣ ألف عامـــل، أو ما يعادل ٢٦% ممن يعملون في القطاع بأكمله. وبذلك أصبح هذا الموقع هو أقل قطاعات صناعة الصلب كفاءة والأكثر إهمالاً؛ كما أصبحت أكثر المواقع الملموسة لتنظيمات العمال واحتجاجاتهم (*Posusney 2002, 1997*).

وبعد أن قام الصلب، جوهرة التصنيع، بتعزيز الاستقلال القومي للحاضرة، والمكانة الدولية، في البداية فإنه أصبح مسرحًا هائلاً للمشاحنات العمالية. ولم يعد يُذكر أي شيء عن احتمالات خصخصتها. وأعيدت هيكلة شبكة قطاع الإسمنت

طبقًا لنفس الخطة؛ فلم يعد القطاع العام يسيطر الآن إلا على مالا يزيد عن ٣٠% من هذا القطاع وفي موقع طره الواقعة جنوب القاهرة. وتم إعادة شراء هذه المنشأة في عام ٢٠٠٠، بعد خطة خصخصة من قبل شركة قطاع عام أخرى وهي السويس للأسمنت، ويبدو أن نهايتها قد أزفت نظرًا للتكاليف الباهظة التي تواجهها نتيجة لتطبيق معايير محاربة التلوث. وأصبحت الشركات المحلية خارج القاهرة، على الجانب الآخر، تسيطر عليها المؤسسات الأجنبية مثل لافارجي أو بلو سيركل. كما واجهت شركات القطاع العام للغزل والنسيج صعوبات مماثلة في منطقتين من مناطق القاهرة الصناعية: شبرا الخيمة ومدينة السادس من أكتوبر.

ويتم تطويق التغيرات بعيدًا عن الاستخدامات الصناعية ولصالح إعادة التخصيص- وإعادة التقسيم والتجديد الحضري. وتجد الحواضر نفسها تتغير شيئًا فشيئًا عن طريق دمج الأراضي البور حولها. وكانت منطقة المرفأ من جهة الشمال الشرقي على شواطئ النيل بمنطقة بولاق في وسط القاهرة مجالاً لعمليات تخصيص كبيرة، وعلى وجه الأخص بعد تشييد مركز التجارة الدولي، والتي أصبحت منذ ذلك الحين تخدم كنقطة انطلاق لإعادة تشكيل المنطقة العمالية المجاورة لها. (برجاء الرجوع إلى الجزء الخاص بفرحة الغنام في هذا الكتاب من أجل مناقشة تطوير هذه المنطقة وعمليات الإزالة القسرية لسكانها). وتتسم آليات إعادة التقسيم وإعادة تجديد الحضر بالبطء النسبي، إذا ما أخذنا في الاعتبار النقص في رأس المال المتاح. كما يحظر القانون دائمًا الاستحواذ على أي منشأة من أجل الأرض المقامة عليها فقط، بمعنى استخدام الموقع لأي نشاط آخر غير الذي يتم ممارسته عليه. ولكن أعلن عن العديد من الاستثناءات، وبالذات في حالات تواجد مخازن خالية.

ووقع الجزء الأعظم من القدرات الاستثمارية في قبضة الدولة في السنوات العشر الأخيرة. واستتبع ذلك التدخل في الأسواق بأسعار متدنية، في مساحات شاسعة من تخوم الأراضي الصحراوية للقاهرة الكبرى والتي ستنضم لعمليات التحول الحضري بعدئذ (ما يقرب من ١٠٠ كيلومتر مربع، وهي تبلغ أكثر من ثلث مساحة المدينة البالغة الضخامة في عام ١٩٩٠). وأدى وفرة العرض إلى زيادة المديونيات في البنوك بشكل كبير للغاية للجزء الأكبر من بين عدد ٣٢٠ شركة والتي أخذت على عاتقها مشروع تقسيم وتنمية الصحراء. كما أدى لجوء السوق إلى إدخال مقاولات إنشاء مشروعات سكنية فاخرة لشريحة خاصة من السكان في حقيقة الأمر إلى تآكل عوائد الاستثمارات. وقد تأثر القطاع بشدة من جراء التدهور الحاد في الأسعار، والزيادة في المعروض، وارتفاع تكلفة المشروعات، بالإضافة إلى الصعوبة البالغة في تأمين استثمارات رؤوس الأموال. ومرت مقاولات البناء بأزمة عنيفة منذ ذلك الحين، والتي ساهمت بالإضافة إلى المشروعات الحكومية الضخمة في زعزعة الاقتصاد المصري بأكمله. وشرعت ثمانون شركة من الشركات المصرية في تنفيذ مشروعاتها وبناء ٦٠ ألف وحدة سكنية، عبارة عن فيلات قائمة بذاتها. وتم التخطيط لإنشاء ٦٠٠ ألف وحدة سكنية باستثمارات تعادل ثلاثة بلايين دولار أمريكي. (برجاء الرجوع إلى الجزء الخاص بدينيس في هذا الكتاب لتحليل أكبر لحجم الفيلات الفاخرة والتجمعات السكنية ذات الأسوار الخاصة).

وعلى الرغم من عدم الاستقرار، ومخاطر انفجار الفقاعة العقارية، في إعادة لمشهد الأزمة العقارية للاقتصاد التايلندي، فقد استمر السير على هذا المنوال بدون بصيرة. ويحتضن العامل المهم الذي يتمثل في توافر مساحات من أراضي الصحاري العامة في أيدي الدولة في مدينة القاهرة والتخوم التي تحيط بها، هذا النوع الجديد من أولوية التطوير والتركيز الحضري، والتي قفزت بكل بساطة إلى

معدلات غير مسبوقة. وهناك فرص واعدة لإعادة الاستثمار حتى في قلب التكتلات السكنية، إذا ما أُخذ في الاعتبار الممتلكات السلعية والسكنية الحكومية والتي تعتبر "خارج السوق". وتمتلك وزارت الدولة المتعددة أكثر من نصف مساحة الكتل السكانية الحالية للقاهرة، في نفس الوقت الذي تتوافر فيه مقدرة ضخمة على التمدد تجاه الحواف الصحراوية وبدون حدود على وجه التقريب. وليس هناك موقع حضري مصري يمكن أن يمنح مثل هذه الإمكانيات. ويُحد الامتداد الطولي على شاطئ البحر لمدينة الإسكندرية مثلاً من احتمالات أي اتساعات مستقبلية لها، كما أن الحزام الأخضر من الأراضي الغنية والمحيطة بمدن الدلتا والتي تتكفل بتغذيتها تحيط بها، كما أن مدن قناة السويس مثل بورسعيد مقيدة بالاستثمارات الهائلة التي تتطلبها من أجل تطوير الضفة الشرقية من قناة السويس.

ويمكن للدولة أن تلعب دورًا رائدًا عن طريق تخفيض أسعار الأراضي بطريقة هيكلية، في نفس الوقت الذي تقوم فيه بإدخال السلع الموجودة تحت يد الحكومة إلى السوق، لأنها تعتبر خارج نطاق السوق الفعلية. ويمكن لعملية الخصخصة إذا تزامنت مع الإقلال من ندرة الأرض أن تقوم بضخ نوع من ثروة المضاربة داخل شرايين الاقتصاد. ويجب أن نأخذ في الاعتبار أن دعم التحول الحضري والخصخصة يندرجان تحت منطق معين للدولة، وليس لأي منطق لقوى "السوق". ويبدو واضحًا للعيان التواطؤ بين المصالح القومية والمصالح الحضرية.

شبرا الخيمة مقابل مدينة ٦ أكتوبر:
نظرة من قريب للقطاع الصناعي للتحول الحضري الجديد

وتعكس قيمة الإنتاج الصناعي ترتيب الضخامة والتسلسل الهرمي للتركز الصناعي والتي تشير إلى أنماط الانتشار والنشاط، مُقسمة طبقًا للمناطق التي تتواجد فيها (جدول رقم ١٣). واستمرت الأقطاب الصناعية في شمال القاهرة

بالتبين وحلوان في ظهورها وكأنها مهيمنة بكل تأكيد. ولكن سيطرتها في طريقها للأفول، وعلى وجه الأخص في خلال أقل من خمسة عشر عامًا، فقد بدأت المناطق الصناعية والمدن الجديدة في العاشر من رمضان والسادس من أكتوبر في تأكيد أوضاعها مقابل الأقطاب الصناعية الثانوية التقليدية القاهرية، كشبرا الخيمة. وستحتل المدن التابعة الجديدة على وجه السرعة أعلى درجات السلم الصناعي، إذا أخذنا في الحسبان أعداد المشروعات التي أوشكت على الاكتمال واحتياطياتها الآخذة في النمو والمهمة من المشروعات الموجودة بالفعل، بينما تتجه الصناعات التقليدية للقطاع العام نحو الانحدار بوضوح شديد. وتسجل عمليات الإقصاء المكانية هذه هزال القطاع العام والذي تؤول مساهماته في الإنتاج إلى الضعف المستمر، وفي الغالب من خلال تقادمها ونقص الاستثمارات من خلال الخصخصة على سبيل المثال. فلقد هبطت مساهمتها في الإنتاج من ٦٣% في عام ١٩٨٣ إلى ٢٤% في عام ١٩٩٨، بالنسبة لأرباح القطاع الخاص (سليمان ١٩٩٨).

ويتم تصوير تغير أنماط التركز الصناعي لمدينة القاهرة – بتأثير العولمة الاقتصادية، وبمضاعفة مساحة الأراضي حول الحواضر المدنية – بصفة خاصة في تحليل مقارن لاثنين من مراكز النسيج: شبرا الخيمة، والتي تقع إلى الشمال من مدينة القاهرة والتي تأسست في سنوات الثلاثينيات من القرن العشرين بعد التوسع المبدئي في صناعة النسيج؛ والمدينة الجديدة السادس من أكتوبر والتي تقع إلى الجنوب الغربي من القاهرة الكبرى. وتعتبر المدينة الأخيرة ثمرة من ثمار عمليات التخطيط الحضرية التي تم تدشينها في نهاية أعوام السبعينيات ومعها مدينة العاشر من رمضان. وتعتبر هاتان المدينتان الصناعيتان نتيجة لنوعين مختلفين من جوانب التطوير الصناعي. وتقع مدينة شبرا الخيمة في محافظة القليوبية في شمال القاهرة الكبرى، وهي واحدة من المدن التي شهدت أسرع معدلات النمو في مصر.

واستقبلت محافظة القليوبية بكفاءة المراكز الرئيسية لإنتاج النسيج. وبدأت صناعة النسيج الحديثة في التطور منذ سنوات الثلاثينيات من القرن الماضي، وبفضل التعريفة الجمركية التي تم وضعها لحماية الصناعة المصرية، مكونة واحدة من القطاعات المركزية للإنتاج الصناعي في مصر، وبالذات في عهد العمالة اليدوية- وهو القطاع الثاني بعد الإنتاج الغذائي. ولا تزال اليوم، تمثل ٢٤% من التوظيف الصناعي للأيدي العاملة و٢٥% من الإنتاج الصناعي. وأصبحت شبرا الخيمة، ومنذ سنوات الأربعينيات مركزًا رئيسيًا من مراكز صناعة الغزل والنسيج. وتقوم المؤسسات الكبرى العاملة هناك بتعزيز وتجديد شبكة صناعة المنسوجات والمتواجدة بالفعل في القليوبية. وتم تأميم مصانعها، بما في ذلك أضخم مغزل للصوف في مصر وولتكس (والذي أنشئ عام ١٩٣٧) ومحلج القطن إسكو (الذي تم تأسيسه عام ١٩٤٠) وذلك فيما بين عامي ١٩٦١ وعام ١٩٦٣ (بلبل ونجيب ٢٠٠٠).

وأصبحت شبرا الخيمة منذ ذلك الحين هدفًا لمشروع للتقوية والتعزيز، خاصة المنطقة المحيطة بمركز إسكو، والتي لا يزال يعمل فيها ٢٦ ألف عامل في عام ١٩٩٠. واعتبرت شبرا الخيمة في سنوات الستينيات من القرن الماضي واحدة من المدن الصناعية الرئيسية في مصر من ناحية عدد المصانع والعاملين فيها. وهكذا ظهر قطاع الغزل والنسيج، القاعدة الصناعية للأحياء الشمالية من القاهرة كشبكة متكاملة، من ناحية محالج القطاع العام إلى صناعة الملابس، والتي هي في الأساس قطاع خاص وفي جانب منه غير قانوني / غير رسمي. ودشن الرئيس المصري أنور السادات حملة التحرير الاقتصادي (الانفتاح الاقتصادي) أثناء أواخر سنوات السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن الماضي والتي جعلت منطقة الغزل والنسيج تحقق مرحلة جديدة من النمو، وخلق ألفي منشأة صناعية جديدة وتوظيف ما يقرب من خمسين ألف عامل (بلبل ونجيب ٢٠٠٠).

وقد تم تأسيس مدينة السادس من أكتوبر الجديدة، في مسار تاريخي مختلف تمامًا في عام ١٩٧٩ داخل إطار خطة لإعادة توزيع نمو القاهرة الكبرى. وظلت المدينة الجديدة تنتظر اثنى عشر عامًا قبل أن يطرأ عليها معدل متواضع من النمو، من الناحية السكانية. فقد كان يقطن في المدينة ٥٢٧ ساكنا فقط في عام ١٩٨٦، ارتفعوا إلى ٣٥،٤٧٧ ساكنا في عام ١٩٩٦، وإلى أكثر من ستين ألف في عام ٢٠٠٠. ولكن المدينة الجديدة حققت نجاحها الأكبر كمدينة للعمل في مصنع، وليس لمجرد السكنى كمدينة مرتبطة بالكامل بالقاهرة. وكانت المنطقة الصناعية تعمل بالفعل منذ عام ١٩٨٦، أثناء المرحلة الأولى، ومنذ عام ١٩٩٠ للمرحلة الثانية والرابعة، بينما تم استكمال المرحلة الرابعة حوالي عام ٢٠٠٥. وتقدم مدينة السادس من أكتوبر للمؤسسات الخاصة الناجحة مميزات من نظام للإعفاءات الضريبية لأكثر من عشر سنوات، وبنية أساسية مترابطة، وقطع من الأراضي، وبرامج طيبة تسمح بإنشاء وحدات إنتاجية كبيرة. وتعتبر مدينة السادس من أكتوبر الأقرب جدًا لمدينة القاهرة بفضل الطريق الدائري الجديد وارتباطها بالطريق العام والذي يربط بين الوجه القبلي والإسكندرية. ويعتبر طموح مدينة السادس من أكتوبر جزءا من الطموح الوطني. وقد جذبت هذه المزايا المتجمعة العديد من المنشآت (كان عددها ٧٢٢ في عام ٢٠٠٠، طبقًا لدليل الشركات، تصنيف المنتجات والخدمات ٢٠٠٠). وقامت بعض الشركات بالانتقال إلى هناك، عندما تيسر لها ذلك، ليضعوا أنفسهم بجانب المؤسسات التي تم إنشاؤها (برجاء الرجوع إلى جدول رقم ١٤).

الجدول رقم (١٣) الأقطاب الصناعية المصرية في عام ١٩٩٦

#	المنطقة الصناعية	تعريف بالموقع	قيمة الإنتاج ١٠٠٠ جنيه مصري	الوزن النسبي المتراكم(*)
١	قسم التبين	حي صناعي، القاهرة الكبرى	١٠٥٥٤٨٤	٤،٦٥
٢	قسم حلوان	حي صناعي، القاهرة الكبرى	٨٩٣٨٥٠	٨،٥٩
٣	العاشر من رمضان	مدينة جديدة، القاهرة الكبرى	٨٧٤١٨٠	١٢،٤٥
٤	شبرا الخيمة	حي صناعي، القاهرة الكبرى	٦٢٣٠٧٤	١٥،٢٠
٥	قسم سيدي جابر	حي صناعي، الإسكندرية	٥٩٣٨٤٩	١٧،٨١
٦	السادس من أكتوبر	مدينة جديدة، القاهرة الكبرى	٥٢٨٦٣١	٢٠،١٥
٧	قسم الرمل	حي صناعي، الإسكندرية	٤٩١٨٩١	٢٢،٣١
٨	قسم باب شرقي	حي صناعي، الإسكندرية	٤٧٠٠٣٣	٢٤،٣٩
٩	مدينة دمياط	مدينة ومنطقة دمياط	٤٤٧٥٠٠	٢٦،٣٦
١٠	قسم البساتين	منطقة شعبية، القاهرة الكبرى	٤٠٧٠٨٦	٢٨،١٥
١١	المحلة الكبرى	مدينة المحلة الكبرى	٤٠٠٦١٠	٢٩،٩٢
١٢	مركز إمبابة	منطقة شبه ريفية، القاهرة الكبرى	٣٨٩٩١٩	٣١،٦٤
١٣	ميناء الإسكندرية	منطقة صناعية، الإسكندرية	٣٤٤١٤٢	٣٣،١٦
١٤	قسم الجمالية	مدينة قديمة بالقاهرة	٣٢٦٩٢٥	٣٤،٦٠
١٥	قسم الزيتون	حي محيط بالقاهرة، القاهرة الكبرى	٣٢٥٩٩٣	٣٦،٠٤
١٦	قسم السلام	حي شعبي، القاهرة الكبرى	٢٨٤٣٧٧	٣٧،٢٩

المصدر: الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء ١٩٩٦ أ؛ ١٩٩٦-٩٧

* عدد العاملين مضروبًا فى متوسط الإنتاج للعامل في المؤسسات الصناعية، طبقًا لحجم المنشأة وكونها تنتسب للقطاع العام من عدمه.

جدول رقم (١٤) التسلسل الزمني لإقامة مصانع مدينة السادس من أكتوبر

المصانع	١٩٩١	١٩٩٢	١٩٩٣	١٩٩٤	١٩٩٥	١٩٩٨	٢٠٠٠
الإجمالي	١٩٠	٢٠٢	٢٩٦	٣٤٩	٣٨٥	٥٦٢	٧٧٢

المصدر: دليل مدينة السادس من أكتوبر ١٩٩٨-٩٩ - ودليل الشركات - تصنيف المنتجات والخدمات- مصر ٢٠٠٠

ويوضح لنا إنشاء مدينتين صناعيتين العديد من الفروق في طبيعتهما. فمدينة شبرا الخيمة كثيفة ومكتظة، وتتكون أساسًا من وحدات صناعية صغيرة. وهكذا وعلى مستوى محافظة القليوبية فإن ١٣٠ ألف شخص يتم توظيفهم بواسطة ١٦،٠٠٠ منشأة: ٢٥% من هذه المنشآت يعمل فيها عامل واحد فقط، ٦٧% يعمل فيها ٢-١٠ من العاملين (وهكذا فإن ٩٢% من المنشآت تقوم بتوظيف أقل من ١٠ عمال لديها). وليس في الحسبان في هذه الإحصائيات ولسوء الحظ القطاع غير الرسمي والمهم الذي يتميز بصغر الوحدات الإنتاجية. أما المؤسسات المتواجدة في مدينة السادس من أكتوبر فتتميز بحجمها الكبير كما هو موضح في الجدول رقم ١٥ والجدول رقم ١٦.

الجدول رقم (١٥) حجم المنشآت في مدينة السادس من أكتوبر في عام ٢٠٠٠

حجم المنشأة	عددهم	النسبة
١-٩	٧٣	١٢،٦
١٠-٩٩	٣٤١	٥٨،٨
١٠٠-٤٩٩	١٤١	٢٤،٣
٥٠٠ فأكثر	٢٥	٤،٣
الإجمالي	٥٨٠	١٠٠

المصدر: ودليل الشركات - تصنيف المنتجات والخدمات- مصر ٢٠٠٠

(يضم هذا الاستبيان ٥٨٠ منشأة وهي التي شاركت فيه)

الجدول رقم (١٦) حجم المصانع في الصناعات التحويلية في السادس من أكتوبر وشبرا الخيمة

أعداد	المصانع	العاملين	نسبة العاملين بكل مصنع
شبرا الخيمة	٥٨٧٩	٧٠٢٤٥	١٢
السادس من أكتوبر	٣٨٥	٢٨٤١٥	٧٤

المصدر: الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء ١٩٩٥.

ويظل قياس كثافة الإنتاج الصناعي من حيث قيمة الإنتاج، مختلفًا في كل من المنطقتين الصناعيتين، وفي صالح قوة القيمة المضافة للإنتاج في المدن الجديدة. فإذا ما كان المقياس على المستوى القومي فإن شبرا الخيمة تأتي في المركز الرابع بين الأقطاب الصناعية بإجمالي قيمة إنتاج تبلغ ٦٢٣ مليون جنيه مصري (٢,٧٥% من الإنتاج القومي). وتأتي مدينة السادس من أكتوبر في المركز السادس على المستوى القومي بقيمة تبلغ ٥٢٩ مليون جنيه مصري تم إنتاجها في عام ١٩٩٦-٩٧ (٢،٣٤% من إجمالي الناتج القومي، جدول رقم ١٢). وتنطبق نفس الملاحظات على المدينة الكبيرة الجديدة الأخرى، وهي العاشر من رمضان (شمال شرق القاهرة الكبرى) والتي تأتي في المركز الثالث على المستوى القومي، وبإنتاج تبلغ قيمته ٨٧٤ مليون جنيه مصري (٣،٤٦% من إجمالي الناتج القومي). وقد أصبحت هذه المدن الجديدة وفي أقل من عشر سنوات بين أولى المناطق الصناعية ومصدر التوظيف في مصر. واحتدمت البطالة في شبرا الخيمة من ناحية ثانية. وتعتبر أزمة البطالة هناك في جانب منها، نتيجة لضعف الإنتاجية في هذه المنشآت. فقد عانت، على سبيل المثال شركة الغزل والنسيج إسكو من استقطاعات في امتيازات حق البيع للقطاع العام (المحلات الوطنية الكبرى مثل عمر أفندي، وصيدناوي، وشملا، والتي اجتاحتها الآن المنافسة المحلية والعالمية)، والتي تقوم ببيع الملابس المصنوعة عن طريق منشآت القطاع العام، وتقوم بكفاءة بتغذية جانب كامل من الصناعة المحلية. وأدى ضمان هذه المنافذ لمبيعاتها، مع انخفاض المنافسة في سوق مغلقة، إلى إنتاج منخفض المستوى بدرجة كبيرة وضيق مجال التنويع في المنتجات النهائية (من حيث الطراز، والتصميمات، والألوان، إلخ). وتم إلغاء الدعم الاجتماعي، وخصخصة سلسلة محلات البيع بالتجزئة منذ سنوات التسعينيات، مما عجل بنهاية هيمنتها على الأسواق. والأكثر من ذلك، فإن انتشار علامات تجارية أجنبية مثل (ناف ناف، وبينتون، ومكس،

وغيرها)، على الرغم من الانتشار الاجتماعي المحدود لمنتجاتها، فإن نموها كان يستهدف الأسواق المصرية. (يمكنك الرجوع إلى الجزء الخاص بأباظة الشثناوي في هذا الكتاب لقراءة مناقشة نظم المؤسسات الجديدة لقطاع التجزئة في المراكز التجارية الفاخرة واضمحلال المحلات التجارية الوطنية القديمة). وأصبح يتعين على المؤسسات العامة الكبرى في منطقة شبرا الخيمة أن تفكر في إغلاق المؤسسات الصغيرة، والتي كانت تجني بعض الأرباح من نفس الأسواق بفضل سلسلة التعاقدات من الباطن، واضطرت إلى مواءمة أنظمة منتجاتها والبحث عن منافذ جديدة. وفي نفس الوقت، فإن المنشآت المرتبطة بالاستثمار في مدينة السادس من أكتوبر هي تلك التي تمتلك شبكة توزيع على المستوى القومي. وتعتبر هذه المؤسسات، في مجملها، مؤسسات تقدم منتجات ذات قيمة مضافة عالية (السيارات، على سبيل المثال)، أو تلك التي تقوم بتصنيع منتجات غذائية على نطاق واسع للسوق الاستهلاكية (شيبسي، ونسله، وغيرها).

وهكذا يأتي التكامل في قطاع الاقتصاد الحضري من مبررين مختلفين. وتُشجع من جانب، وجهة نظر شبرا الخيمة تواجد سلسلة الإنتاج بأكملها والتي تنتظم حول تخصص الغزل والنسيج القوية على التجمع في علاقات مجموعات متجانسة على مستوى الحي، وبين وحدات الإنتاج المختلفة. ويرسخ التركز الجغرافي والقطاعي للمنشآت مع الاقتصاديات المحلية والخارجية (وعلى وجه الأخص إمدادات العمالة اليدوية). ويحدث ذلك بدون التعاون على مستوى الشركات والعمل المنسق المشترك المعتاد كما هو الحال في قطاع معارض الملابس التي لا يستثمر فيها التخصص من حيث مراحل التشغيل (وأيضًا في نظام الشبكات)، ولكن أكثر فيما يتعلق بناحية السوق. وتقوم المنشآت الكبرى بالبيع في أسواق القاهرة، بينما تقوم المنشآت الأصغر حجمًا بالبيع في الأسواق غير الرسمية وأسواق فئات محدودي الدخل. ويعتبر هذا التمييز له أهميته بقدر ما تقوم السوق

الأولى بتسويق ملابس مصنعة من أقطان ذات جودة عالية، بينما تستخدم الثانية نوعيات منخفضة الجودة من القطن، حيث تكون أقل تكلفة في السوق العالمية عن تلك التي يتم إنتاجها في مصر. ونتيجة لذلك، فإن الالتزام باستيراد الأقمشة الأساسية يقوم بزيادة التكلفة، وتجعل من الصناعة في منطقة شبرا الخيمة أكثر هشاشة عندما تواجه بالمنافسة التي يفرضها وجود منتجات أقل تكلفة ومن نوعية معقولة تأتي من دول أجنبية (وعلى الأخص من الصين وباكستان). وتحتل مؤسسات السادس من أكتوبر مواقع تؤهلها للأسواق الوطنية القانونية/ أو الرسمية. وتقف هذه المؤسسات، بوجه عام، في نهاية سلسلة الإنتاج (في نظام الشبكة) والتي تقوم بتقديم منتج نهائي جاهز للاستهلاك. وتلجأ في عملياتها الإنتاجية، على الرغم من ذلك، إلى التعاقد من الباطن مع شركات قطاع خاص صغيرة من وقت لآخر، مثيلة لتلك الموجودة في شبرا الخيمة.

وفقدت المؤسسات التي كانت متواجدة في شبرا الخيمة، في نهاية الأمر، منافذ البيع ذات الحماية في أسواق بلدان أوروبا الاشتراكية، بينما تواجه في السوق العالمية، كما رأينا من قبل، منافسة تحتمها سياسة التسعير ومستويات الجودة لمنتجات التصدير للملابس الجاهزة والقادمة من دول كالصين (راجع بلبل ونجيب ٢٠٠٠ لتحليل أكثر عمقًا لمنطقة شبرا الخيمة؛ والجزء التالي يرتكز بشدة على هذا التقرير). وهكذا، وعلى الرغم من الزيادة المهمة فيما بين عامي ١٩٧٥ و١٩٩٢ (بما يعادل ١٤،٠٥٧،٠٠٠ دولار أمريكي في عام ١٩٧٥ إلى ٧٠،٥٣٩،٠٠٠ في عام ١٩٩٢ *طبقًا لتقرير التنمية الاقتصادية، سلسلة عام ١٩٩٤*)، فقد ظلت صادرات الملابس الجاهزة ضعيفة نوعًا ما بالنسبة لبلد منتج للغزل والنسيج. ولم تستفد مؤسسات شبرا الخيمة من هذا النمو، ولكن مؤسسات التصدير، في بعض الأحيان، قامت بالمساهمة في بعض أوامر الشراء كمقاولين من الباطن. ويعتبر التواجد العالمي (كمؤسسة أجنبية، أو الصنع بموجب حقوق الامتياز لعلامة

تجارية، أو ماركات أجنبية لا تزال قيد الانتشار) ضعيفًا في شبرا الخيمة. وهنالك فقط ٢٦ مؤسسة محلية تقوم بتوزيع إنتاج علامات تجارية عالمية، أو عمومًا بتصنيع "عناصر تدخل في عملية الإنتاج" لمنتجات أخرى، وهناك اثنتان فقط من المؤسسات تقومان بعملية إنتاج بموجب ترخيص (دليل الشركات - تصنيف المنتجات والخدمات ٢٠٠٠). وهذا التواجد، أكثر وضوحًا في مدينة السادس من أكتوبر. وكانت نسبة ١٠% من حجم الأعمال مرتبطة بصلة وثيقة بمؤسسات أجنبية في عام ١٩٩٦. وتظهر لنا بيانات دليل الشركات - تصنيف المنتجات والخدمات ٢٠٠٠ أن عدد ٢٠٣ شركة من إجمالي عدد ٧٢٢ لديها علاقة ما بطريقة أو بأخرى بالمستوى العالمي: ١٦٨ شركة تقوم بتمثيل ماركات عالمية، ٤٨ شركة تقوم باستغلال حقوق امتياز علامات تجارية عالمية (التصنيع بترخيص من الشركة العالمية)، وستون شركة لديها نوع من المشاركة مع الشركات الأجنبية (تتراوح بين المشاركة بأقلية من الأسهم إلى نسبة مشاركة كاملة)؛ ٢٥ شركة منها فروع لشركات أجنبية. وربما نلاحظ أن الأرقام، على أي حال، لا تتوافق تمامًا مع الإجماليات، حـيث إن هنـاك بعض المؤسسات تندرج تحت أكثر من فئة من الفئات السابقة.

وتتيح لنا عمليات الرصد المتنوعة أن نقوم بوصف العلاقة التي وضعت في مكانها الصحيح، من حيث الشروط الجغرافية، وفي الجزء الداخلي من حاضرة منطقة القاهرة الكبرى، وبين المستوى المحلي والعالمي. وتوضح المقارنة بين صناعات الغزل والنسيج في كل من السادس من أكتوبر وشبرا الخيمة بما لا يدع مجالاً للشك الرابطة المهمة، وإن كانت غامضة في الغالب والتي تتطور بين القطاعات المتكاملة والقطاعات غير المتكاملة "للاقتصاد الحضري الجديد" والتي ظهرت من جراء تطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادي في مصر. وأصبحت صناعة الأقمشة القديمة هشة بسبب فك الارتباط مع القطاع العام نظرًا للمنافسة التي

فُرضت عليها عن طريق المناطق الصناعية الجديدة، والتي تقوم بجذب المنشآت ذات الربحية العالية والتي غالبًا ما تكون عالمية، ولديها رأس مال أقوى، كما تقوم باستخدام أشكال وأساليب إدارية جديدة لشئون الأفراد. ويمكن تصوير هذا الوضع من حيث الهوة التي تزداد اتساعًا بين المصانع القديمة والتي تم تأسيسها بطريقة متزايدة اعتمادًا على قطاع خاص صغير الحجم وغير رسمي في أغلب الأحيان، ويعاني من الفقر الحضري وزيادة القابلية للتأثر للظروف الاقتصادية القومية المُجدبة، وتبعيتها في علاقاتها لمؤسسات كبيرة. وتقوم مؤسسات جديدة مملوكة للقطاع الخاص بالسيطرة على حلقات التوزيع في السوق الوطنية، في نمط مقلوب، محددين اتجاهاتهم بالعلاقة مع منطقة الشرق الأوسط وحتى الأسواق العالمية. ونظرًا لاستفادتهم من التحويلات الرأسمالية العالمية، فإنهم يقومون بزيادة اعتمادهم على الظروف الاقتصادية السائدة، ولكن هذه المرة، على المستوى العالمي.

وتأخذ الآلية التي تعمل بها حاضرة القاهرة الكبرى في الحسبان هذه المعلومة: الآلية الحضرية للقاهرة لا تأخذ مجراها حيث اعتادت دومًا، وعلى وجه الأخص في القليوبية؛ حيث تقع شبرا الخيمة، وتتركز الزيادات المكانية، غير المرتبطة بالنمو السكاني، إلى الجنوب الغربي من القاهرة، وبالذات حول القوة الدافعة التي أُعطيت للمدينة الجديدة التابعة، السادس من أكتوبر. ويمكن للمرء أن يعتقد، على عكس الحقيقة، أن قيمة الأرض في شبرا الخيمة والقريبة من المركز يمكـــن أن تقوم بتشكيل الورقة الرابحة الوحيدة للحي والتي يمكن أن تلعبها من أجل التقدم.

وتحدث عملية إعادة الانتشار الواسع النطاق في داخل المشهد الحضري تحت تأثير قوة دفع زيادة الاقتصاد الجزئي والتي تقوم ليس فقط بدعم بل وبتضخيم سيطرة الحاضرة على الأنشطة القومية والثروة بأسرها. وتنصب فائدة هذه الزيادة في صالح جزء فقط من المدينة وسكانها. وبالإضافة إلى ذلك، فإنها تؤدى إلى

ولادة حاضرة ريفية متناقضة يتم استقطابها وإعادة تحديدها. ولقد أغرى تشتيت التركز وإضفاء اللامركزية واللتين خُلقتا عن طريق التبلور السريع للمناطق الصناعية في المدن الجديدة بحدوث تغيير جذري داخل طبوغرافيا قلب البيئة الحضرية، وقيمها، واستخداماتها. ويرتبط ذلك بعمليات تأخذ مجراها بالفعل، مثل تخفيف التركيز الديموغرافي في قلب مدينة القاهرة وتحول الضغوط الديموغرافية نحو أحياء الأكواخ العشوائية شبه القانونية.

إعادة تركيب المدينة المكتظة

وتتداخل مساهمات الكثير من الأحياء القاهرية شبه – العشوائية في الإنتاج الصناعي مع تلك الناتجة عن مدن صناعية كبيرة في المحافظات (جدول رقم ١٣). فتنافس على سبيل المثال، قيمة الإنتاج الصناعي لمنطقة البساتين الصناعية، وهي إحدى أحياء القاهرة الفقيرة، مع قيمة الإنتاج الصناعي لثاني مراكز صناعة النسيج على مستوى مصر وهي المحلة الكبرى. وتتجمع الستة آلاف ورشة صغيرة ومصنع استغلالي في كتل متراصة في الحي المكتظ عن آخره في شبكة متنوعة للغاية وتتسم بالمرونة ويغلب عليها كثرة ورش إعادة التدوير ومعالجة المعادن. وتتنافس هذه الورش مع المؤسسات الكبيرة والقديمة في كثير من الأحيان، غير أن حجم العاملين في ورش البساتين يبلغ في المتوسط ٤ عمال مقابل ٢٧ عاملاً للعاملين في مؤسسات المنطقة الصناعية بمدينة المحلة الكبرى. وتقع المنطقة الصناعية بالمحلة، في حقيقة الأمر، حول أكبر المصانع المصرية وهي مصر للغزل والنسيج، وهي مؤسسة قطاع عام مُكبلة بالديون ويعمل بها ٣٣ ألف شخص. وبينما يعمل في أكبر مؤسسة بمنطقة البساتين، وهي شركة لصناعة البطاريات، إجمالي ٨٠٠ عامل. وأيا كانت التسمية التي يمكن أن نطلقها على حي

البساتين سواء كان حيا للفقراء، أو حيا للأكواخ، أو منطقة عشوائية، أو مجتمعا الاعتماد على الذات، فإنها تُعتبر على رأس أكبر المناطق إنتاجية في مصر؛ وليس هذا بمُستغرب على الإطلاق. وأصبحت هذه الأحياء في نفس الوقت، أكثر الأحياء السكنية من ناحية الكثافة السكانية حقًا (٦٠٠ ساكن في كل هكتار، في المتوسط وعلى المستوى المحلي) وأفضل مواقع شبكات أو تجمعات الأحياء العنقودية المتخصصة. وغالبًا ما تُعرف هذه التجمعات العنقودية نفسها بمقاولي الباطن لشركات كبرى منشأة في المدن الجديدة. وتنشط هذه الشركات الكبرى بدورها أيضًا في أعمال المعادن الصغيرة النطاق، والأعمال الخشبية، والسيراميك، كاستجابة لطلب داخلي مهم يرتبط بالنشاط المكثف لأعمال البناء والتي ينتج عنها إنشاءات مبان عشوائية في نفس الأحياء التي تعمل بها. ولذا فإنها تلعب دورًا مزدوجًا: فمن ناحية هي تسهم في خلفية صناعة التجميع التكاملية، بما يسمح لها بأن تسوق المبرر لبعض من إنتاجها. وعلى الجانب الآخر، فهي تُفضل الاعتماد على أعداد كبيرة من العمالة اليدوية، والمفترض أنها تؤمن دفع أجور منخفضة. وبعبارة أخرى، فإن شبه المدينة، والأحياء العشوائية هي المحرك الضروري للمرونة، وهي بهذا المعنى، شكل بدائي من الليبرالية. ومهدت شبكات الإسكان، والخدمات، والإنتاج العشوائي، لظهور القطاع الخاص وتحيزت للتعامل معه. وقد قاموا بتأسيس تكملة للخطوات الأولى للدولة والمرتبطة بشرعيتها، مثل التصنيع، وتوفيرها للمساكن، والخدمات العامة الأخرى على الهوامش. ويقوم هذا القطاع غير الرسمي بإيواء أكثر من نصف سكان القاهرة، وتلبية احتياجات السكنى لما يقرب من ٨٠%، كما قام بخلق ٤٠% من الوظائف في القطاع غير الزراعي .*(Denis and Sejourne 2002)*

وتمثل هذه المربعات السكنية، عندئذ، العوامل الخارجية الأساسية في قلب اقتصاديات القطاع الخاص الجديد للقاهرة الكبرى. ويستند كل من التوظيف الذاتي

والتشييد الذاتي وهما الشرطان المضمران واللذان يستحقان بوضوح التحليل الأعمق والدراسة الأشمل، والمستندة على وجود تسلسلات طبقية عميقة، ومؤسسات مهيمنة والسيطرة الشاملة لدوران رأس المال. ويعتبر هؤلاء الذين يعملون لحسابهم الخاص وعلى الرغم من ذلك، في غاية الأهمية بالنسبة لآلية المقاولات للتركز الحضري، والوزارات، والبنوك. ويمكن مقارنة بعض الأحياء مثل البساتين، وإمبابة، أو دار السلام، بالنسبة لعدد سكانها، بالكتلة السكانية الصناعية الثالثة في مصر وهي المحلة الكبرى، بقاطنيها الذين يبلغون ٥٣٠ ألف نسمة على وجه التقريب. ولكن تتميز هذه الأحياء غير النظامية بمشاركتها الكبيرة في نظام المدينة البالغة الضخامة. وتبدو بوضوح شديد كذخيرة للمرونة والتنوع والتي لا تتواجد مثيلتها في مدن المحافظات.

وفي غياب المقدرة الإبداعية، فإن البديل غير الرسمي والمنطقة الواسعة التي تُشكلها تعتبر جزءًا مهمًا من ثروة الحاضرة. تقتحم أنشطة إنتاجية جديدة أسواق تنافسية شرسة حولها، أو بسببها. وبالإضافة إلى ذلك، فلا محالة أن المجتمع الحضري يعج بالخدمات الداخلية المتاحة. ويتواجد هنالك تآلف ظاهر والذي في المقابل، تستكمل بصعوبة بالغة في بيئة متخصصة وأخيرًا ضيقة في مدن أكثر إقليمية. وبمجرد أن يقوم التحرر الاقتصادي بخلق آلية متصاعدة في قلب القاهرة الكبرى، فإن النزعات العشوائية تميل إلى التقارب والتكامل في داخل رحم الحاضرة للدرجة التي تجعل من عدم مشروعيتها موضع شك (المركز المصري للدراسات الاقتصادية/ مركز بحوث التنمية الدولية ٢٠٠٠، ١٠٤). وتعتبر على الجانب الآخر، مدن المحافظات، وهي الموصومة بالفعل بأنها أحياء شبه عشوائية الأكثر تأثرًا في الغالب بإعادة البناء الصناعي، وتمهيد الطريق للخصخصة، وانهيار شبكات قطاعات معينة مثل قطاع الغزل والنسيج.

ويستمر منطق إعادة الانتشار للأنشطة بالغة الصغر أيضًا، بالنسبة للقاهريين، على قدم وساق. وقد أتاح التدهور السكاني في القاهرة التاريخية القديمة، وهي البذور التي كانت غُرست منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا للسكان بأن يتم إحلالهم بقطاع مهم جدًا من الورش الصغيرة (ورش صغيرة للمعادن، والجلود، والأخشاب، والزجاج، وغيرها). ولكن هذا القطاع يمر الآن بمرحلة تدهور وإعادة انتشار إلى هوامش القاهرة الكبرى. وتطورت منتجات هذه الورش الصغيرة كنتيجة لليبرالية الجديدة في فترات النقص الحاد، ولكنها تجابه تحديات قاسية من المنتجات الواردة من الصين، نتيجة للحواجز الصارمة للتعريفة الجمركية، وحتى بطريقة مباشرة من المصانع الجديدة التي شيدها القطاع الخاص. وعلاوة على ذلك، تتصادم هذه الورش الاستغلالية بشكل متزايد مع الرغبة في الإقلال من المضايقات المرتبطة بتشغيلها في المدينة القديمة (التلوث، وتدهور المباني، وازدياد كثافة المرور)، ونتيجة لذلك، فإنها تتصادم أيضًا مع عملية إعادة تقييم المواقع الأثرية الإسلامية لأجل تطويعها لصناعة السياحة. وهذه هي العوامل التي تؤثر بشدة في تكاليف الإنتاج ويتم استعواضها عن طريق تخفيض الأجور والمزايا المدفوعة للعاملين، حتى باللجوء إلى أكثر الحلول تطرفًا وقسوة بتشغيل الأطفال. وخلق انخفاض عدد السكان، وما تبعه من المصاعب التي واجهت الورش البيئة المواتية لعملية تحويل مدينة القاهرة القديمة إلى ما يشبه المتحف المفتوح، بينما خفتت حدة المعارضة المحلية وتلاشت إلى حد كبير. وتدعم السياحة، وهي القوة الموجهة الأخرى للعولمة، هذه العملية من إعادة الانتشار المكانية. وهي بمثابة إعادة تقييم صورة إعادة تشكيل هيكل حاضرة التراث المصري والتي أصبحت من الدعائم الاقتصادية والتي تسهم بالتناغم مع العوامل الأخرى في تحديث جهاز الإنتاج. (برجاء الرجوع إلى الفصل العاشر الخاص بويليامز والششتاوي، والفصل

الخاص بالقاضي والكرداني لتحليل أعم لتشكيل التراث في مصر والمصالح المتضاربة للصناعة المحلية والسكان).

وتبدو هشاشة القطاع غير الرسمي من زاوية أخرى، واضحة للعيان. والتساؤل الذي يبرز على السطح هو عما إذا كان هذا القطاع يمكنه التواؤم مع الظروف الجديدة للانفتاح الاقتصادي، وعما إذا كان في مقدوره أن يستثمر ويبتكر، بعيدًا عن استغلال توافر إمدادات العمالة اليدوية الرخيصة المتوافرة. إذا ما قمنا بالتأكيد في مكان آخر على التحالفات الإيجابية بين الصناعات الجديدة والورش شبه القانونية، وهو النمط الذي يحتوي على بعض أوجه القصور والعديد من الأوضاع المتناقضة. ويعتمد جانب من هذه الورش، والعمالة اليدوية المتدفقة من الأحياء العشوائية، والتي تشكل نظامًا عندما تندمج مع الصناعة المنتعشة للإحلال محل الواردات، في المقام الأول على قابلية نظام الصناعة الجديد للحياة بينما يتم تخفيض التعريفة الجمركية تدريجيًا. ومن الجدير بالذكر أنه يتوقف على التوافق مع الاتفاقية العامة للتعريفة الجمركية والمعروفة اختصارًا باسم (اتفاقيات الجات) بالإضافة إلى اتفاقية ارتباط بالاتحاد الأوروبي، والتي تكتسب أهمية متزايدة في مصر. ويجب أن يقتصر تقنين الأحياء العشوائية، وتشريعاتها ومعداتها الأساسية، على أي حال، على الإنتاج المستمر الذي يعتمد على توافر العمالة اليدوية منخفضة التكاليف، والحفاظ التعسفي على السلام الاجتماعي. ويجب ألا نتوقع تنمية يعاد توزيع عوائدها تؤدي إلى تخفيض التفاوت داخل حاضرة مصر من خلال النفاذ إلى كافة فئات المجتمع.

خاتمة:

التحول الحضري، وعدم الاستقرار، وبدايات جديدة

تشكل الليبرالية الجديدة والتي ارتكزت على مفهوم التعديلات الهيكلية، إطارًا لسلسلة من التغييرات العميقة والتي تؤثر على اقتصاديات الحاضرة، وفي أعقابها، الاقتصاديات الوطنية لبلاد في مرحلة انتقالية وتمر من مرحلة تخطيط وطني للاقتصاد، والتنمية، والتوافق الاجتماعي على سياسة الاقتصاد المفتوح والذي يقوم بالتركيز على الاستثمار العالمي، وروح المبادرة، وتراكم الثروة، والعشوائية، والتصنيع الجديد، والمضاربة. ويجب علينا عندما نفكر في الليبرالية الجديدة، والتعديلات الهيكلية، أن نثبت حقيقة التشعب العضال، الذي يؤدي إلى تبّدل الأماكن الحضرية والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية. ومما لا يقبل الجدل أنه تم تنفيذ عمليات فتح الاقتصاد، والتعديلات الهيكلية، وتحريرها في القاهرة مع إعادة استئناف ما وصف بأنه "التحول الحضري الجديد". وقد جدد هذا التحول عملية توسع، وتركز حضري، ومستوطنات سكنية غير متجانسة والتي كانت قد ميزت الحقبة الليبرالية السابقة (١٩٢٠-١٩٥٠) عندما كانت ترزح تحت نير الحكم البريطاني. وهناك تراكم واضح لموجات من التحول الحضري مصحوبة بتحديث الصناعة وجهاز الدولة. وتقوم هذه الموجات بالحد من وإصلاح التمركز، لترسم على الأرض فائض قيمة الدخل الزراعي الأساسي. وتتميز كل مرحلة من مراحل التحول الحضري بتعديل في الشكل الحضري، وإزاحة للمركزية، والآن، بإقلال في المركزية يرتبط بالتوسع السكاني وإعادة تقدير المراكز القطبية القديمة. وازدادت في هذه المرحلة الأخيرة أشكال التركيز وقفزت إلى نطاقات جديدة. وقد استدعت نجاحات المناطق الصناعية في المدن الجديدة امتدادات غاشمة للحواضر، وخلق شبكة مفتوحة لتتواءم مع سرعة السيارات على الطريق الدائري الجديد،

بالإضافة إلى النسيج الكثيف جدًا والتي تتضمن مناطق مختلطة على الهوامش يطلق عليها "عشوائيات" وقلب وأحياء المدينة القديمة والتي أُقحمت عليها أدوار وأهمية جديدة. وسيحدد المستقبل شكل القاهرة الكبرى، بمراكزها الموروثة والمراكز الثانوية الجدية البازغة، وبتعدد مراكزها والتي تمتد إلى القاهرة الجديدة ومدينة نصر. ويستحث التوافر الأساسي شبه - اللانهائي للمكان على الحواف الصحراوية خلق ضواحي سكنية جديدة، ولا يترك إلا القليل من الوسائل لاستثمار في الضواحي القديمة وسكانها، أو في الأراضي الفضاء المحيطة بالمركز. وليست هناك أية تدابير حكومية أو ضغوط عالمية تشجع مثل تلك الخطوات. ويمكن أن يستمر خطر التدهور الناتج عن طريق الإقصاء، في هذه الظروف، بقدر ما يكون جزء كبير من البنية مجمدًا بواسطة الوزارات، والمؤسسات العامة، مما يقلل من احتمالات إعادة التخصيص الخاص. ولذا فإن الاتجاه الحالي يميل إلى البحث عن إعادة الانتشار وإضعاف إعادة التخصيص للمراكز القديمة، بينما المراكز الفعالة تتجمع في المدن الجديدة التابعة. والسؤال الذي يثور في هذه النقطة هو كيف سيتم الوصول إلى الأشكال الحضرية للقاهرة، والحفاظ عليها، في سياق تزايد عدم الاستقرار وعدم الاطمئنان إلى العائدات، بدون إمكانية الاعتماد على طبقة متوسطة مستقرة والقادرة الحصول على السلع بالأجل. وليس هناك أدنى درجة من الشك في أن القنوات المُفضلة للإنشاءات غير القانونية سيكون هو الحل الدائم للأغلبية العظمى. وسيعتمد خلق الوظائف مرة أخرى على المقدرة على الاستثمار في الأراضي الفضاء، والمناطق المحيطة بالمركز من أجل خلق وظائف مفتقدة إلى حد بعيد، وبهذا فإن تطوير قطاع الخدمات والأعمال في قلب القاهرة يمكن إنجازه في نهاية المطاف. ونتم ٧٠ % من الأنشطة الوظيفية في شقق سكنية في الوقت الحالي (الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء ١٩٩٦أ). ومرة أخرى، تصبح الصحراء هي الإجابة المفترضة - ويتم تشييد مجمع للمكاتب مزود بالتكنولوجيا الحديثة بالفعل

على حافة الصحراء، على طول محور طريق الأوتوستراد. (راجع الشتاوي في هذا الكتاب لمزيد من النقاش لمجمعات الأعمال المزودة بالتكنولوجيا الحديثة، والمُشيدة على نمط مجمعات دبي والتي تم تمويلها بمبادرات من شركات مراكزها الرئيسية في دبي).

التآلف ما بين التحول الحضري وما هو قومي

تنبأ الكثيرون بنفاد الأراضي، وجعلوا الأمر غير ذي صلة بالتلاقي بين التحول الحضري والعولمة. وقد حدد الكثيرون عمليات رفع القيود الحكومية والتي تخفف من قبضة الدولة بأنها تتم لصالح الشبكات العابرة للأوطان. وعلى أي حال، وبالاستناد إلى البيانات الخاصة بمصر، فإننا نميل إلى التفكير، بدلاً من ذلك في أن الدولة تقوم بإدارة، واستغلال، وتدعيم التحول الحضري بالتعاون مع رجال الأعمال، والذين هم في حقيقة الأمر المستفيدون الحقيقيون من الانفتاح الاقتصادي الفعّال طوال هذه السنوات العشر. ومع ذلك فإن السلطة السياسية تهيمن على وتقوم بإدارة هوامش الحرية في عالم الأعمال *(Kienle 2001)*. ويقود التحالف أو يُجبر رجال الأعمال على الاشتراك في منطق حوكمة المؤسسات، من أجل افتراض اتجاه المؤسسات المؤثرة في المدن الجديدة، وحتى الاندماج في مشروعات تطوير اجتماعية في الأحياء. وقد أصبح ما يعادل ٩% من نواب مجلس الشعب المصري من رجال الأعمال في أعقاب انتخابات نوفمبر عام ٢٠٠٠. ويتم تدعيمهم بوصفهم ممثلين "للمجتمع المدني". وتقوم الدولة بمنح امتيازات لرجال الأعمال هؤلاء، في مقابل هذا الخضوع لسلطة الدولة والاشتراك في خدعة التمثيل الوطني. ويتم أيضًا قمع التمثيل، والتنظيم الجماعي، والتفاوض مع الموظفين والعمال، والمجتمعات والمواطنين بشكل عام، كما هو الحال في قطاع الجمعيات والصحافة بشكل عام.

وتدار حاضرة القاهرة مباشرة عن طريق خدمات الدولة، ولا تملك الاستقلالية اللازمة أو التمثيل الديمقراطي على حد سواء *(Denis 2000)*. ويتخذ من خدمة المشروع الوطني كواجهة تعامل لاستغلال اسم مصر والوصول إلى الموارد العالمية - والإمكانيات، والقدرات التكنولوجية، والمساعدات، والأسواق، ورؤوس الأموال، والاستثمارات. ومما يعزز هذا النوع الجديد من الأفضلية الوطنية، والعالمية، والإقليمية للقاهرة عن طريق السيطرة الحصرية على الإنشاءات الوطنية وتخصيص الأراضي، متخفية في ثوب الوطنية المتطرفة والتي تبدو وكأنها تستدعي حقيقة الأراضي والأمة المصرية من خلال الصحراء الخالية، ويجيز قيادة صارمة على السكان باسم المصالح الوطنية والمهددة عن طريق أشباح: الشبح الخارجي هو التهديد الإسرائيلي، والشبح الداخلي هو التطرف الإسلامي.

التكامل الحضري، والمساهمة، والحرية

وتدين مصر، والأحرى، القاهرة وبالتعاون مع مصر، وهو بلد فقير أو متواضع في القدرات التكنولوجية، بتكاملها مع مجموعة الحواضر الكبيرة في العالم لوفرة العمالة اليدوية الرخيصة. وأمكن تجميع الحواضر لأنها عرفت كيف تجعل الأكثرية من سكانها، والقاطنين في قلب المدينة، أن يبقوا على قيد الحياة بتكلفة زهيدة. وما هو أكثر من ذلك، هو تنفيذ ذلك، في نفس الوقت الذي تقوم فيه بتأسيس عدم مشروعية، وبصفة خاصة في مجال التشييد، وبذلك تضمن الاعتماد على النوايا الحسنة للدولة لخدمات الدولة وتثبيت حجر الأساس لإعلاء راية المحسوبية. وتعمل كافة قطاعات الاقتصاد من الصناعة إلى القطاعات الأهلية، ومن قطاع الخدمات إلى الصناعة، على أساس الحد الأدنى من الأجور للعمل، والحد الأقصى لمضاربات النخبة. ولم تُعق الطبقة المتوسطة من النهوض فقط،

ولكنها أيضًا عانت من تفاقم التفاوت في ظل التحرر الاقتصادي والذي تطلب الاحتفاظ بسيطرة البوليس وتقوية قبضته على الأماكن العامة، وقمع جموع السكان. وهكذا وطد التحرر الاقتصادي أركانه بدون أن تكون هناك حرية سياسية، وهو النظام السياسي الذي بموجبه قامت سلطة لا ترمز للشعب، وتحتكر بالعنف، وتحافظ على سيطرتها على الأراضي الحضرية والأماكن العامة فيها. ولن تجعلنا القاهرة، المدينة العالمية، وحاضرة العولمة، أحرارًا بأي صورة من الصور.

الأعمال المُستشهد بها

Works Cited

Abdel-Malek, Gamal. 2000. "Domestic Public Debt in Egypt: Structure and Consequences." *Cairo Papers in Social Science* 23: 7–62.

Abu-Lughod, Janet. 1990. "Le Caire et New York vus de la rue." *Revue internationale des sciences sociales* 42: 345–38.

Aéroports Magazine. 1999. Hors série, April.

Alleaume, Ghislaine, and Eric Denis. 1998. "Villes et campagnes d'Égypte à l'aube du XXe siècle: les temporalités divergentes des pays, des bourgs et des cités." In *Mélanges offerts à B. Lepetit*, coordinated by J. Dakhlia (EHESS), 225–56. Paris: Sindbad/Actes Sud.

Bayat, Assef, and Eric Denis. 2000. "Who is Afraid of Ashwaiyat? Urban Change and Politics in Egypt." *Environment & Urbanization* 12 (2): 185–99.

Brown, David L., and John M. Wardwell, eds. 1980. *New Directions in Urban-Rural Migration: the Population Turnaround in Rural America*. New York: Academic Press.

Bulbul, Lamia, and Sameh Neguib. 2000. "The Case of Urbanization and Industrialization in Shubra el-Khema, Egypt." Urban Partnership, Background Series 9. Washington, D.C.: World Bank.

Castells, Manuel. 1989. *The Informational City: Information Technology, Economic Restructuring, and the Urban-Regional Process*. Oxford: Blackwell.

Cairo Stock Exchange, <*http://www.egyptse.com*> (15 November 2000).

CAPMAS. 1995. "Industrial Census." Cairo.

______. 1996–1997. "Annual Industrial Survey 1996/97." Cairo.

______. 1996a. "Census of Places of Activity." Cairo.

______. 1996b. "General Census of the Population 1996." Cairo.

Christaller, Walter. 1933. *Die zentralen Orte in Süddeutschland*. Jena: Gustav Fischer.

Central Bank of Egypt. 1999–2000. "Annual Report." Cairo.

Denis, Eric. 2000. "Le Caire, quand la ville déborde son enceinte." *Villes en parallèle* 30–31: 89–116.

Denis, Eric, and Marian Séjourné. 2002. ISIS: Information System for Informal Settlement. Report. Participatory Urban Management Programme (Ministry of Planning & German Technical Co-operation) & Observatoire urbain du Caire contemporain (OUCC)—CEDEJ, Cairo.

Dalil madinat sitta Uktubar 1998–1999/Directory of Sixth-of-October City 1998–1999. 1999. Sixth-of-October Investors Association.

Egyptian Center for Economic Studies/Institute for Liberty and Democracy (ECES/ILD). 2000. *Formalization of Egypt's Urban Informal Real Estate Sector*. Cairo.

EFG-Hermes, <*http://www.efg-hermes.com*> (15 November 2000).

Findlay Allan. 1993. "Arab Cities, Arab Banking and Patterns of Global Influence." Recherches urbaines dans le monde arabo-musulman. Approches comparées des géographes allemands, britanniques et français, Fascicule de Recherches n°24, Tours, URBAMA, pp. 123–36.

"Follow-up." 1998. *Business Monthly: American Chamber of Commerce in Cairo* 15: 9.

Geographic Information System Egypt (GIS). CEDEJ-CAPMAS, Cairo, Egypt.

Gertel, Jörg. 1998. "La mondialisation du pain au Caire: profits des multinationales et insécurité locale." *Revue géographique de Lyon* 73: 219–26.

al-Ghitani, Gamal. 2001. "Interview." In *Le Caire, vu par les écrivains*. Cairo: French Cultural Centre in Cairo, 5.

Giraud, François, and Martin Vanier. 2000. "Plaidoyer pour la complexité territoriale." In *Utopie pour le territoire*, 143–72. La Tour d'Aigues: Editions de L'Aube.

Haeringer, Philippe. 1999. *L'économie invertie, mégapolisation, pauvreté majoritaire et nouvelle économie urbaine (2001 plus, Synthèses et recherches)*. Paris: Ministère de l'équipement, du transport et du logement, Centre de prospective et de veille scientifique.

Harris, Nigel. 1995. "Bombay in the Global Economy." In *Bombay: Metaphor for Modern India*, eds. Alice Thorner and Sujata Patel, 47–63. New Delhi: Oxford India Paperbacks.

International Finance Corporation (IFC). *Emerging Market Database*, <*http://www.ifc.org/*> (30 November 2000).

Kienle, Eberhard. 2001. *The Grand Delusion: Democracy and Economic Reform in Egypt*. London: I.B. Tauris.

Kompass 2000 Egypt. Cairo: Fiani & Partners.

Ministry of Economy and Foreign Trade. 2000. "Investing in Egypt." *Database of Egyptian Foreign Trade, 1990–1999*. Cairo: Ministry of Economy and Foreign Trade.

Moriconi-Ebrard, Francois. 2000. *De Babylone à Tokyo: les grandes agglomérations du monde*. Gap, France: Ophyris.

Moriconi-Ebrard, Francois, and Maher Rateb. 1996. "Le Caire métropole du monde arabe? Éléments de réflexion." *Lettre d'information de l'Observatoire urbain du Caire contemporain* 45: 35–45.

Pagès, Delphine, and Leïla Vignal. 1998. "Formes et espaces de la mondialisation en Égypte: une lecture spatiale des changements récents." *Géographies sociales de l'Égypte, ouverture et cloisonnements* 73: 247–58.

Posusney, Marsha Pripstein. 1997. *Labor and the State in Egypt: Workers, Unions, and Economic Restructuring*. New York: Columbia University Press.

———. 2002. "Egyptian Labor Struggles in the Era of Privatization: the Moral Economy Thesis Revisited." In *Privatization and Labor: Responses and Consequences in Global Perspective*, eds. Linda J. Cook and Marsha Pripstein Posusney. Gloucestershire, England: Edward Elgar Publishing.

"Round Up." 1997. *Business Monthly: American Chamber of Commerce in Cairo* 11: 2.

Sassen, Saskia. 1996. *La ville globale, New-York, Londres, Tokyo*. Paris: Descartes & Cie.

Soliman, Samer. 1998. "State and Industrial Capitalism in Egypt." *Cairo Papers in Social Science* 21: 104.

Textile Holding Company. 2000. "Annual Report 2000." Egypt.

UNCTAD. 2000. *World Investment Report 2000: FDI and the Challenge of Development*. Geneva: UNCTAD.

Veltz, Pierre. 1996. *Mondialisation, villes et territoires, l'économie d'archipel*. Paris: Les presses universitaires de France.

الهوامش

١- كما أن الريف أيضًا يتغير نظرًا لنوعية خلق وظائف جديدة لمتطلبات تحديث قنوات إنتاج الطعام وتعديل الروابط بين الفلاحين والعمال الزراعيين في الإنتاج. كما أن أنماط التعاقد والشراء أيضًا تتبدل. ويقترب الريف في هذا الصدد من المدينة.

٢- يسمح هذا بالإضافة إلى تكلفة العمالة، والتي تظل في مستوى منخفض، بالحفاظ على خدمات محلية وفيرة والعديد من الخدمات المتعلقة بها.

٣- ارتفعت واردات مصر من الدول العربية في نفس الفترة من ٣،١٣% إلى ٦،٢٦% من قيمة إجمالي الواردات، وهي الزيادة التي تُعزى بصفة أساسية إلى استيراد منتجات البترول من المملكة العربية السعودية، بينما تضاعفت قيمة إجمالي الواردات من الدول العربية (لتبلغ أكثر من ١٦ بليون دولار أمريكي) (وزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية ٢٠٠٠).

٤- هذا هو الوضع بوضوح بالنسبة للمواقع الضخمة بالنسبة للتحسينات الزراعية - وعلى الأخص، بالنسبة لترعة السلام في شمالي سيناء، والتي كان الشيخ زايد حاكم أبو ظبي الداعم الرئيسى لها بعد الدور الذي قامت به مصر في حرب الخليج. وفي المقابل كانت مؤسسات الملكيات البترولية في دول الخليج قادرة على الاستحواذ على مساحات شاسعة في هذه المشروعات الجديدة. ونجد نفس تلك الوجوه مرة أخرى، في مشروع توشكى البالغ الضخامة وبآثارها البيئية الثقيلة، حيث إن تلك الشركات الأميرية كان مرخصا لها استخراج كميات غير محددة من طبقات التربة. وبدأت المعارضة لتخصيص الأراضي المصرية للعرب في التعبير عن نفسها بمصطلحات وميول استعمارية، وبصورة ملموسة، في منع النقاش عن العولمة والتكامل الإقليمي.

٥- كان الدين العام يمثل ٧٨,٢% من إجمالي الناتج القومي في عام ١٩٩٧، أو ٢،٨٢٢ جنيه مصري لكل مواطن. وفي نفس ذلك العام، كان دائنو الدولة يشاركون في ٤٨،٤% من البنوك العامة، و٣١% من البنوك المشتركة والخاصة، ومعظمهم كانوا يشاركون بنسبة كبيرة في القطاع العام، وفي نفس الوقت فإنهم كانوا يشاركون في صناديق التأمين والتقاعد الخاصة بنسبة تبلغ ٣،١% (عبد الملك ٢٠٠٠).

٦- ترسخ الانقلاب نتيجة لتجسد مفهوم "غير الرسمي أو العشوائي" (*Haeringer 1999*). وهذا يعتبر رفضًا، عن طريق تصنيف الشكليات، بارتباط عضوي بين توسع النشاط الإنتاجي القانوني والشبكات شبه القانونية والتي تؤمن التكلفة المنخفضة للعمالة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن فترات النمو السكانية الكبيرة، والتحول الحضري لهذه الزيادة السكانية، غالبًا ما تتم أثناء فترات عدم الكفاية وسيطرة الدولة، وبعبارة أخرى، أثناء فترات تدعيم القومية والتي فيها تكون كافة المصادر وأكثر من أي وقت آخر مُركزة في العواصم. والأكثر من ذلك، أن الإصلاح الزراعي يعجل من تنشيط الإنتاج في مجال الزراعة. وقد نتج عن ذلك بالتأكيد فائض في العمالة اليدوية، ولكن في نفس الوقت، أنتجت قيمة مضافة أكبر حجمًا والتي استحوذت عليها على الفور صناعات الحاضرة والإدارة القومية المعنية. وتزداد أنشطة الكيانات الحضرية الضخمة ثراءً وتدرك كيف تقوم باستغلال للعمالة اليدوية الأقل مهارة والتي تتوافر بأعداد هائلة. وتلعب هذه المجموعة الأدوار الفائضة عن دور العمالة اليدوية الكلاسيكية، والتي كانت موجودة بالفعل أثناء الثورة الصناعية الإنجليزية.

الفصل الرابع

القاهرة: عاصمة ثقافية وإقليمية وعالمية؟

سعيد صادق

"القاهرة تكتب، وبيروت تطبع، وبغداد تقرأ". هل هذه المقولة التي راجت قديمًا عن تقسيم العمل الثقافي بين العواصم الإقليمية في الدول العربية في الشرق الأوسط لا تزال حقيقة واقعة في العصر الحالي؟ لقد كانت القاهرة هي العاصمة الثقافية– والسياسية والاجتماعية، والدينية إبان سنوات الستينيات، والسبعينيات لعرب الشرق الأوسط وبلا منازع. وأنتجت القاهرة كمحور نشط لنظام ثورة جمال عبد الناصر المعادية للاستعمار والمناصرة للقومية العربية، وكقلب للحاضرة التقدمية التي تتطلع للتصنيع للخارج، في تلك الحقبة أفلاما عظيمة ألهبت المشاعر وأعادت تشكيل الهوية للعالم العربي بأسره، وسطرت الروايات والمقالات الأدبية من أجل بعث ونهضة الأدب العربي، كما خلقت مواهب مسرحية وغنائية قامت بجذب جمهور عريض متحمس لها من كل أنحاء العالم، كما قامت بإنشاء أفضل الجامعات والمعاهد في الشرق الأوسط.

وأصبح عرش القاهرة كعاصمة ثقافية للشرق الأوسط بلا منازع، اليوم في مطلع القرن الحادي والعشرين يهتز تحتها بشدة. فقد برزت بيروت من تحت أنقاض الحرب لتستكشف مواهبها في الأدب، والغناء، والإنتاج، والإدارة. كما أصبحت الدول الغنية بالبترول في الخليج العربي – مثل دبي، وجدة، والدوحة،

والكويت مستثمرين متميزين في الثقافة بطريقة متزايدة، ومعبرين عن رؤيتهم الإبداعية والسياسية الخاصة من خلال قنوات الأقمار الصناعية، والصحافة، والأفلام، والموضة. ويقوم العرب المقيمون في أوروبا في باريس، ولندن، وأمستردام، بإصدار أجرأ الصحف كما يقومون بإدارة بعض دور النشر ووضع بعض الاتجاهات الإقليمية في الموسيقى، والسياسة، والسينما.

ولقد ولت الحقبة التي كانت فيها هيمنة القاهرة الكاسحة على الحياة الثقافية لا تبارى. ومع ذلك تظل هذه المدينة التي يقطنها ١٥ مليون نسمة المنتج الأكبر للأفلام، وعروض التليفزيون، والنوع الجديد المحبب بدرجة عالية، والمثير للجدل والذي يسمى في أوروبا والشرق الأوسط بالفيديو كليب.

ولماذا يتصور المستهلكون في العالم العربي أن مركز عاصمة مصر كعاصمة إقليمية وعالمية للثقافة يتدهور بسرعة بالغة، على الرغم من المستوى العالي من الإنتاج الثقافي للقاهرة؟ ربما كان هناك سببان أساسيان لذلك: (١) لم تعد مصر تقدم القيادة الحكيمة للأمة العربية بأسرها، لا من الناحية السياسية، أو الدبلوماسية، أو العسكرية، أو حتى في مجالات الرموز والأحلام؛ و(٢) تم إغراق العطاء الثقافي لمصر عن طريق منتجات ثقافية عربية أكثر جرأة وأقل تعرضًا للرقابة، وأكثر إبداعًا كما أصبحت متاحة عن طريق الأقمار الصناعية في كل أنحاء الشرق الأوسط ولكل العرب المهاجرين بالخارج حول العالم. وعلى الرغم من ذلك، فإنه عندما يرغب أثرياء الأمراء الاستثمار في مجال الثقافة، فإنهم لا يزالون يتجهون صوب القاهرة؛ وعندما يرغب محبو المسرح في الشرق الأوسط أن يشاهدوا المسرح الارتجالي وكوميديا الخيال على المسرح، فإنهم يأتون إلى القاهرة؛ وعندما يريد مطرب أو مطربة مغربية أو يمنية أن يصل إلى المستمعين في كل أنحاء العالم، فإنه أو إنها يجب أن تأتي إلى القاهرة؛ وعندما

يريد أحد المستثمرين أن يقوم بتدشين محطة فضائية فإن يقوم بتوظيف الخبراء من القاهرة. وعلى الرغم من كل ما سبق من المؤشرات الإيجابية فإنه لا سبيل إلى الإنكار أن قاهرة العاصمة الثقافية في سبيلها إلى الأفول.

ويعتبرَ غياب الشخصية السياسية التي تملك من الجاذبية والسمات الشخصية لإلهام جماهير الأمة العربية كما فعل الرئيس جمال عبد الناصر (الذي قاد البلاد في الحقبة من عام ١٩٥٤ إلى عام ١٩٧٠) واحدا من الأسباب الرئيسية لهذا التدهور المُعتقد. وأصبح قادة مصر منذ وفاة ناصر أقل شعبية وجاذبية شخصية. وبينما تمتع الرئيس أنور السادات بالشعبية في الغرب (١٩٧٠-٨١)، فإنه كان منبوذاً في العالم العربي نتيجة لمبادرات السلام التي كان يقدمها لإسرائيل. وأما حسني مبارك (والذي اعتلى كرسي السلطة منذ عام ١٩٨١) فإنه يبدو غير مُلهم سواء في الداخل أو الخارج. ويحمل المتظاهرون في الشوارع العربية صورًا للرئيس جمال عبد الناصر كرمز للاستقلال وتحدي الإمبريالية ولا يرغبون في حمل صور لأي زعيم مصري آخر، إلا في حالة الزيارات الرسمية المرتبة.

كما يرتبط الأفول المُعتقد لدور القاهرة بظهور القنوات الفضائية في الدول العربية الأخرى منذ سنوات التسعينيات. ولأن المشاهدين أصبحوا الآن قادرين على الاختيار بين قنوات كل الدول العربية وباقة من خدمات القنوات العالمية، فإن كلا من المشاهدين والنقاد على حد سواء يتباكون بصفة متزايدة على التدهور المفترض في الريادة المصرية الثقافية. ويجترون أحلام الأيام الخوالي الذهبية للأفلام والأعمال الموسيقية المصرية في سنوات الأربعينيات والستينيات. وتحمل مصر التسعينيات بفقرها، وبالتدهور الحضري الذي يسودها، والتجمعات السكنية المتناثرة، وبحياتها السياسية القمعية، والمتفككة، والتبعية، وبالنفاق الذي ينضح منها، القليل جدًا من الصور التي شاعت بين الحين والآخر في مسلسلات الدراما المصرية، والأفلام، وعروض الفيديو كليب.

وتعرض الفضائيات الإخبارية من الدول العربية في الخليج العربي والشرق مناقشات حرة عن الجمود الذي يصبغ السياسة المصرية وطغيان السلطات الوطنية والدولية في البلاد؛ بينما تتجنب القنوات التليفزيونية المصرية المواضيع الحساسة نظرًا للرقابة الصارمة عليها، أو تستغرقها أفكار تقديم أكباش فداء، أو عرض الفضائح الجنسية كحل آخر لأي نقد حقيقي من أشكال النقد البناء والوطنية. ولجأ النقاد في مصر إلى خلق نظريات المؤامرة والرؤى الظنية بدلاً من العودة للإصلاح السياسي والإبداع المستقل لتبرير ابتعاد القاهرة عن الهيمنة على الثقافة العربية. فيقول الناقد المصري "سعيد اللاوندي" على سبيل المثال في مقالة بعنوان "المؤامرة من أجل تقزيم مصر":

"لا أستطيع أن أنكر أن هناك مؤامرة لتحجيم دور مصر سواء على المستوى الإقليمي أو في العالم أجمع، ولقد تم نسج خيوط هذه المؤامرة منذ زمن بعيد. وشارك في المؤامرة خفافيش الظلام من مصاصي الدماء (من الداخل والخارج). وهناك حديث عن تسرب الثقافة العربية من بين يدي مصر كالماء. ويستتبع ذلك هبوط أعداد الطلاب العرب الذين اعتادوا الحضور للدراسة في جامعاتها. ويذهبون بدلاً من ذلك إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية..... كما يخبو نور الأزهر (مركز العالم السني للدراسات الإسلامية) ويتلاشى بعيدًا. وأصبح الحديث عن محمد عبده، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل (المفكرون القادة للقرن العشرين) كالحديث عن الحرف القديمة. بل ويتحدث البعض الآخر عن نهاية حقبة الثقافة المصرية في العالم العربي، وهكذا ينتهي احتكار مصر لهذا المنصب. بل ويدعي البعض أن مصر لم تكن هي التي قامت برعاية مشروع الوحدة

العربية، ولكنه كان الشرق، وتبقى كتابات ساطع الحـــصري دليلاً دامغًا على ذلك. وحتى الدول الإفريقية تنـــادي بإعـــادة توزيع مياه النيل. (اللاوندي ٢٠٠٥، ١٣).

ويستهدف هذا البحث إلى إثبات أن بعض أوجه الشهرة الثقافية التقليدية لمدينة القاهرة قد تحولت نتيجة للابتكارات التكنولوجية، والتعدد في عموم المنطقة، وانتشار أنماط جديدة من النزعات الاستهلاكية. كما يؤكد هذا البحث أن التقاليد الثرية للقاهرة والتي هيمنت على العالم العربي في الفترة السابقة، لا تزال قوية، على الرغم من استنفادها الآن بقيود سياسية، واجتماعية، واقتصادية في الداخل، وعن طريق المنافسة من العواصم الثقافية العربية البازغة. ونحن الآن في خضم إعادة تقسيم العمل الثقافي الإقليمي في منطقة الشرق الأوسط، سواء من ناحية الكم أو من ناحية النوعية. ويجب تفسير ذلك في مصر، ليس كمنافسة غير صحية ولكن كمصدر لإثراء ثقافة مصر وإضفاء الطابع الديمقراطي عليها وعلى الثقافة العربية على وجه العموم.

ويمكن اقتفاء آثار هذا التحول والعودة بها إلى واقعة هزيمة القوات العربية في عام ١٩٦٧ على يد إسرائيل. وبدأت مصر، نتيجة للهزيمة، في الانكفاء على نفسها والانشغال بالهموم الداخلية والالتزامات الخارجية المتضاربة والتبعية، فاقدة دورها المثير كمُلهمة للوحدة العربية. كما بدأت مراكز القوى العربية الأخرى تزداد ثراءً وثقة بفضل تدفق البترول. وما نشهده الآن ما هو إلا إعادة تقسيم للأدوار في العمل الثقافي في العالم العربي تلعب فيه مصر دور المورد الرئيسى للقوة العاملة والبرامج، بينما تقوم دول الخليج العربي الغنية بالتمويل، وتقوم بيروت بتقديم النزعات والميول، على سبيل المثال. ويتم تمويل الكثير من شبكات الأقمار الصناعية، على سبيل المثال بواسطة السعودية، مثل القناة الدينية "اقـــرأ"،

أو مجموعة محطات إيه أرت تي والتي تعتمد على الإنتاج الثقافي المصري والشخصيات المصرية المُحترفة (هالة سرحان، مقدمة برامج على غرار برامج أوبرا وينفري، وعماد الدين أديب، وهو مقدم برامج سياسية شهير). وحتى قناة الجزيرة القطرية السياسية الشهيرة والتي تهيمن على صناعة الأخبار والتي تعتبر قناة الأخبار الأولى في العالم العربي تستعين بالكثير من الأسماء المصرية المعروفة. ويعتبر المصري "عمرو خالد" وهو الداعية الديني الشاب واحدا من أشهر الدعاة، وتذاع برامجه الدينية في العديد من القنوات التليفزيونية العربية (خالد ٢٠٠٥). والأكثر من ذلك، أن الشيوخ المصريين هم أشهر قراء القرآن المحببين في العالم العربي. وتسيطر أخبار مصر على نشرات الأخبار والبرامج العربية نظرًا لدورها الإقليمي في السياسة والثقافة خلال الشرق الأوسط بأسره. وقد تابعت ككاتب مصري مستقل ومستشار إعلامي لفترة طويلة من العقود كل المجادلات التي دارت بشأن التدهور المفترض لدور مصر الثقافي. وسأقوم بإثبات أن التدهور المفترض في دور مصر كعاصمة إقليمية وعالمية للثقافة هو أمر قابل للنقاش بطريقة عملية باستخدام المقابلات والإحصائيات.

القاهرة والشرق الأوسط

تتكون الثقافة العربية من تنوع الثقافة الإقليمية لاثنين وعشرين دولة عربية، بالإضافة إلى المدخلات المتميزة والناتجة عن ثقافة السكان المتحدثين باللغة العربية في الخارج (في باريس، ولندن، وأمستردام، ومدريد، والولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى أمريكا اللاتينية)، فضلاً عن الثقافات الجانبية العديدة لكل دولة عربية (البحر المتوسط، إفريقيا، الوجه القبلي بمصر، النوبة، أرمينيا، جنوب آسيا، البربر، البدو، وغيرهم). ويبدو على الرغم من تواجد الحدود السياسية وتنوع

اللهجات بين الدول العربية، أنه لا توجد عوائق ثقافية هائلة يمكن أن تُحد من تدفق وسائل الإعلام والثقافة الإلكترونية بين شعوب الأمة العربية الواحدة. وكانت منطقة الشرق الأوسط، من الناحية التاريخية، حلبة للأقطاب المتنافسة التي تتصارع من أجل الهيمنة الإقليمية مثل مصر، وسوريا، والعراق، وتركيا، وإيران الفارسية. واقتحم المسرح متنافسون جدد مثل المملكة العربية السعودية وإسرائيل في القرن العشرين. وسنرى، إذا ما استثنينا المنافسين الذين لا يتحدثون اللغة العربية (إسرائيل، وإيران، وتركيا) أن حلبة الثقافة العربية قد هيمن عليها لاعب واحد فقط طوال الجزء الأكبر من القرن العشرين وهو: مصر. وبدأت الدول العربية الأخرى مع تعاظم دور البترول في سنوات السبعينيات، في التأثير على مشهد وسائل الإعلام العربية، وعلى وجه الخصوص المملكة العربية السعودية، والعراق، ودولة الإمارات العربية، والكويت.

ويمكن أن ننظر للثقافة كقوة ناعمة تقوم بنشر صورة وتأثير الدولة إلى ما وراء حدودها بين شعوب الأمم الأخرى. ويمكن أن تكون منتجات وسائل الإعلام، والبنية التحتية التعليمية، وأنماط التنمية الاقتصادية والتحديث، من بين أهم الأدوات التي تسهم في نشر ثقافة الدولة المصدرة لها. وليس التأثير الثقافي المصري ظاهرة مستحدثة أو وليد الساعة؛ حيث إنها أكبر الدول العربية من حيث السكان بحياتها السياسية والاجتماعية والثقافية بالغة الثراء واستمر ذلك التأثير حتى وهي تحت الاحتلال، وكان لمصر قصب السبق دومًا على الآخرين. ولقد جذبت المشاعر السائدة في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وأواخر القرن العشرين والمتسمة بجو من التسامح الكثير من المواهب العربية من مناطق أكثر عنفًا وتعسفًا في الشرق الأوسط والتي كانت ترزح تحت نير الاستعمار، لتجعل القاهرة بوتقة الانصهار للثقافات العربية[1].

وكانت القاهرة، في عالم أفكار الثقافات السياسية والاجتماعية، وحتى وقت قريب المنتدى الرئيسي للمساجلات وحلقات النقاش للثقافة العربية. ونوقشت في مصر قضايا مثل حقوق المرأة، والحرية، والديمقراطية، والتنوير الديني، ومحاربة الاستعمار، والقومية العربية، وكبح جماح الطغيان، حيث قام المفكرون العرب من أمثال قاسم أمين، ورفاعة الطهطاوي، ومحمد عبده، وجمال الدين الأفغاني بتشجيع نشر ثقافة عربية موحدة، وقاموا بوضع برامجها ونشرها من خلال البنية التحتية العالمية للثقافة والصناعة المصرية. وبشّر طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣) والذي أصبح عميدًا للأدب العربي بالحداثة من خلال تبني وسائل علمانية، وناقش في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" (١٩٣٨) أن هوية القومية العربية في مصر يجب أن تشير إلى تراث البلاد التقليدي كدولة وثقافة تنتمي إلى البحر الأبيض المتوسط.

وقامت مصر ببث أول خدمة إذاعية تمتلكها دولة في الشرق الأوسط في عام ١٩٣٤ (شاهين ٢٠٠٢). وقامت المراكز التعليمية في مصر وهي تتباهى بأكبر شريحة من الطبقة الوسطى تلقت أكبر درجة من التعليم في العالم العربي، بجذب طلاب العلم بصفة تقليدية من كل أنحاء المنطقة، والذين أصبحوا قادة سياسيين فما بعد (على سبيل المثال تخرج الملك حسين ملك الأردن الراحل من كلية فيكتوريا بالإسكندرية، كما أن الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات قد تخرج من كلية الهندسة بجامعة القاهرة). كما هاجر المدرسون، والمحامون، والأطباء، والمهندسون المصريون إلى العديد من الدول العربية وقاموا بالتأثير في ثقافتهم المحلية، وبذلك استكملوا العمل الذي بدأته الأفلام المصرية من أجل تعميم اللهجة المصرية للغة العربية في كل أنحاء العالم العربي والإسلامي.

وعلى الرغم من التيارات القوية في التفكير والتي تميل لدول البحر الأبيض المتوسط وأوروبا في مصر، فإن تأسيس جامعة الدول العربية في القاهرة في عام

١٩٤٥ كان يعني أن مصر تميل بهويتها كقلب للعالم العربي لتجعلها في المقام الأول، وتنزل بهويتها كشريك في البحر الأبيض المتوسط وكمنافس لروما وأثينا إلى المرتبة الثانية. ويقع المبنى الرئيسى لجامعة الدول العربية في قلب القاهرة وفي ميدان التحرير، لتذكر رجل الشارع المصري بالرباط الذي يربطه بالعالم العربي، وتطمئنه إلى أن قضايا الأمة العربية تهيمن على وسائل الإعلام المصرية. وانتشرت مبادئ القومية العربية، وجامعة الدول العربية، والاشتراكية العربية، والنظام السياسي للحزب الواحد، والتطرف الإسلامي عبر المنطقة من جذور مصرية. وكان القائد الثوري جمال عبد الناصر هو أول رئيس دولة عربية يحاول تحويل القومية العربية، والاشتراكية لحقبة ما بعد الاستعمار، والوحدة الإقليمية إلى حقيقة سياسية عن طريق الوحدة مع سوريا (١٩٥٨-٦١). كما كان أنور السادات هو أول قائد عربي لقادة حقبة ما بعد الاستعمار يقيم تحالفًا مع المتطرفين الإسلاميين ويقوم بتشجيعهم من أجل خلق مركز ثقل مضاد للاشتراكية، وحركات التحرر للعالم الثالث، والتحررية القومية، والنزعات السياسية العربية الشعبية الأخرى في ذلك الوقت.

الريادة الثقافية والسياسية

ظلت الصناعة الثقافية للقاهرة أداة سياسية للدولة والأمة المصرية في نضالها من أجل تحقيق الهيمنة الإقليمية في الشرق الأوسط. وقامت الكثير من الدراسات، في حقيقة الأمر، بتوثيق وإبراز كيف أن الدور الثقافي المصري في العالم العربي ارتبط بقيام الحكومة المصرية بالترويج لأهدافها السياسية في المنطقة *(Dawisha 1976, 173-75)*. وقام قادة الثورة المصرية – الضباط الأحرار – بطرد المستعمرين البريطانيين في يوليو ١٩٥٢، وقاموا بتأسيس وزارة الثقافة والإرشاد

القومي في ١٠ نوفمبر من نفس العام. وأدرك قادة مصر الثوريون أنه لحماية مصر من الطموحات الاستعمارية والخارجية الجديدة، تحتاج مصر والأمة العربية بأسرها إلى تقوية وتوحيد تضامنها الإقليمي ووعيها الثقافي. وكانت أفكار وحدة الأمة العربية ذات شعبية حقيقية في الشرق، حيث عانت من الانقسام إلى دويلات فرضه عليها الاستعمار البريطاني والفرنسي (الأردن، ولبنان، وفلسطين وسوريا). وكان هناك عطش حقيقي في العالم العربي لثقافة عربية قوية وموحدة. وألهمت مصر بإبداعاتها، وبطبقتها الوسطى المثقفة، وعمالها الذين تم حشدهم وتنظيمهم تنظيمًا دقيقًا، وبفلاحيها الموهوبين النشطاء المثقفين، العرب بالوعي الجديد والأنماط التي يرغبون فيها.

مصر الثورية ١٩٥٢-١٩٧٠

لم يكن الضباط الأحرار هم الذين قاموا باختراع قضية القومية العربية؛ وعلى الرغم من ذلك فإنهم أمسكوا بخيوط الفكرة من أجل الترويج للسياسات المصرية في العالم العربي عبر المسار الثقافي. وأدركت مصر بمواردها الطبيعية المحدودة، وسكانها المتزايدين في العدد أن العلاقات الطيبة مع جيرانها العرب أمر حيوي للغاية. كما أن الصناعة المصرية المتنامية وقطاع السياحة كانتا في حاجة إلى أسواق خارجية. وأصبح نشر الألفة بالثقافة المصرية جزءا هامًا لا يتجزأ من الترويج لجوانب واسعة من السياحة، والصناعة، وقطاعات الزراعة في البلاد في سباق مع القوى الإقليمية والعالمية الأخرى. وأصبحت العلامات الثقافية المصرية البارزة مثل أم كلثوم، وعبد الحليم حافظ، ومحمد عبد الوهاب أسماءً مألوفة وبارزة في الكثير من الدول العربية. واستقر المطربون العرب الناجحون في مصر مثل فريد الأطرش، وصباح، وكلاهما من لبنان وقاما بتقديم أغنياتهما باللهجة

المصرية. وازدهر الإنتاج الأيديولوجي في مصر، وأصبحت محطة إذاعة صوت العرب، والتي افتتحت في يوليو عام ١٩٥٣ تماثل في نفوذها وتأثيرها قناة الجزيرة في هذه الأيام.

وقامت وزارة الثقافة والإرشاد القومي بتأسيس المعهد العالي للسينما من أجل دعم صناعة السينما، وبغرض تغطية كل أوجه صناعة السينما. كما اقتحمت الحكومة المصرية مجال الإنتاج السينمائي، وقامت بتأميم صناعة السينما مع الكثير من الصناعات في بواكير سنوات الستينيات. وأصبحت الدولة هي اللاعب الأول في سوق الإنتاج السينمائي على الرغم من أنها لم تقم بحظر شركات الإنتاج الخاصة من القيام بتلك المهمة. وكان الإنتاج السينمائي للقطاع العام في ذلك الحين ذا جودة عالية، نظرًا للمعاونة الثورية، والدعم الحكومي، ورعاية كبار الكتاب العرب لتلك الصناعة. وكما قال الممثل المخضرم "عزت العلايلي" إنه في سنوات الستينيات تم إنتاج الكثير من الأفلام الكلاسيكية التي استوحت حبكتها من العديد من الروايات المصرية عالية الجودة. فعلي سبيل المثال، ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة، وأعمال الكاتب الكبير فتحي غانم، وتوفيق الحكيم، ضمن الكثير من عمالقة الأدباء المصريين. ولكن استتبع نفاد مخزون الروايات المصرية الجيدة، تدهور في نوعية الأفلام المصرية واستمر هذا التدهور حتى اليوم(٢).

صناعة الثقافة في القاهرة في عهد السادات ١٩٧٠-٨١

جعلت إدارة الرئيس جمال عبد الناصر الوحدة العربية من أولوياتها في سياساتها الإقليمية. وكانت هناك العديد من المحاولات من أجل توحيد الدول العربية (مثلاً الوحدة المصرية – السورية ١٩٥٨ – ٦١) كما كانت هناك محاولات للوحدة مع اليمن والدول الأخرى. ومر الإنتاج الثقافي المصري نتيجة

لذلك بفترة من الازدهار في العالم العربي (الأفلام، الروايات، الإعلام، الغناء، المسرح، والرسم). ولكن مصر تحت حكم نظام السادات قامت بتغيير اهتماماتها بطريقة جذرية. وهُجرت تجربة صناعة الأفلام عن طريق القطاع العام والذي تدعمه الدولة في أوائل سنوات السبعينيات عندما اتجه السادات نحو الخصخصة بسياسته الانفتاحية في عام ١٩٧٤، والتوقف عن تمويل هذه الصناعة والتحول تجاه بيعها للمضاربين الغربيين والعرب. وتحولت الأولويات السياسية في عهد السادات لتتجه نحو تدعيم العلاقات مع الغرب، والتقليل من أهمية العلاقات العربية. ومما زاد الأمور سوءا هو اختفاء الكثيرين من علامات الثقافة البارزة في العصر الذهبي لمصر الثورية في نفس الوقت. واحترق مبنى الأوبرا المصرية في حريق شب عام ١٩٧٢ وصار رمادًا تذروه الرياح، وهي واحدة من أقدم مباني الأوبرا في العالم. وتوفيت أم كلثوم مطربة العرب الأولى في عام ١٩٧٥ (والتي ولدت عام ١٩٠٤). وكتعبير عن نهاية حقبة التقدم والأحلام الكبيرة، وبداية عهد مشاعر الحنين القومية للماضي وعدم الرضا عن الحاضر، فقد كان المشيعون لجنازة أم كلثوم أكثر عددًا من هؤلاء الذين قاموا بتشيع جمال عبد الناصر في عام ١٩٧٠. ثم توفي عبــد الحليم حـــافظ أسطورة الغناء الرومانسي والسينما الموسيقية في عام ١٩٧٧.

وخضعت صناعة السينما والترفيه للخصخصة بموجب سياسة الانفتاح التي دشنها أنور السادات، ولكن القطاع الخاص لم يملأ الفراغ الذي حدث. فقد كانت أولويات القطاع الخاص مختلفة عن أولويات القطاع العام في حقبة جمال عبد الناصر. فقد كانت سينما القطاع العام تستهدف الوصول إلى أهداف سياسية، وتعزيز الحراك الاجتماعي، ونشر الوعي، بالإضافة إلى مجموعة من المفـــاهيم. أما أولويات القطاع الخاص في المقابل فكانت قصيرة المدى وتستهدف جني الأرباح من أفلام الدراما التجارية. وبالطبع استمرت صناعة الإنتاج السينمائي طبقًا

لمنطق السوق الجديد واتجهت إلى الإسفاف وتسارعت وتيرتها مع إدخال نظم الفيديو في أواخر أعوام الثمانينيات وأوائل التسعينيات (برجاء مراجعة الجدول رقم ١). وكانت مصر قادرة على تدريب المخرجين الجدد بطريقة لم تكن مُتاحة لأي دولة عربية أخرى، لأنها كانت تملك ذخيرة هائلة من كبار المخرجين، وتحت رعاية، رائد الواقعية الاجتماعية صلاح أبو سيف، ومــن رواد المخرجين يوسف شاهين، أو المتمردة على التقاليد والمحظورات إيناس الدغيدي على سبيل المثال. وظلت السينما المصرية هي الصناعة الوحيدة التي تقوم بتصدير ١٠٠% من إنتــاجها. كما كان عشاق هذه الأعمال من المتفرجين المحليين يقبلون عليها.

الجدول رقم (١) الإنتاج السينمائي المصري في بعض الأعوام المختارة

العام	عدد الأفلام
١٩٤٥	٤٢
١٩٤٨	٤٩
١٩٥٠	٥٧
١٩٥٢	٥٩
١٩٥٥	٥٢
١٩٥٨	٥٨
١٩٦١	٥٢
١٩٦٤	٤٤
١٩٦٦	٣٨
١٩٦٧	٣٤
١٩٧٠	٤٧

العام	عدد الأفلام
١٩٧٣	٤٣
١٩٧٧	٥١
١٩٧٩	٣٨
١٩٨١	٤٤
١٩٨٣	٤٧
١٩٨٥	٧٨
١٩٨٩	٤٥
١٩٩٢	٧٠
١٩٩٣	٥١
١٩٩٦	٢٤
٢٠٠٤	٢٤

المصدر: البنداري، قاسم ووهبي ١١٩٤؛ اليونسكو ٢٠٠٤؛ ناجح ٢٠٠٤

تليفزيون القاهرة

دائمًا ما كانت برامج تليفزيون القاهرة مادة رائجة ومحببة في أرجاء العالم العربي. وأدى إبرام معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية إلى أن تقوم الكثير من الدول العربية بمقاطعة مصر وإنتاجها الثقافي، وبذلت الأسواق العربية جهودًا من أجل استبدال مواد الدراما التليفزيونية المصرية بمنتجات آسيوية (على سبيل المثال بأفلام وموسيقى هندية وفيليبينية). وجذبت هذه المواد العمالة الآسيوية المُغتربة والمتواجدة في دول الخليج إلى حد كبير، وليس العرب والذين كان يبدو أن غرامهم بالدراما والأفلام المصرية المحببة إليهم وبالعامية المصرية التي يسهل عليهم فهمها، لا غنى عنه. وتستخدم المواد السينمائية للدول العربية الأخرى مثل تونس لهجات غير مألوفة بالنسبة للعالم العربي كالعامية المصرية والتي كانت قد رسخت أقدامها لديهم. وفشلت المقاطعة سريعًا، وعادت الثقافة المصرية لتكون في قلب العالم العربي مرة أخرى. وكانت المشكلات الاجتماعية التي تقوم السينما المصرية بمعالجتها شبيهة بتلك التي تواجه الأمم العربية الأخرى، ولم تقم السينما الآسيوية باقتحامها، كما لم يضعف الطلب على مواد الترفيه المصرية ولكنه ازداد مع مرور الوقت. وأحجم الممثلون والفنانون المصريون عن تطبيع العلاقات مع إسرائيل لحماية مصالحهم الاقتصادية في السوق العربية كوجه من أوجه المقاطعة العربية. ووضعت نقابتهم المهنية عقوبات صارمة على أي انتهاك لمبدأ المقاطعة. وأصدرت وسائل إعلام المعارضة قوائم سوداء لهؤلاء المرتكبين لجريمة التعاون مع إسرائيل من أجل تلويث سمعتهم وتشويه صورهم. ونجحت هذه الأساليب في الإقلال من العلاقات الثقافية بين مصر وإسرائيل. كما لعب استمرار الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية الدور الكبير في استمرار الصورة السلبية لإسرائيل في عقول العامة من المصريين.

الثقافة المصرية في عهد مبارك ١٩٨١ – ٢٠٠٥

بعد أن تولى حسني مبارك السلطة في أعقاب اغتيال الرئيس أنور السادات في عـــام ١٩٨١، أعادت الدول العربية ومصر العلاقات الودية بينهما. وبحلول عام ١٩٩٠ عاد المركز الرئيسى لجامعة الدول العربية إلى القاهرة مرة أخرى، والذي كان قد نُقل إلى تونس في عام ١٩٧٨ عندما تم تعليق عضوية مصر بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد. وقوبلت عودة مصر بحفاوة، ولكن عودتها كانت إلى عالم عربي آخر مختلف عما سبق.

فقد بدأت دول الخليج العربي والتي كانت مُهمشة فيما مضى، في خلق مظهر ثقافي جديد بفضل الفوائض البترولية في سنوات السبعينيات. وكانوا يملكون رأس المال المطلوب لتطوير منتجهم الثقافي الخاص بهم لتنافس الثقافة العربية "لمركز" العرب في القاهرة. وازدهرت صحف القومية العربية في العديد من المناطق خارج مصر. وتقوم وزارة الإعلام الكويتية على سبيل المثال، بإصدار مجلة ثقافية قوية للأمة العربية وتصدر شهريًا منذ عام ١٩٥٩، وهي "مجلة العربي" ويقوم بتحريرها الكثير من المفكرين العرب، وفي الحقيقة كان رؤساء تحريرها في بداية الأمر من المصريين مثل د. أحمد زكي (١٩٥٨–٧٥)، وأحمد بهاء الدين (١٩٧٦–٨٢). ولا تملك مصر بديلاً مماثلا لهذه المجلة، أو للمجلة اللبنانية الشهرية "المستقبل العربي" (١٩٧٨) في الوقت الحالي. وبرزت مجلات أكاديمية وثقافية قوية في الخليج ممن كان كتابها لا يقتصرون على المصريين مثل الشهرية "دبي الثقافية" وهي مجلة ثقافية – أدبية ذات شهرة طاغية وتُباع فقط بمبلغ سبعة جنيهات مصرية نظرًا للدعم الحكومي السخي الذي يُقدم لها.

وبدأت الجامعات المصرية في مواجهة منافسة حادة من الجامعات العربية الأخرى والتي تقوم بتدريس مناهجها باللغات الأجنبية لمواجهة المنافسة الاقتصادية العالمية المتزايدة في سنوات الثمانينيات. وعلى النقيض من ذلك، فإن مباهاة مصر

بإصرارها على التدريس باللغة العربية أدى إلى إهمال اللغات الأجنبية في سنوات الستينيات والسبعينيات، وهناك العديد من المفكرين المصريين، ورؤساء تحرير الصحف، والـدوريات المتعـددة، شأنهم شـأن عمداء الجامعات لا يجيدون اللغات الأجنبية.

وتزامنت نهاية الحرب مع إسرائيل في عام ١٩٧٣، وما تبعها من معاهدة السلام المصرية – الإسرائيلية، بتقديم مساعدات أجنبية هائلة فاقت ما تم تقديمه طبقًا لخطة مارشال لإعادة بناء أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت التوقعات أن تصبح مصر النمر الاقتصادي لمنطقة الشرق الأوسط. وعلى الرغم من ذلك، فقد أدى قصور الرؤية لدى النخبة الحاكمة، وتفشي الفساد في الجهاز الإداري للدولة إلى خلق "فأر آسيوي ضال"، وليس نمرًا أو شبيهًا به. وانقسمت النخبة الثقافية المصرية بشأن الطريق المستقبلي الذي يجب أن تسير فيه البلاد، وكان دعاة الانعزالية أكثر قوة ونفوذًا، وعلى وجه الخصوص في أعقاب قطع العلاقات الدبلوماسية مع الدول العربية في عام ١٩٧٩.

وظلت صناعة الترفيه المصرية على الرغم من هذه التغييرات التي حدثت فيها (التليفزيون، والفيديو كليب، والمسرح) منفتحة أكثر للنفوذ الغربي في الترفيه أكثر منه للإنتاج القادم من دول الخليج العربي. وبرزت حاجة ماسة إلى التنويع في صناعة الترفيه مع جيل جديد من المتعلمين، والوجود المكثف للأجانب وبخاصة في الخليج الفارسي (يصلون إلى ما يقرب من ٨٠% من نسبة السكان في بعض دول الخليج الفارسي). وتعتمد خريطة البرامج اليوم في بعض قنوات التليفزيون بالعالم العربي، وعلى وجه الأخص القنوات المُتخصصة وقنوات الدراما مثل شبكات موفي شانيل والشوتايم بنسبة ٨٠% على برامج مستوردة من الغرب، بينما ٢٠% منها تعتمد على برامج من الإنتاج المحلي والتي تأخذ في المعتاد أشكال البرامج الإخبارية، والبرامج الحوارية، والمسلسلات الدرامية، والفيديو كليب،

والدراما، والسينما (طوغان ٢٠٠٥). وتختلف درجة الاعتماد على هذه المواد من قناة لأخرى. وتعتمد بعض القنوات العربية للأفلام والدراما والموسيقى المُتخصصة كليةً على وجه التقريب على الإنتاج المصري، مثل قنوات إيه آر تي للأفلام، وإيه آر تي حكايات، وإيه آر تي للمنوعات، وهي ثلاث باقات مختلفة لقنوات راديو وتليفزيون العرب المعروفة باسم إيه آر تي. وسنقوم بشرح أكثر تفصيلاً في الجزء الباقي من هذا الفصل لهذا الجانب من جوانب القنوات الفضائية.

النشرات الإخبارية في التليفزيون والراديو

يعتبر هذا العصر هو العصر الذهبي لقنوات التليفزيون الفضائية وليس الراديو. فقد ولت الأيام الثورية من إذاعة صوت العرب من قاهرة الثورة. ويعتبر جهاز التليفزيون في العالم العربي اليوم لا غنى عنه على الإطلاق، حيث يبلغ أعداد الأميين ٧٠ مليونًا من إجمالي السكان البالغين ٣٠٠ مليون نسمة. ويمكن للمشاهد العربي أن يقوم بالاختيار من بين ١٤٠ قناة تنتج منها مصر بمفردها أكثر من ٢٧ قناة. وتتاح معظم القنوات الفضائية بالمجان، وأخرى مزيج من المجانية ومقابل اشتراكات، وبعضها يتم بثها محليًا على القنوات الوطنية. وكانت مصر هي أول دولة عربية تقوم بالبث الفضائي لقنوات التليفزيون، عندما قامت ببث القناة الفضائية المصرية على عربسات في عام ١٩٩٠. وأكدت مصر هيمنتها الإقليمية على وسائل الإعلام، بعد ذلك بثماني سنوات، عندما قامت بإطلاق القمر الصناعي الخاص بها، نايل سات، من أجل دعم قنواتها الوطنية، مع القنوات الإقليمية والعالمية. واستمرت الحكومة المصرية، ولسوء الحظ في إنتاج كميات كبيرة من البرامج، والتي خضعت لرقابة مشددة بدلاً من التركيز على النوعية، والبرامج المجانية وذلك في الوقت الذي يستطيع فيه المشاهد أن ينتقل من قناة أجنبية إلى

أخرى بحثًا عن الأفضل، والابتعاد عن الدعاية الحكومية. وتعتبر الكثير من المسلسلات التليفزيونية من وجهة نظر المشاهدين مطولة للغاية وتحتاج للتعديل، ولكن المنتجين يكسبون أموالا أكثر عندما تكون مسلسلاتهم أكثر طولاً. ويكشف "حسن حامد" رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون عن أن الإنفاق اليومي على القنوات التليفزيونية يصل إلى ٣,٢٨ مليون جنيه مصري، أي أنه يصل إلى ١,١٩٧ بليون في العام الواحد. وتبلغ ميزانية قناة النيل للأخبار والمفترض أنها تتنافس مع قناة الجزيرة القطرية، في نفس الوقت، إلى عُشْر ميزانية أي قناة أخرى متخصصة في العالم العربي، وهناك قنوات عربية لديها ميزانية سنوية تزيد عن خمسين مليون جنيه مصري. وتقوم القنوات المصرية والتي يبلغ عددها ٢٧ قناة بتوظيف ٢٨ ألف موظف (بمن فيهم القائمون بأعمال مكتبية، والمديرون، وغيرهم) مقارنة بثمانين فردًا تقوم القناة اللبنانية (*LBC*) ذات الشعبية بتوظيفهم، وما يقرب من ٧٠ مراسلاً تقوم قناة الجزيرة الأكثر ثورية، ونقدًا، والأكثر ثقة بتوظيفهم (الدين ٢٠٠٤).

واستهلت قناتي الجزيرة وأبو ظبي البث في عام ١٩٩٧. وعندما قام الرئيس مبارك بزيارة قطر، حيث مركز قناة الجزيرة في عام ٢٠٠٠، وألقى نظرة خاطفة على صالات الأخبار، علق قائلاً، "كل هذا الضجيج تصنعه علبة الكبريت هذه؟" *(Zednick 2002)*. ولست في حاجة إلى القول بأن المصريين قد شرعوا في الابتعاد عن قنواتهم الإخبارية الخاصة نحو علبة الكبريت أو قناة الجزيرة والقنوات المحلية الأخرى لمعرفة الأحداث التي تجري في بلادهم. ويعتمد نظام الإعلام في أي بلد على نوعية النظام السياسي. حيث أحجم النظام السياسي الشمولي عن تطوير نفسه وظل يخطو ببطء في الاستجابة أو تفهم التغيير، ويحذو الإعلام الخاص به حذوه، ويظل غارقًا في بيروقراطيته، والرقابة الشديدة المفروضة عليه، والحذر المتزايد،

والبطء في تغطية الأحداث الطارئة في انتظار صدور "الضوء الأخضر" إليها من أعلى. وأدى ذلك لفقدان ليس فقط المشاهد المحلى المصري، والمشاهدين في المنطقة، ولكن أيضًا لمصداقيتها الإخبارية أيضًا. ويتم تغطية الأحداث الكبرى الطارئة بواسطة القنوات العربية بطريقة أسرع بكثير من القنوات الإخبارية المصرية. وتشمل القنوات المنافسة لقناة الأخبار المصرية القنوات ذات الملكية الخاصة "قناة العربية" والتي مركزها دبي، والقناة السعودية (*MBC*) أو مؤسسة إذاعة الشرق الأوسط السعودية، وقناة الجزيرة القطرية. وما تحتاجه القنوات المصرية هي الحرية، حيث تشبه القنوات التليفزيونية للاتحاد السوفيتي السابق حيث تلتزم الصمت عن الأحداث الجارية داخل الوطن بينما تطنطن بالدعاية الرسمية للدولة.

وطبقًا لاستقصاء قمت به شخصيًا عن عينة من مستخدمي الإنترنت المصريين، فإن المواقع اللبنانية تكتسح مواقع الأخبار بالإنترنت وبتمويل خليجي مثل المواقع الإخبارية (*Elaph.com*)، (*Metransparent.com*)، أما في مجال الإذاعة فلا تزال الحكومة المصرية تهيمن عليها بما يزيد عن ١٤ محطة إذاعية، فهناك قناتان خاصان تجاريتان للموسيقي تقوم بتغطية القاهرة الكبرى حتى الآن: (نايل إف إم للموسيقى الغربية، ونجوم إف إم للموسيقى الشعبية العربية، وكلتاهما مملوكتان لشركة النيل للإنتاج والتي يملكها إمبراطور الإعلام "عماد الدين أديب" (إبراهيم ٢٠٠٤). وربحت نجوم إف إم ما يربو على ٤٠ مليون جنيه مصري في عام ٢٠٠٤، مقارنة بما يقرب من ٥٠٠,٠٠٠ جنيه مصري فقط ربحتها ١٤ محطة إذاعية حكومية مجتمعة (شومان ٢٠٠٥، ١٤). ولكن عندما يتعلق الأمر بالأخبار الموثوق بها، فإن كل العالم العربي يعود على مدار الأربع وعشرين ساعة إلى خدمات هيئة الإذاعة البريطانية والمعروفة اختصارًا بالحروف (*BBC*).

من يمتلك محطات الفضائيات العربية؟

تتملك المحطات الفضائية العربية كل من الحكومات والشركات الخاصة. وتقوم الحكومة القطرية بتمويل أكثر قنوات الأخبار العربية شعبية، وهي الجزيرة. وهناك القليل من الدول العربية التي تمتلك قنوات متخصصة للأخبار، على الرغم من أن مصر تمتلك وتدير النيل للأخبار، والمملكة العربية السعودية تمتلك "الإخبارية". وتمتلك الدول العربية الأخرى قنوات تليفزيونية ببرامج مختلفة للأحداث الجارية مثل قناة أبو ظبي. واقتحمت الشخصيات العربية المعارضة هذا المجال أيضًا. ويمتلك "رفعت الأسد" الشقيق المُبعد للرئيس الراحل "حافظ الأسد" على سبيل المثال، قناة إخبارية "شبكة الأخبار العربية" ومقرها لندن. كما يمتلك الكاتب التونسي التحرري "د. محمود الهاشمي" قناتين للأخبار في لندن: المستقلة، وهي تقوم بالبث لفترة ١٨ ساعة يوميًا، ثم تحول إلى قناة أخرى تقوم بالترويج للقيم التحررية، وهي قناة الديمقراطية والتي تقوم ببث البرامج الحوارية والمناقشات عن الديمقراطية في العالم العربي (المستقلة ٢٠٠٥). ويتم تمويل "إذاعة الأخبار العربية" وهي قناة إخبارية للأمة العربية، بواسطة مجموعة من رجال الأعمال العرب وهي موجهة للعراق وللوطن العربي على وجه العموم. وتقوم بالتركيز على أخبار لبنان والعراق بصفة أساسية (الإبياري ٢٠٠٤).

وكانت القناة الفضائية الأولى المملوكة للقطاع الخاص ومقرها السعودية ودبي وهي (*MBC*) والمملوكة للأمير وليد إبراهيم بالاشتراك مع الشيخ صالح كامل (خير ٢٠٠٥، ١٤). وكانت في البداية قناة وحيدة تقوم ببث مزيج من الأخبار وبرامج الترويح، وتوسعت الآن لتبلغ ٤ قنوات. ودخلت مصر مجال القنوات الخاصة متأخرة في عام ٢٠٠١ – بقناتي دريم ١، ودريم ٢. ويمتلك رجل الأعمال المصري أحمد بهجت ٨٠% من أسهم القناتين، كما أن القناتين تقومان

بالترويج لأعمال شركاته بشكل عام. وبلغت ميزانية القناتين طبقًا لمقالة تم نشرها في مجلة المصور (ناجح ٢٠٠٤ أ) في عام ٢٠٠٣، بأرباح بلغت ٤١ مليون جنيه. كما أن هناك قناة ثالثة خاصة وهي المحور المملوكة لرجل الأعمال المصري حسن راتب، والذي يستحوذ على ٨٠% من أسهمها، بينما الباقي ملكية رجال أعمال آخرين. ويمتلك الملياردير المصري نجيب ساويرس قناة للموسيقى والترفيه في العراق وهي النهرين وذلك للترويج لأعماله ولخدمات اتصالات التليفون المحمول (صادق ٢٢٠٥، ٥٠-٥١).

ولم تكن هناك خيارات للاشتراك في قنوات تليفزيونية خاصة في المنطقة قبل عام ١٩٩١. وكانت مصر في الطليعة للتمهيد للظاهرة الجديدة مع شبكة (*CNE*) والتي تقوم ببث إذاعة (*CNN*) ومعها باقة من قنوات الترفيه الغربية. وتحالفت ثلاث شبكات واندمجت للهيمنة على سوق الاشتراك في القنوات التليفزيونية. وكانت الأولى هي إيه آر تي والمتمركزة في عمان، والمملوكة للشيخ صالح كامل، ومع الشبكة العديد من قنوات الترفية، والموسيقى، والأفلام، والدراما، والبرامج الحوارية (صقر ٢٠٠١). كما تمتلك الشركة العربية للإنتاج الإعلامي. وأما الثانية فكانت الشوتايم، وهي استثمار مشترك بين الشركة الأمريكية فايكوم، والكويتية شركة مشاريع الكويت الاستثمارية لإدارة الأصول بينما الثالثة "أوربت"، وكانت تستهدف العرب ذوي الدخول العالية والذين يميلون للغرب وكانت تقدم مزيجًا من الترفيه الغربي والعربي. وتكونت شبكة راديو تليفزيون العرب "أوربت" المملوكة لمجموعة موارد السعودية بغرض تقديم باقة واسعة من الترفيه العالمي المستوى والمعلومات باللغات الإنجليزية والعربية والفرنسية. ويعتبر الأمير السعودي خالد بن عبد الله بن عبد الرحمن عبد العزيز، وهو ابن عم الملك الراحل فهد، هو مالك كل من "أوربت" ومجموعة الموارد (خير ٢٠٠٥).

وبفضل التكنولوجيا الرقمية المتطورة وإمكانيات القرصنة يمكن للكثير من المشاهدين الاستمتاع بالقنوات الغربية، ومشاهدة المواد الخليعة والتي يقومون باستقبالها مجانًا من خلال برامج فك الشفرات والتي تقوم بتجديد برامج فك الشفرات لهم كل شهر أو كل فترة زمنية معينة. وتعتبر البرامج المخصصة بفك شفرات مستقبلي إذاعة القرآن الكريم بانتظام – مثل هيوماكس – لها شعبيتها لهذا الغرض. ويمكنك مقابل مبلغ شهري يبلغ ٣،٥٠ دولار أن تقوم بتحديث برنامج فك الشفرات لاستقبال القنوات المُشفرة والتي تساوي مئات الدولارات. وبينما في الحقيقة لا أملك أرقامًا دقيقة لمثل هذه الممارسات، فإن الإعلانات المنشورة في الصحف المصرية والزيارات إلى شركات تركيب أجهزة الأقمار الصناعية توحي بأنها ممارسات رائجة. وقامت هذه الثورة الإعلامية في وسائل الإعلام الخاصة بالأقمار الصناعية بالتأثير في أذواق وخيارات الشعوب العربية.

الدراما في التليفزيون المصري

تعاني نسبة تبلغ ٥٠% من السيدات في مصر من الأمية مقارنة ٢٩% من الرجال (الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء ٢٠٠٣)، وتظل الدراما التليفزيونية الوسيلة الوحيدة المتاحة لديهم للتواصل، والتعليم، والتسلية. وطبقًا لتقرير التنمية البشرية للعرب لعام ٢٠٠٢، فإن سكان المنطقة العربية لا يزالون صغار السن حيث إن ما نسبته ٣٨% تقريبًا أقل من ١٥ سنة ومتوسط الأعمار أقل من ٢٠ سنة (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي٢،٢٠٠٢). ويتزايد الطلب المحلي للدراما المصرية من أجل مواجهة الطلب من القنوات الوطنية والعربية (جدول رقم ٢). ويؤثر هذا الطلب المتزايد بطبيعة الحال على نوعية المسلسلات الدرامية. وتُنتج مصر، في المتوسط، ما يبلغ من ٢٠٠٠ ساعة من الدراما كل عام (ما يعني ١٠٠ مسلسل

تليفزيوني، وخمسين سهرة درامية وبميزانية سنوية تبلغ ٣٥٠ مليون جنيه؛ رمضان ٢٠٠٥؛ انظر جدول ٣ لقائمة منتجي الدراما التليفزيونية في مصر).

الجدول رقم (٢) متوسط ساعات البث التليفزيوني اليومي لثمانٍ من القنوات المحلية والمركزية لبرامج الدراما

السنة	١٩٩٥-٩٦	١٩٩٦-٩٧	٢٠٠٠-٠١	٢٠٠١-٠٢
ساعات عرض برامج الدراما	١٧	١٣,٢	٢٧,٢	٢٣,٦

المصدر: اتحاد الإذاعة والتليفزيون؛ الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء ٢٠٠٣، ٣٢٥.

الجدول رقم (٣) المنتجون ونسبة الدراما التليفزيونية في مصر

المنتج	نسبة الإنتاج في السوق
قطاع الدولة للإنتاج (القطاع الاقتصادي بالتليفزيون)	٢٠
شركة صوت القاهرة	٣٣
مدينة الإنتاج الإعلامي	٣٠
إنتاج خاص ومشترك	١٧

المصدر: رمضان ٢٠٠٥، ١٧.

واندفعت مصر نحو تأسيس قناة تليفزيونية – نايل دراما – تقوم بعرض الدراما التليفزيونية على مدار الليل والنهار وذلك في عام ١٩٩٦. وقامت ببث ما يعادل ٨،٧٦٠ ساعة من الدراما في سنوات ٢٠٠٢ – ٠٣. (اتحاد الإذاعة والتليفزيون ٢٠٠٥ أ). ويعتبر سوق الدراما في تليفزيونات العرب ضخمًا للغاية حيث يبلغ عدد السكان العرب ٣٠٠ مليون، والذين يتحدثون ويفهم أغلبهم اللغة العربية (حجازي وآخرين ٢٠٠٥، ٧٠). كما يطلب المهاجرون العرب حول العالم الدراما المصرية، وهكذا فإن حجم صادرات التليفزيون المصري من المسلسلات الدرامية تزايد بشكل كبير. وتظل مصر على قمة الدول العربية من ناحية الكم في هذا المجال. ويمكن أن تكشف لنا نظرة سريعة لخريطة البرامج لأي محطة تليفزيونية عربية الكم الكبير للمسلسلات المصرية، والممثلين، أو الكتاب المشتركين في برامجهم اليومية. وهنالك الكثير من الأسباب لهذه الحالة. الأول، أن مصر كانت هي الرائدة في هذا المجال، ولديها الكوادر المدربة تدريبًا جيدًا، بالإضافة إلى نجومها ذوي الشعبية الطاغية. والثاني، أن الدراما المصرية غالبًا ما تكون مليئة بالشجن، وغالبًا وليس دائمًا ما تتفادى المواضيع المثيرة للجدل. وثالثًا، وكما هو الحال في السينما المصرية فإن العامية المصرية مألوفة للغاية في العالم العربي.

وتُركز الدراما المصرية بالإضافة إلى كل تلك الأسباب على الموضوعات الاجتماعية فيما يقرب من ٧٣% من إجمالي إنتاجها، ثم الكوميديا في المرتبة التالية (رمضان ٢٠٠٥). ولا تستورد مصر أي دراما تم إنتاجها في أي دولة عربية أخرى حيث إن القليل جدًا من المصريين يمكن أن يكونوا راغبين في مشاهدة الدراما غير المصرية. وتفتقر الدراما المصرية والعربية، على وجه العموم، للكثير من النمط الغربي المعتاد – فليست هناك مسلسلات للخيال العلمي على غرار رحلة مضنية عبر النجوم (*Star Trek*)، أو مسلسل ملفات إكس

(*X-Files*)، كما أنه ليست هناك قصص بوليسية مثل كولومبو أو (*CSI*). ويقوم التليفزيون المصري، على الرغم من ذلك، وكما اتضح في دراسة جدوى تم إجراؤها حديثًا، بتركيز جهوده التسويقية على ٢٠% فقط من إمكانات سوق مفتوحة بتقييد نفسه داخل حدود السوق المصرية، بينما يتجاهل سوق العالم الإسلامي الأكبر، والسوق العالمية (رمضان ٢٠٠٥). ويعيش الملايين من العرب المهاجرين حول العالم في عصر العولمة، ولا يمكن أن تقتصر صادرات المواد الإعلامية على المشاهدين المحليين فقط. ويمكن أن تصل القنوات الفضائية العربية، نظريًا، إلى أسواق أكثر بُعدًا مثل أوروبا وآسيا.

واعتادت مصر احتكار دراما الإنتاج التليفزيوني في العالم العربي. ونجحت سوريا، في وقت قريب جدًا، في أن تضع نفسها في موضع لائق في أسواق الإعلام وبخاصة نوعيات عالية الجودة من الدراما التاريخية، ولكنها لم تحقق نجاحًا مماثلاً في دراما المسلسلات التقليدية والبرامج الأخرى. وتنتج سوريا أعمالها بالاشتراك مع الشركات العربية أو الأجنبية الأخرى. ويبلغ الإنتاج السوري في الأعمال الدرامية ما بين ٣٠ - ٣٥ عملاً دراميًا في العام (حجازي ٢٠٠٥). وتظل القاهرة مهيمنة على العالم العربي، نظرًا لإنتاجها الذي يبلغ ١٠٠ مسلسل تليفزيوني، و٥٠ عملا دراميا خاصا يتم إنتاجها في مصر (رمضان ٢٠٠٥). ويعتبر المسلسل السوري "صقر قريش" والذي أُذيع في عام ٢٠٠٣ واحدا من أكثر المسلسلات القصيرة شعبية، ويمثل قصة حياة الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الداخل. كما قامت سوريا بإنتاج مسلسلات تاريخية أخرى ناجحة (مثل، صلاح الدين، وربيع قرطبة، والتغريبة الفلسطينية). وقدم هذا النجاح سوريا إلى أسواق أوروبا وأمريكا اللاتينية حيث يستقر المهاجرون العرب بكثرة. كما جذب المستثمرين العرب إلى الدراما السورية. واعترف وزير الإعلام المصري ممدوح البلتاجي، بأنه على الرغم من ضعف الإمكانيات والقدرات التكنولوجية، فإن الدراما

السورية تتمتع بامتياز نوعي وإن لم يكن كميًا بالمقارنة بنوعية الدراما المصرية (حجازي ٢٠٠٥). ويتعلق نجاح الدراما السورية بارتباط حبكة الرواية الدرامية بواقع سوريا، والعادات والتقاليد، والقيم، والخيال، وبصفة خاصة مواد الإنتاج الكبيرة المتعلقة بالدراما التاريخية (حجازي ٢٠٠٥). وتتسم كافة الأعمال الدرامية في كل أنحاء العالم العربي، في نفس الوقت، باستثناء مصر وسوريا، بأنها إما محدودة في أفكارها بحيث لا تصلح للتصدير، أو تقوم باستخدام عامية محلية ليس من السهل فهمها في أقطار العالم العربي الأخرى. وطبقًا لما يقوله "عبد الرحمن حافظ" رئيس مجلس الإدارة في مدينة الإنتاج الإعلامي المصري، فإن مصر تقوم بمعاونة سوريا في بناء مدينة إنتاج إعلامي لأجل أن تتكامل مع مصر وليس للمنافسة معها (حجازي ٢٠٠٥).

وهناك محاولات حثيثة في بعض الدول العربية من أجل تشييد مدن أكثر للإنتاج الإعلامي مثل مدينة الإنتاج الضخمة التي تقام في المنامة بالبحرين. وتشكل دبي أو "هونج كونج" الخليج مدينة إنتاج إعلامي مزدهرة. وتظل كمية مسلسلات الدراما التي تنتجها مصر تزيد عن تلك التي تنتجها العواصم العربية البازغة في هذا المضمار، والتي لا تزال تستخدم المصريين في إنتاجها. ويبدو أن مدن الإنتاج الإعلامي في الخليج تتجه نحو تقديم الدراما للإنتاج العالمي، وجنوب آسيا، والدراما الآسيوية بنفس القدر الذي تقدم به محتوى من اللغة العربية. هل ستتداعى مدينة الإنتاج المصرية في الصحراء، لا، ولكن هناك الحاجة إلى المزيد من التنوع والارتفاع بمستوى الإنتاج وتعظيم الموهبة. ويجب أن يرتبط التكاثر السريع لمدن الإنتاج الإعلامي في العالم العربي بالطلب المتنامي للبرامج للقنوات الفضائية العربية. ويعتبر سوق الدراما العربية ضخمًا للدرجة التي لا يمكن للإنتاج المصري والسوري بمفردهما تلبية حاجاتها. وتحاول القنوات الفضائية ملء الفراغ الناتج عن

ذلك بالبرامج الحوارية، والأفلام الوثائقية المستوردة، وما يُطلق عليها مسلسلات أمريكا اللاتينية، والتي تعتبر ذات شعبية مُحببة في كل من لبنان وسوريا.

ولا تعتبر مصر هي المنتج الرئيسى للتليفزيونات العربية فحسب، ولكن الشخصيات التي يتم استضافتها في البرامج التي تذاع على الهواء أيضًا مصريون، كما أن البرامج الحوارية العربية تجتذب نسبة عالية من المشاهدين عندما يكون الحديث سواء في برامج الفضائح أو الموضوعات المعتادة عن مصر. فعلى سبيل المثال، ظلت قضية أبوة طفلة والتي كانت مُثارة بين الممثل المصري الشاب أحمد الفيشاوي، ومصممة الأزياء "هند الحناوي" والتي ادعت أن طفلتها هي ثمرة زواج عرفي سري (غير مُسجل) بينها – وليس من علاقة غرامية كما يَدّعي حبيبها السابق – العنوان الرئيسى للكثير من الفضائيات العربية وبرامج الإثارة منذ عام ٢٠٠٤. ولسنا في حاجة إلى القول بأنه لا برامج الإثارة، أو حتى الموضوعات الثورية الاجتماعية يمكن أن يتم السماح بها في وسائل الإعلام في المملكة العربية السعودية، والتي يتم إحكام القبضة عليها بشدة بواسطة مجموعات دينية وسياسية محافظة وقوية. ولكن بعض هذه الموضوعات يمكن أن يتم عرضها، وإن كان بكثير من الخجل، في البرامج المصرية.

وتعتبر المنافسة على كبار النجوم ذوي الشعبية الكاسحة بين شركات إنتاج الدراما ومدن الإنتاج الإعلامي واحدة من المعضلات الكبرى التي تواجه الدراما في التليفزيون المصري. وترتفع تكاليف الإنتاج حيث يتنافس المنتجون على عدد محدود من النجوم الموهوبين. وقفزت أجور كبار النجوم المصريين بنسبة ٥٠٠% في السنوات السبع الأخيرة طبقًا لتقرير للقطاع الاقتصادي للتليفزيون المصرى والذي تديره الدولة عن "ارتفاع أجور النجوم ٢٠٠٥". ويطلب بعض نجوم الصف الأول ملايين الجنيهات المصرية. ويحقق بعض النجوم ملايين الجنيهات كل عام، بمن فيهم عادل إمام ملك الكوميديا (٢،٥ مليون جنيه مصري)، وحسين فهمي

(١،٥ مليون)، وإلهام شاهين (مليون جنيه مصري). ويدرك المنتجون الآن أن المسلسل الدرامي القوي تتراوح تكلفته بين ٨ مليون و١٢ مليون جنيه مصري نظرًا لطلبات النجوم المغالي فيها من الأجور. ولذا استـــدار المنتجون إلى النجوم الصغار الذين لا يغالون في أجورهم. وقد تحول الكثير من المتفرجين في نفس الوقت إلى القنوات الفضائية العربية الثرية والتي يمكنها أن تتحمل الأجور الباهظة لكبار النجوم المصريين. وتحصل مصر بذلك على دعم كبير ذى مغزى، وليست كلها خسائر حيث يحافظ هؤلاء النجوم على التواجد الثقافي المصري حتى ولو كان في قنوات فضائية غير مصرية. فكيف تؤثر تجربة التحولات السريعة في عالم القنوات الفضائية وكيف يمكن مقارنتها بتلك التحولات التي تحدث في عالم صناعة السينما؟

السينما المصرية

تعتبر السينما المصرية، ومسلسلات الدراما، والموسيقي من أهم أدوات هيمنة القاهرة في الماضي والحاضر على العالم العربي. وتستمر القاهرة في تأثيرها على المنطقة لأن صناعة السينما الخاصة بها هي الأقوى والأكثر عراقة، كما أن سوقها لا يقتصر على سوق محلية محدودة بشكل صارم كما هو الحال في إسرائيل أو في جنوب إفريقيا. وتم بناء سينما الشرق الأوسط بالإضافة إلى العوامل اللغوية، على قوة تأثير النجوم، وثقافة القاهرة وبنيتها التحتية، والتي تداوم على خلق النجومية بما لا يمكن أن يفعل مثلها أي مكان آخر. وتعتبر الحبكة الروائية والسيناريو أقل أهمية من عامل النجوم في تشكيل صناعة السينما، كما يظل النجوم المصريون ونجوم الغناء والتمثيل سفراء غير رسميين للثقافة الجماهيرية للدول العربية وباقي دول العالم. ويوضح لنا هذا الأمر سر اهتمام الحكام المصريين

الدائم برعاية الفنانين. وتقديم برامج رعاية صحية لهم تتبناها الدولة متضمنة العلاج في الخارج، إلى تقديم جوائز خدمات خاصة، كما أن الحكومة تقدم رعايتها بسخاء إلى قمة الرموز المصرية. فقد أبدى الرئيس مبارك حزنه الشديد لوفاة النجم الكبير أحمد زكي في مارس ٢٠٠٥، والذي لعب العديد من الأدوار التي تتراوح من الكوميدية، إلى رجل الشارع العادي، إلى الأدوار الرومانسية للرجال، كما لعب دور الزعيم عبد الناصر نفسه. وقام الرئيس مبارك بالاتصال التليفوني به عدة مرات ليرفع من روحه المعنوية أثناء جلسات العلاج الكيماوي المؤلمة. كما أفردت الصحافة المصرية والعربية مساحات واسعة لتغطية وفاة أحمد زكي في نهاية الأمر.

وربما يشيخ النجوم المصريـــون ويمـــوتـــون، ولكن صناعة السينما نفسها لا تزال تعتبر بعيدة عن الموت. فما هي حالة السينما المصرية اليوم؟ إذا ما قمنا بإلقاء نظرة على خريطة عالم الإنتاج السينمائي والتي وضعتها اليونسكو، فنجد أن هناك ثلاث فئات من الأقطار المنتجة للأفلام (اليونسكو ٢٠٠١). وتتكون الفئة الأولى من الدول التي تقوم بإنتاج أكثر من مائتي فيلم مميز في العام، مثل الهند (٨٣٩)، والصين وهونج كونج (٤٦٩)، والفيليبين (٤٥٦)، والولايات المتحدة الأمريكية (٣٨٥)، واليابان (٢٣٨). وتضم الفئة الثانية تلك البلدان التي تقوم بإنتاج متوسط عدد أفلام ما بين ١٩-١٩٩ فيلم سنويًا. وتضم هذه الفئة البرازيل (٨٦) فيلم، الأرجنتين (٤٧) فيلما، ونيجيريا (٢٠) فيلما. أما جمهورية إيران الإسلامية فتقوم بإنتاج سبعين فيلمًا تقريبًا في العام (***Hadeseh.com***). وتضم الفئة الثالثة طبقًا لتقرير اليونسكو المشار إليه، تلك الدول التي تقوم بإنتاج ما بين فيلم واحد إلى ١٨ فيلـــما سنويًا، أو لا تقـــوم بإنتاج أفلام على الإطلاق. وتضم هذه الفئة دول مثل إسرائيل.

وتأرجحت مصر تاريخيًا صعودًا وهبوطًا داخل الفئة الثانية من الدول المُنتجة للأفلام. وبلغت مصر قمة إنتاجها السينمائي في عام ١٩٨٥ بإجمالي قدره

ثمانية وسبعين فيلمًا، بينما كان أقل إنتاج سينمائي لها في عام ١٩٩٦، وعام ٢٠٠٤ بمتوسط إنتاج بلغ ٢٤ فيلمًا في العام (جدول رقم ١). وظلت الدول العربية في الفئة الثالثة وبذلك يمكن اعتبار مصر هي "هوليود الشرق الأوسط". وبالمقارنة بمستويات الإنتاج المحلي السابقة، فإن عدد الأفلام المصرية التي يتم إنتاجها سنويًا في هبوط مستمر. كما تظل مصر، وعلى الرغم من النقص في عدد الأفلام المُنتجة بالمقارنة بالإنتاج السينمائي في الدول العربية الأخرى رائدة في هذا المضمار. وربما يبحث المشاهد العربي عن الفيلم الكوميدي بسبب عدم الاستقرار السياسي في الشرق الأوسط والناتج عن الحرب، وحوادث الإرهاب، والفقر، والحكم الاستبدادي، والتطرف الديني، والتعصب، وكانت الأفلام الكوميدية المصرية في السنوات القليلة السابقة هي الأعلى على الإطلاق من حيث تحقيق النجاح في العالم العربي. وكان الأعلى في عام ٢٠٠٤ من حيث الأفلام الكوميدية هو فيلم "عريس من جهة أمنية" من بطولة عادل إمام، والذي حقق إيرادات بلغت ١٥،٥ مليون جنيه مصـــري داخليًا، كما حقق مليون دولار أمريكي في الخارج (الشافعي ٢٠٠٥). ولا يعني ذلك أن الأنواع الأخرى من الأفلام ليست مُمثلة. وتقوم مصر بإنتاج مجموعة متنوعة من أفلام الحركة، والرومانسية، والميلودراما. وينتقد ويسخر بعض النقاد والمهتمين بصناعة السينما، على الرغم من ذلك، من الأوضاع الراهنة لحالة الإنتاج السينمائي في مصر بسبب ضعف الحبكة الروائية والسرعة الفائقة التي يتم بها الإنتاج. وعلى سبيل المثال، يقول المخرج العالمي المشهور يوسف شاهين إنه لم يعد مهتمًا بمشاهدة السينما المصرية: "إذا ما رغبت في مشاهدة أفلام جادة ولها أهمية، فإن إنتاجها يستغرق سنوات، بينما الأفلام التي يتم إنتاجها حاليًا يتم الانتهاء منها في ثلاثة أشهر لأنها من نوعية رديئة. واقتحم التجار مجال الأعمال السينمائية بحثًا عن الأرباح المادية؛ لأنهم لا يستوعبون المعنى الحقيقي لصناعة السينما" (ممدوح ٢٠٠٥).

ويقول السيناريست المصري "أسامة أنور عكاشة": "على الرغم من أن مصر لديها صناعة كبيرة للإنتاج السينمائي، فإنها لا تقوم بإنتاج أفلام تستحق الدخول للمنافسة في مهرجانات السينما العالمية (ممدوح ٢٠٠٥). وتشمل الأسباب الكامنة وراء فقدان الجودة: غياب أهداف ومُثل أخلاقية عليا في عصر "الذهاب إلى السينما"؛ والمنتجين الذين أصبحوا مضاربين انتهازيين؛ وعدم وجود كتاب سيناريو مثل أولئك الذين كانوا في العصر الذهبي للسينما، والتي كانت تعتمد على الروايات الأدبيـــة للأدباء الكبار مثل نجيب محفوظ، وطه حسين، وإحسان عبد القدوس (ممدوح ٢٠٠٥).

وانطلقت المنافسة المحمومة بين ملاك القنوات الفضائية من أجل احتكار السيطرة على الأفلام المصرية مع ظهور قنوات الأفلام المتخصصة، وذلك عن طريق اقتناص وشراء أصول هذه الأفلام. واحتدمت معظم هذه المنافسات بين أباطرة الإعلام السعوديين. واندلع هذا الصراع للحصول على أصول الأفلام عن طريق مالك قناة أفلام إيه أر تي الشيخ صالح كامل (عبد الهادي ٢٠٠٥ ب، ٨٤-٨٥). وأخذ الشيخ صالح كامل في ملاحقة شركات الإنتاج التي تملك أكبر عدد من أصول الأفلام المصرية مثل شركة الفنانون المتحدون، التي يملكها النجم المصري الشهير "فريد شوقي"، وورثة المنتجين الذين كانوا قد أنتجوا بعض الأفلام ذات الشعبية. وتكمن الأسباب المنطقية لخلق أي قناة متخصصة للأفلام في ضرورة امتلاك حد أدنى من الأفلام -على الأقل ألف فيلم- من أجل ضمان شغل ساعات الإرسال لديها. وكان التليفزيون المصري الذي تمتلكه الحكومة تاريخيًا يدفع النذر اليسير من أجل تأجير هذه الأفلام لفترة من الزمن.

وعندما أخذت الأموال السعودية تطارد أصول الأفلام المصرية، وتقوم بشراء أعداد كبيرة منها، شعر النقاد المصريون بالصدمة، وبدءوا في دق أجراس الخطر للتنبيه للخطر القادم. وحذروا من أنه وبمجرد انتهاء فترة الاتفاقية بين

التليفزيون المصري الذي تديره الدولة وبين بعض المنتجين، فإن أباطرة الإعلام السعوديين هم من سيقومون بالتحكم في أرشيف السينما المصرية وليست شركات الإنتاج المصرية. ومع ذلك، كان هذا التحذير بعد فوات الأوان. وشرع الكثيرون من أباطرة الإعلام السعوديين (من أوربت وروتانا، وإيه أر تي) في التنافس مع بعضهم البعض على الشراء واحدًا بعد الآخر، بينما ظل المصريون مكتوفي الأيدي وهم ينظرون إليهم بحسرة. ويبدو أن قنوات الشركة السعودية إيه أر تي، وروتانا تمتلكان الآن نصيب الأسد من أصول الأفلام المصرية.

وكانت الدولتان المصرية والسعودية في تنافس سياسي في سنوات الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، وكان الليبراليون المصريون يحملون شكوكا عميقة في رأس المال السعودي لأنهم كانوا يعتقدون أنها تقوم بتمويل نشر التعصب الديني في مصر (فودة ١٩٨٥). وتمتلك شركة روتانا في الوقت الحالي ثلاث شركات إنتاج سينمائي تقوم بإنتاج ثلاثة إلى خمسة أفلام سنويًا بتكلفة تبلغ ٢-٤ مليون دولار أمريكي لكل فيلم (بكر ٢٠٠٥، ١٣). وبدأ رجال الأعمال الآخرون في الدخول إلى مجال الإنتاج السينمائي من أجل مواجهة الطلب المتزايد من سوق القنوات الفضائية (عبد الهادي ٢٠٠٥ب). وتم إنشاء عملاق احتكاري آخر، وهي الشركة القابضة العربية للفنون والنشر بواسطة أكبر مجموعة استثمار مصرفي مصري (شركة هيرمس). وقامت بشراء ما تبقى من الميراث السينمائي المصري عن طريق الاستحواذ وضم شركات الإنتاج السينمائي (حسني ٢٠٠١).

وتمتلك مصر أكثر من ٢٩٥ من دور السينما من الدرجة الأولى، وعشرين من الدرجات المتوسطة (برجاء الرجوع إلى الجزء الخاص بأرمبريست في هذا الكتاب من أجل تحليل أعمق لدور السينما، والاقتصاد السياسي، وثقافة الشباب في القاهرة). ويعتبر الاستثمار في دور السينما جذابًا، حيث يحصل المالك على نصف

الإيرادات صافية من أي فيلم يتم عرضه في الدار التي يمتلكها (الشريف ٢٠٠٥). ويهيمن على السوق المحلية للفيلم المصري مجموعتان. فيقوم الأول باستيراد أفلام أمريكية في الغالب، وأفلام هندية فيما ندر. وتقوم المجموعة الثانية بإنتاج وتوزيع أفلام مصرية على نطاق واسع، ويتم عرضها في أوقات معينة من الموسم في العديد من دور السينما بحيث يتم تحقيق أرباح سريعة وبملايين الجنيهات (سوق السينما ٢٠٠٥). وتحقق الأفلام، في حقيقـــة الأمـــر، ومنـــذ سنـــوات التسعينيات ما يقرب من ٥٠٠% أرباحًا للمنتجين (حسني ٢٠٠١، ٦٢-٦٤). وتبلغ تكلفة الفيلم المتوسط المستوى ما بين ٤-٥ مليون جنيه مصري، بينما تبلغ تكلفة الأفلام الأقل مستوى ما بين ١-٣ مليون جنيه مصري. وقد حقق فيلم كوميديا التهريج الرخيص "عوكل" أكبر إيرادات لعام ٢٠٠٤ حيث جمع ١٩،٧ مليون جنيه مصري (السماحي ٢٠٠٥ ب). ويأتي تمويل الأفلام المصرية من ثلاثة مصادر رئيسية: السوق المحلية، والموزع الأجنبي (ويشمل الدول العربية، وأوروبا، والولايات المتحدة الأمريكية حيث يقطن أكثر من خمس مليون عربي أمريكي)، والقنوات الفضائية التليفزيونية العربية (ناجح ٢٠٠٤ أ).

وتعتبر السينما المصرية ضعيفة نسبيًا، إذا ما قورنت بالسينما الهندية. فقد أنتجت مصر في عام ٢٠٠٤ على سبيل المثال ٢٤ فيلمًا، ولكن إجمالي تكلفتها جميعًا ومع إجمالي إيرادات شباك التذاكر لها لم يتجاوز ١٢٠ مليون جنيه مصري (متوسط التكلفة لإنتاج أي فيلم في أوروبا هو ٢٠ مليون دولار، ٣-٤ مليون دولار في الهند) (صادق ٢٠٠٥). وبلغت أكبر الأفلام تكلفة حتى اليوم ١٠ مليون جنيه مصري، ولكن شركات الإنتاج الضخمة مثل "جود نيوز فور مي" تقوم بالتخطيط لاستثمار مبلغ ١٨ مليون جنيه مصري لإنتاج فيلم "عمارة يعقوبيان" عن قصة لأفضل الروايات مبيعًا لمؤلفها علاء الأسواني (ناجح ٢٠٠٤ أ).

وتعمل الكثير من شركات الإنتاج السينمائي في مصر، مثل شركة روتانا البالغة الضخامة، والشركة العربية للصوتيات التي يرأسها محسن جابر، والشركة العربية للإنتاج، والتي يرأسها مدير دار الشروق ورئيس مجلس إدارة الاتحادين المصري والعربي للنشر، إبراهيم المعلم (ناجح ٢٠٠١).

وبدأ المنتجون المصريون في التعاقد مع ممثلين من الدول العربية الأخرى من أجل تسويق الأفلام للفضائيات العربية الأخرى، فعلى سبيل المثال، اشتركت في فيلم الباحثات عن الحرية (٢٠٠٤)، للمخرجة المصرية إيناس الدغيدي، ممثلة مصرية، ومغربية، ولبنانية. وكُتبت الرواية والسيناريو بواسطة الكاتبان السوريان رفيق الصبان، وهدى الزيان (ناجح ٢٠٠٤ ب). وبالمثل فإن مجال الفيديو كليب يضم الكثير من المواهب العربية ليمتد لمدى أوسع من المشاهدين ولأبعد من السوق المصرية المحلية بمفردها. وتظل مصر تمتلك، وعلى الرغم من كل الانتقادات التي يمكن أن يتم توجيهها للسينما المصرية، أكثر النجوم العرب شعبية واحترافًا. كما أن أكثر الراقصات الشرقيات شهـرة واحتـرامًا في العالم العربي لا يزلن مصريات: فيفي عبده، ودينا، ولوسي. وأعلنت فيفي عبده بنفسها: "إن السائحين يأتون لمصر لمشاهدة الأهرام وفيفي عبده". ويمكن أن تنجح المحاولات العربية لتشييد مدن إعلامية مثل دبي إذا ما كان الغرض هو الوصول للسوق العالمية حيث يقطن المواطنون الذين هم من أصول عربية. ومع ذلك، وإذا كان المستهدف هي السوق العربية، فإن مثل تلك المدن الإعلامية ستتطلب استقدام نجوم وفنانين عرب، وكتاب سيناريو، ومنتجين، وأفكار جديدة. وستكون في مثل تلك الأوضاع، بعض الدول العربية وتضم سوريا، ولبنان، ومصر، هي الممول الأفضل للقوى العاملة في صناعة الإعلام: ولكن لماذا؟ لأن هذه الدول تملك العدد الأكبر من النجوم، بينما دول الخليج بسكانها المحدودين في العدد، وتقاليدهم المحافظة، فإن صناعة السينما والتليفزيون تبدو لديهم مجالاً غير جذاب للدخول فيها كمهنة.

الغناء المصري: هل هو عصر أفلام الفيديو كليب الفاضحة؟

يسهل تصدير الغناء مثل الأفلام على أشكال أغاني الفيديو كليب، وشرائط الكاسيت، والأقراص المُدمجة، والملفات الصوتية المضغوطة، والحفلات الموسيقية الحية، والحفلات الغنائية والموسيقية الخاصة. ولا يزال الكثير من رؤساء الدول العربية والأمراء والمشهورين يقومون بدعوة الفنانين المصريين المشهورين لحفلات غنائية خاصة وحفلات موسيقية في قصورهم في العديد من المناسبات الشخصية. فقد استضاف الملك الحسن الثاني ملك المغرب الراحل، على سبيل المثال، حفلات موسيقية وغنائية خاصة للفنانين محمد عبد الوهاب، وعبد الحليم حافظ في قصره في العديد من المناسبات.

وتمثل وفاة الفنانة أم كلثوم، وعبد الحليم حافظ في سنوات السبعينيات خسارة لا يمكن تعويضها بالنسبة لمصر؛ وإلى حد ما، فإن نمط الغناء الذي كانا يقومان بتقديمه قد توارى مع ظهور مجموعة جديدة من المطربين والموسيقيين، مما يعكس تغييرات اجتماعية أكبر. ويرغب الشباب العربي من الجيل الحالي في سماع الأغاني السريعة التي لا تزيد في مدتها عن خمس دقائق، وذات إيقاع سريع يصاحبه الرقص، والذي تؤديه راقصات جميلات يرتدين أزياء تكاد تستر بالكاد أقل مساحة ممكنة من أجسادهن، وهن يحطن بالمغني الذي لا يكف عن التقافز على خشبة المسرح، وذلك كبديل عن المطربين الذين يقفون خلف الميكرفونات وأمام الفرقة الموسيقية بلا حراك، ويقومون بتأدية أغان تقليدية طويلة، وتكرار مقاطعها لمرات عديدة. وتغيرت درجة سرعة العزف، والتكنولوجيا المستخدمة، والدعائم الثقافية بينما أصبحت الأغاني الشعبية مرتبطة أكثر بالنخبة، وأحدث الموضات، والأنماط الاستهلاكية من جانب، كما عكست الموسيقى الشعبية، أو أصبحت تواجه التحدي من جانب المجادلات الجديدة عن الأخلاق، وأدوار

الجنسين، وسياسات الدين والقومية من جانب آخر. ويقوم المطربون والمطربات في أنماط أغاني الفيديو كليب الجديدة بالرقص والإغراء، موجهين الدعوة الصريحة للمشاهدين بالانخراط في هذه النوبة من الجنون.

وقد بدأ تاريخ ما يُطلق عليه بالأغاني الشبابية في مصر بعد عام ١٩٦٧، ولكنه استغرق بعض الوقت ليجد طريقه إلى الموسيقى والغناء في مصر. وظهرت أولى بشائر هذه النوعية من الأغنيات في عام ١٩٧٢ مع ظهور فنانين مثل هاني شاكر والذي حاول في البداية أن يحاكي النمط التقليدي لعبد الحليم حافظ، ولكنه تحول في عام ١٩٨٠ إلى النمط الجديد لأغاني الشباب. كما عمدت شركات الكاسيت إلى التغيير نحو النمط الجديد، واكتسب العديد من المطربين الجدد مثل محمد الحلو، وحميد الشاعري شعبية طاغية (عكاشة ١٩٩٩). وأصبح هذا النوع مهيمنًا على سوق الغناء في الراديو والتليفزيون في مصر.

ولم يشهد مثل هذا النوع من الموسيقى والغناء للفيديو كليب أي ازدهار حقيقي حتى جاء عصر الأقمار الصناعية والفضائيات وبدأ يحتل مكانته ويثير الجدل بشأن القنوات المتخصصة لإذاعة مثل هذه الأغاني. وتوقفت مصر عن الهيمنة على عالم الموسيقى في العالم العربي لأنه لم يعد لديها قائد سياسي بالكاريزما التي كان يملكها عبد الناصر، أو مغنية رائدة بحجم أم كلثوم، أو نجم كعبد الحليم حافظ. وعلى الرغم من تواجد العديد من النجوم من الكثير من الدول العربية، يظل للنجوم المصريين أهميتهم، ويظلون الأغنى والأكثر نجاحًا عن كل النجوم العرب. وجاء المطرب المصري عمرو دياب على القمة في دراسة أُجريت حديثًا عن أغنى المطربين من النجوم العرب، من ناحية مبيعات الكاسيت والإعلانات التجارية بقيمة ٣٧ مليون دولار أمريكي. وجاءت اللبنانية فيروز في المركز الثاني بقيمة ٣٤ مليون دولار أمريكي، أما الثالث فكان المطرب المصري هاني شاكر بقيمة ٣٢ مليون دولار ("عمرو دياب" ٢٠٠٥). وتصدّر مصريان

قائمة أغنى المطربين الذين لا يزالون على قيد الحيـاة فـي العالـم العربي، بينما كان الباقون بصفة أساسية من لبنان، وواحد من العراق.

ويبدو من ناحية الغناء والرقص، أن اللبنانيين قد اكتسبوا شعبية طاغية في صناعة الفيديو كليب في العالم العربي. وتعد المغنيات اللبنانيات الأكثر إثارة، والأكثر أناقة، والأكثر ابتكارًا. وشنت الصحافة المصرية المحافظة حملة ضد أغاني الفيديو كليب وكالت لها التهم باستغلال الإثارة الجنسية للمغنيات والراقصات المصاحبات لها. وقامت هذه الصحافة بالحط من قدر مثل هذه الكليبات ووصفتها بالكليبات الإباحية التي تؤديها مغنيات لا يرتدين إلا أوراق التوت، وعاريات الفيديو كليب (السماحي ٢٠٠٥أ؛ فؤاد ٢٠٠٥). وكانت مغنيات الفيديو كليب اللبنانيات هن الأكثر عُرضة للهجوم من الأخريات. وتساءل أحد الصحفيين المصريين البارزين عن عذرية المغنية اللبنانية الشهيرة نانسي عجرم بسبب نمط أغانيها غير المحتشمة. وطبقًا لما ذكرته جريدة الوفد المصرية اليومية المعارضة أن مغنية لبنانية أخرى وهي هيفاء وهبي (وهي من أم مصرية) قد أهانت الصحافة المصرية بحديثها في قناة (*LBC*) اللبنانية بأنهم (أي الإعلام المصري) قد قاموا بالهجوم عليها لأن المغنيات اللبنانيات أكثر جمالاً وأكثر تمسكًا بخطوط الموضة عن نظيراتهن المصريات (مصطفى ٢٠٠٥). وقالت الصحيفة إن نقابة الموسيقيين المصرية كانت تفكر في منع هيفاء وهبي من الغناء في مصر. ويحتاج المطربون الأجانب الذين يفكرون في إقامة حفلات عامة في مصر للحصول على تأشيرة دخول تتم الموافقة عليها من وزارة الداخلية، وبتصريح من نقابة المهن الموسيقية. ومن الناحية العملية، هذه المصاعب المحتملة ليست من الصعوبة بحيث لا يمكن التغلب عليها. ويمكن في الحقيقة، أن يكون إبلاغ حظر الدخول ضد إحدى المغنيات لا يعدو إلا أن يكون حيلة دعائية مجانية يتم التخطيط لها للترويج وجذب المشاهدين إليها. وحتى لو كان هناك حظر، فإن الاتصالات الجيدة والعلاقات يمكن

أن تفسد هذا الحظر. وهناك مغنية أخرى أثارت جدلاً أكبر، وهي المغنية التونسية نجلاء، وتم منعها من الدخول بالفعل من أجل تصوير فيديو كليب تظهر فيه بملابسها الداخلية وهي تحاول إثارة حصان (عبد الرحمن ٢٠٠٥). وجاء الرد المصري على تحديات نظيرتهن اللبنانيات عن طريق المُغنية روبي. وحاولت المُغنية كنظرائها اللبنانيات أن تقوم بإثارة الجدال عن طريق الرقص المثير وهي ترتدي بنطلونات ضيقة في أفلام الفيديو كليب. ويبدو، على الرغم من ذلك، أن هذا الهجوم المصري المضاد، لم يكن له أي تأثير يذكر. وطبقًا لما ذكرته جريدة أسبوعية مصرية: "ربما تكون روبي كصوت جميل تتفوق على أصوات مثل نجلاء وبوسي أمير، ولكنهن يتفوقن عليها من حيث الجاذبية الجنسية والإغراء" (فؤاد ٢٠٠٥).

وتظاهر ما يقرب من ثلاثة آلاف طالب من طلاب جامعة الإسكندرية ينتمون إلى كل أنواع الطيف السياسي، ولا تنحصر ميولهم على التيار الإسلامي، في مارس ٢٠٠٥ ضد العرى في أفلام الفيديو كليب. وكانت الحملة قد تم تنظيمها عن طريق توزيع منشورات بين طلاب العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، والتي كانت تقول إن الطلاب "لديهم ما يكفيهم". وأدانوا قنوات الأغاني ووصفوا مغنيات الفيديو كليب بأنهن يقمن بشن حرب ضد الشباب. وكانت لافتاتهم تحمل عبارات من قبيل "لا لإثارة غرائز الشباب"، و"كفاية لروتانا وميلودي". كما قاموا بتحوير شعار روتانا الذي يقول "لن تستطيع أن تغمض عينيك" إلى "نستطيع أن نغمض عيوننا". وقام الطلاب، كبديل، بتوزيع أغاني فيديو كليب لمطربين مثل إيمان البحر درويش وهاني شاكر والتي لا يظهر فيها فتيات عاريات (محمد ٢٠٠٢). كما قاموا بعرض مسرحي بعنوان "يوميات شاب تعبان" تعكس المصاعب التي يواجهها الشباب الصغار من الإثارة والإحباط نتيجة لأفلام الفيديو كليب هذه. كما قاموا بإصدار نشرة إخبارية، تسمى "المكشوف"، والتي أدان فيها الطلاب المحطات

التليفزيونية التي تقوم بالترويج لأفلام الفيديو كليب، وأكدوا فيها أن نجمات هذه الأفلام مثل ماريا وهيفاء وهبي يقمن بشن حرب لتحطيم الشباب (محمد ٢٠٠٥).

وتعتبر كل من شرائط الفيديو كليب والأقراص المدمجة الخاصة بها أمرًا معتادًا في مصر والعالم العربي. وتظل شرائط الكاسيت هي الأكثر ذيوعًا للأغاني، نظرًا لرخص أثمانها والضرائب المرتفعة المفروضة على الأقراص المُدمجة المستوردة. وتكتسب مواقع الإنترنت الخاصة بالأغاني والملفات الصوتية (*MP3*) المزيد من الشعبية. وتتدهور صناعة الكاسيت المصرية بسرعة فهبطت من استثمارات بلغت ٢٥٠ مليون جنيه إلى ٦٠ مليون جنيه (طيب ٢٠٠٥). وتمتلك مصر أكثر من ١٣٠٠ شركة لإنتاج الكاسيت (جدول رقم ٤). وتعتبر شركة صوت الفن هي الأكبر بين منتجي الكاسيت من القطاع الخاص في مصر. وكان قد تم تأسيسها بواسطة عبد الحليم حافظ ومحمد عبد الوهاب في عام ١٩٦٠ كشركة مساهمة لإنتاج المواد الموسيقية والأفلام. وكانت الشركة تسيطر على توزيع كافة أعمال عبد الحليم حافظ ومحمد عبد الوهاب، ومن خلال ذلك، تمكنت من تكديس ثروة. وتمتلكها في الوقت الحالي شركة المجموعة المالية هيرمس (عصام الدين ٢٠٠٠). وتقع أكبر شركة قطاع عام وهي صوت القاهرة تحت سيطرة وزارة الإعلام، وقد قامت شركة صوت القاهرة بإنتاج شرائط كاسيت بما قيمته ١١,٧ مليون جنيه مصري (اتحاد الإذاعة والتليفزيون ٢٠٠٤، ٢٦٦).

عالم إنتاج الفيديو كليب في العالم العربي

تضم الشركة المصرية للأقمار الصناعية (نايل سات) أكثر من ١٥ قناة فضائية تليفزيونية مجانية غير مشفرة سواء للأغاني العربية، أو مزيج من أغاني الفيديو العربية والعالمية الناجحة (ميلودي، وميلودي آرابيا، وميلودي هتس،

وستر ايك، وروتانا، وروتانا طرب، وروتانا كليب، والشبابية، والمزيكا، ونجوم الخليج، ونورمينا، والخليجية، وميوزيك بلاس). وهنالك قنوات أخرى مشفرة، بما فيها إيه أر تي طرب (منوعات)، والقنوات الغربية مثل (*MTV*)، (*VH-1*). وتعتبر الفضائية المصرية نايل سات هي الفضائية الرئيسية لكل العرب لأنها تمتلك قنوات للأغاني لكل العرب أكثر مما يمكن أن تقدمه أي فضائية عربية أخرى. وتزدهر كل هذه القنوات الفضائية والتي تعمل على مدار الأربع وعشرين ساعة على مواد الفيديو كليب والإعلانات التجارية وإعلانات التليفون المحمول.

ولم يعد النجاح في عالم الغناء اليوم يعتمد على امتلاك صوت جيد فقط. وإنما يعتمد بالإضافة إلى ذلك على الوسامة، والرقص المثير، والموضة، والإخراج. كما حدث نوع من التأثر بالعولمة، والمزج بالموسيقى العالمية، وتعريب الموسيقى الغربية بوتيرة متسارعة في الشرق الأوسط. ولم يعد المطربون العرب محافظين سواء في طريقة الأداء أو في الملبس. ويتنافس المطربون من أجل جذب المشاهدين والعامة عن طريق تقديم مواد تقوم بكسر المحظورات العامة في أدائهم، وذلك مع ازدياد حدة المنافسة من أجل القنوات الفضائية العربية التي تتزايد بسرعة بالغة. وكان الأسلوب القديم للمطربين العرب، مثل ذلك الذى كانت تقوم بتقديمه أم كلثوم يعتمد على استمرار الأغنية لمدة تزيد عن ساعة، بينما تقف المطربة الكبيرة بوقار أمام أفراد الأوركسترا الذين يرتدون أزياء رسمية. وبالمقارنة بذلك، فإن أفلام الفيديو كليب اليوم تقوم باتباع أنماط لأغان لا تزيد مدتها عن خمس دقائق، مصحوبة بغناء ورقصات مثيرة.

جدول رقم (٤) إنتاج الصوتيات المصري، والذي تمت إجازته عن طريق قسم الرقابة

الفئة	عدد التسجيلات
أغاني مصرية مُسجلة على شرائط كاسيت (إنتاج مصري)	٢,٤٣١
أغاني عربية (مطربون غير مصريين) وتم إنتاجها عن طريق دول عربية على شرائط كاسيت	١,٠٧٠
أغاني أجنبية على شرائط كاسيت	٥,٣٣٢
أغاني عربية (مطربون غير مصريين) تم تسجيلها في مصر	٧٩٥
أغاني عربية (مطربون غير مصريين) وتم إنتاجها في دول عربية	٣٥٧
أغاني أجنبية على شرائط مُدمجة	١١٤
شرائط مُدمجة مستوردة للبيع	١٧,٧٤٦
شرائط كاسيت مُصدرة	١١٩,٣٦٨
شرائط كاسيت مستوردة	٤٢٨

المصدر: وزارة الثقافة المصرية٢٠٠١، ١٠٥- ١٠٦

من يقوم بإنتاج هذه المواد الترفيهية التي يتزايد الطلب عليها؟ أصبحت الإجابة على هذا السؤال أكثر تعقيدًا بعد عمليات الاندماج والانفصال المتعددة بين العديد من هذه الشركات المشتركة في عملية الإنتاج. كما أن هناك بعض المنتجين يعملون مع العديد من الشركات في نفس الوقت، ويخرج المرء بانطباع أنها تشبه غابة كثيفة الأشجار لتعقد العلاقات الداخلية. فتمتلك صوت الفن على سبيل المثال، قناة مزيكا، كما تمتلك روتانا ٦٠% من أسهمها. كما يمتلك محسن جابر، رئيس مجلس إدارة مزيكا، شركة أخرى تسمى "ديجتال ساوند" والتي تقوم بإنتاج أفلام الفيديو كليب (الصغير ٢٠٠٥). وتخطط مزيكا من أجل إنشاء قناتين أخريين، مزيكا ٢ و٣ ("مزيكا ٢" ٢٠٠٥). وتمتلك قنوات الغناء الفضائية، بالإضافة إلى

المنتجين والمديرين المستقلين، استوديوهاتها الخاصة والمتخصصة من أجل إنتاج أفلام الفيديو كليب. وتتراوح متـوسط تكلفـة الفيديو كليب المصري ما بين ٤٠,٠٠٠ إلى ٦٠,٠٠٠ جنيه مصري لإتمام إنتاجها. وتقوم كل قناة بعرض أفلام الفيديو الخاصة بها، والتي عادة ما تكون قد أنتجتها بتكلفة زهيدة. فإذا ما لاقى الفيديو كليب نجاحًا، فإنها تقوم بتسجيلها في شرائط خاصة للمطرب (مرسي ٢٠٠٥). وقد أصدرت مصر المجلة العربية الأولى للفيديو كليب "مجلة الفيديو كليب" وتقوم بإصدارها وتوزيعها وتقديم خدماتها: الشركة العربية للإنتاج الفني.

ويتم إنتاج أكبر عدد من أفلام الفيديو كليب العربية في مصر. واستشهدت مقالة في مجلة المصور في عددها الصادر يوم ٣١ ديسمبر ٢٠٠٤ بقول مسئولين في هذا المجال، بأنه يتم إنتاج ٤ أفلام فيديو كليب في المتوسط يوميًا (ناجح ٢٠٠٤ أ). ويمكن لهذا الرقم أن يزداد مع دخول قنوات جديد للغناء في سوق الفضائيات. وتظل مصر مكانًا جذابًا يتميز برخصه لعملية الإنتاج. وهناك منافسة ضارية بين مديري إنتاج الفيديو كليب في كل من مصر ولبنان من الناحية التكنولوجية والناحية الفنية. وصرح مخرج الفيديو كليب المصري محسن جابر لمجلة الأهرام العربي "أن النجوم المشهورين والأثرياء منهم فقط مثل عمرو دياب وهاني شاكر يمكنهم اللجوء إلى المخرجين اللبنانيين، بينما يلجأ المطربون الجدد إلى المخرجين المصريين. ويتميز المخرجون اللبنانيون في الماكياج وتصميم الأزياء، ولكننا الأفضل من حيث الأفكار" (المخرج اللبناني يحوز الساحة الغنائية ٢٠٠٤). وتصل متوسط تكلفة فيلم الفيديو كليب الذي يتم إنتاجه في لبنان إلى ١٠٠،٠٠٠ دولار؛ ولكن التكلفة في مصر أقل من ذلك بكثير. وتجعل التكلفة العالية في مقدور المخرجين اللبنانيين توظيف أفضل الموديلات وأغلاهن سعرًا، وأفضل الملحنين، وأفخم الأزياء.

وتحتكر شبكة قناة روتانا أغنيات أكثر من ١٢٠ من المطربين المصريين، واللبنانيين، وآخرين من أنحاء العالم العربي. ومن بين هؤلاء النجوم عمرو دياب والذي أبرم عقدًا قيمته خمسة ملايين دولار مع روتانا (عبد الهادي ٢٠٠٥ أ). وقامت روتانا بإنتاج ٢،٤٣٩ فيلم فيديو كليب، وسبعة برامج موسيقية، وأربعة برامج ترفيهية، و ٤,٥٧٦ أغنيات حية في حفلات غنائية ومهرجانا غنائية، و٧٢٤ برامج غنائية، وذلك طبقًا لما ذكره موقعهم على شبكة الإنترنت (روتانا ٢٠٠٥). وتبلغ تكلفة إنتاج ألبوم كاسيت وحيد ما يقرب من ٥٠٠،٠٠٠ جنيه مصري (محسن ٢٠٠٥). وأُنتج في مصر ما يقرب من ١٥٠ ألبوم كاسيت في عام ٢٠٠٤ (السماحي ٢٠٠٥ ب).

ويعتبر إنتاج الفيديو كليب في الشرق الأوسط اليوم نتاج التعاون بين المستثمرين، والمواهب، والإعلام من العديد من الدول العربية. فيمكن أن يكون مغني الفيديو كليب لبنانيًا، والمخرج من مصر، بينما تكون الموسيقى، والألحان، تنتسب إلى الخليج العربي. وشهدت الدول العربية في القرن الحادي والعشرين تفاعلات كثيفة بين مواطنيها نتيجة لهجرة العمالة، والسياحة، وتدفقات الاستثمار والاستهلاك جيئة وذهابًا في ربوع المنطقة. ورحل الملايين من العمال من الدول العربية الفقيرة كمصر، والسودان، واليمن للبحث عن دخول أعلى في الدول الغنية بالبترول مثل ليبيا، والعراق، ودول الخليج. وعندما يعود العاملون إلى أوطانهم فربما يشعرون بالحنين إلى أغاني الوطن الذي كان يعملون فيه. ومن جانب آخر، يقضي الملايين من السائحين من الدول البترولية الغنية عطلاتهم السنوية في الدول الفقيرة بتروليًا – وبصفة خاصة في الفنادق، والمسارح، ودور السينما، والملاهي في القاهرة. وقفزت معدلات الزواج بين العرب في الدول العربية نظرًا لهذا المستوى التاريخي غير المسبوق من التفاعل الاجتماعي الثقافي والاقتصادي. وواجه العرب مباشرة الثقافات الفرعية للدول العربية الأخرى، ولذا فإنه ليس من

المستغرب أن يكون من المعتاد أن تكون الأغاني العربية المعاصرة مزيجًا من الموسيقى الخليجية والألحان والكلمات اللبنانية – استمع إلى أغنيات المطربة اللبنانية ديانا حداد، والمتزوجة من رجل خليجي، ويمكنك أن تلحظ بوضوح تلاحمًا جديدًا بين الثقافتين الموسيقيتين.

ويستخدم كثير من المطربين عددا من اللهجات والألحان المختلفة من العالم العربي من أجل كسب مشاهدي الفضائيات، فعلى سبيل المثال، فإن المطرب العراقي الشهير كاظم الساهر يستخدم مزيجًا من النغمات والألحان العراقية، واللبنانية، والخليجية، والمصرية في أغانيه. ويمكنك أن ترى في لوحات الإعلانات، في القاهرة، أنها تقوم بالترويج للألبومات الجديدة لمطربين لبنانيين، وعراقيين، وتونسيين، ومغربيين، والذين احتشدوا في المدينة من أجل الوصول إلى النجومية. ولم تكن مثل هذه المناظر مألوفة في القاهرة، حتى ولا في عنفوان أيام القومية العربية في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. وخُلقت اليوم، وبفضل هجرات العمال، وثورة الاتصالات، وحدة ثقافية عربية في شوارع، ومواقع الإنترنت، ولوحات الإعلانات لمدينة القاهرة والحواضر الأخرى في الشرق الأوسط، وإن لم تكن في مجالات السياسة والمؤسسات الرسمية.

وبعيدًا عن المغنيات اللبنانيات المثيرات، ومطربي المعارضة الشعبية التقليدية الجديدة مثل شعبان عبد الرحيم، فإن الكثير من فرق ومطربي أغاني الراب قد ظهروا متأثرين بالأغاني الغربية الناجحة والقريبة من أنماط أغاني قناة (*MTV*). وتتسم أغانيهم، على أي حال، بأنها أقل عنفًا بكثير، وأكثر ابتذالاً، وأكثر تمردًا من الناحية السياسية عن التيار السائد في أغاني الهيب – هوب في الولايات المتحدة الأمريكية، كما أنها أكثر هزلاً وإغواءً. وقامت فرقة (*MTM*) المصرية، على سبيل المثال، بإنتاج أغنيتها الناجحة "أمي مسافرة، وهاعمل حفلة". وتحتفي الأغنية بالحرية من السلطة التي تتمثل في شخصية الأم، والتي ستسافر من أجل

حضور جنازة ميت. ويقوم المطرب الشاب في الفيديو كليب بالاحتفال برحيلها ويدعو أصدقائه إلى حفلة كبيرة. كما اكتسب الشاب المصري، والذي تحول من عامل في محل تنظيف ملابس إلى مطرب لموسيقى الراب، شعبان عبد الرحيم، شعبية طاغية في مصر والعالم العربي بنشيده القومي "باكره إسرائيل"، وفي مقطوعة أخيرة يضيف عبارة "باحب عمرو موسى" (الأمين العام المصري لجامعة الدول العربية، والقائد القومي الصغير في السن نسبيًا)، ولأغنيته الأخرى المناوئة للحرب "الضرب في العراق". (برجاء الرجوع إلى الجزء الخاص بنيكولاس بيوج في هذا الكتاب لمناقشة أوسع لتأثير المطربين والأغاني من الطبقات العاملة).

حالة المسرح المصري

وبدأت الدولة في دعم قطاع المسرح مع صناعة السينما والبحث عن إحداث ثورة في الثقافة المصرية، مع قيام انقلاب الضباط الأحرار والتي أنهت الملكية، وقامت بتأسيس الجمهورية. واُعتبر المسرح أداة ثورية أفضل لأنها تتيح تفاعلا مباشرا أكثر بين المشاهدين والممثلين. وتم توجيه الدعم الحكومي نحو شركات المسرح الجديدة، وكتاب المسرحيات، والفنانين. ونتج عن هذه الحركة المسرحية في سنوات الستينيات ما وصفه النقاد المصريون بالعصر الذهبي للمسرح المصري. وأُنتجت العديد من المسرحيات الناجحة، كما بزغ العديد من النجوم المسرحيين. ويمكن أن يُعزى هذا الازدهار إلى العديد من العوامل. وقامت الدولة، بادئ ذي بدء، بإرسال البعثات التعليمية إلى أكبر المراكز التعليمية المتخصصة في المسرح في أوروبا. وقام كتاب المسرح الذين عادوا من روسيا، وألمانيا، والدول الأوروبية الأخرى بضخ دماء جديدة في شريان الفن وتجديد المسرح المصري. وأصبح الكثيرون منهم نجومًا فوق العادة مثل كرم مطاوع، وسعد أردش، وأحمد

زكي، وحمدي غيث، وزكي طليمات، وفاروق الدمرداش. وقاموا بإدخال تجارب جديدة لأشكال جديدة من المذاهب المسرحية مثل الواقعية، والميلودراما، ومسرح العبث. كما قامت الدولة، ثانيًا، بتدعيم فنون المسرح في العديد من الجامعات، مما أدي إلى خلق العديد من الكوادر الجديدة والموهوبة مع الوقت. وتوجد في كليات الفنون في جامعات حلوان والإسكندرية أقسام تقوم بتدريس الدراما، والتمثيل، والإخراج، والموضوعات المتعلقة بها. وبرز الكثير من فطاحل النجوم أولاً أثناء العصر الذهبي للمسرح، وكان المشاهدون في الحضر في غاية الحماسة لهذا الفن الجديد. وكان بعض المشاهدين يؤمون المسرح لأول مرة في حياتهم وعشقوا هذا الفن. والأمر الثالث، أن حماس الدولة من أجل خلق عالم اشتراكي، أعطى دفعة هائلة للمسرح من حيث تقديم الدعم، والتكنولوجيا المطلوبة، والتدريب. والأمر الرابع، أن مصر كان لديها حركة نقدية قوية من الفنانين والنقاد والمفكرين المثقفين والتي قامت بتدعيم الحركة المسرحية.

وشهدت سنوات الستينيات أحداثا سياسية جساما: نهاية الوحدة المصرية – السورية، وتأميم الصحافة المصرية في عام ١٩٦٢ وما تبع ذلك من تبني أيديولوجية ثورية قامت بتدعيم معظم حركات التحرير في العالم أجمع، وظهور حركة المقاومة الفلسطينية "فتح" في عام ١٩٦٥، وثورة اليمن التي كانت تدعمها مصر في عام ١٩٦٧، واندلاع حرب ١٩٦٧ والتي انهزمت فيها مصر، وسوريا، والأردن، ووفاة تشي جيفارا في عام ١٩٦٧ والذي كان قد قام بزيارة مصر قبلها والتقى بمفكريها. وجعل هذا المناخ المسرح المصري يغلي بالأفكار الثورية ومشاعر الإلهام.

وخلقت سنوات الستينيات، من المنظور الإقليمي، طبقة من المهنيين الذين يحترفون مهن المسرح ويرتكزون في القاهرة، والذين سيقومون فيما بعد بالمساعدة في تأسيس المسرح في الدول العربية الأخرى. ومن المعروف والمسلم به لدى الكافة

مساهمة الجهود التي قام بها الكاتب المسرحي زكي طليمات في تطوير المسرح الكويتي (شاهين ٢٠٠٢). وكانت مصر رائدة من بين دول عربية عديدة أخرى، مثل العراق، والجزائر، وسوريا في تأسيس مسرح الأطفال الرسمي الأول في عام ١٩٦٨ (سليمان ٢٠٠٤). واضطلع وزراء التعليم، والثقافة، والشباب بدور نشط في المدارس من أجل تطوير ثقافة مشاركة التلاميذ في المسرح (عطا الله ٢٠٠٤).

وقامت مصر وتونس باستضافة أكبر المهرجانات العالمية السنوية للمسرح في الشرق الأوسط. كما قامت القاهرة منذ عام ١٩٨٨، باستضافة مهرجان مسرح تجريبي عالمي. ويبلغ الطلب على المسرح في القاهرة للدرجة التي يجعلها تستضيف سنويًا ما يبلغ من ٧٠–٨٠ فرقة مسرحية مختلفة من جميع أنحاء العالم. وتمتلك مصر الآن ١٨٥ فرقة مسرحية في المحافظات تشرف عليها وزارة الثقافة وقصور الثقافة الجماهيرية[٣]. وهناك نوادٍ مسرحية تقوم بعقد مهرجانات سنوية في المحافظات (حسيني ٢٠٠٤). وسوف ينعقد المهرجان السنوي الرابع عشر لمدة عشرة أيام في سبتمبر ٢٠٠٤ في مدينة الزقازيق. ولن تتكلف أكثر من ١٠٠٠ جنيه مصري (ما يعادل ١٦٦ دولار أمريكي) من أجلِ إنتاج كل مسرحية، وتستطيع الفرق المسرحية بالمحافظات، لسبب أو لآخر، أن تعمل بقدر أكبر من حرية التعبير عن نظيرتها في الأماكن الحضرية (حسيني ٢٠٠٤). وتقدم هذه العروض مجانًا للجماهير. ويتم استضافة هذه الفرق بواسطة قصور الثقافة، والتي تقوم بإدارتها وزارة الثقافة، وتُعد هذه المباني مبانٍ تاريخية للثقافة العامة تم تجديدها للدورات التدريبية، والمعارض، والعروض السينمائية، والمسرحيات.

وبدأ العصر الذهبي للمسرح في مصر رحلة الانهيار في عام ١٩٧٠، عندما بدأ الرئيس الجديد، أنور السادات، في سحب تمويل الدولة لدعم المسرح، تاركًا أمر التدعيم للقطاع الخاص. وبحلول عام ٢٠٠٤، بدأت مسارح الدولة تجني ما قيمته

٢،٢ مليون جنيه كأرباح، طبقًا لأقوال أسامة أبو طالب، رئيس البيت الفني للمسرح (عبد الحميد ٢٠٠٤أ). ويؤرخ الكاتب المسرحي المُخضرم لبدء انهيار المسرح في مصر بأواخر عام ١٩٧٠، عندما وجه له الرئيس السادات رسالة فحواها أن يتم استبدال المسرحيات الثورية بمسرحيات ترفيهية خفيفية ومسرحيات هزلية. وارتبط التدهور الذي تلا ذلك في المسرح المصري عند الكثيرين بالتحول إلى الريفية سواء في أذواق المصريين أو في حياتهم الحضرية (عبد الحميد ٢٠٠٤ أ).

وأدخل المسرح الرعب، في حقيقة الأمر، في قلب الحكومة أكثر من السينما رغم العدد المحدود لمرتاديه، بتعرضه للأمور على نطاق أوسع. ولكن لماذا؟ لأن المسرح أكثر واقعية من السينما لأن المشاهدين يرون الدراما تكشف حقائق الحياة أمامهم. ويمكن للممثل أن يكون عفويًا على خشبة المسرح، كما يمكنه أن يرتجل، وأن يتفاعل مع المشاهدين ويقوم بالتعليق على الأحداث الجارية. ويتم فرض الرقابة على الفيلم السينمائي وذلك للتيقن من أن القصة والمشاهد متطابقة مع سياسة الدولة ومع الأنماط الاجتماعية السائدة، وذلك على النقيض من المسرح. وكل شيء قابل للتنبؤ به في السينما، أما المفاجآت في المسرح فتكون حتمية، سواء كانت مقصودة أو غير مقصودة.

ولسوء الحظ، فإن المشاهدين في القاهرة لم يهبوا للدفاع عن مسرحهم. وتحولوا، بدلاً من ذلك، نحو المسرحيات الكوميدية والسطحية المحتوى والتي يقوم القطاع الخاص بإنتاجها. ويمكن أن تعزو أزمة المسرح المصري إلى قضيتين أساسيتين كما حددهما الكاتب المسرحي المخضرم سعد أردش (أردش ٢٠٠٤). الأولى: هيمنة القطاع الخاص على المسارح بالمسرحيات الطويلة والتي يستمر عرضها لسنوات عديدة وتدفعها لذلك أهداف تجارية، عن طريق جذب الأجانب والمشاهدين الأثرياء، وبأذواق مفرطة في الأمور الخادشة للحياء، وليست من فنون

القاهرة أو من الأذواق العامة السائدة فيها. ويتشكل مرتادو المسرح في العصر الحالي من السعوديين والكويتيين والسائحين من الجنسيات الخليجية الأخرى والذين يرغبون في مشاهدة أشكال المسرحيات الهزلية، والاستمتاع بالإيماءات الجنسية، ويضحكون للممثلات المثيرات للأحاسيس الرخيصة بأشباه الملابس التي يرتدونها.

وصمدت بعض الأسماء عن الدخول في مثل تلك الأعمال الرخيصة، على الرغم من هذه القيود، وذاع صيتها على الرغم من الحيز المحدود لهذا النوع من الكوميديا – مثل المخرج جلال الشرقاوي، والممثل الكوميدي عادل إمام، والممثل والمخرج محمد صبحي. ويعتبر القطاع الخاص متحفظًا تمامًا، ولا يقوم بإنتاج مسرحيات تجريبية على غرار ما فعل القطاع العام في سنوات الستينيات.

ويكمن السبب الثاني في تدهور جودة المسرح في مصر في غياب النصوص المسرحية القوية والتي تتعامل مع الواقع، والموضوعات المتعلقة بالمجتمع (أردش ٢٠٠٤). ويتفوق القطاع العام من حيث الكم. فهناك مركز الهناجر للفنون، والمدعوم من الدولة، وهو الأكثر نشاطًا في مصر، ويقوم بإنتاج العديد من المسرحيات الجديدة الناجحة كل عام، كما يقوم بجذب الفنانين العرب لإنتاج مسرحياتهم (جدول رقم ٥). ويقوم القطاع الخاص، بالعكس من ذلك، في الاستثمار في مسرحية واحدة يقوم بعرضها لسنوات عديدة من أجل استرداد استثماراته. واستمرت واحدة من أنجح المسرحيات والتي قام بتقديمها مسرح الهناجر في عام ٢٠٠٤ وكانت مسرحية "اللعب في الدماغ"، والتي كانت تذاكر الحجز لها تباع مقدمًا لثلاثة أشهر. وقامت بإنتاجها فرقة مسرحية ثورية، وهي الحركة التي تم تأسيسها في عام ١٩٨٩ (فتحي ٢٠٠٤). وتعتنق هذه الفرقة مبدأ الاستقلال عن المسرح التجاري واختيار منهج ثوري (فتحي ٢٠٠٤). وكانت حبكة المسرحية تقوم بمعالجة الغزو الذي قامت به الولايات المتحدة الأمريكية للعراق

وتلاعب وسائل الإعلام في تقديم الحرب كذريعة لنشر الديمقراطية في العراق. وقامت المسرحية باستبدال أسماء هزلية لكبار الشخصيات في الولايات المتحدة الأمريكية والذين قاموا بشن الحرب على العراق، فمثلاً "كولين باور"، و"كونداليزا مارجرين"، والجنرال "تومي فوكس" (الجنرال تومي فرانكس رئيس القيادة المركزية لقوات الولايات المتحدة الأمريكية والذي قام بقيادة الغزو في كل من أفغانستان والعراق). وأجريت مقابلة مع إحدى محطات التليفزيون العربية في المسرحية، مع الجنرال فوكس لسؤاله عن أسباب القيام بغزو العراق فأجاب بأنه أراد تحرير المواطنين العرب ويحقق رغبات الزواج للشباب العرب المُحبطين بعرائس الباربي كهدية من الولايات المتحدة الأمريكية. وقال يخاطب الشباب العربي قائلاً "نحن نحبكم، نحن نريد منكم أن تستريحوا تمامًا وبدلاً من تقفوا صفوفًا طويلة أمام السفارة الأمريكية من أجل تأشيرات الهجرة. لا ترهقوا أنفسكم بالحركة، ولا تأتون إلينا، سنأتي نحن إليكم" (فتحي ٢٠٠٤).

وأبدت وسائل الإعلام العالمية اهتمامًا بالغًا بالمسرحية. فكتب "نيل ماكفاركوار" في جريدة النيويورك تايمز في يوم ١٩ مارس ٢٠٠٤ تحت عنوان "من يلعب في دماغ المصريين؟" الإيحاء الساخر الذي يشير إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وعزا الكاتب نجاح المسرحية إلى الهجوم الشرس ضد الولايات المتحدة الأمريكية، والفكاهة العنيفة الساخرة، ويصف المنظر الذي يقوم فيه الممثلون باقتحام كافيتريا الهناجر بالأزياء العسكرية، ملوحين ببنادقهم، ويسيطرون عليها "وتستهدف محاكاة الصدمة التي حدثت عبر العالم العربي عندما قامت الولايات المتحدة الأمريكية بغزو العراق" ***(MacFarquhar 2004)***. كما تحتوي المسرحية على محاولة استشهادية بالقنابل ضد الجنرال فوكس، والتي تقابل بالتصفيق من المشاهدين (سمير ٢٠٠٤).

وتأتي حافلات تعج بالشباب من المحافظات المختلفة لمشاهدة المسرحية، والتي أصبحت أكثر إثارة للجدل وأكثر شعبية بعد أن قيل إن سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في القاهرة اعترضت عليها وطالبت بإيقافها (سمير ٢٠٠٤). فكيف يمكننا تفسير نجاح هذه المسرحية والشعبية التي اكتسبتها؟ أولاً وقبل كل شيء لا يمكن أن تنفصل الثقافة عن السياسة. فقد قامت مصر بمنع عرض فيلم "دكتور زيفاجو" لأنه يهاجم دولة صديقة لمصر، وهى الاتحاد السوفيتي. وأباحت الرقابة المصرية إذاعة الفيلم في التليفزيون بعد تدهور العلاقات المصرية – السوفيتية وبدأ تحول مصر إلى الكتلة الغربية. ويعتقد نظام مبارك، على الرغم من أنه يحتفظ بعلاقات صداقة وطيدة بالولايات المتحدة الأمريكية، في السماح بتوجيه المعارضة الداخلية وإبداء المظالم تجاه ذلك البلد كما هو الأمر بالنسبة لإسرائيل. وتمتلئ مصر، نتيجة لذلك، بالأعمال الثقافية المناوئة لأمريكا والمناوئة لإسرائيل من عينة "اللعب في الدماغ" كوسيلة من وسائل تبديد الانتقادات الداخلية للفساد والطغيان الداخليين. وتظل الحقيقة الناصعة أن المسرحية نالت شعبية طاغية، سواء ضجت السفارة الأمريكية بالشكوى لإدارة الرقابة المصرية، أو كانت القصة بأسرها حيلة دعائية من أجل الترويج للمسرحية. وكما يعتقد الناقد المسرحي أن توقيت عرض المسرحية كان مثاليا عندما كانت مشاعر الغضب المكبوتة تتصاعد بسبب الحرب في العراق، كما أن المسرحية تعاملت مع الأحداث مباشرة بدلاً من اللجوء للمنهج الرمزي. وبدا في نهاية الأمر، أن الرقابة المصرية الرسمية للمسرحية عن طريق مركز الهناجر، ووسائل الإعلام المصرية، ووزارة الثقافة المصرية، أثبتت جميعها أن المؤسسات الثقافية المصرية مستقلة تمامًا عن السياسات الأمريكية داخليًا على المستوى القومي وعلى المستوى العالمي (سمير ٢٠٠٤).

وتقوم كل من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل بالتدخل بصفة منتظمة في السياسات الثقافية لمصر لإدراكهما بالدور المحوري للقاهرة كمحور سياسي وهيكل أساسي للثقافة العربية. وأعاد الرئيس الأمريكي جورج بوش، في عام ٢٠٠٣ تكرار ندائه من أجل الحرية قائلاً: "إن شعب مصر العظيم والباعث على الفخر، والذي أنار الطريق نحو السلام في الشرق الأوسط، يمكنه أيضًا أن ينير الطريق نحو الديمقراطية في الشرق الأوسط" (العمراني ٢٠٠٥). وتبذل إسرائيل جهودها الحثيثة بين الحين والآخر لكي تقوم بالمشاركة بصفة غير رسمية في المواقع الثقافية المصرية من خلال الأحداث الثقافية العالمية مثل مهرجان المسرح التجريبي العالمي السادس عشر بالقاهرة في عام ٢٠٠٤، حيث اُتهمت بالتسلل عبر مشاركين في مسرحية أمريكية، وهي "مدينة سخية". وقد تم عرضها رسميًا عن طريق فرقة أمريكية وهي "جولدن ثريد"، وبممثلين إسرائيليين كأعضاء بالفرقة (عبد الحميد ٢٠٠٤ ب). وقد حاولت إسرائيل فيما مضى أن تقوم بالمشاركة في معرض الكتاب الدولي بالقاهرة، ولكن تهديدات الناشرين العرب بالمقاطعة أجبرت مصر على التراجع عن منح جناح لإسرائيل في المعرض. ولم تنجح إسرائيل بعد في تطبيع علاقاتها مع العالم العربي في الجوانب الثقافية، وما زال يتعين عليها أن تقوم بإضعاف مقاومة القوى المناوئة لإسرائيل في مصر.

وأُعيد إحياء مسرح التليفزيون الذي تُديره الدولة بعد غياب دام عشرين عامًا في عام ٢٠٠٤، وقام بإنتاج ثمان مسرحيات (السماحي ٢٠٠٥ أ). وظل القطاع الخاص، على الرغم من ذلك، مهيمنًا على المشهد المسرحي، حيث كان يقوم بإنتاج المسرحيات وأغلبها كوميدية، كما كان يقوم ببطولتها نجوم كبار بحجم عادل إمام، وسمير غانم، ومحمد صبحي. ويقوم الممثلون الأقل شهرة بالتمثيل في مسرحيات هزلية، ومليئة بنساء يرتدين ملابس فاضحة، ويستخدمون لغة مبتذلة في الموسم الصيفي من أجل جذب سياح الخليج العربي. ويقدم القطاع الخاص في الغالب ما

يتراوح بين ٥-٦ مسرحيات في العام، وأغلبها غاية في الضعف والركاكة، وتقديم الكوميديا التجارية. وعلى وجه العموم، وطبقًا لملاحظاتي، طبقًا لأراء النقاد المصريين، فإن المسرح المصري لم يعد يجذب المشاهدين المصريين نظرًا لأثمان التذاكر الباهظة (أكثر من ٢٠٠ جنيه مصري)، والصبغة التجارية لها، فيما عدا استثناءات نادرة لممثلين مثل عادل إمام. ومع الازدهار الذي تشهده القنوات الفضائية، فيبدو أن مشاهدي المسرحيات الجادة في تناقص مستمر.

ويظل المسرح المصري، على الرغم من ذلك، هو المسرح العربي الوحيد الذي يمكن تصديره بأي قدر من النجاح. وتقوم الكثير من الفرق المسرحية المصرية بزيارة الدول العربية وتقديم عروض فيها، كما أن السائحين العرب الزائرين لمصر لا يمكن أن تفوتهم العروض المسرحية كجزء من رحلتهم إلى مصر. ولا يمكن، بالمقارنة بذلك، للفرق المسرحية لدول شمال إفريقيا وبلهجاتهم غير المعتادة، تقديم عروض مسرحية ناجحة. والأكثر من ذلك أن مسرح دول شمال إفريقيا يتأثر تأثيرًا قويًا بالنزعات الفرنسية. وتم تطوير المسرح في دول الخليج عن طريق المصريين، ولكنها تظل محلية وضيقة المجال بحيث لا تصلح للتصدير. ويتطور المسرح في دول الخليج في الأساليب الفنية وفي المعدات عن القاهرة، وعلى الرغم من ذلك، نظرًا للتمويل السخي، بينما يسمح مهرجان القاهرة العالمي للمسرحي التجريبي، ومهرجانات المسرح العربية بالمزيد من التفاعل العربي - العربي بأكثر من ذي قبل.

ولا تعتبر الحالة العامة للمسرح المصري جيدة عندما تقوم بمناقشتها مع النقاد المصريين. والأبرز في تلك المشكلات هي المشكلات المادية وغموض أهدافها. ويفترض أن يعكس المسرح المشاكل الحقيقية للمجتمع ويجب أن يتمتع بحرية التعبير. ويتجنب المسرح المصري المشكلات الاجتماعية المثيرة للجدل وموضوعات التحول الديمقراطي، على الرغم من أن المجتمع المصري يتأرجح

فيما بين الشمولية، والأصولية، والتحررية. ويقوم بإغراق نفسه في إعادة إنتاج الكلاسيكيات العالمية مثل هاملت والملك لير، ولكنه يتحاشى أي سيناريو يقوم بمعالجة المشكلات الوطنية الحالية مثل الخلافة السياسية، والصحوة الدينية، وأوضاع المرأة. فلا يعتبر المسرح أداة للتسلية فقط، ولكنه قوة للتغير الاجتماعي، إذا ما رغبت الأوساط العامة في ذلك.

جدول رقم (٥) المسرحيات التي قام مسرح القطاع العام بإنتاجها، ومركز الهناجر للفنون عام ٢٠٠١

اسم المسرح	عد المسرحيات
المسرح القومي	١١
مسرح الطفل	٢
مسرح العرائس	٢
المسرح الحديث	٦
مسرح الطلائع	٦
المسرح الكوميدي	٤
مركز الهناجر للفنون	١٩

المصدر: وزارة الثقافة ٢٠٠٤، ١٥٠-٥٢، ١٨٤-٤٦.

خاتمة

كان نمط الهيمنة للتفاعل الثقافي بين مصر وباقي العالم العربي محددًا بتسلسل هرمي ولعقود عديدة، تكون فيه القاهرة هي المركز، وباقي الدول العربية على المحور الخارجي. ولكن تم جني العديد من المكاسب للمواقع الثقافية والتي كانت في وقت ما تعتبر على المحور الخارجي في العالم العربي، في عصر العولمة، والصراع الثقافي، والحرب، والتحولات الإقليمية، والتنقلات الحضرية. ويعتبر نجاح دولة صغيرة على الخليج العربي، وهي قطر، بسكانها المحدودين ٨٦٠ ألف نسمة، خير مثال يوضح ذلك. وقامت قطر باستغلال التكنولوجيا التي أتاحها عصر العولمة، وكان لديها من الجرأة السياسية ما يمكنها من أن تمنح الحرية وحق التصرف الكامل لصحفها وإعلامها. وكانت النتيجة هي تأسيس قناة الجزيرة التي استطاعت أن تباغت وتتفوق على وسائل الإعلام الراسخة لدول مكتظة بالسكان مثل مصر، والتي يبلغ عدد سكانها ٧٥ مليون نسمة تقريبًا، وتحرز السبق الإعلامي في العديد من المرات على قنوات شهيرة مثل (*CNN*) وعمالقة الأنباء المهيمنين على مجالات وسائل الإعلام.

وكان الحجم يعني شيئًا كبيرًا في الماضي. أما في عالم اليوم، فإن النوعية والجرأة، وليس الكم هو المعيار الذي يُعتد به. وتغير دور مصر من كونها المنتج الرئيسي لكل أشكال الثقافة في الشرق الأوسط، إلى كونها منتجا مشاركا، مثل مشاركتها في إنتاج أفلام الفيديو كليب على سبيل المثال. وتظل مصر مهيمنة، في مجال السينما، والمسلسلات الدرامية، وذلك على الرغم من التطور الذي حققته سوريا في أنواع محددة من تلك الدراما. ولا تزال المسرحيات المصرية، في مجال المسرح، تجذب الاهتمام الإقليمي والعالمي، ولكنها تجاهد ألا تبتلعها الكباريهات السياحية.

ولكن، هل انتهت القاهرة كعاصمة مبدعة ومركز للترفيه في العالم العربي؟ لقد قمنا باستكشاف تأكيدات في هذا الفصل أن تدفقات استثمارية جديدة، وبروز مراكز جديدة للإنتاج الثقافي في الشرق الأوسط جعلت من القاهرة مجرد بقعة خلفية منعزلة. ولكن البيانات عن الإنتاج الموسيقي والغنائي، وصناعة النجوم، ومشروعات الفيديو والقنوات الفضائية، وحتى المسرح الشعبي، وخصوبة الإنتاج الأدبي تكشف لنا أن الدور المركزي لمدينة القاهرة كوسيط ثقافي، وتاجر، وناشر لم تتقلص، من الناحية الكمية. ولكن ليس هناك من يرفض أن قوتها في إحداث تأثير عميق على اتساع العالم العربي، وأن تقوم بالترويج لدور للثقافة أكثر من العناوين العابرة وتوقير الميول الاستهلاكية، قد ولت أيامها. وانهارت مستويات النوعية والإنتاجية للعصر الذهبي السابق، شأنها في ذلك شأن الإلهام السياسي والاجتماعي للمنطقة العربية.

يبدو على الرغم من كل ذلك، أن صناعات الثقافة المصرية وكأنها تعود إلى البزوغ مرة أخرى في مواقع جديدة، ومن خلال التكنولوجيا الجديدة عابرة الأوطان، وفي أنماط جديدة للشراكة العربية. ولكن لا يزال يتعين على القاهرة أن تبذل جهودًا مضاعفة وبمستويات أعلى من التعبئة العامة، والفنية، والشعبية – من أجل تحسين مصادرها البشرية، ومواردها الخلاقة، ومن أجل الاستفادة من ميراثها والفرص المتاحة لها، ولأن تصبح أكثر حرية، وإبداعًا، وصلة اجتماعية، ومركزًا عالميًا للثقافة في المنطقة العربية وللثقافة العالمية.

الأعمال المُستشهد بها

Works Cited

'Abd al-Hadi, Husam. 2005a. "Khitat tagmid al-mutribin al-misryin fi rutana." *Ruz al-Yusuf Weekly*, 15 January, 78–79.

'Abd al-Hadi, Husam. 2005b. "Malayin al-fada'iyat al-'arabiya fi studiyu al-Qahira." *Ruz al-Yusuf Weekly*, 7 January, 84–85.

'Abd al-Hamid, Amani. 2004a. "Masrah al-dawla yaftah abwab li-l-shabab wa-l-shuyukh aydan." *al-Musawwar*, 31 December, 45.

'Abd al-Hamid, Amani. 2004b. "al-Masrahiyun al-isra'iliyun yatasalalun li-mahragan al-masrah al-tagribi." *al-Musawwar*, 24 September, 42.

'Abd al-Rahman, Muhammad. 2005. "Nagla talga' li-l-sahafa al-safra'," 25 March, *<http://www.Elaph.com/music/2005/3/50524.htm>* (14 April 2005).

"Amr Diab = $37 Million." 2005. *al-Misri al-Yawm*, 24 March, 16.

El Amrani, Issandr. 2005. "Egypt: Opening Up the Constitutional Debate." *Arab Reform Bulletin*, 3 March, *<http://carnegieendowment.org/publications/index.cfm?fa=view&id=16643>* (27 May 2005).

Ardash, Sa'd. 2004. "Hala min al-khuf wa-l-gubn ta'tari 'ala al-masrah al-'arabi." *Masrahiyun* (September), *<http://www.masraheon.com/372.htm>* (9 April 2005).

Atallah, Ikhlas. 2004. "Future Perception of Children Theater." *al-Masrah*, October, 168–71

Bakr, Muhammad. 2005. "Akhbar mukhatat khaligi li-tadmir al-sinima al-misriya." *al-Anba' al-Dawliya*, 1 March, 13.

al-Bindari, Muna, Mahmud Qasim, and Ya'qub Wahbi. 1994. *Mawsu'at al-aflam al-'arabiya*. Cairo: Bayt al-Ma'rifa.

Central Agency for Public Mobilization and Statistics (CAPMAS). 2003. *The Statistical Yearbook 1995–2002*. Cairo: CAPMAS.

"Cinema Market." 2005. *Al-Ahram Weekly*, 23 March, 25.

Dawisha, A. I. 1976. *Egypt in the Arab World: The Elements of Foreign Policy*. London: Macmillan Press.

al-Din, Sa'd Tariq. 2004. "Hasan Hamid, ra'is ittihad al-iza'a wa-l-tilvizyun yakshif al-haqiqa." *al-Musawwar*, 24 September, 40–41.

Ebrahim, Raafat M. 2004. "Private Sector Jumps into Mass Media." *Business Monthly*, 4 April. *<http://www.amcham.org.eg/Publications/BusinessMonthly/April%2004/reports(privatesectorjumpsintomassmedia).asp>* (2 February 2005).

Egyptian Ministry of Culture. 2004. *Culture Registry 2001*. Cairo: Egyptian Ministry of Culture.

Egyptian Radio and Television Union (ERTU). 2004. *Annual Book*. Cairo: ERTU.

———. 2005a. "Qanat al-Nil li-l-qanawat al-mutakhassisa." *ERTU*, *<http://www.ertu.org/Nile_Chan/nhome.html>* (5 June 2005).

———. 2005b. "Qanat al-Nil li-l-dirama," ERTU, *<http://www.ertu.org/nile-chan/NL-drama.html>* (13 April 2005).

Essam El-Din, Gamal. 2000. "The Business of Culture." *Al-Ahram Weekly*. 502 (5 October), *<http://weekly.ahram.org.eg/2000/502/ec2.htm>*

Fathi, Du'a'. 2004. "al-Li'b fi-l-dimagh tatanabba' bi-intifada sha'biya li-l-taghyir." *al-'Arabi*, 15 Feburary, *<http://al-araby.com/articles/896/040215-11-896-art04.htm>* (3 June 2005).

Fawda, Farag. 1985. *Qabl al-suqut*. Cairo: al-Hay'a al-Misriya al-'Amma li-l-Kitab.

Fu'ad, Khalid. 2005. "Rubi la ta'raf al-'ib." *al-Khamis*, 17 March, 11.

Hadeseh.com. 2005. "UK gets set for Iranian Film Bonanza, January 21, 2005." Hadeseh.com, *<http://hadeseh.com/english/archives/004828.php>* (3 June 2005).

"Hasad al-sinima al-misriya fi 'am 2004." 2004. *al-Funun* 88 (Summer): 34–39.

Higazi, Muhammad, et al. 2005. "Fawda dramiya tagtah al-fann al-'arabi." *al-Shuruq*, 21 February, 66–77.

Husayn, Taha. 1938. *Mustaqbal al-thaqafa fi Misr.* Cairo: Matba'at al-Ma'arif.

Husayni, Ibrahim. 2004. "Shabab masrah al-aqalim yasrukh la li-l-harb." *al-Masrah* quarterly, October, 119–20.

Husni, Diya'. 2001. "al-Sinima al-misriya wa ihtikar al-masalih fi muwaghit al-kayanat al-kabira." *Ahwal Misriya*, 12 (Spring): 64.

El Ibiary, Rasha. 2004. "Arab Businessmen Target Iraq with a New News Channel." *Transnational Broadcasting Studies* 12 (Spring–Summer), *<http://www.tbsjournal.com/ibiary.htm>* (13 April 2005).

"Irtifa' ugur al-nugum." 2005. *al-Ahram al-'Arabi* (TV Supplement), 29 January, 6.

Khalid, 'Amr. 2005. "'Amr Khalid Official Website," *<http://www.amrkhaled.net>* (14 April 2005).

Khayr, Fatima. 2005. "Sa'wadat al-fada' al-'arabi." *al-Ahali*, 9 February, 14.

al-Lawindi, Sa'id. 2005. "Mu'amarat taqzim Misr." *al-Jamaheer*, 23 March, 13.

Macfarquhar, Neil. 2004. "Who Messes With Egyptian Minds? Satirist Points at U.S." *New York Times*, 18 March, *<http://nytimes.com/2004/03/18/international/middleeast/18CAIR.html?ex=1394946000&en=4957d89eaaf43be6&ei=5007&partner=USERLAND>*.

Mamduh, Ahmad. 2005. "Inhiyar sina'at al-sinima." *Sayyidati al-Jamila*, 16 March, 16.

"Mazzika 2 for Programs and Mazzika 3 a Surprise." 2005. *Mazzika Monthly*, 5 April, 5.

Muhammad, Usama. 2005. "Muzaharat tulabiya didd al-klibbat al-'arya." *Mazzika Monthly*, (8 April): 8.

Muhsin, Mahmud. 2005. "Singers Raising the Slogan, the Single is the Solution." *al-Misri al-Yawm*, 22 March, 15.

"al-Mukhrig al-libnani yaghzu al-saha al-ghina'ia." 2004. *al-Ahram al-'Arabi* (TV Supplement), 4 December, 12–13.

Mursi, Tariq. 2005. "Wirash bir al-silim li-intag mutribat al-vidyu klib." *Ruz al-Yusuf*, 21 January, 82–83.
Mustafa, Amgad. 2005. "Niqabat al-musiqiyin tadrus man' Hayfa min al-ghina' fi Misr." *al-Wafd*, 13 March, 10.
al-Mustaqilla. 2005. Homepage. *<http://www.almustakillah.com/>* (14 April 2005).
Nagih, Khalid. 2004a. "Nugum bi-l-malayin wa aflam miqawlat." *al-Musawwar*, 31 December, 46–47.
______. 2004b. "Kuktayl nisa' 'arabiyat fi film Inas al-Daghidi." *al-Musawwar*, 10 December, 38–40.
Nigm, al-Sayyid. 2003. "Masrah al-atfal fi-l-'alam al-'arabi" Middle East Online, 2 January, *< http://www.middle-east-online.com/?id=11036>* (9 April 2005).
'Okaska, Sa'id. 1999. "Su'ud al-aghani al-shababiya." *Ahwal Misisriya* 3 (Fall), 209–14
Rakha, Youssef. 2001. "No Business like Show Business." *Al Ahram Weekly* 524, 8–14 March, *<http://weekly.ahram.org.eg/2001/524/fe3.htm>* (9 April 2005).
Ramadan, Tariq. 2005. "Dirasa 'ilmiya li-islah ahwal al-dirama al-misriya." *Nahdit Masr*, 24 March, 17.
Rotana. 2005. Homepage, *<http//www.rotana.net>* (14 April 2005).
Sadik, Samya. 2005. "Malayin wizarat al-thaqafa fi sharayin al-sinima." *Ruz al-Yusuf*, (21 January), 84–85.
Sadiq, Ashraf. 2005. "Limadha bada' Nagib marhalit al-istithmar al-'ilmi?" *al-Ahram al-'Arabi*, 1 January, 50–51.
al-Saghir, Mamduh. 2005. "Mufag'at li Muhsin Gagir." *Elaph*, *<http://www.elaph.com/elaphweb/Music/2005/2/41668.htm>* (14 April 2005).
Sakr, Naomi. 2001. " Whys and Wherefores of Satellite Channel Ownership." In *Satellite Realms: Transnational Television, Globalization and the Middle East.* London: I.B.Tauris. *<http:// arabworld.nitle.org/texts.php?module_id=13&reading_id=1029&print=1>* (6 June 2005).
al-Samahi, Ahmad. 2005a. "Mazzika 2004: kathir min al-'ari qalil min al-ghina'" *al-Ahram al-'Arabi*, 1 January, 68–69.
______. 2005b. "Hasad al-sinima al-misriya fi 'am 2004." *al-Ahram al-'Arabi*, 1 January, 66–67.
Samir, Sherif. 2004. "al-Li'b fi-l-dimagh: 'ard masrahi yasrukh fi wagh al-gami'." *al-Masrah*, October, 56–58.
Seliha, Nehad. 2004. "Bright spots . . . Bleak Breaches." *Al Ahram Weekly*, 30 December, *<http://weekly.ahram.org.eg/2004/723/cu2.htm>* (6 June 2005).

al-Shafi'i, 'Ula. 2005. "Mi'at milyun ginih iradat al-sinima al-misriya fi 'am 2004." *al-Ahram al-'Arabi*, 1 January, 63.
Shaheen, Heba. 2002. "The Development of New Media in Egypt and its Effects on Local Realities." Mafhoum.com, <*http://mafhoum.com/press4/125C31.htm*> (28 May 2005).
al-Sharif, Amina. 2005. "Sira' al-'ashara al-kibar 'ala suq dur al-'ard al-sinima'i." *al-Musawwar*, 11 March, 42.
Shuman, Hanan. 2005. "Nugum FM afdal 40 milyun marra min al-iza'a al-hukumiya al-misriya." *Sawt al-Umma*, 28 March, 13.
"Sina'at al-sinima al-misriya." 2005. *Ruz al-Yusuf*, 15 January, 84.
Srivastava, Sanjeev. 2001. "Cash Boost for Bollywood." BBC News, 25 July. <*http://news.bbc.co.uk/1/hi/entertainment/film/1456962.stm*> (20 February 2006).
Sulayman, Fawzi. 2004. "Masrah al-tifl al-'arabi: iftikar li-l-ma'na wa-l-dalala." *Masrahiyun*, 18 June, <*http://www.masraheon.com/383.htm*> (9 April 2005).
Tayib, Magdi. 2005. "Azmat suq al-kasat." *Nahdit Misr*, 19 April, 11.
Tughan, Walid. 2005. "al-Fada'iyat wa-l-haqiqa al-day'a." *Sabah al-Khayr*, 29 March, 13–14.
'Ukasha, Sa'id. 1999. "Rise of Youth Songs." *Ahwal Misriya* 3 (Fall): 209–14.
United Nations Development Program. 2002. *Arab Human Development Report*, "Executive Summary," <*http://rbas.undp.org/ahdr/press_kits2002/PRExecSummary.pdf*> (27 May 2005).
United Nations Educational, Scientific, and Cultural Organization (UNESCO). 2001. "Survey on National Cinematography: Summary," <*http://unesco.org/culture/industries/cinema/html_eng/survey.shtml*> (1 June 2005).
Zednick, Rick. 2002. "Perspectives on War: Inside Al Jazeerah." *Columbia Journalism Review*, 2 (March/April) <*http://www.cjr.org/issues/2002/2/war-zednik.asp*> (29 September 2005).

الهوامش

١- على سبيل المثال، وعلى الرغم من أن مصر الفرعونية قدمت المسرحيات الأولى في العالم- الدراما الدينية عن قصة إيزيس وأوزوريس - فإن المسرح العربي الحديث قد ظهر في القرن التاسع عشر بترجمات عن مسرحيات فرنسية عن طريق مخرجي الدراما السوريين واللبنانيين. ومن أقدمها المسرح الماروني المسيحي في بيروت، ومارون النقاش، والذي قام بترجمة مسرحيات موليير في عام ١٨٤٨. وحدثت موجات من الهجرة إلى مصر نتيجة الاضطهاد العثماني للمسيحيين اللبنانيين والسوريين حوالي عام ١٨٦٠؛ وأُدخلت تحسينات في المسرح العربي بوجه عام نتيجة تأثير هؤلاء الفنانين المهاجرين. وكان أول تقديم للدراما في مصر رسميًا في عام ١٨٧٠، عندما قام المصري اليهودي يعقوب صنوع، والذي كان يشتهر باسم "أبو نظارة" بتقديم مسرحية عربية استلهمها أيضًا من الكاتب الفرنسي الساخر موليير. وقد أثرى بالتالي العديد من المواهب المصرية والعربية المسرح المصري، بمن فيهم سلامة حجازي، وعلي الكسار، ونجيب الريحاني، وجورج أبيض، ويوسف وهبي، ومحمد تيمور، وتوفيق الحكيم، ونجيب سرور. وكان لمصر قصب السبق في الابتكار في عالم وسائل الإعلام المطبوعة والتبادل الثقافي في الشرق الأوسط. وكانت أقدم جريدة باللغة العربية في العالم العربي هي الوقائع المصرية والتي خرجت إلى النور في عام ١٨٢٨. وتأسست الجريدة الرائدة في العالم العربي وهي الأهرام المصرية في عام ١٨٧٦ عن طريق اللبنانيين المهاجرين سليم وبشارة تقلا.

٢- كان لمصر الريادة في تطوير صناعة السينما العربية. كما أصبحت عزيزة أمير في عام ١٩٢٧، وهي ممثلة مسرحية شهيرة، أول منتجة سينمائية في العالم، عندما قامت بتمويل وتمثيل دور من أدوار البطولة في فيلم "ليلى" وهو أول فيلم مصري روائي طويل. وقد جذب نجاح السينما المصرية دعم المؤسسات المصرية. فقام بنك مصر بتمويل بناء أول استديو ضخم وحديث للتصوير السينمائي وهو استديو مصر، كقاعدة مهنية أساسية لصناعة السينما. وأُرسلت البعثات السينمائية للخارج في أوروبا للتدريب، كما دُعي الخبراء الأجانب من أجل إعطاء دفعة قوية للصناعة الوليدة. وقد نقلت هذه الأفلام السينمائية اللهجة المصرية العامية

إلى باقي الدول العربية والتي كانت صناعة السينما فيها إما غير متواجدة من الأصل، أو من الضعف بحيث من الصعب عليها أن تتنافس مع هذا الكم الضخم من الإنتاج الغنائي ولكوكبة من مشاهير النجوم. كما كانت القاهرة تتباهى بأول دار أوبرا في العالم العربي، والتي بدأت عروضها في عام ١٨٦٩ من أجل الاحتفال بافتتاح قناة السويس بتقديم أوبرا "ريجوليتو" والتي قدمها المخرج الإيطالي الكبير فيردي. وافتتحت في المقابل، أول دار أوبرا في لبنان في عام ١٩٢٤؛ وافتتحت واحدة في سوريا في عام ٢٠٠٤. وتستتبع الدول العربية الأخرى، وبالذات في دول الخليج الفارسي. وتظل، على الرغم من ذلك، أنشط دار أوبرا في العالم العربي هي أوبرا القاهرة، وهي التي تتخذ مقرًا جميلاً لها في المقر المتعدد الاستخدامات وعلى طراز الزخرف العربي على جزيرة تقع على نهر النيل.

٣- عُقدت مقابلة مع المؤلف في ٢٦ مارس ٢٠٠٥.

٤- قمت بإجراء مقابلة شخصية مع محمد غنيم، وكيل الوزارة السابق بوزارة الثقافة. "مسرح الستينيات: الإيجابيات والسلبيات" المجلس الأعلى للثقافة، ٢٧ مارس ٢٠٠٥، القاهرة.

خرائط جغرافية القاهرة للمستهلك والمستثمر

الفصل الخامس

تمصير الحلم الأمريكي: المراكز التجارية في مدينة نصر، والنظام العام، وخصخصة العسكر

منـــى أبـــاظة

(مقدمة يمكنك تخطيها)

لم تكن جثة بعد.

هند لا تُحب إضاعة الوقت لأنها لم تكن كالأخريات.

المكان: المركز التجاري جنينة مول.

دورة مياه السيدات.

(هند) تكتب رقم تليفونها المحمول على أبواب الحمامات من الداخل بقلم الروج المقاوم للماء، ثم تقوم بتمرير ورقة (كلينكس) مبتلة بالصودا عليها، وهنا يستحيل محوها يا كوكو!.

قلت لها بأن تكتبه في مستوى نظر الجالسة على (الكابينة)

ومن فوقه كلمة واحدة: كلميني

لماذا؟

لأن هذه الأشياء تحدث.

لأن المرأة تدخل الحمام لقضاء حاجتها..

المرأة تدخل الحمام لاستخدام شيء يخرج من حقيبة يدها، ليحميها.

ذنبها الذي لا ذنب لها فيها.

فراشة هشة عارية تقبل الكسر وهنا يأتي (الرقم الرهيب).

الرقم يُحدق في ضعفها.
الرقم يسمح لنفسه بالتدخل فورًا.
الرقم لا يستأذن وليس له أعوان.
هذا هو الرقم ...
زيرو واحد زيرو ستة أربعين تسعين ثلاثين.
كلميني
٠١٠ - ٦ ٤٠ ٩٠ ٣٠
أركاديا مول
كلميني
٠١٠ - ٦ ٤٠ ٩٠ ٣٠
هيلتون رمسيس مول
كلميني
٠١٠ - ٦ ٤٠ ٩٠ ٣٠
الوورلد تريد سنتر
ليس للرقم فروع أخرى
زيرو واحد زيرو ستة أربعين تسعين ثلاثين.
هناك ما أود ارتكابه بين حين وآخر
كأن أحيا كأي معتوه آخر
كأن أكون نفسي بكل حماقاتي الصغيرة التي أحب اقترافها.
مع الحماقات التي أصبحت – الآن – من تكويني، كان بديهيًا أن أطلب منها التمادي.
إلى أي حد؟
خمِّن.

هذه هي الصفحة الأولى من رواية قصيرة شهيرة يتم الاحتفاء بها بشدة كتبها أحمد العايدي بعنوان: "أن تكون عباس العبد".[١] ونفذت الطبعة الأولى من الرواية في ثلاثة أشهر بعد أن ظهرت طبعتها باللغة العربية في عام ٢٠٠٤. ولد الكاتب في عام ١٩٧٧، ويبلغ أواخر العشرينيات من عمره بالكاد، وهو يمثل الجيل الأصغر من الكتاب المصريين. وعندما استعرض يوسف رخا الكتاب وصف العمل بأنه يمثل تحديًا لأي نوع من أنواع التوصيف، وكان هذا الوصف دقيقًا بكل تأكيد (٢٠٠٣). ومن الصعوبة بمكان أن نقوم بتتبع ملامح الرواية. فهو يمثل أسلوب ما بعد الحداثة، فليست هناك فـــي الحقيقــة حبكة قصصية متماسكة، كما لا توجد هناك بداية، ولا نهاية حقيقية، والرواية مليئة بالهذيان الكوميدي والهواجس. وما يدعونا إلى الاهتمام بهذا النوع الأدبي الذي يظهر بين الجيل الجديد من شباب الكتاب المصريين هو أن معظم هذه اللقاءات الإنسانية غير المفهومة تحدث في دورات مياه مراكز التسوق التجارية. وكلتا الفتاتين تنتظرانه هناك، ولكن إحداهن تنتظره في المقهى بالطابق العلوي بينما هو يقابل السيدة الأخرى بالطابق السفلي. وكلتا الفتاتين تتسميان باسم هند، ولكن إحداهن عاهرة من الطبقة العاملة، وتستخدم لغة عربية عامية، والأخرى من الطبقة العليا وطالبة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة وتقوم بحشو حديثها بكلمات إنجليزية. وكلتا الشخصيتين كوميديتان وتتواصلان على نمط شخصيات فرانز كافكا العبثية. وهو يواعد الفتاتين بدلاً من، أو بالخطأ عن صديقه عباس العبد، وهو الأنا البديل لشخصه، أو قرينه وهو عدواني شرس من الطبقة العاملة.

وجذبت هذه النوعية من الكتابة انتباه النقاد بشدة من خلال دمج العديد من مستويات اللغة، فيقول عنها رخا:

إن العايدي واع بأنه يعيش في عصر الإلكترون، وهو يقـــوم باستثمار النص باستخدام مصطلحات الإنترنـــت، والتليفـــون المحمول الشائعة في كل مكان، وفن الفيديو كليب، وكلمـــات إنجليزية مثل النسخ واللصق، ويقدم لنا سطح تواصـــل مـــن صور سينمائية تومض باستمرار، خالقة خبرة مُربكة للقراءة بطريقة غير عادية

وكتبت هذه القصة بلغة تمتزج فيهـــا عاميـــة الحـــديث فـــي الشارع مع مستويات مختلفة من اللغة العربية التقليدية.

ويقوم العايدي بالاستفادة القصوى من السخرية الكامنة فـــي توجيه اللغة عن طريق مزج أحدث ما في العامية المـــصرية باللغة العربية الفـــصحى، اللغـــة التقليديـــة للنثـــر الأدبـــي، والمصطلحات الإنجليزية الشائعة والتي أصبحت نتيجة عصر الإلكترونات جزءا من الحديث اليومي.

رخا ٢٠٠٣.

وتتضمن نقطة البداية في اهتمامي بثقافة المستهلك الجديدة في مصر أسئلة عن كيفية أن الاغتراب وغياب الهدف الذي يعانيه الشباب في هذه الإمبراطوريات الاستهلاكية وكيف أصبحت مراكز التسوق هذه هي موضع تلاقي هؤلاء المغتربين.(٢) وتقوم هذه الرواية باستكشاف أساليب الحياة الناشئة والمشاعر المتنامية بالاقتلاع من الجذور والاغتراب بين الشباب. ولكن قبل أن نقوم بإلقاء نظرة على شباب اليوم، وأنماط الحياة الاستهلاكية، من الأهمية بمكان وفي الدرجة الأولى أن نقوم بدراسة وفهم التحولات الحضرية الحالية لمدينة القاهرة.

كيف يمكننا قراءة الثقافة الاستهلاكية لمدينة من مدن العالم الثالث كالقاهرة؟ وتنتشر ثقافة الفراغ والاستهلاك انتشار النار في الهشيم حتى في الأحياء الفقيرة الضخمة حولها وتستمر في النمو لتشكل كابوسًا مزعجًا يتضخم بشكل لا نهائي. وقد أشارت الدراسات السابقة إلي قراءة مراكز التسوق التجارية كمدن، وذلك عن طريق قراءة المدن كموضوعات، حيث تميط الطبوغرافيا الخاصة بها اللثام عن الطبقات الاجتماعية للحياة الحضرية. وتقول نانسي بيكر، على سبيل المثال، إن مركز التسوق، بمكوناته المتآلفة، وباختزاله للأشكال الأساسية التي لا تشبه الفن التجريدي، فإنه يمنح أملاً أكثر ديمقراطية واحتمالاً أكبر، أكثر من المدينة، على الرغم من ارتباطه بمؤسسة القطاع الخاص *(Backes 1997, 1)*. ولقد تنبأ علماء المستقبل الحضري، مثل هـ. ج. ويلز أن تتحول المدن الكبرى، على مشارف نهاية القرن العشرين إلى مجموعة من القرى المتلاصقة مع بعضها البعض عن طريق وسائل المواصلات الفائقة السرعة، وتخيلوا المدينة الفاضلة كمركز تجاري ضخم للتسوق. وتكون مدينة ما بعد الحضرية، كما يتخيله هـ. ج. ويلز "بالضرورة سوقًا، ومعرضًا ضخمًا للمحلات التجارية، وأماكن للتجمع واللقاءات، وأماكن للمشاة، وتكون ممراتها مزودة بالمصاعد، وأرصفة للحركة، ومزودة بوسائل حماية من تقلبات الطقس، وعلى الإجمال تجمعات رحيبة، ومتألقة للتسلية والمتعة" *(Fishman 1996, 79)*. وبتعبير آخر، ستدفع مراكز تسوق المدن التجارية بالأنشطة الإنتاجية في نهاية المطاف، بعيدًا تجاه الأطراف والمناطق الحضرية المتطرفة عن المركز.

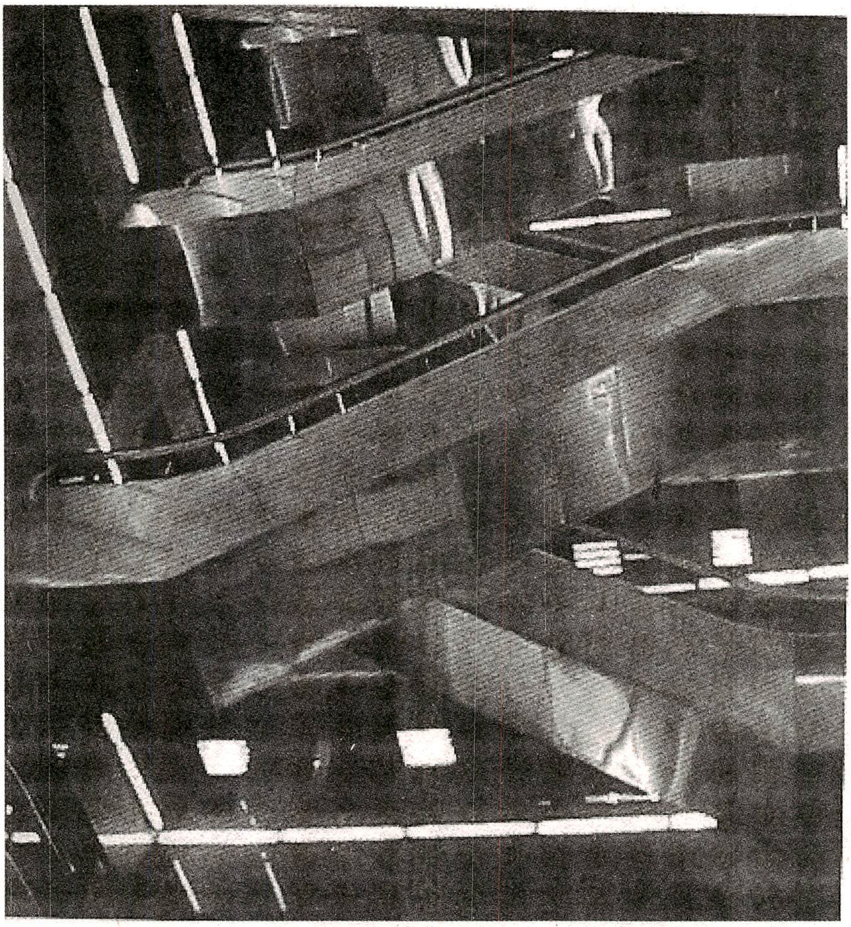
وقد شغلت مراكز التسوق التجارية أذهان علماء الاجتماع الأمريكيين منذ منتصف سنوات الثمانينيات من القرن العشرين. ويمكن أن يزعم الكثيرون أن هذا

الموضوع قد أصبح باليًا، حيث تعاني الكثير من مراكز التسوق الأمريكية تدهورًا ملحوظًا. وتوصف مراكز التسوق التجارية الفاقدة للحياة اليوم بأنها تملأ مشهد الطبيعة الأمريكية بالنفايات؛ وستتوقف واحدة من كل خمس مراكز تجارية للتسوق عن العمل من تلك المراكز القائمة في التسعينيات بنهاية العام القادم على وجه التقريب. ونوهت مقالة ظهرت في جريدة الهيـرالد تريبيون - الطبعة الدولية (عدد ٣ يناير ٢٠٠٠) أنه بينما كان هناك ثلاثة آلاف مركز تسوق تجاري في عام ١٩٦٠ في الولايات المتحدة الأمريكية، فهناك الآن ما يقرب من أربعين ألف مركز. وكما نوهت "ميجان موريس في دراستها عن مراكز التسوق التجارية الأسترالية، فإن التغيير في المدينة، وإدارة التغيير نفسه، والدور المتغير لمراكز التسوق هو ما يجب الانتباه له جيدًا. ولكن يظل السؤال الحائر يدق في الرؤوس بعنـف: لماذا يرغب المصريون في تكرار تجربة مستوردة أثبتت فشلها الذريع في كل مكان؟

زادت مراكز التسوق التجاري في البرازيل، على سبيل المثال، من واحدة فقط في عام ١٩٨٠، إلى ١٩ في عام ١٩٩٥ كوسيلة لتوفير مكان آمن يمكن مراقبته وذلك كرد فعل لانتشار العنف في البرازيل في غضون العقدين السابقين. ففي ريو، باراشوبنج (٧٣،٩٠٦ متر مربع)، وهي أكبر مركز للتسوق التجاري في أمريكا اللاتينية بأسرها، والذي وصف بأنه مكان مرتبط "بالآدمية" وضد العنف *(Freitas 1996, 95)*. ويذكرنا زيجمونت بومان بأن والتر بنيامين هو الذي كان قد اخترع "عربة الأطفال للتنزه" كمظهر رمزي للمدنية الحديثة. ويخبرنا بومان بأن مراكز التسوق التجارية تجعل العالم محاطًا تمامًا بالجدران، ومراقبًا بالوسائل الإلكتـرونية ويتم تـأمينها بالحراسة عن كثب، "وآمنة - للحياة - كالتنزه" (١٩٩٦، ٩٥). وتبرز أسماء والتر بنيامين وجورج سيميل بانتظام في دراسات

المدينة، لتؤكد الغربة والوحدة كملهمة لإعادة ابتكار الفراغات الحضرية؛ فقد استهلا المناقشة عن التجوال في الكاتدرائيات الحديثة وإمبراطوريات الاستهلاك. وأعاد مايك فيثرستون صياغة مفهوم بنيامين عن "التنزه" من خلال أبعاده المتعددة، ويقول إن التنزه ليس فقط نوعا من التسكع في المدينة، ولذا فإن مفهومه أو مفهومها للتنزه هو "وسيلة لقراءة الكتاب المقدس"، "وقراءة تاريخ المدينة" (١٩٩٨، ٩١٠). إلى أي مدى تصلح ملاحظات بنيامين لفهم التغييرات التي تحدث في العالم الثالث؟ وهل يمكن أن يكون أي استخدام غير متوقع للأماكن العامة في العالم الثـــالث بـــواسطة الشبـــاب والشابـــات مجالاً جديدًا للبحث الاجتماعي؟

يقول ميللر وآخرون في دراساتهم التي أعدوها في عام ١٩٩٨ عن مراكز التسوق التجارية البريطانية إن مراكز التسوق لا تقوم فقط بإعادة خلق الهوية، ولكنها تقدم مكونًا مستقلاً لتشكيل الهوية. وتقوم الدراسة بتقديم مفهوم جديد عن كيفية تقديم تفسير والربط بين الشخصية العرقية والاستهلاك من خلال الاستخدام المختلف للأماكن العامة. وهي تشير إلى حقيقة أن الاستهلاك أصبح عالمًا بحد ذاته، وتبرز أهمية الأماكن العامة وموضع للهويات الاستهلاكية والممارسات الثقافية للتسوق. كما أنها تقوم بالتأكيد على الحاجة للنظرة إلى مراكز التسوق من منظور عامل المتجر وكيف أن التسوق يؤثر على الحياة الجنسية والعلاقات الاجتماعية (موريس ١٩٩٣). واستوحى ريكاردو فيريرا الإلهام من أعمال عالم الاجتماع الفرنسي ميشيل مافيسولي، وقام بعمل دراسة قارن فيها بين مراكز التسوق المختلفة في البرازيل مع "فوغام دي زال" الباريسية (١٩٩٦). ويستخدم فريتاس دائمًا مفهوم التصور عن إعادة التشكيل الداخلي للأماكن العامة. ويرمز مركز التسوق طبقًا لما يراه فريتاس للمدينة المثالية. ويتم إسباغ الحماية على هذا المكان العام من التلوث وتأثيرات الطبيعة في الخارج.



ردهة المركز التجاري "اليمامة سنتر" أول مركز تجاري يقام في القاهرة، ٢٠٠٣ (تصوير منى أباظة)

كانت هناك ٢٤ إمبراطورية من إمبراطوريات الاستهلاك هذه بالفعل في القاهرة في عام ٢٠٠٣، وطبقًا لمسح قمت به في ذلك الحين. فقد كانت هناك في منطقة مدينة نصر بمفردها "طيبة مول"، و"العقاد مول"، و"جنينة مول"، و"ووندر لاند مول"، و"السراج مول"، و"سيتي سنتر"، و"جروب سنتر"، و"الحرية مول" (مصر الجديدة)؛ ويمكن للمرء أن يتسوق في وسط المدينة في "طلعت حرب مول"، وفي "مركز البستان". كما توجد على طول كورنيش النيل "أركاديا مول"، ومراكز تسوق "رمسيس هيلتون"، و"مركز التجارة العالمي" في بولاق. وتوجد في منطقة المعادي، بعيدًا عن وسط المدينة، "المعادي جراند مول"، و"البندار مول"، و"تاون سنتر"، وأخيرًا "اليمامة سنتر" في منطقة الزمالك، و"كايرو مول" في منطقة الهرم"، و"المصطفى سنتر"، و"فلوريدا مول" في منطقة مساكن شيراتون، و"فيرست مول" في الجيزة، و"أمير مول" في شبرا، و"البنيان مول" في حي الزيتون، وتنضم إليها مراكز التسوق الباقية في منطقة القاهرة الكبرى.

وشرعت في إجراءات تنفيذ دراسة عن مراكز التسوق في القاهرة في عام ١٩٩٩، في البداية عن طريق الملاحظة المشتركة. ثم قمت بإجراء مقابلات مع العديد من مديري هذه المراكز في المراحل الأخيرة من البحث. وقمت بتدريس فصل دراسي عن ثقافة الاستهلاك في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وبالاشتراك مع الطلاب قمت بعمل العديد من الدراسات في العديد من مراكز التسوق بناء على الملاحظة المشتركة واللقاءات الشخصية مع مديري هذه المراكز، وأصحاب المتاجر، وجمهور العامة. كما قمت بالإشراف على مشروع دراسة أُجريت في عام (٢٠٠٢-٢٠٠٣)، على ثمانية عشر مركزًا من مراكز التسوق حيث تم إجراء مقابلات مع مديري المراكز، والبائعين، والعامة من الجمهور بواسطة فريق البحث، وبدعم من الجامعة الأمريكية بالقاهرة. وقمت بإجراء مقابلات مُسجلة على شرائط كاسيت وغير محددة سلفًا بالاشتراك مع فريق البحث. وواجهت المصاعب

الآتية: كل المديرين يرغبون في إجراء المقابلات مع الباحثين المساعدين من الأخصائيين الاجتماعيين الذين تلقوا تدريبهم في جامعة القاهرة. وكانت خشيتهم من التسلل الأمني أو الصناعي محسوسًا بوضوح وبشكل عام، وهناك تأثير وشكوك خاصة تتواجد بشكل قوي في مصر نتيجة لتركيز السلطة في السلطة التنفيذية والعسكر. وقمت في العديد من الحالات، بإرسال المساعدين إلى هؤلاء المديرين والذين سبق أن أجريت معهم مقابلات. ويبدو أن مركزي كأستاذة في الجامعة الأمريكية وكسيدة، وربما خلفيتي عن الطبقة المحظوظة، قد ذلل الكثير من المصاعب في أداء هذا العمل.

لا تعتبر ظاهرة تشييد المراكز التجارية ظاهرة متفردة، ولكنها تطورت جنبًا إلى جنب مع ظاهرة انتشار محلات السوبر ماركت الضخمة مثل ألفا ماركت، ومراكز كارفور الشهيرة، والتي افتتحت حديثًا موقعين لها (واحدة على أطراف حي المعادي والثانية في الإسكندرية). ولقد أصبحت سلسلة محلات كارفور الفرنسية الأصل أحدث مواقع السياحة وقضاء أوقات الفراغ والتي تقوم بجذب الطبقة المتوسطة من المصريين. وتعتبر كارفور من أولى محلات التسوق الكبرى والتي افتتحت في مصر عن طريق مجموعة الفطيم من دبي وذلك بعد أن طُردت محلات سينسبري من مصر بعد الهجوم الذي شُن عليها بأنها مدعومة من إسرائيليين.[٣] (يمكنكم الرجوع إلى الفصل ٧ الخاص بياسر الششتاوي في هذا الكتاب من أجل دراسة أعمق لتأثير أنماط الاستهلاك والتمويل من دبي على القاهرة). وتمتلك كارفور قدرات غير عادية سواء لتلبية حاجات الأذواق المحلية، أو لصياغة أنماط جديدة من الطلب للاستهلاك وتقديم أذواق جديدة، ولكن هذا الموضوع مبحث آخر بعيد عن حدود موضوع هذا الفصل. وما هو مذهل بالنسبة لهذه المراكز، هو كيف أنها كلها حديثة (حيث تم تشييد معظمها في غضون العقدين

الأخيرين). فشُيدت اليمامة سنتر على سبيل المثال، في جزيرة الزمـــالك في عام ١٩٨٩، وهو أول مركز للتسوق تم تشييده في القاهرة على الإطلاق.

ويحاول هذا الفصل شرح التوسع الفجائي الذي حدث في تشييد هذه المراكز، على الرغم من الحقيقة الواضحة بأن هذه المؤسسات ليست ناجحة بالقدر الذي يمكن أن يتبادر إلى الأذهان (الكثير منها لا يتعدى عمرها ١٨-٢٤ شهرًا). ويمكن أن يكون في مقدور ٢٠% فقط من المصريين التسوق في هذه المراكز، ونتيجة لذلك فإن الكثير من هذه المراكز بالغة الفخامة يمكن أن توصف اليوم بأنها "مدن أشباح" (مصطفى ٢٠٠٣). ويعتبر الكساد وتخفيض قيمة الجنيه المصري مؤشرات واضحة للانكماش الاقتصادي الذي يواجه مصر. ويقدم علماء الاجتماع المتخصصون في المصريات، مثل عاصف بيات، وتيموثي ميتشيل نظرة متشائمة عن الفقر المتزايد في الريف والحضر والكثافة السكانية الحضرية غير المحتملة والتي تفاقمت أكثر فأكثر في العقد الأخير، مما زاد من تفاقم الظروف المعيشية المتردية للأغلبية الصامتة *(Bayat 1977, 2-8; Mitchell 1999, 28-33)*. وشهدت مصر كما يقول ميتشيل، التضافر بين أيدلوجية الليبرالية الجديدة في الدولة والمؤسسات الدولية الفاعلة، بعد قبول حكومة مبارك شروط البرامج القاسية لصنـــدوق النقـــد الدولـــي. وحقق الاقتصاد في ذلك الوقت نموًا بلغ ٥% *(Mitchell 1999, 272)*. ولكن النمو كان قصير المدى، وأدى إلى تغييرات على العكس مما كان مأمولاً منه من مهندسي التعديلات الهيكلية. فانهارت صادرات مصر من ٨٨% في عام ١٩٨٥ إلى ٤٧% في عام ١٩٩٦-٩٧ *(Mitchell 1999, 275)*. ويتكهن التحليل الاقتصادي الذي قام به ميتشيل عن الأداء الاقتصادي للعقد الأخير مستقبلاً كئيبًا. وتكشف الأرقام عن تدهور حاد في الاستهلاك الحقيقي للفرد، وتدهور في الأجور الحقيقية، وزيادة في أعداد أولئك الذين تحت خط الفقر *(Mitchell 1999, 286)*.

هل القاهرة المُجددة في طريقها لأن تصبح مركزًا تجاريًا ضخمًا تحتضن أحياء الفقراء المُنتشرة حولها؟ يدرك عشاق مدينة الألف مئذنة منذ وقت طويل أن التحول الحضري الدرامي في العقود الأخيرة هو الذي أدى إلى إعادة التشكيل الشرسة للمنظر العام للمدينة (برجاء الرجوع إلى الجزء الخاص بإريك دينيس وليلا فيجنال في هذا الكتاب). والقوى التي دفعت إلى ذلك واضحة كل الوضوح: فقد أدت المضاربة على الأراضي من ما يقرب من عشرين عائلة من كبار الرأسماليين وأقرانهم إلى إزالة الأحياء الفقيرة من أجل تمهيد السبيل إلى المباني الشاهقة والفنادق، والأبراج، وسلاسل مباني السينما الضخمة، والمطاعم، ومراكز التسوق، وأماكن تزجية أوقات الفراغ العامة الأخرى. وتأخذ عملية تجميل إجبارية مجراها، بينما يتم إخفاء الفقر الحضري بكل بساطة، ولا يتم التعامل معه. ويمكن أن يستنتج أي باحث اجتماعي حضري على الفور أن ذلك قد حدث في المدن الأوروبية في القرن التاسع عشر. ولقد شهدت مثل تلك المدن ضغوطًا عنيفة لدفع الفقراء نحو أطراف المدن. ويتم تجميل قاهرة اليوم في الوقت الذي يتم فيه خلق الأماكن العامة الضخمة للمستهلكين. ويحدث ذلك بشكل كبير في اثنتين من المناطق التي سنقوم بمناقشتها في هذا الفصل: الحي التاريخي "بولاق" والذي يواجه الحي الراقي لجزيرة الزمالك، والمدينة الجديدة التابعة على أطراف مصر الجديدة وهي مدينة نصر.

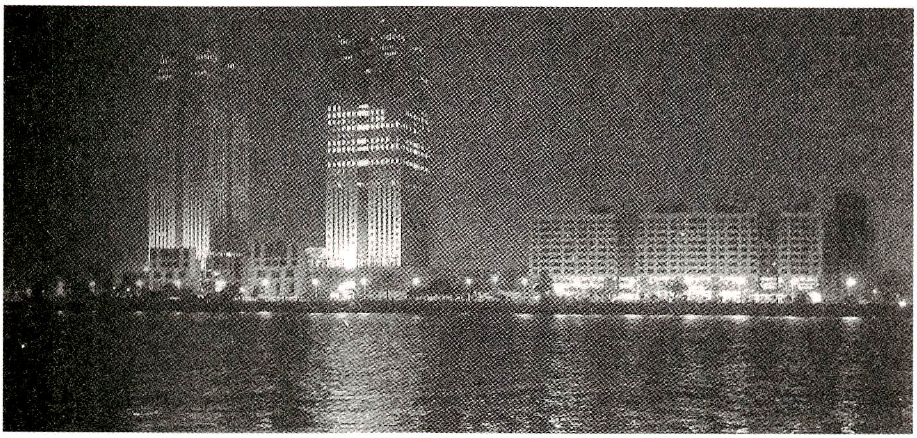
بولاق القديمة والجديدة

سأبدأ دراستي ببولاق المشهورة بمنازلها التي تنتمي لوجهاء حضر القرن الثامن عشر؛ وحماماتها التاريخية المندثرة ومساجدها؛ وهي تتمتع بجمال هندسة معمارية أوروبية تنتمي لأواخر القرن التاسع عشر، ومطبعتها الشهيرة[٤]. وتشتهر

بولاق بكونها تضم أقدم مدرسة للتدريب البحري، وحي شعبي مكتظ بالسكان، وسوق للملابس المستعملة، وحي لبيع قطع غيار وإصلاح السيارات، وأسواق خاصة للملابس والأنسجة، وسوق للملابس العسكرية المستعملة، والحديد الخردة. ويختفي كل ذلك تدريجيًا وببطء. باختصار فإن التحديث قد أدى إلى اختفاء واحدة من أكثر الأحياء الشعبية أهمية في القاهرة. ويختفي أسلوب حياة وثقافة أولاد البلد (البلدي) بسرعة بالغة لتلبية حاجات المترفين الجدد في القاهرة. وتعني كلمة بلدي حرفيًا ريفي أو محلي. إنها دلالة على كل ما هو شعبي. ولعقود عديدة استخدمت الطبقة الوسطى والعليا هذه الكلمة لإبداء الاحتقار لسوقية ذوق الطبقات الدنيا.

وتتضمن هذه الأماكن العامة الفسيحة، بطبيعة الحال، أسلوبا جديدا من أساليب الحياة، وأنماطا جديدة للسلوك العام. وبينما تتلاشى بولاق القديمة، فإن كل ما يحيط بطول كورنيش النيل، هي كتل من الأبراج وناطحات السحاب التي تضم الفنادق العالمية وإمبراطوريات الاستهلاك التي تقوم بغزو الأماكن العامة. ويقبع بالقرب من مبنى وزارة الخارجية برجا مركز التجارة العالمي اللذان تم تشييدهما لتضما فندق هيلتون، ثم البرج الذي يضم فندق كونراد. ويضم مركز التجارة العالمي شركة موبينيل، إحدى المؤسسات الناجحة لأوراسكوم، وهي الشركة التي تمتلكها عائلة ساويرس. ولقد سبق أن كتبت عن مركز التجارة العالمي إبان أيام نجاحه (أباظة ٢٠٠١). وعندما عدت إلى القاهرة في نوفمبر عام ٢٠٠٤، اكتشفت أن مركز التجارة العالمي أصبح جثة هامدة، وبقي به ثلاثة محلات فقط هي التي تفتح أبوابها. وأغلقت فيها العديد من المكاتب، أو انتقلت إلى مكان آخر، وأغلقت الكافيتريا أبوابها، وفي واقع الأمر لم يكن هناك زائرون. هل كان ذلك من تأثير الكساد أم انتصر أسلوب الحياة "البلدي" على الحداثة العدوانية؟ لا أحد يعرف الآن على وجه التحديد ولكن أهل بولاق لا يزالون يشعرون بالضغوط الهائلة من محاولات الحكومة الدءوبة لخنق أسواقهم والحي الذي يقطنون فيه. وقام الموظفون

المصريون الرسميون بمنع العربات التي تحمل البضائع والمواد الخام من دخول الحي ولكنهم فشلوا في استعادة مباني الحي المتداعية. وبعبارة أخرى، كان كبار الموظفين قانعين بترك مباني هذا الحي الشعبي تتداعى وبذلك يمكنهم وضع أيديهم على الأراضي المقامة عليها هذا المباني. وكان من الغريب على الرغم من فشل هذه المراكز التجارية المبدئية مثل مركز التجارة العالمي والمشروعات المخصصة للاستهلاك، أن المضاربة على الأراضي، استمرت دون هوادة، وليس لدي تفسير لهذا الأمر.



مشهد لحي بولاق بعد التعديلات، وأبراج مركز التجارة العالمي كما تبدو من حي الزمالك المقابل (تصوير منى أباظة)

تم تشييد برجين عملاقين، ولمسافة أبعد قليلاً على الكورنيش، أبراج ذات مظهر متطور، ويطلق عليهما "نايل سيتي"، شيدتهما مؤسسة أوراسكوم، والتي كانت مرتبطة أيضًا بالمراكز التجارية في بولاق. وتم تصميم مشروع نايل سيتي الذي تكلف مائتي مليون دولار، ليضم ٥٥٢ غرفة فندقية عالمية من سلسلة فنادق فيرمونت، والذي أغرى نجاحها الحالي في دبي بتكرار نفس النموذج في القاهرة. ويضم مجمع نايل سيتي برجين يتكون كل منهما من ٢٤ طابقا مساحتها ١٠٠،٠٠٠ متر مربع للمكاتب، ١١،٠٠٠ متر مربع لباعة التجزئة، ومطاعم ودور للسينما. وسيتم افتتاح مركز ضخم للتسوق بحلول عام ٢٠٠٥. ويقع قبل هذه الأبراج بقليل، أركاديا مول، الذي تم افتتاحه منذ بضع سنوات. واعتبر نجاحًا، بالنظر إلى تصميمه المتعدد الأغراض، والذي يشمل مركزا أنيقا وفخما للتسوق مع أماكن للترفيه. وشيد مصممو أركاديا مساحات داخلية بشرفات زُينت حواشيها بالنباتات. وهناك شاشات ضخمة تقدم باستمرار أغنيات فيديو وألعاب أطفال، كما أن المطاعم والمقاهي في مركز التسوق ساهمت في نجاحها.

وتقترب هذه المعالجة الجديدة للفراغات الحضرية من حي شبرا، وهي واحدة من أقدم الأحياء الشعبية في القاهرة. ولم تنج شبرا من براثن هذا التغيير، حيث إن هناك ما يشبه مركز التسوق والذي يُطلق عليه الأمير (يتكون من محلات مُكدسة بجانب بعضها البعض) وتم افتتاحه في عام ٢٠٠٢. وكما تلاشت بولاق القديمة، فإن بولاق جديدة ولدت من أنقاضها. واستهلت العملية العدوانية "التنظيف" ثم تلاها التحديث في عهد السادات (١٩٧٠-١٩٨١) وذلك عندما قررت الحكومة إعادة توطين خمسة آلاف أسرة من أسر الطبقة العمالية من بولاق في منطقة المساكن الشعبية بالزاوية الحمراء. وتقول فرحة غنام إن الدولة قامت بتبرير الإقصاء الجبري بتقديم صورة بولاق المتطورة، والحديثة، مقابل بولاق الإجرامية،

وبولاق الدهماء التقليدية القديمة. وكان السادات يتم تصويره كبطل للتحديث والتجديد الروحي (غنام ٢٠٠٢، ٣٥؛ برجاء الرجوع إلى الجزء الخاص بفرحة غنام في هذا الكتاب أيضًا).

مدينة نصر، ومدينة التسوق

يثير مثال مدينة نصر العديد من الأسئلة لهؤلاء المهتمين بالنزعة الاستهلاكية في مصر. فقد شهد الحي زيادة درامية في أعداد مراكز التسوق، والتي تبدو على الإجمال ولسبب ما، أكثر نجاحًا من تلك المتواجدة في أي حي آخر. وافتتحت مُعظم هذه المراكز في سنوات التسعينيات. وبتواجد ثمانية مراكز تجارية تتصدر مدينة نصر الأحياء بأكبر عدد من هذه المؤسسات الضخمة، إذا ما أضفنا إليها مول الحرية الواقع في حي مصر الجديدة القريب منها. وعلى الرغم مما سبق، فإن حي مدينة نصر به أكبر تركيز للمؤسسات العسكرية، والمساكن المشيدة بدعم من القوات المسلحة. فهي تضم المركز الرئيسى للقوات المسلحة (القيادة المركزية)، والأكاديمية العسكرية (الكلية الفنية العسكرية، ووزارة الدفاع، والعديد من أندية ضباط القوات المسلحة، وجهاز الأمن المركزي للدولة (أو مباحث أمن الدولة)، والتي انتقلت إليها حديثًا من ميدان لاظوغلي، ومجمع المصانع الحربية. كما يضم الحي المتحف الحربي، والمستشفى العسكري، والكثير من المُجمعات السكنية للعسكريين. كما أن الجيش يملك عددًا من الفنادق في المنطقة.

وتخلص الجيش تدريجيًا بالبيع من معسكراته وقواعده الضخمة، الواقعة على أطراف الصحراء، للمدنيين، حتى أصبحت مدينة نصر الحي الذي نشهده اليوم. ويوجد بالطريق الرئيسى الذي يؤدي إلى مطار القاهرة الدولي بمدينة نصر، مجمعات سكنية لمبان شاهقة تسمى العبور، وشُيدت بعد الانتصار في حرب عام

١٩٧٣ كمساكن لضباط القوات المسلحة (كما أن اسم العبور يحمل مغزى يحتفي بقدرة القوات المسلحة المصرية على مباغتة الجيش الإسرائيلي وعبور قناة السويس من أجل شن حرب عام ١٩٧٣). ثم بيعت هذه الشقق للأفراد العاديين.

ويوضح لنا هذا التركيز الشديد للمراكز العسكرية في المنطقة، مشاعر الشك والمقاومة العنيفة التي قُوبلت بها عندما شرعت في العمل الميداني مع المساعدين لي. وأفاد الكثيرون من المديرين وضباط الجيش المتقاعدين أن المخابرات الإسرائيلية قد قامت باستخدام مراكز التسوق التجارية لأغراض "التجسس". ويبدو مستحيلاً من الناحية العملية، وحتى اليوم، الحصول على خريطة لحي مدينة نصر توضح مواقع كافة المؤسسات العسكرية المتواجدة فيها. وتتميز عملية القيام ببحث عن مراكز التسوق في القاهرة بحساسية سياسية شديدة، كما أفادني العديد من المديرين. ولكنني ما زلت أتساءل عما إذا كان هناك رابط غير مباشر بين شغل القوات المسلحة الممتد لأراضي مدينة نصر والثقافة الاستهلاكية - وهل تنامي النزعة الاستهلاكية في هذه المنطقة مجرد مصادفة بحتة، أم تلعب القوات المسلحة دورًا متناغمًا في هذا الصدد؟

خصخصة الجيش

قيل الكثير عن خصخصة الجيش في السنوات الأخيرة، أو بالأحرى أن يصبح الجيش مدنيًا عن طريق اقتحام مجال الأعمال وعالم الأموال. ولقد توقع الكثيرون ومنذ قامت مصر بتوقيع اتفاقيات كامب ديفيد للسلام في عام ١٩٧٨ أن يتقلص دور الجيش. وبدأ الكثير من ضباط الجيش المتقاعدين في الالتحاق بأعمال مشروعات الأمن الغذائي (الجمعيات) والأعمال الأخرى (وبعضها يتمركز في منطقة الصناعات العسكرية في مدينة نصر) التي استهلتها الحكومة، وذلك في

أوائل سنوات الثمانينيات مع تلاشي احتمالات النزاعات العسكرية. وتحول الكثيرون من الضباط المتقاعدين الآن إلى رجال أعمال ناجحين. وقد فسر أنور عبد الملك (١٩٧١) ببراعة استمرار وتضخم دور العسكريين في الحياة المدنية والحياة الثقافية وشركات القطاع العام بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو. واستمرت هذه الأنماط من الممارسات في الحدوث لأن وجود العسكريين في الإدارة المدنية والحكومية لا يزال محسوسًا حتى اليوم. ويبرهن إريك دينيس على أن الهيكل الإداري لمدينة القاهرة لا يزال يدار بواسطة العسكريين. فقد كان ثلاثة من محافظي القاهرة والجيزة من المتقاعدين من الرتب العسكرية العليا لضباط الجيش ***(Denis 1998)***.

ويعتبر مركز العقاد مول في مدينة نصر هو المثال الحي على كيفية تحول العسكر إلى الحياة المدنية. وتم تشييد هذا المركز التجاري عن طريق جمعية ضباط الحرس الجمهوري (نخبة من مجموعة الضباط المناط بهم حماية رئيس جمهورية مصر) والتي قامت ببيعه مؤخرًا إلى مجموعة من الأفراد. وتم افتتاح المركز التجاري في عام ١٩٩٩ والشخص الذي قام بتشييده هو لواء متقاعد. وما زالت قطعة الأرض المخصصة لمجمع ستة مبان، والذي يتكون من العديد من الشقق السكنية، مملوكة للحرس الجمهوري، والشقق نفسها تقطنها عائلات الحرس الجمهوري. وتبلغ مساحة سطح مركز العقاد التجاري ٣٠,٠٠٠ متر مكعب، وتضم ٢٥٠ محلاً تجاريًا تتراوح مساحتها ما بين ١٥ إلى ٢٢٠ متر مربع. وهناك ثلاث مداخل بأبواب إليكترونية ومصاعد، وموقف للسيارات تبلغ مساحته ١٠,٠٠٠ متر مربع. وشُيدت بعد، كتفاعل مع تشييد، طيبة مول المملوء بوسائل التسلية. ويفسر المدير قيام الملاك عن عمد باستبعاد تصميم حجرات للبلياردو، والفيديو جيم، والسينما، والمطاعم لأن المركز التجاري لا تتوافر فيه مساحة كافية من أجل تركيب المصاعد المتحركة لراحة العملاء. وأطلعونا، على أن مصممي هذا

المركز، كانوا يستهدفون أساسًا جذب العائلات للتسوق. وتم عرض المحلات للبيع فـــي البداية، ولكن ارتفاع الأسعار كثيرًا أدى إلى تأجير ثلثي هذه المحلات بدلاً من البيع.

وسواء استمرت هيمنة العسكريين على الحكومة المصرية بعد نهاية نظام حكم مبارك أم لا، فإن رؤية العامة للموظفين من العسكريين المتقاعدين لا يزال محسوسًا في كل مكان. وقام الكثير من العسكر المتقاعدين، على سبيل المثال، بتكوين شركات أمن خاصة، وفي الواقع، فإن الكثير من المراكز التجارية تقوم بتوظيفهم. وليس من المستغرب، أن نجد جنرالات متقاعدين يجلسون في مداخل بهو المراكز التجارية لمراقبة المارة والإشراف على الحراسة الخاضعة للقطاع الخاص. ويعتبر هذا الأمر منطقيًا حيث إن هؤلاء الموظفين العسكريين هم أفضل المرشحين لفرض القانون والنظام. ويرى البعض أن شركات أمن القطاع الخاص ظاهرة أمريكية تبنتها مصر. وتدار بعض مراكز التسوق التجارية بواسطة ضباط الجيش المتقاعدين، بعيدًا عن شركات الأمن الخاصة. ويتم إدارة طيبة مول في مدينة نصر، على سبيل المثال، عن طريق عقيد متقاعد، كما هو الحال في كايرو سنتر، على الرغم من أن ملاك المركز الأخير هم من رجال الأعمال، والمقاولات، والمهندسين المدنيين. وتحتاج شركات الأمن الخاصة إلى تعيين حراس، ويحتاج مركز في حجم العقاد مول في مدينة نصر إلى ما يقرب من ١٥٠ حارس أمن. ويحصل حارس الأمن على مرتب متواضع يتراوح بين ٢٥٠- ٣٠٠ جنيه مصري كل شهر(٥). وهم مسئولون عن ضبط حالات التحرش الجنسي، وهي من الشكاوي المعتادة في مثل هذه المراكز كلها، وعن سرقة البضائع من المحلات. وعلى الرغم من المراقبة المستمرة عن طريق كاميرات المراقبة التي تقوم برصد المكان بأسره عن طريق موظفي الأمن، فإن سرقة البضائع تظل مشكلة معتادة ومؤرقة للأذهان.

وينحدر معظم موظفي الأمن في طيبة مول من صعيد مصر. ويبيتون ليلاً في مأوى السيارات الخاص بالمركز ليعودوا إلى قراهم مرة واحدة فقط كل شهر. بل إن بعض الحراس هم من خريجي الجامعات، ومع معدلات البطالة المرتفعة للشباب، وخاصة بين المتعلمين، فإنهم يائسون من القدرة على الحصول على أي عمل آخر.

مدينة نصر وثقافة المراكز التجارية

يرجع الكثيرون نجاح مثل هذه المراكز التجارية إلى بساطة شبكة البيئة لهذه المدن التابعة المنشأة حديثًا نسبيًا على حواف الصحراء. ويمكن وصف مدينة نصر كتنظيم هندسي من صفوف علب الكبريت التي تصطف على أطول شوارع القاهرة، مثل شوارع مصطفى النحاس، والطيران، وعباس العقاد. وتتكون هذه الشوارع من عدة كيلومترات طويلة، ومتسعة، وتتقاطع معها شوارع ملتوية ومتعامدة. وتوسعت مدينة نصر، في الوقت الذي كان الجيش وشركاؤه من القطاع الخاص يقومون بتطوير أحياء جديدة، ويتجهون بتوسعاتهم حيًا بعد الآخر نحو الصحراء. وليس للمدينة قلب، ولا مركز، ولكن هذا العيب الواضح لا يبدو أنه يثير ضيق أي شخص. ونتيجة لذلك، فإن الشوارع أكثر اتساعًا، كما أن متوسط مساحة الشقق أكبر منها في أي مكان آخر بينما تكون أسعار العقارات بالتحديد أكثر رخصًا عن تلك المناطق المرغوبة في مناطق الطبقات المتوسطة والدنيا، مقارنة بمناطق المهندسين والزمالك الأقرب إلى قلب المدينة. والأكثر من ذلك أن المخططين في مدينة نصر قاموا بإضافة مساحات خضراء، ومنتزهات، مثل الحديقة الدولية.

ومع ذلك، فإن مدينة نصر مشهورة بالنسبة لأغلب سكان القاهرة بمحلاتها التجارية المتنوعة التي لا نهاية لها، وأماكن الترفيه، والمطاعم، والمقاهي، ودور السينما. ولكنها تعني للكثيرين، بحداثتها، وبشكلها الغامض كرمز لأذواق هؤلاء المهنيين من الطبقة المتوسطة والذي قضوا العقدين الأخيرين، إن لم يكن أكثر كعمالة مهاجرة في الدول المنتجة للبترول. وقام هؤلاء العمال الذين كانوا مهاجرين في السابق بشراء عقارات في مدينة نصر بينما يحققون نجاحًا، ويمكن أن يشم الكثيرون مدينة نصر كمكان له "رائحة النقود الجديدة". وهي ترمز لثقافة ضاحية الثراء الجديد في القاهرة والتي تأثرت بأسلوب الحياة في الخليج. ولكن لماذا كانت مراكز التسوق الموجودة في مدينة نصر أكثر نجاحًا ولازالت، عن الموجودة في المناطق الأخرى؟ ففي أيام العطلات أو في ليالي الصيف، فإنها تظل مرغوبة للغاية. وتظهر المقاهي، ومطاعم الوجبات السريعة، وردهات مركز التسوق مكتظة بروادها حتى وقت متأخر من الليل. أما دور السينما وأروقة الأطفال فتظل مملوءة عن آخرها أيام الخميس والجمعة.

ويستمع المرء لتفسير واحد فقط أن ثقافة المركز التجاري قد وردت للقاهرة من الولايات المتحدة الأمريكية عبر دول الخليج المُنتجة للبترول، حيث إن المركز التجاري هو في الأصل اختراع أمريكي. بينما يرى آخرون أن النسخة القاهرية من المركز التجاري هي نتيجة للتأثير السعودي على العادات والأذواق المصرية والجمهور الجديد الذي تم تكوينه في مصر من العاملين المهاجرين السابقين. ويشير بعض المصريين، في حقيقة الأمر، إلى العاملين السابقين والعائدين من دول الخليج المُنتجة للبترول والذين يتوافدون بصفة خاصة إلى مراكز التسوق بلقب "نفطي". واعتاد هؤلاء العائدون قضاء أوقات فراغهم في أماكن مغلقة، وداخل جدران فاصلة، ومكيفة الهواء للهروب من ظروف الطقس الشديدة القسوة للخليج الفارسي. ويتردد العرب من دول الخليج المُنتجة للبترول على مراكز التسوق

طوال الصيف. وتُرى دائمًا نساء في أردية طويلة سوداء وهن يقمن بتدخين النرجيلة في المقاهي الراقية. ويعتبر مركز التسوق "فرست مول" في الجيزة واحدة من أغلى أماكن التسوق في القاهرة، ويلبي طلبات عملائه من عرب الخليج العربي. وفيما يتعلق بمنافسة المملكة العربية السعودية أو رفاهية الخليج في مدينة نصر على أرض المعارض بمدينة نصر، شُيدت "مدينة للثلج" في تقليد لما أخبرني به مصدر معلوماتي بافتنان عرب الخليج بإقامة ألعاب الثلج، وحلبات التزلج على الجليد في وسط قيظ الصحراء الحارقة. ويستأجر الجمهور الزائر لمدينة الثلج ملابس الشتاء الثقيلة ليتزلج على الجليد في وسط تماثيل ثلجية باردة لبرج إيفل، والبيت الأبيض، والكرملين، والأهرام، وأبو الهول، وأبوسمبل.

إذا كان البدء في تشييد المراكز التجارية في أمريكا له علاقة وطيدة بأسلوب الحياة في الضواحي والتي أثيرت مع مشكلة عمر السيارة وثقافة الترفيه أثناء ركوب السيارة كمشاهدة السينما والمسرح وتناول المرطبات من المحال، وربما تكون مدينة نصر هى المثال الأفضل لتطبيق مثل هذه التجربة *(Jackson 2000)*. وفي حقيقة الأمر تعتبر مدينة نصر هي الضاحية المثالية لتطبيق تلك الأمور، كما أن الحالة الاقتصادية لقاطنيها تسمح للكثيرين منهم بامتلاك سيارات. وتمتلك مراكز التسوق الكبرى في مدينة نصر مثل جنينة، وطيبة، والسراج، جراجات ضخمة، وأماكن مخصصة لإيواء السيارات، والتي يراها الكثيرون ميزة هائلة. ويعتبر التسوق في مدينة نصر أسهل كثيرًا لقاطني حي المهندسين، والذي يعتبر أقرب نسبيًا لوسط المدينة، بدلاً من القيادة لوسط المدينة حيث يعتبر إيجاد مكان لإيواء السيارة محنة حقيقية.

وفتتح مركز تجاري للتسوق في مدينة نصر لخدمة المصريين أصحاب السيارات في عام ٢٠٠٥عندما قامت شركة تنمية تجارية تسمى "جولدن بيرامدز بلازا" والتي تديرها عائلات "الشربتلي والشبوكشي" وهي عائلات من السعودية،

بشراء ١١٥،٠٠٠ متر مربع من الأرض عند نقطة التقاء أحياء مدينة نصر ومصر الجديدة وذلك من أجل افتتاح مركز سيتي ستارز ;*Mitchell 2002* *Mostafa 2003, 61*(٦). وكانت واحدة من أهم الدوافع لتصميم مثل هذه المراكز الجديدة هي إرضاء متسوقي سلع الرفاهية في القاهرة، ولذا فإنهم لن يحتاجوا إلى الطيران إلى دبي من أجل التسوق لمثل هذه السلع *(Mitchell 2002)*. وصفت الصحافة المشروع الجديد في حي مدينة نصر بأنه مدينة داخل المدينة، كما تضم أيضًا مركزا عالميا للمؤتمرات، ومساحات ضخمة للتسوق بالتجزئة لمنافذ التجزئة العالمية. وكان الإعلان عنها يتضمن الآتي:

> **يضم تصور مخطط المشروع مجمعًا يشمل ثلاثة فنادق من فئة النجوم الخمس، ومساحة ٧٠,٠٠٠ متر مربع للمكاتب، كما تضم ٢٦٦ شقة فاخرة، وكلها ترتكز على مركز تجاري يضم ٥٥٠ محلاً تجاريًا. ويعتبر مركز التجزئة أكبر من أي مركز تجاري آخر في الشرق الأوسط أو في أوروبا، وهو في الحقيقة أكبر قليلاً من المركز التجاري العملاق في مينيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية. ويدد الداعمون لمشروع سيتي ستارز ما يقرب من ٧٥٠ مليون دولار في رمال مدينة نصر، ويتطلعون إلى الافتتاح الجزئي للمشروع في شهر نوفمبر (مصطفى ٢٠٠٣، ٦١).**

وشرع الآلاف من البشر يتقاطرون إلى هنالك كل مساء، وحتى قبل الافتتاح الرسمي لمركز سيتي ستارز في عام ٢٠٠٥، فقط للتجوال فيها. ويتأملون في عظمة هذا المشروع الاستهلاكي، وهم يتجولون فيها بلا هدف. وكانت الكافيتريات

ومطاعم الوجبات السريعة، وقاعات الطعام كلها مكتظة. كما كان رواق الأطفال البالغ الضخامة يعمل بكامل طاقته بنجاح هائل. وكان هناك قسم ضخم من مركز التسوق تم تصميمه كمحاكاة لبازارات خان الخليلي وتقوم بعرض نفس الأنواع من المجوهرات، والمشغولات اليدوية، والأنواع الأخرى التي تباع هناك – ولكنها أكثر نظافة، وأحدث، والطقس داخلها أكثر إنعاشًا بفعل مكيف الهواء عن تلك البازارات المتربة والمُشيدة منذ قرون عديدة. وسيكون من الأسرع والأكثر راحة للبال أن تتسوق منها، وعلى نحو محدد للطبقة المتوسطة إلى الطبقة الأرستقراطية الحادة المزاج من المصريين، إلى الخليجيين العابرين والعملاء الأجانب (حيث يقع المركز التجاري على بعد عشرين دقيقة من مطار القاهرة). ويُعد هذا المجمع، والذي يضم إلى جواره فندقا على مستوى عالمي، إعادة صنع مذهلة لواجهات فن هابط تحيط بها تماثيل فرعونية. ويعتبر سيتي ستارز بالتأكيد استلهامًا لمعبد فرعوني، فيما عدا أن المرء يتذكر على الفور أن هذا المعبد الاستهلاكي تحيط به إجراءات أمن مُشددة، مثل مراجعة كافة صناديق السيارات الخلفية عندما يقوم بإيوائها في الجراج الملحق به تحت الأرض.

وتتردد في دوائر الأعمال شائعات مفادها أن تشييد مراكز التسوق هو الوجه الآخر لعملة عمليات غسيل الأموال غير الشرعية. ولقد استخدمت المراكز التجارية والمشروعات الضخمة للحصول على قروض مصرفية بالغة الضخامة، والتي بعدئذ يتم تهريبها إلى خارج البلاد، وينتج عنها سلسلة من الفضائح المالية وعمليات القبض على رجال الأعمال. وربما يفسر لنا هذا الأمر، كيف أنه وعلى الرغم من فترة العمر القصيرة للمراكز التجارية، فإنها آخذة في الانتشار على وتيرة متسارعة. ولكن، كيف يتسنى لهذه المشروعات البالغة الضخامة أن تستمر على قيد الحياة مع هذه المعدلات المُخيفة من الكساد؟ لا يمكن لأحد على وجه اليقين أن يجيب على هذا السؤال حتى الآن.

ويمتلك مركز "السراج مول" للتسوق التجاري" مهندس، ويتم إدارته بواسطة مدني حاصل على بكالوريوس في الآداب، ولكنه كان يعمل في إدارة مراكز التسوق لفترة بلغت سبعة عشر عامًا. وبدأ حياته المهنية في مركز اليمامة سنتر للتسوق بالزمالك. ولقد افتتح السراج مول في عام ١٩٩٩، وتتكون منطقة التسوق من ثلاثة مجمعات متصلة مع بعضها البعض عن طريق ممرات، وثلاثة طوابق من المحلات، تعلوها عشرة طوابق من الشقق السكنية. ويعتبر كل مجمع مبنى مستقلا بذاته ويتصل بممر مع المبنى الذي يليه، وفي كل منها ما يقرب من مائة محل. وتوجد بالمركز التجاري ثلاث دور للسينما، وستة مقاهي، وسلالم ميكانيكية متحركة، ومصاعد، وأماكن كافية لإيواء السيارات تسع مائتي سيارة، وحجرات لألعاب البولينج والبلياردو، وألعاب الفيديو جيم وألعاب الليزر، وقاعة جيمانيزيوم، وشاشات عملاقة، وأروقة للأطفال. ويمنح المركز التجاري انطباعًا بأنه مكان مكتظ وبأن كل محل تجاري يجاوره آخر، حيث إنه ليس هناك مركز حقيقي. وهناك محلات مؤجرة وأخرى مباعة للأفراد والشركات. وهناك أيضًا مرة أخرى كاميرات مراقبة في كل أنحاء المركز التجاري كما يتم تسجيل شرائط فيديو لكل بقعة في المركز التجاري باستمرار.

وشيد المركز التجاري "جنينة مول في شارع عباس العقاد في عام ١٩٩٨، باشتراك خمسة من الملاك الأساسيين وبدعم من العديد من البنوك. وبدا وكأنه المركز التجاري الأكثر شعبية في مدينة نصر. ويُعد محمد جنينة هو مدير الشركة وأكبر المساهمين فيها، وبالمركز ٧١٨ محلاً تجاريًا، تتراوح مساحتها من ما بين ٦ إلى ٨ متر مربع ويصل بعضها إلى ٣٥٠ مترا مربعا. ويضم المركز ٦ دور للسينما، وخمسة من المقاهي، وحجرة بلياردو واحدة، وحلبة للتزلج، ومركز تجميل، وملعب، ورواق للألعاب.

وافتتح مركز سيتي سنتر والذي يقع على طريق الأوتوستراد في عام ٢٠٠٢، وقامت بتشييده شركة آفاق، التي تمتلك المركز التجاري. وهي شركة مقاولات متخصصة في بناء الأبراج العالية. وبه أكثر من مائة محل، وكلها مؤجرة، وبمعدل واحد إلى ثلاثة من العاملين في كل متجر. ويعمل بالمركز، بما فيه المطاعم والمقاهي ما يقرب من خمسمائة عامل. ويحتل الطابق الأرضي منه معظم التوكيلات العالمية مثل نايك، وأديداس. ويفتح مركز سيتي سنتر أبوابه في العاشرة صباحًا، ويبدو أن العائلات هي أول الحضور من العملاء، ويليهم كبار السن، ثم الطلاب والشباب الصغار. وينتظم الأوروبيون والعرب الأجانب في الحضور إلى المركز التجاري في شهور الصيف.

وافتتح المركز التجاري في عام ١٩٩٥، وهو واحد من أصغر المراكز التجارية، وبه فقط خمسون محلاً تجاريًا والقليل من العاملين، وعلى العكس من المراكز التجارية الأخرى، فإن مديريه يقومون بالإشراف على الأمور الجمالية، ويقومون بالتركيز على عمليات التسوق نفسها. وقاموا بتحديد عدد محلات الأحذية على سبيل المثال، لأن هناك العديد منها في كل مكان (تهيمن محلات الأحذية على منطقة وسط القاهرة حيث توجد المئات منها).

ويعتبر مركز وندرلاند مول خير مثال للمراكز التجارية الميتة. فقد أفلست العديد من المحلات فيه وأغلقت أبوابها. ويشمل المركز ٣١ محلاً تجاريًا، و٢ من المقاهي، و٢ من المطاعم (بما فيها مطعم كنتاكي)، وملهى للرقص، وثلاث دور للسينما، ومقهى للإنترنت، ومركزا للكمبيوتر. واستمر نجاح المركز لعام واحد فقط، ثم تدهورت أوضاعه في السنوات القليلة الماضية، حيث وصلت الإيجارات إلـى ٣٠٠٠ جنيه مصري، وفي بعض الحالات إلى أرقام فلكية بلغت ٦٠٠٠ جنيه مصري.

ويقول أصحاب المتاجر إن الأزمة الاقتصادية قد بدت محسوسة بوضوح حيث تراجعت أعداد العملاء في رواق المركز التجاري وفي حديقة الملاهي وبشدة. واكتسب المركز سمعة طاغية، في نفس الوقت، بأنه ملتقى للمراهقين والمراهقات من الشباب، حيث يتواعدون فيه، ويعتبر ذلك في عُرفِ الكثير من المصريين أمرا غير مشروع وغير لائق. ويفتح المركز أبوابه من الساعة الحادية عشر صباحًا وحتى الساعة الثانية ليلاً. وينجذب العامة بصفة أساسية إلى داري السينما والملهى، والذين يرتادهم عملاؤهم من الشباب المراهق الذين يتراوح أعمارهم من ١٤-١٨ سنة من العمر. ويُلقي الكثير من أصحاب المحلات باللائمة على السمعة الرديئة للمركز التجاري وعلى الجرائم الصغيرة والتحرش الجنسي. ويقال، إنه في أحوال نادرة يكون أفراد الأمن أنفسهم هم مصدر التحرش الجنسي.

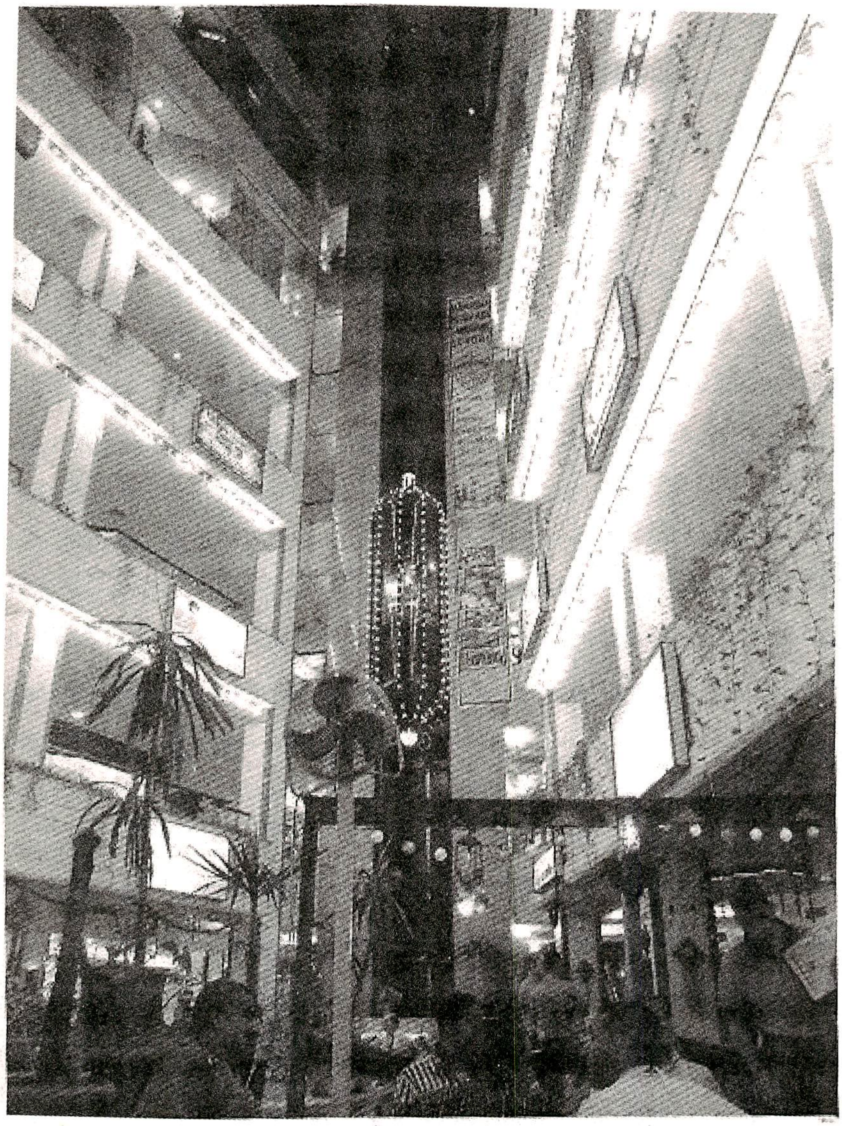
المـــراكـــز التجارية في وسط المدينة والتسوق في مراكز الضواحي التجارية عبر الطريق الدائري

تعتبر المراكز التجارية في مدينة نصر، من وجهة النظر المعمارية، هي الأكبر حجمًا والأكثر رحابة واتساعًا في المدينة، مما يؤهلها لتكون مراكز ملائمة. وعلى النقيض من ذلك، فإن العديد من المراكز التجارية في وسط المدينة والعالية الكثافة للمناطق التجارية، مثل شبرا وبولاق، صغيرة للغاية، مما لا يؤهلها من ناحية الشروط العامة أن تكون مراكز تجارية. فعلى سبيل المثال، شملا، وهي إحدى المتاجر الكبرى المتعددة الأقسام، تحولت إلى مركز مثير للكآبة عن طريق تقسيم البهو الرئيسي إلى أجزاء، وحشر محل تجاري في كل بوصة من المكان، ومن الناحية العملية لم تترك بوصة واحدة من أجل الراحة أو الاستجمام. واتبعت نفس السياسة في متاجر عمر أفندي فرع شارع عبد العزيز بالقرب من ميدان عابدين في وسط مدينة القاهرة القديمة.

وتتميز الهندسة المعمارية، والديكور، والواجهات للمراكز التجارية الجديدة بمحاولاتها محاكاة المباني التي يمكن أن تراها في أماكن أخرى. وتبدو هذه التأثيرات وكأنها قادمة من كل من دول الخليج وجنوب شرق آسيا. وقد صرح مدير المركز التجاري بالمعادي جراند مول، في حقيقة الأمر، بأن ملاك المركز كانوا قد سافروا إلى جنوب شرق آسيا واستلهموا التصميم المعماري من هناك. ويتكون المركز التجاري بالمعادي جراند مول من ستة أدوار، بها ٤١٠ محلاً ويعمل بها ما يقرب من ١٤٠-١٥٠ عاملاً، بدون عمال الصيانة. بل ويبدو أن المقاولين، قد شاهدوا أفلام فيديو عن المراكز التجارية الأجنبية، وقاموا باستلهام فكرة نافورات البهو من الشرق الأقصى. واستحضر مهندسو المركز التجاري وندر لاند مول نظرة هوليود إلى الشرق. ووصف النمط السيئ لمركز وندر لاند مول بأنه من طراز السندباد على حد قول مديريه وملاكه. ويقع المركز بالقرب من ملاهي مصرية على غرار ديزني لاند (مدينة ملاهي).

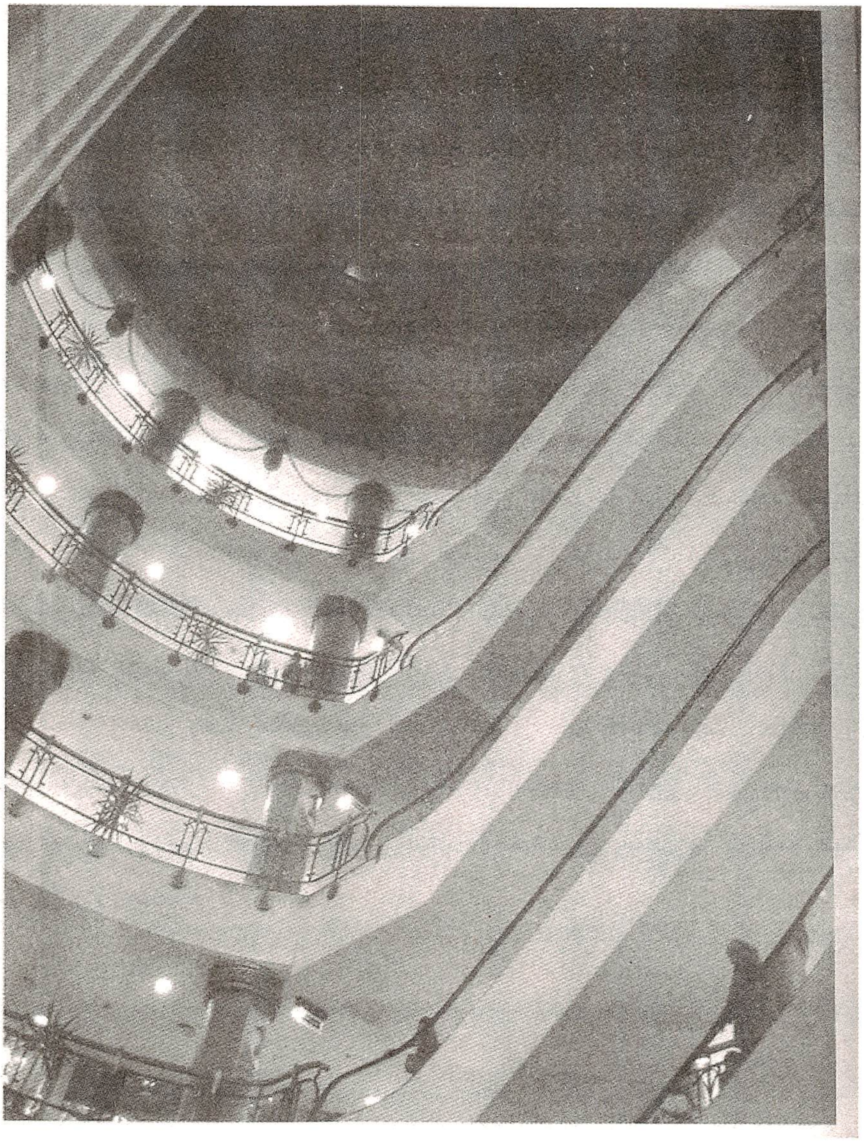
وتذكرني واجهات بعض المراكز التجارية، مثل جنينة مول، بمصاعدها الزجاجية الشفافة، بالمراكز التجارية في جنوب شرق آسيا في كوالالامبور، وسنغافورة، وجاكارتا. ويجعل التقارب الشديد للمراكز التجارية أن يقوموا بتدبير المكائد لبعضهم البعض. ويتفق معظم مديرى هذه المراكز على أنهم لا ينافسون بعضهم البعض، لتنوع العملاء الذين يترددون على هذه المراكز وتنوع نوعية البضائع في كل منها، واختلاف الأسعار من مركز لآخر. فعلي سبيل المثال، فإن مركز طيبة مول، هو مركز تجاري للعائلات طبقًا لأقوال مديره، بينما تجتذب جنينة مول بحلبة التزلج الضخمة لديها، وقاعات البولينج، ومركز البلياردو، وألعاب الكمبيوتر الأجيال الأصغر سنًا. بينما يتمتع المركز التجاري وندر لاند مول بسمعة غير طيبة لأنه يجتذب العشاق الصغار من الجنسين والذين يلتقطون بعضهم البعض هناك ومن المرتادين للملاهي. ويتنافس السراج مول بمساحته التي

تبلغ ١٤,٠٠٠ متر مربع، على المركز الثاني في الحجم مع جنينة مول، وعلى الرغم من أن مديره يصر على أن المركز في الحقيقة هو الأكبر في القاهرة بأسرها. ويبلغ حجم جنينة مول ١٢,٠٠٠ متر مربع، ويضم حلبة ضخمة للتزلج على الجليد، ومأوى لعدد ٨٠٠٠ سيارة. كما تضم تصميمات السراج، وجنينة، وسيتي سنتر، والعقاد، وحدات سكنية تعلو الوحدات التجارية، وأغلبها شقق سكنية.



"معادي جراند مول" وقد استلهم تصميمه من أنماط جنوب شرق آسيا
(تصوير منى أباظة)

وقامت هذه المراكز التجارية الجديدة ليس فقط بإدخال تصميمات جديدة للأماكن التجارية، ولكنها أيضًا قامت بإلزام عملائها بمتطلبات محددة من حيث السلوك والالتزام بأزياء محددة. ووضعت بعض المراكز التجارية، مثل مركز التجارة العالمي (وورلد تريد سنتر)، والحرية مول، قيودا محددة على دخول هؤلاء الذين يرتدون الجلابيب، والأزياء الطويلة التي يرتديها الفلاحون والطبقات الدنيا في غالب الأمر، عندما بدأ إجراء بحوث هذا الكتاب في عام ١٩٩٩. وتم على الأرجح رفع هذه القيود لاحقًا، نظرًا لتدفق الزائرين من دول الخليج، والذين يرتدون في المعتاد الجلابيب البيضاء التقليدية، سواء كانوا في سبيلهم لعقد صفقات عمل، أو في رحلات تسوق[٧]. وقد صرح المدير العام لمركز أركاديا التجاري بأنه أعطى تعليماته لموظفي الأمن القائمين على الأبواب بفرز الداخلين من العامة ببساطة عن طريق الشكل. ويعتبر ارتداء الجلباب، والأحذية الخفيفة (الصنادل)، والمظهر "البلدي" للملبس، أسبابا كافية ومقنعة لمنع من يعتقد أنهم من المتطفلين من العامة من منطقة السبتية الشعبية، والذين على حد قوله تسببوا في مشاكل جمة في صيانة المركز التجاري. وطبقًا لما يقولــه المدير، فــإن هــؤلاء العامــة، غالبًا ما يقومون بسرقة المصابيح الكهربية واللوازم الموجودة في الحمامات. ويعتبر هؤلاء من غير المرغوب فيهم من الفئة د، بينما المركز يرغب في "جذب الزبائن من الفئة أ و ب"[٨]. ومع ذلك، فإن المراكز التجارية لمدينة نصر ليست في أناقة الفورسيزون البالغ الفخامة، حيث يوجد القليل جدًا من المتسكعين، وحيث الدهماء ومجموعات الشباب الصغار غير مُرحب بهم بوضوح. ولكن ومع مرور الزمن، فإن بعض المراكز التجارية مثل طلعت حرب والبستان في وسط المدينة أصبحت "بلدي" إلى حد كبير عن طريق جذبهم لجماعات من المتسكعين ليلاً.



ردهة طيبة مول (تصوير منى أباظة)

وتقوم معظم المراكز التجارية إن لم تكن جميعها بتأجير محلاتها التجارية، باستثناء أركاديا مول الذى يقوم بتمليك ٩٠% من محلاته. وتختلف القيمة الإيجارية للمحل من مركز لآخر، لأن هناك فروقا واضحة بين المراكز "البلدي"، والمراكز الشيك (أباظة ٢٠٠١). وبينما أصبح مركز "وورلد تريد سنتر- أو مركز التجارة العالمي" – مركزًا للأشباح، فإن فرست مول الملاصق لمجمع الفندق الفخم الفورسيزون يعتبر اليوم واحدًا من أفخم المراكز التجارية في المدينة. وتدهورت القوة الشرائية للكثير من المصريين، ومع الركود الاقتصادي وتخفيض قيمة الجنيه المصري منذ عام ٢٠٠٣، لم يعد في مقدور المصريين التسوق هنالك. وعلى الرغم من ذلك، فإن في مقدورهم وبالتأكيد التحديق في فاترينات هذه المحلات مجانًا. وتقدم هذه الأماكن العامة سُبلا جيدة لأي مجموعة من الأصدقاء لقضاء الوقت، والتمشية في الطرقات المكيفة الهواء، وركوب المصاعد الكهربائية المتحركة صعودًا وهبوطًا، وربما الاستمتاع بشطائر الفول أو الدجاج. ويعتبر مركز طلعت حرب واحدا من المراكز التجارية الناجحة، وعلى سبيل المثال، لأنه يكتظ بالبشر وحتى وقت متأخر من الليل، كما أن بهو قاعاته يضم خليطًا من مطاعم الوجبات السريعة- مثل سلسلة المطاعم الشعبية "التابعي" التي تقوم ببيع أفضل شطائر الفول والطعمية (طعام الفقراء) حيث إن أسعارها مرتفعة قليلاً ولكنها لا تزال محتملة.

ويعتبر المركز التجاري أكثر نظافة بكثير من الشارع .... ولدرجة معينة فإن العميل في المركز أكثر رقيًا عن رجل الشارع العادي.

مدير محل في العقاد مول

يحب العميل البضائع المستوردة – حتى ولو كانت البضاعة المصرية المتوافرة من نوعية جيدة، ويفضل العميل المستورد على وجه العموم.

سيلفي – صاحبة متجر بمركز سيتي سنتر مول

المركز التجاري تحت السيطرة... ولكن الشارع لا... ويمكن أن يسود الهرج والمرج في الشارع.

صاحب محل في العقاد مول



التجوال، والتسوق، والتسكع في مركز طلعت حرب التجاري

(تصوير منى أباظة)

الشوارع دائمًا مزدحمة... ويستغرق الأمر الكثير من الوقت حتى يمكنك الدخول إلى أي محل... بينما هنا في المركز التجاري فإنه يضم تجمعًا للعديد من المحلات المتنوعة.

مهندس في الثانية والأربعين من عمره قابلناه في العقاد مول

هناك العديد من المحلات الشهيرة خارج المركز التجاري، ولكنها مزدحمة... ولكن المول أفضل وأكثر أمانًا عن المحلات خارجها.... المكان هنا أكثر نقاءً.... كما أن الناس هنا أكثر أناقة.. وهم عملاء موثوقون بدرجة أكبر.

صاحب متجر في العقاد مول

إن المول هو مكان طيب. وهو مكان عظيم للشباب. كما أنه أكثر تنظيمًا.

أحمد علي، ١٨ سنة، طالب طب من مدينة طنطا وزائر مستديم للقاهرة، وكايرو مول بالجيزة

المول أكثر أمانًا، كما أنه يقدم فرص عمل أكثر للشباب، وهو أفضل بالطبع من الشارع.

علي السيد، مهندس، كايرو مول.

المول أرقى وأنظف من الشارع، على الرغم من أن الأسعار يمكن أن تكون أغلى.

محمد عبد الله، صاحب متجر، محل جريجور، كايرو مول، الجيزة.

كانت معظم آراء العامة عن زيارة المراكز التجارية والتسوق فيها مدعاة للدهشة البالغة وكلها متفائلة وإيجابية. وعبّر الكثيرون منهم عن رضاهم عن إجراءات الأمن المُشددة. ولقد عبر الكثيرون منهم، في حقيقة الأمر، عن تقديرهم لهؤلاء الأفراد، كما أبدى القليل منهم مشاعر القلق من أن هؤلاء العاملين ذوي الأجور الضئيلة، يمكن الحد من حريتهم أو محاولة التحكم فيهم. وتعتبر القاهرة مدينة آمنة، على وجه العموم سواء كنت تسير في الشوارع أو داخل إحدى المراكز التجارية. ولكن لم يبد على أي شخص مشاعر الانزعاج من أن هذه المراكز التجارية العامة تحت المراقبة بأفلام الفيديو التي يتم تصويرها على مدار الأربع وعشرين ساعة. وتعتبر المراكز التجارية مُحببة طبقًا لأقوال من تحدثت إليهم، لأنها أكثر متعة وأنظف من الشوارع التي تتسم بالفوضى. ويمنح المركز التجاري شعورًا بالسمو والحداثة والحماية من العالم الخارجي. وأصبحت جنينة مول على سبيل المثال، جاذبة للزائرين من المناطق الريفية في مصر. وأخبرني أحمد علي، وهو أحد المتحدثين معي، والذي نقلت حديثه من قبل، بأن هناك حافلات تمتلئ بالزائرين من الريف تأتي للمركز من أجل التنزه، وإذا ما كان المرء يعيش في طنطا مثلاً، فمن المحتمل أن يأتي لقضاء اليوم بأكمله في زيارة المراكز التجارية والعودة في المساء(٨). وينظم العقاد مول عروض أزياء سنوية يحضرها الكثيرون، ويقوم بعرض أفلام ومسلسلات تليفزيونية في الغالب، كما أنه المكان الأفضل لتكون في المدينة. ويثور تناقض، على الرغم من ذلك، فمن ناحية يقول كل من قابلتهم إن المركز التجاري أكثر نظافة ويحمي المشاة من دهماء الشوارع، ويسود النظام في المركز التجاري، وإن المركز التجاري بالتحديد أكثر بهجة وحتى لو كان أغلى سعرًا. ومن ناحية أخرى، فإنهم يقولون أشياء من قبيل "إن المركز التجاري يدمج كل المستويات والطبقات من البشر"، أو إن المركز

التجاري فيه كل أنواع السلع، وأقل خصوصية وبالتأكيد أرخص من النادي"[١٠]. وهكذا فهو مكان مقصور على البعض، إذا ما كان المرء ينحدر من أصول شعبية، ولذا فإن المظهر الكاذب مطلوب؛ ولكن لأنها أقل تقييدًا وسيطرة من النوادي الخاصة، فإن المراكز التجارية أكثر جذبًا للشباب. وبمجرد أن يتم رصد الدهماء أو الأفراد مـــن الطبقات الدنيا بواسطة رجال الأمن، بأي طريقة من الطرق، فإنهم سيواجهون المتاعب.

وكشفت المقابلات التي قمنا بإجرائها أنه على الرغم من أن المراكز التجارية تنهار من الناحية المالية نتيجة للإيجارات العالية والركود الاقتصادي، فإن الكثيرين من مساعدي المبيعات يصرون على أن العمل في المركز التجاري أفضل منه في أي مكان آخر. وما يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن رواتب مساعدي المبيعات يبدأ من ١٥٠ جنيها ليصل أقصاه إلى ٤٥٠ جنيهًا، وبالتأكيد لا يمكن أن تصل إلى نصف ما يمكن أن تتقاضاه خادمة أجنبية في مصر. وعلى الرغم من أن بعض مساعدي المبيعات يمكن أن يحصلوا على عمولات تصل إلى ٧٥٠ جنيهًا فإن مرتباتهم لا يمكن أن تزيد إذا ما عملوا في متاجر خارج المراكز التجارية. وهم يفضلون، مع ذلك، العمل في المراكز التجارية، على الرغم من أجورهم المتواضعة نسبيًا، لأن أماكن العمل لديهم أكثر نظافة من الشوارع، كما أنهم يتمتعون بحماية أكبر. ويقولون إن الجمهور يتصرف بطريقة أفضل لأن كاميرات المراقبة تقوم برصد تحركاتهم، والأمن في كل مكان، بينما الشارع أكثر سوقية والهواء أكثر تلوثًا، والناس يهرولون من حولهم ويتصرفون بطريقة سيئة. ومن الواضح أن الأسعار المرتفعة في المراكز التجارية لم تمنع الناس مـــن التســـوق، أو علـــى الأقـــل من استعراض البضائع، حيث إنها تظل مكانًا أكثر تحضرًا وأكثر بهجة.

أصبح تلوث القاهرة، بالنسبة للكثيرين، عائقًا عن استعراض البضائع المعروضة في الفترينات والتجوال على غير هدى في الشوارع. وتجعل فوضى المرور من السير في الشوارع محنة حقيقية. وقال أحد البائعين: "لقد أصبح الطقس في مصر حارًا ورطبًا إلى درجة خانقة والغبار يملأ الهواء - الطقس ليس ثابتًا على وتيرة واحدة في مصر كما لا يمكن التنبؤ به". وهكذا فإن النجاح المالي للمركز التجاري أصبح متعلقًا بالكثير من جوانبه بحقيقة أن العملاء يفضلون اليوم التسوق في الأماكن المُكيفة الهواء، وبصفة خاصة في حرارة الصيف القائظ. ويبدو أمرًا مجافيًا للمنطق للأوروبي أو للأمريكي، أن تبدأ ذروة ساعات العمل للمراكز التجارية في حوالي العاشرة صباحًا. كما أن المحلات التجارية لا تغلق أبوابها في المعتاد قبل الواحدة أو الثانية صباحًا. وتظل المقاهي مكتظة بعشاق تدخين الشيشة وحتى فترة طويلة بعد منتصف الليل. ويتحول المصريون، وبخاصة في شهور الصيف إلى مخلوقات ليلية. ولا تفتح المراكز التجارية أبوابها إلا في وقت متأخر من ساعات النهار، فيما يقرب من الحادية عشر صباحًا. ولا يمكن أن يصاب المرء بالدهشة في أن يجد صالونات التجميل ومحلات تصفيف الشعر تعمل حتى منتصف الليل في مركز جنينة مول التجاري.

ومن الشائق جدًا في هذه المقابلات، والتي قمنا بعقدها باللغة العربية، إقحام اللغة الإنجليزية بطريقة طاغية في وصف المراكز التجارية، ودائمًا ما تكون مصحـــوبة باللغـــة العربية العامية!. وأجاب الكثيرون، سواء كانوا من المديرين، أو الجمهور، أو أصحاب المتاجر باللغة العربية، ولكنهم أقحموا الكثير من الكلمات الإنجليزية في حديثهم. ويقحم الكثير من المصريين وبانتظام كلمات إنجليزية في حديثهم (وذلك واضح في الأفلام، والمسلسلات والحوارات التليفزيونية). فأولاً وقبل كل شيء، كلمة *"mall"* الإنجليزية عُربت إلى "المول" ويقولون عن الجمع "المولات" !!. والمحلات التي تقوم ببيع الملابس التقليدية أو غير الرسمية، وهي

الأكثر شهرة بين للشباب يطلق عليها اسم "محلات الكاجوال". وتستخدم كلمة "كاجوال" لدى المصريين في اللغة العربية في حقيقة الأمر بمعنى الملابس التقليدية أو غير الرسمية، أو لوصف وضع غير رسمي. وصف أحد أصحاب المتاجر مجموعة المحلات في الطابق الخاص به بأنهم متخصصون في الملابس الكاجوال. وأُقحمت كلمات من قبيل "شوبنج"، و"إنترنت كافيه"، و"كافيه شوب"، "بولينج"، و"بلياردو."، و"ديسكو"، "أندرجراوند"، و"ساوند سيستم"، و"ديكور"، و"مودرن" في اللهجة المصرية. واستخدمت العبارة "أول إن وان" الإنجليزية بواسطة أحد مديري مركز تسوق في مدينة نصر لوصف الترفيه، والتسوق، والتنزه، والذهاب إلى السينما، ورواق الأطفال، وذلك عند سؤاله لوصف مفهوم كلمة المـــركز التجاري أو المول. كما استخدم بعض المتحدثين في الغالب كلمة "ستايل" من أجل وصف المراكز التجارية، والتي أقحمت أيضًا في اللغة العربية. كما يتحدث آخرون عن "ستايل جديد"، و"هاي كلاس"، من أجل وصف جمهور الأثرياء الذي يؤم هذه المراكز التجارية بالمقارنة بدهماء الشوارع. كما يتم إطلاق أسماء غربية على المحلات، وغالبًا بتهجئة خاطئة. وبينما يمكن أن نجد بعض الأسماء العربية في بعض المراكز التجارية لعلامات تجارية مثل "لابيدوس"، و"أديداس"، أو "موفينبيك"، فيمكن أن تجد أسماء أجنبية مثل "بيلليني" (ملابس للرجال)، و"داندي" (ملابس للرجال)، و"وايلد" ملابس تقليدية، و"سكاي كلاسس" (ملابس للنساء)، و"فابيلوس" (ملابس للنساء)، و"لارين" (حلواني)، و"تويتي شوز"، و"دايموند كناري" (ملابس للأطفال)، و"دريم كافيه" (مقهى)، "ليزا هاوس" (أحذية وحقائب للسيدات)، "نيوبراند" (ملابس تقليدية)، و "كريزي هاوس"، و"تيدلاموند"، و"مكس"، و"هايدي"، و"فانتزيا"، و"فروتي"، و"تشاينس"، و"كادر" (لإطارات الصور)، و"ويسترن"، و"بيبي وورلد" (ملابس للحوامل)، و"شامبيون ومين كلوثزز"، و"شيكو" (لعب للأطفال). وهناك نقطة مثيرة للاهتمام فقد انقسم العامة ممن قابلتهم من حيث اختيار الأسماء

الغربية أو الأسماء العربية. فقال البعض منهم إن الاسم ليس بذي أهمية، على الرغم من أن هناك اتجاهًا بين الشباب بأن الأسماء الغربية هادئة وتجذب معظم الناس (الأسماء الروشة – والمستقية مِن الروشة، وهي كلمة أُدخلت حديثًا في اللغة العربية لوصف المظهر الهادئ – والشباب الذي يرتدي أحدث خطوط الموضة).

ويمكن للمرء أن يلحظ بسهولة تامة أن ثقافة جديدة تتماشى مع هذه الأماكن الجديدة قد بدأت في الظهور. وليس من الجديد أن نقول إن استخدام اللغات الأجنبية هو بوضوح استخدام طبقي، ولكن الكلمات الإنجليزية اقتحمت اللغة العربية بطريقة متزايدة وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من اللهجة العربية لأهل القاهرة[١١]. ويمازج قطاع عريض من السكان، ومن الطبقات المختلفة رطانة أجنبية باللغة العربية.

خاتمة

يتضح بجلاء أن هناك عالمًا جديدًا، يتسم بالطموح في تنمية الأماكن العامة الجديدة للاستهلاك حول القاهرة. ويتفاعل الكثيرون من الأشخاص عبر القاهرة والمجتمع المصري في هذه المراكز التجارية الجديدة، سواء كان هؤلاء من عمال الصيانة، والنظافة، أو الأعداد المتزايدة من لصوص المتاجر (أغلبهم من النساء)، أو جيش المسئولين عن الأمن[١٢]. وحصل الكثير منهم على شهادات جامعية، أو من النازحين من الريف. وأجبر هؤلاء الشباب الفقراء – والذين في الأساس من ذوي الدخول المتواضعة على العمل في هذه الأماكن الجميلة والنظيفة، والتي يمكنهم المساهمة فيها من خلال التحديق في المعروضات غالية الثمن فقط. ويبدو أن هذه الأماكن ترفع من سقف الطموحات والآمال في نفس الوقت الذي تزيد فيه من مشاعر الإحباط. وتختنق القاهرة من كثرة السيارات، والتلوث، وغياب التخطيط. وأُحيطت الحدائق القليلة التي تم إنشاؤها حديثًا بأسوار ولم يُسمح للعامة

بدخولها بزعم أن المصريين لا يعرفون كيفية المحافظة على الأماكن العامة. ومن الواضح ندرة الأماكن العامة في القاهرة، بينما - المركز التجاري (المول) - المستورد من أمريكا – يحمل معه الافتتان لهؤلاء الذين يعتنقون الثقافة الاستهلاكية الجديدة. وينطبق تحليل جان بودريار للاستهلاك كجماعة، والسلوك المؤسسي، ونقده لمجتمع الموسرين، تمامًا مع الوضع المصري *(Baudrillard 1998)*. ويقول جان بودريار إن الثقافة الاستهلاكية تؤدي إلى تحقيق التنمية في نهاية المطاف والتي ينتج عنها كل من الفقر والغنى وبنفس الدرجة من السرعة *Baudrillard 1998, 2*. وكما يضيف على ذلك قائلاً إن التبذير عامل فعال في منح إشباع مراوغ قصير الأجل *(Baudrillard 1998, 5)*. ويتضمن المنطق المتأصل للاستهلاك وفرة غير متكافئة لأن "البعض لديهم حق الوصول إلى المعجزة، بينما الآخرون ينتهي بهم المطاف بالحصول على الفتات المتبقية من المعجزة" *(Baudrillard 1998, 60)*. وما يستحق الدراسة والأكثر أهمية، هي الخاصية غير المحدودة للاستهلاك، والرغبات اللانهائية المثارة، والجوانب غير المتحكم فيها والكامنة والمتناقضة فطريًا مع مفهوم الإشباع *(Baudrillard 1998, 61-62)*. وأصبحت الرؤية العامة للشباب وثقافة الشباب في مجتمع تبلغ فيه نسبة الشباب تحت سن الثلاثين ٦٥% واضحة للغاية (الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء ١٩٩٦). وعلى الرغم من ذلك تبدو آفاق الشباب مقيدة بطريقة متزايدة. وبخلاف الهجرة، فيمكن أن يؤدي تحفيز الرغبات بدون الوفاء بها إلى نهايات غير سعيدة. ومن الواضح أن الحياة في مراكز التسوق تؤدي إلى أفكار جديدة عن التنشئة الاجتماعية والأماكن العامة لتواجد الجنسين في القاهرة. (برجاء الرجوع إلى الجزء الخاص بكونينج في هذا الكتاب لتحليل أكثر عمقًا للأماكن العامة التي تضم الجنسين من الطبقة المتوسطة في المقاهي الجديدة والتي تم تصميمها على نمط ستاربوكس). ومن المثير للدهشة أن ترى مجموعات الشباب المتحرشين بالفتيات يسيرون في مجموعات، وبينما

تذهب عائلات بأكملها إلى المقاهي (يبقى الذكور من الرجال في المقهى لاحتساء القهوة، بينما تذهب الزوجات من أجل التسوق)، أو التنزه والذهاب إلى محلات مثل ماكدونالد، أو الذهاب إلى السينما الموجودة في هذه الإمبراطوريات التسويقية. وقد تم هجر كل من "الطبيعة"، و"الشارع" إن لم يكن قد تم تحطيمهما. ويبدو أن القليلين جدًا من المصريين على وعي بالتأثيرات الصحية السلبية لتكييف الهواء والأماكن المغلقة، والمزودة بكاميرات المراقبة. ويبدو أن حدوث انتقاد لثقافة الاستهلاك بين أفراد الطبقة المتوسطة من المصريين أمر لا يمكن أن يخطر بذهن أحد.

ولكن من المثير للدهشة إنتشار ظاهرة "مراكز التسوق الميتة" في مصر، وهو الأمر المعتاد في الولايات المتحدة الأمريكية. ويبدو أن مراكز تسوق المركز العالمي للتجارة، ووندر لاند، ومركز البستان جميعها تنتمي إلى تلك الفئة من المراكز الميتة. واستولت البنوك على بعض هذه المراكز، مثل مركز طلعت حرب، بعد أن عجز الملاك عن سداد ديونهم. وعلى الرغم من ذلك، فلماذا يستمر تشييد المزيد والمزيد من مراكز التسوق؟ وهناك تفسير واحد يتم ترديده كشائعة في أوساط الماليين ومجتمع العقارات، أن إنشاء مراكز التسوق وسيلة لغسيل الأموال، ولكن هذا الأمر مجرد ظنون فقط وليس لدي دليل ثابت يدعم هذه الظنون.

وتعتبر الأماكن شبه العامة، مثل الكثير من المقاهي الحديثة، ومراكز التسوق، متنفسات واضحة للشباب. وتُعد أماكن نظيفة يمكن للشباب أن يقوموا فيها بخلق صداقات والتنقل وتزجية أوقات الفراغ فيها بكل بساطة. وربما يعيش الشباب الصغار من الجنسين في العشوائيات، ولكن بمجرد أن يتواجد في هذه المراكز ذات الأسوار، والأماكن الخصوصية، فيمكنهم تقليد حالة الطبقات الاجتماعية العليا من خلال ملبسهم، أو في مجرد الوجود في هذه المراكز التجارية. وربما تشجع هذه الأماكن الشعور بأن الفرد يشارك في عالم أفضل، حتى ولو كان ذلك من مجرد

مشاهدة المعروضات في فتارين هذه المحلات. وتهدف أماكن الترفيه الدائمة هذه بأن تمنح المواطنين أوهامًا ومشاعر زائلة بالإحساس بأن الفقر يمكن القضاء عليه.

وعلى الرغم من أن المراكز التجارية تبدو وكأنها تمنح مسحة من الديمقراطية للأماكن العامة عبر التخيل بأنه يمكننا أن نختلط معًا كأنداد، فإن هذه المراكز تظل أماكن خصوصية ومراقبة عن كثب، حيث يقوم رجال الأمن باستبعاد "غير المرغوب" فيهم بانتظام. كما تستهدف التجمعات السكنية ذات الأسوار المغلقة والمستعمرات السكنية المخصوصة في مرتفعات القطامية، ودريم لاند، وجاردينيا، أو بيفرلي هيلز، في قاهرة اليوم أغنى الأغنياء في مصر، وهي متماثلة في كونها منعزلة، وتجمعات سكنية ذات أسوار مغلقة، ومُشيدة في الصحراء (يمكنك الرجوع إلى الجزء الخاص بدينيس في هذا الكتاب لتفاصيل أكثر لهذه التجمعات السكنية ذات الأسوار المغلقة، والطريقة التي حولت بها هذه المجتمعات الجغرافية المكانية والسياسية للقاهرة).

وترمز هذه المراكز التجارية للتحالف المتنامي بين رأس المال الأجنبي، والخبرة الأجنبية، والواردات، والتكنولوجيا، ورجال الرأسمالية المصرية. فقد تم تأسيس مركز التجارة العالمي، على سبيل المثال، في عام ١٩٩٠ من خلال الاستثمار المشترك وتحت إشراف المؤسسة المعمارية "أوينج"، وميريل& سكيدمور من شيكاغو، وعلى نور الدين من القاهرة. كما اشتركت شركة أوراسكوم وهي واحدة من أكثر شركات عائلة ساويرس نجاحًا في تشييد العديد من المراكز التجارية. وشُيدت اليمامة سنتر بتمويل سعودي، وعلى وجه أدق عن طريق الأمير بندر، وتشبه إلى حد كبير – المعادي سيتي سنتر – وهو مجمع تجاري ضخم يضم كارفور، وتم تشييده بواسطة شركة (إم. إيه. إف) والتي تقوم بإدارة سلسلة من المراكز التجارية في دبي وعمان. (يمكنك الرجوع إلى الشيشتاوي، الفصل السابع من هذا الكتاب لتحليل أعمق لتأثير دول الخليج على تنمية القاهرة تجاريًا وسكنيًا).

وشُيد المعادي جراند مول بواسطة "بيتر ليكس فور هابيتيشين أند ديفلومنت كومباني"، وكان يستهدف بناء أكبر مركز تجاري في الشرق الأوسط. ويشغل منصب كبير المهندسين فيه المهندس "أحمد عزمي"، والذي كان شقيقه "نبيل عزمي" هو النائب السابق لرئيس مجلس إدارة كل من شركة عثمان أحمد عثمان (إحدى شركات المقاولات الضخمة)، وبنك قناة السويس، ويشغل الآن منصب الرئيس التنفيذي لشركة قناة السويس للتأمين. ويشكل المستثمرون الثمانية الكبار ما قيمته ٩٠% من رأس المال، وكلهم أعضاء في أسرة "عزمي" (رأفت ١٩٩٨).

وأدي التعويم الأخير لقيمة الجنيه المصري في شهر يناير ٢٠٠٣ إلى تناقص قوة الاستهلاك الحقيقي لمعظم المصريين. كما أدى الكساد الاقتصادي إلى فقدان الآلاف من الوظائف في العديد من قطاعات الاقتصاد. ويصاب المرء بالدهشة البالغة، كيف يمكن في هذه الأجواء الكئيبة أن يستمر افتتاح المركز التجاري لكارفور بهذه الاحتفالات الباذخة وحشد من السيارات في باحة وقوف السيارات. ولأي مدى يمكن أن نعتمد على مجرد مشاهدة المعروضات في فتارين هذه المراكز التجارية من أجل إشباع الأحلام غير المُحققة؟ ومرة أخرى، لا أعرف الإجابة عن السؤال.

الأعمال المستشهد بها

Works Cited

Abaza, Mona. 2001. "Shopping Malls, Consumer Culture and the Reshaping of Public Space in Egypt." *Theory, Culture and Society* 18: 97–122.

———. 2004a. "Advertising History." *Al-Ahram Weekly Online*, 1–7 July, <*http://weekly.ahram.org.eg/2004/697/feature.htm*> (30 July 2004).

———. 2004b. "Brave New Mall." *Al-Ahram Weekly Online*, 16–22 September, <*http://weekly.ahram.org.eg/2004/708/feature.htm*> (2 October 2004).

'Abd al-Malek, Anouar. 1971. *Ägypten: Militärgesellschaft: das Armeeregime, die Linke und der Soziale Wandel unter Nasser*. Frankfurt: Suhrkamp Verlag.

Alaidy, Ahmed. 2006. *Being Abbas El Abd*. Translated by Humphrey Davies. Cairo: The American University in Cairo Press.

Ambriere, Francis. 1932. *La vie secrète des grands magasins*. Paris: Flammarion.

Backes, Nancy. 1997. "Reading the Shopping Mall City" *Journal of Popular Culture* 31 (3): 1–17.

Bauman, Zygmunt. "From Pilgrim to Tourist–or a Short History of Identity." In *Questions of Cultural Identity*, eds. S. Hall and P. Du Gay, 18–36. London: Sage.

Baudrillard, Jean. 1998. *The Consumer Society*. London: Sage.

Bayat, Assef. 1977. "Cairo's Poor: Dilemmas of survival and Solidarity." *Middle East Report* 202 (Winter): 2–8.

Bontemps, Maurice. 1894. *Du vol, les grands magasins et du vol a l'étalage, étude medico-légale*. Thesis, Faculté de medicine et de pharmacie de Lyon.

Central Agency for Public Mobilization and Statistics (CAPMAS). 1996. *The Egyptian Census*. Cairo: CAPMAS.

Denis, Eric. 1998. "*al-Takhtit al-hadari wa-al-numuw fi al-Qahira.*" In *al-Qahira fi lahzat tahawwul*, eds. Mustafa Kamel al-Sayyed and Assef Bayat, 61–72. Cairo: Center for the Study of Developing Countries, Cairo University.

"Dubai's Great Shopping Mall Race: The Majid al-Futtaim Group and Emaar Properties are Competing to Build Dubai's Best and Biggest Shopping Mall." *AME Info*, 12 February 2004, <*http://www.ameinfo.com/news/Detailed/34732.html*> (29 July 2004).

Featherstone, Mike. 1998. "The *Flaneur*, the City and the Virtual Public Life." *Urban Studies* 5 (5–6): 909–25.

Fishman, Robert. 1996. "Beyond Suburbia: The Rise of the Technoburb." In *The City Reader*, eds. Richard T. LeGates and Fredric Stout, 79. New York: Routledge.

Freitas, Ricardo Ferreira. 1996. *Centres commerciaux: îles urbaines de la post-modernité*. Paris: l' Harmattan.

Ghannam, Farha. 2002. *Remaking the Modern: Space, Relocation and the Politics of Identity*. Berkeley: University of California Press.

Jackson, Kenneth T. 2000. "The Drive-in Culture of Contemporary America." In *The City Reader*, eds. Richard T. LeGates and Frederic Stout, 67–76. New York: Routledge.

Miller, Daniel, Peter Jackson, Nigel Trift, Beverley Holbrook, and Michael Rowlands. 1998. *Shopping, Place and Identity*. London: Routledge.

Mitchell, Donna. 2002. "Cairo's Wealthy Won't Need to Leave the City to Shop," *Shopping Centers Today*, May, <*http://www.icsc.org/srch/sct/sct0502/page160.html*> (29 July 2004).

Mitchell, Timothy. 1999. "Dreamland: The Neolibralism of Your Desire." *Middle East Report* 210 (Spring): 28–33.

Morris, Meaghan. 1993. "Things to Do with Shopping Centers." In *The Cultural Studies Reader*, ed. S. During, 391–409. London and New York: Routledge.

Mostafa, Hadia. 2003. "Retail goes Wild." *Business Today*, June: 61.

Rakha, Yusif. 2003. "On Alternative Tracks," *Al Ahram Weekly Online*, 18–24 December, <*http://weekly.ahram.org.eg/2003/669/bo21.htm*> (27 July 2004).

Rafaat, Samir. 1998. "Ma'adi Grand Mall." *Egy.com*, 19 February, <*http://www.egy.com/landmarks/98-02-19.shtml*> (27 July 2004).

United Nations Development Program (UNDP). 2003. *Taqrir al-tanmiya al-insaniya al-'Arabiya lil-'am*. New York: United Nations Development Program.

الهوامش

١- أحمد العايدي. ٢٠٠٦، "أن تكون عباس العبد"، ترجمة همفري دافيز. القاهرة، مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

٢- أود أن أعبر عن شكري لأحمد يوسف، وأحمد الشربيني، لاشتراكهما كفريق بحث. ويجب النظر إلى هذه المقالة كتوسع لمقالاتي السابقة (أباظة ٢٠٠١؛ ٢٠٠٤أ؛ ٢٠٠٤ب).

٣- تنتوي شركة ماجد الفطيم مصر أن تقوم باستثمار ٤٤٠ مليون دولار في مصر في عام ٢٠١١. وقد خصصت شركة ماجد الفطيم حتى الآن بليون جنيه مصري لكارفور (رشدان ٢٠٠٣). وقد حققت شركة ماجد الفطيم نمواً مذهلاً في السنوات الأخيرة من خلال مبيعات التجزئة والمراكز التجارية والتي استهلتها بافتتاح أكبر مركز تجاري في دبي، ديره سيتي سنتر. كما أنهم يستحوذون على حق الامتياز الحصري لكارفور في منطقة الخليج. كما تمتلك المجموعة مراكز تجارية في الإمارات المجاورة عجمان والشارقة، ومسقط (راجع في ذلك سباق دبي الكبير من أجل تشييد المراكز التجارية." ٢٠٠٤).

٤- اختفت دار الطباعة من الوجود نتيجة لحريق والذي غالبًا ما كان متعمدًا. الكثير من مصانع وشركات القطاع العام والتي كانت القوة الدافعة الرئيسية للتنمية في مصر في مصر في سنوات السبعينيات أضرمت فها النيران بالمثل. وكان إشعال الحرائق ذريعة لإعلان إفلاس مثل تلك الشركات وبيعها لشركات القطاع الخاص، والتي كان كبار موظفي الحكومة ينتفعون من ورائها.

٥- هناك إعلان ضخم في مركز البستان التجاري على سبيل المثال يقول: "مطلوب موظفى أمن براتب شهري ١٢٠ جنيه مصري شهريًا".

٦- طبقًا لما يذكره جون سفاكيانكيس، وهو خبير بنخبة رجال الأعمال في الشرق الأوسط، واجه العديد من رجال الملايين السعوديين، بعد أحداث ١١ سبتمبر، صعوبات جمة في سبيل ممارسة أنشطتهم في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا. وكان يتعين على رجال الأعمال هؤلاء أن يولوا وجوههم شطر البلدان العربية مثل مصر، حيث كانوا يجدون

حرية أكثر في التصرف وبوضوح شديد. مقابلة شخصية مع جون سفاكيانكيس في يوم ٢٠ مارس ٢٠٠٥.

٧- على الرغم من أن عرب الخليج شأنهم شأن الطبقات الشعبية في مصر (البلدي) يرتدون الجلابيب الطويلة، فلا يجرؤ أي من رجال الأمن على منعهم من الدخول، لأن هذه الطبقة الشعبية يسهل رصدها على الفور.

٨- مقابلة شخصية تم إجراؤها مع المدير العام لأركاديا مول في ١٩ فبراير ٢٠٠٥.

٩- كان أحمد نفسه، في حقيقة الأمر يأتي من طنطا إلى القاهرة بانتظام فقط ليتسوق ويتجول في المركز التجاري، في وقت التسلية المفضل. وهكذا توافرت لديه معرفة واسعة عن الفوارق في الأسعار بين المراكز التجارية المختلفة في القاهرة.

١٠- يتواصل الكثير من أهل القاهرة اجتماعيًا في النوادي الخاصة، والنوادي الرياضية، أو نوادي المهنيين أو من هم في خدمة الحكومة (والأخيرة تدعمها الحكومة جزئيًا).

١١- يذكر تقرير التنمية البشرية العربي لعام ٢٠٠٣ أن اللغة العربية تواجه معضلات حقيقية نتيجة لضحالة مستوى التعليم في المدارس. وتواجه اللغة العربية الفصحى مخاطر عديدة حيث إن الكثير من المسئولين الحكوميين يوجيون اهتمامهم فقط للمدارس الأجنبية الخاصة، والتي تقوم بالتركيز على تعليم اللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية. ونتيجة ذلك أن ينتهي الأمر بالطلاب الصغار بمستوى متدن في اللغة العربية، والتي يبدو أنها لم تعد مطلوبة في القطاعات الحديثة من الاقتصاد مثل البنوك والإعلان، والإدارة، والأعمال. كما يذكر التقرير ايضًا أن القليل من الأعمال المنشورة هي التي تتم ترجمتها من الإنجليزية إلى اللغة العربية (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي للتنمية البشرية ٢٠٠٣، ١٢٠ - ٢٥).

١٢- كانت ظاهرة سرقة السلع من المتاجر الكبرى ظاهرة منتظمة في القرن التاسع عشر. وقد عزز ذلك من حدوث طفرة في البحوث النفسية لدوافع السرقة والتاثيرات العصبية لداء السرقة وسرقة السلع من المحلات خصوصًا لدى النساء *(Boutemps 1894; Ambriere 1932)*.

الفصل السادس

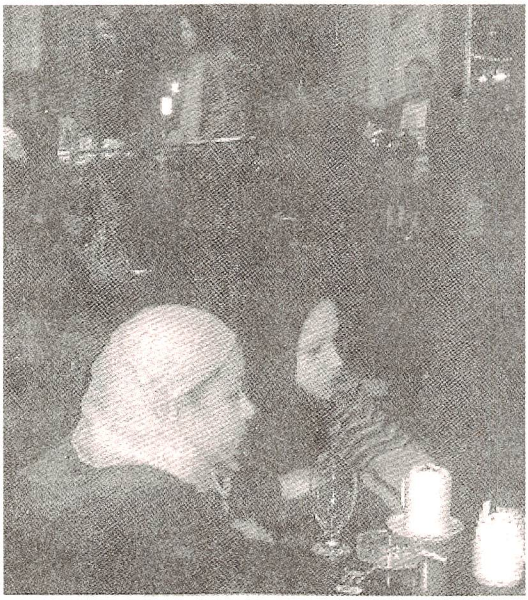
كافيه لاتيه وسلطة القيصر
المنتميان للعالمية في مقاهي القاهرة الراقية[١]

أنوك دي. كونينج

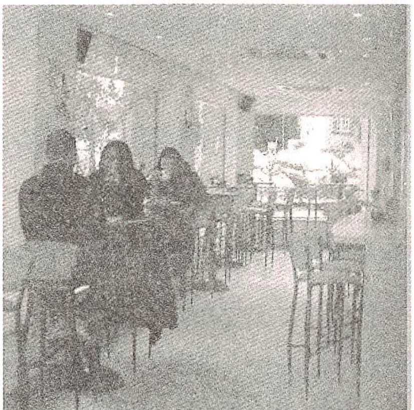
كنت بصدد مقابلة دينا ومايسة في مقهى بيترو بمنطقة المهندسين في مناقشة بشأن المقاهي[٢]، وذلك في يوم عادي من أيام عطلة نهاية الأسبوع في صيف عام ٢٠٠٤. وأصبحت صديقة حميمة لمقاهي الطبقة الأرستقراطية مثل ريتزو، في سياق أداء بحثي، والذي أصبح جزءًا لا يتجزأ من الروتين اليومي لمعظم أصدقائي ومعارفي من الطبقة المتوسطة والعليا[٣]. وغيرت المقاهي الراقية مثل ريترو النسيج الحضري للأحيـــاء الـــراقية؛ وأصبح الاستمتاع بالكافية لاتيه، أو سلطة القيصر في واحدة من هذه المقاهي الراقية جزءًا من الروتين شبه اليومي للكثير من الشباب، والأثرياء نسبيا من أهل القاهرة. ويشار إلى هذه الأماكن "بالكوفي شوب" باللغة الإنجليزية حتى لا يختلط الأمر على المستمع بالمقاهي البلدية، والتي يؤمها الرجال فقط، وتنتشر على أرصفة الشوارع وتشتهر بها القاهرة. وتنوعت المقاهي الراقية فأصبحت نقاط توجه مكانية كما هي أيضا علامة اجتماعية لانتماء معين وبديهية طبيعية تعبر عنها. وبزغت ثقافة جديدة للتنزه في وحول هذه المقاهي الراقية، وتركزت حولها، ولكنها لم تقتصر على المهنيين من الشباب الأعزب الذي يتميز بالثراء مثل دينا ومايسة. غير أن المقاهي الراقية ظاهرة حديثة. بدأت في

الظهور في أواخر سنوات التسعينيات في وسط أحياء الأثرياء مثل الزمالك والمهندسين، وكذلك في الأحياء النائية عن المركز مثل مصر الجديدة، والمعادي. وتفتتح المقاهي الراقية بانتظام، وتزحم شوارع معينة، وتقوم بتحويل مناطق سكنية سابقة إلى مناطق دافئة تفيض بالحيوية.

وجدت صديقتي دينا تشارك صديقتنا المشتركة في مائدة واحدة. وتعمل هؤلاء الآنسات اللاتي في أوائل الثلاثينيات من عمرهن، بصفة أساسية في المناصب العليا في مجال الاقتصاد، وهن جزء من المهنيات من الطبقة المتوسطة والعليا اللاتي تتميزن بروابطهن وتطلعاتهن العالمية. وهن يرتدين، كالنساء الأخريات في بيترو بنطالات قطنية ضيقة، أو من الجينز، وبالمثل بلوزات ضيقة، والتي على الرغم من ذلك، تراعي الحد الأدنى من خط الاحتشام العام، وتغطية كل أجزاء الجسم ما عدا الكفين. ولقد صُمم المقهى الراقي الصغير الحجم، بزخارفه الجميلة، وألوانه الترابية المحايدة، وأثاثه الخشبي الحديث، ليمنح إحساسا بالعصرية وإن يكن مفعما بالدفء والألفة. كما تعطي أغاني الجاز، بما فيها الأغاني ذات الشهرة العالمية والتي تقدمها بيونا فيستا سوشيال كلوب، ونورا جونز اللمسات النهائية لذوق المقهى الراقي.



كافيتريا بينو بالزمالك



كافيتريا تريانون بالمهندسين

(تصوير أنوك دي كونينج)

وقمنا باختيار بعض السلاطات الساندويتشات من عروض بيترو السخية من الأطعمة المبتكرة (على حد قول دينا)، قبل أن نشرع في النقاش مع بعضنا البعض، ووضعنا طلباتنا في يد نادل شاب يرتدي الزي الرسمي لمقهى بيترو: جينز أسود، وقميص بولو أزرق يحمل اسم المقهى. وتلاقت أفكارنا في المناقشة عند نقطة المدى الذي تمنحه المقاهي الراقية كأماكن عامة جديدة، وعلى وجه أخص للمرأة. وقالوا "إن المقاهي الراقية أصبحت قادرة على تجميع الفتيات من منازلهن وأنديتهن". "لم تكن لدينا أماكن لقضاء فترات الفراغ ما بعد ساعات العمل". التواجد الغامر للنساء في محلات المقاهي الراقية هو أحد الملامح المذهلة للحياة الاجتماعية التي تبدو واضحة للعيان. ويحاط موضوع تواجد النساء في الأماكن الاجتماعية المختلطة وبدون مرافق لها في أماكن التنزه بالكثير من الشكوك والقيود الاجتماعية. ولكن النساء، المحجبات وغير المحجبات في هذه المقاهي الراقية يُشكلن أكثر من نصف المتواجدين في المقهى. والكثيرات من النساء المهنيات غير المتزوجات مثل دينا ومايسة مولعات بقضاء أغلب أوقات فراغهن في المقاهي الراقية مثل بيترو.

انقطع حبل الحوار بعد نصف ساعة من بدء النقاش، حينما قدمت صديقتان جديدتان لتنضما إلى المنضدة التي نجلس عليها، ثم تبعهم حشد منتظم من الأصدقاء الآخرين ومعارفهم وتبادلوا التحية بحماس. ووصلت الحياة الاجتماعية إلى أقصى مداها حيث انتهت ساعات العمل لتوها. وتغير اتجاه حديثنا إلى مزيج من الحكايات الطريفة والأخبار المسلية والتي تعتبر نموذجا لأحاديث المقاهي الاجتماعية. ويمتلك مقهى بيترو الصغير في الحجم نسبيا عددا كبيرا من الزائرين المنتظمين، مثل "شلة" مايسة (الشلة مجموعة من الأصدقاء – وجمعها شِلل)، الذين يأتون إلى المقهى بصفة شبه يومية. وتشرح دينا والتي تعرف أسماء كل العاملين في المقهى، وصديقة حميمة لمالكة المقهى الأمر قائلة، إن مقهى بيترو يشبه كثيرا بيتها الثاني.

كما يبعد مقهى سبكترا، وهو مكان آخر محبب، على بعد شوارع قليلة خلف المسجد الشهير "جامع مصطفى محمود" في قلب مدينة المهندسين. وينقسم المقهى بديكوراته الأنيقة، وأثاثاته الخشبية الحديثة إلى قسمين. يحتوي الجزء الأمامي الهادئ مقاعد لمجموعات صغيرة؛ بينما يشمل الجزء الخلفي مكانا متسعا لمجموعات كبيرة على غرار نمط حافلات الطعام الأمريكية، ومزودة بالمقاعد الخشبية الطويلة التي تتسع لستة أشخاص حول المائدة. وتعرض مجموعة من الأجهزة التليفزيونية عددا من أغاني الفيديو بدون صوت ويتم عرضها في إحدى قنوات الأغاني العربية، وقناة ميلودي للأغاني، أو القناة اللبنانية (*MTV*)، بينما تقدم مثيلتها من الأغاني الشعبية العربية والأجنبية الخلفية الموسيقية.

وكان لي موعد للقاء أحمد، وهو مهني في منتصف العشرينيات من عمره، للحديث عن المقاهي الراقية. عندما وصلت كان هو يحتل مائدة بالفعل في الجزء الخلفي من المقهى، ومعه شقيقته، وصديقة له، واثنان من أولاد عمه. وكان المكان غاصًا بالشلل المكونة من الشبان والشابات. عندما جلست بالقرب من أحد أبناء عمومة أحمد، خيم الصمت على جميع الحضور. وهنا جاءتني شقيقة أحمد وسألتني أن أبتعد وأجلس بعيدًا عن جاري. وقالت لي إنه شخص شديد التدين، ولن يشعر بالراحة في جلوسي بجانبه.

وأُتيحت لنا الفرصة للحديث عن المقاهي الراقية عندما أصبحت وحيدة مع أحمد وصديقته. وشرح لي أحمد كيف أنه أصبح يحب سبيكترا نظرًا لمستوى عملائه، أناس محترمون، والطراز الأنيق للمقهى، والنوعية ذات الجودة العالية للطعام والخدمات. وقال أحمد إنه كان من المعتاد أن يكون أمرًا شائنًا أن يتقابل

شبـــاب الجنسين فـــي المقـــاهي الراقية. وأصبحت هنالك الآن حرية أكبر، حتى لو أضحت ملابسهم أكثر تواضعًا(٤). ويبدو مظهر العامة في مقهى سبيكترا مؤيدًا لملاحظات أحمد. فيبدو سبيكترا مختلفًا عن بيترو لأنه يضم عددًا أكبر نسبيًا من أنصار الحجاب. وأخبرتني خطيبة أحمد، والتي تغطي رأسها بوشاح وهي مبتهجة بأن الحجاب هو ببساطة أمر إلزامي بالنسبة للمسلمة. ولكن ذلك لا يعني أن يختلف نمط حياتها عن نظيراتها اللاتي لا يرتدين الحجاب. ولفتت نظري، فيما بعد، إلى أغنية فيديو كليب تقوم بالتركيز على ثلاثة سيقان طويلة، لثلاثة فتيات يرتدين ملابس فاتنة جنسيًا يرقصن بطريقة مغرية من أجل إسعاد مشاهديهن. وقالت "هذه أغنيتي المفضلة".

ويقحم النسق العالمي للمقاهي الراقية نفسه في المجالات الهامة محليًا والأكثر تنافسًا في الغالب من مجالات الترفيه وحياة الاختلاط الاجتماعية، وحياة الحضر العامة، والأماكن العامة. وكانت مشاعر الاعتياد على عظمة الخارج في القاهرة، والتبني الصريح لأنماط العالمية سوقًا رائجة ولفترة طويلة لوضع النخبة. وتعتبر التنشئة الاجتماعية التي تضم الجنسين في أماكن الترفيه هي واحدة من المعالم البارزة لمثل هذه الأنماط من الحياة الحضرية المتميزة ***Armbrust 1999***. وعلى الرغم من ذلك، فهي أيضًا مصدر للقلق والتنافس. وسأقوم في هذا الفصل، باستكشاف الوسيلة التي تقوم بها هذه المقاهي الراقية بخلق الأماكن العامة التي تنتسب إلى العالمية. وتعكس هذه الأماكن العامة التمييز بين الطبقات في القاهرة الحديثة كما أنها تصور أنماط التنشئة الاجتماعية للاختلاط بين الجنسين، وبصفة خاصة في الطبقـ . المتوسطه والعليا، والتي بدأت في التغير.

المشهد الحضري المُنقسم

تميزت القاهرة في بدايات القرن الجديد بدرجة عالية من التشرذم فى كل من مجالي الإنتاج والاستهلاك. ويستهلك معظم قاطني القاهرة المنتجات والخدمات التي تقدمها أسواق الاستهلاك والترفيه غير الرسمية (غير المُنظمة) والتي تستوعب قوتهم الشرائية المحدودة. ويجب أن يقوم أفراد الطبقة المتوسطة في القاهرة في فترات ارتفاع تكاليف السوق، وانخفاض الرعاية الاجتماعية، وازدياد معدلات البطالة، وفترات الكساد الاقتصادي المستمرة بالبحث عما هو متاح لهم من نظام السلع المُدعمة، أو يقومون بشراء السلع من السوق غير المنظمة، والتي غالبًا ما تكون سلعا صينية مستوردة زهيدة الثمن. وبالتزامن مع ذلك، ينبئ المشهد الحضري عن وجود قاهرة "أخرى" والتي بدأت خطوات ازدهارها في ظل الانفتاح (وهي سياسة الباب المفتوح الاقتصادية التي تم تدشينها في منتصف سنوات السبعينيات)، والتي دأبت على تشجيع الواردات والاستثمارات الأجنبية في مصر. ونمت القاهرة "الأخرى" بشكل ملحوظ في سنوات التسعينيات وهي الفترة التي شهدت التعديلات الاقتصادية الهيكلية، والسياسات التحررية الجديدة، والبحث عن الاندماج في الأسواق العالمية *(Mitchell 2002)*. بينما اصطدم معظم القاهريين بالتدهور المنتظم في الأجور الحقيقية، وتراجع حلقات كاملة من الدعم والخدمات الحكومية التي جعلت عبء الحياة أكثر تكلفة بطريقة متزايدة، كما شهدت القاهرة أيضًا بزوغ البرجوازية الجديدة، ومهنيين أكثر ثراء نسبيًا من الطبقة المتوسطة. وفي خضم بطالة الشباب المتفاقمة بين خريجي الجامعات، والأجور المتدنية بوضوح للعاملين الجدد، فإن هناك صغار المهنيين مثل دينا ومايسة واللتين تعملان في مؤسسة صغيرة، ولكنها تنتمي لشريحة عليا ومتميزة وذات توجه دولي في سوق العمل *(Amer 2002, Tourne 2003)* وتزيد الأجور في المؤسسات المُتميزة

في سوق العمل بأكثر من ثلاثة إلى خمسة أمثال تلك الأجور التي يتم دفعها في الوظائف المماثلة في القطاعات الأقل حداثة من القطاع الرسمي للاقتصاد، بما في ذلك، القطاع العام البالغ الضخامة والخدمات المدنية.

وقد نُقشت علامات التحول نحو الليبرالية الجديدة والسوق العالمية على المشهد الحضري للقاهرة. فترتفع الفنادق ذات النجوم الخمس والأبراج الإدارية المتلألئة في الأحياء التجارية الجديدة. كما شيدت التجمعات السكنية في الصحاري التي تحيط بالقاهرة، وتكتظ شوارع القاهرين بالسيارات الفاخرة، كما أن منطقة المهندسين الفخمة تحل محل وسط المدينة باطراد، حيث إنها وسط المدينة لهؤلاء الذين يمكنهم احتمالها *cf. Armbrust 1998, 417-20; Kuppinger 2004; Denis 1997; all three in this volume*. وتزود الأحياء المتسمة بالثراء مثل الزمالك، والمهندسين ومصر الجديدة، والمعادي الجماعات الموسرة اقتصاديًا بالسكنى. بينما تزود أعداد متنامية من المدارس الخاصة، والمعاهد، والجامعات، والمستشفيات الخاصة العائلات التي يمكنها أن تهجر الخدمات الحكومية المتداعية وراء ظهرها. وتُقدم في نفس هذه الأحياء، محلات تجارية أنيقة مثل مترو، وألفا ماركت، تلك السلع الضرورية لنمط حياة الرفاهية (يرجى الرجوع إلى الفصل الخاص بمنى أباظة في هذا الكتاب لمناقشة أعمق للمراكز التجارية الأنيقة في مدينة نصر). ويمكنك أن تجد هنا مجلات ملابس خيالية، ليست مكدسة بالبضائع لضيق المكان، وكما هو المعتاد في محلات وسط المدينة التي عفا عليها الزمان. وتقوم هذه المحلات الأنيقة، بدلاً من ذلك بعرض منتجاتها كقطع فنية تبشر بآمال الأناقة العالمية. وتتميز كل هذه الأماكن الفاخرة بمرجعيتها العالمية للمنتجات والخدمات في تقديمها للكافيه لاتيه، أو الأثاث الإيطالي، أو الدبلومة الأمريكية، كما تتميز أيضًا بأسعارها الباهظة نسبيًا. وتفرض المقاهي الراقية والتي تقدم خدماتها للفئات العليا من الطبقة المتوسطة أسعارًا تزيد عن ٥ جنيهات للمشروب (بدون ٥%

ضرائب، ١٢% خدمة) كما أن أغلبها يتطلب حدا أدنى من الطلبات. وقارن هذه الأسعار بما يعادل ٠,٥٠ – ١ جنيه للقهوة أو المشروبات الغازية في المقاهي الشعبية (أو البلدي) (كان الجنية المصري يعادل رسميًا ٠,٢٥ دولار في بداية عام ٢٠٠٢، و ٠،٢٠ دولارًا في نهايته).

المشهد الحضري عابر الحدود للترفيه

احتلت المقاهي الراقية أوضاعًا جديدة ضمن العديد من وسائل الترفيه في الجغرافيا المحلية في العالم بأسره. وأصبح مذاق الكابيتشينو دليلاً قويًا على العالمية، ودلالة على الأذواق الأرستقراطية في التصنيفات المحلية المتنوعة بشدة للتباين الثقافي. وبينما تتشكل نوعية الأماكن العامة التي تمثلها المقاهي الراقية داخل الجغرافيا المحلية للترفيه، ونوعية الطبقة التي تمثلها طعم الكافية لاتيه، وتعتبر أمورًا محلية بارزة، فإنها تمنح الكثير من الدلالة الكامنة، والحظوة، والتميّز، واندماجهم التام في التيارات العالمية *(Appadurai 1990; Guano 2002)*.

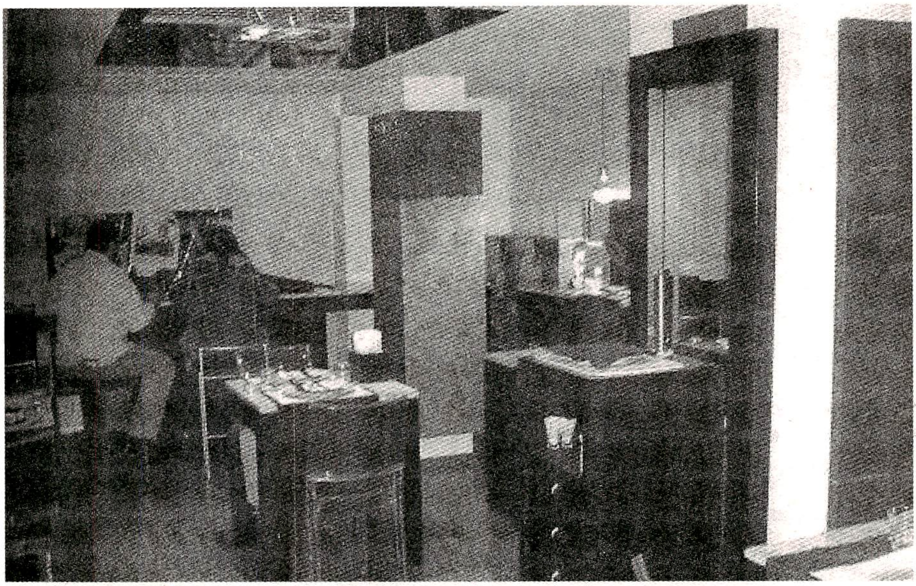
وعلى الرغم من أن معظم هذه المقاهي الراقية يملكها وطنيون، فإنها تبدو على غرار نظيراتها الأمريكية بوضوح، بما في ذلك الأطعمة والمشروبات التي تقدمها[٥]. وبرهنت العديد من المقابلات التي قمنا بإجرائها مع ملاك وأطقم العاملين في هذه المقاهي على أنها تأسست عن طريق شباب من أهل القاهرة من ذوي الخبرات المتميزة في الغرب. وكما قيل لي، فإن المقاهي الراقية تمثل مشروعات صغيرة نسبيًا، ومع ذلك فإنها عالية الربحية، وهو التحليل الذي يثبت صحته الانتشار السريع لهذه المقاهي الراقية في السنوات الحالية. ومن خلال التجربة والخطأ، فإن نماذج سلسلتين من أكبر سلاسل المقاهي الراقية، وهما روستاري، وكيلانترو، وقد تحولتا من منافذ صغيرة متخصصة في تقديم القهوة الفاخرة،

والمشهيات على الترتيب إلى وضعهما الحالي، بمقاعد أكثر راحة وفخامة وبألوان متعددة من أطباق الأطعمة والمشروبات غير الكحولية طبقًا للمفاهيم المحلية للنزهات (يمكن الرجوع إلى الجزء الخاص بباتيستي في هذا الكتاب من أجل فهم أوسع للنزهات بين الطبقات الشعبية في مصر إلى حديقة الحيوان والأماكن العامة الأخرى).

ويعشق بعضهم الأجواءالحميمة ولكن بالتصميمات الداخلية الزاعقة بعض الشئ لفروع روستارى المختلفة. كما يفضلها البعض الآخر عصرية حديثة من كيلانترو، وكلها معدنية ومتألقة، بالوسائد الجلدية المكعبة بألوانها الأصلية؛ والبعض الآخر يفضلها أنيقة وعصرية، ولكنها عملية وتتسم بالدفء على نمط بيترو كافيه. ويمكن تمييز قطاع تلك المقاهي الراقية لأماكن الترفيه بوضوح وبمعزل عن تلك الكيانات الأخرى التي تقوم بتقديم الأطعمة والمشروبات وذلك على الرغم من الفروق الموجودة في أنماطها، وفي قوائم الطعام لديها، وفي مرتاديها. ويبدو أن هناك قوانين ضمنية وحد أدنى من المستويات التي يمكن ملاحظتها على الفور من أجل ضمان جذب نوعية معينة من العملاء ومن أجل الحفاظ على وضع الفخامة لها. ويعتبر وجود طاقم عاملين مدربين تدريبًا جيدًا، ومهذبين، ويتميزون بالأناقة العصرية ذا أهمية قصوى، على غرار أسلوب وهيئة تلك المؤسسات المنتمية للعالم الأول. وتعتبر هذه الأماكن العامة معزولة ومبتعدة تمامًا بما لا يدع مجالاً للشك عن باقي الأماكن العامة وما يجاورها مباشرة بنمطها الغربي، ونظافتها البالغة، والصيانة التامة المذهلة لأجزائها الداخلية، كما هو الحال أيضًا بالنسبة لتكييف الهواء الذي يمنح إحساسًا دائمًا بأجواء مريحة. وقد أصبحت تلك الأماكن العامة جزءًا من تفاصيل التغييرات والتحولات في الأماكن العامة والبشر. ويبحث بعضها عن تلبية حاجات أولئك الباحثين عن الموضة، والبعض الآخر عن الشباب من الجماهير. وبينما يعتبر البعض منها وقورًا، فإن الآخرين يشتهرون باستضافتهم لجماهير من العامة الأقل احتشامًا. وكما سأقوم بالإيضاح

لاحقًا، فإن مثل ذلك التخطيط يعكس ليس فقط هذا أو ذاك النمط أو التمايز في حدود الأعمار السنية المختلفة، ولكنه يعكس أيضًا مخاوف ذات أهمية من مفاهيم تم بناؤها على أساس النوع الاجتماعي لآداب المجتمع، وبصفة أساسية فيما يتعلق باحترام الأنثى.

وتحمل الكثير من تلك المقاهي الراقية أسماء إنجليزية، ومثبت أسماؤها بحروف لاتينية. وتسود اللغة الإنجليزية في معظم قوائم الطعام، وتتراوح بين قائمة بسيطة بالإنجليزية (بأخطاء مطبعية) إلى قوائم أخرى باللغة الإنجليزية فقط والتي تقوم بوصف الأطعمة بمصطلحات منمقة. وتشير هذه الاختيارات إلى رغبة ملاك هذه المقاهي في الاقتصار على نوعية محددة من العملاء. ويمنحهم استخدام اللغة الإنجليزية والادعاء بالارتباط بعلاقات مباشرة وغير مباشرة بنظرائهم في أمريكا الشمالية مسحة من العالمية والحصرية بالنسبة للمكان، وبالنسبة لأطعمتها ومشروباتها، وعملائها. ويقول سميث إن خاصية تخصص المقاهي في مقاهي الولايات المتحدة الأمريكية تمثل شكلاً جديدًا لثقافة عاصمة يمكن الوصول إليها بسهولة من أي مكان (١٩٩٦). وتقدم المقاهي الراقية في القاهرة تناقضًا رئيسًا بين الطعام والشراب الأجنبي وبين نظيرهما المحلي. ويقف الشخص الذي قام بتطوير مذاق أي شيء من الكابتشينو إلى دبل إكسبريسو في تناقض مع هؤلاء الذين اعتادوا على قهوة مضبوطة أو زيادة (قهوة تركية بقليل من السكر أو بسكر أكثر). ويكمن الفارق في هذه الحالة ليس في معرفة، أو مذاق، أو في خصائص تخصص المقاهي، ولكن في المرجعيات العالمية للأطعمة والمشروبات، وفي المكان وعملائه. وفيما يخص قوائم الطعام، فإن اللغة المعتاد استخدامها في المقاهي الراقية هي لغة مهجنة بين العربية والإنجليزية كلغة تفاهم وهي التي تميّز شباب المهنيين من الطبقة المتوسطة والعليا (برجاء الرجوع إلى الجزء الخاص بأباظة في هذا الكتاب لمزيد من النقاش لهذه الظاهرة). إنها تمزج بلطف بين زخرفة مستوحاة عالميًا وبين قائمة الطعام.



"منت كافيه" بالمهندسين (تصوير أنوك دي كونينج)

وتشير المرجعية الأمريكية للمقاهي الراقية والمطاعم إلى المدى الذى ترتبط به هذه الأماكن العامة بمناطق قوة جغرافية أكبر وعابرة للحدود. ويملك التكوين المحلي للانتماء إلى العالمية تاريخًا طويلاً في القاهرة. وكانت أوروبا، وعلى وجه أخص، فرنسا، في عصور سابقة، هي المقياس لكل شيء أنيق، وكانت معظم المحلات التي تقوم بجلب احتياجات الطبقة العليا - المتوسطة تحمل أسماء فرنسية وتقوم ببيع أحدث المنتجات والموضات الفرنسية (أباظة ٢٠٠١). كما كانت المنشآت الحصرية، عندئذ، مثل جروبي، أو الأمريكيين تقوم بالمثل بنقل أحاسيس مشابهة بالانتماء إلى العالمية والتمايز المحلى مع اعتبار باريس هي المعيار الذهبي للقياس على نمطها. ولم تعد فرنسا معيارًا للامتياز والتفوق والانتماء إلى العالمية في العصر الحالي، كما يقول أحد مديري تلك المقاهي الراقية: "حيث يتوق الشباب في الوقت الحالي إلى الاقتداء بالنمط الأمريكي".

ويشير استخدام اللغة الإنجليزية في أسماء المحلات وقوائم الطعام، وكذلك في التفاعل الاجتماعي إلى أن المقاهي الراقية لا تقوم بخلق قواسم مشتركة جديدة فحسب، بل إنها تقوم بخلق نوع من التفرقة والشقاق. وفي نفس الوقت الذي تقوم فيه بخلق نوع من الشعور بالانتماء إلى العالمية، فإنها تقوم بإقصاء نفسها عن البيئة المحيطة والأغلبية الساحقة من سكان القاهرة الذين لا يعرفون لغة أخرى.. أي لا يتكلمون لغة أوروبية. وأصبحت "معرفة" لغة أجنبية في هذه الأيام، وخاصة اللغة الإنجليزية دلالة على وجود شرخ عميق في المجتمع. فهي تقوم بتقسيم الطبقة الوسطى المتعلمة إلى هؤلاء "الذين يملكون ناصية اللغة"، و"الذين لا يملكونها". ويعتبر هؤلاء الذين تعلموا في مدارس اللغات ويتكلمون اللغة الأجنبية بطلاقة على وجه العموم وكأنهم ولدوا وتلقوا تربية في عائلات أفضل، ويمكنهم التطلع إلى العمل في القطاعات العليا المتميزة من سوق العمل ***De Koning 2005; Haeri 1997***.

واستنسخت هذه الانقسامات مرة أخرى في المشهد الحضري من خلال الأماكن العامة مثل المقاهي الراقية.

"وكأنك لست في مصر"، قالتها بحماس سيدة في الثلاثينيات من عمرها وهي تبدي استحسانها من بار في المهندسين. والواضح أنها تقوم بزيارة أوروبا بانتظام، ولذا فهي تعرف عما تتكلم عنه. ويمكن لهذا البار أن يتواجد حقًا في أبرز مناطق لندن، أو باريس أو نيويورك بتصميماته الداخلية البالغة الدقة، وأرائكه الجلدية الزرقاء، وأضوائه الخافتة، وسلسلة مجموعات الكوكتيل التي يعرضها. وبينما يثير هذا البار أو المقهى النادر مثل هذه المشاعر من الدهشة والفرح لتواجد مثل هذا المحل البارز الذي ينتمي للعالم الأول والذي أصبح تواجده مبتذلاً للغاية في القاهرة، وأصبح الأمر معكوسًا في القاهرة. وأصبح تواجد الأماكن العامة مثل المقاهي الراقية، ومحلات السوبر ماركت الأنيقة التي تقوم بتقديم أولويات العالمية، أو المراكز التجارية الحصرية التي قليلاً ما تنتزع الرهبة أو التعليقات المثيرة من شباب القاهرة من الطبقة العليا – المتوسطة والذين قابلتهم في معرض إجراء البحث. وأصبحت هذه الأماكن العامة، وعلى مدار سنوات قلائل هي الأماكن العامة البديهية التي ينتشر فيها العامة من الطبقة العليا – المتوسطة. وتفترض محلات مثل بيترو، وبينوز، وتوباسكو عضويتها في أماكن عامة عالمية تخيلية والتي هي محلية في الأساس، قاهرية ومصرية، ولكنها جزء من دوائر وجماهير العالم الأول. وفي نفس الوقت، هي الأماكن الخاصة لمشروعات طبقة محلية، والتي تظهر فيها وبوضوح مرجعيات عالمية انتماءها لدوائر الطبقة الراقية للإنتاج والاستهلاك في القاهرة.

أماكن عامة جديدة وارتباطات اجتماعية خاصة

تبدو سلوكيات وتفضيلات المهنيين من أفراد الطبقة العليا -المتوسطة لأماكن التواصل الاجتماعي المختلط وشعورهم بأنهم في منازلهم أثناء تواجدهم في المقاهي الراقية وكأنها عفوية وبديهية. ولكن هذا التواصل الاجتماعي المتميز- وهو اختلاط الشباب الأعزب من الجنسين – لا يقدم نموذجًا لا منافس له. فإن ممارسات التنزه للنخبة تقوم بوظيفة من أكثر الممارسات المستفزة لكل من الحداثة والفسوق، طبقًا لإدانات وأقوال المعلقين عليها. وتعتبر أكبر المسائل إثارة للجدل في هذا الصدد لممارسات هؤلاء النخبة في نزهاتهم هو ممارساتهم الشخصية في الاختلاط: اختلاط النساء والرجال في الأماكن العامة *(Armbrust 1999)*. وكانت المقاهي الراقية قادرة دائمًا على جذب قطاع أوسع، وباستثناء أقل قليلاً، عامة ومختلطة بين الجنسين. ويعتبر التواصل الاجتماعي المختلط أمرًا ملحوظًا، نظرًا للطبيعة الشائكة للتواصل الاجتماعي المختلط والتي تحدث خارج نطاق العائلة والقيود المعتادة التي تحيط بتواجد سيدة غير متزوجة في الأماكن العامة للتنزه بدون الأساس المنطقي للدراسة أو العمل. (برجاء الرجوع إلى الجزء الخاص بأرمبرست في هذا الكتاب لوصف أنماط العامة من الجنسين، والشباب، في نشاط مشاهدة الأفلام).

وبالمقارنة بأوضاع المقاهي في الغرب والتي تتميز بأنشطتها وأوقات عملها اليومي المحدودة طوال اليوم، فإن المقاهي الراقية في القاهرة تستضيف مجموعة من ذوي ثقافة أوقات الفراغ يمكن مقارنة حجمها بذوي ثقافة فراغ الفترة الليلية في المدن الغربية. وتعتبر هذه هي الأماكن العامة، وهي للكثيرين من نساء الطبقة العليا – المتوسطة، الأمكنة الوحيدة المتاح فيها حياة اجتماعية خارج نطاق العائلة. وتصبح بعض هذه المقاهي في أمسيات أيام الخميس مزدحمة للغاية مثلها مثل

البارات الشعبية الغربية في أمسيات أيام السبت. فيتقابل "شلة" الشباب، ويتباهون بأحدث خطوط الموضة، ويندمجون في مغازلات خفية. وقد نجحت هذه المقاهي الراقية، على وجه العموم، في إرساء مشاعر الانتماء للعالم الأول، بينما تتفادى في نفس الوقت وصمها بالارتباط بنمط الترفية الليلي غير الأخلاقي في الغرب. ويساعد عدم وجود الكحوليات وتواجد دلالات طبقة اجتماعية معينة من الجنسين متأصلة في هذه النمط العابر للأوطان، يظهر هذه المقاهي الراقية بوضوح كأماكن عامة متحضرة ومتميزة وتوصف بأنها آمنة للنساء ومحتشمة للتواصل الاجتماعي المختلط بين الجنسين.



سيدة تجلس في كافيتريا بمدينة نصر (تصوير أنوك دي كونينج)

يستمر التجمع حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة مساءً، وهو التوقيت المتوقع أن تكون فيه النساء غير المتزوجات في بيوتهن. وكما قيل لي في معرض المزاح، "كلنا نملك شباشب خفيفة لارتدائها عند الدخول للمنزل". ويثير هذا التعبير المعتاد على ألسنة النساء، مشهد الآباء الذين ينتظرون غاضبين عودة أبنائهم للمنازل، والشباشب في أياديهم، وهم على أهبة الاستعداد لضرب المتجاوزة لحدودها في تجاهل قوانين حظر التجوال. وتعتبر المراقبة العائلية ملمحًا هامًا في حياة نساء الطبقة العليا المتوسطة، واللاتي يعشن مع أسرهن، وبدون استثنـــاء. ولا تتوقف المسئولية العائلية وقدرة العائلة على محاسبة الفتاة غير المتزوجة على سلوكياتها حتى عندما تكبر وتصبح مستقلة من الناحية المالية. وقد أخبرتني الكثيرات من الشابات الصغيرات أن مواعيد العودة مساءً تم فرضها من أجل حماية سمعة العائلة أمام كافة الجيران. وبصفة عامة، فإن مثل هذه الرقابة يتم تطبيقها من أجل أن تكون جزءًا أساسيًا من التزامات الأسرة من أجل حماية الابنة من السير في الطريق الخطأ، وبالتالي حماية سمعتها ومستقبلها كفتاة ***Macleod 1991; Abaza 2001; Ghannam 2002***.

بينما يملك الشباب الكثير من البدائل في اختيار الأماكن التي يقضون فيها أوقات التنزه والفراغ، فإن الأمر ليس كذلك في حالة الفتيات. ولقد أصبح تواجد النساء في كل من الحياة المهنية والاجتماعية أمرًا حتميًا لنمط حياة الطبقة العليا المتوسطة، ولكن هذا التواجد هش إلى حد ما، ويتم في أماكن عامة ترتادها طبقة اجتماعية متجانسة، وبالاحترام والحماية اللذين لا مفر منهما في مسعاهم لهذه الأماكن العامة. وكانت مسارات الشباب من الطبقة العليا المتوسطة في القاهرة والتي نمت إلى علمي تستند دائمًا على خرائط الطبقية؛ الأماكن الآمنة للنساء هي الأماكن العامة الخاصة بطبقة معينة. وهي الأماكن الوحيدة التي تكون فيها المرأة

على سجيتّها، فترتدي ما ترغب فيه وتحادث الجميع كما تحب، بدون مضايقة من أحد أو دون أن يُنظر إليها كامرأة غير محمودة السيرة.

وتعمل الأسعار المرتفعة، أو شرط الحد الأدنى من المشروبات في المقاهي الراقية على إبعاد أولئك الذين لا ينتمون إلى الطبقة "الميسورة". وتعتبر هذه "الانتقائية" الطبقية أمرًا حاسمًا في تحديد سمعة أي مقهى من تلك المقاهي الراقية. ويفترض أن يكون كل العملاء من "مستوى ثقافي" متقارب، ومقيدًا بالضوابط المشتركة من حيث حسن الاختلاط والاحتشام. وقد لا يرغب الكثير من الزائرين في أن يجلسوا في مكان مرئي عام فيه حشود من العامة (البيئة)، وهي كلمة ازدراء لهؤلاء الذين ينتمون إلى طبقة اجتماعية أدنى بأذواقهم غير العصرية الرخيصة. ويزداد على عملية الضبط الاقتصادي تقنين سياسة للدخول. وقد أشار أحد مديري تلك المقاهي الراقية للأهمية القصوى لتلك الانتقائية عندما شرح معنى "غير المؤهلين" بأنه يعني هؤلاء الشباب الذين يرتدون ملابس رديئة، أو يبدو عليهم أنهم عابثون، أو كثيرو الضجة، أو يبدو عليهم أنهم "مثيرون للمتاعب". ويستند الخوف الدائم من جذب أولئك الذين ينتمون إلى طبقات اجتماعية أدنى ليس فقط على أهمية حماية المظاهر الطبقية للمكان، ولكنه يستند أيضًا للقناعة بأن الدهماء قد لا يلتزمون بالقواعد الضمنية المتعارف عليها في الاختلاط بين الجنسين. فقد يندفع الشباب الصغار مستثارًا نتيجة لوجود الكثير من الفتيات الصغار في المغازلة والعبث ومضايقة الزبائن، كما يمكن أن ترنو الفتيات منهن إلى محاولة التقاط الأثرياء من المترددين المنتظمين. وتتردد هذه الافتراضات من المخاوف المرضية من الآخر، والأماكن العامة الأقل نخبوية والتي تضم الجنسين، والتي يعتقد أنها يمكن أن تكون مرتعًا للعلاقات السهلة التي تنطوي على مقابل مالي. وتخلق الحصرية الاجتماعية للمقاهي الراقية ما يشبه المجتمع كما تخلق أوضاعا طبيعية لهيمنة الأثرياء، والتي تتكون من ضوابط للسلوك الاجتماعي

والنشاط الاجتماعي بين الجنسين تضعها طبقة اجتماعية معينة. ويخشى المرء في مثل هذه الأماكن أن يتخطى حدود هيمنة اجتماعية ترتبط بالعامة من هؤلاء الأثرياء. وفي المقابل تحدد المؤشرات الطبقية للمكان وعملائه حدود هذه الأنشطة الاجتماعية المختلطة، ومدى تواجد الشابات الصغيرات غير المتزوجات، وبالمثل وبصفة نسبية إمكانية ارتداء الأزياء المكشوفة (مثل الميني جيب)، والبادي (بلوزة ضيقة وقصيرة)، أو البلوزات بدون أكمام - كجزء من طبيعة الطبقة وبالتالي احترام هذه الأزياء.

وحتى داخل هذه الأماكن العامة من المقاهي الراقية، فإن اختلاط الجنسين من الشباب اليافع - وما يصاحبها من الأساليب الأنثوية - ليست أمورا طبيعية معتادة أو مفروغا منها كما تبدو لأول وهلة. ويلحظ المرء عند قراءة ما بين السطور عند الثرثرة والسلوكيات المعيارية في المقاهي الراقية، أن هناك مشاعر قلق وهواجس دائمة بخصوص آداب المجتمع والالتزام. وبينما تشجب نصيرات المقاهي الراقية التي أعرفهن معظم المقاهي الراقية، والتي تعتبر راقية وطبقية بوضوح، فإنهن يقمن بمراقبة هذه ورصد احتمالات أي انتهاك محتمل لآداب اللياقة والاحترام. وكان مقهى بيترو والذي افتتح حديثًا إبان ربيع عام ٢٠٠٢، هو حديث المدينة في مختلف أوساط الطبقة الراقية التي كنت أتحرك خلالها. وفي نفس الوقت الذي خلقت فيه المقاهي الراقية والمطاعم الأخرى جُزرا من الخصوصية حيث تستطيع "الشلل" المتواجدة فيها بالفعل أن تتواصل، فإن تصميم مقهى بيترو، بمناضده الطويلة ومناطق الجلوس المعتادة والمريحة، سمحت بفرص أكبر للتلاقي. وقالت لي "هالة" وهي آنسة شابة في أواخر العشرينيات من عمرها، ومن أنصار ارتياد تلك المقاهي الراقية والمولعات بها، إنها بعد زيارات قليلة كفت عن ارتياد هذا المقهى بالذات. كما أوضحت لي قائلة "إن هذا المقهى بالذات يقوم بجذب الفتيات الباحثات عن علاقات عاطفية" وهل لاحظتِ كيف يزحفون تجاه بعضهم

بعضا؟ الاستمرار في ارتياد ذلك المكان يمكن أن يضعني في موقف سخيف. وماذا عن الأخريات اللاتي يمكن أن يرونني في ذلك المكان؟ وهل يمكن أن يعتقدن أنها هي تلك المنبسطة وغير المتحفظة، و"السهلة"، وبالتالي أقل من مُحترمة؟

وتشترك هالة في هذه الهواجس عن "الجدارة بالاحترام" مع الكثيرات من الفتيات الصغار غير المتزوجات. وتعتبر سمعة العلاقات للفتيات ذات أهمية قصوى لوضعها في المجتمع وفرصها المستقبلية في الزواج، وبالمثل في سمعة عائلتها في المجتمع. وتعتبر سمعة الفتيات هي الزاد الرئيسى لمواضيع النميمة والهواجس المستمرة لها. وغالبًا ما تتطرق أحاديث المقاهي الراقية بطريقة هزلية لمواضيع الاحترام، والفضيلة، وبصفة خاصة في جماعات التواصل الاجتماعي المختلط. ويعتبر تكرار التعليقات عن الفضائل والضوابط التي يتم مراعاتها في هذه اللقاءات مع الأصدقاء من الشباب، أو، على سبيل المثال، السباحة بالمايوه، مثيرا للدهشة، وكذا الطابع العام الذي يتعمدن الظهور به. وأثيرت هذه الموضوعات في وجود الأصدقاء من الفتيان والمعارف من أجل تصوير الاهتمام بخصوص الالتزام، إذا ما كان هؤلاء الفتيان يعتقدون من واقع تواجدهم في هذه الأماكن العامة لتعايش الجنسين اجتماعيًا، بأن هؤلاء الفتيات يمكن أن يكن "في المتناول" أكثر من اللازم تمامًا.

مظاهر من التقارب والتباعد

يعيد العرف الذي يمثل شباب المهنيين الذي يرتادون المقاهي الراقية في المجتمع المحلي العالمي رسم خرائط قلة اللياقة أو الاحتشام والانتساب. وتعتبر العاصمة العالمية ذات القيمة الثقافية العالية والتي تقوم بفتح أبوابها لأفضل الأعمال المهنية والأوساط الاجتماعية وتؤمن على من ينتمي للثراء الأكثر نسبيًا والهدوء،

والأناقة العالمية من أهل القاهرة. وتعتبر المقاهي الراقية جزءًا لا يتجزأ من طائفة من المنتجات، والخدمات، والمواقع الراقية التي أصبحت على ما يبدو متمتعة في الواقع باكتفاء ذاتي في المدينة. وبينما من هم دون ذلك من الناحية الثقافية والاقتصادية يتوارون في الظل ويشكلون في الغالب قوامًا مصطنعًا في "الخارج". ويمكن أن تكون مشاعر الخوف، والابتعاد، والقلق، والرثاء، كلها جزءا من المواقف تجاه هذا "الخارج". وسواء كانت إيجابية أو سلبية، فإن مثل هذه المواقف حتميًا تنطوي على أخطار الجهل والإقصاء. ويبدو الرفاق القاهريون والذين يرقبونك وأنت تقوم بإيواء سيارتك بالقرب من أبواب ذلك المقهى الراقي البالغ الفخامة بعيدين جدًا عن متعتك المفضلة بكوب الكابتشينو، وهي العادة التي يستمتع بها، وعلى النقيض مما يحدث هنا، الملايين من الآخرين حول العالم. وتقوم الطوائف المحلية والتي تنتمي إلى العالمية بالتضافر مع نظيرتها فى الإقصاء، بإعادة تشكيل كل الأماكن العامة الأخرى من المشهد الحضري لتصبح متوارية وغير مألوفة ومصطنعة بطريقة متزايدة.

الأعمال المُستشهد بها

Works Cited

Abaza, Mona. 2001. "Shopping Malls, Consumer Culture and the Reshaping of Public Space in Egypt." *Theory, Culture & Society* 18 (5): 97–122.

Amer, Mona. 2002. "Youth Labor Market Trajectories: A Comparison of the 1980s and 1990s." In *The Egyptian Labor Market in an Era of Reform*, ed. Ragui Assaad, 233–57. Cairo and New York: The American University in Cairo Press.

Appadurai, Arjun. 1990. "Disjuncture and Difference in the Global Cultural Economy." *Public Culture* 2 (2): 244–55.

Armbrust, Walter. 1998. "When the Lights Go Down in Cairo: Cinema as Secular Ritual." *Visual Anthropology* 10 (2–4): 413–42.

———. 1999. "Bourgeois Leisure and Egyptian Media Fantasies." In *New Media in the Muslim World: the Emerging Public Sphere*, eds. Dale F. Eickelman and Jon W. Anderson, 106–32. Bloomington: Indiana University Press.

Denis, Eric. 1997. "Urban Planning and Growth in Cairo." *Middle East Report* (Winter): 7–12.

Ghannam, Farha. 2002. *Remaking the Modern in a Global Cairo: Space, Relocation, and the Politics of Identity.* Berkeley: University of California Press.

Guano, Emanuela. 2002. "Spectacles of Modernity: Transnational Imagination and Local Hegemonies, Neoliberal Buenos Aires." *Cultural Anthropology* 17 (2), 181–209.

Haeri, Niloofar. 1997. "The Reproduction of Symbolic Capital: Language, State and Class in Egypt." *Current Anthropology* 38 (5): 795–816.

de Koning, Anouk. 2005. *Global Dreams: Space, Class and Gender in Middle-Class Cairo.* Ph.D. thesis, University of Amsterdam.

Kuppinger, Petra. 2004. "Exclusive Greenery: New Gated Communities in Cairo." *City & Society* 16 (2): 35–61.

MacLeod, Arlene Elowe. 1991. *Accommodating Protest: Working Women, the New Veiling, and Change in Cairo.* New York: Columbia University Press.

Mitchell, Timothy. 2002. *The Rule of Experts: Egypt, Techno-Politics, Modernity.* Berkeley: University of California Press.

Smith, Michael D. 1996. "The Empire Filters Back: Consumption, Production and the Politics of Starbucks Coffee." *Urban Geography* 17 (6): 502–25.

Tourné, Karine. 2003. "Figures of Youth in Egypt: The Young Graduates Between Visibility and Illegitimacy." Paper presented at the Fourth Mediterranean Social and Political Research Meeting, 19–23 March.

الهوامش

١. هذه المساهمة هي نسخة مختصرة من فصل أكبر لأطروحتي الخاصة للمشهد الحضري الاجتماعي الثقافي للطبقة المتوسطة في القاهرة في ظل ظروف السياسيات الليبرالية الجديدة والبحث عن الانضمام تحت لواء العولمة (راجع دي كونينج ٢٠٠٥). انتفعت هذه المقالة كثيرًا من رحلة لمتابعة بحث في عام ٢٠٠٤ والتي دُعمت ماديًا من المنظمة الهولندية للبحث العلمي. وأدين بالفضل لكل من *Yatun Sastramidjaja*، والمحررين على آرائهم العميقة على إصدارات سابقة من هذا الفصل.

٢. قمت بتغيير أسماء الأشخاص المدرجة أسماؤهم في هذا الفصل.

٣. قمت بإجراء أبحاث أطروحتي لرسالة الدكتوراة من سبتمبر ٢٠٠١ وحتى فبراير ٢٠٠٣، واستكملت بالبقاء فترة قصيرة في عام ٢٠٠٤.

٤. تورد منى أباظة في مناقشتها عن المراكز التجارية ملاحظة مؤداها "أن أسلمة الأماكن العامة في سنوات التسعينيات تزامنت مع استراتيجيات بقاء اتخذت أنماط تخفيف القواعد بين الشباب، ضمن إطار مرجعية إسلامية" ٢٠٠١، ١١٨.

٥. في المقابل فإن هناك عددا من الكافيتريات التي تقدم خدماتها لنفس هؤلاء الشباب، والأثرياء من العامة مثل سلسلة مطاعم "*T.G.I. Friday's*"، و "*Chili*" وهي حق امتياز لسلسلة مطاعم من أمريكا الشمالية.

الفصل السابع

من دبى إلى القاهرة
التسابق بين مدن العولمة، نماذج، وتحولات فى مناطق التأثير

ياسر الششتاوى

ظلت مصر ولعقود طويلة هـــي الأكبـــر، والقـــوة المركزيـــة العربية وهي التي تقود العالم العربي ومجالات الإبداع فيــه. ولكن يتم قيادة المنطقة اليوم من قوى خارجيــة. وهــا هــم الأشقاء الصغار هم الذين يقومون بــأكثر الأعمــال إثــارة، وهؤلاء الكبار هم الذين سُينبذون في الخلف إذا لم يستيقظوا سريعًا.

(توماس فريدمان "الأسرع يلتهم الأكثر بطئًا – نيويورك تايمز، ٢ فبراير ٢٠٠١).

صرح صحفي بارز في جريدة النيويورك تايمز مؤخرًا أن اتجاه النفوذ في العالم العربي قد تحول من مراكزه التقليدية في القاهرة، وبغداد، ودمشق ليستقر في الدول التي تقع على التخوم الخارجية. ويرى المؤلف أن هذه الدول – وبالذات تلك الدول الصغيرة في الخليج العربي تُعد من ضمنها – هي الأكثر ابتكارًا والأكثر تطلعًا للأمام. ويمكن الاستشهاد بمجموعة من الأحداث والمشروعات كدليل على صحتها. وبينما تظل الدوافع السياسية وراء هذا التصريح محل تساؤل، وعلى

الرغم من ذلك، فإنها تثير العديد من الأسئلة: هل هذه البيئات الجديدة لعصر ما بعد القوى التقليدية تمارس تأثيرها على المراكز التقليدية القديمة للشرق الأوسط؟ وما هي المظاهر الحضرية والمكانية لمثل هذا النفوذ (إذا ما كان هذا النفوذ متواجدًا بالأصل)؟ وهل يجب أن يُفسر هذا النفوذ وكأنه من جانب واحد أم كجانب من شبكة عالمية أكبر والتي يحدث فيها التأثير على مستويات متعددة وتظهر فيها العديد من الاتجاهات (بدلاً من التفسير الساذج والأحادي الاتجاه الذي يؤكده الصحفي)؟

يبدأ هذا الفصل منطلقًا من هذا النقاش كنقطة بداية من أجل استقصاء نفوذ مدينة دولة الإمارات العربية المتألقة دبي على مدينة القاهرة، وهي لاعب بازغ على النطاق العالمي. وتمتلك القاهرة، تقليديًا نفوذًا ثقافيًا واجتماعيًا ومعماريًا قويًا على العالم العربي، ولكن هذا النفوذ والتأثير آخذ في التقلص في الوقت الحالي. وبدأت سلسلة من المشروعات في الظهور كاستجابة ورد فعل لتأثير شهرة دبي الجديدة. وتشمل هذه المشروعات: مشروع القرية الذكية (وهي صورة من مدينة دبي للإنترنت)؛ ومعادي سيتي سنتر (نسخة من دبي سيتي سنتر، وهي سلسلة مركز تجاري للبيع بالتجزئة)؛ ثم العديد من التجمعات السكنية ذات الأسوار المغلقة التي ظهرت في القاهرة الجديدة، والتي تعتبر صدى لمشروعات مماثلة في دبي. ويوجد هذا التماثل في أرض الواقع في العديد من الحالات ويشار إلى علاقتها المباشرة بتأثير دبي.

بينما تؤدي هذه المشروعات والأحداث عملها في مواقع مثل دبي فإنها ليست حصرية أو مقيدة، وتسمح في جوهرها ببداية جديدة للتجربة والاستجابة للظروف العالمية بينما مواءمتها لمدينة تقليدية مثل القاهرة يظل محل تساؤل. وتبدو هذه المشروعات الجديدة وكأنها منفصلة وليس لها أي علاقة بالواقع المحيط بها. وبينما هذه المشروعات من الخصائص المميزة للمدن العالمية، فإنها تكتسب أبعادا حادة (ويمكن أن يقول عنها البعض مسلبية) في حالة القاهرة. ومن الممتع

ملاحظة كيف أن القاهرة في سعيها تجاه أن تصبح مدينة عالمية فإنها تستلهم وتأخذ تجاربها بوضوح من مراكز ما بعد التقليدية مثل دبي، والتي بدورها تستجيب إلى وتتأثر بظروف عالمية أكبر، كما تتأثر بالمدن العالمية الأخرى. ويثير هذا الموضوع معضلة الهوية. ونأمل أن نقوم في هذا الفصل بمعالجة ذلك بالبرهنة على أنه في عالم ما بعد حقبة العولمة فإن مفهوم الهوية قد واجهته تحديات؛ إنه مفهوم متغير، ومائع، وبناء غامض. ويمكن أن يسلط فحص هذه المشروعات بعض الضوء على المفاهيم المتغيرة للهوية المصرية في ميراثها الخاص (التي تتجسد في ميراثها الإسلامي والفرعوني) وتلك المشروعات التي تخص الآخرين (مثل دبي على سبيل المثال) والتي تستخدم كعلامة تجارية من أجل جذب الشركات المتعددة الجنسيات والسير في ركاب العولمة. ويفترض أن يستتبع ذلك أن يحل الرخاء والسعادة (والتي قد تكون موضع شك). وسيتجه هذا الفصل أولاً إلى مناقشة هذه التأثيرات تجاه استكشاف هيكل المدينة العالمية وظهور شبكة من المدن. وسيستتبع ذلك تحليل لحالات عملية سبق ذكرها بعاليه، وذلك كمثال للانعكاس المدرك للتأثير والتي سيتبعها تحقيق عن مدى توافقها (أو الافتقار إلى هذا التوافق) ضمن الحالة المصرية. وسيختتم هذا الفصل بالحديث عن علاقة مثل هذه الدراسات المقارنة في سياق أحاديث تقاليد/ ما بعد – العولمة وذلك بالاستعانة بالإطار الذي تم تحديده في هذا التلخيص.

الإطار النظرى: المدن العالمية والشبكات المتصلة بها

قام الكثير من الباحثين بصك مصطلح "المدينة العالمية" كنتيجة لتحولات العولمة وكدلالة لظهور نوع جديد من المدن لها خصائص معينة يمكن أن يلحظها المرء في الكثير من المدن عبر العالم. وبصفة خاصة فإن وثاقة الصلة بين الدولة

الأمة هى موضع تساؤل، ويبرز حكام المدن في هذا الصدد كمراكز للاقتصاد العالمي الجديد. وتتم المعاملات في هذه الحالة بين المؤسسات العالمية متعددة الجنسيات، والمراكز المالية، والمدن. وعلى الرغم من ذلك، فمن الملحوظ أن الدولة - الأمة لا يزال لها دور لتلعبه، وربما يتم ذلك من خلال عملية إعادة بناء تتضمـــن تحـــركًا تجـــاه مستويات خارج الصعيد الوطني (مثل الاتحاد الأوروبي أو مجلس التعاون الخليجي على سبيل المثال). ولكن المدن تضطلع بدور أقوى، وكنتيجة لمثل هذا الدور، يُنظر إليها بصفة متزايدة كمنتج مطلوب تسويقه. وتقوم هذه الجهود التسويقية بجذب الفروع الرئيسية أو الإقليمية للشركات العالمية وتنظيم الأحداث العالمية الكبرى. وتشمل المشروعات الأخرى الإسكان الفاخر، والمطاعم، ووسائل الترفيه الراقية من أجل جذب رجال الأعمال الراغبين في العمل في هذه الأنشطة العالمية. وتمد المشروعات الحضرية مثل المراكز التجارية، ومراكز المؤتمرات، والفنادق، بالعوامل المُحفزة من أجل مزيد من التشجيع للاستثمار والسياحة. وتستخدم الهندسة المعمارية في كثير من الحالات من أجل خلق انطباعات تخطف الأبصار - وخير مثال على ذلك هو متحف جوجينهايم في بلباو بإسبانيا (الأمم المتحدة - برنامج المستوطنات البشرية). وتستخدم مثل هذه المشروعات كوسيلة لبعث الحياة في المدن التي أصابها الجمود في المجالات الأخرى - وهي العملية التي يُطلق عليها أحيانًا "تأثير مفعول بلباو".

وقد لاحظ البعض كنتيجة لكل هذه التأثيرات أن هناك مدينة ذات وجهين تبرز إلى الوجود وحيث يصبح الاستقطاب الاجتماعي هو الأمر الغالب في المدينة. وربما يمثل العمل الذي قدمه ساسكيا ساسن وجهة النظر المؤيدة لذلك (٢٠٠١). وينشأ تدفق هائل للقوى العاملة ذات المهارة العالية، والمرتبات المرتفعة، نتيجة لوجود مثل هذه المشروعات الرفيعة المستوى. ويكون هناك، على الرغم من ذلك، احتياج للعمالة ذات الأجور المنخفضة من أجل تنفيذ عمليات الصيانة والخدمات

والذين يمثلون العمود الفقري للمشروع وأنشطته المالية. وهكذا يحدث انقسام جغرافي/ مكاني تُخلق نتيجة له مناطق عالية الكثافة يتركز فيها الفقراء بالمقارنة بجزر منعزلة من الإسكان الفاخر للأثرياء. والأكثر من ذلك، أن هذه الدراسة تبحث عما إذا كان هناك تأثير بالاحتكاك على الصناعات المحلية أم لا. ولسنا في حاجة إلى القول بأن ذلك التفاوت يستثير "مشاعر السخط، والقلاقل الاجتماعية والنزاعات" (الأمم المتحدة – برنامج المستوطنات البشرية). وبكلمات أخرى، فإن هذه المشروعات العملاقة لا تفيد بالضرورة معظم قاطني المدن حيث إنها تكون موجهة لكي تلاءم طبقة معينة (لتحليل أعمق في هذا الصدد في هذه المناقشة يمكنك الرجوع إلى الجزء الخاص بفيجنال ودينيس في هذا الكتاب).

يعتبر واحدا من أهم المظاهر المرصودة نتيجة لتحول المدن نحو العالمية هو ما يمكن وصفه "بتقسيم الأماكن الحضرية"، نتيجة للتقسيم الواضح بين الأغنياء والفقراء. ويكشف هذا التقسيم عن وجهه في وجود المدن السكنية في أبرز هذه المقاطعات أو "القلعة المحصنة". فهناك "مناطق يمكن أن نعتبرها كقلاع محمية للأثرياء، وهم الممثلون لصفوة القمة المتحركة، والذي يعملون على المستويات العالمية أكثر من ذي قبل... وهذه المقاطعات تتكون من شقق سكنية باهظة التكلفة في مواقع متميزة" ***(Marcuse and van Kempen 2000)***. وتعتبر التجمعات السكنية ذات الأسوار المُغلقة، وأبراج المجمعات السكنية الخاصة ذات الحراسة الأمنية الكثيفة كأمثلة لهذه القلاع. وبعبارات بسيطة فهي محاولات من أجل "إدخال البعض داخل أبراج عاجية وإخراج الآخرين منها" ***(Marcuse and van Kempen 2000, 30)***.

وقد سارعت هذه التطورات بما يماثل ما ينادي به "مانويل كاستييس" في أن هناك منطق مكاني جديد في هذه المدن العالمية يسمى "فضاء التدفق" مقارنة بالأشكال التقليدية للتطور الحضري والتي يُطلق عليها "فضاء الأماكن" (١٩٩٧).

ويتم تركيز الخدمات ذات المستوى العالي في القليل من المراكز المحورية المشتركة. ويضيف قائلاً "إنها عملية تركيز تربط بين الخدمات الراقية، ومراكز الإنتاج، والأسواق التي ترتبط بالشبكات العالمية بكثافة مختلفة... وتعتمد على الأهمية النسبية للأنشطة التي تقع في كل منطقة إزاء الشبكة العالمية" ***Castells 1997, 380***. والأكثر من ذلك، تلعب المناطق التي تحيط بهذه المراكز المحورية أدوارًا مساعدة بطريقة متزايدة وتصبح في بعض الأحيان لا علاقة لها بها ***(Castells 1997, 380)***. ومن الخصائص الرئيسية الواضحة لهذه المراكز الحضرية المتميزة أن مراكز خدماتها متناثرة وغير متمركزة لصالح التخوم (مثلا لاديفنس في باريس، وكاناري ويرف في لندن). وهكذا يبرهن كاستييس على أن المدينة العالمية، على هذا النحو، وبصفة أساسية هي "عملية بموجبها تكون مراكز الإنتاج والاستهلاك للخدمات المتقدمة، والمجتمعات المحلية المساعدة لها، مرتبطة بشبكات عالمية، وفي نفس الوقت فإنها تقلل من أهمية ارتباطها بالمقاطعات المحلية النائية عنها، وذلك على أساس تدفق المعلومات ***(Castells 1997, 386)***. فما الخصائص المميزة لهذه المدن الضخمة أو العالمية؟ يقول كاستييس (وآخرون) مرة أخرى أن الملمح الواضح والمتميز لهذه المدن هو أنها مرتبطة عالميًا ومنفصلة محليًا، ماديًا واجتماعيًا" ***(Castells 1997, 404)***. إنها كوكبة غير متصلة من الشظايا المكانية المتفتتة، والأجزاء الوظيفية المنفصلة، والقطاعات الاجتماعية المجزأة" ***(Castells 1997, 407)***. ثم يقوم بسرد قائمة من بعض الخصائص المشتركة لهذه المراكز العالمية فيقول عنها: مجتمعات منعزلة، وقاعات لكبار الزوار بالمطار، وغير ذلك، وكلها مجهزة من أجل "الثقافة العالمية" والتي ترتبط هويتها بالمؤسسات الضخمة متعددة الجنسيات. وتوضح ساسن، في بيانات قامت بتبويبها، ما تُطلق عليه مصطلح بروز "مدن الشبكات" والتي تبدأ المناطق فيها في تشكيل شبكات، مكونة شبكة مدينة عالمية، وتصبح المدن المشتركة فيها بموجبها عالمية من خلال

الشبكات التي تشارك فيها. مع التوكيد على مدن عالمية بازغة مثل ساو باولو، وشنغهاي، وهونج كونج، ومكسيكو سيتي، وبيروت، ودبي. وكم هو مثير للدهشة كيف أن هذه المناطق العالمية تقوم باستنساخ الكثير من الملامح للمدن العالمية *(Sassen 2002)*.

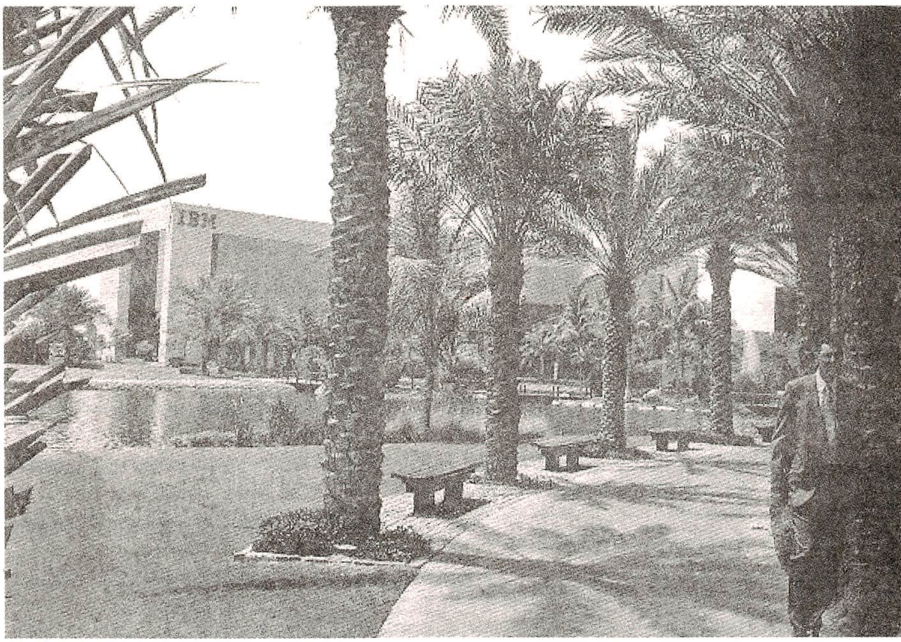
ما يبدو لنا بوضوح من هذه القراءات أنه إذا ما قام المرء بفحص هيكل "التأثير" فإنه من البساطة البالغة بمكان أن يتحدث عن "مركز" واحد أو مدينة واحدة تؤثر في الأخرى. وإذا ما تخيل المرء أن هذه المراكز موضوعة على شبكة فإن تأثيرها يصبح متعدد الأبعاد، وتنبسط على العديد من الاتجاهات. وهكذا، وعن طريق استخدام مفهوم "التدفقات" فإن الصور والأفكار تتدفق من جانب من العالم إلى الجانب الآخر بصفة لحظية، ومن مدن معينة إلى هذه الشبكة البالغة الاتساع. ويصبح السؤال المثار عندئذ ليس فقط عن من ومقدار التأثير على من، ولكن عن ما هو المدى الذي تسمح به الظروف المحلية في نشر العمليات العالمية؟ فحص حالة كل من دبي والقاهرة على وجه الخصوص تبدو ساطعة الوضوح حيث إن كلا منهما تسعيان حثيثًا للدخول في نادي المدن العالمية – ولكن النتائج مختلفة تمامًا في كلتا الحالتين.

هناك مجالان محتملان للبحث إذا ما نظرنا إلى وجهة التأثير في القاهرة: المشروعات التي ترعاها الدولة والتي تتبنى أكثر أو أقل الفكرة نفسها بدون النقل المباشر (شيدت المشروعات المماثلة على نمط مثيلاتها حول العالم)؛ والاستثمارات المباشرة من الشركات التي تتخذ من دبي مركزًا رئيسيًا لها، ثم تشييد مشروعات مباشرة على نمط المشروعات الناجحة في دبي. وهكذا يمكن أن يتم الربط بين التأثير وكلتا الفكرتين (تعريض نفسها لمصدرين) أو شكلين من أشكال التأثير. وتشتمل الفئة الأولى في القاهرة على مشروع القرية الذكية؛ أما الفئة الثانية فتشمل مركز التسوق التجاري "معادي سيتي سنتر"، والتي تستند على مفهوم قامت بإدخاله

مجموعة الفطيم التي تنتمي إلى دبي. وهاتان الفكرتان هما بوضوح من استلهام أفكار دبي. ولكنها جميعًا ليست استثناءً أو فريدة من نوعها في المدينة وتحدث في المراكز الأخرى عبر العالم وبأشكال متعددة. أفقد قيمت مدينة الإنترنت على سبيل المثال على غرار وادي السليكون في كاليفورنيا ومناطق التكنولوجيا الصناعية في جنوب شرق آسيا. كما أن مفهوم "الهايبر ماركت" أو مراكز التسوق البالغة الضخامة والتي تضم كل ما يُخطر على ذهنك من سلع، ليست من بنات أفكار دبي ولكنها شائعة في العالم المتقدم. ويشي تفرد هذه المشروعات بالنسبة للوضع المصري - والتي يتم تنفيذها بعد نجاحها في دبي بتأثيرها القوي، وبصفة خاصة فيما يتعلق بمشروع معادي سيتي سنتر. وسنستكشف في القسمين التاليين المنبع الذي تم استلهام فكرة هذين المشروعين منه، ومدى تقاربه مع نمط دبي.

العلاقة بتكنولوجيا المعلومات

أعلن الشيخ محمد بن راشد الحاكم الفعلي لدبي في عام ١٩٩٩ إنشاء مركز لتكنولوجيا المعلومات ويطلق عليه اسم مدينة إنترنت دبي. واكتمل تشييد المركز بعد ذلك بعام واحد، بعناصر المشهد الحضري فيه، وتواجد مبان إدارية، واعتبر منذ ذلك الحين نجاحًا لا نظير له. وبتواجد أسماء لامعة في سماء صناعة تكنولوجيا المعلومات مما جعل من دبي محورا لتكنولوجيا المعلومات في المنطقة. وتقع المدينة بجوار طريق الشيخ زايد العام، وهو الطريق الذي تم تعبيده حديثًا ليكون ممرًا لامتداد المدينة في الوقت الحالي، وتتكون المدينة من سلسلة من المباني المُطلة على بحيرة صناعية ومجموعة من الحدائق المورقة. ويكون الدخول عبر بوابة تم تصميمها على شكل برج للرياح تتضمن مجموعة من الشاشات التي تحتوي على مجموعة من الأفكار الإسلامية. وتؤدي هذه البوابة إلى سلسلة من المباني الزجاجية تماثل تلك التي يمكن أن يجدها المرء في أي منطقة صناعية عالية التكنولوجيا في ماليزيا أو في وادي السليكون.

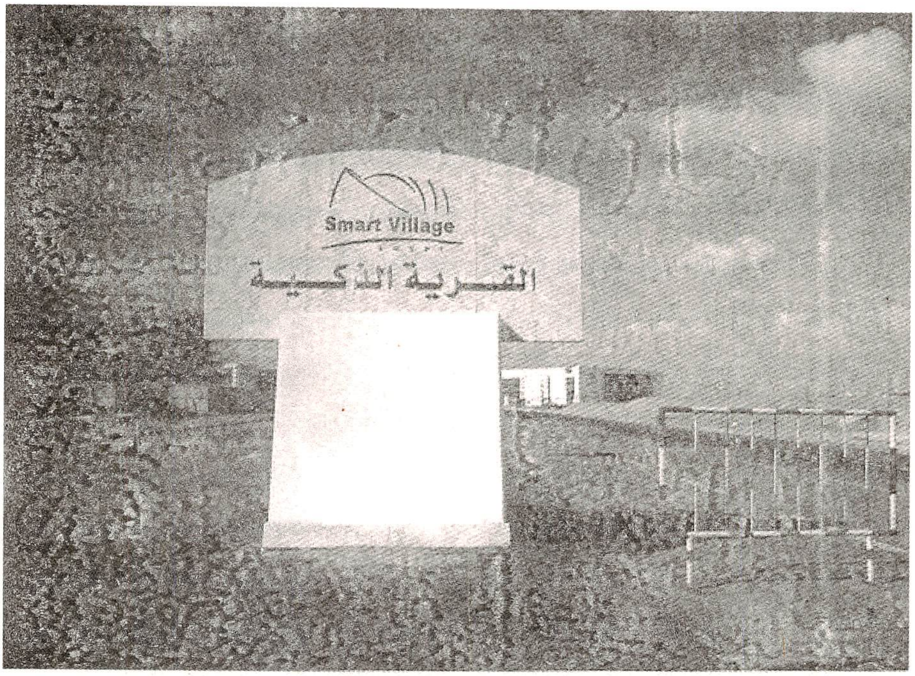


مدينة الإنترنت بدبي (تصوير ياسر الشقاوي)

ويحيط بالمشروع بأكمله سياج كبير على الرغم من أن الدخول مسموح بـه مجانًا لأي شخص (بشرط امتلاك سيارة). وتقـع بـالقرب منـه مدينـة الإنتـاج الإعلامي، وهى مشابهة لمدينة الإنترنت، على الرغم من أنها تنتمي إلى صـناعة الإعلام. وتتكون هذه المدينة أيضًا من مجمعات إدارية للمكاتب وتتـضمن مـشهدًا حضريًا صناعيًا. وتضم بين جوانبها استوديوهات، وقاعات للأخبار، كما أصبحت مركزًا إقليميًا للكثير من وكـالات الأنبـاء مثـل رويتـر، و(*CNN*)، و(*MBC*)، وآخرين. وتبرز حقيقة عدم وجود أسماء للمربعات السكنية الإداريـة فـي هـاتين المدينتين، والتي يمكن تمييزها فقط عن طريق الشعار الخـاص بالـشركات التـي تحتل هذه المكاتب، إلى أنها تعمل فقط على المستوى العالمي، وبطريقة لا علاقـة لها بالبيئة المحلية الواقعية المحيطة بها.

ويمثل مشروع القرية الذكية في القاهرة المحاولة المصرية للمطالبة بلقب محور تكنولوجيا المعلومات للمنطقة، والاندماج مع الاقتصاد العالمي المزدهر، مع التأكيد على تكنولوجيا المعلومات والخدمات المتصلة بوسائل الاتصالات. ويعتبر المشروع بمثابة منطقة تكنولوجية للأعمال والتي تم تصميمها من أجل جذب صناعة تكنولوجيا المعلومات، وتمثل محاولة من مصر للدخول إلى هذا السوق كاقتصاد تحركه الخدمات. ويقول الرسميون إنها مؤسسة على نمط مثيلتها في أيرلندا والهند، واللتين تمكنتا بنجاح من الاندماج في قطاع خدمات سوق تكنولوجيا المعلومات العالمية. ويطل مشروع منطقة خدمات الأعمال والذي يحتل ٣٠٠ فدان على الطريق العام القاهرة – الإسكندرية الصحراوي والمقرر له أن يضم في النهاية أكثر من خمسين مبني من مباني المكاتب والتي يعمل فيها ما يقرب من ٢٠– ٣٠ ألف موظف. وتمنح قطع الأراضي للشركات، ليكون في مقدورها حينئذ أن تقوم ببناء مكاتبها الخاصة. ولقد قامت ثلاث شركات فقط حتى الآن بالتوقيع لمشروعاتها في القرية: ميكروسوفت، وفوداقون، والكاتيل. وأظهرت زيارة حديثة

للمشروع مبنى شركة ميكروسوفت في منطقة منعزلة، ومركز لخدمة النداء الآلي، وهما الوحيدان اللذان يعملان في الوقت الحالي طبقًا للخطة السابقة. كما أن هناك مبنى يتم تشييده لوزارة الاتصالات. ولم يتم بناء المنطقة بأسرها، على الرغم من ذلك، بكل ما يجب أن تحتويه من مبان في المستقبل. والمقرر أن تضم هذه المباني مركزا للخبراء على شكل هرم، بالإضافة إلى مركز رئيسى للمؤتمرات، ومركز للاجتماعات على نمط يثير في الخيال شكل أقمار الاتصالات الصناعية. وكان مصدر هذه التصميمات هي مسابقة هندسية معمارية أقيمت في مصر.



مشروع القرية الذكية – طريق القاهرة الإسكندرية السريع (تصوير ياسر الششتاوي)

كان هناك الكثير من المتشككين في جدوى هذا المشروع بطبيعة الحال. وتساءل الكثيرون عن أهميته بالنسبة لحالة مصر. وتقول نشرة أعمال: إن قرية الأهرام الذكية، واحة تكنولوجيا مصر الجديدة، لا تمت بصلة إلى القاهرة: من حيث الرحابة، والنقاء، والتكنولوجيا الفائقة الحداثة، والخضرة التي تحيط بها (حسن ٢٠٠٤). إنها دائمًا ما تقارن بمثيلتها في دبي، وهنا تختلف الإجابات. فيفضل المسئولون من جانب الادعاء بأن العلاقة رمزية: وأن كلا من المشروعين يكملان بعضهما البعض – وأن دبي تقوم بعرض التسويق، بينما القاهرة يكون جل تركيزها على التطوير. كما أن هناك تأكيد شديد على مفهوم أن القاهرة أكثر ملاءمة للسوق العربية (مصطفى ٢٠٠٣). وهناك وجهة نظر أخرى تقول بأن القاهرة لديها الكثير مما يمكن أن تقدمه ثقافيًا وأن حياة دبي "المُعقمة" ليست مناسبة "بالنسبة لأذواق مغامري الاقتصاد الجديد القلقة" *(Thornton 2003)*. وهذان الرأيان مضللان، وهما يعزفان على أوتار القليل من الأنماط الثقافية: منها أن القاهرة تمتلك الموارد البشرية والعقول المفكرة، ولكنها تفتقر إلى رؤوس الأموال التي تمتلكها دبي؛ وعلى فكرة أن دبي تقع في وسط الصحراء وأن الأصوليين يسيطرون عليها (تشبه المملكة العربية السعودية).

والفروق الموجودة بين المشروعين مذهلة. فبالنسبة للموقع، تقع مدينة دبي للإنترنت خارج المدينة التقليدية وعلى طريق عام يؤدي إلى أبوظبي. وعلى الرغم من ذلك، فإنها تقع على طريق النمو والتي في النهاية ستصبح مركزًا لمدينة دبي الجديدة والتي يتم تشييدها في الوقت الحالي (بالقرب من مشروعات متضمنة منتجعات فخمة، وقصر الحاكم، والعديد من التجمعات السكنية ذات الأسوار المغلقة، وبالطبع بالإضافة إلى جزر النخيل "نخلة الجميرة، ونخلة جبل على، وهما جزيرتان تم استصلاحهما على شكل نخلة لتضما توسعات عمرانية متعددة الاستخدامات"). ولا تنتاب المرء مشاعر بأنه "يغادر" دبي عندما يقود سيارته إلى

مدينة دبي للإنترنت. ولكن الأمر ليس كذلك في القاهرة. تقع القرية الذكية على الطريق السريع للقاهرة – الإسكندرية قرب منفذ الرسوم. ويكون الإحساس قويًا بمغادرة القاهرة والشروع في رحلة طويلة. غير أن الهندسة المعمارية للقرية فيها الكثير من الفطنة. وتتسم مباني مدينة الإنترنت في دبي بأنها مبان عادية كعامة المباني التي يمكن أن تجدها في أي مكان في العالم. ومن ناحية ثانية فقد بذلت محاولات حثيثة في القاهرة من أجل أن يكون استعراض الهندسة المعمارية أخاذًا وذلك عن طريق تطعيم المباني بمحتويات رمزية قوية (مطعم على شكل هرم في وسط بحيرة صناعية، بافتراض التشجيع على الابتكار)، أو المبنى الذي يوحي شكله بأقمار الاتصالات الصناعية (مُعبر عنها بسلسلة من التموجات). بينما عمدت مدينة الإنترنت بدبي إلى إضافة قليل من العناصر الشائعة (أبراج الرياح وبعض الزخارف)، وتتسم قرية القاهرة الذكية بمظهر أكثر حيادًا – وذلك على الرغم من أن المسجد الكبير قد تم تصميمه بمظهر فرعوني لسبب أو لآخر. ومتعرضين لمخاطر تفسيرها كتقليد رخيص فإن أي من هذه التصميمات لم يتم استخدامها في البناء في واقع الأمر – وعلى الرغم من ذلك فإن هذه التصميمات يتم تقديمها بوضوح في وسائل الإعلام المحلية كرمز لدخول مصر للقرن الحادي والعشرين كمركز لتكنولوجيا المعلومات.

هناك فارق آخر يتعلق بالدخول إلى كل منهما. فيمكن لأي شخص في دبي معه سيارة أن يدخل وينتقل في داخل المشروع وبدون تدخل من أي شخص. وتعد صالة الطعام مكانًا عامًا للقاءات تحتوي على العديد من المحلات والمطاعم. وتندمج بذلك بقوة مع المدينة. ولكن الموقف في القاهرة مختلف تمامًا. ويكون الدخول عن طريق بوابة لها حراسة أمنية، كما أن التحركات بين المباني والتي تلي الدخول يتم مراقبتها بعناية. ويتم السماح بالتصوير في كل من المكانين بعد الحصول على تصريح من السلطات المسئولة.

فكرة المركز التجارى للتسوق "سيتي سنتر"

يعتبر قطاع التجزئة واحدا من القطاعات التي يتم فيها نقل "أفكار دبي" مباشرة إلى البيئة المصرية، كما هو واضح في "معادي سيتي سنتر". فقد شرعت مجموعة ماجد الفطيم (من دبي) في منتصف نوفمبر ٢٠٠١ في تشييد مشروع جديد لمركز جديد للتسوق التجاري في الصحراء خارج القاهرة وعلى مساحة ٢٢,٥٠٠ متر مربع وترتبط مع شركة كارفور الفرنسية للبيع بالتجزئة. (يمكنك الرجوع إلى القسم الخاص بأباظة في هذا الكتاب لمناقشة أكثر تفصيلاً للمراكز التجارية الفاخرة الأخرى في القاهرة). وكان هذا المشروع، هو الأول من نوعه في مصر لمراكز التسوق البالغة الضخامة (هايبر ماركت)، وهي واحدة من ثلاثة مشروعات تم التخطيط لإقامتها في البلاد في خلال عامين أو ثلاثة بواسطة مجموعة ماجد الفطيم وكارفور.



معادي سيتي سنتر والتي شيدتها مجموعة ماجد الفطيم من دبي – حيث تقع كارفور (تصوير ياسر الششتاوي)

تتضمن خطط المدى الطويل بيانات بأن ما يقرب من عشرين مركزًا تجاريًا سيتم تشييدها في أنحاء مصر، طبقًا لأقوال المدير الإقليمي لشركة كارفور مصر (الصادق ٢٠٠٥). وتم تصميم المعادي سيتي سنتر على غرار المشروع المماثل لمجموعة الفطيم وشركة كارفور في دولة الإمارات العربية المتحدة، وعمان، وقطر. ولقد بدأ الشريكان في تنفيذ هذا المفهوم في دبي عام ١٩٩٥ بمشروع ديره سيتي سنتر، والتي يؤمها اليوم خمسون ألف زائر يوميًا وتشمل محلات للبيع بالتجزئة على غرار سلاسل محلات (*J.C Penney*) في الولايات المتحدة الأمريكية، وشركة الأثاث السويدية (*Ikea*)، وسلاسل المحلات البريطانية وول وارث، وماركس أند سبنسر *(Postlewaite 2001)*. ويحتوي مركز التسوق بالإضافة إلى محلات الهايبر ماركت الفرنسية أكثر من خمسين محلاً تجاريًا، والعديد من المطاعم، ومركز للترفيه العائلي.

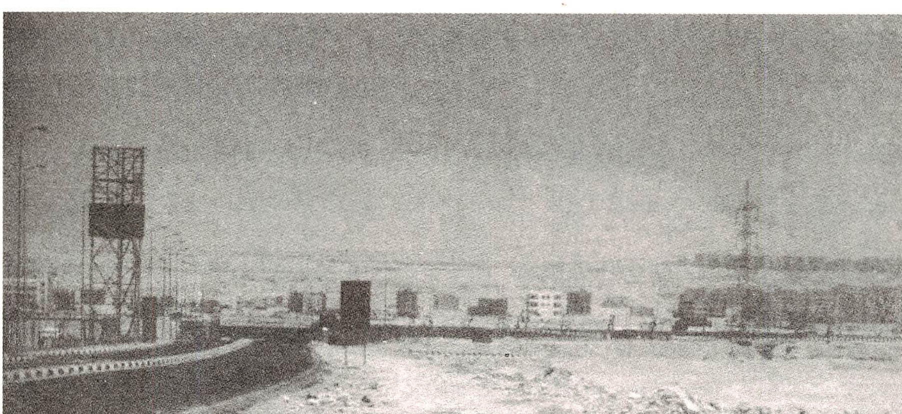
وتركز البيانات الرسمية على التأثير الإيجابي على مصر عن طريق إبراز أن مركز التسوق "سيقوم بعرض مجموعة واسعة من المنتجات المصرية ذات الجودة العالية والماركات العالمية والتي تستهدف مواجهة متطلبات المستهلكين المصريين" (ماجد الفطيم.. ٢٠٠١). كما يرى المسئولون، بالإضافة إلى ذلك، أن مثل هذا التطور سيكون وسيلة لتحديث سلوكيات التسوق لدى المصريين، كما يقول وزير التجارة الداخلية: "منهج جديد وحضاري للتسوق (هكذا!). وسيتم إدخاله للمناطق المتاخمة خارج حدود العاصمة، ويقوم بإمداد السلع الاستهلاكية لصغار التجار طوال أيام الأسبوع، وطوال العام. وسيحل محل السوق التقليدية التي يتم عقدها في القرى في كل أنحاء الريف" (سامي ٢٠٠١ أ). وقابلت وسائل الإعلام المحلية هذه الجهود، على الرغم من ذلك، بالكثير من مشاعر الشك، وخاصة على ضوء فشل مشروع مماثل لمحلات "سينسبري" البريطانية الضخمة. وتعتبر هذه الحالة الخاصة بالذات مثيرة للاهتمام؛ حيث دعت الكثيرين إلى المناداة بإجراء

تنظيمات جذرية في قطاع التجزئة المصرية، حيث كان رئيس مجلس إدارة محلات سينسبري قد وصفها "بالعدائية" (سامي ٢٠٠١ ب). وقد أبدى أحد خبراء البيع بالتجزئة إمكانية وجود تأثيرات سلبية لإنشاء هذه المراكز التجارية الضخمة على محلات البقالة الصغيرة فقال: "لقد كانت تمثل القوام والعمود الفقري للمجتمع ولفترة طويلة وإنها يجب ألا تختفي كلية، ولكنني أعتقد أن الكثير منها ستبدأ في التقليـل من مساحتها.. إذا ما كان في الإمكان تقليل الحجم عن ٧٥ مترًا مربعًا (هند ٢٠٠٣).

وبعيدًا عن هذه المجادلات الاقتصادية هناك منطقة خاصة جديرة بالاهتمام وهي القبول الثقافي لمثل هذه المشروعات فيما يخص البيئة في مصر. فبينما كان مفهوم الأسواق العملاقة ناجحًا خارج مصر فيما يخص القبول الاجتماعي لها، فإن البعض يمكن أن يقول إن الثقافة المصرية يمكن أن تستغرق بعض الوقت من أجل مسايرة هذه الفلسفة (رشدان ٢٠٠٣). ومن الضروري لقبول المجتمع لكارفور تقدير المبدأ الذي تقوم عليه، وما الذي يمكن أن تقوم بتقديمه. وهذا يعني، بالنسبة للمصريين، بذل بعض الجهد لقضاء وقت فراغهم للتسوق في كارفور، بدلاً من محل تجاري أصغر موجود بالقرب منهم، وربما يقع في مكان أكثر تناسبًا مع ظروفهم. وليس من الواضح في ثقافة تقوم بإعلاء قيم الأسرة وبيئة الجيرة الصديقة مثل مصر أن تكون مكانًا يمكن أن يساعد على نجاح مثل هذه الأسواق العملاقة. وبينما تقوم هذه السوق العملاقة بمد قاطني حي المعادي القريب من الطبقة العليا – المتوسطة، فإنها تستهدف كل ساكني القاهرة الكبرى أيضًا؛ ومع ذلك فإن المسافات الشاسعة، والاختناقات المرورية المستعصية يمكن أن تعرقل مثل هذا التوجه لدى السكان. وتقول إدارة هذا المركز التجاري، إنهم على الرغم من ذلك، يقومون بتزويد العائلات ذات الدخول المتوسطة باحتياجاتها: "الأشخاص الذين يأتون للشراء من المركز يجب أن يمتلكوا سيارة، ولذا فإننا نقوم بتزويد شريحة اجتماعية

صغيـرة مـن السكـان باحتياجاتها. ونحن هنـا لنكمـل، ولسنا هنا للمنافسة" (هند ٢٠٠٣). ويجتذب المركز في الوقت الحالي بنجاح، أعدادا كبيرة من الزائرين. ويجب أن يكون ملحوظًا مع ذلك أن الجانب الأعظم من هؤلاء الزائرين يمثلون قطاعًا معينًا من المجتمع المصري من الذين يمتلكون المقدرة الشرائية الضرورية، وعلى سبيل المثال، المصريون المقيمون في الخليج، أو المغتربون. والقاسم المشترك بين هؤلاء الزوار هو القدرة على الحركة؛ حيث إن المركـز التجـاري لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق سيارة. وهكذا فإن عامة المصريين يعتبرون مستبعدين من هذه الخدمة.

ويثير هذا الأمر موضوع الموقع. فيقع المركز في منطقة تُعرف باسم القطامية على سفح جبل المقطم، وبالقرب من حي المعادي. كما أنه يقع على الطريق السريع العام المؤدي لمنطقة تطوير جديدة تم إعدادها على نمط خاص وهي القاهرة الجديدة. وتحيط بالموقع قطعة من الأرض الفضاء، ومناطق لم يتم تمهيدها وتطويرها، ومشروع ضخم للإسكان الشعبي. وكان هذا الموقع قد تم اختياره بالتحديد من أجل "تطوير منطقة سكنية جديدة" طبقًا لما ذكره المقاول المتعهد بذلك (رشدان ٢٠٠٣). "وهو مثال على استهداف منطقة غير مطورة عن طريق خطط تطوير مجموعة الفطيم"، وبذلك ترتبط بما يُطلق عليه "بنظرة كارفور" بالنسبة لمصر (رشدان ٢٠٠٣). "ويستتبع نظرة الشركة الفرنسية كارفور بالنسبة لمصر تشييد سلسلة من المراكز التجارية باسم "سيتي سنتر" وهي مجمعات تجارية بالغة الضخامة تقع على أطراف المدينة وتقوم ليس فقط كمواقع لبيع الطعام، ولكن كأماكن ترفيه، ومبيعات التجزئة، وغالبًا ما تكون مكتملة بما لا يعد ولا يحصى من المحلات، ودور السينما، والمطاعم، والأنشطة الأخرى، وكلها تعتبر كارفور ملاذا لها" (هند ٢٠٠٣).



المنطقة المحيطة بكارفور – المعادي سيتي سنتر (تصوير ياسر الششتاوي)

يستتبع هذه النظرة، بالإضافة إلى الموقع، تدبير قطعة كبيرة من الأرض تكون كافية لاستضافة هذا المجمع؛ وتواجد مساحة كبيرة من الأرض من أجل إيواء السيارات. وهكذا يحتل المعادي سيتي سنتر قطعة أرض تبلغ مساحتها ٦٩،٠٠٠ متر مربع، وتحتل كارفور من هذه المساحة ما جملته ٣,٥٠٠ متر مربع (هند ٢٠٠٣).

ومن المدهش أن تحاول الصحافة المصرية المحلية الإقلال من علاقة دبي بها، وعلى حقيقة أن المركز التجاري بأكمله قد تم تشييده على نمط المثيل له في دبي. ويتم التأكيد أكثر، في حقيقة الأمر، على علاقته بفرنسا بما يمكن أن يوحي بأن مصر يمكن أن تصبح غربية عن طريق تشييد المراكز التجارية على هذا النمط. إنه الإيحاء بأن ذلك وضع عالمي أو يتعلق بالعولمة، ولا يرتبط بأي ثقافة أو منطقة خاصة. "ويعتبر وجود مركز التسوق في القطامية من وجهة نظر المتسوق بالغًا حد الكمال. فأينما تسير داخلها فيمكنك أن تكون في أي بقعة من العالم" (هند ٢٠٠٣). ويقف هذا الأمر بالطبع على النقيض فيما تورده الصحافة المحلية في الخليج والتي تذكر بسعادة متحفظة بأن الأعمال التي مركزها دبي تقوم بغزوات على القاهرة (والمدن الأخرى أيضا)[١].

يعتبر التشابه بينهما لافتًا للأنظار بشدة. فبادئ ذي بدء، فإن شعار مركز التسوق البارز لا يظهر فقط على مدخل المركز في القاهرة ولكن أيضًا في كل الإعلانات المتناثرة في المدينة. وتصطدم حال دخولك المركز التجاري بالتنظيم الدقيق لمكان إيواء السيارات، والمزود بعلامات المرور التي تُذكرك بأن قوانين المرور سارية ويتم تطبيقها في هذه المنطقة (انظر إلى الشكل الموجود في صفحة ٢٤٣). وتظل هناك مفارقة صارخة بالإحساس الذي ينتاب المرء عند مقارنتها بالمنطقة الرثة المحيطة بها[٢].

وينطبق نفس الأمر على الأجزاء الداخلية بمركز التسوق، والمستوى العالي لديكوراتها الفخمة، وتميزها بمستوى من النظافة الفائقة التي لا يمكن أن تجدها في أي مركز آخر في مصر. ثم أصبحت العلاقة مع دبي أكثر وضوحًا بوجود فرع لبنك من دولة الإمارات العربية المتحدة. وهناك بعض الاختلافات بينهما ولكن الاختلاف الأبرز هو في الحجم. فمركز ديره التجاري كبير في الحجم ويتكون من العديد من الطوابق وعدد من المباني. وهي تشغل حيزًا يمكن أن يساوي عددا من المجمعات السكنية في مدينة. أما في القاهرة، فغير ذلك، فهي تتبسط على مستوى واحد، ويهيمن عليها كارفور. وهناك فارق آخر يتعلق بالموقع. فيقع المركز التجاري في القاهرة على أطراف المدينة مما يجعل الوصول إليه من الصعوبة بمكان، على العكس من دبي حيث يقع في قلب ديره حيث يكثر التردد عليه من الكافة كما أنه مكان للمقابلات لسكان المدينة. ويشتهر المكان بالزحام الدائم، وبأنه يقوم بخدمة عملائه الأثرياء من العرب والغربيين المقيمين فيه بالإضافة أيضًا إلى السكان المحليين من دبي والإمارات العربية الأخرى. أما في مصر، فإنه يستهدف سكان حي المعادي القريب من المركز، ولكنه يستهدف أيضًا القطاعات الأخرى من السكان. ويعوق موقعه فيما يبدو من أن يكون المركز مكانًا للقاء العام – وهو يجتذب أكثر مشاعر الفضول. وبينما يظل هذا الأمر صحيحًا في أثناء كتابة صفحات هذا المؤلَف (في عام ٢٠٠٥) فإنه يُنظر للمركز التجاري كمحفز للنمو العمراني. ولا يبدو واضحًا للعيان بعد عما إذا كان ذلك سيحدث على أرض الواقع. وبينما المركز التجاري هو جزء من القاهرة الجديدة والتي هي الآن قيد البناء، والتي يمكن أن تكون (أو لا تكون) مركزًا جديدًا للقاهرة، فإنه على الرغم من ذلك، يظل مجرد بناء معزول على الطريق السريع العام.



مسجد الجميرة في بير دبي (تصوير ياسر الششتاوي)

دبي: تماثل أم بناء هوية

أظهر الجزء السابق من هذا الفصل أن دبي كان لها تأثير قوي على مدينة القاهرة. أما الجزء الباقي من هذا الفصل فهو مكرس لاستكشاف تأثيرات القاهرة على دبي- إذا ما كان ذلك التأثير موجودا من الأصل في حقيقة الأمر. ويجب مراعاة تمييز هذا التأثير من بين عدة تأثيرات مختلفة تلعب دورها في دبي. فعلى سبيل المثال، فإن مفهوم مدينة الإنترنت يقوم على أنماط متعددة من التأثيرات حول العالم، كما أوضحنا ذلك بالفعل. وهي فكرة ثورية بالكاد قامت دبي باقتباسها ببساطة. وتتضح هنا محاولات دبي الدءوبة من أجل أن تكون مدينة عالمية بجلاء من تبنيها لأنماط غربية هي دلالة يجب أن يتم فهمها في هذا السياق. ولكنها أيضًا تتطلع إلى جهود مدن الشرق الأوسط التقليدية لكي تصبح مراكز جديدة للعالم العربي. وهنا يصبح التأثير في المقام الأول على مستوى النظرة التاريخية.

وتبدو هذه الحقيقة جلية على عدد من المستويات. فعند بث إعلانات عن جزر النخيل، على سبيل المثال، فإن صور الأهرامات المصرية تظهر بوضوح، مما يدل على أن معلمًا جديدًا في طور التشكيل. وتشمل إعلانات عن افتتاح متاجر في الامتداد الجديد لمركز "برجمان للتسوق" وتتضمن مشاهد ترتبط بالأسواق العربية القديمة، وعناصر تقليدية مثل المشربية، وغيرها. ومرة أخرى فإن استخدام صور تاريخية تشير إلى أن المسئولين يحاولون تأكيد بزوغ دبي كمركز جديد، لتحل محل المراكز التقليدية للشرق الأوسط. وعلى مستوى آخر، بُني مسجد جميرة في بير دبي على النمط المملوكي القاهري.

ويبدو المسجد وكأنه تم نقله من القاهرة إلى دبي. ويبدو المغزى الواضح وراء ذلك، أن المسجد يمثل مسار لطريق رحلة للسائحين، يقوم فيه المسئولون باستعراض مثال لهندستهم المعمارية "العربية – الإسلامية". ومن المناظر المعتادة

رؤية السائحين وهم يلتقطون صورًا بجانب المسجد – وهم في عجلة من أمرهم – بينما ينتظرهم الأتوبيس على جانب الطريق. ونظرًا لوعيهم بغياب التاريخ والجذور الثقافية لديهم في دبي، فإن هذه التعديلات التي يقومون بها أصبحت وسائل معتادة للتأكيد على أصالتهم.

وكان هذا المفهوم من الاستيلاء على العناصر الثقافية، لإدراك ووضع أنفسهم كمحور لثقافة المنطقة، موضوعًا لمقالة حديثة في جريدة الأهرام ويكللي والتي تصدر باللغة الإنجليزية. ويقول كاتبها إنه بينما تُعتبر بيروت "العاصمة الثقافية" للعالم العربي، والقاهرة هي العاصمة السياسية والتاريخية، فإن دبي تقوم بمساع حثيثة للفوز باللقب. ويؤكد الكاتب (بنوع من دق أجراس الحذر) على أن دبي لها صورتها المُكتشفة حديثًا كقبلة للأعمال التجارية، والثقافة والآداب (هويدا ٢٠٠٢). ويحدث ذلك على عدد من المستويات كما ذكرنا آنفًا: إرساء علاقات دولية مع بناء علاقات مع عناصر إقليمية وتاريخية. ويوحي اسم المَعلَم الرئيسى للمدينة "فندق برج العرب" أنها حقًا هي مركز العالم العربي. وتم تصميم التطوير الاستثماري الجديد لمدينة جميرة لتعكس صورة الأسواق العربية التقليدية – وجمهورها في الحالتين في الأساس من السائحين الغربيين والجنسيات المتعددة. ويجهرون بتبنيهم هذه العناصر، وبأنه إذا ما رغب أحد في الاستمتاع بالحياة العربية فما عليه إلا أن يقوم بزيارة دبي (الششتاوي ٢٠٠٤).

الخاتمة:

> **تستغرق الرحلة بالطائرة من القاهرة إلى بيروت ثم إلى دولة الإمارات العربية ساعتين من الزمن، وينتقل المسافر في هذا الوقت إلى ما يمكن أن يكون انتقالاً لكوكب آخر. فهو يتـرك وراءه عالما من الضعف والنغمات المملة إلى أخـرى مـن التألق والإبهار** ***Lamb 2002, 34.***

هل كانت دبي ناجحة في مسعاها لوضع نفسها كمحور للمنطقة؟ هناك عدد من الوقائع التي تُعطي إجابة بالإيجاب. فعلى سبيل المثال، إعادة توطين الأعمال من القاهرة لتستقر في دبي، وفود المصريين التي تحج إلى دبي لتلقي الدورات التدريبية، والمقالات التي يتم نشرها في مطبوعات الأعمال العالمية والتي تبشر بوصول نمر عربي، كبديل "للفراعنة الجدد"، كل تلك القرائن تدعم وجهة النظر هذه[٣]. وكما تأثرت المدن الأخرى أيضًا. فلقد ذكر بعض الباحثين في حالة بيروت في أن دبي كان لها أثر على "بوابة العالم إلى الشرق". "إذا ما كانت الحكاية الرمزية باعتبار لبنان كبوابة للشرق الأوسط يمكن أن تستند إلى أرضية صلبة على الإطلاق، فإنها وصلت الآن إلى وضع الأسطورة الخرافية. فقد أصبحت بوابة الشرق الأوسط الآن، من الناحية الاقتصادية على الأقل، أطلالاً ***Champion 2004***. وتعكف قطر في الوقت الحالي على تشييد جزيرة تسمى "لؤلؤة"، على نمط جزر النخيل في دبي. وبذلك أصبحت دبي نموذجًا تحتذي به المدن في العالم العربي، سواء في السراء أو الضراء. وقد حاولت المراكز التجارية التقليدية القديمة في العالم العربي اللحاق بهذه التطورات، ولكنها لم تكن قادرة على ذلك، وفي حقيقة الأمر فإن بعض المؤشرات تدل على أنها فشلت في ذلك. فيجب أولاً أن تُعطى الأولوية القصوى لحل مشاكل البنية التحتية المهترئة، والمساكن المتداعية، والتي تقع بالقرب من المراكز التجارية البالغة الفخامة في القاهرة، واعتبارها موضوعات عاجلة يجب أن يتم حلها أولاً.

يبدو أن مفهوم اعتبار العالم قرية واحدة ترتبط فيه المدن في شبكة واحدة حيث تتنقل فيها الصور بحرية متحدية المفاهيم التقليدية للهوية، والمكان، والميراث التاريخي، وتدعمه دراسة بعض المدن مثل دبي. ونجحت المدينة هنا في الاستيلاء على الصورة الخاصة بمراكز المنطقة التقليدية، وفي الواقع الحلول محلها.

ويدعمها في ذلك اقتصاد غني بالتمويل (تعتمد جزئيًا على البترول، وذلك على الرغم من أن دبي ليست من الدول الرئيسية المنتجة للبترول) وحكومة مركزية تقوم بتسهيل عمليات صنع القرارات المختلفة. وتعتبر مدنها العديدة دلالة لشكل جديد من أشكال الحضرية ويبرز فيها التشرذم بقوة، حيث تتجه البيئة التي تم تشييدها نحو تدعيم الاقتصاد العالمي الجديد. ويجب أن يتم إعادة مناقشة ودراسة أثر مثل تلك التطورات على الهيكل الاجتماعي "للمدن" – والتأثير الإيوائي الذي سبق مناقشته. وإلا، فإنه في مثل حالة القاهرة، والتي تعاني من قضايا اجتماعية وسياسية متفجرة، والتي يمكن أن تكون تطوراتها ذات تأثيرات معاكسة، ويمكن في الحقيقة أن تسهم في استمرار حالة التخلف الموجودة في المنطقة.

الأعمال المستشهد بها

Works Cited

"Allahs blutiges Land—Politik und Kultur." 2003. *Spiegel Special. Das Gold der neuen Pharaonen* (February): 126–29.

Castells, Manuel. 1997. *The Rise of the Network Society*. Oxford: Blackwell.

Champion, Daryl. 2004. "Does the Gateway to the Middle East lie in Ruins? Golden Days Seem Far Away." *The Daily Star Online*, 10 February, <*http://www.dailystar.com.lb/article.asp?edition_ID=1&article_ID=4238&categ_id=13*> (21 September 2005).

"Dubai: Arabia's Field of Dreams." 2004. *The Economist*, 29 May, 61–62.

"Egyptian Delegation Visits Dubai." 2004. *Gulf News*, 4 January.

Elsheshtawy, Yasser. 2004. "Redrawing Boundaries: Dubai, the Emergence of a Global City." In *Planning the Middle East City: An Urban Kaleidoscope in a Globalizing World*, ed. Yasser Elsheshtawy, 169–99. New York: Routledge.

"GM Relocates Regional Office from Cairo to Dubai." 2004. *Gulf News*, 2 April.

Hassan, Abdalla. 2004. "It Takes a Village." *Arabies Trends*, January, 10.

Hinde, Tim. 2003. "Interview." *Business Today Online*, February, <*http://www.businesstodayegypt.com/default.aspx?issueID=116*> (July 2003).

Howeida, Amira. 2002. "Metamorphoses on the Gulf." *Al-Ahram Weekly Online*, 9–15 May, <*http://weekly.ahram.org.eg/2002/585/fe3.htm*> (23 September 2005).

Lamb, David. 2002. *The Arabs: Journeys Beyond the Mirage*. New York: Vintage Books.

"Majid Al-Futaim Starts Egypt Project." 2001. *Gulf News Online Edition*, 30 November, <*http://www.gulf-news.com/articles/news.asp?ArticleID=34053*> (21 September 2005).

Marcuse, Peter, and Robert van Kempen. 2000. *Globalizing Cities: A New Spatial Order?* Oxford: Blackwell.

Mostafa, Hadia. 2003. "Towering Technology." *Business Today Online*, <*http://www.businesstodayegypt.com/default.aspx?issueID=116*> (July 2003).

Nair, Manoj. 2004. "Retail Giant MAF Plans New Egypt Mall." *Gulf News*, 28 January.

Postlewaite, Susan. 2001. "FDI Still Apparent: Gulf Investors Stay Despite Capital Flight." *Business Monthly Online*, November, <*http://www.amcham.*

org.eg/Publications/BusinessMonthly/December%2001/Followup(InvestmentGoesOn).asp> (23 September 2005).

Rashdan, Hannah. 2003. "Egypt Gets Hyper." *Al-Ahram Weekly Online*, 30 January–5 February, <*http://weekly.ahram.org.eg/2003/623/li1.htm*> (23 September 2005).

al-Saddiq, Muhammad. 2005. "Rasadat milyaray dolar li-khitattha al-istismariya fi Masr khilal ashr sanawat." *Al-Ahram*, 15 May.

Sami, Aziza. 2001a. "Supermarketing Hysterics." *Al-Ahram Weekly Online*, 19–25 April, <*http://weekly.ahram.org.eg/2001/530/ec1.htm*> (23 September 2005).

———. 2001b. "A New Saga." *Al-Ahram Weekly Online*, 18–24 January, <*http://weekly.ahram.org.eg/2001/517/ec1.htm*> (23 September 2005).

Sassen, Saskia. 2001. *The Global City*. Princeton, N.J.: Princeton University Press.

———, ed. 2002. *Global Networks, Linked Cities*. New York: Routledge.

Thornton, Jasper. 2003. "Utopia in a Village." *Al-Ahram Weekly Online*, 4–10 October, <*http://weekly.ahram.org.eg/2001/554/it2.htm*> (23 September 2005).

UN-Habitat. 2001. *Cities in a Globalizing World: Global Report on Human Settlements*. London: Earthscan Publications Ltd.

Watson, Geoffrey. 2004. "Dubai is the Best Place for Regional Business." *Gulf News*, 4 April.

الهوامش

١- تورد العديد من المقالات والأخبار هذه الملاحظة، وعلى سبيل المثال (الطبقات المنغلقة والمعروفة في الهند باسم *Nair* ٢٠٠٤).

٢- كما لوحظ اهتمام إحدى الروايات بذكر "أنه وجد أن زحام زوار إحدى المراكز التجارية الأخرى كاسح؛ ولكن يبدو أنهم يدركون بعض مزاياها. ومن بين تلك المزايا مأوى ضخم للسيارات يقدم خدماته مجاناً ويؤدي إلى مدخل المركز التجاري مباشرة، وفرص مناسبة لمجموعة متنوعة من المتاجر والمنتجات. وبينما يبدو تقديم جراج مجاني للسيارة كميزة إضافية للبعض، فإن شريف سلامة، ٣٩ سنة، يتذمر من أن "اللجنة (التفتيش على السيارات من رجال المرور) في مدخل جراج كارفور هو في غير موضعه بشكل مخيف. فكيف يمكن للمرء أن يذهب إلى كارفور ثم ينفق نقوده في غرامات المخالفات؟" (رشدان ٢٠٠٣).

٣- يمكنك أن تراجع في هذا الصدد "دبي" ٢٠٠٤؛ و"جنرال موتورز ترتحل إلى مكان جديد"؛ و"الوفد المصري ٢٠٠٤؛ "وولتسون" ٢٠٠٤. وقد شهدت السنوات القليلة الماضية بالإضافة إلى ذلك طفرة هائلة في المقالات الصحفية التي تحاول وصف وتحليل المدينة الجديدة الواعدة. فعلى سبيل المثال تصدرت مقالة لطبعة حديثة من مجلة دير شبيجل الألمانية عن الإسلام السياسي "ذهب الفراعنة الجديد". وكانت التطورات الجديدة هي موضع تحليل المقالة، وكانت المقالة تقوم بلفت الأنظار إلى أن دبي من المحتمل أن تصبح أحدث مدينة في العالم. وتكون الحاضرة التي ستقوم بالجمع بين الشرق والغرب – دبي كمزيج من سنغافورة، وسياتل، وسان تروبيه بفرنسا ("الله.. الأرض" ٢٠٠٣، ١٢٦-٢٩).

الفصل الثامن

الحفاظ على التواصل: العولمة وخلق المحلية في القاهرة

فرحة غنـــام

تصادف أن تعرفت على أسرة في منطقة الزاوية الحمراء معرفـــة جيـدة، وذلك أثناء عملي في أطروحتي في أوائل سنوات التسعينيات. ولكن، وعلى الـرغم من الدور المحوري لواحد من أبناء هذه الأسرة في حياتها، وهو مجدي فإنني لـم أقابله على الإطلاق وحتى بعد سنوات من انتهائي من العمــل الميـداني. وظــل مجدي، وهو شاب في أواخر العشرينيات من عمره، يعمل بدولة الكويت منذ عـام ١٩٩٢، ولم يقم بزيارة القاهرة إلا مرتين طوال تلك الـسنوات الـست. وظللـت، وكأني أعرفه تمام المعرفة وذلك على الرغم من أننا لم نلتق معًا وجهًا لوجه علـى الإطلاق. فقد كان دائمًا موضوع النقاش بيني وبين أعضاء أسرته وبين جيرانـه. فقد كانت أمه تتحدث عنه بكثير من العاطفة وتصف مآثره بـالكثير مـن الفخـر. وكانت شقيقاته وأشقاؤه يتذكرون نكاته، ويستعيدون قصصه، ويتـذكرون مواقـف عطفه ورقته. كما أن خطيبة مجدي وأسرتها يصفون أخلاقه الحميدة وتفانيـه فـي عمله من أجل تأمين مستقبله وبناء أسرته المستقبلية. كما شـعرت أننـي أعـرف مجدي جيدًا من خلال قراءتي لبعض رسائله وسماع بعض شرائط التسجيل التـي يقوم بإرسالها لأسرته. وكانت والدته تطلب مني بين الحين والآخر أن أكتـب لـه رسائل باسمها. وعندما اجتمعت الأسرة، ومعهم غالبًـا بعـض أصـدقاء مجـدي

الحميمين، من أجل تسجيل شرائط كاسيت لإرسالها إليه، فإنني قمت أيضًا بتحيته في التسجيل، وذكرت بعض الأشياء القليلة عن نفسي وحكيت له عن أسرته.

ولكن السبب الأكثر أهمية لمعرفتي بمجدي أنه، على الرغم من طول فترة تغيبه، فإنه يقوم بدور مهم في الزاوية الحمراء، وهو حي لذوي الدخول المنخفضة في شمال القاهرة، حيث تعيش أسرته. ومن خلال شرائط التسجيل، والمكالمات التليفونية، والخطابات، والزيارات المتقطعة، والدعم المالي، فإن مجدي يحافظ على علاقاته والتي أتاحت له المشاركة بهمة ونشاط في كل القرارات التي تخص عائلته وتكوين جيرانه. ولقد تابعت وتعرفت منذ بدأت أبحاثي في عام ١٩٩٣، على بعض أحلام مجدي، واختياراته، وطموحاته من خلال جهود أسرته، وخطيبته من أجل تجديد شقته، التي قام بشرائها في عام ١٩٩٤.

سأقوم بالتركيز على حالة مجدي، في هذا المبحث من أجل تسليط الضوء على ثلاث موضوعات نظرية ومنهجية تتعلق بمبحث مناقشات هذا الكتاب عن العولمة وهي:

الأمر الأول: أن هناك حاجة ماسة للذهاب لأبعد من التقسيمات الصريحة أو الضمنية للعالم إلى: الغرب وباقي العالم. فهناك الكثير من الأحاديث عن "انضغاط العالم" ***(Robertson 1995)***، "وانضغاط الزمان – والمكان" ***Harvey 1989; Massey 1994***، وروابط عابرة لحدود القوميات ***(Hannerz 1996)***، والتدفقات العالمية ***(Appadura 1996)***. ومن ناحية ثانية، وعلى الرغم من ذلك، فإن العولمة لا يزال يُنظر إليها كتدفقات ضرورية بين الغرب (الشمال الغني) وباقي العالم (الجنوب الفقير). واعتبرت هذه النظرة أمرًا مفروغًا منه في المحاولات السابقة والتي كانت تستهدف إظهار العالم وكأنه في طريقه لأن يصبح "متجانسًا" أو يصير "غربيًا" ويظل هذا المفهوم سائدًا في معظم الدراسات الحديثة التي تستهدف البرهنة على

صعوبة وتعقيد عملية الربط بين القوى العالمية والسياق المحلي ***Hall 1991; Hannerz 1996; Featherstone 1995; Sassen 1996***. وتقوم مثل تلك النظرة باستبعاد جانب مهم من التدفقات المعقدة والتي هي في القلب من العلاقات المتنامية بين الأجزاء المختلفة من العالم وتصيب عملية التحليل المحتملة لمفهوم "العولمة" بالوهن. وتظهر بوضوح المشكلات المتعلقة بمثل تلك النظرة في كيفية اختزال العولمة مرارًا إلى مفاهيم من نوعية "الاستعمار الجديد"، و"الاستعمار الثقافي"، و"الأمركة"، و"صدام الحضارات" أو حتى "الجهاد ضد عالم ماكدونالد" (على حد التعبير الشهير لبنيامين باربر– ***كلمة ماكدونالد تستخدم أحيانًا لتعني ببساطة نشر مطاعم ماكدونالد عبر العالم كرمز لعصر العولمة– المترجم)***.

لا أهدف هنا على الإطلاق أن أنكر أهمية التدفقات من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا. وتشكل هذه التدفقات، في الحقيقة المشهد الحضري في القاهرة بوسائل قوية وبصفة خاصة في تشكيل حياة الطبقة الدنيا والطبقة الدنيا – الوسطى من المصريين. وما أريد التأكيد عليه هو الحاجة إلى توسيع مفهوم العولمة ليشمل تعدد التدفقات والتي تقوم بتشكيل الهويات والممارسات الثقافية. ففي حي من الأحياء العمالية مثل الزاوية الحمراء، فإن الخيال الاجتماعي لا تقوم بتشكيله الأفلام الأمريكية وبرامج التليفزيون الأمريكية بمفردها، أو حتى بصفة أساسية (مثل أفلام القاتل، أو هرقل). ولكنها غالبًا ما تتشكل بطريقة أقوى عن طريق الأفلام الهندية، والمطربين اللبنانيين، ولاعبي الكرة البرازيليين، ومطربى الراي الجزائريين. وكما سيتضح لنا تمامًا في نهاية هذا الفصل، فإن الدول المُنتجة للبترول على وجه الخصوص لهما دور مهم في إثارة رغبات وتحقيق أحلام أشقاء مجدي وجيرانه.

والأمر الثاني، أن هذا الفصل الخاص الذي أكتبه يعالج جزءًا من الحدود الجديدة، والمفاضلات، والتفاوت الاجتماعي الذي يتمخض عن كل ذلك، ويتم تعزيزه، وتحديه عن طريق التدفقات العالمية. ومن الأمور المهمة في حالة مجدي هي أنها تلفت أنظارنا إلى طبقات هرمية وعلاقات قوة أخرى تقوم بضبط التفاعل بين المدن غير نيويورك، ولوس أنجلوس، ولندن. كما أنها تثير انتباهنا إلى أنماط جديدة من التفاوت والتي أفرزتها عملية العولمة داخل نفس المدينة، ونفس الجوار، وحتى في داخل العائلة نفسها. وبالإضافة إلى ذلك، فإن قضية مجدي تنقل إلينا كيف أن الوصول إلى وتخصيص أحاديث وخطابات العولمة وانطباعاتها يتم تكوينها مع خطوط القومية، والطبقة، والجنس. وكان للطبقة دورها المهم في تنظيم خطط سفر مجدي، وعمله في الكويت، والعلاقات العابرة للقارات. وبينما في وسع الطبقات العليا من المصريين السفر إلى ومن الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا (للتعليم، والترويح والعلاج) بكل سهولة، فإن مدن مثل باريس، ونيويورك بعيدة عن متناول شباب من أمثال مجدي. وباختصار، فإن التدفقات العالمية ليست فقط مهيكلة، ولكنها أيضًا تقوم بعملية هيكلة. وهنا يصبح السؤال: ما هي المجموعات التي يتم تقويتها عن طريق تمكينها من الوصول إلى الدول المُنتجة للبترول والأفلام الهندية؟ وما هي المجموعات التي يتم تقويتها عن طريق تسهيل وصولها إلى خدمات البريد الإلكتروني، وأطباق الأقمار الصناعية والعلاقات القوية مع مدن الدول الغربية؟

والنقطة الثالثة التي أود معالجتها تتعلق بحرية الإرادة وخلق المحلية الحضرية. وبينما يقول الكُتّاب الأوائل إن المكان في طريقة للاختفاء عن طريق التحركات المتزايدة للصور، والسلع، والبشر (على سبيل المثال العديد من الادعاءات بأن العالم سيصبح قرية واحدة)، وهناك تحول في السنوات الأخيرة تجاه التأكيد على أهمية المكان والمحلية في عملية الربط، والتخصيص، والتحويل في

التدفقات العالمية *Sassen 1996; Featherstone 1995; Massey 1994; Hannerz 1996; Appadurai 1996*. وبدلاً من المحلية المستقرة، والتي لا تتغير، والمقيدة مكانيًا كما يُذكرنا أرجون أباديوري بقوله "إنه بطبيعته إنجاز اجتماعي هش" (١٩٩٦، ١٧٩). ويجب أن يتم إعادة صياغة وتقوية المحلية من جديد ككيان من المشاعر، وكجوهر من الحقيقة، وكارتباط بمجتمع معين. وتمثل هذه العملية، بالإضافة إلى عملية دراستها، تحديًا خاصًا مع التحرك المتزايد للبشر، والبضائع، والمحاورات المتبادلة بين مختلف أجزاء العالم. كيف يمكن لنا أن نقوم بتكوين فكرة عن ارتباط المشاعر بمكان معين بينما نقوم بتبرير الحركة، والانسياب، والترحال؟ *(Malkki 1997; Gupta and Ferguson 1997)*. وكيف يمكننا البحث في دور مجدي في الحي الذي يقطنه بدون تجميده في مكانه أو حرمانه من حرية إرادته؟ هناك استراتيجية وحيدة سأقوم باستخدامها هنا، وهى تتبع التدفقات المنطقية من خلال تشريعات دقيقة. وتتيح لنا هذه الاستراتيجية أن نتفهم كيف يتم خلق المحلية من خلال التفاعل بين الاستقرار والترحال، والتواجد والغياب، والجذور والدروب. كما أنها تتيح لنا أن نقوم بتتبع الأفراد والمسارات الجماعية (التي يمكن أن تأخذنا إلى الكويت، ونيويورك، أو سراييفو) وأن نقوم بتحليل كيف ترتبط التدفقات العالمية، وتتحول، وكيف تقاوم في مختلف السياقات، وعن طريق سائر الجماعات الاجتماعية.

سأقوم في الجزء الباقي من هذا الفصل بمشاركة القارئ كيف "تعرفت" على مجدى من خلال التدفقات التي أتاحت له أن يظل على رباط وثيق بأسرته وجيرانه. وسأقوم بتحليل شقة مجدي وشرائط التسجيل المتبادلة بينه وبين أسرته كتكنيك قوي لخلق المحلية. وقد جعل هذا التكنيك مجدي جزءًا من حياة أشقائه وأصدقائه، كما أمدته بالدفعة المعنوية، ووطدت صلته بجيرانه في القاهرة. وأصبحت شقة مجدي، على وجه الخصوص، علامة مرئية تقوم بتجسيد وتقوية دوره النشط في حياة الزاوية الحمراء وخلق المحلية.

يعتبر مجدي واحدًا من ثمانية أشقاء. ولد وترعرع في بولاق، وهو حي للطبقة العمالية، في وسط مدينة القاهرة. ووقع الصدام الدرامي الأول بين مجدي وقوى العولمة عندما كان مجدي في الثالثة عشر من عمره. فقد كانت أسرته واحدة من خمسة آلاف أسرة من أسر الطبقة العمالية، والتي تم نقلها من منطقة بولاق وإعادة تسكينهم في المساكن الشعبية في منطقتين من المناطق السكنية لمحدودي الدخل على أطراف المدينة فيما بين عامي ١٩٧٩، و١٩٨١. وكانت عملية النقل هذه جزءا من محاولات الرئيس السادات لتعضيد سياسة الانفتاح الاقتصادي الذي كان ينادي به وتشييد عاصمة "حديثة" (غنام ٢٠٠٢). وكانت سياسات السادات تستهدف "فتح العالم... وفتح الأبواب أمام هواء نقي وجديد وإزالة كل الحواجز والسدود التي نقوم ببنائها حولنا لنقوم بخنق أنفسنا بأيدينا" (السادات ١٩٨١، ١٢). وكان رأي السادات، أن تنمية مصر ترتبط بشكل وثيق بفتح أبوابها للغرب، وبصفة خاصة للولايات المتحدة الأمريكية. ولقد كان يعتقد أن الولايات المتحدة الأمريكية "ملتزمة أدبيًا بواجب، وحتى متوقعًا منها بطبيعة الحال، أن تقوم بمساعدة كل هؤلاء الذين يناضلون من أجل مستقبل أفضل لأنفسهم وللعالم أجمع" (السادات ١٩٧٨، ٢٣٨). وكانت سياساته ترمي إلى تحديث البلاد عن طريق التعجيل بالتنمية الاقتصادية، وتشجيع الاستثمار الخاص، وجذب الاستثمارات العربية والأجنبية (إكرام ١٩٨٠). (يمكن مراجعة الجزء الخاص بأباظة والششتاوي في هذا الكتاب "من دبي إلى القاهرة" من أجل الوقوف على كيفية تأثير استمرار تشييد المراكز التجارية الفخمة في إعادة رسم المراكز التجارية في مناطق مثل بولاق).

وكانت هناك حاجة مُلحة للكثير من التغيرات من أجل تسهيل إدارة العاصمة ولمواجهة المتطلبات المتزايدة للمستخدمين الجدد للمدينة، وبصفة خاصة السائحين والمستثمرين، وكان السادات يود أن يعاد تنظيم القاهرة، وبصفة خاصة قلب المدينة

منها، طبقًا للمعايير الأوروبية (إبراهيم ١٩٨٧). وكان يأمل أن يجعل من مدينة القاهرة على غرار مستوى المدن الأمريكية الشهيرة، مثل لوس أنجلوس، وهيوستن. وكان مجدي وأسرته يشغلون قطعة من الأرض في قلب القاهرة المطل على نهر النيل. وأصبحت قطعة الأرض تلك ذات قيمة عالية وفي القلب من محاولات الدولة لتحديث القاهرة، وتأمين الأرض للإسكان الفاخر، والفنادق ذات النجوم الخمس، والمكاتب الفخمة. وكان الخطاب العام الموجه لمجدي وأسرته وجيرانه يحثهم على التضحية لصالح الأمة والموافقة على التحديث بالانتقال إلى المساكن الشعبية المبنية على أطراف القاهرة (غنام ٢٠٠٢).

وانتقلت أسرة مجدي إلى منطقة الزاوية الحمراء والتي كانت قرية زراعية صغيرة في سنوات الأربعينيات من القرن العشرين وظلت تنمو بسرعة بالغة خلال سنوات الستينيات حينما شُيد مشروع ضخم للمساكن الشعبية إبان حكم عبد الناصر لإسكان الموظفين والأسر محدودة الدخل. وتدفقت آلاف العائلات من القرى والمدن الأخرى، والأحياء الأخرى بالقاهرة إلى هذه المنطقة بالإضافة إلى هذا المشروع في غضون الخمسين عامًا الماضية. وقاموا ببناء منازل جديدة أو تأجير حجرات أو شقق في المنازل التي قام القطاع الخاص ببنائها. وشُيد مشروع آخر للمساكن الشعبية في أواخر سنوات السبعينيات وذلك لاستيعاب حالة إيواء الأسر التي تم إخلاء منازلها من مناطق القاهرة الأخرى. وكانت أسرة مجدي واحدة من تلك الأسر. واعتبرت أسرة مجدي نفسها محظوظة. فبدلاً من الحجرة الواحدة الكبيرة التي كانوا يتشاركون فيها معًا (١١ فردًا في آن واحد)، فقد خُصصت لهم شقة بحجرتي نوم، ومطبخ وحمام خاصين بهم بمفردهم في منطقة الزاوية الحمراء. وبينما رحبت معظم العائلات بالوحدات السكنية الجديدة واعتبروها تقدمًا ملحوظًا في حياتهم عن مساكنهم القديمة، فإن المشروع فصلهم اجتماعيًا وماديًا عن باقي جيرانهم (غنام ٢٠٠٢). كما أن عملية الانتقال أبعدتهم عن وسط المدينة وأعادت

تنظيم علاقاتهم بجيرانهم وبمدينة القاهرة على وجه العموم. وقامت الكثير من العائلات منذ ذلك الحين بتحويل الوحدات السكنية لتعكس ظروفهم المادية ورأس مالهم الرمزي.

الطريق إلى الرخاء

شرع السادات في تخفيف القيود التي كان الرئيس عبد الناصر قد وضعها على الهجرة من مصر إلى الدول الأخرى، وذلك عندما بدأ في تطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادي (*La Towsky 1984*). وعلى الرغم من أن السادات كان يرى أن الطريق إلى التنمية والتحديث يمر عبر الغرب، فإن دولا عربية أخرى مثل ليبيا، والعراق، والمملكة العربية السعودية قد أصبحت مصدرًا للازدهار المالي للكثير من العمال المهرة وغير المهرة من المصريين. وأصبحت هذه الدول، ومنذ سنوات السبعينيات تداعب خيال الشباب من أجل تحقيق أحلامهم في توفير الأموال اللازمة للزواج، والمسكن، والاستثمار. وعمل الملايين من المصريين في الخارج، عبر السنوات الماضية، وقاموا بإرسال تحويلات مالية إلى بلادهم. وكانت أعداد العمال المصريين العاملين بالخارج في عام ١٩٩٤-٩٥ يقدرون بحوالي ثلاثة ملايين عامل بلغت تحويلاتهم أكثر من ٣ بليون دولار أمريكي (*EIU 1996, 52*). ويرى مجدي، مثله في ذلك مثل هؤلاء الملايين الثلاثة أن العمل في الدول العربية هي وسيلته الأساسية نحو الرخاء.

وكانت الأردن والعراق هي أولى الدول التي اجتذبت مجدي في أوائل سنوات الثمانينيات، والذي هجر مقاعد المدرسة بعد تسع سنوات ليعمل في شركة للطباعة بالقاهرة أولاً. وسافر مجدي بعد أن تجاوز العشرينيات بالكاد مع أحد أصدقائه إلى العراق والأردن على أمل أن يجد عملاً جيدًا وبأجر معقول. وفشل

مجدي في أثناء هذه الرحلة في تأمين المبلغ المعقول الذي كان يأمل فيه. وكما ذكرت شقيقته، فإن مجدي وصديقه قد لقيا الأمرين لأنهما لم يرتبا لإيجاد العمل المناسب لهما. وتعين عليهما أن يعملا كبائعين متجولين من أجل توفير بعض النقود حتى يتمكنا من العودة ببعض الهدايا لأسرتيهما. وكانت المحطة التالية لمجدي هي الكويت. واستطاع من خلال إحدى مكاتب التوظيف في القاهرة أن يجد لنفسه وظيفة كحارس أمن في دولة الكويت في عام ١٩٩٢. وتم توظيفه لعام واحد، ولكنه استطاع، وهو يعمل هناك أن يجد لنفسه وظيفة لبعض الوقت في شركة للطباعة حتى يتمكن من زيادة دخله. وقبل أن ينتهي العام استطاع أن يرتب لنفسه للبقاء في الكويت كعامل كل الوقت في شركة للطباعة. واستمر هنالك للسنوات الست التالية.

من الجدير بالذكر أن الحدود الوطنية لها أهميتها في تنظيم تحركات مجدي ومساهماته في المجالات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية في الكويت. وتظل حقوق المواطن، واستحقاقات التأمينات الاجتماعية، والإقامة كلها مرهونة إلى حد كبير على أساس المواطنة أو الجنسية. وعادة ما يتم حرمان العمال الوافدين (من الهند، وباكستان، والبلاد الأخرى في الشرق الأوسط) من الكثير من أوجه الحياة في الدول المُنتجة للبترول. ويتم فصلهم بوضــوح عــن السكـــان المحليين، كما لا يمكنهم الحصول على الجنسية مهما طالت الفترة التي يقضونها في العمل والحياة في تلك البلاد (ناجي ١٩٩٨). ولم يكن من الغريب نظرًا لهذه الممارسات الإقصائية أن يظل مجدي محتفظًا بعلاقاته القوية بجيرته في القاهرة، وأن يقوم بإرسال الجزء الأكبر من دخله إلى أسرته.

وقد قام مجدي بتمويل معظم التجديدات الكبيرة التي تمت في شقة أسرته والتي خصصتها لهم الدولة، وذلك منذ أن بدأ عمله في الكويت. واستمر في إرسال تحويلات شهرية لوالدته كما كان يقوم بتغطية النفقات الإضافية في خلال شهر رمضان، وعيد الأضحى، والمناسبات الاجتماعية الأخرى. وكان مجدي عندما يقوم بإرسال النقود، فإنه عادة ما يقوم بتحديد أوجه إنفاقها. وقد طلب من والدته، في إحدى المرات شراء موقد بوتاجاز جديد، وسجادة جديدة، ودولاب. وطلب في مرة أخرى شراء منضدة كبيرة وعدد من المقاعد الإضافية.

وكان مجدي يعود إلى القاهرة محملاً بالعديد من الهدايا لأسرته ولجيرانه الأقربين شأنه شأن أقرانه من العاملين في الخارج. وكان عادة ما يقوم بجلب الصابون، وأنواع الشامبو، وزيوت الشعر، وكريمات التبييض، والملابس، والبطاطين الفاخرة، والأجهزة الكهربائية (مثل أجهزة التسجيل، والخلاطات الكهربائية). وكانت هذه الهدايا تقابل بالفرحة البالغة ويتم استعراضها مع الزائرين والأقارب كتعبير منهم لنجاح مجدي ووفائه بالتزاماته تجاه أفراد أسرته. وكان البعض منهم يستخدم هداياه بطريقة لم يكن مجدي يقصدها. فقد قام شقيقه الأكبر على سبيل المثال، باستغلال لعبة الأتاري التي أحضرها كهدية لابن شقيقه في أعماله. وقام شقيق مجدي بتوصيل اللعبة بجهاز تليفزيون صغير ووضعه في محل صغير تقوم زوجته بإدارته. وأصبحت هذه اللعبة تقوم بجذب الكثير من الأطفال الذين يقومون بممارسة اللعب بها مقابل أجر محدد.

وليس من الغريب مع تدفق الأموال والبضائع من الكويت إلى القاهرة ومع الأجور الهزيلة في الوطن، أن الكثير من الشباب اليافع وأسرهم ينظرون إلى العمل في أي بلد من البلاد المُنتجة للبترول كطريق وحيد من أجل توفير المال اللازم لتوفير شقة لعش الزوجية وتأمين الزواج. ويظل الشباب الصغار وأسرهم يحلمون ويبذلون جهدهم من أجل السفر (وغالبًا دون جدوى) لواحدة من تلك الدول. ويظل

سفر هؤلاء الشباب محفوفًا بعدم اليقين بدرجة كبيرة كما تثير العديد من الأسئلة: هل سينجح في الحصول على أو الاحتفاظ بفرصة عمل جيدة؟ وهل سيظل يتذكر أسرته والتزاماته في الوطن؟ وهل سيعود منتعشًا ماديًا وآمنًا جسديًا؟ هذه الأسئلة والمخاوف لها ما يبررها، فعلى العكس من مجدي، هناك العديد من الشباب الذين فشلوا في تحقيق الدخل المتوقع أو الذين لم يقوموا بإرسال أموال تُذكر لأسرهم. وفي حقيقة الأمر، فإن أحد أشقاء مجدي الكبار والذي عمل في العراق وليبيا، يُجسد خير مثال ليس فقط لفشل الشباب في توفير أية أموال ولكن أيضًا كيف يمكن أن يسقط فريسة للعادات الضارة مثل إدمان الشراب والتردد على النوادي الليلية. ولذا يبذل الأبوان ما في وسعهما من أجل تأمين أن ينجح أبناؤهم في الأعمال التي يقومون بها وأن يقوموا بتوفير أقصى ما يمكنهم من نقود. وفي هذا الصدد، فإن التواصل المستمر مع الأبناء وتشجيعهم على شراء الوحدات السكنية أو تجديد الشقق الموجودة هي من الأساليب المهمة التي يتبعها الأبوين من أجل ضمان استمرارهم في إرسال النقود وتقوية أواصر العلاقة مع المغتربين العاملين وأسرهم وجيرتهم في القاهرة.

شرائط تسجيل الكاسيت: فن الاستماع

كان هنالك أيضًا، بالإضافة إلى تدفق النقود والبضائع من مجدي، تدفق مستمر للأفكار، والأخبار، والمعلومات والتي جعلت في مقدوره المساهمة بفاعلية في صناعة القرارات المتعلقة بالحياة اليومية لأسرته وأصدقائه. وكانت للخطابات، والمكالمات الهاتفية، والصور، وشرائط التسجيل أهميتها البالغة في التغلب على البعد المادي الذي يفصل بين مجدي ووالدته، وأشقائه، وخطيبته. وتعتبر واحدة من شقيقات مجدي، وهي نسمة، والقريبة جدًا من مجدي هي القارئة والكاتبة لخطابات

مجدي بصفة أساسية. فهي الأكثر تعليمًا عن شقيقاتها ولها قدرة على الكتابة بخط جيـــد. وبينمـــا يمكـــن لأشقاء مجدي الآخرين أن يقوموا بقراءة رسائله، فإنهم إما لا يعرفون كيف يكتبون، أو يعتقدون أن خطوطهم في الكتابة غير مقروءة بوضوح. وتسألني والدة مجدي في بعض الأحيان أن أكتب لها الخطابات باسمها، عندما تكون نسمة غير متواجدة، أو ترفض أن تقوم بالكتابة في محاولة منها لطلب المزيد من النقود.

ولقد أدى استخدام شرائط التسجيل الصوتية بالإضافة إلى الخطابات، والاتصالات التليفونية إلى تدفق المعلومات بين المغتربين وأسرهم. وتعتبر المكالمة التليفونية وسيلة بالغة السرعة للاتصال يمكن بواسطتها مناقشة الموضوعات العاجلة وبطريقة مباشرة. وعلى الرغم من أن عدد التليفونات كان محدودًا في منطقة الزاوية الحمراء أثناء سنوات التسعينيات، فإن المغترب كان يمكنه أن يتحدث مع أسرته عبر تليفون أحد جيرانه ممن يملكون خط تليفون. وكانت المكالمات التليفونية، على الرغم من ذلك، مُكلفة للغاية، ويتم استخدامها على فترات غير منتظمة بين الحين والآخر. كما كانت شرائط التسجيل الصوتية بديلاً آخر في منتهى الأهمية من أجل التواصل الفعّال. وعلى العكس من رسائل الفاكس والبريد الإلكتروني والمتاحة للطبقة العليا من المصريين، وكلاهما يمكن أن يتحاشى رقيب الحكومة، فإن شريط التسجيل الصوتي يجب أن يمر عبر جهاز رقابة الدولة. وعندما ترغب شقيقة مجدي في أن ترسل شريط التسجيل عبر البريد، فيجب عليها أن تأخذ معها بطاقة الهوية الخاصة بها. كما يجب أن يتم تدوين اسمها وعنوان مسكنها بوضوح على المظروف، كما أن موظف البريد المختص يقوم بتسجيل بيانات هويتها في سجل. ويتم فحص كل شريط، كما قيل لي، من أجل التحري عن أي مواد دينية أو هجوم على الحكومة.

وعلى الرغم من أن إرسال شريط التسجيل عبر البريد أكثر تكلفة، ويتم فحصه بواسطة الدولة، ويتطلب التنسيق بين أفراد العائلة لتسجيله، فإنه عادة ما كان يُفضل عن الرسائل العادية للعديد من الأسباب. أولاً يتيح الشريط الصوتي للوالدين والأقارب الذين لا يعرفون القراءة الكتابة التواصل مع أحبائهم بدون وسيط آخر (ككاتب الخطاب أو قارئه). ويجهل معظم الآباء والأمهات في الزاوية الحمراء القراءة والكتابة، وحتى بعض الأشقاء الذين ذهبوا للمدرسة لست سنوات بل وأحيانًا لتسع سنوات لا يعرفون الكتابة. وهكذا تستطيع، والدة مجدي الأمّية بواسطة التسجيل الصوتي التواصل مباشرة معه. ويستحيل التعبير بالكتابة تقريبًا عن الصدق والدفء اللذين يشعان من دعواتها لابنها. وتتحول تعبيراتها وعواطفها الدافئة إلى كلمات صماء عندما يتم نقلها على الورق بواسطة ابنتها أو أحد جيرانها. بينما يعكس صوتها العميق والبالغ الرقة عواطفها القوية، كما أن كلماتها تعبر عن مدى الحنين إلى فلذة كبدها عندما تقوم بتسجيل شريط صوتي. كما يمكنها أن تعبر له عن شعورها بالفخر لإنجازاته، وتكرر توقعاتها ونصائحها إليه. وكانت نسمة ككاتبة لخطاباته دائمًا انتقائية في اختياراتها لما تقوم بكتابته. فترفض أحيانًا أن تكتب عن طلبات أمها للنقود، أو ترفض الكتابة عن بعض المشاكل في العائلة. ولكن لم يكن في وسع أي شخص، على الرغم من ذلك، أن يمنعها من أن تقول ما ترغب فيه عندما تقوم بالتسجيل لمجدي. وربما يمكنهم التعليق على ما قالته، ولكنها لا تزال لديها الفرصة لتعبر عن كل ما تريد التعبير عنه من أفكار وبدون وسيط وطرف ثالث. ويسمح لها في الوقت نفسه، عندما يأتيها شريط صوتي مُسجل من مجدي، أن تستمع إلى صوته مرارًا وتكرارًا، وعلى وجه الأخص، في الأوقات التي تفتقده فيها. وكنت أشاهد تعبيرات وجهها وهو يتألق بالفرح وترتسم البهجة على أسارير وجهها بأكمله وهي تستمع إلى صوته في شريط صوتي، وترهف السمع إلى كلماته الحانية والموجهة إليها مباشرة، أو وهي تستمع إلى إحدى نكاته أو نوادره القصصية.

ويتيح الشريط الصوتي، بالإضافة إلى ذلك، المرونة في نقاش العديد من التفاصيل والكثير من الموضوعات، وإضافة أصوات مُسجلة للعديد من الأقارب والأصدقاء. وقد أتاح الشريط الصوتي لمجدي أن يتواصل مع كل أفراد أسرته، ومناقشتهم في كافة الموضوعات مثل صحة والدته، ومستقبل شقيقه الصغير، ووزن شقيقته الصغرى. كما أتاحت له شرائط التسجيل أن يقوم بنقل أحدث الأغاني من الكويت للقاهرة، وأتاحت لأشقائه وشقيقاته أن يرسلوا إليه أحدث الأغاني والنكات المصرية. ويغني له البعض في هذه الشرائط ليعبروا له كيف يفتقدونه، بينما الآخرون والأقل ثقة في جمال أصواتهم، يقومون بتسجيل أغنية من المذياع. كما أن تسجيل الشريط الصوتي، يقوم بتجميع كل أشقائه وبعض أصدقائه الحميمين. وغالبًا ما يتحول التسجيل الصوتي إلى جلسة لقص الحكايات والنوادر. وتمنح مثل هذه الشرائط لمجدي مشاعر الإحساس بجيزانه، كما تذكره بالأيام التي كانوا يجتمعون فيها، كما تجعله قرير العين فيما يختص برفاهية أسرته.

والمتوقع، في نفس الوقت أن يقدم شريط التسجيل وسيلة تواصل أكثر عفوية من الخطاب، وبذلك يتمكن المغترب من تحليل نبرات الصوت ونوعيته على الشريط ليقوم باستنتاج مالا يريد الأقرباء ذكره شفاهة له. فطلبت مني، ناديه، على سبيل المثال، أن أكتب لزوجها بالتفصيل عن موضوعات مثل من من أقاربهم قام بزيارتها بعد أن وضعت مولودها، ومدة زيارتهم، وكم أعطوها من المال كهدية للمولود. وعلى الرغم من ذلك، طلب منها زوجها أن تقوم بإرسال شريط تسجيل صوتي بتفاصيل أكثر. أما زوج نادية، فلم يكن يرغب في قراءة كلماتها في خطاب، يتم كتابته عن طريقي أو عن طريق نسمة، ولكنه كان يريد أن يستمع لصوت زوجته من أجل أن يستطيع تحديد مشاعرها الحقيقية عن زيارات أسرته. وبالمثل، كان مجدي يستطيع أن يدرك عندما تكون والدته مريضة أو متألمة حتى وإن حاولت أن تقوم بتغطية ذلك أثناء التسجيل الذي تقوم بإرساله. وعندما يشعر

أن "صوتها مختلف" كما قال في خطاب له، فإنه يرسل خطابات أو يهاتف أشقائه تليفونيًا بغرض الاستفسار والاطمئنان على صحة والدته.

ولكن الأكثر من كل ذلك فإن شريط التسجيل الصوتي يستخدم "كمستند" يتم تداوله بين أفراد العائلة وأصدقائه المقربين، كما يمكن استعادته مرارًا وتكرارًا سواء للأميين أو للقادرين على القراءة والكتابة. وبينما يمكنهم احتمال دفع سعر مكالمة تليفونية وكتابة الخطابات متاحة فقط لمن هم قادرين على القراءة فإن أسرة مجدي وأسرة خطيبته يحتفظون بتلك الشرائط الصوتية التي يعبر فيها عن تفضيلاته وردود أفعاله. ويتم الرجوع إلى هذه الشرائط عندما تختلف الآراء أو ينشأ خلاف بشأن التغييرات المقترحة في شقته السكنية.

ولذا فإن هذه الشرائط الصوتية، توطد معرفة المغترب بما يحدث بين جيرانه، كما تدعم صلاته المادية والعاطفية بأسرته. ويرغبون غالبًا في تذكير "الرجل الصغير" بالتزاماته، وتشجيعه، كما يستحثونه من أجل استثمار أمواله في السلع المُعمرة. ويضمن الاستثمار في الأغراض المادية، وغالبًا في الشقق السكنية، أن تصبح أداة قوية من أجل استمرار تدفق المال والمعلومات من المغترب، وانطوائه تحت لواء خلق المحلية.

بناء أحلام جديدة: شقة مجدى السكنية

تعتبر الشقة السكنية، وتنظيم المساحات الداخلية، ونوعية الأثاث الذي سيتم اقتناؤه، هي كلها محور تقديم الشخص لنفسه في الحياة اليومية في الزاوية الحمراء. كما أن الشقة السكنية هي المظهر المادي على قدرة الشاب على كسب الرزق وعلى مهارة المرأة في تنظيف وتجميل المنزل. إنه الموقع المرئي والمتميز للتعبير عن الهوية وعن أوضاع العائلة. ويتجلى ذلك بوضوح في العديد من

التغييرات التي قام السكان بوضعها موضع التنفيذ على وحداتهم السكنية (التي كانت متشابهة في الشكل، واللون، والتنظيم الداخلي لمساحتها) والتي خصصتها لهم الدولة. وتعبر الكثير من هذه التغييرات عن دلائل التميز والتعبير عن القدرة المادية لساكنيها (غنام ٢٠٠٢). وقد استثمرت الكثير من العائلات الأموال والعمال من أجل إجراء تعديلات في منازلهم للتعبير عن مقدرتهم المالية وتميزهم الاجتماعي. وكما ذكرنا آنفًا فإن أول الأشياء التي قام بها مجدي هو إجراء تعديلات جوهرية في الوحدة السكنية الخاصة بالعائلة. فقد قام على سبيل المثال، بتركيب سخان للمياه، وتجديد المطبخ والحمام، كما قام بتركيب أبواب زجاجية غالية الثمن في البلكونة، ودهان الشقة بأسرها بدهانات مُكلفة.

ويعتبر دور الشقة السكنية من الركائز الاجتماعية المطلوبة من أجل إتمام الزواج، واكتساب شأن اجتماعي كبير بين الأقران غير المتزوجين، والذين تشجعهم أسرهم لاستثمار الجزء الأكبر من دخولهم في تشييد وتأثيث وزخرفة وحداتهم السكنية، التي سيعيشون فيها في النهاية عند عودتهم من الخارج. وتدل الشقة السكنية على أن المغترب "قد فعل شيئًا"، وتشير إلى أنه ليس فقط قد أحرز نجاحًا وتميزًا، ولكنها أيضًا تشير وتعزز تأصيل جذوره وارتباطه بجيرانه الذين يقطن بينهم.

بدأت أسرته في ممارسة الضغوط عليه لتوفير ما يكفي من النقود لشراء شقة في منطقة الزاوية الحمراء، وذلك بمجرد أن بدأ عمله بالكويت. وشجعته خطاباتهم وشرائطهم التسجيلية على الادخار وكانت تحتوي تقديرات تكاليف شراء الوحدات السكنية بجوارهم. وكان واضحا للجميع، وحتى قبل أن تبدأ عملية الشراء، أن شقة مجدي يجب أن تعكس دخله ووضعه الاجتماعي. أُجبر أشقاؤه الصغار على التفكير في إيجار أو شراء وحدات سكنية تحتوي على حجرة نوم واحدة في إحدى المدن السكنية التابعة خارج القاهرة، وهو الخيار الذي لم يكونوا

يحبونه ولكنه الوحيد المتاح أمامهم بالنظر إلى دخولهم المتواضعة. وافترضت الأسرة من البداية وكأمر مسلم به، أن مجدي في مقدوره أن يشتري شقة ذات حجرتي نوم على الأقل وبالقرب منهم في منطقة الزاوية الحمراء. وذلك هو ما حدث بالضبط بعد أن ارتبط مجدي بالخطوبة مع فتاة تُدعى ليلي، والتي تعيش أيضًا في الزاوية الحمراء. وتتميز تفاصيل خطوبة مجدي وشرائه لوحدته السكنية بالكثير من التفاصيل الشيقة، ولكنها أمور بعيدة عن موضوع هذا الكتاب (برجاء الرجوع إلى غنام ٢٠٠٢). ويكفي هنا أن نذكر أن نسمة (شقيقة مجدي) بحثت عن شقة، واستطاعت إنهاء المهمة بمعاونة من أشقائها وشراء شقة من حجرتي نوم بالقرب من منزل الأسرة.

يتألف هيكل شقة مجدي من حجرتي نوم، وصالة للمعيشة، وحمام، ومطبخ منفصل وواسع نسبيًا. وهذه الشقة مطابقة تمامًا لشقة أسرته، والتي يعيش فيها، وحتى الوقت الحاضر ١٠ إلى ١٢ شخصًا. وفي نفس الوقت، فإن شقيقه الأكبر فهمي، وهو سائق لدى عائلة ثرية تقطن في حي آخر، يعيش مع زوجته، وابنه ذى الثمانية أعوام في شقة ذات حجرة نوم واحدة. وعلى الرغم من أن فهمي وزوجته كانا محظوظين في أن يجدا هذه الشقة منذ عشرة أعوام، لأنها كانت قريبة من أسرتيهما، فإن الشقة الآن صغيرة جدًا بالنسبة لهم. وبالإضافة إلى حجرة النوم، فهناك مدخل صغير، ولكن لا توجد حجرة معيشة منفصلة يمكن استخدامها لاستقبال الضيوف. وتوجد فقط أريكة على المدخل بالقرب من باب الشقة، وتستخدم لاستقبال الضيوف عليها. وتعتبر هذه المنطقة ضيقة للغاية، بحيث إذا ما تصادف أن يأتي شخصان أو ثلاثة في نفس الوقت، فإن المكان يصبح مزدحمًا وغير مريح للجلوس. كما أن زوجة فهمي لا تشعر بالارتياح لحقيقة أن مطبخها يتكون فقط من حوض للغسيل وموقد للغاز يحتلان الطرقة وتكون عُرضة لأنظار الضيوف الذين يحتلون الأريكة على الجانب الآخر من المدخل. وهي لا تزال تحلم

بتوفير ما يكفي من النقود ومنذ مقابلتي لها في عام ١٩٩٣ وذلك حتى تتمكن من إقفال البلكونة بالألوميتال لتقوم باستخدامها كمطبخ مستقل.

تسببت التجديدات التي يقوم مجدي بإدخالها في شقته غير المسكونة حتى الآن في زيادة الشقاق أكثر فأكثر بينه وبين أشقائه. وتم تنفيذ هذه التجديدات بتشجيع من أسرته وأسرة خطيبته، والتي غالبًا ما تجذب انتباهه إلى الأفكار والأشكال الحديثة من أجل حث مجدي على الاستثمار في توسيع الشقة، وتنظيم مساحتها الداخلية، وشراء الأثاث الفاخر. قررت أربع أسر من سكان المبني، وذلك بعد أشهر قليلة فقط من شراء الوحدات، توسيع شققهم السكنية، عن طريق بناء هياكل خراسانية بجوار المبنى وإضافة مساحة جديدة للوحدات المخصصة لهم من الدولة. وقدرت أسرته وأسرة خطيبته أن توسيع شقته سيصبح استثمارًا طيبًا تحافظ على قيمة نقوده في المستقبل، وذلك على الرغم من أن شقة مجدي الجديدة ذات حجرتي النوم اعتبرت واسعة وأن القليل جدًا فقط من الشباب يمكنهم تحمل ثمن مثل هذه الوحدة السكنية. وكان البناء الجماعي للتوسعات مع الجيران مهمًا للغاية ليس فقط لأنهم يستطيعون كمجموعة تحمل التكلفة العالية للتوسعات. ولكنه كان أمرًا حاسمًا لتجنب محاولات الدولة إزالتها لأن هذه التوسعات غير مُرخص بها. ويتعاون السكان في جمع النقود ودفعها لموظفي الدولة حتى يقوموا بغض النظر عن هذه المخالفات. وفي نفس الوقت، يجعل الأمر غاية في الصعوبة على موظفي الحكومة محاولة إزالة هذه التوسعات، إذا ما تم تشييد هذه التوسعات كجماعة (للمزيد في هذه العمليات، برجاء الرجوع إلى غنام ٢٠٠٢).

قامت أسرة مجدي وأسرة خطيبته معًا بتسجيل شريط صوتي تقوم فيه بشرح تفاصيل الخطة بأكملها والنقود التي تحتاجها. ووافق مجدي على العرض وقام بإرسال النقود المطلوبة إلى أسرته. وأشرف على تنفيذ التوسعات أشقاؤه، وخطيبته، ووالدها، وبعض من أصدقاء مجدي الحميمين. وأصبحت شقة مجدي في

الوقت الحالي تضم حجرتي نوم، وحجرة معيشة، وحجرة طعام، ومطبخ يتسم بالرحابة، وحمامين، وشرفة كبيرة. واستمر التواصل مع مجدي عبر شرائط التسجيل، والخطابات، والصور، والمكالمات التليفونية لمناقشة المزيد من التطوير فيما يتعلق بشكل وهيكل التوسع المقترح.

ومن المدهش أن نلحظ أن سفر مجدي قد جعل أسرته أقرب إلى أسرة زوجته المستقبلية وأصدقائه. فمن المعتاد، في غيابه، أن تقوم والدة مجدي وأشقاؤه بزيارة ليلى في الأعياد الدينية، وتقديم الهدايا إليها في المناسبات الخاصة. كما خلقت الشقة الحاجة إلى التواصل معها في أوقات منتظمة. وفي نهاية المطاف فإن الوحدة السكنية عبرت عن التمازج بين أفكار مجدي، وتوقعات أسرته وأصدقائه، وآراء خطيبته وأسرتها. إنهم جميعًا يقومون بخلق "حاجات" جديدة يقومون بإبلاغها إليه، وفي نفس الوقت فجميعهم يقومون بالمساهمة في تحقيق نفس الهدف بطريقة أو بأخرى وهي تجديد الشقة السكنية. وقامت ليلى بشراء السيراميك اللازم لمطبخ وحمامات الشقة مع اثنتين من شقيقات مجدي. وساهم أحد أصدقاء مجدي المقربين في نقلها من السوق إلى الشقة. واتصل والد ليلى بالعمال واشترك في الإشراف على تركيب السيراميك. كما أن أحد أشقاء مجدي قام بإحضار الفنيين الذين قاموا بعمل توصيلات الكهرباء والمياه المطلوبة للغسالة الأوتوماتيكية والمتوقع أن يقوم مجدي بشرائها. وكان هناك إشراف واضح، أثناء كل هذه العمليات على إنفاق النقود وأوجه الإنفاق التي تتم فيها. وتصطحب ليلى إحدى شقيقات مجدي في كل مرة تقوم بشراء أي مستلزمات، لتكون شاهدة على التعامل المادي والقيمة المدفوعة. كما تحتفظ إحدى شقيقات مجدي بقائمة حساب مكتوبة للمصاريف المتنوعة وإبلاغ مجدي بصفة منتظمة بكل الإنفاق. وباختصار، فإن الشقة أصبحت مشروعًا يوحد الجميع في محاولاتهم معاونة مجدي لوضع أحلامه موضع التحقيق.

ومنح سفر مجدي حرية أكبر لخطيبته في تحديد شكل شقة المستقبل. وعلى الرغم من حقيقة أن النساء أكثر نشاطًا في التنظيم، والتنظيف، وزخرفة شققهن السكنية، فإنهن يتولين هذا الدور بعد الزواج. ونادرًا ما تقوم الفتاة في فترة الخطوبة التي تسبق الزواج بهذا الدور في إعداد شقتها المستقبلية إلا في المراحل الأخيرة، وذلك عندما تقوم هي وإخوتها (أو أصدقاؤها من الفتيات) بترتيب المفروشات التي تقوم بشرائها (في المعتاد تقوم بشراء غرفة المعيشة والمطبخ) وتقوم بتنظيم حاجياتها الخاصة في غرفة النوم. وعلى العكس من هذا الدور الشائع، فإن دور ليلى وأسرتها كان محوريًا في إدخال تغييرات في شقة مجـــدي منذ البداية.

قامت ليلى باتخاذ قرارات في العديد من الموضوعات التي تتعلق بألوان السيراميك، ونوعية البانيو، وألوان دهانات الشقة. كما قامت بمبادرات في تنظيم الوحدة السكنية. وصممت، على سبيل المثال، على وجود مطبخ كبير. وساهمت، على العكس من غيرها من الفتيات المقبلات على الزواج في قرارات تتعلق بحجرة النوم المستقبلية. وبينما تقوم العروس في المساهمة في اختيار أثاث غرفة المعيشة، والمطبخ، فإن أثاث غرفة النوم والذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحياة الجنسية، هو من مسئولية العريس وأسرته (غنام ٢٠٠٢). وكانت الخطيبة هي من تقرر في هذه الموضوعات، في حالة مجدي وليلى. ولكي يكون في مقدورها أن تقوم باختيار الأحدث والأكثر أناقة وجمالاً من الأثاث، فقد شاهدت ليلى برامج التليفزيون، وبحثت في المجلات المتخصصة، وزارت الكثيرات من المتزوجات حديثًا لمشاهدة حجرات نومهن. وبعد أن استقر رأيها على الطراز، فإنها قامت بإرسال صورة الأثاث الذي راقها إلى مجدي من أجل اجتذابه إلى جانب رأيها. وقالت إن مجدي راقه التصميم واقترح أن يكون لون الغرفة أبيض. وعلى الرغم من أن ليلى كانت تفضل ألوان الأسود، والأرجواني. وكانت ترى أن الأبيض لون شائع جدًا وعتيق،

بينما الأسود والأرجواني أحدث وأكثر أناقة وجمالاً. وأخبرها مجدي بعد نقاش مطول على التليفون عن تفضيلاتها، بأن تقوم باختيار ما تراه مناسبًا.

وهناك أمر آخر جدير بالملاحظة وهو أن الطريقة والنمط الذي اختاره مجدي من أجل تجديد وزخرفة وحدته السكنية تعكس في جانب منه خبرته التي اكتسبها خارج مصر. فقد أحضر بعض الأدوات التي قام باختيارها من الكويت مثل فلتر المياه، وشفاط المطبخ، والمكنسة الكهربية، وهي أدوات لم تكن معروفة في الزاوية الحمراء. كما أنه قرر بأن يقوم باستثمار بعض النقود في تجهيز حمام كامل، وحجرة منفصلة للضيوف. وكانت شقة مجدي هي الوحيدة في الشقق السكنية التي قمت بزيارتها في المنطقة والتي بها حمامان والوحيدة التي تحتوى على بانيو للاستحمام.

وكان مجدي، من خلال شقته السكنية، ليس فقط يسهم في الإنتاج المادي لمنطقته السكنية ولكنه أيضًا كان يقوم بتقديم أشكال جديدة وأفكار للناس من حوله. وساهمت أفكاره ووحدته السكنية في التدفقات العالمية للأشكال والأحاديث لتحفيز رغبات جديدة وتقديم حقائق مادية جديدة والتي قامت أسرته وجيرانه بتقييمها ونالت إعجابهم. وأصبحت هذه الشقة، علامة على تميز الأحدث، والعصري، والأجمل، والمرغوب بدرجة أكبر. وهكذا أسهم مجدي بهمة ونشاط من خلال تجسد أحلامه العصرية على أرض الواقع، في تكوين وتحويل منطقته السكنية وخلق القاهرة على نطاق أكبر.

خاتمة: شروخ في جدران المثالية

عاد مجدي إلى القاهرة في عام ٢٠٠٠. ووجد لنفسه عملاً في شركة للطباعة، وتزوج، وانتقل ليعيش مع ليلى في شقته الجديدة. وأتيحت لي الفرصة لمقابلة مجدي لأول مرة في صيف عام ٢٠٠١. وكان دمثًا ووقورًا، ومبتهجًا كما وصفته والدته وشقيقاته. وكانت شقته مؤثثه بأناقة. واصطحبتني ليلى (التي كانت

حاملاً في طفلها الأول) وإحدى شقيقات مجدي للتجول داخل الشقة ومشاهدة أثاثها الجديد. وكانت الغسالة الكهربية مغطاة بغطاء أنيق وكذلك طاقم المائدة في حجرة المعيشة. وكانت حجرة المعيشة الرسمية مزودة بأريكة فاخرة، ومزودة بمقاعد تتماشى ألوانها مع الغرفة ولكنها لم تستخدم تقريبًا؛ حيث إن هناك حجرة معيشة الأسرة مزودة بجهاز تليفزيون وبأريكتين كبيرتين تسع ٣-٤ أشخاص. وكان المطبخ مرتبًا بعناية، كما أن الحمامات كانت معقمة ونظيفة. وكان جليًا أنهم جميعًا فخورون للغاية. وتشهد أسرة مجدي علامات نجاحه من العمل في الخارج وليلى وأسرتها يدركون أنها تملك بيتًا جميلاً لا تستطيع إلا القليلات من أقرانها حيازة مثيل لها.

وقد لاحظت في صمت شرخًا في هذه الصورة المثالية التي كان عليها عند خطيبته وأسرته عندما كان في الخارج. فقد كان، من الناحية المادية، غير قادر على تقديم نفس قيمة المساعدة التي كان يقوم بضمان تقديمها إلى والدته وهو في الكويت. وكان منزله الجديد وعمله، بالإضافة إلى ذلك، يستغرقان معظم اهتمامه وقد شكا بعض أفراد الأسرة من أنه لم يعد يقوم بزيارتهم كثيرًا كالمتوقع. كما شكت زوجته أنه لم يعد يتعامل باحترام كما أعتاد وهو في الكويت. وكان "عمل ليلى" واحدة من أهم نقاط النزاع بين الزوجين الجديدين. وبينما ترى هي أن العمل هو جزء من شخصيتها وتقوم بالتركيز على منافع العمل، فإن مجدي يقوم بإبراز الجوانب السلبية لتغيبها عن المنزل. وطلب منها أن تترك عملها، ولكنها أقنعته أن عملها لا يتداخل مع واجباتها تجاه منزلها. وكان ينتظر، كما قال أمام ليلى وأمامي، أن تنطق بأي شكوى عن حجم الأعمال التي تضطر إلى إنجازها بسرعة وبلا إتقان لإجبارها على البقاء بالمنزل. وتلقى ليلى دعمًا من أسرتها، حتى الآن. ويأخذون جانبها في الحديث، وعرضوا عليها مساعدتها في الأعمال المنزلية بصفة منتظمة. وأخذت ليلى إجازة غير مدفوعة الأجر لعام كامل، بعد أن وضعت

مولودها، وبعد أن استأنفت عملها كانت والدتها تقوم برعاية ابنها. وشاهدت ليلى للمرة الأخيرة في صيف عام ٢٠٠٣، وكانت حاملاً مرة أخرى ووضعت بنتًا.

يتضح جليًا في منطقة الزاوية الحمراء أن النجاح الواضح الذي يحققه مجدي وأمثاله يقوم بتحفيز المزيد من الرغبات للسلع الاستهلاكية والشقق المثالية. ويعمل سكانها كباعة، وسمكريه، وحرفيين، وميكانيكية، وسائقين، وكعمال في المطاعم والكافيتريات، وكتجار صغار، وفي أعمال الإنشاءات والمعادن، وكصانعي أحذية، وكعمال في المصانع، وكموظفين في الدرجات الدنيا من الكادر الحكومي، وكمدرسين، وكمديرين لأعمال صغيرة. ويمتهن الكثير من الرجال أكثر من مهنتين لمواجهة احتياجات أسرهم. ولكن ما يشغل تفكير معظم الشباب وأسرهم فيها هي الدول المنتجة للبترول مثل الكويت، وتحفز رغباتهم تجاه دخل أكبر وحيازة سلع استهلاكية جديدة. وتتشكل أحلام، وآمال، وأنماط استهلاكية بوسائل أكثر قوة عن طريق الأفكار، والأموال، والمنتجات التي يقومون بجلبها من هذه البلاد. وتتزايد الضغوط على الشباب للبحث عن السفر للخارج من جراء النقص المتزايد في الشقق السكنية، وارتفاع مستوى البطالة، وتزايد النهم الاستهلاكي نتيجة للضغوط التي تمارسها وسائل الإعلام عليهم بعرض هذه الأنماط الاستهلاكية.

وفي حقيقة الأمر، إن هناك اثنين من أشقاء مجدي يعملان حاليًا في الخارج. أحدهما، وهو أحمد الذي يكبر مجدي بخمس سنوات، وهو متزوج وله ثلاث بنات. وقام أحمد وزوجته باستئجار شقة بالقرب من أسرته عندما تزوج. وكان لزامًا عليه أن يغادر هذه الشقة بعد عامين من الزواج نظرًا للنزاعات التي نشبت بين زوجته وجيرانها. وكان في مقدوره في ذلك الوقت، أن يقوم باستئجار شقة سكنية في حي سكني آخر فقط وهو الإجراء الذي رآه الكثيرون أمرًا مؤقتًا. وكانت الآمال معقودة في أن يستطيع في النهاية القيام بشراء وحدة سكنية في الزاوية الحمراء أو في

منطقة قريبة منها. واستطاع أحمد، بمعاونة شقيقة زوجته، والتي تزوجت رجلا سعوديا، أكبر منها بكثير وتعيش في المملكة العربية السعودية منذ أكثر من عشرين عامًا، أن يجد عملاً في ورشة لإصلاح السيارات في السعودية. وظل يعمل هنالك للسنوات الخمس الأخيرة. وأجبر عماد الشقيق الأصغر لمجدي وعلى وجه الدقة بضغوط من والدته، على أن يبحث لنفسه عن عمل في الخارج. وقد كانت تشعر بالأسى لأن عماد بلغ الثلاثين من عمره دون أن يستطيع أن يدخر شيئًا يسمح له بالحصول على شقة وزوجة. وعلى الرغم من أن حقيقة أنه يعمل في محل لإصلاح هياكل السيارات ولستة أيام في الأسبوع (١٠-١٢ ساعة يوميًا)، فإنه يقوم بإنفاق كل المال القليل الذي يكسبه على أصدقائه وعلى "العادات السيئة" على حد وصف والدته. وتقول والدته إن السفر للخارج سيسمح له ليس فقط بكسب المزيد من المال، ولكنه أيضًا سيُجبره على أن يكون أكثر التزامًا وأن يقوم بادخار معظم دخله. وحاولت هي وأولادها مــرارًا أن يجــدوا لــه وسيلة للسفــر إلى الكويت أو السعودية، وعندما عجزوا عن ذلك، رتب عماد لنفسه عملاً في ليبيا منذ عامين. ويبقى أن نرى كم من الزمن سيستغرقه من أجل ادخار النقود المطلوبة من أجل تجسيد أحلام وتوقعات أسرهم ومجتمعاتهم الممتدة على أرض الواقع.

الأعمال المستشهد بها

Works Cited

Appadurai, Arjun. 1996. *Modernity at Large: Cultural Dimensions of Globalization.* Minneapolis and London: University of Minnesota Press.

Barber, Benjamin. 1996. *Jihad vs. McWorld: How Globalism and Tribalism Are Reshaping the World.* New York: Ballantine Books.

EIU (The Economist Intelligence Unit). 1996. *Egypt: Country Profile, 1996-1997.* London: The Economist Intelligence Unit Limited.

Ghannam, Farha. 2002. *Remaking the Modern: Space, Relocation, and the Politics of Identity in a Global Cairo.* Berkeley: University of California Press.

Gupta, Akhil, and James Ferguson, eds. 1997. *Anthropological Locations: Boundaries and Grounds of a Field Science.* Berkeley: University of California Press.

Featherstone, Mike. 1995. *Undoing Culture: Globalization, Postmodernism, and Identity.* London: Sage Publications.

Hall, Stuart. 1991. "The Local and the Global: Globalization and Ethnicity." In *Culture, Globalization and the World-System,* ed. Anthony D. King, 19–39. Binghamton: State University of New York Press.

Hannerz, Ulf. 1996. *Transnational Connections: Culture, People, Places.* London and New York: Routledge.

Harvey, David. 1989. *The Condition of Postmodernity.* Cambridge: Blackwell.

Ibrahim, Saad Eddin. 1987. "Cairo: A Sociological Profile." In *Urban Crisis and Social Movements,* eds. Salim Nasr and Theodor Hanf, 87–99. Beirut: The Euro-Arab Social Research Group.

Ikram, Khalid. 1980. *Egypt: Economic Management in a Period of Transition.* Baltimore: The Johns Hopkins University Press.

LaTowsky, Robert J. 1984. "Egyptian Labor Abroad: Mass Participation and Modest Returns." *MERIP* (Middle East Report) 14 (4): 11–18.

Malkki, Liisa. 1997. "New and Culture: Transitory Phenomena and the Field Tradition." In *Anthropological Locations: Boundaries and Grounds of a Field Science,* eds. Akhil Gupta and James Ferguson, 86–101. Berkeley: University of California Press.

Massey, Doren. 1994. *Space, Place and Gender.* Minneapolis: University of Minnesota Press.

Nagy, Sharon. 1998. "'This Time I Think I'll Try a Filipina': Global and Local Influences on Relationships between Foreign Household Workers and their Employers in Doha, Qatar." *City and Society* 19:1, 83–104.
Robertson, Roland. 1995. "Glocalization: Time-Space and Homogeneity-Heterogeneity." In *Global Modernities*, eds. Mike Featherstone, Scott Lash, and Roland Robertson, 25–44. London: Sage Publications.
Sadat, Anwar. 1978. *In Search of Identity*. Great Britain: Collins.
———. 1981. *al-'Alaqat al-asasiya i-l-insan: al-'alaqa bi-Allah, 'alaqatuhu ma'a nafsihi, al-'alaqa bi-l-nas, al-'alaqa bi-l-kawn wa-l-ashya'*. Cairo: al-Hay'a al-'Amma li-l-Isti'lamat.
Sassen, Saskia. 1996. "Whose City Is It? Globalization and the Formation of New Claims." *Public Culture* 8: 205–23.

عولمة التراث التاريخي والسياحة

الفصل التاسع

ترميم القاهرة الإسلامية
قوى فاعلة

كارولين ويليامز

أصبح قلب القاهرة التاريخية والمعمارية – الذي يمثل قلب وروح القاهرة الإسلامية – في الآونة الأخيرة هو هدف عمليات الترميم والتحويل الذي تجريه الحكومة المصرية. وواضح أن عمليات التجديد هذه هي تحديث لهذه المنطقة التاريخية ذات الأهمية التقليدية ووضعها في مسار العولمة وبالتالي في برامج السياحة الحديثة. وعلى الرغم من ذلك، وفى سياق أكبر، فإن الجدول الزمني المتسارع لهذا المشروع (جنبًا إلى جنب مع ممارسات الصيانة المشكوك فيها)، ومع الخطر الذي يمثله على نسيج المجتمع، فإنه يثير جدلاً عميقًا حول كيفية استخدام هذه الخطوة كتحول اقتصادي لاقتصاد وطني عليل، وكيفية الحفاظ على تراث ثقافي ثمين، وكيفية دمج الناس الذين يعيشون في هذه المناطق في عملية إحيائها. ويصور هذا الفصل الطريقة التي تم التركيز بها على هذه الموضوعات في "مشروع تطوير القاهرة القديمة" والذي تم تأسيسه بالقرار رقم ١٣٥٢ بتاريخ مايو ١٩٩٨.

ويعتبر هذا الجزء من مناطق القاهرة التقليدية، والقرون الوسطى، والإسلامية، والذي طواه النسيان كثيرًا في القرن العشرين، هو محل تركيز انتباه

الحكومة الجديدة، في القرن الحادي والعشرين. وكانت منطقة قاهرة القرون الوسطى منطقة مجهولة بالفعل وليس لها خرائط، وذلك عندما كنت طالبة في قسم الهندسة المعمارية والفن الإسلامي في الجامعة الأمريكية بالقاهرة في سنوات الستينيات وأثناء الحقبة الناصرية وتطبيق سياسة الاعتماد على النفس الاشتراكية. وكان هناك القليل من الخرائط والكتيبات الصغيرة للمساعدة في استكشاف شوارع وحواري تلك المنطقة. وقد نُشرت الخريطة الوحيدة في عام ١٩٤٨ بواسطة وزارة الأوقاف والشئون الدينية من أجل تضمينها في كتابها ذى المجلدين "آثار القاهرة"، وكانت النسخة الوحيدة المتاحة باللغة العربية. وكانت الخريطة وحتى يمكنها أن تتسع للآثار البالغة ٦٠٠ أثر في القاهرة التاريخية تحتل صفحتين كاملتين كل منها (١١٠-٨٠ سم). وكان يتعين علينا كطلاب أن نقف في الشوارع الضيقة بينما الصفحات الضخمة من الكتاب تطوينا بين أجنحتها وهي تخفق ونحن نكابد في سبيل فك رموز الكتابة الصغيرة عليها بحروف اللغة العربية. ولا يبدو أن أحدا من سكان الحي، أو أصدقائنا في الزمالك أو جاردن سيتي قد سمع من قبل عن أي من المساجد أو المباني التي كنا نبحث عنها. وأُجبرنا على أن نتلمس طريقنا إلى تلك المباني الأثرية التي نرمي إلى دراستها فرادى وبعزيمة لا تلين. وأصبحنا بهذه الوسيلة أكثر ألفة بالمدينة القديمة، وأكثر انبهارًا بآثارها المعمارية، وسكانها الودودين.

كانت هذه المنطقة بعد هذه الأحداث بأربعين عامًا هي المعُرضة لعملية تدخل ضخمة تستهدف ليس فقط تجديد مائة وخمسين موقعًا أثريًا من آثارها القديمة والمهمة، ولكن أيضًا إعادة تشكيل المدينة التاريخية في حد ذاتها. وسيتكلف "مشروع تطوير القاهرة القديمـة" بالقـرار رقـم ١٣٥٢ الـذي صدر في مايو عام ١٩٩٨ والذي صُدر من الرئيس حسني مبارك أكثر من بليون دولار أمريكي، ويضم أكبر عدد من المسئولين، والمشرفين، والمخططين، والعمال، بالمقارنة بأي

مشروع تحديث للقاهرة الإسلامية في مصر. وتقوم الحكومة بنقل الكثير من التجـــار، والحـــرفيين، والسكـــان من قاطني هذه المناطق والتي تُعد قلب القاهرة -والذين يبعثون الحيوية بوجودهم فيها - وذلك حتى تتمكن أعداد كبيرة من السائحين التجول فيها عبر مسارات محددة بأسرع وأقصر الطرق الممكنة، مسترشدين بالعلامات الاسترشادية والكتيبات. ولم تنل هذه العملية الضخمة من عمليات التجديد إلا القليل جدًا من انتباه العامة أو مناقشاتهم، وذلك على الرغم من أن عدد الآثار التاريخية الباقية المتمركزة في تلك المنطقة هي الأضخم من نوعها في العالم الإسلامي. ومع ذلك، فإن التفاصيل التي أمكن تجميعها مع بعضها البعض من الملاحظة ومن العديد من التحقيقات الصحفية، تشي بأن أن هذا الميراث التاريخي للقاهرة الإسلامية هي الآن "صناعة تطويرية" وتشير إلى مستقبل ينذر بالخطر لمنطقتها القديمة والممتعة.

وأنحى الرئيس مبارك باللائمة على الزيادة السكانية المتسارعة كسبب للعديد من المشاكل في مصر. وقد أُعلن في مارس عام ٢٠٠٤ أن عدد السكان قد بلغ ٧٠،٥ مليون نسمة، منهم ٦٨،٥ مليون نسمة يعيشون في الريف ("الزيادة السكانية" ٢٠٠٤). وهذه الزيادة تبلغ عشرة ملايين نسمة عن التعداد السابق والبالغ ٥٨،٩٨ مليون نسمة في يناير عام ١٩٧٣. وفي نفس الوقت، وعلى الرغم من ذلك، فإن قيمة الجنيه المصري قد تدهورت منذ عام ١٩٩١ (الرشيدي ٢٠٠٣ ب). وتمتد مدينة القاهرة، المدينة البالغة الضخامة، لمساحة تقرب من ٤٥٠ كيلومتر مربع، وتعاني من العديد من مشاكل النمو الحضري غير المتوازن: حيث إن النمو الاقتصادي وتشييد البنية التحتية لا تواكبان الطلب عليهما، كما أن نسبة ٨٠% من المساكن التي تم تشييدها فيما بين عامي ١٩٦٦، ١٩٨٦ غير مطابقة للمواصفات ومخالفة لقواعد البناء (فرج ٢٠٠٣). بالإضافة إلى ذلك، فإن الزيادة السكانية لم تواكبها الزيادة الضرورية في أراضي البناء، والنتيجة هي الزيادة في تضخم

المساكن العشوائية والأحياء الفقيرة (فرج ٢٠٠٣). ولحل هذه المعضلات الاقتصادية، أو على الأقل للتخفيف من حدتها، فإن الحكومة تستدير للجوء إلى ما تراه الحل السحري لكل المعضلات، أي السياحة.

تعتبر منطقة الشرق الأوسط واحدة من أسرع أسواق العالم نموًا في مجال السياحة (وتأتي في الترتيب الثاني في النمو بعد جنوب شرق آسيا) وتعتبر مصر هي البوابة الرئيسية للشرق الأوسط ("تقرير خاص ٢٠٠٣"). وتأتي السياحة في المركز الأول من حيث تحقيق عائدات من العملة الأجنبية في مصر. وتنمو بنسبة ٧% في العام *(Wells 2004)*، وتحقق السياحة ٣٠% من عائدات النقد الأجنبي، كما أنها تمد البلاد بما يقرب من ٣٠% من فرص العمل للقوى العاملة في البلاد ("مصر، صورة للبلاد" ٢٠٠٣). ولقد قفزت أرقام السياحة من مليون سائح في عام ١٩٨٢، بعد أن فتحت البلاد أبوابها للسياحة الخارجية، إلى ٦ ملايين سائح في عام ٢٠٠٣ ("السياحة إلى مصر" ٢٠٠٤). وأنفق ٥،٥ مليون سائح في عام ٢٠٠٠ ما يقرب من ٤،٣ بليون دولار أمريكي (سعد ٢٠٠٢) وفي الوقت الحالي، وعلى الرغم من الآثار المدمرة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وحرب العراق، فإن أعداد السائحين والأموال المتدفقة قفزت مرة أخرى لتعود إلى مستويات عام ٢٠٠٠ ("تقرير خاص" ٢٠٠٣). وملأ السائحون من دول الخليج العربي والباحثين عن نسائم النيل العليلة وحياة السهر التي لا تُحدها قيود، الفجوة التي أخدثها غياب السائحين الأوروبيين والأمريكيين وحافظوا على الأرقام العالية للسياحة المصرية. وعكفت وزارة الثقافة المصرية على خطة طموحة لتشييد سلسلة من المتاحف الجديدة، بالإضافة إلى أن هناك ما يقرب من سبعة آلاف مرشد سياحي مُرخص لهم بالعمل في مصر في الميادين المتعددة من مجالات الآثار، والتاريخ، ومواقع الجذب السياحي الطبيعية. بالإضافة إلى مواقعها الفرعونية، والتقليدية، والقبطية، والمسيحية، والاستعمارية، والبواخر النيلية، ومواقع الغطس

في البحر الأحمر، والمحميات البيئية، والواحات الصحراوية، والمناظر الريفية الخلابة. وافتتحت المشروعات الآتية: الإسكندرية الكبرى، في الإسكندرية (بتكلفة بلغت ٢٢٥ مليون دولار) في أكتوبر ٢٠٠٢؛ والمتحف الوطني (٣٩ مليون جنيه مصري) في سبتمبر ٢٠٠٣ في الموقع القديم لقنصلية الولايات المتحدة الأمريكية. وسيتم افتتاح المتحف المصري الكبير في عام ٢٠١٠ *(Ionides 2004)* في مساحة تقرب من ٥٠ فدانا على هضبة الجيزة. وتعتبر استثمارًا ثقافيًا واقتصاديًا وسوف تبلغ تكلفته ٣٥٠ مليون دولار أمريكي والمتوقع أن يرتاده ما يقرب من ثلاثة ملايين سائح كل عام (مرعي ٢٠٠٣). وهناك ثلاثون متحفًا آخر عبر مصر بأسرها ضمن برنامج يقوم بالتركيز على خطط جديدة ومتنوعة، مثل متحف الفسيفساء في الإسكندرية، ومتحف آخر في دمياط مخصص من أجل تطوير صناعة الأثاث منذ العصر الفرعوني وحتى العصر الحديث. كما اُفتتح بيت الأمة في القاهرة، وهو منزل سعد زغلول بطل ثورة عام ١٩١٩ ضد الحكم البريطاني، في فبراير ٢٠٠٣ (العارف ٢٠٠٣ أ). وتعتبر مبادرة الحكومة لتجديد وترميم الآثار في منطقة القاهرة الإسلامية التاريخية واحدة من المواقع التي تقدم السياحة الثقافية، ومع ذلك، فإنها تُعد الأكثر إثارة، والأبعد أثرًا، وتُجسد بأفضل الطرق الاتجاه الاقتصادي للحكومة الجديدة. وبينما تقوم هذه المبادرة، بتسليط الأضواء الكاشفة على مدى وجمال الإرث الإسلامي المعماري الذي لا نظير له للقاهرة، فإنها تقوم بإخضاعها للاستثمار.

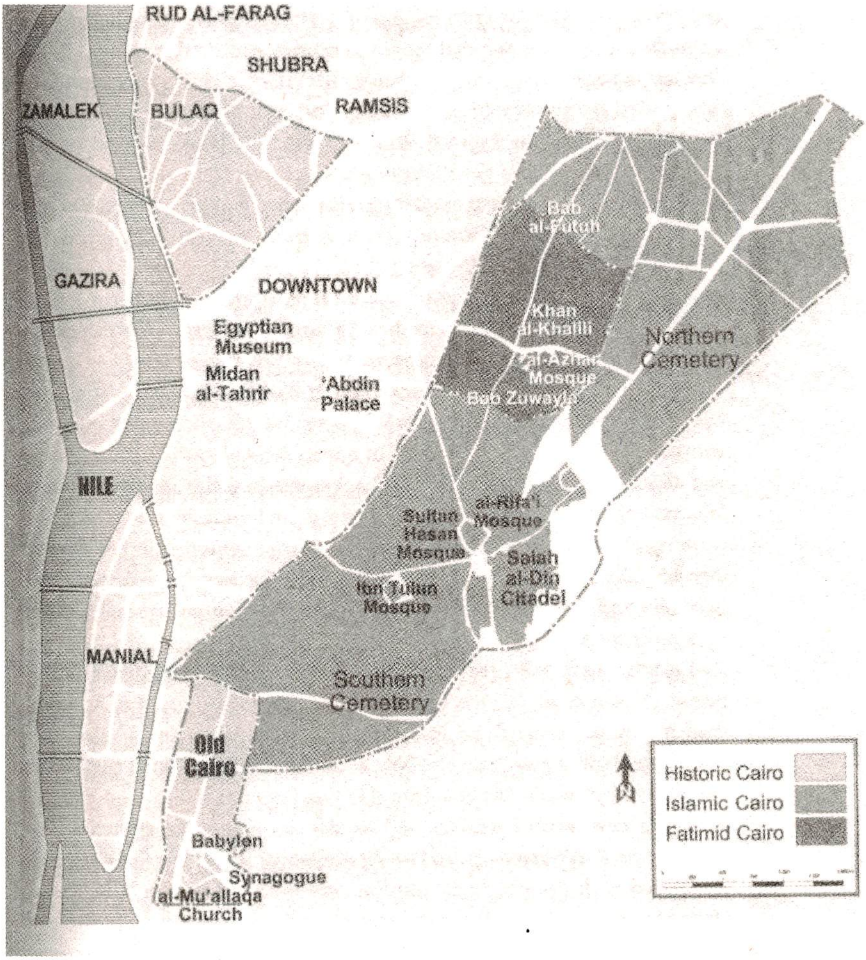
المنطقة: تحديدها طبيعيًا وتاريخيًا

ليس هنالك حتى الآن أي تحديد دقيق للحدود المادية الطبيعية لمشروع تطوير القاهرة القديمة (انظر الخريطة).

وتتكون المنطقة من العديد من الأجزاء، ويشار إليها بثلاثة مسميات: القاهرة الفاطمية، أو الإسلامية، أو التاريخية. وتحدد القاهرة الفاطمية المنطقة المركزية حيث تتركز أكثر الآثار عددًا، وحيث تتصل بالقاهرة، ومدينة القصر التي أسسها الشيعة الفاطميون في القرن التاسع. وكما كانت المدينة الفاطمية هي القاعدة التي يرتكز عليها الحكام الذين أتوا بعدهم ليتركوا آثارهم المتميزة. وقام السلاطين المماليك (١٢٥٠-١٥١٧) بزخرفتها وجعلوها مركزًا للعالم الإسلامي بأسره، ولكن عندما كانت جزءا من الإمبراطورية العثمانية (١٥١٧ – ١٧٩٨) واحتفظت القاهرة بمركزها التجاري المتميز. وتقع القاهرة على بعد ثلاثة أميال إلى الغرب من ميدان التحرير. وتبلغ الأبعاد الثابتة لمدينة القاهرة ١ كيلومتر مربع ، وتحدها من الشمال والجنوب أسوار وبوابات القرن الحادي عشر وأما الشرق والغرب فتحيط بها الشرايين الرئيسية وهي شوارع بورسعيد وصلاح سالم. ويعتبر اسم "القاهرة الإسلامية" اسم آخر يستخدمه مشروع تطوير القاهرة القديمة. وتضاف الأحياء التي تقع جنوب القاهرة وحول مسجد أحمد بن طولون الذي ينتمي إلى القرن الثاني عشر، والقلعة التي تنتمي إلى القرن الثالث عشر إلى المنطقة الفاطمية. وتحتوي هذه المنطقة أيضًا المقابر الجنوبية والشرقية التي تحوي رفات من القرن التاسع وحتى القرن العشرين وتحوي رفات أولياء، وسلاطين، وصوفين، ومطربين. وأخيرًا، التسمية الثالثة، القاهرة التاريخية، وتضيف مركزين أماميين يقعان بطول نهر النيل: إلى الشمال، مصر القديمة، بقلاعها الرومانية، وكنائسها المسيحية، ومعابدها اليهودية، والفسطاط، ببقاياها الإسلامية المبكرة؛ وبولاق إلى الشمال، وهي منطقة ميناء تم تطويرها في القرن السابع عشر والثامن عشر من بقايا القرن الخامس عشر.

ويتضمن تقدير هذه المنطقة في فهم علاقتها التاريخية والروحية. فقد تم تجميع النسخة النهائية لكتاب "ألف ليلة وليلة" في القرن الرابع عشر، وفي القاهرة

التي كانت تضم مائتين وخمسين ألف نسمة. وتصف رحلات ابن بطوطة، وهو حاج ورحالة حول العالم قاهرة العصور الوسطى في عام ١٣٢٥ "بأم الدنيـــا"... لا حدود لمبانيها، ولا نظير لها في جمالها وبهائها" ***(Gibb 1956)***، كما يصف ابن خلدون، متعدد المواهب الثقافية والذي عاش في القرن الرابع عشر، وكان يحاضر في القاهرة في عام ١٣٨٤ فكتب يقول: "من لم يزر القاهرة لا يعرف شيئًا عن عظمة الإسلام... فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك". وكتب المقريزي خططه فيما بين عامي ١٤١٥ و ١٤٣٧ وهي عبارة عن دراسة طبوغرافية / تاريخية / وحضرية لقاهرة العصور الوسطى والتي تظل مصدرًا فريدًا ومهمًا كمصدر مؤثر ***Rabbat 2000***. وكانت القاهرة بالنسبة للمقريزي تمثل كلا من الهندسة المعمارية المرئية والأماكن الحضرية التي وصفها، ومع الصور وذكريات الماضي التي استعادها والتي منحت الحيوية لوصفه ***(Jarrar 2000)***. وكان عمله هذا مساهمة أصيلة في كتابة التاريخ الإســـلامي، وتفسيـــرًا خـــلاقًا لـــم يكن له نظير حتى قرون طويلة بعدها ***(Rabbat 2000)***.



القاهرة الفاطمية – الإسلامية – التاريخية (تصوير موودي م. يوسف)

كان من الضروري بعد ذلك بأكثر من ٤٠٠ عام أن تكون من مقومات القاهرة التاريخية والتي وصفتها حملة نابليون بونابرت "وصف مصر: الدولة الحديثة". وكان ذلك هو الجزء من القاهرة الذي وصفه الفرنسيون "بالقاهرة الكبرى" والذي أعطى الشكل المرئي والموصوف عن طريق الزائرين الغربيين، والباحثين، والمؤلفين، والفنانين، والمصورين لاحقًا في القرن التاسع عشر. وكان من بينهم "باسكال كوست" والذي مكث سنوات ١٨١٧ – ١٨٢٧ ككبير لمهندسي محمد على باشا، وقام خلالها بدراسة ورسم الهندسة المعمارية لمدينة القاهرة *(Coste 1837)*. وكان كوست هو أول أوروبي يبدي تقديره لقيام القاهرة بجمع الآثار العربية بدون أن تتحطم من القرن السابع وحتى القرن الثامن عشر ولاقتنائها لإرث إسلامي حضاري يفوق ما تملكه أي مدينة إسلامية أخرى *(Coste 1837, 125)*. وقد لعب رجل آخر دورًا مهمًا في إظهار صورة قلميه واضحة القاهرة في القرن التاسع عشر وهو إدوارد ويليام لين. فقد وصف كتابه "وصف لسلوكيات وعادات المصريين المُحدثين" *(Lane 1836)* كمدينة في العصور الوسطى لم ينتقل إليها أي تأثير بالغرب وأمد زائريها بدليل إرشادي مساعد موثق. وكان ديفيد روبرتس هو أول فنان محترف يأتي إلى القاهرة. وقد قضى سبعة أسابيع في القاهرة في عام ١٩٣٨، يقوم خلالها بعمل رسوم تخطيطية للآثار الإسلامية كجزء من المشهد الحضري في القاهرة. ويعتبر الميراث الذي خلفه روبرتس هو أفضل سجل مرئي للمشهد الحضري لأهل القاهرة في العصور الوسطى. وتتسم رسوماته بالروعة وأنها تركيبات جديرة بالانتباه كما أنها تفيض بحيوية المشاة بل وتبدو وكأنها تُسجل أنفاسهم في ماضي المدينة التليد. واستخدم نجيب محفوظ بعد ذلك بمائة عام شوارع وحواري القاهرة التاريخية كخلفية لرواياته الاجتماعية – الواقعية. وقد فاز بجائزة نوبل عن ثلاثيته الشهيرة بين القصرين – وقصر الشوق – والسكرية. وقد أعلنت هيئة اليونسكو في عام ١٩٧٩، هذه المنطقة من قلب قاهرة العصور الوسطى

كواحدة من أصول التراث العالمي الثقافي وإدراجها في قوائمها الجديدة لمراكز التراث العالمي (اليونسكو ٢٠٠٢). (يمكنك الرجوع إلى الجزء الخاص بالقاضي والكرداني في هذا الكتاب من أجل تفاصيل أعمق عن الميــراث التــاريخي للقــاهرة والنظام المعقد لتسجيل الآثار والمواقع التاريخية في مصر).

وحافظ حكام مصر في القرن التاسع عشر على التطوير المكثف لقاهرة العصور الوسطى. وكان محمد على، الباشا الجديد، مُغرمًا بالإسكندرية أكثر من القاهرة، وعلى الرغم من ذلك، فإنه احتفظ بالقلعة كمركز إداري، وقام ببناء قصر على النيل في شبرا. كما سارع إسماعيل، حفيده، من وتيرة البناء على نهر النيل. وكان مفتونًا بالحداثة، ووضع الأساس لحي جديد، على النمط الغربي وبعيدًا عن النمط الديني، تمتد على شاطئ النيل وحتى الحدود الغربية للقاهرة. وكان الحي الجديد جنبًا إلى جنب مع المركز القديم الذي ينتمي إلى الطراز العربي الإسلامي للعصور الوسطى. وعندما انتقل إسماعيل من الجمالية حيث ولد في القاهرة الفاطمية إلى القصر الجديد الذي تم تأثيثه "قصر عابدين" فإن الأثرياء والنخبة حذو حذوه في الانتقال إلى المنطقة الجديدة. واحتفظت المدينة القديمة بأكثر من طبقة من المباني الجديدة، ولكن آثارها وأماكنها العامة تُركت في عناية الفقراء.

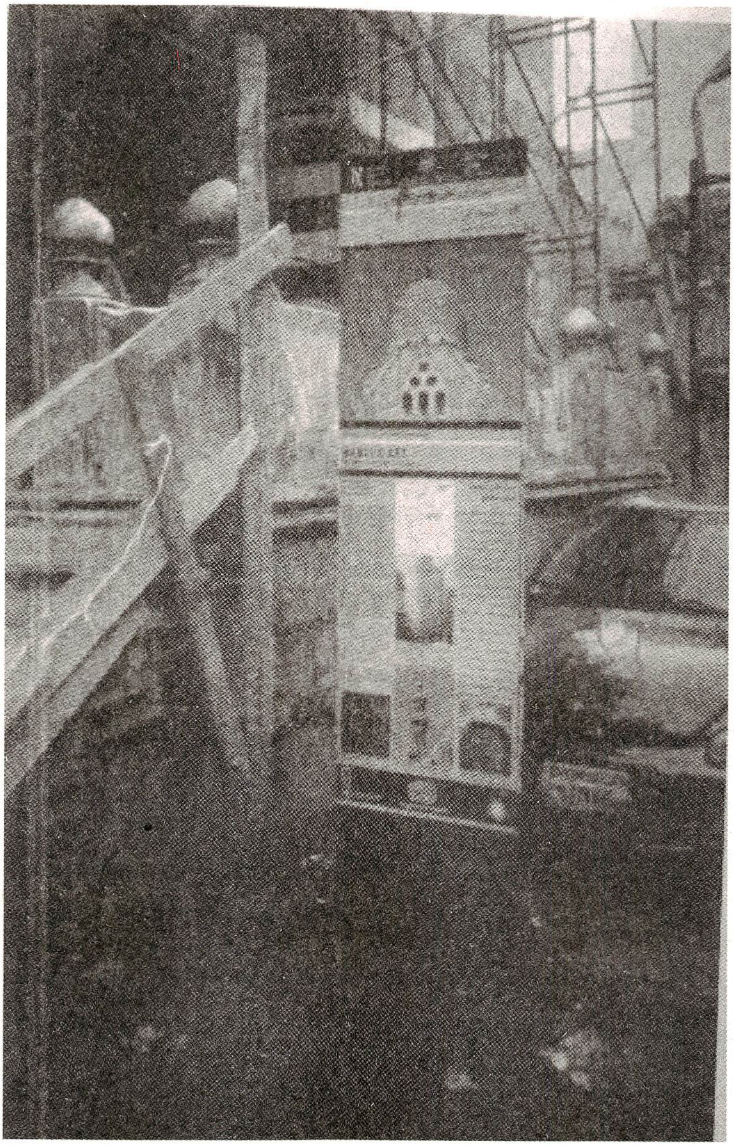
وأثار التدمير الشامل الذي حل بآثار العصور الوسطى في عام ١٨٨١، نتيجة لتشييد طرق جديدة، ومن أجل حمايتها من التدمير الشامل، فإن مجموعة متميزة من المهندسين المعماريين، ومن أوروبا في المقام الأول، قاموا بتشكيل لجنة المحــافظة على الآثار من الفنون العربية (وكان يشار إليها بالاسم الفرنسي للجنة *the Comité*. وكانت هذه اللجنة هي الأولى من نوعها في الشرق الأوسط، وكانت سياسة عمل اللجنة، كما أشار إليها ماكس هيرز، رئيسها الأول، هو دراسة كل المستندات المتاحة، وكل التقارير التاريخية (مثل تلك التي أوردها المقريزي عن التاريخ الطبوغرافي والمعماري)، والتي سجلها الرحالة، والصحفيون، والرسامون،

والمصورون، وذلك حتى تكون جهودها أمينة وقريبة من الأصل كلما أمكن ذلك *(Ormos 2002, 129)*. وبذلت اللجنة جهودا ضخمة منذ عام ١٨٨١، وحتى عام ١٩٦١، عندما انتهت مهمة اللجنة بعد ثورة عبد الناصر، والتي أصبحت الآن الهيئة العليا للآثار، تحت رعاية وزارة الثقافة، من أجل الحفاظ على الآثار، وترميمها، وصيانة الإرث الإسلامي الرائع لمدينة القاهرة.

ولم تكن السنوات التي تلت عام ١٩٥٢ رحيمة بآثار أو مدينة العصور الوسطى. فقد تضافرت العديد من العوامل لتشارك في التدهور الهيكلي والعمراني للمنطقة. ووضع التزايد السكاني، وبصفة خاصة الناجم عن النازحين من منطقة السويس بعد حرب عام ١٩٧٣، ضغوطًا متزايدة على المباني السكنية، وخدمات الصرف الصحي، مسببًا ارتفاع مستوى المياه الجوفية. وأدت سياسات التحرر الاقتصادي والتوجه الرأسمالي لسياسة الانفتاح الاقتصادي للرئيس أنور السادات إلى زيادة تكدس المركبات والتلوث بالإضافة إلى تحول المنطقة إلى منطقة تجارية، بينما أدى نقص الاتصالات، والتعاون، والتنسيق بين الإدارات الحكومية البيروقراطية إلى تضارب الاختصاصات، وتداخل المسئوليات، وفجوات كبيرة في المسئوليات ***Williams 1985; 2001-2002, 2002a, 2002bb, 2002c; Rodenbeck 2000***. وتفاقم الإهمال، والخراب، وسوء الاستعمال الذي عانت من جرائه تلك الآثار بالزلزال الذي ضرب القاهرة في أكتوبر ١٩٩٢، والذي سجل ٥،٩ بمقياس ريختر. ولحقت أضرار بالغة بما لا يقل عن ١٢٥ مبنى من المباني التاريخية وأصيبت الكثير من المباني الأخرى بالوهن. وأثار نمو السياحة الحالي، وبالتالي نمو الموارد المالية من دخول السياحة، على أي حال، البواعث والهمة لدى المسئولين من أجل تطوير هذه المنطقة من المدينة. واندفعت الحكومة المصرية نحو الحركة، ولكن منهجها والأساليب التي اتبعتها أثارت أعمق الشكوك على مستقبل المنطقة وميراثها الثقافي.

مشروع ترميم آثار القاهرة التاريخية

هناك جانبان في مشروع ترميم آثار القاهرة التاريخية: تجديد المنطقة التاريخية، وترميم آثارها. ولأول مرة في تاريخ الصيانة في القاهرة، يتم التعامل مع المنطقة كوحدة واحدة بدلاً من التعامل معها على انفراد أو كمجموعة من الآثار. وتقوم الحكومة في الوقت الحالي بالتركيز على القاهرة الفاطمية. وتنتوي وزارة الثقافة كجزء من برنامجها لمشروع ترميم آثار القاهرة التاريخية أن تقوم "بتحويل المنطقة بأسرها كمتحف مفتوح في الهواء الطلق" (حسن ١٩٩٩). وتقوم الوزارة بإعداد المنطقة لتكون جزءا من مشروع يرعاه الاتحاد الأوروبي "متحف بلا حدود" وبرنامجها "برنامج التراث الأوروبي المتوسطي" "الفن الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط" (فاروق ٢٠٠١).



المتحف المفتوح أو متحف بلا حدود – لافتة إرشادية لمكانها بينما مجمع السلطان برسباى والمباني الأخرى المحيطة به لا تزال قيد الترميم (تصوير كارولين ويليامز)

واستوحيت فكرة البرنامج من البديهية البسيطة بأنه بالاستعانة بالكتالوجات، ومعلومات الموقع، فإن المواقع التاريخية والأثرية ستصبح هي مادة المتحف المفتوح ("برنامج التراث الأوروبي المتوسطي"، ووزارة الثقافة المصرية، مصر، ٢٠٠١). ويمكن للسائحين الوافدين إلى مصر أن يشاهدوا الفن والهندسة المعمارية كلوحة تاريخية حية (بكر ١٩٩٨؛ حسن ١٩٩٩). ومن أجل ذلك، هناك خطط لرصف شوارع المعز لدين الله، وهو الشريان الاحتفالي الرئيسى لمدينة القاهرة، والذي يقف على مشهد متسلسل من التاريخ المعماري الحقيقي، وحفه بالأشجار. وتخطط وزارة الثقافة، بالإضافة إلى ذلك، للتخطيط لمساحات خضراء حول العديد من المواقع الأثرية، وعلى وجه الأخص حول مجمع السلطان قلاوون، ومسجد الحكيم ("أخبار السياحة" ٢٠٠٤). وتلحق هذه النظرة، في حقيقة الأمر، أضرارا جسيمة للتصميم الأصلي الخاص بالعصور الوسطي والغرض من الهندسة المعمارية. فقد وضع المصمم الأصلي المباني ذات الغرض الواحد وذات الأغراض المتعددة عمدًا واحدا بعد الآخر وذلك من أجل البرهنة على هيبة الراعي لها ومركزه الاجتماعي. وتعبّر الواجهة المشابهة للوادي الضيق ومجموعات الآثار على الشوارع الرئيسية عن القوة التي تمثلها الهندسة المعمارية. ويشير تلاصق الآثار المعمارية والعلاقة السياقية بالمباني الأخرى في المركز الاحتفالي إلى المركز الاجتماعي لراعي هذه الآثار ووظيفته، وليس انعزالها عن باقي الآثار. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مدينة العصور الوسطى، كانت الساحات الداخلية هي التي تحتوي على مساحات مفتوحة، ومساحات للتنزه داخل المباني؛ ولم تكن هناك مساحات مفتوحة حول هذه الآثار.

وجاءت تصريحات الحكومة المصرية بشأن مشروع ترميم آثار القاهرة التاريخية غامضة وغير محددة، وتهربت من النقاش والحوار بشأن مسار عملها. على الرغم من أن هناك تحذيرات وانتقادات عما يحدث. ولقد حذرت هيئة

اليونسكو، بعد ثلاثين عامًا من تبني معاهدة التراث العالمي، من أن عمليات التطوير السياحية التي لا ضابط لها، من ضمن التهديدات التي تواجه التراث الإنساني العالمي *(Tresilian 2002)*. ويمكن أن تحسن الإضافة ضمن قائمة التراث الإنساني العالمي كواحدة من أهم المواقع الثقافي في العالم بطريقة ملموسة الإمكانيات السياحية للموقع، ولكن يمكن أن يساء استخدام ذلك بالاستغلال الذي يفتقر إلى الذوق الفني التاريخي.



مشهد من أحد شوارع حي الجمالية، وتجري فيه أنشطة تجديد مسجد محمد محرم (تصوير كارولين ويليامز)

وقد شن أحد النشطاء وهو الروائي التاريخي جمال الغيطاني الذي شب في حي الجمالية في القاهرة حملة من أجل الحفاظ على القاهرة الإسلامية، وشجب التدخل الحكومي في مشروع ترميم آثار القاهرة التاريخية: "النظرة في هذا المشروع تجارية بحتة وليست ثقافية" ***(Drummond 2003)***.

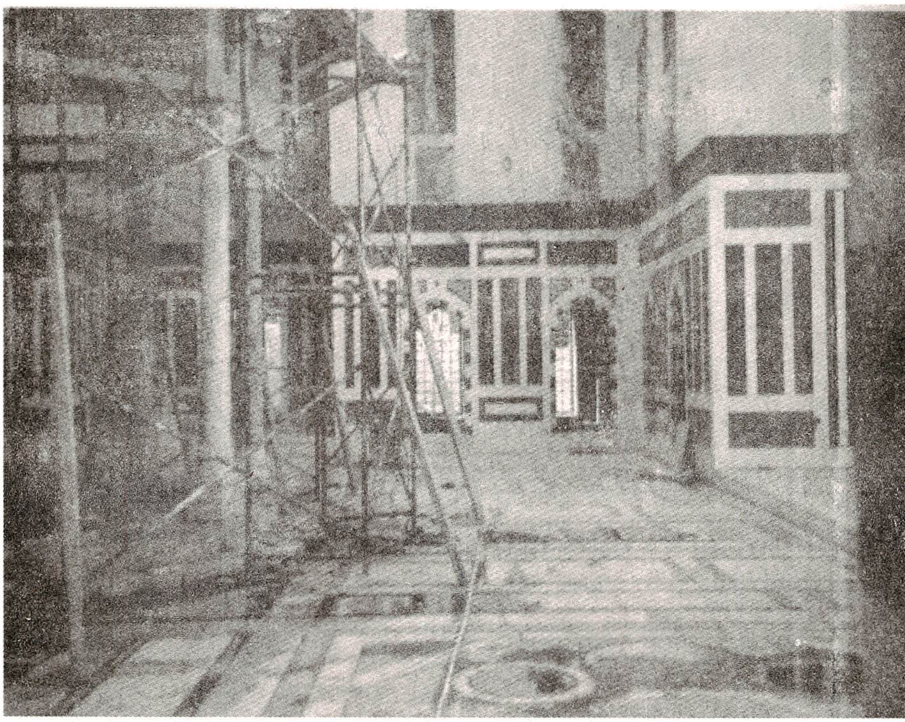
ولكن بيتر شيهان الذي يقوم بتوجيه الأنشطة تجاه خفض منسوب المياه الجوفية حول المعالم الأثرية في القاهرة القديمة أكثر شعورًا بالاستياء. فيقول: "اكتسبت القاهرة التاريخية قوة الدفع الخاصة بها ومن ذاتها، ومن أجل السياحة، واختارت الأمة إعادة بناء ماضيها بإتقان. وضاع شكل وروح المدينة القديمة على نحو يصعب تصحيحه" (الرشيدي ٢٠٠٣ أ). وهو لا يتفق مع عمليات الترميم الجارية الآن إذا كان الهدف هو اجتذاب السائحين لمتحف مهندم في الهواء الطلق، وبدون احترام للتقنيات المحافظة الحقيقية والمواد المطلوبة لها، أو للمجتمعات التي تعيش فيها. (يمكن الرجوع إلى الجزء الخاص بكوبينجر في هذا الكتاب لمزيد من النقاش للخطط الحالية لبناء المتحف المصري الكبير، وهو متحف ضخم تحت سفح الهرم سوف تبلغ تكلفته ٣٥٠ مليون دولار على الأقل). وهذا هو أيضًا موقف مؤرخ ومعماري مصري مهموم يشعر بأن المبالغ الباهظة التي سيتم إنفاقها على عملية تجميل لقشرة خارجية خادعة من الأفضل جدًا أن يتم إنفاقها على صيانة البنية الأساسية للمدينة. ويهتم النقاد أيضًا بموضوعات، ترميم الآثار التاريخية، ومستقبل أولئك الذين يعملون ويعيشون حول هذه الآثار.

الآثـــــار

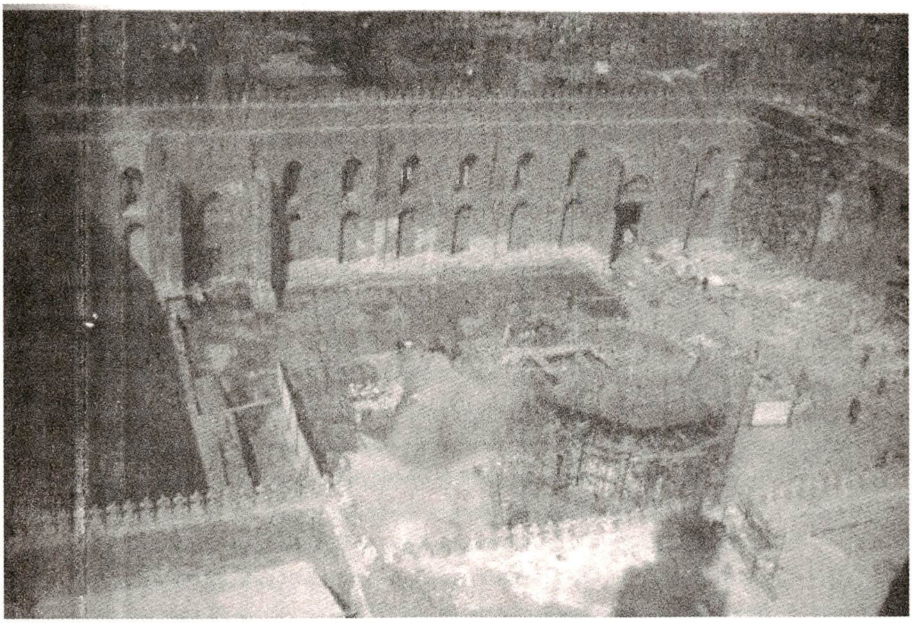
أعلن مشروع ترميم آثار القاهرة التاريخية في عام ١٩٩٨، أنها ستكون قد قامت بحلول عام ٢٠٠٦ بترميم ١٤٩ أثرًا تاريخيًا من الآثار المسجلة في قوائم

اليونسكو كتراث إنساني، والتي خُصص لها مبلغ ٢٥٠ مليون جنيه مصري. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هناك ثمانية وأربعين مبنى غير مدرجة في قوائم الآثار سوف يتم إدراجها وصيانتها (*Williams 2002b, 462*). وتم إسناد عمليات الترميم هذه لشركات مقاولات عامة لديها القليل من الخبرة أو المعرفة في صيانة الآثار التاريخية: وهي شركات الرباعية، وسامكرت، وحسن علام وأولاده، وأوراسكوم، والمقاولون العرب، ووادي النيل، وأسوان (*Williams 2002b, 462-63*). وأبدى الخبراء العالميون، والمؤرخون المتخصصون في الهندسة المعمارية للتاريخ الإسلامي، والمختصون بالحفاظ على البيئة الحضرية مشاعر القلق ونقلوا مخاوفهم لهيئة اليونسكو وللحكومة المصرية في شكل خطاب للسيدة الأولى/ سوزان مبارك، مؤرخة في ٨ يونيو ٢٠٠١ لأن هذه الشركات كانت تتعامل مع معالم أثرية لا مثيل لها ولها أهميتها الثقافية البالغة (يمكنك الرجوع للملحق رقم ١ للموضوع والموقعين عليه). وكانت أهم مواضع القلق لدى هؤلاء الخبراء – المصريين، والعرب، والأوروبيين، والأمريكيين– هو ارتفاع منسوب المياه الجوفية؛ وحقيقة الافتقار إلى أدنى درجات التمسك بالقواعد العالمية الأساسية بالحد الأدنى من التدخل، والعكس، والتوافق، والتوثيق؛ واستخدام إسمنت بورتلاند، وإلحاق الأضرار بهياكل الحجر الجيري؛ واشتراك شركات المقاولات العامة غير المتخصصة في أعمال الترميم والصيانة الدقيقة؛ وأخيرًا، لأن هذا المشروع كان يراد إتمامه لتنشيط الاقتصاد المصري أكثر منه للنظر في استفادة الميراث الثقافي (*Williams 2002b, 463*). وكان رد وزارة الثقافة دفاعيًا، ولكنها وافقت في نهاية الأمر على مناقشة الأمر في المؤتمر الدولي للترميم والمحافظة على القاهرة الإسلامية والذي عقد في عام ٢٠٠٣، والذي كان يرعاه مركز التراث الإنساني للعالم والتابع لمنظمة اليونسكو (*Williams 2002b, 465*). وأصبح من المحال تقريبًا، ومنذ ذ الحين، الحصول على تقييم دقيق لما يحدث على أرض الواقع.

ولم تتعاون وزارة الثقافة، ولحساسيتها تجاه أي نقد يوجه لها، مع الصحافة، وتمنع الوصول إلى هذه المباني، والتي لا تزال مغطاة بشبكات خضراء وحولها السقالات الخشبية بينما هي تحت الترميم، ويحيط بها رجال البوليس المسلحون لمنع الدخول إليها لمنع الاستقصاء عن الأمر. كما يتم منع التصوير منعًا باتًا في كل مواقع الآثار التي هي لا تزال قيد الترميم، وهي علامة مقلقة تشي بأن المسئولين ليسوا على ثقة تامة بأن الأساليب التي يتم استخدامها مطابقة للقواعد والأسس العالمية المُتبعة في صيانة وحفظ المباني التاريخية في مواقع التراث الإنساني. وكان مسجد صرغتمش والذي أُعيد افتتاحه مؤخرًا، وأُزيح الستار عنه هو خير مثال للعمل الذي شجبه مهندسو وخبراء اليونسكو المعماريون ***(Williams 2002b, 460, 62)***. فقد دمرت، على سبيل المثال عملية جلخ بالرمال تحت ضغط عال، وأضاعت التفاصيل الدقيقة للواجهة؛ كما أُضيفت ألواح رخامية حول الفناء على الرغم من أنه لم يكن هناك أي نوع من الرخام الأصلي من أجل الاسترشاد به في مثل عملية الاستبدال هذه؛ كما أضيفت درجات سلالم لا مبرر لها من الخارج لتربط المسجد بالمسجد المجاور له مسجد أحمد بن طولون. وقد لاحظ أحد الخبراء الكنديين أنه يتم أثناء عملية ترميم مسجد المؤيد شيخ "إزالة كل العناصر التاريخية مقابل أخرى جديدة وزاهية".

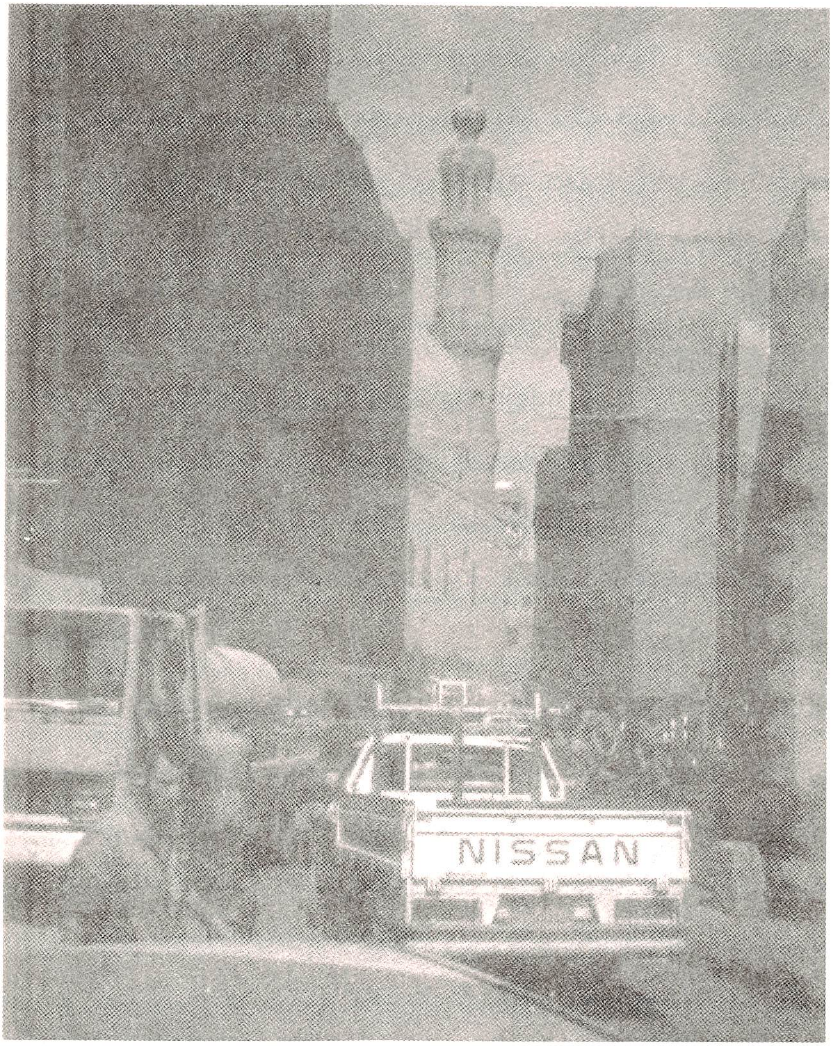


مدرسة صرغتمطش (١٣٥٦) الفناء الداخلي ويبدو الرخام الجديد مقابل الرخام الأصلي للأرضيات والحوائط (تصوير كارولين ويليامز).



مشهد من أعلى الفناء الداخلي لمسجد المؤيد شيخ؛ حيث تقوم شركة وادي النيل بأعمال الترميم للفناء بأكمله والأعمدة الجانبية (تصوير كارولين ويليامز)

ويعبر المسئولون المصريون في معرض قيامهم بالترويج للمباني الأثرية التي تم ترميمها والمليئة بألواح الرخام الجديدة والمشهد الحضري المحيط عن نمط تقديرهم في أعمال الترميم لكل ما هو جديد وبراق. ويتعارض هذا المنهج مع ما هو شائع عن الخبراء العالميين عن أن الهدف هو الحفاظ على كل ما هو أصلي وحقيقي وباستخدام الخامات الشائعة في نفس العصر التاريخي، بمواد معترف بها وقابلة للإصلاح ***(Stille 2002, 53)***. ويميل معظم المصريين إلى تقدير الموقع لقيمته الدينية وما يتعلق بذلك من جلال أكبر من القيم الفنية أو التاريخية لأي مبنى ***(Reid 2000)***.



بين القصرين على يسار مجمع السلطان قلاون يختفي تحت أغطية رمادية ويبدو مشهد مجمع السلطان برقوق في الخلفية. البقعة السوداء في مستوى النافذة الأولى نتيجة تأثير المياه الجوفية (تصوير كارولين ويليامز).

وقد لاحظ نفس الخبير الكندي بمزيد من الدهشة أن الأجواء الروحية للمكان هو ما يشد زملائه من العاملين المصريين إليها أكثر من طراز البناء التاريخي. وهكذا وفي عام ١٩٩٩، عندما شرعت كل من وزارة الإسكان وشركة المقاولون العرب في عرض الأعمال المنتهية منها في جامع الأزهر (بتكلفة قدرها ٥٠ مليون جنيه مصري)، وأدى ظهور الأخطاء الفادحة في ترميمها (من فقدان التفاصيل الدقيقة على الواجهات من جراء عمليات الجلخ بالرمال تحت ضغط عال؛ وإعادة الطلاء بالأكلريك لزخارف الجص الأصلية؛ وعمليات سد الفجوات وأرضيات الرخام المصقول، إلخ.) إلى انتشار تذمر على نطاق واسع، لقيمتها كموقع حي للعبادة والدراسة المستمرة *(Williams 2002b, 461, fn. 20)*. ويعترف محمد الكحلاوي، أستاذ العمارة الإسلامية والآثار بجامعة القاهرة، "إن الأزهر في رأيي الخاص بوصفه متخصصا، لم تعد له أي قيمة أثرية بعد التجديدات التي أُجريت عليه" *(Blair 2004)*.

ولا يتم التعامل مع ارتفاع مستوى المياه الجوفية، والذي يشكل باستمرار خطرًا داهمًا على أساسات معظم المباني الأثرية. وتتراكم هذه المياه من جراء الصرف الصحي للكتل السكانية، وكذلك من تسرب المياه الجوفية التي ارتفع منسوبها نتيجة لبناء سد أسوان العالي. ويتم نزح المياه الجوفية عن طريق مضخات من تحت المباني أو الآثار بطريقة فردية، ولكن ليست هناك استراتيجية متكاملة للتعامل مع المشكلة الأكبر برمتها وهي تراكم المياه الجوفية. وستستمر المباني الأثرية التي غمرتها المياه والجدران المتداعية مصدر خطر داهم لهذه الآثار.

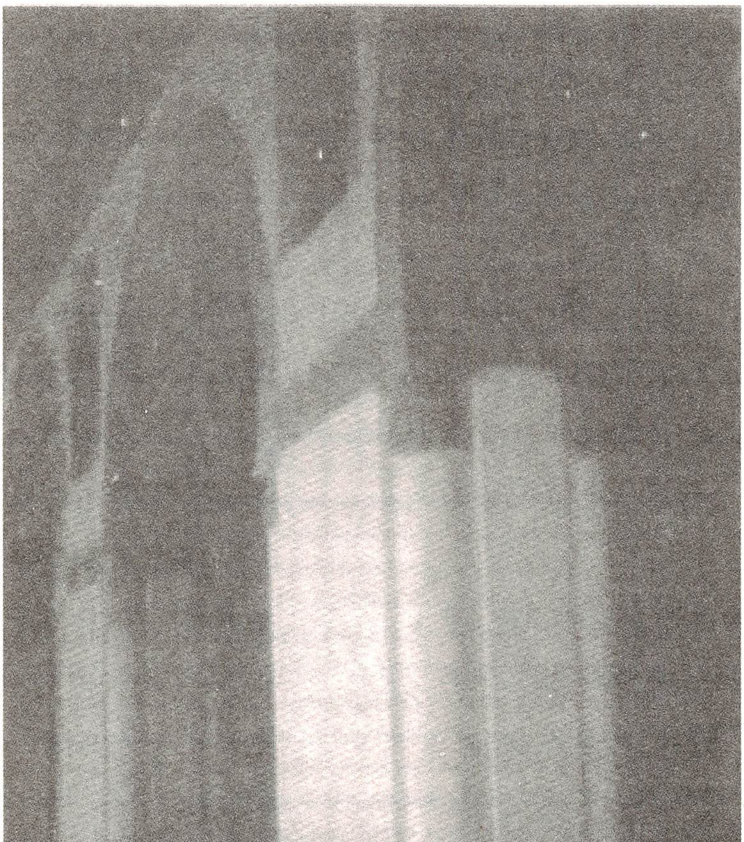
وأعرب بيتر درابر رئيس المعماريين التاريخيين لبريطانيا العظمى في خطاب أرسله للمؤلفة بتاريخ ٣٠ يوليو ٢٠٠٣ عن الرعب الذي يشعر به بعد زيارة للتدريس قام بها للقاهرة، وشهد فيها عمليات الترميم التي تُجرى لعدد من

المباني الأثرية الرئيسية. وقد رأي أنه "بدلاً من إجراء عمليات ترميم دقيقة وحماية بالغة الدقة لآثار لا تقدر بالمال، فإنه شهد عمليات تجديد بالجملة للملامح التاريخية". فقد شهد درابر في مسجد أحمد بن طولون أنه يتم إزالة زخارف الجص الأصلية للقرن التاسع عشر ويتم استبدالها بالجص اللاصق الحديث.

وكتب درابر يقول: "إن ما يُشعرني بالقلق البالغ في مدينة بها الكثير من المباني الأثرية المتداعية والتي في حاجة ماسة للعناية، وبصفة خاصة امتداد عمليات الترميم إلى المدى غير الضروري من ترميم آثار ذات قيمة عالية مثل بين القصرين وبحالة جيدة وليست في حاجة إلى تقوية هياكلها".



حرم ممرات مسجد ابن طولون. الدعامة على اليسار بزخارف الجص الأصلية وألواح القرن التاسع عشر. وتبدو الأعمدة خلف الشريط الأصفر عارية من الطوب بعد إزالة الزخارف الجصية. (تصوير كارولين ويليامز).



رواق جانبي* في مسجد ابن طولون. الدعامة إلى اليسار وقد تـم تغطيتهـا بدهانات تحتية جديدة؛ الدعامة إلى اليمين مغطاة بالجص النهـائي للقـرن التاسع عشر. (تصوير كارولين ويليامز).

ومضى يعدد ملاحظته قائلاً: في الكثير من الحالات، كان يمكن للقليل جدًا من النفقات المتواضعة أن تكون كافية لتدعيم هياكلها، وإيقاف تدهور المباني حتى يتوافر المال المطلوب من أجل عمليات الحماية الدقيقة وعناصر الديكور". وقال أحد المهندسين المعماريين المصريين المتخصصين في الآثار في معرض حديثه عن العمل الذي تقوم به شركات المقاولات في المباني الأثرية بالقرب من منطقة بين القصرين: "إن المعاهدات الدولية تتحدث عن استخدام الأساليب التقليدية واستخدام الأساليب الجديدة في حالة فشلها فقط. وهذا لا يحدث في مصر، فعندما يقوم المقاولون بالعمل، فإنهم يقومون بتقدير التكاليف على المتر المربع، ويحاولون إنهاء العمل في أقل وقت ممكن".

ومن بين السبعة وأربعين مبنى أثريًا التي تم ترميمها في المرحلة الأولى، كان هناك اثنتا عشر سبيلاً للمياه. وترمي خطة وزير الثقافة إلى إعادة تكييفها لاستخدامها كمتاحف مصغرة. وستكون هناك مراكز ثقافية في الأحياء المجاورة التي لا تملك شيئًا. وهكذا فإنها ستقوم بخدمة وظيفة جديدة وتملأ فراغًا. وستكون مواقع سياحية جديدة" *(Samir 2003; MacDonlad 1999)*. وستصبح واحدة منها مكتبة للدراسات الإسلامية والقبطية؛ وأخرى متحفًا للمنسوجات والسجاجيد الإسلامية؛ وثالثة مركزًا للمعلومات لطلاب جامعة الأزهر وسكان المنطقة؛ ورابعة سيتم تخصيصها كناد للكُتّاب حيث يمكن أن يكون مقرًا للقاءاتهم، وحيث يمكن للنخبة الثقافية أن تلتقي بالعامة؛ ويمكن أن تكون هناك مراكز أخرى لتعلم العزف على العود، أو الناي، أو تعليم الرسم (سمير ٢٠٠٣). ولا يجب أن تظل المباني التي يتم ترميمها خالية، كما يجب أن يتم خلق استخدامات متنوعة لها، ولكن نثر متاحف صغيرة في المنطقة هو تقليد غربي دخيل في الشكل العام لمدينة إسلامية كما أن فائدتها العملية لقاطنيها ضئيلة للغاية حيث تتركز همومهم الأساسية أن

يكون في مقدورهم العيش على حد الكفاف. ويجب أن تشمل التغيرات المُخطط لها مشاركة سكان الحي فيها. "إذا لم تتضمن التغيرات تكامل السكان فيها... فسوف يترتب عليها العُزلة" (إبراهيم ٢٠٠١، ١٩٠).

هناك استخدامات أخرى يمكن تكييفها مع هذه المباني لتكون مواقع لعروض مذهلة يمكن أن تشترك فيها الآثار الإسلامية مع المواقع الفرعونية كخلفيات ملونة لاحتفالات الأثرياء (العارف ٢٠٠٤أ). وقيل كتبرير لمثل هذه الاستخدامات إن الرسوم التي يمكن تحصيلها ستساعد في صيانة هذا الميراث المعماري، ولكنها ستذهب أيضًا إلى خزائن الحكومة. ويمكن أن يتكلف تصريح لعدد يصل حتى مائتي شخص ١٥,٠٠٠ جنيه مصري بالإضافة إلى ٥٠٠ جنيه لأعمال الأمن والمراقبة. وسيكون السعر للشركات الأجنبية ٥٠٠ دولار أمريكي للشخص الواحد، ولعدد يتراوح ما بين عشرين إلى ألف وخمسمائة شخص أغلبهم من الأمريكيين والأوروبيين. ويمكن مقارنة هذا الأمر بما يتحصل عليه فندق من ذوي النجوم الخمس بدون "الخلفية المذهلة". ويتم في الوقت الحالي استخدام المناطق السكنية التي تم ترميمها حديثًا والتي تعود إلى حقبة العثمانيين في القرن السابع عشر والثامن عشر في المربعات السكنية في القاهرة الإسلامية، مثل بيت السحيمي، وبيت الهراوي. وتوجه الاحتفالات الباذخة والتي تلبي رغبات السائحين الباحثين عن المتعة والشركات التجارية الكبرى طعنة يتعذر تجنبها للتقاليد والمشاعر المحافظة للأهالي في تلك المناطق. ومن سخرية الأقدار أن بواعث المقريزي لتدبيج كتابه الشهير خطط المقريزي هو الانهيار الوشيك للآثار العمرانية لقاهرة العصور الوسطى. وقد ألقى باللائمة على سوء الإدارة ونهم الحكام من طبقة المماليك *(Rabbat 2000, 23, 29)*.

البشـــر

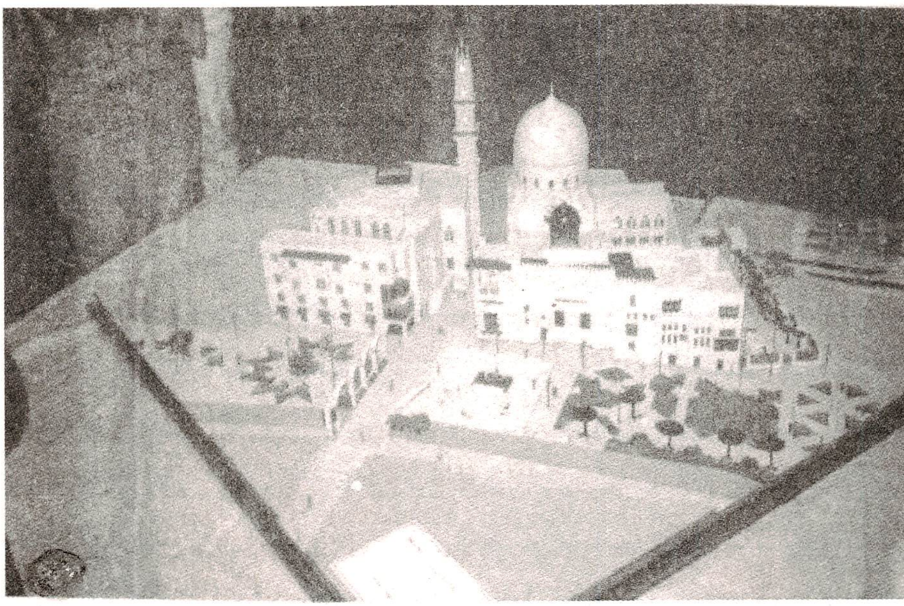
يمنح مشروع ترميم آثار القاهرة التاريخية القليل من العناية بالبشر الذين يعيشون في المنطقة. ويجب أن يشمل أي مشروع ناجح للحفاظ على الآثار البشر الذين يقطنون في تلك المنطقة، فعلى العكس من المتاحف حيث تقوم الفتارين الزجاجية بحماية المعروضات، فإن المدن التاريخية والمراكز الثقافية هي مواضع يعيش فيها التراث كجزء من وتيرة الحياة، والمجتمع العامل. وتتحرك إجراءات الحماية التي يقوم بها المجتمع الدولي بعيدًا عن مفهوم حماية الأثر التاريخي الواحد إلى مفهوم حماية المنطقة بأسرها. ويدمج النهج المعاصر في التفكير البشر والآثار بطريقة متشابكة ومتكاتفة. وتشمل المبادرات الحالية في أنحاء أخرى من العالم درجات متعددة متكاملة الأبعاد والتي تقوم بالربط بين إدارة التراث الثقافي وبين التنمية المستدامة اجتماعيًا واقتصاديًا *(H. Williams 2001)*. وكما أن الهدف من التركيز قد اتسع من مفهوم الآثار التاريخية ليصبح التركيز على المدينة التاريخية، وكذا فقد اتسع مدى وقاعدة الدعم المقدم لها: من دفاع خبراء الفن المتخصصين والعارفين إلى الاعتراف العالمي بأن ذخيرة التراث الإنساني في العالم بأسره محدودة. ولاتزال الحكومة المصرية، على الرغم من ذلك، ماضية في سياسة ربما كانت مقبولة منذ قرن مضى عندما كانت لجنة تقوم بالتركيز على أثر معماري بعينه، وليس على البيئة المحيطة بالأثر. واعتبرت سقيفات التجار المتصلة بواجهات المباني كطفيليات، تشوه تلك المباني، وتصيبها بالأضرار، ليس فقط في مظهرها، وإنما كركام يقوم بسد الشوارع الضيقة بطبيعتها، وتعوق حركة المرور، وتجعل من المستحيل على المرء أن يرى واجهات الآثار بكامل انطباعاتها *(Ormos 2002, 143)*. وهكذا قامت اللجنة بإزالتها. وهذا هو المنهج الذي تسير عليه الحكومة المصرية.

وتُعطي السلطات المصرية (بصفة أساسية وزارة الثقافة، ووزارة الإسكان، ومحافظة القاهرة، بصفتهم المسئولين الأساسين في مشروع ترميم آثار القاهرة التاريخية)، القليل من العناية بالمجتمعات المحلية، وبإهمالهم فإنهم يقومون بتشويه طبيعة المجتمع الحضري الإسلامي. ويستمر الجدل الدائر حول الحفاظ على الماضي على حساب المستقبل (البشر). وبينما تظل الحقيقة الناصعة تشي بأن أمة بلا ماض هي أمة بلا مستقبل، فإن ماض بلا حاضر هو ماض لا حياة له. وتنبض أحياء القاهرة التاريخية بأنشطة الحياة اليومية. كما أنها أحياء ذات جذور عميقة. وتذكر لنا دينا شهيب من مركز أبحاث البناء والإسكان وهي تتحدث عن حي الدرب الأحمر (يقع جنوب باب زويلة بالقاهرة)، كيف أن ٨٩% من قاطنيه قد ولدوا فيها، وهذا نوع من التماسك الاجتماعي الذي لا يتوافر في الأحياء الجديدة من المدينة. وتمضي في شرحها قائلة إن الغرباء أو غير القاطنين فيه لا يمكنهم إدراك القوى الرابطة لهذا المجتمع إدراكًا كاملاً. وتضيف قائلة "إن غايتنا من البحث في الجدران المتداعية والمياه التي تُغرق الشوارع، هو التساؤل عن كيفية تحمل هؤلاء السكان لها. ولا يمكننا سبر غور قوة روابط المجتمع، والقيم الملائمة للمحلات التجارية المجاورة والاحتياجات، والمصالح الاقتصادية من كثافة المجاملات المستخدمة ووظائفها" (*Fernea 2001*).

ويحيط الخطر بالمواقع الأثرية الثقافية بصفة خاصة من جراء التنمية غير المنضبطة والتدهور البيئي في المناطق الحضرية. وقد اعترف محمد إبراهيم سليمان وزير الإسكان والتعمير أن سياسة التعامل مع الأحياء الفقيرة منذ عام ١٩٩٤ كانت إما التطوير أو الإخلاء (فرج ٢٠٠٣). والتطوير مُكلف للغاية، والأكثر سهولة هو الإخلاء. تم افتتاح باب زويلة، في السور الجنوبي للقاهرة في سبتمبر ٢٠٠٣، وهو الحي الذي تم إخلاؤه وترميمه، وذلك بعد خمس سنوات من العمل مع المركز الأمريكي للأبحاث في مصر وبالمشاركة مع المجلس الأعلى

للآثار. وقد أعلن فاروق حسني، وزير الثقافة في الاحتفال الذي أقيم لهذا الغرض بأن المنطقة بأسرها سيتم تحويلها إلى متحف مفتوح في الهواء الطلق كجزء من مشروع تجديد منطقة القاهرة التاريخية (العارف ٢٠٠٣ ب). مطلب الوزير هو أحياء الفقراء، ولكن في الحقيقة فإن المجموعات الاجتماعية والاقتصادية والتي تشمل البائعين، والتجار، والحرفيين الذين يعيشون في هذه المنطقة باختيارهم فضلاً عن الحاجة *(Fernea 2001)*. وقد أشار فاروق حسني إلى أن عمليات الإخلاء ستتم بالتعاون مع السكان ومنح تعويضات لكل أسرة ولكل تاجر "لأننا نهتم بالناس وليس فقط بالآثار" (العارف ٢٠٠٣ ب). وتوحي تجربة السكان في منطقة الجمالية خارج أسوار المدينة من جهة الشمال بغير ذلك. فعندما تم تحويل شارع جلال إلى طريق سريع من الشرق للغرب ليربط ما بين شارعي بورسعيد وصلاح سالم في عام ٢٠٠١ كان من الضروري تفكيك أجزاء من مقبرة باب النصر. وتم نقل مائة وتسعة أسرة على وجه السرعة إلى ضواحي المدينة شمال شرق القاهرة. ولم تجد شكاواهم آذاناً صاغية وهم يصرخون: "كل مصالحنا – أعمالنا، ومدارس أطفالنا، وأسرنا، وارتباطاتنا كلها مُركزة في الجمالية. ما الذي سنفعله في مكان ليس لنا فيه أي ارتباطات؟" (حلاوي ٢٠٠١).

وهناك خطة أخرى وهي مشروع محافظة القاهرة لنقل ألف من تجار الملابس قسرًا من أكشاك بيع الملبوسات في قلب القاهرة (نافع ٢٠٠٣؛ سمير ٢٠٠٤).



نمط المجمع الثنائي للسلطان الجوهري بساحات ومماشي جديدة لتحل محل الأكشاك المتحفية القديمة. (تصوير كارولين ويليامز).

وهناك ما يقرب من ألف ومائتي تاجر من تجار الملابس في تلك المنطقة، ولكن المحافظ يرغب في نقلهم جميعًا إلى مركز تجاري جديد في منطقة العباسية، بالقرب من نقطة الشرطة، لأن هناك مزاعم بأن الضوضاء، والزحام، والتلوث تؤثر على السياح سلبيًا. وليس واضحًا على الإطلاق تفاصيل كيفية تعويض أصحاب هؤلاء المحلات في عملية النقل المنتظرة. وسوف تؤثر عملية النقل هذه على الصناعات التابعة لها مثل عمليات الحياكة والتي لن تنتقل معها بالتبعية. ولم تقدم الحكومة أية معلومات مباشرة للتجار؛ فقد علموا بعملية النقل عن طريق الشائعات. وقال أحد التجار: "إذا ما كان يرغبون في نقلنا، فقد آلت أعمالنا إلى الضياع" (نافع ٢٠٠٣). وتعتبر تجارة المنسوجات بعيدة عن الضآلة حيث إنها منطقة البيع الرئيسية للمنسوجات لسكان مصر، وبالطبع سكان القاهرة. كما أن أصالة المنطقة ومصداقيتها في بيع المنسوجات، وتاريخ المنطقة في هذه التجارة هو جزء لا يتجزأ من سمعتها. ويذكر المقريزي أن تجارة المنسوجات تتواجد هنالك منذ القرن الخامس عشر. وعندما قام السلطان الغوري ببناء المجمع المزدوج في القرن السادس عشر في الركن الذي يُعرف الآن بشارع الأزهر والشارع الرئيسى من الشمال إلى جنوب القاهرة، فقد أسهم إيجار هذه المحلات في تمويل الأنشطة المختلفة وصيانة مؤسسته. وتقول ليلى محمد وهي خبيرة في الفن الإسلامي "لم تجن المناطق التاريخية أي فائدة من ترميم الآثار وإجلاء السكان منها. فلا يكمن سحر هذا المكان وجاذبيته فقط في الجدران المهيبة، ولكنها تأتي أيضًا وفي المقام الأول من أنشطة الحرفيين والتجار وفي الحياة التي تضج بها المنطقة المحيطة بها" (سمير ٢٠٠٤).

كما أن مفهوم إخلاء المحلات التجارية التي تعتبر من ممتلكات وزارة الأوقاف والشئون الدينية تمثل أيضًا انتهاكًا صارخًا لفكرة الوقف كواحدة من أهم أسس التنظيم المدنية والمكانية في الإسلام. ويتم إغفال أهمية المعنى الثقافي في

الغالب في مشروعات الحفاظ الحضري في القاهرة (صدقي ٢٠٠١). وغالبًا ما كانت الآلية بين البناء والموضوع أو السياق جزءًا من النظام الإسلامي والذي يعرف بالأوقاف، وهو النظام الذي بموجبه يقوم الرعاة الأثرياء بالوصية بريع مختلف الممتلكات الحضرية والريفية من أجل بناء المؤسسات الدينية والمدنية وتوظيف العاملين فيها، وصيانتها والتي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من ملكيات المجال العام والمحليات. وهكذا اندمجت هذه المباني بفاعلية في المجتمع سواء في المجال الروحي أو الدنيوي، كما رسخت الأوقاف نوعا من التوازن بين الملكية الخاصة والعامة في توازن نشأ عنه وضع اجتماعي واقتصادي في الحياة تميزت به المدينة الإسلامية. ولذا فإن هناك ثلاثة تناقضات أساسية، على الأقل، في عملية نقل الحكومة لتجار المنسوجات وحوانيتهم. الأولى هي في انتهاك النظرة السائدة في الحماية، والتي تنظر إلى عملية الحفاظ على الأصالة الروحية للحياة الحضرية كواحدة من أهدافها. والثانية هي أن السائحين لن يأتوا للانبهار بقرية من قرى الأشباح. والثالثة أن نقل محلات المنسوجات تلحق أفدح الأضرار بالأنشطة الاقتصادية والتي تُشكل جزءا من الحياة الحضرية الإسلامية؛ وهو خرق واضح للسمات الأساسية للمنطقة (سمير ٢٠٠٤). وهذه هي أيضًا النقاط التي يستحسنها المستأجرون. وأبدى أحد التجار والذي يواجه الكشك الخاص به سوق صناعة الخيام ملاحظة مفادها: "قم بنقل البشر من المنطقة وستصبح متحفًا، ربما جميلاً، ولكنه خاو بالتأكيد. ولا يرغب السائحون في رؤية الآثار فقط، إنهم يرغبون في مشاهدة البشر أيضًا" *(Fernea 2001)*. ويضخ البشر وهم يمارسون أنشطتهم (من تسوق، وحِرف، وإعداد الخبز، والبيع، والصلاة) الدماء في شرايين هذه المواقع التاريخية لتصبح نابضة بالحياة. فهناك علاقة تكاملية بين الآثار والبشر.

وتتعلق واحدة من المشاكل المستمرة بالتحديث المادي للبيئة في القاهرة التاريخية وذلك على غرار ما يحدث على طول نهر النيل (بولاق والقاهرة القديمة)

والمساحة المحيطة بها (القاهرة وضواحيها) بجوار مركز إسماعيل السياحي- السكني الحكومي للأعمال مما جعل من هذه الأحياء التاريخية قمة في مجال العقارات. ويتم ابتلاع منطقة بولاق الأصيلة نهائيًا عن طريق مشروعات الاستثمار على موقعها المتميز من الطراز الأول على نهر النيل ***Schemn 2003; Ghannam 2002***. وقد افتتحت شركة التنمية السياحية المصرية السعودية حديثًا فندق بارك حياة في بولاق بتكلفة بلغت ٣٨٠ مليون دولار أمريكي. ويتم استبعاد المجتمع السكاني الكثيف والذي يبلغ تعداده مليونًا من البشر إلى الشوارع الخلفية بعيدًا عن شاطئ نهر النيل هنا عمدًا بواسطة - المركز التجاري لفندق بارك حياة، وبرج بنك مصر، ونايل سيتي واللذين يُعد برجيها أعلى أبراج القاهرة قاطبة. ولإفساح المجال أمام هذه المباني الجديدة، والفنادق، والمراكز التجارية، يتم نقل السكان إلى الأحياء الصحراوية، مثل مدينة السلام، بعيدًا عن أسرهم وأصدقائهم. (يمكنك الرجوع إلى الفصل الخاص بفرحة غنام في هذا الكتاب لترى كيف يتم نقل السكان من بولاق من أجل تشييد فنادق جديدة وفاخرة ومبان حكومية). واعترف أحد السكان قائلاً "لقد انتقلت للعيش في مدينة السلام. ولكنني أعود دائمًا إلى هذا المكان الذي وُلدت فيه. إنه الحي الذي ترعرعت فيه، وأهلي - كلهم نشأوا هنا" ***(Fernea 2001)***. ويشرح أحد خبراء علم الاجتماع أنه في مدينة السلام "يأتي الجميع من مناطق مختلفة، ولا يعرفون بعضهم البعض، وليس هناك روح التضامن". ويقدم الدكتور أحمد صدقي، وهو مؤرخ في الهندسة المعمارية، رؤية متعمقة عن موقف الحكومة تجاه المناطق الشعبية. ويرأس وزير الثقافة منظمة تُدعى التنسيق الحضاري (فرج ٢٠٠٠). وليس من قبيل الخطأ استخدام مصطلح الحضاري بدلاً من الحضري. ويؤكد صدقي أن استخدام الوزير لمصطلح الحضاري بدلاً من الحضري هو انعكاس مدروس لاهتمام الحكومة بتحديث المدينة بطريقة (حضارية/ حديثة) من خلال إدارة الأمكنة (صدقي ٢٠٠٥).

وبينما تبذل الحكومة جهودًا مضنية من أجل جذب المزيد من السائحين إلى البلاد وزيادة عائدات السياحة، فإن توقعات أعداد السائحين يبدو أنها تُشكل أنباء سيئة لآثارها وجهود الحفاظ عليها. ويعتبر ما يحدث لهضبة الجيزة مشهدا يرجع تكراره لمنطقة القاهرة الإسلامية مما يستدعي وقفة طويلة ***Cunningham 2003; Abdel – Latif 2001***. وقد صرح السيد زاهي حواس السكرتير العام للمجلس الأعلى للآثار ومدير عام الحفريات بالجيزة "للمحافظة على الأهرام يجب أن نقوم بعزلها". ومن أجل ذلك يتطلب عمل سلسلة من الأسوار المرتبطة وبقاعدة عمقها متران لتحيط بالهضبة وتحميها من أن تتعرض لقرية نزلة السمان ومياهها الجوفية المرتفعة، وحركة المرور من السياحية الجماهيرية، وغير المرغوب فيهم من أصحاب الجمال، وأصحاب الخيول، والباعة المتجولين. وفي نفس الوقت الذي يُشكل فيه نمو القرية واستهلاك المياه تهديدًا بيئيًا للهضبة، فإن استعراضات الخيول الراقصة، والمهرجانات التي تقدمها تضيف الكثير من ألوان البهجة المحلية. وهناك مخاوف من أنه في حالة نقل القرية، فإن المنطقة الثمينة المجاورة لهضبة الهرم يمكن أن تتحول إلى فندق من ذوات النجوم الخمس. والهضبة هي المكان الذي سيتم فيه تشييد المتحف المصري الكبير، والذي يشار إليه بالهرم الرابع. وسيدخل الزائرون من أحد مدخلين: المدخل الأول من ناحية مينا هاوس للزائرين الرسميين وكبار الشخصيات، والمدخل الآخر للسائحين والمصريين. وسيكون المخرج الآخر بالقرب من أبى الهول. وسيتم تزويد الهضبة بوسائل إضاءة حديثة، ووسائل أمن إلكترونية، ونظام مراقبة من أجل الكشف عن الأسلحة، وحظر عمليات الدخول غير المشروعة، وعربات لحماية المنطقة من التلوث. وستبلغ تكلفة هذه الإضافات لتغيير الهضبة مبلغ ٥٠ مليون جنيه (وهو جزء من مبلغ ٣٥٠ مليون دولار أمريكي والمخصصة للمتحف الكبير). (يمكنك الرجوع إلى الجزء الخاص ببيترا كوبنجر في هذا الكتاب من أجل تحليل أعمق لتاريخ وصناعة السياحة التي تحيط بالأهرام).

ويضع تقرير التنمية البشرية التابع لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام ٢٠٠٣ مصر في المركز ١٢٠ من عدد ١٦٢ دولة (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ٢٠٠٣). وقد ارتفعت تكلفة المقومات الأساسية اليومية بنسبة ٧٠% من جراء التخفيض الأخير لقيمة الجنية المصري في عام ٢٠٠٣. ويجأر صاحب مقهى عام بأن الحكومة تبدد البلايين على مشروعات ممعنة في البذخ وذات أهمية أو استخدام لا يذكر بالنسبة لمعظم المصريين (الرشيدي ٢٠٠٣ ب).

وتظل المشكلة بالنسبة لمنطقة القاهرة التاريخية بخصوص المدى، والسرعة، وعدم الإحساس بأعمال التجديد، وغياب الشفافية في خطط الحكومة، والاستخفاف بدور السكان المحليين في المدينة. ولا يزال التوافق على رؤية حقيقية للمنطقة التاريخية قائمًا بلا حلول حقيقية. وهل سيتم إعادة مواءمة هذه المباني لإعادة استخدامها عند انتهاء عمليات الترميم؟ ومن هو المستفيد بصفة أساسية من هذا "التدخل واسع النطاق" والتحويل إلى متاحف مفتوحة: هل هم المواطنون العالميون الذين يقدرون التنوع الثقافي؟ أم القاهريون الذين يعيشون في هذه المنطقة التاريخية؟ أم هي شركات المقاولات التي تقوم بهذا العمل؟ أم هم السائحون، سواء كانوا من الأجانب، أو العرب الزائرين لمدينة القاهرة؟ وتعد المعوقات التي تواجه عملية الحفاظ على آثار القاهرة التاريخية هائلة، وهي بالتأكيد تفوق المعضلات التي تواجهها أي مدية عربية أخرى. ومع ذلك لا تزال، تبدو عملية بيع تراث الأمة الحقيقية الأصيلة من أجل تكديس رأس المال في المدى القصير صفقة جائرة. وربما تتجلى هنا مصداقية الحكمة العامية التي تدعو إلى توخي الحذر والتي تقول "جه *يكحلها عماها*" أكثر تناسبًا مع السياق.

ملحق

كارولين ويليامز
٨ يونيو ٢٠٠١

السيدة الفاضلة سوزان مبارك
قصر القبة
مصر الجديدة، القاهرة

السيدة الفاضلة سوزان مبارك

هل يمكن لنا أن ننشد الحصول على مساعدتكم؟ بما أن القاهرة تعتبر منجمًا رائعًا لكنوز الهندسة المعمارية الإسلامية والتي يعود تاريخها إلى الأيام الأولى للفتح العربي لمصر. والآثار الموجودة في القاهرة سجل تاريخي لا بديل له، وميراث معماري لا مثيل له في العالم الإسلامي بأسره. ولقد كانت هناك دائمًا حاجة ماسة إلى اتخاذ خطوات متميزة من أجل حماية هذه الآثار من أخطار المياه الجوفية، وتلوث الجو، والإهمال والتعدي العمراني، ونحن نشعر بالامتنان لأن وزارة الثقافة قد حصلت الآن على الموارد المالية اللازمة للسماح بتنفيذ مشروعات حماية وترميم لا غنى عنها. ولكننا نشعر بالقلق بشأن الأساليب المُتبعة والمواد الأوليـــة المُستخدمة في بعض الحالات، ونعتقد أن ذلك يشكل خطرًا جديدًا على هذه الآثار.

وباختصار، وبدلاً من استخدام المضخات والنازحات التي يجب تركيبها، فإن مواد عوازل رطوبة صناعية يتم تركيبها. وربما تكون لها تأثيرات جمالية، ولكنها لا تحل مشكلة زيادة المياه الجوفية. وبدلاً من ذلك، فإن الجهود المُضنية لترميم وتوثيق المعالم العمرانية والتي هي حقيقية، وأصلية، وذات أهمية، يتم نبذها وتستبدل بنسخ مُقلدة. والأكثر مدعاة للقلق هو أن الحوائط يتم حقنها بأسمنت بورتلاند، الذى يتعارض استخدامه مع توصيات هيئة اليونسكو لسنوات عديدة لأنه يضيف مواد كيميائية ضارة للمكونات الطبيعية لتلك الآثار. ومرفق طيه لسيادتكم وصف تفصيلي أكبر لتلك المشكلات.

ونحن نأمل ألا نكون، كما تنبأ أحد المؤلفين مؤخرًا "الجيل الأخير الذي يستمتع بسحر أم الدنيا؛ لأنه لا الذاكرة أو الحكايات الأسطورية التي يمكن أن تُحكى يمكن أن تحل محل الحقيقة نفسها". ونحن كأسرة في المجتمع الدولي ننضم إلى إخوتنا في مصر ونتعاون معهم في توجيه نداء إلى الحكومة المصرية لتراقب عن كثب العمل الذي يتم أداؤه لحماية الآثار الثمينة. وهناك الكثير من أعمال الترميم التي تستحق الإشادة بها والتي يجب أن تحاط بها شركات المقاولات العربية، مثل الأعمال التي تمت في درب القرمز، وباب زويلة، وبيت السحيمي، والهواري، والسناري. ويمكن أن يقوم المجلس الأعلى للآثار بإبلاغ شركات المقاولات العربية للرجوع إلى مستوى الأداء في هذه الأعمال كنقاط مرجعية لها.

وحيث إنه تم وضع مدينة القاهرة على قوائم التراث العالمي. لذا فإن حماية المعالم الأثرية لهذه المدينة الحية التي لا مثيل لها، وسلالاتها التاريخية الثرية، والتسلسل الزمني لأنماط عديدة من آثارها، والتنوع في أنماط التراث العمراني، هو شأن عالمي كما هو محل اهتمام وطني.

مع خالص التقدير والاحترام

لجنة لحماية الآثار الإسلامية في القاهرة

(مرفق طيه قائمة بأسماء الموقعين على الخطاب)

كارولين ويليامز، أمينة الاتصالات

(مرفق طيه قائمة بأسماء الموقعين على الخطاب)

بعض الأخطار الحالية التي تهدد المعالم الأثرية للقاهرة

يتم ترميم ما لا يقل عن ٣١ معلمًا أثريًا أساسيًا بواسطة تسع من شركات المقاولات المختلفة. فعلى سبيل المثال، مسجد عمرو بن العاص والذي سبق ترميمه منذ عشرين عامًا بواسطة شركة المقاولون العرب، يتم إعادة ترميمه كلية بواسطة شركة وادي النيل. وتفتقر الكثير من هذه الشركات إلى الخبرة الواسعة في مجال الفنون الجميلة للترميم.

وتم تجاهل قرارات من اتفاقية فينيسيا لسنة ١٩٦٤، والتوصيات التي تم تقديمها عن طريق الجمعية المصرية لمحبي الآثار في عام ١٩٨٠. وتحظر كلتا الاتفاقيتين استخدام أسمنت بورتلاند، والذي يتم استخدامه حاليًا في ترميم مسجد أحمد بن طولون، ومسجد قانيباي محمد، ومحمد الكردي، بالإضافة إلى خانقاه الأمير شيخو، ومجمعات الأمير قلاوون، وقايتباي، وصرغتمش في الصحراء الشمالية، وذلك على سبيل المثال وليس الحصر.

تؤيد كل من اتفاقية فينيسيا، والتوصيات التي تم تقديمها عن طريق الجمعية المصرية لمحبي الآثار مبدأ الحد الأدنى من التدخل، وإعادة الوضع إلى ما كان عليه، والتوافق والتوثيق. ولكن نظرة واحدة إلى الأجزاء الداخلية لمساجد محمد الكردي، والمؤيد شيخ، وشيخو تكشف الصورة الفوضوية لمناظر السقالات

المشدودة، والأسمنت، والإسفلت، والأنقاض، والهدم. الرجال المسئولون مهندسون. ولكنهم يعترفون صراحة بعدم معرفة أي شيء عن تاريخ المماليك أو مبادئ التراث المعماري.

في العديد من الحالات، فإن طراز البناء الأصلي الحقيقي، ومظاهر الأصالة التي اكتسبتها هذه الآثار مع مرور الوقت، يتم إهماله ويتم استبداله بصور حديثة شبيهة بها. ويتم تجريد منطقة مسجد المؤيد شيخ من الرخام الأصلي الخاص بها. واُستبدلت الأعمدة القديمة في الكثير من المساجد بمثيلتها الإسمنتية بشكل عام.

من المسلم به على نطاق واسع أن المشكلة الأساسية التي تواجه هذه المباني هي ارتفاع منسوب المياه الجوفية. ويجب قبل الشروع في أي عملية تدخل طويلة المدى حل مشكلة المياه الجوفية. نعم هذه الظاهرة بطيئة الحدوث، ولكن معظم المعالم الأثرية الثمينة مثل مسجد الأمير الماس الحاجب بالحلمية، وفاطمة خاتون في القرافة، وست حداق في شارع متفرع من شارع بورسعيد، لا تزال كلها غارقة في المياه الجوفية في العشرين عامًا الأخيرة.

ينظر للقاهرة كمتحف في الهواء الطلق، ولكن حتى الآن ليس هناك ما ينبئ بوجود تقسيم يحمي هذا المنظور. وتشوه مبادرات بناء جديدة، وأبنية من الأسمنت المسلح المظهر العام للمدينة التاريخية سواء على مستوى المشاة أو مستوى الفراغات عمومًا.

وتهيمن تجاوزات المربعات السكنية للمباني الجديدة والمتعددة الطوابق المظهر العام الذي كان يومًا ما ذا شهرة طاغية بالألف مآذنه.

فُقد في الوقت الحالي الكثير من الميراث التاريخي والمعماري الذي لا مثيل له لمدينة القاهرة. وقد ألحق الزلزال الذي ضرب القاهرة في عام ١٩٩٢ الكثير من الأضرار بمائة وخمسة وعشرين من المباني الأثرية، ولا يزال الكثير منها رهن الترميم. وتم تسليم ميراث العصر الفاطمي إلى البهرة وهم طائفة فرعية من

الشيعة، والذين هم بدورهم وبدون أي بحث أو توثيق مستندي، لم يقوموا بإدخالها في عمليات الترميم، وباعتبارها مزيفة تاريخيًا، ووسائل استجمام فردية من الناحية الثقافية. والتهمت النيران قصر المسافرخانة في نوفمبر ١٩٩٨. ولم يكن ممكنًا توقع بعض هذه الأحداث السيئة، ولكن الأحداث الأخرى كان يمكن تداركها بالتأكيد. وهذا نداءنا بالعون لسيادتكم.

قائمة الموقعين على الخطاب الموجه للسيدة سوزان مبارك

صاحبة السمو الملكي د. وجدان على، رئيسة الجمعية الملكية للفنون الجميلة، الأردن، وعميدة الأبحاث للمعهد الدبلوماسي بالأردن.

د. جيمس آلان، أستاذ الفن الإسلامي، والفنون الشرقية، والقيِّم على متحف أشموليان، أكسفورد.

السيد جيف آلان، أغا خان للخدمات الثقافية، مصر.

السيد كولن أمري، مدير صندوق التراث الأثري العالمي، المملكة المتحدة.

د. دوري بيهيرنس – أبو يوسف، خليل أستاذ الفنون الإسلامية والأثرية، كلية الدراسات الشرقية والآسيوية، جامعة لندن.

د. جوناثان بلوم، نورما جين كالدروود أستاذ الفنون الإسلامية والآسيوية، كلية بوسطون.

د. شيلا بلير، نورما جين كالدروود أستاذ الفنون الإسلامية والآسيوية، كلية بوسطون.

السفير هيرمان إيليتز، عضو مجلس الأمناء، الجامعة الأمريكية بالقاهرة

د. إيلينورا فيرنانديز، أستاذة التاريخ الإسلامي، مركز الدراسات العربية، الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

السيد فينبر فلوود، مركز الدراسات المتقدمة في الفنون المرئية، والمعرض الوطني للفنون، واشنطون العاصمة.

د. أوليج جزابار أغا خان الأستاذ الفخري للفنون الإسلامية والمعمارية، جامعة هارفارد.

السيدة رايموند جيرجيوس، مصورة مستقلة، القاهرة الإسلامية.

د. نيللي حنا، أستاذة ومديرة الدراسات العربية، الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

السيدة نوال حسن، رئيسة جمعية التطوير الحضري للقاهرة الإسلامية؛ ومؤسسة المركز المصري للدراسات الحضرية.

د. روبرت هيلينبراند، أستاذة التاريخ والمعمار الإسلامي، جامعة. ادنبره.

د. ريناتا هولود أستاذة كرسي التاريخ الإسلامي، بنسلفانيا.

السيدة جيرار صبري، مُرشحة لدرجة الدكتوراه، المعمار الإسلامي، جامعة أكسفورد.

السيدة شاهندة كريم، أستاذة فن العمارة الإسلامية للقاهرة، مركز الدراسات العربية، الجامعة الأمريكية بالقاهرة

د. نهى خوري أستاذة الفن والعمارة الإسلامية، جامعة كاليفورنيا، سانت بار بارا، ورئيس تاريخ الفن الإسلامي.

د. جونتر ماير، مدير مركز أبحاث العالم العربي، جامعة ميينز.

د. ويليام كواندت، عضو مجلس الأمناء، الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

السفير ريتشارد باركر، مؤلف "المرشد العملي للآثار الإسلامية بالقاهرة"، والمحرر السابق لميدل إيست جورنال.

د. جري بوداني، رئيس المعهد الأمريكي للحفاظ على الأعمال التاريخية والفنية، واشنطون العاصمة.

- د. ناصر رباط، أستاذ الهندسة المعمارية الإسلامية، برنامج أغا خان، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا.
- د. أندريه رايموند، أستاذ فخري، جامعة بروفنس؛ المدير السابق لمعهد الأبحاث والدراسات على العالم العربي والإسلامي.
- د. جون رودينبك، مؤسس جمعية الحفاظ على الموارد الهندسية المعمارية لمصر.
- د. نيزار السيد، رئيس مجلس الإدارة، مركز الشرق الأوسط للدراسات، جامعة كاليفورنيا، بيركللي.

السيدة سارة سيرايت، متخصصة في الفن الإسلامي، ومؤلفة / محاضرة.

السيدة سامية سراج الدين، مؤلفة البيت القاهري.

السيدة جانيت ستاركي، مركز دراسات الشرق الأوسط، جامعة درهام، إنجلترا.

هيلاري ويبر، عضوة (*SPARE*)، ومؤلفة قاهرة العصور الوسطى: دليل الزائر، والمديرة السابقة لصندوق الميراث المعماري، المملكة المتحدة.

السيدة كارولين ويليامز، مؤلفة الآثار الإسلامية للقاهرة: دليل عملي.

الأعمال المستشهد بها

Works cited

Abdel-Latif, Omayma. 2001. "A Long and Winding Road." *Al-Ahram Weekly*, 4–10 January.

El-Aref, Nevine. 2003a. "House of the Nation." *Al-Ahram Weekly*, 27 February–5 March.

______. 2003b. "Young Elegance Restored." *Al-Ahram Weekly*, 18–24 September.

______. 2004a. "Party in History." *Al-Ahram Weekly*, 1–7 January.

______. 2004b. "Medieval Mosques Re-Open." *Al-Ahram Weekly*, 15–22 May.

Bakr, Mahmoud. 1998. "Pulling and Pushing." *Al-Ahram Weekly*, 7–13 May.

Blair, E. 2004. "Islamic Cairo Grapples with Restoring its Treasures." Reuters, 21 June. <*http://news.yahoo.com*> (28 June 2004).

Coste, Pascal-Xavier. 1837. *Architecture arabe ou monuments du Kaire: mésurés et dessinés de 1818 à 1825*. Paris: Firman Didot.

______. 1878. *Mémoires d'un artiste: notes et souvenirs de voyages, 1817–1877*. Marsaille: Cayer, 2 vols.

Cunningham, Joanne. 2003. "Walled Off." *Cairo Times*, 17–23 July.

Drummond, James. 2003. "Special Report from Egypt: The Great Conservation Debate, and the Enemy of Archaeology." *Financial Times*, 22 October.

"Egypt Country Profile." 2003. *Africa Review*, 23 September, 6. *Janet Matthews Information Services*, Lexis-Nexis (15 March 2004).

Euromed Heritage Programme and Ministry of Culture, Egypt. 2001. *Mamluk Art: The Splendour and Magic of the Sultans*. Cairo: MEDA-Euromed Heritage Programme and Ministry of Culture, Egypt.

Farag, Fatemah. 2000. "Mission Impossible?" *Al-Ahram Weekly*, 500, 21–27 September. <*http://weekly.ahram.org.eg/2000/500/eg8.htm*> (7 July 2004).

______. 2003. "Urban Matters." *Al-Ahram Weekly*, 2–8 October.

Farouk, Dalia. 2001. "L'art mamelouk en 8 étapes." *Al-Ahram Hebdo*, 31 October.

Fernea, Elizabeth W. 2001. *Living with the Past*. First Run/Icarus Films.

Ghannam, Farha. 2002. *Remaking the Modern: Space, Relocation and the Politics of Identity*. Berkeley: University of California Press.

Gibb, H.A.R., trans. 1956. *The Travels of Ibn Battuta, A.D. 1315–1354*. Cambridge: Hakluyt Society at the University Press.

Halawi, Jailan. 2001. "A Breath of Dust." *Al-Ahram Weekly*, 30 August–5 September.

Hassan, Fayza. 1999. "Down the Yellow Brick Road." *Al-Ahram Weekly*, 22–28 July.

Ibrahim, Saad Eddin. 2001. "Addressing the Social Context in Cultural Heritage Management: Historic Cairo." In *Historic Cities and Sacred Sites*,

eds. I. Serageldin, E. Schluger, J. Martin-Brown, 186–92. Washington, D.C.: World Bank.
Ionides, Alex. 2004. "Digging In." *Egypt Today*, July. <*http://www.egypttoday.com*> (7 July 2004).
Jarrar, Sabri. 2000. "Al-Makrizi's Reinvention of Egyptian Historiography through Architectural History." In *The Cairo Heritage: Essays in Honor of Laila Ali Ibrahim*, ed. Doris Behrens-Abouseif, 31–53. Cairo: The American University in Cairo Press.
Lane, Edward William. 1836. *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egytians*. London: John Murray.
MacDonald, Neil. 1999. "Put Those Sabils to Work." *Cairo Times*, 15–28 April.
Marei, Jehan. 2003. "The Grand Scheme." April 20. <*http://www.artarabia.com/artman/publish/printer_67.shtml*> (2 January 2006).
Ionides, Alex. 2004. "Digging In." *Egypt Today*, July. <*http://www.egypttoday.com/article.aspx?ArticleID=1785*> (7 July 2004).
Nafie, Reem. 2003. "History versus People." *Al-Ahram Weekly*, 23–29 October.
Ormos, István. 2002. "Preservation and Restoration: The Methods of Max Herz Pasha, Chief Architect of the Comité de conservation des monuments de l'art arabe, 1890–1914." In *Historians in Cairo*, ed. Jill Edwards, 123–53. Cairo: The American University in Cairo Press.
"Population Passes 70mn mark." 2004. *Middle East Times*, 5 March. <*http://www.metimes.com/articles/normal.php?StoryID=20040305-042723-9123r*> (24 August 2005).
Rabbat, Nasser. 2000. "Al-Maqrizi's *Khitat*, an Egyptian *Lieu de mémoire*." In *The Cairo Heritage: Essays in Honor of Laila Ali Ibrahim*, ed. Doris Behrens-Abouseif, 17–30. Cairo: The American University in Cairo Press.
El-Rashidi, Yasmine. 2003a. "Reconstructing the Past." *Al-Ahram Weekly*, 14–20 August.
———. 2003b. "Dollar-denominated Depression." *Al-Ahram Weekly*, 6–12 November.
Raymond, André, ed. 2002. *The Glory of Cairo: An Illustrated History*. Cairo: The American University in Cairo Press.
Reid, Donald Malcolm. 2000. *Whose Pharaohs?: Archaeology, Museums, and Egyptian National Identity from Napoleon to World War I*. Berkeley, Calif.: University of California Press.
Rodenbeck, John. 2000. "The Present Situation of the Historic City: A Road Not Taken." In *The Cairo Heritage: Essays in Honor of Laila Ali Ibrahim*, ed. Doris Behrens-Abouseif, 327–40. Cairo: The American University in Cairo Press.

Saad, Rehab. 2002. "At the Tip of a Knife." *Al-Ahram Weekly*, 28 November–4 December.
Samir, Amira. 2003. "La deuxième vie des sabils." *Al-Ahram Hebdo*, 28 May.
_____. 2004. "Une commerce traditionnelle menacé." *Al-Ahram Hebdo*, 14 January.
Schemm, Paul. 2003. "Cairo's Port (Bulaq)." *Cairo Times*, 1 January. <*http://www.cairotimes.com/*> (1 July 2004).
Sedky, Ahmed. 2001. "The Living Past." *Al-Ahram Weekly*, 558: 1–7 November. <*http://weekly.ahram.org.eg/2001/558/li1.htm*> (2 July 2004).
_____. 2005. "The Politics of Area Conservation in Cairo." *International Journal of Heritage Studies* 112 (May): 113–30.
Stille, Alexander. 2002. *The Future of the Past*. New York: Farrar, Straus and Giroux.
"Special Report: Egyptian Tourism Bounces Back." 2003. *Middle East* 338 (October): 52.
"Tourism to Egypt." 2004. *Business Today*, 15 January. <*www.businesstodayegypt.com*>.
"Travel News." 2004. *Egypt On-Line*, 12 January. <*http://www.sis.gov.eg*> (25 June 2004).
Tresilian, David. 2002. "World Heritage at Risk." *Al-Ahram Weekly*, 6–11 December.
UNDP. 2003. *Human Development Report 2003*. <*http://hdr.undp.org/reports/global/2003*> (28 June 2003).
UNESCO. 2002. *World Heritage: Archaeological Sites and Urban Cities, Muslim Cairo*, 254–261. Paris: UNESCO.
Wells, Rhona. 2004. "Special Report on Middle East Tourism." *Middle East* 341 (January): 45–47.
Williams, Caroline. 1985. "Islamic Cairo: Endangered Legacy." *Middle East Journal* 39 (Summer): 231–246.
_____. 2002a. *The Islamic Monuments of Cairo: the Practical Guide*. Cairo: The American University in Cairo Press.
_____. 2002b. "Transforming the Old: Cairo's New Medieval City." *Middle East Journal* 56 (Summer): 457–75.
_____. 2002c. "Islamic Cairo: a Past Imperiled." *Massachusetts Review* 42 (Winter): 591–608.
Williams, Harold. 2001. "Historic Cities: The Sense of Place, Sacred and Secular." In *Historic Cities and Sacred Sites*, eds. I. Serageldin, E. Schluger, and J. Martin-Brown, 401–05. Washington, D.C.: World Bank.

الفصل العاشر

التحـولات الحضرية
الضبط الاجتماعي في المربع السكني لمنطقتي
مسجد الرفاعي والسلطان حسن

ياسر الششتاوي

تمهيد

أُغلقت منطقة تقع ما بين مدرسة السلطان حسن (مدرسة دينية من القرن الرابع عشر) ومسجد الرفاعي (الذي يرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشر) أمام مرور السيارات وتحولت إلى منطقة لاستخدام المشاة فقط في عام ١٩٨٤. ولم يكن ما تلا ذلك من استخدام للمكان (والنجاح الواضح لذلك) بواسطة سكان الحي أمرًا معتادًا في القاهرة، حيث إن تلك المشروعات نادرة. وهل كان من الممكن حقًا للحكومة أن تنبذ المصالح التجارية والسياسية وتقوم بخلق أوضاع تستهدف فقراء القاهرة في داخل منطقة سياحية محورية؟ وقررت أن أقوم بالمزيد من التقصي عن هذا الأمر، وشرعت في عام ١٩٩٤ في إجراء بحث لفترة عام لدراسة هذا المكان. وكانت أول مهمة اضطلعت بها هو البحث عن المهندس المعماري الذي قام بالتخطيط لهذا المكان. وتحولت هذه المهمة إلى تعهد قطعته على نفسي، وقادتني من مبانى المركز الرئيسى للمجلس الأعلى للآثار في منطقة الزمالك إلى مكاتبهم في القلعة، ومن مكتب خفي في وسط مدينة القاهرة مرة أخرى إلى مباني المركز

الرئيسى للمجلس الأعلى للآثار في منطقة الزمالك، حيث وجدته أخيرًا. وتفاصيل ووصف تلك المقابلة مثبتة في هذا الفصل. وقد قمت بمقابلة موظف رسمي في المجلس الأعلى للآثار قدم لي عرضًا رائعًا للملامح الداخلية للدوافع وراء الإغلاق والتنبؤ بالعديد من التغييرات التي ستحدث في المنطقة لتؤدي إلى الموقف الحالي. وكان مكتب هذا المسئول يقع في القلعة بجوار المتحف الحربي. وكان مكتبه يشغل مبنى تاريخيا، وبمنصب مدير عام (لم يطلعني أحد على تفاصيل أكثر من ذلك في ذلك الحين!). بمجرد دخولي هالني اتساع مكتبه وضخامته ولحقيقة أنه كان يحتوي على كرسي وحيد أمام مكتبه. وجالسًا أمام المدير بدأت بسرد قصة مهمتي والاستعلام عن الهندسة المعمارية. وبعد التأكد من الأوراق التي تثبت هويتي ومهمتي (ودوافعي) وتبادل المجاملات المعتادة وكيف أن المكان قد أصبح رائعًا بعد أن تم إغلاق المرور فى الشارع، فقد أوضح لي رؤية مثيرة للقلق للمكان (لي فقط). وبوجه خاص، ما قاله لي إن إغلاق الشارع قد تقرر كرد على "تهديدات" عديدة على شكل تعاطي مخدرات بجوار الأماكن الخالية بالمباني، بالإضافة إلى تشكيل العديد من خلايا "الأصوليين" في المنطقة. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه كان منزعجًا للغاية من التواجد المحسوس والمتـزايد لسكـان الحـي (الطبقة العاملة، أو الناس البلدي بتعبيره)، والذين هم على حد قوله يقومون "بمضايقة" السائحين. ولمواجهة هذه "المؤامرات" قال إن هناك خططا تعد لإحاطة المنطقة بسور وسوف يكون الدخول إلى المنطقة من خلال بوابتين. كما أن الدخول إلى كافيتريا تعمل في المنطقة سيكون من الخارج، وبذلك لن يُشكل هذا الإغلاق أي مشكلة لأي شخص (ما عدا بالطبع أولئك الناس البلدي). وأصبح واضحًا أمام ناظري وللمرة الأولى أن سكان المنطقة ينظر إليهم كخطر يجب أن يتم احتواؤه وإزالته وذلك حتى يستطيع السائحون الاستمتاع بجو نظيف (أي باختصار بدون المصريين). ويستغرق تحقيق هذه النظرة على أرض الواقع بعض الوقت حتى يتحقق، ولكنني

تأكدت من تجسيد تلك النظرة في زيارة قمت بها للمكان في عام ٢٠٠٣. وكان القيام بتحويل المكان وإعداده بالمصادفة، عرضًا جانبيًا، وطبقًا لرؤية موظفي المجلس الأعلى للآثار، ويجب تحويل المكان إلى غرضه الأصلي - موقع سياحي حيث يتم فيه استعراض الاهتمام "بالمصرية"، وفقًا لسيناريو تم إعداده مسبقًا بعناية.

مقدمة

تصيب ظاهرة خصخصة الأماكن العامة، أو ما يطلق عليه البعض بتقسيم الحيز الحضري، كافة المدن عبر العالم بأسره ***Marcuse and Van Kempen 2000***. ويقوم المسئولون في سعيهم الدءوب من أجل جمع الأموال باحتجاز مساحات شاسعة من الأراضي لاجتذاب السائحين، والمستثمرين، وعلى وجه العموم كل من يمكن الأموال الزائدة عن الحاجة. وأصبح وجود تقسيمات صارخة بين الأغنياء والفقراء، كنتيجة لذلك، من أكثر الظواهر وضوحًا في المدن العالمية ***(Sassen 2001)***. كما أن المدن في الدول النامية لم تعد مُحصنة ضد مثل هذه التطورات. فقد عانت القاهرة على وجه الخصوص من طفرة هائلة في النمو السكاني، والتي بدورها، أدت إلى كثافات عالية وندرة في الأماكن العامة. وهناك، على أي حال، بعض قصص النجاح، والتي تصور، وحتى في أصعب الظروف، أنه يمكن للمعماريين أن يقوموا بخلق أوضاع يمكن أن تقوم بإشباع حاجات القاهريين. ولكن، لسوء الحظ، فإنه حتى قصص النجاح هذه، لا تكون له نهايات سعيدة. ويمكن للمرء قراءة عوامل اجتماعية وسياسية تُحدث تأثيراتها داخل القاهرة، واستجابتها لظروف العولمة من خلال دراسة التحولات التي حدثت في مثل هذه الأماكن. وتكشف مثل هذه المشروعات المدى الذي تصل إليه هذه العوامل بتحويل الأماكن العامة لتتطابق مع نظرة النخبة عما تعتبره يشكل ما هو "عام".

ويحكي هذا الفصل قصة ساحة الرفاعي والسلطان حسن واللتين تقعان في منطقة بالقاهرة تعرف باسم الخليفة تحت سفح القلعة. ولقد خضعت المنطقة لتحولات واسعة النطاق والتي هي ذات دلالة للظروف المتغيرة داخل القاهرة، ومن ناحية أخرى استجابة للنزعات العالمية المتنوعة، وعلى وجه أخص، خصخصة

الأماكن العامة وإقصاء بعض الفئات غير المرغوب فيهم من السكان. وبينما بُذلت هذه الجهود لتحويل هذه المنطقة كمنطقة للمشاة فقط من أجل جذب السياحة بصفة أساسية، فإن المكان أصبح يغص بالبشر من قاطني الأحياء المجاورة (يمكنك الرجوع إلى الفصل الخاص بويليامز لمزيد من التحليل عن وضع السياحة في الاقتصاد المصري). وقد أصبح المكان استراحة محببة لكبار السن والمتقاعدين، والمراهقين، والسيدات والأطفال – وقد أصبح حقًا مكانًا لعامة الشعب. وشعر موظفو المجلس الأعلى للآثار بالقلق إثر ذلك، وقاموا بإحاطة المنطقة بأسرها بسور ذى بوابتين. وبقيت هذه البوابات مفتوحة للمارة والسائحين الذين استمروا في التردد على المكان أيضًا. وأُغلقت إحدى البوابتين في غضون سنوات قلائل (هي التي تطل على شارع محمد علي)، ثم أُعلن أن المنطقة أصبحت موقعًا سياحيًا، وبذلك أصبح مكانًا خاصًا للسائحين فقط في واقع الأمر، ومحو وظيفتها كمكان لتجمع أهالي المنطقة. وبحلول وقت تسطير هذا الكتاب في عام ٢٠٠٣ أصبح المكان خاليًا ومُقفرًا، وعلى النقيض تمامًا للحيوية التي اعتادت أن تسري في أوصال هذا المكان.

النقطة الرئيسية التي سوف أقوم بالتركيز عليها في هذا الفصل هي أن مدن البلدان النامية وهي مدن الشرق الأوسط في حالتنا هذه، تأتيها الأخطار المُحدقة بها من الداخل، وليس من قوى خارجية (والتي يطلق عليها أحيانًا المستشرقين، والمستعمرين والإمبرياليين، وغيرها)، حيث إن أصحاب القرار في الداخل يرون عامة الناس كخطر يجب التعامل إزائه والسيطرة عليه. وفي سبيل ذلك، فإن قطاعًا عريضًا من الشعب يتم إعاقة حصوله على حقوق معينة (مثل الاستمتاع بالأنشطة خارج المنزل والتواصل الاجتماعي في المناطق الحضرية التاريخية)، والتي أصبحت علامة على المزيد من الانتهاكات التي تؤدي إلى حرمانهم، وما يترتب على ذلك من مثالب خطيرة (مثل التطرف).

وتعتمد النقطة الحيوية الأساسية في هذه الدراسة على المقابلات، والملاحظات، والصور التي يتم التقاطها عبر فترة بلغت ستة شهور في عام ١٩٩٤ (الششتاوي ١٩٩٦). وقمت بزيارات منتظمة في السنوات التالية لمتابعة التغييرات التي تحدث، وعملت على تحديد السرعة التي تتم بها من داخل سياق تاريخي أكبر، عن طريق دراسة تاريخ المنطقة المحيطة بها أيضًا.

وفيما يلي سرد مبدئي للنجاحات التي تحققت في منطقة الرفاعي/ والسلطان حسن ثم ما تلا ذلك من تطورات للوضع الحالي. وتستهدف الصور المتناثرة عبر الفصل أن تستكمل الصورة الذهنية، وأن تضيف السرد إليها. وسأبدأ أولاً في تقديم سياق تاريخي.

ميدان الرفاعي والسلطان حسن: تاريخهما وتطورهما

يعتبر الميدان امتدادًا لطريق عام رئيسي يطلق عيه شارع محمد على. ويقع بين اثنين من المباني الدينية: مدرسة (مدرسة دينية) يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر وتسمى على اسم مؤسسها السلطان حسن، وهو حاكم مملوكي، وجامع الرفاعي ويحتوي على رفاته وهو أحد الأولياء، بالإضافة إلى رفات عضوين من الأسرة المالكة المصرية، ورفات شاه إيران السابق. وكانت المدرسة في البداية جزءا من النسيج الحضري المُحكم حيث كانت تقع في نهاية شارع سوق السلاح. ومرت قاهرة مطلع القرن العشرين بسلسلة من التغييرات الدرامية التي تجلت في العديد من مشروعات البناء التي كانت تستهدف الإسراع في تشييد مدينة العصور الوسطى وربطها بالحواضر الحديثة آنذاك. وشُقت العديد من الطرق، وأُضيفت العديد من الميادين الفسيحة ضمن هذه العملية في المدينة العتيقة. ووجدت المنطقة التي تحيط بمدرسة السلطان حسن والتي تقع في نهاية واحدة من هذه الطرق

الواسعة اهتمامًا خاصًا حيث كانت تصل مركز السلطة القديم (القلعة) بنظيرته المعاصرة (ميدان الأزبكية).

وقد شُيد المسجد الضخم (الرفاعي) في مواجهة مدرسة السلطان حسن، ويقع المبنيان ضمن منطقة كبيرة مفتوحة (الحارثي ١٩٩٦). ونزعت المدرسة من البيئة المحيطة بها (أي تم فصلها عن النسيج الحضري) في عمليـــة خـــروج جـــذري لا سابقة لها في المدن الإسلامية، والتي شُيدت بغاية تكمن قيمتها الأساسية في جاذبيتها الجمالية والمقابلة لدورها المتكامل ومكانتها في المجتمع. بعبارة أخرى، فقد ترسخت قيمة المسجد بطريقة مرئية أكثر منه اجتماعيًا، من خلال توفير منطقة واسعة ومفتوحة لتصور شامل لهيكلها المادي. ولم يكن هذا هو الوضع السائد تمامًا في القاهرة. وتطل الطرق والميادين الصغيرة أحيانًا على مبان مهمة ولكن ليس على هذا النطاق الواسع، والذي كان أكثر شيوعًا في مدن أوروبا العصور الوسطى، ويتماشى تمامًا مع جهود التحديث التي تم إجراؤها في تلك الحقبة (الششتاوي ٢٠٠٠).

كان الميدان قبل إغلاقه طريقًا أساسيًا للسيارات والأتوبيسات التي تمر منها في طريقها إلى شارع محمد علي أو العودة منه. ولم يكن هناك غير رصيف ضيق للمشاة. وعلى الرغم من أن هناك مأوى صغير للسيارات يقع خلف مسجد الرفاعي يستخدم أحيانًا، فقد كانت حالة الإهمال المذرية واضحة للعيان من خلال الصور التي تم التقاطها قبل إغلاق المنطقة وجعلها للمشاة فقط. وألمح موظفو الهيئة العليا للآثار في معرض حديثهم لي بأن هذه المنطقة كانت معروفة بتواجد الأنشطة غير الشرعية مثل مدمني المخدرات – وهو اتهام معتاد في هذه المنطقة، نتيجة لمجاورتها لعدد من مراكز تجارتها مثل الباطنية. ومن الصعوبة بمكان التحقق من مثل هذه الادعاءات، غير أن الأمر يبدو غير محتمل للتصديق نظرًا لأن المكان مكشوف بدرجة عالية. ويبدو بدرجة أكبر أن الأمر لا يزيد عن كونه ذريعة

محتملة لما يتلو ذلك من إغلاق المكان. وشرع المجلس الأعلى للآثار في عام ١٩٨٥ في بذل جهود حثيثة من أجل ترميم المنطقة المحيطة بقلعة صلاح الدين، بما في ذلك مدرسة السلطان حسن. وبالتضافر مع هذه الجهود، أُعدت الخطط بواسطة كبير مهندسيها المعماريين، وهو نبيل عبد السميع، من أجل إغلاق المكان في وجه مرور السيارات وتحويلها لاستخدام المشاة فقط. وقد استلهم المهندس المعماري من شوارع القاهرة الإسلامية التقليدية، وكذا من زيارة للمدن الإيطالية، عملية تقسيم المنطقة إلى أقسام مختلفة، وذلك من أجل التوائم مع الانحدار الطبيعي في تضاريس المكان وذلك من خلال توفير درجات من السلالم. كما قام بتصميم بوابة بالقرب من شارع محمد على من أجل الدخول إلى الميدان. وفي مقابلة مطولة مع المؤلف في عام ١٩٨٥، ذكر أن واحدا من أهم الأهداف هو العنصر الاجتماعي للمشروع، والمحاولة الجادة من أجل التكامل مع الأحياء المحيطة. وقد عبر عن اعتراضه لأي عملية إغلاق للشارع أمام المشاة، كما سجل إدراكه للخطط المزمعة بواسطة المسئولين الرسميين للمجلس الأعلى للآثار.



خريطة يظهر فيها ميدان الرفاعي ومدرسة السلطان حسن بالنسبة إلى القلعة وجامع ابن طولون (رسم سطحي لياسر الشحتاوي عن خريطة للقاهرة من دار المساحة بالقاهرة، ١٩٩٤).

يتميز الميدان بعدد من الملامح. وأبرز هذه الملامح هو هيكلها العام الذي يتكون من جزأين: الجزء الواقع بين المسجد والمدرسة، والذي يتميز بإحساس عال من الانغلاق، وجزء آخر مفتوح يجاور مأوى السيارات. وتتضمن الملامح الإضافية الطريفة منحدرًا يتميز باستمراره بطول الحافة في أغلبها مع القليل من الانقطاع، والبوابة السابق ذكرها، والرصف الذي يتميز بطابعه الإسلامي. ويقع المكان في حي متواضع، ولكنه ليس حيًا عشوائيًا. ويوصف بأنه "تقليدي"، و"حضري" ويعتبر ذلك مزيجًا حيويًا يضم العمل والسكن، وحركة البيع، والاستهلاك *(Abu-Lughod 1971; Singerman 1995)*.

رصد حالة الميدان: صورة لسلوكيات الحي

تُظهر ملاحظاتي أنه من حيث أعداد ونوعيات البشر الذين يستخدمونه، أن الميدان تؤمه باستمرار أعداد كبيرة تتوزع عبر ساعات النهار بأكمله وبطريقة تعكس الإيقاع اليومي للمدينة بأسرها. ولم يكن الاستخدام يقتصر على موسم أو مناسبة بعينها ولكنه كان مستمرا طوال شهور الصيف والشتاء، وكل أيام الأسبوع وأيام نهاية الأسبوع. وتتعدد الأنشطة بين العديد من نوعيات الزائرين: مراهقون يمارسون لعبة الشطرنج، وأطفال يلعبون ويتعاركون ويتصايحون، وآخرون منهمكون في الكثير من الأنشطة.

كما تستخدم النساء الميدان بصفة منتظمة. وهناك مقياس مهم لنجاحه وهو الحضور المنتظم للكثيرين في أي وقت من أوقات النهار مثل الكبار والمتقاعدين، وغيرهم. وأصبح هذا المكان للكثيرين منهم جزءا لا يتجزأ من النشاط اليومي بل ويكتسب أبعادًا صوفية نظرًا لموقعه القريب من المسجد:

> **"تخصيص هذا الشارع للمشاة فقط" هو أمر طبيعي... لقد ولدنا ووجدنا هذه المساجد... وهذا يثبت أنه كان يجب أن يفعلوا هذا الأمر منذ وقت طويل... فبعد أن يقوم كل هؤلاء بأداء الصلاة يأتون هنا ليكونوا في رعاية الله" (أحد المسنين ممن أجريت معهم مقابلات).**



أطفال يلعبون الكرة مع السائحين (تصوير ياسر الششتاوي)

إنه المكان الذي أتوقع أن أجد فيه أصدقائي، كما قال لي واحد ممن اعتادوا على هذا المكان.

. توقف أحد المعاقين وهو يستند على عكازين وسأل اثنين من المسنين الجالسين على الحواف: "صباح الخير يا حاج (نداء التوقير لكبار السن)... أليس هناك من أحد يجلس هنا؟ فرد عليه أحدهم بقول، "إنهم يجلسون هنالك على السلالم...." (وهو يشير بأصبع يده تجاههم).

كما أن الباعة الجائلين موجودون أيضًا، وهكذا يقومون بإضافة عنصر آخر لحيوية المكان. ولذا فإنه من الناحية الكمية البحتة أو وجهة النظر النوعية، فإن إغلاق الميدان أمام السيارات يمكن أن يعتبر عملاً ناجحًا.

ثم أعملت ذهني في سبيل الوصول إلى الأسباب الكامنة وراء هذا النجاح. وكانت حجتي في ذلك الوقت أن هذا النجاح يمكن أن يعود مباشرة إلى حقيقة أنه يمكن أن يستوعب التغيير وفي نفس الوقت الذي يلبي فيه الاستجابة إلى التقاليد الثقافية المتأصلة بعمق. وكان ذلك يستند إلى تعريف خاص "للثقافة" قام بتوضيحه أموس رابوبورت. وهو يقول إن الثقافة يمكن تعريفها كنمط لأسلوب حياة لجماعة، أو أسلوب خاص لأداء بعض الأعمال *(Rapoport 1989)*. وقمت باستخدام هذا التعريف كنقطة بدء مناسبة لدراسة مكونات هيكل الثقافة وتعريف العديد من عناصر فروع الثقافة الحضرية التقليدية والتي شعرت أنها مسئولة عن استخدام ميدان مسجد الرفاعي/ السلطان حسن. وهي (١) مفهوم الفسحة؛ و(٢) احتفالات الهواء الطلق. وبالإضافة إلى ذلك، هناك ٣ عناصر أخرى – وبينما هي ليست فريدة في هذه الثقافة الفرعية – فيمكن أخذها في الحسبان: (٣) عادة المقهى؛ و(٤) الدور المتغير للمرأة والعلاقة بين الجنسين؛ و(٥) الوجه المتمثل في الجانب

الدرامي من حياة الشارع. ويتمثل قدرة هذا المكان من أحياء القاهرة في اجتذاب كل هذه المكونات من خلال بنائه المادي والذي نتج عنه هذا الاستخدام المكثف، بما يعني هنا تحقيق النجاح في هذا الغرض. وسأقوم في الأجزاء التالية بتعريف واستكشاف كل من هذه العناصر.

مفهوم الفسحة

تُظهر دراسة أصل وتاريخ كلمة *"فسحة"*، وهي كلمة مصرية مشتقة من "الخروج للترويح والاستجمام" في كونها هيكلا ثقافيا فريدا من نوعه بتضمينات معمارية ذات خصوصية معينة تتواجد كلها في هذا الميدان، وبذلك فإنها جميعًا تسهم في نجاح هذا المكان بدرجة كبيرة. وطبقًا لما توردة القواميس العربية الشهيرة، فإن كلمة *فسحة* يتم تعريفها بالمكان الفسيح؛ وتكون استخداماته على غرار "أفسح له الناس المكان حتى يستطيع الجلوس"، كما أن الكلمة ترتبط بمعنى أن شخصًا ما يشعر بالاكتئاب ثم هدأت روحه، مثل اتسع صدره، وتطورت هذه الكلمة في العامية المصرية إلى *يتفسح*، *وفسحة*. وتستخدم هذه الكلمات عندما يقوم شخص ما بالخروج لغرض أنشطة الترويح عن النفس، ومن أجل المتعة، أو ببساطة لمجرد التسكع وقضاء الوقت بالخارج. وهكذا يقال في الزمن الماضي إن شخصًا ما *"إتفسح"*، أو خرجنا *"للفسحة"*. كما أن حجرة الاستقبال في أي شقة في المناطق الحضرية التقليدية يُطلق عليها اسم *"الفَسْحة"*، وهو اشتقاق مباشر من جذر الكلمة.



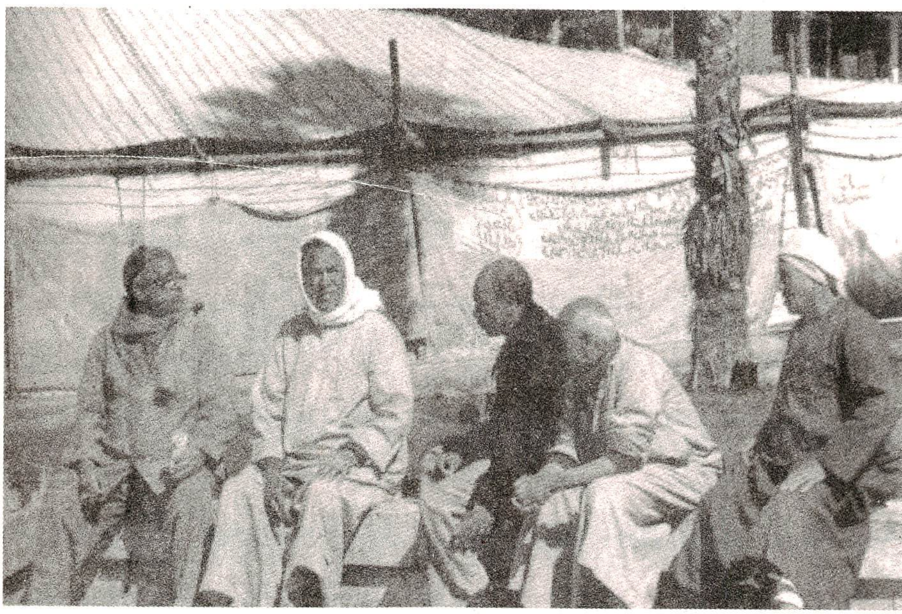
زوجان من ريف مصر يقومان بزيارة للميدان (تصوير ياسر الششتاوي)

استخدام هذا المصطلح ذو مغزى ويحتوي على تضمينات معمارية وحضرية قوية وبصفة خاصة لأن هذا المصطلح ليس له مقابل في اللغة الإنجليزية. وتنبع أهمية الكلمة من الربط بين الاستمتاع الشخصي وبين كون المرء في مكان فسيح ومفتوح في الهواء الطلق. وبينما يحتمل أن يكون ذلك ملمحًا معتادًا في معظم الثقافات، فمن الملفت للنظر أن تُكرس كلمة محددة في اللغة العربية لهذا الغرض. كما أن الكلمة تشي بطريقة غير مباشرة أن هذا المكان المتسع ليس مرتبطًا بمكان سكنى الفرد وأنه يجب أن يخرج ويجد في البحث عنه.

ويمكننا دراسة الميدان من منظور *الفسحة*. فهو تجسيد حضري كامل لهذه الفكرة. فهي تحقق المعيارين اللذين يجعلان من المكان مناسبًا *للفسحة*: وجود مناطق مفتوحة، وفسيحة، والاختلاف عن الاستخدام السكني. ولذا، فهو المكان الملائم للخروج من أجله. ويمكن أن يُعزى الاستخدام الناجح للمكان مباشرة إلى المدى الذي يتوافق فيه مع مفهوم ثقافي محدد للغاية للشعب المصري.

احتفالات الهواء الطلق

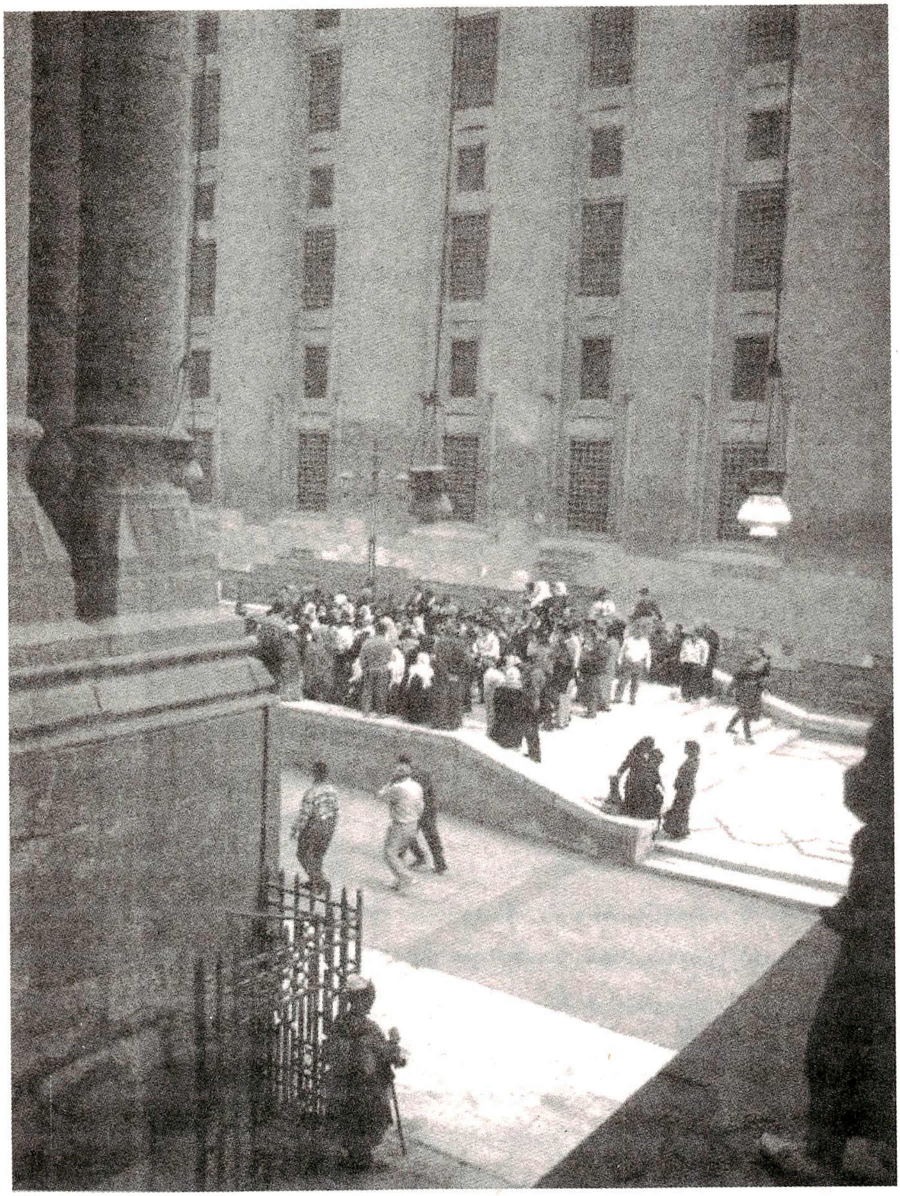
هناك حدثان في أغلب الأحيان يتم الاحتفال بهما خارج المنزل: حفلات الخطوبة أو الزفاف أو احتفالات الأعياد. ويتزايد الاحتفال بالمناسبة الأولى داخل أماكن مغلقة، بينما يترادف الاحتفال بالأعياد بالخروج والانغماس في أنشطة الترويح في الهواء الطلق. ويتسع الميدان لكلا الغرضين، وبذلك يضيف معيارًا آخر لنجاحه.



متقاعدون يستمتعون بالجلوس في الميدان (تصوير ياسر الششتاوي)

وتسبق احتفالات عقد القران (حينما يحتفل العروسان وأقاربهما بتوقيع عقد القران) مواكب مصحوبة بالغناء والراقصين، بالإضافة إلى التفاف الأقارب حول العروس والعريس. وتقع هذه المواكب عادة في الشارع الذي يــؤدي إلـــى الشقة، أو المنزل، أو السرادق الذي تجري فيه المراسم الرسمية لاحتفالات الزفاف. ومن الجدير بالذكر بأن هذه الطقوس عادة ما ترتبط بالمناطق الشعبية أو الفقيرة. حيث تقوم قطاعات الطبقة المتوسطة والعالية بهذه الطقوس داخل قاعات الفنادق. وتتلاشي هذه المواكب تدريجيًا وبطريقة متزايدة في المناطق الشعبية نظرًا للتغيرات الاجتماعية المتعددة مثل محاولة الرغبة في محاكاة الأثرياء، وعدم ملاءمة الشارع كمكان لممارسة هذه الطقوس (على سبيل المثال ظروف الازدحام والظروف غير الصحية للشوارع في العديد من المناطق العمالية الشعبية والتي تعوق ممارسة طقوس هذه المناسبات الهامة).

وقد قمت بمراقبة العديد من طقوس احتفالات عقد القران (كتّبْ الكِتاب) خارج المنزل. ويساعد الميدان على ممارسة مثل هذه الأنشطة من خلال موقعه، وهيكله المادي، وتوافر مسجد كبير حيث يمكن ممارسة هذه الطقوس رسميًا. ويستأثر المكان نتيجة لموقعه في وسط المدينة، وبروزه، وإدراك موقعه كمركز مهم للتجمع، بأن أصبح موقعًا معلومًا للكافة. وكان معظم من قابلتهم عادة ما يخبرونني بأنهم يقومون باستغلال المكان في المقابلات بين سكان الحي، مما يفسر لنا اتخاذه أيضًا كمكان مفضل لمناسبات الزفاف والخطوبة. والتركيب المادي للمكان والذي يتمثل في الحواف حيث يستطيع الناس الجلوس، ويسمح وجود مساحات كبيرة بالفصل المكاني بين المشاركين في طقوس الاحتفال والآخرين من المتواجدين المستخدمين للمكان لأغراض أخرى، كما أن البوابات تمنح الانطباع بأن المكان في مأمن من أي تطفل خارجي؛ وتدعم كل هذه العوامل احتفالية عقد القران (كتب الكتاب).



احتفالات بزفاف عروسين (تصوير ياسر الششتاوي)

باختصار، إن الأحداث التي تتلاشى بصفة متزايدة في القاهرة التقليدية تعود لتتمركز هنا في هذا الميدان. ويعمل الناس على الاستفادة من خواصه المادية التي لا نظير لها كوسيلة لإعادة إحياء تقاليد راسخة، وعنصر مهم من عناصر أسلوب حياتهم، أو ثقافتهم على وجه التحديد. وبهذه الوسيلة، فإن الاستمرارية يتم تأسيسها فيما بين "التقاليد" و"التاريخ"، في نفس الوقت الذي يتم فيه الإقرار بالتغيير الاجتماعي. كما يمنح الميدان سابقة لها فائدتها ويمكن تطبيقها في المناطق الأخرى من القاهرة التقليدية، مما يخفف من بعض الضغوط المادية التي يواجهها المتزوجون الجدد حيث إن طقوس الاحتفالات تؤدى في الهواء الطلق وبلا مقابل، بالمقارنة بالمصاريف الباهظة التي يمكن أن يتكبدوها لتأجير قاعات أفراح مغلقة في الفنادق.

أما الحدث الثاني والمهم الذي يجتذب أعدادا أكبر من المترددين هو الاحتفال بالعيد، والذي يتم مرتين في العام، بعد صيام شهر رمضان، والذي يطلق عليه اسم العيد الصغير، والمناسبة الأخرى أثناء تأدية شعائر الحج إلى مكة ويطلق عليه العيد الكبير أو عيد الأضحى. ويرتدي الأطفال أثناء هذه الاحتفالات الملابس الجديدة ويصطحبهم الوالدان للحدائق، أو أي نزهة في الهواء الطلق تتمتع بمساحات خضراء واسعة. فيرتاد الناس، في القاهرة على سبيل المثال، حديقة الحيوان، أو كورنيش النيل (يمكنك الرجوع إلى الجزء الخاص بباتيستي في هذا الكتاب لمعرفة زيارات العطلات واستخدامات الأماكن العامة في حديقة حيوانات الجيزة). ويتم تنظيم جولات نزهة خاصة للأطفال بالخيول في الكثير من الأحياء الفقيرة. وكان هذا الميدان على وجه أخص، في كلا العيدين يعج بأعداد هائلة من البشر وساعد على ذلك، مركبات الخيول المجاورة لميدان صلاح الدين والتي تقع مباشرة بالقرب من المدخل الجنوبي، فضلاً عن الشعور المماثل لجو الحدائق في الشارع نفسه.

وتنعقد احتفالات العيد مشابهة لمراسم حفلات الزفاف في الميدان، وهكذا يظهر المدى الذي يقوم فيه الميدان بتلبية احتياجات نمط حياة الناس بمدهم بأوضاع بديلة يمكنهم فيها ممارسة هذه الأنشطة. وقامت واحدة من صحف القاهرة الكبرى في مقالة لها بمناقشة الاستجابة الحماسية لسكان القاهرة لهذه الاحتفالات، من أجل تصوير واقعي أبعد مدى لهذه النقطة، في إصدار لها بعد العيد الصغير، وكانت المقالة مصحوبة بصورة لمركبة خيول حول الميدان ومسجد الرفاعي في خلفية الصورة ("العيد" ١٩٩٥). وبينما يمكن تفسير ذلك كدليل قصصي، فإنه وعلى الـــرغم مـــن ذلك يصـــور المدى الذي أصبح فيه المكان تعبيريًا كعنصر مهم لثقافة القاهرة.

دور المقهى: تقاليد متغيرة

يعتبر المقهى في القاهرة المكان الأساسي للمقابلات والتجمعات للرجال من ذوي الدخول المتواضعة (شعبي) في الأحياء الشعبية. وقد حدثت تغييرات في الآونة الأخيرة، على الرغم من ذلك. (يمكنك الرجوع إلى كونينج للمزيد من النقاش عن التغييرات التي حدثت في ثقافة المقهى في القاهرة). ويتجنب الناس المقهى لعدد من الأسباب مثل التوفير، والمضامين السلبية المتزايدة التي تحملها أن "تكون في مقهى" (يحمل التعبير بين سكان القاهرة التقليديين "الجلوس في مقهى" مرادفًا لأن يكون المرء بلا عمل وتضييع الوقت)، والرغبة البسيطة في أن تكون بمنأى عن الآخرين.

وحل ميدان الرفاعي/ السلطان حسن محل المقهى التقليدي لهؤلاء غير الراغبين في ارتيادها للأسباب السابقة طبقًا لآراء من قمت باستطلاع آرائهم في هذا الصدد. وقد شد انتباه الكثيرين أن هذا المكان أكثر جاذبية عن المقهى بكثير حيث إن دخول واستخدام المكان بلا مقابل، كما لا يتم إجبارهم على المشاركة في

أي تفاعل من أي نوع، كما أنه لا يتميز بالصخب. وقد أخبرني أحد من استطلعت آراءهم أن الكثيرين من مرتادي المقاهي قد كفّوا عن ذلك، وفي الحقيقة استبدلوا ذلك بالجلوس في الميدان. والسبب الذي تكرر كثيرًا في أقوال المستطلعين هو أنهم يُتركون في حالهم ولا يضايقهم أي شخص. ويكونون قادرين، بعبارة أخرى على مراقبة الحياة الاجتماعية حولهم ولكن من مسافة بعيدة، بدون أن يتم إرغامهم على المشاركة في الحدث. ويعتبر الحوار التالي صورة معبرة على وجه الخصوص:

عجوز ممن قابلتهم: نعم، خلق هذا الشارع فارقًا... فقد اعتاد الناس على الجلوس على المقاهي... ولكنني لست من أنصار الجلوس على المقاهي، ولكن معظم الشباب الذين كانوا معتادين على الجلوس في المقاهي يأتون الآن إلى هذا الشارع.... وعلى الرغم من أن هناك مجموعة صغيرة منهم يقومون بتشويه المكان... من الشباب ذوي الأذواق الفاسدة.

المؤلف: هل يصنعون الكثير من الضجيج وما إلى ذلك؟

العجوز: نعم، ويضايقون الكثيرين كما أنهم يتحدثون بصوت عال.

وبينما يمكن أن يكون من قبيل المبالغة الفجة أن نقول إن المقهى قد اختفى، فإن الميدان قد أصبح بالنسبة لبعض الناس بديلاً مناسبًا للمقابلات ومكانًا للتجمع يتسع للتغييرات التي حدثت في حياتهم.

دور المرأة: تغيرات في العلاقة بين الجنسين

تتميز المجتمعات العربية – الإسلامية التقليدية بالفصل بين الجنسين (حيث تختص الأماكن العامة بخدمة الرجال، بينما تتقيد النساء بالمنازل). وقد خضعت

المجتمعات الإسلامية للعديد من التغييرات، وكان تحرير المرأة واحدا منها، اعترافًا منها بأن هذه الممارسات لا تستند على أي أسس دينية، بل على تقاليد موروثة. وبينما لم يكن من الوارد في الماضي أن يظهر الفتى والفتاة غير المتزوجين في العلن، فقد أصبح ذلك منظرًا مألوفًا، على الأقل في القاهرة. ويعكس الميدان هذه المتغيرات. فقد أصبح الميدان مكانًا لتلاقي غير المتزوجين من الجنسين، وخلق صداقات، والمغازلة، وتبادل النظرات. وكان الحدث التالي نموذجًا مثاليًا لما يحدث:

> **كان أربعة فتيان وأربع فتيات كلهم من المراهقين يجلسون قبالة بعضهم البعض. وكان الفتيان يتحدثون بصوت عال في محاولة منهم للفت أنظار الفتيات.. ومر بائع للعرقسوس وطلبوا أن يشربوا منه، ثم طلبت الفتيات أيضًا أن يشربن منه. وانتهز الفتيان هذه الفرصة لجذب انتباه الفتيات، فقاموا بإلقاء بعض التعليقات: "ياه، يبدو العرقسوس رديئًا حقًا"، أو النداء على البائع "لا تنسى أن تتقاضى نقودك منهن". ولكن الأمر لم يتجاوز حدود تبادل هذه التعليقات.**

ولم يكن المكان محصورًا فقط على الرجال، كما هو الحال في المقهى، وبدلاً من ذلك كان كلا الجنسين من مستخدمي المكان. وبينما كانت الأعداد المقترحة تقول إن الأغلبية للفتيان، فقد اكتشفت أنه بالنسبة للمراهقين كان عدد الجنسين متساويًا تقريبًا. وبالإضافة إلى ذلك، فإن تركيبة هيكل المكان قد سمحت بأن يتم احتلال بعض الجوانب المحددة بواسطة السيدات، والعائلات، أو الأزواج، على سبيل الحصر وبدون أن يشعروا بأي انتهاك لخصوصيتهم أو بأن هناك من

يراقبهم. كما أصبح من "المقبول" أن يتلاقى أي فتى وفتاة في وسط هذا الحشد، حيث إنهم في وسط حشد، وفي مكان عام (لمزيد من التواصل الاجتماعي المقبول، حيث يمكن للثنائيات أن تتلاقي، يمكنك الرجوع إلى الفصل الخاص بأرمبريست عن السينما المصرية في هذا الكتاب، وديكونينج عن المقاهي الراقية). وبهذه الوسيلة، فإن الحساسيات الثقافية والدينية السائدة يتم احترامها وتقديرها. وبذلك تجد مشاركة المرأة في الحياة العامة متنفسًا ملائمًا في هذا الميدان من خلال توفير إطار يمكن أن يتفاعل فيه الجنسان بأمان.

الأداء والمشاهدة: العنصر المسرحي

تذكر آداب الدراسات الحضرية التقليدية ***e.g., Alexander el al. 1977; Jacobs 1961*** بأن واحدا من العناصر المهمة لتصميم أي مكان عام ناجح هو القدرة على رؤية الآخرين، ومقدرة الآخرين على رؤيتك (يختلف عن مفهوم الفسحة السابق مناقشته، والذي يشير إلى الرغبة في الخروج، بينما يعرض هذا المفهوم ما يفعله الشخص). وبينما المفهوم نفسه له أبعاده العالمية والتي تتقاسمها العديد من الثقافات، فإن كيفية تنفيذ هذا النشاط، وأين يتم تنفيذه، وكيف يتم، هو الذي يصبغه بشخصيته المتفردة والذي يجعله عنصرًا لا يتجزأ من الثقافات الفرعية الفردية، كما هو الوضع في حالة الميدان. وتم تحقيق الفصل بين الممثلين والمشاهدين لأن الشارع كان متسعًا بما يكفي لأن يسمح للناس بأن ينأوا بأنفسهم عن بعضهم البعض ومشاهدة ما يجــري بــدون أن يبــدو عليهم أنهم فضوليون أو متطفلون. كما أن الحواف تلعب دورها كمقاعد مثالية، وتميل أداء المسرحية لتكون في وسط الشارع. وفي بعض الأحيان، وكما يحدث في المسرح الحديث، فإن المشاهدين المنهمكين في المشاهدة، يمكن أن يتحولوا في منتصف المسرحية

إلى جزء من العرض نفسه. وهكذا فإن كلا من الممثل والمشاهد يتبادلان الأدوار، على أن، أيا منهما لم يتم إرغامه على المشاركة. ومن الطريف أن نشير إلى أنه، وعلى الرغم من أن الأحداث الخارجية التي يتم مشاهدتها قدمت البواعث للمشاهدين للحديث عنها، كما قدموا هم السياق، والمبرر، من أجل استهلال الحديث. وكانت التصورات يتم توقعها طبقًا لما يراقبونه في الكثير من حالات الصراعات، والقوالب النمطية:

الراوي أ: هؤلاء الشباب والأطفال يقومون بتشويهه (الشارع).. هذا المكان للسياحة ولكن هؤلاء الشباب يخلقون ضجيجًا والحماقات الأخرى... هذا لا يصح... ليس من الصحيح أن تتم هذه الأفعال الصبيانية هنا... يجب أن يكون هناك نظام".

الراوي ب: هؤلاء شباب يحاولون التباهي بأنفسهم... إنهم يحبون العراك وما إلى ذلك... وهذا يحدث في الشارع وفي كل منطقة بوجه عام.

المؤلف: وهل هذه ظاهرة معتادة؟

العديد من الحاضرين وفي صوت واحد: إنها ظاهرة معتادة في كل أنحاء مصر... وعلى وجه الخصوص في الخليفة (الحي القريب)، وهي هنا عادية جدًا... وهذا هو الأمر المقزز.

وهكذا فإن نجاح هذا المكان المخصص للمشاة فقط يعتمد على المدى الذي يقوم فيه بتلبية عنصر ثقافي مهم بين سكان القاهرة، وعلى وجه التحديد، الرغبة

في أن تشاهد، ولرغبتك في أن يشاهدك الآخرون، والذي هو عنصر بالغ الأهمية في تصميم أي مكان عام. وفي كل الحالات التي ذُكرت آنفًا، فإن التغيير عنصر مهم، سواء كان تغيير الوضع المادي الذي يتم فيه أداء تقليد قديم، أو تقليد متغير يعبر عن نفسه في الميدان.

التحولات: خصخصة الميدان

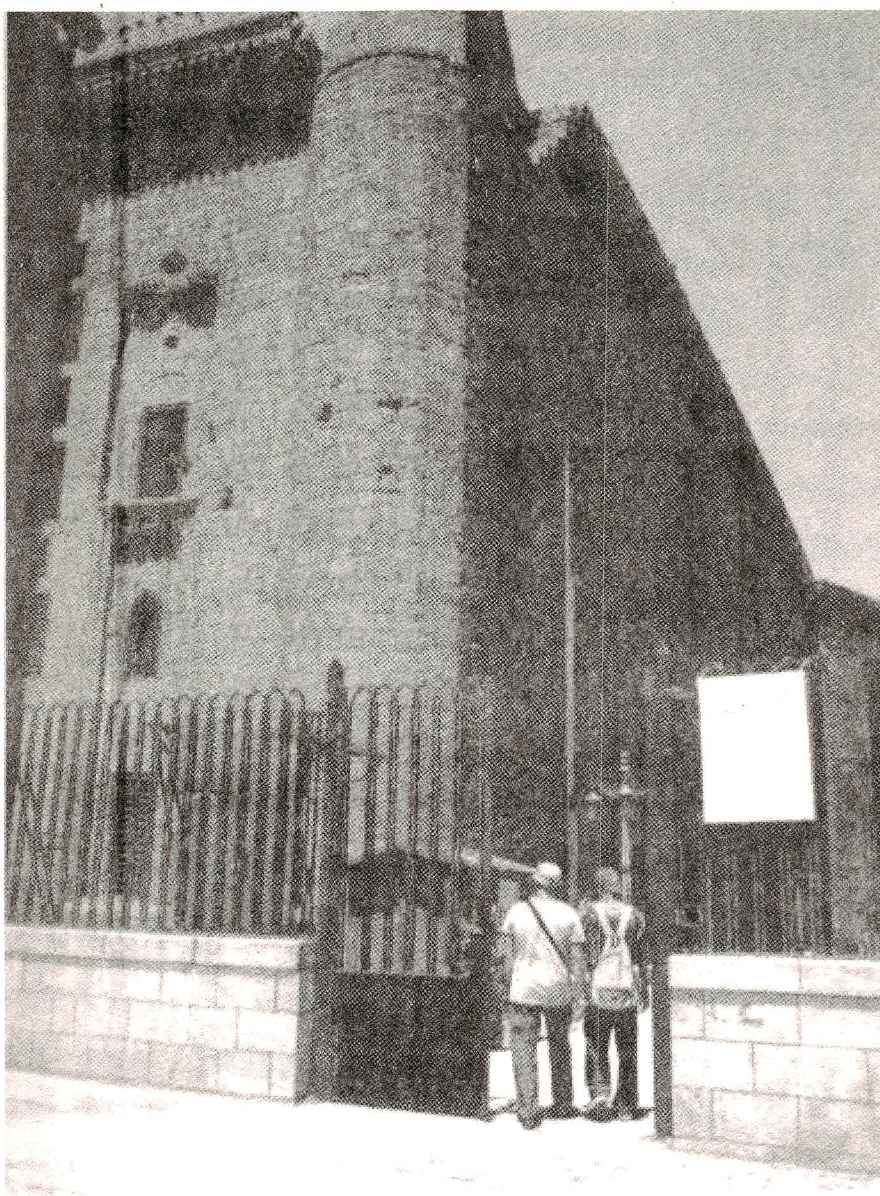
قابلت أحد كبار الموظفين في المجلس الأعلى للآثار أثناء إجراء هذا البحث والذي عبّر عن الفزع الذي يشعر به لما أطلق عليه السلوك "الجامح" لسكان الحي. وقد أخبرني أن هناك خططا في طور التجهيز من أجل غلق المكان للمشاة العاديين، عن طريق استخدام البوابات التي تم تشييدها حديثًا. وسيتم الدخول إلى مسجد الرفاعي، والذي لا يزال في طور الاستخدام، من شارع خارجي. وكانت حجته الأساسية في ذلك تدور حول مزيج من "حماية السائحين" و "حماية الآثار العمرانية" (للمزيد من المناقشة بشأن خطط الحكومة المصرية للقاهرة الفاطمية، والقاهرة الإسلامية، والقاهرة التاريخية، يمكنك الرجوع إلى الجزء الخاص بوليامز في هذا الكتاب). ولم يكن واضحًا لي في ذلك الوقت، ولا حتى الآن، كيف يمكن أن يكون تواجد السكان، وبأي شكل يلحق الضرر سواء للسائحين، أو المباني الأثرية. وتجسدت هذه "الرؤية المُلهمة" للمجلس الأعلى للآثار إلى حقيقة واقعة بعد سنوات قلائل.

وكما أشرنا آنفًا فإن المكان في البداية كان شارعًا لمرور السيارات. وتحول في عام ١٩٨٤ إلى استخدام المشاة فقط. ولم يكن هناك في ذلك الوقت سور يحيط بالمكان، كما لم تكن هناك بوابات يمكن غلقها. ولقد كان ملفتًا للنظر تمامًا أنه مكان عام، ومفتوح، ويمكن الوصول إليه للكافة ويقع بالقرب من أكثر الآثار الإسلامية

تميزًا في التاريخ. لقد كان ببساطة حلمًا يصعب تصديقه. ويتصور بعض المسئولين، بطريقة أو بأخرى أن السكان يشكلون مصدر "تهديد"، وقاموا في سنوات التسعينيات بتشييد سور به بوابات ويحيط بالموقع بأكمله. وعلى الرغم من ذلك، تُركت البوابات مفتوحة، وبذلك كان يُسمح باستخدامه كطريق للمشاة، وأن يستخدم كمأوى للسيارات كما وصفنا من قبل. وعلى الرغم من ذلك، فإنه في عام ٢٠٠٠ تم الانتهاء أخيرًا من عملية التحويل عن طريق إغلاق البوابة الجنوبية التي تقع بعد شارع محمد علي ووضع كشك لبيع تذاكر الدخول أمام مدخل البوابة الشمالية. ووضعت لافتات حول الموقع تعلن أنها "منطقة أثرية"، كما انتشر ضباط الشرطة بصورة مرئية أمام المدخل. وبذلك أصبح "المكان الحضري العام" والذي كان متاحًا ارتياده للكافة من خلال هذه الدلالات "المانعة"، "متحفًا". وفي نفس الوقت الذي يمكن فيه للمصريين الدخول بدون دفع رسوم، فإن إغلاق واحدة من البوابات أزال بطريقة مؤثرة وظيفة الطريق العام، والتي كانت واحدة من المكونات الأساسية التي خلقت نجاح هذا الشارع. وكبحت دلالات السلطة – من بوابة وضباط أمن ولوحات تعلن أن المنطقة أثرية – سياحية جماح رغبة العامة في ارتياد المكان والجلوس فيه.

واستوقفني رجل أمن أثناء زيارة قريبة لي في عام ٢٠٠٣، لاعتقاده أنني أجنبي (حيث كنت أحمل جهاز كاميرا ثمين). وسمح لي بالدخول بدون شراء تذكرة دخول، في حقيقة الأمر بمجرد أن أقنعته أنني مصري. وفي الداخل، كنت في منطقة من المفترض أنها "مطهرة" – تحققت عن طريق استبعاد كل من هو شعبي– أو المصريين "البلدي". وبذلك، أصبح المكان "ميتًا" تنقصه الحيوية التي يخلقها البشر فقط. كان هذا الموقع في وقت من الأوقات يموج بالحياة، ومكانا يتفاعل فيه السائحون مع أولاد البلد، وحيث كانت تدور المناقشات بين أولاد البلد، ويتقابل المحبون، وربما كانت تمارس فيه أنشطة أخرى من نشاطات الحياة المعتادة،

وأصبح الآن مكانًا منفرًا. كما أصبحت المنطقة في وضعها الراهن مسرحًا يقوم فيه السائحون بالتقاط الصور وزيارة مدرسة السلطان حسن، ومتحفًا في الهواء الطلق بمعزل عن باقي مناطق القاهرة، وترنو بناظريها نحو تجارة السياحة العالمية.



سائحان يدلفان إلى الميدان من المدخل الوحيد المتاح إليه (تصوير ياسر الشتاوي)

خاتمة

شرعت في هذه الدراسة بملاحظات بسيطة عن استخدام المكان الحضري العام في القاهرة. وقد اكتشفت أثناء عملية البحث عن الأسباب الكامنة وراء نجاح هذا المكان، أن الناس قد أدركت قيمة هذا المكان لأنه يستجيب إلى أو (يحتضن) التقاليد الثقافية المتغيرة من خلال هيكله المادي. وبدلاً من تقديم قوالب تصميمات "إسلامية" و"عربية" نمطية، فإن المعماري لجأ إلى منهج أكثر حذقًا والتفافًا، مستلهمًا الأنماط الحضرية الأوروبية من ناحية (استخدام الشارع في المدن الإيطالية)، والتي تلبي رغبات الناس واحتياجاتهم بصفة أساسية، وهكذا تستجيب للحاجات المتغيرة والتقاليد الثقافية المتأصلة على حد سواء. وقد وجدت في نفس الوقت، وأثناء زيارات تالية أن التغيرات التي تحدث للمكان تعبر فقط عن انعكاسات للأحوال السياسية والاجتماعية في القاهرة. وتفسخ على وجه السرعة ما استُهل في بادئ الأمر كتجربة اجتماعية إلى رد فعل نمطي بدا فيه وكأنه ينظر لفقراء العامة كخطر داهم يجب احتواؤه والتغلب عليه. وبدأت فكرة إغلاق المكان والتي كانت تداعب العقول في أوائل سنوات الثمانينيات – وهي الحقبة التي تلت انفتاح المجتمع المصري على الغرب إبان حكم الرئيس السادات. وكان قد تم توقيع اتفاقية سلام مع إسرائيل وكانت هناك مشاعر مفعمة بالتفاؤل بأن البلاد مقبلة أخيرًا على السير في طريق الإصلاح والحداثة. وألقى اغتيال الرئيس السادات بغيومه على هذه المشاعر ولكن لفترة وجيزة، ونجح نظام مبارك وعلى جناح السرعة في إرساء أحاسيس الاستقرار والاستمرارية. وكان إغلاق الشارع أمام مرور السيارات وفتح أبوابه في البداية لسكان الحي انعكاسًا لذلك التفاؤل. ويرمز إلى الرغبة في التعايش المشترك والذي يكون فيه عامة الشعب جزءًا من أي جهد للتنمية. وتدهورت الأمور بسرعة، على أي حال – حيث شهدت سنوات الثمانينيات

والتسعينيات تصاعد المد الإرهابي في مصر – والقاهرة – وأضحت هدفًا لهجمات لا هوادة فيها من الأصوليين. وشرع المسئولون تحقيقًا لرغبتهم الدفينة في حماية السائحين من أي تهديدات محتملة وعلى وجه السرعة في سلسلة من الإجراءات الأمنية. وكانت هذه الإجراءات تتضمن بطبيعة الحال الإغلاق الكامل لميدان الرفاعي/ السلطان حسن وإلغاء دوره كطريق ومكان لتردد السكان. ويعتبر هذا، على أي حال، تفسيرًا واحدًا فقط.

كما أن التغييرات في الميدان استجابة إلى الظروف والاتجاهات العالمية والتي تتحول بموجبها العديد من الأماكن العامة الجذابة داخل المدينة إلى مجتمعات مغلقة ذات أسوار سواء من خلال تشييد أسوار، أو من خلال وجود إشارات مانعة، أو الإقامة في مواقع نائية، كما ذُكر آنفًا في مقدمة هذا الكتاب. وكما ذكر تقرير حديث للأمم المتحدة عن العولمة، إنها جهود تستهدف "إحاطة البعض بالأسوار، والإبقاء على الآخرين خارجها" (برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية ٢٠٠١، ٣٠ – وللمزيد من التفاصيل يمكنك الرجوع إلى الشنشاوي ٢٠٠٤).

ويبدو أن العديد من التطورات في القاهرة قد حذت حذو هذه النزعة والتي تضمنت سلسلة من التجمعات السكنية ذات الأسوار المُغلقة والتي تُلبي حاجات الأثرياء – مدينة السادس من أكتوبر وتطوير منطقة القطامية، والتي أُطلق عليها مسمى "القاهرة الجديدة" (الرجوع إلى الجزء الخاص بدنيس في الفصل الخاص دنيس/ فيجنال في هذا الكتاب للمزيد في هذا الشأن). والأكثر ملاءمة لهذا البحث هو تطوير حديقة الأزهر، والتي تقع على حافة القاهرة التاريخية بالقرب من جامعة الأزهر. وتم تحويل البقعة، والتي كانت في السابق مكانًا لتفريغ القمامة، إلى حديقة، تم تصميمها بعناية فائقة لتكون حديقة غنّاء. وكان المشروع الذي تم تمويله بواسطة مؤسسة أغا خان للتنمية يستهدف أن يكون واحة خضراء ليس فقط لأهل

القاهرة على وجه العموم، ولكن أيضًا لقاطني منطقة الدرب الأحمر (حي لذوي الدخل المحدود). وأحيطت الحديقة – وهذا ليس مدعاة للدهشة – بسياج كما تم تأمينه بحراس للأمن. ويخطط المسئولون لفرض أجر رمزي للمداخل الموجودة ناحية حي الدرب الأحمر، بينما يدفع الآخرون الذين يدخلون من ناحية شارع صلاح سالم رسومًا أعلى. ولا توحي الأحداث الجارية في القاهرة، مثل التطورات الحادثة في ميدان الرفاعي والسلطان حسن، بأن مثل هذه الإجراءات غير الناضجة التي تشي بالمساواة يمكن أن تستمر – وبالتالي فإن إحاطة الأماكن العامة في القاهرة بالأسوار والبوابات المغلقة، في واقع الأمر، سوف يستمر.

الأعمال المُستشهد بها

Works Cited

Abu-Lughod, Janet. 1971. *Cairo: 1001 Years of the City Victorious*. Princeton: Princeton University Press.

Alexander, Christopher, Sara Ishikawa, Murray Silverstein, Max Jacobson, Ingrid Fiksdahl-King, Shlomo Angel. 1977. *A Pattern Language*. New York: Oxford University Press.

Elsheshtawy, Yasser. 1996. "Tradition, Change and Street Encounters: The Case of Two Pedestrian Streets in Cairo, Egypt." Ph.D. dissertation, University of Wisconsin-Milwaukee.

_____. 2000. "Nineteenth-century Globalization: Tansforming the Historic Center of Cairo." *IASTE: Working Paper Series, Volume 125. Preservation, Transformation and the Making of Place*. Berkeley: University of California, Berkeley.

_____. ed. 2004. *Planning the Middle East City: An Urban Kaleidoscope in a Globalizing World*. London: Routledge.

Al-Harithy, Howyda N. 1996. "The Complex of Sultan Hasan in Cairo: Reading between the Lines." In *Muqarnas: an Annual on the Visual Culture of the Islamic World*, vol. 13, ed. Gülru Necipoglu, 68–79. Leiden: E.J. Brill.

"al-'Id: intilaq wa-bahga." 1995. *al-Ahram*, 7 March.

Jacobs, Jane. 1961. *The Death and Life of Great American Cities*. New York: Random House.

Krauss, Joseph. 2004. "Green Acres: In a Concrete Heavy City, Landscapers Hope Al-Azhar Park will Help Unearth a Greener Cairo." *Business Today*, August, 36–38.

Marcuse, Peter, and Robert van Kempen. 2000. *Globalizing Cities: A New Spatial Order?* Massachusetts: Blackwell Publishers.

Rapoport, Amos. 1989. "On the Attributes of Tradition." In *Dwellings, Settlements and Traditions: Cross-cultural Perspectives*, eds. Jean Paul Bourdier and Nezar AlSayyad, 77–105. Lanham, Md.: University Press of America.

Sassen, Saskia. 2001. *The Global City*. Princeton: Princeton University Press.

Singerman, Diane. 1995. *Avenues of Participation: Family, Politics, and Networks in Urban Quarters of Cairo*. Princeton: Princeton University Press.

UN-Habitat. 2001. *Cities in a Globalizing World: Global Report on Human Settlements*. London: Earthscan Publications Ltd.

الفصل الحادى عشر

أهرام وحوارى
آليات العولمة واستراتيجيات محلية فى الجيزة

بيترا كوبينجر

تعتبر الجيزة مدينة نابضة بالحياة يقطنها أكثر من مليونى نسمة. وليس هذا بخبر جديد على المصريين، ولكن المدينة من المنظور الدولى وفى أغلب الأحيان يتم اختصارها فى بضعة كيلومترات مربعة تحيط بأهرام الجيزة. وليس هناك تناقضا مماثلا يحيط بصورة الشقيقة الكبرى للجيزة والتى تقبع على الجانب المقابل من نهر النيل، وهى القاهرة. ويعرفها قاطنوها والغرباء عنها على حد سواء كمركز عالمى متميز فى القرن الحادى والعشرين، وبقدر ما كانت مركزًا للعالم وللمنطقة زهاء ألف عام. وتتوارى الجيزة خلف ظلال أضواء القاهرة المبهرة. وتغوص الجيزة تمامًا فى قلب حاضرة مصر القاهرة الكبرى فى حقيقة الأمر، والتى تقع على الضفة الغربية مباشرة عبر نهر النيل من مركز عاصمة مصر. وكُتب القليل عن خصوصية وتعقيد حداثة عالمية وحضر الجيزة، والتى تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر وذلك عندما أتاحت تكنولوجيا بناء الكبارى الجديدة روابط أفضل بين ضفتى نهر النيل. واكتسب النمو الحضرى للقاهرة دفعة غير مسبوقة فى السنوات الأولى من القرن العشرين وامتد عبر النهر الخالد إلى منطقة الجيزة. وكان يمكن أن تلقى المدينة الريفية القديمة، الجيزة، والتى كانت تقع فى

منطقة زراعية عبر نهر النيل إلى الجنوب قليلاً من وسط القاهرة الحديثة، وبسهولة مصير الكثير من نظرائها عبر العالم: وهو أن يتم التهامها واستيعابها بواسطة المدينة الضخمة، ويقتصر أن يتم إطلاق اسمها على إحدى المربعات السكنية فيها. ولكن الجيزة كتبت لها النجاة وبقيت على قيد الحياة كمركز لمحافظة الجيزة، ومقرًا للإدارة المحلية. وتقع الأهرام الشهيرة على بعد بضعة أميال إلى الغرب من قلب مدينة الجيزة. ولا توجد علاقة تاريخية بينها وبين المدينة المعاصرة الجيزة، وبالطبع تسبقها تاريخيًا. ولكن الأهرام تظل تُعرف باسم "أهرام الجيزة" وليس "أهرام القاهرة"[١]. وليست هذه الجزئية اللغوية بذات أهمية كبرى فى حد ذاتها، ولكنها تركت بصماتها فى خلق الجيزة الحديثة، ولا تزال تؤثر فى تشييد النهضة العمرانية والآراء المختلفة فى الأماكن العامة بالجيزة. وتتمدد القاهرة بوتيرة متسارعة عبر المائة والخمسين عامًا الأخيرة، كما أن قوة الجاذبية للأهرام عامل أساسى فى تاريخ الجيزة الحديثة. وقد شكلت الأهرام نقطة مثيرة للاهتمام للسياحة فى الحقبة الاستعمارية وما بعدها، وفى المعتقدات الثقافية للغرب، والتنمية الوطنية والمشروعات التى تقوم بها الدولة، فضلاً عن اهتمام الدوائر المالية العالمية. وتشكل القصتان- الأولى عن مدينة الجيزة واندماج القرى المحيطة بها فى حاضرة عالمية، والثانية عن الأهرام كرمز للاستعمار ومن ثم السياحة العالمية – هيكل هذا الفصل الذى يقوم بإلقاء الأضواء الكاشفة على مشهد المدينة الحضرى.

وسأقوم فى هذا الفصل باستعراض موقعين فى مدينة الجيزة – هضبة الهرم، والحى الحضرى الصغير الذى تقطنه حفنة من الفقراء وهو الطيبين – من أجل تصوير آليات الأماكن العامة المحلية والعالمية[٢]. فإذا ما وضعنا المكانين جنبًا إلى جنب موضع المقارنة فيمكننى أن أُبين كيف أن التحولات المكانية والممارسات اليومية الضاربة جذورها فى البرامج المحلية والتاريخية العالمية،

والسياسية والاجتماعية المتفاوتة والمسارات التى تحدد كلا المكانين بشكل مختلف عن الآخر. وبينما تتشابه الآليات التاريخية والمكانية الكبرى لكلا المكانين، فإن ما يبرر الاختلاف فى الظواهر المكانية الناتجة هو الوزن النسبى لمصالح وقوى سياسية واجتماعية خاصة. ومع إعادة تنظيم الرأسمالية العالمية، وبصفة خاصة صناعة السياحة العالمية، فإن مواقع مثل أهرام الجيزة استعصت بشكل متزايد على السيطرة المحلية بمفردها، فاجتذبت السياسات العالمية والمصالح المالية. وأصبحت الأسس المنطقية للسياحة تشغل مركزًا حيويًا فى السياسات والقرارات المكانية. وانتزعت، نتيجة لذلك، مثل هذه المواقع اقتصاديًا وثقافيًا من مواضعها ونُقلت إلى حيز العالمية. وتحولت مثل هذه الأماكن العالمية إلى رموز عالمية يتم استثمارها للعديد من الأغراض الاقتصادية والسياسية. ويتم اتخاذ القرارات بشأن مستقبلها على الصعيد العالمى بطريقة متزايدة بواسطة الجهات والمؤسسات الفاعلة على الصعيد العالمى، بالإضافة إلى جهات وطنيه ومحلية فاعلة ترتب لنفسها لأقصى استفادة ممكنة فى هذا السياق. وتعتبر الأهرام والضواحى التى تحيط بها هى محـــور تـــركيز المصالح الخارجية وتتسم بفرط الاستجابة للتحولات العالمية بشكل كبير.

وعلى النقيض من ذلك، لا تشارك الأماكن العامة غير المرئية لجماهير المهتمين من جميع أنحاء العالم، حتى ولو كانت تقع قريبة جدًا من المواقع السياحية فى الكثير من هذه التحولات. ومع ذلك فإن هذه الأماكن غير المرئية مُعرضة لآليات العولمة وتستجيب إليها بطريقتها الخاصة. وتشكل مبررات السكان وأفكارهم هذه العملية من خلق المكان. بتحليل منطقة الطيبين والتى تقع على بعد كيلومترات قليلة من الأهرام، فإننى أؤكد بالدليل أن آليات العولمة تقوم بتحديد الخطوط العريضة على نفس المسرح والذى يقوم فيه السكان المحليون ببناء الحياة وتشييد الأماكن. ولا يمكن المقابلة بين العالمى والمحلى كنقيضين ببساطة؛ فهما

يرتبطان معًا بطريقة معقدة، ويشكل كل منهما، حقًا، جزءا لا يتجزأ من الآخر (الصياد ٢٠٠١).

الأهرام ومنطق السياحة

أصبحت موضوعات الملكية والسيطرة على مواقع سياحية معينة مرتبطة معًا بصلة وثيقة نظرًا للتأثيرات الثقافية والاقتصادية الهائلة لسياحة الأهرام الحديثة. وتقوم مصطلحات من قبيل "التراث الإنساني"، و"عجائب الدنيا"، و"حضارة العالم"، بصفة رمزية بنقل ملكية الآثار من بيئتها الجغرافية المحددة، ومن المدينة التى تعيش فيها، أو الأمة والدولة التى تستضيفها إلى "العالم" أجمع ***Lowenthal 1988;Nuryanti 1996***. وقد تم تصنيف الأهرام "كتراث إنساني" بواسطة هيئة اليونسكو فى عام ١٩٧٩. ويمثل هذا التحديد للهوية اهتمامات مجتمع مدنى عالمى حديث ومحدد. ولأن ممثلى هذا المجتمع العالمى يملكون ناصية سلطة سياسية واقتصادية عالمية بالغة الضخامة، فإن حقيقة أنهم لا يمثلون كافة الشرائح الإنسانية بأسرها بطريقة مباشرة أو مسئولة غالبًا ما لا يتم تفنيدها[٣].



راكب يسير بمفرده فى ساعات الصباح الباكرة (تصوير جين بيير ريبير)

وقد ترسخ الافتتان الغربى الحديث بالأهرام فى عصر التنوير الأوروبى. وقد صاغ المفكرون نموذجًا جديدًا للتاريخ بداية من القرن الثامن، والتقدم الحضارى الأحادى الجانب، وبلغ ذروته بالحضارة الأوروبية الحديثة. وأصبحت الحضارات القديمة تمثل الأسلاف الناقلين لحضارة إنسانية وحيدة؛ وتم تخصيص الحضارة المصرية الفرعونية للقيام بهذا الدور الجليل كمهد للحضارة. وارتبط هذا الفهم التاريخى الجديد فى أوروبا بتوافر القدرات المالية وإمكانيات السفر تمثلت فى حدوث طفرة هائلة فى السفر إلى مصر، وإلى الأهرام بصفة خاصة ***Kuppinger 1998, 107***. وبينما تنطبع الأهرام شيئًا فشيئًا فى أذهان النخبة والطبقات الشعبية فى أوروبا، فإنهم قاموا بإعادة رسم خريطة مناطق "التراث العالمي"، وشرعوا فى عملية طويلة يتم بمؤداها نشر فكرة عدم الارتباط بالأرض (خلق فكرة المجتمع المدنى الكوني) كما أصبح المكان أكثر خضوعًا واستجابة للآليات التى نشأت فى بقاع خارج حدوده الجغرافية، وأقل استجابة لمواجهات وإجراءات محلية.(٤) وقويت هذه المعانى الرمزية بحيازة أوروبا للتراث الإنسانى مع تقارير الرحالة والباحثين والتى تصف كيف أن المصريين المعاصرين لديهم القليل من الفهم أو التوقير لهذه الأعمال الرائعة لأسلافهم. وسيظل هذا الجهل، ودائمًا ما يشير من وجهة نظرهم إلى إلحاق أفدح الأضرار بهذه الآثار. ويتضمن ذلك مغزى أن السيطرة على هذه الآثار لا يجب أن تُترك للمصريين.(٥) وأدى ظهور ثورة فى النقل والاتصالات، ووسائل الإعلام بداية من القرن التاسع عشر إلى تمكن أثرياء أوروبا (ومؤخرًا الأمريكيين) من استكشاف العالم بواسطة السفن، والقطارات، ووسائل الإعلام المطبوعة، وبعدها صناعة الأفلام. ونتيجة لذلك، فقد بزغت مشاعر جديدة بحيازة هذه الآثار لم تعتد تستند فقط على العلاقات المكانية المباشرة، ولكن بعض مظاهر الحيازة الرمزية لهذه الآثار قد بدت فى الصورة(٦).

وقد لعبت هذه الأحاسيس المتغيرة للمكان وحيازة التراث دورها فى المشروع الاستعمارى، والتى أضافت احتمالات جديدة للسفر والمطالبة بحيازة هذا التراث. وبينما كان الباحثون يحلمون رمزيًا بالسيطرة على الأهرام، فإن القوة المسلحة، والسيطرة الاستعمارية حولت ذلك الحلم إلى حقيقة وحشية واقعة. وعندما سقطت مصر تحت الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢، فإن الأهرام أصبحت أكثر من حيازة استعمارية، فقد "تم اعتبارها امتدادًا إقليميًا سابقًا لأوروبا" ***Kuppinger 1998, 107***. لقد "عادت" الأهرام إلى ملاكها الحقيقيين. وقامت الجيوش الاستعمارية والسائحين فى (حقبة ما بعد الاستعمار) بالعمل الإضافى المهم وهو حفر آثار أقدامهم كنوع من شبه – الملكية المادية على الأهرام. لقد قاموا بتعزيز واستمرار تقوية الادعاءات بالملكية الرمزية.

ومع ذلك، فإن تحقق هذه المشروعات كان ولا يزال مرتبطًا بالسياقات المحلية للعاملين، والمجتمعات السكانية، وهياكل، ومصالح، وآليات السياسة. وتربط هذه العناصر الأهرام بالأجزاء الأخرى من الجيزة، وهياكلها وميراثها التاريخى، والثقافى، والسياسى. وتوصل هذه الروابط الأهرام فى الخصوصية المحلية، وتجعل ما يبدو "عدم الارتباط بالأرض" أو عالمية الموقع أكثر تعقيدًا.

الطيبين ومنطق الحياة اليومية

تعتبــر الطيبين مجتمعًا صغيــرًا فـــى وسط الجيزة. وهى ليست تقليدية، ولا تتسم بالعراقة أو الخلود. وكانت الطيبين ومنذ نشأتها، متأصلة الجذور فى عالم الحداثة المصرية البازغة. وبنيت عن طريق سيدة ثرية من أصحاب الأراضى حوالى عام ١٩١٥، وكانت الأجزاء القديمة من الحى تصور كقرية نموذجية. وتتوافر القليل من الأدلة عن السنوات الأولى للمجتمع والمخطط الفعلى لها، ولكننا

نعرف أن هذا التجمع قد تم تشييده كحل مبتكر قام به فرد للاستثمار فى الأفكار القومية المصرية وحداثتها *(Kuppinger 2000, 106; Reid 1991, 31)*. وكانت صاحبة الأرض ترغب فى توطين عمال أرضها بطريقة نظيفة ومنظمة، كما كان الكثير من أصحاب الأراضى يفعلون فى ذلك الوقت، وبتأثيرها بأفكار إصلاح الريف، وبناء الأمة الحديثة والتخطيط المكانى الرشيد ***Mosseri and Audebeau 1921; Lozach and Hug 1930***. وهكذا تأسس ذلك المجتمع ككيان للحداثة واستمر فى الوجود "ككيان حديث" فى الأساس بمعنى تجسيد الأفكار المُتخيلة فى سياق الابتكار الوطنى والعالمى (هناك المزيد من التفاصيل لاحقًا فى هذا الفصل).

وهكذا، توطدت أركان هذا المجتمع كموطن نموذجى حديث، للفلاحين والعمال الذين عمدوا إلى تغيير استخدام المكان بطرق جديدة غير ما رمى إليه أولئك الذين قاموا بالتخطيط لمجتمعهم منذ البداية. وقاموا اعتمادًا على التقاليد المحلية والحصافة، بإعادة صنع مجتمعهم بما يتواءم مع احتياجاتهم، وإعادة تخصيص المكان السابق تخطيطه طبقًا لثقافتهم. وليس موضوعنا هنا هو كيف حدث ذلك بالضبط؛ وما يهمنا هو أنه كانت هناك العديد من القوى الضاغطة، وغالبًا قوى متعارضة كانت كلها تؤثر منذ البداية على مجتمع الطيبين. وبوفاة صاحبة الأرض، توقف التخطيط الحديث والسيطرة الخارجية على المجتمع بشكل كبير. وتُرك السكان ليقوموا بإعادة تركيب مجتمعهم بالرؤية التى تحلو لهم، ولكن تلك الرؤية كانت مضبوطة بإحكام بالإطار الأكبر والذى سبق تحديده للمدينة الناشئة.

وكنتيجة للارتفاع فى أسعار العقارات، فى سنوات العشرينيات من القرن العشرين والتدافع نحو قطع الأراضى المتميزة أمام نهر النيل والذى صاحب توسع مدينة القاهرة تجاه الجيزة، فإن قرية كانت تقع على نهر النيل فى موقع غير بعيد

عن الطيبين قد أُعيد توطينها بجانب ذلك المجتمع النموذجي. وازدادت الطيبين في الحجم عدة مرات. وبينما بدأت الأراضي الزراعية في التلاشي، فإن المجتمع الجديد الآخذ في النمو قد تحول ببطء عبر العقود التالية إلى حي للطبقة العمالية. وبدأ العديد من الرجال في العمل بالمصانع الجديدة على أطراف الحضر، مثل إمبابة على سبيل المثال. وتحول الآخرون إلى أعمال الخدمات مثل بيع الصحف، أو كما حدث في أوقات أحدث، كسائقي تاكسي أو العمل في إصلاح السيارات. وتمثل الحياة كما تكشفت عبر التسعين عامًا الماضية في الطيبين تفاعلات معقدة بين قـوى حضرية، ووطنية، وعالمية، واستجابات السكان المُتخيلة في سياق التقاليد والحصافة.

مسارات منفصلة ومتشابكة: الأهرام والطيبين

ظلت الأهرام شامخة طوال ما يقرب من خمسة آلاف عام. ولكن الطيبين لم يكن يتجاوز عمرها سوى أقل من مائة عام. وكان هناك مجتمع عشوائي على تلك الأرض، ولكن حتى ذلك الحي العشوائي لا يعود تاريخه إلى أكثر من سنوات السبعينيات في القرن التاسع عشر. ولا تملك الطيبين تاريخًا طويلاً، ولكن الجيزة لديها هذا التاريخ الطويل بقراها القديمة وسكانها من الفلاحين. وتتأصل التأثيرات على التغيرات المكانية للطيبين في ريف الجيزة، كما أن مصيرها الحالي يرتبط بالأحياء العمالية الأخرى بالقاهرة الكبرى. ويمكن أن تمدنا المقارنة بين الأهرام وبين الطيبين، وعلى الرغم من الفارق الكبير بين عمريهما، برؤى عن تكوين الجيزة والقاهرة. وسننتقل بين الموضعين السابقين في باقي هذا الفصل جيئة وذهابًا من أجل تصوير أحداث وتحولات قد تبدو وكأنها لا علاقة بينها، وتصوير التفاعلات بين قوى عالمية، ووطنية ومحلية مؤثرة.

الأهرام: يعود اهتمام الأوربيين بمصر إلى فترة سابقة عن العصر الحديث. وهناك تقارير لرحالة، وتجار، وباحثين من أوروبا، غامروا بالسفر إلى مصر فى العصور الوسطى. وقد أعجب جيرار بوتشار القادم من ستراسبورغ (فرنسا) بحجم، وأسواق، والمنتجات الرفيعة لمدينة بابليون، وهو اسم قديم لمدينة رومانية قديمة على النيل بالقرب من المكان الذى قام فيه الفتح العربى بتأسيس مدينة القاهرة ***(Dopp 1950, 123)***. وتتحدث العديد من تقارير الأوروبيين فى العصور الوسطى بالكثير من الإعجاب عن روعة بابليون/ القاهرة، وتنوع سكانها، ومبانيها، وأسواقها، ومنتجاتها، وجيشها. وقد كتب هؤلاء الرحالة عن الكنائس، والأعياد، والزراعة، والتجارة، والموضوعات الثقافية، وفتنوا بالمدينة والحيوية التى تملأ مظاهر الحياة فيها ***(Dopp 1950, 1951, 1953)***. وكان بعض زائرى العصور الوسطى والذين قاموا بعبور نهر النيل لزيارة الأهرام أقل إعجابًا. وقد ذكر روبرتو دا سانسيفيرينو زيارته للأهرام فى عام ١٤٥٨ فقط بصورة عابرة. وذكر أنها تشبه مقبرة رومولوس فى روما، ولكنها أكبر بكثير***Dopp 1953, 97***. ولم يربط هؤلاء الرجال هوية الأهرام بحضارة عالمية ولم ينسبوا إليها أهمية تاريخية خاصة إليها. ولكن هذه الحقيقة تغيرت عبر القرون التالية.

ووصل سائحو الترفيه مع مطلع القرن الثامن عشر حاملين برامجهم المتضمنة استكشاف عظمة الأزمان الغابرة. وقد طالعوا فى العديد من الكتب والتى تتحدث عن مصر الفرعونية وهم يؤمنون بعصور الحضارة التى صورها مفكرو عصر التنوير فى أوروبا. وأعيد تصوير الأهرام كموضع لانبهار الأوروبيين. وأعيد تحديد هوية مصر كأصل للحضارة الأوروبية، وبدء الادعاء بتشكيل الحضارة، وأوج التقدم الإنسانى. ومن الناحية السياسية، فإن التحضر الأوروبى كان يطمح إلى الوصــول إلــى العالمية والهيمنة الاستعمارية عبر قارات الدنيا.

وقد لعب السائحون الجدد، وبدون قصد، دورًا فى المشروع الأكبر لسعى أوروبا للقوة السياسية، والثقافية والاقتصادية. واستبدل الإعجاب المبكر فى البداية بالقاهرة كمركز مهم للتجارة البشرية، والتطور الحضارى، والحضارة، بلغة جديدة تتوافق مع المهمة الاستعمارية الجديدة لأوروبا والتى وضعت مصر فى نواياها الدفينة.

قرى الجيزة: قد ميّز صعود واندثار السلالات الحاكمة والحكومات حياة أهل القرى فى الجيزة لقرون عديدة بحلول أواخر القرن الثامن عشر. وكانت القرى يتم بناؤها أو هجرها اعتمادًا على الظروف السياسية إلى حد كبير، حيث يتم تعزيزها وإدارتها بمزيج معقد ومتغير من جباة الضرائب الزراعية، وملاك الأراضى الزراعية، والأوقاف الدينية، وأراض مستأجرة شبه – خاصة ***Cuno 1994; Al Damurdashi 1991***. وجلب الغزو الفرنسى فى عام ١٧٩٨، المزيد من الخراب واليأس لهذه القرى، والتى كانت تقاسى بالفعل فى ظل صراعات المماليك فى أواخر القرن الثامن عشر. وعندما ألحقت جيوش نابليون الهزيمة بقوات المماليك على مشارف إمبابة، على بعد بضعة كيلومترات من مدينة الجيزة، فإن القرى المجاورة دخلت حلبة الصراع العالمى للمد الاستعمارى. وقامت القوات المتحاربة فى السنوات القليلة التالية بنهب القرى وسرقة المحاصيل والثروة الحيوانية الداجنة (الجبرتى ١٩٩٤).

الأهرام: لم يكن نابليون يغزو مصر، ولكنه كما كان يرى ببساطة، فى مهمة حضارية. وكانت قواته تضم أكاديمية كاملة من الباحثين لغرض تنفيذ هذه المهمة، وتسجيل وتصنيف، كل بقعة فى مصر، وسكانها، وثقافاتهم، وفنونهم المعمارية، وزراعاتهم، والحياة الحيوانية والنباتية. وكانت مهمة رسم خريطة لمصر القديمة من أهم ركائز هذا المشروع. وتدفق الباحثون المصاحبون لنابليون نحو الآثار الفرعونية يحاولون وصفها، وفك شفراتها، وقياسها، والاستحواذ على الملكية

الثقافية للمقابر، والمعابد، والمنجزات الأخرى، وبالحرف الواحد، فإنهم قاموا بنهب وشحن كميات ضخمة من القطع الأثرية(٧). وعلى الرغم من أن القوات الفرنسية قد هُزمت، وانسحبوا بعد بضع سنوات قلائل، فإن موضوع الحيازة الثقافية للأهرام قد ترسخت فى عقولهم. وعندما كانت مصر تحت حكم أسرة محمد على، فإن الأهرام دخلت إلى مسارها التاريخى الخاص بينما يزداد تدفق الوافدين الذين يقومون بزيارة مصر والأهرام ***(Legh 1816, 22; Wiemken 1963, 213)***.

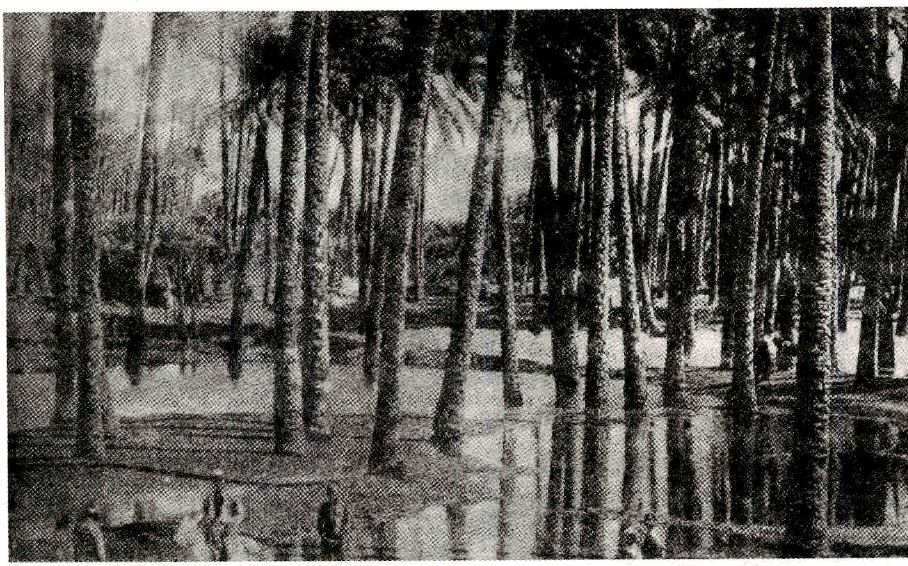
وعسكر عالم المصريات الألمانى ريتشارد ليبسوس بجوار الأهرام من أكتوبر ١٨٤٢ وحتى يناير ١٨٤٣. وقام بدراسة الأهرام والمقابر المحيطة بها بينما كان فى بعثة استكشافية مدتها ثلاث سنوات فى مصر ***(Scurla 1961, 340, 353)***. وكان يصطحب معه من ٤٠-٦٠ عاملاً فى مهمته بجوار الأهرام ***Lepsius 1961, 363, 365***. وليس من الواضح عما إذا كان ليبسوس يحمل تصريحًا بعمله هذا أم لا؛ ولكنه ذكر فقط أنه رأى الباشا عدة مرات، وأنه "دائمًا ما كان يجده فى حالة مزاجية طيبة تجاه عمل بعثتنا الاستكشافية" ***(Lepsius 1961, 353)*** (٨). ولا يبدو واضحًا عما إذا كان يعنى بقوله الباشا الحاكم "محمد علي" أم غيره. وقام ليبسوس بإشعال نيران ضخمة على قمة الهرم الأكبر كمشهد احتفالى بعيد الميلاد، "وكمفاجأة أعدها لرفاقه" ***(Lepsius 1961, 367)***. اتخذ ليبسوس الشكل غريب الأطوار لمالك الأهرام والذى بدا بالنسبة له طبيعيًا تمامًا. شكل عالم مصريات ألمانى آخر وهو هنرى بروجش بعثة مماثلة من أجل دراسة المقابر المحيطة بالأهرام. كما أن "ميريت" قد عسكر مع رفيقه بجانب الأهرام "ومعه ما يلزمه من الخدم" ***(Brugsch 1961, 507-8)***. كما أن هنرى بروجش استخدم خرائط ليبسوس من أجل الدخول بسرعة إلى المقابر. وكلما تطورت كمية المعارف عن مصر القديمة، فإن ادعاءات الحيازة والحق فى حرية الدخول إلى هذه المواقع الأثرية كانت تزداد وضوحًا.

قرى الجيزة: وقد عززت بعض قرى الجيزة القديمة – مثل إمبابة، وبولاق الدكرور، وميت عقبة، والدقى – من مركزهم الجمعى (وليس بالضرورة للأسر الفردية) فى القرن التاسع عشر حيث أتاح لهم القرب من القاهرة تقوية مركزهم كموردين لمنتجاتهم لأسواق المدينة الممتدة. وخلقت الزيادة فى ملكية الأراضى الخاصة وشبه الخاصة، وظهور الحيازات الضخمة فى أيدى الأسرة الحاكمة، وما يتعلق بها من ظهور الزراعة الرأسمالية أعدادا متزايدة من الملكيات الكبيرة والتى قام فيها ملاك الأراضى بتوطين عمالهم فى مجتمعات خاصة، يُطلق عليها "العِزب" (مفردها عِزبة)[٩]. وكانت الطيبين هى إحدى هذه العِزب.



كارت بريدى من بواكير القرن العشرين غير معروف التاريخ (تصوير بيترا كويينجر)

الأهرام: منذ أواخر القرن التاسع عشر، عندما كانت معظم مساحة المشهد الحضرى للجيزة تغطيها الأراضى الزراعية، وشهدت الأهرام والمنطقة المحيطة بها تغيرات أزالتها رمزيا من البيئة التى تحيط بها مباشرة، وقامت بزيادة تأسيس وجودها على خريطة العقل الأوروبى. ويعتبر "فندق مينا هاوس" مستوطنة مبكرة تحت السيطرة الأوروبية[١٠]. وقد شُيد أول الأمر كمقر للصيد بواسطة الخديوى إسماعيل، وتم توسعة المبنى الأصلى ليفى بغرض استقبال الزائرين فى الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة افتتاح قناة السويس فى عام ١٨٦٩ ***(Nelson 1997, 7)***. وقامت شركة مصر للفنادق بشراء فندق مينا هاوس فى مطلع القرن العشرين، وقام على إدارتـــه القطـــب العصـــامى لصناعـــة الفنـــدقيـــة المصـــرية جورج نينجوفيتش ***Nelson 1997, 7; Kuppinger 2000, 161***. وكان مالكًا لمجموعة فنادق سافوى، وكونتيننتال، وفنادق حلوان، وقام بإضافة مينا هاوس لمجموعته والتى كانت تُعد من أفضل فنادق القاهرة.



كارت بريدى من بواكير القرن العشرين غير معروف التاريخ (تصوير بيترا كويينجر) .

الطيبين: قررت سيدة من أصحاب الأراضى فى حوالى عام ١٩١٥ أن يعيش عمالها فى بيئة أكثر نظامًا. وكان هؤلاء العمال يقيمون على الأرجح فى منازل قاموا ببنائها بأنفسهم خارج بوابات العزبة. وقد تهدمت هذه العزبة القديمة، وتم تخصيص منزل لكل أسرة من هذه الأربعين أسرة فى العزبة الجديدة. وقد عكس المجتمع الجديد بمساراته المستقيمة والزوايا المنضبطة أفكار الهندسة الاجتماعية والإشراف عليها. وكان يتم السماح لأسرة واحدة فقط فى المعيشة فى الوحدة السكنية الواحدة. ولم يكن يُسمح لمستأجرين بأن يختلطوا بأفراد الأسرة. وكانت الوحدات السكنية تُمنح لأفراد الأسرة المباشرة دون الامتداد العائلى تعبيرًا عن الحداثة، والتصميم الانضباطى الصارم. وكان تخطيط المساحات للمنازل الممنوحة تشمل مساحات مستقلة للماشية والدواجن، والأدوات الزراعية، وأماكن للمعيشة (لنماذج أكثر تفصيلاً، يرجى الرجوع إلى ***(Lozach and Hug 1930, 129)***. وكانت الطرقات المستقيمة تسمح بمراقبة السكان. وكانت للطيبين وحدة إشراف مـــركزية واحدة فى موقع متوسط، ولكن لا بوابات أخرى أو حراسة، وخلافًا لأنماط القرى الأخرى والتى عليها عدة بوابات ووحدة إشراف مركزية للدخول ***(Lozach and Hug 1930, 51)***. وكان التصميم المادى والاجتماعى للعزبة متجذرًا فى إطار الأيديولوجية للقومية البازغة، والتى كانت تنظر للفلاحين كثروة وروح مصر(١١). إذا ما استوطن هؤلاء الفلاحون فى حالة معقولة من الحياة الصحية والعمل المنتج، فإنه يتم ضمان قوة مصر واستقلالها. ولم يكن تشييد الطيبين مجرد فكرة عابرة لمالكة أرض مطبوعة على حب الخير، ولكنها كانت تعكس أفكارا وطنية على نطاق أوسع. وكان وفاة السيدة فى عام ١٩٢٠ يعنى وفاة الإشراف المباشر على المشروع. وخضعت الطيبين لتحولات كانت من تصميم قاطنيها أنفسهم على الأرجح، وذلك فى استجابة للضغوط على الأرض الموجودة، كما

انعكس فى إضافة قطعة ثانية وأكبر من الأرض فى سنوات العشرينيات من القرن العشرين. وبدأت الأسر الأربعون الأولى فى قبول مستأجرين جدد، وتقسيم المساحات، وضم المساحات المخصصة فى السابق للحيوانات والأدوات الزراعية، وذلك من أجل خلق المزيد من المساحات لأماكن المعيشة.

الأهرام: كان فندق مينا هاوس يوصف دائمًا فى السنوات الأولى من القرن العشرين، بأنه فندق أنيق يضم وسائل ترفيه من الطراز الأول ووسائل راحة شامخة. وكانت حفلات الرقص والشاى التى تقام فيه تتصدر صفحة الاجتماعيات فى صحيفة الإيجيبشيان جازيت، الصحيفة التى أسسها المستعمر. وكانت الجاذبية التى لا مثيل لها لفندق مينا هاوس تتمثل فى موقعه تحت سفح الأهرام مباشرة. وكتب أحد المشاهدين بتاريخ ١٩ فبراير ١٩٠٠ يقول:

> **إنه من الصعوبة بمكان أن تجد مكانا أكثر بهجة وإمتاعًا أكثر من أن تسترخى فى مينا هاوس. وتبدو تلك الكتل الشامخة التى ترتفع فى مهابة كالجبال بالقرب منه وكأنها تُغرى بالاسترخاء. ثم أيضًا، الجلوس فى الصحراء مع الأهرام عوضًا عن الصحبة، وسيكون من المحال لأى كائن حى ذى أحاسيس معتادة ألا يكون واعيًا لعبق العصور الغابرة والمحيطة بها.**

كانت السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى، وعلى الرغم من الأزمة الاقتصادية التى وقعت فى عام ١٩٠٧، بالغة السحر بالنسبة للنخبة فى الدول الاستعمارية، والمسافرين من الطبقة الراقية، والسائحين ***Margoliuth 1907; Loti 1909***. وكانت حياة النخبة الاجتماعية نابضة بالحياة، وتتطلع إلى أفضل وسائل

الراحة أكثر من أى وقت مضى (كويينجر، فى جزء تال من هذا الفصل). واستهل تشغيل خط عربات الترام والذى قام بربط منطقة الأهرام بالقاهرة عن طريق كوبرى قصر النيل فى أغسطس عام ١٩٠٠ (جريدة الإيجيبشيان جازيت عدد ٢ أغسطس ١٩٠٠). وأتاح ذلك إمكانية سرعة الوصول إلى منطقة الأهرام وجعل من فندق مينا هاوس مقصدًا يسيرًا لزائريه فى فترة ما بعد الظهيرة. وازداد الطلب عليه، وأعلن بحلول عام ١٩٠٨ (أثناء فصل الشتاء) أن الترام سيغادر محطة الجزيرة كل ١٠ دقائق بعد ظهر أيام الآحاد بدلاً من كل نصف ساعة أو ساعة فى الأيام المعتادة (جريدة الإيجيبشيان جازيت عدد ٤ ديسمبر ١٩٠٨). وتلا ذلك توفير وسائل أخرى من وسائل الراحة. وكان قد أُضيف "حمام سباحة" فى عام ١٩٠٤ إلى الخدمات التى يقدمها الفندق (جريدة الإيجيبشيان جازيت عدد ١٨ إبريل ١٩٠٤) (١٢).

وبسرت البنية التحتية الجيدة السبيل إلى إضافة العديد من المنشآت الترفيهية. فقد تم افتتاح بار ومطعم فى منطقة الأهرام فى نوفمبر ١٩٠٤ (جريدة الإيجيبشيان جازيت عدد ٣ نوفمبر ١٩٠٤). "وتمت الموافقة على قرض يبلغ ٤٠٠٠ جنيه مصرى من أجل مد خط أنابيب المياه على طول الطريق لمنطقة الأهرام" فى عام ١٩٠٦ (جريدة الإيجيبشيان جازيت عدد ٢ أغسطس ١٩٠٦). واكتسبت العقارات على طول الطريق لمنطقة الأهرام جاذبية خاصة. وتملكت شركة أراضى البناء فى مصر عقارات على طول طريق الأهرام بلغت قيمتها ١٦٠٠٠ جنيه مصرى. وأصبحت الجيزة، وطريق الهرم بصفة خاصة جزءا من هوس البناء الذى ساد فى القاهرة فى بواكير القرن العشرين (جريدة الإيجيبشيان جازيت عدد ٣ أكتوبر ١٩٠٦؛ ١٤ ديسمبر ١٩٠٦) (١٣).

واستمرت عملية إضافة الملذات الحصرية للقاطنين والسائحين من المستعمرين على قدم وساق. فأضيفت، على سبيل المثال فى عام ١٩١٤ سيارات جديدة للشوارع، وتحسين سيارات الدرجة الأولى الموجودة بالفعل (جريدة الإيجيبشيان جازيت عدد ١٣ يناير ١٩١٤). وتمت زيادة قرض مصرفى مخصص لتوسيع شارع الهرم ليبلغ ١٤،٠٠٠ جنيه مصرى فى عام ١٩٣٠، وكان المخطط الأصلى للطريق يشمل "تقسيمه لأربعة أقسام. قسم للسيارات المتجه للأهرام، وآخر للسيارات العائدة، وقسم للترام، وآخر للدواب (جريدة الإيجيبشيان جازيت عدد ٨ فبراير ١٩٣٠) (١٤).

الطيبين: وبينما لم تكن لدى الطيبين حفلات تذكرية راقصة، ومع ذلك لم تكن تنقصها وسائل الترفيه. ويتذكر بعض قدامى السكان، على سبيل المثال، أنه بعد وفاة صاحبة الأرض فى عام ١٩٢٠ كانت أسرتها تقوم بإمدادهم باللحوم فى الأعياد الدينية. وكان يتم الاحتفال بالأعياد الدينية، وحفلات الخطوبة والزفاف فى أزقة الحى. كما كان السكان يشاركون فى الاحتفالات العامة الكبرى مثل زفاف الملك فاروق فى عام ١٩٣٩ (ثابت وفراج ١٩٩٣). وتتذكر إحدى السيدات أن والدتها اضطرت للانتظار ساعات طوال على إفريز الشارع من أجل مشاهدة موكب الرائع للسيارات والزوجين المتأنقين بجلال. وتذكرت سيدة أخرى استمتاعها برؤية الملك فاروق فى السنوات اللاحقة وهو يقترب من نادى الصيد الملكى فى الدقى، بالجيزة. وكان يمتلك العديد من السيارات، وكلها كانت حمراء اللون"، وأضافت قائلة "لقد اعتدنا الجلوس على الحشائش الخضراء ومتابعتهم وهم يمرون". وكان نادى الصيد لشغف الملك فاروق بالصيد، واحدا من أحب الأماكن إلـــى قلبه. وقد عمل بعض سكان الطيبين فى مطاعم النادى وبعض الأماكن الأخرى بها.

الأهرام: فتنت الأهرام كل الأوروبيين للعديد من الأسباب. فقد كانت تراودهم أحلام الربط بين الماضى والتكنولوجيا المتطورة، أو استخدام الأهرام كمكان للتجارب العلمية حيث يمكن تقديم التكنولوجيا المتقدمة بطريقة أكثر مدعاة للإعجاب على خلفية من الماضى التليد. "وتقدم جاك فوا، وهو مهندس شهير فى عام ١٩٠٦ بطلب إلى الحكومة للسماح له بتسيير سيارات كهربائية جوية مُعلقة من منطقة مينا هاوس إلى قمة هرم خوفو (جريدة الإيجيبشيان جازيت عدد ٢٨ نوفمبر ١٩٠٦). وبينما لم ير مشروع المهندس فوا النور على الإطلاق، فإنه من المثير للاهتمام أن نشير إلى أن المشروع جمع ما بين التجارب التكنولوجية وبنظرة ترنو إلى الأرباح المستقبلية، وهو التجميع الذى يتضمن الكثير من جوهر الاستثمار السياحى.

وكان بعض رواد الطيران الحديث أكثر نجاحًا فى إدراكهم للهيام الجامح الذى يحيط بالأهرام. ووفد العديد من رجال الطيران بطائراتهم لمصر فى يناير عام ١٩١٤. وبعد عمليات هبوط مثيرة فى مدن مثل الزقازيق وكفر الدوار، قام أحد الطيارين "بالطيران إلى مينا هاوس من مصر الجديدة... وبعد أن تناول طعام الغذاء فى الفندق قام بالطيران حول المخيمات البريطانية فى مينا هاوس وكذلك حول الأهرام" (جريدة الإيجيبشيان جازيت عدد ١٣ يناير ١٩١٤)(١٥).

الطيبين: بينما كانت النخبة من أفراد المستعمرين والسائحين الأجانب يستمتعون بالتكنولوجيا الجديدة مثل الإضاءة الكهربائية، والتليفونات، وأحواض السباحة، فإن الطيبين والأحياء الأخرى لم تكن مزودة بتوصيلات للميــاه النقيــة، أو الكهرباء أو خطوط التليفونات. كما أن الوصول إلى خدمات النقل، والاتصالات، ووسائل الراحة يستند على أساس الفروق العرقية، والطبقة التى ينتمى إليها، والموقع. وأصبحت الأهرام مرتبطة بالعالم بكل ما تعنيه الكلمة من

معنى. ولكن الطيبين لم تصبح مقطوعة الصلة تمامًا وذلك على الرغم من أوهى صلة فى علاقتها، وحُرمت الطيبين الارتباط بتلك المزايا. وكان سكان حى الطيبين يدركون إلى حد ما الخدمات ووسائل الراحة المتاحة لجيرانهم الجدد، لأن بعضهم كانوا يعملون فى المواقع السياحية الجديدة. ولم تكن تنقص أهل الطيبين البراعة التكنولوجية أو الأفكار الخلاقة مثلهم مثل السيد فوا الذى طار حول الأهرام. فقد قام أحد السكان المهرة والذى يتمتع بالبراعة بتشييد امتداد غير قانونى من ماسورة المياه العامة والموجودة خارج الحى إلى منزله، وذلك لإقامة صنبور مياه خاص به فى الثلاثينيات أو الأربعينيات. وكانت هذه خدمة جديدة استقبلت استقبالا طيبًا ونجح بها فى كسب القليل من النقود للأسرة من بيع المياه لباقى الجيران. وإن تم اكتشاف الأمر فى نهاية المطاف وإلغاء التوصيلات والصنبور بواسطة السلطات.

الأهرام: وبحلول عام ١٩٤٢ أصبحت حرب العلمين فى الصحراء الغربية لمصر مسرحًا لمعارك الحرب العالمية الثانية. واتجهت الأنظار العالمية مرة أخرى إلى مصر، عندما التقى تشرشل، وروزفلت، وتشانج كاى تشيك "تحت ظلال الأهرام" فى نوفمبر عام ١٩٤٣، وبعد عام واحد من هزيمة الألمان فى شمال غرب مصر (جريدة نيويورك تايمز عدد ١ ديسمبر ١٩٤٣، ٢٩). وتم إخلاء مينا هاوس من نزلائه بين عشية وضحاها على وجه التقريب، وذلك ليكون مقرًا للقيادة العامة للقوات البريطانية والأمريكية ***(Nelson 1997, 66)***. واجتمع "الأعداء الحاليون الكبار لليابان" من أجل مناقشة "استراتيجية الحرب والسلام فى المحيط الهادئ" ***(Nelson 1997, 66)***، ومن أجل تحديد مصير ألمانيا" (جريدة نيويورك تايمز ٦ ديسمبر ١٩٤٣، ٧). وواصل تشرشل وروزفلت رحلتيهما من مينا هاوس إلى طهران من أجل مقابلة ستالين. وبينما كان كل من القادة الثلاث يقيم فى فيلا مستقلة على مقربة من الأهرام، فقد كانت الاجتماعات تُعقد فى الفندق[١٦]. وتحول فندق مينا هاوس إلى مركز عالمى من الدرجة الأولى يقوم بتقديم كل الجوانب

الضرورية المطلوبة لضيافة قادة العالم من انتقالات، واتصالات، وأمن فى أكثر الأوقات صعوبة.

الطيبين: على الفور اندمجت الطيبين في مساندة المجهود الحربى البريطانى. وكان هناك معسكر ضخم للجيش البريطانى يقع على مقربة من الحى، وكانت تجتذب العاملين من الحى وما وراءه من الأحياء الأخرى. وجذب ذلك موجة من المستأجرين الجدد لحى الطيبين ولم يلق ذلك استقبالاً حسنًا تمامًا من قدامى السكان. ونما المجتمع فى أعداد السكان والكثافة حيث كانت تكلفة السكن فى الأحياء الحديثة مثل العجوزة والدقى أكبر من أن يتحملها العمال العاديون.



كارت بريدى من بواكير القرن العشرين غير معروف تاريخ إصداره
(تصوير بيترا كويينجر)

تعلم العمال الذين التحقوا بمعسكرات الجيش مهارات جديدة ونافعة مثل إصلاح الدراجات، واستغل بعض السكان هذه المهارات فيما بعد فى افتتاح ورش لإصلاح الدراجات بعد أن وضعت الحرب أوزارها. وتتبع أحد أفراد أسرة يقوم أحد أبنائها الصغار بإدارة محل للدراجات وحتى سنوات التسعينيات خبرة الأسرة فى مجال الدراجات إلى أحد أسلافهم والذى كان يعمل فى تلك المعسكرات. وأدركت بعض النسوة الفرص الاقتصادية الكامنة من وراء بيع الأطعمة الجاهزة وغيرها للمارة، مع الأعداد الكبيرة من العاملين والجنود والذين يرتحلون من وإلى المعسكر. وقامت بعض هؤلاء النسوة بإقامة مشروعات طعام مماثلة فى عام ١٩٢٨-٢٩ وذلك عندما كان المبنى الرئيسى لوزارة الزراعة تحت الإنشاء فى ذلك الموقع. وكان أهل الطيبين من الذكاء بتوقعهم بالاحتمالات الحضرية المنتظرة وسارعوا إلى الاستفادة منها.

الأهرام: شهدت سنوات الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين نمواً بطيئاً ولكن بثبات فى صناعة السياحة. وتم بناء فندق النيل هيلتون فى عام ١٩٥٨، على سبيل المثال ***(Gray 1998, 91)***. وقام الوكلاء التجاريون والأفراد فى الحقبة الناصرية بجهود رائدة لتحويل الأهرام إلى موقع عالمى للسياحة. فقد اكتشف عالم الآثار المصرى الشهير كمال الملاخ مراكب الشمس بالقرب من الهرم الأكبر فى عام ١٩٥٤ والتى فى نهاية المطاف أُحيطت بالمتحف الخاص بها ***Hawass 2001b; Nelson 1997, 119***. وصار أحمد أسعد، أول مدير مصرى لفندق مينا هاوس فى سنوات الستينيات ***(Nelson 1997, 111)*** كما كانت المطربة المصرية المعشوقة ورمز الوطنية أم كلثوم تتناول عشاءها بانتظام فى الفندق فى سنوات الستينيات[١٧].

وشهد "الرئيس جمال عبد الناصر، وصاحب السمو الملكى قسطنطين، الملك السابق لليونان، وما يقرب من ألفين من الضيوف ذائعى الصيت" العرض الأول للصوت والضوء بجوار تمثال أبو الهول *(Nelson 1997, 126)*. وفى تلك الليلة، وفى أوقات لا تحصى كل ليلة منذ تلك الليلة، أنارت مصابيح بقوة مائة ألف وات وجه أبو الهول وسطح الهرم، بينما ينطلق أبو الهول ليحكى قصته الخالدة. وأصبح العرض منذ ذلك الحين نقطة جذب رئيسية كل ليلة، تقوم بإعادة السائحين كل ليلة للمنطقة، بعد زيارتهم النهارية. وأصبحت السياحة ميزة هامة للاقتصاد الناصرى *(Gray 1998, 91)*.

الطيبين: تمخضت الأعوام التى تلت الحرب العالمية الثانية واستقلال مصر عن العديد من التحديات والفرص الواعدة للطيبين. وكان على باقى الفلاحين أن يهجروا مهنة الزراعة حيث التهم التمدد الحضرى ما تبقى من حقولهم فى سنوات الخمسينيات والستينيات. وواصل بعضهم الاعتماد على أعداد أكبر من الماشية، مثل الجواميس والأبقار. وسرعان ما أصبح ذلك أيضًا من المستحيل حيث لم يعد مربحًا لمورديها أن يقوموا بحمل كميات كبيرة من العلف للمدينة. وبحلول أوائل سنوات الستينيات انخفض عدد رؤوس الماشية إلى الأنواع الصغيرة التى يمكن أن تعيش فى الحضر كالماعز، والإوز، والبط، والدجاج. وأدت عجلة التصنيع الذى تقوده الحكومة، والترهل الذى أصاب البيروقراطية الحكومية إلى فقدان العمالة الزراعية. وانتقل رجل واحد، على سبيل المثال، للعمل من مجال الزراعة إلى مشتل تقوم بإدارته وزارة الزراعة. وعمل الآخرون كعمال يدويين وآخرون كحراس للعمارات فى القطاع الخاص، والأعمال الخاصة، والمنازل. كما أتاح التعليم العام للشباب منهم دخول مجال الروتين الحكومى وحتى المهن الحرة. كما آثر الآخرون البحث عن فرص خارج الحى. وقامت أسرة بإدارة محل للأجهزة فى

وسط المدينة. كما قامت أخرى بافتتاح محل لإصلاح الدراجات فى حى الأثرياء وهو الزمالك. وقام أحدهم بتأسيس موقع لبيع الصحف فى ركن متميز بوسط القاهرة. وغادر أكثرهم نجاحًا الحى بأكمله وانتقل إلى أى مكان آخر بالمدينة.

وبحلول سنوات الستينيات، ابتلعت القاهرة الكبرى الحى بأكمله واندمج السكان كلية فى الحياة والاقتصاد الحضرى. ولكن كلا من المدينة وإدارة الدولة لم تحتضنا الحى كوحدة واحدة لا تتجزأ من الحداثة الحضــرية. فقــد بقيت المنازل بلا كهرباء، ومياه نقيه، أو تليفونات طوال سنوات الستينيات. وبينما ليست هناك دلائل جازمة عن السبب فى عدم دمج هذا الحى على قدم المساواة فى البنية التحتية الحضرية، فيمكن للمرء أن يتكهن بأن التوجه العام السائد كان الاعتقاد بأن الأحياء الشعبية مثل الطيبين والأحياء المشابهة لها لم يكن مكتوبًا لها البقاء، ولذا فإنها لم تكن تستحق استثمارات طويلة الأجل للخدمات الحديثة من وجهة نظر المسئولين بالطبع. وبدأت هنا فى هذا السياق أن تكون "الأخرى"، وأن تكون خارج نطاق المكان فى المدينة. وأصبحت الطيبين بالنسبة لأولئك الذين هم خارج حدودها حيًا للفقراء وقذى للعين، ثم مؤخرًا حيًا عشوائيًا تبعًا للمصطلحات وطريقة الحديث السائدة (الوالى ١٩٩٣). ولكنها بالنسبة لقاطنيها كانت حيًا حضريًا معتادًا. ولكن غياب الخدمات الحضرية هو البرهان الماثل دائمًا أمام أعينهم ليُذكرهم بالوضع المحفوف بالخطر الذى يواجه الطيبين. فقد شهد سكانها كيف أن أحياء أخرى مماثلة قد أُزيلت من على وجه الأرض من أجل إقامة منشآت الدولة الحديثة وأحياء سكنية جديدة لآخرين[١٨].

وأحيطت الطيبين بحلول أواخر سنوات السبعينيات بالمبانى العامة والمساكن الخاصة. وبينما كان قاطنوها فى الماضى قادرين على الخروج من الحى متمهلين سيرًا على الأقدام من كل الاتجاهات إلى حقولهم، فقد أصبحوا الآن شبه منعزلين

ومحاطين بالأسوار التى شيدها جيرانهم الجدد المتعددون. واقتصر الدخول إلى الحى من ثلاث حارات ضيقة(١٩).

الأهرام: فى سنوات السبعينيات وتحت قيادة أنور السادات الذى شهد بداية عصر التحرر الاقتصادى والدخول إلى عالم الاقتصاد الرأسمالى العالمي(٢٠). كان التوسع الهائل فى النهضة السياحية ذا أهمية قصوى لمصر من أجل تعزيز اقتصاد مصر والسير به فى طريق العولمة ***(Gray 1998, 91)***(٢١). ومنذ أوائل الثمانينيات، ومستهل حكم الرئيس مبارك، فإن الكثير من الموارد الاقتصادية العامة والخاصة قد تم ضخها فى شرايين القطاع السياحى من أجل إحداث طفرة كبرى بها. وأضحت مصر الفرعونية وآثارها المهيبة هى العنصر التسويقى الوحيد والبارز لصناعة السياحة الجماعية فى مصر ***(Beirman 2001, 69)***. وكانت الأهرام هى رمز مصر الذى يضمن التقدير الفورى للمنتج السياحي(٢٢). وأصبح من الحتمى ومع وصول الآلاف من الأفواج السياحية إجراء تغييرات أكبر فى البنية التحتية المحلية للقطاع السياحى. وافتتحت العديد من الفنادق الجديدة فى طريق مصر الإسكندرية الصحراوى وعلى مقربة من شمال الأهرام.



قلب الجيزة كما يبدو من حى الزمالك (تصوير بيترا كويبنجر)

الطيبين: دشن التوجه المصرى الجديد تجاه الرأسمالية العالمية البدء فى مشروعات جديدة كما أفرزت العديد من الرؤى الحضرية الجديدة. ودفعت قلة الفراغات القابلة للبناء فى القاهرة والجيزة أسعار العقارات إلى مستويات عالية وغير مسبوقة. وأزيلت الفيلات القديمة والمبانى ذات الشقق الصغيرة لصالح البنايات الشاهقة التى تقع على النيل فى الأحياء الراقية مثل الزمالك والمعادى والمهندسين. (الجزء الخاص بدينيس فى الفصل الخاص بدينيس وفيجنال فى هذا الكتاب لتحليل مُفصل للآليات المتغيرة فى مجال العقارات، والاقتصاد، والأماكن العامة فى القاهرة). وبدت الطيبين أصغر حجمًا وخارج الزمان والمكان، بعد أن تقلصت إلى مشهد مضغوط بصفة متزايدة فى المدينة. وأصبحت التهديدات والشائعات التى ذاعت عن الإزالة الوشيكة للحى من الجوانب المتكررة فى حياة السكان. ويتذكر أبو رشاد، أحد الكهول من السكان مناسبة وحيدة، ربما كانت فى سنوات السبعينيات، عندما كان الحى مهددًا بالإزالة، وساد القلق بين السكان. وشعر السكان بأنهم مستهدفون بالظلم، وقاموا بتنظيم مسيرة إلى وزارة الزراعة من أجل الاحتجاج. ولما سألت أبو رشاد لماذا توجهتم إلى تلك الوزارة، وليس فى يدها شيء تفعله بشأن التخطيط العمرانى. "نعم بالطبع، ولكنها الوزارة الأقرب للطيبين". وجذبت جماهير السكان المتظاهرين انتباه كبار الموظفين فى الوزارة والذين دعوا الموظفين المسئولين للكف عن تنفيذ أوامر الهدم. وربما تكون هناك مبالغات فى جوانب الإدراك الشعبى لهذا الحدث؛ ولكن السكان قاموا بتأمين بقاء الحى على قيد الحياة. وتسرد أم إبراهيم رواية أخرى من روايات الإزالة فتقول، قامت الحكومة بإرسال الجرافات بالفعل عندما كان السكان – الكثير من النساء والرجال فى أعمالهم – واشتبك السكان وضباط البوليس فى معارك بالأيدى. وقيل إن بعض النساء قمن بضرب رجال الشرطة بالعصى. ومرة أخرى، وربما يتم تجميل

الأحداث ببعض الوقائع، لكن تظل الحقيقة الناصعة، أن السكان قد عاصروا الكثير من تهديدات الإزالة ، وصمدوا معًا، رجالاً ونساءً في مواجهة السلطات. وعندما يحتدم الجدال بشأن ماضي وحاضر تهديدات الإزالة، فإن واحدة من المصطلحات التي تتردد دائمًا في النقاش هي "الاستثمار". وذكر بعضهم في العديد من المناسبات أن الحي ستتم إزالته من أجل إفساح المجال أمام مشروعات الاستثمار. وذكرت واحدة من الشائعات التي كانت تدور أن فندقًا سياحيًا سيحل محل الطيبين.

وجعلت التغييرات العميقة التي حدثت في القاهرة الكبرى من أجل تحولها إلى مدينة عالمية موقف الطيبين محفوفًا بالمخاطر. وبدا الحي بوضوح في غير مكانه وزمانه. وبحلول سنوات الثمانينيات أصبح حي الطيبين معزولا تمامًا على وجه التقريب، ومختلفًا عن جيرته، وكأنهم قد قدموا متأخرين عن أقرانهم في مشهد الزمان والمكان. ولم تشفع لهم مدة الحيازة الطويلة في شيء. ويتم إدراج الطيبين ضمن فئة "العشوائيات"، مع الخطاب الجديد للدولة عن التجديد الحضري للعشوائيات، حيث إنه ليس مجتمعًا حديثًا تم تخطيطه بطريقة مناسبة (الوالي ١٩٩٣). والحقيقة الناصعة التي طواها النسيان هي أن سيدة مستنيرة من ملاك الأراضي قد قامت ببناء قلب هذا الحي من أربعين منزلاً في البداية كتجربة حديثة مبتكرة ووطنية متقدمة في علم الصحة الحضرية والهندسة الاجتماعية.

الأهرام: وقعت بعض الفنادق التي تم بناؤها في أوائل سنوات الثمانينيات ضحية للتوترات السياسية التي ظهرت حديثًا في مصر آنذاك. فقد قام المجندون من رجال الأمن المركزي في فبراير ١٩٨٦ بمظاهرات عنيفة إثر تناثر شائعات عن مد فترة تجنيدهم. وتدفقت هذه الوحدات شبه العسكرية خارجة من ثكناتها وقاموا بأعمال شغب وإخلال بالأمن، مستهدفين الفنادق القريبة وإحراقها (فندقا جولي فيل وهوليداي إن) التي تمثل الثروة والسلطة التي يفتقدونها. كما وضحت

بعض التيارات الدينية، فى نفس أعمال الشغب، حيث اتجه بعض الجنود إلى الملاهى الليلية والمنشآت المشابهة لها على طول شارع الهرم. وبينما اتخذت أعمال الشغب شارع الهرم كنقطة بداية لها، على الأرجح لأن ثكنات الجنود كانت قريبة منها، ومع ذلك فإن هذا الجانب المكانى له أهميته. وكانت الأهرام والأحياء المجاورة لها (الفنادق والملاهى الليلية) تعتبر من وجهة نظر البعض على الأقل، كأجنبية، وكرمز للثروة والهيمنة الخارجية. ولم تقلل النهاية السريع لأعمال الشغب لتلك المشاعر التى ستبدو مرة أخرى واضحة للعيان فى المستقبل (الأهرام ويكلى ٢٣-٢٩ سبتمبر ١٩٩٩؛ نيويورك تايمز ٢٦ فبراير ١٩٨٦).

الطيبين: ضرب القاهرة زلزال عنيف فى الساعة ٣,١٥ بعد ظهر يوم الأحد ١٢ أكتوبر ١٩٩٢. ولقى أكثر من خمسمائة شخص حتفهم فى منطقة الحاضرة بمفردها (جريدة الأخبار ١٨ أكتوبر ١٩٩٢). ولم تكن هناك أية خسائر فى الطيبين. ولكن الزلزال تسبب فى اضطرابات سياسية كبيرة، حيث كانت هناك أعداد كبيرة من الأطفال بين القتلى نتيجة للذعر والفرار الجماعى فى مبانى المدارس والتى اتضح أنها دون معايير البناء المطلوبة (جريدة الأخبار ٢٦ أكتوبر ١٩٩٢؛ الأهرام ويكلى ٥-١ نوفمبر ١٩٩٢). كما قُتل سبعون شخصًا فى سقوط بناية فخمة وشاهقة فى منطقة مصر الجديدة ولم تكن مالكتها قد التزمت بقوانين البناء (الإيجيبشيان جازيت ٢٢ أكتوبر ١٩٩٢؛ ٣ نوفمبر ١٩٩٢) [٢٣]. ووقعت أضرار ببعض المنازل فى حى الطيبين ولكن أيا منها لم يتهدم.

أدت حوادث الفساد وانتهاكات قوانين البناء إلى انتشار موجات غضب عارمة بين العامة فور وقوع الزلزال. وشكل ذلك جنبًا إلى جنب مع الصراعات السياسية المستمرة مع إسلاميين متشددين أهمية تاريخية فارقة. وأصبح ذا أهمية قصوى للحكومة أن تقوم بابتكار حلول سريعة. وتحول الجدال فى غضون بضعة

أسابيع، من المقاولين الفاسدين، ومسئولية الدولة والمحليات، وملاك الأراضى الجشعين، إلى تعريف ما هو العشوائى (غير الرسمى، وما تم بناؤه بالجهود الذاتية، وما تم بناؤه على أسس خاطئة)، والعشوائيات (الأحياء غير الرسمية) بصفته الجانى الأساسى لمشاكل المدينة *(Kuppinger 2001, 197)*. وحدد الخطاب الجديد "العشوائيات" بأنها أساس المشكلات الحضرية، لأنها كانت غير رسمية، ولأنها لا تراعى قوانين البناء الأساسية، ولأنها تحتضن فى بيئتها المادية غير المخططة الفوضى الاجتماعية والأنشطة الإجرامية[٢٤]. وكان منطقهم يتركز فى أن المدينة إذا ما تخلصت من هذه "الندوب الحضرية" فسوف تعود إلى الحياة المعتادة.[٢٥]

واندلعت المجادلات السياسية عن طريق هذه المناقشات على مستوى المدينة وعلى المستوى القومى وأثرت مباشرة على حى الطيبين. ولأن الحى كان يُنظر إليه منذ فترة طويلة وكأنه عفا عليه الزمان، ودائمًا ما كانت تجابهه تهديدات بالإزالة، فقد تأكد الكثير من السكان بأن نهاية مجتمعهم قد أزفت. وكانت الأيام والأسابيع التى تلت الزلزال قد تميزت بشيوع مشاعر الخوف وعدم الأمان. ووقعت مجادلات ساخنة بين السكان عما إذا كان يجب عليهم أو لا يجب تسجيل الأضرار التى لحقت بمبانيهم. وكانت المناقشات مدفوعة بالشائعات التى ترامت بأن الحى سوف يتم إزالته بالجرافات فى غضون أسابيع، وبالمناظر المُغرية التى بثها التليفزيون لضحايا الزلزال وهم ينتقلون إلى مساكن جديدة وجميلة. وهكذا أصبح واضحًا أمام السكان بأن تسجيل أضرار الزلزال أمر مقبول وتعاملوا بالقليل من الاهتمام مع الأضرار المادية الفعلية. وقد ذكر أحد السكان بأن أحد موظفى تسجيل الأضرار التى لحقت بالمبانى أبدى رأيه قائلاً له: "تصَور، أن ما لم نتمكن من فعله فى سنوات – وهو نقل الحى وسكانه – قام به الزلزال بكل سهولة" *(Kuppinger 2001, 192)*. كلما غادر أكثر الناس حى الطيبين كلما كان ذلك أفضل

للسلطات الحضرية. وتم نقل العائلات وإيواؤها فى مشروعات إسكانية جديدة فى أماكن أخرى بالقاهرة والجيزة بداية من أواخر شهر أكتوبر ١٩٩٢. وتبع ذلك رحلات نزوح جماعية طويلة توقفت فجأة فى ربيع عام ١٩٩٣. ولم يتسلم هؤلاء الذين تأخروا فى تسجيل الأضرار التى لحقت بمبانيهم شققا على الإطلاق حيث نفدت الشقق الجاهزة لدى السلطات.

وبينما أصاب الزلزال السكان بالرعب، بحيث بات بعدها الكثيرون منهم لعدة ليال خارج منازلهم، فإن التوابع السياسية أصابت الطيبين بأضرار أكثر. وبوصمها بالعشوائية فإن الطيبين قد شوهت سمعتها بدرجة أكبر وصورت كمشكلة محتملة وكعائق أمام التناغم الحضرى والوطنى للبلاد. وأصبحت على حين غرة، مكانًا خارج نطاق الطبيعة، ومصدر قلق ليس فقط لجيرانها القريبين، ولكن أيضًا لكل المدينة وكافة الأمة.

الأهرام: هز الغليان السياسى أرجاء مصر فى أوائل منتصف التسعينيات، حيث اشتبكت الجماعات الإسلامية المتشددة مع الشرطة والجيش فى مواجهات مسلحة، كما استهدفوا السائحين والمواقع السياحية من أجل إلحاق أفدح الأضرار بالاقتصاد والحكومة. وعندما حدث انفجار مزعوم داخل هرم خفرع فى ربيع عام ١٩٩٣، أصرت السلطات على أن الانفجار أو الضوضاء قد حدث نتيجة لعمليات التجديد (الأهرام ويكلى ١٨-٢٤ مارس ١٩٩٣). ووقعت بداية من عام ١٩٩٢ مواجهات دامية من الهجمات والهجمات المضادة بين الحكومة والمتشددين. ويُقدر "متى جراي" أن مصر قد خسرت فى الفترة من ١٩٩٢ - ١٩٩٥ فقط ما يقرب من بليون دولار أمريكى من عائدات قطاع السياحة نتيجة لهجمات المتشددين (١٩٩٨). ويعلن المسئولون بين الحين والآخر، ومنذ ذلك الوقت، أنهم قاموا بالقضاء تمامًا على المتشددين. ويستتبع ذلك هجوم آخر بمجرد هذا الإعلان.

وقامت مجموعة مسلحة من المتشددين بالهجوم على فوج سياحى يونانى خارج فندق أوروبا على شارع الهرم، وتسببت فى مقتل ثمانية عشر سائحا وجرح أربعة عشر آخرين (موسى ٢٠٠١).

الطيبين: تميزت الطيبين فى منتصف سنوات التسعينيات بالتحولات المادية والاجتماعية فى مجتمع الحى. وغادرها بضعة آلاف من السكان لمجتمعات إعادة التوطين بعد الزلزال. وكانت المناقشات عن المغادرة أو البقاء لا نهاية لها فى أفضل الظروف. وبينما غادرها الشباب تحدوهم آمال عظيمة، فإن الكبار غادروها وقلوبهم تتمزق، والواقع أن الكثيرين من الكبار عادوا مرة أخرى إلى حجراتهم القديمة. فقد كانت المجتمعات الجديدة غريبة ومنعزلة جدًا بالنسبة لهم. وقام القليل من الملاك الغائبين بهدم منازلهم لمنع واضع اليد من الاستيلاء عليها. ولكن أغلب السكان كانوا ينتظرون ليروا كيف ستتطور الأمور. ولم يُصدر بيان واحد فيما يخص المستقبل الملموس للطيبين فى الشهور والسنوات التى تلت، ولم يعلن مسئول واحد أن الطيبين قد تم إلغاؤها من قوائم المجتمعات (نُشر هذا الكتاب بعد الزلزال مباشرة) المستهدفة للإزالة المستقبلية.



احتفالات بزفاف عروسين فى حارة الطيبين **(تصوير بيترا كويبنجر)**

ومع ذلك فقد أدرك السكان مع مرور الوقت وعن طريق الملاحظة المتأنية للسياسات المحلية، وقد صقلتهم المناقشات المطولة عن الأحداث الجارية، والأنباء، والخبرات المحلية، لنتيجة مفادها أن الحى لم يعد يواجه خطر الإزالة الفورية. وهكذا شعر بعض الملاك بالاطمئنان الكامل بحيث شرعوا فى تجديد وحداتهم السكنية القديمة، أو حتى بناء وحدات جديدة. وتم ترميم الحوائط المتشققة، كما طور السكان سوقا نابض بالحياة فى عقار مستأجر. وانتقل مستأجرون جدد للحى. وقفل أحدهم عائدًا بأسرته إلى الطيبين وهو من سكانها الأصليين، متخليًا عن شقة سكنية فى حى ناء حيث لم يشعر هناك بأنه فى منزله على الإطلاق. واستأجرت أسرتان كل منهما من زوج وزوجة عند زواجهم فى عام ١٩٩٤ حجرتين فى سطح المنزل (ليستا شقتين - حيث تتقاسم الشقق الثلاث حمامًا واحدًا وصنبورًا للمياه). وازدحمت الأزقة التى كانت خالية بصفة مؤقتة مرة أخرى بالأطفال. وعلقت سيدة وهى تعلق على ذلك فى أواخر سنوات التسعينيات أن الحى "اتملى على عينه"، (أى امتلأ عن آخره على الرغم منه).

الأهرام: كانت الأهرام وبانتظام فى العقود الأخيرة بمثابة موقع لأحداث عالمية براقة استغلالاً لميزة التجاور مع الجمال الأبدى والبهرجة المتألقة والمدعومة بالتكنولوجيا، وأنفقت الفرقة الأمريكية "ذى جراتفول ديد" فى عام ١٩٧٧ نصف مليون دولار أمريكى بغرض شحن ٢٣ طنًا من المعدات للقيام بالعزف بها أمام أبو الهول *("Grateful Dead", 2005)*. ولم يكن الجميع سعداء بذلك الحدث. ويقول "زاهى حواس" السكرتير العام للمجلس الأعلى للآثار ومدير حفريات أهرام الجيزة عن المناسبة:

لقد كنت باحثا أثريًا مبتدئًا وصغيرًا عندما حضرت حفلة "ذى جراتفول ديد" أمام أبو الهول. وكان هناك زحام شـديد مـن ١٠٠٠ شخص من الشباب واقفـين علـى أقـدامهم، وهـم يصيحون، ويصرخون، ويشربون الكحول، بل ورأيت بعـض الأجانب وهم يدخنون. وقد كانت أصوات الموسيقى الصاخبة والصادرة عن آلاتهم من الارتفاع بحيث كان يخيـل لـى أن أحجار الهرم ترتجف من الاهتزازات، وصخور أبـو الهـول البالغة الحساسية تتداعى من الضجيج. (حواس ٢٠٠١ أ).

ولقد أبدى حواس مشاعر قلق مماثلة عن حفلة بالآلات الوترية بعد عقدين من الزمان فقال:

"كان عدد الحاضرين مفرطًا فى الزيـادة والـضجيج عاليًـا، ومثيرًا للمخاوف بشأن سـلامة الآثـار، وكانـت الأصـوات تجلجل، وعانت كل قطعة حجر من الأهرام، دعك من أحجـار أبو الهول الهشة". (حواس ٢٠٠٥). وبيعت أرخص التـذاكر بفئة تعادل ٦٥ جنيها مصريًا، لكن وبهذا السعر "لم يكن فـى مقدورك رؤية خشبة المسرح الأمامية" (فراج ٢٠٠١).

هناك حدث آخر مثير للاهتمام ازدهرت إقامته تحت سفح الهرم كعامل جذب وهو رالى الفراعنة. وكان يتعين على "خمسمائة متسابق من مصر، وبلجيكا، وألمانيا، وإيطاليا، وإسبانيا، بالإضافة إلى جانب عدد آخر من أقطار الشرق الأوسط" أن يتسابقوا على مسافة ٣٣٠٧ كيلومتر تمتد من الجيزة حتى أبو سمبل،

ثم العودة مرة أخرى للجيزة" للاحتفال بالذكرى السنوية العشرين للرالى، ويبدأ السباق من تحت سفح أبو الهول وينتهى بالعودة بجوار الأهرام (الأهرام ويكلى ٢٨ أغسطس – ٣ سبتمبر ٢٠٠٣).

وكان يتم أداء أوبرا عايدة لفيردى فى العديد من المناسبات أمام أبو الهول مع استخدام الأهرام كخلفية للمسرح وكموضع لأمواج من المؤثرات الضوئية الملونة وأضواء الليزر المبرمجة. وتصف "نبيلة عريان" العرض الذى أُقيم فى عام ٢٠٠٢ فتقول "استخدم الموقع الذى لا مثيل له والذى يخلب الألباب للعرض، كما أن النسيم العليل الآتى من قبالة الصحراء جعل من هذا العرض أعظم العروض قاطبة والتى تفوقت على كافة العروض السابقة عليها" (٢٠٠٢) وتضع عريان أداء أوبرا عايدة فى سياقها السياسى وتقول إنه كان أكثر من استعراض فنى:

> **لم يكن أداء استعراض عايدة فى منطقة الأهرام عمل من أعمال البراعة الفنية لكون أنه يتم أداؤه فى ضوء الوضع السياسى العالمى فحسب، ولكن بصفة أساسية فى استجابته للعالم فى سعادة وشجاعة. وهذه هى المرة الأولى منذ عرضه فى الأقصر منذ بضع سنوات، أن نرى الكثير من الوجوه الأجنبية فى العرض، وأغلبهم جاء إلى مصر خصيصًا من أجل هذا الحدث. (٢٠٠٢).**

وتشير عريان إلى أن المصريين كانوا قلة متناثرة فى هذا العرض، وتكهنت بأن ذلك يعود إلى أسعار التذاكر الباهظة. ويبدو أن منظمى الحفل كانوا يستهدفون جذب الأجانب أكثر، وعلى الأرجح حتى يكونوا قادرين على الدفع. لقد كان عرضًا عالميًا وليس محليًا[٢٦].

ربما كان الحدث الأكثر إثارة عالميًا فى السنوات الأخيرة فى منطقة الأهرام هو الاحتفال بالألفية، والذى كان يضم مرة أخرى أحدث ما فى العصر من تكنولوجيا بجانب حضارة المجد التليد.

وأنارت أضواء الليزر، والأضواء الكاشفة، والألعاب النارية فى منطقة الأهرام العريقة والجيزة فى منتصف الليل، بينما تستقبل مصر الألفية الجدية مع خفقات أضواء إلكترونية سخية، والتى قال عنها المسئولون أنها جذبت أكثر من ١٢٠،٠٠٠ شخص. وقدم الموسيقار الفرنسى جين ميشيل جار أغنية رائعة، والرقص، والموسيقى، وكانت تضم أكثر من ١٠٠٠ فنان، بعنوان "الأحد عشر حلمًا للشمس" (رويتر ٢٠٠٠).

وكان من بين الحاضرين الرئيس حسنى مبارك، والذى كانت حكومته ترى فى عرض هذه التحفة الفنية محاولة منها لتدعيم صورة مصر كمكان آمن للسياحة (حيث كانت البلاد لا تزال تعانى من آثار مذبحة الأقصر فى عام ١٩٩٧ عندما لقى ٥٨ سائحًا مصرعهم). وبينما كانت الأغلبية الساحقة من الزائرين يقفون تحت سفح الأهرام، "فإن ما يقرب من٨،٥٠٠ شخص من الأثرياء تمت استضافتهم على أفخم المستويات فى خيام بالغة الفخامة وبتكلفة بلغت ٤٠٠ دولار لكل شخص (رويتر ٢٠٠٠). وقد ذكر راجيف كول نائب رئيس فنادق أوبروى بمصر بفخر "إن مصر قد أصبحت واحدة من أكبر ثلاثة مواقع سياحية كبرى فى العالم أجمع فى الألفية الجديدة" (رويتر ١٩٩٩). والأكثر من ذلك، أنه تنبأ أن مصر سوف تصبح مرة أخرى وجهة سياحية راقية. واهتم فندق مينا هاوس أوبروى باستضافة أثرياء السياح فى الألفية حيث كان قد قام بزيادة أسعاره إلى ٣٥٠-٣٠٠٠ دولار لليلة واحدة (بدلاً من الأسعار المعتادة ١٥٠-١٤٥٠ دولار) للمشهد الجذاب (رويتر ١٩٩٩).

ويقوم الأثرياء والمشاهير فى نفس الوقت بزيارة الأهرام فى الأيام العادية. فقد قامت الملكة صوفيا ملكة إسبانيا بزيارة الأهرام فى عام ٢٠٠٢ وذلك بعد أن حضرت حفل افتتاح مكتبة الإسكندرية (الأهرام ويكلى ٢٤-٣٠ أكتوبر ٢٠٠٢). كما اصطحب تونى بلير أسرته إلى الأهرام للاحتفال بالسنة الجديدة فى أرض الفراعنة(الأهرام ويكلى ٣-٩ يناير ٢٠٠٢). وتعتبر مثل تلك الزيارات غير الرسمية وثيقة الصلة بالموضوع (حيث نُشرت صور بلير وأسرته فى الصحف على نطاق واسع) لأنه فى أوقات الأزمات السياسية (والسياحية) "يمكن أن يدعم ذلك صناعة السياحة فى مصر ويظهر صورة مصر كمكان لا يزال آمنًا للسياحة" (الأهرام ويكلى ٣-٩ يناير ٢٠٠٢).

الطيبين: استقبل حى الطيبين فى منتصف سنوات التسعينيات أول إضاءة لشوارعه. وكان ذلك أمرًا مثيرًا لسببين: أولاً، لأنها كانت تتم بعد قرن كامل من تقديم مثل تلك الخدمات لشوارع الأثرياء فى القاهرة. والثانية، أن قيام المجلس المحلى بتقديم خدمة إنارة الشوارع يشير إلى أن إزالة الحى ليست فى أولويات برنامج المجلس المحلى العاجلة. كما استقبلت بعض الأسر خطوطا تليفونية، والتى تم تفسيرها على نفس النحو السابق أيضًا. وعلى الرغم من تلك المؤشرات التى تدل على الأقل باعتراف عابر وجزئى لهذا المجتمع كجزء من المدينة الحديثة، فإن الطيبين لم تصل إليهم أية أنباء عن مستقبلهم على وجه العموم. ويمكن للمرء أن يتساءل كيف استمر هذا الوضع غير المستقر لمثل هذه الفترة الطويلة؟ يمكننى فقط أن أخمن عندما أقول أن كلا من التخطيط الحضرى الحديث والسياسة غالبًا ما كانا يضمان عددًا من المتناقضات والأخطاء. وربما تكون تلك الظاهرة نعمة بالنسبة للطيبين من بعض الجوانب، ولكنها تلف حياة السكان بالغموض ولا تجعلهم يشعرون بالأمان التام.

أوشك القرن العشرون أن يلملم أوراقه للرحيل واستعراضات الليزر تقوم بمداعبة الآثار القديمة، وبعض النسوة من الطيبين بعيدات تمامًا عن مثل تلك التكنولوجيا حيث ما زلن يحملن أوانى المياه الضخمة من الصنابير العمومية إلى منازلهن، أو يجلسن القرفصاء أمام صنابير المياه العمومية وهن يضعن أكداسا من الملابس أو الأطباق من أجل غسلها.

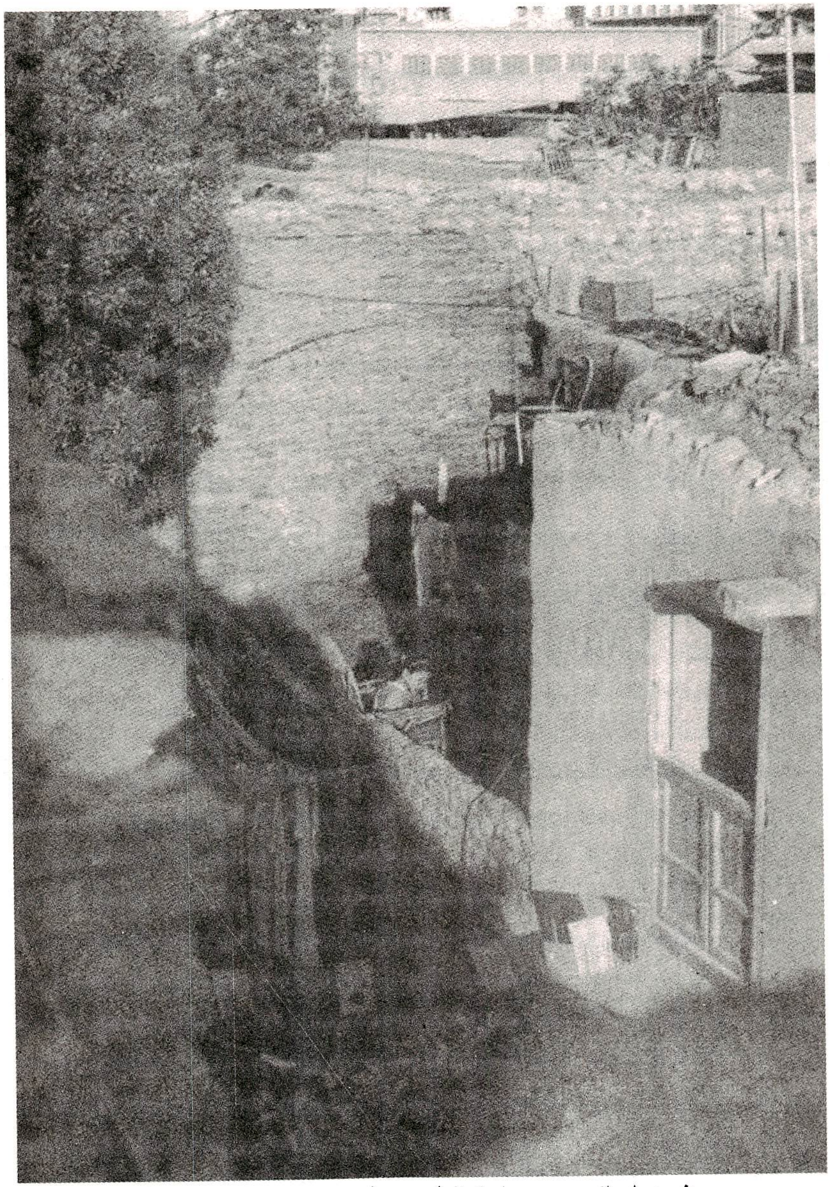
الأهرام: سوف يتميز وجود الأهرام فى القرن الحادى والعشرين بالمشروع العملاق المتحف المصرى الكبير. وقد تم التخطيط له بتكلفة تبلغ ٣٥٠ مليون دولار، "ويقع هذا المشروع العملاق فى الهضبة الأولى بين هرم الجيزة الأكبر ويمثل ليس فقط أكبر متحف للقطع الثرية فى مصر، ولكنه واحد من أكبر المتاحف فى العالم" *(Ionides 2004)*. حتى إن السيد فاروق حسنى وزير الثقافة ذكر أن المشروع يمثل "أكبر المتاحف فى العالم" *(ESIS)*. ويغطى المشروع مساحة تبلغ ١١٧ فدانا (الأهرام ويكلى ٧-١٣ فبراير ٢٠٠٣). ويبحث المشروع الجديد - الغارق فى المقارنات بأفضليته - عن المقارنة فقط مع المشروعات المماثلة على المستوى العالمى. وقد قام الرئيس حسنى مبارك بوضع حجر الأساس للمتحف الجديد فى فبراير عام ٢٠٠٢ *(ArabicNews.com2002)*. وبعد ذلك بفترة وجيزة أُعلن عن مسابقة عالمية كبيرة جذبت فى نهاية الأمر ١٥٥٧ مصممًا من ٨٣ دولة. ومنحت لجنة خبراء مُشكلة من إيطالى، وفرنسى، وبريطانى، وكورى، وروماني، ومصرى الجائزة الأولى لمنشأة غير معروفة نسبيًا من أيرلندا وهى "**Heneghan Peng Architects**" (الاتحاد العالمى للمعماريين ٢٠٠٣). وقامت السيدة الأولى سوزان مبارك بتسليم المهندسين المعماريين جائزتهما التى بلغت ٢٥٠،٠٠٠ دولار أمريكى فى احتفال أقيم فى المتحف المصرى القديم *(ESIS)*. ولم يكن الجميع سعداء بعملية الاختيار أو تشكيل اللجنة (٣ مصريين و٦ أجانب)، أو

لحقيقة أن عرضا مصريا وحيدا هو الذى وصل إلى ترتيب العشرين الأوائل (الجندى ٢٠٠٣؛ عصفور ٢٠٠٣). وعلى الرغم من أن مصر تقدمت بمائة وستة وعشرين عرضًا، فإن أيا من العروض الوطنية المصرية لم يفز حتى بجائزة شرفية (عصفور ٢٠٠٣.) (٢٧).

ويبتعد أسلوب البناء أيضًا بعيدًا عن الحقائق المحلية. ويذكر أحد المراقبين أنه "ليس من المبرر على الإطلاق أن يكون بناءً أسمنتيًا ومكيف-البناء بالكامل" وبصفة خاصة فى مدينة "يكون فيها انقطاع التيار أمرًا معتادًا" (الجندى ٢٠٠٣). وذكر آخر أن المتحف يجب أن يكون فى وسط مدينة القاهرة "ليبعث حياة جديدة للمناطق المتدهورة" (النعيم ٢٠٠٣). وما يقوله الأخير ممتع لأنه يضع المشروع فى سياق ثقافى واجتماعى مصرى، حيث إن المتحف، بعيدًا عن مهمته الأساسية فى إيواء الآثار، له وظيفة اجتماعية فى بعث الحياة فى المجتمع والذى يمكن أن يفيد منها السكان. ولكن ذلك ليس وظيفة المتحف كما تخيله مخططو المتحف الجديد. فبالنسبة لهم فإن المتحف هو مشروع مجرد من الروابط المكانية والاجتماعية المباشرة التى تربطه بمجتمعه. ويستهدف المشروع فى أعماقه آفاق مختلفة وبعيدة عن ذلك.

ويستهدف البناء باحتوائه على قاعة مؤتمرات واسعة، ومكتبة، ومجموعة من الوسائط المتعددة، لأن يكون أكثر من مجرد مبنى يحتوى فى داخله على مجموعة الآثار والتحف المصرية، وأن يصبح بدلاً من ذلك مركزًا عالميًا للثقافة، ومشهدًا حضريًا مذهلاً من الصور *(Gregory 2003)*. ومن المُخطط له أن يقدم "خدماته عن المصريات عن طريق مركز معلومات مزود بأكمله بأجهزة الحاسب الآلي" (العارف ٢٠٠٣). كما أنه سيشمل "مطعما فسيحا ومراكز للتسوق" بالإضافة إلى "مركز لنشر الكتب، والأسطوانات المُدمجة، وشرائط الفيديو.. وغيرها" (الزحلاوى ٢٠٠٠).

بالإضافة إلى ذلك، فإن المشروع سوف يشمل "المعامل المناسبة من أجل إجراء الأبحاث العلمية، والصيانة، والترميم، والتصوير طبقًا لأحدث التقنيات" (العارف ٢٠٠٢). كما أنه من المُقدر أن يستوعب المتحف ما يقرب من ١٥،٠٠٠ زائر يوميًا. وبامتداده عالميًا، "فإن المتحف سوف يسهم في تنمية السياحة في مصر ويلبي مختلف الأذواق والاحتياجات للزائرين من حول العالم من أجل تعزيز المعرفة عن مصر القديمة" (العارف ٢٠٠٣). ومرة أخرى، فإن أذواق واحتياجات السائحين القادمين من أنحاء العالم تكون لها الأسبقية.



مشهد لجانب من حارة الطيبين (تصوير بيترا كويبنجر)

الادعاء الذى يتكرر بانتظام "بأن المتحف المصرى الكبير سيكون أضخم المتاحف فى العالم" يقوم بالاقتداء بوضوح بقدوة تكون خارج حدود مصر (العارف ٢٠٠٣). إنه تنافس مع نظرائه عبر العالم وليس مع المنافسين المحليين. ولا يمكن إدراك مشروع بمثل هذه الخطوط العريضة بوضوح عن طريق دولة واحدة. وأعلن فاروق حسنى "تأسيس لجنة تنسيق تتكون من شخصيات مصرية وعالمية"، تشمل رئيس البنك الدولى جيمس وولفنسون (الأهرام ويكلى ٢٤-٣٠ أكتوبر ٢٠٠٢). ونقلت هذه اللجنة السيطرة والسلطة جزئيًا على الأقل للمجال العالمى. وبالمثل، فإن تمويل هذا المشروع الباهظ التكلفة يتم تقاسمه بين المصالح المحلية والعالمية، بما فيها الحكومة المصرية، والمؤسسات الدولية، وشركات الاستثمار العابرة للقارات، والرحلة الحصرية ذات الميزانية الضخمة والتى تديرها الدولة لمجوهرات الملك توت عنخ أمون حول العالم، "والمنح والهبات من داخل مصر والخارج" *(ArabicNews 1997; Ryan and Elbendary 2002)*.

وليس المتحف الجديد هو المشروع الوحيد الذى يبحث عن الاعتراف والمنافسة خارج موقعه الجغرافى المباشر. فإن فندق مينا هاوس أوبروي–على نفس المنوال، والذى تديره شركة أوبروى العالمية الهندية (وشعارها: إعادة تعريف الفخامة) وبفنادقها ذات النجوم الخمس فى الهند، إندونيسيا، وأستراليا تبحث عن مؤشرات مرجعية عالمية (فنادق أوبروى ٢٠٠٥). ويسجل موقع فنادق مينا هاوس أوبروى بكل فخر الجوائز التى حصل عليها وترتيبها. ففى عامى ٢٠٠٢، و٢٠٠٣ فإن فنادق أوبروى كانت مُسجلة ضمن قائمة "أغلى الفنادق فى العالم"، و"أفضل ٥٠٠ فندق فى العالم" وبين "أفضل عشرة فنادق فى الخدمة فى العالم". وبالإضافة إلى ذلك فقد جاءت فى الترتيب الثامن بالنسبة لأفضل فنادق الترفيه فى إفريقيا، والمحيط الهندى، والشرق الأوسط" (فنادق أوبروى ٢٠٠٥). ووضعت جائزتين فقط من ضمن اثنتى عشرة جائزة المدونة وهما (أفضل منظر طبيعى لحديقة فى

مصر؛ وأفضل مستوى لخدمة الضيوف بين فنادق مصر) الفندق فى سياق تواجدها فى مصر.

الطيبين: تحادثت مع أم ذكى تليفونيًا فى حى الطيبين فى يناير من عام ٢٠٠٥. وبعد أن تبادلنا بعض الأحاديث عن الجديد فى الموقف، أخبرتنى أن أم هانئ ابنة عمها والتى كانت قد انتقلت مع زوجها بعد الهزة الأرضية قد عادت أدراجها إلى الطيبين. وعندما سألتها عن السبب، فسرت لى الأمر بأن زوج أم هانئ قد توفى إلى رحمة الله وأن أقاربه قد استولوا على الشقة السكنية التى مُنحت للزوجين بعد الهزة الأرضية(٢٨). ولذا فقد عادت أم هانئ مرة أخرى. ومضت الأمور على ما يرام حيث إن ابنة عم أم هانئ الأخرى والتى كانت قد استحوذت على الحجرة التى كانت تقطن فيها أم هانئ فى حى الطيبين قد انتقلت مع ابنتها إلى مكان آخر تاركة لها إياها. وبذا تتوافق الطيبين مع حياة البشر، بل وأحيانًا تمسح دموعهم وتخفف من آلامهم إذا ما كانت الظروف مواتية. وبينما تنتظر الطيبين بأناة الفرص المتاحة والتحسينات المأمولة، فإنها لا تتنافس من أجل انطلاقة مع مستويات عالية غير مألوفة، أو جوائز، أو حلول تنافسية على مستوى العالم، وبدلاً من ذلك فإنها تقدم الدعم العملى إذا ما أحتاجه البعض وإذا ما كان ذلك فى مقدورها. مع التأكيد على ما هو متاح محليًا وما يمكن أن تقدمه من نفع إلى أولئك المحتاجين إليها. وتقدم الطيبين حلولا محلية وفردية للمشاكل التى تكون أحيانًا نتيجة آليات حضرية، وقومية، وعالمية أكبر حجمًا. ولكن السكان يتفاعلون فى حياتهم اليومية المعتادة أولاً وقبل كل شيء مع بيئتهم الاجتماعية، والاقتصادية، والمكانية المباشرة.

الأهرام: تختلف الآليات فى الأهرام على أى حال. فهى تقدم الترفيه، والمتعة، ومع المتحف الجديد ستقوم بتقديم المعرفة لروادها من أرجاء العالم. وتعتبر الأهرام والمنطقة المحيطة بها أولاً وقبل كل شيء مجالاً للاستثمارات المالية وتقديم الخدمات. ويتيح ذلك بالطبع وظائف للعديد من الناس، ولكنه يرتبط بالقليل من الروابط الاجتماعية بالمشهد الحضرى المحيط به. وكما أشرنا سابقًا، فإن الأهرام تستجيب لاحتياجات ومتطلبات الدوائر المالية والثقافية العالمية وبالتالى أصبحت خارج نطاق إقليمها أو بيئتها وقامت بفك ارتباطها بالنسيج الاجتماعى لمدينة الجيزة واحتياجات معظم قاطنيها. وهناك قضية واحدة ربما تميز دخول الأهرام للقرن الحادى والعشرين: الخشية من أزمات فى مجال السياحة، حتى تلك الأزمات التى لا تخص مصر مثل ١١ سبتمبر ٢٠٠١؛ وأزمة حرب العراق؛ أو حتى التسونامى الذى ضرب دول آسيا فى عام ٢٠٠٤. فعلى سبيل المثال، عانت فنادق مينا هاوس، والتى تعتمد بشكل كبير على السائحين القادمين من الولايات المتحدة الأمريكية (على عكس السياحة فى مصر عمومًا) " من هبوط بلغ ٩٠% فى حجم الحجوزات لديها مقارنة بالعام الماضي" وذلك بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ (سعد ٢٠٠١). ومع الصعود والهبوط الذى واكب معدلات السياحة العالمية، تبحث السلطات والمؤسسات المصرية بدأب عن استثمارات ومشروعات جديدة تأمل أن تكون أقل حساسية للأزمات الطارئة كحماية من عدم اليقين فى المستقبل، وذلك مثل سياحة المؤتمرات (سامى ٢٠٠١). ومن أجل جذب المزيد من السياحة العالمية فى سوق السياحة العالمية التنافسية، فإن جاذبية الجمال الأبدى للآثار ليست كافية. ولا تزال السياحة العالمية فى سباقها المجنون، ولذا يتعين على الأهرام أن تتسابق دائمًا مع متنافسين جدد ومختلفين. حتى إن الواقع الافتراضى والآثار المزيفة قد دخلت حلبة الصراع. وأحد من المتنافسين الجدد مثل شبيهة مدينة

الأقصر فى لاس فيجاس، والفندق الذى بُنى على شكل هرم فى نيفادا ويضم نسخا جديدة لامعة من التحف الفرعونية حيث لم تعد الدقة التاريخية هى المبدأ المرشد. وكما أطلق أحد المؤلفين على بشاعة استشراق ما بعد الحداثة هذه، والتى تمنح الأمان، والهواء المكيف طوال العام، ولا تطفــل مــن المحليين، أو المتشــددين، أو الآخرين الذين يمكنهم أن يصرفوا انتباهك عن متع الاستحواذ على التاريخ.. مصطلح "مصر بالمنشطات" *(Cass 2004)*. وتعتبر قطعة واحدة فقط "حقيقية" فى الفندق. هناك قطعة من هرم خفرع "مكسوة بالبلاستيك الصلب" "وهبها قطاع السياحة المصري" *(Cass 2004, 252)*. ولكن هل تمنح هذه القطعة الشرعية لبقية قطع هذا المعرض غير المعقول، أم هو تلميح لمستقبل الهرم؟ إذا ما رغبت الأهرام أن تستمر فى لعبة المنافسة السياحية، فإنه يتعين عليها أن تقوم بتعزيز الجمال بأحدث التسهيلات المتطورة، وأقصى وسائل الراحة، والعروض الموسمية الكبيرة بين الحين والآخر للمزيد من الجاذبية. وحتى، ومع ذلك، يمكن أن تحل الأزمات. ذلك هو الأمر الحتمى مع متطلبات المنافسة العالمية.

الأعمال المُستشهد بها

Works Cited

AlSayyad, Nezar, ed. 2001. *Consuming Tradition, Manufacturing Heritage.* London: Routledge.

ArabicNews.com. 2002. "Mubarak Lays Foundation Stone of Grand Egyptian Museum." 5 February. <*http://www.arabicnews.com/ansub/Dail/Day/020205/2002020532.html*> (29 August 2004).

. 1997. "American Donations to Build the New Egyptian Museum." 6 October. <*http://www.arabicnews.com/ansub/Daily/Day/971006/1997100625.html*> (15 June 2004).

ArchNet.org. 2003. "The New Egyptian Museum." 7 November. <*http://www.archnet.org/forum/view.tcl?message_id=16616*> (29 August 2004).

El-Aref, Nevine. 2001. "Browsing through Documented History." *Al-Ahram Weekly*, 22–28 March.

. 2002. "Final Home for Tutankhamun's Treasure." *Al-Ahram Weekly*, 24–30 January.

______. 2003. "Museum of the Millennium." *Al-Ahram Weekly*, 12–18 June.

Asfour, Khalid. 2003. "The GEM and the Egyptian Architects—Bad Luck?" *The Architectural Review*. October. <*http://www.findarticles.com/p/articles/mi_m3575/is_1280-213/ai_111030372*> (9 December, 2005).

Baedeker, Karl. 1906. *Aegypten und der Sudan. Hanbuch fuer Reisende.* Leipzing: Verlag von Karl Baedeker.

Beirman, David. 2003. *Restoring Tourism Destinations in Crisis.* Oxon: CABI Publishing.

Brugsch, Heinrich. 1961 [1855]. "Reiseberichte aus Aegypten." In *Reisen im Orient*, ed. Herbert Scurla, 483–614. Berlin/DDR: Verlag der Nation.

Cass, Jeffrey. 2004. "Egypt on Steroids: Luxor Las Vegas and Postmodernist Orientalism." In *Architecture and Tourism: Perception, Performance and Place*, eds. D. Medina Lasansky and Brian McLaren, 241–63. Oxford: Berg.

Cuno, Kenneth. 1994. *The Pasha's Peasants: Land, Society, and Economy in Lower Egypt 1740–1858.* Cambridge: Cambridge University Press.

al-Damurdashi, Ahmed. 1991. *Al-Damurdashi's Chronicle of Egypt, 1688–1755.* Leiden: E.J. Brill.

Description de l'Égypte. 1809–1813. Paris: Imprimerie Impériale.

Dopp, P.H. 1950. "Le Caire vu par les voyageurs occidentaux du Moyen Age." *Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Égypte* 23 (34): 117–49.

. 1951. "Le Caire vu par les voyageurs occidentaux du Moyen Age." *Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Égypte* 24 (November): 115–62.

. 1953. "Le Caire vu par les voyageurs occidentaux du Moyen Age." *Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Égypte* 26 (August): 87–118.

Egyptian State Information Service (ESIS). 2003. "Mrs. Mubarak Distributes Egyptian Grand Museum Awards." 9 June. <*http://www.sis.gov.eg/online/html9/o090623c.htm*> (29 August 2004).

Elgendy, Karim. 2003. "The New Egyptian Museum." 28 June. <*http://www.archnet.org/forum/view.tcl?message_id=16616*>. (29 August 2004).

Erian, Nabila. 2002. "Celeste Aida." *Al-Ahram Weekly*, 17–23 October.

Farag, Fatemah. 2001. "Mad About Sting." *Al-Ahram Weekly*, 3 September.

"Giza, Pyramids." 2005. *Encyclopaedia Britannica Online* (23 February 2005).

"The Grateful Dead." 2005. *MusicWeb Encyclopedia of Popular Music*. <*http://www.musicwebinternational.com/encyclopaedi/g/G88.HTM*> (19 January 2005).

Gray, Matthew. 1998. "Economic Reform, Privatization and Tourism in Egypt." *Middle Eastern Studies England* (April): 91–112.

Gregory, Rob. 2003. "Grand Project: By Occupying Sight Lines Drawn between Cairo and the Pyramids, Heneghan Peng Architects' Competition-Winning Scheme for the Grand Museum of Egypt uses Light to Span between Ancient Culture and Modern Complexity." *The Architectural Review*. August: <*http://www/findarticles.com/p/articles/mi_m3575/is_1278_213/ai_1111105880*> (29 August 2004).

Haikal, Mohammed Hussein. 1989. *Zainab*. Translated by John Mohammed Grinsted. London: Darf Publishers. (Orig. pub. 1913.)

Hawass, Zahi. 2001a. "The Sphinx Cried Twice." *Al-Ahram Weekly* 24–30 May.

———. 2001b. "The Man Who Found the Solar Boat." *Al-Ahram Weekly* 15–21 November.

———. 2002. "Dancing with Tomb Robbers." *Al-Ahram Weekly* 7–13 March.

———. 2005. "Sting and the Pyramids." <*http://www.guardians.net/hawass/Sting_and_the_Pyramids.htm*> (19 January 2005).

Hazbun, Waleed. 2002. *Between Global Flows and Territorial Control: The State, Tourism Development, and the Politics of Reterritorialization in the Middle East*. Ph.D. diss., Massachusetts Institute of Technology.

International Union of Architects. 2003. "International Project Competition in Two Stages for the Design of the Grand Egyptian Museum, Cairo." 9 June: <*http:// www.uia-architects.org/texte/england/Cairo2003/2results.html*> (29 August 2004).

Ionides, Alex. 2004. "Digging In." *Egypt Today* 25 (8). July: *http://www.egypttoday.com/article.aspx?ArticleID=1785* (19 December 2005).

al-Jabarti, Abd al-Rahman. 1994. *Abd al-Rahman al-Jabarti's History of Egypt*. Stuttgart: Franz Steiner Verlag.

Kuppinger, Petra. 1998. "The Giza Pyramids: Accommodating Tourism, Leisure and Consumption." *City and Society, Annual Review*: 105–19.

_____. 2000. *Giza: Enframed and Lived Spatialities*. Ph.D. diss., New School for Social Research.
_____. 2001. "Cracks in the Cityscape: Traditional Spatial Practices and the Official Discourse on 'Informality' and *irhab* (Islamic Terrorism)." In *Muslim Traditions and Modern Techniques of Power*, ed. A.Salvatore, 185–207. Muenster: LIT Verlag.
_____. Forthcoming. "Entertainment and Control: Social Life in Colonial Cairo." In *The Discipline of Leisure: Embodying Cultures of Recreation*, eds. Simon Coleman and Tamara Kohn. New York: Berghahn Books.
Lasansky, D. Medina, and Brian McLaren. 2004. *Architecture and Tourism: Perception, Performance and Place*. Oxford: Berg.
Legh, Thomas. 1816. *Narrative of a Journey to Egypt*. London: John Murray.
Lepsius, Richard. 1961 [1852]. "Briefe aus Aegypten, Aethiopien under der Halbinsel Sinai." In *Reisen im Orient*, ed. Herbert Scurla, 353–482. Berlin/DDR: Verlag der Nation.
Loti, Pierre. 1909. *Egypt*. London: T.W. Laurie.
Lowenthal, David. 1988. "Classical Antiquities as National and Global Heritage." *Antiquity* 62: 726–35.
_____. 1996. *Possessed by the Past*. New York: The Free Press.
Lozach, J. and G. Hug. 1930. *L'habitat rural en Égypte*. Cairo: L'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, pour La Société Royale de Géographie d'Égypte.
Margoliouth, D.S. 1907. *Cairo, Jerusalem, and Damascus*. London: Chatto & Windus.
Meskell, Lynn. 2002. "Negative Heritage and Past Mastering in Archaeology." *Anthropological Quarterly* 75 (3): 557–74.
Mosséri, V. M., and Ch. Audebeau Bey. 1921. "Quelques mots sur l'histoire de l'ezbeh égyptienne." *Bulletin d'Institut d'Égypte* 3: 27–48.
Moussa, Ahmed. 2001. "Uprooting Terrorism." *Al-Ahram Weekly*, 11–17 October.
Al-Naim, Mashary. 2003. "The New Egyptian Museum." 18 August. <*http://www/archnet.org/forum/view.tcl?message_id=166167*> (29 August 2004).
Nelson, Nina. 1997. *Mena House*. Cairo: The Palm Press.
Nuryanti, Wiendu. 1996. "Heritage and Postmodern Tourism." *Annals of Tourism Research* 23 (2): 249–60.
Oberoi Hotels. 2005. *Mena House Oberoi: Cairo, Egypt*. <*http://www.oberoihotels.com*> and <*http://www.oberoimenahouse.com*> (13 January 2005).
Rafaat, Samir. 1995 "When Doctor Goebbels Came to Cairo." *Egyptian Mail* 30 September.

Reid, Donald Malcolm. 1991. *Cairo University and the Making of Modern Egypt.* Cairo: The American University in Cairo Press.

Reuters. 1999. "Egypt Hotels Set for Millennium Bonanza." 2 December.

______. 2000. "Pyramids Pulsate as Egypt Greets New Millenium." 3 January.

Ryan, Nigel, and Amina Elbendary. 2002. "Without a Scratch." *Al-Ahram Weekly*, 6–12 June.

Saad, Rehab. 2001. "Preparing for a Harsh Winter." *Al-Ahram Weekly*, 4–10 October.

Sabet, Adel M., and Maged Farag. 1993. *1939: The Imperial Wedding.* Cairo: Max Group.

Samy, Ahmed. 2001. "Budding Industry of Conference Tourism." *Al-Ahram Weekly*, 8–14 March.

Scurla, Herbert. 1961. *Reisen im Orient.* Berlin/DDR: Verlag der Nation.

Seton-Williams, Veronica, and Peter Stocks. 1993. *Blue Guide: Egypt.* London: A & C Black.

Al-Wali, M. 1993. *Sakan al-'ishash wa-l-'ashwa'iyat.* Cairo: Engineers' Syndicate.

Wiemken, Helmut, ed. 1963. *Fuerst Puecklers Orientalische Reisen.* Hamburg: Hoffmann und Campe.

El Zahlawi, Naglaa. 2000. "The New Egyptian Museum to be Erected Soon in a Newly Arranged Area." Paper Presented at the Eighth International Congress of Egyptology, *<http://www.guardians.net/sca/congress2000/congress_2000_pt2.htm>* (29 August 2004).

(Newspapers: *Al-Akhbar, Al-Ahram, Al-Ahram Weekly, Egyptian Gazette, New York Times*)

الهوامش

١- يمكنك أن تراجع، على سبيل المثال ما جاء فى الموسوعة البريطانية تحت عنوان "أهرام الجيزة" (٢٠٠٥)، أو الفصل المعنون "أهرام الجيزة" فى *"Blue Guide: Egypt"*، الذى كتبه *(Seton-Williams ans Stocks 1993)*.

٢- الطيبين هو اسم مستعار، مثل كافة أسماء الأشخاص المذكورة فى الموضوع. تستند قصتى عن "الطيبين على سنوات عديدة من البحوث الميدانية الأنثروبولوجية فيها فيما بين عامى ١٩٨٩، ١٩٩٧. وقد عدت لفترة قصيرة للطيبين فى عام ٢٠٠٣.

٣- تقدم (*Lynn Meskell*) دراسة نقدية طريفة عن مفهوم "ميراث عالم العولمة". وتوضح أن مفهوم التراث العالمى هو مفهوم معيب لحقيقة أنه يميل إلى فكرة غربية المنشأ ويتطلب موقفاً تجاه الثقافة المادية والذى هو أوروبى بوضوح فى أصله (٢٠٠٢، ٥٠٧).

٤- يقدم وليد حزبون تعريفاً جيداً فى هذا السياق فيقول: "إن عملية إلغاء الحدود والحواجز الجغرافية أو فكرة المجتمع الكونى تشير إلى حالة أن تصبح الأنشطة الاقتصادية أقل اعتماداً على موارد وأسواق بقعة معينة، أو فى لغة الاقتصاد المؤسسية حينما تقل تكاليف العمليات التى تعتمد على المكان" (٢٠٠٢، ٥٤). ويمكننى أن أضيف إليها أن عملية إلغاء الحدود والحواجز الجغرافية تتجاوز عالم الاقتصاد وتتضمن ملامح ثقافية، واجتماعية ومكانية.

٥- هنا مثال واحد، سيكون موضعًا لنقاش دائم كيف أن قرية نزلة السمان اتهمت بأنها تعرض تمثال أبو الهول للخطر عن طريق مياه الصرف الصحى المُتسربة، والتى تقوم برفع مستوى المياه الجوفية (العارف ٢٠٠١). كما أن هناك موضوع سرقة الآثار (حواس ٢٠٠٢).

٦- أبدى دافيد أوينثال رأيًا يتناسب تمامًا مع هذا التحول فى "ملكية" الآثار القديمة قائلاً: "الورثة الشرعيون.. فى لندن، وباريس، وبرلين. إنهم الورثة الحقيقيون ليس فقط لأنهم اعتنوا بها ويعرفونها تمامًا ولكن لأنها أيضًا على أيديهم أصبحت عالمية تمامًا، وهذا الميراث هو الذى ألهــم الفــلاسفــة، ورجال الدولة، والشعراء، والمهندسين المعماريين فى كل مكان" (١٩٩٦، ٢٤٣).

٧- بالنسبة لوصف مدينة الجيزة والأحياء المحيطة بالأهرام، يمكنك الرجوع إلى وصف مصر. الجزء الثاني، ٧٤٧.

٨- الترجمات المختلفة عن الألمانية قمت بها بنفسي.

٩- تأسست عِزب جديدة، كما أوردت جريدة الإجيبشيان جازيت: "هناك طلبات للموافقة عليها في وزارة الداخلية لإنشاء (٢) عِزبة جديدة على بعد ٢ كم من أبو قير. سيطلق على واحدة منها عِزبة الكثير، بالقرب من خرابة، والأخرى عِزبة الحسين" (١٧ يونيو ١٩٠٢). ويمكن بيع هذه العِزب بملحقاتها. فقد قام يوسف باشا، على سبيل المثال بشراء عِزبة زهرة وملحقاتها التي تصل إلى ٢١٥٠ فدانا بسعر يبلغ ١٥٠،٠٠٠ جنيه مصرى فى ربيع عام ١٩٠٦ (الإجيبشيان جازيت مارس ١٩٠٦).

١٠- لتفاصيل أكثر في هذا الصدد يمكنك الرجوع إلى *Kuppinger 2000, 161*.

١١- تعتبر رواية محمد حسين هيكل "زينب" والتى نُشرت لأول مرة عام ١٩١٣، هى النموذج الأدبى لهذه الأفكار (١٩٨٩).

١٢- وصفت (*Baedeker travel guide*) مينا هاوس فى عام ١٩٠٦ كالآتى: أ. مجمع فندقى رائع يضم ١٨٠ حجرة ، وحمامات، وحمام سباحة، وملاعب رياضية، وساحات لركوب الخيل" (١٩٠٦، ٢٩).

١٣- وردت طرائف عن المضاربات فى الأرض حول طريق الأهرام كما هو الوضع الآن فى الوقت الحالى هكذا: يمكن أن تباع الأرض هنا من ١٠ إلى ٦ جنيهات إسترلينية للمتر المربع ولأنه سيتم تجفيف وإضاءة الأراضى كلها هنا فى غضون السنوات القليلة القادمة فإن السعر يبدو معقولاً لأفضل الأحياء فى المدينة. وستمنح الأنباء التى تتردد عن أن شركة الترام قد تقدمت لوزارة الأشغال العامة للحصول على حقوق مد خطين من خطوط الترام على هذا الجزء دفعة إضافية لقيمة الأراضى" (الإجيبشيان جازيت ١٠ نوفمبر ١٩٠٦).

١٤- باعتبارها واحدة من أبرز مناطق النزهات فى القاهرة، فإن طريق الأهرام كان لها نصيبها من حوادث السيارات حيث كان السائقون يتسابقون فى هذا الطريق الممتد (راجع التقرير المنشور فى الإجيبشيان جازيت عن السيارة التى كانت تمشى بسرعة واصطدمت حينئذ بأحد أعمدة الترام" ٣٠ أغسطس ١٩٠٧).

١٥- يتداعى إلى الذاكرة هنا إطلاق الألعاب النارية فى الكريسماس على قمة الهرم الأكبر والذى قام به ليبسوس (راجع أعلاه). ويبدو أن الأهرام كانت تُلهم الغربيين إقامة الاستعراضات المتألقة بالعظمة.

١٦- كان من الضيوف الأقل لمعانًا وشهرة لتلك الحقبة فى مينا هاوس جوزيف جوبلز، وزير الدعاية فى النظام النازى. فقد تناول طعام الغذاء ومكث هناك فى إبريل ١٩٣٩. وقد أوضح سمير رأفت أن زيارة جوبلز قد شملت زيارة أهرام الجيزة وركوب الجمل تحت ضوء القمر قبل أن يعود أدراجه إلى مينا هاوس" (١٩٩٥).

١٧- تسرد نينا نيلسون لقرائها أن أم كلثوم كانت تعشق شوربة العدس، والسمك، ولحم صغار الخراف المحاط بالأرز المُتبل بالتوابل الشرقية والعنب. والحمام المشوى والمحشو والذى يقدم مع الباذنجان المخلوط بالتوابل والصلصة"، والذى كان يقوم بإعداده خصيصًا طاهٍ سويسرى يُدعى هانز (١٩٩٧، ١٣).

١٨- أزيلت منطقة صغيرة فى الحى بالجرافات من أجل المركز القومى للبحوث على شارع التحرير، وأزيلت أخرى كانت جزءا من منطقة العجوزة القديمة من أجل امتداد كوبرى ٦ أكتوبر (على شارع المتحف الزراعي).

١٩- سردت سيدة مُسنة وهى تتذكر كيف أنهم كأطفال كانوا فقط يسرعون بالخروج من المنطقة، عبر قناة الرى الصغيرة، ثم يأخذون فى العدو حتى يصلوا إلى ميت عقبة لزيارة أقاربهم.

٢٠- يُشكل القانون رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٤ الأساس لسياسات الانفتاح الاقتصادى والتى كان ينتهجها السادات من أجل التحرر الاقتصادى (*Gray 1998*).

٢١- ذكر السيد ممدوح البلتاجى وزير السياحة فى مقابلة جرت عام ١٩٩٨ عن هذه المبادرات: "بعد مرور عدة فترات ناجحة للإصلاح الاقتصادى، والحوافز، والضمانات، والإدارات القانونية، فقد تشجع المستثمرون من مصر والخارج فى المساهمة فى عمليات تطوير السياحة. وقد ارتفعت نتيجة لذلك، إمكانيات الإقامة، من ١٨,٠٠٠ إلى ٧٥,٠٠٠ فى عام ١٩٩٧. ولدينا الآن ٦٠٣ مشروعًا تحت الإنشاء". وأشار إلى أنه فى نفس الوقت "قد استثمرت مصر أكثر من ٥٠ بليون دولار أمريكى من أجل تحسين البنية التحتية والمرافق العامة" (الأهرام ويكلى ٢١-٢٥ مايو؛ *Gray 1998*).

٢٢- فى تحول مثير للاهتمام من تمثيل النزعات الاستهلاكية والانحدار الثقافى، فى طبعة حديثة من كتاب التلوين باربى، والذى تسافر فيه حول العالم، صورت باربى أمام الأهرام أثناء توقفها فى مصر، وبذلك أصبحت الأهرام تمثل مصر، بقدر ما يمثل برج إيفل فرنسا فى النموذج الأصلى لعالم باربى. وقد عبر أحد المؤلفين عن ذلك حقًا بقوله، "إن أهرام الجيزة العظيمة وأبو الهول هى الشعارات غير الرسمية لعالم السياحة" ***(Beirman 2003, 69)***.

٢٣- يستند الجزء التالى بدرجة كبيرة على تحليل سابق أكثر تفصيلاً على الآثار السياسية للزلزال ***(Kuppinger 2001)***.

٢٤- قدم خطاب الرئيس مبارك فى ٥ يناير ١٩٩٣ مزيدا من التفاصيل عن أخطار الأحياء العشوائية، بينما يقدم تخطيطًا لخطوات الحكومة من أجل حل تلك المعضلة (جريدة الأهرام ٢ و٣ مايو ١٩٩٣).

٢٥- لمعـــالجة أكثر تفصيلاً للعشوائية كمقترحات جمالية واجتماعية فى البيئة المصرية، راجع الوالى ١٩٩٣.

٢٦- من الطريف أن نشير إلى أن تقليد عرض عايدة أمام أهرام الجيزة يعود إلى حقبة مبكرة من القرن العشرين ***(Nelson 1997,28)***.

٢٧- يسجل منتدى النقاش فى الإنترنت ***(ArchNet)*** نقاشاً مثيراً للمعماريين المصريين عن هذا المشروع ***(Archnet.org 2003)***. وينتقد خالد عصفور، وهو مهندس معمارى مصرى، منتهزاً فرصة مسابقة المتحف المصرى الكبير، هزال برامج الجامعات المصرية فى الهندسة المعمارية (٢٠٠٣).

٢٨- الحجرة التى تهدمت لم تكن فى حى الطيبين حيث كان زوج أم هانى يحتفظ بسكن ثان من زواج سابق فى مكان آخر من المدينة.

الفصل الثانى عشر

قاهرة الزمن الجميل
سياسة تجديد الحى التجارى بوسط المدينة

جليلة القاضى ودليلة الكردانى

مقدمة

ربما تبدو الدرجة التى يثار بها اهتمام دولة فخورة بقوميتها العربية مثل مصر مثيرة للدهشة وأن تكرس مواردها المحدودة من أجل الإرث المعمارى والحضرى داخل أراضيها، ذلك الإرث الذى يعود إلى حقبة الهيمنة الأجنبية– للاستعمار البريطانى والملكيات التركية – الشركسية. ودأب الرسميون والمفكرون الوطنيون فى مصر الميالون للثقة ومنذ سنوات الثمانينيات، مع ذلك، وعلى نحو أكثر إلحاحًا منذ الهزة الأرضية التى ضربت مصر فى عام ١٩٩٢، على إسراع الخُطى فى جهودهم من أجل الحفاظ على المبانى والمواقع الأثرية التى تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين والآيلة للانهيار. ولطالما أعربوا بجلاء وقاموا بالترويج لحملة تراث جديدة تمامًا تستهدف وسائل الإعلام المحلية والعالمية والإعلان عن جهودهم فى المؤتمرات العلمية، والثقافية، والقانونية، والتخطيط الحضرى.

وبدلاً من التركيز على الإرث الفرعوني، والقبطي، والإسلامي الكبير الحجم والمعروف جيدًا على نطاق العالم، فإن الائتلاف الجديد بين نخبة المثقفين ورجال الدولة في مصر قد ابتدعوا فكرة جديدة عن التراث تستهدف ترميم جوانب معينة من مشهد القاهرة الحضري وإعادة تدوين السرد التاريخي لحقبة ما قبل الثورة، والحقبة الاستعمارية الملكية. وقام ائتلاف جديد بين دعاة الحفاظ على المواقع التاريخية باختلاق ثورة، وتعميم مشاعر حنين لحقبة لم تُقدر حق قدرها، ويعاد وصفها الآن بمسمى "قاهرة الزمن الجميل". وتتجاهل هذه الحملة بشكل انتقائي الهيمنة الأجنبية في الفترة ١٨٧٠ – ١٩٥٢، وبدلاً من ذلك تقوم بإعادة تعريف تلك الحقبة كحقبة ذهبية تميزت بالدماثة، والإبداع العربي المدني والمتأصل في فنون الديكور، والفن الحديث، والإمبراطورية الفرنسية، وفن الزخرفة العربي الحديث (الأرابيسك)، وهياكل الاستشراق الجديد لفيلات وسط مدينة القاهرة، والمسارح، والمقاهي، والمؤسسات. ويتكون هؤلاء الذين يعيدون استكشاف ميراث قاهرة الزمن الجميل من طبقة ذات صلات مهنية ومالية، وتجارية طيبة، والنخبة المُبدعة في مصر اليوم والذين ينظرون إلى تلك الحقبة ليس كحقبة انحدار استعمارية وملكية ولكن كلحظات فخار للبعث الحضري لمصر، عندما بزغت الحركات الوطنيـــة التحـــررية، وتولدت تجارب حداثة، وعلمانية، وأدبية، واجتماعية، وثقافية مهمة.

وسبق هذه الحركة التي تستهدف الحفاظ على الحضر وواكبها عرض مسلسلات تليفزيونية، وأفلام، وافتتاح معارض، ووقوع أحداث أدبية وكلها كانت تُمجد الحياة الاجتماعية "الطيبة في الماضي" في أحياء وسط المدينة والتي ظهرت في السنوات الأخيرة لهيمنة الحقبة التركية – الشركسية (الخديوية العثمانية) وأثناء الحماية البريطانية. وتشمل هذه الأحياء منطقة جاردن سيتي والتي كانت جزيرة للفن الحديث آنذاك من الحياة البوهيمية، وفيلات الحلمية الجديدة، والشوارع العريضة المزدانة بالأشجار في منطقة قلب المدينة للقرن التاسع عشر.



مجموعة من المبانى الشهيرة الواقعة فى قلب القاهرة والتى تم بناؤها فى حقبة ما يُطلق عليها "قاهرة الزمن الجميل" (تصوير إليان بونامي)



مجموعة من المبانى الشهيرة الواقعة فى قلب القاهرة والتى تم بناؤها فى حقبة ما يُطلق عليها "قاهرة الزمن الجميل" (تصوير إليان بونامي)

تعيد هذه التسمية "الزمن الجميل" إحياء ذكرى القاهرة كمدينة عالمية المستوى، وحاضرة عالمية، تخيلها وقام بتشييدها بعض من أفضل المواهب المعمارية المحلية والعالمية ممن ينتمون لتلك الحقبة. وبينما ينظرون إلى الماضى بالمزيد من مشاعر الحنين، فإن ائتلاف الليبرالية الجديدة الداعية إلى الحفاظ على التراث يرى الحقبة الحالية كزمن يحمل الكثير من المخاطر والتدهور فى المجال الحضرى. ويصور القاهرة وكأنها آيلة للتدهور، ومكتظة بالسكان، وضحية لجهود تخطيط الدولة العشوائية والكوارث الطبيعية. ويتم التعبير عن هذا الحنين لقاهرة الزمن الجميل أثناء فترات الاضمحلال الاقتصادى والسياسى والتى ينظر إليها دعاة الحفاظ على الحضر كأسوأ مما يعد الآن أسطورة حقبة الملكية الاستعمارية.

وتلقى المقالات المصورة، والكتب المتناثرة على مناضد حجرات الاستقبال عن فيلات وشقق ذلك العهد المجيد رواجًا كبيرًا *(Ra'fat 2003; Myntti 1999)*. واستجابت وزارت الثقافة، وتكنولوجيا الاتصالات، والإسكان لهذه النزعة نحو إعادة الإمساك بحقبة الزمن الجميل عن طريق إعادة تقييم وحماية التراث المعمارى لتلك الحقبة الحديثة. وتضافرت المجتمعات المحلية، ومراكز الأبحاث الجامعية، والمستشارون، ورجال الأعمال وسماسرة الأوراق المالية فى حركة حماية واحدة. وتناضل الحملة التى يقومون بها من أجل الترويج لتراث تلك الحقبة وذلك حتى يصبح "الزمن الجميل" جزءا لا يتجزأ من تراث مصر، ومعادلاً لتراث قاهرة الألفية القديمة، وقلب الهندسة المعمارية الرائعة للعصور الوسطى بل وأكثر أناقة منها.

لقد تطلب ترسيخ المعنى الجديد لإرث الزمن الجميل جهد وتخطيطًا كبيرًا. وبدأت الدولة أولى خطواتها عن طريق حظر هدم القصور والمنازل التى ترتبط بالأحداث والشخصيات المهمة لتلك الحقبة الحداثية من تاريخ مصر عن طريق

سلسلة من القرارات الوزارية بين عامى ١٩٩٣ و ١٩٩٨. وقد أمر القرار الأخير باختيار أى قصر، أو منزل، أو بناية معمارية متميزة تم استخدامها لأنشطة إدارية أو تعليمية، أو أى أنشطة أخرى، وحظر إجراء تعديلات على هذه المبانى المختارة، طبقًا لهذا القرار الجديد. وقامت الجهات الحكومية المعنية بمراجعة وتحديد المواقع الخلاقة التى تنتمى إلى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وأحياء المدينة بغرض تحديد المبانى التى تحتاج إلى حماية. ومن بين تلك المبانى، أكثر من ستين مبنى فى القاهرة فقط تم إدراجها فى القائمة الوطنية للآثار التاريخية. وهناك فارق بين إدراج المبنى فى القائمة وبين تسجيله: حيث إن المبنى الـــذى تـــم إدراجـــه يعتبر كأثر تاريخى بينما تلك المسجلة تعتبر ذات قيمة تاريخية فقط.

كما دشنت محافظة القاهرة حملات تقوم بالتركيز على ترميم وإصلاح مبانى منطقة وسط القاهرة (وسط البلد). ومنذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين، فإن مركز القاهرة الحضرى للحكومة، والثقافة، والبنوك كانت كلها تقع فى القاهرة الإسلامية، والتى تم رفعها عن منطقة السهول الفيضية للجانب الشرقى لوادى النيل. وبينما كان يتم تشييد السدود من أجل التحكم فى الفيضانات وتجفيف الأراضى الرطبة، فى القرن التاسع عشر، فإن مركزًا جديدًا للمدينة كان يتم بناؤه على الضفة الشرقية لنهر النيل، مجاورا للميادين، والقصور، والمساجد القديمة، وقلعة القاهرة الأصلية. وقد تم تشييد قلب المدينة الجديد هذا فى القرن التاسع عشر طبقًا لنمط تجديدات المهندس الفرنسى "أوجين هوسمان" لمدينة باريس، والتى تتميز بالشوارع المتسعة، وأروقة التسوق، وبلوكات شقق سكنية موحدة للطبقة المتوسطة تم تشييدها لملاك الأراضى المصريين البازغين وطبقة التجار المهيمنين فى عهد الخديوى إسماعيل بالإضافة إلى الأوروبيين واللبنانيين –

السوريين المهاجرين. وكان محافظو القاهرة قد قاموا باستثمار منطقة وسط المدينة التى تعود إلى القرن التاسع عشر وذات القيمة الوطنية العظيمة كمحور لنهضة حضارية للمحلية، وتشجيع ترميم ما يقرب من ستين مبنى عن طريق القطاعين الخاص والعام.

ومارست وزارة الثقافة سياسة تحويل المنازل والقصور إلى استخدامات ثقافية، وتعليمية، وترويحية جديدة منذ أوائل سنوات الثمانينيات. وتعتبر وزارة الثقافة الآن عنصرًا جوهريًا فى إدارة وحماية تراث حقبة الزمن الجميل. كما تضافر رجال الأعمال والمؤسسات، وأصحاب الحوانيت فى مصر وشرعوا فى استثمار أموالهم والدعم السياسى الذى يجدونه من أجل ترميم وتجديد هذه المنطقة. وبينما يزيد القطاع الخاص من شراكته مع الجهات الحكومية التى تملك حصة فى هذه الحملة (وزارات السياحة، والثقافة، والإسكان، والأوقاف الدينية)، فإن وضوح وشعبية هذه المشروعات فى تصاعد مستمر.

ولعبت الأبحاث الجامعية، والدراسات الأكاديمية والتاريخية، ومواقع الإنترنت، والحملات الدعائية دورها فى توعية العامة بأهمية هذه المواقع والموضوعات المعروفة للعامة بالكاد. وعلى الرغم من الجهود المبذولة من أجل تعزيز الوعى للحاجة لحماية صروح أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين والتى حمل لواءها المفكرون، والمعماريون، وخبراء التخطيط العمرانى، كما كانت غيرها من الجهات رفيعة المستوى فى أوج نشاطها أيضًا فى هذا المضمار. فقد دشنت، على سبيل المثال، هيئة فولبرايت الأمريكية، وصحيفة الأهرام ويكلى، ومكتبة مبارك العامة تحت رعاية سوزان مبارك حملة رفيعة المستوى وحملة وطنية مدعومة من نخبة المجتمع من أجل الحفاظ على التراث المعمارى لمصر الحديثة.

وقد أدى تزايد القرارات الحكومية، والسياسات الإدارية، والحماس الذى اعترى كلا من القطاعين العام والخاص إلى ظهور مواقف متناقضة. فمن ناحية، ظهر عدم كفاءة التخطيط الحضرى بصفة عامة، وإدارة التراث القومى بوجه خاص وتعمقا يومًا بعد يوم حيث رفعت من درجة الجدال فى المجالين الداخلى والعالمى. من جانب آخر، إعادة اكتشاف الحقبة التى كانت توصم بأنها حداثة وتحرر قومى للهيمنة الغربية قد قامت بتعبئة العامة للدفاع عن الإرث الحديث لمدينة العاصمة. وتسبب تدمير مقهى متاتيا فى وسط القاهرة عام ١٩٩٩، على سبيل المثال، حيث كان ملتقى قادة "ثورة عرابي"، وهى الانتفاضة القومية الأولى لمصر ضد البريطانيين فى عام ١٨٨٢ – فى غضب شعبى عارم دعا إلى الانتباه إلى الأهمية الناشئة لمواقع القرن التاسع عشر وقيمتها الرمزية (حسن ١٩٩٩). ويصور إعادة تجديد علاقة العامة بالمواقع التى تم هجرها لعقود طويلة بواسطة النخبة المثقفة والطبقة الوسطى بزوغ هوية ثقافية جديدة بين نخبة الليبراليين الجدد، وبعض فئات مسئولى الدولة، ورجال الأعمال المصريين.

كيف بدأت هذه العملية من ثقافة التحويل إلى تراث ثقافى فى الظهور؟ وما هى الطبيعة الحقيقية وأهمية هذه المواقع والأشياء؟ وكيف تطورات استراتيجيات الأطراف الفاعلة ولأى درجة استطاعوا إيضاح نواياهم؟ وما تأثير هذه المبادرات على المجتمع، وما هى حدود هذا التأثير؟ وهل هذه الأفعال تتبع أنماطًا متماسكة؟ وهل هذه الثقافة من التحويل إلى تراث ثقافى هى حركة دائبة أم نزعة عابرة؟ وحتى نتمكن من الإجابة على هذه الأسئلة يجب علينا أولاً أن نقوم بوصف هذه الثقافة من التحويل إلى تراث فى مصر عن طريق وضع كل خطوة فى سياق وضعها الاجتماعي– الثقافى والسياسى، وقياس درجات النجاح والفشل وتقدير مسارات هذه العملية.

عملية التحويل إلى تراث إنساني

عملية التحويل إلى تراث هي عملية تصنيف تقييم المباني التاريخية والمواقع كإرث وكملكية ضرورية والمعنى الجمعي – ذخيرة لأمة، أو لمدينة، أو للإنسانية. ويتم التعبير عن عملية التحويل إلى تراث بطريقة مغايرة بأبعادها السياسية، والإدارية، والقانونية، والثقافية، والتطبيقية. ويمكن أن تكون هذه العملية مفهومًا جديدًا (واسع النطاق) نسبيًا، ولكن كلمة تراث متأصلة تاريخيًا واكتسبت العديد من الدلالات أو المفاهيم المختلفة مع مرور الزمن. (راجع فى ذلك ويليامز، والششتاوى، والفصل السابع، وسميث، وكويبنجر فى هذا الكتاب من أجل تحليلات أخرى لسياسة التجديدات التاريخية في القاهرة ودورها فى التنمية الاقتصادية، والهوية الوطنية، وتعزيز صناعة السياحة). ويشير التراث بمعناه القانونى الأصلى، إلى الملكية الموروثة. فكل جيل من الأجيال يرث حاجيات، ويحصل على حصيلة منها على شكل مخزون موثق، ويقوم بتقييم قيمتها التاريخية ويقرر ما إذا كان سيحتفظ بها أو سيقوم بالتخلص منها. وهذه الإجراءات بمثابة فعل ذى طبيعة ثقافية واقتصادية فى آن واحد: ثقافية لأنها تجعل فى مقدور أفراد الشعب أن يتصلوا بماضيهم بأكمله، وأن يحتفظوا بذاكرة الماضى عبر أشياء رمزية ومادية؛ واقتصادية لأنها تعطى قيمة أو عائدًا عند الاستخدام أو التبادل، واستحقاق منزلة معينة. وبقدر ما نحن مهتمون، فإن مصطلح "ميراث" يتعلق بأشياء معمارية ومواقع حضرية والتى أصبحت، أو هى فى طريقها لأن تصبح، معترفا بها كآثار ملموسة لعصور منصرمة. وهكذا فإن عملية التحويل إلى تراث، تستهدف تحويل قيمة التبادل إلى قيمة ثقافية عن طريق تحسين هذه الموجودات والمواقع بوظائف جديدة لنقل المعرفة وتعزيز الثقافة والهويات الوطنية؛ وكأماكن يمكن أن تؤمها فئات معينة من الناس لقضاء أوقات فراغها وتأمل جمالياتها؛ وتنشيط القوى

المحركة من أجل التطوير المحلى والإقليمى الذى يمكن أن يقوم بجذب السائحين، وتحفيز الاستهلاك، وبالتالى خلق إيرادات وأرباح على المستويين القومى والعالمى.

تتضمن عملية التحويل إلى تراث سلسلة متعاقبة أو متقطعة من المراحل: الدراسة، والتقييم، والتوثيق، والاختيار، ثم سن قوانين الحماية، وخلق مؤسسات خاصة من أجل إدارة وحماية الجهود، ونشر الأدوات، وأداء التجديدات، وزيادة الوعى العام، وتدريب المستخدمين، وضمان الصيانة المستمرة.

وقد أدى اهتمام الدولة المصرية بعملية التحويل إلى تراث إلى توسيع التراث كمفهوم، والتوسيع الرمزى والتاريخى من أجل ضم المزيد من الحُقب التاريخية والتنوع فى دمج المبانى والمواقع التاريخية إلى قالب هذا المفهوم. وتقوم الدولة باتباع عملية تطويرية، وتوسيع النطاق القانونى، وتعزيز التشريعات تدريجيًا من أجل مزيد من الحماية الفعالة.

على الرغم من ذلك، فإن هذه العملية لها منشأ خارجى؛ لم تبادر به النخبة المصرية المحلية على مر التاريخ. وقد أفرز هذا التضارب بين الخارجى والداخلى صدامًا بين غايتين: واحدة، توسيع نطاق تغطية أنواع ومواقع الإرث التاريخى والعصور التاريخية، والثانية، هدف جموع النخبة المحلية المصرية، والتى تستهدف جعل المجتمع بأكمله مدركًا لأهمية حماية هذا الإرث والاحتفاء به. بعبارة أخرى، يمكن للمرء أن يقر بأن الميراث التاريخى يمكن أن يكون عنصر توحيد بين النطاق الحضرى أو المجتمع الوطنى الذى يمكنه إدراك أن كل أفراده جميعًا ينحدرون من نفس الكائن الحى، والقيم الموروثة التى تستحق أن تنتقل وتتوارث. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان يتم تسييس عملية التحويل إلى تراث على الدوام وجعلها موضع خلاف فى مصر. وليس هناك اتفاقا عاما أو توافقا مشتركا لمفهوم ومضمون "التراث" داخل طوائف النخبة. لذا فإنه يمكننا التحدث عن "التراث" فى

صيغة الجمــع، مــع كل فئة من فئات النخبة والتى تقوم بتعريف التراث بطريقة أو بأخرى. كما تتعامل الطبقات الشعبية بتعريفات أخرى للتراث. فبالنسبة للبعض منهم فالتراث هو مقامات الأولياء أو مقابرهم، وللآخرين فهو بقايا أثر مقدس فى كنيسة. والقليل جدًا منهم فى مصر لديهم التزام بالتعدد ويمكن أن يتبنى مجمل التراث وأن يستخلص المعنى من ضمن العديد من مجموعات التراث.

إدارة التراث فى مصر

للوهلة الأولى، فإن عملية التحويل إلى تراث يقوم بها المجلس الأعلى للآثار طبقًا للقانون رقم ٤٠٠ لسنة ١٩٨٣ لحماية الآثار التاريخية، الذى يقوم بتعريف الآثار على النحو التالي:

> **يعتبر أثر كل عقار أو منقول أظهرتــه أو أحدثتــه الفنــون والعلوم والآداب والأديان والأخلاق وغيرها منذ عصر ما قبل التاريخ والعصور التالية حتــى عــام ١٨٨٣. وأيضًا كــل عقــار أو منقول تم اكتشافه فى الأراضى المصرية وأظهرته أى حضارة أجنبية كانت لها علاقات مع مصر فى أى واحــد من العصور الزمنية المذكورة. هيئة الآثار المصرية ١٩٨٥.**

وقد قام هذا القانون الجديد بالتوسيع من سلطات المجلس الأعلى للآثار، وهى الهيئة المركزية المسئولة عن إدارة عمليات حماية الآثار، وترميمها، وتجديد ذخيرة الكنوز الأثرية الهائلة العالمية، والدينية، والميراث الوطنى لمصر. ويتيح القانون للمجلس الأعلى للآثار أن يقوم بمصادرة ملكية، وأن يقوم بإصدار تصاريح هدم وبناء، وأن يقوم بحماية الكنوز الأثرية وما يحيط بها. ونظرًا لدمج المجلس

الأعلى للآثار مع وزارة الثقافة، فإن القانون يؤكد على سيادة قانون السلطات الوطنية على المستوى المركزى فوق السلطات البلدية أو المحلية. لذا فإن المجلس الأعلى للآثار هيئة مستقلة فى شأن التحويل إلى تراث، وكل القطاعات الأخرى على المستوى الإقليمى، والوطنى، والحضرى يجب عليها الحصول على موافقة من المجلس الأعلى للآثار فى المناطق المحمية أو المحظورة على العامة، أو فى المناطق التى تحتوى على مواقع أبنية أثرية. ويتكون المجلس الأعلى للآثار من ستة أقسام، القسم الأول مسئول عن إدارة المواقع التى تنتمى إلى حقبة ما قبل التاريخ، والعجائب الفرعونية، والآثار التى تنتمى للفترة حتى نهاية الحقبة العربية؛ والقسم الثانى مسئول عن إدارة الآثار القبطية والإسلامية؛ والثالث يقوم بإدارة المتاحف؛ والرابع يقوم بتوقيع العقود وإجراء المناقصات وتحديد المقاولين لمختلف المشروعات، والخامس يقوم بعمليات التمويل؛ أما السادس والأخير فيمثل الجهة المُشرفة، وهو المجلس العام.

ويقع المجلس الأعلى للآثار تحت رحمة نظامين لتصنيف الآثار. الهيئات العالمية التى تبحث عن حماية التراث الثقافى العالمى وتلك التى فى مصر. وقد حددت هيئة اليونسكو خمسة مواقع أثرية – أهرام الجيزة، ومعبد أبو سمبل، وجزيرة فيلة، والقاهرة الفاطمية، ودير سانت كاترين ودير أبو مينا – ضمن قائمتها للتراث العالمي. وقد قامت الدولة المصرية بتحديد، أو طلب تسجيل ١٥ موقعًا أثريًا تحوى ما يقرب من ٣٢٠٠ أثرًا، وثلاث محميات كجزء من التراث الوطنى الرسمى تحت الحماية (طبقًا لمقابلة أُجريت مع فكرى حسن، وهو مستشار بالمجلس الأعلى للآثار)، و٨٢١ أثرًا قبطيًا، وإسلاميًا ويهوديًا (دليل الآثار– ٢٠٠٠، ١١). ويمكن للمجلس الأعلى للآثار أو أى مؤسسة أخرى أو فرد البحث عن التصنيف الرسمى من أجل حماية موقع أو أثر؛ ولكن هذه الصفة الرسمية يتم منحها فقط عن طريق قرار وزارى يصدره مكتب رئيس مجلس

الوزراء. ويمكن أن تتوسع هذه القائمة الرسمية كل عام طبقًا للاكتشافات الأثرية الجديدة، والقائمة التى يقوم بإعدادها المجلس الأعلى للآثار، أو طلبات لإضافة صفة الحماية والتى يمكن أن تقدمها أطراف أخرى. ولكن، يمكن حماية المواقع التى يزيد عمرها عن مائة عام طبقًا لهذا التشريع، والتى تضم أى عقار أو منقول أو مواقع ذات قيمة جمالية غير عادية أو تاريخية.

ويجب اتخاذ تدابير استثنائية من أجل تصنيف آثار يقل عمرها عن ١٠٠ عام ولكنها فيما عدا ذلك تتوافق مع المعايير المذكورة بعاليه. وتم تسجيل العشرات من المبانى التى تعود إلى حقبة الزمن الجميل من نماذج مختلفة منذ عام ١٩٨٢ إلى قائمة التراث. ومن بين هذه المبانى عقارات تشكل معالم مهمة فى قاهرة أوائل القرن العشرين، مثل بنك مصر (١٩٢٦)، ومعهد الموسيقى العربية (١٩٢٨)، وقصر البارون أمبان المُشيد على النمط الهندى (١٩٠٧ - ١٩١١)(١). ولم يؤد هذا الاهتمام الجديد إلى نظام إدارة أكثر كفاءة.

تقابل جهود مصر من أجل إدارة آثارها الوطنية فى وادى النيل عادة بالاستخفاف من قبل الهيئات الدولية والخبراء المحليين. ويبدو جليًا أن المواقع الأساسية للسياحة العالمية هى التى تدار بطريقة جيدة لسببين: السبب الأول، الدخل الذى تحققه، والثانى، رغبة الحكومة المصرية فى تدعيم صورتها كدولة حديثة. وحتى هذه الآثار أحيانًا لا تنجو من سوء الإدارة. ونحن لا نزال نتذكر السحب المؤقت لموقع الأهرام من قائمة التراث العالمى فى بداية عام ١٩٩٠.(٢) وكانت الآثار الإسلامية التى تشكل مجد المدينة ذات الألف مئذنة هدفًا للتجديد، وكثيرًا ما كان يتم ذلك بطريقة سيئة وبدون الأخذ فى الاعتبار ميثاق البندقية(٣). (ارجع إلى الجزء الخاص بويليام فى هذا الكتاب لتحليل أعمق والشك فى جهود الترميم للآثار الوطنية للقاهرة الإسلامية والفاطمية). وتمثل الآثار التى تم فتحها أمام العامة من

هذه الفئة ٦% فقط من تلك التى تضمها القائمة الوطنية للمواقع المحمية (دليل الآثار ٢٠٠٠، ٣). وربما عّن لنا أن نتساءل عما إذا كانت إدارة وتجديد الآثار الفرعونية، والقبطية، الإسلامية المصرية المحمية بالفعل لم ترق أبدًا إلى المستوى المطلوب، فلما إذن يشرع المسئولون المختصون بتوسيع دائرة مسئولياتهم وتلفيق نوع جديد تمامًا من التراث؟

طبيعة الذريعة

تتميز المدن والأحياء التى شُيدت فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالمجال الواسع من التنوع الجغرافى، والحضرى، والمعمارى، والتاريخى. وتشمل مدنًا جديدة تم تشييدها من لا شيء منذ عام ١٨٥٨ مثل بورسعيد، وبورفؤاد، والإسماعيلية على طول قناة السويس؛ ومدينة تابعة (مصر الجديدة) فى شرق القاهرة؛ وأحياء جديدة على الضفة الشرقية لنهر النيل فى القاهرة، وضواحى سكنية فاخرة، ومجمعات مساكن شعبية، ومدن عمالية. أما بالنسبة للهندسة المعمارية، فإنها تقدم لنا نماذج متنوعة: مبان سكنية كبيرة تتكون من وحدات متشابهة متراصة، فيلات مزخرفة، ومبان أكثر تواضعًا للطبقات المتوسطة، ومبانى تجارية (تشمل دور سينما، ومسرح، وبنوك، ومخازن عمومية، وفنادق)، ومبانى عمارات عامة مثيرة للإعجاب (وزارات، وجامعات ومدارس، ومبان صناعية).

تخيلت نخبة من المصريين والأتراك- الجراكسة قبل وأثناء الحماية البريطانية (١١٨٢- ١٩٢٢) وقامت بتشييد معظم هذه المواقع والمبانى. وأدخل المعماريون الأوروبيون الأنماط الحضرية، "خارجية المنشأ" أو أنماط العمارة العالمية والذين فوضتهم النخبة المحلية فى ذلك واحتضنوا هذه الأنماط، التى راجت بعد ذلك عن طريق الطبقة المتوسطة. ويفسر ذلك لماذا مصر فقط، ودون الأقطار

الأخرى فى العالم العربى، نادرًا ما كان يتم تحديد الأحياء "كمستعمرات" بحتة. ولكن الأماكن العامة لقاهرة الزمن الجميل كانت تعرف بالاستعمارية ولكن أيضًا مع حرية الإرادة، وتواجد هوية النخبة المصرية، والطبقة المتوسطة، والطبقة الشعبية، قبل، وأثناء، وبعد الحقبة الاستعمارية *(Arnaud 1993, 352-57)*. ولم تكن مصر تشبه الجزائر أو المغرب، حيث كانت المدن الفرنسية أو المناطق الأوروبية تتم صيانتها بمعزل عن الأنماط المحلية – الوطنية من حيث ارتياد العامة لها وإعادة تخصيصها. وييسر هذا العامل ويضفى الشرعية على الحملات الحالية لمساواة ودمج قاهرة الزمن الجميل للتراث الوطنى التاريخى. ولكن دعنا نتأمل أكثر فى الخطوات التى أدت إلى هذه المطالب.

عودة الحداثة المُهجنة

قامت مؤسسة أغا خان بتنظيم ندوة دولية حول القاهرة فى عام ١٩٨٤.[٤] وركزت إحدى المشاركَات الرئيسية فى المؤتمر على حى مصر الجديدة بالتحديد وهى مدينة تابعة شُيدت فى الصحراء الشرقية لمدينة القاهرة فى مشارف القرن العشرين عن طريق البلجيكى البارون أمبان *(Ilbert 1984, 36-42)*. وأظهرت الأسلوب الانتقائى الذى يميز الهندسة المعمارية الخاص بها، والتى مزجت ببراعة بين خصائص معينة لهندسة القاهرة المعمارية فى تلك الحقبة. وتحدث المشاركون عن "الزواج السعيد بين الشرق والغرب" والذى يستحق المحافظة عليه وحتى الاعتراف به كجزء من التراث الوطنى لمصر. هذه المحاولة الأولى لإعادة التأهيل الثقافى لموقع ووضع تصور له تكونت أثناء فترة الحماية البريطانية لمصر ولم تتم متابعتها بإجراءات فعالة. وظهرت، على الرغم من ذلك، مبادرات لمشروعات حماية قادها أفراد من جراء أنفسهم، ومؤسسات تعليمية، وإدارات ثقافية، ومؤسسات للحماية. وركزت هذه المؤسسات بصفة أساسية على صروح مبان صغيرة، ومغمورة نسبيًا، تجاهلتها قوائم التراث العامة.

كانت جامعة الأزهر بالقاهرة رائدة فى هذا المجال وكان طلابها يقومون بمسح ما يقرب من ٢٠ – ٣٠ مبنى كل عام، وذلك من أجل إعداد الأبحاث المبدئية المطلوبة لجهود الحماية التالية. وأسس صلاح زكى، وهو أستاذ ومهندس معمارى بارز الجمعية الجديدة، وهى الجمعية المصرية لخريجى الجامعات الألمانية من أجل حماية وترميم المبانى القديمة، وذلك بعد سلسلة من الحلقات الدراسية الحرة تعاون فى تنظيمها كل من كلية الفنون الجميلة بجامعة حلوان، ومعهد جوته الألمانى فى عام ١٩٩٢، وعام ١٩٩٣ لتعمل فى تناغم وتدعيم من السكان المحليين (معهد جوته القاهرة ١٩٩٧). واستهدفت منزلاً واحدًا ومدرسة غير مستخدمة لإجراء عمليات الترميم، بينما وافق السكان على تمويل مشروع يستهدف تجديد البنية الأساسية الخاصة بهم، وتنفيذ أعمال تقوية الهياكل، وتنظيف الواجهات. وقامت الجمعية بصياغة خطة عمل لتأسيس مركز رئيسى لها فى الحى، وتنظيم دورات تدريبية على الترميم، وإنشاء قاعدة بيانات، وتوعية السكان بأهمية هذا العمل، وجمع أموال من أجل عمليات الترميم والتجديد. وعلى الرغم من أن أيا من ذلك لم يؤت ثماره بالفعل، فإن طلبة جامعة حلوان تمكنوا مع ذلك من إجراء عمليات مسح لتسعة مبان وجُمعت التقارير التى قاموا بإعدادها وتم نشرها باللغات العربية والألمانية والإنجليزية.



اثنتان من سلسلة متاجر التجزئة الكبرى التى بُنيت فى حقبة "الزمن الجميل" صيدناوى إلى اليسار، وهى من تصميم جورج بارزك فى عام ١٩١٣؛ وعمر أفندى إلى إلى اليمين من تصميم راؤول باندان، وكـــلاهما قـــام عبـــد النـــاصر بتـــأميمهما (تصوير إليان بونامي).

وعلى الرغم من الطابع المحدود لهذه المبادرات من ناحية الزمن والمساحة، فإنها مُعبرة عن تولد الاهتمام بهندسة معمارية وطنية من نوع آخر لم تكن فى الحسبان عندما استهلت عملية التحويل إلي تراث. وتصاعدت وتيرة اهتمام القاهرة بحقبة الزمن الجميل، وذلك عندما ضرب زلزال عام ١٩٩٢ مصر.



التأثيرات المُحفزة لزلزال عام ١٩٩٢

ضرب زلزال بقوة متوسطة (بلغت ٥,٦ بمقياس ريختر) القاهرة. وأحدثت الهزة الناتجة عن الزلزال أضرارا مادية جسيمة، كما أن المئات فقدوا حياتهم أيضًا. وعانت المبانى الأكثر قدمًا من أبلغ الأضرار، كما أن ما يقرب من مائتين من الآثار التاريخية التى يقع أغلبها فى القاهرة القديمة لحقت بها أضرار. وفى حقيقة الأمر، فإن الكثير من هذه الآثار كان قد تم ترميمها ولم يتم فتحها أمام العامة إلا فى حوالى عام ١٩٨٤ قبل أن يضرب الزلزال المدينة العتيقة. وجاءت المدارس فى المركز الثانى من المبانى الأكثر تضررًا، حيث لحقت أضرار جسيمة بما يقرب من ثلاثة آلاف مدرسة، وتهدم بعضها تمامًا. وكانت الكثير من هذه المدارس تتخذ من القصور والفيلات التى تمت مصادرتها من الأرستقراطية المُبعدة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ مقرًا لها، حيث قامت السلطات الوطنية آنذاك بتخصيصها للتعليم. وقد اختيرت الآثار التاريخية المصنفة على قائمة التراث الوطنى للترميم. ومع ذلك، قررت وزارة التربية والتعليم أن الفيلات والقصور التى أصيبت بأضرار من جراء الزلزال يجب أن يتم هدمها. وبدأت الصحف فى شن حملات نقاش واسعة عن التراث دامت عدة شهور، فى رد فعل لهذا القرار. وتعزز الإدراك المسبق للضعف الذى يتميز به تراث الهندسة المعمارية والحضرية بحدوث الزلزال، والذى نشأ عنه إجماع جارف لصالح إدارة أكثر كفاءة من أجل حماية التراث المجيد للحضارة العربية الإسلامية للعصور الوسطى. وبالإضافة إلى حشد النخبة الثقافية، فإن القوة التدميرية للزلزال أشعلت شرارة نقاش لم يكن أقل إجماعًا عليه بخصوص حماية فيلات وقصور القرنين التاسع عشر والعشرين، التى كان وزير التربية والتعليم فى البداية يبحث هدمها حتى سطح الأرض. وقد سلط حدوث الزلزال الأضواء على فئة جديدة من التراث لمصر وبعث الحياة فيها، والتى كانت حتى ذلك الحين مهملة، وغير معروفة، وغير مصنفة ضمن أية فئة من فئات التراث وهي: عمارة الزمن الجميل الحديث.

حمل راية المقدمة في بداية الحملة، المفكرون، ومخططو العمارة الحضرية، بغرض حماية هذه المواقع والمباني. وأضفت سيدة مصر الأولى السيدة سوزان مبارك الصبغة القومية على الحملة برعايتها للجنة التي حملت رسالة التنبيه للمسئولين في السلطة، ومن ذلك الوقت فصاعدًا سيتم التعامل معها على أعلى مستوى من الشرعية والسلطة. وكانت هذه اللجنة تتشكل من ممثلين عن مؤسسة فولبرايت، ومكتبة مبارك العامة (جهة حكومية يتم إدارتها بتنظيم غير حكومي)، وجمعية الرعاية المتكاملة، وصحيفة الأهرام ويكلي. وقاموا بشن حملات لحماية هذه المواقع والمباني في عام ١٩٩٧. وكانت جريدة "أخبار الأدب" الأسبوعية بالتوازي مع هذه الحملة، قد بادرت بنشر طبعة خاصة في عام ١٩٩٦ عن تطوير وسط المدينة الحديثة والتي تضمنت مصنفًا للمواقع الهامة ودلالة أهميتها. كما أن هذه الطبعة الخاصة أشارت إلى التدهور الواضح لوسط مدينة القاهرة الحديثة ونادت بإعادة إحيائها.

بدأت كل من الصحف الحكومية وصحف المعارضة في لعب دور لم يسبق له مثيل عن طريق حملات الشجب لإساءة استخدام المباني، وتنشيط ذاكرة العامة من خلال مقالات موثقة جيدًا عن المباني التي تنتمي إلى تلك الحقبة. وقاموا بتغطية إعلامية لكل مشروع من مشروعات التنمية يمكن أن يعرض هذه المواقع التراثية للخطـر. وقـام المسئـولون بإصـدار قرارات تحظر هدم هذه القصور أو الفيلات، بالإضافة إلى أي مبنى حديث له "قيمة عظيمة" وذلك بفضل هذه الحملات الإعلامية.

ومع ذلك، لم تمض الأمور كما يجب وطبقًا للمعايير القياسية، وهذا يعني، باتباع تسلسل عقلاني: إعداد قائمة بالموجودات، والتعريف بمعايير الاختيار، والتصنيف، ثم وضع آليات تنظيمية جديدة. وتفتقر هذه المبادرة الجديدة لحماية

التراث، التى بدأت بناء على المبادرات الخاصة والعامة، إلى التنسيق من جانب، وإلى استراتيجية متماسكة من جانب آخر.

تشريع لا مبرر له

أصدر محافظ القاهرة فى عام ١٩٩٣ القرار رقم ٣٠٠ لنفس العام، والذى يحظر هدم القصور والفيلات التى ترتبط بالأحداث الرئيسية أو الشخصيات العامة التى تنتمى للتاريخ المصرى. وأُعلن فى عام ١٩٩٤، الوقف المؤقت لفترة قدرها ١١ شهر لكافة أعمال الهدم (قرار رقم ٢٤٤). ولكن جاءت الإجراءات الأكثر وضوحًا والأوسع نطاقًا فى عام ١٩٩٦ بالقرار رقم ٢٣٨. ويقوم بإلغاء القرار رقم ٣٠٠، وجاء فيه أن تطبيق تصريحات الهدم لأى مبنى سكنى ذى "نمط معمارى مرموق" سوف يتم رفضه. وأمرت بالإضافة إلى ذلك، بتسجيل أى قصر، أو منزل، أو مبنى يتم استخدامه فى الأغراض الإدارية، أو التعليمية، أو أية أنشطة أخرى وذو طراز معمارى مرموق، لدى السلطات المختصة، وحظرت تحويله طبقًا للقانون من أجل حماية الآثار التاريخية. وأوصت، فى النهاية، بإجراء عمليات ترميم مستمرة لهذه الصروح، بدون إلحاق الضرر بالنمط المعمارى المميز لها، وتحت رعاية السلطات المختصة.

وهكذا منحت محافظة القاهرة ضمنًا تراث تلك الحقبة التاريخية صفة "الآثار التاريخية"، وبذلك خطت خطوة مهمة تجاه حمايتها. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذه المبانى لم يُعرف عددها، وموقعها الجغرافى، والتصنيف الذى تنتمى إليه، وغير ذلك. وما كان غائبًا فى ذلك الوقت هو قائمة عامة بالمبانى المحصورة ومعايير اختيار مقبولة ومتفق عليها مبنية على تحليل هندسى معمارى، وحضرى، وإنشائى، وتاريخى. وظل مصطلح "مبان ذات قيمة عظيمة" يشوبه الغموض ما دامت لم تقم

السلطة المختصة بتوضيح قيمتها. بالإضافة إلى ذلك، فإن تأثير ثلاثة قرارات يكاد لا يذكر حيث استمر إجراء التعديلات وهدم المبانى القديمة على قدم وساق. وكان سطوة المال والنفوذ من المعوقات الأساسية. وعلى الرغم من هذه الأحكام الرسمية، فقد استمرت محاولات هدم المبانى أو انتهاك قيود الارتفاعات. وفى عام ١٩٩٧، عندما قامت جمعية حماية التراث بإيقاف عملية هدم فيلا بالزمالك والتى كانت تضم المقر الرئيسى لسفارة هولندا، أصدر محافظ القاهرة قرارًا آخر يقوم فيه بتعزيز القرارات السارية بالفعل (القرار رقم ١١٨). وقام السيد رئيس الوزراء فى عام ١٩٩٨ بإدخال مجموعة من العقوبات فى حالة عدم الامتثال للقانون (قرار رقم ٤٦٣). وينص البند الأول فى هذا التشريع على أن أى مبنى يتم هدمه، فإن أى مبنى جديد يتم بناؤه فى نفس المكان يجب أن يكون بنفس الارتفاع تمامًا (ونفس عدد الطوابق) أى مشابهًا لنفس المبنى القديم. ويتم تطبيق هذه الإجراءات الرادعة فى كل أنحاء مصر.

وعزز قرار عام ١٩٩٨ من الأمر العسكرى رقم ٢ لسنة ١٩٩٨ والذى أنهى الآلية التنظيمية لإدارة حماية المبانى ذات "القيمة العظيمة" ورغم أوجه القصور المتعددة والتدهور المستمر فى أوضاع المبانى القديمة كما أوضحت الصحافة، أدت هذه القرارات إلى الإبطاء من معدلات هدم القصور والفيلات فى انتظار إعداد قائمة حصر مناسبة للتراث الحضرى الحديث.

قوائم الحصر والتصنيفات

تم إعداد قائمة الحصر الأولى التى تغطى منازل وقصور كل مدينة صغيرة أو كبيرة فى مصر عن طريق هيئة المبانى التاريخية، وهى الجهة التى تم إنشاؤها عن طريق المجلس الأعلى للآثار ويقع مركزها الرئيسى فى قلعة القاهرة. وقامت

لجنة ثلاثية بتحديد ثلاثة معايير محددة للاختيار: النمط المعمارى، وزخرفة الواجهات، والقيمة التاريخية للأثر (الارتباط بشخصية رئيسية أو حادث تاريخي).

وتم جرد عدة عشرات من مبانى القاهرة وتمثيلها فى جداول تتضمن عناوينها والقيمة التاريخية التى تنسب لها. ولكن تم إلغاء هيئة المبانى التاريخية بعد ثلاث سنوات، على الأرجح لأنها لم تكن تملك السلطات المطلوبة لمعالجة النزاعات التى تثور بين أعضائها وملاك تلك الممتلكات العقارية التى يتم إحصاؤها.

تم تنفيذ عملية الجرد الثانية عن طريق محافظة القاهرة، أو على وجه أدق، لجنة حماية التراث المعمارى والتى كانت قد أُنشئت فى عام ١٩٩٨ تحت رئاسة رئيس قسم الإسكان والبنية التحتية. وقامت بتغطية أكثر من ٤٠٠٠ مبنى فى القاهرة، وقدمها محافظ القاهرة فى ندوة تم عقدها فى شهر سبتمبر من نفس العام. وكانت معايير الاختيار على الأرجح هى نفس المعايير التى تم تحديدها فى الحالة السابقة. وأُدرجت النتائج التى توصلت إليها اللجنة فى نماذج خاصة بالمبانى تتضمن موقعها، وعدد طوابقها، وحالة المبنى (جيدة، سيئة، متوسطة)، وعام تشييدها (إذا كان معلومًا)، ومرفقًا بها صورة للواجهة. وتم تخصيص رقم تسجيل لكل مبنى، والتى بلغت حد التسجيل الرسمى، وحظر الهدم، وحظر تغيير الاستخدام، أو أى شكل من أشكال التغيير بدون ترخيص رسمى من المحافظة.

أما عملية الجرد الثالثة فقد قامت بها الهيئة العامة للتخطيط العمرانى، وذلك فى عام ١٩٩٧ بواسطة عدد من المؤسسات وقامت بتغطية مبانى أقسام أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى القاهرة الكبرى. وكانت تهدف فى نهاية المطاف إلى أن تكون قاعدة يمكن على أساسها إعداد مشروعات تفصيلية لخطط التنمية الحضرية لقطاعات محددة وتحديد معايير البناء، ومستويات الكثافة،

وآليات القياس، وتحديد الوسائل المطلوبة من أجل تأمين مطابقة جهود التطوير الحضرى المستقبلية لطبيعة، والخصائص المميزة، وطاقات كل قطاع منها.

وكانت معايير الاختيار التى وضُعت بواسطة الجهود التى بذلتها الهيئة العامة للتخطيط العمرانى هى الأكثر شمولاً حتى الآن (الهيئة العامة للتخطيط العمراني). وكانت تلك المعايير تدور حول القيمة التاريخية، والجمالية، والمعمارية لتلك المبانى، وتشمل:

- عمر المبنى وإدراجه فى سجلات الآثار؛
- ما إذا كان المبنى موقعًا لحدث من الأحداث المهمة؛
- ما إذا كانت تقطنه شخصيات مهمة؛
- النمط المعمارى الذى ينتمى إليه المبنى: الكلاسيكية الجديدة، عصر النهضة، الأرت ديكو، الآرت نوفو (الفن الحديث)، النهضة العربية، وغيرها؛
- ما إذا كانَ النمط الخاص به يتوافق مع أنماط المبانى الأخرى المجاورة؛ وما إذا كان المبنى قد تم تصميمه بواسطة مهندس مصرى بارز أو مهندسين معماريين أجانب مع أعمالهم الأخرى المتميزة فى مصر كمفخرة لهم.

اتسع نطاق هذا التسجيل للمبانى إلى أبعد من مجرد إعداد قائمة بالمبانى ذات القيمة؛ وبحثت فى التهديدات البيئية والتهديدات الناشئة عن قربها لأى شيء، وأيضًا قامت بقياس درجة التدهور الذى أصابها بطريقة علمية. ولقد كان مما يؤسف له أن هذه النتائج لم يتم تنفيذها أو توزيعها على العامة، كما هو المعتاد فى مثل هذه المؤسسات.

على الرغم من الطابع البدائى، فإن هاتين القائمتين من قوائم التسجيل والإحصاء تؤسس توثيقًا مبدئيًا لأنماط البناء التى لم يتم تحديدها فى السابق بواسطة الدولة. وشكلت عمليات المسح الميدانية- التعريف، والإدراج فى القوائم، وتسجيل المواقع مع الجهات الحكومية المختصة – الأساس الراسخ لمنهج علمى على امتداد البلاد بأسرها. وعملت هذه المرحلة الأساسية من برامج الحماية تدريجيًا لبناء ثروة من التوثيق والعرض التصويرى التاريخى للمبانى الحديثة، والآثار، والمواقع الأثرية.

وامتد معنى "التراث" فى مصر، مع هذه المستندات الجردية، ليشمل المبانى المعمارية السكنية/ والتجارية وكل النسيج الحضرى لمنطقة الزمن الجميل فى وسط القاهرة، وهكذا مهد السبيل لتحليل وتقدير جديد وقائمة أولية إلزامية يجب أخذها فى الاعتبار. وتوفر دراسات التخطيط الحضرى، والتى اكتسبت مريدين لها فى فرنسا، وإيطاليا، وبريطانيا العظمى، وسويسرا، أسلوبًا جديدًا للنظر فى التصميمات المعمارية للمدينة ككل، مع الأخذ فى الاعتبار مجموعات من أشكال البناء فيها، وتصنيف الأجزاء التى تتشكل منها. وتستهدف هذه الدراسات ترسيخ منهج فى تحليل وتصنيف الأماكن الحضرية وأنماط الهندسة المعمارية. ويشمل بعض الأمثلة الأكثر تعبيرًا مثل العمل الذى ينتمى إلى المدرسة الإيطالية لكارلو أيمينو (١٩٨٥)، وألدو روسى (١٩٨١)، وأيمينو وروسى وآخرين (١٩٧٠)، وسافيريوا موراتورى (١٩٥٩)، والمدرسة الأنجلو- سكسونية ويحمل لواءها بن هيللر *(1996; Hillier and Hanson 1984)*، ومشروعات الأبحاث السويسرية التى تضم رودريك ج. لورانس وألبرت لورانس، ومجموعة البناء الفرنسية التى انضم تحت لوائها كل من فيليب بانارى وجين كاستيكس (١٩٨٣). وفى فرنسا، مارسيل بوتيه (٢٠٠٠)، وبيير لافيدان (١٩٧٤، ١٩٨٢)، وجورج شابوت وجين بيير تريكار –على الرغم من أنهم لم يعملوا فحسب فى حماية المدينة القديمة فقط – بل وشرعوا فى معاملة المدينة كوحدة عضوية واحدة، ووضعوا الأسس النظرية لقبول

التشكيل الحضرى كعلم للظواهر الحضرية. وقد تخطّى عملهم حدود التحليل البصرى الإبداعى لكاميللو سايت (١٩٨٠)، وكيفين لينتش (١٩٧٧) مع نزعتهم تجاه التصويرية بدلاً من التنظير وبناء نمط وصفى للمدينة التى يتم تصميمها من أجل إمكانية تحليلها من حيث الأهمية النسبية المكانية والزمنية. وفى مصر، فإن نتيجة هذه المجادلات المذهبية كانت نتيجة للتطور فى منهج علمى ذى ثلاث شعب تأخذ فى الاعتبار التصنيف المعمارى، وهندسة التشكيل الحضرية، والتاريخ الحضرى وذلك من أجل إعداد دراسة شاملة للمستوطنات البشرية.

وكان هناك بفضل جهود هذه الأبحاث الحديثة والمناقشات التى جرت حولها تقدم ملحوظ فى أساليب الحصر. وتتخذ معايير مصر الكثير من الأهمية فى الوقت الحالى للقيم الحضرية الأساسية مثل الصور الظلية، وشبكات الطرق، وهيكل وتجانس النسيج الحضرى، وكيف تترابط الأجزاء المكونة؛ والقيم الحضرية مثل تواجد المساحات الخضراء، ونوعية الأماكن العامة، ووجهات نظر السكان المحليين. واكتسبت القيم الاجتماعية لتراث المدينة الاعتراف لأول مرة من خلال التجربة الإيطالية فى بولونيا، وتم التصديق عليها على المستوى العالمى بما أُطلق عليه مسمى توصيات نيروبى "بشأن حماية التجمعات التقليدية التاريخية دورها فى الحيـــاة المعـــاصرة"، وبدوره اعتمد المؤتمر العام لليونسكو هذه التوصيات فى عام ١٩٧٦.

وإلى وقت قريب، كان المعيار المستخدم فى تمييز العناصر الثقافية فى القاهرة يتم بناؤه خصريًا على العلامات المرئية للقيمة التاريخية، وتنتج عنه قوائم لأنماط المبانى يتم تحليلها من وجهة نظر الملامح الخارجية المتميزة بمفردها. ويدعو العمل الحالى الذى يجرى فى المدينة والأبنية المعمارية الخاصة بها إلى معايير الاختيار التى تأخذ فى اعتبارها السياق الحضرى لمجموعة من الأشياء بالإضـــافة إلى خصائصها العديدة والمتميزة مثل: التصميم، والهيكل البنائى، والنمط، وغيرها.

ونظرًا للثغرات الموجود فى عملية الحصر والتى قامت بها الأجهزة المصرية، فقد أخذت مجموعة من الفرنسيين والمصريين، و"هيئة حماية التراث وإدارته فى كل من مصر وسوريا"، والتى يتم تمويلها عن طريق الاتحاد الأوروبى، على عاتقها إجراء بحث متطور لبلورة وتطوير أدوات مفاهيمية ومنهجية من أجل حماية المواقع الأثرية(٥). وقد تم استخدام منهج الحصر المشار إليه فى هذا البحث منذ ذلك الوقت على المستوى القومى فى مصر لمشاريع أخرى تم تنفيذها بواسطة فريق"هيئة حماية التراث وإدارته فى كل من مصر وسوريا".

نشر إدارة المعلومات

أحدث نشر العمل الموسوعى لمحمد شرابى للأبنية العمرانية لمركز وسط مدينة القاهرة فى عام ١٩٨٧ طفرة فى هذا المجال. غير أن الأمر استغرق بضع سنوات أخرى قبل أن تظهر مطبوعات أخرى على أرفف المكتبات ***Sakr 1993; Tamraz 1994; Myntti 1999; Morgan 1999***. وقد صدر عملان آخران فى عام ٢٠٠٢. وصدر العمل الأول، فى المجلة الشهرية مصر المحروسة، وقد قام بالتركيز على جهود تحسين الحياة فى وسط مدينة القاهرة (القاضى وعطية ٢٠٠٢). أما العمل الثانى، وهو منشور أكثر تخصصًا وقامت به سهير حواس وهو دليل معمارى يقترب من الكمال لمنطقة الزمن الجميل. أما عن المنشورات الدورية، فهناك المطبوعة نصف الشهرية (المدينة) وتقوم بوضع قسم بصفة منتظمة عن الهندسة المعمارية لحقبة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وتقوم مصر المحروسة بشن حملة دعائية تستهدف حماية ذاكرة التاريخ لهذه الحقبة من مواقع وصروح.

كما أن معلومات التراث يتم نشرها على موقعين جديدين بالشبكة العالمية للإنترنت. والأقدم وهو الأفضل توثيقًا ويتم إضفاء الحيوية عليه عن طريق مشاركات مراسليه ويحمل عنوانًا جذابًا وهو "الزمن الجميل" وعنوانه هو:

http://www.egy.com/epople/98-10-01.shtml;
www.egy.com/landmarkds/gardencity/gdncity01.html)

ثم هنالك موقع "هيئة حماية التراث وإدارته في كل من مصر وسوريا" وهو ***http://www.hercomanes.com*** وكان قابلا للتشغيل خلال عام ٢٠٠٤ فقط. وكانت يتم الاحتفاظ بهذه المعلومات والتعامل معها عن طريق المركز القومى لتوثيق التراث الثقافى والطبيعي. وقد تأسس هذا الموقع عن طريق وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات من أجل توثيق مجمل التراث الثقافى لمصر. وقام المركز القومى لتوثيق التراث الثقافى والطبيعى فى غضون سنوات قلائل بنشر عدد من الأقراص المضغوطة عن الغناء والفولكلور، جنبًا إلى جنب مع قوائم حصر وخرائط عن كل المواقع الأثرية الموجودة فى الأراضى المصرية، كما قام بتدشين موقع على شبكة الإنترنت العالمية عن التراث الفرعونى وهو موقع *http:www.eternalegypt*. وفى عام ٢٠٠٣ تم إدماج المركز القومى لتوثيق التراث الثقافى والطبيعى مع مكتبة الإسكندرية الجديدة. وتعمل بالتضافر مع مجموعات مصرية وفرنسية من أجل إعداد سجل حصرى بالصروح والمواقع التى تعود للقرنين التاسع عشر والعشرين فى مصر. وتعمل قاعدة معلومات المركز القومى لتوثيق التراث الثقافى والطبيعى بإثراء سجلاتها بمعلومات وبيانات جديدة وأصبحت الآن المصدر الأكثر أهمية للمعلومات عن التراث المصرى. والأكثر من ذلك أن المركز القومى لتوثيق التراث الثقافى والطبيعى يلعب دورًا ذا أبعاد ثلاثة: التنسيق، وإضفاء الطابع الرسمى، ثم أخيرًا تعميم ونشر التراث المصرى.

ونظرًا لكل الجهود التى ذكرناها آنفًا، وبعد فترة من التجربة والخطأ والبدايات المتباينة، انتظمت الأمور وبطريقة عقلانية. وأخيرًا، الروابط المبدئية فى سلسلة إدارة التراث يبدأ الآن توثيقهما بشكل رسمي: أن تعرف، وأن تنشر، وأن تنثر بذور المعرفة، بحيث تكون مطابقة مع متطلبات التنظيم والتوضيح.

إعادة استخدام المبانى القديمة

شرع كل من المجلس الأعلى للآثار ووزارة الثقافة المصرية فى انتهاج سياسة مواءمة المبانى مع الأنشطة التى تتصل بالثقافة والسياحة وذلك منذ سنوات الثمانينيات. وقد تم تحديد نوعين من أنواع الاستخدام: الدائمة، والموسمية. أولاً، تحولت القصور والمنازل التى تم تسجيلها ويعود تاريخها إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بصفة دائمة إلى فنادق، ومتاحف، ومكتبات، وغيرها. ويعتبر أشهر مثال يدل على ذلك هو قصر الخديوى إسماعيل، والذى شُيد فى عام ١٨٦٣ إبان الاحتفالات التى جرت بمناسبة افتتاح قناة السويس. وقد تم تصميمه بواسطة جوليوس فرانس (المعروف باسم فرانس بك)، وقام بأعمال الديكور معمارى ألمانى آخر، كارل فولهام فون (*Carl Wilhelm Von Diebitsch*)، وكان القصر قد تم بيعه لجمعية بهلر فى عام ١٨٧٩ وأصبح فندق قصر الجزيرة الأنيق. واشتراه أحد الأمراء فى عام ١٩١٩، والذى قام بتحويله مرة أخرى إلى سكن خاص. وقامت السلطات بمصادرة المبنى فى عام ١٩٦٢، فى أعقاب الثورة وقاموا بإعادة تحويله إلى فندق – عمر الخيام – والذى تم شراؤه فى وقت لاحق وجرى ترميمه فى عام ١٩٨٢ بواسطة الملاك الحاليين، سلسلة فنادق ماريوت (*Schmid 1990*).

هناك سكن ملكى آخر تم بناؤه فى نفس الحقبة على وجه التقريب، وهو قصر عابدين (قام بتصميمه دى كورل ديل روسو)، وتم تحويله جزئيا إلى متحف

داخل إطار منهج جديد نسبيًا لاستراتيجية الحماية من جانب وزارة الثقافة. وتحولت المنازل التى شغلها كبار الفنانين والشعراء إلى متاحف أيضًا فى إطار خطة، واحدة منها على سبيل المثال بمبادرة من – وتمويل بواسطة – أسرة الفنان نفسه وهو متحف ناجى.

وثانيًا، فإن قصور ومبانى الزمن الجميل قد استخدمت بمثابة مقار مؤقتة للحفلات الموسيقية، والمسرحيات، والمعارض، أو حتى فى إقامة المآدب الرسمية. وتم تنظيم اجتماع مائدة مستديرة بواسطة المركز الثقافى الفرنسى مع موظفى وزارة الثقافة المصرية أثناء احتفالات حملت شعار ("الفرنسيون يعشقون القاهرة"، مايو ٢٠٠١) واستكشفت الآفاق المستقبلية لإمكانية تحويل الاستخدام المؤقت للقصور والأبنية التى تم ترميمها حديثًا إلى مرافق دائمة.

فى نفس الوقت، فإن طوابق كاملة من المبانى القديمة فى وسط المدينة الحالية، قد تم تحويلها إلى معارض فنية، مثل تاون هاوس، وأم الدنيا، وهكذا أمكن جذب الطبقات العليا المهووسة بالأناقة إلى أحياء من المدينة ممن كانوا قد هجروها منذ وقت طويل (تقرير حماية وإدارة التراث فى مصر وسوريا المرحلة الثالثة، ديسمبر ٢٠٠٣). (ارجع إلى الجزء الخاص بدنيس وفيجنال فى هذا الكتاب من أجل مناقشة أوسع لهجر منطقة وسط المدينة بواسطة الطبقات العليا والمتوسطة).

وتسارعت وتيرة حركة الحماية بإنشاء ثلاث مكتبات عامة: مكتبة القاهرة الكبرى فى جزيرة الزمالك، ومكتبة مبارك العامة فى الجيزة، والأرشيف الوطنى فى باب الخلق. وتم إنشاء تسعة متاحف، فى نفس الوقت، فى فيلات وقصور تلك الحقبة التى ارتبطت بالشخصيات البارزة فى حقول الفنون، والأدب، والشعر، والشخصيات الأرستقراطية السابقة (حماية وإدارة التراث فى مصر وسوريا (٢٠٠٠– ٢٠٠٤). وفى حالات معينة كان ورثة هذه الفئة الأخيرة يقومون

بالتنازل عن هذه الممتلكات التاريخية لوزارة الثقافة. وفى حالات أخـرى، كانـت وزارة الثقافة هى التى تقوم بالاستيلاء على المبنى.

ويشكل إسناد مهام جديدة للمبانى القديمة فى مصر اليوم منهجًا جديدًا لإدارة حماية التراث. وعلى الرغم من قلة عدد المبانى المعاد استخدامها، فإن تحويلها قد شكل معلمًا جديدًا مع كل عملية افتتاح لأحدها. ويأمل المسئولون فى الدولة وأنصار الدفاع عن القطاع الخاص أن هذه العملية من "التحويل إلى تراث" ستساعد على نقل المعرفة، وتعزيز الثقافة والهوية، وخلق مساحات مفتوحة لخلق الإحساس بالجمال والاستمتاع به والترويح، واستثارة التنمية الإقليمية، وأخيرًا، جذب السائحين والأنشطة التى تدر دخلاً.

التدخلات فى التشغيل

استقطبت عمليات ترميم الصروح العامة وتجديد منطقتين من مناطق الزمن الجميل فى وسط القاهرة عددًا من الجهات الفاعلة: محافظة القاهرة، ووزارة الثقافة، والبعثات الدبلوماسية، وأصحاب العقارات، وجمعيات الحفاظ على التراث، والتجار. كما تداخلت معهم فئة جديدة فاعلة – وهى طبقة رجال الأعمال. وعلى الرغم مما يبدو من ضآلة ما تم ترميمه فى منطقة وسط مدينة القاهرة والذى يبلغ إجماليه خمسة عشر صرحًا بنائيًا بالضبط عبر السنوات العشر الماضية، فإنه يشهد مع ذلك بالتزام متزايد سيقوم بحماية تراث مدينة القاهرة للحقبة الاستعمارية والوطنية الليبرالية. وتضم قضية أعمال الترميم محل التساؤل مشروعات واسعة النطاق من أجل تعزيز هياكل مجموعة متنوعة من الصروح: المقاهى (مقهى ريش وصالة الشاى فى جروبي)؛ ومبان عامة (بنك مصر، ومعهد الموسيقى العربية، والنادى الدبلوماسى، وبورصة الأوراق المالية)؛ ومتاجر عامة (صيدناوى وعمر

أفندي)، وقنصليات (سفارة سويسرا، ومركز الفنون الإيطالية، والألمانية)؛ واستثمارات عقارية، والمراكز الرئيسية لشركات التأمين، وفندق، ومستشفى (الكردانى ٢٠٠٤).

كانت هناك مساهمة متميزة من القطاع الخاص فى تمويل أنشطة أعمال الترميم. أما عن عمليات إعادة الترميم والتجديد فى المناطق الحضرية، فقد استُهلت الحالة الأولى عن طريق محافظة القاهرة التى قامت بتنفيذها فى عام ١٩٩٧. وكان الحى موضع الترميم يغطى ما يقرب من ٢٣٠٠٠ متر مربع فى منطقة شارع عماد الدين. وتضم المنطقة ثلاثة شوارع رئيسية ومبان سكنية وتجارية–المشاريع السكنية، والمطاعم، والمقاهى، ودور السينما – ويعود تاريخ تشييدها إلى سنوات العشرينيات والثلاثينيات. وكان المشروع يستهدف مبدئيًا تحويل العديد من شوارع وسط المدينة إلى مناطق مقصورة على سير المشاة. وتم تضييق نطاقه لاحقًا ليقتصر على هذا الحى بالتحديد، وذلك بغرض أن يخدم كحقل تجارب، فإذا ما كُتب له النجاح، يتم نقل الفكرة وتطبيقها فى الأجزاء الأخرى من المدينة. وقد تغير المشهد الحضرى والاجتماعى بأسره من خلال تجديد شبكات البنية التحتية، ورصف الطرق، وتركيب بعض المعدات الخاصة بالشوارع، وتنظيف الواجهات. وكان من المعتاد أن تكون منطقة شارع سراى الأزبكية مغمورة بمياه الصرف الصحى المتسربة إليها من نظام الصرف الصحى، ومنطقة طاردة بأكداس القمامة والمخاطر الأخرى التى تحيط بها. ولكن الناس أصبحوا يفدون إليها للقاء الأصدقاء والترويح فى بيئة مُبهجة، منطقة مقصورة على المشاة فقط تموج بالأضواء المتلألئة وتموج بالبشر حتى ساعات متأخرة من الليل، فضلاً عن وجود مقاه ومطاعم حديثة.



التنزه فى منطقة خاصة بالمشاة فقط، وقد تم تأسيسها فى عام ١٩٩٧ فى شارع سراى الأزبكية (تصوير إليان بونامي)

كانت العملية الثانية توازى ثلاثة أمثال العملية الأولى، وتقوم بتغطية حى مساحته ٦٠٠٠٠ متر مربع. وكان يتضمن أربعة مبان تنتمى للقطاع المالى (بورصة الأوراق المالية، والبنك المركزى، والبنك الأهلى المصرى، وبنك قناة السويس)، وفندق كوزموبوليتان (تم بناؤه فى عام ١٩٠٣)، ومحطة الإذاعة الوطنية، علاوة على أعداد كبيرة من المبانى التجارية والسكنية يعود تاريخ بنائها على الأرجح لسنوات العشرينيات والثلاثينيات. وكانت تضم العديد من الأنماط المعمارية بين المبانى فى هذه المنطقة، منها الباروك، والروكوكو، والكلاسيكية الجديدة، والفن الجديد. ولكن النقطة المحورية كانت هى بورصة الأوراق المالية، وقد تم تصميمها فى عام ١٩٢٨ عن طريق المهندس المعمارى جورج بارك، وهو مبدع العديد من المبانى الضخمة الأخرى فى القاهرة أثناء حقبة ما بين الحربين العالميتين. وبدأ برنامج تجديد الحى فى عام ١٩٩٩ عن طريق وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء طلعت حماد. وكان الهدف الأصلى منه فى الأساس ببساطة هو إنقاذ مبنى وحيد - وهو بورصة الأوراق المالية، حيث كان الطابق الأرضى منه غارقًا فى المياه الجوفية المرتفعة لسنوات عديدة. وأدرك المخططون على الفور أن الحى بأكمله (وهو المركز المالى للعاصمة بغير منازع) يجب أن يتم أخذه فى الحسبان. وتم تجديد الحى بفضل تمويل القطاع الخاص الذى قامت به المؤسسات الاستشارية، ورجال الأعمال. ورُصفت الطرق، وخُلقت مساحات خضراء، وزُرعت أشجار للنخيل، وتم تزويد الشارع بالمعدات الحضرية اللازمة (على سبيل المثال أعمدة الإنارة على نفس طراز المباني)، ونُظفت الواجهات، بالإضافة إلى مراعاة التنسيق بين الألوان. والآن قد تم تجديد البنية الأساسية، وترميم سوق الأوراق المالية بالكامل، فإن لجنة خاصة، وهى أصدقاء البورصة (أو سوق الأوراق المالية بالفرنسية، وهى اللغـــة الأجنبية المفضلة لحقبة الزمن الجميل)، قد تكونت لتكون مسئولة عن أعمال الصيانة بها.



منطقة التنزه الخاصة بالمشاة فقط والتجديدات المحيطة بها فى منطقة مبنى بورصة الأوراق المالية ومبان أخرى تخص القطاع المالى فى قلب المدينة – مبنى البورصة قام بتصميمه جورج بارزك عام ١٩٢٨ (تصوير إليــان بونامي)

يُلقِى هذان المشروعان الأضواء الكاشفة على الوسائل الجديدة المتبعة لإدارة أعمال تجديد مركز المدينة. وفى الواقع، فإن الأخير يرتبط بدرجة متزايدة بالبحث عن الشراكة مع القطاع الخاص، والخدمات المحلية، والهيئات الحكومية فى سياق أن النشاط الحضرى للقطاع العام أصبح أكثر كثافة وتنوعًا: يتجاوز التخطيط المكانى، والإسكان، ووسائل الراحة من أجل احتضان الحفاظ على البيئة الحضرية وتحسينها. وكانت هذه المشروعات ذات مردود إيجابى للغاية على السكان، والمستخدمين للأماكن العامة وذلك طبقًا لما ذكرته دراسة اجتماعية عن مدى رضاء المجتمع عنها والذى قام به فريق حماية وإدارة التراث فى كل من مصر وسوريا. ولا يمكن إنكار هذا التأثير. ويمكن تحويل حى وسط المدينة إذا ما أمكن تنفيذ حظر مرور السيارات، أو الحد منها، وجعلها للمشاة فقط، وتشجير جزء من نهر الطريق. ويمكن أن تصبح المنطقة واحة من الهدوء والسكينة حيث يمكن أن يتهادى المارة فيها فى أوقات فراغهم، أو الجلوس على أرصفة المقاهى، والتمتع بالثراء والجمال، والتنوع الهندسى المعمارى حول المنطقة، وطرح أسئلة عن تاريخ عن هذه المواقع، والشعور بالتعطش لمزيد من المعلومات والمعرفة. ويمكن أن تسمح مثل هذه المشروعات للناس بأن يقوموا بتجربة المكان وبذلك يمكنهم تقديرها، والارتباط بها، وربما الدفاع عنها يومًا ما. ويمكن أيضًا لحماية تراث القاهرة، وتحسين نوعية الحياة فيها أن تكون موضوعًا لاهتمام الكافة وعنايتهم به. وأخيرًا فإن هذه العمليات تسمح بضمان الوصول والاستمتاع بهذه المواقع والصروح التى نراها الآن ولكننا لا نفهمها حقًا.

تعكس أيضًا الشراكة التى تم تأسيسها بين القطاع الخاص، ومسئولى المحليات، والهيئات العامة منحىً جديدًا فى مجال حماية وتحسين البيئة الحضرية بشكل عام والتراث المعمارى بوجه خاص. وفى الحقيقة، فإنه وبفضل هاتين العمليتين فإن إعادة الاستثمار الثقافى فى المواقع الأثرية أتت ثمارها وأصبحت

ملموسة. وقد أشعرت هذه المشروعات عامة الناس بقيمة تراثها فى السنوات الحالية، ولعامين متتاليين، قام الفنانون، والرسامون، والنحاتون، بتنظيم معارض، ومؤتمرات موائد مستديرة، وحفلات موسيقية فى المطاعم، والمقاهى، والمعارض الفنية، وطرقات وسط المدينة. وتستعيد وسط مدينة القاهرة حيويتها وانتعاشها، كما استعادت الجو العام الذى افتقدته منذ وقت طويل تحت شعار النطاق (وهو مصطلح غامض يشير إلى ما كان العرب قديمًا يطلقون عليه حزام نجمة الجوزاء والذى يتكون من ثلاثة نجوم لامعة هي: النطاق والنظام والمنطقة، والنطاق كان أيضًا اسما لمهرجانات حية للفنون انعقدت فى عام ٢٠٠٠ وعام ٢٠٠١ وتم تنظيمها عن طريق ثلاث من صالات العرض الفنية؛ واستقطبت حشودا ضخمة من المشاهدين داخل منطقة مثلثة الشكل تحيط بها ثلاثة شوارع رئيسية وفسيحة فى وسط المدينة (ارجع إلى المصرى ورخا ٢٠٠١ أ؛ ٢٠٠١ ب؛ عيسى ٢٠٠٠).

خاتمة

دعنا نرجع إلى السؤال الذى وضعناه فى بداية هذا الفصل، وهو بالتحديد: هل نشهد الآن نظامًا جديدًا لإدارة تراث مصر من القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين؟ إذا ما أخذنا أولاً بعين الاعتبار عملية خلق التراث، وهذا يعنى أن نقول كيف يتم "تصنيع" التراث، فإنه يمكن أن نؤكد أن خطوات السير فى هذا السبيل قد تم إعدادها حقًا. أولاً، فإن الدولة المصرية، ونخبة القطاع الخاص، والمؤيدين للأجنبى قد أعادوا اكتشاف ميراث القاهرة من الحقبة الاستعمارية – الحديثة، والعالمية، والتحررية – الوطنية، وأقروا القيم المختلفة التى يبشر بها هذا الميراث. وثانيًا، فإن الجهود التى بُذلت من أجل تشجيع الوعى بهذه القيم التى يبشر بها هذا الميراث قد أضافت الحيوية إلى وسائل الإعلام المعاصرة. والثالثة، أن

أعمال حصر التراث قد تم تجميعها من أجل تحديد المبانى والمواقع، شاملة الوطنية الحديثة، والتجارية، والمواقع العامة. وأخيرًا، فإن تنظيم، وتوثيق، ونشر مثل هذه المعلومات قد أفرز آلية قانونية، وآلية للدولة من أجل إدارة وصنع القرارات التى تخص التراث العقارى.

توجد العديد من الثغرات فى مجال الإدارة وبوضوح. وتُفهم الإدارة فى حد ذاتها بأنها تحديد وإنشاء الإطار القانونى والمؤسسى فضلاً عن اتخاذ تدابير مالية قادرة على تأمين ترميم وحماية وصيانة التراث التاريخى. وبالإضافة إلى ذلك، فإن إصدار ستة مراسيم، كما ذكرنا آنفًا، تُشكّل استجابة لموقف استثنائى. ومن المؤكد، أن هذه المراسيم قد نجحت فى تجنيب هدم العديد من الصروح المعمارية التى كانت معرضة للاختفاء النهائى. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذه المراسيم لم تُستكمل لاحقًا بالتدابير التنفيذية والمؤسسات من أجل حماية المبانى التى تم حصرها والبيئة المحيطة بها. كما أنه لا القطاع العام ولا الخاص قام بتقديم التمويل اللازم من أجل ترميم المبانى وتجديد الأماكن العامة. وكان قد تم ترميم خمسة عشر مبنى فى منطقة وسط المدينة، ولكن مشروعى الترميم لم يُسجلا ضمن إطار سياسة مترابطة منطقيًا لإدارة الحماية. وحتى لو أفرز ترميم مجموعة من المبانى تأثيرًا واضحًا للعيان، فإن الجهود تظل غير مكتملة. وكانت مقصورة على تخطيط طريق عام دون الأخذ فى الاعتبار الحاجة إلى ترميم أو حماية المبانى المتاخمة لها على الجانبين من التعديلات المستمرة. ويمكن أن نضيف إلى ذلك غياب التنسيق بين مختلف الجهات الفاعلة والتى تدخلت فى غضون الخمسة عشر عامًا الماضية فى "مناقصة" لحماية "مبان ذات قيمة عظيمة". ومن الواضح أن وزارة الثقافة هى التى كان يجب أن تحمل على عاتقها تأمين مثل هذا التنسيق. وبينما تجد وزارة الثقافة بالفعل صعوبة بالغة فى إدارة التراث المصرى الفرعونى، والإسلامى، والقبطى البالغ الضخامة، فإنها أيضًا لا تملك بين يديها الوسائل المالية أو الخبرات

الضرورية المطلوبة من أجل إدارة التراث المصرى الحديث. ومن إذن له أن يقوم بإدارة هذا التراث الحديث؟ يمكن أن تكون الإجابة هى الإدارات المحلية أو بمبادرات يقودها القطاع الخاص. ولكن إدارة التراث العمرانى والحضرى لا يمكن أن تتم بمعزل عن الإدارة الحضرية الشاملة، متضمنة موضوعات مثل صيانة الأماكن العامة، بناء جراجات جديدة لإيواء السيارات، ومحاربة التلوث، وتخفيف التكدس المرورى ومشكلات النقل، وغيرها. وعلى الرغم من المخاطر العالية للتحول الحضرى، فإن التجمعات المحلية فى القاهرة وفى كل مكان آخر لم تحظ بأدنى قدر من الاهتمام. ولم تكن الجهود المدفوعة من المجتمع فى الماضى قادرة على ضمان احترام أغلب القوانين الأساسية التى تتعلق بقواعد المرور، أو بتصاريح البناء، ولذا فإنه من الصعوبة بمكان أن نتحدث عن نظام إدارة جديد. فيكفى تمامًا أن تأخذ جولة قصيرة فى وسط مدينة القاهرة الحديثة لتشهد أوجه القصور فى هذا النظام. وهناك عدد من الأخطار التى تجابه المبانى ذات القيمة العظيمة، وهى المبانى التى تم حصرها وتصنيفها وتسجيلها فى السجلات الحكومية، وتستمر حالة هذه المبانى فى التدهور، وهى عُرضة لتغييرات يتعذر إصلاحها. فعلى سبيل المثال، فإن المحلات الواقعة فى الطوابق الأرضية فى وسط مدينة القاهرة، وفى مبان ضخمة مثيرة للإعجاب يتم عادة كسر وفتح الحوائط أو إعادة بناء الواجهات على مستوى الشارع مع التفكير بالكاد فى أصالة النمط المستخدم للواجهة مع باقى عناصر المبنى الكبير الذى يحتلون منه جزءا صغيرًا. وعادة ما تكون النتيجة هى تشويه المبانى من خلال هدم أو إخفاء الحلى المعمارية، والأروقة، والأفاريز، والديكورات، واستبدالها بنوافذ عرض بالغة القبح. حتى يمكن أن نشهد فى عام ٢٠٠٥ تغيرًا ينذر بالسوء بالإلغاء الأخير بواسطة النائب العام لقرار رئيس الوزراء رقم ١٩٩٨ والذى يحظر هدم القصور والفيلات أو تغير فى الاستخدام المصرح به للطوابق السفلية.

هل كانت كل الجهود التى تم بذلها فى الخمسة عشر عامًا الماضية، سواء من أجل تعزيز مفهوم التراث الوطنى، أو من أجل جنى ثمار تأسيس إطار للإدارة، مهما كان تواضعها، مجرد انحراف مؤقت من تقليد أوسع وراسخ من الإهمال والاستخفاف بالتراث الحضرى الحديث؟ نأمل نحن، مؤلفو هذا الفصل من هذا الكتاب ألا يكون الأمر كذلك، حيث إن الوعى المحلى للحاجة إلى حماية هذا التراث قد تعمق يومًا بعد يوم. وهذا الوعى لم تمله منظمة عالمية ولكنه ينبع من مشاعر وطنية ترتكز فى القاهرة بأن مصر لا تحتمل أن تفقد ارتباطها بتراثها الحديث للزمن الجميل (اليونسكو ١٩٩٣). وكما أن هذا الوعى يزداد ثراء باستمرار باكتشافات جديدة: حين يعلم المرء أن حركة مذهب السريالية قد ولدت فى مقهى جروبى *(Karnouk 1995)*؛ وأن قادة ثورة ١٩١٩ قد اجتمعوا فى مقهى ريش؛ وأن أول مظاهرة تطالب بحرية الصحافة قد بدأت من قلب المدينة الحديثة؛ وأن أعضاء البرلمان قد اجتمعوا فى شرفة فندق كونتيننتال فى أعقاب حل البرلمان بواسطة الملك فؤاد فى عام ١٩٢٤، وغيرها. كما أن هناك مجموعات كاملة من المعلومات تدور بشكل أساسى حول المنطقة السكنية وترتبط بالشخصيات المهمة والتى لعبت أدوارًا بارزة فى الحياة السياسية والثقافية للبلاد.

وزمن مصر الجميل، مرحلة بارزة من الابتكار، والنضال، والإبداع، لم يتم "إعادة اكتشافها" بواسطة المؤرخين المعماريين الأوروبيين، أو المؤسسات العالمية. وبدلاً من ذلك، فقد تطور وعى جديد كثمرة من ثمار المبادرات المحلية التى قادها المصريون، وإحياء مشاعر الفخر الوطنى لدينا، ونتذكر ولادة حداثتنا الحضرية الفريدة من نوعها، وإحياء لحقبة من الحياة الحضرية العالمية لليبرالية مزدهرة، وثورية. وهذا النمط الجيد من التحويل التراثى لسكان القاهرة يُبقى على قيد الحياة الذكاء المصرى الحديث المتوقد لحضرنا القديم – والمستقبلى.

الأعمال المستشهد بها

Works Cited

Aymonino, Carlo. 1985. "Typology." *Architectural Design* 5: 49–51.

Aymonino, Carlo, Aldo Rossi, F. Brusatin and L. Lovero. 1970. *La Littàdi Padova*. Saggiodi Analisi Urbana, Roma, Officina edizioni.

Arnaud, Jean Luc. 1993. *Le Caire—mise en place d'une ville moderne, 1867–1907: des intérêtes khédiviaux aux sociétés privées*. Ph.D. diss., Aix-en-Provence.

Castex, Jean, J. Charles Depaule, and Philippe Panerai. 1983. *Formes urbaines: de l'îlot à la barre. Collection Aspects de l'urbanisme*. Dunod (October).

CULTNAT. 2004. "Eternal Egypt." <*http://www.eternalegypt.org*> (20 February 2004).

Dalil al-athar al-Islamiyah bi-Madinat al-Qahira. 2000. Cairo: Ministry of Culture and Information Center.

Egyptian Antiquities Organization (EAO). 1985. "Law no. 117 of 1983 concerning the issuance of Antiquities with a preface by Dr. Ahmed Kadry." Cairo.

ElKerdany, Dalila. 2004. "The Rehabilitation of Cairo Modern Heritage: Conservation Management and Design Decisions." Paper presented at the third International Conference on Science and Technology in Archaeology and Conservation in Zarqa, Jordan, 7–11 December.

Elmessiri, Nur, and Youssef Rakha. 2001a. "To Wake Up in the City." *Al-Ahram Weekly*, 8–14 March.

_____. 2001b. "It's Your Life Charlie Brown: The Nitaq Festival in Downtown Cairo Opened Last Week, *Al-Ahram Weekly* Takes a Look." *Al-Ahram Weekly* 22–28 March.

Goethe Institute Cairo. 1997. "Citizens' Participation in the Renovation of the Old Town." Cairo: Goethe Institute Cairo, Faculty of Fine Arts.

General Organization for Physical Planning (GOPP). 1997. Project for the Upgrading of Urban Environments of Historic Districts, Terms of Refrence.

_____. 1997. "The Upgrading of Valuable Districts in Greater Cairo." Unpublished report for the Project for the Upgrading of Urban Environments of Historic Districts, Terms of Reference.

Hassan, Fayza. 1999. "Well May They Weep." *Al-Ahram Weekly* 29 April–5 May.

Hawas, Soheir. 2002. "Al Kahira al Kediweyyah: Rasd wa Tawthik Emarat wa Omran al Kahira wasat al Medina." Cairo: Center for Architecture Design.

Heritage Conservation and Management in Egypt and Syria (HERCOMANES). 2000–04. *HERCOMANES Programme Website.* <*http://www.hercomanes.com*>. (1 June 2004).

Hillier, Bill. 1996. *Space is the Machine.* Cambridge: Cambridge University Press.

Hillier, Bill and J. Hanson. 1984. *The Social Logic of Space.* Cambridge: Cambridge University Press.

Ilbert, Robert. 1984. "Heliopolis: Colonial Enterprise and Town Planning Success." In *The Agha Khan Award for Architecture: Acts from the Seminar on the Expanding Metropolis, Coping with the Urban Growth of Cairo,* 36–42. Singapore: Concept Media Pte Ltd for the Aga Khan Award for Architecture.

Issa, Iman. 2000. "Cairo's First Arts Festival—Al Nitaq." In *Medina* 12: *Architecture, Interiors & Fine Arts,* ed. Yasmeen M. Siddiqui, 84–87.

El Kadi, Galila, and Sahar Atia, eds. 2002. "Special Issue on Restoring Cairo 17." *Misr al-mahrusa* (February).

Karnouk, Liliane. 1995. *Contemporary Egyptian Art.* Cairo: The American University in Cairo Press.

Lavedan, Pierre. 1974. *L'urbanisme au Moyene Age.* Genèves: Droz.

______. 1982. *L'urbanisme à l'époque moderne.* Genèves: Droz.

Lynch, Kevin. 1977. *L'image de la cité, collection aspects de l'urbanisme.* Dunod: Poitiers.

Morgan, Ihab. 1999. *Kairo: die Entwicklung des modernen Stadtzentrums im 19. und frühen 20. Jahrhundert.* Bern: Peter Lang Publishing Group.

Muratori, Saverio. 1959. *Studi per una Operante Sturia Urbana di Venezia.* Instituto Poligrafico dello stato. Roma.

Myntti, Cynthia. 1999. *Paris Along the Nile.* Cairo: The American University in Cairo Press.

Panerai, Philippe, J. Castex, and J. Charles Depaule. 1978. *Formes urbaines: de l'îlot à la barre.* Paris: Dunod.

Poëte, Marcel. 2000. *Introduction à l'urbanisme, Sens et Tonka.* Paris: Sens et Tonka.

Raafat, Samir. 2003. *Cairo the Glory Days: Who Built What, When, Why and for Whom.* Alexandria: Harpocrates.

Rossi, Aldo. 1981. *Formes urbaines.* Paris: Edit de l'Espace.
Sakr, Tarek. 1993. *Early Twentieth Century Islamic Architecture in Cairo.* Cairo: The American University in Cairo Press.
Schmid, Anne M. 1990. *International Hotel Redesign.* New York, N.Y.: PBC International.
Sitte, Camillo. 1980. *L'art de bâtir les villes.* éd L'Equerre. Paris. Vienne: Der Statebau.
Tamraz, Nihal. 1994. *Nineteenth-century Cairene Houses and Palaces.* Cairo: The American University in Cairo Press.
UNESCO. 1993. *World Heritage Papers: Identification and Documentation of Modern Heritage.* Paris: UNESCO.

هوامش

١- تم تأسيس بنك مصر فى أعقاب ثورة ١٩١٩، والتى نتج عنها إعلان استقلال مصر فى عام ١٩٢٣، وكان البنك المصرى الأول الذى تم تأسيسه بقرار من حزب الوفد، والذى كان يقوم بالتفاوض من أجل استقلال البلاد، وتم تمويل تأسيس البنك بأكمله بأموال مصرية. وقد تم تصميم المركز الرئيسى للبنك عن طريق المهندس المعمارى أنطونيو ليشياك فى نمط عربى جديد. وقد قام المهندسون المعماريون فيروجى، وباستورن، وفرج أمين بتصميم معهد الموسيقى العربية، على النمط العربى الجديد والذى كان موضة ذلك العصر. وافتتحه الملك فؤاد الأول فى عام ١٩٢٦ وعُد من أكثر مبانى العاصمة فخامة فى ذلك الحين. وقامت وزارة الثقافة بترميمه فى عام ١٩٩٧ ويضم الآن بين جنباته متحف المطرب الشهير الراحل محمد عبد الوهاب. وتم تصميم قصر البارون إدوارد إمبان البلجيكى بواسطة المهندس المعمارى ألكسندر مارسيل ويقع فى الحى الشرقى - مصر الجديدة، وهى أول مدينة تابعة تم تأسيسها فى القاهرة فى بدايات القرن العشرين عن طريق البارون إمبان وباقى مستثمريه.

٢- الخطة الرئيسية للقاهرة الكبرى والتى اعتمدت فى عام ١٩٨٤ تضمنت طريقا دائريا سريعا حول القاهرة وذلك للتخفيف من حدة حركة المرور .سيئة السمعة وربط أطراف المدينة الراقية والضواحى بوسط المدينة. ورفع أهرام الجيزة من قائمة التراث العالمى حينئذ شكل ضغوطًا على الحكومة المصرية ومستشاريها العالميين، وشركات البناء ودفعهم إلى تغيير مسار الطريق الدائرى النهائى.

٣- وضع المؤتمر العالمى الثانى للمهندسين المعماريين والفنيين المتخصصين فى مجال الآثار التاريخية، والذى انعقد فى البندقية فى الفترة ٢٥-٣١ مايو ١٩٦٤ قواعد جديدة موضع التطبيق بغرض الحفاظ عليها وترميمها ليس أقل من أنها أعمال فنية أكثر منها كدلائل تاريخية.

٤- نُظمت حلقة دراسية عن طريق مشروع جائزة الأغا خان للعمارة فى إطار مجموعة سلسلة من الحلقات الدراسية عن التحولات المعمارية فى العالم الإسلامى وذلك فى الفترة ١١-١٥ نوفمبر ١٩٨٤.

٥- تركز هذا البرنامج على مراكز مدن القاهرة وحلب واستهدف تطوير نظم إدارة عمليات التــرميم والحفاظ على المواقع والمبانى التى تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

القـاهـرة
الثقافات الفرعية والمساجلات بين وسائل الإعلام

الفصل الثالث عشر

تمركز مجتمعات الصعايدة فى القاهرة على أساس إقليمى أشكال تقليدية أم حديثة من النزعة الحضرية

كاترين ميللر

النزوح والاندماج

مطاردة أهالى الوجه القبلى فى شوارع القاهر. الخضيرى ٢٠٠٢.

أهالى الوجه القبلى ساخطون على خطة المحافظ لحظر دخولهم إلى القاهرة عبد الجواد وشعيرة ٢٠٠٢.

هل يتآمر المحافظ من أجل طرد شيخ الأزهر والبابا شنودة؟ السالمى ٢٠٠٢.

غطت عناوين شبيهة بالعناوين أعلاه فى غضون فترة ثلاثة أسابيع فقط فى شهر يوليو عام ٢٠٠٢، ضمن العديد من العناوين الأخرى المماثلة الصفحات الأولى لبعض الصحف المصرية. وكانت جزءا من حملة إعلامية ضمت صحف المعارضة فى الأساس ضد قرار مزعوم لمحافظ القاهرة لضبط وتحديد نزوح الريفيين إلى القاهرة من أجل المحافظة على الاستقرار الحضرى. ومما ذكرته تلك الصحف، أن المحافظ قد صرح بأنه يفكر فى دراسة "مشروع يمكن أن يمنع أهل

الريف من الإقامة فى القاهرة". وعلى ما يبدو، فلم يتجرأ أحد من الوجه البحرى فى التفاعل مع بيان محافظ القاهرة، بينما هبت أبرز الشخصيات من الوجه القبلى بمن فيهم نواب الحزب الوطني، وتفاعلوا مع هذا البيان بعنف وهددوا برفع دعوى قضائية ضده. وكان السياسيون من الوجه القبلى يعتقدون أن بيان المحافظ يستهدف النازحين من الوجه القبلى على وجه التحديد. وتم شرح أبعاد الحدث فى مواجهة بين المحافظ، ومسئول من الدولة، وأعضاء يمثلون سكان الوجه القبلى فى القاهرة. وكانت هناك شكوك سابقة من الصحفيين المنتمين إلى الصعيد بأن المحافظ مناهض لأهالى الصعيد "الأسبوع" ٢٧ إبريل ١٩٩٨). وشجبت بعض الصحف، فى المقابل، وجود جماعة ضغط (لوبي) صعيدى من الوجه القبلى. ويطلق لقب "صعيدي" على الشخص الذى ينحدر من الجنوب، أى "مصر العليا" – ويقال العليا لأن نهر النيل ينحدر إلى البحر الأبيض المتوسط من هذه الأراضى المرتفعة والتى تمتد تجاه السودان وأثيوبيا. وكانت هذه الحملة الصحفية المعتادة "زوبعة فى فنجان" يلوذ بها عدد من صحف المعارضة كمجال لانتقاد للحكومة. ولكنها أيضًا كانت واحدة من مظاهر التوتر بين الجهاز الحكومى وبعض شرائح سكان الوجه القبلى فى القاهرة.

والإدراك الذى يستند على أن عمليات النزوح أو الهجرة الضخمة، سواء كانت داخلية (أى من الريف والمناطق الإقليمية) أو خارجية (من البلاد الأخرى)، عامل لزعزعة استقرار تنمية الحضر هو نوع من الأساطير العالمية الشائعة. وغالبًا ما كان النظرة إلى النازحين الذين يفدون من أجل الالتحاق بالأعمال المتدنية الأجور وكأنهم من نمط مختلف ومصدر لأخطار محتملة على النظام الاجتماعى *(Wacquant 1997)*. وكانت النخبة الحضرية القديمة فـــى الشـــرق الأوسط غالبًا ما تعتبر النازحين من الريف كمصدر تهديد "للحضارة النقية" فى المدينة. وكان ذلك أيضًا هو الوضع فى القاهرة، حيث وصف المؤرخ الشهير الجبرتى كما كانت

النخبة الحضرية تصف سكان القرن السادس عشر – التاسع عشر حول التخوم الشعبية بالقاهرة بأنهم "فلاحون" *(Raymond 1987)*. وبطريقة مماثلة فإن المفكرين الإصلاحيين المصريين مثل محمد عبد الكريم كان يعتبر أيضًا النازحين الفقراء كمصدر تهديد للاستقرار الحضرى *(Rousillon 1996)*(١). وبحلول النصف الثانى من القرن العشرين فإن مشاعر الازدراء التى كانت نخبة القاهرة المهيمنة تبديها تجاه الأحياء الحضـرية الشعبيـة قـد تحولت نحو الأحياء غير الرسمية الجديدة أو (العشوائيات). ولم تحجم عدد من الأعمال الأكاديمية والتقارير المؤسسية فى التأكيد على فوضى "الريفنة – أو تحول المناطق المحيطة بالحضر إلى شبيهة بالأرياف" والمتفشية حول تخوم القاهرة، وعدتها كموطن للعديد من المشكلات الاجتماعية – الثقافية الخطيرة تتصف "بالإخلال بالنظام الاجتماعي" (تقرير التنمية البشرية بمصر، برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ١٩٩٦).

ويثير الجدال الدائر حول (ريفنة) التخوم المحيطة بالحضر موضوع ثقافة النازحين والاندماج الاجتماعى فى داخل نسيج المدينة. كيف ومتى يمكن للنازح أن يصبح مواطنًا حضريًا معترفا به قانونًا؟ ما هو تأثير التحول الحضرى على مجتمعات هؤلاء النازحين؟ ويمثل الوجه القبلى فى مصر حالة مثيرة للاهتمام هنا. حيث إنهم لا يشكلون أقلية دينية محلية من غير العرب، أو مجتمعًا أجنبيًا. فهم على شاكلة الأغلبية الساحقة من أهل القاهرة مصريون، ومسلمون، ومتحدثون باللغة العربية. وعلى الرغم من ذلك، فإن هناك دلائل على فهم أهالى الوجه القبلى فى الخطاب العام بوصفهم "حالة خاصة" أكثر من غيرهم من النازحين المصريين وأقل قابلية للاندماج فى المجتمع. وبالعكس، يبدو أن عمليات النزوح والتحول إلى الحياة الحضرية قد دعمت التمسك بهويتهم والتمسك بالتجمعات التى تضمهم بشكل عملى.

سأقوم فى هذا الفصل بتحليل كيف أن أهالى الوجه القبلى المقيمين فى القاهرة غالبًا ما يبدون وكأنهم "الآخرين" فى الداخل فى وسائل الإعلام المصرية

وفى العديد من الأحاديث العامة. ولماذا يتم تصوير اندماجهم فى البيئة الحضرية وكأنه أكثر صعوبة عن المجموعات الأخرى، وفى عشية مطلع القرن الحادى والعشرين، وفى وقت تباطأت فيه وتيرة الهجرة الداخلية إلى القاهرة بدرجة كبيرة *(Denis and Bayat 1999)*؟ ومستنتجًا من حالة أهالى الوجه القبلى فى مصر، فإننى سأقوم بتقصى العلاقة ومدى قوتها بين شبكات العلاقات الاجتماعية والمبنية على أسس إقليمية فى الهياكل الاجتماعية فى قاهرة ما قبل الحداثة المعاصرة. هل الشبكات الاجتماعية/ والمجتمعات هى تعبير عن الأنماط المحلية التقليدية من التنظيم أم هى تعبير عن هياكل اجتماعية جديدة ناجمة عن التحول الحضرى والنزوح للحضر؟ وتثير هذه الموضوعات قضية هياكل الهوية فى سياق حضرى حديث (أى الآخرين وحدودهم) وتردد أصداء السؤال الحائر منذ وقت طويل بشأن حالة المجتمعات داخل مدن الشرق الأوسط. وغالبًا ما يتم تصوير المجتمعات، مثل الأسر، وكأنها كيانات ثابتة ومحددة. وعلى الرغم من ذلك، فإن مفهومًا أكثر انسيابية واتساقا مع الهوية يمكن أن يشير إلى الانتماءات الطائفية والإقليمية لا تتسم بالجمود، ويمكنها أن تعبر عن أشكال جديدة من التجمع. مثل القرابة، والشعور بالهوية الإقليمية، والتى تُعرف أحيانًا فى الشرق الأوسط "بالعصبية" ويمكن أن تكون هيكلاً اجتماعيًا حضريًا جديدًا **Bocco 1995, Eickelman 2002, Salibi 1992, Seurat 1985**. وسأقوم بإعطاء اهتمام خاص بالتشابك بين ماضى وحاضر الهياكل الحضرية الاجتماعية من أجل تحليل استمرارية وتجنب نظرة مذهب الحتمية فى بناء الهوية.

أهالى الوجه القبلى فى القاهرة: هل هم دخلاء أم حضريون؟

أسهمت الكثير من العوامل فى تشكيل المفهوم الحالى بأن المصريين من الوجه القبلى يشكلون مجموعة مختلفة عن سكان القاهرة (لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى الجزء الخاص بميللر ٢٠٠٤). وقد أدى التشابك بين ثلاثة عوامل رئيسية إلى بلورة نظرة معاصرة توصم المنتمين للوجه القبلى. وتشمل هذه العوامل: التقسيم التاريخى بين الوجه القبلى وشمال مصر؛ التخلف الاقتصادى فى الوجه القبلي، وعدم الاستقرار السياسى الحالى فى الوجه القبلى. ويشير إلقاء نظرة تاريخية عامة إلى أن الوضع الاقتصادى والاجتماعى للوجه القبلى إزاء شمال مصر تدهور بدرجة كبيرة فى القرنين الأخيرين، وأن العلاقة غير المتوازنة كان يتم تبريرها على نحو مطرد و تفسيرها بالإشارة إلى وجود خلفيات ثقافية مختلفة.

كانت الروابط محدودة للغاية ولقرون عديدة بين القاهرة والوجه القبلى *(Garcin 1987)*. وكان النازحون من الوجه القبلى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر يمثلون فقط ٣٠% من إجمالى الهجرة الداخلية بل وكانوا أقل عددًا من السوريين فى القاهرة. والقليل جذا من أهل الصعيد هم الذين سُجلت أسماؤهم ضمن النخبة الدينية أو نخبة التجار المنتمين إلى القاهرة *(Petry 1981, 41-48)*. على العكس من ذلك، تواجد العديد من علماء الدين المنتمين إلى منطقة الدلتا فى شمال مصر مما أدى إلى تقوية الروابط الثقافية والاجتماعية بين القاهرة وبين المناطق الشمالية النائية وتسهيل تكامل النازحين من تلك المناطق *(Garcin 1969)*. وأصبحت النسبة المئوية لعلماء الدين أكثر أهمية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، كما برهن على ذلك تكوين الرواق الصعيدى (قسم جنوب مصر) فى جامعة الأزهر. وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، التحق عدد من المنتمين إلى الوجه القبلى بالأكاديميات والمعاهد العلمية الجديدة التى قام بتأسيسها محمد على مكونين مجموعة جديدة من النخب الإصلاحية. وأصبح البعض منهم

شخصيات وطنية شهيرة، مثل رفاعة الطهطاوى. وقد قام القليل من الشخصيات الفكرية الأخرى، مثل الشيخ المراغي، بتعزيز نوع من الثورة الثقافية فى الصعيد. على الرغم من ذلك، فإن تعداد النازحين القادمين من الصعيد لم يصل لمستوى أعداد أولئك القادمين من مصر السفلى من الدلتا المجاورة. ولذا فقد ظل التباين الاجتماعى والثقافى فى مصر بين الصعيد (فى الجنوب)، والوجه البحرى (فى الشمال) ملحوظًا بدرجة كبيرة حتى الآن.

تعود الهوة الواسعة بين الصعيد والوجه البحرى إلى القرن الثامن عشر والتاسع عشر حينما أدى تطوير اقتصاد السوق فى الدلتا التى تتمتع بوسائل الرى إلى التهميش الاقتصادى لصعيد مصر *(Baer 1967; Gran 1998; Holt 1967)*. وتعكس أوضاع النازحين من مصر العليا هذا التهميش الاقتصادى المستمر. وشرع الكثير من المهاجرين من الصعيد ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر فى النزوح شمالاً، كعمال يومية موسمية ***Abu-Lughod 1961; Baer 1967; El Messiri 1983***. وحتى وقت قريب من سنوات السبعينيات، كان أربعة أخماس النازحين من الصعيد إلى القاهرة من الرجال، بينما كان النازحون من الشمال قد استقروا بأسرهم فى المنطقة *(Ireton 1997)*. ويشير هذا التباين إلى أن العديد من نازحى مصر العليا كانوا لا يزالون من العمالة الموسمية أو العمالة ذات الأجور المنخفضة ويعيشون على هامش المجتمع ولم يكونوا مندمجين تمامًا فى المدينة. ويظل عمال الصعيد يمثلون نسبة مئوية ملحوظة من العمالة اليومية الأقل أجرًا فى القاهرة، والذين يمكن مشاهدتهم فى شوارع القاهرة وهم ينتظرون الالتحاق بعمل ما (زهرى ٢٠٠٢). واعتبر الخبراء السياسيون المصريون، فى سنوات التسعينيات، أن الصعيد هو "المنطقة المهملة الأكثر فقرًا" فى البلاد، كما شددوا على أن التخلف من أهم العوامل السياسية التى تسهم فى خلق العنف السياسى (أبو العز ١٩٩٤؛ شفيق ١٩٩٤)[٢]. كما قال أحدهم فى معرض تعليقه، "أن الشمال قد أهمل الجنوب الأكثر

فقرًا ثم مضى فى السخرية منه. وكان عنف المتشددين الإسلاميين هى إحدى الوسائل التى عبر بها الصعيد فى رسالته إلى باقى أرجاء البلاد أن المزحة قد أصبحت كريهة الرائحة" *("The South Recalled" 1996)*.

كان العديد من أنواع الجماعات المسلحة، فضلاً عن حركات الصحوة الإسلامية السلمية فى سنوات التسعينيات، أكثر نشاطًا بصفة خاصة فى صعيد مصر، وأيضًا فى أحياء القاهرة الشعبية غير الرسمية والتى يطلق عليها الإسكان العشوائى. (يمكنك الرجوع إلى دينيس فى هذا الكتاب للمزيد فى هذا الصدد عن المناطق السكنية غير الرسمية أو العشوائية). وعلى الرغم من أن النازحين من الصعيد يشكلون نسبة مئوية ضئيلة من قاطنى تلك العشوائيات، فإن العديد من المحللين السياسيين، والمسئولين فى الدولة، والصحفيين يصفونهم بأنهم المهيمنون من الناحية الديموغرافية ومنجذبون غالبًا للمتشددين الإسلاميين نتيجة لثقافة "العنف" المزعومة لديهم والمتمثلة فى ظاهرة الثأر *(Haenni 2001)*. وقد عزز الخطاب السياسى والإعلامى لسنوات التسعينيات الصورة النمطية لأهالى الصعيد (شائعة بشكل كبير فى الأفلام، ومسلسلات التليفزيون، والنكات المتبادلة) وأسهم فى ترسيخ المفهوم السائد أن منطقة الصعيد هى حقًا منطقة خاصة، تتسم بالثقافة المُحافظة، ومقاومتها لمحاولات التحديث، وحتى ميلها للعنف. وقد نشر الخطاب الذى تتبناه ووسائل الإعلام، بالإضافة إلى ذلك فكرة وجود قطاعات عريضة من "النازحين المصريين الفقراء" كواحدة من المسببات الأساسية للعنف السياسى وعدم الاستقرار (صبحى ١٩٩٩).

نتيجة للسياق التاريخى والاجتماعى العام السابق وصفه، فإن أهل الصعيد فى القاهرة، من المنتمين لكافة أنواع الطيف الاجتماعى والذين نادرًا ما يصبحون بين الفينة والفينة شخصيات عامة على القمة، يميل أهل الحضر إلى تعريفهم بصيغة جماعية كنازحين غير مهرة وفقراء غير، ومع مفهوم وصمة العشوائيات

(المساكن غير المُخططة من الدولة) كبؤرة للتطرف، والجريمة، والفقر *Denis 1994; Haenni 2001; Singerman 1999*. ومع ذلك، فإن عددا من القاهريين المنتمين لصعيد مصر يقومون بالرد على هذه القوالب النمطية بالقيام بتطوير خطابهم الخاص مُشيدين بكبرياء ونقاء أصول سلالاتهم الجينية (الأصل)، وروح الشعب المصرى الواضحة والمفترضة لديهم، ورفضهم للذوبان فى الثقافة الحضرية السائدة لأهل القاهرة، ويصفونها بأنها منحلة ومستوردة من الغرب.

نادرًا ما يتم وصف التوتر القائم بين أولئك النازحين والمجموعات الحضرية الحاكمة بمصطلحات علم الاجتماع- الاقتصادى (نازحون فقراء مقابل أغنياء حضريين)، ولكن غالبًا ما تترجم إلى، صعيدي، وغير صعيدى كنتيجة لاختلافات مجتمعية وثقافية عميقة ويرمز بها كعلاقة ثنائية بين الحداثة (القاهرة) والتقاليد (الصعيد). وقد عززت هذه الثقافة والنظرة اليقينية، عمليات الشعور بالطابع العرقى (نحن كمجموعه مقابل هم كمجموعة) وتقوية الحدود الاجتماعية *(Miller 2004)*.

عملية جمع الشمل بين النازحين من الوجه القبلي

ما أثر تأثير النزوح على الجماعات النازحة وعلى البنية الاجتماعية للمدينة وراء الصور النمطية والخطاب العام؟ توصلت إلى نتيجتين أساسيتين بإجراء استقصاء مع شبكات العمال النازحين من الوجه القبلى فيما بين عامى ١٩٩٤، ١٩٩٨ فى العديد من المناطق السكنية العشوائية فى الجيزة (المحافظة الشمالية للقاهرة الكبرى). الأولى هى الأهمية النسبية للشبكات القائمة على المنطقة والقرية، التى جاء منها النازح، وعلاقات القربى بين النازحين، وأهمية درجة القرابة العرقية، والتى تقسم المجتمع بطريقة رمزية بين الأقرباء والغرباء *(Miller 2000)*. والثانية هى تطوير هوية "صعيدية" قوية (الصعايدة) *(Miller 2004)*. هذا التحديد

للهوية مع تجمع الصعايدة المشترك تسمو فوق الطبقات الاجتماعية ويمكن أن تجدها بين الطبقات الدنيا بين سكان القاهرة النازحين من مواطنهم والطبقات العليا من المفكرين والدوائر السياسية. ويعتبر الشاعر المعروف الأبنودى بالإضافة إلى جريدة الأسبوع أمثلة جيدة لهذه الميول لدى مفكرى الوجه القبلى. وتوصف هذه الهوية فى التجمعات السكنية الشعبية، بالتمسك بالأصل الجينى (الأصل) والتى تسمو فوق الموقع السكني، والذى تعلل به الكثير من شباب الوجه القبلى الذى تلقى قدرا من التعليم، وحتى هؤلاء الذين ولدوا منهم فى القاهرة ويعتبرون من الجيل الثانى أو الثالث ممن نشأوا فى القاهرة:

لقد ولدنا فى القاهرة، ولكن عقولنا وتفكيرنا صعيدى، نحن نحتفظ بمبادئنا، وقيمنا الصعيدية، لقد نشأنا وتلقينا تربيتنا كصعايدة. نحن لا نحب التنازلات، نحن لا نحب أن نطأطئ رؤوسنا.

عصمت، ٢٢ سنة، أبو قتاتة، قرية بولاق الدكرور.

لقد أتينا هنا، وترعرعنا هنا، ونحن نحتفظ بتقاليدنا لأننا نرتبط بأصولنا. والدى وعمى لأبى هنا فى القاهرة، وآخر فى الإسكندرية ولكن بالنسبة لنا جميعًا، فإن منشأنا، وموطننا هو الصعيد. والأساس هو فى الأسرة (العيلة)، أو (الأصل). أعرف كل النكات التى يتم إطلاقها على الصعيدي. ولكن لمن لا أصل له فلا يعنيه الأمر، ولكن من أين أتى هو؟ لقد ولدت فى القاهرة. ولكن هل يعنى ذلك أن أنقطع عن جذورى الصعيدية؟ هل من العار أن أكون صعيديًا؟ لا يعنى المكان الذى نشأت فيه شيئًا، ولكن الأصل الذى أنتمى إليه هو

المهم. ربما يقول الآخرون لا، لقد نشأت فى المهندسين، أنا من المهندسين. إنهم جهلاء.

أحمد، ٢٣ سنة أرض اللواء.

وتختلف النتائج التى توصلت إليها فيما يتعلق بقوة هذا الارتباط بالإقليم تمامًا عما لاحظته سابقًا. وقد أشارت العديد من الدراسات الحضرية والتاريخية عن القاهرة إلى أن:

١- الشبكات الطائفية والمنظمات الاجتماعية ظاهرة موجودة من حقبة ما قبل المدنية، واختفت مع التحول الحضرى من النصف الثانى من القرن العشرين.

٢- التماسك الطائفى والإقليمى بين النازحين والذى كان يميز المرحلة الأولى من التوطن تحول تدريجيًا إلى أشكال جديدة من التضامن والروابط الاجتماعية تستند بصفة أساسية على جماعات الحى ***Deboulet 1994, 1996; Ghannam 2002; Hoodfar 1997; Oldham et al. 1987***. قادنى هذا التناقض الصارخ إلى أن أقوم بالاستقصاء عن تطور التنظيمات الاجتماعية فى القاهرة، وعلى وجه الخصوص دور الشبكات الطائفية والإقليمية فى كل من الماضى والحاضر، من أجل تحليل جذورها وأهميتها المعاصرة. ويكشف استعراض الدراسات الموجودة أن النذر اليسير هو المعروف عن الشبكات الإقليمية وتحديد الهويات الإقليمية فى القاهرة. وتثير قلة الدراسات المتاحة فى هذا الموضوع مشكلة أخرى: هل هى نظرًا لحقيقة أن الشبكات الإقليمية لم تكن أبدًا فى الواقع عنصرًا مهمًا فى البنية الاجتماعية لسكان القاهرة، أم هى نتيجة لحقيقة أن علماء الاجتماع قد أهملوا هذا المجال من الدراسة؟ وعلى الرغم من أننى لا أملك إجابة محددة حتى الآن لهذا السؤال، فإننى أعتقد أن الكثيرين من علماء الاجتماع قد تجاهلوا الشبكات الطائفية لأنهم افترضوا ضمنًا أن الشبكات الطائفية أشكال تقليدية من المنظمات

التى لا يمكن أن تلعب دورًا فى مدينة حديثة كالقاهرة. وتشتهر مصر وعلى عكس العديد من بلدان الشرق الأوسط، بمركزيتها السياسية القوية، وبالأحرى بمذهبها القومى. وقد حظر مذهب القومية منذ الثورة الناصرية، التعبير العلنى والتعبير السياسى عن أى نوع من أنواع الطائفية سواء تلك التى تستند على الدين (الأقباط على سبيل المثال) أو عدم الانتساب العِرقى (غير العرب النوبيين). (يمكنك الرجوع إلى الجزء الخاص بإليزابيث سميث عن النوبيين فى هذا الكتاب وعن الهوية النوبية). بالإضافة إلى ذلك فقد تحقق توطين مجموعات البدو سابقًا فى القــرن التاسع عشــر ومنذ ذلك الحين، فإن القليلين يعتبرون الانتماءات القبلية أو للعشيرة فى مصر وسيلة مهمة للهوية الاجتماعية المعاصرة، فيما عدا على الأطراف الصحراوية لمصر *(Baer 1967)*. ولذا يفترض الكثير من علماء الاجتماع أن الطائفية والتشيع الطائفى لا يشكلان التوزيع المكانى والاجتماعى لمجتمع القاهرة الحديث. وتكشف نظرة متفحصة عن قرب أن حالة التجمعات الإقليمية فى القاهرة، هى فى حقيقة الأمر شبكات طائفية ربما تعمل دائمًا كوسائل مهمة للتنظيم الحضري، حتى عندما تبدو وكأنها ليست منظمات مؤسسية.

المدينة وطوائفها: لمحة تاريخية ومعاصرة

كانت الطوائف تمثل واقعًا اجتماعيًا، ومكانيًا، وشرعيًا فى القاهرة العثمانية، وبوجه خاص داخل الحارة (جمعها حارات)، والأحياء الشعبية التى تأسست قديمًا فى القاهرة ***Abu-Lughod 1971; Al-Messiri Nadim 1979; Lapidus 1984; Raymond 1994***. وتوصف الأحياء الشعبية بأنها تُشكل وحدات اجتماعية متجانسة من حيث المهن التى يعملون بها، أو الأصول العرقية أو الدينية وبأنهم يحملون هوية محلية قوية. وعلى الرغم من ذلك، فإن أساس هذا التجانس لم تُعرف تفاصيله

ولا يزال يشكل معضلة. وكان التحديد الأكثر دقة لطوائف القاهرة العثمانية هو "التقسيم العِرقي" أو الطوائف الوطنية أو الأجنبية مثل أولئك المنتمين إلى شمال إفريقيا (مغاربة)، أو الفلسطينيين، أو السوريين، الأتراك، الأرمن، أو اليونانيين، بالإضافة إلى الأقليات الدينية مثل اليهود والمسيحيين. وكانت كل هذه الطوائف تتميز بدرجات عديدة من العزلة المكانية والتخصص المهنى وكان لدى كل منها التمثيل القانونى والطائفى الخاص بها *(Raymond 1983, 1988, 1990, 1994)*.



رجلان من الوجه القبلى فى أحد مقاهى القاهرة (تصوير جان بيير ريبير)

فى المقابل لا يُعرف إلا القليل عن التمييز التدريجى على أساس إقليمى والتوزيعات المكانية لسكان القاهرة المصريين. وتتحدد هوية المصريين، الذين ينتمون إلى الطبقتين الاجتماعيتين الأساسيتين، (العامة)، والنخبة والذين يطلق عليهم (الخاصة)؛ أى "المواطنين" مقابل "الأجانب"، و"المسلمين" مقابل "غير المسلمين". وتخص القليل من المعلومات التاريخية المتاحة التوزيع المكانى للنخبة الدينية والمدنية، أو العلماء، وتوزيع الأقسام الإقليمية فى جامعة الأزهر ***Garcin 1969; Petry 1981; Raymond 1987; 1994***. ونتعرف، من ذلك على أن الطلاب فى الماضى الذين كانوا يفدون للدراسة فى جامعة الأزهر من داخل مصر كانوا ينتظمون مثل "الأجانب" وكل قسم من أقسامهم (أو الرواق)، رواق الصعـــايــدة (أو الوجه القبلي)، رواق الشراقوة (من شمال شرق الدلتا)، رواق الفيومية (من الفيوم)، والبحرية (من شمال غرب الدلتا). وكان أعضاء كل قسم أو رواق يحتشدون فى الزاوية الخاصة بهم (مسجد)، والخنداق (سكن الطلاب)، والوكالة (الفندق) وكان هناك القليل من الاتصال بالغرباء ***(Raymond 1987)***. وعلى العكس من الكثير من مدن الشرق الأوسط، فليس هناك الكثير من التفاصيل عن تجمع مكانى إقليمى محدد داخل المدينة، أو عن الأحياء التى تقطنها مجموعات قبلية محددة.

وقد مزقت التحولات الاجتماعية والسياسية التى طرأت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين النظام الاجتماعى للطوائف الدينية/ العرقية والوحدة الاجتماعية للأحياء ***(Baer 1967)***. وتحقق استيعاب الطوائف الإسلامية الوطنية السابقة (شمال إفريقيا، والفلسطينيين، والأتراك) فى نسيج السكان المصريين فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر. وبدأ التذويب الإدارى والشرعى للطوائف الدينية والوطنية الأخرى فى أوائل القرن العشرين، ووصل لذروته بتصفية الاختصاصات القضائية الطائفية فى عام ١٩٥٥ وذلك بعد ثورة

عبد الناصر (Abecassis and Kazazian 1992). وأدت كل من التحولات فى الهندسة المعمارية للأحياء القديمة، وامتداد القاهرة، وإنشاء أحياء جديدة وتنقلات السكان، إلى تحولات وتجديدات فى سكان الحارة.

ينقسم التوزيع المكانى للسكان اليوم حسب المستوى الاجتماعى فتوجد هناك الأحياء (الراقية) للأثرياء والشعبية (البلدى أو الشعبي) للفئات الأخرى. ومع ذلك يجب التمييز، ما بين الأحياء الشعبية التى تم تشييدها قديمًا والأحياء الشعبية الجديدة. وقد انتفعت الأحياء الشعبية القديمة من شرعية تاريخية وينظر إليها كمستقر للهوية العرقية الشعبية (أى تحديد هوية البلدي). ويقال إن قاطنيها يتقاسمون مشاعر قوية بالتضامـــن وترتبط هويتهـــم بالأحيـــاء التى يقطنـــونها (El-Messiri 1978; Ghannam 2002; Singerman 1995). ولا يقضى هذا الاندماج المشترك فى الهوية مع الحى على باقى الهويات المشتركة للجماعات مثل الارتباط بجماعة الأقارب أو جماعة القرية (El-Messiri Nadim 1979). ولكن الأحياء الشعبية الجديدة والتى شُيدت فى سنوات الستينيات والسبعينيات لم تستفد من هذه الشرعية التاريخية ولا تزال تفتقر إلى هوية معترف بها (غنام ٢٠٠٢، وفى هذا الكتاب). ولا ينظر إليهم (كبلدي) ولكن فى أفضل الظروف كشعبى (بالمعنى الاجتماعى- الاقتصادى وبدون المضمون الثقافى للبلدي) إن لم يكن العشوائى (غير قانونى وبدون تخطيط) وذلك نظرًا لحقيقة أن معظم الأحياء الشعبية التى تم بناؤها فى سنوات السبعينيات والثمانينيات شُيدت بطريقة غير قانونية (للمزيد من التفاصيل لهذه الأحياء يمكنك الرجوع إلى دينيس فى هذا الكتاب). ونوقشت أهمية الروابط الطائفية والإقليمية من داخل هذه المناطق بصفة أساسية بغرض تقييم درجة الترابط الاجتماعى والتمدن الحضرى فى هذه المناطق. وتميل الكثير من الدراسات الحضرية إلى اعتبار أن توافر شبكات إقليمية قوية تُحد من التكامل الحضرى وتحديد هوية حيز مكانى مشترك، وهى المنطقة الحضرية. وتصف هذه

الدراسات وفى توافق مع نماذج التنمية ونظريات التطوير هذه الشبكات والروابط الإقليمية كظواهر عارضة يمكن أن تزول بمجرد ذوبان هؤلاء النازحين فى النسيج الحضرى. وتشير دراساتى عن النازحين من الوجه القبلي، وعلى العكس من ذلك، إلى أن الروابط الإقليمية تتفاعل مرة أخرى فى السياق الإقليمى وتصبح مرة أخرى وسيلة قوية للحشد السياسى والاجتماعى.



طفلان من أطفال أحياء المناطق العشوائية؛ حيث يقطن أهالى الوجه القبلى وهما فى طريقهما للمدرسة (تصوير جان بيير ريبير)

الروابط والشبكات التى تستند على الأسس الإقليمية

تجعل ندرة الأبحاث عن الشبكات الإقليمية لسكان القاهرة المعاصرين من الصعوبة بمكان إمكانية تقدير عما إذا كانت الشبكات الإقليمية تمثل ظاهرة انتقالية/ هامشية، أو على العكس من ذلك تُشكل ملمحًا اجتماعيًا واقتصاديًا مهمًا للمدينة. وكان من الشائع الجزم فى بدايات القرن العشرين، فيما يخص الشبكات المهنية، "بأن من ينتمون إلى قرية معينة أو منطقة معينة يهاجرون إلى مدينة معينة، ويتخصصون فى مهنة محددة بعينها" *(Baer 1967; Abu-Lughod 1961)*. ولكن معظم الأمثلة التى تم تسجيلها فى هذا الصدد تشير إلى شبكات اقتصادية محدودة جدًا: الحمالين من قرية موها (أسيوط)، والسقايين دار باكار (الغربية)، وقد قام بتسجيلها باير فى أوائل القرن العشرين؛ وبائعى الفول فى القاهرة الفاطمية من الواحات *(El-Messiri Nadim 1979)*؛ وصانعى الخبز فى وسط المدينة تعود أصولهم إلى قرية بالقرب من أسيوط *(Meyer 1988)*؛ وباعة الخضروات فى منطقة دار السلام وروض الفرج من منطقة سوهاج *(Kharoufi 1991; 1995)*؛ وباعة الملابس فى وكالة البلح بمنطقة بولاق أبو العلا تعود أصولهم إلى قرية الأجانا فى منطقة أسيوط (أسامة وصبحى ١٩٩٦)؛ وغيرها. ومن الصعوبة بمكان تقدير ما إذا كان هذا التخصص الإقليمى يشكل نمطًا مهمًا فيما يوصف عادة باسم "قطاع الاقتصاد غير المنظم". فهناك مؤشرات على سبيل المثال بأن قطاع بيع الخضروات والفواكه هو قطاع منظم للغاية ضمن شبكات إقليمية، وهناك احتمال بأن الأمر نفسه يحث فى قطاع البناء والتشييد فى الجيزة حيث يميل المقاولون المنتمون إلى الوجه القبلى إلى القيام بدور مهم.

وقد وجدت التكتلات العائلية الممتدة والمرتبطة على أساس إقليمي، وعلى أساس القرى التى ينتمون إليها، فى العديد من المناطق العشوائية، أو القرى السابقة التى كانت تحيط بالقاهرة ***Deboulet 1994; El Kadi 1988; Fakhouri 1987;***

Florin 1999; Miller 2000; Oldham et al. 1987; Taher 1986; Tekce et al. 1994. وتبدو التكتلات العائلية أو الإقليمية مهمة للغاية فى تجسيد أخلاقيات أولئك النازحين من الوجه القبلي. ولا يعني ذلك بالطبع، أن الروابط العائلية تلعب دورًا في الوجه القبلي فقط. وهي تهم في حقيقة الأمر، كل فرد في القاهرة تقريبًا، أيًا كانت أصوله أو أصولها. وكما هو الحال في كل منطقة الشرق الأوسط، فإن الأواصر الأسرية هي أساس الحياة الاجتماعية ***Hopkins 2001, Rugh 1985, Singerman 1995***. ويشار للعائلة في القاهرة، على وجه العموم، بالأهل، أو الأسرة، أي الأسرة الوثيقة التي لا تبتعد عن الأقارب المباشرين من الدرجة الأولى. ويشار للعائلة في الوجه القبلي، وبين النازحين من صعيد مصر باسم "العيلة" أو "البدنة" التي تضم كل أفراد الأسرة الممتدة بالنسب.

ويتم تصوير الحياة بين الأقارب كمثالية اجتماعية، لأنها تقوم بمد الأفراد بأحاسيس الراحة والأمان. ولذا، يميل الأفراد، إذا ما كانت الوسائل المادية متاحة، إلى التجمع في نفس المنطقة السكنية. ولا يقتصر التجمع العائلي أو لذوي أصول معينة على الجيل الأول من النازحين. فقد تنتقل بعض مجموعات الأقارب والذين يعيشون في منطقة معينة بالهجرة ويقومون بجذب أقربائهم من المنطقة الأصلية التي كانوا يقطنون فيها. فقد عاون بعض المغتربين في دول الخليج أعضاء أسرهم الممتدة في شراء أراضي البناء، من أجل تشييد منازل، بل وفي بعض الأحايين الاستثمار في العقارات وصناعة التشييد. وتحكي قصص بعض هؤلاء النازحين كيف استطاعت مجموعة من الأسر الممتدة، أو نفس القرية، أو القبيلة، أن تقوم بوضع يدها على قطعة أرض خالية أو التجمع بغرض شراء أراض للتشييد عليها. وتكون في الكثير من الحالات، مجموعة من العائلات الممتدة، هي قلب منطقة سكنية تاريخية. وتُشكل في المناطق السكنية الجديدة ما يمكن أن نطلق عليه "عزوة" والتي تمكنهم من الحياة خلال المصاعب التي تواجههم، والاستمرار في أداء دور

اجتماعى أو سياسى فى منطقتهم السكنية. ولا تزال الكثير من المناطق تعرف باسم منطقة أولاد "زيد"، أو منطقة عزبة "عبيد".

> **لقد جاء جدى من جرجا واستوطن فى مصر القديمة فى سنوات الأربعينيات. وتبعه الكثيرون من جرجا إلى مصر القديمة. وقد قمنا بشراء ثلاثة منازل هناك. ثم جئنا إلى الأندلس وقمنا بشراء أراض فيها. ونحن نملك فيها ثلاثة منازل. ويفضل الكثير من الصعايدة التجمع مع بعضهم البعض. فإذا ما رغبت فى شراء أرض فى مكان ما، فإننى أستشير أقربائى فى هذا الأمر وحتى يقوموا بشراء أرض بجانبى وبالتالى نقوم بتشكيل "عزوة". ونحن أوائل الأسرة الذين أتوا إلى حى الهرم ثم بعد ذلك انضم إلينا الكثير من الأقارب. وبذلك أصبحنا "عزوة" نقف مع بعضنا كتفًا لكتف. وتعود أصول معظم ملاك المنازل هنا إلى أسيوط وسوهاج. فالشارع القائم هناك بأكمله تقريبًا أسيوطيون من ديروط، والشارع الآخر يقطنه الكثير من أهل الفيوم. هناك شارع يطلق عليه "أولاد الفيوم"، وكلهم من الفيوم.**

حمدي، ٢٢ سنة، ولد فى مصر القديمة.

قام السكان، من خلال هذه الاستراتيجيات السكنية، بتطوير نظرة خاصة للأماكن الحضرية، واعتبروا أن بعض المناطق "ملكهم"، حتى لو أصبحوا الآن يشكلون أقلية سكانية فى تلك المنطقة. وعلى كل حال، فإن معظم الروايات غالبًا ما

تشير إلى "بطولات الماضي" حينما كابد هؤلاء مشاق الانتقال إلى مناطق غير ممهدة فى القاهرة الكبرى من أجل تأسيس حياة جديدة لهم:

جرى تجمع العائلة فى بداية الأمر عندما استقر أبى وعمى هنا وجلبا معهما الأقارب المقربين من الأسرة. وهذا هو نظام التجمع. وذلك لأن "الكثرة تغلب الشجاعة". وحتى لو كنا أضعف، فإننا نستطيع الدفاع عن أنفسنا، لأنه كانت هناك الكثير من السرقات فى المنطقة التى كانت زراعية. ولذا فإن نظام العزوة يعود إلى تلك الأيام الخوالي، أيام الحقول.

أسامة، ٣٠ سنة، إمبابة.

تضخمت هذه المناطق اليوم بطريقة هائلة، وتنوع القاطنون فيها، وجذبوا العديد من قطاعات السكان فى القاهرة والهاربين من الأحوال المتردية فى أحياء القاهرة القديمة (*Deboulet 1995*). ومن المثير للاهتمام، أن "الرواد" القدامى والذين كانوا من واضعى اليد على هذه الأراضى فى السابق، يجأرون بالشكوى بأن مناطقهم، والتى كانت تدار فى السابق بواسطة عائلات مشهورة، قد غزتها جحافل الأجانب والدخلاء (*Miller 2000*). وكما أوضح بعض السكان:

كانت هناك عائلات من محافظة قنا فقط هنا، ولكن، وفى سنوات الثمانينيات جاء الدخلاء – المصاروة – والذين تهدمت منازلهم، واستقروا فى إمبابة. ونتيجة لذلك، تدهورت العلاقات بين السكان. وكان آباؤنا من الصعيد يحتفظون بعلاقات وطيدة مع بعضهم البعض؛ وكانت العائلات تعرف أصولها. ولكن الدخلاء، قدموا بمتاعبهم. إنهم يتناثرون فى

كل مكان حولنا، ولا يعرفون بعضهم البعض... فليست لديهم أصالة.

محمد، ٢٥ سنة، عزبة الصعايدة، إمبابة.

فى نفس الوقت، انتقل الآن أطفال عائلات هؤلاء الرواد الأوائل والذين توطدوا فى سنوات الستينيات، وبعد أن نالوا قسطًا من التعليم، إلى أحياء الطبقات المتوسطة من أجل البحث عن أماكن أفضل للإقامة فيها.

وتبدو التجمعات السكنية التى يـتم تأسيـسها علـى الانتمـاءات الإقليميـة والشبكات المهنية الإقليمية، بأنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمراحل الأولى من مراحـل النزوح إلى القاهرة، وهناك احتمال بأن تلك التجمعات السكنية لا يمكنها أن تـصمد أمام التحولات الحضرية المستمرة. ولا تزال، على أى حـال، شبكـات الأقـاليم أو الشبكات العائلية تلعب دورًا اجتماعيًا هامًا كوسيلة قويـة للتنظـيم الاجتمـاعى والسياسي، فى الوقت الحاضر. ولا يجب أن تكون علاقة روابط الشبكات الإقليمية قاصرة على تحليل التوزيع السكانى أو الشبكات المهنية. ويمكن أن تتطـور هـذه الروابط الإقليمية من خلال أدوات رمزية أكثر تطورًا، كما سأقوم بتوضـيحه فـى السطور التالية.

من الروابط إلى العصبيات القبلية فى القاهرة

تتميز الشبكات الإقليمية بالنشاط على ثلاثة مستويات معقدة فى القاهرة. فهناك أولاً الجمعيات التى تستند على أسس إقليمية (روابط، ومفردها رابطة) وتعتبر من الأنماط الأساسية (من ضمنها الجمعيات الإسلامية) وعلى الرغم من صعوبة تقدير حيويتها الفعالة لأن البعض منها ورغم تسجيلها فإنها لم تمارس

نشاطها بالفعل (بن نفيسة وقنديل ١٩٩٤). وتضم هذه الجمعيات نازحين من كافة الخلفيات الاجتماعية والاقتصادية والأحياء فى القاهرة، والذى يشتركون فى أصول إقليمية واحدة. ويمكن أن تضم هذه الجمعيات نازحين على أساس القرية أو المنطقة كما تتنوع أعدادهم تنوعا ضخمًا. وغالبًا ما يرأس الرابطة أحد الأثرياء المشاهير كما تتلقى تبرعات من أعضائها الأثرياء. وتدور أنشطتها الرئيسية حول مساعدة النازحين الفقراء، وبصفة خاصة فى ترتيبات الجنازة عند الوفاة، وهى واحدة من أهـم الواجبـات الاجتماعيـة فى مصر (وذلك إما بإرسال الجنازة لمسقط رأسه، أو بشراء المقابر فى ضواحى القاهرة). كما تقدم هذه الروابط مساعدات موسمية إلى العائلة المُعسرة كما تقوم بمهام الوساطة فى النزاعات العائلية أو نزاعات الحى التى يمكن أن تنشب. كما تقوم بتدعيم أواصر العلاقة بين أعضائها عن طريق تنظيم الاحتفالات واللقاءات. ولعبت مثل هذه الروابط أدوارًا هامة فى سنوات الستينيات والسبعينيات، ومساعدة النازحين الفقراء من القرية من أجل إدماجهم فى المجتمع الجديد وتعزيز العلاقة مع المنطقة الأم (بن نفيسة ١٩٩٤). ووهنت الكثير من هذه الأنشطة الاجتماعية فى سنوات التسعينيات لأن الكثير من هؤلاء النازحين السابقين توافرت لديهم العديد من الوسائل المادية ولم تعد لديهم الرغبة فى الاعتماد على الروابط أكثر من ذلك، وبالذات فى ترتيبات الجنازات. وتبدو الروابط الآن أقل علنية فى نشاطاتها من الجمعيات الأخرى مثل الجمعيات الخيرية الإسلامية. كما لا يلعبون أى دور سياسى بارز. وحتى مع ذلك، فإن الجمعيات المؤسسة على روابط إقليمية تحتفظ بعلاقة قوية مع النازحين إلى القاهرة، ومع مناطقهم الأصلية، وعلـى وجـه الخصـوص الجمعيـات المؤسسة على أساس الانتماء القروي، ولا تـزال أعـدادا منهـا تمـارس أنشطتها سواء فى القاهرة أو فى القرية الأم (بن نفيسة ١٩٩٤).

والثانية، المجالس العرفية (مجالس أو تجمعات للمصالحة ذات غرض محدد) وتضم شخصيات محلية (شخصيات سياسية أو من المشاهير) بالإضافة إلى ممثلين للعائلات الكبرى، ومجموعات من القرية، ومجموعات إقليمية من الأحياء، وتعتبر من الوسائل المُهمة للضبط الاجتماعى وتنظيم حل المنازعات فى حالات منازعات الجيرة وفى بعض الأحيان فى النزاعات السياسية أو الدينية. وتعتبر هذه المجالس العرفية كيانات غير رسمية وغير مؤسسية وتتنوع تشكيلاتها طبقًا لطبيعة النزاع المثار. ويمكن أن تنعقد هذه المجالس فى أى مكان (فى منزل، أو فى مكتب أو فى جمعية، أو فى مقهى، أو غيرها). ويكون هدفها الأساسى هو التوسط بين الأطراف المتنازعة والوصول إلى اتفاق من أجل تفادى عقوبات قضائية مثل السجن. وليست لهذه المجالس الصفة الرسمية ولكنها على الرغم من ذلك تعمل بالتعاون الوثيق مع أجهزة الدولة والمسئولين فى الهيئات القضائية. ويمكن تسجيل قراراتها فى سجلات الشرطة أو فى محكمة الإقليم فى الحالات التى تتسم فيها النزاعات بالخطورة *(Ben Nefissa et al 2000, Haenni 2001)*. وأما فى حالات النزاعات البسيطة داخل الحي، فإن اجتماع مصالحة غير رسمى يجمع بين كبيرى الأسرتين (كبيرى العائلة) من أجل حل المشكلة بدون تدخل من البوليس. وعلى أى حال، فإن الأشخاص الذين يعملون كوسطاء فى هذه المجالس العرفية يجب أن تكون لديهم شبكة قوية وجماعة تدعمهم (عزوة) بالإضافة إلى علاقات سياسية طيبة. وتبرهن الروابط، والمجالس العُرفية، والمجالس غير الرسمية أن روابط العائلات، والقرية والمنطقة وسائل فعالة للضبط الاجتماعى الحضرى والتماسك الحضرى وأنها بحكم الأمر الواقع المعترف به على هذا النحو من مؤسسات الدولة.

ثالثًا، أصبح وزن اللوبى الإقليمى أو الشبكات الإقليمية أكثر بروزًا وأهمية أثناء انتخابات المجالس المحلية والقومية فى القاهرة *Ben Nefissa 2004,*

Longuenesse 1997; Mursi 1988. فى عدد من الأحياء المعروفة بأهمية سكانها النازحين، يتعين على الأحزاب السياسية أن تبحث لنفسها عن مرشح إقليمى ليمكنها جذب الناخبين إلى جانب رفيقهم من النازحين من أجل كسب الانتخابات. ويشكو عدد من الصحف أن "عصبيات" الوجه القبلى تهيمن على الانتخابات فى بعض أحيـــاء القاهـــرة والإسكنـــدرية. ويشير مصطلح "العصبية" إلى مشاعر التضامن أو الانتماء التى تجمع أعضاء مجموعة ما مع بعضهم البعض، والذين يفترض أن يشتركوا فى أصل واحد، مثل العشيرة أو القبيلة (*Seurat 1985*). وعلى هذا النحو، فإن العصبية تعكس نوعا بدائيا من الانتماء، ويعتبر الكثير من الخبراء السياسيين أن العصبية فى القاهرة تعكس أشكالا تقليدية من التنظيم لأنها ناتجة عن النزوح من المناطق الريفية (بن نفيسة ٢٠٠٤).

على الرغم من ذلك، فإن العصبية الحضرية تنشر أدوات استطراد منطقية (الروح العائلية، ونبل المحتد)، وهى فى الحقيقة، تمثل أنماطًا جديدة من الترابط والتنظيم. وعلى المستوى السياسي، فإن العصبية الحضرية تنشط الروابط والشبكات لتجعلها على نطاق أكثر اتساعًا عن ذوى القربى أو شبكات النسب الأصلية. وتعتمد عمليات تحويلها إلى أداة سياسية محتملة من العصبيات فى القاهرة، وفى حالة الوجه القبلي، تعتمد جزئيًا على بزوغ هوية أو روابط الوجه القبلى المصرية المعتادة. وهنالك جانب مهم "للصعايدة" فى سياق القاهرة حقيقة أنها تتخطى التقسيمات التقليدية لمجتمع الوجه القبلى ويمكن تجميع كل من ينتمون إلى الوجه القبلى على أساس الأصول الإقليمية والثقافية المشتركة (*Miller 2004*). ولذا يمتلك الأفراد الذين لديهم فرص ضئيلة أو معدومة على الإطلاق للقيام بدور سياسى فى موطنهم الأصلي، نظرًا لأوضاعهم العائلية، الفرصة الآن للمشاركة ويمكن أن تتاح لهم الفرصة ليصبحوا نوعا من "القيادة" السياسية فى القاهرة.

ويلجأون، لهذا، إلى العديد من وسائل الحشد مثل تأسيس أو المشاركة فى الجمعيات الخيرية، وإصدار الصحف الخاصة بهم، وتطوير شبكات عملاء واسعة، والانتساب فى عضوية المجالس السياسية المحلية، وغيرها. ويقوم هذا النشاط الاجتماعى والسياسى الذى يبثه خطاب ثقافى قوي، بتجميع إشارات إلى التقاليد، والثقافة، والعقيدة من أجل انتقاد النخبة القاهرية المتغربة وإضفاء الشرعية إلى التأثير المتصاعد لشبكات الوجه القبلي. ويبذل هؤلاء "القادة الجدد" قصارى جهودهم من أجل جذب "بلدياتهم" (الأفراد الذى ينتمون إلى منطقتهم الجغرافية). وربما يكون جدير بالملاحظة أن الأصل الإقليمى وسيلة مائعة للغاية وبدون حدود جغرافية ثابتة مما يمكن هؤلاء "القادة الجدد" من جذب الكثير من الناس على قاعدة من أخلاقيات ثقافية / أو دينية مشتركة.

ولا تمثــل الشبكــات الإقليميــة المتسعــة أولئك الأعضاء السابقين للنخبة أو الأرستقراطية الصغيرة للوجه القبلي، والتى تأسست فى القاهرة منذ أكثر من قرن مضى. وعوضًا عن ذلك، فهذه الشبكات تمثل طبقة بارزة من الأفراد الذين ارتبطوا بالتغييرات الاقتصادية لحقبة الانفتاح الاقتصادى. وقد عمل كثير من أعضاء هذه الطبقة الجديدة فى دول الخليج ثم استقروا فى القاهرة وقاموا بتنمية مشروعاتهم الخاصة. ويمكن أن يكونوا طبقًا لتاريخهم الخاص، فاحشى الثراء، ويعيشون فى أحياء الطبقة الراقية مثل المهندسين، أو يمكن أن يكونوا من صغار المقاولين الذين يعيشون فى العشوائيات. وأيًا كانت أوضاعهم، فإنهم يسهمون فى تشييد المساجد، والمدارس، وغيرها، فى الأحياء المتواضعة، ويطلق عليهم "أهل الخير"، أو "كبار المنطقة". فهم قادرون على صهر الروابط الإقليمية داخل نسيج الأنشطة الحضرية والروح المعنوية.

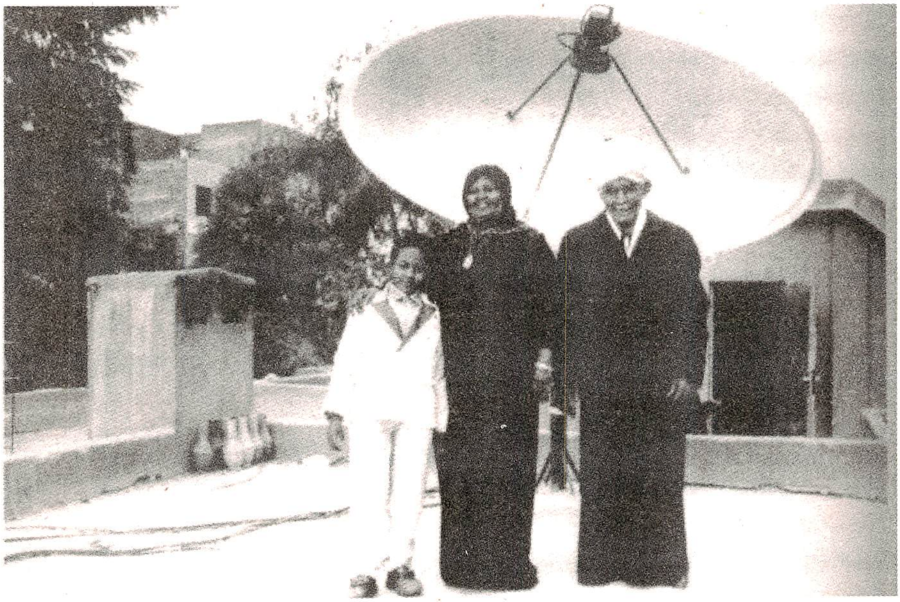
نظرة حضرية جديدة

يشارك هؤلاء "القادة" المحليون للوجه القبلى من خلال أفعالهم وخطاباتهم، فى تطوير نظرة أخرى للأماكن الحضرية. وتستنسخ هذه النظرة عناصر من الخطاب الشعبى التقليدي، والتى تتباين مع التضافر القوى للأحياء الشعبية مع النزعات الفردية للأثرياء (قارن أخلاقيات البلدى الموصوفة عند المسيرى ١٩٧٨ وسينجرمان ١٩٩٥). ويفترض أن يكون نموذج ابن البلد، وهو(نموذج للشخص الحضرى المحبب) - يتعارض مع مشاعر الفخر بهويته أو هويتها الحضرية وبالأحرى بمشاعر الازدراء تجاه النازحين من الريف. وفى المقابل، فإن المعالجة من وجهة النظر "الصعيدية" تفترض شموخ القيم الأخلاقية المصرية لأهل الصعيد (مثل معنى الشرف والتكافل، واحترام الكبار، وتماسك الأقارب، والخشوع الديني، والامتثال للفروض الدينية)، وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذه المعالجة أو هذا الخطاب يبشرنا بالحاجة إلى نقل الاستقامة وهى من تقاليد وثقافة الصعيد إلى الأحياء الحضرية. لذا فإن الأفراد الذين يتمسكون بثقافتهم وأخلاقياتهم الإقليمية بشدة أكثر قدرة عن الآخرين على السلوكيات الجيدة فى الحى وحماية التماسك الاجتماعى للمنطقة التى يقطنونها. وكما قال أحد الشباب من بولاق الدكرور:

> **كل الناس هنا من الصعيد، ونحن نتقاسم نفس العادات والتقاليد. إن الأمر يشبه أن تكون فى جزء من مسقط رأسك. والعلاقات الاجتماعية هنا بين الناس قوية للغاية. فإذا ما تعاركنا كشباب، فإن أحد الكبار سيقوم بحل المشكلة. ونحن نقوم بتنظيم مجالس يمكننا فيها حل المشاكل التى تظهر. هو من سوهاج، وأنا من أسيوط، ولكن طباعنا متقاربة.. لقد جلبنا معنا إلى هنا تقاليد الصعيد، ونحن نجاهد من أجل**

تكييفها مع المنطقة هنا. ونحن نشكل الأغلبية هنا وستجدين أن الآخرين يتبنون العادات الصعيدية لأن ملامحنا الاجتماعية تتوافق مع الدين، ومع التقاليـد. ولـذا فـنحن مـستقرون. ويتعين على القادمين الجدد أن يوائموا أنفسهم مع حياتنـا. وفى بعض الأحيان نكون نحن القادمين الجدد، ولكن يتعـين على الآخرين (من غير الصعايدة) أن يغيروا مـن أنفـسهم للتكيف معنا أيضًا. والروابط بيننا وبين بعضنا البعض أقـوى من أولئك القادمين من الدلتا أو ضواحى القاهرة الأخرى. إن تقاليدنا تُشكل كيانًا مستقلاً ويتأتى ذلك نتيجة لتوافقهـا مـع العقيدة. إنها شبه مقدسة.

جمال، ٢٧ سنة، ولد بالقاهرة، ويحمل دبلوم التجارة المتوسطة، ومن حى ناهيا.

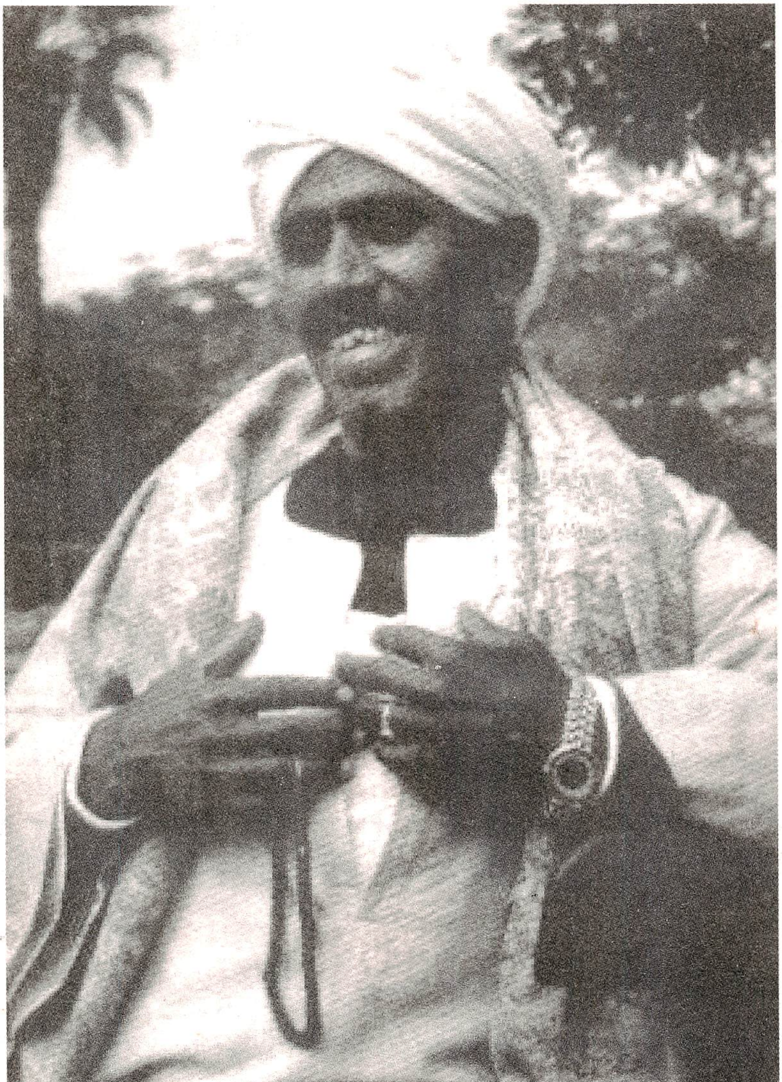


عائلة من الوجه القبلى على سطح مبنى وبجوارهم طبق من أطباق استقبال قنوات الأقمار الصناعية (تصوير جان بيير ريبير)

إلى أى مدى تتطور أو تسهم هذه القطاعات من سكان القاهرة فى خلق نظرة جديدة للحياة الحضرية؟ ليس من السهل الإجابة على هذا السؤال. فمن جانب فإن هذا الخطاب للصعايدة يستنسخ ملامح بلاغية معروفة، مثل تمثيل الوجه القبلى كموطن للمقاومة والأصالة مقابل الاستعمارية والتغريب. ويعتبر هذا الملمح البلاغى جزءا من الخطاب القومى العام منذ أوائل القرن العشرين على الأقل (انظر شخصية حسين مؤنس عند روسيون ١٩٩٢)، وعلى الجانب الآخر، فإن الخطاب الصعيدي، يعيد إدخال مفهوم روابط العشيرة (العائلة)، والأصل، والدم، كقيم أساسية وكدعامات للمجتمع، حضريًا كان أو لم يكن. وهذه القيم ليست عدائية مع روح العائلة فى مجتمع القاهرة ولكن الخطاب الصعيدى كما هو الحال أيضًا فى الخطاب الإسلامى يعزز شرعية أنواع التجمعات غير الغربية (الأسرة/ العشيرة/ القبيلة) على الأفراد أو أنواع الشبكات الأخرى (الاتحادات العمالية، والأحزاب السياسية، والحي، وغيرها). ويتجنب أهل الصعيد، على سبيل المثال، الوصية المعروفة للنبى صلى الله عليه وسلم "التوصية برعاية حق الجار وحتى الجار السابع، والتى تؤكد على أهمية التماسك بين الجيران. ويؤكدون، بدلاً من ذلك على أهمية رابطة الدم. فعند سماع سيدة تقول إن الجيران والغرباء (مثل العاملين فى التنظيمات غير الحكومية) كانوا غالبًا أكثر عونًا من الأقارب، سارع شاب بالتفاعل مع قولها ورد عليها قائلاً:

> **الأخت تقول إن الغريب أصبح أفضل من القريب، ولكن هـذا وضعُ خاصُ. فهى لا تستطيع أن تفعل شيئًا بدون شـقيقها. إنها شرفه وهى من لحمه ودمه. إنهـا سـوف تعـود لأهلها. فالغريب لا يمكن أن يصلح فى نهاية الأمر. فيمكن أن يكون جارًا عزيزًا، وأمينًا، ومتفانيًا، ولكـن القريـب هـو القريب. والدم لا يتحول إلى ماء.**

الأستاذ جمال، ٢٧ سنة، ناهيا



رجل من الوجه القبلى (تصوير جان بيير ريبير)

وتبدو قيم الصعايدة، من هذه الناحية، قريبة جدًا للنمط الحضرى لدول الخليج والتى تشيع كنموذج مثالى فى العديد من دول الشرق الأوسط ***Beyhum 1997***. كما أنها قريبة للغاية من خطاب الأنساب القومى الشعبى البدوى الأردنى ***(Shryock 1997)***. ويعظم كلا النمطين "القبيلة" كواحدة من أهم الأنماط الأصيلة والشرعية للتنظيم الاجتماعى. ويعتبر التضافر الإقليمى والطائفى والشبكات فى أى حال من الأحوال احتكارا مطلقا لأهل الوجه القبلى فى القاهرة. وتشارك قطاعات عريضة من سكان القاهرة أخلاقيات خطاب "الصعايدة".

خاتمة

يكشف موضوع أهالى الوجه القبلى أو الصعايدة فى القاهرة أن عمليات تحديد الهوية كانت لها دائمًا جذورها التاريخية العميقة. والعلاقات العدائية إلى حد ما بين الدلتا والوجه القبلى تعود بجذورها إلى قرون التطوير غير المتوازن وتوضح جزئيًا القوة الحالية الواضحة فى حدود الهوية بينهما. ولا تعنى هذه الجذور التاريخية، مع ذلك، أن الهويات الجمعية مثل القومية، والعرقية، أو التجمعات الإقليمية هى كيانات ثابتة. والهويات التى تستند على أسس إقليمية، أو العصبيات، هى عمليات البناء السياقي، والتى مثل الأنواع الأخرى من الهويات الجمعية البازغة يمكن أن تشير إلى التقاليد حتى يمكن التكيف مع التغيرات ***(Hobsbawn 1993)***.

وقد ظلت الشبكات الطائفية والإقليمية متواجدة فى القاهرة منذ وقت طويل وكانت تأخذ أشكالا مختلفة كما لعبت أدوارًا متعددة. وتثور الحاجة إلى دراسة الشبكات الإقليمية اليوم من خلال "حقائق موضوعية" (مثل التجمعات المكانية أو الشبكات المهنية)، ولكنها أيضا فى حاجة للاستقصاء عنها على مستوى أكثر رمزية. وقد جعلت الشبكات الإقليمية فى مقدور نازحى الوجه القبلى الذين عاشوا

فى الأحياء الموصومة من الناحية الاجتماعية فى أن يقوموا ببناء نظرتهم وخطابهم الخاص فيما يخص المواطنة الحضرية. كما أن الروابط الإقليمية تمنح أهل الصعيد وزنًا اجتماعيًا وسياسيًا جديدًا. ولذا تلعب الشبكات الاجتماعية دورًا بارزًا فى تمثيل المدينة وتحولاتها.

ازدادت أهمية حقيقة أن العصبيات هى توكيد للحداثة، وليست مظهرًا من مظاهر التعبير عن التقاليد، بطريقة ملحوظة فى دول متعددة الطوائف مثل لبنان وفى مجتمعات معروفة بالنظم العشائرية والقبلية فيها مثل اليمن، وعمان، والأردن *(Bocco 1995)*. ويتحدى وجود العصبيات فى مدينة عالمية حديثة مثل القاهرة نظرتنا عن الحداثة، والتى تفترض أن لا مجال فيها للعرقية. وكان يفترض أن الإصلاحات الاجتماعية فى مصر أثناء القرن التاسع عشر والقرن العشرين قد قامت بكسر الروابط القبلية لسكان مصر فى الأقاليم. ولذا فإنه يبدو من الغريب أن لغة القبيلة (أهمية أصل قرابة الدم والنسب) يمكن أن تنجح فى مدينة مثل القاهرة. ولكن هناك العديد من العوامل تشرح هذه الظاهرة الواضحة الغرابة. أولاً، إذا ما كان هناك لغة تشير إلى أهمية الأصل وروابط القرابة، فإن الأمر يبدو فى القاهرة وكأن الشبكات الإقليمية تذهب إلى أبعد من شبكات القربى أو العشائرية. فالعلاقة العشائرية هنا، أمر مجازى أكثر منه حقيقة واقعة. وثانيًا، أن الكثير من المصريين المنتمين للصعيد قد عملوا وعاشوا فى دول الخليج ووجدوا هناك ضالتهم فى أيديولوجية تعلى من قيم الأصول العربية النقية وتعينهم على الطعن فى شرعية ثقافة الطبقة القاهرية العليا الأكثر تفتحًا ذات التوجهات الغربية. وثالثًا، هذه العقيدة العشائرية العربية تتقارب مع العقيدة الإسلامية فى أنها تطعن فى هيمنة الثقافة الغربية وسموها. ولكل هذه الأسباب مجتمعة، تبدو الروابط الإقليمية بين المصريين النازحين من الوجه القبلى وكأنها يتم استخراجها عن طريق عوامل داخلية (العلاقة بين الجنوب والشمال) أكثر منها عن طريق عوامل عالمية.

الأعمال المستشهد بها

Works Cited

Abecassis, Frédéric, and Anne Kazazian. 1992. "L'identité au miroir du droit—le statut des personnes en Egypte (fin XIX, début XX[e] siècle)." *Égypte/Monde Arabe*: 11: 11–38.

'Abd al-Jawad, 'Isam, and Wafa' Sha'ira. 2002. "Al-Sa'ayida yahtajjuna 'ala khittat al-muhafiz bi-man'ihim min dukhul al-Qahira." *Ruz al-Yusif*, 13 July, 37–39.

Abu al-'Izz, Sami. 1994. "Al-Sa'id saqata min dhakirat al-hukuma." *al-Wafd*, 5 May, 8.

Abu-Lughod, Janet. 1961. "Migrant Adjustment to City Life: The Egyptian Case." *American Journal of Sociology* 67: 22–33.

———. 1971. *Cairo: 1001 Years of the City Victorious*. Princeton, N.J.: Princeton University Press.

Baer, Gabriel. 1967. "Social Change in Egypt 1800-1914." In *Political and Social Changes in Modern Egypt*, ed. Peter Holt, 135–61. London: Oxford University Press.

Ben Nefissa, Sarah. 1994. "Deux formes de regroupement à vocation sociale et caritative en Egypte: les ligues régionales et les associations islamiques." *Cahiers du Gemdev* 21: 163–83.

———. 2004. "Asabiets et élections: les égyptiens sont-ils démocrates." In *Dispositifs de démocratisation dans le nord de l'Afrique*, ed. Jean Noel Ferrié and Jean Claude Santucci. Paris: CNRS Editions.

Ben Nefissa, Sarah and Amani Qandil. 1994. *al-Jama'iyat al-ahliya fi Misr.* Cairo: Al-Ahram Strategic Center.

Ben Nefissa, Sarah, Sameh Eid, and Patrick Haenni. 2000. "Réglements des conflits et ordre politique urbain au Caire: les faux semblants des Jalassats Orfia." In *Un passeur entre les mondes, le livre des Anthropologues du Droit, disciples et amis du Recteur Michel Alliot*, ed. J. Le Roy, 207–26. Paris: Publications de la Sorbonne.

Beyhum, Nabil. 1997. "De la ville Ottomane chargée d'histoire à une ville du Golfe partagée entre tribalisme et modernité, l'économie politique

du changement à Beyrouth." In *Sciences sociales et phénomènes urbains dans le monde arabe*, ed. Muhammad Naciri and André Raymond, 233–48. Casablanca: Fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud.

Bocco, Ricardo. 1995. "'Asabiyât tribales et Etats au Moyen Orient: confrontations et connivences." *Maghreb-Mashrek* 147: 3–12.

Deboulet, Agnès. 1994. *Vers un urbanisme d'émanation populaire. Compétences et réalisations des citadins, l'exemple du Caire*. Ph.D. diss., Université Paris XII, Créteil.

_____. 1995. "Des quartiers centraux vers les périphéries spontanées. Eléments sur la mobilité résidentielle dans la région du Grand Caire." In *Les nouvelles formes de la mobilité dans le monde arabe*, ed. Robert Escallier and Pierre Signoles, 433–62. Tours: Urbama.

_____. 1996. "Devenir citadin . . . ou partir à la conquête de droits urbains élémentaires: exemples tirés de faubours récents du Caire." In *La citadinité en questions*, ed. Michel Lussault and Pierre Signoles, 141–57. Tours: Urbama.

Denis, Eric. 1994. "La mise en scène des 'Ashwa'iyat." *Egypte/Monde Arabe* 20: 117–32.

Denis, Eric and Assef Bayat. 1999. "Urban Egypt: Towards a Post Metropolization Era?" *Cairo Papers in Social Science* 21: 48–27.

Eickelman, Dale F. 2002. *The Middle East and Central Asia. An Anthropological Approach*. Upper Saddle River, N.J.: Prentice-Hall.

El-Kadi, Galila. 1988. *L'urbanisation spontanée au Caire*. Tours, Urbama: Fascicule de Recherche.

al-Khadiri, Muhsin. 2002. "Mutaradat al-Sa'ayda fi shawari' al-Qahira." *al-Ahrar*, 19 July, 3.

El-Messiri, Sawsan. 1978. *Ibn Al-Balad: A Concept of Egyptian Identity*. Leiden: E.J. Brill.

_____. 1983. "Tarahil Laborers in Egypt." In *Migration, Mechanization and Agricultural Labor Market in Egypt*, ed. L. Philip Martin and Alan Richards, 79–100. Boulder, CO: Westview Press.

Al-Messiri Nadim, Nawal. 1979. "The Concept of the Hâra: A Historical and Sociological Study of Al-Sukkariya." *Annales Islamologiques* 153: 13–48.

Fakhouri, Hani. 1987. *Kafr El-Elow: Continuity and Change in an Egyptian Community*. Prospects Heights, IL.: Waveland Press.

Florin, Benedicte. 1999. *Itinéraires citadins au Caire: mobilités et territorialités dans une métropole du monde arabe*. Ph.D. diss., Université François-Rabelais, Tours.

Garcin, Jean Claude. 1969. "L'insertion sociale de Sha'râni dans le milieu cairote." In *Colloque internationale sur l'histoire du Caire*, 15: 9–67. Paris: CNRS éditions.

. 1987. "Pour un recours à l'histoire de l'espace vécu dans l'étude de l'Egypte Arabe." In *Espaces, pouvoirs et idéologies de l'Egypte médiévale*, ed. Jean Claude Garcin, 436–51. London: Variorum Reprints.

Ghannam, Farha. 2002. *Remaking the Modern: Space, Relocation and the Politics of Identity in a Global Cairo*. Berkeley: University of California Press.

Gran, Peter. 1998. *Islamic Roots of Capitalism: Egypt 1760–1840*. New York: Syracuse University Press.

Haenni, Patrick. 2001. *Banlieues indociles? Sur la politisation des quartiers péri-urbains du Caire*. Ph.D. diss., Institut d'Études Politiques, Paris.

Hobsbawn, Eric John, and T. Ranger, eds. 1983. *The Invention of Tradition*. Cambridge: Cambridge University Press.

Hoodfar, Homa. 1997. *Between Marriage and the Market: Intimate Politics and Survival in Cairo*. Berkeley: University of California Press.

Holt, Peter, ed. 1967. *Political and Social Changes in Modern Egypt*. London: Oxford University Press.

Hopkins, Nicholas, ed. 2001. "Special Edition on the New Arab Family." *Cairo Papers in Social Science* 24 (Spring).

Ireton, François. 1997. "Les migrations vers cinq grandes villes d'Egypte (Le Caire, Alexandrie et les trois villes du Canal), 1907-1986." *Egypte/Monde arabe* 32 (4): 81–96.

Kharoufi, Mostafa. 1991. "Du petit au grand espace urbain: le commerce des fruits et légumes à Dâr al Salâm." *Egypte/Monde arabe* 5: 81–96.

______. 1995. "Société et Espace dans un quartier du Caire (Dâr al Salâm): secteur informel et intégration urbaine." *Les Cahiers d'Urbama* 1: 57–91.

Lapidus, Ira M. 1984. *Muslim Cities in the Late Middle Ages*. Cambridge: Cambridge University Press.

Longuenesse, Elisabeth. 1997. "Logiques d'appartenance et dynamique électorale dans une banlieue ouvrière: le cas de la circonscription 25 à Helwân." In *Contours et détours du politique en Egypte. les élections legislatives de 1995*, ed. Sandrine Gamblin, 199–228. Paris: Harmattan-Cedej.

"Lubi Sa'idi yadummu wuzara' wa-a'da' Majlis al-Sha'b didda muhafiz al-Qahira." 2002. *al-Jil*, 17 July.

Meyer, Gunter. 1988. "Manufacturing in Old Quarters of Central Cairo." *Eléments sur les centres villes dans le monde arabe*. Tour: Urbama.

Miller, Catherine. 2000. "Réseaux et territoires migrants de haute Égypte à Guizah (Le Caire)." In *Les Compétences des citadins dans le monde arabe*, ed.

Isabelle Berry-Chikhaoui and Agnès Deboulet, 221–46. Paris-Tour Tunis: Karthala-Urbama-IRMC.
_____. 2004 " Between Myth and Reality: The Construction of a Saidi Identity." In *Social and Cultural Processes in Upper Egypt*, eds. Nicholas Hopkins and Reem Saad. Cairo: The American University in Cairo Press.
Mursi, Fouad, ed. 1988. *al-Intikhabat al-barlamaniya fi Misr, dirasat intikhabat 1986*. Cairo: Sina li-al-Nashr.
Oldham, Linda, Aguer El-Hadidi, and Hussein Tamaa. 1987. "Informal Communities in Cairo: the Basis of a Typology." *Cairo Papers in Social Science* 10 (4): 110.
Petry, Carl F. 1981. *The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages*. Princeton, N.J.: Princeton University Press.
Raymond, André. 1983. "Les quartiers de résidence des commerçants et artisans maghrebins au Caire au XVIIe et XVIIIe siècles." *Revue d'histoire maghrébine* 31–32: 355–64.
_____. 1987. "Les rapports villes–campagnes dans les pays arabes à l'époque ottomane (16ème–18ème)." In *Terroirs et sociétés au Maghreb et moyen orient*, ed. B. Cannon and F. Metral, 19–58. Lyon: CNRS.
_____. 1988. "Les résidences des artisans et commerçants turcs au Caire au XVIIIe siècle." In *Mélanges Professeur Robert Mantran*, ed. Abdeljelil Temimi, 209–19. Zaghouan: Publication du Centre d'Études et de Recherches Ottomanes (Ceromde).
_____. 1990. "Palestiniens au Caire au XVIIIe siècle." *Revue d'Études Palestiniennes* 36: 57–66.
_____. 1994. "Le Caire traditionnel: une ville administrée par ses communautés?" *Maghreb-Mashrek* 14 (3): 9–16.
Roussillon, Alain. 1992. "Egyptianité, arabité, islamité: la recomposition des référents identitaires." *Egypte/Monde Arabe* 11: 77–132.
_____. ed. 1995. *Entre réforme sociale et mouvement national: identité et modernisation en Egypte (1882–1962)*. Cairo: CEDEJ.
_____. 1996. "Comme si la ville était divisée en deux: un regard réformiste sur l'urbain en Egypte au tournant des années 1940." *Genèses* 22: 18–39.
Rugh, Andrea. 1985. *Family in Contemporary Egypt*. Cairo: The American University in Cairo Press.
Salibi, K.S. 1992. "Community, State and Nation in the Arab Mashriq." *The Beirut Review*: 339–51.
al-Salimi, Bahir. 2002. "Hal yu'amir muhafiz al-Qahira bi-tarhil Shaykh al-Azhar wa-al-Baba Shenuda?" *al-Midan*, 22 July.

Seurat, Michel. 1985. "Le quartier de Bâb Tebbâne à Tripoli (Liban): étude d'une 'assabiya urbaine." In *Mouvements communautaires et espaces urbains au Mashreq*, 45–86. Beyrouth: Cermoc.

Shafiq, Amina. 1994. "Kasr 'uzlat al-Sa'id." *al-Ahram*, 10 October, 3.

Shryock, Andrew. 1997. *Nationalism and the Genealogical Imagination: Oral History and Textual Authority in Tribal Jordan*. Berkeley: University of California Press.

Singerman, Diane. 1995. *Avenues of Participation: Family, Politics and Networks in Urban Quarters of Cairo*. Princeton, N.J.: Princeton University Press.

. 1999. "The Construction of Political Spectacle: The Siege of Imbaba or Egypt's Internal Other." Paper presented in the conference *La Naissance du Citoyen*, 3–5 November. Cairo: CEDEJ.

"The South Recalled." 1996. *Al-Ahram Weekly*. 29 August–5 September.

Subhi, Karim. 1999. "Imbaba qunbulat al-Sa'ayda." *Ruz al-Yusif*, 15 February, 32–36.

Taher, Nadia. 1986. "Social Identity and Class in a Cairo Neighborhood." *Cairo Papers in Social Science* 9 (4): 110.

Tekçe, Belgin, Linda Oldham, and Frederic Shorter. 1994. *A Place to Live: Families and Child Health in a Cairo Neighborhood*. Cairo: The American University in Cairo Press.

Usama, Salama and Karim Subhi. 1996. "Hadm Wikalat al-Balah bi-al-ikrah." *Ruz al-Yusif*, 11 November, 36–38.

Wacquant, Loïc. 1997. "L'underclass urbaine dans l'imaginaire social et scientifique américain." In *L'exclusion, l'état des savoirs*, ed. Serge Paugam, 248–63. Paris: La Découverte.

Zohry, Ayman Gaafar. 2002. *Rural to Urban Labor Migration: A Study of Upper Egyptian Laborers in Cairo*. Ph.D. diss., University of Sussex, Brighton.

الهوامش

١- يُستخدم مصطلح الإصلاحيين لوصف النخبة المصرية منذ منتصف القرن التاسع عشر، والذين كانوا ينادون بالتحديث والتحول الاجتماعى فى مصر. واستُهلت هذه الحركة فى جانب منها عن طريق حكام الأمة (مثل محمد علي)، وتُعرف فى اللغة العربية بالإصلاح الاجتماعي، وتتضمن العديد من النزعات والشخصيات الرائدة فى هذا المجال مثل رفاعة الطهطاوي، ومحمد عبده، ولطفى السيد، وطه حسين، وغيرهم. (*Rousillon 1995*).

الفصل الرابع عشر

مكان، وحصة دراسية، وسلالة عِرقية فى مقهى البرابرة النوبيين فى وسائل الإعلام المصرية

إليزابيث أ. سميث

يترأس السيد/ على سليم فصولا دراسية فى جمعية أرمنا الخيرية والتى تقع فى حى عابدين بالقاهرة، تقوم بتدريس كيفية كتابة اللغة النوبية للمتحدثين بها شفاهة باستخدام الحروف النوبية للقرون الوسطى، والسيد على هو محاسب متقاعد يقترب من الثمانين من عمره، ويتحدث اللغات اليونانية، والفرنسية، والإنجليزية، بالإضافة إلى اللغة العربية، ولغته الأم هى "لغة الفاديجا"[١]. وعندما وصلت إلى مقر الرابطة لحصة دراسية فى إحدى الليالى وقبل أسبوع واحد من نهاية شهر رمضان فى ديسمبر ٢٠٠١، كان السيد على يستفسر من فؤاد، وهو محاسب متقاعد أيضًا وطالب فى فصول تدريس "لغة الفاديجا"، عما إذا كان يمكنه فتح المكتب الواقع فى الشقة المجاورة لجمعية التراث النوبية مساء يوم الأربعاء القادم من أجل عقد اجتماع خاص. وكان السيد على قد قام بتوجيه الدعوة للكاتب والمفكر المصرى البارز خيرى شلبى وأربعة من كتاب الرواية النوبيين لمقر الرابطة لاجتماع ودى من أجل حل الخلافات بينهم.

فما الذى حدث واستدعى اجتماع الصلح فى تجمع ودى "ونسة" بين الزملاء المفكرين والأصدقاء لحل مشكلتهم حول كوب من الشاي؟ وحكى لنا السيد على

كيف أنه منذ أسابيع قليلة سابقة، كتب خيرى شلبى فى عمود صحفى عن الإرهاب فى مصر فى صحيفة الأسبوع، وذكر تفجير عام ١٩٩٣ لمقهى قرب ميدان التحرير المركزى. وأشار شلبى فى مقاله إلى المقهى والذى يطلق عليه مقهى وادى النيل بلقب تشتهر به "قهوة البرابرة" أو "مقهى البرابرة". وقال الروائى النوبى حجاج أدول "وهكذا حدث أن زل قلم خيرى شلبى وكتب قهوة البرابرة""، واستمر قائلاً "واستشاط الكثير من النوبيين غضبًا، وحسنًا فعلوا" (أدول ٢٠٠١).

وقد أشعل الاستخدام العلنى لشلبى لهذه التسمية، "البرابرة" نيران الردود الغاضبة من الكثير من الكتاب النوبيين معترضين على استخدام هذه الكلمة، وأنهى إيضاح اعتذارى لشلبى، ودعوة للصلح قام بتوجيهها أدول تمت فى النهاية فى جمعية التراث النوبية المشكلة برمتها. وصاغ الكتاب النوبيون، والذين ترجع أصولهم العِرقية إلى النوبة التى تمتد إلى جنوب مصر وشمال السودان، اعتراضاتهم على مصطلح البرابرة (مفردها بربري) وعن لغة العنصرية، واللون، والحقوق، والمواطنة التى غالبًا ما تثير المجادلات عن التمثيل العام للنوبيين. وكلمة بربرى مصطلح ازدرائى يستخدم ويُفهم كإشارة إهانة إلى اللون، ولكنه يمكن أن ينطبق على أى شخص سواء كان نوبيًا - أو لم يكن - كإشارة للهمجية والحماقة. وتاريخيًا، كانت كلمة البرابرة هى المصطلح الشامل المستخدم للإشارة إلى النوبيين والعمال من الرجال السودانيين المهاجرين والعاملين فى حاضرة مصر كجماعة.

وقد نزح النوبيون الذين يتسمون ببشرة أكثر سمرة عن معظم المصريين ويعتبرون واحدة من لهجتين من اللغة النوبية كلغة أم بالنسبة لهم، من النوبة إلى مدن شمال مصر للعمل بصفة أساسية فى المجالات الخدمية منذ قرون بينما تقوم النساء بإدارة المنازل فى قراهم بالجنوب *(Geiser 1986)*. من ناحية أخرى قامت

الحكومة بإعادة توطين الأربع وأربعين قرية للنوبة المصرية فى قرى جديدة شمالى مدينة أسوان مباشرة، وذلك أثناء بناء سد أسوان العالى فى عامى ١٩٣٦-١٩٦٤. واكتسب النوبيون طوال القرن العشرين العديد من المزايا الاقتصادية والتعليمية سواء من الهجرة إلى الحضر أو من إعادة التوطين، وذلك فى نفس الوقت الذى ذاقوا فيه الأمرين من التناقص فى الأرض الزراعية الخصبة فى النوبة والخراب النهائى الذى لحق بهم نتيجة لفقدان منازلهم وقراهم نتيجة المياه التى غمرتها من جراء بناء السد العالى.

وبالنسبة للجدال الذى نشب بشأن مقهى البرابرة، والمجادلات الأخرى المشابهة لها، فى سياق المواطنة والحقوق، يعارض بعض المفكرين النوبيين الحضريين الرجال دمج اللون، والطبقة، والأصول الجغرافية، وإعادة التوطين التى تخلق الإقصاء والشمول المزدوج للنوبيين بالمقارنة مع أساليب الخطاب المهيمنة للمعنى السائد لأن تكون مصريًا. فمن ناحية، فإن القوالب السائدة تضع النوبيين فى وضع طبقة حضرية أدنى داخل الأمة كخدم، وبصفة أساسية كحراس للعقارات. وعلى الجانب الآخر، سوف أواصل الإشارة إلى القوالب العنصرية الأخرى والتى تقوم بإقصاء النوبيين من المفاهيم السائدة للهوية المصرية عن طريق ربطهم إما بأصول عبيد فى جنوب الصحراء الكبرى، أو بأصول إفريقية معاصرة. وتُفهم مصر ضمنًا للعامة من المصريين وكأنها أكثر تميزًا ثقافيًا وحضاريًا عن الصحراء الإفريقية الكبرى، بصرف النظر عن موقعها الجغرافى فى القارة. ويدخل الخطاب الذى يربط بين النوبيين المعاصرين بالوضع الخدمى السابق لهم، وسواد البشرة، والعبودية، والانتماء الإفريقى فى آن واحد، داخل إطار الأمة ويضعهم فى وضع اجتماعى أدنى.

واجهتنى كثيرًا مثل تلك المجادلات فى غضون عامين من العمل الميدانى فى مجال الجغرافية العرقية وعن تقديم النوبيين فى المتحف النوبى وفى السياحة فيما بين عام ١٩٩٧ وعام ٢٠٠٢. وسأقوم هنا بتشريح التقديم العنصرى للنوبيين فى مجال الإعلام والمتاحف من أجل الوصول إلى وسيلة لفهم مثل تلك المناقشات بالمصطلحات الخاصة بهم وبدون التوقف عند تأكيدات بوجود أو عدم وجود نوع من العنصرية. يؤكد الخطاب السائد عن وحدة الأمة والتى تظهر بصفة يومية فى الصحافة شبة الرسمية بأن مصر ليس لديها أى نوع من أنواع العنصرية، أو العرقية، أو الأقليات فى تعبيرات مماثلة، تمت صياغتها بعلاقتها بالخطاب العالمى عن العرق، أو السلالة، أو الأقليات، والمثاليات الديمقراطية الخاصة بالمساواة بين المواطنين. ومثل هذه الأحاديث تميز بين مصر وبين الأمم الأخرى، بتقديم أمثلة من نوع، وتاريخ من العنصرية المنهجية (مثل الولايات المتحدة الأمريكية وجنوب إفريقيا)، وخطر الحركات القومية العرقية الانفصالية (مثل المقاومة الكردية فى العديد من الدول)، أو الحرب الأهلية الفعلية (مثل السودان). وبينما يخفى مثل هذا الطابع من الإصرار على استخدام الخطاب العنصرى والذى يتم تطبيقه على النوبيين فى مصر ويحفزهم فى نفس الوقت على السواء. وبدلاً من ذلك، فإننى أود أن أخذ فى الاعتبار التعقيدات والتطورات التاريخية عن كيفية استناد هذا الخطاب العنصرى على الربط الاجتماعى التاريخى بين النمط الظاهرى لمجموعة عرقية، ولغتهم وثقافتهم والعمل على الجمع بينها وبين الطبقة والجنس.

ولأكون أكثر وضوحًا، فإن لون البشرة فى مصر لا يشكل أساسًا لهوية جمعية مثل "البيض"، و"السود"، أو أى لون آخر. ويعتبر العامل الأكثر بروزًا هو الطبقة، والأكثر أهمية، هى المنطقة التى ينتمى إليها، ثم الديانة، فالعائلة. ويتميز السكان فى منطقة النوبة بالتنوع الشديد فى ألوان البشرة والملامح، شأنهم فى ذلك شأن الغالبية العظمى من سكان مصر، ويتراوحون ما بين ناصع البياض إلى أسمر

متوسط (قمحي) إلى الأسمر ثم الأسود. ونظرًا لهذا التعدد الواسع، يستاء الكثير من النوبيين أن يتم وضعهم فى قالب واحد هو الأسود بدلاً من القمحى أو أى ألوان أخرى. ويرى النوبيون فى كل من القاهرة وأسوان أن تقديم النوبيين كسود اللون، أو ما يطلق عليه "زنجي"، والملامح الإفريقية، أمر غير دقيق ونمط مبالغ فيه يشير إلى الانتماء إلى إفريقيا وعدم الانتماء إلى مصر وبذلك تدوم مظاهر الجهل بأصول وهيئة النوبيين، وهم يستنكفون من الفرض القائل بأن اللون الداكن معناه الإشارة إلى أنهم من "إفريقيا" وتُفهم هنا بأنهم من جنــوب الصحــراء الكبــرى، وليسوا من مصر.

زلة قلم

تعتبر منطقة حى عابدين فى وسط القاهرة هى محور النشاط الاجتماعى لجيل من كبار النوبيين مثل السيد على، الذى ولد ونشأ فى قرية تقع فى النوبة القديمة قبل عملية إعادة التوطين التى تمت فى سنوات الستينيات. وعاش الكثيرون منهم فى القاهرة منذ النصف الأول من القرن العشرين عندما نزح آباؤهم وأجدادهم من النوبة إلى مدن الشمال. وقد عمل النازحون الأوائل منهم عادة كخدم وحراس للعقارات وطهاة فى قصور الحى، وفى الشقق السكنية والفنادق فى قلب المدينة التى كانت حينئذ مركزًا للسلطة. أما اليوم، فيتجمع النوبيون عادة فى منطقة عابدين فى العشرات من الجمعيات القروية المتناثرة فى الحى والتى برزت للوجود على أساس الاعتماد على النفس فى مد يد العون فى مجالات الوفاة ومراسم الجنازات والتعليم، والأنشطة الترويحية، وتقديم خدمات الدروس باللغة العربية والإنجليزية وكمراكز للتجمع والتواصل الاجتماعى. وكانت هذه الجمعيات الخيرية، بالإضافة إلى تقديم هذه المساعدات التعاونية المتبادلة محورًا للعمل الجمعى السياسى النوبى

فى مواجهة الدولة، وممارسة الضغوط على الحكومة من أجل تقديم تعويضات مناسبة لخسائر الفيضانات التى تكبدوها، وتقديم الخدمات مثل إنشاء المدارس فى النوبة منذ سنوات العشرينيات على الأقل (صالح ٢٠٠٠، ٢٥٩-٦٠).

وقد تأسست هذه الجمعيات كتنظيمات مستقلة قبل أن تخرج إلى الوجود وزارة الشئون الاجتماعية الحالية، وكل الجمعيات الخيرية الآن مسجلة لدى وزارة الشئون الاجتماعية، وتتم مراقبتها عن طريقها وتتلقى أقل دعم مالى من الوزارة وللمزيد من التفاصيل عن هذه الجمعيات ***Geiser 1986, 199-209; Poeschke 1996, 68-82***.

تقع جمعية أرمنا الخيرية، وجمعية التراث النوبية، وجمعية أبو سمبل الخيرية فى إحدى التجمعات السكنية التى تقع بين شارعين من الشوارع الرئيسية التى تربط بين قصر الخديوى إسماعيل فى عابدين والذى يعود إلى القرن التاسع عشر وبين ميدان التحرير فى وسط المدينة ، وكلها تتواجد فى شقق سكنية بجوار المقاهى والمتاجر المكتظة ومسجد.

كان اللقاء الذى دعا إليه السيد على للأطراف المتشاحنة من أجل التوفيق بين المتنازعين فى جمعية التراث النوبية وضم اللقاء حجاج أدول وهو روائى وعضو فى الجمعية، والذى قدم اعتذاره شخصيًا إلى خيرى شلبى فى مقالة بعنوان "رسالة حب إلى الكاتب الكبير خيرى "أشري... ماسكاجناه!" (وتعنى بلغة الفاديجا "رسالة حب لخيرى الجميل ... تحياتي!) (أدول ٢٠٠١). وقد دافع أدول عن خيرى شلبى كواحد من قلائل المفكرين المصريين الذين أظهروا تقديرهم للنوبيين فى أوائل التسعينيات، وللروائيين من أمثاله، عندما بدأ فى صك مصطلح "الأدب النوبي" عن أعمالهم، فى نفس الوقت الذى وقف فيه الكثير من نقاد الأدب المصريين موقفًا عدائيًا من أعمالهم، وأطلقوا على المصطلح نفسه صفات من أشباه "عنصرية"، و"انفصالية". (أدول ١٩٩٣). وقد التمس أدول العذر لشلبى فى

استخدامه الحالى لاسم "مقهى البرابرة" كخطأ غير مقصود، أو ما قال عنه "زلة قلم"، مدافعًا عنه بأن شلبى ليس عنصريًا على عكس الآخرين ولا يستهدف الإساءة إلى النوبيين.

واستغل أدول فرصة النقاش الذى يقوم فيه بتبرئة ساحة شلبى من أجل جذب الأنظار إلى ثلاث قضايا من الموضوعات المهمة التى تشغل فكر النوبيين. أولاً، فقد انتقد بقسوة عملية إقصاء كل ذوى البشرة الداكنة (من اللون الأسمر أو القمحي) من وسائل الإعلام، وثانيًا فإنه دافع عن اتهام النوبيين بالانفصالية لأنهم يتكلمون ويرغبون فى إحياء اللغة النوبية. وثالثًا، فإنه انتقد فشل الحكومة فى تعويض النوبيين المتواجدين فى الحضر، والذين فقدوا منازلهم أيضًا فى عملية إعادة التوطين التى تمت فى سنوات الستينيات.

وقد صاغ أدول القضايا الثلاث فى لغة من حقوق المواطنين: الحق فى التمثيل العادل فى التليفزيون الرسمى الذى تسيطر عليه الدولة وبصرف النظر عن لون البشرة، والحق فى الاعتراف باللغة النوبية كجزء من التراث القومى، وحق النوبيين المغتربين فى الحصول على التعويض المالى، أو أى تعويض آخر. أولاً، أشارت المقالة التى نشرها بأنه منذ أن استهل التليفزيون إرساله الرسمى فى عام ١٩٦٠، تحت مظلة وزارة الإعلام، لم تكن تقبل أيا من ذوى البشرة الداكنة للعمل كمقدم أو مقدمة برامج... كما لو كانت البشرة السوداء نقيصة تجلب العار لمصر وتكشف عن انتماءاتها الإفريقية (أدول ٢٠٠١). ويفند بالحجة الزعم القائل باعتبار البشرة الداكنة، وبما توحى به من الانتماء الإفريقى، أن يكون عارًا أو نقيصة ينبغى تجنبها، قائلاً:

> **هل يجب أن نلتزم الصمت كما لو كنا مواطنين غير مصريين، وهل كُتب علينا أن نقدم التضحيات فقط من أجل**

وطننا الكبير مصر، وأن نتحمـل مسئوليتنا، ولكننـا غيـر مؤهلين للمطالبة بحقوقنا؟ أم لسنا مـن نفـس المسـتوى لـذوى البشرة القمحية، أو البشرة الأقرب للبياض؟

(أدول ٢٠٠١).

وأعرب بعد ذلك عن أمله ألا يتم تفسير الاهتمام بالحفاظ على اللغة النوبية كميول انفصالية، تؤدى إلى الرغبة فى الهجوم على اللغة النوبية، والتقسيم، والعزلة، ثم الاستقلال!. ولكن لا أكثر من حرية التعبير، وأخيرًا شدد على أن الحكومة يجب أن تقوم بتنفيذ الوعود التى قطعتها على نفسها منذ أربعين عامًا بتعويض ضحايا إعادة التوطين نتيجة لبناء السد العالى، والذين لم يكونوا هناك أثناءها (والمعروفين بالمغتربين) وذلك بمنحهم منازل فى القرى الجديدة التى لم يتسلموها رغم الوعود المبدئية للحكومة. وهكذا فإن استجابة ورد فعل حجاج أدول لاستخدام مصطلح "مقهى البرابرة" قد قام بربط الإجحاف فى تمثيل ذوى البشرة الداكنة فى وسائل الإعلام بكل من حقوق المواطنة، ووطنية النوبيين الذين قدموا التضحيـات بقـراهم ومسقط رؤوسهم من أجل الوطن ضد الاتهامات التى تجابههم بالانفصالية.

ويقع المقهى محل موضوع النقاش الذى قام خيرى شلبى بنشره فى ميدان التحرير، وقريبًا من حى عابدين والأحياء المركزية فى قصر النيل، والأزبكية، وبولاق، حيث عمل وأقام النازحون النوبيون تاريخيًا *(Geiser 1986, 100)*. وكان من المعتاد أن يُطلق عليه ذلك المصطلح لأن العمال النوبيين والسودانيين كانوا يرتادونه وكان قريبًا من مقار أعمالهم وبيوتهم. على أى حال فإن استخدام اسم مقهى البرابرة فى مطبوعة رسمية وضعت النوبيين كجماعة مكانيًا وعرقيًا بطريقة

جعلت من بعض الأطراف المعنية الفاعلة يتساجلون علانية بشأنها ثم يتباحثون للتجاوز عن ذلك. وعلى الرغم من أن النازحين الرجال من النوبيين كانوا يعملون كعمال بأجر فى حواضر مصر لقرون عديدة وبعد أن تم تجريم العبودية فى نهاية القرن التاسع عشر فإنهم حلّوا محل العبيد فى وظائف الخدم المدفوعة الأجر والتى حافظت على المظهر الخارجى للأرستقراطيين السابقين من ملاك العبيد. وقد ارتبط النوبيون بالعبيد والعبودية فى العقل العام واعتبروا ملائمين لمثل هذه الأعمال بصفة خاصة وذلك بسبب نوعية أعمالهم ومظهرهم المقارب للعبيد *(Fernea and Gerster 1973, 36-37)*. ويربط اسم البرابرة النوبيين فى الجغرافيا الحضرية مثل القاهرة، وأيضًا فى الإسكندرية، ومدن قناة السويس، إلى أعمالهم السابقة المتواضعة كخدم للأثرياء والأرستقراطيين والمحتلين الأجانب.

وتم تقديم صورة النوبيين التى سأقوم بمناقشتها فيما هو آت كبرابرة وعبيد، أو إفريقيين، أو سود، باكتساح فى مركز الحاضرة بالقاهرة، وفى التليفزيون، وفى مطبوعات الدولة، والمتاحف، والصحافة، وكانت محل جدال فى مقار الجمعيات القروية الثقافية فى الحضر والتى يؤمها الرجال فقط بصفة أساسية. وعلى الرغم من ذلك، كما سأقوم بالتوضيح لاحقًا تم ربط التعبير عن النوبيين مع وضد مواقعهم العنصرية التمييزية والمبنية على مكان الإقامة، والطبقة، والجنس.

ليست هناك أغان عن العبودية فى اللغة النوبية

تعتبر اللغة النوبية بلهجتيها (الكانزى والفاديجا) هى أكثر العلامات أهمية للصفة المميزة للنوبيين فى مصر، بالإضافة إلى بشرتهم الأكثر اسمرارًا، وتجربتهم المشتركة فى النزوح إلى المدن، وعملية إعادة التوطين فى القرى الجديدة. ومن الصعب تقدير حجم تعداد السكان الذين تعود أصولهم إلى النوبة القديمة فى مصر

الآن. فليست هناك فئة فى تعداد السكان التى تم إجراؤها فى مصر ومنذ ما قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٨٢ يطلق عليها "نوبي". ويشكل النوبيون أقل من نصف فى المائة من إجمالى سكان مصر فى إحصائيات عام ١٩٦٠، ويقدر "جيسر" أعداد النوبيين فى مصر بما يقارب ١٥٠٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٧٠ (١٩٨٦، ٥٩-٨٦)، بينما يقدر بوشيك ***Poeschke*** عددهم فى عام ١٩٩٣ برقم يوازى ٣٠٠٠٠٠ نسمة (١٩٩٩، ٤٥).

ويقلل النوبيون وغير النوبيين من قدر اللغة النوبية - الكنزى والفاديجا- على حد سواء (اللهجتان المنطوقتان فى اللغة النوبية)، لأنها غير مكتوبة، وباعتبارها لهجات بدائية بدون قواعد لغوية أو تاريخ، بالمقارنة بلغة رسمية مثل اللغة العربية. ولا تزال اللغة النوبية منطوقة فى العصر الحالى فى لغة الحديث، على الرغم من أنها فى فترات حقبة التحول للدين الإسلامى لمنطقة النوبة من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر الميلادى، قد تم استبدال حروف الهجاء النوبية بالكتابة العربية. وعلى الرغم من أن عالمة الأنثروبولوجيا علية رشدى وجدت فى سنوات الثمانينات أن غالبية النوبيين يتحدثون اللغتين النوبية والعربية، فإنها وجدت ميلاً قويًا تجاه التحدث باللغة العربية، وهى اللغة الرسمية للدولة (رشدى ١٩٩١). وكان هؤلاء الذين يواظبون على حضور دروس الفاديجا والكنزى فى اللغة النوبية التى تقدم فى القاهرة عام ٢٠٠١، هم الأعضاء الأكبر سنًا فى الجمعية والذين قضوا طفولتهم المبكرة فى النوبة القديمة وكانوا متحدثين جيدين للغتهم الأصلية. وكان معظم هؤلاء الرجال الذين يشملون محاسبين ورجال أعمال وروائيين قد قدموا إلى القاهرة للدراسة فى المرحلة الابتدائية، أو الثانوية، أو الجامعية، وعلى الأعم فى حقبة إعادة التوطين بين عامى ١٩٦٣-١٩٦٤، وتزوجوا من نوبيات واستقروا لرعاية أسرهم فى القاهرة. وكان يعتريهم القلق لأن لغتهم المنطوقة فقط يمكن أن تختفى لأنها تستخدم بالكاد فى المنزل، ولأن الأجيال

الجديدة لا تتعلمها. ويمكن أن يسمح تعلم كتابتها، من وجهة نظرهم، ليس فقط بحماية اللغة من الاندثار، ولكن البرهنة على أنها لغة، وليست مجرد لهجة.

كانت هذه الفصول الدراسية، وهى الأولى من نوعها، تتويجًا لمشروع استغرق خمس سنوات قام به أحد عشر شخصًا من المتحدثين بها من مصر والسودان من أجل إعادة إحياء استخدام الحروف النوبية التى تعود للقرون الوسطى وتستند إلى القبطية والإغريقية. وأُطلق على الكتاب الذى انتهى تجميعه فى عام ١٩٩٩ "تعلم اللغة النوبية بالفاديجا والكنزى على الترتيب" وكان يعتمد بصفة أساسية على مطبوعة رسالة دكتوراه فى الفلسفة للدكتور مختار خليل كبارة، واستخدمت أطروحة كبارة فى دكتوراه الفلسفة فى المصريات من جامعة بون بألمانيا عن المخطوطات المسيحية للعصور الوسطى والتى كُتبت باستخدام اللغة النوبية من أجل البرهنة على أن الحروف الهجائية يمكن إعادة إحيائها من أجل كتابات كل اللهجات المنطوقة المعاصرة.

وغالبًا ما كان كل من بهجت يوسف، وهو محاسب، وبشير عبد الغنى، وهو موظف حكومى متقاعد يقومون بدعوتى إلى الطابق العلوى حيث جمعية أبو سمبل الخيرية من أجل تناول كوب من الشاى وتبادل الحديث وذلك بعد دروس اللغة النوبية. وكانت تغطى الحائط فى الحجرة الرئيسية صورة جداريه ضخمة تصور معبدى الفرعون رمسيس الثانى فى أبو سمبل. وقد بادرت هيئة اليونسكو فى سنوات الستينيات بنقل المعبد إلى مكان آخر فوق مستوى المياه خلف السد العالى بأسوان، وفى نفس الوقت تم إعادة توطين النوبيين المصريين فى قرى جديدة شمالى مدينة أسوان. وكان أعضاء الجمعية وأصدقاؤهم يلعبون النرد تحت الصورة الجدارية الضخمة لرمسيس الثانى الذى كان يبدو وكأنه كان يحدق فى وجوههم وهم يدخنون ويشاهدون التليفزيون فى جهاز مثبت على الحائط.

بينما كنا نغادر حجرة الاجتماعات إلى المكتب للاستمتاع بتناول كوب من الشاى، أنا وبهجت، وبشير فى إحدى أُمسيات شهر رمضان لعام ٢٠٠١، كنت أقوم بشرح موضوع البحث الذى أقوم به لعضو من أعضاء الجمعية الذى جاء لإلقاء التحية علينا. وقد ذكر هذا العضو فى معرض حديثه معى، أن جمعية نوبية أخرى قامت بإرسال خطاب شكوى إلى القناة الأولى للتليفزيون المصرى عن مسلسل تليفزيونى درامى عُرض فى شهر رمضان. وكان هذا المسلسل مأخوذًا عن قصة للكاتب الحائز على جائزة نوبل المؤلف نجيب محفوظ ويدعى "أحاديث الصباح والمساء" ووقعت أحداث هذا المسلسل فى القرن التاسع عشر، وفيه يقوم أحد أبطال المسلسل وهو أرستقراطى غارق فى ملذاته، وتزوج جاريته السوداء جوهار فى أواخر حياته وهجر زوجته الأرستقراطية وأولادهما. وأبدت إحدى الجمعيات النوبية اعتراضها بوضوح، لأنه كلما ظهرت الجارية السوداء جوهار على الشاشة، فإنه كان يتم بث موسيقى تصويرية نوبية على خلفية العرض. وكانت طبيعة اعتراض الجمعية ترتكز على أن النوبيين لم يُستعبدوا كبشر على الإطلاق. كما أن شخصية جوهار لم تكن نوبية، ولذا فإن منتجى المسلسل كان يجب عليهم عدم الإشارة إلى ذلك ضمنيًا باستخدام الموسيقى النوبية ليصاحب ظهورها على الشاشة الفضية.

كانت مشاعر القلق تنتاب المفكرين النوبيين الحضريين الآخرين، شأنهم فى ذلك شأن حجاج أدول بشأن توسيع آفاق الصورة التى تقدمها عنهم وسائل الإعلام بعيدًا عن مهن حراس العقارات والخدم لتعكس حقيقة كيف أصبح الكثيرون منهم من المهنيين المثقفين من ذوى الياقات البيضاء. ولأنهم حققوا درجة كبيرة من الحراك الاجتماعى مثلهم مثل الكثيرين من النازحين من القرى، واقتحموا من خلال التعليم الكثير من وظائف ذوى الياقات البيضاء ومن كل النوعيات، فإنهم يبحثون عن تصحيح التحديد الخاطئ للنوبيين كمنتمين للصحراء الإفريقية الكبرى

بالإضافة إلى الزعم بأنهم ينتمون لأصول من العبيد، بدلاً من الإشارة لكونهم وطنيين أصليين من وادى النيل. وإلى جانب اعتراضهم على مصطلح "بربري" نفسه، فإنهم يستهدفون التخلص من النمط الدائم والمتكرر فى الأفلام الكلاسيكية المصرية فى فترة ما قبل ثورة ٢٣ يوليو، والتى يتم بثها باستمرار فى تليفزيون الدولة والقنوات الفضائيات المختلفة. وتثير هذه الأفلام تاريخ النوبيين كطبقة دنيا وتقديم صورتهم كخدم فى المنازل فى السياق الحضرى.

ويمكن أن يفهم ربطهم بالعبودية واعتبارهم عبيد كأمر مستهجن على الكثير من المستويات. كما ذكرنا آنفًا، وفى نفس الوقت الذى تم فيه اعتبار النوبيين مناسبين لأعمال خدم المنازل نتيجة للربط التاريخى بين إلغاء الرق، والأعمال التى تقلدوها فى المدن، فإن النوبيين أنفسهم قد شاركوا فى تجارة العبيد، سواء كتجار للعبيد أو كملاك للعبيد فى النوبة القديمة وحتى تم إلغاء الرق فى أواخر القرن التاسع عشر. وطبقًا لوثائق محكمة تعود إلى منتصف القرن التاسع عشر على سبيل المثال، فإن اثنين من البرابرة من قرية إبريم فى النوبة كانا هما رئيسا نقابة تجارة العبيد فى كل من القاهرة والإسكندرية *(Walz 1978, 247)*. وقد تملك النوبيون العبيد وبصفة خاصة فى الجزء الشمالى من النوبة بين الكُشّاف وهم عشائر من ملاك الأراضى الذين تعود أصولهم إلى الحكام العثمانيين الذين رابطوا فى النوبة فى القرن السادس عشر وتزاوجوا بالسكان المحليين ***Fernea and Gerster 1973, 11-12***. وكانت عائلات العبيد وأسلافهم يشكلون جزءا من العمال الزراعيين الذين لا يمتلكون أرضا زراعية (حميد ١٩٩٤، ٤٥). وحتى عملية إعادة التوطين فى سنوات الستينيات، فقد كان من المفهوم أن الجمعيات النوبية الحضرية تمثل مصالح تلك العائلات المالكة للأراضى فى المدن (حميد ١٩٩٤، ١٣٩). وهكذا فإن المجتمع الذى كان مالكا للعبيد فى الماضى يعانى من مظالم تاريخية فادحة أحاطت بعبيد المنازل والمزارع السابقين من أصول إفريقية ضمن

أدنى الطبقات الاجتماعية (عن الاستعباد فى النوبة يمكنك أيضًا مراجعة **Fernea** ***and Gerster 1973, 36; al-Katsha 1978; Kennedy 1977, 1978; Walz 1978)***. وكانت الاعتراضات التى ثارت على المسلسل الرمضانى قد انصبت على تضمين النوبيين أنفسهم كعبيد. وتكريس استخدام الألحان النوبية على هذا النحو فى أذهان المشاهدين، والتأثير بهذا الوصف المزيف.

ويعزى النوبيون استمرار نمط الخادم للأفلام الكلاسيكية، والمواد الإعلامية المرئية كعوامل ضخمة ومؤثرة فى تشكيل صورة النوبيين فى المجتمع المصرى. وقد كرست الجمعيات الحضرية الكثير من الوقت والجهد من أجل السيطرة على نمط التقديم فى وسائل الإعلام. وهى تقع على مرمى حجر من المراكز الرئيسية للإذاعة والتليفزيون فى وسط مدينة القاهرة، والعديد من الصحف الكبرى. وتتم عمليات التشاور مع وسائل الإعلام، والمساجلات عن تقديم صورة النوبيين بأكملها فى مقار هذه الجمعيات الخيرية. ويمكن أن يظهر أو يسهم القليل من أعضاء هذه الجمعيات فى عروض الإذاعة والتليفزيون. ويقوم بعضهم بتسهيل تواصل منتجى المواد الإعلامية مع أسرهم وأصدقائهم فى هذه القرى فى أسوان وبالقرى الأصلية لهم؛ وعقد المقابلات؛ والعمل كمستشارين للغة والتقاليد النوبية؛ والترتيب لزيارات لموطنهم وتقديم بعض الأعمال. ويقوم الأعضاء بمناقشة النتائج باستمرار، ليس فقط لنتائج جهودهم الخاصة، ولكن للأعمال التى تم تقديمها دون استشارتهم. وكان الأعضاء يتبادلون النقاش ربما بصفة أسبوعية تقريبًا فى لقاءات حضرتها عبر عامين من صيف عام ١٩٩٧ و١٩٩٩، وأثناء ٢٠٠١-٢٠٠٢، عن كل من مصداقية ومدى دقة برامج الإذاعة، والروايات، والأفلام، وأداء الرقصات الفولكلورية، والمسرح، والعديد من المقالات الصحفية، التى تقوم بعرض النوبيين أو موضوعات تخصهم. وعلى الرغم من أنهم يجأرون بالشكوى من عمليات الإنتاج الإعلامى، والمواد النهائية التى تقوم بتقديمها، فإن أعضاء الجمعيات يحثون

بعضهم البعض على الارتقاء إلى مستوى المسئولية لتقديم التراث النوبي بطريقة دقيقة لمنتجي المواد الإعلامية، وأردف أحد الروائيين قائلاً: "وإلا فإنهم سيتوجهون إلى أي غلام أسمر اللون يجلس على مقهى لاستقاء معلوماتهم منه".

سوء التقدير المؤثر: "إنهم يقدمون الإفريقيين كنوبيين في التليفزيون!"

تؤثر جماليات اللون أيضًا ليس فقط على آراء الجاذبية والقابلية للزواج بين النوبيين أنفسهم، ولكن إدراكهم للمواطنة في مصر. وتعتبر الجمعيات الحضرية النوبية قاصرة على الرجال في الغالب كأماكن اجتماعية أو مواقع للتأثير. وتحضر النساء بعض الاجتماعات، ولكن العضوية يعول فيها على الرجال أرباب الأسر *(Geiser 1986)*. وغالبًا ما يشار في الاجتماعات المعتادة لجمعية التراث النوبية، وفصول تدريس اللغة النوبية، إلى المشاركين الرجال بأعضاء الأسرة من النساء، وغالبًا إلى الزوجات أو الأمهات، وإلى بنات القرية عمومًا من النوبة الجديدة والقرى النوبية في وحول منطقة مدينة أسوان، وذلك كمصدر للعادات والتقاليد النوبية الحقيقية والتي تشتد الحاجة إلى المحافظة عليها. وفي غياب التركيز الجغرافي (حيث إن النوبة القديمة لم تعد موجودة كمكان حيث أغرقتها مياه الفيضان الناتجة عن بناء السد العالي)، فإن الحنين إلى أصالة النوبة الريفية يوجه نحو نساء القرية أنفسهن. وينظر إلى النساء وكأنهن يجسدن التقاليد، واللغة، وأسلوب الحياة الذي كان سائدًا في النوبة القديمة. ويعبر الرجال في مركز الحاضرة عن الحنين للجنس الآخر للأصالة القروية النوبية المتجسدة في نساء القرية أنفسهن.

ولم تكن زينة واحدة من تلك المصادر الحقيقية للتقاليد التي تحدث عنها أعضاء الجمعية بالقاهرة بكثير من الولع والإلحاح. وهي فتاة أنيقة ووقورة في أوائل العشرينيات من عمرها، ومن مدينة أسوان، وهي ملتحقة بجامعة تقع في

مدينة العاصمة للمحافظة الشمالية أسيوط، والتى تقع فى منتصف المسافة بين القاهرة وأسوان. وينتمى والداها إلى كل من الفاديجا والكنوز، وهو الأمر نادر الحدوث، وولدت زينة وترعرعت فى مدينة أسوان ولم يسبق لها العيش فى قرية نوبية، كما لم يسبق لها أن تعلمت الحديث بأى من اللهجتين.

وقصت على زينة الاعتراضات التى ثارت إثر استخدام الموسيقى النوبية مع شخصية الجارية التى تمثلها جوهار فى المسلسل الرمضانى فى عيد الأضحى الذى جاء فى فبراير ٢٠٠٢، وهو العيد الذى يحل بعد شهرين من شهر رمضان. وقد سافرت من القاهرة إلى أسوان من أجل قضاء الإجازة مع زينة وأسرتها. وأذيع إعلان تجارى عن مسحوق التنظيف "إريال" وهو يصور سيدة نوبية تعمل نادلة فى فندق سياحى بأسوان بينما كنا نسترخى ونحن نشاهد التليفزيون فى اليوم التالى لإجازتنا. وتعمل الشركات عابرة القارات مثل بروكتور وجامبل (التى تقوم بتصنيع كل من إريال والأخرى الأكثر شهرة مسحوق تايد) وشركة توشيبا للإلكترونات على تأصيل إعلاناتها التليفزيونية باستخدام أنماط من شخصيات محلية يتم التعرف عليها على الفور بأنها تمثل الأقاليم المختلفة فى مصر. وتقوم النادلة النوبية فى الإعلان التجارى بالاحتفاظ بملابسها التقليدية وبملابس أسرتها بدون بقع باستخدام ماركة إريال. بينما تقول باللغة النوبية، "آشريا"، (جميل تمامًا).

وسألتنى زينة عندما أذيع الإعلان التجارى لإريال عما إذا كنت قد رأيت الإعلان التجارى الآخر. فقلت لها، الإعلان "عن سمن روابى، مع سيدة نوبية تغنى وترقص فى قارب وهى تتحدث عن الطهى باستخدام سمن روابي؟" فقالت لى لا؛ فقد كانت تشير إلى إعلان لتليفزيون توشيبا. يقوم رجل نوبى يرتدى زى الرقص الفولكلورى النوبى النمطى فى إعلان لتوشيبا ويقوم بالقرع على طبل يطلق عليه دف وهو يقول "أيكا دوللي" بما معناه "أنا أحبك" باللغة النوبية. وقالت زينة إنها عندما عادت لجامعتها فى أسيوط، فإنها وكل صديقاتها وزميلاتها فى بيت

الطالبات، وكلهن من الوجه القبلى ومن غير أصول نوبية، وكن يشاهدن التليفزيون فى بيت الطالبات. وعندما أُذيع إعلان توشيبا، قالت:

> **واصلن القول بأنهم، "يأتون بالأفارقة فى التليفزيون!" إنهن لا يفقهن شيئًا على الإطلاق؛ إنهن جاهلات تمامًا. وكان يتعين على أن أخبرهن عن أصولى، وإننا كنوز، ومن الكُشّاف. ولم يكن يدركن حتى أين تقع أسوان أو النوبة على الخريطة، وأنهما جزء لا يتجزأ من مصر. ويفترض أن هؤلاء الفتيات يمثلن الجيل القادم من الشباب الجامعي!**

تنهدت زينة بعمق وهى تحكى لى عن القصة. لجوء الشركات عابرة القارات لتوطين الإعلانات واستخدام اللغة النوبية فى هذا الصدد يمثل "استخدام الإفريقيين" لزميلات زينة، واللاتى لم يتعرفن على اللغة النوبية كشيء غير مصرى.

ومضت زينة تروى أنه أثناء شهر رمضان أشارت إحدى زميلاتها فى المخدع بالنداء عليها باسم جوهار (نطق أهل القاهرة لاسم الجارية جوهار)، لسبب ما لم تفهمه. ولم تكن زينة تحوز على جهاز تليفزيون فى حجرتها، وكانت منهمكة للغاية بحيث لا يمكنها مشاهدة العديد من المسلسلات التى يتم عرضها طوال الليل فى شهر رمضان. وبعد مضى فترة من الشهر، قالت زينة:

> **وجدت هذه الفتاة تدعونى باسم "جوهار" ولم أعرف لماذا. وفكرت مليًا، "ما الذى تتحدث عنه؟ هل يمكن أن تقصد جواهر (مغنية شعبية سودانية والتى ليست نوبية)، وحتى مع ذلك... فهى سودانية، وهناك فارق". وأخيرًا سألتها، "من**

هذه الجوهار"؟، فـــردت قائلـــة: "ألـــم تـــشاهدى المسلـــسل التليفزيوني؟ إنها الخادمة التى تزوجت الأرســـتقراطي" هـــذه الفتاة تفكر على هذا النحو: لأنها بيضاء تعتقد أنها جميلـــة، ولأننى سمراء، تعتقد أننى غير جميلة.

وعندما واجهتها مباشرة، فإن زميلة الغرفة قامت بتعديل صفة جوهار من جارية (أو أمة) فى المسلسل التليفزيونى إلى خادمة. ومن خلال العديد من الوسائل، واجهت زينة الخطأ فى تحديد هويتها بواسطة زميلاتها الطالبات، وكأنها بالتبادل، إفريقية، أو من أصول عبيد، أو ببساطة واضحة كأنها قبيحة نظرًا لبشرتها الداكنة. وتقوم بشرح هذه الأخطاء فى تحديد هويتها يوميًا من حيث جهلهم للتاريخ واللغة، والتحيز اللونى فى مستويات الجمال. وعبرت زينة وهى تحكى القصة لى، عن اشمئزازها من جهل زملائها الطلاب بأصولها النوبية، وشعورها بالامتعاض من تقدير زميلة الغرفة لبياض بشرتها كشاهد على جمالها. واعتبرت زينة مزحة زميلة الغرفة كإهانة لمظهرها مبنية على لون بشرتها، وافتراض أن أيا من تكون بشرتها داكنة هى، مثل جوهار، لديها تاريخ من الاستعباد أو تنحدر من أصول إفريقية. ولكنها تشعر بالضيق من جراء جهل قريناتها بموقع النوبة الجغرافى فى مصر، وتفاصيل تاريخها، ولا يعرفون حتى أين تقع النوبة على الخريطة، وأنها تشكل جزءًا من مصر. وبالضبط كما قام حجاج أدول بتحديد إطار مناقشته لموضوع مقهى البرابرة، من ناحية المواطنة، فإن زينة تربط اهتمامها بالشباب كزملاء ومواطنين مصريين.

تشويه يتجسد: ليس "إفريقي" بل نوبي

يمكن أن يشارك النوبيون أنفسهم التقييم السلبى لتقدير البشرة الداكنة جدًا والمنتشرة فى مصر بشكل عام. أعطانى الروائى يحيى مختار نسخة من روايته

الصادرة فى عام ٢٠٠١ "جبال الكُحل" أثناء حصة الفاديجا التى تنعقد مرتين فى الأسبوع والتى حضرتها فى ذلك العام، والتى كانت قد صدرت للتو. وكان الدافع لقيامه بكتابة هذا الكتاب وأعماله الأخرى، كما أخبرنى، هو توثيق عملية إعادة التوطين والحياة فى حقبة ما قبل بناء السد العالى فى النوبة القديمة للأجيال المقبلة، وقبل أن يختفى جيله، الذى نشأ فى النوبة القديمة. ويعتبر عمل مختار "جبال الكحل" انتقاديًا لطريقة معالجة الحكومة، بما فى ذلك الصور التى تم استخدامها لتصوير الوجوه النوبية فى مطبوعات رسمية. وتصف الرواية عمليات إعادة التوطين من خلال شخصية المدرس النوبى "على محمود" فى يومياته التى يؤرخ فيها لتعليمه فى القاهرة، وسنوات قيامه بالتدريس فى المدرسة الحكومية فى عنيبة بالنوبة القديمة. وأعطاه شقيق والدته فى الرواية كتيبًا يسمى "تهجير سكان النوبة"، وتم نشره قبل عملية إعادة التوطين من أكتوبر ١٩٦٣ وحتى يونيو ١٩٦٤ بواسطة وزارة الشئون الاجتماعية. ويصور غلاف هذا الكتيب ثلاثة رؤوس فى صورة جانبية بالزى النوبى – رجل وامرأة وطفل صغير – يتطلعون إلى صورة تمثل مستقبل اشتراكى حديث. وقد صدر الكتيب عن إدارة العلاقات العامة لوزارة الشئون الاجتماعية. وكان الغلاف، فى ثلاثة ألوان، الأسود، والبنى، والأخضر، وتحمل شعار الصقر والاتحاد الاشتراكى. وكان العنوان الذى سطر فى خطوط بارزة "حان الوقت للذهاب للنوبة الجديدة".

> **أنا أتذكر... "لقد حان الوقت لعمل ثوري". وتحت هذا العنوان مباشرة كان هناك رسم لرجل، وسيدة، وطفل – رمز للأسرة النوبية – الثلاثة تملأ وجوههم الابتسامة. ولم تكن الوجوه نوبية، ولكنها تحمل ملامح إفريقية، زنجية خالصة بشفاه غليظة وأنوف مفلطحة. وكانت باقى مساحة الغلاف تحمل صورًا لنموذج للبيوت النوبية فى كوم أمبو، صورة للقرية**

النوبية المثالية، مدرسة ومصنع، ومسجد ومستشفى، كلهـــا محاطة بحقول خضراء.

مختار ٢٠٠١، ٦٥.

كان الكتيب الحكومى قد تم إعداده من أجل إعداد النوبيين للتطلع إلى الأمام لعملية إعادة التوطين داخل إطار المجتمع الثورى الجديد لعبد الناصر. وينتقد مختار الوجوه الثلاثة المصورة على الغلاف بأنها تحمل ملامح زنجية – الشفاه الغليظة والأنوف الواسعة – والبشرة الداكنة السواد، والتى يعرف أنها ليست نوبية. وتمثل هذه الصورة من وجهة نظر مختار، جهل السلطات الحكومية التى قامت بإصدار هذا الكتيب وقامت بتنفيذ عمليات إعادة التوطين، والذين اعتبروا النوبيين كأفارقة وبدائيين، وبناء على ذلك وبطريقة ما أجانب، وبالتالى غير مصريين.

وسمعت تفجع نورا فى غرب أسوان عندما كانت تصف حفيدتها الأولى من شقيقتها الكبرى والتى تبلغ ستة شهور، "الطفلة سوداء! سوداااااء!" وهى تسحب الكلمة طويلاً للتأكيد. وأبدت سيدة أخرى فى منزل نورا ملحوظة، فقالت "حسنًا، ماذا كنتم تتوقعون؟ انظروا إلى أبويها"، فى إشارة منها إلى سواد بشرة شقيقة نورا الكبرى وزوجها. ويعتبر تقييم نورا لحفيدتها الأولى الأثيرة أمرا معتادا، التقييم السلبى للبشرة السوداء. وبالضرورة فإن الوصف بكلمة أسود بدلاً من أسمر إهانة لجاذبية الشخص، وللنساء على وجه أخص أكثر من الرجال. وما جعل نورا تـــرثى لمصيـــر حفيدتها هو مصير الفتاة المتوقع من احتمال زواج غير جذاب بهذا المعنى.

كما تعترض النسوة فى غرب أسوان من وضع تصوير النوبيين بشكل غير دقيق كزنوج أو أفارقة، فى متحف النوبة بأسوان. وتقع غرب أسوان، وهى قرية

فى الجانب المقابل عبر نهر النيل من محطة قطارات مدينة أسوان، ولم يتم إعادة توطينها لأنها تقع فوق مستوى كل من سد أسوان والسد العالى. ولم تسمع سيدة ممن قابلتهن فى أسوان عن يحيى مختار، والقليل منهن لديهن الميل أو الوقت لقراءة رواية، هذا إذا كانت تجيد القراءة من الأصل. ولكنهن جميعًا قد سمعن عن، وبعضهن قمن بزيارة متحف النوبة والمقام على ربوة تطل على نهر النيل فى أسوان. وقد قامت بتشييده كل من هيئة اليونسكو، والمجلس الأعلى للآثار عبر عشر سنوات قبل أن يتم افتتاحه فى أواخر عام ١٩٩٧، وهو المتحف القومى الذى يضم التحف الأثرية الخاصة بالنوبة ومعرضا للأعراق البشرية يصور نماذج ذات أبعاد مجسمة للحياة فى النوبة القديمة. وقد تشكلت لجنة من النوبيين، بمن فيهم أعضاء من جمعية التراث النوبية بالقاهرة، وذلك لاستشارتهم فى تصميم عرض متحف الأعراق البشرية. وقد ذكر أحد أعضاء اللجنة فى جمعية التراث النوبية فى عام ٢٠٠١ وهو يعبر عن خيبة أمله واشمئزازه من الدولة ومن هيئة اليونسكو، "أن لا أحد من مسئولى الحكومة قد أعار انتباهًا لما نقول".

معظم النساء اللاتى عرفتهن هناك كن ربات بيوت ولا تعملن، ولكن القليلات منهن، مثل نوران وزوبة، كن يعملن فى دار ضيافة تقوم باستضافة الأفواج السياحية للقرية كجزء من رحلة اليوم الواحد لأسوان. وقد انتقدت إحدى السيدات من قريبات زوبة، عرض التماثيل المجسمة للأعراق البشرية لسيدات يصنعن السلال، وقلن إن السيدات النوبيات كن أكثر جمالاً من هذه التماثيل المجسمة، وذلك أثناء زيارة إلى غرب أسوان فى عام ١٩٩٨ بعد أن تم افتتاح المتحف. واحتجت بأن المتحف قد جعل النماذج أكثر قتامه، "لأنهم يعتقدون أن النوبيين زنوج". واتفق باقى الحاضرين بأنها كانت قبيحة للغاية. وقد استندت النماذج الشمعية للمعرض على صور للنوبيين المحليين فى أسوان، ولكن تم تصنيعها عن طريق شركة فى إنجلترا، ثم أضيفت الأزياء بواسطة موظفى

المتحف. وتميل هؤلاء النسوة، وغيرهن من النوبيات اللاتى يعيشن فى أسوان وغرب أسوان، إلى الاعتقاد بأن هذا المتحف الذى تكلف ٢١ مليون دولار أمريكى، يقوم بتقديم نظرة إيجابية جديدة عن تاريخ وثقافة النوبة والتى كانت غائبة عن المجتمع المصرى ككل. وعلى الرغم من ذلك، فإنهن كن ينظرن إلى مسألة تقديم النوبيين كزنوج كإهانة، وأنها تقوم بتدعيم مفهوم المصريين عن النوبيين بأنهم أفارقة، وليسوا مصريين.

وبينما انتقدت بعض النسوة فى غرب أسوان شكل التماثيل المجسمة، فإن مجموعة من فتيات النوبة القادمات من القاهرة لزيارة المتحف عبرن عن إعجابهن بالدلالات الحضارية الراقية للتحف الأثرية من حقب ما قبل التاريخ إلى الحقبة المسيحية المبكرة. وأبدين إعجابهن بأوجه التشابه بين التاريخ الفرعونى المصرى، المألوف للمتعلمين من الكتب المدرسية، والحقب المماثلة للتاريخ النوبى. وقد ذكر بعض الـــزائـــرين الذيـــن تعـــود أصولهم إلى قرية كلابشة النوبية، أثناء زيارة عيد الأضحى للمتحف فى مارس عام ٢٠٠١، بأن فائدة المتحف للمجتمع، وأن قيامه بوضع النوبة تاريخيًا على نحو راسخ داخل إطار التاريخ المصرى، قد ساعد على تمييز "النوبية" عن "الإفريقية". وقالت إحدى السيدات، "إن الناس الذين هم ليسوا من أسوان... أو غير النوبيين عمومًا، باقى المصريين، يتعـــاملون معنا كما لو كنا من إفريقيا، ولسنا مصريين مثلهم". ويشعرون أن المتحف، قد جعلهم يعرفون أن النوبيين أصلاً مصريون، وأن الحضارة قد بدأت هنا من الحضارة النوبية". وأبدت هؤلاء الفتيات تقديرهن لتأكيدات المتحف أن النوبيين كانوا دائمًا مصريين كقوة لمواجهة النظرة السلبية للنوبيين كإفريقيين "غير متحضرين". وبهذا المعنى، فإن المتحف يمنح تكافؤًا حضاريًا إلى المصرية والنوبية وضد التعميم مع الإفريقى الآخر.

ويمثل مصطلح بربرى للخادم، لبعض النوبيين المثقفين من الحضر، في إشارة لوظائف آبائهم وأجدادهم، بدلاً من الإنجازات التى يحققها جيلهم، ربطًا تعسفيًا عامًا بماضيهم المتواضع. ولكن الآخرين يجادلون بأن كل شخص يستخدم المصطلح بصفة عرضية حتى للإشارة لأنفسهم. وقامت زينة، ووالدتها، وشقيقتها بزيارة القاهرة فى ربيع عام ٢٠٠٢ من أجل إجراء فحوص طبية. ولم يكن بمقدورى أن أقنع والدتها بأن تقبل دعوتى للإقامة معى بدلاً من الإقامة فى فندق، لأنها رفضت بحزم، وهى تشكرنى فى كل مرة أقوم فيها بتكرار الدعوة، وقالت والدة زينة "أنا سيدة بربرية عنيدة، لن تستطيعى أن تغيرى من رأيى، مستخدمة المصطلح المثير للجدل فى الإشارة إلى نفسها.

وتقاسى زينة وأسرتها، ونورا وأسرتها فى غرب أسوان، كما يقاسى كل من السيد على، ويحيى مختار، وحجاج أدول فى القاهرة من عمليات الربط المتعسفة بين اللون والتحولات الاجتماعية والمكانية، من إفريقيا إلى مصر، ومن القرى الجنوبية إلى المدن فى الشمال. وتُظهر دراستى لمناقشات الإعلام، بصرف النظر عن التأكيدات المتكررة للعكس، بأن لون البشرة، لا يتم تقييمه من الناحية الجمالية فقط، وهذا يعنى، من حيث الجاذبية الفردية ***(Fernea and Rouchdy 1991, 200)***. ويعتبر اللون بمثابة علامة أو حالة اجتماعية مُفترضة، أو أصل فى وظيفة خدمية. ويمكن أن يحدد فى بعض الأوقات، بأصول إفريقية سابقة أو حالية، سواء من سكان عبيد سود تاريخيًا، أو من جنوب الصحراء الكبرى المعاصرة، وليست وطنية تنتمى إلى مصر ووادى النيل. ويتم مواجهة والنضال ضد دمج اللون، والعبودية، أو الانحدار من أصول إفريقية مفترضة من جانب، والانتماء إلى النوبة من جانب آخر، بشكل مختلف عن طريق تلك الأسر التى نزحت إلى القاهرة من النوبة فى النصف الأول من القرن العشرين، وأولئك الذين لم تُنقل قراهم، والأجيال الحضرية الجديدة من النوبيين الذين هم ربما لم يعرفوا النوبة القديمة أو اللغة النوبية.

الأعمال المستشهد بها

Works Cited

Fernea, Robert A., and Georg Gerster. 1973. *Nubians in Egypt: A Peaceful People*. Austin: University of Texas Press.

Fernea, Robert A., and Aleya Rouchdy. 1991. "Contemporary Egyptian Nubians." In *Nubian Ethnographies*, ed. Elizabeth Warnock Fernea and Robert A. Fernea, 183–202.

Geiser, Peter. 1986. *The Egyptian Nubian: a Study in Social Symbiosis*. Cairo: The American University in Cairo Press.

Hamid, al-Sayyid. 1994. *al-Nuba al-jadida: dirasa anthrubulujiya fi al-mujtama' al-Misri*. Cairo: Ein for Human and Social Studies.

al-Katsha, Samiha. 1978. "Changes in Nubian Wedding Ceremonies." In *Nubian Ceremonial Life: Studies in Islamic Syncretism and Cultural Change*, ed. John G. Kennedy, 171–202. Berkeley: University of California Press.

Kennedy, John G. 1977. *Struggle for Change in a Nubian Community: an Individual in Society and History*. Palo Alto: Mayfield.

_____. 1978. "Zar Ceremonies as Psychotherapy." In *Nubian Ceremonial Life: Studies in Islamic Syncretism and Cultural Change*, ed. John G. Kennedy, 203–23. Berkeley: University of California Press.

Mukhtar, Yahya. 2001. *Jibal al-kuhl: riwaya min al-Nuba*. Cairo: Dar al-Hilal.

NSDC. 1999. *Ta'allum al-lugha al-Nubiyya*. Cairo: Nubian Studies and Documentation Center.

Oddoul, Haggag. 1993. "Hawla mustalah 'al-adab al-Nubi.'" *Majallat al-Qahira*, November.

_____. 2001. "Risalat hubb ila al-adib al-kabir Khayri al-jamil [ashri] . . . Mas-Kagna!" *al-Usbu'*, December.

Poeschke, Roman. 1996. *Nubians in Egypt and Sudan: Constraints and Coping Strategies*. Saarbrücken, Germany: Verlag für Entwicklungs-politik Saarbrücken.

Rouchdy, Aleya. 1991. *Nubians and the Nubian Language in Contemporary Egypt: A Case of Cultural and Linguistic Contact*. Leiden: E.J. Brill.

Salih, Mohy al-Din. 2000. *Min a'lam al-Nuba fi al-qarn al-'ishrin, al-juz' al-awwal*. Cairo: al-Nisr al-Dhahabi lil-Tiba'a.

Walz, Terence. 1978. *Trade between Egypt and Bilad as-Sudan (1700–1820)*. Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale.

الهوامش

١- أقوم فى هذا الفصل باستخدام مزيج من الأسماء الحقيقية والمستعارة. فأستخدم الأسماء الحقيقية للشخصيات العامة والمؤلفين الذين أشير إلى أعمالهم، ولكننى أقوم باستخدام أسماء مستعارة عندما أتحدث عن مقابلات خاصة. وتم تحديد الأشخاص الذين اختاروا أن أقوم باستخدام أسمائهم الحقيقية، سواء هنا أو فى إصدارات سابقة لهذا المؤلف أو مؤلفين آخرين تبعًا لذلك.

الفصل الخامس عشر

عندما تخفت أضواء القاهرة
السينما كمفترق طرق للعولمة وموقع للمقاومة الساخرة

والتر أرمبريست

يعتبر مشهد المراهقين المتعانقين في الصفوف الخلفية لدار سينما مظلمة منظرًا مألوفًا للحياة في الولايات المتحدة الأمريكية. كما تعتبر المغازلة في دور السينما سلوكًا غير مستصوب ولكنه يحدث على هامش الخصوصية التي يخلقها الظلام، بالنسبة لهم، والتي تسمح للمشاهدين الآخرين بغض النظر والتحول عنها إلى عالم الشاشة البيضاء. ويمكن أن تجد هذه "الخشبة" الرئيسية للمسرح والتي يتم فيها عرض الفيلم في الكثير من البقاع عبر أنحاء العالم. ولكن خلق المكان المظلم شبه الخاص في كل مكان في السينما يتم نتيجة للاعتبارات الفنية لعرض الفيلم للمشاهدين وهو أيضًا محدد بجغرافيات اجتماعية وسياسية معينة. وتقع طقوس الذهاب إلى السينما في وسط مدينة القاهرة – موضوع هذا الفصل – في الفجوة الواقعة ما بين طموحات المسئولين في السينما كأداة للتثقيف الاجتماعي، والواقع الذي لا يمكن التنبؤ به للجماهير التي ترتاد دور السينما. ومما لا شك فيه أن دور السينما قد فقدت الاستحسان في عيون أولئك القائمين على حماية الثقافة بحلول أواخر سنوات الثمانينيات. فقد هيمن الشباب عليها. وعمدت النخب إلى تشويه هؤلاء الشباب عن قصد بوصف تكالبهم على دور السينما كغزو بربري للطبقة

الدنيا من "الحرفيين"، وبذلك فإنهم قد أسدلوا ستارًا من الغموض على ظاهرة كانت، في الواقع، مرتبطة بالتهوين من قدر قطاع عريض من الطبقة المتوسطة في حقبة ما بعد الناصرية. وأصبحت سياسة الانفتاح الاقتصادي، وبلا هوادة، هي الخيار السياسي الوحيد المتاح على الساحة، كما بدت التعهدات السابقة التي قُطعت في حقبة مبكرة عن النهوض الاجتماعي من خلال التعليم مجرد وعود جوفاء. وبدت مرحلة حياة "الطالب" وكأنها حكم بالسجن يمتد لمدى الحياة، بينما الزواج – وهو الخط الفاصل تقليديًا بين مرحلة الطفولة ومرحلة النضج – قد انحسر وبدا أمرًا بعيد المنال.

ويعتبر تراجع الطبقة المتوسطة، بالإضافة إلى حظر تعامل الشباب اليافع مع الجنس الآخر خارج نطاق الزواج الذي يتم الآن بصفة مبدئية بعد سن الثلاثين هو الطريق الحتمي للكارثة لأي دولة. ويمكن للمرء أن يقول إن تزايد المد الإسلامي المتشدد في سنوات السبعينيات والثمانينيات كان عرضًا من أعراض مثل هذه الكارثة. ولكن ليست كل السياسات بسيطة جدًا على هذا النهج. واتسع مستهل الشعور بالمسافة الواقعة بين شاشة السينما والمشاهدين في وسط مدينة القاهرة ليشمل الحي بأسره. وأصبح حي دور السينما نفسه، شبيهًا بالمسرح، حيث إنه، وبمجرد أن تخفت الأضواء في الحي، فإن السلوكيات غير المقبولة من السلطات التي تنظم حياة الشباب – ويمكن أن تتغاضى عنها أي دولة حديثة، أو الوالدان (وبصفة خاصة الآباء)، أو الوعاظ الإسلاميون. وعلى الرغم من ذلك، فإن انتصار الشباب (من الفتيان) في دور سينما وسط المدينة يبدو مرحليًا. ويشكل الشباب ذوي القليل من الدخل المتاح، قاعدة هزيلة لصناعة السينما. وقد تدهورت بالتالي صناعة السينما المصرية، التي ظلت ولحقبة طويلة المنبع والمهيمن الأساسي للأفلام التي يتم عرضها في دور سينما وسط القاهرة، وظهرت إلى حيز الوجود دور سينما

جديدة تقوم بعرض نسبة كبيرة من الأفلام الأجنبية (بصفة خاصة أفلام هوليود) في الأحياء المجاورة ويتاح دخولها فقط لهؤلاء الذين ينتسبون للاقتصاد العالمي وفي الأعم لهؤلاء القادمين من دول الخليج، أو أولئك المرتبطين باقتصادياتها. وبينما افتتحت دور سينما جديدة موجهة إلى هؤلاء المنتسبين إلى الاقتصاديات المفتوحة عابرة القارات، فإن الكثير من دور السينما القديمة أغلقت أبوابها. وتظل منطقة وسط المدينة كحي للترفيه، ولكن بالنسبة لشباب الطبقة المتوسطة فإن تقلص طقوس الذهاب إلى السينما بدرجة ملموسة تُحد من آفاق أنشطة الترفيه الملموسة في هذه المنطقة بالنسبة لهم. وظلت المقاهي ومشاهدة المعروضات في فترينات المحلات بمثابة أنشطة عامة، بينما لم يكن هناك مثيل لدور السينما في وسط المدينة. ويُعد التقلص في دور السينما جزءًا من التغيير العنيف في مركز الثقل الاقتصادي والسياسي في القاهرة. وتحولت القاهرة إلى العولمة بالنسبة لكل مواطنيها، ولكن ما يعنيه هذا هو تحول ديمقراطي أقل للعالمية أكثر منه أن تصبح الأمور أكثر صعوبة بالسماح لطبقة هرمية جديدة فقط لأنواع محددة من الأنشطة. الطقوس التي سادت في شعائر الخروج للذهاب إلى السينما في وسط مدينة القاهرة للقليل من العقود لشباب الطبقة المتوسطة الآيلة للتدهور، والتي أُزيحت جانبًا بالتدريج لطبقة أوفر حظًا تعرف بـــوصولها إلى مستويات الاقتصاديات الخليجية أو الأوروبية. ويعتبر مصير مشاهدي دور السينما لوسط المدينة صورة مصغرة لعملية أوسع قامت بتهميش كل فرد اقتصر على المجال الوطني العام.

العمل والترفيه: وجها العملة لمنطقة وسط المدينة

وقعت معظم تجاربي في الذهاب إلى السينما في مصر في منطقة تشبه الوتد في وسط القاهرة – وهي المنطقة الاستعمارية من وسط المدينة والتي تعود إلى

الحقبة من منتصف القرن التاسع عشر إلى ما يقرب من منتصف القرن العشرين – والتي يمكن أن نصفها بحي دور السينما[١]. وتقع معظم دور السينما القديمة في ثلاثة شوارع تقع داخل هذه المنطقة من وسط القاهرة. وهناك العديد من دور السينما التي لا تقع مباشرة في هذه الشوارع الثلاث ولكنها تقع على بعد مرمى حجر منها. وعلى الرغم من وجود دور سينما في القاهرة خارج نطاق هذا الحي ولكن يمكن أن توصف بأنها في منتصف الطريق إليه (مثل روكسي في مصر الجديدة)، ولكن العديد من دور السينما التي توجد بعيدة جدًا عن هذه المنطقة تقع بوضوح على جانبي هامش اقتصاديات السينما: إما غالية جدًا، أو بالغة الرخص. وكان هناك قدر لا بأس به من تشييد لدور السينما الجديدة منذ منتصف سنوات التسعينيات. ومن الناحية العملية فإن كل دور السينما الجديدة باهظة الثمن وفي أعلى شرائح الأسعار، وتقع غالبًا في الفنادق الجديدة الفخمة، أو المراكز التجارية الجديدة، وكلها شُيدت بالضرورة بتمويل خليجي، وتستقبل بصفة أساسية أولئك القادمين من الخليج، والذين يفوقون السائحين الغربيين في أعدادهم بكثير في الأحياء الحضرية للبلاد. وتقع دور السينما الجديدة في مواقع من المشهد الحضري لا يمكن الوصول إليها بشكل متزايد إلا بالسيارة. وتعتبر منطقة وسط المدينة هي الجزء الوحيد من القاهرة الذى تتواجد به العديد من دور السينما وعلى مسافات متقاربة يمكن قطعها سيرًا على الأقدام من إحداها إلى الأخرى، وبهذه الصفة المميزة نفسها، يمكن الوصول إليها عن طريق الكثير من وسائل المواصلات العامة. (انظر القاضي والكرداني في هذا الكتاب للمزيد من التفاصيل عن تاريخ منطقة وسط المدينة وطرازها المعماري والترميمات التي تتم في الوقت الحالي في هذه المنطقة). وكانت هناك في منتصف سنوات التسعينيات عشرة من دور السينما (بالإضافة إلى العديد من المسارح) في المواقع الثلاث الأساسية لحي المسارح ودور السينما، بالإضافة إلى القليل منها والمتناثرة في الأجزاء الأخرى من وسط

المدينة. كما تصطف العديد من المطاعم على الشوارع التي تطل عليها معظم هذه الدور والتي تقدم وجبات زهيدة الثمن مثل الفول والطعمية (كل من الطبقين يتم إعدادهما من الفول المدمس)، والقليل من المطاعم التي تقدم وجبات غالية الثمن مثل الكباب والدجاج المشوي. وخُصصت القليل من شوارع المنطقة لتكون لسير المشاة فقط لتتحول إلى مطاعم مفتوحة ومقاه تجتذب عملاءها من الطبقة المتوسطة والدنيا من المصريين، والقليل منهم يمكنهم تحمل أسعار وسائل المتعة التي تقوم بتقديمها المراكز التجارية الحديثة. ويتلاحم حي الترفيه ودور السينما في وسط المدينة مع بعضه البعض. فيمكن للمرء أن يقطع المسافة من ميدان رمسيس إلى ميدان طلعت حرب في ما يقرب من خمس عشرة دقيقة من السير النشط.

وتتدهور حالة حي دور السينما – وفي الحقيقة، كل وسط المدينة في الوقت الحالي. وكانت منطقة وسط المدينة في الحقبة الاستعمارية، بقعة رفيعة المستوى حيث كانت مختلف الأجناس الأجنبية تختلط بالمصريين من كل الطبقات. وقد وصف كل من المصريين والأجانب هذا الاختلاط الاجتماعي الذي كان يتم في وسط المدينة في الكثير من المحال الصغيرة التي كان يمتلكها اليونانيون والأرمن، وأشهرها جروبّي.[٢] بينما كانت المؤسسات الأخرى، مثل فندق شبرد، مقصورة على الأجانب فقط.

وعلى الرغم من أن منطقة وسط المدينة بأسرها كانت أكثر أناقة عما هي عليه اليوم، فإن حي دور السينما دائمًا ما كان يحتفظ بمسحة من بهجة الاحتفالات. ويصف لنا الممثل والمخرج المسرحي يوسف وهبي ذكريات طفولته في المنطقة كسلسلة من اللقاءات مع محركي الأحداث في عالم الفن (أثناء الحرب العالمية الأولى بالتقريب) فيقول:

كنت أتسكع أنا ومختار عثمان ومحمد كريم في شارع عماد الدين، وأمام تياترو عباس (الكوزمو الآن) رأينا في كل الشوارع المحيطة بالمسرح عربات فخمة بجياد مطهمة، وكان يجلس مكان السائق في كل عربة رجلان يرتديان بزة فاخرة تلمع فيها الأزرار النحاسية ويرتديان الطرابيش الفاقعة الاحمرار ولكل منها زر من "الفرانشا" المذهبة. وأدركنا من أول وهلة أنهم من الأجانب، وفجأة تدفق النظارة من التياترو – ولكن الكثيرين منهم ظلوا وقوفًا– فأكتظ بهم شارع عماد الدين وقنطرة الدكة (نجيب الريحاني الآن) وسمعنا صياحًا ولأول مرة يطرق أذني اسم "سارة برنار".... "سارة برنار"، وكان معظم النظارة يتحدثون بالفرنسية، وتقدمت عربة ملكية فاخرة تجرها أربعة جياد "مسكوفي" وأمامها اثنان من السياس (وهما من أولئك الذين كانوا يتقدمون عربات الأمراء، ويرتدون السراويل ويحملون فوانيس مضاءة عاليًا) وعلا الهتاف مرة أخرى: "سارة برنار".... "سارة برنار"!

وما إن شقت العربة المطهمة طريقها بين الجماهير المحتشدة حتى إندفع الجميع بجنون نحو أعنة الجياد، وتدافعوا بالمناكب ليحلوا محل الخيول ويجرون "عريش" العربة! وسمعت أحد الواقفين يقول للآخر: "هذه أعظم ممثلة في العالم!"... واستطاعا بجهد خارق أن يصلا إلى عريش العربة، ويشتركا في سحبها، وكان شاب قصير يهتف بالفرنسية "فيف سارة برنار".

وهبي ١٩٧٣، ٩[٣].

ثم يصف يوسف وهبي مؤخرًا لقائه بصديقه إستيفان روسيتي، وهو ممثل ومخرج ينحدر من أصول تركية فيقول:

> **كان إستيفان أحد أفراد فرقة نجيب الريحاني الذي كان يعمل على مسرح الآبي دي روز ويتقاضى مرتبًا قدره ثلاثون جنيهًا من صاحب المسرح، وابتكر نجيب شخصية كشكش بك، وهو عمدة ثري يسيل لعابه للجنس، فيبذر أمواله على الراقصات والأرتستات اللاتي يحطن به - على المسرح - من الفنانات الأجنبيات.**
>
> **وكان طابع العرض من نوع "الفرانكو آراب".**
>
> **أقبلت الجماهير على هذا المسرح، وبخاصة أولاد الذوات الأثرياء الذين كانوا يتنافسون على مصادقة الممثلات الأجنبيات، ولكل منهم بطانة من الفتوات، ومعظمهم من الأفاقين المتمتعين بالحماية.**
>
> **وكثيرًا ما كانت تحدث - من جراء هذه المنافسات - معارك، ولا تخلو ليلة من طلقات الرصاص وطعنات الخناجر.**
>
> **وهبي ١٩٧٣، ٥١-٥٢.**

يمكن أن يكون وصف يوسف وهبي لمجموعة من الرجال الأثرياء المدعومين بعصابات من الأشرار ويتنافسون من أجل كسب عطف سيدات أجانب يحمل قدرًا من الخيال، وربما على أي حال يشير إلى فترة عشرة عقود ماضية. وحتى لو سمحنا بقدر من المبالغة من جانبه، فإن سيكون من الخطأ أن نعتبر منطقة وسط مدينة القاهرة وكأنها كانت في بعض الفترات الذهبية، إما أنيقة بطريقة

لا لبس فيها، أو متجانسة من حيث الطبقات التي ترتادها. ولكن احتمال أن وسط المدينة كان له دائمًا جانبه المظلم لا يجب أن يحجب الحقيقة العامة بتدهور المنطقة. ويسمع المرء اليوم وصف البعض لوسط المدينة بأنه "بلدي"، والتي تعني في هذا السياق، من طبقة دنيا.

ولم يكن هذا القول يتردد قبل أن تتحدر المنطقة ببطء إلى الانحطاط إلى حالة يتعذر إصلاحها، وذلك بداية من سنوات السبعينيات. ولم يكن هناك أدنى درجة من الشك، ولوقت ما أن مركز الثقل الاقتصادي في القاهرة لم يعد هو منطقة وسط البلد(٤).



دار سينما مترو بشارع طلعت حرب، في سـنوات الخمـسينيات تقريبًـا (كارت بريدي من استديو كوفللر - تصوير والتر أرمبريست).

تعكس أفلام السينما نفسها التغييرات التي حدثت في حظوظ منطقة وسط البلد. وتُظهر مشاهد الأفلام التي تم تصويرها في منطقة وسط المدينة منذ فترة الثلاثينيات وحتى سنوات الستينيات، بالتناوب مرة كمركز للحياة الحديثة أو بطريقة أخرى كمنطقة خطيرة تستمد قيمها من الغرب. وكانت منطقة وسط المدينة إما منطقة مكاتب يعمل فيها الموظفون، أو منطقة تسهر فيها النخبة حتى الخيوط الأولى من الفجر. وكانت المناطق التي يطلق عليها "بلدي" في أفلام هذه الفترة منفصلة بوضوح مكانيًا عن وسط المدينة، حيث يعيش الأفراد غير المتعلمين والبسطاء بصفة عامة. وبدأت الأفلام، ومنذ سنوات السبعينيات، تميل إلى إظهار موظفي مكاتب وسط المدينة ليسوا كنتاج للحداثة، ولكن كفئة مُهمشة اقتصاديًا، وفاسدة بطريقة غير طبيعية. وحتى في حقل الفساد، فإن كبار المقامرين قد هجروا منطقة وسط القاهرة، على الأقل في السينما.

ويدور إيقاع الحياة اليومية في وسط المدينة بين فترتين ممتدتين كل يوم: فترة العمل طوال ساعات النهار، والترفيه في ساعات الليل (من الساعة ٧ مساءً وحتى بعد منتصف الليل). ففي ساعات العمل تعج منطقة وسط المدينة بموظفي المكاتب، بينما يُشكل الشباب في أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات من العمر أغلب ساعات الترفيه المسائية. كما يشكل المثقفون ركنًا مهمًا في عالم الليل في وسط المدينة، لأن التدهور في الثروات الاقتصادية لمنطقة وسط المدينة جعل منها حيًا شبه - بوهيمي[٥]. ولكن الأغلبية الساحقة من الباحثين عن الترفيه من شباب أصدقاء المدرسة أو الجيرة.

ويميل الناس إلى التواصل مع أفراد من نفس جنسهم عندما يكون نمط الترفيه هو السائد، أو في حالة السيدات والفتيات، مع أفراد أسرهم. ويمثل هذا النمط الأسلوب السائد في المجتمع المصري في العلاقات السائدة بين الجنسين،

ولكن مع فارق مهم هو تواجد الرجال والنساء معًا في العلن بمنطقة وسط المدينة. ويعتبر النمط السائد أكثر هو أن تظل السيدات (ولكن هذا لا يعني على وجه الحصر) في مجال الأعمال المنزلية، سواء أثناء أنشطة الترفيه أو العمل، بينما يتولى الرجال المجال العام.

كما يمكن أن نلاحظ ظاهرة تواعد الفتيان والفتيات في وسط المدينة. وبعض هؤلاء يمكن أن يكونوا فتيات مع أشقائهن، ولكن الكثيرين منهم شباب أعزب من الفتيان والفتيات يخرجون معًا. وتعتبر المواعدة ضد الطبيعة المحافظة التي يفترض الكثيرون أنها الاتجاه الثقافي السائد. وليست هناك عقوبة اجتماعية مخصصة في تواصل الفتى والفتاة في محيط ما من غير مرافق. ونتيجة لذلك، فإن الأفلام تتحدث عن المواعيد الغرامية (ويتم تقديمها في أفلام السينما) كعنصر من عناصر الزواج الذي سوف يتم بدلاً من طقوس الخطوبة التي تتم بين شخصين واللذين يمكن أن يقررا الزواج في النهاية.

ونتيجة لذلك، فإن الكثيرين من الفتيان والفتيات الذين نراهم معًا في المنطقة هم مرتبطون رمزيًا، وهنا يشار إليهم بالخطيب أو الخطيبة (للفتى والفتاة على الترتيب). ويمكنهم استخدام هذه المصطلحات فيما بين بعضهم البعض، أو في صحبة الأصدقاء المقربين، وأحيانًا بموافقة الآباء وحتى عندما لا تكون هناك خطط ملموسة للخطوبة الرسمية. ويمكن أن يستخدم المصريون أحيانًا المصطلحات الإنجليزية "الصديقة"، و"الصديق" على سبيل السخرية للإشارة إلى علاقة غير مشروعة، ربما جنسية، ويفترض أنها خارج نطاق زواج مخطط له أو محتمل(٦).

ولا تحتاج المواعدة بين الفتى والفتاه الذهاب لمشاهدة فيلم سينمائي، ومع ذلك، فإن الذهاب لمشاهدة فيلم يحتمل أن يكون لمواعدة محتملة. ويذهب الكثير من المتواعدين ببساطة لمشاهدة معروضات المحلات، وربما يجلسون في كافيتريا

أو مطعم. وعلى الرغم أن بعض المقاهي المناسبة للتواصل بين الجنسين متـــداعيـــة، فإنها لا تزال مرتفعة الأسعار ومن آثار الأيام الخوالي الأكثر سحرًا لوسط المدينة. وتقع معظم هذه المحال في حي دور السينما أو بالقرب منها. كما تشمل منطقة وسط المدينة على عدد من المحال والبارات الواقعة على أسطح المباني، والتي لها شعبيتها للمتواعدين نظرًا لمواقعها المحجوبة. والنمط الأساسي لفتاة تذهب لمشاهدة فيلم سينمائي كجزء من الخروج في فترة ما قبل الخطوبة، الذي أحيانًا ما يتم تقديمه في الأفلام، مثل الفيلم السينمائي المبني على رواية نجيب محفوظ (بداية ونهاية) (أبوسيف ١٩٦٠)[٨]. وهنـــاك فتاة صغيرة في هذه الرواية لا تريد أن تتحدث مع رجل يريد أن يتزوجها حتى يوافق والدها على عرضه بطلب الزواج. وعندما تقوم بمصاحبته بلهفة إلي السينما نراهما يجلسان متيبسان لمشاهدة إحدى أفلام الكرتون "بوبي آي البحار".

ويبدو أن الفن يحاكي الحياة في الواقع. فقد حدث ذات مرة أن كنت أشاهد فيلمًا مع شاب صغير من الطبقة المتوسطة وخطيبته. وعندما سألت كم مرة ذهبت إلى السينما، ردت هي قائلة، "هذه هي المرة الثانية في حياتي. وكانت المرة الأولى منذ سنوات مضت، عندما اصطحب والدي الأسرة بأكملها لمشاهدة فيلم". وعندما أبديت دهشتي، فإنها أضافت كحقيقة واقعة، "ومع من سأذهب إلى السينما؟"[٩]



زوجان يستعرضان البضائع المعروضة في شارع طلعت حرب، في خريف عام ٢٠٠٤ (تصوير لوسي ريزوفا)

وترتاد بعض النسوة دور السينما مرات أكثر من ذلك. فقد أخبرتني سيدة في الخمسينيات من عمرها "أنها ذهبت إلى السينما عشر أو أحد عشر مرة". ثم أضافت أن ابنتها الكبرى "قد اعتادت على الذهاب للسينما كل أسبوع مع أصدقاء لها من الجامعة". وتهكمت الابنة من جانبها من فكرة اعتيادها الذهاب إلى السينما كل أسبوع، قائلة إنها ارتادت دور السينما مرات قليلة. ثم ذكرت نفس السيدة أن ابنتها الصغرى، المراهقة، لم تذهب إلى السينما إلا مرة واحدة أو مرتين. أحدث زيارة لأي منهما لإحدى دور السينما كانت منذ عامين عندما تمت خطوبة الابنة الكبرى واصطحبهم خطيبها جميعًا لمشاهدة فيلم سينمائي. وهكذا، فبينما يختلف عدد مرات التردد للسيدة التي أعرفها، فلم يكن من الغريب بالنسبة لهم الإجابة عن أسئلتي مع قليل من التردد عن عدد محدد من المناسبات. ويميل الرجال إلى الإجابة على أسئلتي عن عدد مرات التردد على السينما بدقة أقل. "أنا أتردد كثيرا على دور السينما"، أو "نادرًا ما أذهب للسينما"، ولكن لم تكن الإجابة على هذا النحو غالبًا "لقد ذهبت س من المرات إلى السينما".

ويمكن أن يكون المرء أيضًا في نمط أوقات الفراغ في وسط المدينة مجهول الهوية. ويعيش القليل من الناس من الذين يذهبون إلى وسط المدينة لأغراض تزجية أوقات الفراغ هناك بالفعل. وتعتبر منطقة وسط المدينة في ساعات المساء منطقة محايدة، لا توجد فيها أعين كبار السن، وبعيدًا عن قبضة المؤسسات الاجتماعية. وهذا يعني أن المعايير الاجتماعية تسترخي قبضتها جزئيًا على الأقل، وأن الشباب الصغار الذين يرتادون هذه المنطقة يمكن أن يندمجوا في قدر من الممـــارسات السلوكية التي يمكن أن تتعارض مع الأنماط الاجتماعية للحياة اليومية المعتادة.

درجات دور السينما

بالإضافة إلى الجو العام من الغموض الذي يحيط بالأنماط الاجتماعية في داخل منطقة دور السينما في وسط المدينة، فإن دور السينما في النهاية هي خطوة أخرى تجاه إخفاء الهوية. وبطبيعة الحال، تنقسم دور السينما بالقاهرة إلى درجات من الوضع الاجتماعي طبقًا لحالة السينما وأسعار تذاكر الدخول. ففي منتصف سنوات التسعينيات كان متوسط أسعار التذاكر يتراوح بين ٣,٥٠ جنيه و٧,٠٠ جنيهات طبقًا لموقع المقعد في دار السينما (كان سعر الجنيه المصري في عام ١٩٩٣، عندما كنت أقوم بتجهيز مسودات هذا البحث يساو ي ٠,٣٠ دولار، وهكذا فإن أرخص مقعد في دار سينما متوسطة المستوى تكلف أكثر قليلاً من دولار واحد). وتعتبر المقاعد التي يطلق عليها الصالة هي الأرخص ثمنًا (القاعة الرئيسية لدار السينما)، بينما الأغلى سعرًا هي مقاعد اللوج (وهي غالبًا الصفوف الأولى القليلة من البلكونة)، وفي بعض الأحيان، يكون هناك ترتيب ثنائي للبلكونة (المقاعد التي تعلو اللوج) والتي تكون أسعارها معتدلة بعض الشيء. المقاعد في دور سينما العرض الثاني للأفلام تتراوح أسعارها ما بين ٢،٥٠ – ٣،٥٠ جنيه مصري. وتأتي في مؤخرة دور السينما من حيث الأسعار "دور سينما الدرجة الثالثة"، والتي تتراوح أسعارها (في سنوات التسعينيات أيضًا) ٢،٠٠ – ٢،٥٠ جنيه للمقعد. وهذه الأخيرة أرخص سعرًا بكثير من دور السينما الأخرى لأنها تقوم بعرض ٤ أفلام بسعر فيلم واحد. وتأتي على قمة فئات أسعار التذاكر بالنسبة لدور السينما، مثل هيلتون رمسيس، التي تقع على سطح مركز تجاري ملحق بفندق النيل هيلتون، وتتراوح تكلفتها ما بين ٧،٥٠ – ٢٠،٠٠ جنيه مصريًا.

ويعتبر معظم الناس أن متوسط أسعار تذاكر السينما في دور السينما متوسطة المستوى باهظة التكلفة، وفي كل مرة يتم فيها تجديد دار السينما فإن أسعار التذاكر ترتفع حتميًا. ومؤخرًا، فإن معدل الأسعار منذ أربع سنوات مضت

كان يتراوح ما بين ٢,٥٠ – ٥,٠٠ جنيهات مقارنة بما يتراوح ٣,٥ –٧,٠٠ جنيهات الآن، وتمضي الأسعار في الارتفاع. ويعد الارتفاع في أسعار تذاكر السينما جزءا من الاتجاهات التضخمية العامة. ولا تواكب الرواتب– وخاصة للوظائف المكتبية من الفئات الوسطى معدلات التضخم السائدة. ويتقاضى العاملون بأجر ما يوازي ٢٠٠ جنيه شهريًا أو أقل[١٠]. ويتعين على العديد من هؤلاء العاملين أن يمارسوا عملاً آخر أو ربما أكثر، ومع ذلك فإنها لا يمكن أن تواكب المتطلبات الأساسية للمعيشة.



دار سينما الأوبرا كان في الأساس من دور سينما الدرجة الأولى، وازدادت
تداعيًا بشكل كبير- وتهدمت في الوقت الحالي، وحل محلها مركز تجاري
رث الهيئة (تصوير والتر أرمبريست، عام ١٩٩٠ تقريبًا).

وربما تعتبر دور السينما - متوسطة المستوى - أو الأعلى سعرًا، وعلى وجه أدق الأعلى تكلفة في حدود قدرات الشاب، من أفضل الأماكن المُحببة للمواعدة بين المحبين. وتعتبر المواعدة مُكلفة لأنها، وبصرف النظر عن فئات التذاكر، فإن المُحبين دائمًا ما يستخدمون أكثرها تكلفة البلكون أو اللوج. وعلى الرغم من أن الأغلبية الساحقة من المشاهدين في الحفلات التي حضرتها كانوا من الرجال، فإنني لم أستطع أن أتبين أن هناك أي تقسيم للمشاهدين على أساس الجنس لأنواع محددة من الأفلام. وبدا لي أن أماكن عرض أفلام الكاراتيه العنيفة هي المفضلة أكثر من غيرها للمواعدة بين المحبين في الأفلام المصرية.

ولا ترتاد النساء دور السينما من الدرجات الدنيا- دور سينما الدرجة الثالثة (الرويال الجديد والكورسال الجديد). وكان المشاهدون بأكملهم من الرجال عندما ذهبت إلى هذه الدور. ويقع كل من دار سينما رويال وكورسال على مشارف حي بولاق، حيث تطغى محال إصلاح السيارات وبعض الصناعات الصغيرة الأخرى على المنطقة، وهي ليست بالمكان المحبب لأي رجل وامرأة لقضاء أوقات الفراغ علانية.

وترتدي نسبة كبيرة من الجنس اللطيف ممن يرتدن دور سينما منطقة وسط البلد الحجاب، حيث توجد نسبة ملحوظة منهن، وهو النمط الإسلامي الجديد من الأزياء والذى بدأ أول ما بدأ في الجامعات المصرية في سنوات السبعينيات، ولكنها تنتشر الآن على نطاق واسع[11]. ويمثل ارتداء الحجاب تعبيرًا متناقضًا، فيوحي بكل من رغبة المرأة في اقتحام المجال العام، بالإضافة إلى اعترافها بالمعايير الاجتماعية الأبوية التي لا تسمح بالدخول في هذا المجال. ومن الجدير بالذكر وجود تناقض صارخ بين الطريقة التي ترتدي بها السيدات المشاهدات أزياءهن، والأزياء التي ترتديها الممثلات في الأفلام السينمائية. وترتدي معظم النساء في

معظم أنحاء القاهرة ٨٠-٩٠% منهن الحجاب. أما في السينما فتنعكس النسبة بصورة حادة، وليس من المعتاد أن تتعدى القليلات اللاتي يمكن أن يشاركن أدوار الكومبارس غير الناطقة[١٢].

ويعبر الحجاب رمزيًا عن الاحتشام، ولكن الاحتشام يتم إقحامه في آليات مشاهدة الأفلام للسيدات بوسائل أخرى. وتعتبر مواعيد بدء العرض غير الثابتة واحدة من الصعاب التي تواجه المحبين في التواعد، حيث تعني أن ينتظروا في الشارع وسط الزحام قبل أن تفتح دور السينما أبوابها. ويمكن للمرء أن يدخل دار السينما قبل الموعد المحدد والانتظار في البهو المخصص لذلك، ولكن أي شخص يفعل ذلك يتعين عليه أن يطلب بعض المرطبات أو الأطعمة الخفيفة وبأسعار باهظة. وغالبًا ما يحجز المتواعدون في مقاعد في الفئة مرتفعة الثمن، مما يكبدهم نفقات أكثر. وهذا يعني أنهم لتفادي تكبد نفقات أكثر في شراء هذه المرطبات أن يصلوا متأخرين وما يستتبع ذلك من إمكانية شغل كل المقاعد إذا ما كان الفيلم رائجًا. وأما البديل وهو التسكع في الشوارع لحين بدء العرض، فيمكن أن يثير المتاعب للسيدات، حتى لو كن في صحبة رجال. ومعظم الزحام الذي يحيط بدور السينما نتيجة لتواجد الشباب الصغار الذين يتسم سلوكهم غالبًا بإحداث قدر هائل من الصخب والضجيج. وفي واقع الأمر، فإن كل أولئك الذين يبادرون إلى الدخول وتحمل تكلفة إضافية هم الأزواج. وهناك الكثير من المقاهي بالقرب من الكثير من دور السينما، ولكن أسعارها أيضًا تميل إلى الارتفاع[١٣].

دور السينما المتواضعة

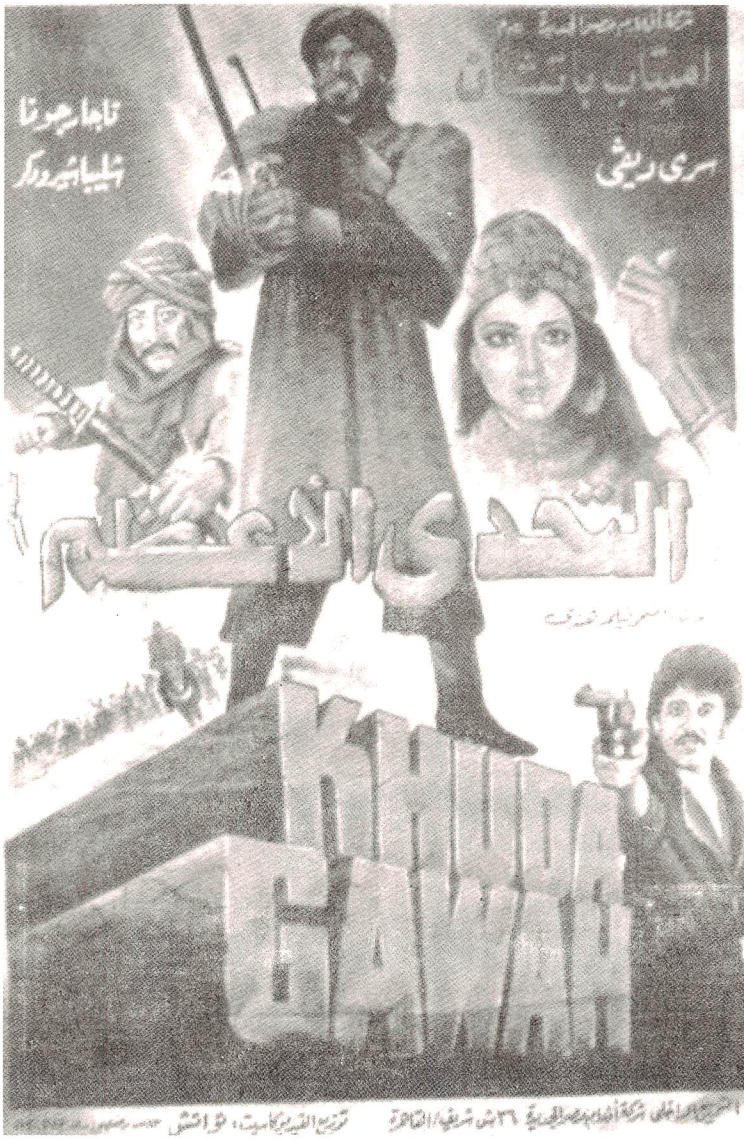
من المحتمل أن يتم عرض أفلام أجنبية بديلاً عن المصرية في فئات دور السينما التي تمثل أدنى الدرجات. وتمثل أفلام الكاراتيه، وأفلام الحركة الغربية،

وأفلام الرعب، والأفلام الهندية، وفي سنوات التسعينيات كان يتم عرض القليل من أفلام المراهقين والتي تدغدغ مشاعر شباب المشاهدين.

غالبًا ما تقوم الطبقة الأدنى من المسارح الرخيصة التي تقوم بعرض أربعة أفلام دفعة واحدة مقابل جنيهين، بعرض الأفلام الهندية. كما قامت الحكومة في سنوات الثمانينيات والتسعينيات بعرض فيلم أو اثنين كل عام من الأفلام الهندية في التليفزيون، وكان الكثير ممن أعرفهم يترقبون بلهفة عرض مثل هذه الأفلام. وعلى العكس من الافتراض الشائع على نطاق واسع، بأن الأفلام الهندية تجتذب بصفة أساسية غير المتعلمين من الطبقات الدنيا، فإن كل الأفلام الهندية التي عرفتها كانت مطمحًا للطبقة الوسطى. وتثير الأفلام الهندية موضوع العلاقات الخارجية بين أنداد في مصر الحديثة - وليست العلاقة الفوقية المتخيلة مع أوروبا أو مراكز الغرب، ولكن علاقة بين أنداد فيما يتعلق بالعالم الذي كان يرزح تحت نير الاستعمار. وكانت علاقة مصر مع أوروبا عبر القرنين الماضيين أكثر أهمية من علاقة مصر بالهند. والنقطة المهمة هي أن التأريخ المعاصر يميل إلى أن يقدم كلا من مصر والهند فقط من زاوية علاقتهما لأوروبا (أو على نطاق أوسع، "بالغرب"). ويؤثر هذا الميل تجاه السينما المصرية، والتي تفكر فقط في أحد طريقين. أولاً، يُنظر إليه كتراث للفيلم الوطني يتم تطويره من خلال آليات المجتمع المصري الداخلية[١٤]. وينظر للسينما المصرية، ثانيًا، كتراث قومي أفسدته السينما الأوروبية وسينما هوليوود[١٥]. ويتم التعبير أحيانًا عن هذا الافتراض المثالي في معظم الكتابات، كما هو الحال في الأحاديث العابرة، ضمنًا، وأكثر صراحة في بعض الأحيان، أن هناك، أو يجب أن تكون هناك بالضرورة شخصية مصرية تصبغ السينما الوطنية. وغالبًا ما تؤخذ وجهات النظر السلبية تجاه السينما المصرية - والمتمثلة في الرأي القائل بأن الأفلام المصرية لا تعدو أن تكون أكثر من اقتباسات رديئة من أنماط

أفلام هوليوود – وتؤخذ كأمر مسلم به هيمنة الحواضر الغربية على التخوم المصرية. ولذلك فإن التأثير الوحيد الذي سُمح به على السينما المصرية هو تأثير "فوقي" من أعلى بقدر ما كان التصور أن القوى المُهيمنة يجب أن تكون في مرتبة أعلى في سلسلة هرمية للقوة السياسية والاقتصادية عن صناعة الأفـلام المحلية، أو الموجودة داخل الحدود. وتعتبر العلاقة بين المركز – والتخوم التي كانت قائمة بين أوروبا ومستعمراتها، هي في الواقع إحدى الجوانب المهمة في التطور التاريخي لوسائل الإعلام المصرية. وقد لعبت الهيمنة الأوروبية ولسوء الحظ، في حالة السينما والأشكال الأخرى للثقافة الشعبية، دورًا في سدّ الطريق أمام التحليل بدلاً من أن تكون أحد عناصر هذا التحليل، وربما، وإن كان ذلك حاسمًا، في صورة أكبر تأخذ في الحسبان التأثيرات الأخرى العابرة للأقاليم. وليست هذه التأثيرات واضحة في مضمون هذه الأفلام – حيث إن الأفلام المصرية لم تتأثر أبدًا مباشرة بالأفلام الهندية. ولكن فيما يخص المشاهدين، أو في أي تحليل لمشاهدة فيلم، فإن تواجد الفيلم الهندي هو أمر محسوس للغاية. وتمتع اسم أميتاب باتشان بشهرة واسعة في مصر وعلى نطاق واسع في سنوات التسعينيات. ويعتبر باتشان هو نجم النجوم الأشهر في السينما الهندية، ولكن شعبيته في مصر لم تكن بهذا الوضوح على المستوى الرسمي، حيث كانت الأفلام الهندية تقابل بازدراء صامت. فلم تكن الصحف، في أغلب الأحيان، تقوم بنشر أي مقالات عنها، أو عن أي أفلام هندية. وكان العامة من المصريين مفتونين بما فيه الكفاية بباتشان، لدرجة أن موضوع ما إذا كان يجب وضع أفلامه في برامج التليفزيون الذي تديره الدولة كان موضع نقاش. ولكن السينما التي كان يقوم بتقديمها هي التي قامت بفرض وجوده أيا كانت الشاشة التي ستقوم بعرضه. وكانت بعض محلات الملابس الرخيصة في شارع ٢٦ يوليو (التي تقع مباشرة في محيط حي دور السينما) تقوم ببيع قمصان تحمل صورة وجه باتشان عليها. كما كانت صورة كبيرة لأميتاب باتشان هي

جائزة لعبة مهارية مقامة على هامش الاحتفال بمولد أحد الأولياء والتي كنت حاضرًا فيها[١٦]. وذاعت شائعة حضرية في بواكير سنوات التسعينيات مفادها أن طائرة تحمل النجم الهندي الشهير قد هبطت لفترة وجيزة في مطار القاهرة الدولي من أجل إعادة تموينها بالوقود. وذاعت تلك الأخبار عن وجود باتشان انتشار النار في الهشيم، وزُعم أن عشرات الآلاف قد هرعوا إلى المطار على أمل رؤيته. ويمثل أن تكون هنديًا "في الكلام المنطقي" في اللغة العربية لدى المصريين، أن تكون شيئًا آخر تمامًا. ورغم ذلك، كان باتشان محبوبًا لدى ملايين المصريين.



لوحة إعلانية باللغة العربية لفيلم هندي من أفلام أميتاب باتشان "التحدي الأعظم" (تصوير والتر أرمبريست).

يميل العاملون في صناعة السينما والنخبة في مصر الآن إلى الانتقاص من قدر السينما الهندية. وتبدو هذه المواقف على السطح متوافقة مع ترفع المفكرين عما هو هندي. وذلك حقًا، على الرغم من الشعبية الواضحة لنجوم الأفلام الهندية، وفي اللغة الدارجة فإن "هندي" هو مرادف "للأحداث المأساوية غير المعقولة". وقد تحولت المواقف الأوروبية تجاه الدراما الهندية بحذافيرها للخارج، وهنا مرتبطة بالدراما وتتضمن السخافة، والحماقة، أو الغرابة. وتعني العبارة الدراجة "فاكرني هندي"؟ هل تعتقد أنني أحمق تمامًا؟ أو ببساطة "إنني لم أولد بالأمس" (لست بأجنبي لأكون جاهلاً). ولكن وأيا كانت طبيعة علاقات مصر الفعلية بالهنود، فإنها السينما الهندية هي التي تصبغ الاستخدام العامي لمصطلح "هندي". كما أن عبارة "فيلم هندي" هو مرادف للحكمة المُستقبلة عن الدراما. الميلودراما شيء "سخيف"؛ الميلودراما هندية. ولذا فإن عبارة "فيلم هندي" إشارة على ازدرائية. كما أن الاستخدام الازدرائي "هندي" تعني أيضًا مؤشرًا على وجود السينما.

ويشي الوجود الخفي للفيلم الهندي بأن السينما المصرية يمكن أن تؤخذ في الاعتبار خارج نطاق ما هو حتمي من أجل تطوير تراث سينمائي وطني، بعيدًا عن هواجس التفكير في الدرجة التي يمكن أن تتلوث بها السينما الوطنية تحت وطأة تأثير السينما الغربية. وتعتبر الهند هي الغائب الحاضر دائمًا بصفة رسمية في العقود الأخيرة.(١٧) لقد كانت سيدة قاهرية شابة هي أول من جعلتني أفكر في الأفلام الهندية. وهي من الطبقة الوسطى على وجه التقريب، ولذا فقد كانت ضالعة تمامًا في المشاعر التي ترى أن الفيلم الهندي هي ميلودراما مضحكة وهكذا تعتبر مرادفة للسخافة. ولكنها أيضًا كانت قادرة على الحديث عن الأفلام الهندية لا شعوريًا وبحماس بالغ. وقالت لي وهي منفعلة، قبل شهر رمضان مباشرة في عام ١٩٩٠، كان التليفزيون الحكومي يُعد لنا مفاجأة ليوم العطلة: "فيلم هندي يتم بثه كل مساء

خلال الشهر". وبالكاد استطاعت أن تستجمع شتات نفسها. ولسوء الحظ إما أن معلوماتها كانت خاطئة، أو أن تليفزيون الدولة قد كذب عليهم: ففي نهاية الأمر لم يتم عرض سوى فيلم هندي واحد.

ربما يعبر أفراد الطبقات الدنيا عن ولعهم بالأفلام الهندية أكثر من أولئك الذين يعتبرون أنفسهم من الطبقة المتوسطة. ومع ذلك، فلم يكن حماس السيدة الشابة تجاه الأفلام الهندية أمرًا غريبًا. فقد اعترف لي عدد من طلاب الجامعة ممن لاقيتهم في عام ١٩٩٠ بشغفهم بالأفلام الهندية. وشرح لي شاب صغير موقفه قائلاً، "الأفلام الهندية أكثر قربًا من روح الإسلام عـن الأفـلام المصرية – فهم لا يعرضون علينا الكثير من البهارات الجنسية، ويمكنك بسهولة أن تميز بين الخير والشر". وعلى النقيض من ذلك، لم أقابل أحدا من أفراد الطبقة العليا من المصريين ممن لم يتردد في القول بأن الأفلام الهندية مبتذلة. وقد ذكر لي أحد العاملين في المحل الذي أشتري منه شرائط الفيديو أن تجارة شرائط أفلامها منتعشة للغاية، ولكنهم في نفس الوقت يقومون بإخفاء شرائط الأفلام الهندية في الداخل (ومعها أفلام الكاراتيه الصينية)، في حين أن جميع أنواع الأفلام الغربية، بما فيها أفلام الحركة والمغامرات الرخيصة، بالإضافة إلى أفلام الإثارة الجنسية يتم عرضها في مكان بارز.

كانت الأغلبية الساحقة من الأفلام التي تقوم بعرضها دور سينما أفلام العرض الثاني من أفلام الحـركة (معظمها من الولايات المتحدة الأمريكية) أو من أفلام الكاراتيه. ويمكن للمرء أن يفترض أن مشاهدي مثل هذه الأفلام هم أساسًا من الرجال، ولكن ثبت لي بالتجربة أن أعدادا كبيرة من النساء تشاهد أفلام الكاراتيه مثلها مثل الأفلام المصرية. وقد حضرت إحدى أفلام الحركة في سينما راديو (تقريبًا لا تعمل الآن حيث أغلقت للتجديدات بعد أن ذهبت إليها مباشرة بفترة قصيرة) وكان كل المشاهدين من الرجال. وكان هذا الفيلم هو "ستون كولد" بطولة

بريان بوسورث الذي هجر كرة القدم إلى السينما. وكان بالفيلم مشاهد من العنف المبالغ فيها أدت إلى تدخل مقص الرقيب لحذف العديد من المشاهد مما أدى إلى تقلص الفيلم إلى أقل من ساعة واحدة. وكان هناك على أي حال، ثلاثة أفراد فقط في هذا الفيلم المخصص للرجال فقط. وقد علمت بعد ذلك أن الفيلم قد سبق عرضه لمرات عديدة، ولذا فربما كان هذا العزوف عن الاهتمام راجعًا إلى تكرار عرضه أكثر منه لعدم شعبية الفيلم. وكان هناك الكثير من المشاهدين ومنهم الكثيرات من النساء، يشاهدون الفيلم الأحدث (وإن لم يقل عنه عنفًا – والأكثر تعرضًا لمقص الرقيب)، في نفس الأسبوع وفي امتداد الشارع في سينما مترو بعنوان (الهدف الصعب).

هناك ظاهرة أخرى لدور سينما العرض الثاني أن بعض هذه الأفلام التي تُعرض في هذه الدور قد حققت مرتبة الريادة لذكريات حفل منتصف الليل لعروض أفلام روكي للرعب، على الأقل بمعنى أن المشاهدين يشاركون في حوار الفيلم (لم أر شيئًا أكثر دقة وتفصيلاً في دور السينما المصرية على غرار طقوس أفلام روكي المُرعبة التي تضم الماء، وورق التواليت، وارتداء قالب أسنان). والمثال الشهير هو (أبي فوق الشجرة – كمال ١٩٦٩). وليس هناك تفسير واحد للجاذبية الدائمة لأبي فوق الشجرة. وكان يعتبر من وجهة نظر المعجبين به (ولا يزال) إنه مُغرق في التوابل الجنسية. على الرغم من أن دور البطولة فيه قام به المغني الأكثر شعبية، فإنه من الأفلام الشعبية القليلة التي كانت دائمًا توصف لي بأنها "رديئة". ولكنه كان سيئًا جدًا ليس بمعنى "القبح" الشديد أكثر منه بمعنى "البذاءة".



إعلان لفيلم "أبي فوق الشجرة" (تصوير والتر أرمبريست).

وجذب انتباهي أن الفيلم يتم عرضه أول مرة عندما كنت سائرًا في شارع عماد الدين مع صديقي المصري وخطيبته. وعلم كلاهما باهتمامي بمشاهدة الأفلام، وشرعا في ممازحتي عن الذهاب لمشاهدة الفيلم، فقلت إنني سأفعل بالتأكيد، وسألتهما إذا ما كانا يرغبان في مصاحبتي. فوجدتهما قد تصنّعا موقفًا من الغضب الأخلاقي الزائف. وهددت خطيبة صديقي بعنف إذا ما تخطت قدمه أبواب دار السينما. وأعلنتها الفتاة الشابة مدوية ليكن معلومًا أنه على الأقل من الناحية النظرية أن الفتيات الأصيلات لا يمكنهن الذهاب لمشاهدة مثل هذه الأفلام.

وتحكي قصة فيلم "أبي فوق الشجرة" قصة شاب صغير (لعب دوره المغنى الشهير الراحل عبد الحليم حافظ) والذي ينتمي إلى عائلة ثرية ويقضي إجازة الصيف على شاطئ البحر بالإسكندرية، حيث تقضي خطيبته الجامعية إجازتها أيضًا. ويرغب في أن يقضي بعض الوقت معها على انفراد بعيدًا عن مجموعة الأصدقاء (الشلة). ولكنها محتشمة وتصر على أن يظلوا في أمان مع المجموعة. ويصاب بإحباط شديد وينتهي به الأمر بأن يفر مع غانية في عمل طائش، ويتخلل الهروب جلسات لشرب مخدر الحشيش مع قواد لها، ورحلة طويلة بالسيارة إلى لبنان. ويشعر أعضاء الشلة الأتقياء بالصدمة على حياة الفسق التي يعيشها ويتجنبونه. وأخيرًا، يأتي والده للبحث عنه، ولكنه يلتقي بالغانية أولاً وينتهي به الأمر بأن يسلك مسلكهم الذي لا رابط له مثلما فعل ولده. وتقابل الرجلان معًا في ملهى ليلي سيىء السمعة ويدرك كلاهما على الفور أنهما ضلا السبيل وسقطا في الوحل. وحيث إن الأب أثبت أنه ليس أفضل من الابن فإنهما تصالحا. كما أن تصالحهما أعاد الابن إلى أحضان شلته وتقبلت خطيبته الخجولة عودته بدون أي تبادل للاتهامات.

وقد أخبرني الصديق الذي هددته خطيبته وهي غير جادة تمامًا إذا ما حاول الذهاب لرؤية الفيلم عن نكتة بخصوص هذا الفيلم والتي تعكس ببراعة حبكة الفيلم الأساسية فقال: "ذهب شاب لمشاهدة فيلم أبي فوق الشجرة، وبعدها اكتشف والده الأمر. واقتحم والده غرفة ابنه الشاب صائحًا بغضب، "كيف تجرؤ على الذهاب لمشاهدة فيلم فيه مائة وثلاثة وعشرون قبلة!" (بما يعني أن الأب أيضًا قد شاهد الفيلم بنفسه، وبوضوح لنفس السبب كابنه، من أجل مناظر الإغراء الجنسية، وشاهدها بنهم للدرجة التي كان يقوم فيها بحساب عدد القبلات).

كانت شعبية فيلم أبي فوق الشجرة المستمرة غالبًا ما تعزو إلى أنه كان الفيلم الأخير للمطرب عبد الحليم حافظ. وكان عبد الحليم حافظ كبيرًا جدًا على تمثيل دور الصبي المراهق، ولكنه كان المطرب الأسطورة، وواحد من عمالقة الموسيقى العربية الحديثة، كما أن الفيلم حقق نجاحًا ساحقًا حتى قيل إنه أكثر الأفلام تحقيقًا للأرباح في تاريخ السينما المصرية حتى ذلك الوقت. كما كان عبد الحليم حافظ واحدًا من "الأبقار المقدسة" لدى وسائل الإعلام الرسمية. ويتلقى الإشادة فقط في العلن. ولم يكن موقف المشاهدين في العرض الذي حضرته؛ على أي حال، يتسم بالتوقير. وكانوا يتعاملون مع أبي فوق الشجرة بكثير من الابتذال على وجه التقريب. ونظرًا لحالة التقديس لعبد الحليم حافظ في وسائل الإعلام، فإن مظاهر عدم التوقير الذي كان يبديه هؤلاء الشباب الصغار يمكن وصفها بالهدامة إلى حد ما. وقد يكون من المبالغة أن نقول إنهم كانوا يسخرون من عبد الحليم حافظ، ولكن لن يكون من المبالغة أن نقول إنهم كانوا يسخرون من آبائهم (فمع ذلك، فإن عبد الحليم حافظ من جيل آبائهم). وتظل أغانيه محبوبة بصدق، ولا تزال كلمات أغانيه مطبوعة في أذهان الكثيرين. ويعتبر عبد الحليم حافظ رمزًا للحقبة الناصرية التي يشعر البعض بالحنين إليها، بينما يستخف بها البعض الآخر. ولكن الغالب أن امتهان عبد الحليم حافظ بواسطة هؤلاء الشباب هو نتاج الانفصال الحاد ما بين

آيات التقديس الإجبارية تجاهه من الثقافة الرسمية الخرقاء وبين عالمهم الخاص. وتعج الثقافة الشعبية بالصور الخيالية التي تحوي قصصًا عن الهروب مع فتيات جميلات، ولكن مؤسسات الثقافة الرسمية القوية لا يمكنها تضمين مثل تلك القصص في أغلب الأحيان، وتصر على أن تكون محترمة كفن.

وكان هذا الفيلم يتم عرضه في مكان صغير متهدم في شارع عماد الدين والذي يقوم في الغالب بعرض أفلام الكاراتيه. وقد حضرته في إحدى حفلات وسط الأسبوع التي تعرض في الساعة ٣,٣٠ مساءً، وهي من الأوقات الراكدة في حفلات السينما، في إحدى دور العرض الأول، وجلست في الصالة. وقد حضر عدد كبير إلى حد ما من المشاهدين يقترب عددهم من المائتين. وكانت الصالة مكتظة بأكملها بالشباب. وقد أثار دهشتي، نظرًا لسمعة الفيلم غير الطيبة، أن أرى بعض السيدات بين المشاهدين، وكما يبدو أنهن أمهات مع أطفالهن. فلا يمكن للمرء أن يصطحب معه ابنته ذات السنوات العشر لمشاهدة فيلم ذى سمعة غير طيبة، لذا فإنني كنت أخمن أن بعض الناس يأخذون الفيلم مأخذ الجد إما كرمز ثقافي، أو كموضوع للحنين للماضي – كفيلم أخير لمعشوق الجماهير عبد الحليم حافظ، أكثر منه "فيلم لألف قُبلة". ولا شك في أن عبد الحليم حافظ كانت له جاذبية رومانسية قوية للفتيات والسيدات على حد سواء. وسألني البائع في المرة الأولى التي سألت فيها عن شريط لعبد الحليم حافظ في محل لبيع شرائط الكاسيت وهو يبتسم ابتسامة عريضة، "هل أنت في حالة حب؟". وقيل لي بعدئذ إن عبد الحليم حافظ هو معشوق النساء بصفة خاصة. وكانت كل النسوة وأطفالهن، كالمعتاد في هذه الحالة، يجلسن في المقاعد مرتفعة الثمن، والتي كانت على أي حال، يمكن تمييزها بالكاد عن المقاعد رخيصة الثمن في دار السينما المتواضعة هذه.

جلس بعض الشباب في هذه المقاعد الرخيصة وهم يدخنون شيئًا يبدو وكأنه تبغ محشو بالمخدرات. وكلما استمر عرض الفيلم كلما تزايدت سخافة الشبان

الجالسين بجواري وأطلقوا لأنفسهم العنان. وكانوا يرددون أدوار الممثلين على الشاشة بابتهاج قبل أن يتم النطق بها على الشاشة، ويقومون بإبداء تعليقات ساخرة لبعضهم البعض على العديد من اللقطات في الفيلم. وكان سقوط عبد الحليم حافظ في أوحال الرزيلة مصحوبًا بالتعليقات السمجة من الصالة. وعندما بدأ القواد المُخنث يزود البطل بالخمور والحشيش، تعالت الأصوات الجذلة من الشباب المتناثر في المقاعد رخيصة الثمن من الصالة صائحة "ابسطه ! اعمله دماغ!"، والذين هم في تقديري كانوا يُعبرون عن أهوائهم الخاصة. وقبل أن تبدأ "رحلة المسير إلى الفسوق" مع الغانية كان المشاهدون ينصحون البطل بأصوات عالية "اذهب إلى لبنان"، والتي كانت تعتبر في عُرفهم مكانًا للفجور.

ويذكرنا هذا الشباب الأرعن الذي كان يشاهد أبي فوق الشجرة بصورة نمطية بالأفلام الرخيصة، والتي يكون فيها المشاهدون، مثلهم مثل بعض الأفلام، "سيئون" من الناحية الأخلاقية. وقد قيل، على سبيل المثال، إن بعض دور السينما تعمل كأوكار لالتقاط المثليين لبعضهم البعض. وقدم فيلم حديث يسمى "مرسيدس" دور السينما كأوكار للفسوق (مرسيدس نصر الله ١٩٩٣). ويصف فيلم مرسيدس حياة ابن غير شرعي لسيدة ثرية. ويبحث الفتى خلال معظم أحداث الفيلم عن أخيه غير الشقيق، والذي قيل له إنه من عشاق دور سينما الدرجة الثالثة. وعندما يتوجه إلى مثل ذلك المكان، فإنه يجد في انتظاره عالما غريب الأطوار من العصابات المتناحرة، والمثليين، وبائعي المخدرات، واللصوص في حمام دار السينما. وعلى خلفية مشاهد دار سينما الدرجة الثالثة، يعرض فيلم آخر وهو بئر الحرمان (الشيخ ١٩٦٩) – عن فتاة تعاني من انفصام في الشخصية، فتاة ليل في المساء، وفتاة عادية في الصباح. وفي لحظة من لحظات أحداث فيلم مرسيدس يهبط أحد أفراد عصابات المثليين بطريقة لا تصدق من خلال فتحة في سقف السينما بالحبال، وعلى نمط باتمان. ويرى كل من المشاهدين الحقيقيين، ورواد "دار سينما الدرجة

الثالثة" الخيالي في الفيلم المعروض في نفس الوقت، بطلة فيلم بئر الحرمان تظهر في الخلفية وهي تضع ماكياجها وشعرها المستعار (كمُخنث يُخفي حقيقته خلف مكياج ثقيل) استعدادا لليلة من ليالي البغاء. وعندما يغامر بطل فيلم مرسيدس بالدخول إلى دورة المياه بحثًا عن شقيقه، فإن رفيق شقيقه المِثلي يوسعه ضربًا وركلاً ثم يقوم بسرقة نقوده.

ولم يكن واضحًا للمشاهد، ما إذا كان هناك أي شيء مثل هذا يحدث عن بعد في مشهد عرض أبي فوق الشجرة. فقد كان جليًا أن بعض الشباب يتعاطون المخدرات، كما أن مجموعة الشلل المختلفة كانوا غارقين بألفة في تلك الأجواء، ولكن ليس كأكثر من أي مجموعة نمطية من الأصدقاء المعتادين في أي بقعة من القاهرة على وجه التقريب. وكان الموقع، مع ذلك، بعيدًا عن أن يبدو كأحط وأدنى ما يتعلق بدور السينما. وبعد أن شاهدت فيلم مرسيدس، قررت أن أشاهد فيلم في دار سينما رويال الجديد في شارع ٢٦ يوليو. ويقع هذا الدار خارج حي دور سينما الطبقة المتوسطة، رغم أنه يقع على بعد مرمى حجر منها – كما أنه أرخص كثيرًا حتى عن دور سينما العرض الثاني التي تقع في نطاق منطقة وسط المدينة. ولم تكن تجربتي فيه مماثلة لتلك التي صورتها في عرض فيلم مرسيدس. وقد أشار على كل شخص قلت له بأنني سأحضر عرضًا في هذا الدار، بألا أحمل معي الكثير من النقود على الإطلاق، وألا أذهب بمفردي. وهكذا وبجيوب شبه خاوية، وبرفقتي صديق لي حضرت حفلة لأربعة أفلام دفعة واحدة والتي تبدأ في الساعة العاشرة صباحًا في وسط أيام الأسبوع. وكان هناك فيلمان من الأربعة المعروضة من الإنتاج المصري وبدا أنهما من نفس نوعية بئر الحرمان الذي تم عرضه في فيلم مرسيدس. وكان الفيلم الذي تم عرضه هو "المرأة هي المرأة" (المرأة هي المرأة، بركات ١٩٧٨) – وهي هزلية ساخرة عن الخيانة الزوجية وتشترك فيه ممثلتان ممتلئتان.

ولأنني حضرت من قبل حفلات صباحية في دور سينما الطبقة المتوسطة، فقد توقعت أن أجد دار السينما خاوية على وجه التقريب، ولكننا بوغتنا بأننا ننطلق وسط رجال وصلوا قبلنا. وعندما اعتادت عيوننا على الظلام وبدأنا في رؤية ما حولنا وجدنا أن هناك زحاما إلى حد كبير داخل دار السينما. وكان معظم المشاهدين، وعلى غرار مشاهدي مرسيدس، كلهم من الرجال، ولكن كان هذا هو وجه الشبه الوحيد مع فيلم مرسيدس، وبدا أن متوسط أعمار المشاهدين في رويال الجديد أكبر بكثير سواء عن أعمار العصابات التي صورتها في مرسيدس أو فيما يتعلق بهذا الأمر، نمط تقليدي للمشاهدين في دار سينما من الدرجة المتوسطة. وكان معظم المشاهدين هنا تدور أعمارهم حول الثلاثينيات أو ربما أكبر من ذلك. وكان هناك القليل من الرجال يصحبون أولادهم، ولكن يبدو أن أغلبهم كانوا بمفردهم أو بصحبة أصدقاء لهم. وكانت السينما أقل صخبًا، كما لم تكن هناك تعليقات ساخرة. ولقد كان المشاهدون حقًا، مجموعة من أفضل المشاهدين اهتمامًا ممن شاهدتهم في دور السينما المصرية. وعلى الرغم من أنه كان هناك الكثير من الباعة الجائلين يقومون ببيع الشاي والساندويتشات أكثر من أي دار سينما متوسطة، فلم يكن هناك الكثير من الحديث بين المتفرجين. وكان الرجال مستغرقين في مشاهدة الفيلم بالفعل، فيلم قديم ومتهالك، (انقطع في العديد من المرات أثناء العرض وتطلب الأمر لصقه معًا). وظل المشاهدون يتقاطرون في الحضور أثناء العرض وحتى نهاية العرض الأول كانت ثلاثة أرباع المقاعد قد تم شغلها. والأمر اللافت للنظر (والمثير للإحباط أيضًا) عن دار سينما الدرجة الثالثة هذه، وكما وصفت مرسيدس مثل هذه الأماكن، أنها كانت تعج بالمراهقين الذين لا يجدون مكانًا آخر أفضل من ذلك ليذهبوا إليه.

دور السينما الراقية

كان المشاهدون في دور السينما الراقية في أوائل سنوات التسعينيات، يميلون إلى الشبه الشديد بتلك الأنماط البشرية الممثلة في الأفلام السينمائية عنهم عن مشاهدي دور سينما الطبقة المتوسطة. وكان ذلك صحيحًا وبصفة خاصة فيما يتعلق بالأزياء التي ترتديها النساء (غير محجبات). وفي الواقع كانت دور السينما نفسها تمثل نوعا من (حجاب طبقة)، والتي تقوم بحجب نفسها عن أنظار أولئك الناس الذين هم خارج مجتمع هذه الطبقة. وتغير الوضع بصورة واضحة منذ منتصف سنوات التسعينيات. وتزايدت أعداد دور السينما الراقية وغالية الثمن التي لا يمكن أن يؤمها العامة نسبيًا، في نفس الوقت الذي أغلقت معظم دور سينما قاع المجتمع أبوابها. وسيصف الكثيرون من هؤلاء الذين يؤمون هذه الدور الراقية بأنهم ينتمون إلى "الطبقة المتوسطة"، ولكنهم ينتمون إليها من حيث معايير العولمة[٢٠]. ويضعهم هذا من الناحية المادية في مركز مختلف تمامًا عن شرائح واسعة من المجتمع المصري الذين يعيشون صورة الطبقة المتوسطة، ولكن ليست الوسائل لتحقيق هذه الصورة. فالكثيرات من النساء في دور السينما الراقية يرتدين الحجاب الآن أكثر من اللاتي كن يفعلن ذلك في سنوات التسعينيات، ولكن الكثيرات يفعلن ذلك بطريقة شكلية، ويرتدين أطقم تشمل كل شيء من الجينز الأزرق إلى الملابس والأزياء الضيقة الملتصقة[٢١].

هناك تغيير أخر ذو مغزى مهم حدث عبر العقد الماضي هو تدفق الزائرين من دول الخليج مُشكلين جانبا كبيرًا من مشاهدي الأفلام في دور السينما الجديدة، وبصفة خاصة خلال أشهر الصيف. (انظر أباظة والششتاوي في هذا الكتاب لمعرفة مدى تأثر المراكز التجارية بأنماط الاستثمار والاستهلاك السائدة في دبي). وعلى الرغم من أن الزائرين لمصر من دول الخليج غالبًا ما يتم وصفهم

بالسائحين، فإن هذا الوصف المضلل يشير إلى وجود تكافؤ غير حقيقي بالسائحين الأوروبيين. فيقضي الكثيرون من الزائرين من دول الخليج فترات أطول بكثير في مصر عما يقضيه السائحون الغربيون(٢٢). فينفقون أموالهم بشكل مختلف – ليس في المواقع الأثرية أو البازارات السياحية، ولكن في أشياء مثل استئجار الخدم، والشقق السكنية، وبالطبع مجال الترفيه، بما في ذلك ارتياد دور السينما. وكان السائحون العرب من دول الخليج موجودون بالتأكيد في سنوات التسعينيات، ولكن ليس على مستوى الأعداد التي قدمت في سنوات بداية القرن الحادي والعشرين. كما أنه ليس هناك أدنى درجة من الشك في أن القيود التي وضعتها أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية على تأشيرات السفر إليها بعد أحداث هجمات الحادي عشر من سبتمبر قد لعبت دورًا في ارتفاع أعداد السياحة الخليجية إلى مصر. وكانت النتيجة انتعاشًا ملحوظًا في عمليات تشييد الفنادق الفاخرة والمراكز التجارية. واستفاد المصريون من حيث العمالة، ولكن من حيث الأغراض الاستهلاكية فإن معظم هذه المؤسسات الجديدة كانت بعيدة جدا عن متناول الغالبية العظمى من المصريين.

كانت دار السينما التي توجد أعلى مبنى الملحق التجاري رمسيس هيلتون في منتصف سنوات التسعينيات واحدة من الدور التي مهدت الطريق لانتعاش عملية تشييد دور السينما الجديدة. وتوجد هذه الدار على مشارف حي وسط المدينة الذي أتحدث عنه، وهو حي بولاق. وشُيدت دار سينما رمسيس هيلتون وتحديد أسعار تذاكر الدخول بحيث تقوم بإقصاء كافة شرائح المجتمع فيما عدا الأثرياء منهم. (انظر غنام في هذا الكتاب لمناقشة لخطط السادات لتحويل قاطني هذه الأحياء القديمة، من أجل إخلائها لتشييد الفنادق الفاخرة والمباني الحكومية الجديدة). وقد بلغت أسعار التذاكر في سنوات التسعينيات من ٧،٥ – ٢٠ جنيهًا

للتذكرة (وقد ارتفعت التذاكر عن ذلك بعدئذ)، وتعتبر باهظة جدًا لمعظم الناس الراغبين في ارتياد دور السينما. وهي تقع أعلى جراج للسيارات، ولذا فيمكن للفرد أن يذهب إليها بسيارته، ويصل إلى أعلى المبنى عن طريق المصعد، ثم يغادرها بنفس الطريقة وبدون أن يضطر إلى أن يكون في الشارع مع عامة الجماهير.

ويعتبر معظم المشاهدين الين يرتادون دور السينما الراقية من المتحدثين باللغة العربية. وكان القسم الأكبر من المشاهدين، وحتى في سنوات التسعينيات هم الزائرون من مواطني دول الخليج أو المصريين الذين عملوا هناك. ويكون هذا الاتجاه ملحوظًا بشدة في أشهر الصيف عندما يقوم الكثيرون من عرب الخليج بزيارة مصر. ويتوافق تواجد أعداد كبيرة من غير المصريين في أغلى دور السينما (وأفضلها من حيث جودة نوعية الصوت والصورة)، مع المفهوم السائد وعلــى نطــاق واســع أن كل بضائع وخدمات الدرجة الأولى في البلاد مخصصة للأجانب.

وتقع دور السينما الراقية في حقيقة الأمر، مثلها مثل دور السينما المتواضعة في مناطق التخوم من الناحية المكانية بالنسبة لمنطقة حي دور السينما في وسط المدينة. وبالمثل فإنها وعلى نفس خطى دور السينما المتواضعة، فإن دور السينما الراقية تميل إلى عرض الأفلام الأجنبية في الغالب (وبالذات أفلام الغرب الأمريكي). ومع ذلك، فإن الأفلام التي يتم عرضها في دور السينما الراقية تكون عمومًا أول عرض لها، على الأقل في مصر.

جريدة السينما الإخبارية

هناك عنصر مهم كان يتم تقديمه في دور سينما الطبقة المتوسطة في سنوات التسعينيات ولا يوجد مثيل له في دور سينما الضواحي، سواء تلك

المتواضعة رخيصة الثمن في قاع ألوان الطيف الاقتصادية، أو تلك الراقية ومرتفعة الثمن، وهي جريدة الأخبار المرئية بالسينما (يبدو أن هذا التقليد قد طواه النسيان مع بداية عام ٢٠٠٠ وما بعده). وكانت نشرة الأخبار السينمائية أداة ممتازة لتصوير كيف أن الطبقة المتوسطة يمكن أن تنغمس في سلوكيات تخريبية تُذكرنا بأنماط السلوكيات غير اللائقة لمشاهدي السينما والسابق ذكرها، في نفس الوقت الذي يشاهدون فيه فيلمًا سينمائيًا محافظ المحتوى.

وقد شاهدت نشرة الأخبار السينمائية في دار سينما في منطقة وسط المدينة. وهي تركز في الغالب على أنشطة الرئيس – وفي بعض الأحيان بعض المسئولين التابعين أو المؤتمرات التي ترعاها الحكومة- وغالبًا ما تتم صياغتها في قالب يسهل التنبؤ به، وتتسم بالرتابة البالغة، وتقوم بالتركيز على الإيجابيات بطريقة بدائية، وبنمط وثائقي. وتقوم بتقديم حسني مبارك وهو محاط بزخارف السلطة ومجتمع بمختلف كبار الشخصيات المرموقة. وغالبًا ما يقوم التليفزيون المصري، الذي يصل إلى شريحة أكبر من الناس، بإذاعة نفس اللقطات (ولا يزال يستمر في إذاعتها) في نشرات الأخبار المسائية. وعلى الرغم من ذلك، فقد دأبت الحكومة في سنوات التسعينيات على الاستمرار في تقليد إذاعة نشرة الأخبار السينمائية في دور العرض السينمائية.

وبالنسبة لي، واحدة من النشرات التي لا تنسى ويتم إذاعتها قبل عرض الفيلم ويدعى فيلم تياترو الباشا (ملهى الباشا الليلي، إريان ١٩٩٤). وقيل إن الفيلم حافل بالبهارات الجنسية، ولذا فقد بيع ما يقرب من ٩٠% من تذاكر الحفل للشباب وصغار المشاهدين (حفلة يوم الخميس الساعة ٩,٣٠ مساءً – وهو يوم نهاية الأسبوع في مصر)، (ويمكنني أن أُقدر أعمارهم بمتوسط ١٧ عامًا على وجه التقريب). وكان الحشد صاخبًا. كما كان هناك الكثير من الصراخ عبر ردهة السينما، ونهم شديد للتدخين على الرغم من التحذيرات الإرشادية التي يتكرر

عرضها بمنع التدخين. ولكن قبل أن يبدأ عرض تياترو الباشا فقد عرضت علينا نشرة الأخبار السينمائية رحلة الرئيس حسني مبارك إلى الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا. وقد كان العرض سيئًا لدرجة أنه كان ينبغي على المرء أن يقوم بتبني الفكرة غير المحتملة بأن الحكومة قد قامت ببحث شامل ودقيق عن أسوا مخرجي الأفلام، ثم عهدت إليه بمهمة تقديم الرئيس المصري إلى الشعب. وعلى الرغم من أن الرحلة قد تمت في ذلك الأسبوع، فإن الفيلم يبدو وكأنه قد تم تصويره على فيلم قديم متهرئ لدرجة أنه كان يبدو أحمر ومحبب، كما لو كان قد تحلل في أرشيف سيئ الصيانة.

كانت الخلفية الموسيقية المرافقة لنسخة أغنية فرقة "بي جيز": "كم هو عميق حبك"، على الجزء الخاص بواشنطون في نشرة الأخبار السينمائية، وتقول مذكراتي التي كتبتها في نفس ليلة العرض بينما كان العرض لا يزال طازجًا في ذاكرتي، وقد وصفتها بقولي: تناغم سيىء: بي جيز؟ وكخلفية موسيقية يتم عزفها بينما الرئيس منهمك في مقابلة مع لويد بينتسين، و(السيناتور) بول سيمون (بالزي الرسمي الكامل وبرباط عنق الفراشة)(٢٣). وكان يتم عزف نفس الموسيقى في كل مرة يقابل فيه حسني مبارك مسئولا مختلفا، وتستدير الكاميرا لتوجه إلى مصباح غازي أو إلى صورة رديئة لمبنى يرفرف عليه علم، يفترض أنها السفارة المصرية. وكان الجزء الخاص بفرنسا أفضل قليلاً: فقد كانت الموسيقى المصاحبة هي نسخة من لويس أرمسترونج "يا له من عالم عجيب"، وكان يتم تسليط الكاميرا بين ظهور مسئول وآخر إما على باقة من الزهور، أو على جندي فرنسي قبيح المظهر يرتدي ما يشبه أزياء القرن الثامن عشر.

أما الشيء المدهش بالنسبة لنشرة الأخبار السينمائية فلم يكن فقط عدم كفاءة الفيلم نفسه، ولكن قرار عرضه في دار للسينما يكتظ بالمراهقين المشحونين

بهرمون الإثارة. ويتم بث نفس المواد الدعائية كل يوم على شاشة التليفزيون. وكنت غالبًا ما أكون جالسًا في بيوت آخرين حينما تمخضت نشرة الأنباء المسائية عن لقطات مماثلة للرئيس وهو يصافح المسئولين. ويتم تجاهل مثل هذا الحشو عند مشاهدة التليفزيون، أو يتم تغيير القناة ببساطة شديدة. ولكن عندما يتم عرض هذه اللقطات المزرية عن مقابلات الرئيس مع رجال الكونجرس الأمريكي والمسئولين الفرنسيين قبل عرض الفيلم في "ملهي الباشا" – وهو الفيلم الذي اختاره المشاهدون ودفعوا نقودًا من أجل رؤيته فإن نشرة الأخبار السينمائية لم يتم تجاهلها بالتأكيد. وبدلاً من ذلك فإن أربعمائة من الفتيان المراهقين صاحوا صيحات الاستهجان والاستهزاء لما يقرب من عشر دقائق كاملة. وفقط عندما بدأ عرض الفيلم خمد الضجيج. وسواء كان ذلك عن قصد أم لا، فإن ما حدث من هؤلاء المراهقين أثناء نشرة الأخبار السينمائية هو نوع من التنفيس عن البخار المكتوم للشباب من المشاهدين وأن يخرجوا ما لديهم عن نظام الحكم لفترة عشرة دقائق وذلك حتى يمكنهم أن يحتفظوا بسلوك مناسب ومحترم عندما يكون الأمر مؤثرًا.

أفلام الجاسوسية

في أي تحليل للمشاهدة، فإن محتوى الفيلم أمر له شأنه. ويختار الناس ما يشاهدونه على عكس التليفزيون، حيث يكون عنصر الاختيار غير واضح بحكم تدفق الصور المرئية. وبالتالي، فإن استقبال فيلمين من أفلام الجاسوسية في عام ١٩٩٤ كان موحيًا بجلاء. وبينما تكشف نشرة الأخبار السينمائية الانفصام الواضح بين محاولات الدولة لإسباغ الشرعية على نفسها من خلال المحاولات الدعائية والطريقة التي يستقبل بها المشاهدون هذه الرسالة، فإن ردود الأفعال تجاه أفلام الجاسوسية كانت أكثر غموضًا. وكانت عناوين الأفلام هي "كشف المستور"

(عاطف الطيب ١٩٩٤) و"حكمت فهمي" (مصطفى ١٩٩٤). وكلا الفيلمين عن النساء الجاسوسات، كما أن الممثلتين اللتين لعبتا الدور في كل من الفيلمين معروفتان بأدوارهما الجنسية المثيرة(٢٤). وكلتا السيدتان ظهرتا في أدوار وطنية. وكان تمثيلهما للدولة مُعترضًا عليه كليةً. وكان موضوع الفيلمين عن استخدام الجنس في التجسس، ولكن فيلم "كشف المستور" كان يصور حكومة مصرية مخادعة، بينما كانت "حكمت فهمي" تقوم بدور بطولي ضد المحتلين الأجانب.

وقد عالج فيلم "كشف المستور" موضوع الفساد المستشري والمستمر في الحكومات المصرية المتتالية، حيث يدعي الفيلم تجنيد السيدات للتجسس على أعداء مصر عن طريق معاشرتهن للدبلوماسيين الأجانب. الوسائل قذرة بكل تأكيد، ولكن السيدات يقال لهن دائمًا عن طريق من يجندونهن أن الغايات التي يسعين إليها نبيلة. وعلى الرغم من الجدارة المزعومة للقضية، فإنه يتم ابتزاز السيدات لإجبارهن على خدمة الحكومة عن طريق تسجيل ما يدور في غرف نومهن على شرائط فيديو: وطالما كانت هذه الشرائط موجودة في حوزة الحكومة فإنها مُرغمة على الاستمرار في العمل تحت إمرة الدولة.

وحتى الآن، لا يزال يصور التهديد الواقع على مصر عن طريق الأجانب كحقيقي تمامًا. والحكومات التي يتم التجسس عليها عن طريق هؤلاء النسوة هم عرب وليسوا غربيين. ويتردد صدى ذلك مع الانتقادات المحلية لنفوذ عرب الخليج، وتباينت بشكل ملحوظ مع الزيادة في الوجود الخليجي منذ ذلك الوقت وحتى الوقت الحاضر. ويحمل الكثير من العامة معتقدات عن السلوكيات غير الأخلاقية لعرب الخليج في مصر(٢٥). كما يصور الفيلم جماعات من الأصوليين في ترابط مع الرأسمالية العالمية. ويعتبر فيلم "كشف المستور" مناهضًا للحكومة، ومناهضًا للأصولية، ولكنه يتصف بالصبغة الوطنية في نفس الوقت. واكتسح الفيلم

بسهولة أطول فترة عرض لفيلم في صيف عام ١٩٩٤. ومن الصعب معرفة ما إذا كان ذلك بسبب عدائه للأصولية، أو مناهضته للحكومة، أو الخط الوطني الذي ينهجه الفيلم، أو الجاذبية الجنسية لبطلة الفيلم. وقد ذكر لي أحد اليساريين أن الفيلم مثير للاهتمام، ولكن الرسالة التي يريد أن يقوم بتوصيلها قد تم تحطيمها بواسطة الرقابة غير الناضجة على الأفلام. وسخر الآخرون من الهراء الذي تتكالب عليه الجماهير لمشاهدة الفتاة الصغيرة الممتلئة ذات المواهب الجنسية وهي تلعب دور غانية الحكومة. ومع ذلك ففي المرتين اللتين حضرتهما لمشاهدة الفيلم، فإن المشاهدين كانوا يشملون أعدادا أكبر من النساء والأسر، مما يوهن الفرض القائل بأن جاذبية الفيلم قائمة بأكملها فقط على الجاذبية الجنسية للبطلة(٢٦).

أما فيلم "حكمت فهمي" فهو أكثر فجاجة ويصور محاولات الوطنيين المصريين، بمن فيهم الرئيس المصري السابق أنور السادات، التجسس على المحتل البريطاني لحساب النازي في الحرب العالمية الثانية. ومرة أخرى، فإن البطلة هي سيدة تقوم بالتجسس على الأعداء من خلال استغلال ملكاتها الجنسية(٢٧). والعدو (وهو بريطانيا هذه المرة) فاسد تماما. وعلى العكس من فيلم "كشف المستور"، فإن هذا الفيلم لا ينتقد الحكومة المصرية، على الرغم من أن العديدين من أعضاء الحكومة قد تعاونوا مع الاحتلال البريطاني. ويقوم الفيلم بتقديم السادات كوطني متعفف يعارض في البداية استخدام سيدة يحتفظ بها جنرال بريطاني في أعمال الجاسوسية. ويشعر بالدفء تجاهها لاحقا، وتشعر هي أيضا بالميل إليه. حتى إنها تقوم بمغازلته قائلة:

حكمت: هل أنت متزوج يا أنور؟

أنور: نعم.

حكمت: وتحب زوجتك؟

أنور: نعم، ويا ليتها فقط تحبني كما أحبها. هل تعلمين مــن هي يا حكمت؟ إنها مصر.

وقد ذكر أحد المعلقين أن دور السادات أثار ضحكات مدوية من المشاهدين (أمين ١٩٩٤، ١٣٤). وكان ذلك صحيحًا في الواقع في العرض الذي حضرته. وكانت الضحكات التي تعالت في فيلم حكمت فهمي متوافقة مع رد فعل المشاهدين لنشرة الأخبار السينمائية، وللروح العامة لكشف المستور، وانتهى فيلم حكمت فهمي بالقبض عليها وتعذيبها بواسطة البريطانيين. وقد رفضت أن تكشف لهم عن تورط السادات. وتقوم فرقة من الكوماندوز المصرية بالهجوم على فرقة عسكرية بريطانية على وشك تنفيذ حكم الإعدام في حكمت فهمي(٢٨).

وعلى الرغم من أن الفيلم هراء تاريخي، وقامت ببطولته ممثلة لقيت الكثير من السخرية على نطاق واسع لضعف أدائها التمثيلي، وبصرف النظر عن الحوار الدعائي، الذي لقي ازدراءً علنيًا من المشاهدين، فإن المشاهدين هللوا بشغف وفرح عندما قامت قوات الكوماندوز المصرية بإنقاذ "حكمت فهمي" وإلقاء العلم البريطاني على الرمال. وكان فيلم حكمت فهمي هو الوحيد من الأفلام التي حضرتها، سواء المصرية أو غيرها، الذى غادر فيه المشاهدون دار السينما وهم يترنمون بالنشيد الوطني كلمة فكلمة.

خاتمة

أكدت الثقافة السائدة مرارًا على التأثير الحضاري للفن السابع لفترة ليست بالقصيرة. وعرضت مجلة المنوعات المصرية "الإثنين" العملية في سياق تعليم الصغار كيفية مشاهدة الأفلام فقالت:

> **أتاحت وزارة الشئون الاجتماعية الفرصة لأطفالنا أن يتزودوا بالثقافة السينمائية التي تعني بها الدول الأوروبية عناية كبيرة. وقد أقيمت أولى هذه الحفلات في سينما ديانا في الأسبوع الأسبق. وقد حضر عدد كبير من أطفال مدارس رياض الأطفال وطلبة المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية، وكان الصغار منهم مصحوبين بآبائهم وأمهاتهم. وقد صحبتهم كاميرا مجلة الإثنين في هذه الحفلة والتقطت لهم هذه الصور الطريفة في أثناء مشاهدتهم البرنامج السينمائي الثقافي. ("أطفالنا في السينما" ١٩٤٠، ٢٢).**


أطفالنا فى السينما

أطفالنا في السينما، عن مجلة الإثنين (عدد ٨ يناير ١٩٤٠ ٢٢-٢٣).

وقد وثقت هذه الصور الطريفة الحدث المشار إليه. وتقول إحدى تعليقات هذه الصور "تُرى ما هو السبب؟" وتظهر في الصورة أم ومعها أطفالها الأربعة، اثنتان من الأطفال تجلسان على مقعد واحد، إحداهما على قدمي شقيقتها. وقالت المجلة في التعليق الملحق بالصورة: "هذه الأم الوقور اصطحبت فتياتها الأربع للحفل، وقد جلست إحداهن على يسارها، والباقيات إلى يمينها، إلا أن واحدة منهن قد جلست فوق قدمي شقيقتها على مقعد واحد. ترى هـل كان ذلك بدافع الاقتصاد أو لعد وجود مقعد رابع خال؟" ("أطفالنا في السينما" ١٩٤٠، ٢٢). وركزت عدسة مجلة الإثنين في معرض هدفها التعليمي على تجاوز النظام، وإن كانت لقطة ذكية تدعو للإعجاب. وركزت الصحيفة في مقالها ككل للترويج للمحافظة على للنظام. كما وصفت لقطة أخرى الطريقة الصحيحة لمشاهدة فيلم، وأظهرت مجموعة من الأطفال (كل في مقعده) وهم يراقبون باهتمام. ويعلن العنوان المرفق بالصورة "كأنهم أسرة واحدة"، ويقول الشرح المرفق بالصورة: "ازدحمت قاعة العرض بآلاف الطلبة مع آبائهم وأمهاتهم، والكبار يشرحون للصغار ما يشاهدون بقدر ما يستطيعون، وبين هؤلاء وهؤلاء جلست بعض الخادمات نائبات عن الأمهات اللواتي لم يكن يعرفن أن الأفلام السينمائية الثقافية غير مشروحة باللغة العربية" ("أطفالنا في السينما" ١٩٤٠، ٢٣).

ويتواجد هدف المجددون من مشاهدة منظمة ورصينة، عادة مع الإدانة الغاضبة لهيمنة مشاهدي الطبقة الدنيا على دور السينما (فريد ١٩٨٨، ١٣). ولكن نادرًا ما يتفق ما يفعله جمهور المشاهدين عندما تخفت الأضواء مع التشريعات الرسمية. وتعتبر المواعدات شبه المشروعة، والسخرية العلنية من الصور الرسمية للمسئولين، وإبداء الإعجاب الصريح بالأفلام الهندية المبتذلة، والعلاقات المثلية، والقراءة الخاطئة عن عمد للأبقار المقدسة من الأجيال الأكبر سنًا، مخالفات للنظام العام. وتعتبر كل هذه السلوكيات أعمال تمرد صغيرة، ولكن تشكل في مجملها

شكلا من أشكال تخصيص المكان العام لمجموعة عابرة وبالتحديد شباب الرجال. ويعتبر تمثيل الشباب كفئة عابرة في جوهره أمرا جديدا. وكان الحد الفاصل بين الطفولة والبلوغ في المجتمعات المتخلفة هو الزواج، ولكن انتشار التعليم وطول الفترة التي يستغرقها خلقت الحاجة إلى فئة وسيطة للشباب. وكفئة اجتماعية فإن فترة الشباب مرتبطة عضويًا بالمدرسة. ويجب أن تنتهي فترة الشباب مع انتهاء الدراسة. فالمدرسة هي التي تقوم بتشكيل الشباب كفئة اجتماعية حديثة. وبينما تشكل المدرسة جانبًا فقط من اليوم في حياة الشباب. فإن الأوقات الخالية من الدراسة هي أوقات حرة، ولكن هذه الأوقات الحرة تحمل في طياتها عناصر خطرة. وهناك الكثير من أنواع الاستراتيجيات الاجتماعية التي يمكنها أن تقوم بشغل أوقات الفراغ هذه بأنشطة بناءة. وكان يُنظر إلى الأفلام السينمائية والتليفزيون كأنشطة تثقيف محتملة، على الرغم من أن الكثيرين من الصحفيين، ورجال التعليم، والمصلحين الاجتماعيين عبروا عن عدم رضائهم نهائيًا عن هذه الوسائل الإعلامية لكونها لا تؤدي رسالتها على الوجه اللائق.

ولكن مشكلة قضاء أوقات الفراغ في العصر الحديث تستحوذ على أهمية أعظم في سياق الامتداد الطويل لحقبة الشباب. ويجب أن تنتهي فترة الشباب بالزواج، ولكن الزواج بالنسبة للكثيرين من الشباب في دور سينما منطقة وسط مدينة القاهرة هو حلم بعيد المنال. وغالبًا ما كان يطرق الأسماع إبان سنوات الثمانينيات والتسعينيات الشكوى المريرة بأن شباب الحرفيين بسلوكياتهم الخرقاء قد أدوا إلى ابتعاد المجتمع الذي كان يتميز بالسلوكيات المُهذبة (بمن فيهم، النساء، كما يجب أن يقال) بعيدًا عن دور السينما. ولكن من يُعتقد أنهم "الحرفيون" في كل دور السينما التي قمت بارتيادها على وجه التقريب في منطقة وسط المدينة يبدو أنهم وعلى نحو مريب تلاميذ. ويعتبر تزايد أعداد الشباب من المشاهدين الذين يرتادون دور السينما ظاهرة عالمية، غير أنه في مصر تتردد آثارها بطريقة لا مثيل لها.

وتم تهميش الشباب المصري منذ سنوات السبعينيات مرتين: أولاً من الناحية الهيكلية، من واقع موقعهم الذي يضعهم ما بين الطفولة والبلوغ؛ ومرة ثانية، بإطالة فترات شبابهم إلى أجل غير مسمى نظرًا للظروف الاقتصادية وصعوبة دخولهم إلى الحياة الزوجية. فالكثير من الرجال من أولئك الذين يرتادون دور السينما ليست لديهم فرصة حقيقية للزواج قبل بلوغهم سنوات الثلاثينيات. وتخلق هذه الحقيقة توترات واضحة عندما يكونون قلة اجتماعية يحظر عليهم التفاعل مع الجنس الآخر. ويجب أن ينظر إلى استباحة هؤلاء الشباب المُهمشين لدور السينما في هذا السياق. وقد شكل استيلاؤهم على دور السينما في سنوات التسعينيات "انتصارًا للشباب"، وفي سنوات العمر المُبكرة كان هذا هو شعار الأمل(٢٩). ولكنه كان انتصارًا باهظ الثمن في سنوات التسعينيات. وكانت دور السينما نفسها تغلق أبوابها على نحو متزايد، كما أن دور السينما الجديدة التي يتم افتتاحها في المراكز التجارية والفنادق لم تكن بالتأكيد لشباب وسط مدينة القاهرة. وبدلاً منهم فإنه كان يتم افتتاحها للزائرين من دول الخليج، ولطبقة من المجتمع كان في مقدورها الوصول إلى مستويات المعيشة العالمية. ولا شك في أن هؤلاء الشباب سيجدون لأنفسهم أماكن عامة جديدة تلبي حاجاتهم الخاصة، ولكنه يبدو وبلا شك من الصعوبة المتزايدة بمكان بالنسبة لهم أن تخصص لهم أماكن عامة للشباب والفتيات على حد سواء. ويتم دفع العالم الخيالي من التفاعل الحر والذي يتم تصويره على شاشة السينما إلى الشاشة الفضية الصغيرة، حيث تتضاعف صور التفاعل غير المصرح به بين الشباب من الجنسين في أغنيات الفيديو والإعلانات. ولكنهم يفعلون ذلك تحت رعاية العيون الساهرة للكبار بدلاً من المقاعد الخلفية المظلمة شبه الخاصة في دور السينما.

الأعمال المُستشهد بها

Works Cited

Amin, Nura. 1994. "Hikmat wa-Anwar." *Adab wa-naqd* 109. September: 131–34.

Armbrust, Walter. 1994a. "Plastic and Vinyl." *Al-Ahram Weekly*, 15–21 September: 9.

———. 1994b. "Take One, Take Two." *Al-Ahram Weekly*, 30 June–6 July: 8.

"Atfaluna fi-l-sinima." 1940. *al-Ithnayn* 291. January 8: 22–23.

Cooper, Artemis. 1989. *Cairo during the War: 1939–1945*. London: Hamish Hamilton.

Farid, Samir. 1988. *Huwiyat al-sinima al-'Arabiya*. Cairo: Dar al-Farabi.

El Guindi, Fadwa. 1999. *Veil: Modesty, Privacy and Resistance*. Oxford: Berg.

Ghosh, Amitav. 1993. *In an Antique Land*. New York: A.A. Knopf.

Husayn, Nasir. 1992. "Haribat min gannat Salah Nasr." *Ruz al-Yusuf* 3348. August 8: 47–49.

"Isma' ya bey, isma'i ya hanim." 1934. *al-Ithnayn* 1: 38.

Macleod, Arlene. 1991. *Accommodating Protest: Working Women, the New Veiling, and Change in Cairo*. New York: Columbia University Press.

Mahfouz, Naguib. 1956. *Bidaya wa-nihaya*. Cairo: Dar Ruz al-Yusuf.

Filmography

Abi fawq al-shajara ('My Father is up the Tree'). 1969. Husayn Kamal. Cairo: Sawt al-Fann.

Bi'r al-hurman ('Insatiable'). 1969. Kamal al-Shaykh. Cairo: Ramsis Nagib.

Bidaya wa-nihaya ('A Beginning and an End'). 1960. Salah Abu Sayf. Cairo: Dinar Film.

Hikmat Fahmi. 1994. Husam al-Din Mustafa. Cairo: Amandinku.

Intisar al-shabab ('Victory of Youth'). 1941. Ahmad Badr Khan. Cairo: Studio Misr.

Kashf al-mastur ('Exposing the Hidden'). 1994. Atif al-Tayyib. Cairo: Osiris Film.

al-Mar'ah hiya al-mar'ah ('Woman is Woman'). 1978. Henri Barakat. Cairo: Aflam Barakat.

Mirsidis ('Mercedes'). 1993. Yusri Nasrallah. Cairo: Aflam Misr al-'Alamiya.

Tiyatru al-Basha ('The Pasha Nightclub'). 1994. Tariq al-'Iryan. Cairo: Aflam Riyad al-'Iryan.

قائمة الأفلام السينمائية:

١- أبي فوق الشجرة، ١٩٦٩. حسين كمال. القاهرة. صوت الفن.

٢- بئر الحرمان ١٩٦٩. كمال الشيخ. القاهرة. رمسيس نجيب.

٣- بداية ونهاية. ١٩٦٠. صلاح أبوسيف. القاهرة. دينار فيلم.

٤- حكمت فهمي. ١٩٩٤. حسام الدين مصطفى. القاهرة. أماندينكو.

٥- انتصار الشباب. ١٩٤١. أحمد بدرخان. القاهرة. ستديو مصر.

٦- كشف المستور. ١٩٩٤. عاطف الطيب القاهرة. أوزوريس فيلم.

٧- المرأة هي المرأة. ١٩٧٨. هنري بركات. القاهرة. أفلام بركات.

٨- مرسيدس. ١٩٩٣. يسري نصر الله. القاهرة. أفلام مصر العالمية.

٩- تياترو الباشا. ١٩٩٤. طارق العريان. القاهرة. أفلام رياض العريان.

الهوامش

١- تستند الدراسة التحليلية التي أقوم بها على الأفلام التي قمت بمشاهدتها في دور السينما منذ بواكير سنوات التسعينيات وحتى منتصفها، برفقة أصدقاء من المصريين، وفي بعض الأحيان مع أجانب، وفي بعض الأوقات بمفردي، ومنذ ذلك الحين تبدلت الكثير من آليات مشاهدة الأفلام، وقضاء أوقات الفراغ على وجه العموم. وساقوم بمناقشة بعض هذه التغييرات، ولكن يظل مركز الجاذبية التاريخية لهذا التحليل هي للفترة من أوائل سنوات التسعينيات وحتى منتصفها.

٢- قدم لي هذا الانطباع أرتيمس كوبر، والذي قال: "إن محل جروبي كان واحدًا من الأماكن القليلة التي كانت مفتوحة لكل شخص (الضباط الإنجليز، والرجال المجندين، والمصريين – على الرغم من أن أسعاره لم تكن رخيصة، ولذا كان أغلب العملاء من الضباط" *Cooper 1989, 120-21*. وهناك صورة أخرى لمحل جروبي يمكن أن تجدها في مجلة الإثنين، حيث تقدم نصيحة ساخرة للزوج تقول: إذا ما اصطحبت السيدة إلى السينما.. فلا تعرها أي انتباه. ب. إذا ما اصطحبت معك ضيوفًا... توقف عند محل جروبي (اسمع يا بك، اسمعي يا هانم" ١٩٩٤).

٣- أضحى كل من عزيز عيد، ونجيب الريحاني من أشهر الممثلين والمخرجين على خشبة المسرح، والأخير في كل من المسرح والسينما.

٤- مازالت منطقة وسط المدينة، وإلى حد ما مركزا للجاذبية السياسية. فتوجد فيها العديد من الوزارات المهمة، كما تظل منطقة وسط المدينة ملاصقة للبرلمان، وعدد قليل من السفارات. ولكن هذا الأمر يمكن أن يتغير أيضًا. فسوف تنتقل الجامعة الأمريكية بالقاهرة – وهي المؤسسة التي تتقاطر عليه النخبة السياسية بشكل متزايد، إلى مقر جديد في أطراف مدينة القاهرة عام ٢٠٠٧، ويعود ذلك جزئيًا إلى نفور جموع الطلاب من وسط مدينة القاهرة. بالإضافة إلى ذلك، فإن لامركزية الوظائف الحكومية غالبًا ما كانت هدفًا للحكومة، على الرغم من أنها لم تحقق تقدمًا يستحق الذكر. ويمكن أن يكون رحيل الجامعة الأمريكية بالقاهرة نذيرًا بتسارع تدهور النفوذ السياسي لمنطقة وسط المدينة.

٥- غالبًا ما تجتذب الحيوية الثقافية للبوهيميين في الحضر رأس المال، والذي يؤدي بطريقة متناقضة إلى رفع الأسعار وتدفع الحيوية في أرجاء الحي الذي يصبح أكثر جاذبية في المقام الأول. وإلى هنا اجتذب قلب المدينة الدراسة، وعلى الأقل استثمارات المضاربة. وهذا هو معرض الفن (آرت جاليري) لمنازل الأرستقراطيين في وسط المدينة، بجوار الشمال الغربي لميدان طلعت حرب. ويدعم منازل الارستقراطيين في وسط المدينة عن طريق منظمات المجتمع المدني أكثر من رأس المال الخاص، ولكن مستوى النجاح لمعرض الفن لن يتغير: وهو بالتحديد لجذب العملاء الذين يدفعون للشراء، هؤلاء العملاء الذين قد لا يختلطون بالمفكرين الذين يداومون على الحضور للبارات والمقاهي القريبة. وعلى الرغم من ذلك، من المحتمل أن منازل الأرستقراطيين في وسط المدينة لم يكن لتكتب لها الحياة لولا دعم منظمات المجتمع المدني، وعلى الإجمال فيبدو أنه من غير المحتمل أن تجتذب المنطقة نوعية الاستثمارات التي تقوم برفع الأسعار إلى الدرجة التي تنشر الشخصية شبه البوهيمية في المنطقة.

٦- يمكن أن يستخدم المرادف المعتاد للكلمة العربية "صاحبي" التي تقولها المرأة أو "صاحبتي" التي يمكن أن يقولها الرجل عرضيًا أو ببراءة، ولكنها لا تعني الكلمة الإنجليزية الخليل أو الخليلة للرفيق من الجنس الآخر. المعنى الاجتماعي المرادف للكلمتين الإنجليزيتين هما العشيق أو العشيقة للدلالة على علاقة حب تخلو من الشرعية الاجتماعية.

٧- هناك على سبيل المثال مطعمان من مطاعم جروبي المتهالكة، وإثنتن لأمريكانا، وواحد لإكسيلسيور، وآخر لكورسال. كل منها مرتفع الأسعار نسبيًا – جنيه أو أكثر لكوب الشاي – ولكنها مطاعم آمنة لسيدات الطبقة المتوسطة المصاحبات للرجال ولا ترتاد النساء المقاهي بصفة منتظمة، والتي تقدم الشاي والقهوة بصفة أساسية بما يعادل ٥٠ قرشا (راجع الفصل الخاص بالباحث دي كونينج لمناقشة أكثر استفاضة للمقاهي الراقية المنتشرة في القاهرة، والتي تجتذب نساء الطبقة المتوسطة).

٨- نُشرت الرواية في عام ١٩٥٠، وتحولت إلى فيلم سينمائي في عام ١٩٦٠، وكانت الرواية الأولى لنجيب محفوظ التي يتم تحويلها إلى فيلم سينمائي (محفوظ ١٩٥٦؛ لتمييزها عن العديد من سيناريوهات الأفلام التي كتبها خصيصًا للسينما بحلول عام ١٩٦٠).

٩- هناك النذر اليسير من الإحصائيات التي تدل على الأرقام الفعلية لمرتادي دور السينما. ومع ذلك فهناك استقصاء عن تفضيلات الطلاب بالنسبة لأنشطة أوقات الفراغ نُشرت نتائجه في عام ١٩٨١ وأسفر عن النتائج التالية: ٦٤،٦٣% يذهبون إلى السينما "أحيانًا"؛ أولئك الذين يذهبون إلى السينما "غالبًا" كانوا يمثلون ٢٤،٣٣%؛ وأجاب ١١،٠٤% منهم بأنهم "أبدًا" لم يذهبوا إلى السينما؛ وأجاب ٤٥،٧٤% بأنهم يذهبون للسينما مرة واحدة كل شهر؛ بينما أجاب ٣١،٤٥% بأنهم يذهبون للسينما مرتين شهريا؛ ٢٢،٨١% ثلاث مرات شهريًا (محمد ١٩٨١، ٣٠٦). ولم توضح هذه الإحصائية أعداد الشباب والفتيات في الاستقصاء. وكانت عينة البحث تبلغ ٣،٧٩٣ فرد منهم ٦٧،٤٥% من الشباب؛ متوسط الأعمار في العينة كان ٢٢ سنة؛ ٩٠،٣٦% كانوا مسلمين (والباقي من الأقباط المسيحيين)؛ ٨٤،١٧% كانوا من سكان المناطق الحضرية؛ ٩،٢٩% من المناطق الريفية؛ ٦،٥٤% من مناطق شبه حضرية؛ وكان مستوى متوسط دخول عائلاتهم والذي يعود إلى "الطبقة العاملة المتوسطة" هو ٨٤،٢٧ جنيه مصري في الشهر (محمد ١٩٨١، ٣٢-٣٣).

١٠- ارتفع متوسط أجور العاملين في القطاع العام قليلاً منذ قيامي بإعداد مسودات هذا الفصل. ولكن الانخفاض الحاد في قيمة الجنيه المصري في عام ٢٠٠٣ اكتسح أي زيادة قد أضيفت لأجور القطاع العام. ومن الجدير بالذكر أن رواتب الكثير من مؤسسات القطاع الخاص متدنية على غرار رواتب القطاع العام.

١١- كما هو معروف جيدًا، فإن الحجاب الإسلامي الجديد كان مبدئيًا ظاهرة تخص الطبقة المتوسطة *(Macleod 1991; El Guindi 1999)*. ولكن الكثيرات من نساء النخبة ترتدينه الآن. ويتنوع ما يتم ارتداؤه، على الرغم من ذلك، وفي اتجاه يبتعد تمامًا عن الغرض الديني الأصلي للنمط الجديد من الحجاب. وبإيجاز شديد، فإن الحجاب يخضع الآن لمواءمات الموضة شأنه شأن العديد من قطع الملابس الأخرى. وعلى هذا النحو فإن مسألة ارتداء ملابس متواضعة هو للكشف بقدر ما هو للتغطية.

١٢- يجب أن نسجل أن السياسات المرئية للحجاب على الشاشة وهي أكثر تعقيدًا على الشاشة في عام ٢٠٠٥ عما كانت عليه في عام ١٩٩٤. فقد غيرت قنوات الأقمار الصناعية المشهد الحضري لوسائل الإعلام بطريقة جذرية. ولاتزال وسائل الإعلام العربية (والمقابلة لما هو مصري خالص) تصور 'السيدات كمحجبات'، ولكن يتنوع نمط تنوع أغاني الفيديو بالنسبة للخطاب الديني، ويمكن تمييز الحجاب بأنماط لم تكن موجودة ببساطة في أواسط سنوات

التسعينيات عندما كانت القنوات الفضائية العربية جديدة وغير متطورة ومحدودة الانتشار. واجتُذبت السينما المصرية ببطء إلى مدار هذه السياسيات الجديدة من التقديم، ليس لدرجة أن يكون الحجاب "شيئًا معتاذا"، ولكن بالتأكيد إلى المدى الذي لا يمكن أن نقول صراحة أنه ظاهرة معزولة.

١٣- اكتشفت هذه الظاهرة في عدد من المناسبات عندما ذهبت إلى السينما مع زوجتي، ومتميزان بأننا أجانب بوضوح، فقد تم إدخالنا إلى دار السينما قبل أن يبدا الفيلم، لنكتشف في العديد من المرات أننا الوحيدون بالداخل. وكان يتعين على الآخرين جميعهم أن ينتظروا حتى السماح للجميع بالدخول.

١٤- ترتبط السينما المصرية في هذا الصدد، بعلاقات اقتصادية وثقافية "أفقية"، ولكن فقط مع عالم المتحدثين باللغة العربية، وكممول وحيد للمضامين الإعلامية أكثر منه كمستهلكين لمحتوى إعلامي عربي لغير المصريين. ومن الجدير بالذكر، على أي حال، أن نفوذ السينما المصرية في العالم العربي ربما يمكن أن يُنظر إليه من منظور غير مصري كشكل من أشكال الاستعمار الثقافي أكثر منه كعلاقة أفقية. وتتدفق الأفلام التاريخية من مصر إلى الأقطار العربية الأخرى، وليس لمصر من العالم العربي. وبعيدًا عن المجال السينمائي، فإن دخول القنوات الفضائية منذ منتصف التسعينيات قد قللت كثيرًا من الهيمنة المصرية على وسائط الإعلام المسموعة والمرئية.

١٥- قام أميتاف جوش عالم الأنثروبولوجيا الذي تلقى تدريبه في كمبريدج والذي يقوم بعمله الميداني في مصر، بتطوير نفس الآلية في كتابه "في الأرض العتيقة" *In an Antique land, 1993*. ويقوم بالتلميح في هذا الكتاب إلى "التقسيم" – وهي الكلمة التي غالبًا ما تستخدم في سياق الإشارة إلى انفصال باكستان عن الهند في عام ١٩٤٨. ويعتبر كتاب جوش تأملات انعكاسية معادية للقومية في مجتمعات ما بعد الحقبة الاستعمارية. ويقوم بتطبيق مفهوم "التقسيم" كسمة عامة تقريبًا للقومية.

١٦- تعتبر الموالد في مصر كرنفالات احتفالية تقام للاحتفاء بشخصيات دينية جذابة، وتقوم الجماعات الصوفية في الأساس بهذه الاحتفالات. تركيز الاحتفال يكون على ضريح الشخصية المُحتفى بها. وتجتذب الموالد الكبرى في مصر وبصفة خاصة موالد الحسين، والسيدة زينب (في القاهرة)، والسيد البدوي (في طنطا بمنطقة الدلتا) مئات الآلاف من الأتباع. وغالبًا ما تشعر السلطات الدينية الرسمية بالاكتئاب من احتفالات المولد، على الرغم

من أن بعض الطرق الصوفية التي تحتفل بالمولد تتبنى مواقف أكثر تقشفًا تجاه العقيدة والتي تكون أكثر تزامنًا مع السلطة الإسلامية التي تدعمها الدولة. (برجاء الرجوع إلى الجزء الخاص بمادوف في هذا الكتاب لتحليل أكثر عمقًا لموالد القاهرة).

١٧- لم يكن هذا هو الحال دائمًا، فقد كان الإعجاب صريحًا بالسينما الهندية في مصر في سنوات الخمسينيات. وقد بدا استيراد الأفلام الهندية بعد الحرب العالمية الثانية، كما كانت هناك تعاملات رسمية ضخمة مع الهند في سنوات الستينيات في سياق أهمية كل من الدولتين في حركة عدم الانحياز. وكانت هناك مجلة مصرية فاخرة وعالية التكلفة تسمى صوت الشرق، تقوم بالترويج لتدعيم العلاقات المصرية – الهندية.

١٨- كان الفيلم أكثر إثارة للجدل لأسباب أخلاقية، ولكن كان يتم شن الهجوم عليه بصفة أكبر على أساس صلته بتمويل فرنسي. وتم عرضه في المهرجان السينمائي الرابع (يونيو ١٩٩٤). وكانت تمنح الفرصة للمشاهدين بعد أن يتم عرض كل فيلم أن يقوموا بتوجيه أسئلة للطاقم المشارك في الفيلم (غالبًا للمخرج، والمنتج، والكاتب وحفنة من الممثلين المشاركين، وعادة من الوجوه الجديدة الذين قاموا في الغالب بأداء أدوار مساعدة في الفيلم). وكانت الاعتراضات الغاضبة تندلع طوال فترة عرض فيلم مرسيدس ضد صناع الفيلم الذين يبحثون عن تمويل الأفلام من الأوروبيين. وكان المتفرجون الذين يتم استقصاء آرائهم يعتقدون أن الفرنسيين سيقومون فقط بتمويل الأفلام التي تقوم بتشويه مصر. وكان رد المخرج أن معظم الأفلام المصرية يتم تمويلها بطريقة غير مباشرة عن طريق رأس المال الأجنبي بواسطة سوق الفيديو في دول الخليج. وأن الشروط التي ترتبط بالتمويل الخليجي أكثر سخافة من شروط منصوص عليها بواسطة التليفزيون الفرنسي.

١٩- أنا لا أقلل من احتمال أن آليات الشذوذ التي تم تصويرها في فيلم مرسيدس تقوم بنقل جانب من الحقيقة. أنا لم أرتد دور سينما الدرجة الثالثة أكثر من المرة التي وصفتها هنا. ولم تكن فكرة الكتابة عن مشاهدة الأفلام في حقيقة الأمر جزءا من مشروع العمل الميداني، ولكنها كانت فكرة تالية خطرت على الذهن؛ ومن هنا فإن هذا التحليل بأسره يعتمد على الذاكرة أكثر منه على تجربة منهجية مقصودة. فمن المعقول تمامًا بأن ممارسات الشذوذ الموصوفة في الفيلم ربما كانت أكثر وضوحًا في بعض أوقات النهار أكثر من غيرها (أي ليست في الوقت من نهار أو الأسبوع الذي ذهبت فيه إلى السينما)، وربما تتأثر بعوامل موسمية أيضًا (على

سبيل المثال، السنة المدرسية، والإجازات الدينية، وغيرها). كما أنه ليس من المعقول أن تحدث هذه الممارسات في مجتمعات موثوق بها، بمعنى أن زائر المرة الوحيدة لدار السينما، هو بالطبع مستثنى من هذه الممارسات غير المقبولة من المجتمع وحتى الأكثر من ممارسات المواعدة المثلية. وأخيرًا، فأنا لست مثليًا، وهنا من غير المحتمل أن أستطيع تمييز الأشكال الدقيقية للتواصل بين المثليين، ولم أتبين حدوث أي شكل من أشكال هذا التواصل في اليوم الذي قمت فيه بارتياد دار السينما.

٢٠- هناك العديد من الاقتصاديات في مصر، بما فيها الاقتصاد غير الرسمي، واقتصاد القطاع العام، والقطاع الخاص المحلي (على سبيل المثال المتجر الذي ربما يقوم ببيع سلع مستوردة، ومع ذلك، يحصل عليها كلها من الموزعين المحليين)، والاقتصاد العالمي. وهناك بالطبع، العديد من المسارات للفئة النهائية (مثلاً الاتصالات السياسية، والتوظيف في مؤسسات المعونات الخارجية والتي تمنح أجورًا أعلى بكثير من المؤسسات المحلية، وإمكانية الوصول إلى المستوات العليا من الاستيراد والتوزيع؛ وبطبيعة الحال ليست أيا من هذه المسارات متعارضة بالنسبة للاقتصاد العالمي).

٢١- أصبح ارتداء الحجاب بالنسبة للسيدات، بطريقة أو بأخرى، مثل ارتداء البطلون بالنسبة للرجال: يفعلها المرء بطبيعة الحال، والأكثر أهمية اجتماعيًا في كلا الأمرين هو ما تُظهره الملابس عن من يرتديها بالنسبة لوضع الاجتماعي وخياراته الفردية. وبهذا المعنى، فإن اظهار التقوي بواسطة ارتداء الحجاب جانب من جوانب الاختيار.

٢٢- راجع *Lisa Wynn 2003* لواحدة من قلائل التحليلات العميقة عن السياحة الخليجية في مصر.

٢٣- كان بينتسين هو المرشح لمنصب نائب الرئيس على قائمة مرشح الرئاسة مايكل دوكاكيس في انتخابات ١٩٨٨ في الولايات المتحدة الأمريكية. كما أن السيناتور بول سيمون من إلينوي كان مرشحًا لمنصب الرئيس لذلك العام. وقد فاز فقط بالانتخابات التمهيدية في مسقط رأسه، وكان يقوم بتمييز نفسه باعتياده على ارتداء رباط عنق الفراشة.

٢٤- نبيلة عبيد في "كشف المستور"، ونادية الجندي في "حكمت فهمي". وكلتا السيدتين لا تحوزان رضا النقاد كثيرًا، ولكنهما مؤثرتان في إيراد شباك التذاكر.

٢٥- يعترض صانعو الأفلام أيضًا على تأثير دول الخليج. كما يعترضون على رقابة الأمر الواقع على أفلامهم لأمر واحد، وهو متطلبات سوق الفيديو في الخليج. والأساطير العامة كثيرة عن

فسوق رجال الخليج واحتمال إفسادهم لأخلاقيات النساء في مصر. وبالنسبة لحالة الشاذ في فيلم مرسيدسن فأنا لا أنكر بالضرورة وجود عنصر من الحقيقة في الأسطورة. ولكنني لم ألحظ في كلتا الحالتين السلوك موضع التساؤل. لسرد كامل لكلا الأسطورتين والممارسات الفعلية، راجع في ذلك *(Wynn 2003)*.

٢٦- شاهدت فيلم "كشف المستور" للمرة الأولى في مهرجان السينما المصري الرابع في مايو ١٩٩٤، وفي عرض لأفضل الأفلام المصرية للسنة السابقة لها مع عدد قليل من الأفلام التي لم يتم عرضها من قبل. وكان مشاهدتي لعرض فيلم "كشف المستور" ضمن الأفلام التي تعرض لأول مرة، كما أن النسخة التي عُرضت في المهرجان لم يمتد إليها مقص الرقيب. أما المرة الثانية والتي شاهدت فيها الفيلم في يوليو ١٩٩٤، وكانت النسخة التي امتدت إليها يد الرقيب والتي خُصصت للعرض العام (راجع في ذلك أيضا أرمبريست ١٩٩٤ ب).

٢٧- لاستعراض فيلم "حكمت فهمي" راجع أمين (١٩٩٤)، وأرمبريست (١٩٩٤أ). ويرتبط كل من فيلم "حكمت فهمي" و"كشف المستور" بأحبال واهية بالتاريخ. كانت حكمت فهمي الحقيقية راقصة أثناء الحرب العالمية الثانية وكانت مشتركة في خطة للتجسس على البريطانيين. ويحمل فيلم كشف المستور بعض أوجه الشبه المعينة بعض الاتهامات التي ارتبطت برئيس المخابرات في عهد عبد الناصر وهو صلاح نصر، الذي شوهت سمعته وسُجن بعد هزيمة مصر من إسرائيل في عام ١٩٦٧. وكانت تدعي، أن عبد الناصر كان يقوم باستخدام الممثلات والشخصيات الإعلامية من أجل التجسس على السياسيين الأجانب (حسين ١٩٩٢).

٢٨- لم يكن هذا الأمر دقيقًا من الناحية التاريخية فقد ذكر السادات في مذكراته الخاصة أن دوره في الخطة للتجسس على الألمان انتهى به إلى السجن، حيث كان يعامل معاملة حسنة، ودرس اللغة الإنجليزية، وكان لفترة قصيرة من الوقت يحتل الزنزانة المجاورة لزنزانة حكمت فهمي (السادات ١٩٧٨، ٤٣).

٢٩- كان "انتصار الشباب" (بدرخان ١٩٤١) هو عنوان فيلم ينتصر فيه الشباب على الحظوظ العاثرة.

الفصل السادس عشر

الإسماعيلية رايح جاي
منفى وسائل الإعلام القاهرية، والتليفزيون الإبداع، والمواطنة الإقليمية

فاني كلونا

يستهدف هذا الفصل القيام باستكشاف نزعة جديدة لمفكري الأقاليم في العالم العربي ترمي إلى هجر العاصمة والعودة إلى مسقط رؤوسهم في الريف *(Colonna 2004)*. لماذا يجاهد المبدعون في وسائل الإعلام والنخبة الثقافية من أجل ممارسة أدوار مهنية واجتماعية معينة في "مسقط رؤوسهم" لقطف ثمار لم تكن الأجيال الماضية يمكن أن تجنيها إلا في العاصمة فقط؟ وهل تشير هذه النزعة إلى ظهور آلية للامركزية يمكن أن تحول دور القاهرة كحاضرة إلى الأبد؟ هل ظهور حلقات وصل إقليمية بديلة تشير إلى تحررية أو تعددية للإنتاج الثقافي أم هي مجرد وجه للإقصاء والتهميش؟ وكيف تتصل هذه العملية بالتحولات والجيشان في الهويات الوطنية (والوطنيين) المرتبطة بقوة بالقاهرة؟

سوف تكون النقطة المحورية لعملية الاستكشاف تصويرًا عميقًا لرائد مهم من رواد التليفزيون المصري، ويعرض في سياق منطقة قناة السويس المثيرة للجدل، والإستراتيجية، والحدودية.

واختتم فريق البحث الخاص بنا، في أواخر سنوات التسعينيات رحلته إلى أقاليم مصر ووضع اللمسات الأخيرة لمقابلاتنا مع المفكرين المصريين والشخصيات الثقافية الذين قاوموا إغراءات القاهرة، المدينة العاصمة، وبدلاً من ذلك، حطوا رحالهم، واستثمروا جهودهم، في عواصم الأقاليم[1]. واختتمنا دراستنا، كامل شاشوا، عالم اجتماع جزائري، وباتريك جوديو، مصور فرنسي، وأنا، عالمة اجتماع جزائرية– فرنسية، ببعثة إلى ثلاث مدن في منطقة قناة السويس في نوفمبر ١٩٩٧. وبدأت دراستنا الأكبر حجمًا في العام الماضي، في الجهة المقابلة، أقصى جنوب البلاد بمجموعة من المقابلات لعدد من حائزي شهادات الدبلومات العليا ممن يعيشون في أقاليم أسوان والأقصر والمناطق المحيطة بهما. فإذا ما عاودنا النظر إلى الركن الشمالي الشرقي من البلاد، فسوف تبدو لنا أقاليم منطقة قناة السويس ذات أهمية خاصة وفي حاجة ماسة إلى إعادة استكشافها نظرًا لقيمتها المثيرة للجدال، والدائمة التغير، ولأهميتها الإستراتيجية، بالإضافة إلى تاريخ مدنها الحديث (ما بعد القرن التاسع عشر).

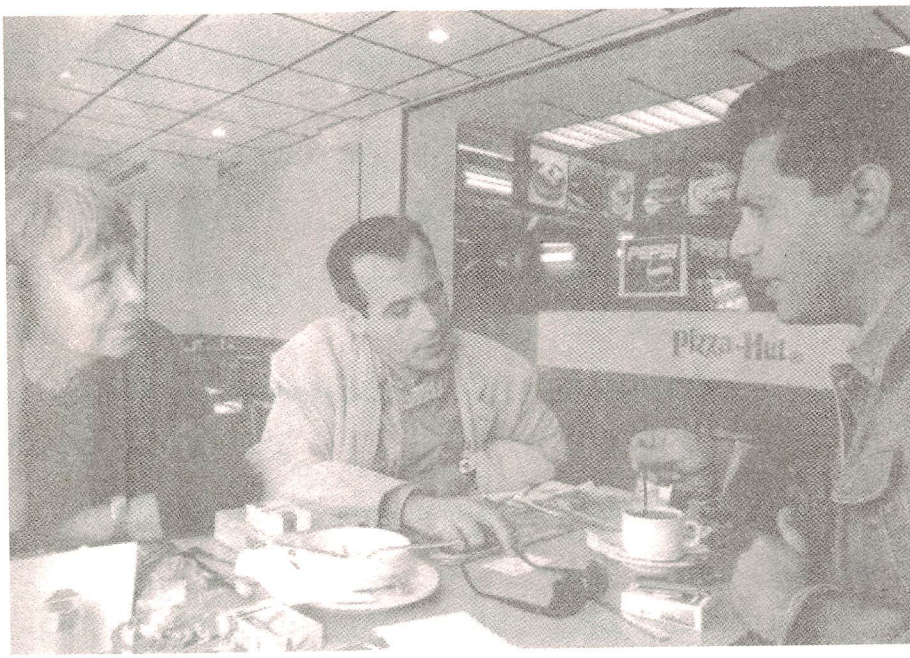
وتبدو منطقة قناة السويس حتى للمصريين أنفسهم مرتبطة بالأراضي والسياقات الأجنبية. وظلت المنطقة المحيطة بالمنطقة بعد أن تم حفر قناة السويس لحساب المستثمرين الأوروبيين والاستراتيجيات الاستعمارية في عام ١٨٦٩ امتدادًا صحراويًا خاليًا لم يتم توثيقه بواسطة علماء الاجتماع أو الفنانين الوطنيين، وحتى الجيل الحالي. وتعتبر المنطقة فقيرة من حيث الكتاب الذين ينتمون إليها، ونتيجة لذلك، فإن القليل من القصص والحكايات قد تم نسجها لتصوير الحياة في هذه المنطقة. وتساعدنا فقط روايات محمد البساطي الاجتماعية الواقعية الساحرة عن الريف مثل: *أصوات الليل*، وبيوت *وراء الأشجار*، *وصخب البحيرة*، في فهم التناقضات الهائلة التي تتميز بها المنطقة. ويتنوع المشهد الحضري فيما بين المدن

الجميلة التي ظهرت إلى الوجود بعد افتتاح قناة السويس (بورسعيد، والإسماعيلية، والسويس)، وشواطئ الصيد المهجورة على بحيرة المنزلة. وقد مزقت الحروب المتتالية في المناطق المتاخمة من أوصال شبه الجزيرة الصغيرة هذه وجعلت هويتها صنو الخطر. وتسببت الصراعات المسلحة، وتغلغل النفوذ التجاري، والاحتلال العسكري، وعمليات السلام، في نزوح سكان المدن والقرى، وإكراههم عنوة على عمليات هجرة جماعية مأساوية. وليست منطقة قناة السويس مكانًا للتراجع فقط، ولكنها أيضًا للانتصار. فقد أعلن الرئيس المصري جمال عبد الناصر في يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ تأميم قناة السويس (التي كانت حينئذ تخضع للإدارة البريطانية وملكية فرنسا). وكان هذا القرار الجريء تتويجًا لأعمال الثورة المصرية التي اندلعت في عام ١٩٥٢ والتي بدأت بانقلاب عسكري ضد القوات البريطانية التي كانت تدعم السلطة الاستعمارية في البلاد. وقد حققت الثورة الاستقلال الوطني التام لمصر بحرب السويس التي نشبت في عام ١٩٥٦. وشنت القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية عدوانًا على مصر في محاولة لاسترداد قناة السويس، وأُجبرت على التراجع بالتعاون بين القوات المسلحة المصرية والضغوط الدبلوماسية الأمريكية، وهو الحدث الذي لا يزال محل جدال واسع ويتم الاحتفال به في المنطقة.

وتحتضن منطقة قناة السويس مناخًا عالميًا ومتعدد اللغات ثقافيًا واجتماعيًا تحت تأثير ميراث القناة كمؤسسة متعددة الجنسيات وكموقع تجاري لمفترق طرق للعالم بأسره. ويمنح هذا التاريخ رابطًا خاصًا بأوروبا، والخليج العربي، والهند، وباقي أجزاء العالم. وترعى منطقة قناة السويس ثقافة ميناء متميز– لعمال أحواض السفن المقاتلين، والجنود، والبحارة – والتي احتضنت اتحادات قوية وتظاهرات عسكرية، والتي لا يزال يتردد صداها في البرلمان المصري في وسط القاهرة. وتتزعم منطقة قناة السويس الاتجاه الجديد، الذي يتزايد الإحساس به في القاهرة،

والارتباط ثقافيًا واقتصاديًا مع الجزيرة العربية (المملكة العربية السعودية، ودبي، والكويت، وغيرها) بدلاً من الاتجاه إلى البحر الأبيض المتوسط والشرق كمبتدعين لاتجاه جديد. وقد أصبحت السمسمية (وهي آلة وترية تشبه القيثارة وتتميز بمحليتها) تعبر عن الألحان التي تعكس هذا المستوى الجديد من الحوار الثقافي المصري العربي.

ولم تنجح الحيوية الثقافية والتجارية، على الرغم من ذلك، في إخفاء غبار الأجواء العسكرية للمنطقة، حيث طبع النضال المستمر والتوترات السائدة مع إسرائيل أجواء المنطقة. فقد ظلت هذه المنطقة لستة عقود كجبهات قتال، أو بالكاد منطقة هدنة عسكرية مؤقتة، ولم تتغير رغم مرور ما يقرب من ثلاثين عامًا منذ اتفاقيات كامب ديفيد.



طارق (إلى اليمين)، وكامل (في اليسار)، ومعهما المؤلفة في الإسماعيلية
(تصوير باتريك جودو)

وقد نسجت الجغرافيا السياسية للحرب والتجارة، بالإضافة إلى المؤسسات الجديدة مثل الجامعة الضخمة التي تم تأسيسها في بورفؤاد روابط قوية بين العاصمة وساحل هذه المنطقة الاستراتيجية. ولاشك أن مشروعات التشييد الضخمة، والمناطق التجارية الحرة، والمناطق الصناعية قد قامت بتغيير الطابع العام للمنطقة إلى الأبد، مما أضاف إلى بروزها على المستويين الوطني والدولي. وقد دشنت مصر في سياق هذه التغييرات، المحطة التليفزيونية الإقليمية الأولى (أي التي ليس مركزها القاهرة) في الإسماعيلية بمنطقة قناة السويس في عام ١٩٨٧، والتي تعكس بروز دورها، بالإضافة إلى القيمة الاستراتيجية لهذه المنطقة. ولقد بدأنا فى التنقيب عن الشخصيات الرئيسية المرتبطة بهذه القنوات التليفزيونية الإقليمية الرائدة، لأننا شغوفون لفهم هذه الثقافة المزدهرة للإعلام والمتواجدة بعيدًا عن الهيمنة الكاسحة للعاصمة وفى حالة شد وجذب معها، ولأننا شغوفون أيضًا بالجغرافيا الاجتماعية للنخب الثقافية.

وقد قابلنا طارق، ٣٥ سنة في ساحة صغيرة مظللة في الإسماعيلية. وكان يعمل كمذيع محلي لنشرة الأخبار في محطة تليفزيون قناة السويس الإقليمية، القناة الرابعة. وكان يرتدي سترة وبنطالاً من الجينز، وشخصيته تشع بالهدوء. ولم يبد عليه أي قدر من الانزعاج لاستضافتنا في ظل قائمة مواعيده المزدحمة للغاية. وعرض علينا طارق الذهاب إلى منزله من أجل الاجتماع بنا وقادنا إلى سيارته الحمراء الصغيرة المستخدمة. واصطحبنا في رحلة طويلة تجاه التخوم الأكثر فقرًا من المدينة، والتي لا تحمل أي قدر من الشبه لمنطقة الزمن الجميل بوسط المدينة حيث كنا نتجول ونحن في انتظاره في البداية. ولا تحتفظ الحدود الخارجية للمدينة بالنمط الفرنسي لأواخر القرن التاسع عشر الذي تتميز به منطقة وسط المدينة الاستعمارية القديمة. وطوينا شارع تصطف فيه مجموعة من المبـــاني الجديـــدة، بلا جماليات أو محلات، حيث يقطن طارق. وصعدنا معه إلى الطابق الثاني،

وبينما نحن نعبر الموقف ألقى نظرة سريعة من خلال ستارة وقدم تحية ودية لأعضاء أسرة غير مرئية في الشقة التي تقطنها والدته. وصعد طابقًا آخر لنصل إلى حيث يعيش طارق مع زوجته وطفلين. وكان هناك طفل ثالث في الطريق؛ وأخبرنا عرضًا أنه يحب أن يكون لديه الكثير من الأطفال.

ردود الفعل الانعكاسية والتحام المواطنين

كان مقصدنا هو أن نتيح الاندماج في تطوير حوار عفوي مع طارق يرشدنا فيه وبموجبه يمكن أن نستنبط استنتاجاتنا الأساسية ونظريتنا باتباع إرشاداته ***(Colonna 2004, 449-69)***. وكان مقصدنا ينصب على استكشاف علاقات الهيمنة بين العاصمة والأقاليم في مصر، وبعبارة أكثر تحديدًا، أشكال جديدة من المقاومة، أو انفصال الهوية عن المدينة العاصمة، كما أوضحت نخبة التليفزيون في الأقاليم. وكنا نتوق إلى استكشاف هذا الأمر من داخله. وقد كشفت وجهة نظر طارق غموضًا بالإضافة إلى تعقيد، بينما هو يعبر بقوة عن مفهوم المحلية ليس بوصفها السطح الخارجي، ولكن كمجموعة خاصة من المحددات، بالنسبة لعلاقتها بالأنماط القومية للتوزيع وتأثير التدفقات العالمية وحرية الوصول إليها. ولم نجد شيئًا يضاهي "أقاليم الشرق الأوسط الريفية" التي صورت في القوالب النمطية للمغالين في الوطنية من النخب الثقافية المعاصرة للقاهرة، أو الأحكام المُسبقة للمستشرقين الغربيين، والذين يرون في الريف مواقع متخلفة، ومنعزلة، وتطغى عليها الإسلامية التقليدية وتقوم "بجر البلاد إلى مفاهيم عفا عليها الزمان" ***(Colonna 2004)***. وتتحول الجهات الفاعلة المحلية، في حقيقة الأمر، لتصبح أكثر إبداعًا وانخراطًا في المجالات السياسية والاجتماعية وتقوم باستخدام ثروتها من البراعة في هذه العملية. وقد شهدت مصر عملية من تفكيك التركيز السكاني التي بموجبها تميزت تدفقات

السكان بين المدن الأصغر حجمًا والمدن الضخمة بالاستقرار **(Denis 1998)**. وعلى نفس المنوال، فإن جهود الحكومة الوطنية من أجل لا مركزية النظم الجامعية منذ سنوات الثمانينيات، قد شجعت على التنشيط الثقافي والفكري في المجالات العامة للأقاليم، كما دعمت من ظهور قاعدة محلية من نخبة مثقفة. والأكثر من ذلك، ينهمك ناشرون لرسالة ثقافية جديدة في تدعيم تغيرات اجتماعية، ووقائع إقليمية متنوعة، وشرعت في الاستفادة من ذخيرة من النوابغ ورغبات الجماهير التي كانت ستائر النسيان مُسدلة عليها في الماضي.

وقام طارق بتحويل حياته المهنية، في هذا المناخ من التيارات والفرص المتغيرة، إلى التليفزيون. وتعتبر حياته المهنية، ورؤيته، والأفكار والقوى التي تكمن ورائها، نافذة تطل على التغييرات التي تُحدث تأثيرها على مصر، وبعبارة أكثر تحديدًا طبيعة هذا الجيل الميال للتوكيد، والمبتكر، والمتناثر على نطاق واسع من الجهات الفاعلة إعلاميًا وثقافيًا. وكشفت المقابلات التي قمنا بإجرائها أن طارق وجيله يرون أن الارتباط والمشاركة في المجال الإقليمي والخصوصية المحلية جزء لا يتجزأ من معنى أكثر شمولاً من الشعور بالانتماء وتعزيز المواطنة. ولم يكن هذا المشروع يخاطب فقط المحلية أو المحافظة/ الإقليم، ولكنه كان يستهدف تحويل كل المجتمع المصري، ومنحه نوافذ جديدة للتعبير عن نفسه، وأسسا جديدة لحقائق سكان وطبقات المحافظات. وقد عبر هذا المشروع من "التأصيل الإقليمي" عن الاصرار على مطالبه التي تتبلور في مواطنة المشاركة، وتأسيس ثقافة المشاركة، وتصور الأمل القومي بالتزامن على صعيد الشارع لمدينة فاضلة، بالإضافة إلى الأمل في تدابير تحويلية حقيقية **(Rancière, 1999)**. وأتاح لنا طارق، وهو يصف لنا تأسيس محطات التليفزيون الإقليمية، صورة عن جغرافية الفرص المتساوية للمواطنين، والمشاركة السياسية، والمخاطر. ولقد كانت لحظة فريدة لا تُنسى، على حد وصفه، "لقد كانت في بداية الأمر، مجرد فكرة جميلة. ولقد

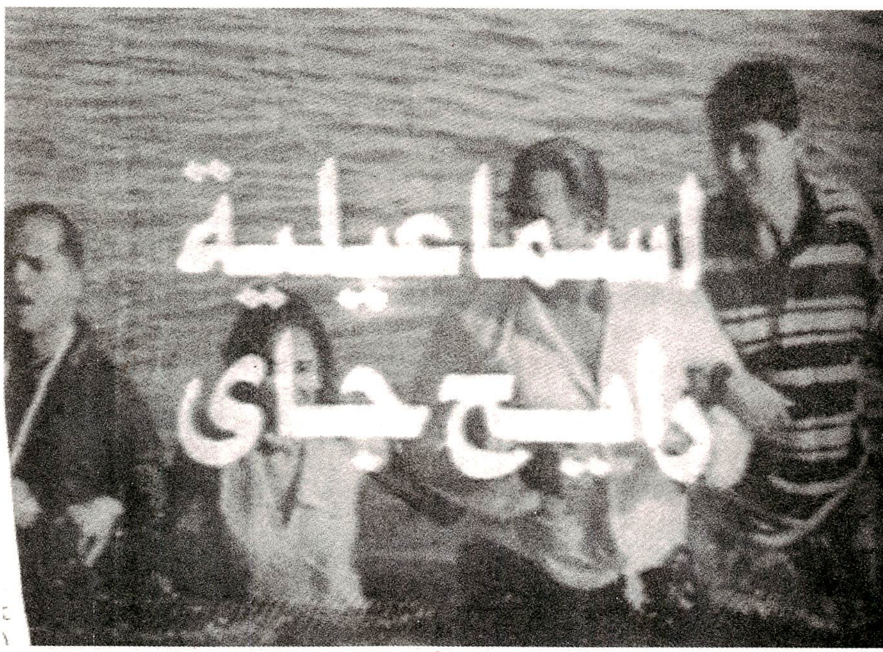
اخترنا أن نقوم بتأسيس (أول محطة تليفزيونية إقليمية) في هذه المنطقة البالغة الحساسية بالنسبة للأمة".

وكان أحد أهداف طارق من تأسيس قناة التليفزيون المحلية هو تحدي الصور النمطية عن المحافظات؛ ولكنه أيضًا تحاشى فكرة الصورة المثالية عن المنطقة "كتخوم ساحلية خصبة، وصحية، ومليئة بالمرح" وتقديم الريف في صورة شريرة كبقعة لا أمل فيها تعج بالفساد. وظهرت قنوات التليفزيون المحلية أول ما ظهرت في لحظة أبدت فيها القاهرة "نواياها الطيبة" تجاه المحافظات. ولكن ثبت أن استمرار هذه القنوات على قيد الحياة هو أمر بالغ الصعوبة عندما تلاشت لحظة "النوايا الطيبة" من القاهرة. وعلى الرغم من العديد من أوجه القصور، فقد اكتسب طارق والعديد من الرواد الأوائل خبرات متراكمة في المطالبة بمشاركات أوسع في التمسك بالديمقراطية والتفكير المتحضر. وظل طارق مفعمًا بالأمل، بعد عقد كامل من النضال من أجل خلق منافذ إعلام محلية.

"الصعود إلى القاهرة": اكتشاف مصر أخرى

> **وأما بالنسبة لي فقد كانت رغبتي في الذهاب إلى القاهرة من أجل رؤية ما يجري هناك. وقد كان من المهم بالنسبة لي أن أذهب لجامعة القاهرة بصفة خاصة، لأنها تملك تاريخًا حافلاً. إنها تملك تراثًا من التقاليد الثقافية وأساليب التفكير. إنه عالم مختلف تمامًا عما رأيته ومررت به حتى هذه اللحظة. لقد كان أول ما شعرنا به عند وصولنا للقاهرة هو الإحساس بالصدمة. صدمة الطبقة الاجتماعية. فهناك، النخبة، والشخصيات الشهيرة التي تعيش أنماط الحياة التي نشاهدها**

في الأفلام فقط. لقد أُصبنا بالذهول، لأننا كنا قادمين من مجتمعات أكثر تواضعًا في الإسماعيلية! وحتى الأغنياء في مجتمعاتنا كان ثراؤهم محدودًا ومظهرهم يعكس حدود ذلك الثراء. وكانت هنالك، في القاهرة، طبقة أخرى تعيش حياة مختلفة تمامًا، لم نعهدها من قبل. وكان ذلك هو الانطباع الأول عن القاهرة.



إسمـــاعيلية رايـــح جاي، كريم ضياء الدين - (تصوير جين مارك لامور)

وقد ذكرني هذا الاعتراف بفيلم غنائي مصري نال شعبية طاغية وكل مشاعر الحماس في القاهرة وفي المحافظات في عام ١٩٩٨ وهو (إسماعيلية رايح جاي)، ويحكي هذا الفيلم الذي أخرجه كريم ضياء الدين قصة ظهور نجم غنائي محبب (الذي لعبة دوره المطرب الشعبي محمد فؤاد) ومغامراته مع فرقته المكونة من أصدقائه من الإسماعيلية (التي صُورت على نمط كوميديا الهزل بمجموعة من ممثلي الكوميديا بمن فيهم النجم الصاعد آنذاك محمد هنيدي، والذي لفت الأنظار إليه بشدة). وتدور حبكة قصة الفيلم حول تاريخ النضال المصري الوطني، ولكن في إطار من دفاع مجموعة من الشباب عن حقهم في حرية التفكير، وبهجة مشاعر الصداقة، ومزيج من توابل الجنس، والموسيقى، وقصة حب رومانسية في إطار حدود صارمة من التقشف الاقتصادي، ونُذر الحرب، والقمع السياسي. وقد حقق الفيلم أرقامًا قياسية من النجاح في دور السينما المصرية – وفي مدن منطقة قناة السويس على وجه الخصوص. ويصور الفيلم الصدمة الثقافية ومشاعر الذهول التي انتابت مجموعة من شباب المحافظات، من أول لقاء لهم بملحن موسيقي مقيم بالقاهرة بكل تأكيد (والتي كانت مصدرا للمزاح والنكات). كما قدم الفيلم الكثير من المتناقضات الكاشفة والتي تحدد الهوية ومشاعر الحنين في مصر المعاصرة: المحافظات مقابل العاصمة، والنخبة مقابل العامة، وفخر الحقبة الثورية مقابل مصاعب الحقبة الليبرالية، وغيرها. وبدا كما لو كان فيلم "إسماعيلية رايح جاي" يقدم نسخة غنائية جامعة من قصة حياة جيل طارق:

> **أتينا في سنوات السبعينيات من المحافظة إلى العاصمة. وقابلنا مفكرين من مناطق أخرى وأصبحنا نحن مفكري القاهرة، على الرغم من أننا نعلم جيدًا أن أغلبنا قد أتى من المحافظات! إنه تواجدنا البسيط في العاصمة، وحبنا**

للدراسة، ورغبتنا في تعميق معرفتنا بالفلسفة، والسياسة، والعديد من الأشياء الأخرى التي تمنحنا التواجد الفكري في القاهرة.

وهناك بعض الناس الذين ظلوا في القاهرة، وتمكنوا من الاستمرار في العيش فيها بطريقة أو بأخرى. وهناك الكثيرين مثلي ممن عادوا إلى محافظاتهم وتأقلموا مع حقائق الواقع المحدود لعالمهم هنا. وما دفعني للعودة من القاهرة مرة أخرى أنني ببساطة لم أستطع تحمل تكلفة العيش في القاهرة؛ لقد كنت لا أزال أعتمد على والدي من الناحية المادية. ولم يكن هناك من سبيل أمامي لأعيش بطريقة مستقلة، لأستطيع توفير احتياجاتي الضرورية.

وتدخل كامل زميلي الباحث الجزائري، وتحدث بصراحة: وإذا ما كنت قد وجدت وسيلة لتوفير احتياجاتك في القاهرة، هل كنت ستعود أبدًا للإسماعيلية؟

طارق: لا، لم نكن سنعود مرة أخرى. يمكنك أن تقول ذلك عندئذ، العودة مرة أخرى كان يعني الفشل! وعلى الرغم من ذلك، عندما قمنا بافتتاح قناة تليفزيونية هنا في عام ١٩٨٧، فإن أساليب تعريف النجاح مقابل الفشل قد تغيرت تمامًا بالنسبة لي.

باختصار، لقد بدأ في تحقيق أحلامه – وأن يكون في موضع الند لمفكري القاهرة، ولكن أن يكون مقيمًا وتتحدد هويته في مسقط رأسه.

طارق: والآن تريدون أن أحكي عن كيفية تأقلمي هنا، وهل أنا سعيد هنا أم لا؟ لقد عدنا هنا إلى منزل الأسرة. لقد عدت إلى مسقط رأسي؛ وبحثنا عن عمل هنا. ولم يكن هناك من سبيل للعيش هناك (في القاهرة).

وكان صوته مليئًا بالمرارة.

كامل: هل فكرت في أن تعلم اللغات كان يمكن أن يمهد لك الطريق للعمل في الخارج؟

طارق: بالطبع، تعلم لغة أجنبية شرط أساسي للقبول كمتحدث أو مقدم برامج في أي مكان، على الأقل. ولكنني لا أفكر كثيرًا في هذا الأمر. أود أن أكون هنا دائمًا، وأن نجاحي الشخصي لن يتم في أي مكان آخر؛ يجب أن أكون في مصر، لا أستطيع التأقلم على الحياة خارج مصر.

كامل: خارج مصر.... أم خارج الإسماعيلية؟

طارق: في مصر على وجه العموم، في القاهرة أو في الإسماعيلية أو أي مكان آخر في مصر.

كامل: وأنا أيضًا. لقد تخرجت من جامعة الجزائر في عام ١٩٨٧ وأنا أعتقد أنني كنت سأشعر بنفس الأحاسيس عندئذ.

طارق، وبينما كان كامل يتحدث: أنا أعتقد أنها مشكلة عامة بالنسبة لكل العرب. معظمهم يريدون السفر للخارج. لأن المشكلة أنك ترى أن الحضارة، والعلم، والتقنية الحديثة هناك. وبالنسبة لموقف الناس، فإنهم يعتقدون أن الطريقة

التي يتعامل بها الناس مع بعضهم البعض، في الخارج أفضل. هذا هو ما يعتقده الناس؛ وقيل لنا بأن نفكر بهذه الطريقة – "نحن نسافر للخارج للنهوض بأنفسنا، نحن العرب". تبرز لنا الأفلام التي نشاهدها، وهي الأفلام الأمريكية، أن الأشخاص الذين تلقوا تعليمًا جيدًا هم الذين يعاملون بعضهم البعض جيدًا للغاية، وبأناقة.

طارق: من أجل النقود.... من أجل أسلوب خاص للحياة.

كامل: ومن أجل الحرية؟

طارق: ومن أجل الحرية. ذلك هو ما يدفع كل حلم نموذجي لكل شاب عربي.

القناة الرابعة تبتكر تقديم التقارير

طارق: هناك ثمانية قنوات تليفزيونية في مصر، بالإضافة إلى القنوات الفضائية، والقنوات الخاصة الجديدة – وتعكس بعض الإنجازات وبعض المشروعات الطموحة. ولسوء الحظ، لم يعد أحد يعبأ بالقنوات المحلية التي كانت نتاج المبادرات الطليعية في العالم العربي. وقد جعل الاهتمام الكبير بالفضائيات (الخاصة – والقنوات الموجهة للنخبة) الناس تنسى كل شيء عن القنوات التليفزيونية الإقليمية التي تديرها الدولة.

وقد تم إنشاؤها على التوالي فيما بين عامي ١٩٨٧، و١٩٩٥ في شمالي البلاد (منطقة قناة السويس، والإسكندرية، ومنطقة الدلتا)، وفي جنوب مصر (أسيوط وأسوان وغيرها)، وقد وجهت هذه القنوات المحلية نفسها نحو مخاطبة الأطفال، والشباب، والطلاب بصفة خاصة، حتى ولو تم تصوير مهمتهم كتعبير شامل عن الخصوصيات الإقليمية بالإضافة إلى التزامات اجتماعية، وثقافية، وفكرية. وقد عُهد إلى هذه القنوات بمهام مهنية، وتربوية تمامًا مثل القنوات القومية، القناة الأولى، والقناة الثانية، واللتين أُنشئتا في عام ١٩٦٠. وكانت هذه القنوات الإقليمية في هذا الإطار التربوي خاضعة تمامًا لاحتكار الدولة، ويتم مراقبتها من خلال هيمنة الإدارة التنظيمية "اتحاد الإذاعة والتليفزيون المصري" والتي تقوم بمراقبة هيكلة، وتمويل، وفحوى رسالة البرامج التي تقدمها هذه القنوات المحلية. وكما ذكر باحث في مركز الدراسات الاستراتيجية لجريدة الأهرام في مقابلة أُجريت في عام ١٩٩٧، "أن التليفزيون وعلى نحو تقليدي (أداة في يد الدولة) من أجل حشد دعم العامة للسياسة الخارجية، والسياسات المحلية، والسياسات الاجتماعية. وهذا هو ما يجعل أيديولوجية الدولة المهيمنة هي التي يتم نقلها بوضوح عبر التليفزيون" *(Guaaybess 2003)*.

في نفس الوقت، فإن القنوات التليفزيونية المُبدعة قد تأثرت بدورها بالنزعات والطموحات التي تتبناها الدولة والتي تكابد من أجل التكيف مع ثورة الاتصالات (وهو المصطلح الذي يسمعه المرء مرارًا في كافة وسائل الإعلام) والتي بدأت تكتسح مصر في سنوات التسعينيات (الخواجة ٢٠٠٣ب). وقامت مصر بتدشين أول محطة فضائية لها موجهة إلى غير الناطقين باللغة العربية، والسائحين، كما كانت تستهدف ايضًا المهاجرين في الغرب ومنطقة الخليج العربي من مواطني الشرق الأوسط (أنظر الجزء الخاص بصادق في هذا الكتاب من أجل مزيد من التفاصيل عن "ثورة الاتصالات" في مصر عبر الشرق الأوسط). ومن

هنا بدأت "ثورة الاتصالات" في التصاعد. وكان هدف الدولة الجديد أن تصبح قادرة على التنافس مع مجموعتين جديدتين من شركات الأقمار الصناعية الخاصة والممولة من المملكة العربية السعودية، "إيه أر تي"، و"أوربت" واللتين كانتا تقومان ببث على غرار النمط الغربي من روما ولندن. وقامت مصر بشراء قمر صناعي لمنطقة الشرق الأوسط من فرنسا في عام ١٩٩٥، نايل سات ١٠١، وذلك من أجل استقبال قنوات البحر المتوسط، سواء المُشفرة منها أو لا. وجاهدت مصر للحفاظ على ريادتها الإعلامية في عام ١٩٩٨ عن طريق تدشين شركة (*CNE*)، وهي شركة شبه عامة ومشجعة للاستثمار تجمع بين ثمانية محطات تتنوع ما بين (الأخبار، والثقافة، والمنوعات، والرياضة، وغيرها). والأكثر أهمية، أن مصر قد أطلقت قمرًا صناعيًا جديدًا في عام ٢٠٠٠ لتقديم البرامج التي تنتجها مدينة الإنتاج الإعلامي الجديدة والتي تم إنشاؤها في صحراء ضواحي القاهرة بدعم من الدولة والشراكة بين القطاعين العام والخاص أنظر الجزء الخاص بالششتاوي في هذا الكتاب للمزيد من التفاصيل عن تشييد مدينة الإنتاج الإعلامي والشراكة الاستثمارية لدول الخليج فيها).

كامل: لماذا هذا التغيير في الأولويات؟

طارق: لسنا بلدًا غنيًا. إنها مشكلة وطنية. أن نقوم بوضع ست قنوات إقليمية واثنتين قوميتين من القاهرة، بالإضافة إلى القنوات الفضائية، وبكل مستلزماتها من المعدات والتكنولوجيا المطلوبة، فالأمر يتطلب تمويلاً باهظًا. ولكن ذلك لم يغل يد القنوات الإقليمية من أن يكون لها دور أكبر، كل منها في الإقليم الخاص بها. وقامت كل قناة باستكشاف

البيئة المحيطة بها. فعلى سبيل المثال، عندما كنت أشب عن الطوق في الإسماعيلية، لم أكن أعلم ما يحدث في الشارع المجاور لنا، لم أكن أعرف ماذا تفعل الحكومة، وما هي المعضلات التي كانت تواجهنا. ويمكن الآن لقاطني المنطقة معرفة كل ما يدور حولهم بمجرد التحول إلى قناتهم المحلية.

شكلت هذه الابتكارات التليفزيونية باهظة التكلفة دلالة فارقة على شروع مصر في الدخول لسوق الإعلام العالمي وجذبت العديد من الأنشطة الاستثمارية لبورصة الأوراق المالية الوطنية. وعبر هذا النشاط في مجال الفضائيات المنطق الجديد لعالمية السوق ولكن المدعوم من كل من النخبة والدولة وراء الفضائيات الجديدة والقيود التي تحيط بقنوات البث المحلية العامة والأكثر تواضعًا والتي تهدد تقليص حجم "الأحلام الديمقراطية" للمبتكرين في الأقاليم. واستمر اتحاد الإذاعة والتليفزيون المصري في الحفاظ على قوة العاصمة والتحكم في نوعية الخطاب الذي يوجه إلى العامة.

كامل: ماذا تفعل في هذه القناة الإقليمية وفي برامجك الخاصة من أجل التفرد فيما تقدمه عما يتم تقديمه من القاهرة؟

طارق: أولاً نحن قريبون من المنطقة، ومرتبطون بها بشدة، ولكننا نأينا الآن بأنفسنا. وقامت القناة، ومنذ نشأتها بتقديم عروض كاملة لم يسبق لها مثيل. وقد نزلنا إلى الشارع من أجل التفاعل مع العامة وتقديم نتيجة هذا التفاعل في صورة

برامج متعددة. ولقد كان للقنوات المحلية قصب السبق في إبراز وتقديم العامة في الشوارع في برامجها. وقبل أن يتم إعداد البرامج للقناة الأولى في الأستوديو، مفعمة بالعذوبة والتقليدية. فقد كنا راغبين كقنوات إقليمية صغيرة، أن نعالج موضوعات جديدة. وقد فعلنا.

وننزل إلى الشوارع لمراقبة الخدمات الحضرية وعلى سبيل المثال – نظافة الشوارع – ونقوم بتصويرها. هذا المكان ليس نظيفًا، فلماذا؟ أين رئيس الحي، وإدارة المدينة، وأين المحافظ؟ ونصر على مقابلة القائمين على حل المشكلة. وكانت لنا الريادة في هذا المجال. ولم نشهد مثل ذلك سواء في القناة الأولى أو الثانية (وهي القنوات القومية)! لقد كنا نحن، القناة الرابعة والخامسة، الذين نزلنا إلى الشارع، والكاميرات على أكتافنا، وقمنا بتصوير الناس – لقد كنا الأوائل في هذا الصدد. فعندما بدأت القناة الرابعة في بث إرسالها، بدأ الناس في التحول عن القناة الأولى والثانية ليتحولوا إلينا... أما اليوم فقد بدأت سمعتنا في التدهور. فقد اقتبست القنوات الوطنية أفكارنا وسبقتنا، لأنهم يملكون الموارد والوسائل. وبعد فترة قصيرة من ذلك، نزلوا هم أيضًا إلى الشوارع لتصوير برامجهم، وقاموا بإنتاج برامج عن موضوعات حية وساخنة.

كامل: ماذا حدث لهذا الاختيار من النزول للشوارع، في المجال الإقليمي؟

طارق: نحن نمثل إقليمًا مستقلاً. نحن محليون. ويعتبر حي السلام هو مسقط رأسي. وعدت إلى حيث نشأت وأدركت أن لا أحد هناك يجد الخدمات الحكومية المفروض تقديمها. وأملك من الوسائل ما يمكّنني من الحديث في موضوعات مهمة مع الناس من خلال الكاميرا والتليفزيون، ووجودي في هذا الموقع يؤثر على جيراني، وأقوم بعرض المشكلة أمام المشاهدين. وقامت القنوات المحلية بجلب شيء كان يتم تقديمه منذ وقت طويل في بلدان أخرى إلى القاهرة – المراسل التليفزيوني الذي يقوم بتقديم مادته من الموقع. هناك مذيع فقط في القناة الأولى والثانية، والذي يجلس لقراءة النشرة من خلف مكتبه. أو الذي يجلس في الأستوديو، والذي يدعو الناس إلى برنامجه ويجري مقابلات معهم بينما هو جالس في مقعده – محتفظًا بأناقته – وصبغته الرسمية. وفي المقابل، فإننا ننزل إلى الشارع ونقدم الأخبار من الشارع.

وبالمناسبة، إنها واحدة من المزايا، لقنوات التليفزيون الإقليمية، لأنه في أي قناة أخرى، لم أكن لأستطيع إلا أن أقوم بتأدية عمل واحد. ولكننا هنا، نقوم بتقديم نشرة الأخبار، ونقوم بإنتاج برامج للأطفال، كما نقوم بإنتاج برامج جديدة. ويمكنني من وقت لأخر أن أكون مخرجًا، ولكن بطريقة لا تحمل الصفة الرسمية. أنا أقوم بتحديد العمل الذي أقوم به.

كامل: هل يعني ذلك أن التحقيق الذي تقوم بإجرائه في الشارع والمفاهيم التي تحملها هي "من الناس" "وإلى الناس"؟

طارق: حسنًا، لم تكن هي ثورية، بالطبع. والأكثر أهمية من ذلك، أنها كانت متسقة رمزيًا مع البيئة المحيطة بها، والعالم الاجتماعي الذي يحيط بها. وعلى الرغم من ذلك فقد أُجهضت هذه التجارب. وبدأ أهل الفكر في الترويج لأنماط أخرى من البرامج: برامج الرياضة، وبرامج المنوعات، وبرامج الأغاني، وأشياء من ذاك القبيل. ولم يعد الأمر كما كان في البداية على الإطلاق. فقد أصبحت القناة الرابعة مثلها مثل القناة الأولى والثانية.

كامل: وكيف ضلت عن مسارها؟

طارق: سأقول لك كيف ضلت عن مسارها (ويخلد إلى الصمت لفترة طويلة) .... ربما كان ذلك من خلال الخداع أو وضع العراقيل. هل تعرف ماذا يعني الإحباط؟ عرقلة، أو الإحباط المتعمد للجهد المبذول.

العاصمة والاحتكار السياسي

كامل: إذا لم تكن هناك حدود لمعوقات مالية، ما الذي كان يمكنك أن تفعله، من الناحية المهنية، إذا ما أُتيحت لك الفرصة الآن؟

طارق: ياه، أحب أن أفعل الكثير من الأشياء! أحب أن أكون أكثر التصاقًا الواقع، بالواقع الذي نعيشه. فلم ينفصل هذا الإقليم على الإطلاق عن الواقع القومي. وما نعانيه هنا من مشكلات هي نفسها في القاهرة، وفي الإسكندرية، وفي أسوان. وكل المشاكل هي بعينها في كل أرجاء مصر. سأقوم بطرح هذه المشاكل للنقاش على المستوى الإقليمي ثم بعدئذ على المستوى القومي. ولكن أعطني الوسائل. أترك لي الكاميرا لخمس ساعات بدلاً من ساعتين. أعطني مصورا يعشق عمله، وليس من يعمل هنا رغم أنفه.

وهذه الإعاقة ليست مشكلة إقليمية فحسب، ولكنها بوضوح قومية. وبالتأكيد مشكلات المحافظات هي نفسها مشكلات الأمة بعينها، ولكن هناك فارق: وهو البعد السياسي. فإذا ما رغبت أن أتحدث عن السياسة في السياق الإقليمي، ما الذي يمكنني أن أتحدث فيه؟ بينما في القاهرة والقنوات القومية، يتحدثون عن السياسات. فيما يخصني، أنا أريد أن أقدم عرضًا عن السياسة، على سبيل المثال. ولكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك لأنني أعمل في قناة إقليمية. وهناك قيود وحدود لا تستطيع أن تتخطاها. فأنت تستطيع، على سبيل المثال، أن تتحدث عما حدث في الأقصر ولكن في حدود لا يمكن تجاوزها، عن "الهجوم" (في عام ١٩٩٧، قُتل الكثير من السائحين بوحشية على أيدي المتشددين الإسلاميين). ولكنني لا أستطيع أن أستضيف سياسيا أو اقتصاديا على

الهواء مباشرة؛ كما لا أعرف كيف أقوم بتنظيم اجتماع وأناقش الأمر. وليس ذلك جزءا مما نحن نكون.

كامل: في حقيقة الأمر، فإن المشكلات الإقليمية هي المشكلات الوطنية، ولكن المشكلات الوطنية ليست بعينها هي المشكلات الإقليمية...

طارق: في حقيقة الأمر، الروابط ليست واضحة من النظرة الأولى. ولكن ما يتعلق بمواطني القاهرة بخصوص السياحة، على سبيل المثال، يتعلق أيضًا بمواطني الأقاليم. وكانت للهجمات على المواقع السياحية في الأقصر انعكاساتها على من نسميهم "البمبوطية" (التجار الذين يعملون في محطات القطارات ومواقفها) في بورسعيد. وتعتبر بورسعيد جزءًا من الأقصر في هذا الصدد، ولكن تأثير الهجمات لا تزال تؤثر علينا بدرجة كبيرة، كما أثرت على أهل القاهرة، وأسوان أيضًا. ولكن هنا في الإسماعيلية، الدولة تقول إنه ليس لدينا الحق في الحديث عن هذه الهجمات.

ولكن يمكن للمرء أن يعتقد أن المفارقة، في نجاح هذه القنوات الإقليمية في الشمال – والأولى من حيث نشأة القنوات الإقليمية – هي التي جلبت لهم المتاعب. ويظل تفاعلها مع الدولة، ولأسباب تاريخية، قريبًا جدًا من النمط السوفيتي. في هذا الهيكل القيادي المحدود جدًا، والخاضع للرقابة، والمتسم بالمركزية على مستوى الوطن، ما المكان العام المحلي؟ هل هذا تناقض في المصطلحات؟ فقد "ابتكرت" القنوات المحلية مفهوم التقديم التليفزيوني على مستوى الشارع، والتحقيق

الاستقصائي للبرامج، وتقارير الرأي العام في مصر. وقاموا بتطوير هذه الأدوات من أجل قابلية المسئولين للمساءلة العامة وتفعيل المواطنة المحلية. ولكن هذه الممارسات يمكن لها أن تبقى على قيد الحياة في سياق النخبة، والقطاع الخاص، وآلية للعولمة برعاية الدولة للقنوات الفضائية الجديدة التي أحدثت تأثيرًا جذريًا في الملامح المنظورة للإعلام المرئي والمسموع (الخواجة ٢٠٠٣ أ)؟ هل يمكن أن نكون بمثل درجة السذاجة كما يقول بعض المحللين المقيمين في الولايات المتحدة الأمريكية *(Eickelman and Anderson 2003)* والذين افترضوا أن التزايد الحالي للقنوات الفضائية بنوعيات عالية الجودة في الخليج العربي ينذر بظهور "أماكن عربية عامة" على نمط مجادلات (هابرماس – فوكو)، حيث يندمج الجميع في مجادلات حرة من أجل التشاور وتوضيح رأي عام مستقل ومستنير وبأنماط مدنية؟ ويفصح هذا الجدال على نمط هابرماس عن أهمية التليفزيون كساحة للتشاور، ولسوء الحظ فقط في حالة وجود جسور مرئية – مسموعة وقوية. ويقيم طارق الحجة على أن آليات خياله الخلاق ونمطه التشاوري في تقديمه للمواطنين يمكن أن يتواجد فقط في سياق القنوات التليفزيونية المحلية، والمستقلة، والمدعوم علنًا، وليست الأنماط المركزية من القنوات الفضائية أو الوطنية.

كامل: إذا ما تعين عليك أن تقوم بتغيير عملك، هل يمكنك أن تفكر بالاتصال، على سبيل المثال، بالقناة الأولى؟

طارق، ضاحكًا: أقوم بالاتصال بالقناة الأولى؟ يمكنني أن أعمل بالقناة الأولى بالطبع، ولكن أين يمكنني أن أعيش في (القاهرة)؟ ستكون المعضلة أين وكيف يمكن أن أعيش؟ فلدي أسرتي. فأين يمكنني أن أجد مسكنًا؟ وبكم؟ ربما كان من الممكن أن أعمل في القاهرة لو لم تكن لدي أسرة.

كامل: في رأيك، إذا ما اتخذنا من شخصك مثالاً، ورفاقك من المفكرين في الأقاليم، هل تعملون جميعًا هنا لأنكم مُجبرون اقتصاديًا وسياسيًا في ذلك، وأنكم لا تستطيعون الانتقال؟

طارق: ليس تمامًا، على المستوى الشخصي، أنا سعيد جدًا.
كامل: إذا ما كانت هناك فرصة للانتقال؟

طارق، وبقليل من نفاد الصبر: لقد أخبرتك بالفعل أنني يمكن أن أعمل في القناة الأولى، ولكنني أؤدي عملي جيدًا هنا، أم هناك (في القاهرة) فلن أكون كذلك.

أنا سعيد بالعيش مع أسرتي هنا، وعملي هنا، ويمكنني أن أؤدي هنا أعمالا تُرضي غروري. والأكثر من ذلك، ستكون هناك بالقاهرة مشاكل عمل أيضًا. وبالضبط مثلما يأتي شخص جديد للعمل هنا، سيكون من الصعب عليه أن يقوم بالأعمال التي أقوم بها. فأنا معروف هنا، ولدي تاريخ حافل نتاج سنوات من العمل، ولدي حياة وظيفية وإنجازات عديدة. لدي مكان هنا (ويمكن أن يفهمها البعض هكذا، ليس عملاً فقط). ولكن إذا ما ذهبت لأعيش هناك، فسأجد نفسي قادمًا جديدا، بلا تاريخ، وبلا أي شيء آخر.

كامل، وفي نبرة قاتمة: وبلا أمل؟

طارق: نعم وبلا أمل. كان معنا زميل في جامعة القاهرة، وعمل بعدها في القناة الأولى، في إعداد البرامج الرياضية لثلاث سنوات. رأيته على الشاشة لمرتين فقط.... مرتين!

ففي القاهرة يجب أن تجد أناسًا ليأخذوا بيدك حتى تعمل. إذا ما كان في مقدوري أن أعتمد على أناس معينين.

كامل: ولكنك تملك سمعة محلية هنا؟ فإذا ما سرت في الطريق يتعرف الناس عليك، هل الأمر كذلك؟

طارق: نعم، فهم يقولون "آه! إنه الشخص الذي يعمل في القناة الرابعة". فإذا ما توجهنا إلى مقهى معًا، سيقولون لي "شكرًا يا سيد إبراهيم!" فهم يعرفونني من التليفزيون.

ثم بدأنا في مناقشة موضوع الرقابة. وكما قال طارق، "لقد بدأنا بحرية أكبر ثم انتهينا بحرية أقل". فعلى سبيل المثال قام طارق بإنتاج موضوع وثائقي عن أطفال الشوارع، كجزء من برنامج منظم عن المشاكل الاجتماعية الحساسة. وطبقًا لما ذكره، لم يكن لمثل هذا العمل أن يرى النور في أي مكان آخر عدا القناة الرابعة. واستمر البرنامج لبعض الوقت وآثار العديد من ردود الأفعال لدرجة أنه كانت هناك دعوة بتدخل وزير الإعلام، والذي كان في ذلك الحين، وطبقًا لنص كلمات طارق، "رجلاً متفتحًا وواسع الأفق، وأبدى الكثير من المرونة، ولم يقل كلمة واحدة عن البرنامج وسمح بعرضه كالمعتاد!".

طارق: ولكن بعد ذلك، وفجأة وبدون سابق إنذار بدأت الرقابة في الظهور بيننا. (وفي حقيقة الأمر، فإن برنامج طارق المنتظم تم حظره بعد إذاعة برنامجه عن الأطفال المشردين – وهي القشة، التي في اعتقاده، قصمت ظهر البعير). ولم أعرف ما الذي أثاره. لم تكن لدينا رقابة، ولكن فجأة أصبحت هناك رقابة. وقبل ذلك كنا نحن رقباء على

أعمالنا. فإذا ما شعرنا أن عملا ما ذهب إلى أبعد مما يجب، كنا نقوم بإخضاعه للنقاش العام معًا. وإذا ما ساورك القلق بشأن عمل ما، فيمكنك أن تسأل النصيحة من رئيس القناة. لقد كنا مجموعة من الرفاق! اليوم هناك رقابة! على القنوات السادسة، والسابعة، والثامنة منذ عام ١٩٩٥ (والتي يمكن أن يقال عنها المناطق الحساسة من وسط مصر والوجه القبلي)، ويقوم المراقبون بمراجعة كل أشرطة البرامج قبل أن تتم إذاعتها على الهواء. ومن المفارقات العجيبة، أنني لاحظت الآن، أن القناة الأولى والثانية (وهي القنوات القومية التي تديرها الدولة بنفسها) تملك درجة أكبر من الحرية التي نملكها. ولا أدري لماذا.

الشباب يعيشون هنا في حلم

أعادنا النقاش عن برنامج طارق المثير للجدل عن الأطفال المشردين، إلى موضوعات هوية الأجيال الجديدة من المصريين.

كامل: هل هم يعيشون في عالم الأحلام؟

طارق: نعم، ويشبه نفس الحلم الذي كنا نعيشه، في زماننا. وتغيّر الحلم ولكن لا يزال هناك حلم! لقد كان حلمي أن أذهب إلى القاهرة. ولكن حلم الشباب الصغير اليوم هو أن يسافر إلى لندن أو الولايات المتحدة الأمريكية. ويملك كل واحد الآن طبقا للأقمار الصناعية. ويشاهد الأغلبية الساحقة من هؤلاء

الشباب هذه الفضائيات ليروا عروضا لن يشاهدونها في القنوات المصرية، ليست عروضا مهمة، ولكنها شائنة.

كامل: إن الأمر يشبه ما يجري في الجزائر. يواجه القنوات الإقليمية عدوين: الفضائيات الأجنبية، والقنوات المصرية. قاهرة، القاهرة تقهرك بلا مقابل!

طارق: هيمنة العدو. القاهرة، الغازية، وهي تعاملنا وكأننا أطفال معاقبون. ونشعر بالفرح أولاً بالحصول على كاميرا تليفزيونية جديدة. وكالأطفال ننتظر فترة طويلة. فإذا ما وجدت القنوات المحلية الرعاية المنشودة وظلت وفية لرسالتها الحقيقية – فإنها ستصبح قنوات قوية. سيكون في مقدورها أن تلعب دورًا مهمًا.

كامل: هل هناك شباب يعملون في القناة؟

طارق: الأغلبية الساحقة منهم شباب. ربما أكون أنا أكبرهم سنًا، بعد رئيس القناة الذي يعتبر الأكبر سنًا هو في السابعة والخمسين من عمره. ولم يكن لدينا إطار أو اتجاه نتحرك فيه، في بداية الأمر، كما كانت هناك فجوة هائلة في الأعمار بين الرئيس وباقي العاملين الذين كانوا في العشرينات من أعمارهم.

كامل: وفيما يتعلق بك، كيف تغلبت على هذه المعوقات؟ وما هي خططك بالنسبة للمستقبل؟

طـارق، وبحدة: في المستقبل نحـن نحتـاج إلـى وسـائل وموارد مالية.

كامل: وإذا لم تتوافر لك هذه الوسائل المادية؟

طارق: نحن مستمرون في العمل، لن نتوقف عـن العمـل. ولكن يمكننا أن نقوم بإنتاج أعمال كبيـرة إذا مـا تـوافرت الوسائل، الله وحده يعلم ذلك.

كامل: وهل وجد أصـدقاؤك الـذين توجهـوا إلـى ألمانيـا وسويسرا أعمالاً يلتحقون بها؟

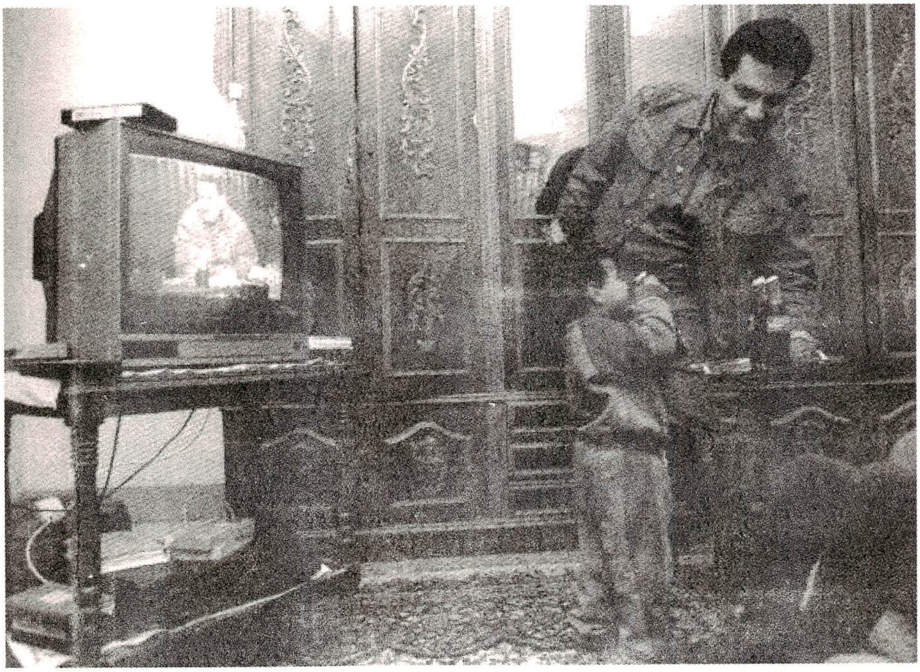
طارق، ضاحكًا: لم يصلوا إلى شيء على الإطلاق، لم يصلوا إلى شيء على الإطلاق، إنهم يشعرون بالإحباط هناك.

يقوم طارق بتشغيل شريط فيديو في حجرة نومه حيث يوجد جهاز الفيديو، ويقدم لنا تعليقه على فيلمه عن أطفال الشوارع. ويبدو طارق على الشاشة وهو محاط بمجموعة متنوعة من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين العاشرة والسابعة عشرة من العمر والذين نُبذوا ويعيشون في شوارع الإسماعيلية. وقد لقي طفل تعيس الحظ مصرعه على يد أحدهم. ويقوم طارق والفريق المصاحب له من المحققين في سياق الفيلم، بالتحقيق في الحادث ويقومون بسؤال ضابط البوليس المسئول عن كافة التفاصيل، كما يسألون الأطفال أنفسهم والذين تم تصويرهم في ملاذهم تحت أحد الكباري. وقد تم تصوير الفيلم بطريقة تتماشى مع كآبة الموضوع، ولا شك في ذلك، بإبراز الظلام، والمرئيات.

ملتزم تجاه محافظته، وملتزم تجاه الناس

أخبرنا طارق، قبل أن نغادره أنه قد قرر أن يعود أدراجه للدراسة في القاهرة لبضع ساعات في الأسبوع. وقد بدأت حياته تتطابق مع حكاية فيلم من أفلام الموجة الجديدة الرائجة في السينما المصرية، والتي تصور شبابا مبدعا ومُعذبا، ينتشرون في أرجاء القاهرة ويمثلون الوطنية المصرية، ولكنهم يتوقون إلى بقاع أخرى في المحافظات لتلبية نداء مسقط رؤوسهم.

ويندفع مجموعة من الفتيات والشباب في اللقطات الأخيرة من فيلم إسماعيلية رايح جاي بسرعة بالقفز إلى البحر وهم يرتدون كامل ملابسهم، بما يحاكي نوعا من الباليه المليء بالمرح. فهم يقفزون إلى مياه قناة السويس والبحر الأحمر التي تحيط بالإسماعيلية وليس إلى نهر النيل في القاهرة مما يرمز إلى موضع للتطهر من أجل الهوية القومية. ويمثل كل من البحر الأحمر وقناة السويس لجيله مركزًا بديلاً للهوية القوميةً، ومكانا للتلاقي وحدودًا لمصر، حتى لأولئك الذين تستحوذ عليهم هواجس برحلات ذهاب وعودة لا نهاية لها بين المحافظات والعاصمة.



عرض الفيلم الوثائقي لطارق عن أطفال الشوارع في منزلـــه (تـــصوير باتريك جودو)

تعد طموحات طارق بالغة الضخامة ومتواضعة في آن واحد. وتعتبر العلاقات الرمزية بين المحافظات والعاصمة، من منظور عوامل الثقافةوالإعلام الفاعلة والمشتركة هائلة نظرًا للفروق الجذرية في الامتيازات والموارد بين القلب في العاصمة، والأطراف في المحافظات، ولكنها أيضًا متواضعة لأن طارق مدرك بالفعل للحدود الحقيقية لروح المبادرة الإقليمية في المحافظات أثناء جهوده في السنوات العشر. ولكنه قد استوعب داخل هذه الحدود أن الإقليم – المحلي كمكان يمكن أن تتحدد قيمته بصفة مستقلة، وكعالم مستقل بذاته يمكن فيه أن تتعرف وأن يعرفك الآخرون. وهذا الوعي للأشكال النادرة والمهملة للأقاليم هي إحدى السمات المميزة لتعقيباتنا المتكررة في كافة مقابلاتنا مع مفكري الأقاليم في كل مكان في مصر. ولم تهبط هذه "القيم" من السماء، كما لم تنبع من أيديولوجية معينة، ولكن من تقاطع حقائق سكانية جديدة (لامركزية السكان)، وسياق ما بعد الثورية أو الاقتصاد – السياسي الليبرالي (والذي تُستهل فيه لامركزية التعليم والأنشطة للمواطنة الليبرالية، على الأقل على نحو تجريبي). وما يأخذ بمجامع القلوب هو هذا الارتباط بالعائلة، وبالمحافظة، وبالناس، والتشبث بمشاعر خاصة يحتفظ بها هؤلاء المفكرون المهنيون الذين لا يزالون مرتبطين بعرى لا تنفصم مع مدنهم الصغيرة، ولم يتنكروا لأصولهم لاختيار طريق هوية الاحتراف المهني الفردي المتمركز بالقاهرة. وعلى الرغم من ذلك، فإن الإصرار والابتكار الذي تميزت به هذه الثقافة الفكرية الإقليمية البديلة دائمًا ما كانت تقابل بالتجاهل من هؤلاء الذين يفترضون أن التخلف والأصولية هما فقط كل ما يمكن أن نجده في هذه الأقاليم. وعلى نفس المنوال، فإن النخبة المُثقفة من قاطني القاهرة والعالم العربي قد أعاروا آذانًا صماء لهذه الثقافة الفكرية الإقليمية البديلة.

وقد ظهرت على الشاشة، إبان حقبة التقنية العالية، وثورة الاتصالات الحصرية القوية لمصر، أصوات من طبقة الثقافة– والإعلام العربية الإقليمية الجديدة، وحتى لو كان ذلك لفترة وجيزة، في فترات تميز فيها المجال العام بالانفتاح واللامركزية.

الأعمال المستشهد بها

Works Cited

Colonna, Fanny. 2003. "How the Center Sees the Muhajirin of Knowledge: Normative Processes vs. Demographic Evidence." In *Politics from Above, Politics from Below: The Middle East in the Age of Economic Reform*, Eberhard Kienle, ed., 284–303. London: Saqi Press.

_____. 2004. *Récits de la province égyptienne: une ethnographie Sud/Sud*. Arles: Sindbad/Actes Sud.

Denis, Eric. 1998. "Lettre de l'OUCC." No. 48, June, Le Caire: CEDEJ.

Eickelman, Dale, and Jon Anderson. 2003. *New Media in the Muslim World: The Emerging Public Sphere*. Bloomington: Indiana University Press.

Guaaybess, Thourya. 2003. "De l'état-émetteur à l'émetteur état dans le champ télévisuel égyptien." In *Mondialisation et nouveaux médias dans l'espace arabe*, ed. F. Mermier, 103–123. Paris: Maisonneuve et Larose.

El-Khawaga, Dina. 2003a. " Le journalisme télévisuel dans le monde arabe." In *Mondialisation et nouveaux médias dans l'espace arabe*, ed. F. Mermier, 17–42. Paris: Maisonneuve et Larose.

_____. 2003b. "La restructuration de l'audiovisuel en Égypte." In *Mondialisation et nouveaux médias dans l'espace arabe*, ed. F. Mermier, 91–101. Paris: Maisonneuve et Larose.

Rancière, Jacques. 1999. "Les hommes comme animaux littéraires." *Mouvements* 3: 133–44. Paris: La Découverte.

الهوامش

١- أود أن أعبر عن امتناني لكل من بول عمار ودايان سينجرمان على مقترحاتهما المثمرة وتنقيح هذا الكتاب، كما أود أن أشكر أوجو كولونا للمساعدة القيمة في ترجمة وتنقيح هذا الفصل، وباتريك جودو على مجموعة الصور الجميلة التي قامت بتقديمها. وقد تم تلخيص وترجمة هذا الفصل إلى اللغة الإنجليزية من مناقشات أكبر حجمًا عن النخبة الإقليمية في كتاب كولونا عام ٢٠٠٤.

أماكن للمشاهير وعامية عابرة للقارات

الفصل السابع عشر

موالد القاهرة
الجماعات الصوفية، والاحتفالات الشعبية المتقلبة لمدينة يعاد ترتيبها

آنّا مادوف

يعرف القاصي والداني أن الاحتفال بمولد الحسين قد أزف عندما تهل بشائر شهر ربيع الثاني في القاهرة(١). ويحيي المولد ذكرى ميلاد الحسين، حفيد النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ويحدد الاحتفال طبقًا للتقويم الإسلامي القمري، لذا فإن تاريخ الاحتفال يتقدم طبقًا للتقويم الشمسي العالمي كل عام بما يقرب من عشرة أيام. ويتم تنظيم الاحتفال حول مسجده بالقاهرة للرجل الذي يُعده الصوفيون وليًا من الأولياء، ويضم هذا الاحتفال البهيج القاطنين في المنطقة والقادمين من كل أنحاء البلاد، مما يضفي الحيوية في أرجاء الحي الذي يحمل اسم الحسين، طبقًا لشعائر المولد، ويعيد تنسيق وترتيب المكان(٢). وفي سياق تزايد المحاولات الخرقاء لشرطة القاهرة والحكومة الوطنية لإغلاق الأماكن العامة في وجه الاحتفالات الصوفية طاغية الشعبية كوسيلة لقمع أي تجمع شعبي على نطاق واسع (بصفة خاصة بعد أن انفجرت المظاهرات العارمة في القاهرة في عام ٢٠٠٣ ضد الغزو الأمريكي للعراق)، فإن هذا الفصل يخطط لرسم المعاني الخاصة، والممارسات، وصنوف البهجة في موالد القاهرة. وعلى الرغم من أنها ليست

سياسية بجلاء، فإن المولد يستمر في التعبير عن الهويات الحضرية الجماعية البديلة وأوجه التكافل، وقهر المحاولات المفاهيمية، والجغرافية والدينية من أجل احتوائها.

يقدم هذا الفصل قراءة للأساليب التي يتم بها خلق الأماكن العامة في القاهرة، أو على الأقل يعاد بها ترتيبها بصورة واضحة، وأثناء ظروف معينة يتم خلقها في هذه الاحتفالات أو الموالد(٣). وتشكل هذه الأحداث مصادفات، مُعينة حدودها، لمكان – وزمان له قداسته، ولأنها بطبيعة الحال احتفالات شعبية ورحلات للخشوع والتنسك. وسأعود إلى تعريف "هانا أرندت" المقتضب والتلميحي في آن واحد في رحلة للبحث عن وسائل لإيضاح طبيعة المكان العام، "الشكل المحتمل لمكان ظهور المتفاعلين والمتحدثين من الناس"، وبينما يتحدد المكان في إطار هذه الاحتفالات، فإن اللغة لا تتعلق فقط بالكلمة، ولكنها تتشكل أيضًا من إيماءات، ومواقف، وقوانين، وممارسات (أرندت ١٩٧٢، ٥٧). وبالإضافة إلى ذلك، فإن أماكن هذه الموالد تتميز ليس فقط بالحوار والتواصل، ولكن أيضًا بإعادة تمازج كافة الفئات، والأنماط الاجتماعية، والنظم المكانية، والمعايير. وتتشكل بعض أشكال التواجد المشترك – والتجاور، والمواقف، والمواجهات فقط في الموالد في سياق الجيشان والجموع المُحتفلة.

ونحتاج إلى إثبات الفروض الأساسية لهذا المشروع البحثي والتأكيد على بعض المحاذير المحددة، بقدر ما يتعلق بالجانب التحليلي من منهجنا. فنحن لن نقوم بتتبع وتسليط الأضواء على الملامح والآثار غير المتغيرة والدائمة، تحت ذريعة التعامل مع مجال غريب، كما أننا لن نغالي في عرض الجوانب الدينية المحضة في هذه الممارسات الجماعية العامة. وفي ضوء ذلك، سيكون أمرًا خادعًا أن نحاول التمعن بدقة تحت "عقيدة ثابتة الأركان" عما يمكن اعتبارها "معتقدات

شعبية". ونحن نفضل أن نعتبر هذا المجال كجانب يتقاطع ويتداخل برباط وثيق مع الجوانب الأخرى.

وعلى نفس المنوال، فإنه سيكون بلا طائل أن نبذل جهدًا من أجل أن نقوم بتصنيف ما هو ديني ومقدس، وما هو أمر احتفالي؛ من أجل تكوين مجموعتين "وتفكيك" عناصر هذا المركب الذي يتكون من اتحاد حالات ومشاهد لا يمكن أن تنفصم عراها. فليس هناك مولد بلا جماعات صوفية، بالضبط كما أنه ليس هناك مولد بدون مكان للاحتفال به، وعناصر جذب، ومواضع لبيع بعض السلع. بالإضافة إلى ذلك، وبدلاً من محاولة الفصل بين مجالين من مجالات الاحتفال، فإننا سننظر إليهما كوحدة واحدة لا تتجزأ عن بعضهما البعض. ومن الصحيح أن هناك منطقا وراء التوزيع المكاني لهاتين الخاصيتين، وليس بالضرورة أن يشارك كل شخص في كل مظهر من مظاهر الاحتفال. والاحتفال هو مكان في المقام الأول، وهو نظام لا يتم حظر أي تجمع فيه على الإطلاق حيث توجد مجموعات مرنة ومتحركة تتعرض للعديد من الأفراد والعوامل الفاعلة. وسنتعرض هنا للعديد من المجالات الاحتفالية وتلك التي يُنظر إليها نظرة تقديس بتقديم العديد من التعاقبات المؤقتة والمكانية، وذلك بالاعتماد على المشاهدات التي نتجت عن مراقبة اثنين من أكبر الموالد الرئيسية في القاهرة وهما مولد الحسين، والسيدة زينب.

وسنقوم بعرض المكان المكرس للاحتفال كهيكل مكاني تم تشييده في خيال أولئك المشاركين في المولد – وكمكان حقيقي يتشكل بعملية إقليمية جماعية "لخيال" مفعم بالحيوية. ويجب أن نؤكد على حقيقة أن المولد لم يأت فجأة، ولكن الحدث متأصل في عقول وممارسات سكان هذه المنطقة. وتتدفق المعرفة والممارسات والمشاركات لكل الأتباع من كل أنحاء البلاد إلى القاهرة لممارسة تأثيرها على تكوين المكان، وذلك عندما يكون الاحتفال بالمولد لأحد البارزين من آل البيت مثل الحسين أو السيدة زينب أو السيدة عائشة. ويعرف سكان هذه المنطقة، وعلى وجه

الخصوص النساء في هذه الأحياء، أهل البيت النبوي من الرجال والنساء وينظرون إليهم نظرة قداسة خاصة ويحددون أيام الاحتفال بهم على التقويم. وتذكر نوال المصري نديم في دراستها عن أزقة السكرية، على سبيل المثال، أن مقابر الأولياء تُعد من أهم العناصر التي تشكل الموقع الجغرافي بالنسبة للنساء في القاهرة (١٩٧٩). فإذا ما نظرنا للموالد كمكان- وزمان للذاكرة المنتعشة، فإنه من الضروري أن نتذكر أن الذكريات هي ظاهرة مستمرة للأبد، وأنها رباط حي للحاضر الأبدي.

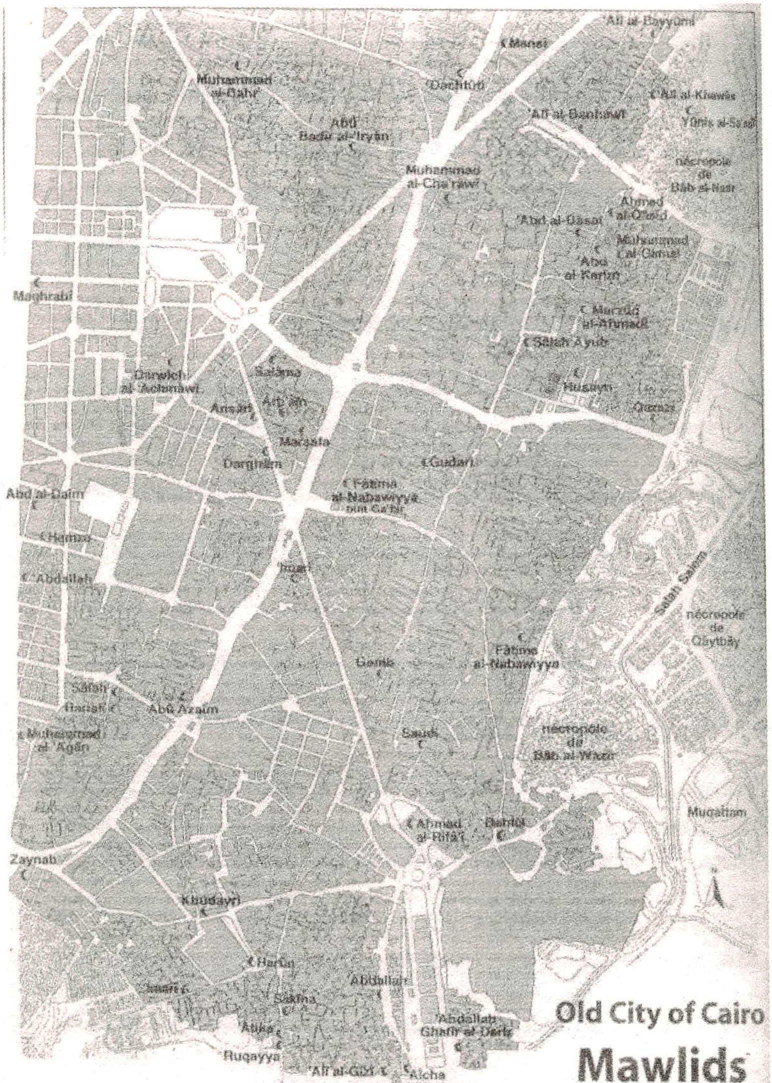
الاحتفالات المصرية بالأولياء

تعتبر الأعياد احتفالات دورية تقوم بتحديد إيقاع العام بأكمله للكثيرين ممن ترتبط حياتهم بالزراعة، والطبقات الشعبية في القاهرة، وأيضًا بالنسبة لقطاعات واسعة ومهمة للغاية من الجهات الفاعلة للطبقة الشعبية في المجتمع المدني والتي تقوم بدور تنظيمات الآلة السياسية، والجماعات الصوفية في مصر. وفي أماكن التلاقي هذه والمكرسة للاحتفالات الدينية، يتوافد العامة في جماعات للاحتفال بأعياد مولد الرسول محمد وآل بيته (أهل البيت)، بالإضافة إلى موالد كل الأولياء الصالحين المسلمين، والمسيحيين، بل واليهود (في الماضي القريب). وتتراوح أعداد الحاضرين في كل هذه الاحتفالات المهمة من العشرات إلى مئات الآلاف من الناس. وأهم هذه الموالد الاحتفالية تتم في القاهرة، بالإضافة إلى تلك التي تتم في منطقة دلتا مصر (السيد البدوي في طنطا، وإبراهيم الدسوقي في دسوق). وطبقًا لما يذكره وزير الأوقاف، فإن هناك أكثر من أربعين ذكرى لمولد أولياء الله الصالحين وأهل البيت، وطبقًا لما يذكره مجلس شورى الطرق الصوفية، فهناك على الأقل ثمانون احتفالاً لمؤسسي الجماعات الصوفية. وينبغي أن تضاف عشرات الاحتفالات الصغيرة إلى أرقام هذه التعدادات. وترتبط الممارسة واستمرارية هذه الاحتفالات بوضوح للحظوة البالغة والارتباط الاجتماعي لهذه

الجماعات الصوفية. ويتوزع مالا يقل عن ستة ملايين رجل هم أعضاء الجماعات الصوفية في مصر، على أكثر من ١٢٠ جماعة، منهم ٧٣ جماعة مسجلة ومعترف بها رسميًا. ويحتشد أعضاء الجماعات الصوفية ويرتبطون بالعديد من الجماعات، والتي أهمها الخلواتية، والأحمدية، والبرهامية، والشاذلية، والرفاعية، والقادرية *(Luizard 1990)*.

وتشير تقديرات الصحافة المصرية أن مليون زائر يؤمون ويشاركون في احتفالات مولد الحسين وشقيقته زينب، وهو رقم جزافي، وله دلالته. ويفد سكان القاهرة بأعداد هائلة لهذه الموالد، ولكن الزائرين من باقي أنحاء مصر أيضًا يأتون زرافات ووحدانًا، يحملون بيارق العديد من الجماعات الصوفية. وكموضوعات للدراسة، فإن المؤرخين مغرمون بصفة خاصة بهذه الاحتفالات، وبصفة خاصة دراسة هذه الطرق الصوفية، وتنظيمات الجمعيات الدينية، ووظائفها الاجتماعية، والسياسية والثقافية، وأسرار الانجذاب الصوفي والورع (*Chich 2000, Luizard 1993, Mayeur-Jaouen 1995*). ونقوم بالتركيز هنا على وظائف الجغرافية الحضرية والأعراض المصاحبة لها كأبعاد حاسمة، تُسدل عليها ستائر الإهمال.

ربما بدأت البحوث الحديثة عن احتفالات المولد "بخطط" علي باشا مبارك التي جُمعت في نهاية القرن التاسع عشر، أو الإحصاء الوصفي لماكفرسون للاحتفالات (١٩٤١). ويقدم كتاب الصور الفوتوغرافية التي يعلق عليها بيجمان العديد من المشاهد لمجموعة من احتفالات المصريين (١٩٩٠). ويتضمن الأقاصيص التي يحكيها المسافرون في بعض الأحيان عن تطور الاحتفالات في أماكن معينة *(Lane 1989, de Nerval 1980)*. وأخيرًا، توضح الأعمال الأدبية المعاصرة، في روايات (يحيى حقي، ونجيب محفوظ، وقاسم)، وبصفة خاصة في تراجم (طه حسين، وعويس) معنى وشدة الأواصر الاجتماعية والشخصية، والحضرية، والمكانية التي ترتبط مع بعضها البعض في سياق المولد.



خريطة توضح موالد القاهرة

وهناك، على الرغم من ذلك، احتياج لتفسير "الجغرافيا الحضرية" لهذه الأحداث. ومع أن هناك أقطارا أخرى، وعلى وجه أخص في دول المغرب العربي، تلقى فيها هذه الاحتفالات اهتمامًا أكبر تحت أشكال ومسميات أخرى (مواسم)، وعلى الأخص في مجال أبحاث علم الإنسان وعلم الاجتماع. ومن الملاحظ أن الصوفية بأنماطها المختلفة، واحتفالاتها، والاهتمام بأمور خارجية كالوجد، كانت هدفًا لانتقادات ضارية من الدولة، والسلطات الدينية، والطبقة الوسطى منذ ما قبل العصر الحديث. وبالتأكيد، منذ قدوم الصحوة الإسلامية، فإن هذه الثقافة بأسرها كانت موضع اتهامات بغموض الطقوس، وبعدد من الشعائر الاجتماعية التي اعتبرت بالية، وبالتالي في سبيلها للاندثار. ويمكننا أن نعتبر الاحتفالات كنوع من أنواع التعبير عن الإسلام التقليدي، والشعبي التوافقي، الذي ربما لا يتماشى مع الإسلام القويم، ويتم تجاهله أو تهميشه، بينما يقوم أكثر الباحثين بتركيز اهتمامهم وعنايتهم على أصوات الإسلام السياسي الأكثر تشددًا وتزمتًا للطبقة الوسطى. وطرحت احتفالات المولد الحضرية مفارقة في وسمها بأنها تتسم بالضجيج، والشعبية، ولها هوية دينية لكنها منفصلة نسبيًا، ولا تنتسب للإسلام القويم، كما توصف بأنها أحداث غير سياسية. وسأبرهن في هذا الفصل على أن هذه الموالد، وحتى وقت قريب، لم تكن تعتبر في عُرف الدولة شكلا من أشكال المقاومة أو مصدرا لخطر عام. وربما لأن وجودها كان يقتصر داخل أحياء القاهرة القديمة المُهمشة والمقابر، ولأنها كانت تتم في إطار وقتي سريع الزوال، و"غير واقعي" بوضوح. ولأول وهلة، قد لا يكون لها تأثير مباشر على البرامج السياسية، ولكنها تزخر بتحولات مضادة محتملة، وانقلابات متوقعة.

نظام جمالي وعملي

تبرز الموالد وتتطور في تفاعل مع خصائصها التنافسية المكانية، والثقافية الشاملة للحي الذي تقام فيه. وهي تقوم بإعادة تكوين المكان وتتخذ شكل ممارسة

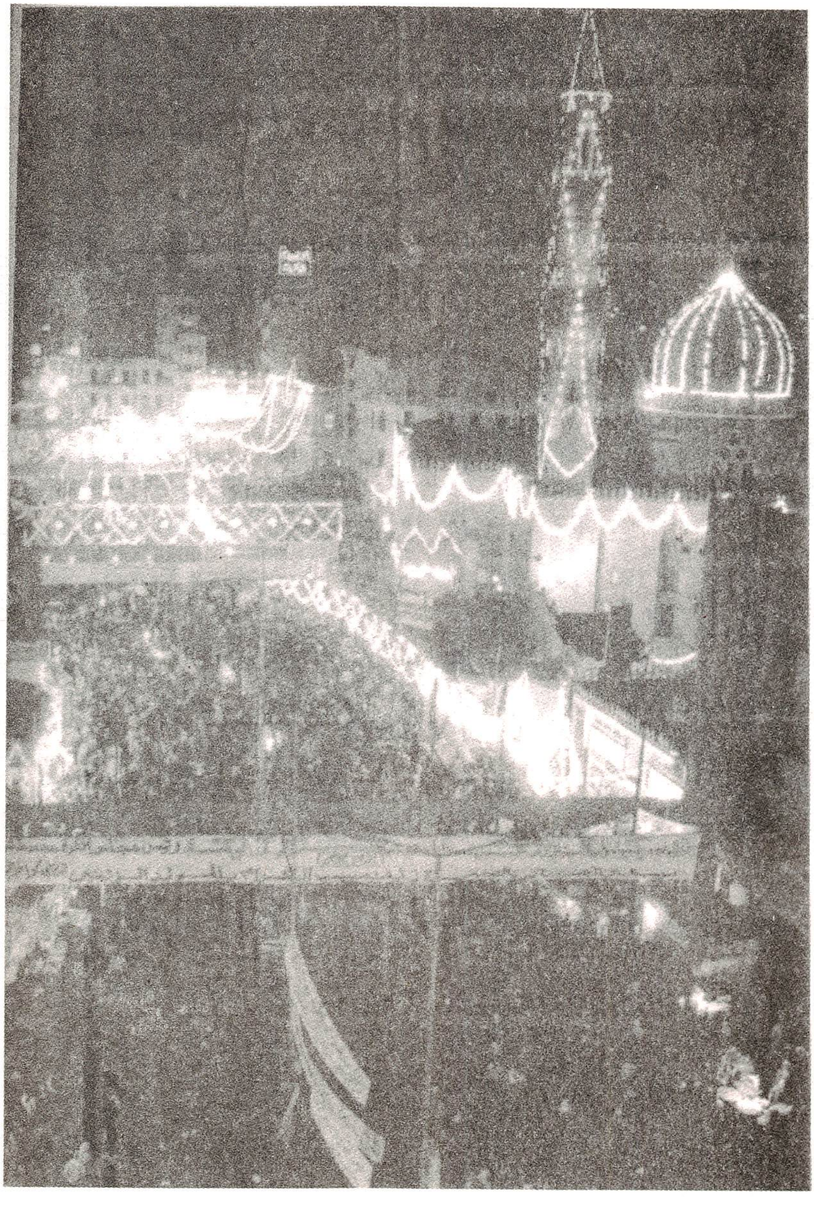
أسلوبية حقيقية، وتستند على الحركات الإيقاعية: وتحمل مضمونًا، وترتيبًا، وتؤلف عناصر زخرفيه خالقة لمضمون وجوهر. وهذا الإخراج المسرحي، على الرغم من إدراكه مع تدبير ملحوظ في الوسائل، فإنه يقوم بخلق تأثير خاطف للأبصار. وينبض الإطار العام للديكور بالحياة، مع ثراء في تصميمات داخلية متعددة الاستخدام، بالإضافة إلى ألوان طيف من الإضاءة الملونة. وتتجاوز هذه الشبكة المتكررة طاقم المنشدين. وتستكمل المنازل وقاعات عرض السلع وتتكامل مع الأجواء المحيطة بألوان وأنماط متناسقة، خالقة إبداعًا متكاملاً. وتتدثر أبراج المآذن السامقة لضريح مسجد الإمام الحسين بأكاليل من الأضواء المتلألئة، ويتخذ المسجد المتأنق اسم "عروس" الاحتفال. وتتدفق أضواء صفوف المصابيح الملون المتلألئة حول المسجد لتنساب حول الشوارع والأزقة المحيطة لتشكل هندسة المباني المحيطة، ومهيأة سرادقات غارقة في الأضواء وعامرة بالحيوية. وتتلألأ السرادقات المستطيلة والقائمة على أعمدة خشبية مصنوعة من نسيج أحمر سميك ومزركشة بأشكال هندسية متنوعة وتصميمات متشابكة. وتشغل هذه السرادقات كافة الأماكن المتاحة، من الجانب الشرقي لمسجد الإمام الحسين أو ميدان مسجد السيدة زينب وإلى الأزقة والساحات المحيطة بالمناطق السكنية المجاورة. السرادقات الضخمة والأنيقة، بأضوائها الداخلية المعلقة في السقوف، وأرضياتها المغطاة بالسجاجيد الشرقية، تمتلكها الجمعيات الصوفية نفسها. ويستقر أعضاء الجماعات الصوفية أنفسهم داخل هذه السرادقات، حيث تنعقد مظاهر الاحتفالات ويتم أداء الموسيقى المصاحبة. وتعلو هذه السرادقات رايات تميز ألوانها، وتدل في نفس الوقت على الانتماء لجماعة صوفية معينة (الأسود للرفاعية؛ والأحمر للأحمدية؛ والأخضر للبرهامية)، والأصل الجغرافي للوافدين من داخل مصر. وعلى هذا النحو، فإنها تبرهن على تواجد المناطق الريفية في قلب المدينة العاصمة: "البرهامية من دسوق"، "الأحمدية من المنيا"، وهكذا. كما تنتشر أيضًا

سقيفات من كتان غليظ، من أجل إيواء الوافدين الآخرين، والمشاركين في الاحتفال، والحاشية المصاحبة لهم وأقاربهم. وتعسكر هذه المجموعات في وسط الشوارع، وعلى الأخص الشوارع المحيطة بالمسجد، أو السلالم، والمداخل، وعلى الأسطح، والأرصفة، أو في الواقع في أي مكان يمكن أن يتم فيه تثبيت مأوى مؤقت. وتقدم المعارض المزركشة تلالا من الحلوى، والحمص المجفف؛ كما تحمل العربات المتحركة طواق ملونة، وأقنعة، وسترات نسائية، وحلي، وتمائم لجلب الحظ الحسن. كما يتم تخصيص الأكشاك في الشوارع الأخرى حصريًا لاحتياجات الأطفال من كافة أنواع الدمى، والملاهي المتنقلة، مثل ألعاب الرماية بالمسدسات، ولكنها تقدم أيضًا الرقص، والموسيقى، واستعراضات العرائس المتحركة. وأحيانًا، فإن ملعبًا صغيرًا يضم المراجيح الدوارة والسيارات المتصادمة يمكن أن يستكمل الصورة العامة لطائفة ألعاب اللهو والتسلية.

ويتفاوت الضجيج وكثافة المهرجانات يوما بعد يوم (تتزايد كلما اقترب اليوم الأخير من فترة الاحتفالات)، وساعة بعد ساعة (تبلغ الذروة حوالي الساعة الحادية عشرة مساء أو منتصف الليل) وحسب موقع المكان في المساحة المترامية الأطراف. ويشمل المولد بالإضافة إلى سماع التواشيح قطارات الملاهي الأفعوانية المضيئة: وطلقات التصويب من لعبة مسدس على أهداف محددة من أجل الحصول على جوائز، وصرير مجموعات الأراجيح عندما تقف ليعتليها أطفال آخرون، وإيقاعات الصنج النحاسية والطبول المصاحبة لعروض التنورة للدراويش، ونداءات الباعة المتنافسين على اجتذاب الزبائن، وأصوات صفارات تنطلق من مجموعات من الأطفال، وصراخ الدمي المتحركة في العروض المُقدمة، وأصوات التراتيل الدائمة للقرآن الكريم، والأصوات المليئة بالحيوية للصادحين بالأغاني الشعبية، وكلها تمتزج بالتواشيح الإيقاعية للأذكار الصوفية التي تنساب عبر مكبرات الصوت من داخل السرادقات. كما يمكن للمرء أن يرى حشودا من

شاحنات النقل الصغيرة وهي تجتاح الحي، وهي مُحملة بأكداس من مواد لنصب سرادقات جديدة، وسجاجيد أرضيات، ومقاعد، ومولدات كهربائية، وأجهزة كهربية، ومعدات صوتية، بالإضافة إلى المنقولات الضرورية للحياة اليومية (طعام، ومناضد، وأغطية للمناضد، وأدوات مطبخ، وغيرها).

وتستمر عمليات نصب السرادقات، وتهيئة المعدات، وإعداد أماكن العروض لعدة أيام قبل الاحتفالات. وتبدو الأحياء التي تستضيف الموالد وكأنها تنأى بنفسها عن باقي أنحاء المدينة وتصبح عالمًا آخر لا يعنيها إلا أمر نفسها وهي تتهمك للشروع في الدخول إلى إيقاع الاحتفالات الصاخبة.



ليلة المولد في حي السيدة زينب (تصوير جين بيير ريبير)



أطفال يركبون السيارات التصادمية أثناء مولد السيدة زينب (تصوير جين بيير ريبير)

أصبحت هذه البقعة من المدينة عندما تأهبت لاحتفالات المولد وأخذت زينتها، أقل وضوحًا لحدود مبانيها الأفقية ومظهر سطحها الرأسي. وتم إلغاء الأبعاد الفاصلة بينها وبين جيرانها مؤقتًا، ونتج عن ذلك امتداد بصري يشبه قطار الملاهي الأفعوانية، مشهد من السرعة والأضواء. كما تم إقرار استمرارية زمنية أيضًا: فقد تواصل الليل والنهار معًا، وبهجة الحياة وضجيجها مع فيض الحياة المتدفق. وتنطبع الموالد في الأذهان كاحتفالات ليلية ويتم إعلان تاريخها في العام المقبل في الليلة الأخيرة من احتفال العام الحالي. وعلى الرغم من اختلاف الليالي والأيام، وتناقضهما الإيقاعي، فإنه تم استغلالهما وجعلهما مفعمان بالحيوية عن طريق طائفة من الأنصار، فأصبح كل من الليل والنهار يعُجّان بالحياة. وإذا تطلعنا إليه من هذه الزاوية، فإن المولد يمكن أن يبدو لنا احتفالاً خليطًا لا يمكن أن تقوم فيه بالتمييز من الناحية الشكلية بين ما هو ديني وما هو دنيوي. وتشيع روح البهجـــة عن طريق الحماسة كما هي بالفرحة، والتوقير الممزوج بالمرح. ولا يبدو لنا المولد، بهذا المعنى، كتجمع مضطرب. ويتوافق التوزيع المكاني للعناصر التي يتألف منها المولد، وبوصفها دلالة لاقترانها بما هو في عداد المقدس وبما هو مدنس، مع منطق مكاني وحضري متماسك بديل للمولد. وهذه يمكن تحديدها بالتفصيل ويمكن استيعابها بواسطة كل المشتركين. وعلى نفس المنوال، فإن الموالد تتألف من مجموعة من المشاعر المتناقضة، ومن أماكن مفتوحة ومغلقة، ومن مناطق تعج بالضجيج وأخرى للتأمل، ومن مناطق للتوسع والامتداد، إلى أخرى تميل إلى التركز. وتشكل الموالد إقليمًا خاصًا بها. ولديها مركز وتحدد أماكن العرض، التي تتميز جميعها بالإضاءة الجيدة، والضجيج، والنظام، بالإضافة إلى الممرات الجانبية، والأركان، والزوايا المنعزلة، والدروب المغلقة، والمناطق المضيئة والخافتة الإضاءة. وكلما ابتعدت عن منطقة المولد وتحولت إلى مناطق المدينة المعتادة، تجد حوافها غارقة في الغموض، وفي الأماكن الرثة حيث تمتد إليها هالات الأصوات والأضواء المنبعثة والممتدة.



أحد أعضاء الجماعات الصوفية يؤدي مناسك الذكر في أحد سرادقات السيدة زينب (تصوير جين بيير ريبير)

وكل مولد فيه احتفال لا نظير له، ولكنها جميعًا تحمل بعض الخصائص المشتركة. فكل واحد منها يتم فرضه في أماكن متواجدة بالفعل، وفي نفس الوقت الذي تقوم فيه باستيعاب المكان، فإنها تقوم بطمسه جزئيًا. وهي تقدم مجموعة من الخصائص المهيمنة التي تقوم بخلق جو من التفرد والابتذال في آن واحد، ومشهد حضري أصيل كما هو مألوف. وبهذا المعنى، فإن السكان المحليين أو الوافدين من الأقاليم عندما يتوجهون إلى المولد، فإنهم يشعرون أنهم مقبلون على رحلة مثالية وإلى مكان يصيبهم بالارتباك ويشعرهم بالاطمئنان في آن واحد، ويمكن التنبؤ به مكانيًا وزمنيًا، مع احتمالات بالانقطاع والمفاجأة الكامنة فيه. وتظل التحويرات المحتملة في معالم المشهد الحضري وترتيبات الاحتفال لانهائية وتتم بمهارة فائقة.

ويمكن أن يعتقد المرء أنه يجب تكون هناك خطة للإضاءة تقوم على ضمان وجود ظلال وأضواء خافتة من أجل التأكيد على إزالة التوتر وإضفاء الأجواء الدينية. ومع ذلك، فإن التأثير المعاكس هو الذي يسود. فالإضاءة بالغة الشدة: أضواء المصابيح المتعددة الألوان، وفوق كل ذلك، أضواء مصابيح النيون، قوية للغاية وتتميز بالسذاجة. ويبدو أن الأضواء والضجيج يتنافسان مع بعضهما البعض إلى حد البحث عن تحقيق رقم قياسي والاندماج في نوبات هياج عصبية. ولا تعتبر ساعات الليل هنا كميقات معاكس لأوقات النهار الحضرية من حيث النوعية. وبدلاً من ذلك، فإنها تفصح عن نفسها برحابتها كامتداد لساعات النهار: فهناك بشر أكثر عددًا، وأنشطة أكثر تنوعًا، وزحام وضجيج أكثر، بل وإضاءة أكثر مما يمكن أن يجده المرء في ساعات النهار.

من يرتاد احتفالات بالموالد؟ من الواضح بجلاء أنهم كل أنواع البشر، وبصفة خاصة أولئك الذين ربما ينتمون إلى من يُطلق عليهم الطبقات الشعبية(٤). ويلقي الاحتفال في خضمه بكل أنواع البشر من الأقاليم، وسكان القاهرة، والباحثين

عن المتعة، والمتلهفين إلى التنسك والورع، كما يثير الاحتفال احتمالات أخرى للاختلاط الاجتماعي. ومع ذلك، فإن الاختلاط الاجتماعي الأكثر وضوحًا، والأكثر جلاءً في عدم وجود دليل، هو الاختلاط بين الرجال والنساء. ويجد الرجال والنساء أنفسهم، في هذا السياق، جنبًا إلى جنب في مكان عام، بينما الشائع بوجه عام، هو الاحتفاظ بالتباعد بينهما، بينما التقارب المادي والتلامس بين الرجال والنساء يكون أقل ما يكون، وحيث المكان الذي تتواجد فيه النساء بصفة خاصة، تكون هناك سيطرة متشددة.

وما لوحظ من مشهد أثناء الليلة الأخيرة لمولد السيدة فاطمة النبوية فيما بين الساعة الثامنة والعاشرة ليلاً، يمكن أن يكون مثالاً: ففي شارع مزدحم، حيث جلست إحدى الأمهات على مقعد في مدخل مبنى مسكنها ومعها ابنتها (في حوالي العشرين من عمرها) وهما يتجادلان. والابنة الشابة، التي كانت قد ارتدت ملابسها وتزينت للخروج، وقد خضبت شعرها باللون الأشقر، وكان واضحًا أنها قد تأهبت للخروج، ولكن أمها لا تريد أن تسمح لها بذلك. وخاطبت المرأة التي كانت تصيح غاضبة أولئك المتواجدين في المشهد (الجيران والمارة)، بدلاً من أن تخاطب ابنتها، التي كانت تصرخ معترضة على عدم السماح لها بالخروج. وكانت الأم، في حقيقة الأمر، تقوم بتربية ابنتها بمفردها، ولا يمكنها اصطحابها في تلك الليلة؛ لذا كانت تفضل ألا تذهب ابنتها بمفردها بعيدًا. وتدخل بعض الجيران قائلين: "إننا جميعًا هناك، والحي بأكمله هناك، دعيها تخرج الليلة للمولد". وعلى الرغم من البكاء، والدموع، فقد ظلت المفاوضات في المشهد بلا تغيير. وبعد فترة من الصمت، استسلمت المرأة للضغوط؛ وخرجت الابنة مع صديقة لها، وسوف تنتظر الأم في مدخل المنزل، عودة ابنتها. وهكذا فإن الجيران كانوا شهودا على موقف المرأة المتصلب، وعلى طاعة الفتاة لأمها، واستعراض المبادئ التي تتحكم في تحركات وحرية الفتيات الصغار. ولكن يجب التحرك بحذر لهذا الخروج، والذي

كان يعتبر مستحيلاً – وحتى لو افترضت – عن طريق الاستغاثة بالتوسل بالثقة، وتخويل المسئولية، والاستثناء الذي يمثله هذا الاحتفال. وسيتم تنفيذ مراسم العودة، مثله مثل التصريح والخروج، علنًا وفي نفس المكان، أمام المبنى الذي تقع فيه الشقة السكنية.

المولد: احتفال وموضع

كيف يمكن للمرء أن يستوعب المولد كموضع جغرافي؟ وكيف يمكنه التقاط وتحليل الحركة الدائمة التي يشتملها تشكيل مكان- وزمن محدد؟ فلا تقدم الاحتفالات التي تقام في أيام معدودة فقط كل عام للباحث وقتًا كافيًا يمكنه من إجراء تحليل جاد. وتقوم الطبيعة سريعة الزوال للاحتفال بتحويل تحقيق الباحث إلى شذرات متناثرة. ويبدو كل واحد أثناء الاحتفالات وكأنه يعيش ويعمل وهو في عجلة من أمره ويبدو عصيًا على الباحث الإمساك بتزامن المواقف والمشاهد. وهكذا فقد قمنا بتجربة تطويع منهجيات الجغرافيا الاجتماعية مع المشهد الحضري المتأرجح للموالد بين الصعود والهبوط، والإمساك اللحظي بالبيانات التي يتم خلقها أثناء التجوال الجزافي، والمنهك. وقد اخترنا قبول لحظية المولد وتكيف مناهج البحث- الانطباعية، واختيار العينة- مع قيودها. وعلى الرغم من ذلك، فإن مجالا أوسع لتحليل تجريبي أكبر لا يزال متاحًا أمام الباحث، لأن الاحتفال هو أيضًا منتج طويل الأمد لمجتمع، ودولة، وأنماط تنظيم حضرية، وصراعات ثقافية- وسياسية أقل تلاشيًا؛ والموالد موضع نقاش، متفق عليه، ويحتدم الصراع عليه، وتوضع له برامج، ويسمح به، وتتم حراسته، وتنظيمه. وعلى الرغم من أن التحليل الذي نعرضه في هذا الفصل لم يأخذ هذه الجوانب في الحسبان، فإننا نقر بأن أي بحث مستقبلي على هذه الظواهر يمكن أن يكون مكملاً لجوانب أعراض وأوجه

الجغرافيا الاجتماعية لهذا الفصل. وباختيارنا للسريع الزوال، فإننا كنا انتقائيين إلى حد بعيد، ونقوم بعزل أحداث الموالد بمحض المصادفة.

وهنا، وبعد ذلك، تُعرض وتسجل بعض المشاهد التي تم التقاطها بالمصادفة بمناسبة الجولات غير المنتظمة التي أُخذت خلال احتفالات المولد، وبعض الرسوم التخطيطية التي قدمت وكأنها صور بغير إطارات، وربما تبدو وكأنها تحدث للتو (وهو الإجراء الذي يتم على عجل وعفو اللحظة). وتسمح لنا هذه الرسوم التخطيطية أن نتصور الطرق التي بواسطتها يتم خلق الأجواء الدقيقة، وأن نزيل بعيدًا القشرة الخارجية للأحداث واسعة النطاق. ويمكن أن يقدم هذا النمط من قراءة وفهم المدينة شخصية أداء للحظات الحدث، ويأخذ في الاعتبار انتقائيًا معظم الحالات المتكررة ووضعها في سياقها ذي المغزى.

المدينة أثناء المولد: نماذج، وحالات، وممارسات غير مستقرة

يبدو فضاء المدينة في الحي أثناء إقامة المولد وكأنه مفعم بالمفاجآت، والتأويلات، والتنظيم المتعدد لجزئيات على أساس إقليمي. وهي تتشكل "كأركان صغيرة" لا نهاية لها، تم احتلالها والدلالة عليها عبر ممارسة غير مستقرة – أي قادرة على التكيف، ويمكن إعادة تجميعها، وتغييرها. ويتجسد وجود الزائرين أثناء احتفالات المولد من خلال توزيع الأشياء الموضوعة في الشوارع، وأمام الحوائط، والحواجز الموضوعة على الأرصفة وغيرها. ويلحظ المرء عند المراقبة بدقة، وبالتفاصيل، في الأماكن المكشوفة شأنها شأن الفجوات المختفية العديد من الأشياء والتأثيرات. فإذا لم يكن الوصول إلى ميدان الحسين (الذي يقع أمام المسجد الكبير مباشرة) متاحًا أمام الناس، فإنه متاح تمامًا أمام البضائع. وتبدو هناك أمام الطوق الخارجي غير المسموح به، على طول الحائط المنخفض والمتوج بقضبان حاجزة تعين حدوده، مساحة كبيرة لإيداع الحقائب: صفوف من حقائب السفر، والأكياس،

وشنط التسوق، وبالات، وطرود متروكة هناك وتؤخذ عند الاجتياز، وذلك ببساطة عن طريق الوصول إليها عبر الأسوار. وحتى النافورة المائية الجافة المتواجدة في وسط الميدان ممتلئة بالمتعلقات الشخصية "للزائرين". وتستخدم المسامير الضخمة على بوابات مسجد الحسين كمشاجب للمعاطف، وكل واحد من هذه المسامير مكدس بالملابس والحقائب المُعلقة عليه. وتستخدم قاعدة البوابات بمثابة مائدة لأباريق الشاي، والأكواب، والصواني، والأقداح، وغيرها. وتتكدس القاعدة المسطحة من نوافذ نفس المسجد بالسقالات والتي تتكون من طبقات من الطرود، والحقائب، والطرود. كما تستخدم الأشجار القليلة المتناثرة في الميدان كدعامات وفروعها لا تكاد تبدو تحت الصرر المُعلقة عليها. ووضعت الحقائب أيضًا حول قواعد أعمدة الإنارة. وتحددت الأرصفة وحواف الشوارع، بالحصر المفروشة على الأرض والتي تحتلها مجموعات معينة، ومكتظة بالأدوات المستخدمة في تناول الطعام وأغطية النوم. وتستخدم بنفس الطريقة المداخل والممرات للشقق السكنية، كأماكن للإيواء وتخزين الحاجيات.

أصبحت التسلية العامة والخاصة غير واضحة جزئيًا وتداخلت، كما أُعيد تعريف وظائف الأماكن العامة. وينوء كاهل الحي بالزحام، ولكن الأمور مرتبة، والبشر على وجه الأخص مستقرون. وتشمل الأشكال الإرشادية الأخرى اللافتات الممتدة على واجهات المباني السكنية أو المقار الدينية حيث يقطن أفراد الجماعات الصوفية، أو تتدلي من النوافذ أو الشرفات، أو معلقة عبر الشوارع وخلف مكبرات الصوت- وتؤدي هذه اللافتات وظيفتها كعلامات مرئية بينما تؤدي مكبرات الصوت وظيفتها كأداة سمعية جهورية، وشاهدة على المواقع المختلفة للجماعات الصوفية. ويضاف إلى كل ذلك اللافتات الإعلانية للتجار ورجال الأعمال المنتمين لهذا الحي.

ويتم استغلال كل المسطحات والمساحات استغلالاً فائقًا بفضل العديد من الحيل العملية التي تقتضيها الضرورة، ولكن أيضًا طبقًا للابتكارات وملكات الخيال الجامحة حيث يتم الاستيلاء على الأماكن الحضرية العامة بكافة أبعادها، وأحجامها، وهياكلها. ويتم انتزاع تخصيص هذه الأماكن العامة من موارد المدينة، ولكن يمكنك أن تتخيل أماكن جديدة، وجعل أماكن أخرى أكثر كثافة، وإعادة تشكيلها، وخلق أبعاد جديدة. ويعاد تغيير أنماط العديد من الأشياء الحضرية الصغيرة أيضًا (مثل قواعد النوافذ، والأركان العديدة، وأرصفة المشاة، والمماشي، وغيرها) وتخصيصها، لتصبح أكثر دلالة وتدعيمًا لمناسبة احتفالات المولد. ويتم تحويل هذه الأشياء من وظيفتها الأساسية بمناسبة الاحتفال، والتي قد لا تعد "شيئًا مذكورًا" أثناء الأيام العادية، والتي يمكن ألا يلحظ المرء وجودها من الأساس. وهكذا، فإن هناك العديد من الوسائل لتجربة اختيار الموضع الملائم، أو الانسجام مع من حولك. ودعونا نقوم بالتركيز على واحد من الأكثر شيوعًا من بين كافة الاحتمالات الممكنة لاستخدام الأماكن في المدينة، ومن بين كل الدلالات المُدركة، وهي المخاطرة بادعاء صغير بملكية ركن على رصيف سير: وذلك عندما يكشف شخص عن قطعة من قماش، ويضعها مفروشة على رصيف الشارع، ربما لا تبدو كحيلة بارعة. ولكن قطعة القماش هذه تستحضر قوة سحرية لأسرة تتكون من ستة أفراد سيقومون بقضاء أسبوع كامل (بأيامه ولياليه) ويعيدون ابتكار هويتهم من حيث الجنس، والحضرية، والطبقية، والروحية، ويأكلون، ويشربون وينامون، ويحافظون على كرامتهم ويعيدون التفاوض حول حدودهم ويعيشون تجربة حياة أيام المولد كأعظم ملذات العام، وكل ذلك وهم يحتلون فقط مساحة قطعة من القماش يفترشونها على رصيف الطريق!



بيارق وإعلانات خارج حي السيدة زينب أثناء احتفالات المولد (تصوير جين بيير ريبير)

السائرون على الأحبال المشدودة هنا وهناك:

تحركات وتجهيزات واستقرار

لا تتوقف الحياة الحضرية في القاهرة أثناء أيام المولد. ويأتي الناس ويذهبون، ويقضون مصالحهم الخاصة، ويعملون، ويمرون من خلال وأمام مكان الاحتفال بالمولد. وهذا الحيز ليس ثابتًا، ولكنه يمثل حضورًا يقظًا، يوحي به، أو يستشف من الزينة، والمشاهد، والمواقف المُسجلة بعناية فائقة في تاريخ الاحتفال. وكما يردد (*Pierre Sansot*)، "يتراوح المكان العام بين ما هو يومي معتاد وما هو احتفالي" (٢٠٠٣، ٤١). ويترجم هذا التراوح من خلال النوعية النافدة لهذا العالم الحضري واتجاهات المولد. ويكون بعض الناس سائرين، ويكون الآخرون جالسين أو راقدين؛ وبعضهم يتحدث، أو يستسلم للرقاد، أو يأكل، أو يشرب؛ بينما يتضاحك آخرون، أو يراقبون المحتفلين، أو لا يفعلون شيئًا على الإطلاق؛ ولكنهم جميعًا منهمكون هناك في خلق عالم مدينتهم. وكيف يمكن للمرء المنهمك في مشهد أو عمل واحد ثم ينفصل عنه ليندمج في قصة أخرى تجرى أحداثها في نفس الوقت؟ ببساطة بأن يستدير من هذا المكان لآخر، سواء بمجرد أن يلتفت بناظريه أو أن يترك المكان بجسده. وبهذه الوسيلة فإن هناك العديد من مستويات الاندماج تتجمع أو لا تتجمع في مشهد واحد أو في العديد من المشاهد في آن واحد، من الاستثنائي إلى المتباين، ومن الخضوع إلى اللامبالاة، ومن التجربة العميقة إلى تجربة الهاوي لفن ما.

استقبل مقهى مفتوح يقع ناحية الجهة الشرقية من المسجد فرقة غنائية بعد ظهر يوم من أيام شهر يونيو ٢٠٠٣ أثناء احتفالات مولد الحسين. وكافأ الجالسون في الصف الأول من العملاء على مقاعد مزودة بوسائد مخملية (يبدو أنهم من المعتادين على التردد على المقهى)، الفرقة الغنائية بورقة نقدية من فئة الجنيهات

العشر؛ وشكرهم المغني في رد لمجاملتهم، وأضاف صاحب المقهى شكره بصوته. وكان هناك في كافة أرجاء المقهى عملاء آخرين، ولكنهم كانوا يجلسون على مقاعد خشبية. كما كانت هناك خلفهم صفوف من المتفرجين الآخرين الذي يقفون على أقدامهم، مستمتعين بالغناء بنفس قدر توزيع الناس، الذين يثيرون التعليقات بين بعضهم البعض. وتمر سيارة في الشارع المزدحم من حين لآخر، والذي يقع على مقربة من المقهى. وكل سيارة تحاول المرور بحنكة تستحوذ على انتباه بعض المتفرجين، وبعض هؤلاء يتدخلون للمشاركة باهتمام، وينهمكون في إرشاد قائد السيارة عن كيفية الخروج من مأزق الزحام. وربما يمكن اعتبار ذلك استراحة أو فاصلا مسرحيا يتم خلقه بمرور السيارة، والذي يحجب أو يحدد تراجع بعض المشاركين، الذين يعودون للمتابعة بعد انصراف مؤقت عن المشاهدة، أو يعودون لسيرتهم الأولى. ويعمد عدد من باعة أجهزة الراديو كاسيت، وعلى نفس المنوال، إلى بث الأغاني. ويستعرض الكثير من الناس، عندما يعبرون من هذه الأنحاء أنفسهم، عن طريق الصفير، أو السير بخطوات راقصة، أو القيام بطقطقة أصابعهم. وتتشكل بهذه الوسيلة خطوات رحلة الكثيرين، محبوكة مع بعضها البعض، أو تتضح بجلاء مع تعاقب الحقائق المتغايرة بصورة لا نهائية، أو تعاقب المشاهد، والأجواء، التي تحمل معنى لمسار كل شخص طبقًا لقوة التحريض، ولكن بصفة خاصة طبقًا لدرجة التقبل والوقت الممنوح لهؤلاء المشاركين. وهكذا، تظهر النتائج في المدينة في نفس الوقت واضحة ومشوشة. وهكذا تنتج التعديلات أثناء المولد عن طريق صراعات ومظاهر عدم القدرة على التنبؤ الدائمة.

ويعتبر الزحام في المولد بنية اجتماعية خاصة تتميز عن "الدهماء" في علم الاجتماع القديم، أو "الجمعيات" في دراسات الحركات الاجتماعية. ويجمع زحام المولد ما بين إخفاء الهوية والإفصاح عنها، فهو يسمح باستعراض هوية المشاركين ومواربتها في آن واحد. فهي تتيح للمرء أن يقوم بزيارة الآخرين

والتواصل بقوة معهم، أو بنفس القوة أن يتجاهل تمامًا وجود الآخرين. وفسر إسحق جوزيف شخصية السائر نائمًا وهو نوع من الشخصيات التي تسير على غير هدى في (*le passant considerable*)، كفرد اجتماعي يعضد هويته الحضرية وتعطشه إلى إغراق نفسه أو نفسها في المكان العام أو الزحام (١٩٨٤). (يمكنك الرجوع إلى الجزء الخاص بباتيستي في هذا الكتاب لترى كيف تحتفل الجموع الغفيرة في حديقة حيوان الجيزة بتواجدهم الكثيف، وقوله أن "النـاس يمنحون قُبلة الحياة أو "الروح" للمكان). وتظهر شخصية مجازية أخرى من داخل زحام الموالد، وهو "السائر على الأحبال المشدودة": فهو يدخل إلى عوالم تنتمي لمسارات خطرة تتسم بالتردد، والغواية، واتخاذ قرارات خطيرة. ويعتبر السائر على الأحبال المشددة خبيرًا في التوازن ويكون تقدمه غالبًا مدعومًا بسارية طويلـة، أو بمظلـة خفيفة أو أي شيء آخر يعاونه في الاحتفاظ بتوازنه (أو توازنها) على الأحبال المشدودة وتنفيذ التحرك الضروري والكشف عن أسلوب الأداء. وتساعد الأشياء التي يحملها المشاركون في المولد في حفظ توازنهم أثناء تواجدهم وسط هذه الحشود الكثيفة؛ وتعمل هذه الأشياء كرسالة تـذكير أو استعادة لذكريات أدوار معينة، أو مواقف، أو عملية اجتماعية، وروحية، وجسدية، أو ارتباط مكاني، كمـا سنرى لاحقًا في هذا الفصل.

آثار وحقائق عن الزحام: الليلة الأخيرة للمولد

ربما يظهر بجلاء في حالة الموالد، أن يشعر البعض بهواجس خفية حينما يقتحم مكانًا مكتظًا بالفعل. ويحدث أن يواجه كل فرد موقفًا لا يعتمد عليه أو عليها بالضرورة، وبـدلاً مـن ذلك، يعتمـد علـى من يكون هو كفرد – امرأة كانت، أو شخصًا ضعيفًا. ويبدو تردد البعض وصمتهم (رجال أو نساء) واضحًا للعيان،

بينما تكون مشاعر الاستمتاع بادية على آخرين، أثناء الليلة الأخيرة للمولد وبصفة خاصة في الميدان الكبير لسيدنا الحسين أو السيدة زينب. وبهذه الطريقة، تتدافع الأحداث والشخوص معًا وبطابع منهجي تقريبًا، وينصهرون في أدوار "مُكملة"- هؤلاء الذين يحتكون، والذين يُحتك بهم، والذين يصدمون، والذين يصطدم بهم. هذه الأشكال الفورية من أشكال التلامس يمكن أن تكون موافقا عليها، أو مفروضة، مقبولة أو غير مقبولة، ولكنها تخدم في تحديد التقلبات المنتشرة والتي تعين حدود الجماعات المستقرة نسبيًا (العائلات، والشباب، وجماعات الوافدين من الأقاليم، وغيرهم). ويبدو أن كل فرد يصنع فهمه البديهي الخاص للزحام، وتركيبته، والطبقات التي تتدفق عنها – أو بالأصح التفسير الفوري الذي ينتج عن وضع الأفراد لأنفسهم في الممرات ويوجهون أنفسهم طبقًا لهذا المنطق، وليس طبقًا لتقديرهم لأقصر مسافة بين نقطة وأخرى. ويتم في الزحام، قياس وتمييز مستويات العمق، والانغمار، والتوجه، طبقًا لنقاط مرجعية محددة (المسافة أو القرب من حوائط، أرصفة جانبية، وغيرها).

ويعمل هذا التوزيع بطريقة جيدة نسبيًا، على الرغم من مظاهر الضغط والسحق، ويبدو أن كل واحد يستطيع التأقلم معها. ومع ذلك، تفسد هذا النظام أماكن معينة ضيقة، أو ممرات وتخلق نوعا من الفوضى: والأماكن التي تمثل عنق الزجاجة، من هذه النقطة، أو الأماكن التي تسود فيها الفوضوي والتي يتدافع ويختلط فيها كل واحد في ارتباك، هي عند الدخول أو الخروج من الميدان. ويتمركز رجال البوليس عند هذه الممرات الإجبارية الصعبة. ويحاول رجال البوليس السيطرة على تدفق البشر لدرجة أنهم يقومون بتوجيه ضربات بالعصي، ليس بطريقة عشوائية ولكن بحيث يستهدفون الشباب، أو إجبارهم على المرور والتقدم بسرعة، وهم يستخدمون أذرعهم كنوع من الحماية لتفادي ضربات العصا. ويستهدف هذا العنف محاولة ترويض رغباتهم الغامضة في الاحتكاك وإثناءهم عن

محاولاتهم التباطؤ هناك. وفي هذه الأماكن، التي يعمل فيها الشباب، كنوع خاص من نقاط المراقبة والرصد، وفعليًا يتريثون حتى مرور فتيات صغيرات من أجل الاندفاع خلفهن. وتتردد الفتيات، وتضحكن، وتتعالى صرخاتهن، اذهبن من هذا الاتجاه، ولا تذهبن من تلك الناحية؛ ويشتد الزحام أكثر فأكثر.

وأثناء احتفالات الموالد المهمة، وفي سياق خصائص جغرافية مماثلة، فإن الدور الذي يقوم به رجال البوليس يمكن أن يقوم به الأهالي، والذين يسلكون نفس مسلكهم. ويحتفظ الباعة الجائلون أثناء الليلة الأخيرة لمولد السيدة زينب، بعرباتهم على حواف الزحام، ويقفون على بعض هذه الصناديق، ويتفحصون التحركات في الزحام، ويتدخلون لحماية السيدات اللاتي يتعرضن للمضايقة. ويقذفون الماء بأكواب من أوعية لديهم، على أولئك العابثين (وبنوايا حسنة عمومًا) والصراخ لتنبيه أولئك الرجال والنساء الذين يحاولون الخروج من الزحام، بأقصر الطرق للوصول إلى خارج الميدان وأسهل نقاط المرور.

وتسن وسيلة أخرى للحفاظ على، أو خلق مسافة أثناء الليلة الأخيرة للاحتفال بمولد فاطمة النبوية مع اقتراب الساعة الحادية عشرة ليلاً. وكان هناك ما يقرب من خمسين شخصًا يتمايلون حول فرقة موسيقية تنتشر بشكل مريح على رصيف مقهى في الهواء الطلق. ومن الصعوبة بمكان تحديد طبيعة هذا التمايل أو الرقص؛ إذا ما كانت التواشيح التي تصاحبها دينية، والموسيقى من نوعية تلك التي تصاحب حلقات الذِكْر. ولكن حلقات الذِكْر، من حيث المبدأ، هي ممارسة جماعية مُقننة. وتكون حركات الأجساد في الذِكْر، رجالاً ونساءً معًا، رحبة ومرنة، ويتم خلقها في الأساس بالتأرجح الجانبي ؛ فالسيقان مستقيمة، والأذرع تتأرجح، والرؤوس تتمايل من جانب لآخر. وهناك حشود أخرى من الناس خارج نطاق التمايل الراقص في الأماكن المغطاة أرضيتها بالسجاجيد في الهواء الطلق يرقصون بأساليب فردية،

ودون الاكتراث بالآخرين، في نفس الوقت الذي يحافظون فيه على نسق ملائم مع الإيقاع المشترك. وحتى لو كانت حركاتهم الإيقاعية تتعلق بوضوح لنوع آخر من التعبير، فإن إيماءتهم ومواقفهم مفعمة بالانتماء إلى الذِكْر. وتُشكل النساء نسبة لا بأس بها من المشاركين في حلقات الذِكْر، وبعضهن من الفتيات. ويتدافع المتفرجون للمشاهدة، بل إن كثيرا من الرجال يحملقون في تفاصيل أجسادهن التي تتكشف أو تفور بالحيوية المتولدة عن الحركات الراقصة التي تصاحب الذِكْر. ولكن هؤلاء النسوة، وبالذات ذوات الوجوه المشدودة وغيرهن، وهي التعبيرات التي تنم عن نشوة الوجد، كلهن عيونهن مغلقة. وسواء كان ذلك حقيقيًا أو زائفًا، فإن عدم اكتراثهن يبدو مطلقًا، فليس هناك أي نوع من أنواع الدلال في ملامحهن، ولا أي نوع من عدم الاحتشام المتعمد في أوضاعهن، كما أنه ليس هناك تعمد في إظهار مفاتنهن. ويتطور هذا المشهد، بالتغيير الجزئي أو المستمر لأئمة الحلقة ليستمر لساعات طوال. وعلى الرغم من أن هذا الموقف، خارج عن المألوف، حيث تظل النساء تتمايلن في حلقات الذِكْر في الشارع طوال الليل، وربما لا يكون هناك أي تبادل للنظرات. والسياق هو أن المولد، والموسيقى والتواشيح المصاحبة التي تثير هذا التمايل هو إلهام ديني. ولكن من الصحيح أيضًا أن أجساد النساء في الحلقة لا تقابل باللامبالاة، على الأرجح لأنها ليست ثابتة في المكان ويمكن مشاهدتها بروية – ومفعمة بالحياة – ومرئية من كافة الزوايا والأوضاع. وتقوم هؤلاء النسوة بتحريك أجسادهن، ولكنهن لا يتباهين بأجسادهن؛ فهن لا يسمحن بأي إمساك بأجسادهن، وبذا إعاقة أي ملامسة محتملة.

يمكن أن تسهم دراسة هذه الموالد في التفكير في المدينة كمكان يموج بالحيوية، مكان مستثمر روحيًا ورمزيًا على نحو لافت للأنظار، ولكنه مليء أيضًا

بالماديات والحضور الملموس، وتلك التجهيزات، والأجساد، والأشياء. ويعتبر زمان ومكان موالد القاهرة مناطق وسيطة حيث يتلاقى الناس ويتواصلون، ولكن هذا التواصل يحدث بين الأشياء والأوضاع أيضًا. وبالنظر إلى هذه الحقيقة، فمن المناسب أن نحول انتباهنا إلى الأماكن والأشخاص، وإلى الأشياء سواء كانت ثابتة أو مائلة. وتتميز الأشياء في هذه السياقات الحضرية الاحتفالية بأنها نشطة، وهي تحرك الناس، وتمدهم بالبواعث اللازمة للتحرك. وتهتز أعداد لا تحصى من السبح الملتفة حول المعاصم في حركات مداعبة دائبة لا تتوقف؛ وتمسك أيدي الرجال والنساء بمقابض أباريق الشاي باستمرار وهي تقوم بتقديم الشاي إلى الأصدقاء وعابري السبيل؛ وتقبض أيادي الأطفال المحمولين على صدور أمهاتهم أو الذين يسيرون معتمدين على أنفسهم على ملابسهن أو أغطية رؤوسهن بشدة. ومن حيث كثافة الزحام، فإن التلاصق المفروض شديد. ولكن ما يجمع عليه أولئك المتواجدون في المولد بزيادة الكثافة بأكثر مما متواجد في الأصل عن طريق الإمساك بأذرع أو أيدي بعضهم البعض، أو يصرون على تطويق رفاقهم حول أكتافهم وهم يسيرون ويتحركون في جماعات من فردين أو ثلاثة، أو يسيرون في طوابير. وفي تلامس مع آخرين يُخضعون، أو يُضعفون، أو يُخلى لهم الطريق عندما يغوصون في هذا الزحام من اختلاط الجنسين. هل الإمساك بذراع أحد أفراد الأسرة أو أحد الرفاق، هو استعراض موجه للآخرين، مقابل الدوار الذي يعانيه الفرد في وسط الزحام؟ أم هي محاولة تنطوي على مفارقة للهروب، أم هو برهنة للعلاقة الوطيدة، بدلاً من الهراء الذي يعني أن تكون وحيدًا في وسط العديد من البشر الآخرين؟ أم هو وسيلة لدمج نفسه في هذا الحشد الجماعي للمجموعات بينما يعزز نفسه من خلال بادرة ملامسة محددة؟

لقد كان الاحتفال، والآن قد انتهى! وهكذا الحياة!

فكيف كان الاحتفال في تصورك؟(٥)

تعتبر فترة الاحتفال غير العادية فترة تتراخى فيها قبضة الأسرة والمجتمع وما حول الفرد، وأما القبضة المتشددة فيمكن أن تكون في المواقف التي تستحق الانتقاد الشديد أو التي يتم إخفاؤها بعيدًا عن سياق المولد. ويمنح الاختلاط، والزحام، والظروف الاستثنائية درجة نسبية من عدم الكشف عن الهوية. وتؤدي تلك اللحظات التي يكون المرء فيها أكثر عُرضة لمراعاة شأنه الخاص إلى تغييرات في السلوك. فالكثير من السلوكيات التي يتم ارتكابها وسط العامة تظل غير معلومة أو يتم التسامح حيالها: وتصبح مقبولة في ظل تلك الظروف العابرة وفي تلك الأماكن المُغلقة، وهو المكان المثالي الذي يمكن القول بشأنه بأنه الضروري لمثل هذه الانتهاكات، أو الاستثناءات، أو إزالة الضوابط التنظيمية، تحت غطاء الاحتفال الديني. وهكذا فمن الممكن أن تقترب مباشرة من الفتيات وتتجاذب معهن أطراف الحديث، واللاتي في مثل هذه المناسبات، يمكن أن يتنزهن بدون رفيق، ومثل هذا العمل الجسور يمكن أن يمضي بدون ملاحظة في مثل هذه الظروف المجهولة، ولكنه يكون صعب التنفيذ في الوسط الذي تعيش فيه الفتاة. ويمكن أن ينطبق نفس الأمر على التلامس الجسدي والرقص، وتناول الكحوليات، والمخدرات، واختيار ملابس تنكرية، والمحاكاة الساخرة والاستهزاء من "مؤسسات" مثل الزواج، والطبقة، ورموز الدولة، والهوية الجنسية المعيارية. ويقوم شباب الحي في السيدة عائشة بتنظيم موكب على عربة كارو في فترة بعد ظهر اليوم الأخير. ويمثلون في هذه العربات، مشاهد مختلفة تمثل نادل المقهى، وضابط البوليس، واللص، ورجالا يتخفون في أزياء النساء، كما أن البعض يقوم بتقليد ومحاكاة ساخرة للزواج، والإيحاء بأشكال غير مشروعة من الاتصال الجنسي.



شباب في أزياء النساء أثناء موكب لعربات الكارو في مولد السيدة عائشة (تصوير جين بيير ريبير)

وينبغي لنا مع ذلك أن نوضح أن مثل هذا الضرب من العبث ليس منهجيًا في المعتاد، كما أنه لا يحدث في كل الموالد. ويقوم كلٌ بإقامة ما يتوافق مع مزاجه الخاص. وتحدث مثل تلك السلوكيات الشاذة كلية عن طريق مبادرات محلية من أبناء الحي والتي تتولد عفو الخاطر. ويعتبر المولد مناسبة لتوجيه الاهتمام إلى المظاهر الخارجية، وهي فترات هامة في حياة هذه الأحياء، وتجعل في مقدور مختلف الجماعات الاجتماعية أن تعبر عن نفسها وتأكيد ذاتها. وكان الشباب الذي يعتلي العربة، ويرتدي أزياء مختلفة "الأنواع" لمن يمرون أمامهم في موكب استعراضي يثير الاستفزازات بلا أدنى شك. وتَمسك عمال المقاهي (الحقيقيون على طول طريق الاستعراض) باغتنام حقوق حرية التعبير وأمسكوا بمكبرات الصوت وأطلقوا تعليقاتهم الغاضبة على الأزياء وعلى عروض الشوارع كما أبدوا فخرهم بالأعمال التي يمتهنوها. ويصبح الأطفال متقلبي المزاج ويفسدون بالتدليل عندما يوضعون في دائرة الضوء. وعندما يخرج أفراد الأسرة بأكملها في نزهة، فإن الفتيات اليافعات يقمن بإشهار أسلحة فتنتهن الفتاكة والإنفاق بسخاء على تصفيف شعورهن وزينتهن، مبرزات جوانب الجمال لديهن.

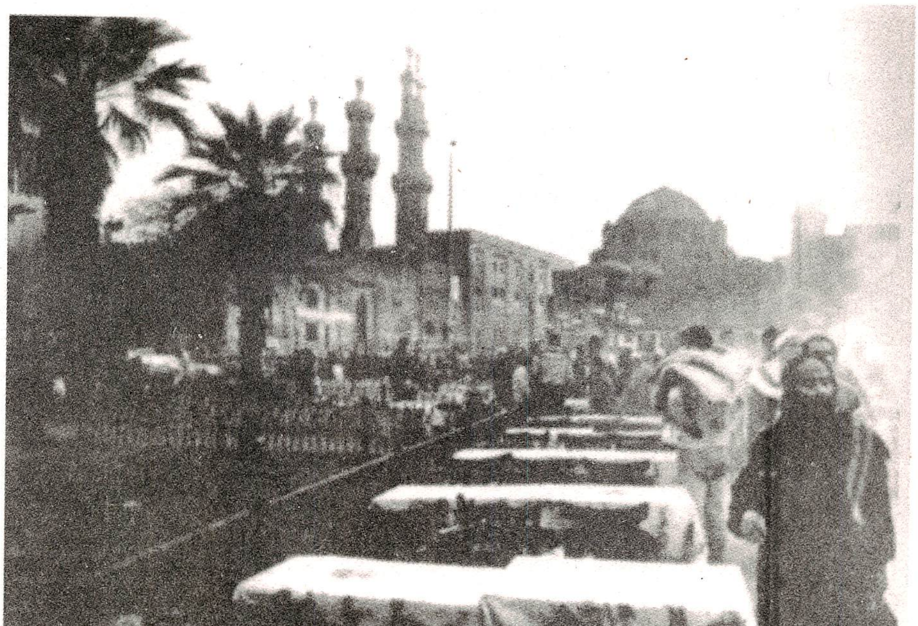
وتعتبر الموالد لحظات مهمة في حياة الجماعات الصوفية. وتقوي شعائر الوجد التي يحتضنون ممارستها أواصر الالتحام بين المريدين، كما تُشجع الناس للانضمام إلى هذه الجماعات. وتفيد الاحتفالات الكبرى – على كافة المستويات – كمنتديات عامة في تمثيل هذه الجماعات. ويظهر في السرادقات التي تتميز بأنها منصوبة في الميدان الكبير نفسه، كل من المسئولين الرسميين، والمجالس الصوفية والجماعات الصوفية ذات الأهمية –التي يترأسها أكثر الشيوخ جاذبية ونفوذًا – بوضوح شديد.

تسييس الموالد في مصر اليوم: هل يمكن أن يعرقل إقامتها؟

يعمد المسئولون إلى استخدامها مثل هذه الاحتفالات لغايات سياسية لعدم القدرة على حظرها، ناهيك عن القدرة على تنظيمها. واستخدم مولد السيدة زينب الذي أُقيم في ديسمبر عام ١٩٩٤ كمنبر لحملة انتخابية. وكانت من سماتها المميزة العدد الكبير والعروض السخية من الأضواء والألعاب النارية التي لا نهاية لها، والتي نُسبت إلى بذخ السيد فتحي سرور، عضو البرلمان عن الحي. وكانت صوره ولافتات الدعاية التي تحمل اسمه في احتفالات المولد تُشير إلى نواياه في خوض الانتخابات التشريعية المُقبلة والمقرر لها أن تُجرى في خريف عام ١٩٩٥. وقد زادت من تأكيد وجود الدولة ومشاركتها في الحي، حيث إن السيد فتحي سرور هو أيضًا رئيس مجلس الشعب.

ولقي ثلاثة من المنتمين للتيار الإسلامي مصرعهم أثناء مصادمات مع قوات الشرطة في نفس حي السيدة زينب في فبراير عام ١٩٩٤.. وأدت اتصالات السياسي المخضرم، وقاعدته السياسية في حي السيدة زينب إلى تأمين استمرار الاحتفالات، وذلك على الرغم من إصرار دوائر أخرى داخل الدولة على تطويق الحي واحتوائه. وأُقيم احتفال أكثر ثراء وسطوعًا عن أي احتفال سابق بالمولد في العام التالي (ديسمبر ١٩٩٥)، ليقيم الدليل على نجاح فتحي سرور في الانتخابات السابقة. وكانت اللافتات العريضة، التي تقدم التهنئة القلبية لفتحي سرور، دليلاً إضافيًا على نجاحه، ووضعها تجار وأعيان الحي الذين قاموا بتمويل تكلفة إقامة الزينات والأضواء. ومن الواضح أن هذه الرعاية السخية للتجار والأعيان تتم ترجمتها إلى زيادة في مهابتهم الشخصية بالإضافة إلى دعاية لهم ولأعمالهم التجارية. ولا يستفيد من التلاقي بين الاحتفال العام والخاص، والمولد الكثير من الأعيان فقط من خلال تفاعل العلاقات، ولكنها تمنحهم أيضًا مكاسب محتملة، ودرجة من الحماية، التي تضمن أحيانًا، إن لم يكن على الدوام، استمرارية احتفالات العامة.

وبعد أن تم سحق المظاهرات الضخمة في القاهرة والمناوئة للغزو الأمريكي للعراق في ربيع عام ٢٠٠٣، فقد قامت الحكومة بتشديد درجة السيطرة على الميدان الكبير الذي يطل عليه مسجد الإمام الحسين. وكان الميدان دائمًا ما يظل تحت سيطرة وحدات من رجال البوليس. وصودرت مساحة كبيرة من المكان العام المفتوح أمام المسجد أثناء احتفالات المولد (في يونيو ٢٠٠٣). ولم يُسمح بأي سرادق، أو عربة لبائع جائل، أو كافيتريا، مقهى، أو أي عوامل جذب أخرى فيها. ولم يُسمح لأي فرد بأن يبقى في المكان سواء للراحة أو الصلاة؛ ويمكن للمرء فقط أن يمر عليها مباشرة وبدون توقف. ونظرًا لإغلاق المساحة الكبيرة التي كانت متاحة أمام ميدان مسجد الحسين، والتي اعتادت كل مجموعات الجماعات الصوفية المعروفة الاحتشاد فيها، وبذلك تعين على احتفالات المولد أن تتوسع بعيدًا عن الميـدان والمسجـد، والتسـلل خلال الشوارع والأزقة، وأن تتبعثر فيها ولكنها لن تندثر.



تمتد الموائد أثناء الوجبات في ميدان الحسين أثناء المولد، قبل أن تحدد الحكومة مواضع لأنشطة المولد وتضيق الخناق عليهم في عام ٢٠٠٣ (تصوير جين بيير ريبير)

جعل هذا النزوح من قلب الميدان إلى المناطق البعيدة في الأطراف، ومن سعة المكان إلى الأماكن الضيقة من المناسبة أكثر فوضىً، ومظهرًا أقل تماسكًا. ويبدو أن احتفالات المولد قد تفككت وتناثرت شظاياها إلى قطع متباعدة. ولإبعادهم إلى أماكن مُعدة في الأزقة البعيدة، فإن سرادقات وتجهيزات الطرق الصوفية جُعلت غير مرئية على وجه التقريب. ولكنهم بعزيمة لا تلين يعلنون عن تواجدهم عن طريق إسماع أصواتهم من خلال تجهيزات مكبرات الصوت الموجهة تجاه الميدان. توجد بصفة مستمرة قوات نظامية (ما يقرب من ٢٠ فردًا من رجال البوليس يوجدون في حلقة دائمة) طوال فترة أيام المولد، ولا يتوقفون عن منع هؤلاء الأشخاص الذين يحاولون الجلوس أو الاستناد على الحواجز المقامة حول الميدان، والذين كانوا ينالون قسطا من الراحة في أوقات الظهيرة، وتقوم عربة لرش المياه بترطيب المماشي الجانبية التي تسقط عليها أشعة الشمس فتجعلها مصدرًا للقيظ. ويقوم رجال البوليس، وعلى نفس المنوال، بمنع أي شخص من القيام بإيواء سيارته هناك. ويتم مصادرة الموائد، والمقاعد، والمفارش، والأطباق الخاصة بالمقاهي والمطاعم التي كان يتم وضعها بالمخالفة للقوانين الجديدة ويتم تجميعها في عربات نقل. ويتعين على ملاكها دفع الغرامة المقررة من أجل استعادتها. وعلى الرغم من كل ذلك، وبينما تتوالى الأيام، وتقترب الليلة الأخيرة للمولد، تزداد صعوبة تطبيق هذه الأعمال التعسفية، وتتراخى قبضة رجال البوليس عليها شيئًا فشيئًا. وأثناء الليلة الأخيرة، يستطيع الناس التغلب على هذه المحظورات رغم التعزيزات الأمنية من جانب رجال البوليس، باستثناء ما يخص الوصول إلى قلب الميدان أثناء إقامة الصلوات، والتي يتم الحفاظ عليها بنطاق يحيط بالمكان من رجال البوليس.

وكان المسجد يمتلئ عن آخره بارتفاع آذان صلاة العشاء، في يوم الجمعة الذي يسبق الليلة الأخيرة لمولد سيدنا الحسين (١٩ يونيو ٢٠٠٣). وتستقر الحشود الزاخرة من البشر التي توافدت أمام المدخل الجنوبي وعلى طول أسوار المسجد. ويدفع عدم وجود مساحات خالية بعض الناس إلى اعتلاء حواجز الميدان، وخلع أحذيتهم حتى يتمكنوا من الصلاة على المساحات الخضراء. وتم إيقاف المجموعة الأولى منهم عن طريق العشرات من رجال الشرطة الواقفين كحراسة. وحاول رجال الشرطة دفعهم إلى الخلف، ولكنهم تراجعوا عن ذلك عندما لاحظوا تزايد أعداد القادمين. وتشكلت العديد من صفوف الرجال المصلين. ثم انضم بعض رجال البوليس إلى الصلاة التى أقيمت في نهاية الأمر، في الميدان بأسره، والذي اكتظ عن آخره على الرغم من التعليمات الواضحة للدولة بإغلاق الميدان وإخلائه من البشر. وغادر الجميع المكان بعد الصلاة ما عدا رجال البوليس. وكان نفس السيناريو يتكرر كل يوم في الأيام التالية، وحتى الليلة الأخيرة من المولد.

الخاتمة

تقدم احتفالات الموالد الكبرى منتدى للمجتمعات الريفية، والحضرية، وللمنتمين للأقاليم، والقاهرة، والمجتمعات الأخرى ليلتقوا حول اعتراضاتهم ومسراتهم المشتركة والتي تؤدي إلى تقوية التماسك والهوية في تقديم الجماعات الاجتماعية. كما أنها تقوم بخلق المناسبات التي تعزز مشاعر الانتماء لطبقات المجتمع المختلفة (الجماعات الصوفية، القرويون، أحياء القاهرة، شبكات رجال الأعمال، وغيرها)، ومناسبات للإيقاف المؤقت لأشكال السيطرة الاجتماعية، وتخليد الشعائر الروحية، ووشائج الصداقة. وتظل الموالد فترات راسخة في حياة الأفراد والمجتمع. كما أن المولد مكان وزمان لفرص لا نهائية للشفاعة الروحية

(مدد)، والجهر بأماني جديدة، ورغبات، وآمال. ومن المسلم به جدلاً أن النبي موجود وهناك إشارات للعديد من معجزاته *(توفي الرسول صلى الله عليه وسلم كما يموت غيره من البشر في عقيدة المسلم الصحيحة، كما أنه ليست هناك معجزات للرسول - ولكن المعجزة الوحيدة في عقيدة المسلمين الصحيحة هي لله وهو القرآن الكريم - المترجم).* وعلى العكس من تواتر العديد من الأحداث التي يتداعى ماضيها إلى ذكريات يتم استعادتها، فإن احتفالات المولد في نظر مرتاديها خالدة في تكرار يستعصى على أي وصف مقارن. وهكذا، وبالتحديد، فإن احتفالات الموالد دائمًا ناجحة وتمتدح بصفة عامة "بأنها كانت ناجحة هذا العام، وكالمعتاد".

فهل يستطيع العامة الذين يرتادون الموالد - السائرون على الأحبال المشدودة في مشهد حضري متقلب بين الخير والشر - مقاومة الموجات الجديدة من القمع والمواجهات البوليسية؟ ويثبت إصرار الطبقات الشعبية على استمرار الموالد، واستثماراتهم المتزايدة في تدعيم مظاهر المولد، والاحتفال، والصلاة، وممارساتهم الضالعة في إعادة خلق عالم جديد، أن احتفالات المولد ربما يكون من المحال كبتها.

الأعمال المستشهد بها

Works Cited

Arendt, Hannah. 1972. *La crise de la culture*. Paris: Gallimard.

Biegman, Nicolaas-H. 1990. *Egypt: Moulids, Saints, Sufis*. La Haye: Gary Schwartz-SDU.

Chich, Rachida. 2000. *Le soufisme au quotidien: confréries d'Égypte au xx^e siècle*. Paris: Sinbad, Actes Sud.

Haqqi, Yahia. 1991. *Choc*. trad. par Charles Vial et Sayyed Abul Naga. Paris: Denoël–Alif.

Hussein, Taha. 1947. *Le livre des jours*. Paris: Gallimard.

'Iways, Sayyid. 1989. *L'histoire que je porte sur mon dos*. Le Caire: CEDEJ.

Joseph, Isaac. 1984. *Le passant considérable: essai sur la dispersion de l'espace public*. Paris: Librairie des Méridiens.

Lane, Edward. W. 1989. *Manners and Customs of the Modern Egyptians*. London: East-West Publications.

Luizard, Pierre-Jean. 1990. "Le soufisme égyptien contemporain." *Égypte/Monde Arabe* 2: 35–94.

______. 1993. "Un *mawlid* particulier." *Égypte/Monde Arabe* 14: 79–102.

MacPherson, John W. 1941. *The Moulids of Egypt: Egyptian Saints' Days*. Cairo: Nile Mission Press.

Mahfouz, Nagib. 1989. *Trilogie: Impasse des Deux-Palais, Le Jardin du passé, Le Palais du désir*. Paris: J.C. Lattès.

Mayeur-Jaouen, Catherine. 1995. "Gens de la maison et *mulids* d'Égypte." In *La religion civique à l'époque médiévale et moderne (chrétienté et Islam)*, ed. André Vauchez, 309–22. Rome: École française de Rome.

Al-Messiri Nadim, Nawal. 1979. "The Concept of the Hara: A Historical and Sociological Study of Al-Sukkariya." *Annales Islamologiques* (15): 313–48. Le Caire: IFAO.

Mubarak Pasha, 'Ali. 1888. *al-Khitat al-Tawfiqiya al-Jadida*. Cairo: Bulaq Press.

de Nerval, Gérard. 1980. *Voyage en Orient*. Paris: GF-Flammarion.

Qasim, 'Abd al-Hakim. 1998. *Les sept jours de l'homme*. Paris: Sindbad, Actes Sud.

Sansot, Pierre. 2003. *Jardins publics*. Paris: Petite Bibliothèque Payot.

Schielke, Samuli. 2003. "On Snacks and Saints: When Discourses of Rationality and Order Enter the Egyptian Mawlid." Paper presented at the Netherlands-Flemish Institute of Cairo, 23 January.

Woolf, Virginia. 2000. *Mrs. Dalloway*. Paris: Gallimard-Folio.

Notes

1 This festival is known as a *mulid* in Egypt (*mawlid* [birthday]; in the plural, *mawalid*). But beyond marking the anniversary of a precise eventbirth or disappearance (both cases exist)—the *mulid* simply marks the day that is consecrated to the saint.

2 The literature in French and English on the veneration of holy women and men and descendants of prophets in Sufi Islam and parallel Jewish practices often refers to these figures as 'saints' (see Beigman 1990; Schielke 2003; MacPherson 1941). This term offends some orthodox sensibilities, since neither Judaism nor Islam revere an order of saints as does Christianity. But maintaining orthodox distinctions is not the priority of Sufi mysticism, or *mulid* syncretism. In this light we will alternate between the use of the term 'saint' and 'holy woman/man' to describe the spiritual patrons of *mulid*s and the sacred persons buried in the shrines visited by *mulid* pilgrims.

3 This chapter is based on fieldwork in Cairo during the festivals of Husayn and Zaynab (the most important festivals), but also during those of Yunis al-Sa'adi, Abu 'Ila, Fatima al-Nabawiya, and 'Aysha al-Nabawiya, between 1998 and 2003.

4 In particular, an unscientific but nevertheless revealing indicator of purchasing power may be found in the shoes of the participants: a large part of them (men, women, and children) wear open shoes (sandals with molded plastic or leather straps), which belong to the bottom of the shoe hierarchy.

5 A lucid remark made by an acrobat to the hero of *Sept jours de l'homme* (Qassim 1998, 170).

الهوامش

١- يُعرف هذا الاحتفال "بالمولد" في مصر (أي ذكرى ميلاد)، وجمعها موالد. ولكن بعيدًا عن تحديد التاريخ الدقيق لمولد أو وفاة الأولياء (الحدثان موجودان) فإن المولد بكل بساطة هو اليوم المحدد للإحتفاء بولي من أولياء الله.

٢- يشير أدب التوقير في الفرنسية والإنجليزية للشخصيات من الرجال والنساء ذوي القدسية والمنحدرين من أصلاب الأنبياء في الصوفية الإسلامية والمناظر لذلك في ممارسات الديانة اليهودية "كقديسين" (راجع في ذلك:*Beigman 1990; Schielke 2003; MacPherson 1941*. وهذا المصطلح يثير حفيظة بعض المحافظين من المتدينين، حيث إنه لا اليهودية أو الإسلام يوقر الأولياء كما تفعل المسيحية. ولكن الحفاظ على الفروق الدقيقة للمحافظين من المتدينين ليست من الأولويات لدى الصوفيين أو المذاهب الصوفية، أو محاولات التوفيق بين المعتقدات في الموالد. وفي ضوء ذلك فإننا سنتبادل الوصف بين استخدام مصطلح "قديس"، والرجال والنساء المقدسات لوصف من يتم الإحتفال بمولده والشخص المقدس والذي يتم زيارة الضريح الذي يضم رفاته في إحتفالات الموالد.

٣- يتأسس هذا الفصل بأكمله على العمل الميداني في القاهرة أثناء الاحتفالات بمولد الحسين والسيدة زينب (وهي الاحتفالات الأكثر اهمية)، ولكن أيضًا احتفالات يونس السعدي، وأبوالعلا، وفاطمة النبوية، وعائشة النبوية وذلك في الفترة ما بين عامي ١٩٩٨، ٢٠٠٣.

٤- هناك مؤشر كاشف، إن لم يكن علميًا، وبصفة خاصة، عن القدرة الشرائية لهؤلاء المشاركين في الأحذية التي يرتدونها: الجزء الأعظم من المشاركين (الرجال، والنساء، والأطفال) يرتدون أحذية مفتوحة (صنادل من البلاستيك، أو الأشرطة الجلدية)، والتي تنتمي إلى أدنى درجات نوعيات الأحذية.

٥- ملاحظة كاشفة للبلياتشو يقولها لبطل قصة "أيام الإنسان السبعة" (قاسم ١٩٩٨، ١٧٠).

الفصل الثامن عشر

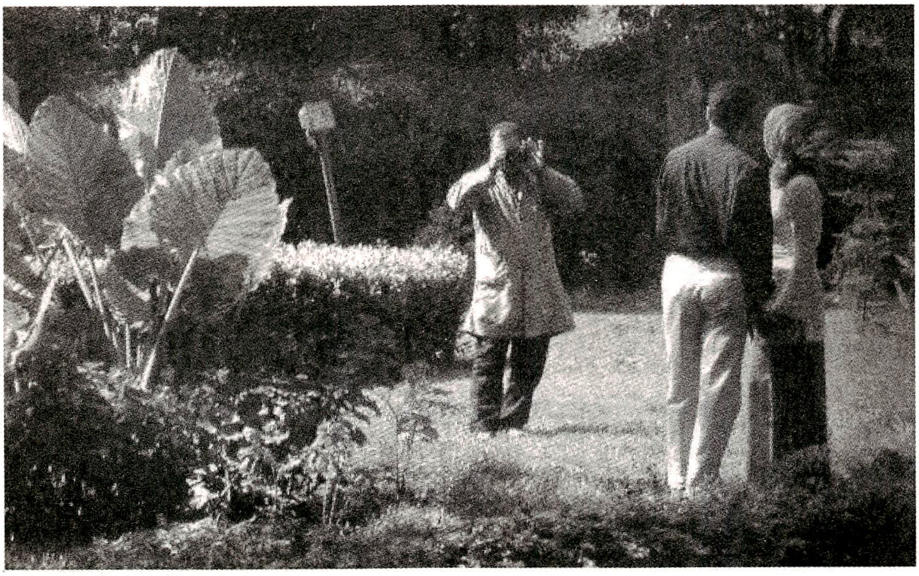
إعادة تخصيص الأماكن العامة
إعادة تصور لجمال المشهد الحضرى

فنسنت باتيستى

كيف تدعونا المدينة بأن نثق بهذا العالم مرة أخرى، وعلى أى المذهب
جوزيف ١٩٩٦.

الزحام شديد للغاية، وأكداس من البشر يدورون حول أقفاص الحيوانات، ويستديرون ما بين أقفاص القرود والحواجز التى تحمى بقع النجيل الخضراء. إنه اليوم الثانى من أيام العيد الذى يلى شهر رمضان فى حديقة حيوان الجيزة. وينهض المئات من العائلات التى خرجت للنزهة، والمتواعدون الرومانسيون مبتعدين عن منطقة العشب الأخضر والتى هى "مُغلقة من الناحية الفعلية أمام العامة". ويقوم البستانى برش تلك المنطقة بالمياه باستخدام خرطوم أسود غليظ. ويصيح البستانى: "تحركوا بعيدًا! اخرجوا من هذه المنطقة!"، ولكن بمجرد أن يستدير البستانى بظهره لالتقاط بعض القمامة يستدير الزائرون عائدين بحذر شديد عبر السور الحديدى الصغير لقلب البقعة الخضراء الصغيرة فيما يبدو الآن كمستنقع فى الوسط الذى ترتفع فيه بعض التكوينات النباتية والأسمنتية. ومن بين المغامرين الذين تجرءوا على اقتحام تلك المنطقة الخضراء، مجموعتان من

المتواعدين: الولدان يحملان كاميرات تصوير، والفتاتان ترتديان غطاء الرأس، وترتديان تنورات طويلة يرفعنها قليلاً عن الأرض حتى لا تتلطخ بالوحل. وتقف الفتاتان أمام أشجار النخيل فى وضع التصوير، ولكن هذا هو الوضع المبدئى الأول قبل أن يتحولا إلى وضع يريانه أكثر ملاءمة. ويستغل المراهقان المتنافسان بالفعل الجزء الذى يصلح كديكور خلفى (جذع شجرة ميتة): "أعطنى نظارتى السوداء من أجل التصوير". ويقرر أحدهما أن يقف فى وضع التصوير فى مسافة أبعد قليلاً حيث تتخلل بعض أشعة شمس ما بعد الظهيرة أوراق الأشجار. ويميل كل من الفتى والفتاة بشكل متناظر معًا على إحدى مصابيح الحديقة النباتية؛ حيث تُشكل النباتات الخلفية الملائمة للتصوير. وتقوم الفتاة بضبط هندامها، وتسوية ملابسها، وشد طيات التنورة، ثم أخيرًا تقفان ساكنتين، وهما تحدقان إلى عدسة الكاميرا. وتعترى الفتى بعض مشاعر الحرج، فيرسم بعض تعبيرات الابتهاج على وجهه مع وميض أضواء عدسات الكاميرا. وتبدو الفتاة، مع ابتسامتها الرقيقة، غير هيابة. وظلوا على هذا الوضع بضع ثوان أطول قليلاً بعد أن خبت أضواء الفلاش. ثم عمد الجميع إلى الاسترخاء.



زوجان يلتقطان صورًا ويتجولان فى الحديقة (تصوير فيسنت باتيستي)

يبذل المسئولون فى حديقة الحيوان قصارى جهدهم، كما يحدث فى جميع الأماكن العامة بالقاهرة، للسيطرة على الحشود بطريقة غير مباشرة عن طريق وضع العوائق مثل الأسوار للتأثير على تدفق الحشود. وتفيض الحشود، فى كثير من الأحيان عن حدود المساحات المسموح بها من الأماكن العامة. وقد تمت عملية إعادة تخصيص قامت بها الجماهير فيما بين الاستخدامات المبدئية المخصصة من الدولة للأماكن العامة وترتيباتها الفعلية، والتكيف مع توقعات الطبقات الشعبية للقاهرة، والمكان الذى تتجمع فيه الحشود للاحتفالات الكبرى، حيث يتبادل المتواعدون الغزل فى جلسات رومانسية. إنها عملية التفاوض- التى قام بها المتواعدون لانتزاع أنفسهم من الزحام للحظات - والتى خلقت اللحظات الحميمة التى اغتنموها بتلك الصور الفوتوغرافية التى وثقت وخلّدت تلك العلاقة. وسيقوم هؤلاء المتواعدون، بعد أن قاموا بالتقاط الصور، بعبور الحدود الرمزية ويصبحون مجهولين مرة أخرى، بعد أن يبتلعهم الزحام الكثيف والهادر.

ومما لا شك فيه أن المساحات الخضراء تخلق مشاعر الإثارة لدى العامة فى القاهرة. وقد توصلت العديد من المدن العالمية وفقًا للاستحسان المعاصر "لنوعية الحياة" وحصتها من المساحات الخضراء، إلى تطبيق نفس الحلول: خلق العديد من المنتزهات العامة الكبيرة على تخوم المدن. وكان فى مقدور الحياة الحضرية فى القاهرة، على الرغم من ذلك، التمكن من صياغة استجاباتها المحلية الخاصة. إذا ما كانت هناك مساحات خضراء تتناثر فى المشهد الحضرى للمدينة ومناطق الضواحى المجاورة لها، فإن تلك المنطقة التى ليست من التخوم (وليست خضراء تماما)، حديقة الحيوان، هى التى تعشقها الطبقات الشعبية، وبصفة خاصة فى أيام العطلات. ولم يكن شغف العامة بحديقة الحيوان اليوم، والطريقة التى يتم بها استخدامها الآن، واضحة فى الرؤية الأصلية لهذه الحديقة. وكانت تطويرًا

لحديقة حريم تابعة لقصر الخديوى إسماعيل، وكان من المنظور لحديقة الحيوان أن تكون على نفس إطار مفهوم حدائق وسط المدينة. وكان إنشاء أماكن عامة جديدة، أثناء القرن التاسع عشر يرتبط بأنماط العولمة الحضرية الاستعمارية الحديثة لتلك الحقبة. وكان حكام العواصم الكبرى يقومون بالتركيز على فتح مساحات لمنتزهات الطبقة البرجوازية. وطوال القرن العشرين، على الرغم من ذلك، فإن التصميمات الاستعمارية لهذه الأماكن العامة الجديدة قد تم تدميرها حينما قامت الطبقات الشعبية للمجتمع باستغلالها لنفسها، وبصفة خاصة أثناء الإجازات، مُبدلين التجربة الاجتماعية التى كانت ترتبط بهذه الأماكن العامة. وفى نفس الوقت، اتجهت الطبقات الأكثر ثراءً إلى تفضيل النوادى الخاصة والتجمعات ذات الأسوار المُغلقة بطريقة متزايدة. كيف تم ترتيب هذه الأماكن من أجل الاستخدامات المُخطط لها للطبقات المقصودة؟ كيف تتواءم أنماط السلوك مع التحولات فى تردد العامة وتخصيصهم للأماكن العامة؟ وكيف كان التصور لاستخدام النظام العام وكيف أُعيد تشكيله عن طريق مُستخدمى الحدائق وسلطات الدولة؟

سيناقش هذا الفصل بعض الأماكن العامة فى القاهرة والتى تستجيب لحتمية فتح الأماكن العامة وإتاحة الوصول إليها (*Beyhum 1997*)، وبصفة خاصة حديقة حيوان الجيزة مع بعض المقارنة بالأماكن التى يطلق عليها من العامة "وسط البلد"، وهو حى الأعمال المركزى للقاهرة. ويتميز كلا المكانين بكثرة المترددين عليهما من الطبقات الشعبية وطبقًا لتواترات محددة. وهذه الأماكن العامة هى التى يتردد عليها المرء للترويح عن نفسه بطريقة متحررة، بلا روتين محدد، ومفعم بالمتعة (تعريف محتمل لأوقات الفراغ التى يرجعها بعض المؤلفين إلى المجتمعات قبل الحقبة الصناعية، *Dumazedier 1998*).

فى حقيقة الأمر، نحن عادة ما نأتى هنا لنستمتع بالأشياء الجميلة الموجودة هنا، وهى الحيوانات، ولكننا نأتى أيضًا لنستمتع برؤية الفتيات الجميلات. هناك جمال فى الطريقة التى يتهادى بها الناس سائرين. إن الطقس بديع بالخارج، وفى الحقيقة جاء الناس للاستمتاع فى حديقة الحيوان.

(طالب من الجامعة الأمريكية بالقاهرة فى حديقة الحيوان ٢٠٠٣).

يوم احتفالى فى حديقة الحيوانات بالجيزة

اعتاد الكثيرون من سكان القاهرة ارتياد حديقة حيوان الجيزة فقط فى أوقات ذروة الزحام فيها، حيث تسود أجواء احتفالية ويتواجد الكثيرون، وعلى الرغم من أن تلك الأوقات لا تمثل الأوقات "المعتادة" أو اليومية لارتياد المكان. "لا يكون الجو السائد على هذا المنوال دائمًا... سوف يقل الزحام بشكل كبير، وتصبح جذابة بدرجة أكبر من هذا.

(طالب من الجامعة الأمريكية فى حديقة الحيوان، ٢٠٠٣)".

قدَّم الزائرون ثلاثة مستويات متدرجة لتوقيتات زيارة الحديقة (أيام العمل العادية، وعطلة نهاية الأسبوع، وأيام الأعياد) وهى تمثل ميول المترددين عليها، ومقياس اللجو السائد أيام العطلات. وتتميز أيام الأعياد بدرجة إضافية من كثافة الزحام التى يمكن أن تشجع العامة على اختبار حدود استخدام الأماكن العامة. وتتسم الأيام الأربعة التى تلى عيد الفطر (نهاية شهر رمضان) بكثافة غير عادية فى حديقة الحيوان حيث يحافظ الناس على قواعد شهر رمضان طوال شهر كامل. وتحتدم طقوس احتفالية بحلول عيد الفطر.

تكاد الشوارع المهجورة على غير المعتاد فى وسط المدينة أثناء النهار تشى بالكاد بوجود احتفالات حضرية محمومة فى مكان آخر. ويمكن أن تجد الزحام بمعناه الحقيقى فى حديقة الحيوان. ويتكدس البشر منذ أن تفتح الحديقة أبوابها فى الساعة التاسعة صباحًا، ويتزايد الضجيج والصياح على مدخل بوابات الحديقة من أجل الحصول على تذاكر الدخول. ويبلغ سعر تذكرة الدخول خمسة وعشرين قرشًا فقط للمصريين، والعرب، والأجانب، طبقًا لما هو مطبوع منذ سنوات مضت بلوحة على شباك التذاكر بمدخل الحديقة، وهكذا فإن سعرها يعتبر فى متناول جميع أهل القاهرة تقريبًا بلا استثناء.

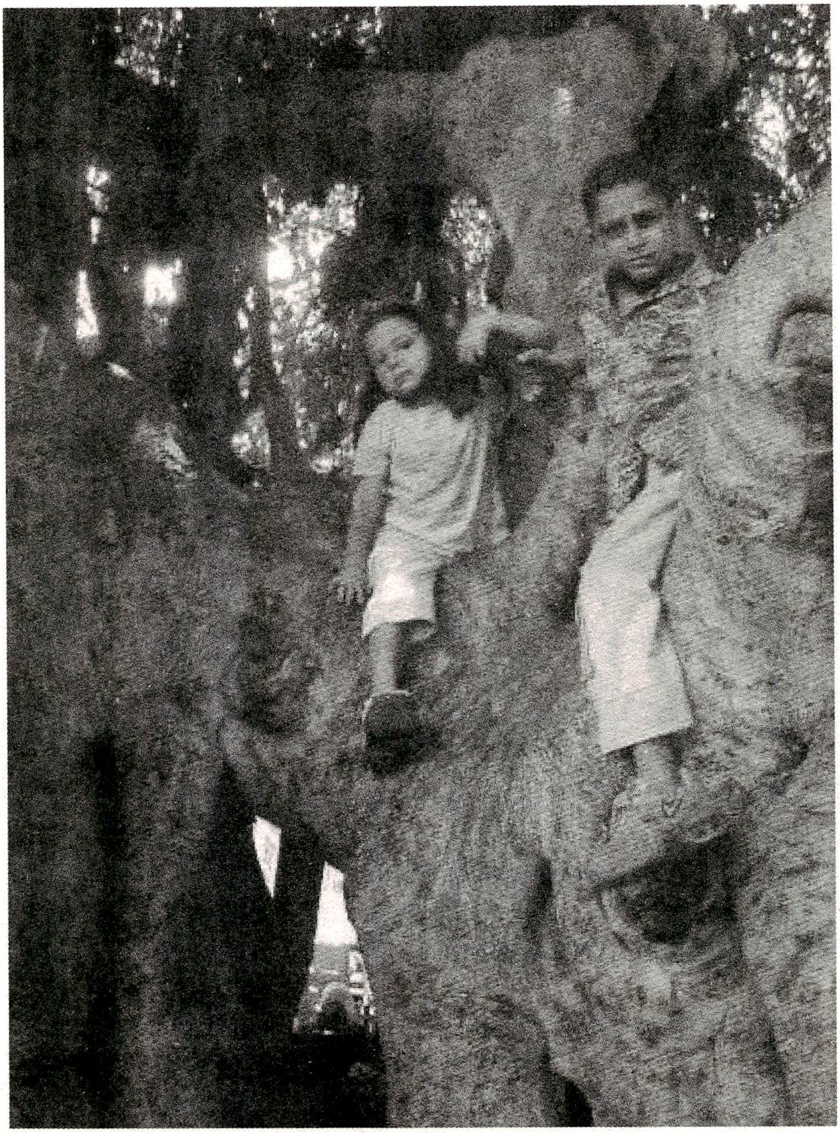
ولأنه يبدو أن الرجال هم الذين يضطلعون بمهمة شراء تذاكر الدخول، فإن كشك شباك التذاكر يكون موضعًا لصراع صاخب بين الفتيان من أجل توصيل نقود التذاكر للسيدة الجالسة خلف حجرة صغيرة من خلال الحواجز العالية لنطاق شباك التذاكر. ويحاول الحراس تنظيم تدفق البشر فيما يشبه عملية الإجلاء، ولكن اتجاه الإجلاء إلى داخل الحديقة.

وتعج المناطق الداخلية للحديقة وممراتها بأمواج من البشر، نابضة بالحياة، والتعدد، والتغاير، والكثافة، مبتهجة، وممتلئة بالحماس. والخاصية المميزة لفترة العطلة هو العدد الكبير من الأطفال الصغار الذين يشاركون فيها. وتقوم سيارات الميكروباس وعربات الكارو بإفراغ حمولتها من الأطفال الصغار (تبدأ أعمارهم من سن ست سنوات) القادمين للحديقة، وبدون مصاحبة للرقابة عليهم من الآباء. وتتحول حديقة الحيوان إلى ملعب ضخم. كما تأتى الكثير من العائلات من أجل التجوال فى أنحاء الحديقة: المتزوجون منهم، والمرتبطون بالخطوبة، وحتى أولئك الذين لم يرتبطوا بعد بالخطوبة، بمفردهم أو يتجولون مع الآخرين. ويبدو أن طبقة بأكملها من سكان المدينة تأتى إلى الحديقة، ويحتاطون فقط للأمر بترك كبار السن فى المنازل.

ويتفاوت حساب إجمالى أعداد الزائرين أثناء الأيام الأربعة لعيد الفطر الذى يلى شهر رمضان بدرجة كبيرة تجعل المحاسبين أنفسهم يقفون عاجزين عن تقديم الأرقام الدقيقة. وقد ذكر مدير حديقة الجيزة السيد مصطفى عوض: "نحن نستقبل ما بين ٣٠٠- ٥٥٠ ألف زائر كل يوم" (جرت المقابلة فى عام ٢٠٠٣). وبالتأكيد، هناك اتفاق على أن نقوم باستقبال عدة مئات من الآلاف من الزائرين هنا. "ونحن نشق طريقنا خلال مئات الآلاف من المتنزهين الذين يمارسون الألعاب، ويغنون ويرقصون" (شاهين ١٩٩٩). وتعج طرقات حديقة الحيوان بالبشر، وليس هناك طريق واحد أفضل للسائرين على أقدامهم. ويتحرك الأولاد فى جماعات للتسكع، ويجتاحون بقعة بأكملها متروكة للناس؛ ويتلكأون؛ ثم فجأة مبتهجين بالتغيير الفظ الذى أحدثوه فى النظام، يندفعون تجاه مجموعة أكبر من الزحام ليزداد عددهم أكثر. ويكمن هدف هؤلاء الغوغاء فى أن ينشب عراك، وبدلاً من مشاهدة حيوان يقدم استعراضًا، ثم يعقبه لا شيء على الإطلاق، فإن حدثًا غير متوقع يثير الانتباه العشوائى لمجموعات الزائرين. ويتدفق أفراد هذه المجموعات المرحة، محتلين المكان بأكمله وحتى أصغر ركن فيه، ومحاولين اختراق الكهوف الصناعية أو يقتحمون المناطق العشبية الممنوع فيها الجلوس.



الزحام على أشده فى أيام العطلات (تصوير فيسنت باتيستي)



أطفال يتسلقون أشجار التين البنغالى الذى يرجع عمره إلى عام ١٨٧١، حديقة حيوانات الجيزة (تصوير فيسنت باتيستي)

يغنى الأولاد ويصرخون بطريقة لا يجرؤون عليها فى الأحياء التى يعيشون فيها. ويطلقون الصفارات ويتحركون فى بعض الأحيان تجاه موسيقى طبول أحضروها معهم أو أجهزة راديو كاسيت. وتتقدم فرقة صغيرة من المراهقين وهى تصفق وتصدر أصواتًا عالية. وأمام شجرة من نوع "البانيان" أو التين البنغالى(*)، ويوجهون التحية لثلاث فتيات مراهقات يرتدين أغطية الرأس يعبرن فى الاتجاه المعاكس، مع إصدار صفير هامس بالفم، وتضحك الفتيات بأصوات مكتومة، واضعات أيديهن على أفواههن، وخافضات رؤوسهن ناظرات تجاه الأرض. وقد أحيطت شجرة "البانيان" الضخمة التى غُرست فى عام ١٨٧١ بالبشر من كل ناحية. وتحتل العائلات الجالسة تحتها كل قاعدتها الضخمة، ويمتطى الأطفال جذورها الهوائية القوية التى تتدلى من أعلى، أما المراهقون فيتحلون بجرأة أكبر ويصعدون إلى ارتفاع بضعة أمتار عن الأرض ويتأرجحون فى جذورها بالغة الضخامة والمعلقة فى الهواء، مواجهين أخطار السقوط والاصطدام بالكشك الخشبى القريب من الشجرة.

وبينما اتخذ الفتيان مواقف استفزازية تجاه الفتيات، فإنهن انكفئن مجتمعات يتبادلن الأسرار والدلال. وتضم جماعات المراهقين فى بعض الأحيان أفرادًا من الجنسين، وعندئذ يمكن أن يقل العبث أكثر، ويميلون إلى تكوين ثنائيات من كلا الجنسين. والقاعدة السائدة أن يعرقل الشعور بالخجل الثنائيات حديثة العهد بالتعامل مع الجنس الآخر من تبادل الحديث، وتتضمن سلوكياتهم الكثير من التواصل غير اللفظى والتلامس. ويقومون بدفع وجذب بعضهم البعض، والعدو خلف بعضهم البعض، كما يقوم الأولاد بجذب أغطية رؤوس الفتيات. وعلى الرغم من ضغوط

(*) هى شجرة ضخمة دائمة الخضرة تنبت جذورًا هوائية تتدلى من الأفرع إلى أسفل لتتعمق فى التربة - (المترجم)

الزحام الشديد، فإن هؤلاء الفتيان والفتيات يحاولون التقاط صور لها خلفيات تنطق بالهدوء، وسحر الخضرة لحديقة حيوان مثالية عادت لجوهرها الأصيل. وعلى الرغم من ذلك، يبدو أن المداخل والكهوف الصناعية هي فقط الأماكن الوحيدة التي يمكن أن تقدم بطريقة خاطفة خلفيات مثالية لتلك الصور الفوتوغرافية. وتتناثر التكوينات الصناعية في حديقة الحيوان بفضل عبقرية أنماط البناء الإيطالي والتركي الحر الذي يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر والتي قامت بتشكيل تضاريس جبلية محفورة في الصخور، والتشكيلات المرجانية محكمة الإغلاق بسطوح ملساء حمراء اللون. وقد أُسدلت ستائر النسيان لفترة طويلة على هذه التكوينات الحجرية ولكنها كانت تلقى الكثير من إعجاب الزائرين من سكان القاهرة. وكون أن هذه التشكيلات صناعية لا يمكن أن تخدع أحدا. وعلى العكس، فإن ما يثير الإعجاب اليوم، وكما كان في الماضي الرومانسية القوية الكامنة في ثناياها. ولا يقتصر الأمر على الشباب فقط، ولكن العائلات والمجموعات الصغيرة أيضًا تسارع إلى التقاط الصور أمام هذه الخلفيات الفاتنة، والزخارف المفعمة بأشكال ساحرة من الماضي، والمخصصة للعامة من شموخ قاهرة الزمن الجميل. (برجاء الرجوع إلى القاضي والكرداني في هذا الكتاب لتحليل أعمق للهندسة المعمارية لهذه الحقبة، والتي تتمثل في وسط مدينة القاهرة).

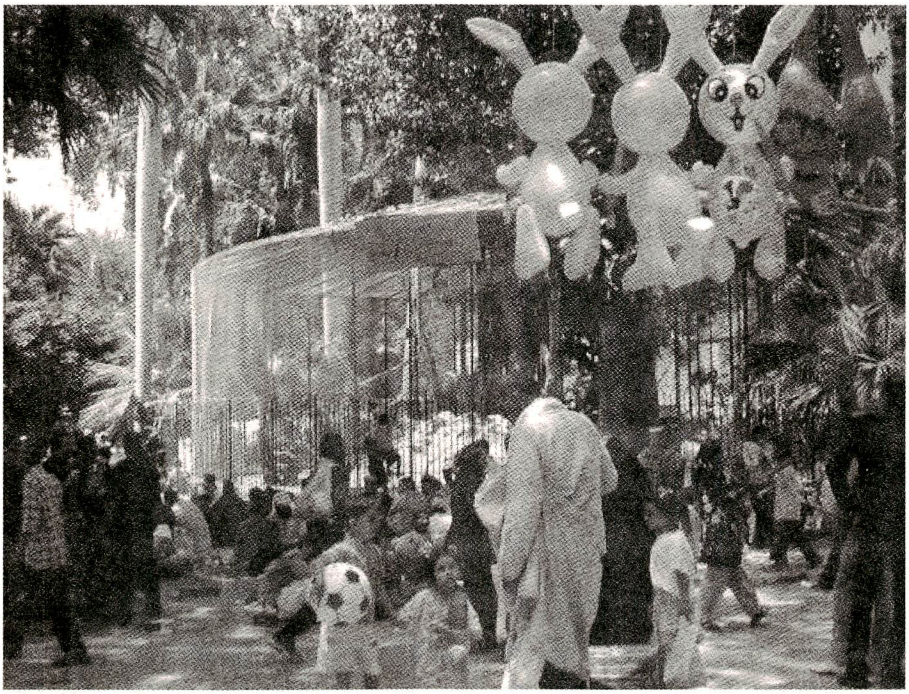
يتجول العشاق الصغار في بحثهم الدائب عن ركن متميز، وتذكر الأفلام الرومانسية للعام الماضي. وفي حقيقة الأمر، فإن هذه المكان الشبيه بالجنة، كان يُشكل مواقع لتصوير العديد من الأفلام والمسلسلات المصرية والتي أشهرها فيلم "موعد غرام" (بركات ١٩٥٦) (سمير ٢٠٠١).

وقد تم ترميم الكهوف الصناعية وهي التشكيلات الهندسية الأخاذة داخل الحديقة، التي تحمل في ثناياها ذكريات الزمن الجميل عندما غنى عبد الحليم حافظ لفاتن حمامة وهو يتتبعها عبر ممرات الحديقة المتعرجة والجسور الصغيرة (شاهين ١٩٩٩).

عادة ما تكون حديقة الحيوان مقصدًا للعائلات. ولكن فى هذه الأيام القليلة التى يسودها الزحام، فإن جماعات الفتيان المراهقين، والعشاق، يبتلعون العائلات بأعدادهم الهائلة. ومع ذلك، فإن العائلات لا تتنازل عن منطقة؛ فهم يصطحبون أطفالهم، ويرتدون أجمل ثيابهم كهدية الأعياد، بدل صغيرة للأطفال، وفساتين بيضاء صغيرة وجميلة للبنات، أو يرتدون خزانة ثياب بأكملها يبدو أنها استخرجت من لفافتها على التو، وتشمل ضمن ما تشمل قبعات مزدانة بالزهور الجميلة. ويبذل الآباء كل جهدهم، فى جميع الأحوال، لضمان أن يظهر أطفالهم فى أجمل وأبهى حللهم، ويرتدون أزياء ملائكية تليق بالطفولة ما أمكن ذلك؛ فى نفس الوقت الذى يباهى فيه المراهقون بفخر بماركات ملابسهم (نايك، وليفى، وأديدياس، وغيرها، والتى فى الغالب تكون مقلدة) والإضافات التى لا غنى عنها فى الأعياد. ويمكن للمرء أن يُخمن أن الآباء وبدون أن يرتدوا ملابس جديدة، قد بذلوا جهدًا ليبدوا فى أفضل مظهر لهم أيضًا. ويفضل بالنسبة للآباء ارتداء البنطلون والقميص. وسيكون ارتداء الجلابيب (رداء طويل يصل إلى أخمص القدمين) عملاً أخرق فى هذه المناسبات. وترتدى السيدات ملابسهن بعناية بحيث يتماشى لون الرداء مع لون وشاح الرأس. ويمكن تمييز سيدات الأحياء الشعبية بالطريقة التى يرتدون بها وشاح الرأس حيث يقمن بعقدها حول العنق بدلاً من تحت الذقن. ويظل المظهر سمة قوية للمكانة الاجتماعية سواء قلة الشأن أو عظمته فى السلم الاجتماعى. وتظل العائلات تدور حول أقفاص الحيوانات، تلبية لرغبات أطفالهم الغامضة لرؤية الحيوانات – أو تناول الآيس كريم، أو المشروبات الغازية، أو الرغبة فى ارتداء قناع وجه للنمر أو الأسد، أو بالون يمكن نفخه ليتخذ شكل غزال أو زرافة.



زائرو الحديقة يتطلعون إلى الحيوانات فى أقفاصها (تصوير فيسنت باتيستي)



العائلات والأطفال يستمتعون بلحظات مرح فى حديقة الحيوانات (تصوير فيسنت باتيستي)

تستقر الأسر على المقاعد الطويلة الكثيرة (لكنها مع ذلك غير كافية)، والمدهونة باللون الأبيض، والأخضر الداكن، وكذا على المساحات التى تترك مفتوحة على جوانب الطرق. وفى هذه المناسبة بوجه خاص، فإن الزائرين للحديقة يعطون لأنفسهم حرية الجلوس على الحشائش، وحتى ضد الحظر المدون على اللوحات الإرشادية التى وضعتها إدارة الحديقة. ويؤدى مفرش مائدة (ملاءة سرير، أو حصيرة بلاستيك، أو قطعة صوفية، أو غطاء من القماش الصناعي) العديد من الأغراض. وتوضع هذه الأقمشة على الأرض، وتجلس السيدة – الزوجة أو الأم – فى أول الأمر ويجلس الأطفال والزوج حولها، بالإضافة إلى حقائب المؤن، والأطباق، وجهاز راديو كاسيت، وعبوات الطعام، وأخيرًا كرة قدم، ونرجيلة الزوج، وموقد للشاى، والأطفال من مجموعات العائلات الأخرى. وتحدد مساحة القماش المفروش بأكملها الحدود بينها وبين الأسرة المجاورة لها والتى تكاد تكون غير معروفة. ويؤدى مفرش المائدة وظيفة واضحة كمحدد للرقعة التى تحتلها أسرة والتى يجب أن تُحترم حدودها بشكل أو بآخر، وعلى وجه خاص على طول الطرقات التى تقع بينهم. أما الأشياء الإضافية الأولى فهى علامات متحركة يسمح وضعها بالتفاوض مع الجيران، بالتعبير بلطف وأدب فى أثناء أيام الأعياد: "من فضلكم سنتخذ لكم مكانًا بيننا وبين جيراننا" (وهو المكان الذى يشغله الأطفال بالفعل).



عائلات تتنزه خارج أسوار حديقة الحيوان أثناء عطلة عيد الفطر المبـــارك
(تصوير فيسنت باتيستي)

يتطلب ضغط الزحام فى الغالب أن يعمل الأب أو الخطيب كحارس للمكان، وأن يقوم بتركيز جل انتباهه تجاه غزوات الآخرين للمكان الصغير الذى تحتله الأسرة، أو على الأقل توضيح علنى بملكية المكان. ولا يسود فى الغالب الخيار الخاص بتوزيع عادل للأماكن المتاحة والحد الأقصى من التباعد بين الأسر. ويتم تنسيق البحث عن الابتعاد عن المجموعات الأخرى (حقيقة وبدون الانعزال أيضًا، إلا لأولئك العشاق الذين لم يرتبطوا بالخطوبة رسميًا بعد) طبقًا لمتطلبات العثور على مكان جيد (مشمس، أو ظليل، جاف، أو سطح مرتفع، قريب جدًا من النافورة، وغير ذلك). وتتجلى مظاهر احتفالات الأسر القاهرية فى حديقة الحيوان وبهجة الترويح والاستجمام بالخضرة والتنزه، على هذه المساحة الصغيرة المتمثلة فى مفرش مائدة أو ملاءة سرير، والمفروش فى مكان عام، والذى يتم طيه عند المغادرة، على الرغم من التطفل المحتمل. وتُصدر البادرة الأولى من الزوجات والأمهات عند بدء الجلوس، بخلع الصنادل أو الأحذية التى يرتدونها وتركها على غطاء المائدة التى يفترشنها. وتمكث السيدات حافيات الأقدام طوال فترة بعد الظهر، بينما يقمن بشد ملابسهن لأسفل لتجنب أى عدم احتشام وظهور أى أجزاء من سيقانهن. وبينما يكون الزوج قد قام باحتلال هذه البقعة بالفعل، فإنه يقوم باستكشاف مسافات أبعد مع أطفاله، ويصطحبهم لرؤية الزرافة، على سبيل المثال، حيث تكون سعادة الأطفال مضمونة فى ذلك. وتعرف الزرافة كيف تقوم مستخدمة لسانها الأسود الطويل، بانتزاع قطع الجزر التى تمتد إليها وبدون أى خطأ، بين صيحات الخوف وضحكات الإعجاب من الأطفال.

"الحدائق العامة مُحببة. وهى أماكن ليس فى مقدور الإنسان العادى أن يتردد عليها دائمًا. فإذا ما ذهبت إليها يوم الجمعة، فسترى أن من المحال عليك أن ترتادها.

(طالب بجامعة القاهرة يقطن فى حى النخبة مصر الجديدة التابعة لمدينة القاهرة ٢٠٠٣).

يتميز تخصيص المكان في حديقة الحيوان بالكثافة العالية، وبالفوضى إلى حد ما، من جراء تزاحم العامة. ومن الناحية الواقعية، فإن المخلوقات الوحيدة التي لا تعاني من التزاحم هي الحيوانات، فهي في حماية من التزاحم خلف قضبان أقفاصها. وتوجد بالإضافة إلى ذلك، جُزر أخرى منعزلة للاجئين آخرين. وهي مكاتب موظفي إدارة الحديقة، فهي محاطة بجدران عالية، وتشبه تلك التي تحيط بالكهوف، وتخفي وراءها مبان صغيرة هادئة. وتنفتح هذه المباني على حديقة صغيرة خاصة. ويحرس مداخل هذه المباني، حراس في غاية اليقظة، يرتدون زيًا موحدًا أزرق اللون. وتعمل الكافيتريات الخاصة بالحديقة وفقًا لنظام لا يزال مختلفًا تمامًا حيث يتعين عليك أن تستهلك وتدفع لتبقى فيها. وهذه المطاعم المقامة في الهواء الطلق متواضعة، ولكنها بصفة نسبية أماكن حصرية داخل الحديقة العامة المتسعة الأرجاء. وليس هناك باب للمطعم لتفتحه لتشق طريقك داخلاً إلى هذا المكان، فقط بضع درجات من السلالم على الأكثر يتعين عليك أن تصعدها. ويبدو محيط هــذا المكان جليًا، و"طبيعيًا"، عندما يتعلــق الأمــر بصخرة أُعيد تشكيلها، أو بركة للبط؛ ولكنها تبدو صناعية عندما تكون محاطة بشبكة من الأسلاك. ويجد المرء في هذه الواحات الأنيقة نسبيًا، مناضد ومقاعد. كما لا يظل العميل هنا واقفًا، ولا يمكن أن يهيئ المرء لنفسه جلسة مريحة على سطح الأرض. بالإضافة إلى ذلك، فإن المرء مُجبر ضمنًا على تناول المشروبات المرطبة والأغذية الخفيفة التي تباع هنا (من طعام وشراب، أو حتى الشيشة التي هي ضرورية للآباء المصاحبين لأسرهم). وتسمح هذه المبيعات لهذه المطاعم بأن تنجح وتزدهر، حيث تفرض أسعارا عالية بطريقة سافرة مما يثني الأغلبية الساحقة من الزائرين عن تناول أي شيء فيها.

تعتبر "جزيرة الشاي" مطعما وكافيتريا وتقع على حافة واحدة من بحيرات الحديقة التى تعوم فيها البجع كما أن المطعم يقع أيضًا فى وسط مجموعة من النباتــات والأشــجار النــادرة والعتيقة. وفيها، يمكن أن يقدم لك الشاى والوجبات، بأسعار جيدة. ويمكنك أن تجلس لتتأمل أمامك مياه البحيرة الهادئــة، حيث البجع، والبط، والإوز، بألوانها المختلفة تعوم وتنضـــح أجســادها بميــاه البحيرة. أما من خلفك، فستجد الخــضرة تنبسط حولك.

مركز خدمة الاستعلامات ٢٠٠١.

ظل سعر تذكرة الدخول إلى حديقة الحيوان منخفضًا، ويبلغ خمسة وعشرين قرشًا (ما يعادل ٠,٥ دولار أمريكي) ويسمح لكل شخص، بمن فيهم الطبقات الشعبية، بشراء تذكرة. ولكن الأسعار المفروضة على منتجات الكافيتريات خاضعة لنظام مختلف تمامًا، وربما لمنطق مخالف تمامًا. وقيل فى ذلك، إن القلة المحظوظة من مرتادى الحديقة أثناء الأعياد يشغلون فعلاً أعدادا كبيرة من مناضد الكافيتريا المتاحة. وغالبًا ما يكون هؤلاء من الأسر (العائلات الصغيرة التى لديها طفل أو طفلان)، ولكن هناك أيضًا بعض المراهقين ممن يسمح لهم مصروف الجيب الذى يتقاضونه الاستمتاع بهذه الخدمة. وسواء كنت واقفًا، أو جالسًا، فإن التطلع إلى مغامرات الغزل، أو أشكال التواصل، تنبنى على ذخيرة من التهكم، والمحاكاة المسرحية، والنظرات المُحدقة. ويعتبر الفارق بين الكثافة البشرية فى الطرقات وباقى أماكن الحديقة خارج الكافيتريا، وندرة هذه الكثافة فى داخل أرجاء الكافيتريا، صارخًا. وعلى أى حال، ليس فى مقدور أى فرد أن يتجرأ باقتحام هذه

الأماكن ذات القداسة الخاصة التى تتمتع بهدوء نسبى دون أن يفكر فى الثمن الباهظ لانتهاك هذه العوالم الحصرية الهادئة، فقط تلك العناصر التى تجهل "الكوميديا الاجتماعية". ويسارع عمال الكافيتريا للإمساك بهؤلاء الأطفال الذين يندفعون إلى محيط الكافيتريا، فى نفس الوقت، محاولين السيطرة عليهم خارج هذه الضوضاء الصاخبة بغرابة شديدة، ولكنها تبدو نصف فارغة، مقارنة بمتوسط الكثافة فى باقى أجزاء الحديقة. وعلى أى حال يمكن لتحركات الزحام فى الحديقة أن تكتسح رجال أمن الكافيتريا. وكان فى مقدور هذه الحشود المذعورة أن تقتحم هذه الأماكن الحصرية وبدون أدنى مقاومة من رجال الأمن أو العملاء، وذلك عندما انتشرت أصوات ضجة عالية لشائعة بأن بعض الأسود قد فرت من مجمع أقفاص الأسود القريب.

وتنحشر الحشود التى تقوم بزيارة حديقة الحيوان العامة أثناء أيام احتفالات الكبرى بالأعياد، ولكنها تتألف من مئات الآلاف من وحدات الحشود المتجمعة، والمتعددة الألوان. ما الذى يجمع كل هؤلاء الأشخاص الزائرين معًا، ليتجمعوا فى نفس المكان، وفى نفس التوقيت؟ هل هو عيد دينى إسلامى؟ ليس ذلك تمامًا– فهناك العديد من الأقباط المسيحيين معهم. وربما كان يوم العطلة فى نتيجة الحائط مجرد فرصة فقط لذلك. (انظر للجزء الخاص بالشتاوى فى هذا الكتاب من أجل مناقشة أوسع للطريقة التى تقوم بها الطبقات الشعبية للميادين القريبة من مساجد السلطان حسن والرفاعى والوسيلة التى لجأت إليها الحكومة من أجل تحجيم وصول العامة إليها، وبادعاء أنها لصالح السياحة العالمية). فهى لا توضح لنا شيئًا عن اختيار الحديقة العامة أو عن الممارسات التى تحدث فى قلب هذه الحدائق.

أحد الحاضرين: بالنسبة لى، فأنا أحضر مع أسرتى، لأننى أجد الحديقة جميلة. المكان بأسره بالغ الروعة: الجو العام،

والماء، والبط.... إنه جميل لأنه مزدحم جدًا، وممتلئ عـن آخره. فإذا لم يكن هناك زحام، فلن تكون الحديقة جميلة على الإطلاق. فنحن نحب أن نرى البشر. وهى فرصـة سـانحة لنرى الجميع، كيف هم، وكيف يـسلكون، وكيـف يرتـدون أزياءهم.... فى حقيقة الأمر، هذا هو كل ما يتعلق بـالخروج فى المدينة.

المـؤلف: إه هنا حديقة الحيوان، هـل أتيـت هنـا لرؤيـة الحيوانات أم البشر؟

أحد الحاضرين (ضاحكًا): فى الحقيقة، الاثنان معـا! جـرت المقابلة فى الكافيتريا مع أحد رجال الأعمال السكندريين، فى أواخر الأربعينيات من عمره، ويقوم بزيارة الحديقـة أثنـاء العطلة، ٢٠٠٣.

يكمن مفتاح السر هنا فى كلمة "الجو" وهى تعطى سببًا كافيًا. (علشان نغيّر جو). ولكن تغيير الجو بالعلاقة لماذا؟ هل إزاء الروتين اليومى المبتذل، أم للحى الذى يقطن فيه الشخص؟ وهنا يثور سؤال عن الأصول الاجتماعية والجغرافية لمستخدمى حديقة الحيوان. وكيف يمكننا تصنيف هؤلاء الزائرين دون أن نقوم بتعريفهم ببساطة؟ الناس من القاهرة، ومن الطبقة الشعبية – هم الذين يشكلون الزحام من المجهولين الذين يشاهدون الآخرين. ولكن هذا النوع من الزحام الذى يجد الباحث الاجتماعى صعوبة فى تصنيفه وتحديده. ويعتبر تعريف الطبقات الشعبية كفئة اجتماعية مسألة دقيقة. هل يكون تعريف هذه الطبقة على أساس أنها نقيض الطبقة الأكثر ثراءً، والتى من السهل تعريفها، أو فى تمييزها عن الطبقة

المتوسطة، والتى من الصعب جدًا تحديد حدودها الفاصلة نظرًا لعدم وضوح الهويات الاستهلاكية؟

ومن الصعوبة أيضًا بمكان أن نقوم بتحديد الطبقات الشعبية التى تقوم باستخدام الأماكن العامة فى حديقة الحيوان لأنها تضم مجموعات مختلفة بوضوح من حيث الدخول المادية، ومستويات المعيشة، والمراكز الاجتماعية، والمستويات التعليمية، وأصول الأحياء الحضرية التى ينتمون إليها. وقد تضمنت النظرية الافتراضية التى وضعها الاقتصادى المصرى جلال أمين أن مصر فى الخمسين عامًا الأخيرة قد وفرت سبلا جديدة للحراك الاجتماعى وأن عناصر معينة من الطبقات الشعبية قد مرت بتجربة صعود نحو قمة الهرم الاجتماعى (٢٠٠٠). وهناك نزعة معتادة فى مصر فى المساواة بين الابتذال فى الآداب العامة وبين تنامى تأثير ووجود الطبقات الشعبية. وقد مرت عمليات النمو السكانى، وتحطيم الحدود التى كانت تقسم البشر فى مصر جغرافيًا واجتماعيًا، والأماكن العامة بتغييرات عميقة، ومع ذلك فقد تواصل الفصل بين الطبقات.

الأماكن العامة: الحدائق ووسط مدينة القاهرة

تمثل حديقة حيوان الجيزة جوهرة مبكرة لتحديث مدينة عاصمة مصر، وتظهر كحنين للأثر الأخير المتبقى من الخضرة التى كانت تميز الظهير الزراعى الذى كان يحيط بمصر. ويتم إدارة الحديقة تحت إشراف وزارة الزراعة من الناحية الفنية، كأرض خصبة فى قلب القاهرة الكبرى، ومغمورة بين الأبراج السكنية، وجامعة القاهرة، وحركة المرور للطرق العامة المركزية. وقد أصبحت حديقة الحيوان منذ منتصف القرن العشرين يحيط بها حى الدقى. وعلى الرغم من أن حدائق الحيوان مغلقة، ولكن يسهل اختراقها؛ ويعمل الباعة الجائلون غير المرخص لهم بالدخول من خلال قضبان السياج الحديدى المحيط بالحديقة. وحديقة

الحيوان مقصد؛ ومركز للحركة والانتقال لجميع الأرجاء. وتخدمها الأتوبيسات، وسيارات الميكروباص، والأتوبيس النهرى بغزارة: وهى سائل النقل الجماعى للزائرين فى أغلب الأحيان، الذين لا يمتلكون سيارات. وهذا مؤشر إضافى للأصل الاجتماعى للمرتادين للحديقة والذين هم فى المعتاد يقطنون فى الأحياء الأكثر بُعدًا، والأكثر فقرًا. وإذا ما كانت حديقة الحيوان تواجه بالازدراء من السائحين لصالح المواقع السياحية التقليدية فى العاصمة (مثل أهرام الجيزة، وقلعة محمد على، والمتحف المصري)، فإن الطبقات الشعبية أثبتت أنها تعشقها وبحرارة. وقد اكتشف من حاورتهم من المصريين وبغرابة شديدة، أن الزائرين من خارج القاهرة يؤمون الحديقة، والتى يفكرون فيها "كحديقتهم السِرية". وليست الحيوانات هى التى تجذبهم كثيرًا، بل هم الزائرون الآخرون، ومشهد فى المدينة يقدم احتمالات للقاءات عابرة، ومشاهدات، وكثافة معينة من البشر، بعيدًا عن نظرات ازدراء الأثرياء، أو جيران الزمن الحالى.

ويمكن للمرء أن يرسم ببساطة خريطة للقاهرة توضح المواضع المختلفة لكثافة المشاة، والجو الحضرى السائد، ومجرد التطلع إلى فتارين عرض السلع غالية الثمن، والتجول على غير هدى، والمعاكسات البريئة، وألعاب الأطفال. وسيكون من الضرورى عندئذ أن يقدم إحصاءً عدديًا للحدائق العامة، والميادين، والشوارع التجارية وشوارع المشاة فى منطقة وسط المدينة، ومراكز التسوق التجارية، وكورنيش النيل، والكبارى، وحدائق شاطئ النهر، وبواخر القناطر الخيرية النيلية حيث مقصد العائلات والعشاق أثناء عطلات نهاية الأسبوع (انظر أباظة ٢٠٠١، والششتاوى وأباظة فى هذا الكتاب، لتوضيح أكثر لممارسات المستهلكين فى مراكز التسوق التجارية). وستراعى هذه الجغرافيا الوصفية متعة المشاة فى الحضر ورغباتهم فى التجوال على مهل، والتعقب، والتنافس على مواضع المتعة.

تسابقت الصحف المحلية فى عناوينها الرئيسية أثناء ربيع عام ٢٠٠٣، فى إعلان أن العاصمة المصرية قد انتزعت من مكسيكو سيتى شرف أن تصبح أكثر العواصم تلوثًا فى العالم. ولم يكن سكان القاهرة ينتظرون إعلان تسجيل هذا السبق للمطالبة بزيادة المساحات الخضراء. ويبحث سكان القاهرة فى ساعات ليالى الصيف الأكثر فتورًا، عن أى شيء يمكن أن يقترب من شكل الحديقة. وتتنزه العائلات فى المواقع السفلية المعشوشبة، أو المروج الهزيلة التى تجاور مناطق المرور الهادئة نسبيًا، والتى تحاصرها اختناقات المرور الملوثة. ويعتبر البحث عن الأماكن الخضراء اتجاهًا عالميًا، كما يتجلى فى الخطاب العالمى، ولكن التعبير عنه محليًا يقتصر على القاهرة والجيزة[٢]. ولم تُلزم الحدائق اليابانية فى حلوان وتصميمها سكان القاهرة بوضوح، على سبيل المثال، بممارسة طقوس (*Zen*) البوذية فى الاسترخاء الهادئ والتأمل منذ افتتاحها فى عام ١٩٩٣[٣].

ويتقيد استخدام المكان العام بواسطة طبقات القاهرة الشعبية جزئيًا بتاريخ يتعين علينا أن نفحصه على عجالة وبإيجاز. واسترعى انتباهنا نوعان من الأماكن العامة الشعبية لسكان القاهرة: الحديقة العامة، وشوارع وسط المدينة. وتتعلق واحدة من أكثر الظواهر بروزًا فى الخمسين عامًا الأخيرة مباشرة باحتلال الأماكن العامة. وتخلت البرجوازية المصرية والعالمية التى احتلت وسط مدينة القاهرة لأجيال عديدة قبل الثورة المناوئة للاستعمار بقيادة جمال عبد الناصر والضباط الأحرار فى عام ١٩٥٢ عنها بشكل كبير. وكانت هذه المربعات السكنية لوسط المدينة والتى استلهمت من الطراز الفرنسى الذى يعود الفضل فيه إلى المهندس جورج أوجين هوسمان هى مجال اختيار الطبقة المتوسطة والنخبة منذ النصف الثانى من القرن العشرين.

على أى حال، فإن البرجوازيين الجدد – وبصفة خاصة محدثى الثراء المنتمين لسياسة الانفتاح (سياسة الانفتاح الاقتصادى التى استهلها الرئيس السادات

أثناء سنوات السبعينيات من القرن العشرين) – وجدوا راحة البال فى أماكن أخرى، إلى الغرب، وإلى الجنوب من وسط مدينة القاهرة. (راجع دينيس فى هذا الكتاب لمناقشة التخلى عن الأماكن الحضرية فى المدينة للطبقة الوسطى والعليا، والتى ظهرت بصورة جلية فى حالة هستيريا بناء التجمعات ذات الأسوار المُغلقة فى الصحراء). وبالتبعية، فإن هذه الأماكن قد شغلتها طبقات أكثر تواضعًا من السكان. وقد أغارت الطبقات الشعبية على أرصفة وسط المدينة على أقل تقدير، إن لم تكن منازلها. وكان التردد على المنطقة منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين من النخبة البرجوازية وهم يتباهون مستعرضين خلال أروقة التسوق، والحدائق والمنتزهات بملابسهم بالغة الأناقة ممسكين بمظلات الشمس الملونة الأنيقة. ولكن منذ ذلك الحين، تغيرت منطقة وسط مدينة القاهرة إلى مكان أكثر كثافة وموقع لنزهة الطبقات الشعبية ومجرد التطلع إلى فتارين عرض السلع غالية الثمن، ومراقبة الآخرين من الطبقات الأخرى.

> **تبدأ (العائلات من الأحياء الفقيرة) فى محاكاة بعضهم البعض. ويرغبون فى الخروج إلى المدينة شأنهم شأن (البرجوازيين). وهم يرغبون فى التنزه، ولذا فهم يتجهون إلى الحدائق، وإلى دور السينما، والحدائق العامة، والأماكن الأخرى المماثلة... وتعلموا (الخروج إلى المدينة).**
>
> سيدة فى الأربعين من عمرها من حى شعبى فى القاهرة الإسلامية، القاهرة ٢٠٠٣.

فهل تشبه هذه الممارسات روح ممارسات الطبقات المهيمنة (السابقة)؟ ليس تمامًا، لأن جوهر هذه الممارسات مختلف كلية. فقد كان التأكيد فى السابق على المظهر، وعلى استعراض التميز الاجتماعى والتفرد الشخصى. ولكن ما يأتى فى

المقام الأول فى هذه الأيام عند التنزه والسير فى وسط المدينة والحدائق هو البحث عن المخالطة الاجتماعية وأجواء الحيوية فى المناطق الحضرية. ويترك المرء المربع السكنى الخاص به ويذهب إلى هذه الأماكن من المدينة ليقينه من أنه سيجد الحيوية والمتعة اللتين تستحقان جهد رحلة الخروج. ويخلق هؤلاء المنتمون لسكان القاهرة، ويتلمسون البحث عن أجواء مثالية والمشاركة فى مشهد فريد من نوعه يستحوذ على المدينة، والتى تشارك فى مشاهدتها بنفسها أيضًا. وقد شهد التنزه فى الحدائق العامة نفس التجربة التاريخية التى مرت بها منطقة وسط المدينة إبان تحولها. فقد أدت الرغبة فى عزل الذات إلى هروب الطبقة الأكثر ثراءً إلى أطراف المدينة، تاركين الحدائق العامة وميممين شطر النوادى الرياضية الخاصة الجديدة التى يقتصر دخولها على الأعضاء فقط. وينص النظام الأساسى للعضوية فى واحد من هذه النوادى على ما يشبه جوائز الإلهام البريطانية التى تمنح ميزة الدخول إلى حدائق تلقى عناية خاصة، وأنشطة معينة، وبصورة مشابهة بطرق حصرية لاستخدامها.

الباحث: أين تذهبين أثناء أوقات فراغك؟

فتاة من الجمهور: إلى النوادى، نادى الجزيرة على سبيل المثال، من أجل رؤية الأصدقاء، كما يمكننى أن أذهب إلى بعض المراكز التجارية المعينة من أجل التسوق.

الباحث: ألا تذهبين أبدًا إلى حديقة الحيوان؟

الفتاة: لا، أبدًا لا أذهب إليها، أو إلى الحدائق العامة. تعتبر الحدائق العامة أماكن للطبقات الشعبية، ولماذا أذهب، على أى حال، إلى أماكن لن تذهب إليها صديقاتى؟ لن يجرؤ أفراد الطبقات الشعبية، فى كل الأحوال، حتى ولو كانت لديهم

الوسائل لارتيادها، أن يرتادوا النوادى الخاصة: فلن يشعروا بالألفة هناك.

الباحث: لم؟

الفتاة: لأنهم يريدون أن يستمتعوا بنزهاتهم وهم يحملون حلل المحشى، وتناولها وهم يجلسون على الأرض. وذلك ليس أمرًا متاحًا فى النوادى الخاصة، حيث هناك مناضد ومقاعد وكافيتريات.

شاب من الجمهور: كما أنهم لن يشعروا بالارتياح، لأن بعضهم، لسنا نحن بالطبع، ولكن بعض الناس سيتطلعون إليهم بنظرات الازدراء. كما أن رجال الأمن سوف يسألونهم لماذا أتوا إلى هنا: أنت، هل أنت عضو هنا؟! ويمكن تمييزهم بسهولة من الأزياء التى يرتدونها بأنهم لا ينتمون للمكان.

مقابلة مع اثنين من طلاب الجامعات القاطنين فى مصر الجديدة ٢٠٠٣.

يكون الانتقاد بالغ القسوة للحدائق العامة بين أولئك الذين ينتمون إلى شرائح الطبقات الأكثر ثراء فى المجتمع، والذين يبدون مشاعر الأسف عن "الغزو" الذى تتعرض له الأماكن العامة من التجمعات التى "لا تجيد قواعد السلوك، وليسوا مؤدبين". ويعبر كل أهل القاهرة بموضوعية فى أحاديثهم عن التمييز بين الطبقات فى الأماكن العامة. فيقول الأثرياء إنهم لا يخالطون الفقراء فى المجتمع، لأنهم يخشون من الجريمة، والإهانات، والبذاءات، والتلوث، والسوقية فى السلوك والحديث. ويقول أفراد الطبقة الشعبية إنهم يخشون الشعور بأنهم "لا ينتمون للمكان" وبطريقة واضحة. ولكل ذلك، فإن الأمر يتعلق بمحاولة الحفاظ على نمط الحياة

بين الآخرين الذين يمكنهم ألا يستوعبوا ضوابط الحياة التى تحكمهم. ولا يعد هذا الانفصال الاجتماعى بدعة جديدة. ولكنه ينبع من، كيف أضحت الطبقات الشعبية.

> **لم يعد الناس يخرجون من منازلهم فى نهاية سنوات الستينيات. ومكث الناس الذين تنتمى عائلاتهم إلى الطبقات الشعبية فى بيوتهم. وماذا يعنى ذلك؟ كان محظورًا على الفتيات الخروج من المنزل. والشباب كانوا يخرجون نادرًا، وإذا ما رغبوا فى الخروج، فبغرض الجلوس على المقهى. وكانت كل تلك الحدائق العامة فى وسط المدينة مكرسة فقط للبرجوازيين. فقد كانت أماكنهم الخاصة. وفى بدايات سنوات السبعينيات، بدأ الناس فى الخروج... (ولكن حتى ذلك الحين)، لم يكونوا يغادرون الحى الذى يقطنون فيه (منطقتهم)! كثيرًا. وكانوا يتزاورون فى المنازل. وكان ذلك هو كل ما هنالك. ولم تكن هنالك (لهم) أى حدائق عامة؛ ولم تكن هناك أى دور للسينما... وكان البرجوازيون يرتادون دور السينما؛ كما كانوا يرتادون الحدائق العامة، والكازينوهات، والملاهى الليلية.**

سيدة متزوجة ٤٨ سنة، من الدرب الأحمر فى القاهرة الإسلامية، ٢٠٠٣.

عندما بدأت الطبقات الشعبية فى الخروج، اتخذت طبقات القاهرة الثرية أماكن الترفيه الحصرية ملاذًا لها، بالإضافة إلى التجمعات السكنية ذات الأسوار المغلقة. وتُسلط انتقادات الطبقة الثرية للأحوال الحالية للأماكن العامة الأضواء

الكاشفة على الفجوة بين ممارسات العامة الآن وتخصيص الحدائق العامة، والغرض الأصلى من إنشائها، وحفز مفاهيم النخبة القومية من حيث الحداثة، والقواعد الصحية والروح المعنوية. وكان أول ظهور لحديقة عامة حديثة، من الناحية التاريخية، فى القاهرة فى عام ١٨٣٧، بأمر من الوالى محمد على. وقد قام الباشا بإنشاء منتزه للعامة فى القاهرة (وبصفة خاصة العامة من الأوروبيين)، خلف شارع شبرا. وقد قام بتحويل ما كان بركة مستنقعية، وهى بركة الأزبكية، إلى حديقة "على غرار النمط الأوروبي". وقد قاد هذا الاختيار القلق المزدوج بشأن موضوع القواعد الصحية، والعوامل المعنوية، حيث كان يرغب فى تطهير البركة، والتى كانت تتقلب من جراء التيارات التى تندفع إليها من مياه النيل. كما أنه كان راغبًا فى استبدال مواقع الفسوق القريبة من أماكن المتعة (من مقاه، وبغايا، وباعة متجولين)، بمواضع أخرى "صحية لأنشطة التنزه والتى تتميز بالحفاظ على الأخلاق والحداثة" (*Behrens-Abouseif 1985*). وكانت القواعد الصحية والأخلاقية للمكان، والتى تعتبر من الأساطير العالمية الكبرى، من الحجج الأساسية فى القرن التاسع عشر والتى يتم الاستناد إليها فى خلق مساحات خضراء فى البيئة الحضرية. "وتزيد الأشجار من انتشار الهواء، والضوء، كما أنها بوجه أخص تقوم بامتصاص الجو الخانق الذى يتصاعد من أحشاء البشر والمصانع" (*Nourry1997*). وتستهدف المنتزهات الحضرية لمدينة القاهرة (الحدائق، والشوارع العريضة التى تكتنفها الأشجار) أو الممرات شبه – الحضرية (الحدائق الفسيحة فى القناطر الخيرية)، إلى إسعاد ورفع البرجوازية الجديدة فى القاهرة إلى مصاف المكانة العالمية.

وكان الوعى بحدوث تغييرات اجتماعية كبيرة أثناء القرن العشرين فيما بين سنوات الستينيات وأوائل السبعينيات فى كافة المقابلات التى قمت بإجرائها، واضحًا للعيان. ولم يكن بعضهم فى سنوات الستينيات قد ذهب إلى حديقة الحيوان

أو الحدائق العامة بعد، بالنسبة لبعض الفئات، ولكنهم شرعوا فى تجربة ذلك فى سنوات السبعينيات. وبالنسبة لآخرين، فقد تذكروا أنهم تجولوا فى حديقة الحيوان والمنتزهات. ولكن بحلول سنوات السبعينيات توقفوا عن ذلك. وحلت طبقة عامة جديدة محل الأخرى، وكان للمستخدمين الجدد ميزة التفوق العددى.

> **هناك نادرة تروى عن ونستون تشرشل يقول فيها إن الصحراء التى يعهد بها لليهود تتحول إلى حديقة ولكن الحديقة التى يعهد بها إلى العرب تصبح صحراء. إنها بغيضة تمامًا، ولكن التاريخ أثبت صحة مقولته. فما الذى أصبح عليه حال حديقة الحيوان والأزبكية (وهى أقدم الحدائق العامة فى مصر والتى شُيدت فى بدايات تأسيس المدينة الحديثة)؟**

شاب مصرى فى الأربعينيات من عمره من أصحاب المصانع، جرى اللقاء فى النادى الخاص به، (نادى محمد على، ٢٠٠٣).

يبدى البرجوازيون انزعاجهم من التقارير التى تتحدث عن "التدهور" الذى يحيق بهذه الأماكن. وإذا ما كان ذلك الانزعاج يتطور إلى درجة الشعور بالهلع، فهو للتغير الجذرى فى هوية المُستخدمين للأماكن العامة. وتعمل الحدائق العامة والتى كان يُعتقد أصلاً أنها فى صالح روح الصحة العامة الآن فى صالح الطبقات الشعبية فقط إذا ما كانت الأجواء مواتية، وبصفة خاصة إذا ما كانت الكثافة مساوية لحى مزدحم حيث يقطن هؤلاء السكان.

> **لم تكن القناطر الخيرية ممتعة عندما قمنا بزيارتها. لماذا؟ لأننا كنا بمفردنا؛ لم يكن هناك أناس آخرون! لم تكن جميلة**

فى الحقيقة. لم نكن راضين فى واقع الأمر إذ لم يكن هنـــاك الكثير من الناس. ويمنح الناس روح الحياة للمكان... وهـــذا هو أهم ما فى الأمر. إذا لم يكن هناك بشر، (وحتى) لو كـــان المكان بالغ الجمال، فعندئذ لن تكون جميلة. ستشعر بـــذلك. هناك حياة (فى حديقة الحيوان)، أو بالأحرى هنـــاك حركـــة، وبذا تكون هناك حياة، وهذا هو الجمال، وهذا أمر ضرورى، فذلك يعنى مكانا، واسترخاء، ذلك أمر بالغ الأهمية.

سيدة فى الرابعة والعشرين من عمرها من سكان الدرب الأحمر، فى الحديقة الدولية، حى مدينة نصر، إحدى ضواحى القاهرة، ٢٠٠٣.

وحتى لو كان المرء يعتبر الحدائق والمنتزهات، لمدى معين، أماكن بديلة للمدينة (*Gillot 2001*)، فإن السلوكيات التى كانت تقوم بها الطبقات الشعبية هناك والآن فى وسط المدينة تبدو متشابهة، وستلقى هذه الأماكن نفس المصير المحتوم. ويمثل التردد على كلا النوعين من الأماكن العامة بالنسبة للطبقات الشعبية الخروج من قيود المساكن المكتظة فى الأحياء السكنية التى يقطنونها. وتشتهر احتفالات الموالد (الاحتفال بمواليد أهل البيت والأولياء) فى القاهرة بأنها تجمع كافة أفراد الطبقات الشعبية للمدينة (وأحيانًا منطقة إقليمية بأسرها)، وبأنها يمكن أن تطهرهم وتحررهم من الكثير من القيود. (برجاء الرجوع للجزء الخاص بمادوف فى هذا الكتاب لمناقشة احتفالات الموالد، والأماكن العامة المقدسة فى القاهرة). وتعتبر الحياة فى حديقة الحيوان والحدائق العامة التى تحتلها الطبقات الشعبية أقل شهرة ووصفًا. وتجمع هذه الأماكن أثناء العطلات مالا يقل عددًا عن البشر الذين يؤمون احتفالات الموالد – وبصفة خاصة أثناء العيدين (عيد الفطر، وعيد الأضحى)،

واحتفالات عيد الربيع (شم النسيم). وبينما تعيد احتفالات الموالد النظر فى نسيج الأحياء القديمة، فإن العطلات فى حديقة الحيوان أو فى الحدائق العامة هى اتحاد الزمان والمكان الذى يحدث خارج المدينة الشعبية القديمة. وتشبه أجواء الترفيه الحضرية التى خُلقت هناك نفس الأجواء المعروفة لاحتفالات الموالد، ولكنها فى نفس الوقت مختلفة عنها لأنها تزدهر فى ظروف أخرى مختلفة.

برامج وتعديلات فى حديقة الحيوان

يأخذ حدود المكان العام جوهرها أولاً من الاستخدام الأصلى المنشود من إنشائه، وثانيًا من إعادة التعريفات المتعاقبة (والتى فى الحقيقة لا تلغى برنامجها الأول). وتقع حديقة الحيوان فى الجيزة، والتى تُعد الآن امتدادا للمنطقة السكنية للقاهرة عبر نهر النيل من جزيرة الروضة. وقد استضافت الجيزة فى الحقبة المملوكية قصرًا وحدائق ملكية، وفى أواخر القرن التاسع عشر أصبحت ضاحية من ضواحى البلاد. وتقع حديقة الحيوان بالقرب من نهر النيل، وبعيدًا عن الأحياء السكنية المكتظة فى القاهرة، ولكنها قريبة من وسط المدينة. ووجدت حديقة أخرى منذ عام ١٨٦٧، بمساحة سطح أقل (خمسون فدانًا)، وأُطلق عليها اسم "حديقة البهجة". وكانت هذه الحديقة خاصة بالأسرة الملكية إبان حكم الخديوى إسماعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩). وزودت الحدائق بالحيوانات من المجموعة الملكية من أجل محظيات الأمير *(Delchevalerie, 1899)*. وتحولت الحديقة بمرور الزمن، لممتلكات عامة فى نهاية سنوات السبعينيات من القرن التاسع عشر، وكانت مهجورة إلى حد ما. وبشكل تدريجى، تم إعادة تنظيمها من أجل استقبال الجمهور على نحو ملائم فى ١ مارس ١٨٩١ *(Keimer 1954)*.

وقد بذلت إدارة الحديقة ما فى وسعها من جهد لتواكب تطور جمهورها بنفس القدر الذى حاولت به أن تجعل جمهورها يتأقلم مع زيارة حديقة الحيوان. وكانت هناك دائمًا فجوة واسعة بين ما كانت تأمله الإدارة من سلوك متوقع من زائرى الحديقة، وبين السلوك الفعلى لهؤلاء الزائرين، من ممارسات إعادة تخصيص المكان العام وإعادة تفسير الدلالة الاجتماعية لها. فإذا ما عَنّ لنا أن نسير وراء مصطلحات إسحق جوزيف، فإننا سنقوم بوضع هذه العملية فى قالب كمواءمة بين الخطط والترتيبات (١٩٩٨). ومن الضرورى إدراك العلاقة القانونية المتبادلة لقاطن/ قاطنة المدينة مع المكان الذى ينشأ/ تنشأ فيه. ويجب أن "تفكر معًا فى خطط (جدول أعمال أو "برامج") تقوم بتطوير أو تأسيس أنماط استخدام وترتيبات (اجتماعية وكفاءة تقنية) والتى تقوم بتعديل أو إعادة تعريف هذه الأنماط من الاستخدام فى المواقف الفردية" (*Joseph 1998*). وتعتبر هذه التعديلات، وعمليات إعادة تعريف الحديقة بصفة عامة، أمرا لا مناص منه. ويقوم الناس بعمليات إعادة تخصيص "كثيرة جدًا" لاستخدام المكان، مثلما يفضل بعض المسئولين إغلاق بعض الحدائق أو أجزاء منها، ويمكن أن يكون تحت ذريعة (أن العامة ستقوم بتعريضها لخطر التلف). ويعترى المسئولين عن الحديقة قلق من نوع خاص حيال مواقع معينة (حدائق الصبار، والأنفاق، والجبلاية الملكية، والكهوف الصناعية) والتى تضفى عليهم أوقات من المتعة الخالصة وبسهولة. السلطة الأولى فى هذا المستوى هى الإغلاق؛ الثانية، هم جماعة الحراس، وهم رفقة طيبة فى حقيقية الأمر، يدخلون وهم يطلقون صفارات حادة وكئيبة والتى لن تُقنع أيا من جماهير المتنزهين حقًا بالتخلى عن أماكنهم على العشب الأخضر، والذين هم بعدئذ يقومون بدعوة أفراد أسرهم لتقديم الغذاء للنعامة، ولكلاب البحر، أو للفيلة. وتتواجد قوات البوليس عندما تلوح مخاطر حقيقية للإخلال بالنظام، وذلك عندما تتواجد جماهير غفيرة أو فى أيام الأعياد. وتبدو رحابة الصدر أو (عدم الكفاءة) هى

السائدة ولكنها تظل مكبوتة داخل أسوار حديقة الحيوان. ويقول أحد جنود البوليس المتمركزين فى حديقة الحيوان: "سيكون الأمر على هذا المنوال طوال أيام العيد الأربعة. ويتعين عليك أن تعود بعد الاحتفالات. عندئذ يمكن أن تكون أكثر هدوءً".

بالنسبة للخاصية المميزة لحديقة الحيوان، فإنها تبدو عابرة فيما يخص الدوافع المعلنة للزائرين. ومع ذلك، ففيما يخص البرنامج المقصود من إنشاء الحديقة، فهو عرض علمى، ويبدو أن تلك الأولوية كانت قد مُنحت فى البداية للبعثة العلمية للمؤسسة أكثر منها محاولة لخلق أنشطة ترفيهية لأوقات الفراغ بالنسبة للزائرين. وقد تأسست منذ عام ١٨٩٨ وحتى عام ١٩٢٤ تحت إدارة "ستانلى سميث فلاور، (وهو خبير إنجليزى فى علم الحيوان ونجل أحد مشاهير خبراء علم الحيوان)، وسياسة تستهدف زيادة مجموعات من حيوانـــات معينـــة، ولا تزال هذه السياسة موضع التطبيق. ويتم قبول هذا الخطاب عن المنفعة العلمية على الدوام من الفئات الاجتماعية الأخرى لأنها تضع أحكاما نظرية، بما تتطلبه من المعرفة والاستخدام العقلانى، وتقوم بتبرير تطلعات النخبة، وتطلعات المجتمع الأوروبى آنذاك بمخزونها واستيلائها على العالم" ***(Baratay 1998)***. وتتطور الحديقة على نحو متسارع فيما يتعلق باجتذاب وتقديم المتعة للعامة. وقد تطورت إرادة تربوية فى القاهرة، كما هو الحال فى أوروبا، منذ نهـــاية القـــرن العشرين، أو بالأحرى "صور مبتذلة" ***((Baratay, 1998))***. ولم يخبو اهتمام العامة على الإطلاق. فقد كان هناك ٤٣،٥٦٧ زائر فى عام ١٨٩٩، وبعد ذلك بعشر سنوات (أى فى عام ١٩٠٩) قفز الرقم إلى ٢١٧،٧٣٥ زائر ***(Flower 1910)***. كما تابعت الصحف عن كثب وصول حيوانات جديدة إلى الحديقة ***(Keimer 1954)***.

تعتبر حديقة الحيوان أفضل من الحدائق الأخرى فى القـــاهرة لأنه يؤمها الكثير من البشر، ولوجود الحيوانات بها، وهناك دائمًا الكثير من الزائرين حقًا، وإذا ما كان المرء يسير علـــى

قدميه فى حقيقة الأمر. وحتى إذا ما كان لدى المرء الكثير من الوقت المتاح، فلن يكون فى مقدوره/ أو مقدورها أن يشاهد كل شيء. وسيظل هناك الكثير من الأشياء الجديدة التى لم يراها/ أو ترها جميعًا وسيكون/ أو ستكون فى حاجة إلى العودة لرؤيتها. وهناك بالفعل الجديد دائمًا مما يتعين رؤيته. من البشر والحيوانات فى واقع الأمر.

فتاة من القاهرة الإسلامية، ٢٠٠٣.

وقد صمد المكان العام، حديقة الحيوان، وبقى على قيد الحياة وعكست قصة حياته ما يزيد على قرن كامل من الزمان من التقلبات التى حاقت بمدينة القاهرة. وقد تبدل المكان بالتدريج؛ كما تبدل العامة من الجماهير التى ترتادها وتقاليدهم الأخلاقية. فهل يمكن أن نستمر فى الحديث عن التوافق بين المضمون والعناصر الداخلة فيه؟ فقد كان من المتصور فى حقيقة الأمر أن تكون الحديقة تجميعًا ومعرضًا لمجموعة نادرة من الحيوانات، وطبقًا لأنماط القرن الأخير السائدة. وبناء على ما سبق، نصحنا الكثيرون من جماعة الضغط البيئية والمهتمين بظروف الحيوانات (على وجه الخصوص، الجماعات الأمريكية المهتمة بهذا الشأن) بألا نثق فى هذا التوافق وتقديم الاعتراضات بانتظام ضد "الظروف المُزرية" التى يتم فيها احتجاز هذه الحيوانات فى حديقة القاهرة.

يا للدهشة، فهناك الكثير من الكافيتريات المُحببة والحدائق الجميلة، كما أن الكهوف الصناعية تم ترميمها. إنه لشيء عظيم – إلا لو كنت حيوانًا! فسيكون الأمر بائسًا بالنسبة لك.

ريتشارد هوث، العضو السابق لمؤسسة بورن فرى، فى مقابلة أجراها معه غزالة عام ٢٠٠٠.

أما اليوم، فإن حديقة الحيوان بالجيزة والتى تجاهلتها معظم أدلة الإرشاد السياحى التى تقوم بإعداد السائحين لاكتشاف مصر، يتم تزينها بصيغ التفضيل المُطلقة فى الأحاديث الرسمية وتعد ضمن أعظم المساحات الخضراء التى تسهم فى تهذيب الحياة فى مدينة حديثة. فهى واحدة من أعظم حدائق الحيوانات فى العالم، وبمساحة سطح بالغة الضخامة تزيد عن ٤٨ فدانًا. كما أنها واحدة من أقدم حدائق الحيوان فى العالم (تم فتحها للعامة فى عام ١٨٩١). وبدون أدنى درجة من الشك، يمكنها أن تكون واحدة من أكثر الحدائق جمالاً. ويتم تقديم حديقة حيوان الجيزة وباعتزاز كواحدة "من أكثر المسطحات الخضراء شهرة فى العاصمة"، للحيوانات النادرة التى تحتويها، وأيضًا للنباتات، وكمكان للتجوال فيها، وليس فقط لرؤية الحيوانات فى أقفاصها:

> **هؤلاء المتنزهون، وقد بلغ منهم التعب مبلغه من كثرة التجوال فى المساحات الشاسعة للحديقة، ربما يلتقطون أنفاسهم فى جزيرة الشاى. إنها مغامرة فى حد ذاتها، بعد كل الإثارة والمتعة التى تصحبها رؤية هذه الحيوانات البرية المتوحشة وغيرها.**

خدمات مركز المعلومات ٢٠٠١؛ سمير ٢٠٠١.

إذا ما تغيرت الممارسات العديدة فى الحدائق العامة بدرجة كبيرة منذ بداية سنوات السبعينيات، فإن التسامح النسبى لشرطة الخدمات هنالك (أو محاولة التفادي) ينطوى على توازن نسبى بين البرامج والترتيبات. ويجب إعادة تقييم الصورة المبدئية لحديقة الحيوان بكل تأكيد، ونعنى بذلك أنه يجب إعادة تقدير أهميتها العلمية والتربوية. وكانت وجهة نظر صائبة أن يكتب المرء فى سنوات الخمسينيات من القرن العشرين قائلاً:

لم تعد حديقة الحيوان مكانًا فريدًا للتمشية والمتعة، إنه كتاب عظيم للتاريخ الطبيعى لتلبية رغبات الناس فى تزويد أنفسهم بالعلوم، وللأمة بأسرها، كما هو الحال أيضًا لطلاب المدارس، الذين يذهبون لحديقة الحيوان بصحبة أساتذتهم، وللعامل، والفلاح، والطالب، والموظف، وغيرهم.

.(*Keimer 1954*)

لا نسمع اليوم عن الجوانب التعليمية، ولكن عن الحب. وسيقول مدير عام حديقة الحيوان المصرية، مصطفى عواض، إنه سيعتبر أن واحدة من أهدافه أن ينجح لأن "هناك نوع من الحب بين العامة وبين حيوانات الحديقة" (أجريت المقابلة فى عام ٢٠٠٣). وهو يأمل أن يشرح للعامة كيفية التعامل مع الحيوانات، وأن يوجه العامة لحب هذه الحيوانات. ولا يفتقر إلى تأكيدات تدعم حديثه عن حب الحيوانات (كصورة أطفال بين ذراعى القرود، وغير ذلك). ويصر حراس الحيوانات فى حديقة الحيوان، على أن يقوم الزائرون بتقديم بعض الأغذية للحيوانات (على طرف عصا طويلة وقبول إكراميات من الزائرين)، بينما فى حدائق الحيوان الأخرى فى بقاع العالم، فإنه من المحظور على الإطلاق قيام الزائرين بتقديم أطعمة للحيوانات، بينما فى الحقيقة، من الجائز بالنسبة لبعض الحيوانات، وتحت مراقبة الحراس تغذية بعض الحيوانات فى معظم الأحيان بتلك الوسيلة. ويمكن مكافأة عجول البحر، وأسود البحر، والنعام، والأفيال، وفرس البحر، والقرود، والزرافات، والبط، بالغذاء عندما تقوم بتقديم العروض التى تدربت عليها وإطاعتهم لتعليمات الحراس. ويشعر الزائرون المحتشدون بالانبهار عندما يرون الحيوانات تطيع أوامر الحراس – فيقوم فرس البحر بفتح فمه الضخم،

أو يبقى عجل البحر نفسه منتصبًا أو يقوم بإصدار سلسلة من التأوهات التى يعتقد الزائرون أنها إجابات لأسئلة ينطق بها الحارس. ويمكن أن تكون هذه التجربة شبيهة بعروض السيرك التى تقوم فيها الحيوانات المُدربة وتبدو على الحراس مسحة من الخيلاء (ويشى عن ذلك السأم المصطنع الذى يبديه). هل حديقة الحيوان المصرية مكان لعرض الطبيعة الحيوانية البرية، أو الحيوانات الأليفة المستأنسة؟

من الأمور البديهية، أن يُبدى حراس الحديقة مستوى من السيطرة على الحيوانات والتى لا تضاهى مستوى سيطرتهم على الزائرين من البشر (وهذا يذكرنا بالتأملات التى قدمها ***Haudricourt*** بالارتباط بين وسائل التعامل مع الحيوانات، والنباتات، والكائنات الأخرى "١٩٦٢"؛ انظر أيضًا إلى باتيستى ٢٠٠٤). "الترويض هو النمط الرئيسى للأنماط الأخرى من الإخضاع" (***Thomas***). وهل حديث الإداريين فى الحديقة عن الحب، والقرب الشديد بين الزائرين والحيوانات، والاعتياد على مكافأة الحيوانات عن أداء الحركات التى تم التدريب عليها – هو برنامج مدروس من قِبل إدارة الحديقة أم هو تكييف انتهازى للتعديلات وإعادة تحديد للاستخدامات المعاصرة للعامة؟ وحتى لو كان مدير الحديقة قد تخلى عن جانب من سلطاته وقدم للجماهير سهولة الوصول المباشر للحيوانات من المفهوم أنه أمر ناجح، وتحويل دفة مهمتها إلى تغيير أنماط الاستخدام، والمتعة ومفاهيم الجمال والتواصل الاجتماعى.

خاتمة

تسجل هيمنة المواطنين على حديقة حيوانات الجيزة وبث الحيوية فى أرجائها بابتكار أجواء حضرية وترفيهية فريدة ولا مثيل لها. وقد تطورت استخدامات الحديقة تحت تأثير حركتين كبيرتين. فمن جانب، فإن واضعى الخطط

والإداريين فى الحديقة قد قاموا بتصميم رسالة جديدة للحديقة، وتخطيط وتوجيه أنماط سلوكيات الزائرين للحديقة، وحيوانات، وحراس الحديقة، مسترشدين فى ذلك بالأساطير الكبرى الشائعة عما يجب أن تكون عليه الحديقة وعن كيفية استخدام المناطق الخضراء فى حديقة الحيوان. وعلى الجانب الآخر، قد أصبحت الحديقة تُجسد الارتباط الحى بين كثافة الحضور وحيوية المكان، وأن تقوم بمهمة كمسرح لعروض الولع بالحياة العائلية، والغزل، والتصنّع. فعندما تكون الطبقات الشعبية متواجدة فى الحديقة، فإنها تكون ملكيتهم الخاصة. وهم لا يعيدون استنساخ روح وأخلاقيات الطبقة البرجوازية التى اعتادت أن تسود فى هذا المكان؛ على العكس من ذلك، فإنهم جلبوا جزئيًا، وتوسعوا، وأعادوا ابتكار الأنماط الحضرية للأحياء التى يقطنونها: السيطرة التلقائية على المكان والأجواء الحضرية فى حشود احتفالية. ويمثل أفراد الطبقة العامة من سكان القاهرة دور المشاركين فى إدارة المكان مع مسئولى الإدارة الفعلية (مشاركتهم لفهمهم للأمور، واهتمامهم بالصورة العامة)، وقاموا بالإعداد والتعبير عن أنماط عامة جديدة من التواصل الاجتماعى، والكياسة، والجمال الجماعى، والتى جعلت من حديقة حيوان الجيزة أيقونة للأماكن الشعبية العامة التى تمت الهيمنة عليها حديثًا.

الأعمال المستشهد بها

Baratay, Eric, and Elisabeth Hardouin-Fugier. 1998. *Zoos, Histoire des jardins zoologiques en Occident, XVIe-XXe siècle*. Paris: La Découverte.

Battesti, Vincent. 2004. "Odeur *sui generis*, Le subterfuge dans la domestication du palmier dattier (Tassili n'Ajjer, Algérie)." In *Anthropozoologica—Domestications animales: dimensions sociales et symboliques*, eds. Pierre Bonte, Anne-Marie Brisebarre, Daniel Helmer, and Hasan Sidi Maamar, 301–309. Paris: Publications Scientifiques du Muséum.

Behrens-Abouseif, Doris. 1985. *Azbakiya and its Environs: From Azbak to Ismâ'il, 1476-1879*. Cairo: Institut français d'archéologie orientale.

Beyhum, Nabil, and Jean-Claude David. 1997. "Du souk à la place, du citadin au citoyen, Espaces publics dans les villes arabes (au Moyen-Orient)." In *Sciences Sociales et Phénomènes Urbains dans le Monde Arabe, Actes du colloque de l'Association de liaison entre les centres de recherches et de documentations sur le monde arabe (ALMA)*, eds. Muhammad Naciri and André Raymond, 193–202. Casablanca: Fondation du Roi Abdul Aziz Al-Saoud pour les études islamiques et les sciences humaines.

Central Agency for Population, Mobilization, and Statistics (CAMPAS). 2000. *Household Income, Expenditure and Consumption Survey*, 1999/2000. Cairo.

Delchevalerie, Gustave. 1899. *Les promenades et les jardins du Caire, avec un Catalogue général détaillé et les noms scientifiques, français et égyptiens des Plantes, arbres et arbustes utiles et d'ornement cultivés dans les champs et les jardins et notamment dans les anciens jardins vice-royaux et khédiviaux de l'Égypte sous la dynastie de Méhémet-Aly au XIXe siècle de J.-C.* Chaumes: G. Delchevalerie.

Dumazedier, Joffre. 1998. "Loisir." In *Encyclopaedia Universalis*. Paris: Encyclopaedia Universalis France.

Flower, Stanley S. 1910. *Report for the Year 1909 (Eleventh Annual Report), Zoological Gardens, Guizeh, near Cairo*. Cairo: Public Works Department, Government of Egypt.

Ghazaleh, Pascale. 2000. "Richard Hoath: The Call of the Wild." *Al-Ahram Weekly*, 23 March.

Gillot, Gaëlle. 2002. *Ces autres espaces, Les jardins publics dans les grandes villes du monde arabe: politiques et pratiques au Caire, à Rabat et à Damas*. Ph.D. diss., Université François Rabelais.

Haudricourt, André-Georges. 1962. "Domestication des animaux, culture des plantes et traitement d'autrui." *L'Homme* 2 (1): 40–50.

Joseph, Isaac. 1996. "Les compétences de rassemblement, Une ethnographie

des lieux publics." *Enquête* 4: 107–22.
———. 1998. *La ville sans qualités*. La Tour-d'Aigues: Édition de l'Aube.
Keimer, Louis. 1954. *Jardins zoologiques d'Égypte*. Cairo: Éditions des Cahiers d'Histoire Égyptienne.
Nourry, Louis-Michel. 1997. *Les jardins publics en province : espaces et politique au XIXe siècle*. Rennes: Presses universitaires de Rennes.
Samir, Amira. 2001. "*The Tea Island*, un coin de calme et de beauté." *Al-Ahram Hebdo*, 18 December.
Shahine, Gihan. 1999. "Life Behind Bars." *Al-Ahram Weekly*, 10 June.
State Information Service. 2001. "The Tea Island, un coin de calme et de beauté." *Lettre du Caire*, 18 Dec.
Thomas, Keith. 1985. *Dans le jardin de la nature, La mutation des sensibilités en Angleterre à l'époque moderne (1500–1800)*. Paris: Gallimard.

الهوامش

١- بناء على دخل الأسرة، وبيانات الإنفاق والاستهلاك التى قام بإعدادها الجهاز المركزى للسكان والتعبئة والإحصاء، فى عام ١٩٩٩/٢٠٠٠ (٢٠٠٠)، وطبقًا للتحليل الذى قام به فرانسوا إيريتو (اتصال شخصى مع المؤلف، مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية - مركز بحثى فرنسى - القاهرة ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٤)، فإن سكان الحضر فى مصر يمكن أن يتم تصنيفهم إلى ثلاث فئات أو شرائح "الفقراء والطبقات الشعبية (معدل إنفاق أقل من ٢٠٠٠ جنيه لكل أسرة فى العام)، والطبقة المتوسطة (معدل إنفاق يتراوح بين ١٢،٠٠٠ إلى ٢٩،٠٠٠ جنيه)، والأثرياء أو الطبقات الموسرة (٣٠،٠٠٠ جنيه أو أكثر فى العام)، وتضم الشريحة الأولى ٦٨،١٢% من الأسر (وتمثل ٦٣،٨٣% من السكان)، والشريحة الثانية وتضم ٢٧،٣١% من الأسر (تمثل ٣١،٤١% من عدد السكان)، ثم الشريحة الثالثة والأخيرة وتضم ٤،٥٦% من الأسر (تمثل ٤،٧٦% من عدد السكان) فى المنطقة الحضرية. وهكذا فإن المناطق الحضرية بها طبقة متوسطة حقيقية، حقيقية من حيث إنها تمثل أكثر من ربع عدد الأسر وتقريبًا ثلث عدد السكان. وعلى الرغم من ذلك يظل إنفاقهم محدودًا (حيث كان الدولار الأمريكى يساوى ٦،٢٠ جنيه مصرى فى عام ٢٠٠٠).

٢- كانت هناك لوحة إعلانية ضخمة أعلى ناطحة سحاب لشركة هينكين، فى خريف عام ٢٠٠٤، تؤكد "تريد المزيد من اللون الأخضر فى مصر" (اللون الأخضر هو لون شعار الشركة وهى شركة للمشروبات الروحية التى استحوذت على شركة الأهرام للمشروبات). عرضت مؤسسة أغا خان نفس الملحوظة فى عام ١٩٩٢ وهى تقرر منح هدية لمحافظة وسكان القاهرة بمناسبة إحياء ذكرى تأسيس الخلافة الفاطمية فى القاهرة. وكانت عبارة عن حديقة عامة كبيرة (ولكن يتعين على المرء أن يدفع كالمعتاد ليستطيع الاستمتاع بها)، وأُفتتحت حديقة الأزهر فى خريف عام ٢٠٠٤ (مؤسسة أغا خان للثقافة ٢٠٠١).

٣- الحديقة اليابانية ويطلق عليها رسميًا "حديقة طوكيو"، وتقع فى حى حلوان، إحدى ضواحى القاهرة الجنوبية. ومنحتها اليابان بمناسبة التوأمة بين العاصمتين طوكيو والقاهرة.

الفصل التاسع عشر

مواجهات الفن الشعبى المصري وأقدار موسيقيي شارع محمد علي العابر للقارات

نيكولاس بيوج

إنه اليوم الأول من أيام العيد الذى يلى شهر رمضان المعظم (عيد الفطر)، وتنتاب مشاعر القلق والتوتر كل الموسيقيين فى مقهى سعد الصاوى بشارع محمد على. وقد استطاع بعض منهم فقط أن يجد عملاً فى الأسابيع القليلة الماضية. حيث لا توجد حفلات زفاف الشوارع فى شهر رمضان، وفرص الالتحاق ببعض أعمال العزف والغناء شحيحة وعلى فترات متباعدة. ولأنه توجد الكثير من حفلات الزفاف أيام الأعياد فى المعتاد، فإن كلا منهم يأمل فى أن يعود إلى منزله وفى جيبه بعض النقود (يتحصل كل منهم على ما يقارب ٥ – ٣٠ دولارًا طبقًا لنوع الآلة التى يعزف عليها والظروف المحيطة)[١]. ولكن الساعة الآن قد بلغت السادسة بعد الظهر، ولم يتم الاتفاق مع أى منهم مقدمًا لحفل زفاف لليلة. ويحافظ المطرب مرسى، على سرعته، وهو يعبر نفس المائة خطوة وهو يرتدى ملابسه الضيقة التى تلتصق بجسده تمامًا، ونمط حلاقة شعره الجديد. وهو جاهز تمامًا للذهاب إلى أى حفل زفاف وإدخال البهجة فى قلوب المدعوين لأى حفل زفاف خلال أيام الأعياد فى القاهرة. وأما عن محمد، عازف الأورج (البيانو الكهربائى)، فتتغلب مشاعر القلق على نبرات صوته وهو ينادى على مرسى: "إذا ما حصلت على أى

شيء فأنا جاهز للذهاب معك". ولكن تتقشع مشاعر القلق من قلوب أفراد الفرق الموسيقية المنتشرين فى مقاهى شارع محمد على مع حلول الظلام، ويمتلئ الشارع بسيارات الميكروباص والتاكسى، ويتوزع هؤلاء الأفراد فى ضواحى القاهرة لإحياء حفلات الزفاف المقامة فى أيام عيد الفطر.

ويشير سوق الموسيقيين فى القاهرة إلى مكان شهير للموسيقى الحضرية للطبقة الشعبية، ويتم عزف وتقديم الأغانى الحية ليس فقط فى حفلات الزفاف ولكن فى احتفالات الطرق الصوفية بموالد أهل البيت أيضًا. وهو ضرب من الأغانى الدارجة والمعروفة فى عالم متميز من التدريب الموسيقى، والتجمعات الاجتماعية، والممارسات المهنية. وقد عمد هؤلاء الموسيقيون المنتمون إلى سوق الموسيقى إلى تطوير ثقافة حضرية فرعية تتركز فى عدد قليل من مقاهى شارع محمد على، وهو المركز القديم المرموق للموسيقى المصرية إبان عصرها الذهبى فى القرن العشرين. غير أن هؤلاء الموسيقيين يوصمون من قبل بقية سكان القاهرة إلى حد بعيد بأنهم مجموعة من الدخلاء ذوى الوضع الاجتماعى المتدنى للغاية. كما أن نوعية الموسيقى التى يقومون بأدائها يتم تداولها فى "أدنى" درجات أسواق الغناء ومن خلال أرخص مبيعات شرائط الكاسيت. ويتم ربط هذا النمط الفنى ببعض مؤثرات الغناء الريفى السائدة فى الأحياء الشعبية بالقاهرة، وفى الأحياء ذات الكثـــافة السكانية فى المدينة القديمة، وفى الأحياء العشوائية الجديدة التى تنبسط حول القاهرة.

ويتألف هذا السوق من الموسيقيين ليس فقط من أماكن حضرية محددة ولكن كنظام للعلاقات والتفاعلات التى تقوم بتحديد ذلك مهنيًا، وإعادة استنساخ بعض المهن، والمهارات، والمصالح الاقتصادية، كما أنها ثقافة حضرية، أو ثقافة فرعية، ترتكز فى بعض الأماكن الحضرية مثل شارع محمد على، وفى أماكن أخرى يتم فيها تنظيم حفلات الزفاف، وعلى مسارح يقوم هؤلاء الموسيقيون بأداء عروضهم

الفنية عليها. ويمثل هذا العالم من حفلات زفاف الشوارع، واحتفالات الموالد ثقافة "محلية أصيلة" تطورت من خلال شبكات التدريب الخاصة بها والممارسات الموسيقية المهنية. ولا تعتمد هذه الشبكات على سوق صناعة المسرح والسينما العربية العالمية، ولا على مصادقة الحكومة المصرية والتى تفضل اختيار مختلف أنواع الفنون الشعبية والإقليمية من أجل إدماجها فى فنون الفولكلور الشعبية المصرية الرسمية. وتقوم مؤسسات وزارة الثقافة مثل الهيئة العامة لقصور الثقافة بتشجيع نوعيات الفولكلور المقبولة من قِبل الدولة. وتنتشر هذه القصور فى ربوع الجمهورية بأسرها وتقوم بتعيين موظفين وفنانين يقومون بتقديم وأداء الفلكلور الغنائى والفنون الشعبية (من غناء ورقص).

وتمتلك مؤسسات الدولة تأثيرًا كبيرًا على التشكيل الثقافى للفنون الشعبية. وتمخض عن تقديمهم لأنواع الغناء، من خلال وسائل الإعلام الشاملة والتى تهيمن عليها الدولة على "تحويل الغناء الريفى إلى فلكلور"، وازدراء الأغانى الحضرية للفنانين من الطبقات الشعبية بوجه عام.

وسيقوم هذا الفصل بالتركيز على مناقشة الصراع الجماعى لفنانى شارع محمد على الدائم من أجل البقاء على قيد الحياة، والحصول على الاعتراف بفنهم وحصتهم من سوق الفن فى مدينة مجزأة مكانيًا ومنفصمة طبقيًا. وكيف تتضافر هذه الثقافات الحضرية المتنوعة فى هذا المكان المحدود من المدينة حيث يجد المرء "التنوع الشديد للثقافات الفرعية، وأكثر الأجهزة الثقافية إحكامًا، وعددا متضاربا ومرتبطا مع بعضه البعض من أنماط وسائل الإدارة" *(Hannerz 1992, 173-74)* ويعكس المشهد الحضرى للأداء الغنائى وتدعيمه فى حقيقة الأمر، آليات المجتمع الحضرى فى القاهرة فى سياق التمايز الاجتماعى والارتباط المكانى. وسنقوم فى هذا الفصل بتحليل الأدوار المتغيرة للمطربين

الشعبيين، و"ثقافتهم" الفرعية، وعلاقتهم بباقى الأماكن العامة والقاطنين بالقاهرة؛ ونشأة صناعة أشرطة الكاسيت المزدهرة فى الثلاثين سنة الأخيرة؛ والمشاكل التى تخلقها هذه الصناعة صغيرة الحجم فى المجال العام للثقافة الوطنية والعربية – الإقليمية.

ينبنى استكشاف ثقافات موسيقى الغناء الفرعية للقاهرة على البحث الميدانى الذى أقوم به منذ عام ٢٠٠٠ على فنانى شارع محمد على، وترتكز على نقط احتشادهم فى المقاهى، وتقوم بتجميعهم حينما يقومون بأداء فقراتهم الفنية فى حفلات الزفاف، والخطوبة، واحتفالات الشوارع فى كافة أرجاء العاصمة. وسأقوم أولاً من أجل تسليط الأضواء الكاشفة على المصائر غير المؤكدة للعاملين فى حقل الموسيقى والغناء الشعبى فى القاهرة برسم خريطة لهذا المكان وجماهيره، ثم بعدئذ سأقوم بشرح السيرة المهنية لفنانى شارع محمد على. والأمر الثانى، أننى سأضع فى الاعتبار مكان فنانى الطبقة الشعبية، وتنظيماتهم الذاتية، والترويج لأعمالهم، وهويتهم، والأداء فى المجال العام للثقافة الحضرية من أجل فهم أفضل للعلاقات بين الموسيقى المحلية الأصيلة والثقافة الرسمية داخل المشهد الحضرى لمدينة القاهرة.

وتجرى وقائع احتفالات الشوارع فى أحياء القاهرة الشعبية، فى العشوائيات (الأحياء السكنية غير الرسمية)، وأحياء القاهرة الإسلامية، والمدينة القديمة "الفسطاط"، وغيرها. وتشمل هذه الاحتفالات "ليلة الفنانين"، والتى يتم تنظيمها من أجل مواجهة احتياجات الفنانين المادية، وتنشيط علاقات متبادلة من الالتزام داخل حدود المهنة. وكما يتم تعزيز مثل هذه العلاقات أيضًا أثناء أنواع احتفالات الشوارع الأخرى مثل حفلات الزفاف.

وتتكون الفرقة التى تعتلى المسرح من عازف الأرغن (الأورج)، وبعض عازفى آلات الإيقاع (نوعان من الطبول وهما الرق، والدف)، ومغن، وراقصة

أو راقصتين. ويكون هناك فى بعض الأحيان أكورديون وبعض الطبول. ويكون هناك "النوباتشى"، أو مدير الحفلات، أيضًا على المسرح، ويكون مسئولاً عن تجميع "النقوط"، وتقديم آيات المديح والثناء علنًا للمانحين فى الميكرفون. ويتم احتلال جانب من الشارع فى سبيل هذا الاحتفال، وبذلك يتشكل مكان خاص لمجتمع القاطنين فى الحى. وتحدد قطعة ضخمة من أقمشة السرادق الغليظة حمراء اللون ومزخرفة بنقوش سخية حدود المكان المخصص للاحتفال، بينما يُترك ممر ضيق للمشاة، وبذلك يتم تحويل الشارع بأكمله إلى مكان للاحتفال يخدم أهدافا متناقضة – كمكان لانتهاك القانون من جانب (حيث يتم تعاطى المشروبات الكحولية، والماريجوانا، وراقصات شبه عاريات يتجولن فى الغالب)، ومن جانب آخر، حيث تتولد أنماط اجتماعية ومجتمعية عميقة.



راقصتان من شارع محمد عليّ تصاحبان الفرقة الموسيقية على مسرح فى
حفل زفاف من حفلات زفاف الشوارع (تصوير نيكولاس بيوج)

النقطة المرجعية لشارع محمد علي

يعتبر شارع محمد علي نقطة مرجعية لطبقة الفنانين الشعبيين الذين يقومون بأداء فقراتهم الفنية فى حفلات الزفاف هذه. وكان الشارع، وحتى سنوات السبعينيات مركزًا لكل أولئك الفنانين، بمن فيهم أولئك الذين يقدمون فنًا راقيًا. وغرست بدايات القرن العشرين قلب أحياء القاهرة القديمة بنموذج مهيمن من أشكال العقلانية الحضرية الحداثية، واحد منها لا يزال ماثلا أمام الأنظار فى تصميم كثير من شوارع وسط مدينة القاهرة وأماكنها العامة. وشملت خطط التطوير الحضرى لوسط المدينة فى منتصف القرن التاسع عشر أثناء حكم الباشا العثمانى المستقل التفكير "محمد علي" توسيع شوارع قديمة وفتح شوارع جديدة وتشييد اتجاهات مائلة جديدة، "بما يشبه مبضع الجراحة من خلال المناطق السكنية المكتظة ما بين الأزبكية والقلعة (*Abu-Lughod 1971, 96*).

كان من المقرر أن يقع شارع محمد على ما بين مسجد السلطان حسن وزاوية الرفاعى، ومنطقة مقابر الأزبكية والمناصرة (*Mubarak 1980, 247*). واستولى محمد على على الأراضى، وقام بهدم المبانى الموجودة على المقابر، ونقل الأنقاض والبقايا البشرية فى المقابر إلى مقابر أخرى (الإمام الشافعى بصفة خاصة). وعلى الرغم من ذلك، فإن المقبرتين ظلتا قيد الاستخدام حتى السنوات الأخيرة من فترة حكمه (١٨٠٥ – ١٨٤٨) حيث توقف العمل بالشارع لفترة من الوقت. وتم استكمال العمل بالشارع فى عام ١٨٧٣ فى حقبة حكم الخديوى إسماعيل (١٨٦٤ – ١٨٧٩). وبذلك أصبح شارع محمد على طريقًا رئيسيًا بطول كيلومترين ويقوم بتقسيم القاهرة الإسلامية إلى شطرين، فى إشارة منه للإصلاح، وإرادة الحاكم النافذة التى لا تلين فى اعتناق الحضرية الحديثة. ولقد كان واحدا من أكثر أعمال الأشغال العامة ضخامة للخديوى، والذى سعى جاهدًا ليجعل من مدينته

"باريس أخرى" عن طريق بناء منطقة جديدة لوسط المدينة، وإعادة تسمية منطقة وسط المدينة بالإسماعيلية ليقرن اسمه بالمجد. - *(Arnaud 1998, 173; Abu-Lughod 1971, 100-112)*

> **كان شارع محمد على أكثر اتساعًا بكثير من السكة الجديدة، وعلى العكس من ذلك النموذج، فقد تم تزويده بطوار متسع للمشاة، وكانت تحفه الأشجار فى بعض أجزائه، وبأروقة من المبانى فى بعض أجزائه، والتى شُيدت لتحف بـه برشاقة. وكما وضعت مصابيح الغاز على طول الطريق، لتصبح مبعث فخار ومتعة للسلطان، وكان يتم تنظيف دخانها ثلاث مرات يوميًا حتى تحتفظ بنظافتها المبهرة. وهكذا تحقق حلم محمد على أخيرًا.**
>
> *(Abu-Lughod 1971, 113)* .

كان الشارع محورًا رئيسيًا يشق وسط المدينة القديمة فى التكوينات العمرانية الجديدة، ويربط ما بين القلعة (حيث يقطن الخديوى، وحكام مصر خلال الحقبة العثمانية) إلى حيث قصر عابدين (المركز العسكرى والإدارى الجديد)، والحديقة العالمية الجديدة ومناطق الترفية والتنزه فى الأزبكية.

كما أثرت الإصلاحات التى تمت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى مصر فى فنون الموسيقى والغناء والأنماط التى كانت سائدة. وكانت منصات مسارح الهواء الطلق التى كانت منصوبة فى الحدائق الجديدة للأزبكية تُستخدم بواسطة الموسيقيين العثمانيين طوال القرن، وكانوا يستدعون بواسطة أفراد أسرة الخديوى والجماعات الصوفية *(Lagrange 1996,70)*. وكانت هناك مجموعة من

نخبة الموسيقيين "موسيقيو البلاط الملكي" يرتكزون فى قصر عابدين، وكان أشهرهم الملحن والمغنى "عبده الحامولي" من طنطا. كما أن الموسيقى الأوروبية كانت ممثلة فى القاهرة، بما فى ذلك فرقة موسيقى الجيش العسكرية، وأوركسترا دار أوبرا القاهرة ، التى افتتحت فى عام ١٨٦٩.

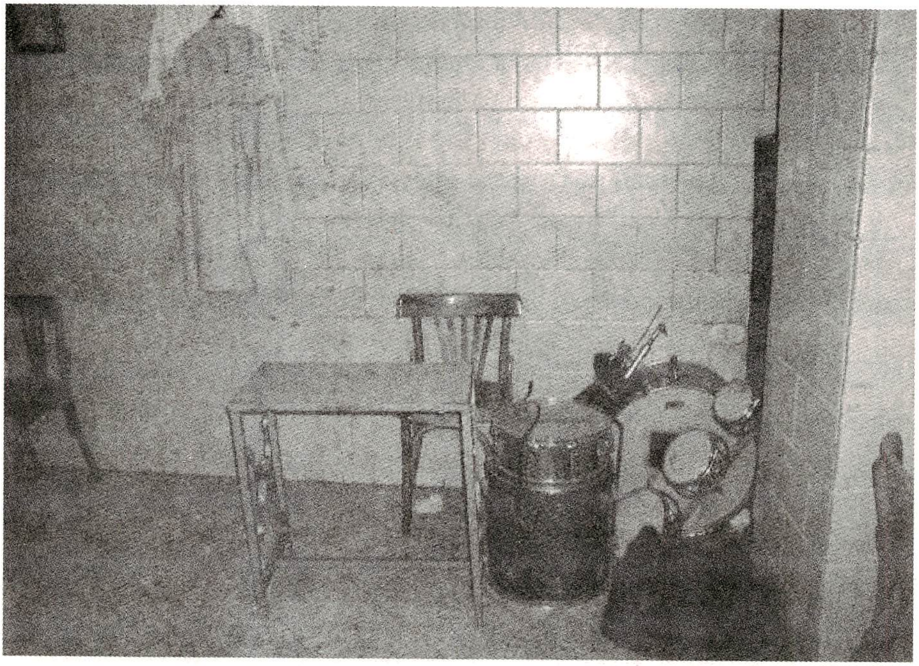
واكتسبت الموسيقى المصرية استقلالها بالتدريج، وتشربت روحا مميزة تمتزج فيها الثقافات التركية، والعربية المحلية، والأوروبية. وارتحل الحامولى إلى إسطنبول برفقة بلاط الخديوى واستقدم معه ابتكارات جديدة إلى مصر، وقام بمزجها فى سياق الموسيقى المحلية. كما "تأثرت الموسيقى بالتغييرات التى فرضتها الظروف الاجتماعية" ***(Vigreux 1991, 58)***.

وبحلول القرن التاسع عشر والقرن العشرين استقر الموسيقيون وورش الآلات الوترية فى شارع محمد علي. وتجمع الموسيقيون فى مقاه مختلفة، وكل مجموعة فى مقهى معين حسب نوع الآلة التى يعزفون عليها ونوعية موسيقاهم. وكانت هذه المقاهى توجد فى المكان الذى يرمز إلى سلطة الخديوى وتجعلهم على مقربة من المدينة الأوروبية (الإسماعيلية) ونقاط التركيز الثقافى الجديدة (دار الأوبرا، والملاهى، ومنصات مسارح الأزبكية). ولم تجعل هذا العلاقة المتميزة بين الأماكن الحضرية والممارسات الفنية عبر التاريخ من شارع محمد على رمزًا للموسيقى المصرية ومركزًا للفنون بتأثيرها فى جميع أنحاء العالم العربى فحسب، ولكنها أيضًا، ولفترة من الزمان، ظلت مكانًا مرموقًا فى وسط مدينة القاهرة.



مقهى سعد الصاوى بشارع محمد علي (تصوير نيكولاس بيوج)

كانت مقاهى الفنانين فى بداية الأمر هى مركز الالتقاء الحضرى والذى انتشرت منه الأنماط الموسيقية والمهنية لذلك العصر. وكان يتعين على الفنانين من الوجه القبلى والدلتا الذين يشقون طريقهم فى الحياة المهنية فى القاهرة أن يترددوا على هذه المقاهى من أجل خلق شهرتهم وكسب اعتراف أقرانهم من الأقدمين. وتعتبر المقاهى أماكن عامة مفتوحة لجميع الرجال. وكما أوضح لى أحد العملاء المترددين: "إن شارع محمد على ليس له أبواب. وهناك مقاه ترحب بوجود أى شخص فى مقدوره تحمل قيمة كوب من الشاي". ومع ذلك، يتبقى أن يعترف به الآخرون ليبدأ حياة مهنية جديدة كفنان لحفلات الزفاف. ويجب أن يصبح الوافد الجديد زائرًا مستديمًا للمقهى، وفردا من مجموعة بفضل مواهبه ومقدرته على التكيف مع الآخرين. ويجب على كل من النازحين من خارج القاهرة والقادمين الجدد أن ينتظموا فى الحضور إلى المقهى ومحاولة اكتساب احترام الموسيقيين القدامى، ليُسمح لهم بالاندماج فى سلك المهنة وشق طريقهم فى مختلف المسارح الفنية فى القاهرة. ويتعين على الموسيقى أن يصبح "صاحب كرسي"، وهو من يحتل مكانًا ثابتًا فى المقهى بانتظام وبطريقة شرعية، وبقبول من باقى الفنانين. وكان شارع محمد على لما يقارب قرن كامل هو بوابة العاصمة المصرية ومكان الفرص الأعظم لعمل الفنانين ذوى الطموح القادمين من القاهرة، أو من أنحاء مصر، أو حتى الدول العربية *(Puig 2001)*.



كرسى فنان فى مقهى حلاوتهم بشارع محمد علي (تصوير نيكولاس بيوج)

ويشرح شاهد على تاريخ هذه المقاهى الأمر برمته قائلاً:

> **يمكن لأى شخص أن يجلس فى هذا المقهى: وبذلك يشغل مقعدًا (صاحب كرسي)، ويشغل مكانًا. وبذلك يصبح شخصًا له اسمه ويشار له بالبنان. وعندما أرغب فى عازف على القانون، فإننى أقول لك أريد كذا وكذا. ومثل هذا، فإذا ما كان يشغل كرسيًا، فإنه ينال التوقير. ويشبه الأمر برمته الشيوخ الذين كانوا يقومون بالتدريس فى الأزهر فى الماضى والذين دائمًا ما كانوا يجلسون مع طلابهم تحت نفس العمود، وكان الشيخ يُعرف حينئذ بصاحب العمود. من هو أفضل عازف على القانون؟ هذا الرجل. ومن هو أفضل عازف على العود؟ ذلك الرجل. ويشغل هؤلاء كراسيهم، وقد صنعوا أسماءهم بفضل مواهبهم وفنهم.**
>
> سعيد، فى مقابلة مع المؤلف، فى مقهى حلاوتهم ٢٠٠٠.

على الرغم من كل ذلك، فقد تبدلت وظيفة الشارع منذ سنوات السبعينيات. وتم تهميش الشارع فى التسلسل الهرمى الموضوعى للأماكن العامة، فضلاً عن قلب مجتمع الفنانين أنفسهم. وفقد الشارع مركزه كموقع فى وسط القاهرة، وبدأ الفنانون فى إدارة حياتهم المهنية من أماكن أخرى أكثر جاذبية عنها. ولتلخيص الأمر فى مجمله، "فإن ميراث سنوات السبعينيات – وهو ما يمثل نهاية هيمنة فنانى شارع محمد على وتنامى الطابع الفردى لديهم، بالإضافة إلى الركود الاقتصادى الحالى – قد أصاب صناعة الترفيه بالضعف بالعديد من الوسائل" *(Van Nieuwkerk 1995, 57)*.

ولم يَعُد تهميش الشارع بالنفع على أى مكان آخر بوجه خاص. وتعكس المناطق الجغرافية الأقل كثافة والتنظيمات المكانية الجديدة المتميزة لصناعة الفن فى المدينة، تنوع موجات الأساليب الجمالية والفنية التى ظهرت أيضًا فى سنوات السبعينيات. كما أثرت أيضًا إعادة التشكيل الحضرى الممتد فى غير نظام لمدينة القاهرة والحراك الاجتماعى العنيف الذى أصاب كافة درجات الأماكن العامة المخصصة للفن والفنانين فى المدينة. وصاحب هذه التغيرات الحضرية العميقة إعادة تحديد مراكز الفن وتعدد مواقع إعادة توطين الممارسات الثقافية. ويتواجد فى هذه الأيام على طول شارع محمد على حفنة من أقل مراتب الفنانين فقط للطبقات الشعبية والذين يؤدون فى حفلات الزفاف والموالد فى عدد قليل من المقاهى وورش تصنيع وبيع الآلات الموسيقية التقليدية مثل العود وآلات الإيقاع. ويمكن أن يجد المرء بعض ورش الحياكة التى تقوم بتطريز ملابس الراقصات. وتعيش بعض الراقصات فى الفنادق المحيطة بالشارع ويترقبون أية ارتباطات مسائية لحفلات الزفاف أو العمل بالملاهي(٢). وليس من اللائق أن تنتظر الفتاة أو السيدة، حتى لو كانت راقصة، فى المقاهى التى لا تزال تعتبر أماكن عامة قاصرة على الرجال. ويعكس هذا المصير الذى آل إليه شارع محمد على قصة صعود وانهيار المركز الحضرى الأوروبى للقرن التاسع عشر، والذى تأسس عن طريق إسماعيل باشا، حفيد محمد على. وقد تدهورت مكانة الشارع والأماكن المحيطة به بحلول نهاية القرن العشرين، شأنه شأن قلب وسط قاهرة "الزمن الجميل"، الذى يرتاده الآن فقط الطبقات الحضرية الشعبية أثناء احتفالاتهم ونزهاتهم. (انظر القاضى والكردانى فى هذا الكتاب للمزيد عن تراث منطقة وسط مدينة قاهرة الزمن الجميل والجهود الحالية لإعادة إحيائها).

وتحل محلات الأثاث والمفروشات وإصلاح السيارات بالتدريج بدل محلات الموسيقى، ولكن لا تزال هناك سوق نشطة للموسيقى، وإن كانت تتسم بصغر الحجم. ويمكن أن يؤم المكان متعهدو حفلات الزفاف، وأصحاب الملاهى، ومديرو الفرق الموسيقية، للبحث عن موسيقيين. ويعج المكان فى الليالى المعتادة لحفلات الزفاف (بصفة أساسية أيام الخميس والآحاد) بالحيوية والنشاط، وتضم أخلاطا جديدة ومتنوعة من الأنشطة تصحبها مشاهد الفنانين وهم يغادرون تلك المقاهى إلى حفلات فى مختلف أحياء القاهرة. وتعتبر هذه المقاهى هى قلب ما يُطلق عليه الفنانون "سوق الموسيقيين"، وهو مكان لتجمعاتهم، ومركز للحفاظ على التقاليد الفنية لحفلات الزفاف، كما هو مكان أيضًا للتعاملات الاقتصادية. وكما قال المطرب "حكيم":

> **لم أكسب نقودًا من شارع محمد على، ولكننى تعلمت الكثيـــر فقط من التعامل مع الموسيقيين. وحتى اليوم، فإننى أقول إن الموسيقى الذى لم يعمل فى شارع محمد على، ليس موسيقيًا على الإطلاق، ولا يمكن أن أثق فيه ليقف ورائى. أى فنان لم يحاول أن يعزف فى الشوارع، ليس فنانًا جيدًا. شارع محمد على هو المدرسة الأساسية.**

وحش ٢٠٠٢.

وعلى الرغم من تأكيدات حكيم، فلم تُعد مقاهى الشوارع هى البوابة السحرية لمتطلبات النجاح. فبعيدًا عن بعض الاستثناءات مثله، فإن الشوارع تؤدى إلى طريق مسدود بالنسبة لمهنة الفن ويبدو أنها قد فقدت كل الأجواء العالمية التى كانت تحيط بها. وكان يتلاقى فى فترات سابقة، السكان المحليون، ونخبة من الفنانين من البلاد، ومن المنطقة بأسرها فى هذه المقاهى ويتفاعلون معًا، ولكن

اليوم، اقتصر عملاء المقاهى على أهل البلاد، وفقد شارع محمد على طبيعته العالمية. وأصبح الشارع مركزًا "للعوالم" وهو مصطلح ازدرائى يشير فى الوقت الحالى فقط إلى بعض العاملين بالفن والراقصات والذين يقومون بإحياء أفراح الشـــوارع. ويتم وصم الشـــارع، فى هذه الأيام، بأنه ينتمى إلى أحياء وسكان القاهرة الفقراء.

وقد تحولت أسواق الفنانين، والآن النقطة المحورية للمناطق الحضرية للرقص والموسيقى العربية العالمية لتنتقل عبر نهر النيل إلى الفنادق الواقعة على شاطئ النيل بالإضافة إلى الملاهى الليلية فى شارع الهرم والتى يتشكل مرتادوها فى الأغلب من المواطنين العرب القادمين من دول الخليج والمملكة العربية السعودية *(Zirbel 2000, 126)*. (برجاء الرجوع إلى الفصل الخاص بأباظة والشنتاوى فى هذا الكتاب لمعلومات أكثر عن كيفية تأثير التدفقات المالية الخليجية وأنماط الاستهلاك على القاهرة). وقد عبّر قدامى الفنانين عن مشاعر الحنين الجارف للماضى المجيد للشارع:

> **كان شارع محمد على ولما يزيد عن ثلاثـــين عامًـــا مختلفًـــا تمامًا عما هو عليه الآن. لقد كان يحمل مظهـــر "الكرنفـــال". فقد كنت تجد بعض الفنانين يدخنون، ويرتدون أحذية لامعة. لقد كانوا ذوى شخصيات مُدهـــشة يـــدخلون الـــسعادة فـــى القلوب، وكنت أحلم بأن أصبح واحدا منهم.**
>
> أحمد، فى مقابلة مع المؤلف، الدرب الأحمر ٢٠٠٠.

تخدم مقاهى شارع محمد على كمواقع للمهنية الاحترافية، وللتواصل الاجتماعى للرجال والمتأصلة بعمق فى المشهد الحضرى، والمناظرة للنقابات المهنية فى المهن الأخرى لتأصيل العزف الموسيقى على نمط الكرنفال فى

مؤسسات عامية نظامية. ويتفاعل الرجال مع النساء فى هذه المهنة، نظرًا لطبيعة الحرفة التى يمتهنونها. فيتعامل الموسيقيون مع الراقصات أو المغنيات من النساء، وهكذا فإنهم يعيدون تشكيل بعض أنماط الفصل بين الجنسين فى العلن وأماكن العمل. ويمنح الاختلاط بين الجنسين مهنتهم بأكملها وهوايتهم التى يمارسونها مسحة من السمعة بعدم الاحتشام أو الإثارة الجنسية.

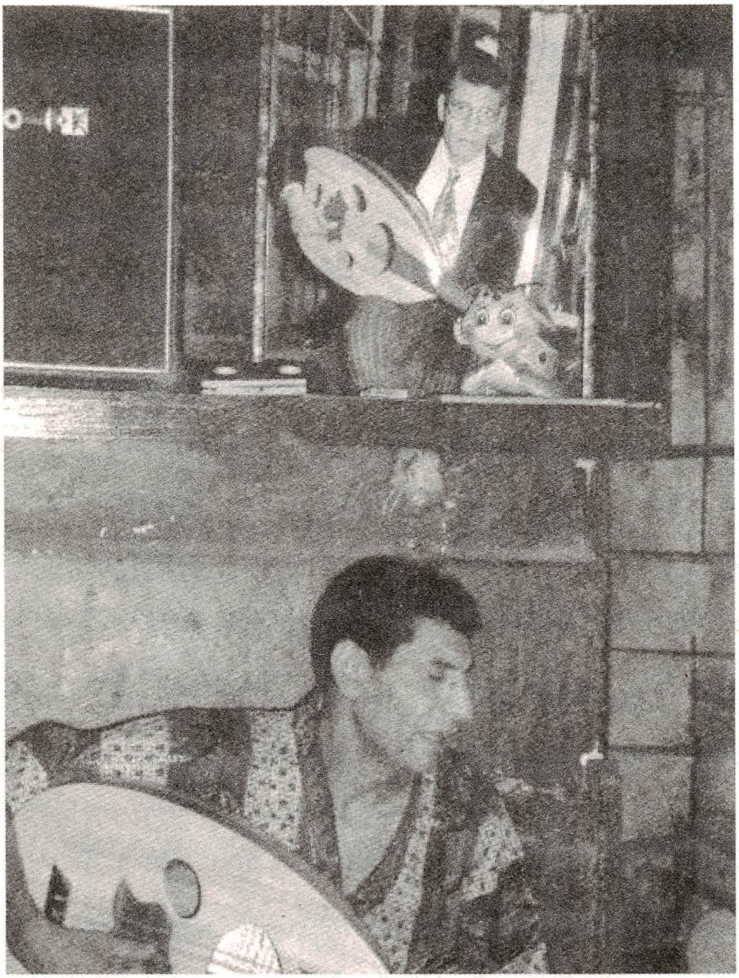


مقهى حلاوتهم بشارع محمد عليّ (تصوير نيكولاس بيوج)

سيرة حياة فنان من شارع محمد عليّ

ويذكر "هوارد بيكر" فى ملاحظته عن فنانى الرقص: "إن العلاقة العدائية بين الفنانين والغرباء تشكل ثقافة الفنانين، كما تنتج بالمثل الحالات الطارئة الرئيسية ونقاط الأزمة فى مسيرتهم الفنية (١٩٩٧، ١٠٢). وكما هو الحال فى شيكاغو، فإن الفنانين فى القاهرة يُظهرون إدراكًا قويًا بالخصوصية الجماعية والتضامن وهكذا فإنهم يشعرون أنهم جماعة لهم خصائص متميزة. ويزداد الطلب عليهم للترفيه فى حفلات الزفاف والمناسبات العامة الأخرى، ولكن الناس يحملون مشاعر متناقضة تجاههم. فمن جانب، يشعرون تجاههم بالغيرة، بسبب الحرية التى يُعتقد أنهم يتمتعون بها، ومن جانب آخر، فإنهم يحتقرونهم بسبب حياة الفسوق التى من المفترض أنهم يعيشونها. "فعلى الرغم من أن أنشطتهم من الناحية الرسمية فى نطاق القانون، فإن أسلوب حياتهم شاذ إلى حد كبير وغير مألوف بالنسبة للكثيرين بحيث يتم اعتبارهم غرباء فى نظر معظم أفراد المجتمع العاديين" *(Becker 1997, 79)*.

وتحاول معظم العائلات أن تثبط همم أبنائها من دخول معترك مهنة الفن، نظرًا لغياب التقييم فى تحديد الأجور فى هذه المهنة. ويتجه معظم الموسيقيين إلى سوق الموسيقى بعد فشلهم فى الدراسة والبدء فى التسكع على هذه المقاهى. ويتعهد أحد قدامى الفنانين، الفنان المبتدئ بالرعاية ويقوم بتعليمه المهارات المطلوبة؛ ثم يتدرب فى أثناء ساعات العمل مع متابعة أداء معلمه فى الأفراح والموالد. ولا تقوم عملية التدريب هذه بالتركيز على نظرية الموسيقى ولكن يتم تدريبه بالسماع والممارسة والخبرة.



المطرب وعازف العود أحمد وهدان تلقى تدريبه فى شارع محمد علىّ
(تصوير نيكولاس بيوج)

ويتدربون على ذخيرة هائلة من الأغاني تتدرج من الأغانى الكلاسيكية الراقية لأم كلثوم أو محمد عبد الوهاب، إلى أحدث الأغانى الشعبية الرائجة. وتعزف الموسيقى بطريقة تخالف تمامًا الطرق التقليدية المعتادة من أجل تقديم التحية وآيات الثناء التى يقوم "النوباتشي" (قائد الاحتفال) بتوجيهها للضيوف. ويتكرر قطع الغناء والموسيقى بانتظام، ورفع الصوت إلى أعلى مستوى، وتشغيل المؤثرات الصوتية، والارتجال المستمر لقائد الاحتفال لمراسم السهرة من أجل توجيه آيات المديح للكرم المالى للضيوف. وتعتبر هذه الأغانى مختلفة تمامًا عن الذكر (وهى أهازيج دينية فى الموالد المحلية – يمكنك الرجوع إلى الجزء الخاص بمادوف فى هذا الكتاب). ومع ذلك، فإلى جانب سرادقات الشيوخ فى احتفالات الموالد، فيمكن للمرء أن يجد العديد من الأماكن الأخرى حيث يتواجد الفنانون لأداء الأغانى الشعبية (مثل المقاهى، والسرادقات، ومنصات المسارح، وغيرها).

وينعكس، تهميش هؤلاء الفنانين، وحتى السمعة المشينة التى تلتصق بهم، فى التيار الثقافى الرئيسى فى كلمات اللغة العربية العامية الازدرائية التى تتم بها الإشارة إليهم مثل "المزيكاتى" (موسيقى رديء التدريب، على العكس من الموسيقار أو المايسترو، أو الموسيقى الذى تلقى تدريبًا مهنيًا راقيًا)، أو "الآلاتى" (جمعها آلاتية، أو الذى يعزف على آلة موسيقية، والمرادف للاحتيال والدهاء). وتأتى هذا الدلالات من سعة حيلة الفنانين الشعبين الذين يكابدون من أجل رزقهم على الرغم من العديد من المشكلات التى يتعين عليهم مواجهتها. ويشير هذا المعنى، من منظور تاريخى أكبر، إلى التمييز الرسمى الذى يتم تطبيقه بين "الآلاتي"، و"الموسيقار الحديث". وقد ألقى مؤتمر القاهرة عن الموسيقى العربية والذى تم عقده فى عام ١٩٣٢ الأضواء على هذا التناقض بين أعضاء معهد الموسيقى العربية، الذى تم تأسيسه فى عام ١٩٢٣، وهؤلاء

الآلاتية. ويشار إلى أعضاء معهد الموسيقى العربية كمصلحين، وانتقاد جهل وتخلف الممارسات الموسيقية للآلاتية المبنى على التدريب السماعى، والذى يّدعون بأنه تسبب فى حدوث اضطراب فى مجال الموسيقى. وعلى الرغم من كل ذلك، فإن هؤلاء الآلاتية أعضاء فى نقابة الموسيقيين التى تأسست فى عام ١٩٢٠. ويستعرض فيليب فيجرو هذا التناقض بسلسلة من المقابلات: نقابة التجار، مقابل المنتمين للمعهد؛ وعامة الناس مقابل البكوات والباشاوات والأرستقراطيين؛ والهواة مقابل المهنيين المحترفين، والآلاتية مقابل الموسيقيين؛ والتقليديون مقابل الموسيقيين المُحدثين؛ ومكان للفجور مقابل مكان للفضيلة؛ والارتباط بميراث شرقى (فارسى ثم عثماني) مقابل موسيقى عربية نقية، ومن قبيل التناقض منتمية إلى طبقة وحديثة (١٩٩٢، ٢٣٢).

وتبرز نشأة مصطلح العوالم، الذى يشير إلى الموسيقيين من الطبقة الشعبية والراقصات، إلى الازدراء الاجتماعى. وبادئ ذى بدء، فإن مصطلح عوالم، هو جمع عالمة "واسعة العلم والمعرفة". وتنبثق هذه الكلمة من مصطلح يطلق على المغنيات والراقصات اللاتى كن يؤدين فى منازل الأرستقراطيين العثمانيين *(Rodinson 1975)*. ولأنهن كن يقمن بهذه الأدوار، فى ذلك الوقت، فى عالم منفصل يضم النساء فقط، فكن يتمتعن بسمعة فنية واجتماعية طيبة أثناء الحكم العثمانى *(Ghunaym 1998, 9)*. وعندما قام الفرنسيون بغزو مصر فإنهم قاموا بنقل "عالمة" إلى الفرنسية "*almee*"، "والتى أصبحت تعنى السيدة المغنية أو الراقصة من الشرق". وقد أشاع فولبرت مصطلح "*almee*" ولكنه خلط ما بينه وبينه الغازية (وجمعها غوازي)، وهن فنانات بارزات من السيدات يقمن بأداء رقصات خليعة أمام الرجال والقيام بالغناء بمصاحبة فرقة من الجنسين، وبذلك كن ينتهكن الأعراف السائدة بالفصل بين الجنسين.

وطبقًا لما يذكره *(Karin Van Nieuwkerk)* "فإن أوج ازدهار العوالم كان مع بدايات القرن العشرين" (١٩٩٥، ٤٩). وكان الطلب شديدًا فى ذلك الوقت على الفنانين والعوالم وذلك لأن العديد من أماكن الترفيه الجديدة قد ظهرت فى القاهرة على النمط الأوروبى، مثل حفلات المقاهى الغنائية، والملاهى الليلية، فى نفس الوقت الذى أُتيحت فيه العديد من الفرص للموسيقى والغناء فى المناسبات الاحتفالية مثل حفلات الزفاف.

ولكن فى سياق العصر الحالى، فإن كلمة عوالم تشير بطريقة مهينة للغاية إلى الفنانين والراقصات الشرقيات الذين يقومون بإحياء أفراح الشوارع (الأفراح البلدي). وعندما تقابلت مع حسن أبو السعود نقيب الموسيقيين، على سبيل المثال، فقد أبدى تذمره من مقالة كنت قد كتبتها باللغة العربية "القاهرة، مدينة العوالم"، معترضًا على ذلك بقوله إن ذلك يشبه تحديد هوية باريس بمنطقة "بيجال"! (تعتبر منطقة بيجال فى باريس وكرًا للمتع المُحرمة- المترجم). ويتلاعب الفنانون فى شارع محمد على بمعانى الكلمات فيقولون ويربطون عوالم ليس إلى "عالمة" ولكن إلى عالم (جمعها عوالم)، وتعنى العالم أو الدنيا. وتنطق كلتا الكلمتان فى اللغة العامية العربية بنفس الطريقة؛ ويحملان نفس حروف الهجاء كل بمعنى مختلف. ولذا يدّعى الفنانون أن كلمة عوالم لا تشير إلى الوسط المريب للفنانين الشعبين والراقصات ولكن إلى العوالم (الاجتماعية) المختلفة التى يدخلونها، ويندمجون فيها، ويواجهونها عندما يقومون بأداء فقراتهم الترفيهية فى أحياء القاهرة. ولأنهم يقومون بأداء فقراتهم للعديد من الأوساط الاجتماعية المختلفة فإنهم يعتبرون أنفسهم شهودًا متميزين للتنوع الحضرى. ويتم الاحتفاء بمقدرتهم على الأداء لمختلف فئات المشاهدين ومن جميع الطبقات، من الفنانين المخضرمين فى شارع محمد على. وتبدو براعتهم الموسيقية والغنائية، وحساسيتهم الاجتماعية – ومقدرتهم على فهم

كافة طبقات المشاهدين وتلبية رغباتهم فى نوعية ما يريدون الاستماع إليه – أمرًا لا غنى عنه فى مهنتهم.

> **أنا أعمل فى كل مكان، فى الأحياء الشعبية، وفى المناطق السكنية العشوائية، وفى أحياء الفقراء، وفى المناطق السكنية المتميزة، ومع اللصوص، والنشالين، ومع البهوات، والأطباء، والمهندسين. ويجعلنى عملى قادرًا على الوصول إلى كل مكان ويتعين على أن أتفاعل مع كل هذه الأنماط البشرية. فإذا ما كان المستوى الاجتماعى الذى أتعامل معه من المشاهدين من الطبقة المرموقة، فإننى أرتفع إليهم ولطريقة حديثهم. وبين الطبقات الأدنى، فإننى أقوم بتكييف نفسى للتفاعل معهم.... كما أن عملى يتطلب أن أقوم بتغيير نمط الأداء الموسيقى ليتكيف مع نوعية المشاهدين. فليس من الحصافة فى شيء أن أقوم بأداء رباعيات الخيام (لأم كلثوم)، أو أغنيات محمد عبد الوهاب أمام مجموعة من ذوى الأذواق الثقافية المتدنية. فلن يتذوقوا أو يستمتعوا بما أقدمه. ولذا فإننى أهبط إلى مستواهم الفنى، وأقوم بتقديم بعض الهراء الفنى.**

مدحت، فى مقابلة مع المؤلف، الدرب الأحمر، ٢٠٠٢.

يعترف خبراء الموسيقى العرقية (أو المختصون بدراسة موسيقى الشعوب)، مثل مارتن سنوكس بأهمية هذه الثقافة والبراعة الموسيقية للفنانين:

> **يعيش الفنانون فى الغالب فى عوالم ثقافية محلية – متنقلة بوضوح. ويرتحلون، وتتميز مهاراتهم الاجتماعية لتماثل مقدرات أولئك الناس الذين يخاطبون مجموعات متنوعة**

ومتفاوتة النشأة الاجتماعية، ويمكن إدراك أهميتهم في الغالب محليًا، وعلى وجه الدقة مقدرتهم على تجاوز العوائق الثقافية لذلك المجتمع (١٩٩٧، ٩٨).

ويتقاسم فنانو شارع محمد على هذه الرؤية. بالإضافة إلى ذلك، فإنهم يعتبرون المقدرة على التحرك داخل "عوالم" مختلفة خاصية متميزة لفنانى شارع محمد على، وهى الخاصية التى لا يتمتع بها الفنانون الآخرون الذين لا ينتمون إلى الشارع، أو أولئك الذين يتلقوا تدريبًا تقليديًا، لأنهم ليسوا على نفس الكفاءة، كما أن التدريب الأكاديمى الذى تلقوه يجعلهم يحجمون عن الارتجال والتكيف مع نوعية المشاهدين. وحتى لو كان بعضهم يكون قد تلقى نوعا من التدريب الأكاديمى فى معهد (بصفة خاصة معهد الموسيقى العربية)، فإن فنانى شارع محمد على لا يعتبرون أنفسهم "أكاديميين". وهذه الكلمة تعنى فى السياق المصرى الدوائر الرسمية القانونية للتدريب الموسيقى، والاشتراك والتدريب فى معاهد الدولة الموسيقية (مثل أوركسترا دار الأوبرا بالقاهرة). ويعتبر الفنانون الشعبيون هم أولئك الذين يجعلون أنفسهم فى قلب العامة من الشعب فى الأعياد، وحفلات الزفاف، واحتفالات الموالد، بينما يستوجب على العامة أن يتركوا عالمهم الذى يعيشون فيه واللجوء إلى أماكن عامة أكثر رسمية وخصوصية، واختيار أنماط جديدة من السلوك حتى يستمعوا إلى أولئك الفنانين الأكاديميين.

لقد ذهبت إلى الكثير من الأماكن، فأنا "صاحب كرسي" في شارع محمد على. وهناك فنانون يقدمون فنونهم داخل حدود الأحياء التى يعيشون فيها، ولكنهم لم يغادروا ذلك الحى. وهم ليسوا بفنانين أو موسيقيين رفيعى المستوى. فليس فى

> **مقدورهم الاشتراك فى حفل يقام فى فندق شيراتون، أو فى أسوان، أو فى احتفال بمولد، أو فى أى مكان خارج نطاق الحى الذى يعيشون فيه. هم قادرون فقط على الأداء فى حفلة زفاف تقام فى شارع من شوارع الأحياء التى يقطنون فيها. لأنهم يعرفون فقط ما يحبه قاطنو الحى. ولكن أولئك الفنانين المنتمين إلى شارع محمد على، هؤلاء المنتمين إلى مقاهى الشارع، دائمًا ما يكونون على أهبة الاستعداد وهم يغادرون منازلهم فى الصباح، إلى أن يذهبوا إلى الإسكندرية أو أسوان، أو الإسماعيلية، أو الأقصر، أو إلى احتفال من احتفالات الموالد، أو استعراض للعرائس المتحركة، أو حفلة عيد ميلاد. فهو جاهز لكل الاحتمالات والتوقعات والأداء فى كل منها.**
>
> أحمد، فى مقابلة مع المؤلف، الدرب الأحمر، ٢٠٠٢.

ولكن، لا يزال فنانو حفلات الزفاف الذين يشاركون فى مواكب الزفاف يعتبرون مهنيين من مرتبة أدنى درجة عن باقى الفنانين فى مصر والقليل منهم هم الأعضاء فى نقابة الموسيقيين، وبصفة خاصة أولئك الذين يشاركون فى الحفلات التى تقام فى أحيائهم فقط. لذا يتبنى فنانو شارع محمد على سياسات مهنية من أجل زيادة شهرتهم وتمييز أنفسهم حتى عن أولئك الذين يقبعون فى أدنى درجات المهارة المهنية. وتمثل سمعة المرء فى الأحياء المكتظة بالسكان، أهمية خاصة فى سلطته المعنوية وحتى فى وضعه الاقتصادى، ولذا فإن الفنانين عن حق يهتمون بالحفاظ على سمعتهم *(Puig 2003)*[٣]. وأفضى طبّال إلى المؤلف، على سبيل

المثال "كيف يمكن لابنى أن يعلن فى المدرسة أن والده عازف على الرق فى شارع محمد علىّ؟ لن يحدث ذلك؛ فذلك أمر شائن" (محمود، فى مقابلة مع المؤلف، الدرب الأحمر، ٢٠٠٢). وربما يقول البعض إن الحياة المهنية فى شارع محمد على تتناقض مع الحياة العائلية، وإن بعض الفنانين يهجرون مهنتهم فى شارع محمد على عندما يشرعون فى تكوين أسرة إذا ما كانت لديهم مهنة أخرى. أما الآخرون، فيحاولون تجنب العمل فى الأحياء التى يسكنون فيها ببساطة، خشية الإقلال من وضعهم الاجتماعى.

وهناك، على الرغم من ذلك، القليل من قصص النجاح لأولئك الفنانين الذين يعملون بانتظام فى أماكن مرموقة كحفلات رمضان الموسيقية أو الحفلات التى تقيمها السفارات. فإذا ما استطاع الفنان أن يهرب من حفلات الزفاف التى تقام فى الشوارع، فإنه يبذل ما فى وسعه حتى لا يعود إليها مجددًا لأنها تنال من مكانته. ويبذل كل فرد منهم جهده للحفاظ على هيبته (البرستيج) ويخطط لنفسه على أن يكون متميزًا عن أقرانه وإثبات كفاءته المتفردة. وقد بدأ أحمد عدوية حياته المهنية، شأنه شأن العديد من المطربين الآخرين، كمطرب للمواويل من شارع محمد على. ويرتبط هؤلاء المطربون ارتباطًا وثيقًا بأوساط الفنانين فى شارع محمد على. ويتجاوز الفترة التى يكون فيها اسمًا مغمورًا، ويوضع اسمه على شرائط الكاسيت، فينال قدرًا من الشهرة فى عالم حفلات الزفاف، ثم يصبح نجم شباك (مؤثرًا على شباك التذاكر). فإذا ما انهالت عليه العروض بما يكفى، فإنه يقوم بتوظيف مدير أعمال، ثم يتخذ لنفسه مكتبًا فاخرًا، فى حى أفضل من شارع محمد على، من أجل المزيد من الترويج لأعماله. ويختلف "سوق الموسيقيين" الذى يضم الفنانين المجهولين الذين ينتظرون أى ارتباط بالعمل كلية عن سوق الفنانين الأكثر شهرة والذين لهم عملاؤهم المعروفون. ويمكن أن يحقق القليل من الموسيقيين والمطربين نجاحًا ماديًا ملحوظًا إذا قاموا بإنتاج أعمال ذات شهرة

طاغية من شرائط الكاسيت للأغانى الشعبية الرخيصة التى يتم إنتاجها محليًا ويحققون قفزة مهنية تمكنهم من الارتباط بأماكن أكثر وجاهة فى سوق الفن.

ويعتبر المطرب ذو الشعبية الطاغية "حكيم" خير مثال لهذا الطريق بفضل مقدرته على الابتعاد عن دائرة ما يسمى "بأغانى الميكروباص" ويطلق عليها هذا المسمى لأن شرائط الكاسيت الرخيصة ذات الميزانيات الضعيفة يتم تشغيلها فى سيارات الميكروباص التى تعمل فى نقل الركاب بين الأحياء. ويرجع النجاح الذى حققه حكيم إلى مقدرته على مزج المشاعر الرومانسية بالأغانى الشعبية التقليدية وتقديم "مواويل جديدة" كشكل جديد ومحكم من الأغانى الشعبية المرتجلة وبالذات فى حفلات الزفاف (ويطلق عليها بالخطأ أغان شعبية فى عالم الغناء: ***The Rough Guide "Lodge 1994" and in the dictionnaire thematique des musiques du monde "Bours 2002"***). وتبعًا لما يذكره مايكل فريشكوف: "هذا النمط هو الاستجابة الغنائية للتحول المتسارع للمدن إلى أشباه القرى: لأذواق عديمى الثقافة، ويتوجه إلى قاطنى الأحياء الشعبية. وقام بعض المطربين من أمثال أحمد عدوية، وحسن الأسمر، وعبده الإسكندرانى بتطوير تراث المواويل الأكثر قدمًا، والزجل (نوع من الغناء الفولكلوري)، وأغانى الزفاف غير المحتشمة، وذلك عن طريق تطوير التوزيع الموسيقى، وتوجيهها لتخاطب الحياة الحضرية بدون طمس الروح الفولكلورية الكامنة فيها، والارتجال، والتفاعل المرن مع المستمعين" (٢٠٠٢، ١٠). ويقوم حكيم الآن فى مصر بالغناء فى مواكب الزفاف بفنادق النجوم الخمس الفاخرة، كما يظهر فى التليفزيون فى حفلات غنائية كبيرة ومع نجوم عالميين من أمثال الإنجليزى الشهير ستينغ. وتُعد شرائط الكاسيت الشعبية التى تنتمى إلى "المواويل الجديدة" ناجحة تجاريًا حتى ولو قُدمت فى البداية فى حفلات الشوارع، وحفلات الزفاف، واحتفالات الموالد ***(Puig and Belleface 2003)***. وقد أدت هذه الزيادة الطاغية فى شعبية شرائط الكاسيت فى الثلاثين عامًا الأخيرة ، فى مصر

مثلها فى ذلك مثل الهند، إلى ظهور ثقافة كاسيت شعبية بديلة تتسم بالضخامة *(Manuel 1993)*.

كان شارع محمد على ولحقبة طويلة من الزمان مكانًا لتجمع مشاهير الفنانين. ويجاهد هؤلاء المتواجدون فى شارع محمد على فى الوقت الراهن الانتفاع من ماضيهم الذى يتوقون إليه من أجل تطوير هيبة مهنتهم العريقة. ولكن طبقًا لما يقوله هؤلاء الفنانون "فإن المصريين يعشقون الفن ويبغضون الفنانين" (أحمد، الدرب الأحمر، ٢٠٠٠). وتُذكرنا هذه الكلمات بتعليق دوايت رينولدز عن الأغانى الملحمية الطويلة لدلتا نهر النيل المصرية: "شكل فنى محترم يتم تقديمه عن طريق فنانين غير محترمين" (١٩٨٩). وعلى الرغم من ذلك، ربما اندمجت تقاليد الملاحم الغنائية الطويلة مع الثقافة الرسمية بطريقة أفضل بكثير نتيجة لتحول الغناء الريفى إلى الفولكلور أكثر من الغناء الحضرى الشعبى. وربما تتغير فى حقيقة الأمر العلاقة ما بين عالم الفن والمجال العام للثقافة فى مصر باستمرار.

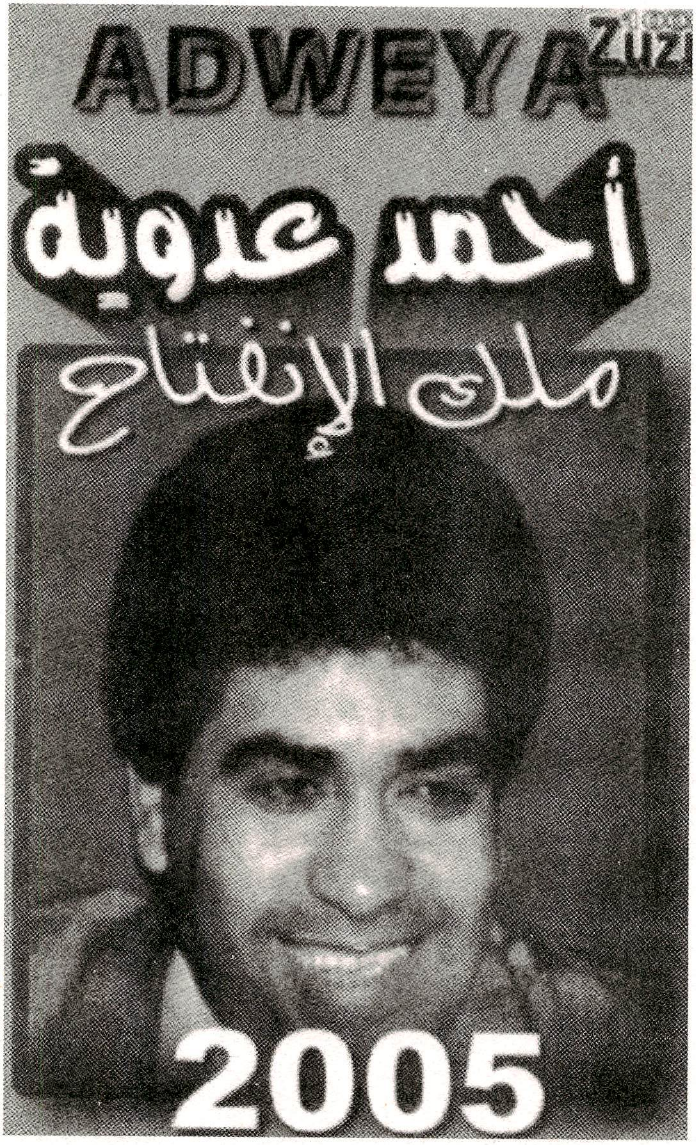
المجال العام للثقافة والغناء الشعبى غير الشرعى

تعتمد أوضاع الفنانين فى عالم الفن على نوع الغناء أو الفن الذى يقومون بتقديمه. ويؤجج الإحساس العام، بالإضافة إلى القبول والتسامح إزاء هذه الأنواع من وسائل الإعلام وأجهزة الدولة الثقافية، النقاش داخل المجتمع الحضرى المعاصر. ويمكن إدراك ذلك للوهلة الأولى من الانقسام والتشرذم الموجود بين الفئات والفصائل الاجتماعية المختلفة داخل عالم الفن المصرى. وكان هناك تنوع نسبى فى المجال الفنى للغناء فى مصر الحديثة فى الثلاثين عامًا الأخيرة. ويهيمن على الإنتاج الغنائى فى عالم اليوم تياران أساسيان: أغنيات مُبتذلة، وعاطفية، وهى تشمل أغان شعبية مُنتجة فى الأستوديو، وأغان حضرية للطبقات الشعبية "المواويل

الجديدة". ويضم التيار الأول مجموعة واسعة من الأغانى الشعبية، وأغانى الرقص الرائجة إلى القصص الغنائية، والتى يتم سماعها فى الإذاعة المصرية ويتغنى بها نجوم من أمثال عمر دياب، ومصطفى قمر، وإيهاب توفيق، وهانى شاكر. وحظرت أغانى المواويل الجديدة من البث بدعوى سوقيتها، وتجد شهرة طاغية فى هذه الأيام من خلال نجمها الصاعد، والذائع الصيت شعبان عبد الرحيم. وتُقدِم الأغانى العاطفية الشعبية المصرية الموجهة خصيصًا لجمهور عريض فى العالم العــربــى، علـــى القليل من المجازفة فيما يخص أصالتها، وكلمـــات أغـــانيها، أو موسيقاها. ويعمد الملحنون إلى المزج بين النغمات الشرقية الأساسية والإيقاعات الخفيفة المستقاة من العديد من المصادر مثل أنماط الألحان الشرقية المُبسطة، والإسبانية أو اللاتينية التى تستند على السلم الخماسى، والتراث النوبى، ضمن اقتباسات أخرى *(Frishkopf 2002)*. ويتجه تسويق الأغانى الشعبية المصرية بصفة أساسية إلى دول الخليج والشرق، على العكس تمامًا من مطربى شمال إفريقيا مثل الشاب ميمى، والشاب خالد، اللذان يتم تسويق أعمالهما فى أوروبا.

وتقوم صناعة الفن للمنطقة العربية والتى تتركز فى القاهرة، ببث الأغانى الشعبية من خلال القنوات الفضائية المملوكة للدولة والخاصة وتدور حول طرح منتجاتها فى الأسواق وإعادة بث كل أغانى الفيديو المهمة والحديثة (برجاء الرجوع للجزء الخاص بصادق فى هذا الكتاب من أجل مناقشة أوسع عن العلاقة بين صناعة الفن فى القاهرة والمنطقة الجغرافية الأكبر فى الشرق الأوســط المحيطـــة بهـــا). وقد طورت فى نفس الوقت أغانى الشارع وأشكال المواويل الجديدة للطبقات الشعبية شبكاتها ووسائل توزيعها الخاصة. ووجد نمط الموال الجديد ضالته فى السوق الرائجة لشرائط الكاسيت زهيدة الثمن ليصل إلى جمهوره، ويتم الاستماع إليه فى الأماكن العامة غير المؤسسية مثل سيارات الميكروباص، والأكشاك، وفى مجموعة كبيرة من حفلات الشوارع، وذلك بعد أن اعتبرت غير شرعية من قِبل

الأوصياء على الثقافة النمطية. وعلى الرغم من أن هذا النمط من الغناء لا ينال أى دعم رسمى، فإن ذلك لا يعنى أنه يفتقر إلى اهتمام وسائل الإعلام – وعلى الرغم من أن هذا الاهتمام يميل إلى الرفض بدرجة كبيرة حيث إن الكثير من وسائل الإعلام تتبنى مواقف عدائية إزاء هذه الأنواع الغنائية وتشن أعنف الهجمات ضدها، وبصفة خاصة لاعتبارات ثقافية. وتركيزًا على الشرعية الاجتماعية للغناء الشعبى، وعكست هذه المجادلات الهجومية التوترات السائدة بين طبقات هياكل المجتمع الحضرى القوية. وربما كان شعبان عبد الرحيم والذى حقق نجاحًا مذهلاً فى سنوات قليلة هو الأكثر تمثيلاً من المطربين لهذا التيار الغنائى. وقد باع مليون ونصف المليون من شرائط الكاسيت فى عام ٢٠٠٠، وبما يساوى مبيعات المطرب عمر دياب وهو من أكبر النجوم المصريين قبولاً فى مجال الغناء الشعبى.



أحمد عدوية مطرب المواويل الجديدة، والذى بدأ مسيرة حياته فى شارع محمد عليّ (تصوير نيكولاس بيوج من غطاء شريط كاسيت)

ينتمى شعبان عبد الرحيم إلى صميم مطربى الفن الشعبى فى الحضر، مثل أحمد عدوية، على سبيل المثال، والذى كان أول مطرب يحقق نجاحًا فى مثل هذا النوع من الغناء. وقد تمرس كلاهما على الغناء قبل ما يقرب من عشرين أو ثلاثين عامًا قبلها فى حفلات الزفاف التى تقام فى الشوارع واحتفالات الموالد. وقد جاء معظمهم من شارع محمد على ومثّل بذلك نموذجًا ناجحًا للآخرين ليقتدوا به. ولم يقم أى منهم بدراسة الموسيقى أو فن الغناء دراسة علمية كما ذكر أحمد عدوية فى معرض حديث له مع جريدة الأهرام ويكلى الأسبوعية، "لقد كانت خبرة الغناء فى احتفالات الموالد والسرادقات هى التى قامت بتشكيل حياتى المهنية بأسرها فى مجال الفن. وقد أهلتنى موهبتى الخاصة، بالإضافة إلى أسلوب حياتى على ذلك النمط إلى ما يعادل دكتوراه الفلسفة فى مجال الغناء. لم أدرس الغناء أو الموسيقى على الإطلاق، إلا من خلال المشاعر، والاستماع إليها، والحياة الشاقة التى عشتها" (الكاشف ٢٠٠١). وتعد الحياة الشاقة مصدر قوة للمطربين الشعبيين. وقد اعتاد شعبان عبد الرحيم العمل فى كى الملابس فى محل للتنظيف. وأخبرنى أحد المعجبين به فى مقهى حلاوتهم بشارع محمد على: "بأنه يجسد مصدر فخر للمكوجي". ويمكن أن تتطابق هوية العمال غير المهرة، والحرفيين، والعاطلين من الشباب والفتيات مع كلمات أغانيه. ويسرد فى أغانيه صورًا نابضة بالحياة للحياة اليومية فى الأحياء الشعبية، أو الكارثة الجديدة لتحطم طائرة مصرية، أو مشكلة الإسكان، أو لمأساة الحرب فى العراق[٤]. وتعد أغانيه توجهًا صريحًا لمدارك الطبقات الدنيا، فضلاً عن الإحساس بالمكان، والمتأصلة جذوره فى أعماق الوعى لدى السكان. ويذكر دائمًا فى حقيقة الأمر، وكما هو الحال بالنسبة للمطربين فى هذا المجال، أماكن رائدة فى أحياء القاهرة الشعبية. وعلى الرغم من أنه يعكس معان مشتركة يقوم بتقديمها فى بعض المجالات، فإن شعبان عبد الرحيم لا يلقى

قبولاً لدى النخبة المثقفة. وتعتبر أغانية بالنسبة للمتخصصين، أو للمنتقصين من قدره، بلا معنى، طبقًا لما يقوله الصحفى محمد الأسيوطى: "إن شعبان عبد الرحيم بالنسبة للثقافة الشعبية المصرية.... تجربة لذوق هابط" (٢٠٠١). ولا يكترث النقاد فى وسائل الإعلام على الإطلاق لسكان الأحياء الفقيرة كما أنهم غير واعين للسخرية الاجتماعية الكامنة فى كلمات أغانيه. وقد تساءلت سكينة فؤاد، وهى صحفية بجريدة الأهرام قائلة: "كيف يمكن أن نقوم ببناء ثقافة فى مصر فى ظل وجود أمثال شعبان عبد الرحيم"، وطالبت بالتدخل الرسمى للمسئولين "لوضع حد لهذا الهراء" (مرسى ٢٠٠١).

ويملأ شعبان مواويله بالكثير من المضامين الاجتماعية والسياسية. ويغلف كلمات أغانية بطبقات من النغمات المتآلفة والألحان على البيانو الكهربائى – وهو الآلة المميزة لموسيقى حفلات الزفاف، والتى حلت شيئًا فشيئًا محل الأوكرديون فى سنوات السبعينيات. ويشبه محتوى أغانيه شكل نوعية أغنيات احتجاج وطنية ظهرت فى سنوات السبعينيات. ومع ذلك، فإن ذلك المحتوى لا يتعرض بأى انتقاد للدول العربية، لأنها تحوى فقط شجبًا لإسرائيل، ودعمًا للقادة العرب (على سبيل المثال كلماته التى تقول: "بأكره إسرائيل وشيمون وإريل شارون وبأحب عمرو موسى"، وشيمون هو شيمون بيريز، وعمرو موسى هو وزير الخارجية السابق لمصر والأمين العام لجامعة الدول العربية). وتحتفظ أغانية بروح الاحتجاج العربية حية فى النفوس ولكنها لا تتحدى الدولة المصرية بطريقة مباشرة، ولكن ربما بالتهكم الضمنى. وحتى ذلك الحد لم يكن هناك أى حظر على شرائط شعبان عبد الرحيم، على الرغم من حظر أغان أخرى له فى أوائل سنوات التسعينيات. وفى أغنيته "كذّاب يا خيشة"!، فقد امتدح وتهكم بازدراء على عالم التضامن الاجتماعى بين الفنانين، المليء بالعمال اليدويين (عمال دهان السيارات، والحلاقون، والنقاشون). وقيل على لسان مطرب فى هذه الأغنية (والذى أُشير إليه

كعامل يدوي) إنه اشتكى للرقيب حمدى سرور، والذى قام بحظر أغانى شعبان (الأسيوطى ٢٠٠١). ولم يكن من المستغرب أن تقوم الحكومة بحظر أغانيه. فعلى سبيل المثال، فإن أشعار أحمد فؤاد نجم انتقدت موضوعات سياسية، واجتماعية، وثقافية مثيرة للجدل فى سنوات السبعينيات والثمانينيات، ووصلت آراؤه إلى قطاع عريض من الجماهير عندما تغنى بها الشيخ إمام ذو الشعبية الطاغية والذى كان ينظر إليه بإجلال كبير، وقام بتسجيل هذه الأشعار بصوته على الرغم من الحظر الرسمى الذى كان مفروضًا على هذه الأشعار.

من الأغنية الحضرية إلى المجتمع الشعبى

تطورت الأغنية الحضرية المعاصرة مع النمو الذى طرأ على المدينة. وقد واكبت التحول الحضرى كما هو الحال أيضًا فى المدن الأخرى فى العالم: "وهكذا فإن ظهور الأغنية الشعبية يعتبر انعكاسًا ونتاجًا لظهور مجتمعات حضرية جديدة مترامية الأطراف والتى كانت بالكاد متواجدة منذ قرن مضى" *(Manuel 1988, 16)*. وقد ارتبطت هذه الأغنيات بشدة بهذه الأحياء كما رأينا فى استعادتنا لتاريخ تمركز الفن مثل شارع محمد على وفى إعدادات الشوارع الحضرية لحفلات زفاف الطبقات الشعبية. وكان الأمر كذلك فى القاهرة، كما هو الحال فى الهند وفى العديد من الثقافات حول أرجاء العالم:

> **واحدة من السمات البارزة لظهور وتطور الأغنية الشعبية هو ارتباطها.... بطبقة معزولة، ومحرومة من حقوق المواطنين المعتادة، ومُهمشة... وهم يتقاسمون وضعًا مشتركًا فى أو خارج محيط مستقر، ومجتمع "محترم" – للطبقات العاملة والمتوسطة المندمجة اقتصاديًا واجتماعيًا.**
>
> *.Manuel 1988, 18*

وقد عمقت النُخب الثقافية والآخرون الذين كان ينتقدون ويرثون لنوع الأغنية الشعبية الحضرية، بناء على ذلك، وفي الكثير من الجوانب، الوصمة التى لحقت بهؤلاء الذين يستمتعون ويدعمون هذا النوع من الغناء: وهم سكان أحياء الطبقات الدنيا المترامية الأطراف، وعلى وجه الخصوص، تلك العشوائيات. وبعبارة أخرى، فإنه لا الأغانى المفضلة لسكان تلك المناطق، ولا حتى السكان أنفسهم – يعتبرون شرعيين فى عيون الطبقة المتوسطة والطبقة العليا من سكان القاهرة. وقد ذكر والتر أرمبريست أن أصدقاءه المصريين "دائمًا ما كانوا يستحسنون "العتبة" كمكان لشراء المستلزمات بأسعار زهيدة (وهى تقع بالقرب من شارع محمد علي)؛ ولكن وسائل الإعلام غالبًا ما تشير إلى هذا المكان كبقعة شاذة تُعرض فيها البضائع المسروقة وتتفشى فيها الأذواق الرديئة" (٢٠٠١، ٢). وعلى نفس المنوال، يتكلم شعبان عبد الرحيم فى إحدى أغانيه وهى بعنوان "حبّطل السجاير"، عن وكالة البلح، وهى منطقة سوق شعبية للملابس تقع بعد منطقة العتبة، وغالبًا ما تذكر فى وسائل الإعلام مقرونة بالأذواق الرديئة.

وقد استتبع استهجان هذه الموسيقى إلى زيادة هائلة فى شرائط الكاسيت زهيدة الثمن فى سنوات السبعينيات. ويذكر أرمبريست أن أحمد عدوية "غالبًا ما يقـابل بالاستهـزاء من قِبل وسائل الإعلام الرسمية وتوصف أغانيه بأنها مبتذلة ولا طائل من ورائها" (٢٠٠١، ٢). بالإضافة إلى ذلك، فعندما كان يتم دعوة شعبان عبد الرحيم للتليفزيون فى شهر رمضان عام ٢٠٠١، فإن المفكرين والسياسيين قد اجتمعوا فى لجنة الإعلام فى مجلس الشعب وقرروا بالإجماع إدانة ظهوره المتكرر فى البرامج ذات الشعبية والرائجة خلال شهر رمضان، وأوضحوا أنه سيكون ذا تأثير سيئ على شباب مصر. وقد ذكر عبد السلام عبد الغفار، رئيس لجنة الإعلام، فى معرض حديثه للصحفى محمد مرسى، أن شعبان عبد الرحيم لا يمثل أى قيمة فنية أو ثقافية" (مرسى ٢٠٠١). وفى نفس المقالة، قال نجيب سرور

رقيب وسائل الإعلام المرئية فى معرض تبريره لحظر أغانى شعبان عبد الرحيم" "من أجل الحفاظ على الذوق العام والفن الراقي"، ولكنه أضاف قائلاً إنه على الجانب الآخر لا يملك أى سلطة على برامج التليفزيون التى يتم عرضها من أجل حظر ظهوره فى هذه البرامج.

ووجدنا فى مناقشة بشأن الشرعية الثقافية للأغنية الشعبية أن بعض النجوم المشاهير من أمثال عادل إمام يدعمون شعبان عبد الرحيم. وتعتبر السينما المصرية فى الأساس صناعة رائجة ويُعد عادل إمام أحد رموزها البارزين. بالإضافة إلى ذلك، فإن شعبان عبد الرحيم قد ظهر فى بعض الأدوار على شاشات السينما، مثل الفيلم الاجتماعى الساخر "مواطن ومخبر وحرامي"، والذى لعب فيه دور اللص الذى يجمع بين عملين، ويعمل أيضًا كمطرب فى حفلات الزفاف فى أحياء القاهرة الشعبية.

ومع ذلك، فإن الثقافة السائدة، هى أن المطربين الشعبيين يعتبرون متخلفين عن رَكب الحضارة أو تقليديين، أو فى حقيقة الأمر كنقيض للحداثة. كما توجه سهام النقد ومن نفس هذه النوعية من الانتقادات، إلى أولئك الناس الذين يحبون أغانيهم: وهم الطبقات الشعبية، أو الشعب. ويمثل ملصق كاريكاتيرى كبير لوزارة الثقافة عليه عبارة "مائة عام من التنوير"، وصورة كاريكاتيرية لثلاثة وعشرين فنانًا ومفكرًا متنوعين، ومعهم القليل ممن يرمزون إلى الناس: هؤلاء هم الرموز المعترف بهم للحداثة المصرية الجديرين بالثقة، والقائمة القصيرة للأبطال المصريين الذين يجب أن يكونوا مألوفين لكل المصريين من خلال نظامهم التعليمي *(Armbrust, 2001, 192)*.

وطبقًا لما يذكره نفس المؤلف، فإنه تم تصوير الحداثة فى ملصق "يحمل معنى مثاليًا للوطنيين المصريين الذين يحاولون وضع الدعامة الأيديولوجية لدولة يمكنها أن تنافس أوروبا بدون أن يكونوا أوروبيين" (٢٠٠١، ١٩٤). وفى هذا

المشروع القومى المرتبط بالترويج لتقدم منظم وعقلانى، فإن الثقافة الحضرية الشعبية يحط من قيمتها ويساء إليها. ورسالتها يتم فصلها بعيدًا جدًا عن "تطور الرؤية الحداثية المتواصلة" *(Armbrust, 2001, 194)*. ويوجه نفس الانتقاد للطبقات الدنيا التى تدان بأنها لا تخضع إلى الانتقال السلس، والمتناغم، والنموذج المثالى المُقنع لنظام الحداثة للمناطق الحضرية. وتبدو هذه الرؤية الحديثة لنظام المناطق الحضرية وكأنها لم تُطبق على أرض الواقع. وعلى النقيض من ذلك، فإن الارتياد الاحتفالى المنتظم للطبقات الشعبية لشوارع وسط مدينة القاهرة فى أمسيات شهر رمضان لا تتوافق مع النظام الحضرى الحديث والذى ينشد محافظ القاهرة تدعيمه فى قلب المدينة. ويعود هذا النظام إلى مفهوم المدينة الرأسمالية كنظام للانتشار الحر، والسلس، يماثل مدينة باريس فى القرن التاسع عشر. ويبذل المسئولين فى مدينة القاهرة جهودا حثيثة من أجل أن تصبح مدينة حديثة، وتنظيم حركة المرور الفوضوية، وحظر إقامة أكشاك بيع السلع والتى تتعدى على الطرق العامة، والتجمعات العامة، والمساومات التى لا تنتهى فى الأسواق. وتعتبر قصيدة "حاتجن" المعروفة لشاعر العامية الشهير بيرم التونسى فى القرن العشرين، ويصف فيها بطريقة ساخرة ولكنها مؤثرة "السلوكيات المُعيبة" فى القاهرة مقارنة "بالسلوكيات المتحضرة فى لندن وباريس[٥]. ولا يزال المسئولون فى القاهرة يلقون باللائمة على سكان القاهرة على نهجهم الفوضوى فى استخدام الأماكن العامة. وبالعكس، فإن الأغانى الشعبية التى على غرار أغانى شعبان عبد الرحيم تطالب بتواجد من أجل مجتمع شعبى حضرى ليس فقط فى الأماكن العامة للتواصل ولكن أيضًا فى المجالات العامة لحركة المرور، حيث يتم تشغيل أغانيه بأصوات عالية فى سيارات الميكروباص والأكشاك المقامة على جوانب الطرق[٦]. وتكتظ شوارع وسط المدينة فى المعتاد بالطبقات الشعبية من سكان القاهرة، وبصفة خاصة عندما يتجولون متمهلين فى شوارعها للتسوق عندما تظل أبواب المحلات مفتوحة حتى

ساعات متأخرة من الليل فى شهر رمضان. ولكن، تعتبر الطبقات المتوسطة والعالية هذه الحشود سوقية، مثلها مثل أغانيها، بل وتمثل لها إلى حد ما نوع من التهديد، لذا فقد تراجعوا إلى أماكن أخرى يرونها أكثر أمانًا وحماية مثل المراكز التجارية للتسوق، والنوادى، والتجمعات العمرانية ذات الأسوار المغلقة والتى تحتوى على وسائل الترفيه لهم ولعائلاتهم(٧). (أنظر الجزء الخاص بأباظة، وديكونينج، والششتاوى، ودينيس فى هذا الكتاب للمزيد عن هذه المنشآت الجديدة التى تمثل النزعات الاستهلاكية لهذه الطبقة العليا – والمتوسطة). وتعكس هذه المبارزة فى المجال العام حول الأغانى، بالإضافة إلى استخدام الأماكن العامة، التوتر القائم بين الصيغة الرسمية، والذاتية المنشأ للثقافة المصرية

خاتمة

كشف لى مدحت أثناء مقابلة لى معه، وهو عازف على الأرغن الكهربى (الأورج) فى حفلات زفاف الشوارع، أنه يقوم بأداء وتقديم "موسيقى الشعب" مثلما فعل أحمد عدوية. ويقول إن هذا النوع من الغناء نوع مختلف عن الأغانى التى تُقدم فى هـــذه الأيام. "حيث تتضمن الأغانى الشعبية الجديدة التى تقدم فى هذه الأيام كلمات لا معنى لها وفقيرة فى موسيقاها. وعلى نفس المنوال، يميز حسن أبو السعود، وهو ملحن للعديد من أغانى أحمد عدوية الناجحة فى سنوات السبعينيات وهو الآن رئيس نقابة الموسيقيين، النمط الموسيقى الخاص به، والذى يطلق عليه الأغنية الشعبية المصرية عن الموال، أو الأغنية الشعبية الحقيقية، بينما لا تبالى وسائل الإعلام المحلية الجماهيرية بمثل هذه الفروق الدقيقة (فى مقابلة معه فى نقابة الموسيقيين، ٢٠٠٤). ويمضى مطربو حفلات الزفاف فى سعيهم الدءوب بحثًا عن الشرعية الاجتماعية والتوقير، بين التيارات الغنائية، ويفصلون ما بين النوع

القديم من الأغنية الشعبية عن نوعية الأغاني الجديدة لشعبان عبد الرحيم، وبالتالى، يعيدون تحديد الأنماط الغنائية وحدود كل منها من أجل بناء استراتيجيات من الشرعية فى عالم الغناء الذى يرزح تحت ضغوط محاولة الحصول على صكوك الشرعية من الجهات الرسمية. ويظل الموضوع الذى على المحك بالنسبة لهؤلاء المطربين هو كيفية تحويل المهارات المُكتسبة فى عالم اجتماعى خارج عن المألوف (حفلات زفاف الشوارع، والموالد، أو سوق شرائط الكاسيت الشعبية) من أجل الوصول إلى الموارد وجماهير العامة من "العوالم" الأخرى للقاهرة. ويبحث المطربون فى الثقافة الشعبية والذين لديهم أهداف واستراتيجيات مختلفة، عن الاعتـــراف عـــن طـــريق التكـــامل والاندماج بمشاركاتهم ومداركهم مع الأنماط الرسمية والشرعية.

كتب عالم الاجتماع الفرنسى آلان باتجى، متتبعًا تحليل هارنيز عن الثقافة، عن ما أسماه "بالثقافات الصغرى" أو الثقافات الخاصة بإقليم معين، والذى يقترب من مفهومى عن الثقافات الذاتية: "على العكس من الثقافات الرسمية، فإنه يتم دائمًا تشييدها وتدميرها، وحتى إذا ما قُدر لبعضها أن تستمر لفترة طويلة نسبيًا، فإنها تكون دائمًا مُعرضة لخطر التبدد والتلاشي" (٢٠٠٠، ٢٤٦). وتتعرض الطبقات الشعبية، والأغنية المصرية لعامية الشارع، لمثل هذا الخطر من التبدد والتلاشى، وبصفة خاصة لأنها تعتمد بصفة أساسية على شرائط الكاسيت وخشبة منصات حفلات الأفراح كوسيلة بث لها. ويتبرأ المثقفون كما تتبرأ مؤسسات الدولة الثقافية من هذه الأغانى، وتعكس هذه الوصمة عملية تشويه السمعة بما تصفه بالسلوكيات "المتخلفة" للطبقات الشعبية المصرية وللأحياء الشعبية نفسها. ولا تثق الدولة الرسمية ولا المؤسسات الثقافية للدولة فى هذه الطبقات ولا ترغب فى مشاركة المجال العام معهم. فهم يخشون التأثيرات السياسية المحتملة لهذه الأغانى، على الرغم من الولاء السياسى المفترض لهؤلاء المطربين مثل شعبان عبد الرحيم. وهم

لا يعيرون انتباهًا فى حقيقة الأمر لكلمات الأغنية ولكن للطريقة التى تدعم شعبيته الوجود الثقافى للجماهير الحضرية فى المجال العام. وتعمل الثقافة من هذا المنظور "لاستثمار النواحى الجمالية مع الأخلاقيات" ***(Constant-Martin 2000, 179)***. وبعبارة أخرى، يمكن أن تعبر الأغنية بالرموز عن الطموحات الكامنة للرغبة فى الاعتراف الاجتماعى من خلال التعبير الثقافى. ويمكن أن نستمع إلى نفس هذه الآمال الطموحة فى الكثير من المناطق السكنية الفقيرة أو العشوائية، حيث يقول الناس عادة فى نقد لسياسة الحكومة والنموذج الاقتصادى السائد والمفهوم ضمنًا: "عايزين نعيش بكرامة". وفى رحلة البحث عن الكرامة، والمتعة والمهرجانات الاحتفالية، فإن "عوالم" القاهرة سيواصلون رحلات العبور بين "عوالم" القاهرة المتباينة والاشتراك فى التعبير عنها جميعًا.

الأعمال المستشهد بها

Works Cited

Abu-Lughod, Janet L. 1971. *Cairo: 1001 Years of the City Victorious*. Princeton: Princeton University Press.

Armbrust, Walter. 1996. *Mass Culture and Modernism in Egypt*. Cambridge: Cambridge University Press.

Arnaud, Jean-Luc. 1998. *Le Caire, mise en place d'une ville moderne 1867–1907*. Arles: Actes Sud, Sindbad.

El-Assyouti, Muhammad. 2001. "Man on the Street." *Al-Ahram Weekly*, 8–14 February.

Battegay, Alain. 2000. "L'espace commun, entre mythe et reconstructions: variations." In *Cultures en ville ou de l'art et du citadin*, 241–54. La Tour d'Aigues: Editions de l'aube.

Becker, Howard. 1997 [1963]. *Outsiders: Studies in the Sociology of Deviance*. New York: The Free Press.

Bours, E. 2002. *Dictionnaire thématique des musiques du monde*. Paris: Fayard.

Constant-Martin Denis. 2000. "Cherchez le peuple: culture, populaire et politique." *Critique Internationale* 7: 169–83.

Danielson, Virginia. 1996. "New Nightingales of the Nile: Popular Music in Egypt since the 1970s." *Popular Music* 15 (3): 299–312.

Flaubert, Gustave. 1986. *Voyage en Egypte, Octobre 1849—Juillet 1850*. Paris: Editions Entente (Impressions de voyage).

Frishkopf, Michael. 2002. "Some Meanings of the Spanish Tinge in Contemporary Egyptian Music." In *Mediterranean Mosaic: Popular Music and Global Sounds*. New York, London: Routledge.

Ghunaym, Muhammad Ahmad. 1998. *Jama'at al-ghuna' wa-al-tarab fi Shari' Siyam bi-madinat al-Mansura: dirasa anthrubulujiya*. al-Mansura: al-Markaz al-Hadari li-'ulum al-insan w-al-turath al-sha'bi bi-Jami'at al-Mansura.

Gillot, Gaëlle. 2002. *Ces autres espaces, Les jardins publics dans les grandes villes du monde arabe: politiques et pratiques au Caire, Rabat et Damas.* Ph.D. diss., Université François Rabelais.

Gordon, Joel. 2003. "Singing the Pulse of the Egyptian-Arab Street. Sha'ban 'Abd al-Rahim and the Pop Politics of Fast Food." *Popular Music* 22 (1): 73–88.

Hannerz, Ulf. 1991. *Cultural Complexity: Studies in the Social Organization of Meaning.* New York: Columbia University Press.

Joseph, Isaac. 1998. *La ville sans qualités.* La Tour d'Aigues: Editions de l'Aube.

El-Kashef, Injy. 2001. "Ahmed 'Adawiya: The King is in the House, This is History and He's Making It." *Al-Ahram Weekly*, 8–14 February.

Lagrange, Frédéric. 1996. *Musiques d' Egypte.* Paris: Cités de la Musique, Actes sud.

Lodge, David, 1994. "Cairo Hit Factory: Modern Egyptian Music: al-jil, shaabi, Nubian." In *World Music: the Rough Guide*, eds. Simon Broughton, Mark Ellingham, Richard Trillo, 184–87. London: Rough Guides Ltd.

Manuel, Peter. 1988. *Popular Music of the Non-Western World.* New York: Oxford University Press.

_____. 1993. *Cassette Culture, Popular Music and Technology in North India.* Chicago: University of Chicago Press.

Mubarak, 'Ali Pacha, 1980 (1888). *al-Khitat al-tawfiqiya al-jadida li-Misr al-Qahira wa-muduniha wa biladiha al-qadima wa-al-shahira.* Cairo: al-Hay'a al-Misriya al-'amma li-al-kitab, Volume III.

Mursi, Muhammad. 2001. "Sha'ban Rules the Airwaves." *Cairo Times*, 6–12 December.

Puig, Nicolas. 2001. "Le long siècle de l'avenue Muhammad 'Ali au Caire: d'un lieu et de ses publics musiciens." *Egypte/Monde arabe* 4/5: 207–23.

_____. 2003. "Habiter à Dûwîqa au Caire. Dedans et dehors d'une société de proximité." *Autrepart, Dynamiques résidentielles dans les villes du Sud: positions sociales en recomposition*, 25: 137–52.

_____. Forthcoming. "Variétés urbaines, Perceptions des lieux et positionnements culturels dans la société cairote." In *Manifestations de l'urbain dans le monde arabe*, ed. J.L. Arnaud. Tunis, Aix-en-Provence: IRMC, Maisonneuve & Larose.

Puig, Nicolas and Jean-Francois Belleface. 2003. "High Notes: The Sentimental Holds Sway." *The Encyclopedia of Modern Egypt*, 81–85. Cairo: The Egypto-File Ltd.

Reynolds, Dwight. 1989. "Tradition Replacing Tradition in Egyptian Epic Singing: The Creation of a Commercial Image." *Pacific Review of Ethnomusicology.* 5: 1–14.

Rodinson, Maxime. 1975 [1960]. "Alima." *Encyclopédie de l'islam*. Vol I, E.J. Brill, Maisonneuve et Larose.
Stokes, Martin, ed. 1997 [1994]. *Ethnicity, Identity and Music*. New York: BERG.
Van Nieuwkerk, Karin. 1995. *A Trade Like Any Other: Female Singers and Dancers in Egypt*. Austin: University of Texas Press.
Vigreux, Philippe. 1991. "Centralité de la musique égyptienne." *Egypte/Monde Arabe* 7: 55–101.
1992. "Le congrès de musique arabe du Caire dans la presse égyptienne, janvier-juin 1932." *Musique arabe, le Congrès du Caire de 1932*, 223–35. Cairo: CEDEJ.
Wahish, Niveen. 2002. "Hakim: From Muhammad 'Ali Street to Radio City Music Hall. The Business of Pleasure," *Al-Ahram Weekly* 607, 10–16 October 2002.
Zirbel, Katherine E. 2000. "Playing It Both Ways: Local Egyptian Performers Between Regional Identity and International Markets." In *Mass Mediations: New Approaches to Popular Culture in the Middle East and Beyond*, ed. Walter Armbrust, 120–45. Berkeley: University of California Press.

الهوامش

١- ينطبق ذلك على المطربين الذين يقومون بإحياء حفلات الزفاف فى الشوارع. ولكن فيما يتعلق بنجم كبير مثل المطرب عمرو دياب فيمكن أن يتقاضى ما يقرب من ١٠،٠٠٠ دولار أمريكى لحفلة زفاف واحدة.

٢- لمناقشة مفصلة عن المطربات والراقصات يمكن قراءة (*Van Nieuwkerk 1995*).

٣- الأحياء الشعبية هى مواقع كبرى للتواصل الاجتماعي والتنظيم المعيارى. وهم يمثلون مساحة من الأخلاقيات والضبط الاجتماعي على بعضهم البعض، ويعتبر تلاصقهم (الكثافة المادية بالإضافة إلى التلاحم الثقافى والاقتصادى والاجتماعي) هو المحرك المتميز لتلك العلاقة بين الأبعاد المكانية والاجتماعية (*Puig 2003, 150-51*).

٤- الشاعر الذى يقوم بكتابة أغانيه هو إسلام خليل محمد، وهو مدرس لغة عربية.

٥- "حاتجن ياريت يا اخوانا ما رحتش لندن ولا باريس (*Puig* تُصدر قريبًا).

٦- يقول عالم الاجتماع الفرنسى إسحق جوزيف إن المكان العام للتواصل (مكان الخطابة)، والمكان العام للتجوال (بين آخرين لا يعرفهم) هما بعدان، يعتمدان بصفة أساسية على المكان العام (١٩٩٨، ٤٢).

٧- يوضح ج. جيلوت قائلاً: فى منطق الفصل ورفض جعل المكان العام كمكان لعرض مشهد الفروق الاجتماعية، فإن الطبقات العليا من الناس تترك المكان العام للفقراء" (٢٠٠٢، ٢٢٥). ولذا فإنه بالنسبة للطبقات الحضرية العليا "فإن تشكيل المكان اليومى يتميز بمجموعة من الأماكن المغلقة التى تشكل حمايتها معضلة من نوع ما... لذا فإن كل عمليات النزوح هى مجرد انتقال الحيز الخاص من مكان إلى آخر" (٢٠٠٢، ٢٣٤).

القاهرة – بعدئذ ؟

خاتمة

قاهرة من؟

نزار الصياد

قاهرة من؟ تثير هذه المجموعة من الدراسات التي أُجريت بواسطة هؤلاء الخبراء الباحثين عن القاهرة المعاصرة هذا السؤال المهم. أي قاهرة نتحدث عنها وباسم من؟ فكما يشير هذا الكتاب هنالك الكثير من "القاهرات"، والكثير من مدن "القاهرة" الأخرى داخل حاضرة القاهرة نفسها. فهناك حقًا مدينة العمال النازحين، مدينة العشوائيات، والتي تحتل مساحة كبيرة من حجمها؛ والقاهرة، مدينة الجيوب الحضرية التي لا مثيل لها والتي يشعر سكانها بأنهم يعيشون في عالم آخر؛ أم قاهرة التجمعات العمرانية ذات الأسوار المغلقة، والمراكز التجارية الحضرية الحصرية التي تنقل زائريها إلى عالم آخر لا ينتمي لمدينتهم؛ أم قاهرة المهاجرين من وطنهم والخبراء الذين يقضون جل حياتهم لمحاولة فك طلاسم المدينة وفهمها.

وكما تشير مقدمة هذا الكتاب بوضوح، فقد جاهد الباحثون من أجل تحليل الأسطورتين الشعبيتين الشائعتين عن القاهرة؛ المدينة كمقبرة، وككيان ميت مفرط في السلبية أقرب إلى متحف مفتوح للمومياوات في الهواء الطلق ويشغلها سكان من العبيد الهادئين؛ والمدينة كقنبلة، كيان من المتناقضات الجسيمة التي تأوي عددا ضخمًا من "عرب الشوارع" والتي يمكن أن تنفجر في أي وقت. وكنت أقوم بكتابة هذه الخاتمة في زيارة قمت بها للقاهرة عندما قررت أنا أتجاذب أطراف الحديث

عنها مع أحد أصدقائي المصريين، وهو مهندس معماري ومخطط يعمل في إحدى الوزارات. ومستحضرًا روح الدعابة التقليدية لدى المصريين، أعلن صديقي عدم موافقته لرأيي. وأجاب: "القاهرة ليست مقبرة، وهي ليست بالضبط قنبلة؛ إن القاهرة هي قنبلة داخل مقبرة". ومضى في توضيحه بينما كنا نقود سيارتنا بجانب ما يُعرف بمدينة الموتى، والتي تؤدي بالنسبة للكثيرين من الفقراء وظيفة الحي السكني. "نحن نشبه المومياوات في القاهرة، فنحن أحياء داخل أكفان. ولكن بالنسبة لنا، فإنه الموت، المُحتفظ به بعناية، بل ويتم الاحتفاء به. وربما نستيقظ من رقدتنا المميتة هذه في يوم من الأيام. وربما يحتاج الأمر إلى قنبلة ليحدث ذلك الأمر". وبدلاً من أن توجه إليه الإهانات بفكرة أن مدينته هي إما مقبرة أو قنبلة، فإن صديقي المصري بدا وكأنه يعتنق كلا التشبيهين كنقطة بداية في طريق محاولة فهم طبيعة مدينته. وجعلني ذلك أعتقد أن أساطير القاهرة ربما تكون ذات جدوى، ليس فقط كتصورات حضرية، ولكن أيضًا كأدوات استقصاء، بمعنى أن تسمح لنا بأن نغوص في أعماق تجربة القاهرة الحضرية.

ولـــم ينجح أي كتـــاب منذ صدور كتاب باحثة الاجتماع الأمريكية جانيت أبو لغد: القاهرة المدينة الظافرة، في الإمساك بخيوط أبعاد قاهرة أواخر القرن العشرين كما فعلت في هذا الكتاب. وبينما كنت أمضي في قراءة مساهمات الباحثين في هذا الكتاب، تذكرت الوصف المستفيض لإدوارد ويليام لين "عادات المصريين المعاصرين وأنماط حياتهم"، ولكننا هنا في كتاب جانيت نقرأ تصويرًا دقيقًا لحياة وعادات أهل القاهرة السابقين بدون النظرة الاستشراقية التي صبغت ملاحظات لين. وأشارك الباحثين في هذه الكتاب نظرتهم المتفائلة وهم يتعهدون بمنهج بحث "كلية القاهرة". ولا يعتريني أدنى درجة من الشك في أن مستقبل العالم الحضري لا يقبع في لندن، أو نيويورك، أو طوكيو، أو مدن العالم الأخرى في الشمال، ولكن في دول العالم الثالث في بومباي، والقاهرة، وسان باولو؛ وهذا ما

يجعل هذا الكتاب ومنهجه ذا شأن عظيم. فإذا ما كانت دراسة مدينة شيكاغو في سنوات العشرينيات والثلاثينيات قد أدت إلى ظهور "مدرسة شيكاغو لعلم الاجتماع الحضري"، ودراسة مدينة لوس أنجلوس في سنوات الثمانينيات والتسعينيات قد أدت إلى ظهور "مدرسة لوس أنجلوس للجغرافيا الحضرية"، فإنه تحدونا آمال عريضة أن تقدم "مدرسة القاهرة الجديدة للدراسات الحضرية" كلا من المادة الجوهرية والرؤى المنهجية المطلوبتان لمنطق تأويل العلاقات الحضرية بالرأسمالية المتأخرة للعالم الثالث في مستهل القرن الحادي والعشرين.

وبالتالي، هل القاهرة مدينة عالمية حقًا؟ تقدم مساهمات الباحثين في هذا الكتاب – وعن حق – إجابات عديدة ومتناقضة عن هذا السؤال. وعلى الرغم من ذلك، فإن مساهماتهم الجليلة لا تكمن فقط في تفنيد ذلك الافتراض ولكن في التساؤل الذي تطرحه وبقوة عن معنى "العالمية" في العالم الثالث. وبينما يقول بعضهم إن هناك فارقا هائلا بين العالمية "الحقيقة" لمدينة من العالم الأول مثل لندن، والعالمية "المرئية" للقاهرة، فإن هذا الكتاب يحاول تفنيد هذا التأكيد. ويبرهن على أن هناك حقًا مشروعًا للمواطنة الفعالة في القاهرة، وأن القاهريين أنفسهم وربما بوسائل متعارضة – يرتبطون خارج مجالات المؤسسات التقليدية، بحداثة فريدة من نوعها، ومدركين تمامًا بالتيارات العالمية والعابرة للقارات. وهم يقومون بإعادة كتابة التاريخ المصري والهوية المصرية عن طريق توظيف الاستراتيجيات العالمية والعابرة للقارات. وعلى الرغم من ذلك، فإن التساؤلات التي تظل بلا إجابة واضحة تشمل: لماذا لا تزال مصر (والقاهرة التي تُشكل ربع سكان مصر) غير قادرة على تطوير ثقافة سياسية جديدة والمظاهرات المكانية التي تصل إلى أبعد من المظاهر التقليدية، والإحياء الديني، والمناوئة للحداثة؛ هل يمكن لمطالبات جديدة بالمواطنة لأن تستجيب ببساطة للتهديد الملموس للإمبراطورية الأمريكية المتصاعدة بأنماط ديمقراطيتها البديلة – المهيمنة كيفما تكون؟ ولا يجب

أن يقوض هذا التهليل، على أي حال، المقدرة الهائلة لسكان القاهرة التي أظهروها في التفاوض في عالمهم الاجتماعي وإعادة تشكيلهم للأماكن العامة.

وليست القاهرة، شأنها شأن المدن التاريخية، استثناءً في إعادة صياغة تاريخها، وتكوين منهاجها، وتسهيل استخدام تراثها التاريخي. وسيدرك أي شخص له معرفة كافية بالتاريخ الحديث لمدينة القاهرة بسهولة أنها قد صاغت نفسها من أجل عيون السائحين ورضاهم. وربما كان الاختلاف الوحيد في عالم اليوم، أن عملية إعادة الصياغة تظهر آلية جديدة بين الدولة، وشعبها، والمؤسسات البازغة للمجتمع المدني، ووكالات التنمية العالمية، وقوى الرأسمالية العالمية.

وغالبًا ما يتم التغيير في القاهرة ببطء، وربما لا يتم إدراكه لأول وهلة. ووجدت نفسي مع أصدقائي من السائحين الأجانب، في زيارة قمت بها مؤخرًا لأهرامات الجيزة العظيمة، والدرة الفريدة في مجوهرات الآثار المصرية، محاطًا بمجموعة من طلاب المدارس العامة والقادمين من أحد أحياء القاهرة الفقيرة. واستقر في يقيني وأنا أستمع إلى ملاحظات الطلاب بينما هم يهبطون من هضبة الهرم بأن عامة المصريين لم يعودوا ينظرون إلى الأهرام كرمز أساسي لميراثهم التاريخي، كما أنهم لا يقومون بربط التاريخ الفرعوني كجزء من هويتهم المعاصرة (كما كان الحال في بواكير – وأواسط القرن العشرين). وتعتبر أهرامات الجيزة العظيمة، بالنسبة للكثير مـــن المصريين، ببساطة بقايا أثرية لحقبة ماضية، والتي لا تعني أهميتها بالتفنيد التحليلي للحقبة المعاصرة. وليس من الضرورة أن تكون هذه ظاهرة حديثة: فقد لاحظ المقريزي المؤرخ الكبير للعصور الوسطى (منذ أكثر من ستمائة عام) أن معاصريه من المصريين قد أبدوا مشاعر مماثلة.

ويثير هذا بالنسبة لي القضية النهائية وربما الأكثر أهمية في دراسة قاهرة اليوم، وبالتحديد حداثتها. ويصور مارشال بيرمان في كتابه "كل ما هو صلب يتحول إلى هواء" وبطريقة تدعو للإعجاب كيف أن حداثة باريس وسانت

بطرسبرغ في أواسط القرن التاسع عشر كانت تنبني على تقاطعات الشوارع المتسعة التي تم إعدادها حديثًا - والتي غالبًا ما كانت يتم اقتطاعها من النسيج التقليدي لمدينة القرون الوسطى. وكانت هذه الأماكن العامة الجديدة تسمح للأثرياء والفقراء على حد سواء أن يجتمعوا سويًا في تواصل مادي بأساليب جديدة وغير مألوفة. ويوضح بيرمان كيف أن تلك الحداثة المتشابهة الظاهرة للعيان في كلتا المدينتين استأثرت بمعان مختلفة: ففي باريس كانت حداثة اللقاءات في داخل نفس الطبقة المتجذرة في تقاليد تحررية خاصة، بينما يقول بيرمان إنها كانت في سانت بطرسبرغ "حداثة التخلف" وتحمل الأشكال الظاهرة للحداثة ولكنها تفتقر إلى تقدمها؛ تتميز في الغالب بمزيج من التقليد الأعمى والغيرة. وتثير هذه التناقضات الأسئلة التالية: هذه المراكز التجارية الحضرية في قاهرة اليوم، حيث تختلط السيدات المُنقبات مع اللواتي ترتدين أقل القليل، هي الشوارع الواسعة الجديدة لحداثتها؟ هل تحدد هذه الأماكن حداثة مصرية بديلة أو فريدة من نوعها والتي يمكن أن تمثل الشرق الأوسط الأكبر على اتساعها في بواكير القرن الحادي والعشرين؟ هل يمكن أن نطلق على هذا التعبير الجديد "حداثة العصور الوسطى"؟ ربما يمكن أن تعالج الإجابة على هذه الأسئلة في كتاب جديد.

وأخيرًا، يجب أن نقر بأننا كباحثين قد قمنا بخلق أساطير جديدة، حتى ونحن نحاول أن نتحدى تلك الأساطير القديمة. وقد قام الباحثون المساهمون في هذا العمل حقًا بتصوير كيف أن "خلق عوالم جديدة" في القاهرة قد ساهم في "خلق مفردات جديدة". وتظل القاهرة، في نهاية الأمر، ليست مقبرة، ولا قنبلة، ولكنها بكل بساطة كائن حي يقوم بتغيير جلده مع مرور الزمن.

الأعمال المستشهد بها

Works Cited

Abu Lughod, Janet. 1971. *Cairo: 1001 Years of the City Victorious.* Princeton, N.J.: Princeton University Press.

AlSayyad, Nezar. 2004. *The End of Tradition?* London: Routledge.

AlSayyad, Nezar and Ananya Roy. "Medieval Modernity: Citizenship in Contemporary Urbanism." *Applied Anthropologist* (Fall 2005), 25: 2.

Berman, Marshall. 1982. *All That is Solid Melts into Air: The Experience of Modernity.* New York: Penguin.

المساهمون في سطور:

إريك دينيس: باحث في الجغرافيا في المركز الوطني للبحوث العلمية بباريس، باريس جوسيو، دينيس ديدروا في مختبرات *(Sociétés en développement dans l'espace et dans le temps)* وكان في السابق مسئولاً عن مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية. وتركز كتاباته على آليات الحياة الاجتماعية والعقارات لسكان القاهرة، المستوطنات السكنية غير الشرعية، التحولات الحضرية المصرية، مدى إمكانية حصول المصريين على الخدمات. وهو يقوم في الوقت الحالي بإجراء أبحاث في السودان.

إليزابيث أ. سميث: عالمة الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وزميل دراسات ما بعد الدكتوراه في مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة كاليفورنيا، بيركللي، والتي كتبت عن التراث، والسياحة، والهوية القومية في أطروحتها في عام ٢٠٠٥ التي قدمتها لجامعة نيويورك، "روافد في تيار الحضارة: العنصر، والعِرق، والانتماء الوطني بين النوبيين في مصر".

أمنية الشاكري: أستاذ مساعد التاريخ بجامعة كاليفورنيا، دايفيس، وترتبط اهتماماتها البحثية بتاريخ علم الاجتماع في مصر وتشكيل الحداثة الوطنية للحقبة

ما بعد الاستعمارية. وتتضمن كتاباتها "المختبر الاجتماعي العظيم: إصلاحيون ومثاليون في مصر القرن العشرين" (تحت الطبع).

أنا مادوف: أستاذة الجغرافيا في جامعة طوروس، وكانت في السابق مسئولة عن إدارة المرصد الحضري للقاهرة والمناظر لمركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية (مركز بحثي فرنسي)، وشاركت في تحرير "الأعياد ورحلات الحج في العالم العربي" (٢٠٠٥)، و"التسلية واللهو في المجتمعات الحضرية" (٢٠٠٥).

أنوك دي كونينج: باحثة في معهد هولندا الملكي للدراسات منطقة جنوب شرق آسيا والكاريبي. وقد استكملت أطروحتها المعنونة "أحلام العولمة(*): المكان والطبقة، وقضايا المرأة لدى الطبقة المتوسطة في القاهرة". جامعة أمستردام، والتي تقدم استكشاف الأجناس العِرقية عن تشكيلات التحولات الطبقية في سياق التحرر الاقتصادي.

بول عمار: عالم سياسى ومتخصص فى الإثنوغرافيا الحضرية، وهو أستاذ فى قسم الدراسات العالمية بجامعة كاليفورنيا، سانت باربارا – تتضمن مؤلفاته: الشرق الأوسط والبرازيل (٢٠١٤)، أرخبيل الأمن(٢٠١٣).

بيترا كوبينجر: أستاذ مشارك الأنثروبولوجيا (علم دراسة حضارة الإنسان) في كلية مونماوث وتكتب عن موضوعات: المكان، السلطة، والعولمة في القاهرة. وقد قامت بتحرير موضوع خاص عن المدينة والمجتمع (٢٠٠٤) بعنوان "التجمعات السكنية ذات الأسوار المغلقة والأشكال

(*) صدرت ترجمة هذا الكتاب تحت عنوان "التحضر العشوائي" عن ز القومي للترجمة بالاشتراك مع دار العين للنشر – القاهرة ٢٠٠٩.

الأخرى من العزل الحضري" والتي تضمنت مشاركتها، "المساحات الخضراء الحصرية: التجمعات السكنية الجديدة ذات الأسوار المغلقة في القاهرة".

جليلة القاضي: متخصصة في التخطيط الحضري ومديرة الأبحاث في معهد البحوث للتنمية بفرنسا. وتتضمن إصداراتها عن التخطيط العمراني وترميم التراث "عفوية التحول الحضري في القاهرة" (١٩٨٧)(*)، و"التحول الحضري في العالم العربي" (١٩٩٨)، و"مدينة الموتى"، القاهرة ٢٠٠٢ (يصدر قريبًا).

دايان سينجرمان: أستاذ مشارك العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وقد سبق لها أن كتبت عن السياسات المصرية، وقضايا المرأة، والسياسات غير الرسمية في كتابها: سُبل المساهمة: في الأسرة، والسياسات، والشبكات في الأحياء الحضرية للقاهرة (١٩٩٥). بالإضافة إلى التنمية والتغيير وقضايا المرأة في القاهرة: نظرة من داخل الأسرة (١٩٩٦).

دليلة الكرداني: مهندسة معمارية ممارسة، وأستاذة الهندسة المعمارية في كلية الهندسة بجامعة القاهرة. وهي معنية بإجراء الأبحاث بنفس الاهتمام الذي تبديه تجاه الممارسة الفعلية في ميادين الترميم، والتراث، والتصميم، وقد نالت العديد من الجوائز في العديد من المسابقات المعمارية.

(*) صدرت ترجمة هذا الكتاب عن المركز القومي للترجمة تحت عنوان "التحضر العشوائي"

سعيد صادق: أستاذ منتسب في علم الاجتماع والعلوم السياسية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وممثل المعهد الفنلندي في الشرق الأوسط في مصر. وكان لفترة طويلة مستشارًا إعلاميًا للعديد من المنظمات العالمية، ومعلقًا سياسيًا حرًا للإعلام العربي.

فاني كولونا: المديرة الفخرية للأبحاث بالمركز الوطني للبحوث العلمية في باريس، الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية، كما كتبت عن الإسلام الشعبي الجزائري في الآيات التي لا تقهر (١٩٩٥)، وعن المفكرين المصريين المعاصرين في روايات من المحافظة المصرية (٢٠٠٤).

فرحة غنام: أستاذ مساعد علم الأنثروبولوجيا في كلية سوارثمور، وقد كتبت عن العولمة، والممارسات المكانية، والنزوح، والهجرة، وقضايا التمييز ضد المرأة، والهوية في كتابها "إعادة صنع الحداثة: المكان، والانتقال، وسياسة الهوية في قاهرة العولمة" (٢٠٠٢)، و"الصحة والهوية في مصر" (٢٠٠٤).

فينسنت باتيستي: باحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية في مركز الدراسات والوثائق القانونية والاجتماعية بالقاهرة، يقوم بقيادة فريق الأبحاث عن الأماكن العامة (المنتزهات ومنطقة وسط المدينة)، كما يعاون في تحرير كتاب عن مصر المعاصرة، آخر مؤلفاته هي "حدائق في الصحراء، تطوير الممارسات وواحات المعرفة، جيرد التونسية" (٢٠٠٥).

كاترين ميللر: زميل وباحث في معهد البحوث والدراسات العربية والإسلامية في آيكس أومبروفينس، وقد تخصصت في اللغويات الاجتماعية واللغويات الأنثروبولوجية، وبصفة خاصة عن مصر والسودان. ومن بين إصدارتها الأخرى فإنها تقوم حاليًا بتحرير: "الأرض، والعِرق، والشرعية السياسية في شرق السودان" (٢٠٠٥).

كارولين ويليامز: باحثة مستقلة نشرت أعمالا كثيفة عن الفن الإسلامي والهندسة المعمارية في مصر، بما فيها الآثار الإسلامية للقاهرة: الدليل الإرشادي (الطبعة الخامسة)، وفيديو من أربعة أجزاء بعنوان: "القاهرة ألف عام وعام من الفن والهندسة المعمارية".

ليلا فيجنال: باحثة جغرافية، حاليًا باحثة في المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي. وتعمل على دراسة تأثير العولمة على حواضر الشرق الأوسط.

منى أباظة: أستاذ مشارك علم الاجتماع بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. وتتضمن أعمالها عن الشبكات الإسلامية العالمية وثقافة الاستهلاك في مصر: "مجادلات عن الإسلام والمعرفة في كل من ماليزيا ومصر (٢٠٠٢)، التعليم الإسلامي: مدارك وتبادلات، طلاب إندونيسيا في القاهرة (١٩٩٤)، صورة المرأة الريفية المتغيرة في مصر (١٩٨٧)".

نزار الصياد: أستاذ العمارة والتخطيط ورئيس مركز دراسات الشرق الأوسط، بجامعة كاليفورنيا، بيركللي. وهو مؤلف ومحرر العديد من الكتب، والتي تتضمن: "مدن وخلفاء (١٩٩١)، أشكال من الهيمنة (١٩٩٣)، التطوير الحضري المهجن (٢٠٠٢)، تقاليد استهلاكية، وصناعة التراث (٢٠٠١)، تحويل القاهرة إلى العصور الوسطى (٢٠٠٥)".

نيكولاس بوييج: باحث في الأنثروبولوجيا، معهد البحوث للتنمية بفرنسا. وقد كتب عن التغييرات الاجتماعية في تونس في "استقرار البدو والمجتمعات الحضرية المستقرة في توزر" (٢٠٠٣)، ويقوم في الوقت الحالي بدراسة العلاقة بين سكان معسكرات اللاجئين في صابرا وشاتيلا وبيروت.

والتر أرمبريست: زمالة دراسات ألبرت حوراني للشرق الأوسط الحديث من كلية سانت أنتوني، بجامعة أكسفورد. وهو مؤلف "الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر" (١٩٩٦) ومحرر "الوساطة الشاملة: مناهج جديدة للثقافة الشعبية في الشرق الأوسط وما ورائها" (٢٠٠٠).

ياسر الششتاوي: أستاذ مشارك الهندسة المعمارية في جامعة دولة الإمارات العربية. وقد كتب عن التحولات الحضرية في الشرق الأوسط في كتابه "تخطيط مدن الشرق الأوسط" (٢٠٠٤)، وكذلك في نظرية الهندسة المعمارية في الستار الغامض: الشفافية، والمشربية، والهندسة المعمارية "جريدة تعليم الهندسة المعمارية، ٢٠٠٣).

المترجم فى سطور:

يعقوب عبد الرحمن يعقوب

- حاصل على شهادة الترجمة من كلية التعليم المستمر بالجامعة الأمريكية بتقدير عام جيد جدًا، كما حصل على دورات متعددة في المحاسبة باللغة الإنجليزية، وكذلك على دورات متقدمة في اللغة الإنجليزية.
- قام بمزاولة أعمال الترجمة مع أحد مراكز الترجمة والنشر الخاصة في المجالات المختلفة ولفترة طويلة، كما شارك أثناء عمله بالمركز في ترجمة العديد من الكتب في مناحي المعرفة المختلفة.
- عمل مترجما ببنك القاهرة الشرق الأقصى قبل أن يتم خصخصة البنك- ثم عمل بعدها لفترة كبيرة مترجما مستقلا.
- عمل مصرفيا في البنك المصري الأمريكي في العديد من أقسام البنك- قبل أن يقوم بتغيير وجهته إلى مجال الترجمة، وأكسبه عمله في مجال البنوك خبرة كبيرة في مجالات الترجمة الاقتصادية والقانونية.
- مترجم كتاب "فرسان الإسلام وحروب المماليك" الصادر عن المركز القومي للترجمة.
- كاتب مقال فى جريدة المصريون ثم فى جريدة الشعب.

التصحيح اللغوى: أشرف عويس
الإشراف الفنى: حسن كامل